الأوائل
قرأوا فوصلوا لنقرأ حتى نصل

الكتاب الأكثر
مبيعاً

الكتاب الأكثر
جدلاً

هل المخطوطات القديمة التي وُجِدَتْ في فرنسا تكشف الحقيقة المُروِّعة؟

الدم المقدس
الكأس المقدسة



ميشيل بيجنت MICHAEL BAIGENT
هنري لنكولن HENRY LINCOLN
ريتشارد لي RICHARD LEIGH

ترجمة وتعليق
محمد الواكد



mohamed khatab

سورية - دمشق - ص ب 10181

هاتــف : 00963 11 44676270/1/2

فـاكـس : 00963 11 44676273/4/5

جــوّال : 00963 933 411550 / 00963 933 327951

00963 988 629948

البريد الإلكتروني : ***alawael@scs-net.org***

موقع الدّار على الإنترنت : ***www.daralawael.com***

الدَّم المُقَدَّس

الكَأس المُقَدَّسَة

ميشيل بيجنت، ريتشارد لِي
وهنري لِنكُولن
ترجمة وتعليق : مُحمَّد الواكد

HOLY BLOOD
HOLY GRAIL

Michael Baigent
Richard Leigh
And
Henry Lincoln

الأوائل
2008

الفهرس

مُقدِّمة المُترجِم

كما سنُلاحظ؛ هُناك قُوَّة خفيَّة تُحارب الكَنيسَةَ، التي استعبدتْهَا، كما تعتقد، واتَّهمتْهَا بدم السَّيِّد المسيح، وهذه القُوَّة الخفيَّة هي نفسها تدَّعي أنَّها من السُّلالة المَلَكيَّة الميرُوفيَّة... هذه القُوَّة السِّرِّيَّة نفسها زوَّدت المُؤلِّفين بمعلومات سرِّيَّة، لطالما حيَّرت الباحثين؛ وذلك لكي يقوموا بتأليف هذا الكتاب، الذي يحتوي حقائق تظهر لأوَّل مرَّة علىٰ الوُجُود.

أعتقد أنَّ أحد المُؤلِّفين تناول الطُّعْمَ الذي وضعتْهُ تلك القُوَّة الخفيَّة، بعد ذلك؛ جلب معه آخرين ممَّنْ تناولوا الطُّعْمَ، ولكنْ؛ بنكهة مُختلفة.

كنتيجة؛ حاول هؤلاء الباحثون معرفة مصدر ذلك الطُّعْم بدافع الفُضُول، ورُبَّما بدافع الشُّهرة والمال؛ لأنَّهم سيُؤلِّفون ـ بلا شكٍّ ـ أعمالاً كثيرة، وبرامج أكثر عن اكتشافاتهم المُتوقَّعة. ولكنَّهم؛ بعدما أمسكوا بطرف الخيط، وقادهم ذلك الخيط إلىٰ أصحابه، ماذا حصل؟

«أعتقد» أنَّ هؤلاء الباحثين «مُؤلِّفي الكتاب» أُقنعوا بمبادئ أُخرىٰ، وبأدلَّة، جعلتْهُم ينقلبون عن مبادئهم، التي شرعوا في بحثهم من أجلها، ثُمَّ أُقنعوا بأنَّهم سيحصلون علىٰ المال والشُّهرة، بالإضافة إلىٰ إشباع فُضُولهم باطِّلاعهم علىٰ الأسرار الغامضة المُحيِّرة.

والنَّتيجة كانت هذا الكتاب. هذه فَرَضيَّة، وقد تكون هُناك فَرَضيَّة أُخرىٰ، وهي أنَّ المُؤلِّفين رُبَّما هُم ـ بالأصل ـ من صميم تلك القُوَّة الغامضة. أو ـ رُبَّما ـ هُم بلا مبادئ، كُلُّ ما يبحثون عنه هُو الشُّهرة، وذلك بأنَّهم ينشرون معلومات فريدة لم يكتشفوها، بل أُطلعوا عليها كما أعتقد. أستشهد بما يقوله المُؤلِّفون ممَّا يدعم وُجهة نَظَري نوعاً ما:

ليس من الكافي أنْ يُقيِّد المرء نفسه إلىٰ الحقائق بشكل خاصٍّ. علىٰ المرء ـ أيضاً ـ أنْ يعرف تشعُّبات ونتائج الحقائق، كتلك التّشعُّبات والنَّتائج التي أشرقت عبر القُرُون ـ في أغلب الأحيان ـ علىٰ شكل أُسطُورة وخُرافة. صحيح أنَّ الحقائق ـ بذاتها ـ قد تُحرَّف بمُرُور الوقت، كاهتزاز الصَّدىٰ بين المُنحدرات، ولكنْ؛ إنْ كان الصَّوت بذاته لا يُمكن تحديد مكانه، فإنَّ الصَّدىٰ ـ مهما كان مُشوَّهاً ـ لرُبَّما سيُشير إلىٰ الطَّريق المُؤدِّية إلىٰ ذلك الصَّوت.

باختصار؛ الحقائق سَقَطَتْ كالأحجار في بركة التَّاريخ. تختفي بسُرعة، وفي أغلب الأحيان؛ بدُون أثر. لكنَّها تُولِّد تلك الموجات التي ـ إنْ كان منظور المرء واسعاً بما فيه الكفاية ـ تُمكِّن المرء من أنْ يُحدِّد ـ بدقَّة ـ المكان الأصلي لسُقُوط الحصاة. مُوجَّهاً بالموجات؛ قد يتمكَّن الشّخص من أنْ يغوص، أو يجرف، أو يتبنَّىٰ، أيَّ منهج يرغب به. الفِكْرَة هي أنّ تلك الموجات تسمح للشّخص بتحديد المكان الذي ـ رُبَّما ـ لا يُمكن تحديده، أو استعادته بطريقة ثانية.

أصبح من الواضح بالنِّسبة لنا ـ الآن ـ أنَّ كُلَّ شيء درسناه أثناء تحقيقنا لم يكن إلَّا موجة، الموجة التي ـ بعد أنْ راقبناها بشكل صحيح ـ وجَّهتْنَا إلىٰ حجر واحد رُمي في بركة التَّاريخ قبل ألفَيْ عام.

فيما بعد؛ وعندما تتطلَّب الحاجة، ستُرمىٰ حجرة ثانية وثالثة... أمام مجموعة جديدة من «المُكتشفين!» وستقودهم الموجات إلىٰ المزيد من تلك الأسرار؛ ليتمَّ نشرها في مُؤلَّفات مُوجَّهة لخدمة تلك القُوَّة الخفيَّة، التي رمت الحجر، أو «الحجارة».

مَنْ هي تلك القُوَّة السِّرِّيَّة التي تتحكَّم بالعالم، وبالمُلُوك، وبالأُمراء، وبالرُّؤساء؟!

مَنْ هي تلك القُوَّة الخفيَّة التي تمتلك هذا الكَمَّ الوفير من المعلومات السِّرِّيَّة والنادرة؟

مَنْ هي القُوَّة الخفيَّة التي تُحارب الكَنيسَة، التي بادلتْهَا الهُجُوم؟!

أترك لكَ ـ عزيزي القارئ ـ مُتعة اكتشاف الحلِّ بنفسكَ. وستُلاحظ أنَّ هُناكَ تحيُّزاً من قِبَل المُؤلِّفين لفئة مُعيَّنة في كافَّة أنحاء الكتاب. اكتشفْ مَنْ هي تلك الفئة، التي هي الحلّ.

المعلومات الموجودة في الكتاب مُوثَّقة، ومُعظم الأفكار في النُّسخة الإنكليزيَّة الأصليَّة أُشيرَ إلىٰ مراجعها، كما هُو الحال في مُعظم الكُتُب الأجنبيَّة. بكلمة أُخرىٰ؛ كُلُّ فكرة، أو معلومة، أو اكتشاف... له مرجع يُسجَّل في نهاية الكتاب كمُلحق. ولكنَّ ذلك شديد التَّعقيد للقارئ العَرَبي؛ لذلك؛ لا يعمد المُترجمون إلىٰ ترجمتها، وخُصُوصاً أنَّها تتعلَّق بدوائر حُكُوميَّة وأرقام ووثائق مُعقَّدة بالنِّسبة لنا. ولكنَّ ذلك لا يمنع التَّطرُّف الذي اتَّبعه المُؤلِّفون. مثلاً؛ إنْ وُجد قماش من نوع ما، وقُمتَ بحياكة ثوب ما، ألا تعتقد أنَّه لو أُعطي القماش نفسه إلىٰ شَخْص آخر سيقوم بحياكة ثوب مُختلف، حتَّىٰ لو أنَّه استخدم القدر نفسه الذي استخدمتَهُ؟!

باختصار؛ المعلومات المُتوفِّرة في هذا الكتاب هي حقيقيَّة، ولكنْ؛ رُبَّما لو اعتمد عليها مُؤلِّفون آخرون لاستطاعوا ـ أيضاً ـ قلب الموازين. أُكرِّر أنَّ هـذا رأيـي الشَّخـصي، رُبَّـما لكُـلِّ شَـخْص رأي مُختلف. عزيزي القارئ؛ حَكِّمْ نفسَكَ.

التَّحدُّث عن الكتاب يحتاج إلىٰ كُتُب. ولـن أتَّبـع الطَّريقـة التَّقليديَّـة في التَّنويـه إلىٰ مُحتويـات الكتاب؛ لأنَّ الفهرس كاف لأداء هذه المهمَّة.

علىٰ أيَّة حال؛ المعلومات قيِّمة، وثمينة، ونادرة، وكما وصفتْهُ إحدىٰ المصادر بأنَّه أعظـم إنتـاج أدبي للقرن العشرين، فصاعداً!

أخيراً؛ يجدر الإشارة إلىٰ أنَّكم ـ أعزَّائي القُرَّاء ـ رُبَّما ستجدون بعض المُصطلحات والتَّسميات التي منها ما يظهر لأوَّل مرَّة، والتي منها ما ظهـر، ولكـنْ؛ باعتقـادي بطريقـة خاطئـة؛ أعنـي بـذلك التَّرجمة. لقد اتَّبعتُ أُسلُوباً علْميَّاً وشاقَّاً لمُحاولة التَّوصُّل إلىٰ أفضل وأسهل طريقـة للتَّرجمـة الـصَّادقة والحَرْفيَّة والسَّهلة علىٰ القارئ العَرَبي.

وهُنا؛أودُّ طرح بعض الأمثلة:

الميرُوفينجيُّون، أو الميرُوفينجينيُّون، لابُدَّ أنكَ ـ عزيـزي القـارئ ـ صـادفتَ هـذه التَّسميات كثيراً في التَّراجم والموسوعات والكُتُب العَرَبيَّة...، وسترد كثيراً في كتابنا هذا.

من وُجهة نَظَري تُعدُّ هذه التَّرجمة خاطئة، علىٰ الرّغم من أنَّ التَّسمية الأصـليَّة بالإنكليزيَّـة هي «Merovingian»، فبعد البحث والتَّقصِّي وجدتُ أنَّ أصل الكلمة مُشتقٌّ من زعيم هـذه الـسُّلالة المَلَكيَّة العريقة، وهُو ميرُوفي «Merovee». وطبقاً للُّغة العَرَبيَّة، وانطلاقاً مـن هـذا الاسـم؛ نجـد أنَّـه بإمكاننا أنْ نُسمِّي سُلالته بالميرُوفيِّيْن. ألا تعتقدون أنَّ ذلك أسهل للقارئ، وأدقُّ في المعنىٰ؟ بالطَّريقـة نفـسها التـي حوَّلنـا فيهـا اسـم مـيرُوفي إلىٰ ميرُوفيِّـيْن، قـام الغـرب بتحويـل كلمـة «Merovee» إلىٰ «Merovingian»، ولكنَّ هذا لا يعني أنْ نتعقَّب قواعدهم اللُّغويَّة حَرْفيَّاً، وبالتَّالي؛ تُصبح سُـلالة ميرُوفي هي الميرُوفينجينيِّيْن!

مثـال آخـر هُـو كلمـة سُـلالة «Carolingian»، فـلا يـصحُّ أنْ نقـول الكَـارُولينجينيِّين، أو الكَارُولينجيِّين، بل نقول الكَارُولينيِّين، الذين سنتحدَّث عنهم لاحقاً في الكتاب.

كما أودُّ التَّنويه إلىٰ أنَّني حاولتُ ـ قدر الإمكان ـ التّعليـق في هـوامش الـصَّفحات علىٰ أسـماء ومُصطلحات و... بقدر الإمكان، الأمر الذي تطلَّب ـ بلا شكٍّ ـ عنـاءً كبيراً، وذلـك لهـدف واحـد هُو سُهُولة الفَهْم، ومُتعة القراءة، والتَّوصُّل للفائدة المَرجوَّة، وقد قُمـتُ بتكـرار تلـك التّعليقـات في أماكن عديدة، حتَّىٰ لا يعود القارئ للتّعليقات السَّابقة، والبحث عنها مرَّة ثانية.

وفي ختام مُقدِّمتي؛ أتوجَّه بالشُّكر العميق لدار الأوائل، التـي كَلَّفَتْنِـي بترجمـة هـذا الكتـاب، بعدما اطَّلَعَت الدَّارُ علىٰ النُّسخة الإنكليزيَّة.

هل السَّيِّد المسيح تزوَّج، وله ولد؟!

هل أحفاده أحياء اليوم؟!

(أنْ تسمِّي كتاب الدَّم المُقَدَّس «الكَأس المُقَدَّسة» بأنَّه كتاب مُثير للجَدَل هُو انتقاص للحقيقة... مزاعم الكتاب واجهت عاصفة ناريَّة دينيَّة).

- صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيُون.

(هامٌّ جدَّاً... علىٰ خلاف العديد من المُؤرِّخين المُعاصرين، (مُؤلِّفو هذا الكتاب) يُخبروننا بأنَّ السِّرَّ الذي يقود العالم - هُو - ليس رأس مال، أو مكسباً شَخْصيَّاً، أو شيئاً ماديَّاً. بالأحرىٰ؛ هُو فكرة غير تقليديَّة مجيدة، بقيت حيَّة لقُرُون).

- فيلادلفيا إنكوايرر.

(ثَوريٌّ، واستفزازيٌّ... سواء عُدَّ دليلاً حاسماً، أو - ببساطة - توثيقاً ساحراً للفكرة، كتاب الدَّم المُقَدَّس «الكَأس المُقَدَّسة» سيفتنُ القُرَّاء كُلَّهم).

- بيكر آند تايلُور بُوك ألبرت.

(فَرَضيَّة مُدهشة... قابلة للنِّقاش إلىٰ حَدٍّ كبير).

- بابليشير ويكلي.

(إنْ كُنتَ تُحِبُّ أُحجيَّة مُعقَّدة من مدرسة (ماذا لو) للتَّخمين التَّاريخي... ستكون مُتأكِّداً من استمتاعكَ بهذا الكتاب).

- لُوس أنجليس هيرالد اكزامينر.

(رأي غريب).

- هيُوستن كرُونيكل.

(عمل استفزازيٌّ جدّاً للصّحافة الاستقصائيَّة).

.بُوكليست

(مفهوم كُلِّيٌّ ـ نسيج مُرعب من الإثارة التَّاريخيَّة... قُدِّر له أنْ يُصبح كلاسيكيَّاً غامضاً).

.مجلَّة فيت.

été tranquille ـ Le jour du mi

Brule au centre de I'estoile,

Ou miroitée Ia mare dedans

Son coeur doré Nymphaea montre clair.

Nostres dames adorées

Dans l'heure fleurie

Dissoudent les ombres ténébreuses du temps

JEHAN L'ASCUIZ

يومٌ؛ مُنتصف الصَّيف الهادئ،

يحترق في مركز النَّجم؛

حيثُ تلألأت البركةُ في داخله،

قلبه الذَّهبي نيمفي (1) يبدو جليَّاً

سيِّدتنا (العذراء) المعبودة

في السَّاعة المُزدهرة؛

حيثُ تتحلَّل ظلال الزَّمن الدَّكناء

جُون لاسكُويز.

(1) نسبة إلى Nymphaeas؛ أيْ الحُوريَّات الشَّبقات جنسيَّاً في الأُسطُورة الإغريقيَّة.

مُقدّمة إلى النُّسخة ذات الغلاف الوَرَقي

في 18 يناير/ كانون الثَّاني عام 1982، تمَّ نَشْرُ كتاب «الدَّم المُقَدَّس والكَأس المُقَدَّسة» في إنجلترا. بعد خمسة أسابيع، في 26 فبراير/ شُباط، ظهر في الولايات المُتَّحدة.

في الشَّهر الذي نَشَرْنَا فيه الكتاب في كُلِّ بلد، وجدنا أنفسنا وكأنَّنا وسط سيرك. لقد كَتَبْنَا الكتاب الذي عرفنا أنَّه سيكون جداليّاً في بعض النَّواحي. توقَّعنا بأنَّه سيُنتقَدُ بالطُّرُق العاديَّة - في المُراجعات والنَّقْد للاهتمامات اللَّاهُوتيَّة، والتَّاريخيَّة، التي تحدَّيناها ضمنيّاً - إلَّا أنَّنا لم نتوقَّع بأنْ نحصل علىٰ انتباه أكبر ممَّا تتلقَّاه العديد من المنشورات عادةً.

بحَيْرَتنا وارتباكنا - علىٰ أيَّة حال - وجدنا أنفسنا أنَّنا نجذب قَدْراً كبيراً من الشُّهرة (أو بدقَّة أكثر، السُّمعة السَّيِّئة) كما لو أنَّنا نُنظِّم - شَخْصيّاً - انقلاباً في الفَاتيكَان.

لم نتلقَّ التَّنقيح والتَّدقيق فقط، بل أحرزنا حالات رُعب كبيرة قابلة للتَّصديق؛ إذْ إنَّ العديد من القَصَص الإخباريَّة والمقالات الصُّحُفيَّة المُطوَّلة ملأت الصَّفحات الأُولىٰ من الصُّحُف المُختلفة.

كان وقتاً هادئاً: الأُمُور كانت هادئة نسبيّاً في بُولندا؛ لم يتمّ إطلاق النَّار مُؤخَّراً علىٰ أيَّة شَخْصيَّات عامَّة؛ والأرجنتين لم تكن - لحَدِّ الآن - قد غزت جُزُر فُوكلَند[1].

في غياب الأُمُور الأكثر هَولاً، أصبحنا أعزَّاء أجهزة الإعلام. رُدُود الأفعال والاستجابات انسكبت بمُستويات غزيرة إلىٰ الصُّحُف، وقد شملت الذين نشروا كتابنا، وعُملاءنا، وشملتْنَا نحنُ أيضاً.

طيف الرُّدُود كان واسعاً جدّاً؛ بحيثُ بدا أنَّ العديد من الكُتُب المُختلفة - كُلِّيّاً - قد أشارت إلينا. في حالة واحدة مُنفردة كان هُناك رُدُود أفعال، تمَّ تلخيصها في رسالة ما، وقد مجَّدتْ كتابنا علىٰ أنَّه العمل الأعظم في القرن، حُكْم - لسُوء الحظِّ - لا نستطيع التَّجرُّؤ علىٰ الإقرار به.

في الجهة المُعاكسة؛ كان هُناك بيانات وتصريحات بأنَّ كتابنا هُو الأسوأ. من النَّادر أنْ وُجد في تاريخ النَّشْر الأخير عدد كبير كهذا من الـ«دُون كيشوت»، الذين يُهاجمون - بحماس - طاحونةً صغيرةً واحدةً.

(1) (جُزُر فُوكلند تقع جنوب شرق الأرجنتين (بريطانيَّة). المُترجم).

مُعظم الغضب ترسَّب عبر سلسلة حلقات الـ BBC، والذي فيه قام «باري نُورمان» بمُواجهتنا ـ سويَّة ـ مع «هيُو مانتيفير»، أُسقُف برمنغهام، والمُؤرِّخة «مارينا وارنر».

بنوع من السَّذاجة، وبقبولنا بأنْ نكون كالحَمَل الذي يُساق، ويرضخ للذَّبْح، قبلنا دعوة الظُّهُور في البرنامج. المُنتج طَمْأنَنَا ـ بشكل جدِّيٍّ ـ بأنَّنا سنشترك بمُناقشة ستسمح ببعض الاستكشاف الجدِّيِّ لنتائج كتابنا.

لم يكن لدينا عِلْم ـ آنذاك ـ بأنَّ تعريف كلمة «مُناقشة» من قِبَل المُنتج الذي دعانا هُو «مُراوغة». ومن خلال تعريفنا الخاصِّ لهذه الكلمة بدا أنَّنا وقعنا ـ بشكل خاطئ ـ ليس في مُناقشة، بل في كمين خاصٍّ، ومُنظَّم، يضعنا موضع التَّحقيق والاستقصاء، من قِبَل أشخاص مُميَّزين.

بعد أنْ لخَّص «باري نُورمان» بعض الكلمات التي تمُتُّ بصلة ضئيلة لكتابنا، الآنسة «وارنر» والأُسقُف مضيا في التَّلويح، شَذَرَ مَذَرَ، وقد رتَّبا ـ مُسبقاً ـ لفيفةً من التُّهم الطَّويلة والعريضة بما فيه الكفاية لإقرار إعدام الزَّنادقَة[1].

عملنا ـ وكذلك نحنُ ـ بتبديل للاستعارة، وجدنا أنفسنا قد خضعنا ـ فجأة ـ لهُجُوم خاطف. طيف واسع من العُمُوميَّات والتَّفاهات المُتحذلقة كان قد انصبَّ علينا، كما لو أنَّه سرب من طائرات دفاع الجوِّ الألماني.

كان بإمكاننا ـ عَمَليّاً ـ أنْ نسحقهم كُلَّهم. في الحقيقة؛ قُمنا بسَحْق عدد كبير من تلك الطَّائرات، إلَّا أنَّه من السَّهل ـ ولا يحتاج الأمر إلَّا للحظات ـ لكي ينطلق الصَّوت بادِّعاءات تَسمُ الكتاب بأنَّه غير قابل للتَّصديق، لا مُبال، يعتمد على أبحاث ومراجع ضعيفة...

في الواقع؛ الأمر يحتاج إلى وقت أطول لدَحْض مثل هذه التُّهم. المرء يجب أنْ يقوم بذلك خُطوة خُطوة، وأنْ يستشهد بالأمثلة المُعيَّنة، وعليه أنْ يتورَّط وينخرط في تفاصيل ومُراوغات أكاديميَّة، هدفها إفادة ذلك البرنامج، وبالتَّالي؛ القناة التّلفزيونيَّة التي تبثُّه؛ لأنَّه ـ وكما نعلم ـ أنَّ القناة التّلفزيونيَّة تبتهج ـ بشكل أكبر ـ بالنِّقاش الحادِّ، وحمَّامات الدَّم المُثيرة، بدلاً من التَّبادلات الجافَّة للمعلومات.

لكُلِّ ستَّة اعتراضات مُقدَّمة من قِبَل الآنسة «وارنر» والأُسقُف، سُمح لنا بالإجابة عن

(1) (إعدام الزِّنديق: جُملة الموت التي كانت تُتلى على الزِّنديق من قبَل محكمة الاستقصاء الإسبانيَّة. الشَّخص المُدان كان يُحرَق على وَتَد. المُترجم).

اعتراض واحد في الاستُوديُو؛ وعندما بُثَّ البرنامج في السَّابع عشر مـن ينـاير/ كـانون الثَّـاني، حتَّـىٰ العديد من الأجوبة التي سُمحَتْ لنا كانت قد استُوصلَتْ. كُلٌّ منَّا لم يحصل إلَّا علىٰ تعليق قـانوني، أو تعليقَيْن، وذلك كُلُّ ما في الأمر.

في النَّتيجة؛ «المُناقشة» التي حضرها مُشاهدو الـ BBC كانـت مُختلفـة جـدَّاً عـن «المُناقـشة»، التـي حدثت ـ في الحقيقة ـ في الاستُوديُو.

عدد من النَّاس علَّقوا ـ بعد ذلك ـ بأنَّنا لم نُعطَ فُرصة كبيرة للكلام.

في الواقع؛ نحنُ أُعطينا فُرصة أكثر بقليل من تلك التي كانت ظاهرة، لكنَّ أغلب الذي قُلناهُ سـقط علىٰ أرض الخياطة[1].

تحدث مثل هذه الأشياء ـ بشكل ثابت ـ في عالم التّلفزيون؛ عالم ألفناه؛ لدرجة أنَّنا لم نُفاجـأ. الـشَّيء المُؤسف هُو ضياع بعض اللّحظات الهزليَّة الرَّائعة بلا رجعة. علىٰ سبيل المثال، في أحد النّقاط سـأل «بـاري نُورمان» الأُسقُف: سواء كانت كُتُبٌ كهذه تُشكّل خطراً فعليّاً أم لا؟ «بالتَّأكيد»، أجاب الأُسـقُف، الـذي قرأ فصلَيْن ـ فقط ـ من الكتاب. صرَّح ـ أيضاً ـ بأنَّ كتابنا فيـه استغلال وقـح للجـنس والإثـارة. صَـمْتٌ مُذهل خيَّم علىٰ الاستُوديُو. الجنس؟ هل حقّاً كَتَبْنَـا أيَّ شيء حـول الجـنس؟ نظرنـا إلىٰ بعـضنا الـبعض بذُهول، شبه مُتعجّبين؛ سواء كانت الطَّابعة مُخطئـة إلىٰ درجـة أنَّهـا أدرجـت بـضعة صـفحات مـن دليـل «Kama Sutra»[2] في كتابنا، أم أنَّها استَبْدَلَتْ أحد نُصُوصنا بصُورة عارية لداويّ[3] عار.

بقـدر مـا عرفنـا كتابنـا، وُفقـاً للمقيـاس الجنـسي، صُـنِّف عـلىٰ أنَّـه في مُـستوىٰ أدنـىٰ مـن «كَفَن تورين»[4]، الذي ـ علىٰ الرّغم من أنَّه صُورة أماميَّة كاملة لرجل عار ـ لم يسبق أنْ جذب الكثير من الاهتمام الشّهواني. هزَّ «باري نُورمان» رأسه بسُرعة، كما لو أنَّه ينفض الماءَ عن أذنَيْه. حتَّىٰ الآنـسة «وارنر» بدت مُحرجة بشكل واضح.

---

(1) (يُشبِّه الكاتبُ الاستُوديُو بصالة الخياطة، وأنَّ الحديث الذي جرى تمَّتْ حياكته بما وجدوه مُناسباً. المُترجم).

(2) (تقنيَّات الجنس والمُضاجعة دُرسَتْ في الثَّقافات المُختلفة مُنْذُ الأوقات القديمة. «Kama Sutra» هُـو أحـد أفـضل الأدلَّة الجنسيَّة القديمة المعروفة. كُتِبَ في الهند، في القرن الثَّاني قبل الميلاد. يُنـاقش الـسِّمات الرُّوحيَّـة للجـنس، ويُقدِّم العديد من التّقنيَّات الجنسيَّة لتحسين مُتعة الاتِّصال. المُترجم).

(3) (الداويّ: واحد الدَّاويَّة، أو فُرسان الهَيكَل. المُترجم).

(4) (قطعة من القماش مُثيرة للجَدَل، والمُسمَّاة بلاتينيَّة الكَنيسَة الفاتيكَانية (القماش المُبلَّل بالعَرَق المُقدَّس)، وهي قماشة من القُطن طُولها 4 أمتار و63 سم ، وبعرض متر و10 سم ، موجودة في كَنيسَة بمدينة تُورين الإيطاليَّة، مُنْذُ أنْ عُثر عليها قبل 1687 عاماً).

نوعاً ما ـ ولسُخرية القدر ـ حاولنا التَّحقيق في أيِّ الكُتُب ـ بالضَّبط ـ هي التي قرأها الأُسقُف. قبل أنْ نتمكَّن من القيام بذلك؛ تدخَّلت السّماوات علىٰ هيئة تقني دخل بعجلة إلىٰ الاستُوديُو، وطلب بأنْ نُصوِّر المشهد ثانية. شيء ما ليس علىٰ ما يُرام، شرح لنا بأنَّ عفريتاً عطَّلَ الجهاز التّقني. سأل «باري نُورمان» سُؤاله وُفقاً لذلك مرَّة ثانية. أدرك الأُسقُف ـ الآن ـ أنَّ عليه أنْ يسدَّ فمه آنيّاً، بيدَيْه، وقدمَيْه، بدلاً من أنْ يُبلِّل أصابعه برأس لسانه. بعد أنْ مُنح فُرصة ثانية، تراجع بسُرعة. هل كتابنا خطر فعلاً؟ لا، علىٰ الإطلاق، أجاب بنقاء ساروفي[1].

علىٰ العكس؛ هُو كان واثقاً بأنَّ المسيحيَّة ستُثبت بأنَّها متينة بما فيه الكفاية لمُقاومة التَّحدِّي الذي شكَّلناه.

بما أنَّنا لم نُخف أيَّة رغبة في هَذِم المسيحيَّة، يُمكننا أنْ نشترك معه في تفاؤله فقط.

كما قُلنا، هذه السّلسلة كاملة، بالإضافة إلىٰ مقاطع أُخرىٰ تمَّ اقتطاعها كُلّيّاً ممَّا تمَّ بثُّه. ولكنْ؛ إنْ كانت سلسلة الحلقات قليلة الشَّرَف في التَّحرير، فذلك يُمكن أنْ يُنسَب إلىٰ ظُرُوف مُخفَّفة مُختلفة: صيغة البرنامج، والنَّقص في الوقت، وضرورات التّلفزيون كوسيط. ومع ذلك؛ بعد كُلِّ شيء، كَتَبْنَا كتاباً عرفنا بأنَّه سيكون مُعرَّضاً للهُجُوم والتَّشويه. ما لا يُمكن عُذره ـ علىٰ أيَّة حال ـ هُو مُحاولة الـ BBC الظَّاهرة ـ جعل دُوق «ديفونشير» يبدو مُضحكاً، والتي بدت بأنَّها قضيَّة شُهرَة لمُنتج برنامجنا. في كتابنا ـ والتَّعبير دقيق جدّاً ـ نُصرِّح بأنَّه يبدو أنَّ بعض أعضاء عائلة «ديفونشير» لديهم بعض الأسرار.

هذا البيان كان مُستنداً علىٰ موادَّ تعود إلىٰ القرن الثَّامن عشر، بالإضافة إلىٰ المُلاحظات من قِبَل عُضو من عائلة «ديفونشير» ـ من شجرة العائلة، لا يرتبط ـ بشكل مُباشر ـ بالدُّوق مُطلقاً.

أوضحنا ـ بصبر، وبشكل جادٍّ ـ كُلَّ ذلك إلىٰ مُنتج البرنامج، الذي أصرَّ ضاغطاً علىٰ المسألة. لكنَّه كان مُصمِّماً علىٰ نَبْش بعض «الكهائن الإنجليزيَّة المُدهشة» بشكل مُتحمِّس جدّاً، وبالأحرىٰ؛ ليصل الحفر إلىٰ تشاتسورث لمُقابلة دُوق «ديفونشير» شَخصيّاً. لكي يسمو بالمسرحيَّة إلىٰ أقصىٰ حَدٍّ، يبدو أنَّه واجه الدُّوق بزَعم لم نقُمْ به مُطلقاً. طبقاً لكتاب قادم؛ سُمُوُّه أُخبر أنَّ الدّيفُونشيريِّيْن يتحدَّرون ـ مُباشرة ـ من سُلالة السَّيِّد المسيح. لا يدعو للاستغراب أنَّ الدُّوق جُرحَتْ مشاعره.

(1) (السَّاروفيم: أحد ملائكة الطَّبقة الأُولىٰ، الذين يحرسون عَرْش الله (في المُعتقد اليهُودي القديم). المُترجم).

أجاب بسُخط: «ذلك بغيض بكُلّ تأكيد!». لأنّنا لم نُصرّ علىٰ السُّؤال الذي كان يُجيبه، كان لا بُدَّ للمُخرج أنْ يكون مُجبَرَاً علىٰ حذف السُّؤال. النَّتيجة أنَّ المُشاهد التّلفزيوني لم يرَ سوىٰ سُمُوّه يقول: «ذلك بغيض بكُلّ تأكيد!» كإجابة عن شيء لم يتمّ تحديده تماماً. فقد يعتقد المُشاهد أنَّ السُّؤال هُو عن التّقنيّات الفرنسيّة أثناء معركة خليج كُويبيرون عام 1759، أو نوعيّة التّويد [1] الإنجليزي الحديث.

أثناء المُقابلة المُتعدِّدة الأقسام، أُسقُف برمنغهام اتّهمنا بما لا يقلُّ عن «تسعة وسبعين من أخطاء الواقع» في فصلَين ْ فقط، وهُما الفصلان اللَّذان قرأهما فقط، وبشكل سيّئ.

هذا الاتّهام صادر من شَخصيَّة مهيبة جدّاً، بدا أنّه موثوق ـ حُكْم غير قابل للنَّقض، صادر عن صوت الحقّ بذاته، وبالتّالي؛ فهُو مُهلك بكُلّ تأكيد. وُفقاً لذلك؛ استولىٰ ذلك الاتّهام علىٰ الصُّحُف، والرّاديو، والتّلفزيون، ونُشر في كافَّة أنحاء العالم. «أنتَ هُوجمتَ من قِبَل أُسقُف»، صرَّح أحدهم بقلق، بعد أنْ اتّصل بنا من مسافة بعيدة من الولايات المُتَّحدة: «هل أنت في خطر ما؟!».

لقد تمَّ تحذيرنا ـ بشكل مُفرط ـ حول ضربة مُتوقَّعة من قِبَل فرقة كَنَسيَّة ـ مجموعة مُدرَّبة من الكُوماندوس المغاوير المُدجّجين بالعصي المعقوفة والأبواق، وأقنعة جويّة من القوىٰ البريطانيّة الخاصّة تُحلّق فوق سيل مُتدفّق من الغفّارات [2]، والشّالات.

علىٰ الرّغم من هذا، الاتّهام بتسعة وسبعين خطأ، عندما وُجّه ضدّنا، جعلنا ـ في البداية ـ نتوقّف بشكل مُؤقّت، وننظر إلىٰ الوراء. هل نحنُ ـ حقّاً ـ قُمنا بتسعة وسبعين خطأ؟ يجب علينا أنْ نعترف أمام جرس الإنذار ـ الذي قُرع أمامنا بشكل مُؤكّد ـ أنّها لحظة من عدم الثّقة بالذّات. لكنْ؛ خلال الأُسبُوع، وُفقاً لطلبنا العاجل، تنازل الأُسقُف لكي يُرسل لنا قائمة مطبوعة حول «الأخطاء» التّسعة والسَّبعين، التي ادَّعىٰ أنّه وجدها. كانت ـ في الحقيقة ـ وثيقة مُفردة. في الواقع؛ الأُسقُف اكتشف أربعة أخطاء أصيلة عن الحقيقة. قُلنا ـ بشكل خاطئ ـ بأنَّ فلسطين، في عصر السَّيِّد المسيح، قُسّمَتْ إلىٰ مُحافظتَيْن، وكما لاحظ الأُسقُف ـ بشكل صحيح ـ هي قُسّمَتْ ـ في الحقيقة ـ إلىٰ مُحافظة واحدة، وإلىٰ حُكُومتَيْن رُباعيّتَيْن. نَسَبْنَا ـ بشكل خاطئ ـ أصل فكرة السَّيِّد المسيح كنجّار إلىٰ إنجيل لُوقَا، وكما لاحظ الأُسقُف ـ بشكل صحيح ـ هي مُشتقَّة ـ في الحقيقة ـ من إنجيل مَرْقُس.

---

(1) (نسيج صُوفي خشن. المُترجم).

(2) (الغَفّارة: رداء الكَاهن. المُترجم).

مُنضَّد مُهمل، رغم أنّنا اطّلعنا علىٰ هفوته أثناء التّصحيح، كان قد وضع جُوليُوس أفريكانُوس[1] في القرن الثّالث بدلاً من الأوّل؛ وجُملة لمحة عن المَخْطُوطَة تقول «المدينة اليُونانيّة إيفيسُوس»، تمَّ تعديل العبارة، من المُفترض من قِبَل المُحرِّر؛ لتكون «مدينة إيفيسُوس في اليُونان»، بينما إيفيسُوس تقع في آسيا الصُّغْرَىٰ.

حول هذه النّقاط الأربع يُمكننا أنْ نعترف بالتُّهمة فقط. الأُسقُف كان مُحقّاً: نحنُ كُنّا مُخطئين، ونحنُ قبلنا تصحيحه حسب الأُصُول. ولكنْ؛ ماذا عن الأخطاء الخمسة والسّبعين الأُخْرَىٰ «أخطاء حول الحقيقة»، والتي دعانا الأُسقُف أمام أجهزة الإعلام، وبشكل صاخب لتبرير موقفنا؟ عَمَليّاً؛ كُلّهم أثبتوا أنّها ليست أخطاء حول الحقيقة مُطلقاً، بل أخطاء إيمانيّة، أو بشكل مُحَدَّد أكثر، قضايا الزَّعْم والتَّفسير مازالت تُناقَش من قِبَل العُلماء، ونحنُ «أخطأنا» ـ فقط ـ إلىٰ حَدٍّ انحرافنا عن التَّقليد المُؤسّس.

علىٰ سبيل المثال، الأُسقُف أدرج عدداً من التّصريحات علىٰ أنّها «أخطاء حول الواقع، أو الحقيقة»، والتي ـ كما قال ـ «هُناك جدال كثير حولها»، والتّفسير الذي نُقدِّمه «لا يمتلك دعم أكثر العُلماء»؛ أيْ ـ فرضاً ـ العُلماء الأرثُذُوكسيُّون الذين يجدهم أكثر تجانساً رُوحاً، أو طبعاً، أو مصلحة معه. غير ذلك ـ أيضاً ـ الأُسقُف تضمَّن في قائمة الأخطاء التي وضعها اقتباسنا من عمل مُزوَّر هُو لم يعرفه، ولم يستطع أنْ يجده في مكتبته، بالرّغم من أنّه مُتوفِّر بسُهُولة في الكُتُب ذات الأغلفة الصّلبة، والطّبعات ذات الغلاف الورقي؛ بكلمة أُخرىٰ، خطؤنا هُو أنَّ مكتبة الأُسقُف افتقرت إلىٰ هذا العمل المُعيَّن. في نُقطة أُخرىٰ، الأُسقُف عدَّ أنَّ المرجع خاطئ؛ لأنّه ليس مُهمّاً بالنِّسبة له؛ لأنّه لم يقرأ الأقسام السّابقة من كتابنا؛ حيثُ المعنىٰ مُوضَّح.

أخيراً؛ الأُسقُف وبَّخ زَعْمَنَا بأنّه خاطئ، والذي يقول بأنَّ الإنجيل «وثائق تاريخيّة كغيرها»، فقط؛ ردَّ بكلمة «لا، إنَّها وثائق فريدة، تُخبرنا الأخبار الجيِّدة عن السَّيِّد المسيح بشكل تاريخي». مهما كان يعني ذلك، فإنَّ ذلك ـ بالكاد ـ يُمكن أنْ يُجرِّمنا بأنّنا وَقَعْنَا في خطأ واقعي.

---

(1) (سيكستُوس جُوليُوس أفريكانُوس، مُؤرِّخ ومُسافر مسيحي قديم، وُلد في ليبيا، عُرف بتخمينه لتاريخ الخَلْق في كتابه كرُونُوغرافيا. الكرُونُوغرافيا هي تأريخ العالم من بدء الخليقة حتّىٰ عام 221 بعد الميلاد. يصف بأنَّ الخلق بدأ 5499 سنة قبل ولادة السَّيِّد المسيح، وأرَّخ ولادة السَّيِّد المسيح قبل ثلاث سنوات من التّاريخ المُعتاد. تبنّت أغلب الكَنائس الشَّرقيّة تخميناته. فقط؛ أجزاء من هذا الكتاب موجودة الآن.المُترجم).

إنْ كُنَّا قد أخطأنا علىٰ الإطلاق، ببساطة؛ لأنَّنا لم نشترك في وُجهة نَظَر الأُسقُف حول الإنجيل.

هذه ـ إذنْ ـ كانت أنواع الأشياء التي أُسقُف برمنغهام أداننا بها. يُعيدون التُّهمة الشَّديدة الانتقاد: «خمسة وسبعون خطأً حول الوقائع»، وبشكل صبياني ـ لا نودُّ أنْ نقول بشكل تضليليّ.

أيضاً؛ مُعظم النَّقْد من المُؤسَّسة اللَّاهُوتيَّة كان جَوْهَريَّاً بالتَّرتيب نفسه.

في كتابنا؛ توجَّهنا إلىٰ أُمُور الإمكانيَّة التَّاريخيَّة الاحتمال، وحينما كانت الحقائق مُتوفِّرة، نُقَّادنا اللَّاهُوتيُّون، أغلبهم ممَّنْ لديهم خلفيَّة تاريخيَّة، تمكَّنوا ـ فقط ـ من أنْ يُهاجمونا من وُجهة نَظَر إيمانيَّة. الإيمان ليس أفضل منظور لتقدير التَّاريخ، لكنَّ العديد من نُقَّادنا لم يكن لديهم الاختيار.

بدا ـ بالنِّسبة لهم ـ أنَّنا نتحدَّىٰ ـ ضمنيَّاً ـ المصالح الشَّخصيَّة التي أُلزموا في الدِّفاع عنها، أيَّاً كان تَذَبْذُبُ الأُسُس التي تعتمد عليها حُججهم. «كتابكَ لم يحظَ بردٍّ مُناسب من سُلطات الكَنيسَة»، مُذيعو التّلفزيون، والرَّاديو، يقولون لنا بشكل جدِّيٍّ وأحمق، كما لو أنَّ أشياء كان يُمكن أنْ تكون غير ذلك.

كما لو أنَّك تتوقَّع من كُلِّ أُسقُف في المسيحيَّة أنْ يقول «شُرطي عادل»، ويُسلِّم قلَوسته بسُرعة.

أيضاً؛ عُوقبنا لأنَّنا توقَّعنا. لقد اعترفنا عن طيب خاطر. اقترحنا فَرَضيَّة، والفَرَضيَّات يجب ـ بالضَّرورة ـ أنْ تستند إلىٰ التَّخمين. النّدرة المُطلقة للمعلومات المُوثَّقة حول الأُمُور التَّوراتيَّة تُلزِمُ أيَّ باحث في الموضوع بأنْ يُخمِّن، إنْ لم يشأ أنْ يبقىٰ صامتاً. مُتَّفق عليه أنَّ المرء لا يجب أنْ يُخمِّن بشكل مُوسَّع؛ المرء يجب أنْ يحصر تخمينه في إطار المعلومات التَّاريخيَّة المعروفة. ضمن هذا الإطار ـ مع ذلك ـ الإنسان ليس له اختيار إلَّا أنْ يُخمِّن؛ لكي يُفسِّر الدَّليل الضَّئيل والغامض ـ في أغلب الأحيان ـ الذي يجده.

تستلزم الثَّقافة التَّوراتيَّةُ كُلُّها التَّخمين، كما يعمل علم اللَّاهُوت. إنَّ الإنجيل غامض وسطحي، والوثائق مُتناقضة في أغلب الأحيان.

النَّاس جادلوا، وحتَّىٰ إنَّهم شنُّوا الحُرُوب في كافَّة سنوات الألفَيْ عام الأخيرة حول ما قد نعنيه بعض العبارات المُعيَّنة.

في الاتِّحاد التَّقليدي المسيحي؛ هُناك مبدأ واحد سار بشكل مُستمرٍّ: في الماضي، عندما بعض الأفراد التَّاريخيّيْن كانوا مُجابَهين بأيَّة حالات مُختلفة من الغُمُوض التَّوراتي، كانوا يُخمِّنون معناه.

استنتاجاتهم ـ إنْ كانت مقبولة ـ يتمُّ تقديسها كعقيدة، ويسري مفعولها في القُرُون التَّالية ـ وبشكل خاطئ ـ علىٰ أنَّها حقيقة. مثل هذه الاستنتاجات ـ علىٰ أيَّة حال ـ ليست حقيقة مُطلقاً. بالعكس؛ هي تخمين وتفسير مُتحجِّر ضمن التَّقاليد، وهذه التَّقاليد هي التي تُخطئ ـ بشكل ثابت ـ حول الحقيقة.

إحدىٰ الأمثلة قد يُوضِّح هذه العمليَّة. طبقاً للأناجيل الأربعة؛ يُلمِّح بيلاطُس[1] إلىٰ السَّيِّد المسيح كـ«ملك لليهُود»، ونَقْشٌ لذلك اللَّقَب مُثبَّت علىٰ الصَّليب. ولكنْ؛ هذا كُلُّ ما أخبرتنا إيَّاه الأناجيل. لم تُشر الكُتُبُ إلىٰ حقيقة إنْ كان ذلك اللَّقَب مُخوَّل ومصرَّح، أم لا!!

في وقت ما في الماضي؛ تمَّ الافتراض ـ وُفق أُسُس تخمينيَّة ـ أنَّ اللَّقَب لابُدَّ وأنَّه قُصِدَ به الاستهزاء، ويَقْبَلُ ـ اليوم ـ أكثر المسيحيِّيْن ـ بصُورة عمياء كحقيقة مُطلقة ـ بأنَّ اللَّقَب استُعملَ للسُّخرية، إلَّا أنَّه ليس حقيقة مُطلقة علىٰ الإطلاق.

إنْ قام المرء بقراءة الإنجيل من دُون التَّصوُّرات السَّابقة، لا يُوجد أيُّ شيء يقترح بأنَّ اللَّقَب لم يُستخدَم بشكل جدِّيٍّ، أو أنَّه لم يُستعمَلْ بشكل شَرْعي. إلىٰ الآن؛ الأناجيل ـ بحَدِّ ذاتها ـ تَعُدُّ أنَّ السَّيِّد المسيح قد ـ في الحقيقة ـ كان ملكاً لليهُود، وتمَّ الاعتراف به شَخْصيَّاً من قِبَل مُعاصريه، بمَنْ فيهم بيلاطس.

إنَّه التَّقليد فحسب، الذي أقنعنا بعكس ذلك. عندما اقترحنا بأنَّ السَّيِّد المسيح قد يكون ـ في الواقع ـ ملكاً لليهُود، لذا؛ نحنُ لم نكن علىٰ خلاف مع الدَّليل الموجود. نحنُ كُنَّا ـ فقط ـ علىٰ خلاف مع التَّقليد المُؤسَّس لمُدَّة طويلة، النِّظام المُؤسَّس لمُدَّة طويلة من الاعتقادات، التي تستند علىٰ التَّفسير التَّخميني لشَخْص ما.

«لا يُمكنكَ إثبات نتائجكَ»؛ كانت تُهمة أُخرىٰ مُوجَّهة ضدَّنا من قِبَل كُلِّ من النُّقَّاد والمُقابلين اللَّاهُوتيِّيْن، كما لو أنَّه بإمكاننا أنْ نحصل علىٰ شهادة قَسَم شَخْصيَّة، مُوقَّعة من السَّيِّد المسيح ذاته، ومن الشُّهُود حسب الأُصُول.

بالطَّبع؛ نحنُ لا نستطيع أنْ «نُثبت» نتائجنا، كما في الحقيقة شدَّدنا ـ مراراً، وتكراراً ـ في الكتاب. إنْ كان بإمكاننا أنْ نُثبتها، فلن يكون هُناك أيَّة خلافات علىٰ الإطلاق، إنَّه مُجرَّد أمر واقع.

---

(1) (بيلاطُس البُنْطي: الحاكم الرُّوماني لبلاد «اليهُوديَّة» في أيَّام السَّيِّد المسيح. حَاكمَ المسيحَ، وأمرَ بقَتْله بضَغْط من اليهُود.المُترجم).

لكنْ؛ في السّياق الحالي، ما الذي يُشكِّل بُرهاناً صادقاً؟

هل يُمكن العُثُور علىٰ مثل هذا البُرهان لأيِّ قضيَّة في العهد الجديد؟

بشكل واضح؛ لا يُمكن. لا يُمكن بُرهان أيِّ شيء في العهد الجديد بشكل مُؤكَّد. لا يُمكننا «إثبات» نتائجنا، ولا يُمكننا ـ أيضاً، بشكل حاسم ـ «إثبات» أنَّ السَّيِّد المسيح كان ابناً لعذراء، ويمشي علىٰ الماء، ويُحيي الموتىٰ.

في الحقيقة، لا نستطيع حتَّىٰ أنْ «نُثبت» ـ بشكل قاطع ـ بأنَّ المسيح كان قد عاش علىٰ الإطلاق.

في الحقيقة؛ كُتَّاب عديدون ـ في الماضي والحاضر، في العهد القديم والحديث ـ ناقشوا ـ بشكل مُقنع ـ بأنَّه لم يُولَد.

إنَّ مسألة «البُرهان» ـ في النِّهاية ـ أمر جانبي. علماً أنَّ المادَّة الوثائقيَّة والأثريَّة، القليلة جدَّاً ـ هذا؛ إنْ وُجدَتْ ـ التي يُمكنها أنْ «تُثبت» حقيقة السَّيِّد المسيح ـ هي نادرة. أكثر ما يُمكن للمرء أنْ يعمله بأمانة هُو التّعامل مع الدَّليل، الذي لا يُعدُّ تماماً كـ«بُرهان» الدَّليل ـ ضمن سياق دراسات العهد الجديد ـ لا يستطيع «إثبات» أيِّ شيء، لكنَّه يُمكن أنْ يقترح إمكانيَّات أعظم، أو أقلّ، عقلانيَّة أعظم، أو أقلّ.

المرء يجب أنْ يتفحَّص الدَّليل المُتوفِّر، ويستنتج منه ـ علىٰ سبيل المثال ـ سلسلةً ما من الأحداث ـ علىٰ الأرجح ـ حدثت ـ بشكل أكبر ـ من غيرها. إذا استخدم المرء هذا المعيار، تُصبح المسألة ـ بشكل كبير ـ فطرة سليمة.

ببساطة؛ علىٰ الأرجح، إنَّ الرَّجل تزوَّج، أصبح أباً للأطفال، وحاول الوُصُول إلىٰ العَرْش، أفضل من أنْ يُقال هُو كان ابن عذراء، ومشىٰ علىٰ الماء، وأحيا الموتىٰ.

علىٰ نقيض مزاعم كُلٍّ من عُلماء الدِّين، ومَنْ أجروا المُقابلات، مثل هذه النَّتيجة لا تستلزم «هُجُوماً علىٰ صميم المسيحيَّة، وعلىٰ الأخلاقيَّات المسيحيَّة». صميم المسيحيَّة وأخلاقيَّاتها تكمنان في تعليمات السَّيِّد المسيح. تلك التَّعليمات تكون ببعض الإحساس الهامِّ الفريد؛ لأنَّها تُشكِّل «الرِّسالة الجديدة»، «الأخبار الجيِّدة» للبشر، ومقبولة في ذاتهم. هُم ليسوا بحاجة إلىٰ تفاصيل مُتعلِّقة بالسِّيرة الأُعجُوبيَّة لدَعْمها، خُصُوصاً؛ نوع التَّفاصيل المُتعلِّقة بالسِّيرة الأُعجُوبيَّة التي عاصرت الآلهة المُنافسة في أنحاء العالم القديم كافَّة. إنْ كانت التَّعليمات تتطلَّب مثل هذه التَّفاصيل؛ فإنَّها تقترح أحد شيئَيْن:

إمَّا أنَّه يُوجد هُناك شيء ما نـاقص ومعيـوب في التَّعلـيمات، أو ـ عـلىٰ الأرجـح ـ هُنـاك شيء نـاقص ومعيوب في إيمان المُؤمن. المسيحي الطَّيِّب القلـب يجـد أنَّ أهمِّيَّـة الـسَّيِّد المـسيح الأساسـيَّة تكمـن في الرِّسالة التي أراد أنْ يُوصلها. ولن يفيد المرء، أو الرِّسالة، أيَّ شيء، إنْ كان السَّيِّد المسيح عازباً! ولن يخسر، أو تخسر، أيَّ شيء، إنْ كان مُتزوِّجاً!.

عُلماء الدِّين والكَهَنَة ذوو المناصب المرموقة ممَّنْ هاجمونا هُم ـ تقريباً ـ كُـلُّ البرُوتـستانتيِّيْن. في الحقيقة؛ الأغلبيَّة كانت أنجليكانيَّـة؛[1] مثـل أُسـقُف برمنغهـام، بيـنما بقيـت الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّـة الرُّومانيَّة صامتة ـ جَوْهَريَّاً ـ حول المسألة.

لكنَّ شَخْصيَّةً مُهمَّة غير مُوظَّفة في الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة عهدت إلينا ـ شَخْصيَّاً ـ بأنَّ الطَّبقات العُليا من التَّدرُّج الهَرَمي (بالرّغم من أنَّهم لن يُصدروا ـ أبداً ـ بياناً عامَّـاً حـول هـذه المـسألة) أقـرَّت ـ بشكل خاصٍّ ـ بمعقوليَّة ـ هذا إنْ لم يكن صدْق ـ نتائجنا.

أثناء جولتنا الدّعائيَّة والإعلانيَّة في الولايات المُتَّحدة، في مُناقشة إذاعيَّـة، الـدُّكتُور «مالاتـشي مارتن» ـ أحد المسؤولين القياديِّيْن في شُؤُون الفَاتيكَان وعُـضو سـابق في معهـد الفَاتيكَـان البَـابَوي ـ اعترف بأنَّه ـ في النِّهاية ـ لم يكن هُناك أيُّ اعتراض لاهوتي حقيقي حول مسألة زواج السَّيِّد المسيح.

بضعة مُؤرِّخين موثوقين تنازلوا بمَنْحِنَا انتباههم. هذا لم يكن مُفاجئـاً، بـما أنَّ الكُـلَّ تـشجَّع، والعُلماء، كالسِّياسيِّيْن، حسَّاسين ـ بشكل خاصٍّ ـ لمثـل هـذه الحـوادث. إنْ قـاموا بإدانتنـا ـ بـشكل حاسم ـ يكون في ذلك خطر من بعـض الإحـراج المُـستقبلي، وثيقـة مـا رُبَّـما تظهـر للعيـان، وتـدعم استنتاجاتنا، وتُحرجهم. في تأييدنا؛ من المُمكن أنْ يكون الأمر أكثر خُطُورة بالنِّسبة لهم : مسألة وَضْـع سُمعته المُحترفة بوُضُوح «علىٰ الخطِّ».

بقدر ما كان المُؤرِّخون مَعْنيِّيْن كانوا أكثر تعقُّلاً في المُراوغـة، وفي الاحتفـاظ بحُكْمهـم، أو في البقاء صامتين بوعي. هذه الرُّدُود ـ ضمنيَّاً ـ تُحوِّل كتابنا إلىٰ زوبعة في قعر فنجان، يُـضرَب بهـا المَثَـلُ، بينما تُطوِّقها المُجابهة بالموادِّ، بشكل ماهر من الجهات كُلِّها.

مع ذلك؛ كان هُناك حاجز غريب هُنا وهُناك، أُطلق باليأس الجدِّيّ والمُستعجل لحُصن مُهـدَّد بالحصار من قِبَل البربر الغلاظ. هكذا «مارينا وارنـر» هاجمتنـا، لـيس ـ فقـط ـ في سلـسلة الحلقـات،

(1) (تابع للكَنيسَة الإنكليزيَّة. المُترجم).

ولكنْ؛ ـ أيضاً ـ في مقالة في الصّنداي تايمز (لندن). في هذه المقالة (التي دعاها أحـد المُعلِّقـين «المقـال النَّقْدي الأوقح للسَّنَة»، وآخر دعاها ـ ببساطة ـ «هـستيريا»)، الآنـسة وارنـر وبَّختنـا لاعتمادنـا عـلىٰ مصادر مشكوك فيها، والتي ـ في الحقيقة ـ لم نعتمد عليها أصلاً.

في صحيفة «The Times Literary Supplement» دعانا «جوناثان سامبشين» لتبرير الموقـف ذاته. استشهد بمصدر علىٰ أنَّه عديم الثِّقة إشارة إلىٰ مصدر وجدناه في عمل لمارينا وارنـر، وهُـو كـان يجهل ذلك. د. سامبشين فَرَض علينا ـ أيضاً ـ ضريبة بمُعدَّل خطأ لكُلِّ صفحة. عنـدما صُـحُفي مـن الـ«تيليغراف» سأله سَرْدَ البعض من هذه الأخطاء، الدُّكتُور سامبشين أصبح ـ فجأة ـ مُبهماً.

النَّقْدُ التَّاريخيُّ الجدِّيُّ الذي ظهر كان ـ جَوْهَريَّاً ـ نوعَيْن. بعضه كان صحيحاً وثمينـاً بـشكل لا يُنكَر، يُصحِّح عملنا حول بعض التَّفاصيل المُعيَّنة: الإحصائيَّات، التَّواريخ، وغير ذلك مـن أمثـال هذه التَّفاصيل، والتي أخطأنا بها، ولكنَّها لا تُؤثِّر علىٰ حُجَجنا، وفَرَضيَّاتنا، أو استنتاجاتنا. كان هُناك مُؤرِّخون آخرون ـ علىٰ أيَّة حال ـ شكَّكوا في صحَّة نظرتنا العامَّة. زعموا أنَّنا لم نتبع «القوانين».

بمعايير بحث أكَاديميَّة مُؤسَّسة؛ كانت طُرُقُنَا ضلاليَّة، وشاذَّة، وغير تقليديَّـة إلىٰ حَـدٍّ بعيـد. لم نُلاحظ اتِّفاقيَّات مُقَدَّسَة ثقافيَّة مُحَدَّدة، ولم نُلاحظ مناهج مُعيَّنة حذرة دُوغماتيَّة [1].

وبالتَّالي؛ (في رأيهم) قُمنا بخداع أنفسنا؛ كـالهُواة الـذين لم يحـصلوا عـلىٰ أيِّ اعتبـار جـدِّيٍّ، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ تجاوزوا (نحنُ) المجال ذا سيادة الخُـبراء فقـط. ولـذلك؛ هُـم يُمكـن أنْ يعتبرونـا مرفوضين بمبرّر ناتج عن دوافع مُقَدَّسَة، وحتَّىٰ أخلاقيَّة.

نحنُ كُنَّا جميعاً مُتدرِّبين علىٰ تقنيَّات البحث الأكاديمي «الرَّسْمي»، ونعـرف ـ بـشكل جيِّـد، وكاف ـ كيف ننشره. لو كُنَّا قد لجأنا لطُرُق أُخرىٰ، لكُنَّا استخدمناها. نحنُ لم نكن مُصمِّمين عـلىٰ أنْ نكون لا أكثر رواجاً، بالرّغم من أنَّ ذلك ـ رُبَّما ـ هُو الذي بدا في نَظَر المسيحيِّيْن الأُصُوليِّيْن.

في الوقت ذاته؛ نحنُ لم نردْ إنتاج كتاب خاصٍّ للاختصاصيِّيْن، الـذي سـيهترئ عـلىٰ رُفُـوف مكتبات الجامعات: أردنا إنتاج عمل سيكون من السّهل وُصُـوله إلىٰ عامَّـة النَّـاس القُـرَّاء، وبـشكل لا يُعرِّض نزاهته للخطر. (بعد كُلِّ شيء، كان لدينا قصَّة مُثيرة؛ لكي نُخبرها، ولكي نُوصـل ـ لـيس

(1) (دُوغماتي: مُؤكَّد من غير بيِّنة، أو دليل. المُترجم).

القصَّة فحسب ـ بل ـ أيضاً ـ شيئاً من الحماس)، نعتقد بأنَّ بحثنا وصل إلىٰ المعايير الأكثر صُعُوبة. لكنَّنا اخترنا تقديم نتائج ذلك البحث بطريقة سهلة الوُصُول، وقابلة للقراءة.

في النِّهاية، مع ذلك، منهجنا كان مُسيَّراً بعوامل أُخرىٰ أكثر أهمِّيَّة. في الحقيقة؛ كان مُسيَّراً بالطَّبيعة الضَّروريَّة لموضوعنا. غطَّت مادَّتُنَا طيفاً هائلاً من الأُصُول والرِّوَايَات وتواريخ الأحداث.

كان من الضَّروري لنا أنْ نُركِّب مادَّة ذات نمط مُتماسك، تمتدُّ من العهد القديم إلىٰ الجمعيَّة السِّرِّيَّة في أُورُوبا اليوم، من الإنجيل و«الكَأس المُقَدَّسَة» يُغازَلان إلىٰ روايات في الشُّؤُون الحاليَّة في الصُّحُف الحديثة. لمشروع كهذا؛ تقنيَّات الثَّقافة الأكَاديميَّة كانت ناقصة جدّاً؛ للقيام بالرّبط الضَّروري بين المادَّة المُتنوِّعة بشكل جَذْري، أُلزمنا بتبنِّي وتطوير نظرة أكثر شُمُوليَّة، مُستندة علىٰ التأليف، بدلاً من التَّحليل التَّقليدي. (هذه النَّظْرَة مُوضَّحة في هذا الكتاب في الفقرة التي عُنوانها «الحاجة للتَّركيب»).

مثل هذا الموقف كان ضروريّاً لدرجة أكبر؛ لأنَّ الأساليب التَّقليديَّة قد أظهرت ـ مُسبقاً ـ عدم قابليَّتهم للتّعامل مع قنوات كبيرة من مادَّتنا.

مُعظم ما كُنَّا نستكشفه كَمَنَ في المجالات التي ـ من وُجهة نَظَر مُؤرِّخ مُحترف ـ كانت ـ أكاديميّاً ـ موضع شُكُوك.

إذا تفحَّص أحدنا أيَّ فترة من الماضي، سيجد عدداً من الأشياء الشاذَّة المزعومة: حوادث، ظواهر، مجموعات، أفراد، جذبت الكثير من الانتباه، ولكنَّها لا تبدو أنَّها مُتزامنة مع التَّطوُر التَّاريخي السَّائد. أكثر المُؤرِّخين ـ عندما يُجابَهون بأشياء شاذَّة من هذا النَّوع ـ يختارون إهمالها، ورفضها، بزعم أنَّها انحرافات عابرة، وسطحيَّة، و/ أو عَرَضيَّة. لذا؛ علىٰ سبيل المثال، عُدَّ ناسترادامُوس شُذُوذاً غير ذي علاقة، وحظي بانتباه القليل ـ فقط ـ في دراسات القرن السَّادس عشر في فرنسا. لذا؛ فُرسان الهَيكَل، والعديد من الأسئلة التي تُحيطهم، يُعدُّون هامشاً مُجرَّداً للحملات الصَّليبيَّة. الجمعيَّات السِّرِّيَّة ـ استناداً إلىٰ سرِّيَّتها الشّديدة في أغلب الأحيان ـ أبعدت المُؤرِّخين. والمُؤرِّخون الرّافضون للإقرار بجهلهم يُفضِّلون تقليل أهمِّيَّة موضوعها. الماسُونيَّة ـ للاستشهاد بمثال آخر ـ ذات أهمِّيَّة حيويَّة لأيِّ تاريخ سياسي، أو ثقافي، أو نفسي، أو اجتماعي، في أُورُوبا القرن الثَّامن عشر، وحتَّىٰ إلىٰ تأسيس الولايات المُتَّحدة؛ لكنْ؛ حتَّىٰ أكثر كُتُب التَّاريخ لا تذكرها. إنَّ الأمر ـ تقريباً ـ كما لو أنَّ

سياسة ضمنيَّة تقول: إذا الشَّيء لا يُمكن أنْ يُوثَّق بشكل كامل، فلا يجب أنْ يكون ذا علاقة، وبذلك؛ لا يستحقُّ المُناقشة مُطلقاً.

تماماً؛ حتَّىٰ أواخر القرن السَّابع عشر، الرُّوزيكرُوشيَّة [1] نُبِذَتْ علىٰ أنَّها طائفة «جماعة مجنونة»، وعُرِّف طيف فُرُوع المعرفة برُمَّته علىٰ أنَّه «إيسوتيركا» [2] التّنجيم، والكيمياء، والقَبَلانيَّة [3]، والتَّارُو [4]، ودراسة الدّلالات السِّحْرِيَّة للأعداد، والهندسة المُقَدَّسَة، ويُعدُّ لا علاقيّ، وبالطَّريقة نفسها؛ حراماً، الآن.

علىٰ أيَّة حال؛ من خلال عمل «فرانسيس ييتس» وزُملائها في معهد «Warburg»، مثل هذه المواضيع يُمكن أنْ تُرَىٰ من منظور مُعيَّن؛ ومن المنظور التي هي ـ في الحقيقة ـ هامَّة بالنِّسبة له. الرُّوزيكرُوشيَّة الغامضة يُمكن أنْ تكون معروفة الآن، بعد أنْ لعبت دوراً حاسماً في الأحداث، التي أدَّت إلىٰ حرب الثَّلاثين عاماً، وفي مُؤسسَّة الجمعيَّة المَلَكيَّة في إنجلترا.

طيف «الإيسوتيركا» لا يُمكن النَّظَر إليه ـ الآن ـ علىٰ أنَّه مُجرَّد مُلاحظات هامشيَّة جذَّابة من التَّاريخ الغربي، بل علىٰ أنَّها مُفتاح حيوي لأيِّ فَهْم لعصر النَّهضَة. إنْ كان هُناك أيُّ شيء، هذه «الانحرافات» كانت تُشكِّل «اتِّجاهاً سائداً» أكثر ممَّا كانت تُوصَف به عادةً.

مُعظم مادَّتنا كانت مشبوهة أكاديميَّاً علىٰ أنَّها «إيسُوتيركيَّة» و«رُوزيكرُوشيَّة»، ولذلك؛ قليل جدَّاً من المُؤرِّخين توجَّهوا إليها. بضعة كُتُب وجدت؛ بضعة ارتباطات ذات الصلة كانت قد جعلت. بالتَّالي؛ أُجبرنا علىٰ البدء بطريق جديد لمُواجهة وإعادة النَّظَر في مثل هذه «الأشياء الشاذَّة» بمنهج مرن وشامل بما فيه الكفاية. أُجبرنا علىٰ القيام بالارتباطات الجديدة، وبإيجاد الصِّلات التَّاريخيَّة الأصيلة في المجالات المُهملة من الدّراسة حتَّىٰ اليوم، لإعادة بعض المواضيع المُحرَّمة إلىٰ المنزلة التي تمتَّعت بها ـ في الحقيقة ـ في أوقاتها الخاصَّة. احتجنا لاستكشاف بحث الكُتَّاب الغامضين والباطنيِّين،

---

(1) (الرُّوزيكرُوشيّ: عُضو جمعيَّة سرِّيَّة اشتُهرت في القرنَيْن الـ 17 و18، وزعمت أنَّها تملك معرفة سرِّيَّة للطَّبيعة، والدِّين. المُترجم).

(2) (مقصور علىٰ فئة قليلة. المُترجم).

(3) (القَبَلانيَّة: فَلْسَفَة دينيَّة سرِّيَّة، عند أحبار اليهُود وبعض نصارىٰ العصر الوسيط، مَبْنيَّة علىٰ تفسير الكتاب المُقدَّس تفسيراً صُوفيَّاً. المُترجم).

(4) (وَرَق اللّعب المُعَدُّ لقراءة الحظِّ. المُترجم).

وأنْ نضعه في إطاره التَّاريخي الحقيقي، بينما لا نقع في شرك سذاجتهم.

لذا؛ منهجنا فُرض بمادَّتنا: بالحاجة للتَّركيب، وبالحاجة لمُواجهة ولمُلائمة «التَّشوُهات» المُهمَلَة ـ عادةً ـ من قِبَل العُلماء التَّقليديِّيْن. لذا؛ لم يكن من المُفاجئ ـ بالنِّسبة للعُلماء التَّقليديِّيْن ـ أنَّهم شكَّكوا في منهجنا. لكنَّه كان هامَّاً أيضاً، وليس ـ فقط، عَرَضيَّاً ـ أنَّ الرُّدُود الأكثر تعاطفاً علىٰ كتابنا بدا أنَّها أتت من شَخْصيَّات أدبيَّة؛ من روائيَّيْن مُهمِّين؛ مثل أنطوان بيرجس، وأنطوان باول، وبُطرُس فانسيتارت.

علىٰ خلاف المُؤرِّخ المُحترف، الرِّوائي مُعتاد علىٰ منهج كَمنهجنا. هُو مُعتاد علىٰ تركيب المادَّة المُتنوِّعة، علىٰ جَعْل الارتباطات أكثر مُراوغة من تلك المحفوظة بشكل واضح في الوثائق. يعترف بأنَّ الحقيقة قد لا تنحصر ـ فقط ـ في الحقائق المُسجَّلة، بل تكمن في الميادين الأكثر معنويَّة في أغلب الأحيان؛ في الإنجازات الثَّقافيَّة، وفي الأساطير، والخُرافات، والتَّقاليد؛ في الحياة الرُّوحيَّة للأفراد، والنَّاس أجمعين.

معرفة الرِّوائي غير مُقسَّمة إلىٰ مقصورات صلبة، وليس هُناك حرام، ليس هُناك مواضيع «مُخزية». التَّاريخ بالنِّسبة له ليس شيئاً مُجمَّداً، شيئاً مُحجَّراً إلىٰ فترات، كُلّ منها يُمكن أنْ يُعزَل، ويَخضَعَ إلىٰ تجربة مَخبريَّة مُسيطَر عليها. بالعكس؛ هي ـ بالنِّسبة له ـ عمليَّة عُضويَّة وديناميَّة سائلة؛ حيثُ علم النَّفْس، وعلم الاجتماع، والسِّياسة، والفنّ، والتَّقليد، هي مُتشابكة في نسيج واحد مُتَّصل. لقدْ أنشأنا كتابنا وُفقاً للرُّؤية ذاتها لذلك الرِّوائي.

رُبَّما شدَّدنا ـ بإفراط ـ علىٰ الرَّدِّ العدائي الذي استنبطه كتابنا. كان هُناك ـ أيضاً ـ رَدٌّ مُناسب من النُّقَّاد الأدبيِّيْن، ومن المُقابلين في أجهزة الإعلام، ومن عامَّة النَّاس القُرَّاء. هذا الرَّدُّ المُناسب، ونوع الاهتمام الذي عكسه، اختلفا ـ لدرجة كبيرة ـ في بريطانيا والولايات المُتَّحدة.

في أمريكا؛ الانتباه رُكِّز ـ تقريباً، بشكل كامل ـ علىٰ الفُصُول الأربعة الأخيرة من فُصُول كتابنا، والتي تخصُّ السَّيِّد المسيح، (سُلالة «الكَأس المُقَدَّسة»)، أُصُول المسيحيَّة، وتاريخ الكَنيسَة المُبكِّرة. بالنِّسبة للجُمهُور الأمريكي، بدت السِّمَة الأكثر أهمِّيَّة من كتابنا هي مُناقشتنا حول المسيحيَّة والنَّتائج المُرافقة لنظريَّاتنا. أثناء جولة الدِّعاية والإعلان التي قُمنا بها في الولايات المُتَّحدة، وجدنا أنَّ الجُمهُور ـ بشكل نشيط، وبحماس ـ يُعيد تقدير العديد من العقائد الدِّينيَّة المُسلَّم بها سابقاً. العديد من النَّاس سُحروا بعمليَّة الاختيار البيرُوقراطي؛ حيثُ بعض الأعمال ضُمِّنت بالعهد الجديد.

والأُخْرَىٰ استُثْنَتْ منه. بدا الأمر كحُلُول كَشْف مُرحَّب به بأنَّ العهد الجديد كان أقلَّ دقَّة في تصوير الأحداث في الأرض المُقَدَّسَة في زمن السَّيِّد المسيح من انعكاس قيَم ومواقف كَنيسَة القرن الرَّابع. والأكثر من ذلك، نقاشنا كان يُفهم فَهْمَاً تامَّاً، وبلهفة شديدة من قِبَل الأمريكيِّيْن المُؤمنين بمُساواة الجنسَيْن، الذين كانوا سريعين في معرفة النَّتائج التي قُلناها؛ النَّتائج التي ـ في الحقيقة ـ كانت كبيرة بخُصُوص عدد من القضايا المُعاصرة الجداليَّة؛ مثل عُزُوبة الكَهَنَة، ودَوْر النِّساء في الكَنيسَة والمُجتمع. نحنُ كُنَّا ـ بشكل طبيعي ـ مُدركين لهذه النَّتائج، رغم أنَّنا تفاجأنا بأنْ نكون مُؤيَّدين ـ بحرارة عالية ـ من قِبَل حَرَكَة المُساواة بين الجنسَيْن.

في بريطانيا؛ الحالة كانت مُختلفة جدَّاً. اندلع الخلاف سريعاً حول ما قُلناه حول السَّيِّد المسيح، ثُمَّ انحسر.

ما بقي كان اهتماماً مُطوَّلاً، وأكثر متانة في سمات أُخرىٰ تاريخيَّة بشكل محض في قصَّتنا، سمات كانت قد أُهملَتْ ـ بشكل كبير ـ في الولايات المُتَّحدة.

الاهتمام البريطاني رَكَّز علىٰ مواضيع؛ مثل فُرسان الهَيكَل، والحملات الصَّليبيَّة، وبدعة الكَاثَار (Cathar) [1]، والصَّليب الوَرْدي (Croix-Rose)، والماسُونيِّيْن الأحرار، بالإضافة إلىٰ سمات ثقافيَّة كأهمِّيَّة بُوسَّان، وشَخْصيَّات فنيَّة أُخرىٰ، أو تمَّ التركيز علىٰ الكتابة المُشفَّرة، وحلّ الرُّمُوز والشّيفرات التي ظهرت ـ مراراً وتكراراً ـ في بحثنا.

أيضاً؛ أفلامنا الثَّلاثة التي ظهرت علىٰ الـ BBC قد أنشأت ـ سَلَفَاً ـ اهتماماً كبيراً في لُغز قلعة رين [2] «Château-le-Rennes» بين مُشاهدي التّلفاز البريطانيِّيْن.

كُلٌّ من هذه المواضيع يُمكن أنْ يُؤسِّس ـ بسُهُولة ـ مادَّة كافية لكتاب كامل.

بالتَّأكيد؛ يُوجد هُناك شاغر وحاجة لكُتُب ستُكتَب عن كُلٍّ منها، وكما قُلنا ـ مراراً وتكراراً في المُقابلات ـ نعدُّ عملنا الخاصّ لا شيء أكثر من مُقدِّمة.

رغم ذلك، فوق وما بعد هذه المجالات الأكثر تخصُّصاً، تبقىٰ ثلاثة مواضيع واسعة الانتشار،

(1) (طائفة من القُرُون الوُسْطَىٰ: عُضو طائفة أُورُوبيَّة ضلاليَّة من القرن الثَّاني عشر اعتقدت أنَّ الأرض يحكمها الشَّيطان. اعتقدوا ـ أيضاً ـ بأنَّ الخلاص في التّنازل عن الحياة المادِّيَّة، وتبنِّي طريقة الحياة الرُّوحيَّة. المُترجم).
(2) (الآن؛ هي مدينة في الشّمال الغربي من فرنسا؛ إذْ كانت ـ آنذاك ـ قرية صغيرة جدَّاً. المُترجم).

وأهمّها: لُغز قلعة رين؛ خطّ الدَّم أو (سُلالة «الكَأس المُقَدَّسَة»)؛ ودَيْر صـهيُون (Prieuré de Sion)، تلك الجمعيَّة السِّرِّيَّة المُراوغة، التي ـ من العُصُور الوُسْطَىٰ وحتَّىٰ وقتنـا الحـاضر ـ بـرزت ـ بـشكل واضح جدًّاً ـ في قصَّتنا.

نعتقد أنَّ كتابنا هزَّ كمِّيَّة من ثمار أشـجار كُـلِّ المواضـيع الثَّلاثـة. أثنـاء شُـهُور؛ مُنْـذُ النَّـشْر، استلمْنَا رسائلَ لا تُعَدُّ، ولا تُحصَىٰ، واجتمعنا مع عدد كبير من الأشخاص، وحصلنا عـلىٰ معلومـات جديدة كثيرة ثمينة، وذات صلة.

مُنْـذُ النَّـشر، عـلىٰ الأقـلِّ؛ شيء واحـد أصـبح ظـاهراً: كتابنـا كـان ـ في الحقيقـة ـ لـيس إلَّا مُقدِّمة، مُجرَّد فَتْح للباب. سواء نتوسَّع في الكتابة حول الموضـوع أم لا، مـازال هُنـاك أكثـر بكثـير لكي يُقال، والكلمة الأخيرة مازالت بعيدة جدًّاً عن اللَّفظ.

مُقدّمة

في 1969، في الطَّريق لقضاء عُطلة الصيف في سِفِن [1] قُمتُ بشراء ـ عَرَضي ـ لكتاب ذي غلاف وَرَقي. كتاب «Tresor Maudit» (الكَنز الملعون) للكاتب جيرارد دُو سيد، يتحدَّث عن قصَّة لُغز ـ لُغز أصيل ومُثير، وهُو مزيج خفيف بين الحقائق التَّاريخيَّة والتَّخمين. لرُبَّما بقي موضع نسيان بعد انتهاء العُطلة، لولا أنَّني تعثَّرت ببعض الحَذْف والتَّقصير البذيء والسّاطع في صفحاته.

عُنوان «الكَنز الملعون» كان ـ علىٰ ما يبدو ـ قد وُجد في عام 1890 من قِبَل كَاهن قرية، من خلال فَكّ رُمُوز بعض الوثائق الغامضة التي اكتُشفَتْ في كَنيسَته. بالرّغم من أنَّ النُّصُوص المزعومة لاثنتَيْن من هذه الوثائق قد أُعيدَ إنتاجها، إلَّا أنَّه لم يتمّ إعادة إنتاج «الرَّسائل السِّرِّيَّة»، التي قيل إنَّها مُشفَّرة ضمنها.

النَّتيجة هي أنَّ تلك الرَّسائل المحلولة قد فُقدَتْ ثانية. ورغم ذلك ـ كما وجدتُ ـ دراستي السّريعة للوثائق ـ التي أُعيد إنتاجها في الكتاب ـ كشفتْ ـ علىٰ الأقلّ ـ رسالة مَخْفيَّة واحدة. المُؤلِّف وجدها بالتَّأكيد. أثناء العمل في كتابه؛ لابُدَّ أنَّه أولىٰ تلك الوثائق الكثير من الانتباه. وبالتَّالي؛ بالتَّأكيد، أنَّه قد وجد ما قد وجدتُ.

علاوةً علىٰ ذلك؛ الرِّسالة ـ بالضَّبط ـ كانت كبُرهان يُساعد علىٰ بَيْع النَّشرة ذات الغلاف الورقي. لماذا السَّيِّد جيرارد دُو سيد لم ينشرها؟!

أثناء الشُّهُور التَّالية، غرابة القصَّة وإمكانيَّة الاكتشافات الأُخْرَىٰ جعلتْني أُراجع تلك القصَّة من وقت لآخر. اندفاعي كان أكثر من مُجرَّد لُغز كلمات مُتقاطعة، وفُضُول زائد نتيجة الصّمت الذي لفَّ الكاتب جيرارد دُو سيد. كُلَّما اكتشفتُ لمحات مُثيرة جديدة ضمن طبقات المعنىٰ المدفونة في أنحاء نصّ الوثائق، كُنتُ أبدأ بالتَّمنّي أنْ يكون عملي مُكرَّساً لاكتشاف لُغز قلعة رين بشكل أكبر من مُجرَّد انتزاع لحظات من حياتي المهنيَّة ككاتب للتّلفزيون.

لذا؛ في أواخر خريف عام 1970، قدَّمتُ القصَّة التي قد تكون برنامجاً وثائقيّاً إلىٰ بُول جُونستُون الرَّاحل، مُنتج تنفيذي لسلسلة «التَّاريخ»، التي تُعرَض في الـ BBC، وتتحدَّث عن التَّاريخ والآثار.

---

(1) (سلسلة جبال جنوب فرنسا. المُترجم).

رأىٰ بُـولُ الإمكانيَّـاتِ، وبالتَّـالي؛ أُرسِـلتُ إلىٰ فرنـسا للتَّحـدُّث مـع جـيرارد دُو سـيد، ولأستكشف التَّوقُّعات لإنتاجها في فيلم قصير. أثناء أُسبُوع عيد ميلاد عـام 1970؛ قابلـتُ جيرارد دُو سيد في باريس. في ذلك اللِّقاء الأوَّل، سألتُ السُّؤالَ الذي أزعجني لأكثر من سنة: «لمـاذا لم تنـشر الرِّسالة المَخْفيَّة في رقاق الكتابة؟» إجابته أدهشتني: «أيّ رسالة؟!».

بدا ـ بالنِّسبة لي ـ أنَّه من غير المعقول أنْ يكون غافلاً عن هذه الرِّسالة الأوَّليَّة. لماذا يُثاقفني [1] فجأة؛ وجدتُ نفسي مُتردِّداً في كَشْف ما وجدتُهُ بالضَّبط. استمرّينا في المُبارزة الشفويَّة لبـضع دقـائق، وأصبح من الواضح بأنَّنا ـ كلَيْنا ـ مُدركَيْن للرِّسالة. كرَّرتُ سُؤالي: «لماذا لم تنشرها؟!».

في هذه الأثناء؛ جوابه كان محسوباً؛ «لأنَّنا اعتقدنا بأنَّهـا قـد تُثـير اهـتمام شَـخْص مـا مثلـكَ، سيُحاول العُثُور عليها».

تلك الإجابة غامضة كغُمُوض وثائق الكَاهن، كان التَّلميح الأوَّلي الواضـح لُغـز قلعـة ريـن ـ هُو ـ أكبر من مُجرَّد حكاية بسيطة عن الكَنز المفقود.

مع مُديري ـ أندرو ماكسويل هيسلوب ـ بدأتُ بالاستعداد لتسجيل فيلم «تـأريخي» في ربيـع عام 1971. خطَّطتُ علىٰ أنْ يكون الفيلم مادَّة بسيطة من عشرين دقيقة كبرنامج تلفزيوني علىٰ شكل مجلَّة. لكن؛ كُلَّما عملنا، بدأ «de Sède» بتغذيتنا بمعلومات أكثر. أولاً؛ جـاء الـنَّصُّ كـاملاً كرسـالة رئيسيَّة مُشفَّرة، تكلَّمتُ عن الرّسامَيْن بُوسَّان[2]، و تينرز[3].

كان ذلك مُدهشاً. الشِّيفرة كانت مُعقَّدة بشكل لا يُصدَّق. قيل لنـا إنَّهـا قـد فُكَّـتْ مـن قِبَـل خُبراء من قسم الشّيفرات في الجيش الفرنسي، باستعمال الحاسبات.

وأثناء دارستي لتشعُّبات الرَّمْز، أصبحتُ مُقتنعاً بأنَّ هـذا التَّفـسير كـان ـ عـلىٰ أقـلِّ تقـدير ـ مُشتبهاً به. استشرتُ خُبراء التَّشفير في المُخـابرات البريطانيَّـة، واتَّفقـوا معـي في الـرَّأي، واتَّفقنـا عـلىٰ أنَّ «النَّتيجة ليست مقبولة». الرَّمْز كان مُستحيل الحَلِّ. شَخْصٌ ما، في مكان ما، يجب أنْ يكون لديه المفتاح.

وبعد ذلك؛ أسقط جيرارد دُو سيد قُنبُلته الثَّانية. لقد تمَّ العُثُور عـلىٰ القَـبْر الـذي يُـشبه ذلـك

(1) (المُثاقفة: المُبارزة بالسَّيف. المُترجم)؟!

(2) (نيقولا بُوسَّان (1594ـ1665)، رسَّام فرنسي، كان المُؤسِّس والمُمارس الأعظم للصُّور الفرنـسيَّة الكلاسـيكيَّة في القـرن السَّابع عشر، وعُني بتصوير الموضوعات الدِّينيَّة والرَّمْزيَّة. له أثر علىٰ الفنِّ الفرنسي حتَّىٰ الوقت الحاضر. المُترجم).

(3) (ديفيد تينرز، المُلقَّب بالأصغر (1610ـ1690)، وهُو رسَّام فلمنكي. رَسَمَ مواضيع دينيَّة، وأُسطُوريَّة. المُترجم).

القَبْر الموجود في صُورة بُوسَّان المشهورة التي اسمها «Arcadie'Les Bergers d». كان يُرسل التَّفاصيل حالما تصله.

بعد حوالي أيَّام من وُصُول الصُّور، كان من الواضح بأنَّ فيلمنا القصير حول لُغز محلِّيٍّ صغير قد بدأ بافتراض أبعاد غير مُتوقَّعة. بُول قرَّر تَرْكَهُ، وألْزَمَنَا بفيلم تأريخي بالمُدَّة الطَّبيعيَّة. سيكون هُناك ـ الآن ـ وقت أكثر لإعادة البحث، ووقت أكثر في الشّاشة لاستكشاف القصَّة. الإرسال أُجِّلَ إلىٰ ربيع السَّنة التَّالية!

فيلم «الكَنز المفقود في القُدْس؟» عُرض في فبراير/ شُباط 1972، وأثار ردَّة فعل قويَّة جدّاً. عرفتُ بأنَّني وجدتُ موضوعاً ذا أهمِّيَّة شديدة، ليس ـ فقط ـ لي، بل للجُمهُور الكبير جدّاً. البحث الآخر لن يكون انغماساً ذاتيّاً[1] في وقت ما؛ يجب أنْ يكون هُناك فيلم للمُتابعة. بحُلُول عام 1974، كان لديَّ كُتلة ضخمة من الموادِّ الجديدة، وبالتَّالي؛ بُول خصَّص «روي دافيز» لإنتاج فيلم تأريخي ثان، بعُنوان «الكَاهن، والرَّسَّام، والشَّيطان».

مرَّة ثانية؛ ردَّة فعل الجُمهُور أثبتت كم أسرت القصَّةُ الخيالَ الشَّعبي. ولكنْ؛ حتَّىٰ الآن نما التَّعقيد، وأصبح المدىٰ بعيداً جدّاً في نتائجه، لدرجة أنَّني عرفتُ أنَّ البحث المُفصَّل كان ـ بسُرعة ـ يتجاوز قُدرات الفرد الواحد.

كان هُناك الكثير من الأدلَّة المُختلفة التي يجب تتبُّعها. كُلَّما زاد تعمُّقي في خطٍّ ما، كُلَّما أدركتُ كم كانت بعض الموادِّ المُهمَّة مُهْمَلَة. لقد وصلتُ ـ الآن ـ إلىٰ المرحلة الحاسمة، والتي أدركتُ فيها أنَّ تلك الفُرصة ـ التي رُميَتْ بشكل عَرَضي في حضني ـ من المُؤكَّد أنَّها لن تُعَرْقَلَ.

في عام 1975، في مدرسة صيفيَّة ـ حيثُ كُنَّا كلانا نُحاضر عن سمات الأدب ـ كان لديّ حظٌّ سعيد عظيم في مُقابلة ريتشارد لاي، وهُو روائي وكاتب قَصَص قصيرة حاصل علىٰ درجات عُليا في الأدب المُقارن، وذُو معرفة شاملة بالتَّاريخ، والفَلْسَفَة، وعلم النّفس، والأسرار. كان يعمل لبضع سنوات كمُحاضر في جامعة في الولايات المُتَّحدة، وفي كَنَدَا، وبريطانيا.

أثناء نقاشنا في المدرسة الصيفيَّة؛ أمضينا ساعات عديدة في النّقاش حول مواضيع ذات اهتمام مُتبادل. ذكرتُ فُرسان الهَيكَل، والذي من المُفترض أنَّ لهم دور مُهمّاً في خلفيَّة لُغز قلعة رين.

---

(1) (الانغماس الذاتي: إطلاق المرء العِنانَ لأهوائه ورغباتِه وشهواتِه. المُترجم).

من دواعي سُرُوري أنّني وجدتُ بأنَّ هـذا النِّظـام الغـامض «للرُّهبـان المُقـاتلين» في القُـرُون الوُسْطَىٰ كان قد أيقظَ اهتمام ريتشارد العميق سَلَفَاً، وبأنّه قد عمل بحثاً كبيراً في تاريخهم.

في نوبة شُهُور من العمل وجدتُ أنَّ سعيي أصبح غير ضروري. ريتشارد كان قـادراً عـلىٰ أنْ يُجيب عن أغلب أسئلتي، وكان مفتوناً مثلي ببعض الأشياء الشاذَّة الظّاهرة التي كشفتُ عنها. الأكثـر أهمِّيَّـة، هُـو ـ أيـضاً ـ أدرك الـسِّحْرَ، وأحـسَّ بأهمِّيَّـة إقامـة مـشروع بحـث كامـل حـول ما باشرتُ فيه. عرض مُساعدته لي بـالطَّور المُتعلِّـق بفُرسـان الهَيكَـل (الـدَّاويِّيْن). وجلـب ميـشيل بيجنت، خرِّيج علم نَفْس، وقد ترك مُؤخَّراً مهنة ناجحة في الـصّحافَة التَّـصويريَّة لتكـريس وقتـه في بحث مشروع لفيلم عن فُرسان الهَيكَل في ذهنه.

لو أنّني بحثتُ عنهم، لما استطعتُ أنْ أجد شريكَيْن أكثر نسابة وتأهيلاً منهما لتـشكيل فريـق. بعد سنوات من العمل الانفرادي، الحافز الذي جُلب إلىٰ المـشروع مـن قِبَـل دمـاغَيْن جديـدَيْن كـان مُبهجاً. النَّتيجة الملموسة الأُولىٰ من تعاوننا كانت فيلماً تأريخيَّاً ثالثاً عن قلعة رين، واسمه «ظلُّ فُرسان الهَيكَل»، والذي أُنتج من قِبَل روي دافيز عام **1979**.

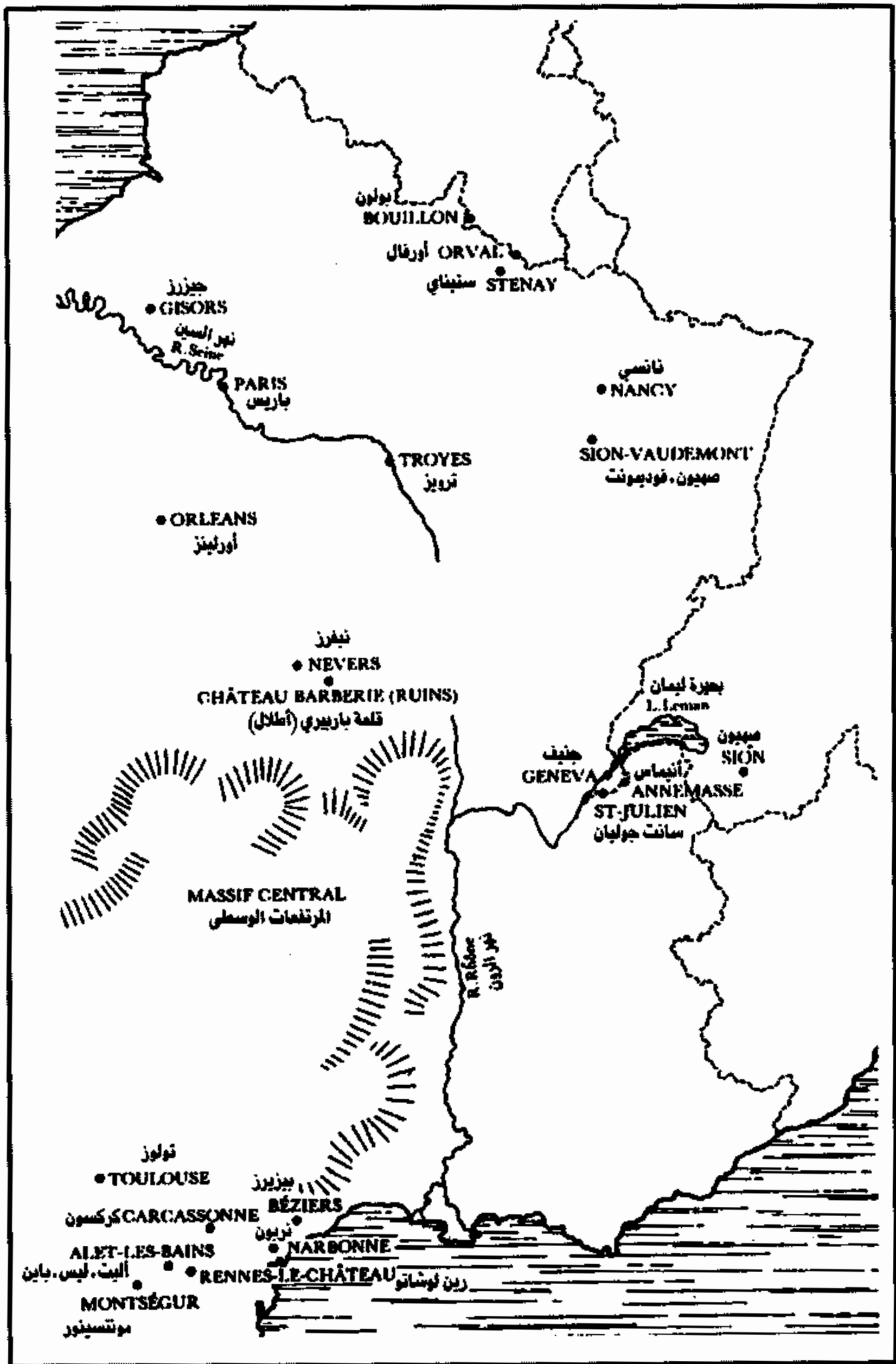
العمل الذي قُمنا به في ذلـك الفـيلم وضـعنا ـ أخـيراً ـ وجهـاً لوجـه مـع الأُسُـس التّحتيَّـة، التي بُني عليها كامل لُغز قلعة رين. لكنَّ الفيلم قد يُلمِّح ـ فقط ـ لما بدأنا بمعرفته. تحت السّطح كـان هُناك شيء ما أكثر دهشة، وأكثر أهمِّيَّة، وأكثر صلة ممَّا كان بإمكاننا أنْ نُصدِّق بأنَّـه صـحيح عنـدما بدأنا عملنا في «لُغز صغير مُثير» حول الشَّيء، الذي ـ لرُبَّما ـ وجده كَاهن فرنسي قرية جبليَّة.

في **1972**؛ أنهيـتُ فيلمـي الأوَّل بكلـمات، «شيء غـير طبيعـي بانتظـار أنْ يُكـشَفَ... وفي المُستقبل ليس بالبعيد، سيتمُّ اكتشافه».

هذا الكتاب يُوضِّح ما هُو ذلك «الشَّيء»، وكم هُو ذلك الاكتشاف مُذهل واستثنائيّ.

هنري لِنكولن

17 يناير/كانون الثّاني عام 1981.



الصُورة المُواجهة- المواقع الرّئيسيّة للتّحرّي في فرنسا.

الجُزء الأوَّل

اللُّغز

1

قرية اللُّغز

اعتقدنا ـ في بادئ الأمر ـ بأنّنا كُنّا نتعامل مع لُغز محليٍّ انحصر ـ تماماً ـ في إحدىٰ القُرىٰ في جنوب فرنسا.

اعتقدنا ـ في بادئ الأمر ـ بأنَّ اللُّغز كان ـ في المقام الأوَّل ـ ذا اهتمام أكاديميّ. اعتقدنا بأنَّ تحقيقنا قد يُساعد علىٰ إنارة بعض سمات التَّاريخ الغربي، لكنّنا لم نكن نحلم ـ أبداً ـ بأنَّ الأمر قد يستلزم إعادة كتابته. لم نكن نحلم بأنَّه ـ أيّاً كان اكتشافنا ـ بأنْ يكون له أيَّة صلة حقيقيَّة بوقتنا الرَّاهن، وأنْ يكون له صلة صاعقة بذلك.

في بداية بحثنا؛ لم نعرف ـ بالضَّبط ـ ما كُنّا نتطلَّع إليه، أو ننظر إليه. لم يكن لدينا نظريَّات، ولا فَرَضيَّات، ولا شيء يُعرَضُ للإثبات. بالعكس؛ كُنّا نحاول ـ ببساطة ـ أنْ نجد جواباً، أو تفسيراً، للُغز فُضُولي صغير في أواخر القرن التَّاسع عشر.

الاستنتاجات التي وصلنا إليها ـ في النِّهاية ـ لم تكن مُفترَضَة مُسبقاً. نحنُ تقدَّمنا باتِّجاهها، خُطوة، فخُطوة، كما لو أنَّ الدَّليل الذي جمعناه يمتلك عقلاً، وبالتَّالي؛ يُوجِّهنا حيثُ يُريد.

مسعانا بدأ ـ تقريباً ـ بقصَّة بسيطة. من النَّظْرَة الأُولىٰ، هذه القصَّة لم تكن ـ لدرجة كبيرة ـ مُختلفة عن العديد من القَصَص الأُخرَىٰ المُشابهة، «قَصَص الكَنز»، أو «الأسرار الغامضة»، التي زخم بها تاريخ وفُولكلُور كُلِّ منطقة ريفيَّة تقريباً. نُسخة منها كانت قد نُشرت في فرنسا؛ حيثُ جذبت اهتماماً كبيراً، ولكنَّها لم تكن ـ حسب معرفتنا في ذلك الوقت ـ تحتوي علىٰ أيِّ مُغالاة. ولكنْ؛ بعد ذلك، علمنا أنَّه كان هُناك عدد من الأخطاء في هذه النُّسخة. الآن ـ علىٰ أيّة حال ـ يجب أنْ نُعيد رَوْيَ الحكاية، وبطريقة من المُحتمل أنّها كالتي نُشرَتْ أثناء السِّتِّينيَّات حينما عرفناها لأوَّل مرَّة.

رين لُو شاتُو و بيرنجر سوَنير

في الأوَّل من يُونيُو/ حُزَيْرَان 1885، القرية الفرنسيَّة الصّغيرة جدًّاً التي تُدعىٰ «رين لُو شاتُو»، استقبلت كَاهناً جديداً للأبرشيَّة. اسمه كان بيرنجر سُونير، وكان نشيطاً، وسيماً، قويَّ البُنية، ويبدو أنَّه كان رجلاً ذكيَّاً جدَّاً، بعُمر 33. في المدرسة اللَّاهُوتيَّة، ليس قبل ذلك بفترة طويلة، كان يبدو أنَّه مُقدَّراً له أنْ يكون قسَّاً. بالتَّأكيد؛ بدا له أنَّ قَدَرَهُ أنْ يكون له شأن أكبر. شأن أهمّ من أنْ يكون في قرية بعيدة في التّلال الشَّرقيَّة لـ«بيرينه»[1]علاوةً علىٰ ذلك؛ كان يبدو أنَّه يتحمَّل قسوة رُؤسائه. الذي ـ بالضَّبط ـ هُو عمل عليه، أو كان هُناك أيُّ شيء، فيبقىٰ غيرَ واضح، لكنَّ ما قام به أَحْبَطَ سريعاً كُلَّ فُرص التَّقدُّم. ورُبَّما رُؤساؤه ـ لكي يتخلَّصوا منه ـ أَوْدَعُوْهُ في أبرشيَّة رين لُو شاتُو.

في ذلك الوقت؛ فقط، حوالي مائتا شَخْص عاشوا في تلك القرية. كانت قرية صغيرة جدًّاً جثمت علىٰ قمَّة جبل، تقريباً؛ خمسة وعشرون ميلاً عن كركسُون. لرجل آخر، المكان ـ لرُبَّما ـ بدا مَنفَىٰ حقيقيَّاً لرجل حُكِم بالسّجن مدىٰ الحياة في موضع مُنعزل قروي بعيد عن وسائل الراحة المُتحضِّرة آنذاك، بعيداً عن أيِّ مُحفِّز لعقل مُتلهِّف ومُستفسر. لا شكَّ أنَّ ذلك كان ضربة قاسية لطمُوح سُونير. علىٰ الرّغم من هذا؛ كان هُناك بعض التّعويضات. كان سُونير مُواطناً من تلك المنطقة، وُلد وترعرع علىٰ بعد بضعة أميال فقط عن قرية مُونتازيل. مهما كانت نقائص رين لُو شاتُو، لابُدَّ وأنّها كانت ـ تماماً ـ كموطنه الأصلي؛ حيثُ أُلفة الطُّفُولة، وراحتُهَا.

بين عامَيْ 1885 و1891، كان مُعدَّل دَخْل سُونير ـ بالفرنكات ـ ما يُعادل ستَّ جُنيهات إسترلينيَّة في السَّنة ـ بالكاد تُغنيه، إلَّا أنَّها ـ تقريباً ـ ما يتوقَّعه المرء لراعي أبرشيَّة ريفيَّة في أواخر القرن التَّاسع عشر في فرنسا. سويَّة مع المنح التي كان يحصل عليها من أبناء أبرشيَّته يبدو أنَّ الدَّخْلَ كان كافياً للبقاء، إنْ لم يكن لأيِّ تبذير.

أثناء تلك السَّنوات السِّتِّ، يبدو أنَّ سُونير أمضىٰ حياة لطيفة وهادئة. صاد من جبال وينابيع صباه ما يكفي. كان يقرأ بشكل شَره، وأتقن لُغته اللَّاتينيَّة، وتعلَّم اليُونانيَّة، وبدأ بدراسة اللُّغة العبريَّة.

---

(1) (سلسلة جبال تقع جنوب غرب أُورُوبا. المُترجم).

استخدم ـ كمُراقبة وخادمة للبيت ـ فتاة فلّاحة بعُمر ثماني عشرة سنة، اسمها ماري دينرنود، والتي كانت رفيقته الدّائمة ومُستشارته. قام بزيارات مُتكرِّرة إلىٰ صديقه، آبي هنري بُوديت، راعي أبرشيَّة القرية المُجاورة «رين لُو باين». وتحت رعاية بُوديت، غمر نفسه في التَّاريخ العاصف للمنطقة، تاريخ كانت بقاياه راسخة من حوله آنذاك.

علىٰ سبيل المثال، بضعة أميال إلىٰ المنطقة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة من رين لُو شاتُو، تلوح قمَّة أُخرىٰ كان اسمها «بيزُو»، مُحاطة بخراب قلعة من القُرُون الوُسْطَىٰ، كانت ـ مرَّة ـ مدرسة لفُرسان الهَيكَل.

علىٰ ذروة ثالثة علىٰ بُعْد ميل تقريباً شرق رين لُو شاتُو، تجثم بقايا قصر بلانشفورت، وهُو بيت سُلالي لـ«بيرتراند دي بلانشفورت»، السَّيِّد الأعظم الرَّابع لفُرسان الهَيكَل، والذي ترأَّس ذلك النِّظام المشهور في مُنتصف القرن الثَّاني عشر. «قلعة رين» وضواحيها كانا علىٰ طريق الحجِّ القديم، الذي امتدَّ من شمال أُورُوبا إلىٰ «سانتياغُو دي كُومبُوستيلا» في إسبانيا. وكامل المنطقة كانت حافلة بالأساطير المُثيرة للعواطف والذّكريات، في أصداء ماض مُثير وغنيّ ومُلطَّخ بالدَّم في أغلب الأحيان.

أحياناً؛ كان سُونير يرغب في إعادة كَنيسَة رين لُو شاتُو. مُكرّساً صَرْح مَرْيَم المَجْدَليَّة الذي كان يعود لعام **1059**، وهذا الصّرح المُخرَّب كان يقف علىٰ أساس بناء قُوطي[1] أقدم بكثير، يعود تاريخه إلىٰ القرن السَّادس. في نهاية القرن التَّاسع عشر ـ (لا عجبَ) ـ كان ذلك المبنىٰ ـ تقريباً ـ في حالة من الإهمال المُيئس.

في **1891**، مُحفَّزاً من قِبَل صديقه بُوديت، شرع سُونير بإعادة بناء بسيطة، مُقترضاً بعض المبالغ الصَّغيرة من أموال القرية. أثناء مساعيه؛ أزال حجارة مذبح الكَنيسَة، والتي استندت إلىٰ عمودَيْن قُوطيَّيْن قديمَيْن. أثبت أحد هذه الأعمدة بأنَّه مُجوَّف.

داخل الأبرشيَّة؛ وَجَدَ أربعة مَخْطُوطَات رُقِّيَّة محفوظة في أنابيب خشبيَّة مختومة. اثنان من هذه المَخْطُوطَات قيل إنَّها كانت تشمل علىٰ معلومات عن الأنساب، أحدها تاريخه من عام **1244**، والآخر من عام **1644**. الوثيقتان الباقيتان كانتا ـ علىٰ ما يبدو ـ قد أُعدَّتا في فترة عام **1780** من قِبَل

---

(1) (القُوطيّ الغربيّ: واحد القُوط الغربيِّيْن. وهُم ناسٌ ألمان قُدماء غزوا الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة في القرن الرَّابع بعد الميلاد، استقرُّوا في المناطق، التي تُشكِّل ـ الآن ـ إسبانيا، البُرتغال، وفرنسا. المُترجم).

أحد أسلاف سُونير في رعاية أبرشيَّة رين لُو شاتُو، وهُو الكَاهن «آبي أنطوان بيغو». أثناء مُدَّة خدمتـه في القرية، كان بيغو ـ أيضاً ـ قسِّيساً شَخْـصيَّاً لعائلـة بلانتـشيفورت النَّبيلـة، والتـي ـ عـشيَّة الثَّـورة الفرنسيَّة ـ كانت ماتزال من بين مُلاك الأراضي المحلِّيِّيْن الأبرز.

رقَّا الكتابة من عهد بيغو يبدوان أنَّهما نُصُوص دينيَّة لاتينيَّة، مُقتطفَة من العهـد الجديـد. علىٰ الأقلِّ؛ زَعْماً. ولكنْ؛ علىٰ إحدىٰ تلك المَخْطُوطَات، الكلمات تتالىٰ بشكل مُتفكِّك، بلا فراغ يتوسَّطها، وعدد من الأحرف الزّائدة جدّاً عن الحاجة قد أُدخلَتْ. وعلىٰ المَخْطُوطَة الثَّانيـة، الـسُّطُور عـشوائيَّة، وبشكل غير مُستو، وأحياناً؛ في مُنتصف الكلمة بعض الأحرف تُرفَع بشكل واضح عن البقيَّة.

في الواقع؛ هذه المَخْطُوطَات تشمل سلسلة من الألغاز والشّيفرات المُبدعة. البعض منها مُعقَّد بشكل خيالي، يتحدَّىٰ مُستوىٰ الحاسوب، وعديم الحلِّ بدُون المفتاح الـضَّروري. فَـكُّ الرُّمُـوز التَّـالي النّاتج ظهر في الأعمال الفرنسيَّة التي كُرِّسَتْ لـ«قلعة رين»، ولاثنَيْن من أفلامنـا المُتعلِّقـة بالموضـوع، والتي قُدِّمَتْ للـ BBC:

BERGERE PAS DE TENTATION QUE POUSSIN TENIERS GARDENT ***LA CLEF; PAC DCLXXXI PAR LA CROIX ET CE CHEVAL DE DIEU*** ***J'ACHEVE CE DAEMON DE GARDIEN A MIDI POMMES BLEUES***

(أيَّتها الفتاة الرّاعية؛ لا إغراء أنَّ بُوسَّان تينرز يحمـل المفتـاح؛ سـلام **681** بالـصَّليب، وهـذا حصان الله، أنا أتممتُ (أو حطَّمتُ) هذا الشَّيطان الحارسَ ظهراً للتُّفَّاحات الزرقاء).

لكنْ؛ إنْ كانت بعض الشِّيفرات مُخيفة في تعقيدها، فالبعض من الشِّيفرات الأُخْرَىٰ واضحة، وبشكل صارخ، وعَمَليّاً؛ تقفز علىٰ المرء من الصّفحة من شدَّة وُضُوحها. في الرِّقِّ الثَّـاني، عـلىٰ سـبيل المثال، الأحرف المرفوعة، مأخوذة بالتَّسلسل، تُوضِّح رسالة مُتماسكة هي:

A DAGOBERT II ROI ET A SION EST CE TRESOR ET IL EST LA MORT.

(للملك «داغُوبرت» الثَّاني، ولـ«صهيُون» يعود هذا الكَنز، وهُو ميِّت هُناك).

بالرّغم من أنَّ هذه الرِّسالة المُعيَّنة لابُدَّ وأنَّها كانت قابلة للإدراك من سُونير، إلَّا أنَّه كان مُرتاباً في حَلِّ الرُّمُوز الأكثر تعقيداً. علىٰ الرّغم من هذا، أدرك بأنَّه عثر علىٰ شيء ذي نتيجة ما، وبمُوافقة رئيس بلديَّة القرية، جلب اكتشافه إلىٰ رئيسه، أُسقُف كركسُون. إلىٰ أيِّ حَدٍّ فَهِمُ الأُسقُف غير معروف.

لكنَّ سُونير أُرسل ـ فوراً ـ إلىٰ باريس ـ علىٰ نفقة الأُسقُف ـ؛ بتعليمات مفادها أنْ يُقدِّم نفسه والمَخطُوطَات إلىٰ سُلطة كَنَسيَّة هامَّة ومُحَدَّدة. الرَّئيس بينهم كان «آبي بيل»، وهُو المُدير العامُّ للمعهد اللّاهُوتي «معهد القدِّيس سلبيس»، و«إيميل هُوفيت» ابن أخ «آبي بيل». في ذلك الوقت؛ كان هُوفيت يتدرَّب للكَهَانَة. بالرّغم من أنَّه مازال في أوائل عشرينيَّاته، إلَّا أنَّه أسَّس سُمعة رائعة في الثَّقافة، خُصُوصاً في علم اللُّغة، والكتابة المُشفَّرة، والكتابات القديمة. علىٰ الرّغم من مهنته الرّعويَّة إلَّا أنَّه عُرف بتعمُّقه بالفِكْر الباطني، وحظي بعلاقات وُدِّيَّة مع جماعات غامضة مُتنوِّعة، وطوائف، والجمعيَّات السِّرِّيَّة التي كانت تنتشر في العاصمة الفرنسيَّة. هذا أوصله للاتِّصال بدائرة ثقافيَّة شهيرة تضمَّنت شَخْصيَّات أدبيَّة مثل «ستيفان مالارم» و«مُوريس ميترلنك»، بالإضافة إلىٰ المُلحِّن «كلُود ديبُوسي». قابل إيمَّا ـ أيضاً ـ «إيمَّا كالف»، والتي ـ أثناء ظُهُور سُونير ـ كانت لتوِّها عائدة مُبتهجة بإنجازات في لندن وفي ويندسور[1].

كمُغنيَّة، «إيمَّا كالف» كانت في عهدها أشبه بماريا كالاس. في الوقت نفسه؛ هي كانت كَاهنة رفيعة لثقافة باريسيَّة باطنيَّة، وقامت بعلاقات غراميَّة مع عدد من رجالات المُنظَّمات السِّرِّيَّة الواسعي النُّفُوذ.

بعد أنْ قدَّم نفسه إلىٰ «بيل» و«هُوفيت»، أمضىٰ سُونير ثلاثة أسابيع في باريس. ما حدث أثناء اجتماعاته مع الكَهَنَة مجهول. المعروف بأنَّ كَاهن البلاد الإقليمي تمَّ التّرحيب به علىٰ الفور ـ بدفء ـ في حلقة هُوفيت المُميَّزة، حتّىٰ إنَّه أُثبت أنَّه أصبح حبيبَ المُغنيَّة «إيمَّا كالف».

(1) (غرب لندن 35 كم. المُترجم).

تكلَّمت الثّرثرة المُعاصرة عن علاقة دارت بينهما، وأحد معارف المُغنيَّة وصفها بأنَّها كانت «تُهَلْوِسُ» به. في أيِّ حال من الأحوال، ليس هُناك ريبة بأنَّها تمتَّعا بصداقة حميمة ودائمة. في السَّنوات التَّالية زارتْهُ كثيراً علىٰ مقربة من رين لُو شاتُو، لدرجة أنَّه حتَّىٰ فترة قريبة كان المرء مايزال قادراً علىٰ مُشاهدة قُلُوب رُومانسيَّة تحمل الحُرُوف الأُولىٰ من اسمَيْهما محفورة علىٰ الصُّخُور في سفح الجبل.

أثناء إقامته في باريس؛ أمضىٰ سُونير ـ أيضاً ـ بعض الوقت في اللُّوفر. هذا ـ لرُبَّما ـ يرتبط بحقيقة أنَّه قبل مُغادرته اشترىٰ نُسخاً طبق الأصل لثلاث رُسُومات. أحدها يبدو أنَّها كانت صُورة لفنَّان غير معروف للبَابَا «سيليستاين الخامس»، الذي حَكَمَ لفترة وجيزة تماماً في نهاية القرن الثَّالث عشر. وواحدة كانت عملاً غير مُحَدَّد للفنَّان «ديفيد تينرز»، بالرّغم من أنَّه ليس واضحاً أيّ ديفيد تينرز، الأب أم الابن[1]؟ أمَّا الثَّالثة؛ فرُبَّما كانت الأكثر شُهرَة للفنّان «نيكُولاس بُوسين»، والمُسمَّاة «**Les Bergers d'Arcadie**»؛ أيْ (رُعاة أركادية)[2].

عند عودته إلىٰ رين لُو شاتُو، استأنف سُونير إعادة بناء كَنيسَة القرية. في العمليَّة؛ نبش قطَعَ بلاط منقوشة تعود إلىٰ القرن السَّابع أو الثَّامن؛ وهُناك بدا أنَّه يُوجد قبو تحته، مدفن؛ إذْ قيل إنَّ هياكل عظميَّة وُجدَتْ. شرع سُونير ـ أيضاً ـ في مشاريع أكثر تنوُّعاً. في باحة الكَنيسَة ـ علىٰ سبيل المثال ـ كان قَبْر الماركيزة ماري، زوجة الماركيز «هيوتباول بلاتشيفورت». شاهد القَبْر والبلاطة المُسطَّحة يُؤشِّران إلىٰ أنَّ قَبْرها صُمِّم ورُكِّبَ من قِبَل «آبي أنطوان بيغو»، الذي سَلَفَ سُونير بقرن قبل ذلك، والذي أعدَّ المَخْطُوطَتَيْن الغامضتَيْن علىٰ ما يبدو. وفي الحقيقة، النَّقْشُ الموجود علىٰ شاهد القَبْر ـ والذي تضمَّن عدداً من الأخطاء المُتعمَّدة في المُباعدة والتّهجّيء ـ كان بديلاً مُتقناً للرِّسالة المَخْفيَّة في المَخْطُوطَات التي تعود إلىٰ بُوسَّان وتينرز. إنْ قام أحد بإعادة ترتيب الأحرف، فإنَّها ستُشكِّل البيان الغامض الذي استُشهد بها في الصَّفحات السَّابقة؛ والأخطاء يبدو بأنَّها كانت قد دُبِّـرَتْ ـ بالضَّبط ـ لتكون كذلك. من غير المعروف إنْ كانت النُّقُوش علىٰ قَبْر المركيزة قد نُسخَتْ، فقد أزالها سُونير. ولا هُو معلوم إنْ كان هذا التّدنيس هُو السُّلُوك الفُضُولي الوحيد الذي أظهره.

---

(1) (الأب والابن يحملان الاسم نفسه، وللتّمييز كان الأب يُدعىٰ ديفيد تينرز الأكبر، وابنه الأصغر. المُترجم).

(2) (أركادية: منطقة جبليَّة في بلاد اليُونان اشتُهرت بأنَّها مَوْئل الرُّعاة البُسطاء القانعين بما قُسِمَ لهم. المُترجم).

برفقة خادمه المُخلص، بدأ القيام برحلات طويلة مشياً علىٰ الأقدام في الرّيف، جامعاً الصُّخُور التي ليس لها قيمة، أو صلة ظاهرة.

بدأ ـ أيضاً ـ تبادلاً ضخماً من الرَّسائل مع مُراسلين مجهولين في كافَّة أنحاء فرنسا، وكذلك في ألمانيا، وسويسرا، وإيطاليا، والنِّمسا، وإسبانيا. تولَّىٰ العناية بأكوام من الأختام البريديَّة العديمة القيمة. وأبرم بعض الصّفقات الغامضة مع بُنُوك مُختلفة. حتَّىٰ إنَّ أحد البُنُوك بعث بمُمثِّل من باريس، مُسافراً كُلّ الطَّريق إلىٰ رين لُو شاتُو لغرض وحيد؛ هُو تنسيق العمل مع سُونير.

بالنِّسبة لأُجرة البريد وحدها، سُونير كان يصرف مبلغاً كبيراً أكبر بكثير ممَّا كان يتحمَّله دَخْلُهُ السّنوي السَّابق. بعد ذلك، وفي عام 1896، بدأ بالصَّرْف الجدِّيّ علىٰ مقياس مُدهش لم يسبقْ له مثيل. عند نهاية حياته في 1917، إنفاقه ـ علىٰ الأقلّ ـ بلغ ما يُعادل عدَّة ملايين جُنيه.

بعض من هذه الثَّروة غير المُفسَّرة كُرِّسَتْ إلىٰ الأعمال الخيريَّة العامَّة الجديرة بالاحترام، مثلاً؛ تمَّ بناء طريق يُؤدِّي إلىٰ القرية، وتمَّ تزويد القرية بتمديدات الصَّرْف الصِّحِّيّ. الإنفاق الآخر كان أكثر خيالاً. لقد كان بُرجاً، «بُرج المَجْدَليَّة»، يُشرف تماماً علىٰ الجبل. وتمَّ بناء بيت ريفي فاخر، يُدعىٰ «فيلاَّ بيت عَنيا»[1]، والتي لم يسكن فيها ـ مُطلقاً ـ سُونير نفسه. والكَنيسَة لم تُجدَّد فحسب، بل تمَّ تأهيلها بأكثر الأثاث والزّينة غرابة. نَقْش لاتيني حُفر علىٰ عتبة الرّواق فوق المدخل يقول:

«TERRIBILIS EST LOCUS ISTE»

(هذا المكان فظيع)

مُباشرة داخل المدخل يُوجد نصب تمثال قبيح، تمثيل مُبهرج للشّيطان «أسموديوس» ـ حامي الأسرار، وولي أمر الكُنُوز المَخفيَّة، وطبقاً للأُسطُورة اليهُوديَّة القديمة؛ هُو مَنْ بنىٰ هَيكَل سُلَيْمان.

---

(1) (Bethany: بيت عَنيا نسبة إلىٰ قرية في أسفل جبل الزَّيتون، قُرْب القُدْس في فلسطين القديمة. طبقاً للعهد الجديد؛ لِعازار أعاده المسيح إلىٰ الحياة هُناك. الكثير حول هذا الموضوع سيرد لاحقاً في الكتاب. المُترجم).

علىٰ حيطان الكَنيسَة البشعة، رُسمَتْ لوحات مُبهرجة، تُصوِّر مراحل الصَّلْب[1]، كُلٌّ منها تميَّز بتضارب شاذٍّ، بعضها يحتوي بعض الإضافات غير القابلة للتَّفسير، وبعضها فيه بعض التّحريفات الدِّينيَّة الصّارخة، أو غير الملحوظة، والتي لا يقبلها المنطق الدِّيني. في المرحلة الثّامنة ـ علىٰ سبيل المثال ـ هُناك طفل مربوط بقماش إسكتلندي. في المرحلة الرّابعة عشرة ـ التي تُصوِّر جسد السَّيِّد المسيح محمولاً إلىٰ القَبْر ـ هُناك خلفيَّة تُصوِّر السّماء اللَّيليَّة المُظلمة يُغطِّيها البدر. تقريباً؛ الأمر كما لو أنَّ سُونير يُحاول التّلويح إلىٰ شيء ما. ولكنْ؛ ما هُو؟ هل يقصد أنَّ دفن السَّيِّد المسيح حَدَثَ بعد المساء؛ أيْ بعد بضع ساعات ممَّا أخبرتْنا به التّوراة؟! أم أنَّ الجسد سُحبَ خارج القَبْر، وليس إلىٰ داخله؟!

بينما ينشغل المرء بهذه الزّينة الفُضُوليَّة، سُونير واصل الصَّرْفَ بشكل مُفرط. لقد جمع أنسجة خزفيَّة ثمينة ونادرة، ورُخاماً أثريَّاً. أقام دفيئة بُرتقال، وحديقة حيوان. أسَّس مكتبة رائعة. وزُعم أنَّه ـ قبل فترة قليلة من موته ـ كان يُخطِّط لبناء بُرج ضخم كبُرج بابل[2]، البُرج الذي وَرَدَ في الكُتُب، التي منها عزم علىٰ التّبشير، والتي أهملها أتباعه في الأبرشيَّة. سُونير متَّعهم بالمآدب الفاخرة والأشكال الأُخْرَىٰ من الهبَات، قدَّم لهم وسائل العيش كَمَلك في القُرُون الوُسْطَىٰ يمتلك ميدان جبل حصين. في وُكره البعيد والمُرتفع والصّعب الوُصُول كان يستقبل عدداً من الضُّيُوف البارزين.

أحدهم ـ بالطَّبع ـ كانت «إيمَّا كالف». وأحدهم كان وزير الدّولة الفرنسي للشُّؤُون الثَّقافيَّة. ولكنْ؛ رُبَّما أكثر الزائرين أهمِّيَّة وجلالة لكَاهن البلاد غير المشهور كان الأرشيدُوق[3] «يُوهان فُون هاسبُورغ»، ابن عمّ «فرانز جُوزيف»، إمبراطُور النِّمسا. بعد ذلك؛ كشفت بيانات مصرفيَّة بأنَّ سُونير والأرشيدُوق قد فَتَحَا حسابات مُتتالية في اليوم نفسه، وأنَّ الأخير حوَّل مبلغاً كبيراً إلىٰ الأوَّل.

السُّلطات الإكليروسيَّة (الكَنَسيَّة) ـ في بادئ الأمر ـ غضَّت النَّظَرَ. ولكنْ؛ عندما مات رئيس سُونير السَّابق في كركسُون ـ علىٰ أيَّة حال ـ الأُسقُف الجديد حاول دعوة الكَاهن للمُحاسبة. سُونير

---

(1) (سلسلة من 14 صُورة، إلخ. عادةً، وبخاصَّة في كَنيسَة، تُمثِّل مراحل صَلْب المسيح. المُترجم).

(2) (وُفقاً للتّاريخ العبري، هُو بُرج نُصب في بلاد بابل من قِبَل أحفاد نُوح. نوىٰ بُناة البُرج أنْ يُوصلوه إلىٰ السّماء؛ فَرَضيَّتهم ـ علىٰ أيَّة حال ـ أغضبت يَهْوَه، الذي قاطع البناء بتسبُّبه بالتشويش بينهم؛ إذْ جعلهم يتحدَّثون بلُغات مُختلفة غير معروفة من قبلُ. ثُمَّ بَعْثَرَ هؤلاء النَّاس علىٰ وجه الأرض. المُترجم).

(3) (أمير من أُمراء الأُسرة الإمبراطُوريَّة النّمساويَّة، سابقاً. المُترجم).

ردَّ بوقاحة وترويع ومُواجهة. وبالتَّالي؛ رفض توضيح أسباب ثروته. ورفض قبول التّحويل الذي أمر به الأُسقُف. افتقاراً لتُهمة أكبر، اتَّهمه الأُسقُف بالسِّيمُونيَّة[1] - إغراء الجماهير بشكل محظور - وبالتَّالي؛ أوقفته المحكمة المحليَّة. سُونير ناشد الفَاتيكَان، الذي برَّأه، وأعاده إلىٰ منصبه.

في 17 يناير/ كانون الثَّاني عام 1917، سُونير - آنذاك في سنته الخامسة والسِّتِّين - عانىٰ من جلطة مُفاجئة. إنَّ تاريخ 17 يناير/ كانون الثَّاني - رُبَّما - يُثير الغُمُوض. فهُو يُظهر التَّاريخ نفسه الذي علىٰ شاهدة قَبْر المركيزة، شاهدة القَبْر الذي نبشه سُونير. وأيضاً 17 يناير/ كانون الثَّاني هُو يوم عيد القدِّيس سُولبيس. سُونير نفسه عمل شيئاً ما يتعلَّق بطائفة القدِّيس سُولبيس. لقد كان معهد القدِّيس سُولبيس هُو المكان الذي عهد سُونير بالمَخطُوطَات إلىٰ «آبي بيل» وإلىٰ «إميل هُوفيت». لكنْ؛ في الحقيقة، إنَّ ما يجعل جلطة سُونير في 17 يناير/ كانون الثَّاني أكثر ريبة هُو أنَّه قبل خمسة أيَّام، في 12 يناير/ كانون الثَّاني، تلامذته في الأبرشيَّة صرَّحوا بأنَّه بدا في صحَّة يُحسَد عليها لرجل في عُمره، ومع ذلك؛ في 12 يناير/ كانون الثَّاني، طبقاً لإيصال في حيازتنا؛ ماري دينرنُود كانت قد طلبت تحضير تابوت لسيِّدها.

بينما كان سُونير يتمدَّد علىٰ فراش الموت، تمَّ استدعاء كَاهن من أبرشيَّة مُجاورة للاستماع إلىٰ الاعتراف النِّهائي، ولإدارة الطُّقُوس الجنائزيَّة. وصل الكَاهنُ حسب الأُصُول، وانعزل في غُرفة المريض.

طبقاً لشهادة شاهد عيان؛ أنَّه خرج بعد ذلك بقليل، يرتجف بوُضُوح. وطبقاً لأقوال أحدهم؛ أنَّه «لم يبتسم ثانية». في كلمات آخر أنَّ ذلك الكَاهن دخل في حالة اكتئاب حادٍّ دام عدَّة شُهُور. سواء تلك الرِّوايات كانت تُبالغ أم لا، الكَاهن رفض المَسْحَ بالزَّيت، والذي من المُفترض أنَّه من طُقُوس اعتراف سُونير النِّهائيَّة (أيْ رَفَضَ الكَاهنُ أداءَ الشّعائر النِّهائيَّة).

في 22 يناير/ كانون الثَّاني، سُونير مات بلا اعتراف. في الصَّباح التَّالي؛ جسده وُضِعَ بشكل عمودي علىٰ كُرسيّ علىٰ شُرفة بُرج المَجْدَليَّة، تكسوه عباءة مُزخرفة مُزيَّنة بشُرَّابات قرمزيَّة. بعض من

(1) (السِّيمُونيَّة: شراء المنصب الكَهَنُوتي، أو بيعُهُ. المُترجم).

النّادبين غير المعروفين من قبلُ، العديد منهم كانوا يسحبون شُرَّابة للذّكرىٰ من كساء الرَّجل الميِّت. لم يكن هُناك أيُّ تفسير لهذه المراسم. السُّكَّان المُعاصرون، أو سُكَّان رين لُو شاتُو كانوا في حَيْرَة كبيرة حول ذلك، كغيرهم من الآخرين.

قراءة وصيَّة سُونير تمَّ انتظارها بتوقُّعات عظيمة. لمُفاجأة وكَدَر كُلِّ شَخْص ـ علىٰ أيَّة حال ـ أعلن سُونير في وصيَّته بأنَّه مُفلس جدّاً. علىٰ ما يبدو؛ أنَّه في وقت ما قبل موته حوَّل كُلَّ ثروته إلىٰ ماري دينرنُود، التي شاركها حياته وأسراره لاثنَيْن وثلاثين عاماً. أو ـ رُبَّما ـ أغلب تلك الثَّروة كانت باسم ماري مُنْذُ البداية.

بعد موت سيِّدها، واصلت ماري عيش حياة مُريحة في فيلاَّ بيت عَنيا حتَّىٰ عام **1946**. بعد الحرب العالميَّة الثَّانية ـ علىٰ أيَّة حال ـ الحُكُومة الفرنسيَّة المُشكَّلة حديثاً أصدرت عُملة جديدة. كوسيلة احترازيَّة، المُتهرِّبون من الضَّرائب، والمُتواطئون، والذين يستغلُّون فترات الحُرُوب، والمُواطنون الفرنسيُّون جميعهم عندما يستبدلون الفرنكات القديمة بأُخْرَىٰ جديدة، عليهم توضيح مصادر تلك الأموال. ماري ـ بعد أنْ واجهتها مُصيبة توضيح مصدر الثَّروة ـ آثرت الفَقْرَ. وقد تمَّتْ رُؤيتها وهي تحرق كمِّيَّات كبيرة من العُملة الفرنسيَّة القديمة في حديقة الفيلا.

للسَّنوات السَّبع التَّالية؛ ماري عاشت بصُعُوبة، تدعمها بعض الأموال التي جنتها نتيجة بيع فيلاَّ بيت عَنيا. وقد وعدت المُشتري، السَّيِّد «نويل كُوربُو»، بأنَّها ستعهد إليه ـ قبل موتها ـ بـ«سرٍّ» عظيم سوف لن يجعله غنيّاً فقط، بل قويّاً أيضاً.

في **29** يناير/ كانون الثَّاني **1953** ـ علىٰ أيَّة حال ـ ماري ـ كَسَيِّدها السَّابق ـ عانت من جلطة مُفاجئة، وغير مُتوقَّعة، تركتْهَا جاثمة علىٰ فراش الموت، عاجزة عن النُّطق. بعد ذلك بقليل، وبتزامن مع الإحباط الحادِّ للسَّيِّد كُوربُو، ماتت ماري حاملة معها سرَّها.

الكُنُوز المُحتملة

هذه ـ في خُطوطها العريضة ـ كانت القصَّة التي نُشرت في فرنسا أثناء السِّتِّينيَّات. هذا كان الشَّكل الذي تعرَّفنا فيه ـ أوَّلاً ـ علىٰ هذه القصَّة. ونتيجة الأسئلة التي طرحت نفسها ضمن هذا الشَّكل من القصَّة، قُمنا ـ كغيرنا من الباحثين الآخرين في الموضوع ـ بمُواجهة أنفسنا بتلك الأسئلة.

السُّؤال الأوَّل واضح جدّاً. ماذا كان مصدر مال سُونير؟ من أين يُمكن أنْ تأتي مثل هذه الثَّروة المُفاجئة والهائلة؟ هل التَّفسير عادي في النِّهاية؟ أم هل كان هُناك شيء ما أكثر إثارة ذُو صلة بالموضوع؟ الإمكانيَّة الأخيرة تُضفي نوعيَّة مُثيرة إلىٰ اللُّغز، ونحنُ لا نستطيع أنْ نُقاوم أهواءنا للَعب دور المُحقِّقين.

بدأنا باعتبار التَّفسيرات المُقترَحَة من قِبَل الباحثين الآخرين. طبقاً للعديد منها؛ سُونير ـ في الحقيقة ـ كان قد وجد كَنزاً من نوع ما. هذه كانت فَرَضيَّة معقولة بما فيه الكفاية؛ إذْ إنَّ القرية وضواحيها ـ تاريخيّاً ـ تمتلك العديد من الأماكن المَخْفيَّة المُحتملة للذّهب، أو الجواهر.

في أوقات ما قبل التَّاريخ ـ علىٰ سبيل المثال ـ المنطقة حول رين لُو شاتُو عُدَّتْ موقعاً مُقدَّساً للقبائل السّلتيَّة[1]، التي عاشت هُناك؛ والقرية ـ بحَدِّ ذاتها ـ كان اسمها ريدي «Rhedae»؛ إذْ اشتُقَّ من اسم إحدىٰ تلك القبائل. في العهد الرُّوماني، المنطقة كانت مُزدهرة وحاشدة، فقد كانت مهمَّة لينابيعها الحارَّة العلاجيَّة، ولمناجمها. والرُّومان ـ أيضاً ـ عدُّوا الموقع مُقدَّساً. وجد الباحثون التّالون آثاراً عدَّة لمعابد وَثَنيَّة.

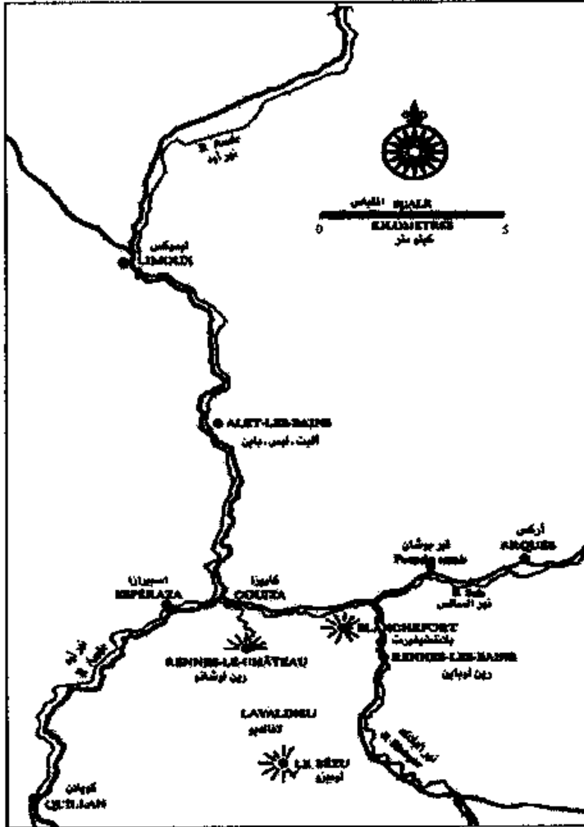
أثناء القرن السَّادس، هذه القرية الصّغيرة الواقعة علىٰ قمَّة الجبل يُفترَض أنَّها كانت بلدة بلغ تعدادها السُّكّاني حوالي 30 ألفاً.

في نُقطة ما يبدو بأنَّها كانت العاصمة الشّماليَّة للإمبراطُوريَّة التي حَكَمَها القُوطيُّون الغربيُّون، الشُّعُوب التّيُوتُونيَّة[2]، الذين زحفوا غرباً من أُورُوبا الوُسْطَىٰ، وَطَرَدُوا رُومَا، وأَسْقَطُوا الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، وأَسّسوا حضارتهم الخاصَّة، التي امتدَّت علىٰ جانبَيْ سلسلة جبال بيرينه.

(1) (السَّلتيّ: أحد أفراد عِرْق هنديّ أُورُوبيّ قطَن ـ في ما مضىٰ ـ أجزاءً واسعة من أُورُوبة الغربيَّة. المُترجم).
(2) (التّيُوتُونيّ: واحد التّيُوتُون، وهُم شعب جرمانيّ أو سلتيّ قديم. المُترجم).

لخمسهائة سنة أُخرىٰ، بقيت البلدة مُقاطعة هامَّة، أو «Comté of Razes». بعد ذلك، في بداية القرن الثَّالث عشر، جيش الفُرسان الشّمالي تقدَّم نحو «لانغدُوق»[1]؛ لإخماد الكَاثَار، أو الـ«البيجينيِّيْن» (Albigensian)، عادِّين بدعة أنَّ الغنائم الغنيَّة للمنطقة لهم.

أثناء الأعمال الوحشيَّة التي قامت بها ما سُمِّيَتْ بحملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة، رين لُو شاتُو كانت قد أُسِرَتْ، وتحوَّلت كإقطاعيَّة من يدٍ لأُخرىٰ. بعد قرن ورُبع، في فترة عام 1360م، أُصيب السُّكَّان المحلِّيُّون بالطَّاعون؛ وقرية رين لُو شاتُو حُطِّمَتْ ـ بعد ذلك بقليل ـ من قِبَل قُطَّاع الطُّرُق الكاتالانيِّيْن المُتنقِّلين.



قرية رين لُو شاتُو وضواحيها

(1)(مُقاطعة سابقة ومنطقة فرنسيَّة تاريخيَّة. المُترجم).

حكايات عن الكَنز الرَّائع مُتشابكة مع العديد من هذه التَّقلُّبات التَّاريخيَّة. الزَّنادقَة الكَاثَار ـ علىٰ سبيل المثال ـ يُعتقَد بأنَّهم كانوا يمتلكون شيئاً رائعاً، ومُقدَّساً جدّاً، ألا وهُو ـ طبقاً لعدد من الأساطير ـ «الكَأس المُقَدَّسَة». دفعت هذه الأساطيرُ ريتشاردَ وانجير ـ علىٰ ما يُقال ـ للحجِّ إلىٰ رين لُو شاتُو قبل إعداد أُوبراه الأخيرة، بارزيفال ـ وأثناء الاحتلال الألماني بين عامَيْ **1940 ـ 1945** من قِبَل القُوَّات الألمانيَّة، وطبقاً للآثار التي خلَّفها وانجير ـ قيل بأنَّه قام بعدد من عمليَّات التَّنقيب غير المُثمرة علىٰ مقربة. كان هُناك ـ أيضاً ـ الكَنز المُختفي لفُرسان الهَيكَل، الذين قام زعيمهم الأعظم، بيرتراند دُو بلانشيفورت، بتجهيز لعمليَّات تنقيب غامضة مُعيَّنة علىٰ مقربة.

طبقاً الرِّوايات كُلِّها؛ عمليَّة التَّنقيب تلك كانت ذات طبيعة سرِّيَّة للغاية، وقد نُفِّذت من قِبَل فريق مُستورد خصِّيصاً من عُمَّال المناجم الألمان.

في الحقيقة؛ إنْ كان كَنز من نوع ما لفُرسان الهَيكَل قد أُخفي حول رين لُو شاتُو، فهذا قد يُوضِّح الإشارة إلىٰ «Sion» في المَخطُوطَة التي اكتشفها سُونير.

كان هُناك كُنُوز مُحتملة أُخرىٰ أيضاً. بين القرنَيْن الخامس والثَّامن؛ مُعظم المُودم فرنسا حُكمت بسُلالة الميرُوفنجيِّين[1]، التي تضمَّنت الملك داغُوبرت الثَّاني.

رين لُو شاتُو، في عهد داغُوبرت، كانت معقل القُوطيِّين الغربيِّين، وداغُوبرت نفسه كان مُتزوِّجاً من أميرة قُوطيَّة. البلدة ـ لرُبَّما ـ كانت ـ نوعاً ما ـ الخزانة المَلَكيَّة؛ وهُناك وثائق تتكلَّم عن الثَّروة العظيمة التي حُشدَت من قِبَل داغُوبرت للغزو العَسْكَريّ، وأُخفيت في ضواحي رين لُو شاتُو. إذا كان سُونير قد اكتشف مثل هذا المُستودع، فإنَّ ذلك سيشرح سبب الإشارة إلىٰ داغُوبرت في الرُّمُوز.

الكَاثَار، وفُرسان الهَيكَل، وداغُوبرت الثَّاني. وحتَّىٰ إنَّه كان هُناك كَنز مُحتمل آخر - الغنيمة الواسعة التي جُمِّعَتْ من قِبَل القُوطيِّين أثناء اجتياحهم العاصف عبر أُورُوبا. هذا ـ لرُبَّما ـ يكون شيئاً

(1) (ميرُوفنجي: ذُو علاقة بالأُسرة الفرنكيَّة (الفرنجيَّة) الأُولىٰ، التي تولَّت الحُكم في بلاد الغال وألمانيا من حوالي 500 إلىٰ 751 ب. م. المُترجم).

ما أكثر من مُجرَّد غنيمة تقليديَّة، رُبَّما تكون مواد ذات صلة هائلة - رَمْزِيَّاً ودينيَّاً ـ للدّيانة الغربيَّة. رُبَّما ـ باختصار ـ تتضمَّن الكَنز الأُسطُوري لهَيكَل القُدْس، الذي ـ وبدرجة أكبر من كَنز فُرسان الهَيكَل ـ يكفل الإشارات لكلمة «Sion».

في عام 66 بعد الميلاد، فلسطين انتفضت ضدَّ العُبُوديَّة الرُّومانيَّة. بعد أربع سنوات، عام 70 بعد الميلاد، هُدِّمَت القُدْس بجحافل الإمبراطُور تحت قيادة ابنه، تيتُوس. الهَيكَل بنفسه سُلب، ومُحتويات أقدس المُقدَّسات أُعيدَتْ إلىٰ رُومَا. كما هي مُصوَّرة علىٰ قوس نصر تيتُوس، كانت تلك المُمتلكات تشتمل علىٰ شمعدان من الذَّهَب الخالص ذي سبعة شُعب، وهُو مُقدَّس جدَّاً عند اليهُوديَّة، ومن المُحتمل ـ أيضاً ـ أنْ تتضمَّن سفينة الميثاق[1].

بعد ثلاثة قُرُون ونصف، عام 410 بعد الميلاد، رُومَا ـ بدورها ـ كانت قد سُلبَتْ من قِبَل القُوطيِّيْن بقيادة ألارك[2] العظيم، الذي سلب ـ عَمَليَّاً ـ كامل ثروة «المدينة الأبديَّة». وُفقاً لما يُخبرنا به المُؤرِّخ بُروكوبيُوس، ألاريك هرب مع «كُنُوز سُلَيْمان، ملك اليهُود، منظر جدير بالمُشاهدة، فقد كانت مُعظمها مُزيَّناً بالزُّمُرُّد، وقد سُرِقَتْ ـ فيما مضىٰ ـ من القُدْس من قِبَل الرُّومان».

الكَنز ـ إذاً، رُبَّما ـ هُو مصدر ثروة سُونير غير المُفسَّرة. الكَاهن ـ لرُبَّما ـ اكتشف عدَّة كُنُوز، أو ـ لرُبَّما ـ اكتشف كَنزاً وحيداً، ذلك الكَنز الذي تنقَّل مراراً وتكراراً عبر القُرُون، مارَّاً من هَيكَل القُدْس، إلىٰ الرُّومان، إلىٰ القُوطيِّيْن، وفي النِّهاية؛ إلىٰ الكَاثَار، و/ أو إلىٰ فُرسان الهَيكَل. إنْ كان الأمر كذلك، فذلك سيُفسِّر لماذا الكَنز «عائد» لكُلٍّ من داغوبورت الثَّاني، وإلىٰ «Sion».

لهذا الحدِّ قصَّتنا بدت بأنَّها ـ جَوْهَريَّاً ـ حول قصَّة كَنز. وقصَّة الكَنز ـ حتَّىٰ وإنْ كانت تتعلَّق بكَنز هَيكَل القُدْس ـ هي ـ في النِّهاية ـ ذات صلة وأهمِّيَّة محدودة. النَّاس يكتشفون الكُنُوز علىٰ اختلافها بشكل مُتواصل. مثل هذه الاكتشافات هي غامضة ومُثيرة في أغلب الأحيان، والعديد منها

---

(1) (سفينة الميثاق ـ في اليهُوديَّة ـ هي مُستودع مُقدَّس. ذُكرت كثيراً في التَّوراة، السَّفينة كما وُصفت في سفر الخُرُوج (25) هي صُندُوق من خشب الخرنوب. عُرفَتْ ـ أيضاً ـ بسفينة القانون، أو سفينة الشَّهادة، أو سفينة الله. الصُّندُوق كان طُوله ثلاثة أقدام، وعرضه قَدَمَيْن، وارتفاعه قَدَمَيْن، وتحتوي ـ طبقاً لمصادر المُختلفة ـ عصا هارون، وقدر المنّ، والألواح الحجريَّة التي عليها الوصايا العشر. المُترجم).

(2) (ألارِك (370؟ ـ 410 م). ملك القُوط الغربيِّيْن (395 ـ 410 م). احتلَّ رُومَا (عام 410 م). المُترجم).

يُسلِّط ضوءاً مُهمّاً علىٰ الماضي. بضعة منها ـ علىٰ أيّة حال ـ ليس له أيُّ نُفُوذ مُباشر، أو سياسي، أو ما عدا ذلك علىٰ وقتنا الحاضر. بالطَّبع؛ ما لم يتضمَّن ذلك الكَنز سرّاً من نوع ما، ومن المُحتمل أنْ يكون سرّاً خطيراً جدّاً.

نحنُ لم نحسم النّقاش بأنَّ سُونير اكتشف كَنزاً. في الوقت نفسه؛ بدا واضحاً إلينا بأنّه أيّاً كان الشَّيء الآخر الذي اكتشفه، فإنّه قد اكتشف ـ أيضاً ـ سرّاً، سرّاً تاريخيّاً ذا أهمّيَّة كبيرة بالنِّسبة لعصره، ورُبَّما بالنِّسبة لوقتنا الرَّاهن أيضاً. مُجرَّد المال، أو الذَّهَب، أو الجواهر، لن تُوضِّح ـ بذاتها ـ عدداً من مظاهر قصَّته. إنَّها لا تُفسِّر تقرُّبه من حلقة هُوفيت، علىٰ سبيل المثال، وعلاقته مع ديبُوسي، واتِّصاله بـ إيمّا كالف. إنَّها لا تُوضِّح اهتمام الكَنيسَة الكبير بالمسألة، والحصانة التي بها تحدَّىٰ سُونير أُسقُفَهُ، وتبرئته اللَّاحقة من قِبَل الفَاتيكَان، والتي بدا أنَّها اتَّخذت موقفاً طارئاً ومُستعجلاً حيال هذه المسألة. إنَّها لا تُفسِّر رفضَ الكَاهن في تنفيذ طُقُوس الموت علىٰ رجل يموت، أو زيارة الأرشيدُوق إلىٰ قرية صغيرة نائية في بيرينه. ولا حتَّىٰ المال، أو الذَّهَب، أو الجواهر، يُمكنها أنْ تُوضِّح الهالة القويَّة للغُمُوض المُحيط بالقضيَّة برُمَّتها، من الرُّمُوز المُشفَّرة المُتقنة، إلىٰ ماري دينرنُود، التي حرقت ميراثها من الأوراق النَّقْديَّة. وماري ـ بنفسها ـ وعدت بإباحة «سرٍّ» لا يمنح مُجرَّد الثَّروة، بل «القُوَّة» أيضاً.

علىٰ هذه الأُسُس بنينا قناعتنا ـ علىٰ نحو مُتزايد ـ بأنَّ قصَّة سُونير تضمَّنت شيئاً ما أبعد من مُجرَّد كُنُوز، وبأنَّها تضمَّنت سرّاً من نوع ما، سرّاً لابُدَّ أنّه كان جداليّاً بالتَّأكيد. بكلمة أُخرىٰ؛ بدا إلينا بأنَّ اللُّغز لم ينحصر في قرية هادئة بعيدة، وكَاهن من القرن التَّاسع عشر. مهما كان ذلك اللُّغز، فقد انطلق شُعاعه من رين لُو شاتُو، وأنتج موجات ـ حتَّىٰ إنَّه قد يكون هُناك موجة مَدِّيَّة مُحتملة ـ في العالم خارجها.

هل ثروة سُونير كان من المُمكن أنْ تأتي من شيء ما ليس له أيّة قيمة ماليّة جَوْهَريَّة، بل من معرفة من نوع ما؟!

إنْ كان الأمر كذلك، هل هذه المعرفة كان من المُمكن أنْ تتحوَّل إلىٰ حساب ماليٍّ؟!

هل من المُمكن أنْ يُستعمَل ذلك الشَّيء لابتزاز شَخص ما، علىٰ سبيل المثال؟!

هل ثروة سُونير كانت وسيلة لدَفْعه إلىٰ الصّمت؟!

عرفنا بأنَّه استلم مالاً من الأرشيدُوق يُوهان فُون هاسبُورغ. في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ مهما كان «سرُّ» الكَاهن، بدا بأنَّه دينيّاً لدرجة أكبر من كونه سياسيّاً في طبيعته.

علاوةً علىٰ ذلك؛ علاقاته مع الأرشيدُوق النّمساوي، طبقاً للرِّوايات كُلِّها؛ كانت وُدِّيّة بشكل خاصٍّ. من النَّاحية الأُخْرَىٰ، كان هُناك مُؤسَّسة واحدة ـ في كافَّة أوقات نهاية سُونير المهنيَّة ـ تبدو بأنَّها كانت خائفة منه بوُضُوح، وكانت ترعاه كالطّفل؛ إنَّها الفَاتيكَان.

هل سُونير كان يُمكن أنْ يبتزَّ الفَاتيكَان؟!

القيام بمثل هذا الابتزاز سيكون جريئاً وخطراً بالنِّسبة لرجل واحد، أيّاً كانت إجراءاته الوقائيَّة.

ولكنْ؛ ماذا لو كان قد سُوعد ودُعم في مشروعه من قِبَل الآخرين، الذين منصبهم السّامي يجعلهم في حصن منيع بالنِّسبة للكَنيسَة، مثل وزير الدّولة الفرنسي للشُّؤُون الثَّقافيَّة، أو الأرشيدُوق؟

ماذا لو أنَّ الأرشيدُوق يُوهان كان ـ فقط ـ وسيطاً، والمال الذي كان يُمنَح لسُونير يصدر ـ في الحقيقة ـ من صناديق رُومَا[1]؟.

---

(1) (لقد قُمنا مرَّتَيْن بتدقيق الأرشيفات ذات العلاقة في الفَاتيكَان، وفي المرَّتَيْن كلتَيْهما ذكر باحثونا أنَّه لم يتمّ العُثُور هُناك علىٰ أيّة إشارة إلىٰ سُونير. حتّىٰ إنَّه ليس هُناك أيُّ سجلٍّ لوُجُوده، إنَّها فجوة مُحيِّرة في سجلَّات الفَاتيكَان، التي تكون مُفصَّلة عادةً. ذلك يقترح بأنَّ كُلَّ المعلومات بخُصُوص هذا الكَاهن انتُزعَتْ عمداً. المُؤلِّفون).

المكيدة

في فبراير/ شُباط 1972، عُرض فيلم «كَنز القُدْس المفقود؟» الذي هُو أوَّل أفلامنا الثَّلاثة عن سُونير، ولُغز قرية رين لُو شاتُو. الفيلم لم يتضمَّن أيَّة مزاعم جَدَليَّة؛ لقد كان ـ ببساطة ـ «قصَّة أساسيَّة»، كما تمَّ سَرْدُها في الصَّفحات السَّابقة. ولا، لم يكن هُناك أيُّ تخمين حول «سرٍّ هائل»، أو ابتزاز عالي المُستوىٰ. أيضاً؛ يُسْتَحَقُّ التّذكير بأنَّ الفيلم لم يستشهد بـ إميل هُوفيت، الكَاهن والتِّلميذ الشّابّ في باريس، والذي له عهد سُونير بالمَخْطُوطَات، بالاسم.

رُبَّما لا يدعو للاستغراب أنَّنا استلمنا طوفاناً من البريد. البعض عرض اقتراحات تخمينيَّة مُثيرة. البعض منها كان مجَّانيَّاً. البعض منها كان سخيفاً. من بين كُلِّ هذه الرَّسائل، هُناك واحدة، والتي لم يرغب الكاتب بأنْ ننشرها، بدا أنَّها تتطلَّب انتباهاً خاصَّاً. جاءت من كَاهن أنجليكاني مُتقاعد، وبدت فُضُوليَّة واستفزازيَّة من عُنوانها «النَّتيجة الخاطئة».

مُراسلنا كَتَبَ بصلاحيَّة ويقين مُطلق. وضع مزاعمه بصراحة، وبشكل حاسم، بدُون إسهاب، وبحياد واضح، وبلا مُبالاة، إنْ كُنَّا نُصدِّقه، أم لا. لقد صرَّح ـ بشكل قاطع ـ أنَّ «الكَنز»، لم يتضمَّن ذهباً، أو أحجاراً كريمة. بالعكس؛ شمل «بُرهاناً قاطعاً» بأنَّ الصّلب كان احتيالاً، وبأنَّ السَّيِّد المسيح كان حيَّاً إلىٰ وقت مُتأخِّر حتَّىٰ عام 45 م.

هذا الادِّعاء بدا سخيفاً بشكل واضح. حتَّىٰ بالنِّسبة لشَخْص مُلحد عن قناعة، ما الذي يُمكن أنْ يكون «بُرهاناً محسوماً» بأنَّ السَّيِّد المسيح نجا من الصّلب؟ لقد كُنَّا عاجزين عن تخيُّل أيِّ شيء يُمكنه أنْ يُنكر ـ أو لا يُنكر ـ وُجُود ليس «بُرهاناً» فحسب، بل «بُرهاناً حاسماً». في ذلك الوقت؛ الثِّقة المُطلقة بالزّعم استجدىٰ الحُصُول علىٰ المزيد من الإيضاح والإسهاب. كاتب الرِّسالة وضع عُنواناً للرَّدّ. وفي أوَّل فُرصة؛ عزمنا علىٰ رُؤيته، وحاولنا إجراء مُقابلة معه.

شَخْصيَّاً؛ كان كتوماً، لدرجة أكبر ممَّا هُو عليه في رسالته. وبدا أنَّه مُتأسِّف لأنَّه كَتَبَ إلينا أوّلاً. رفض التَّوسُّع في إشارته إلىٰ «بُرهان حاسم»، وتطوَّع ـ فقط ـ بجُزء إضافي واحد من المعلومات. قال: إنَّ هذا «البُرهان»، ـ أو وُجُوده علىٰ أيِّ حال ـ قد أُبيح له من قِبَل رجل دين أنجليكاني آخر، «كانون ألفريد ليسلي ليلي» (Canon Alfred Leslie Lilley).

ليلي، الذي مات عام 1940، نُشر علىٰ نحو واسع، ولم يكـن مجهـولاً. مُعظـم فـترات حياتـه؛ حافظ علىٰ صلة مُستمرَّة مع الحَرَكَة العَصْرَانيَّة[1]، التـي تمركـزت ـ أوَّليّـاً ـ في القـدِّيس سُـولبيس في باريس. عمل «ليلي» ـ في شبابه ـ في باريس، وكان عارفاً إميل هُوفيت. دائرة الأثر اكتملت. ادِّعاءات الكَاهن ـ مهما كانت غير معقولة، بعد تحدُّثها عن اتِّصال بـين «لـيلي» و هُوفيـت ـ لا يُمكـن أنْ يـتمّ تجاهلها ببساطة.

دليل مُماثل لسرٍّ كبير كان قد جاء عندما بدأنا بالبحث في حياة نيكُولاس بُوسَّان، رسَّام القـرن السَّابع عشر العظيم، الذي اسمه تكرَّر في كافَّة أنحاء قصَّة سُونير. بُوسَّان 1656، الذي كـان يعـيش في رُومَا في ذلك الوقت، تلقَّىٰ زيارة من آبي لويس فاوكيت، شقيق نيكُـولاس فاوكيـت، مُـدير ماليَّـة لويس الرَّابع عشر في فرنسا. من رُومَا، آبي بعث رسالة إلىٰ أخيه يصف الاجـتماع ببُوسَّـان. جُـزء مـن هذه الرِّسالة يستحقُّ الاقتباس.

«أنا وهُو ناقـشنا بعـض الأشـياء، والتـي سـأكون ـ بسُهُولة ـ قـادراً عـلىٰ توضـيحها إليـكَ بالتَّفصيل، أشياء ستُعطيكَ ـ عبر السَّيِّد بُوسَّان ـ الفوائدَ، التي حتَّىٰ المُلُوك سـيُعانون كثـيراً لـسَحْبِها منه، والتي ـ طبقاً له ـ من المُحتمل أنَّه لن يستطيع أحد اكتشافها ثانية في القُرُون القادمة. وما هُو أكثـر من ذلك، هذه أشياء من الصَّعب جدّاً اكتشافها؛ إذْ إنَّه لا يُوجـد أيُّ شيء ـ الآن ـ عـلىٰ هـذه الأرض يُمكنه أنْ يُثبت بأنَّه يُشكِّل ثروة أفضل من هذه الاكتشافات، أو حتَّىٰ يُساويها[2]».

لم يكن المُؤرِّخون ولا كُتَّاب الـسِّيَر لبُوسَّـان أو فُوكيـت كـانوا قـادرين ـ عـلىٰ الإطـلاق ـ أنْ يُوضحوا هذه الرِّسالة، والتي ـ بشكل واضح ـ تُلمِّح إلىٰ مسألة غامضة ما ذات نتيجة هائلة. بعـد أنْ استلم نيكُولاس فُوكُوت الرِّسالةَ بوقت قصير، اعتُقل، وسُجن مدىٰ الحياة. طبقاً لبعض الرِّوايـات؛ قيل إنَّه سُجن ـ بشكل قاس ـ في زنزانة مُنفردة، بعيداً عن أيِّ اتِّـصال بـالآخرين، وبعـض المُـؤرِّخين يعدُّون أنَّه مُرشَّح لأنْ يكون الرَّجل ذا القناع الحديدي. في هذه الأثناء؛ مُراسلاته كُلُّها صُـودرت مـن قِبَل لويس الرَّابع عشر، والتي فتَّشها كُلَّها شَخْصيّاً.

---

(1) (حَرَكَة في الفِكْر الكَاثُوليكي سعت إلىٰ تأويل تعاليم الكَنيسَة عـلىٰ ضـوء المفـاهيم الفَلْـسَفِيَّة والعِلْميَّـة الـسائدة في أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين. المُترجم).

(2) (أحد المصادر يقول إنَّ الرِّسالة ظلَّت في أرشيفات عائلة كُوسـبريساك، والتي كانت بارزة في الماسُونيَّة مُنـذُ القـرن الثَّامن عشر. المُؤلِّفون).

في السَّنوات التَّالية؛ الملك صمَّم باذلاً ـ قصارىٰ جهده ـ للحُصُول علىٰ لوحة بُوسَّان الأصـليَّة «Les Bergers d'Arcadie»، وعندما نجح أخيراً، عُزِلَتْ في شُققه الخاصَّة في فيرساي.

مهما كانت عظمتها الفنيَّة، الصُّورة تبدو بأنَّها بريئـة بـما فيـه الكفايـة. في المُقدِّمـة ثلاثـة رُعـاة وراعية يقفون عند قَبْر أثري كبير، يتأمَّلون النَّقْش الذي علىٰ الحجارة المُجاورة:

«ET IN ARCADIA EGO»[1] .

في الخلفيَّة؛ يظهر منظر طبيعي جبلي وعر مـن النَّـوع الـذي ارتـبط بـه بُوسَّـان عُمُومـاً. طبقـاً لأنطوان بلونت، بالإضافة إلىٰ خُبراء آخرين في فنِّ بُوسَّان؛ هذا المنظر الطَّبيعي كـان أُسـطُوريَّاً تماماً: مُنتج من خيال الرَّسَّام.

علىٰ أيَّة حال؛ في أوائل عام 1970، قَبْر فعلي حُدِّد مكانه، مُماثل لذلك الموجود في الصُّورة؛ من حيثُ الأبعاد، والشَّكل، والوضع، والنَّباتات المُحيطة، حتَّىٰ في البُرُوز الدَّائري للـصَّخرة، الـذي فيـه يُريح أحدُ رُعاة بُوسَّان قَدَمَهُ. هذا القَبْر يُوجد ـ فعليَّاً ـ في أطراف قرية تُـدعىٰ «آركـس» (Arques)، والتي تبعد ـ تقريباً ـ ستَّة أميال عن رين لُو شاتُو، وثلاثة أميال عن قلعة بلانشيفورت. إذا وقف المرء أمام القَبْر، فالمشهد يتعذَّر تميُّزه ـ عَمَليَّاً ـ عن ذلك في الصُّورة. وبعد ذلك؛ أصـبح مـن الواضـح بـأنَّ أحد القمَم في خلفيَّة الصُّورة هي رين لُو شاتُو.

ليس هُناك إشارة إلىٰ عُمر القَبْر. رُبَّما ـ بالطَّبع ـ شُيِّد مُؤخَّراً، ولكنْ؛ كيف بُناته حـدَّدوا مكانـاً يُشبه ـ بالضَّبط ـ المكان الذي في الصُّورة؟

في الحقيقة؛ يبدو بأنَّه شُيِّد ـ تماماً ـ في عهد بُوسَّان، ولوحـة «Les Bergers d'Arcadie» يبـدو أنَّها تمثيل مُخلص للموقع الفعلي. طبقاً لأقوال الفلَّاحين في المنطقة القريبة من القَبْر؛ إنَّ القَـبْر موجـود هُناك مُنْذُ أبعد فترة يستطيعون، وأجدادهم، أنْ يتذكَّروها. ويُقال إنَّه يُوجد ذكْر مُعـيَّن لهـذا القَـبْر في «سجلٍّ تاريخي» يعود تاريخه إلىٰ عام 1709م.

(1) (تعني باللَّاتينيَّة: أنا «أيْ الموت» في أركاديا أيضاً. المُترجم).

طبقاً للسِّجلَّات في قرية آركس؛ الأرض التي يُوجد فيها القَبْر تعود إلىٰ شَخْص أمريكي «لويس لُورانس» من بُوسطن عاصمة ولاية ماسُوتشُوستس[1]، وذلك حتَّىٰ وفاته عام **1950**. السَّيِّد لُورانس فَتَحَ القَبْر، ووجده فارغاً. وفيما بعد؛ تمَّ دَفْنُ زوجته وعمَّته فيه.

عند تحضير أوَّل أفلامنا لمحطَّة الـ BBC حول رين لُو شاتُو، أَمْضَيْنَا فترة صباحيَّة عند القَبْر.

توقَّفنا للغداء، وعُدنا بعد حوالي ثلاث ساعات. أثناء غيابنا كان هُناك مُحاولة عنيفة ومُتعمَّدة لتحطيم القَبْر.

إنْ كان هُناك ـ مرَّة ـ نَقْش ما حقيقيّ علىٰ القَبْر، فإنَّه ـ الآن ـ غير موجود، بعد أنْ تمَّ مَسْحُهُ.

أمَّا بالنِّسبة للنَّقْش الموجود علىٰ القَبْر في لوحة بُوسَّان؛ فهُو يبدو وكأنَّه موت رثائي تقليدي، موت يُعلن وُجُوده الكئيب حتَّىٰ في أركاديا، الجنَّة الرّعويَّة الشاعريَّة في الأُسطُورة الكلاسيكيَّة.

ومع ذلك؛ فإنَّ النَّقْش الكتابي مُثير للفُضُول؛ لأنَّه يفتقر إلىٰ فعل في الجُملة. التّرجمة ـ بشكل حَرْفي ـ هي:

وفي أركاديا أنا...

لماذا يجب أنْ يكون الفعل مفقوداً؟

رُبَّما لسبب فلسفي، لمنع كافَّة الأزمنة من الظُّهُور، فالأفعال إمَّا تُشير إلىٰ الماضي، أو الحاضر، أو المُستقبل، وبالتَّالي؛ فالمقصد هُو الإشارة إلىٰ شيء ما أبديّ؟ أو رُبَّما لسبب أكثر طبيعة.

الرُّمُوز في المَخْطُوطَات ـ التي وُجدَتْ من قِبَل سُونير ـ اعتمدت ـ بشدَّة ـ علىٰ لُعبة تبديل الأحرف، علىٰ إبدال موضع الأحرف، ومن ثَمَّ؛ إعادة ترتيبها.

(1) (ولاية في شمال شرق الولايات المُتَّحدة، يحدُّها فيرمونت، نيُوهامشير، المُحيط الأطلسي، جزيرة رود، كونيكتيكت، ونيُو يُورك. العاصمة: بُوسطن. السُّكَّان: 6.349.097 (2000). المُترجم).

فهل من المُمكن أنْ تكون عبارة «ET IN ARCADIA EGO» ـ أيضاً ـ نوعاً من لُعبة تبديل الأحرف؟ هل كان من المُمكن أنَّ الفعل حُذف لكي تتضمَّن الكتابةُ المنقوشةُ بعضَ الأحرف المُنتقاة بدقَّة؟ أحد مُشاهدي برنامجنا التّلفزيوني كتب إلينا أنَّه يقترح ـ بأنَّه في الحقيقة ـ قد يكون الأمر كذلك، وبالتَّالي؛ أعاد ترتيب الأحرف لتُشكِّل بياناً لاتينيّاً مُترابطاً منطقيّاً.

النَّتيجة كانت:

I TEGO ARCANA DEI

(انصرفْ! أنا أُخفي أسرارَ الله)

كُنَّا مسرورين ومفتونين بهذه التَّجربة المُبدعة. لم نُدرك ـ في ذلك الوقت ـ كم كان التّحذير مُناسباً بشكل هائل.

2

الكَاثَار والهَرْطَقَة العُظْمَىٰ

بدأنا تحقيقنا من نُقطة مألوفة بشكل أكيد بالنِّسبة لنا، الكَاثَار أو بدعة البيجينيِّيْن والحملة الصَّليبيَّة التي أُثيرت في القرن الثَّالث عشر. كُنَّا مُدركين ـ سَلَفَاً ـ أنَّ الكَاثَار ظهروا ـ بطريقة ما ـ في اللُّغز المُحيط بسُونير، وقرية رين لُو شاتُو. في المقام الأوَّل؛ زنادقة القُرُون الوُسْطَىٰ كانوا بأعداد كبيرة في القرية، وضواحيها، ممَّا جعلها تُعاني ـ بقسوة ـ أثناء حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة.

في الحقيقة؛ التَّاريخ الكامل للمنطقة مُنقَّع بدماء الكَاثَار، وبقايا تلك الدِّماء ـ سويَّة مع المرارة الشَّديدة ـ ماتزال موجودة إلىٰ يومنا هذا. العديد من الفلَّاحين في المنطقة ـ الآن ـ يُعلنون ـ بشكل صريح ـ تعاطفهم مع الكَاثَار. حتَّىٰ إنَّه يُوجد هُناك «كَنيسَة الكَاثَار»، وكذلك «بَابَا الكَاثَار»، الذي حتَّىٰ وفاته عام **1978**، عاش في قرية آركس.

علمْنَا بأنَّ سُونير كان قد تعمَّق في تاريخ وفُولكلُور موطنه المحليِّ. رُبَّما لم يكن باستطاعته أنْ يتجنَّب الاتِّصال بفكر وتقاليد الكَاثَار. لم يكن غافلاً عن أنَّ قرية رين لُو شاتُو كانت بلدة مهمَّة في القرنَيْن الثَّاني والثَّالث عشر، وبأنَّها كانت ـ نوعاً ما ـ الحصنَ المنيعَ للكَاثَار.

سُونير ـ أيضاً ـ لابُدَّ أنَّه اطَّلع علىٰ الأساطير العديدة المُتعلِّقة بالكَاثَار. لابُدَّ وأنَّه عرف بالإشاعات التي تربطهم بذلك الشَّيء الرَّائع، «الكَأس المُقَدَّسَة». وإنْ كان ريتشارد وانجير ـ بحثاً عن شيء ما يتعلَّق بالكَأس ـ قد زار قرية رين لُو شاتُو، فإنَّ سُونير ـ بلا شكٍّ ـ لن يكون غافلاً عن هذا الأمر أيضاً.

في عام **1890**، علاوةً علىٰ ذلك؛ رجل اسمه يُوليُوس دُونيل أصبح أميناً للمكتبة في كركسُون، وأسَّس كَنيسَة كَاثَاريَّة جديدة[1]. دُونيل بنفسه كتب بغزارة عن فكْر الكَاثَار، و في عام

---

(1) (في 1888، بينما كان يعمل في المكتبة البلديَّة في أُورلينز، دُونيل وجد مَخطُوطَة يعود تاريخها إلىٰ عام 1022، كُتبَتْ من قِبَل الغنوسطي الذي ـ لاحقاً، وفي السَّنة نفسها ـ أُحرق بسببها. قراءة هذه المَخطُوطَة حوَّلت دُونيل إلىٰ غنوسطي شره حُوْلُفون).

1896، أصبح عُضواً بارزاً في مُنظَّمة ثقافيَّة محلِّيَّة «مُجتمع الفُنُون والعُلُوم في كركسُون». في عام 1898، انتُخب ليكون سكرتير المُنظَّمة. هذا المُجتمع تضمَّن مجموعة من زُملاء سُونير، بينهم صديقه الأفضل، آبي هنري بُوديت. وكانت حلقة دُونيل الشَّخصيَّة الخاصَّة قد تضمَّنت إيـَّاهما كالف. وبالتَّالي؛ من المُمكن جدَّاً أنْ يكون سُونير ودُونيل يعرفان بعضهما بعضاً.

هُناك سبب آخر وأكثر إثارة يربط الكَاثَار بلُغز قرية ريـن لُـو شـاتُو. في إحدىٰ المَخْطُوطَات التي وُجدَتْ من قِبَل سُونير، النَّصُّ مُنقَّط ببضعة أحرف صغيرة ـ للدِّقَّة عددها ثمانية أحرف ـ تمَّ تمييزها عَمْدَاً من باقي الأحرف. ثلاثة من الأحرف تتَّجه لأعلىٰ الصّفحة، والخمسة الأُخْرَىٰ تتَّجه لأسفلها. هذه الأحرف الثمانية تُقرَأ ـ وُفقاً لتسلسلها ـ لتُكوِّن الكلمتَيْن التّاليتَيْن: «REX MUNDI» هذه إشارة واضحة إلىٰ تعبير كَاثَاري، يتمُّ تمييزه ـ بسُرعة وسُهُولة ـ من قِبَل أيِّ شَخْص مُلمٍّ بثقافة وفكْر الكَاثَار.

وُفقاً لهذه الحقائق، بدا من المعقول ـ وبشكل كاف ـ أنْ نبدأ ونشرع بتحقيقنا حول الكَاثَار. وبالتَّالي؛ بدأنا بالبحث في موضوعهم، في اعتقاداتهم، وتقاليدهم، في تاريخهم، وبيئتهم، وبالتَّفصيل. تحقيقنا فَتَحَ المجال أمام لُغز أبعد، وخلَّف العديد من الأسئلة المُثيرة.

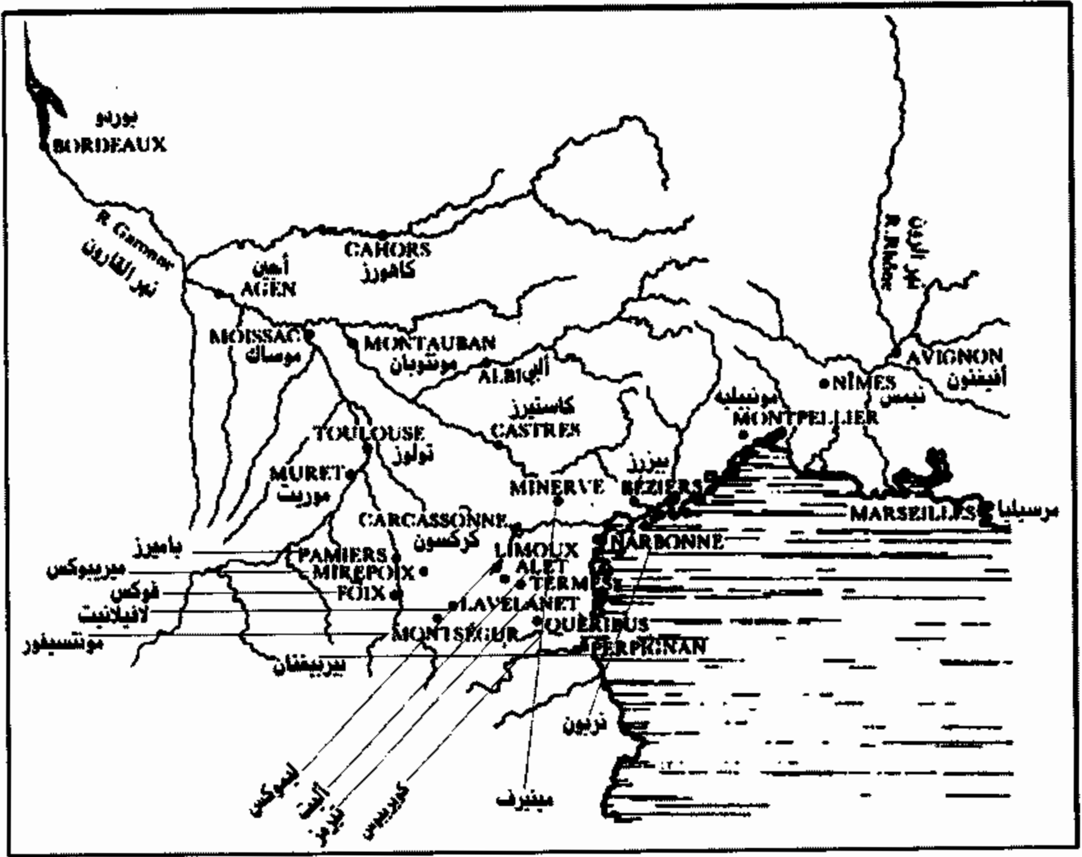
الحملة الصّليبيّة الألبيجينيّة

في عام 1209، جيش مُؤلَّف من حوالي ثلاثين ألف فارس وجُنُود مُشاة تقدَّموا من شمال أُورُوبا كزوبعة شرهة باتِّجاه لانغدُوق، التِّلال الجبليَّة الشّماليَّة الشَّرقيَّة بيرينه، التي هي ـ الآن ـ جنوب فرنسا.

في الحرب النّاتجة، تمَّ تدمير الأرض بالكامل، وتمَّ إتلاف المحاصيل، وبلدات ومُدُن هُدِّمَتْ، وكُلُّ السُّكَّان تمَّ ذَبْحُهُم. هذه الإبادة حدثت علىٰ نحو واسع جدّاً، وفظيع جدّاً، لدرجة أنَّها ـ لرُبَّما ـ تُشكِّل الحالة الأُولىٰ لـ«الإبادة الجماعيَّة» في التَّاريخ الأُورُوبي الحديث. في بلدة بيزير وحدها ـ علىٰ سبيل المثال ـ تمَّ ذَبْحُ 15 ألف رجل وامرأة وطفل علىٰ الأقلِّ، وجميعهم ذُبحوا معاً، العديد منهم ذُبِحَ في حَرَم الكَنيسَة ذاته. عندما سُئل ضابط من قِبَل مُمَثِّل للبَابَا كيف كان بإمكانه أنْ يُميِّز الزَّنادقَة من الصّادقين والمُؤمنين، الإجابة كانت، «اقتلوهم جميعاً، الله سيعرف مَنْ معه»، علماً أنَّ هذا البيان ـ علىٰ الرّغم من انتشاره الواسع ـ قد يكون مُزوَّراً.

علىٰ الرّغم من هذا، فإنَّه يُمثِّل الحماس المُتعصِّب والمُتعطِّش للدِّماء للأعمال الوحشيَّة التي مُورِسَتْ. المُمثِّل البَابَوي ذاته يكتب إلىٰ إنُوسنت الثَّالث في رُومَا، مُعلناً ـ بشكل فخور ـ بأنَّه «لم يتمّ استثناء؛ لا العُمر، ولا الجنس، ولا المنزلة».

الجيش المُهاجم اكتسح لانغدُوق بأكملها. بيبيغنان سَقَطَتْ، ونَاربُون سَقَطَتْ، وكاركسُون سَقَطَتْ، وتُولُوز سَقَطَتْ. وحيثُما عبر المُنتصرون، كانوا يتركون أثراً للدَّم، والموت، والمجازر.



لانغدُوق الكَاثار

هذه الحرب، التي دامت ـ تقريباً ـ أربعين سنة، ـ الآن ـ معروفة بحَمْلَة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة. كانت حملة صليبيَّة بالمعنىٰ الحقيقي للكلمة. تمَّ إعلانها من قِبَل البَابَا بنفسه. المُشاركون بتلك الحرب لبسوا الصَّليب علىٰ ستَرهم، كالصَّليبيِّيْن في فلسطين. والمُكافأة كانت ـ تماماً، كالتي كانت للصَّليبيِّيْن في الأرض المُقَدَّسَة ـ مَغفرة لكُلِّ الذُّنُوب، وتكفيراً لكُلِّ الخطايا، ومكاناً أكيداً في الجنَّة، وكُلُّ الغنائم يحقُّ للشّخص أنْ يسلبها.

في هذه الحملة الصَّليبيَّة ـ علاوةً علىٰ ذلك ـ الشّخص لم يكن بحاجة لأنْ يعبر البحرَ. وبمُوجب القانون الإقطاعي، كان المُرء مُلزمَاً بأنْ لا يُكافح لأكثر من أربعين يوماً، بالطَّبع؛ علىٰ افتراض أنَّ المرء ليس مُهتمَّاً بالسَّلب.

في الوقت الذي انتهت فيه الحملة الصَّليبيَّة، لانغـدُوق كانـت قـد تغـيَّرت تمامـاً، مُنكفئـة إلىٰ الهَمَجيَّة التي تميَّزت بها بقيَّة أُورُوبا. لماذا؟ لماذا حصل كُلُّ ذلك الخراب، والوحشيَّة، والدَّمار؟!

في بداية القرن الثَّالث عشر، المنطقـة التـي هـي معروفـة ـ الآن ـ بلانغـدُوق لم تكـن ـ بـشكل رَسْمي ـ جُزءاً من فرنسا. كانت إمارة مُستقلَّة، والتي كانت لُغتها، وثقافتها، ونُظُمُها السِّياسيَّة تُـشبه الشِّمال بدرجة أقلّ من شبهها لإسبانيا، التـي كـان فيهـا ممالـك ليـون، وأرغـون، وقـشتالة. الإمـارة حُكمَتْ من قِبَل حفنة من العائلات النَّبيلة، أهمّها تلك العائلات التـي كانـت مـن نُـبلاء تُولُـوز وآل ترينكافيـل ذوي الـسُّلطة القويَّـة. وضـمن حُـدُود هـذه الإمـارة ازدهـرت الثَّقافـة، التـي ـ في ذلك الوقت ـ كان الأكثر تقدُّماً وتطوُّراً في المسيحيَّة، رُبَّما باستثناء بيزنطة.

لانغدُوق كان فيها الكثير من الشّبه ببيزنطة. التعلُّم ـ علىٰ سبيل المثال ـ كان مُقدَّراً لحَدٍّ كبـير، كما هُو الحال في شمال أُورُوبا. الفَلْسَفَة والنَّشَاطات الثَّقافيَّة الأُخرَىٰ ازدهرت؛ وكذلك الشّعر والحُبُّ اللّطيف؛ تمَّ تدريس اللُّغـات العَرَبيَّـة واليُونانيَّـة والعبريَّـة بحـماس؛ وفي لُونـد، وفي نـاربُون، كانـت المدارس المُكرَّسة لتعليم القَبَلانيَّة[1] مُزدهرة، وهـي التَّقليـد البـاطني القـديم لليهُوديَّـة. حتَّـىٰ طبقـة النُّبلاء كانت مُثقَّفة وأدبيَّة، في وقت كان فيه أكثر النُّبلاء الشّماليِّين لا يستطيعون أنْ يُوقِّعوا أسماءهم.

لانغدُوق، كبيزنطة، طبَّقت ـ أيضاً ـ ديناً سهلاً مُتسامحاً، بالمُقارنة مع الحماس المُتعـصِّب الـذي ميَّز أجزاء أُخرىٰ من أُورُوبا. نزعات في الفِكْر الإسلامي واليهُودي ـ علىٰ سبيل المثال ـ تمَّ استيرادها عبر المراكز التِّجاريَّة البَحْريَّة؛ مثل مرسيليا، أو شقَّت طريقها عبر بيرينه من إسبانيا. في ذلك الوقـت؛ الكَنيسَة الرُّومانيَّة لم تتمتَّع باحترام كبير جدَّاً؛ رجال الدِّين الرُّومان في لانغدُوق، استناداً إلىٰ فـسادهم السَّيِّئ السُّمعة، لم ينجحوا إلَّا بتنفير عامَّة النَّاس. كان هُناك كَنائس ـ علىٰ سـبيل المثـال ـ لم يُقـرَأ فيهـا قدَّاس لأكثر من ثلاثين عاماً. العديد من الكَهَنَة أهملوا دُور العبادة والأبرشيَّات، والتفتوا إلىٰ الأعـمال التِّجاريَّة، أو العقارات الكبيرة. لدرجة أنَّ أحد رُؤساء أساقفة ناربُون لم يزرْ ـ قطُّ ـ أبرشيَّته.

---

(1) (القَبَلانيَّة: فَلْسَفَة دينيَّة سرِّيَّة، عند أحبار اليهُود وبعض نصارىٰ العصر الوسيط، مَبنيَّة علىٰ تفسير الكتاب المُقَدَّس تفسيراً صُوفيَّاً. المُترجم).

مهما كان فساد الكَنيسَة، المُهمُّ أنَّ لانغدُوق وصلت إلىٰ قمَّة الثَّقافة التي لم تشهدها أُورُوبا ثانية حتَّىٰ عصر النَّهضَة. لكنْ؛ كما في بيزنطة، كان هُناك عناصر الضّعف المقبول والمُنحطّ والمأساوي، الذي جعل المنطقة غير مُستعدَّة للهُجُوم، الذي أُطلق عنانه عليها بعد ذلك. لبعض الوقت؛ كُلٌّ من طبقة النُّبلاء الأُورُوبيَّة الشّماليَّة والكَنيسَة الرُّومانيَّة كانوا مُدركين لهذا الضّعف، وكانوا مُتلهِّفين لاستغلاله. طبقة النُّبلاء الشّماليَّة ـ لعدَّة سنوات ـ كانت تطمع بثروة وتَرَف لانغدُوق. والكَنيسَة كانت مُهتمَّة لأسباب خاصَّة بها. أهمُّ تلك الأسباب أنَّ نُفُوذها في المنطقة كان ضعيفاً. وبينما كانت الثَّقافة تزدهر في لانغدُوق، شيء آخر كان يزدهر؛ الهَرْطَقَة الواسعة للمسيحيَّة في القُرُون الوُسْطَىٰ.

وُفقاً لتصريحات سُلطات الكَنيسَة، لانغدُوق كانت قد «أُصيبَتْ» بهَرْطَقَة البيجينيِّيْن، الذي شُبِّه بـ«مرض الجُذام الكريه في الجنوب». وبالرّغم من أنَّ أتباع هذه البدْعة كانوا مُسالمين جَوْهَريَّاً، إلَّا أنَّهم شكَّلوا تهديداً خطيراً علىٰ السُّلطة الرُّومانيَّة، والذي هُو ـ في الحقيقة ـ أكثر التّهديدات خُطُورة يُمكن أنْ تُواجهها رُومَا للقُرُون الثَّلاثة التَّالية، وُصُولاً إلىٰ التَّعليمات التي أطلقها مارتن لوثر في حَرَكَة الإصلاح[1].

بحُلُول عام 1200، كان هُناك فُرصة جدُّ حقيقيَّة بأنْ تقوم هذه البدْعة بإزاحة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة من منصبها المسيحي المُهيمن في لانغدُوق. والذي كان أكثر شُؤماً في نَظَر الكَنيسَة، هُو أنَّها كانت تنتشر إلىٰ أجزاء أُخرىٰ في أُورُوبا، خُصُوصاً إلىٰ المراكز الحَضَريَّة في ألمانيا، وفلاندرز، وشمبانيا.

الزَّنادقَة عُرفوا بعدَّة أسماء. في عام 1165، تمَّتْ إدانتهم من قِبَل مجلس كَنَسي في بلدة ألبي في لانغدُوق. لهذا السَّبب، أو رُبَّما لأنَّ ألبي استمرَّت في كونها أحد مراكزهم، عُرفوا ـ غالباً ـ بـ«البيجينيِّيْن». في مُناسبات أُخرىٰ؛ دُعوا بالكَاثَار، أو الكثريِّيْن. كما تمَّتْ تسميتهم ـ أيضاً ـ بأسماء بِدَع أقدم بكثير؛ الآريُوسيِّيْن[2]، والمرشونيِّيْن[3]، والمانَوِيِّيْن[4].

---

(1) (حَرَكَة الإصلاح الدِّينيّ أو البرُوتستانتي في القرن السَّادس عشر. المُترجم).

(2) (آريُوسيّ: منسوبٌ إلىٰ آريُوس، وهُو كَاهن إسكندريّ (ت عام 336م) قال بأنَّ الابن (المسيح) غير مُساوٍ للآب (الله) في الجَوْهَر. المُترجم).

(3) (حَرَكَة ضلاليَّة مسيحيَّة في القرن الثَّاني، تمَّتْ إدانتها كبدْعة مسيحيَّة، وهي ترفض العهد القديم، والاعتقاد الذي يقول بأنَّ الله جُسِّدَ كإنسان في السَّيِّد المسيح. المُترجم).

(4) (المانَوِيّ: أحد أتباع ماني الفارسي (216؟ـ 276؟ ب. م) الذي دعا إلىٰ الإيمان بعقيدة ثَنَويَّة، قِوامها الصِّراع بين النُّور والظَّلام. المُترجم).

«البيجينيُّون» و«الكَاثَار» كانا ـ جَوْهَريَّاً ـ اسمَيْن جنسيَّيْن[1] بكلمة أُخرىٰ؛ هُما لم يُشيرا إلىٰ كَنيسَة مُتماسكة وحيدة، مثل كَنيسَة رُومَا، التي تتمتَّع بكيان راسخ وجازم ومُنظَّم من المَذْهَب وعلم اللَّاهُوت. الزَّنادقَة المَعنيُّون شملوا كثيراً من الطَّوائف المُتنوِّعة، العديد منها تحت إشراف زعيم مُستقلٍّ سيقوم أتباعه باتِّباع اسمه. وعلىٰ الرّغم من أنَّ هذه الطوائف لرُبَّما تمسَّكت ببعض المبادئ، إلَّا أنَّها تباعدت ـ بشكل جَذْري ـ عن بعضها البعض في التَّفاصيل. الأكثر من ذلك، مُعظم معلوماتنا حول الزَّنادقَة تُشتقُّ من المصادر الكَنَسيَّة؛ مثل محكمة التَّفتيش[2]. لكي نرسم صُورة عنهم من مصادر كهذه، كأنَّنا نُحاول رَسْم صُورة ـ برأيي ـ عن المُقاومة الفرنسيَّة من تقارير الـ«SS»[3]، والغستابو[4]. وبالتَّالي؛ من المُستحيل ـ عَمَليَّاً ـ تقديم خلاصة مُترابطة منطقيَّاً وجازمة حول ما شكَّلته ـ في الحقيقة ـ «أفكار الكَاثَار».

عُمُوماً؛ اشترك الكَاثَار في مذهب تناسخ الأرواح، وإلىٰ الاعتراف بالمبدأ الأُنثوي في الدِّين.

في الحقيقة، المُبشِّرون والمُعلِّمون في طوائف الكَاثَار كانوا من الجنسَيْن كلَيْهما. في الوقت ذاته؛ الكَاثَار رفضوا الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الأرثُذُوكسيَّة، وأنكروا صلاحيَّة التَّدرُّج في سُلطة الكَهَنَة، وأنكروا كُلَّ الشُّفعاء الرَّسميِّيْن والمُرسَّمين بين الإنسان والله. في صميم هذه النُّقطة تُطرح العقيدة المُهمَّة لدىٰ الكَاثَار ـ نَبْذ «الإيمان»، علىٰ الأقلِّ؛ كما أصرَّت عليه الكَنيسَة. «الإيمان» المقبول لدىٰ الكَنيسَة، استبدله الكَاثَار بإصرارهم علىٰ المعرفة المُباشرة والشَّخصيَّة؛ أيْ بتجربة دينيَّة، أو باطنيَّة، تُؤخَذ مُباشرة من المصدر الأصلي. هذه التَّجربة دُعيَتْ بـ«المعرفة الرُّوحيَّة»، مُشتقَّة من الكلمة اليُونانيَّة «gnosis» (أيْ المعرفة)، وبالنِّسبة للكَاثَاريِّيْن أخذت الأسبقيَّة علىٰ كُلِّ المذاهب والعقائد. وبمثل هذا التَّأكيد علىٰ الاتِّصال الشَّخصي المُباشر مع الله، أصبح الكَهَنَة والأساقفة والسُّلطات الكَهَنُوتيَّة الأُخْرَىٰ عديمة الفائدة، ولا حاجة لها.

---

(1) (جنسيّ: مُتعلِّق بجنس أحيائي. المُترجم).

(2) (ديوان، أو محكمة التَّفتيش: محكمة كَاثُوليكيَّة (نشطت بخاصَّة في القرنَيْن 15 و 16) مهمتَّها اكتشاف الهَرْطَقَة ومُعاقبة الهراطقة. المُترجم).

(3) (قُوَّة الشّرطة النازيَّة: مُنظَّمة شبه عَسْكَريَّة أُسِّسَتْ من قِبَل هِتْلَر في 1925 كقوىٰ حراسة شَخْصيَّة. أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، الـ«إس إس» كانت مسؤولة عن إدارة مُعسكرات الاعتقال. المُترجم).

(4) (الغستابو: البوليس السِّرِّي النازي. المُترجم).

الكَاثَار كانوا ـ أيضاً ـ يُؤمنون بمذهب الثَّنَوِيَّة[1].

كُلُّ الفِكْر المسيحي ـ بالطَّبع ـ يُمكن أنْ يُنظَر إليه ـ في النِّهاية ـ علىٰ أنَّه ثنوي، مُصرٌّ علىٰ النِّزاع بين مبدأين مُتعارضَيْن؛ الخير والشَّرّ، الرُّوح والجسد، المقامات البشريَّة الأعلىٰ والأوطأ.

لكنَّ الكَاثَار وصلوا بهـذا التَّفـرُّع الثُّنـائي إلىٰ نُقطـة أبعـد بكثـير ممَّـا هُيِّـت لـه الكَاثُوليكيَّـة الأرثُذُوكسيَّة. بالنِّسبة للرِّجال الكَاثَار كانوا السُّيُوف التي تُقاتل بهم الأرواح، ولا أحد يرىٰ الأيدي.

بالنِّسبة للكَاثَاريِّيْن؛ الحرب الدَّائمة تُشَنُّ بين كامل المخلوقات بين مبـدأين مُتناقـضَيْن؛ النُّـور والظَّلام، الـرُّوح والمـادَّة، الخـير والـشَّرُّ. الكَاثُوليكيَّـة تُـؤمن بوُجُـود إلـه واحـد، والـذي خـصمه، هُو الشَّيطان، والذي هُو ـ في النِّهاية ـ أدنىٰ منه مُستوىٰ.

أمَّا الكَاثَار ـ علىٰ أيَّة حال ـ؛ فلا يُؤمنون بوُجُود إله واحد فقط، بل اثنَيْن، ولهما ـ تقريباً ـ منزلة مُتكافئة. أحد هذَيْن الإلهَيْن ـ «الجيِّد» منهما ـ هُو غير مُجـسَّد كُلِّيَّـاً، وُجُـود أو مبـدأ الـرُّوح الـصَّافية، لا تشوبه عُيُوب المادَّة. هُو إله الحُبِّ. لكنَّ الحُبَّ يُعَدُّ ـ تماماً ـ غير مُتوافق مع السُّلطة؛ والخَلْـق المـادِّي كان توضيحاً للسُّلطة.

لذا؛ بالنِّسبة للكَاثَاريِّيْن، الخَلْق المادِّي ـ العالم بحَدِّ ذاته ـ كان شرِّيراً بشكل جَوْهَري. كُلُّ المادَّة شرِّيرة جَوْهَريَّاً. باختصار؛ الكون كان عملاً يدويَّاً من «إله مُغتصب»، إله الـشَّرِّ، كـما أسـماه الكَاثَـار «Rex Mundi» أيْ «ملك العالم».

تستند الكَاثُوليكيَّة إلىٰ ما قد يُسمَّىٰ الثُّنائيَّة الأخلاقيَّة. الشَّرُّ، مع أنَّـه ـ بالأسـاس ـ قـد يكـون صادراً عن الشَّيطان، يُظهر نفسه ـ بشكل أساسي ـ من خلال الرَّجل، وأعماله. علىٰ النَّقيض من ذلك، الكَاثَار اعتنقوا تقليد «الثُّنائيَّـة الكُوزمُولُوجيَّـة»[2]؛ الثُّنائيَّـة، التـي تخلَّلـت كامـل الحقيقـة. بالنِّـسبة للكَاثَاريِّيْن؛ كان هذا المُسلَّم الأساسي، لكنَّ استجابتهم له كانت تختلـف مـن طائفـة لأُخـرىٰ. طبقـاً لبعض الكَاثَار؛ الهدف من حياة الرَّجل علىٰ الأرض هي أنْ يتجاوز المادَّة، أنْ يهجر، ويـترك ـ بـشكل

(1) (مذهب يقول بأنَّ الكون خاضع لمبدأين مُتعارضَيْن؛ أحدهما خير، والآخر شرٌّ. المُترجم).

(2) (الكُوزمُولُوجيا: علْم الكَونيَّات، علْم يبحث في أصل الكون، وبنيتِهِ العامَّة، وعناصره، ونواميسِهِ. المُترجم).

دائم ـ أيّ ارتباط بأيٍّ شيء له صلة بمبدأ القُوَّة، وبالتَّالي؛ تحقيق الاتِّحاد مع مبدأ الحُبِّ. طبقاً لرجل كَاثَاري آخر؛ الهدف كان أنْ يستردَّ، ويُعوِّض المادَّة، وأنْ يُحوِّلها إلىٰ رُوح.

من المُهمّ الانتباه إلىٰ غياب أيّة عقيدة، أو مذهب، أو علم لاهوت راسخ. كما هُو الأمر في أكثر الانحرافات عن الأرثُذُوكسيَّة الأساسيَّة، هُناك سُلُوكيَّات مُعيَّنة مُعرَّفة بشكل طليق، وبالتَّالي؛ الالتزامات الأخلاقيَّة المُرافقة لهذه السُّلُوكيَّات كانت خاضعة للتَّفسير الفردي.

في وُجهة نَظَر الكَنيسَة الرُّومانيَّة؛ الكَاثَار كانوا يرتكبون بِدَعاً جدِّيَّةً في اعتبارهم أنَّ الخَلْقَ المادِّيَّ، نيابة عن أيِّ المسيحَيْن افتُرض أنَّه مات، هُو ـ جَوْهَريَّاً ـ شرٌّ، ويُشيرون ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّ الله ـ الذي خَلَقَتْ «كلمتُهُ» العالمَ «في البداية» ـ هُو مُغتصب. أكثر بِدَعهم جدِّيَّة ـ علىٰ أيَّة حال ـ كان موقفهم من السَّيِّد المسيح بنفسه. بما أنَّ المادَّة كانت شرِّيرة جَوْهَريَّاً، أنكر الكَاثَار بأنَّ السَّيِّد المسيح يُمكن أنْ يُشاطر المادَّة، وأنْ يكون مُجسَّداً بجسد، ويبقىٰ ابناً للرَّبِّ.

لذا؛ هُو كان ـ بالنِّسبة لبعض الكَاثَار ـ شيئاً معنويَّاً تماماً، «خيالاً»، كياناً من الرُّوح الصَّافية، والتي ـ بالطَّبع ـ لا يُمكن أنْ تكون صُلبَتْ.

يبدو أنَّ أغلبيَّة الكَاثَار عدُّوه نبيَّاً لا يختلف عن أيِّ نبي آخر، مخلوقاً هالكاً، مات علىٰ الصَّليب، نيابة عن مبدأ الحُبِّ. باختصار؛ لم يكن هُناك شيء ذُو معنىٰ رُوحي، ولا شيء من عالم ما وراء الطَّبيعة، لا شيء مُقدَّس عن الصّلب، في الحقيقة؛ إنْ كان هُناك ـ علىٰ الإطلاق ـ شيء ذُو صلة، فإنَّه يبدو أنَّ الكثير من الكَاثَار شكُّوا فيه.

في أيِّ حال من الأحوال، أنكر كُلُّ الكَاثَار ـ وبشدَّة ـ أهمِّيَّة الصَّلْب والصَّليب كلَيْهما، رُبَّما لأنَّهم شعروا بأنَّ هذَيْن المذهبَيْن لا يمتَّان بصلة، أو لأنَّ رُومَا قدَّستْهُمَا بحماس، أو لأنَّ الظُّرُوف الوحشيَّة لموت النبيّ لم يَبْدُ أنَّها تستحقُّ العبادة. والصَّليب ـ علىٰ الأقلّ بالاشتراك مع الجُمْجُمَة والصّلب ـ عُدَّا شعار «Rex Mundi»، سيِّد العالم المادِّيِّ، النَّقيض التَّامّ لمصدر التَّخليص الحقيقيّ. السَّيِّد المسيح ـ إنْ كان هالكاً علىٰ الإطلاق ـ كان نبيّ «آمور»، مصدر الحُبِّ. و«آمور» ـ عندما عُكس، أو أُفسد، أو بُرم إلىٰ قُوَّة ـ أصبح «رُومَا» ـ رُومَا، والتي كَنيسَتها الفاخرة والغنيَّة بدت ـ بالنِّسبة للكَاثَاريِّيْن ـ تجسيداً وتجلِّياً واضحاً علىٰ الأرض لسيادة «Rex Mundi».

في النَّتيجة؛ الكَاثَار لا يرفضون ـ فقط ـ أنْ يعبدوا الصَّليب، بل أنكروا ـ أيضاً ـ الطُّقُوس الدِّينيَّة؛ كالمَعمُوديَّة، والعشاء الرَّبَّاني.

علىٰ الرّغم من هذه المواقف اللَّاهُوتيَّة المُعقَّدة والدّقيقة والمُجرَّدة، والتي ـ رُبَّما (بالنِّسبة للتَّفكير الحديث) ـ لا تمتُّ بصلة، نجد أنَّ أكثر الكَاثَار لم يكونوا مُتعصِّبين جدّاً في مذهبهم.

في الوقت الرَّاهن؛ من العَصْريِّ والثَّقافيِّ اعتبار الكَاثَار كَطَائفَة من الحُكَماء، أو الصُّوفيِّيْن المُطَّلعين، أو المُبتدئين في الحكمة الغامضة، جميعهم كانوا علىٰ علْم ببعض من السِّرِّ الكوني العظيم.

في الواقع ـ علىٰ أيَّة حال ـ أكثر الكَاثَار كانوا ـ تقريباً ـ من الرِّجال والنِّساء «العاديِّيْن» الذين وجدوا في مذهبهم مأوىٰ من صرامة الكَاثُوليكيَّة الأرثُذُوكسيَّة، تهرُّب من الضّرائب النِّهائيَّة، والتَّكفير، ومراسيم التَّشييع، والقُيُود، وغيرها من الواجبات الأُخْرَىٰ للكَنيسَة الرُّومانيَّة.

أيّاً كان غُمُوض علْمهم اللَّاهُوتي، الكَاثَار كانوا ـ عَمَليّاً ـ شعباً واقعيّاً بتفوُّق. علىٰ سبيل المثال، أدانوا التَّناسُل؛ إذْ إنَّ التَّناسُل هُو خدمة، ليس لمفهوم الحُبِّ، بل إلىٰ «Rex Mundi». رغم ذلك، لم يكونوا سُذَّجاً لدرجة أنْ يُلغوا الشُّؤُون الجنسيَّة. حقيقة؛ كان لدىٰ الكَاثَار ما يُشبه، أو يُكافئ، «القُربان المُقَدَّس»، يُدعىٰ «كُونسو لامينتُوم»[1]، والذي يُرغم المرء علىٰ العفَّة. الـ«كُونسُو لامينتُوم» لا يتمُّ حتَّىٰ يكون المرء علىٰ فراش الموت، ماعدا الكَهَنَة، أو التَّامِّين (الكُلِّيِّيْن)، وكانوا ـ عادةً ـ رجالاً ونساء، لا أُسَر لهم؛ وليس من الصَّعب علىٰ المرء أنْ يكون عفيفاً وهُو علىٰ فراش الموت؛ بقدر ما تعلَّق الأمر بمُجمل الطّائفة، كان الجنس يُسمَح به، هذا؛ إنْ لم يُقرَّ بشكل صريح، وواضح. كيف للمرء أنْ يدين الولادة، بينما يقبل الجنس؟! هُناك دليل يقترح بأنَّ الكَاثَار زاولوا تحديد النَّسل والإجهاض كلَيْهما[2].عندما رُومَا ـ بعد ذلك ـ اتَّهمت الزَّنادقَة بـ«مُمارسات جنسيَّة غير طبيعيَّة»، تمَّ اعتبار ذلك إشارة إلىٰ اللّواط.

---

(1) (أتباع هذا المذهب كانوا مُقسَّمين إلىٰ قسمَيْن: المُؤمنين البُسطاء والكُلِّيِّيْن، لم يكن يحقُّ للمُؤمنين البُسطاء أنْ يُمارسوا هذا القُربان إلَّا وهُم علىٰ فراش الموت، وبالتَّالي؛ يمتنعون عن اللّحم والجُبن والبيض والجنس، وهي عمليَّة أشبه بالانتحار البطيء. المُترجم).

(2) (المَانَويُّون كانوا ـ لفترة طويلة ـ مارسوا أشكالاً مُختلفة من تحديد النَّسل، واتُّهموا بتبرير الإجهاض أيضاً. هذه المُمارسات كانت ـ بالتَّأكيد ـ جُزءاً من التّعاليم الكَاثَاريَّة اللَّاحقة. يُؤكِّد الكاتب نُونان بأنَّ إدانة الكَنيسَة لمَنع الحَمْل قد أُعيد التَّأكيد عليه أثناء إدانتها للكَاثَار. المُؤلِّفون).

علىٰ أيّة حال؛ الكَاثَار طالما أنَّ السِّجلَّات موجودة، كانت صارمة جدّاً في مَنْعهم من الشُّذُوذ الجنسي. «المُمارسات الجنسيَّة غير الطَّبيعيَّة» ـ لـرُبَّما ـ أشارت إلىٰ الطُّرُق المُختلفة في تحديد النّسل، والإجهاض. نعرف ـ اليوم ـ ما هُو موقف رُومَا من تلك القضايا. ليس من الصَّعب تخيُّل القُوَّة والحماس الحقودَيْن، اللَّذَيْن فُرضا بشأن هذا الموضوع أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ.

يبدو ـ عُمُوماً ـ أنَّ الكَاثَار التزموا بحياة مُتطرِّفة من الولاء والبساطة. كَنائسهم كانت المُحزنة، كانوا ـ عادةً ـ يُؤدُّون طُقُوسهم الدِّينيَّة في الهواء الطَّلْق، أو في أيِّ بناء مُتوفِّر بسُهُولة؛ حضيرة، منزل، القاعة البلديَّة. زاولوا ـ أيضاً ـ ما ندعوه ـ اليوم ـ بالتَّأمُّل. كانوا نباتيِّيْن صارمين، بالرّغم من أنَّ أَكْلَ السّمك سُمحَ لهم. وعندما كانوا يُسافرون حول الرّيف، كان الكُلِّيُّون يقومون بذلك بأزواج، وبذلك؛ يدعمون إشاعات اللّواط التي تبنَّاها أعداؤهم.

حصار مُونتسغُور[1]

إذاً؛ ذلك كان المذهب الذي سحق لانغدُوق والمُحافظات المُجاورة بمقياس أظهر أنَّ هذا المذهب كان يُهدِّد بالقضاء علىٰ الكَاثُوليكيَّة نفسها. لعدد كبير من الأسباب المفهومة وجد النُّبلاء أنَّ هذا المذهب جذَّاب. البعض ارتاح لتسامحه العامِّ. البعض كانوا مُعادين للكَهَنَة علىٰ أيّة حال. البعض خاب أملهم نتيجة فساد الكَنيسَة. وفقد البعضُ الصَّبرَ من نظام الضَّرائب؛ حيثُ الدَّخْل الآتي من عقاراتهم اختفىٰ في الصَّناديق البعيدة في رُومَا. وهكذا، الكثير من النُّبلاء في شيخوختهم يُصبحون «كُلِّيِّيْن». في الحقيقة؛ يُقدَّر بأنَّ **30** بالمائة من كُلِّ «الكُلِّيِّيْن» كانوا من طبقة النُّبلاء في لانغدُوق.

في عام **1145**، قبل نصف قرن من حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة، القدِّيس بيرنارد، في ذلك الوقت كان النّاطق الأوَّل في المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة، سافر بنفسه إلىٰ لانغدُوق، ينوي التّبشير ضدَّ الزَّنادقَة. عندما وصل، كان خوفه من الزَّنادقَة أقلَّ من خوفه من فساد كَنيسَته الخاصَّة. كان بيرنارد مُعجباً بالزَّنادقَة بوُضُوح، وبنَفْس القدر الذي هُم تعلَّقوا به. قال:«لا مواعظ أكثر مسيحيَّة من مواعظهم... وأخلاقهم نقيَّة».

---

(1) (قلعة مُونتسغُور. في القرن الثَّالث عشر، كانت مَعْقلاً مُهمّاً للألبيجينيِّيْن، وهُم مجموعة من الزَّنادقَة المسيحيِّيْن نشطوا في كافَّة أنحاء جنوب فرنسا. عام 1208، البَابَا إنوسينت الثَّالث دعا إلىٰ حَمْلَة الألبيجينيِّيْن الصَّليبيَّة، والتي أدَّت إلىٰ مذبحة الكثير منهم، ودمار مُعظم جنوب فرنسا. المُترجم).

بحُلُول عام 1200، لا حاجة للقول بأنَّ رُومَا بدت قلقة ـ بوُضُوح ـ من الوضع، ولا حتَّىٰ إنَّها كانت غافلة عن الحسد، الذي تغلغل في بارونات شمال أُورُوبا فيما يتعلَّق بالأراضي والمُدُن الغنيَّة في الجنوب. هذا الحسد يُمكن أنْ يُستغَلَّ بسُهُولة، واللُّوردات في الشّمال قد يُشكِّلون جُنُود الكَنيسَة العاصفين. كُلُّ ما كان يتطلَّبه الأمر هُو بعض التّحريض، عُذرٌ ما لإثارة الرَّأي الشَّعبي.

مثل هذا العُذر كان قادماً بسُرعة. في 14 يناير/ كانون الثَّاني 1208، أحد المندوبين البَابَويِّيْن إلىٰ لانغدُوق، «بيير دي كاستيلنو»، قُتل. تبدو الجريمة بأنَّها كانت قد ارتُكبَتْ من قِبَل الثُّوَّار المُعادين للكَهَنَة بدُون أيَّة صلة للكَاثَار. بعد زخرفة الأمر بالعُذر الذي تحتاجه ـ علىٰ أيَّة حال ـ لم تتردَّد رُومَا في لوم الكَاثَار. وفي الحال؛ طالب البَابَا إنوسينت الثَّالث بحملة صليبيَّة. بالرّغم من أنَّه كان هُناك اضطهاد مُتقطِّع للزّنادقة خلال القرن السَّابق، إلَّا أنَّ الكَنيسَة ـ الآن ـ عبَّأت قُوَّاتها بشكل جدِّيٍّ. الهدف كان استئصال الهَرْطَقَة بشكل نهائي.

جيش هائل حُشد تحت قيادة رئيس دَيْر سيتوكس. العمليَّات العَسْكَريَّة أُوكلَتْ ـ بشكل كبير ـ إلىٰ الأب سيمون دي مُونتفُورت ـ والد ذلك الرَّجل، الذي ـ بعد ذلك ـ لعب دوراً حاسماً جدَّاً في التَّاريخ الإنجليزي. وتحت قيادة سيمون، صليبيُّو البَابَا تعهَّدوا بتحويل الثَّقافة الأُورُوبيَّة الأعلىٰ في العُصُور الوُسْطَىٰ إلىٰ أنقاض وفَقْر مُدقع. في هذا التّعهُّد المُقَدَّس الذي هُم سُوعدوا فيه من قِبَل حليف جديد ومُفيد، مُتعصِّب إسباني اسمه دُومينيك غُوزمان. تدفعه الكراهيَّة الشّديدة للهَرْطَقة، قام دُومينيك ـ عام 1216 ـ بخَلْق النِّظام الرُّهباني الذي سُمِّيَ ـ فيما بعد ـ باسمه، وهُو النِّظام الدُّومينيكاني. وفي عام 1233؛ الدُّومينيكيُّون أنجبوا مُؤسَّسة أسوأ سُمعة؛ محكمة التَّفتيش المُقدَّسَة.

الكَاثَار لم يكونوا ضحاياها الوحيدين. قبل الحملة الصَّليبيَّة البيجينيَّة العديد من نُبلاء لانغدُوق ـ خُصُوصاً العائلات المُؤثِّرة في ترينكافيل وتُولُوز ـ كانوا ودودين جدَّاً لسُكَّان المنطقة اليهُوديِّيْ الأصل الكثيرين. الآن؛ تمَّ الأمر بسَحْب كُلِّ تلك الحمايات والدَّعْم.

في عام 1218، سيمون دي مُونتفُورب قُتل مُحاصراً تُولُوز. علىٰ الرّغم من هذا، نَهْبُ لانغدُوق استمرَّ بتأجيل بسيط استمرَّ ـ فقط ـ لرُبع قرن. بحُلُول عام 1243، علىٰ أيَّة حال، كُلُّ المُقاومة المُنظَّمة ـ إنْ وُجدَتْ ـ كانت قد توقَّفت عَمَليَّاً إلىٰ الأبد. بحُلُول عام 1243، كُلُّ البلدات ومعاقل الكَاثَار الرَّئيسة سَقطَتْ بأيدي المُحتلِّين الشّماليِّيْن، ماعدا حفنة من الأماكن النَّائية، والمعزولة.

الموقع الرَّئيس من بين هذه الأماكن كان حصن الجبل المُلُوكي في مُونتسغُور، والذي كان كسفينة سماويَّة فوق الوُديان المُحيطة.

لعشرة شُهُور؛ مُونتسغُور حُوصرَتْ من قِبَل المُحتلِّين، مُتحمِّلة الاعتداءات المُتكرِّرة، ومُحافظة علىٰ مُقاومة عنيدة. بعد مُدَّة، في مارس/ آذار **1244**، القلعة استسلمتْ، والكَاثَار ـ علىٰ الأقلِّ زَعْماً ـ زالوا من الوُجُود في جنوب فرنسا. لكنَّ الأفكار لا يُمكن أنْ تخمد بشكل قطعي.

في كتاب عُنوانه «**Montaillou**»، علىٰ سبيل المثال، والذي سجَّل أفضل المبيعات، للكاتب «إمانويل لُو رُوي لادُور»، هُناك تدوين علىٰ نطاق واسع لوثائق تلك الفترة، ولنشاطات الكَاثَار الذين نجوا ـ تقريباً ـ لمُدَّة نصف قرن بعد سُقُوط مُونتسغُور. الجُيُوب الصّغيرة للزّنادقة حافظت علىٰ بقائها في الجبال، يعيشون في الكُهُوف، ويلتزمون بمذهبهم، ويشنُّون حرب عصابات مُرَّة ضدَّ مُضطَهِدِيهِم.

في العديد من مناطق لانغدُوق ـ بما فيها ضواحي قرية رين لُو شاتُو ـ من المعروف ـ عُمُوماً ـ أنَّ إيمان الكَاثَار استمرَّ. والعديد من الكُتَّاب تتبَّعوا آثارَ بِدَع أُورُوبيَّة لاحقة مُتفرِّعة عن أفكار الكَاثَار ـ مثل الوالدينيِّيْن[1]، والهُوسيِّيْن[2]، والآدميِّيْن، أو أُخوة الرُّوح الحُرَّة، ومُجدِّدي التّعميد[3]، والقميصيِّيْن[4]، الغربيِّيْن، منهم مَنْ وجد مأوىٰ في لندن في أوائل القرن الثَّامن عشر.

---

(1) (الوُلدوويُّون؛ الوُلداويَّة: فرقة نصرانيَّة نشأت في جنوبي فرنسة، بعد عام 1170. بزعامة بيير وُلدو .Waldo. المُترجم).

(2) (أتباع جُون هُوس: أتباع تعليمات القومي البُوهيمي والمُصلح الدِّيني جُون هُوس (1372ـ1415). المُترجم)

(3) (القائل بتجديد العماد: عُضو في طائفة برُوتستانتيَّة نشأت في أورُوبة بُعَيْدَ عام 1520، وتميَّزت بالشُّرُوط القاسية التي وضعتها لعُضويَّة الكَنيسَة، وبإصرارها علىٰ إعادة تعميد البالغين، ورفض عماد الأطفال. المُترجم).

(4) (القميصيُّون، مُشتقَّة من كلمة «camisa» التي تعني بالفرنسيَّة «قميص»، وهذا اللَّقب أُطلق علىٰ الفلَّاحين الفرنسيِّيْن البرُوتستانتيِّيْن في المنطقة الجبليَّة من سِفِن، والتي تمرَّدت عام 1702، ضدَّ الملك لويس الرَّابع عشر. وسُمُّوا بهذا الاسم؛ لأنَّهم كانوا يرتدون القُمصان السّوداء أثناء غاراتهم في اللَّيل. زعيمهم جين كافالير. المُترجم).

كَنز الكَاثَار

أثناء وبعد الحملة الصَّليبيَّة البيجينيَّة هُناك غُمُوض يكبر حول الكَاثَار، ومازال مُستمرَّاً حتَّىٰ اليوم. جُزئيَّاً؛ هـذا يُمكـن أنْ يُنسَب إلىٰ عُنـصُر الرُّومانـسيَّة[1]، الـذي يُحيط أيَّ قـضيَّة مفقـودة، أو مأساويَّة برونق سحْري، وبحنين مُحزن، وبـ«شيء أُسـطُوري» (كـما في قـصَّة الأمـير بُـوني تـشارلز مثلاً). ولكنْ؛ في الوقت ذاته، اكتشفنا أنَّه كان هُناك بعـض الألغـاز الحقيقيَّـة جـدَّاً، والتـي ارتبطـت بالكَاثَار. علىٰ الرّغم من أنَّ الأساطير قد تُعظِّم، ويُضفَىٰ عليهـا نـسيج مـن الخيـال والبُطُولـة، إلَّا أنَّ عدداً من الألغاز قد يبقىٰ حقيقة.

أحد هذه الألغاز يتعلَّق بأُصُول الكَاثَار، وبـالرّغم مـن أنَّ هـذا الأمـر ـ في بـادئ الأمـر ـ بـدا أكاديميَّاً بالنِّسبة لنا، إلَّا أنَّه أثبت ـ بعد ذلك ـ أهمِّيَّة كبيرة. ناقش المُؤرِّخون المُعـاصرون بـأنَّ الكَاثَـار نشؤوا من البُوغُـوميليِّيْن، وهُـم طائفـة نـشطت في بلغاريـا أثنـاء القـرنَيْن العـاشر والحـادي عـشر، والمُبشِّرون في تلك الطَّائفـة هـاجروا غربـاً. لـيس الـسُّؤال أنَّ زنادقـة لانغـدُوق تـضمَّنوا عـدداً مـن البُوغُوميليِّيْن.

في الحقيقة؛ اشـتُهر واعـظ بُوغُومُـولي ـ في ذلـك الوقـت ـ بأنَّـه بـارز في الـشُّؤُون الـسِّياسيَّة. والدِّينيَّة. ومع أنَّ بحثنا كشف دليلاً كبيراً بأنَّ الكَاثَار لم يتحـدَّروا مـن البُوغُـوميليِّيْن. بـالعكس، بـدا أنَّهم مثَّلوا ازدهار شيء ما مُتجذِّر في فرنسا لقُرُون. بدا أنَّهم نشؤوا ـ مُباشرة ـ من البِدَع التي أُسِّسَتْ، وتحصَّنتْ، في فرنسا، مُهيِّئة ـ في الوقت ذاته ـ لنُشُوء العهد المسيحي[2].

هُناك ألغاز أُخرىٰ أكثر إثارة ترتبط ـ إلىٰ حَدٍّ كبير ـ بالكَاثَار. جين دُو جوينفيـل ـ عـلىٰ سـبيل المثال ـ رجل عجوز يكتب عن معرفته بلويس الرَّابع في القرن الثَّالث عشر، يكتـب: «عنـدما أخـبرني الملك لويس كيف أنَّ عدَّة رجال من بين البيجينيِّيْن ذهبوا إلىٰ كُونـت مُونتفُـورت... وطلبـوا منـه أنْ

---

(1) (الرُّومانس: قصَّة شعريَّة أو نثريَّة من قَصَص القُرُون الوُسْطَىٰ، قوامها الأُسطُورة، أو الحُبُّ الشّريف، أو المُغامرات الفُرُوسيَّة، عادةً ذات أبطال خياليِّيْن، أو مُغامرين. المُترجم).

(2) (في عام 800 م، كان المانَويُّون مايزالون موضع إدانة في الغرب. في عـام 991، أبـدىٰ جيربـيرت دُوريـلاك ـ الـذي أصبح ـ لاحقاً ـ البَابَا سيلفيستر الثَّاني ـ الاعتقادات المانويَّة. المُؤلِّفون).

يأتي وينظر إلىٰ جسد ربِّنا، الذي كان قد أصبح لحماً ودماً في أيدي كَاهنهم»، مُونتفُورت ـ طبقاً للرِّواية ـ بدا مُندهشاً جدَّاً من تلك الدَّعوة. بالأحرىٰ؛ أعلن ـ بغضب بأنَّ حاشيته ـ قد تذهب إنْ كانوا يرغبون في ذلك، لكنَّه سيُواصل الإيمان وُفقاً لعقائد «الكَنيسَة المُقَدَّسَة». ليس هُناك تفاصيل، أو تفسيرات، أُخرىٰ لهذه الحادثة. جوينفيل ـ بذاته ـ سرد القصَّة بشكل عابر.

ولكنْ؛ ما الذي نفعله حيال تلك الدَّعوة المُبهمة؟!

ماذا كان الكَاثَار يفعلون؟!

أيّ نوع من الطُّقُوس؟!

بعيداً عن القدَّاس، الذي أنكره الكَاثَار ـ علىٰ أيَّة حال ـ ما الذي يُمكن أنْ يجعل «جسد الرَّبِّ... يُصبح لحماً ودماً»؟

أيّاً كان ذلك، لابُدَّ أنَّ هُناك شيئاً ما واقعيّاً مُرتبط بذلك البيان.

لُغز آخر يُحيط بـ«كَنز» الكَاثَار الأُسطُوري. يُعرَف بأنَّ الكَاثَار كانوا أغنياء جدَّاً. تقنيَّاً؛ مذهبهم مَنَعَهُم من حَمْل السِّلاح؛ أسلحة الدُّبِّ؛ ومع ذلك؛ العديد منهم أهملوا أمر التَّحريم، والواقع أنَّه تمَّ استئجار أعداد كبيرة من المُرتزقة، كلَّفتهم الكثير من المال. في الوقت نفسه؛ مصادر مالكي ثروة الكَاثَار كانت واضحة وقابلة للتَّفسير، فهُم نالوا الولاء من أرض قويَّة. رغم ذلك، كانت إشاعات تقول ـ حتَّىٰ أثناء حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة ـ بأنَّه كان هُناك كَنز كَاثَاري عظيم وغامض، بعيد جدَّاً عن الثَّروة المادِّيَّة. مهما كانت تلك الثَّروة، فقد بقيت ـ كما يُعتقَد ـ في مُونتسغُور. عندما سَقَطَتْ مُونتسغُور ـ علىٰ أيَّة حال ـ لم يتمّ العُثُور علىٰ شيء يُذكَر. ومع ذلك؛ كانت هُناك بعض الحوادث المُنفصلة ارتبطت بحصار القلعة، وباستسلامها المشروط.

أثناء الحصار؛ كان عدد المُهاجمين يفوق العشرة آلاف. بهذه القُوَّة الهائلة، المُحاصرون حاولوا إحاطة الجبل، مانعين كافَّة وسائل الدُّخُول والخُرُوج بهدف تجويع المُدافعين. علىٰ الرّغم من قُوَّتهم العَدَديَّة ـ علىٰ أيَّة حال ـ افتقروا إلىٰ القُوَّة البشريَّة الكافية لجَعْل الطَّوْق الذي فَرَضوه آمناً. العديد من القُوَّات كانت محلِّيَّة، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ كانت مُتعاطفة مع الكَاثَار. وببساطة؛ العديد منهم لم يكونوا موضع ثقة.

في النَّتيجة، لم يكن من الصَّعب العُبُور ـ بتَخَفٍّ ـ من خلال خُطُوط المُهاجين. كان هُناك العديد من الفجوات، تسلَّل ـ من خلالها ـ الرِّجال ذهاباً وإياباً، وبالتَّالي؛ التَّجهيزات والمؤونات كانت تجد طريقها صُعُوداً إلىٰ القلعة.

الكَاثَار استغلُّوا تلك الفجوات. في يناير/ كانون الثَّاني **1244**، تقريباً قبل ثلاثة شُهُور من سُقُوط القلعة، هرب اثنان من الكُلِّيِّيْن. طبقاً لروايات موثوقة؛ حملوا معهم مُعظم ثروة الكَاثَار المادِّيَّة ـ مُحْمُولة من الذَّهَب والفضَّة والعُملة المعدنيَّة، التي حُمِلَتْ ـ أوَّلاً ـ إلىٰ كهف مُحصَّن في الجبال، ومن هُناك؛ إلىٰ قلعة مُحصَّنة. بعد ذلك؛ الكَنز اختفىٰ، ولم يسبق أنْ سُمِعَ عنه ثانية.

في الأوَّل من مارس/ آذار استسلمتْ مُونتسغُور أخيراً. في ذلك الوقت؛ كان عدد المُدافعين أقلَّ من **400** ـ وبين **150** ـ **180** منهم كانوا من الكُلِّيِّيْن، البقيَّة كانوا فُرساناً ومالكين وجُنُوداً وعائلاتهم. مُنحوا شُرُوطاً مُخفَّفة ومُدهشة جدّاً. المُقاتلون ـ إنْ استسلموا ـ سيحصلون علىٰ عفو كامل لكُلِّ «الجرائم السَّابقة». وسيُسمَح لهم بالمُغادرة مع أسلحتهم، ومتاعهم، وأيَّة هدايا، بما ذلك المال، قد يستلمونها من أرباب أعمالهم. الكُلِّيُّون ـ أيضاً ـ أُكرموا بشكل غير مُتوقَّع، فإنْ هُم شَجَبُوا اعتقاداتهم الضَّلاليَّة، واعترفوا بخطاياهم أمام محكمة التَّفتيش، سيكونون أحراراً، وسيخضعون ـ فقط ـ لكفَّارة بسيطة.

المُدافعون طلبوا هُدنة لمُدَّة أُسبُوعَيْن، توقُّف كامل للاعتداءات ـ لكي يدرسوا تلك الشُّرُوط. وبعرض آخر من الكرم غير المعهود، المُهاجمون قبلوا بذلك. بالمُقابل؛ المُدافعون تطوَّعوا برهائن. وتمَّ الاتفاق علىٰ أنَّه لو حاول أيُّ شَخْص الهُرُوب من القلعة سيتمُّ إعدام الرهائن.

هل الكُلِّيُّون مُلتزمون جدّاً باعتقاداتهم، لدرجة أنَّهم اختاروا الاستشهاد طوعاً، بدلاً من التَّحوُّل عن دينهم؟! أم هل كان هُناك شيء ما لا يجعلهم قادرين، أو حتَّىٰ أنْ يجرؤوا علىٰ الاعتراف أمام محكمة التَّفتيش؟! مهما كان الجواب، لم يقبل أيٌّ من الكُلِّيِّيْن ـ بقدر ما هُو معروف ـ بشُرُوط المُحاصرين. بالعكس؛ كُلُّهم اختاروا الاستشهاد.

علاوةً علىٰ ذلك؛ علىٰ الأقلِّ؛ عشرين من المُدافعين الآخرين في القلعة، ستُّ نساء، وحوالي خمسة عشر رجلاً مُقاتلاً، قاموا بقُدَّاسهم المُسمَّىٰ «كُونسُو لامينتُوم» طوعاً، وبالتَّالي؛ أصبحوا كُلِّيِّيْن أيضاً، وهكذا؛ ألزموا أنفسهم بالموت المُؤكَّد.

في 15 مارس/ آذار انتهت المُدنة. عند فجر اليوم التَّالي ـ تقريباً ـ أكثر من متَيْن مـن الكُلِّيِّيْن جُرُّوا إلىٰ الأسفل، حتَّىٰ سفح الجبل. لم يتخلَّ واحد منهم عن مُعتقده. لم يكن هُناك وقـت لإعـدامهم حرقاً بشكل إفرادي، وبالتَّالي؛ تمَّ ربطهم أسفل الجبل إلىٰ كومة كبيرة مـن الخـشب، وأُحرقـوا جميعـاً بشكل جماعي. بقيَّة الحامية[1] أُرغموا عـلىٰ النَّظَـر، وتـمَّ تحـذيرهم بأنَّـه لـو حـاول أيٌّ مـن الرّهـائن الهُرُوب، فذلك يعني الموت المُؤكَّد لهم جميعاً، بالإضافة إلىٰ الرّهائن.

علىٰ الرّغم من هذا الخطر ـ علىٰ أيَّة حال ـ الحامية تآمرت علىٰ إخفاء أربعة كُلِّيِّيْن بيـنهم. وفي ليلة السَّادس عشر من مارس/ آذار، قام هؤلاء الرِّجال الأربعة، برفقة مُرشد، بعمليَّة هُرُوب جريئة ـ مرَّة ثانية ـ بعلْم وتواطؤ الحامية. تقدَّموا نحو الجهة الغربيَّة الشّديدة الانحدار للجبل، تعلَّقوا بالحبال، وهبطوا للأسفل من عُلو يزيد علىٰ 100م.

ما الذي كان يفعله هؤلاء الرِّجال؟! ما هُو سبب هُـرُوبهم الخطـر؟! أيُّ شيء يـستلزم خطـراً كهذا للحامية والرّهائن كُلِّهم؟ في اليوم التَّالي، كان بإمكانهم أنْ يمـشوا بحُرِّيَّـة خـارج القلعـة، وأنْ يكون أحراراً في استئناف حياتهم. علىٰ الرّغم من أنَّهم ـ لأسباب مجهولة ـ قاموا بعمليَّة هُـرُوب ليليَّـة خطرة، كان من المُمكن أنْ تتسبَّب بمقتلهم، ومقتل زُملائهم.

طبقاً للتَّقليد؛ هؤلاء الرِّجال الأربعة حملوا معهم كَنز الكَاثَار الأُسطُوري. لكـنَّ كَنـز الكَاثَـار كان قد هُرِّب إلىٰ خارج مُونتسغُور قبل ذلك بثلاثة شُهُور. وفي أيِّ حال من الأحوال، كم مـن الكَنـز (من ذهب، أو فضَّة، أو عُملة معدنيَّة) بمقدور عدد قليل جدَّاً من الرِّجال أنْ يحملوه عـلىٰ أظهـرهم، وهُم مُعلَّقون بحبال علىٰ حافَّة جبل شديدة الانحدار؟! إنْ كان ـ في الحقيقة ـ أُولئك الأربعة الهاربون يحملون شيئاً، فيبدو ـ من الواضح ـ أنَّهم كانوا يحملون شيئاً ما غير الثَّروة المادِّيَّة.

ماذا يُمكن أنْ يكون ما حملـوه؟! رُبَّـما تجهيـزات تتعلَّـق بـإيمان الكَاثَـار؛ كُتُـب، مَخطُوطَـات، تعليمات سرِّيَّة، آثار، موادّ دينيَّة من نوع ما، رُبَّما الشَّيء الذي ـ لسبب، أو لآخر ـ لا يُمكـن أنْ يُـسمَح بسُقُوطه بأيدي الأعداء. ذلك قد يُوضِّح لماذا تمَّتْ عمليَّة الهُرُوب؛ ذلك الهُرُوب الـذي اسـتلزم ذلـك الخطر الكبير لكُلِّ شَخص ذي صلة.

---

(1) (المسؤولون عن حماية الرّهائن. المُترجم).

ولكنْ؛ إنْ كان شيء ما بهذه الدَّرجة من الأهمِّيَّة والثّمن يجب أنْ يبقىٰ بأيِّ ثمن بعيداً عن أيدي الأعداء، فلماذا لم يتمّ تهريبه مُسبقاً؟!

لماذا لم يتمّ تهريبه مع الكَنز المادِّيّ قبل ثلاثة شُهُور؟!

لماذا كان يجب أنْ يُحتفَظَ به في القلعة حتَّىٰ اللَّحظة الأخيرة، والأكثر خُطُورة؟!

التَّاريخ الدّقيق للهُدنة سمح لنا باستنتاج جواب مُحتمَل لهذه الأسئلة. الهُدنة طلبها المُدافعون. وقد قدَّموا الرّهائن طوعاً لكي يحصلوا عليها. لسبب ما؛ يبدو أنَّ المُدافعين كانوا يعدُّونها ضروريَّة. بالرّغم من أنَّ كُلَّ أهمِّيَّتها لم تكن إلَّا التّأخير لُمدَّة أُسبُوعَيْن.

استنتجنا ـ رُبَّما ـ أنَّ مثل هذا التّأخير كان ضروريّاً للحُصُول علىٰ قُوَّة إضافيَّة. لم يكن الوقت ـ بشكل عامٍّ ـ هُو المُهمَّ، بل ذلك الوقت المُعيَّن، ذلك التَّاريخ المُعيَّن. تزامن مع الاعتدال الرَّبيعي. والاعتدال ـ لرُبَّما ـ تمتَّع بمنزلة دينيَّة تتعلَّق بطُقُوس الكَاثَار. تزامن ـ أيضاً ـ مع عيد الفصح.

لكنَّ الكَاثَار ـ الذين شكَّكوا بصلة الصَّلْب ـ لم ينسبوا أيَّة أهمِّيَّة مُعيَّنة لعيد الفصح. وعلىٰ الرّغم من أنَّه معروف بأنَّ مهرجاناً من نوع ما كان يُقام في الرَّابع عشر من مارس/ آذار، قبل يوم من انتهاء الهُدنة[1].

يبدو أنَّه هُناك بعض الشَّكِّ في أنَّ الهُدنة طُلبَتْ لكي يتمّ إقامة ذلك المهرجان. ويبدو أنَّه هُناك بعض الشَّكِّ في أنَّ المهرجان لا يُمكن أنْ يُقام في تاريخ يتمُّ اختياره عشوائيّاً. فيبدو أنَّه كان من الواجب والإلزامي أنْ يُقام المهرجان في الرَّابع عشر من مارس/ آذار.

مهما كان ذلك المهرجان، فمن الواضح أنَّه ترك انطباعاً ما لدىٰ المُرتزقة المأجورين، والذين بعضهم ـ في تحدِّي الموت الحَتْمي ـ تحوَّل إلىٰ المذهب الكَاثَاري.

---

(1) (المانَويُّون كان لديهم مهرجان مُقدَّس يُدعىٰ «بيما»، والذي احتُفل به في شهر مارس/ آذار. يقترح نيل بأنَّ هذا كان المهرجان أُجري في مُونتسغُور في 14 مارس/ آذار، ويُضيف بأنَّه في عام 1244، الاعتدال الرَّبيعي صادف هذا التَّاريخ. المانَويُّون ـ علىٰ ما يبدو ـ كانوا يستخدمون كتاباً خاصّاً يحتوي علىٰ رُسُومات تُعبِّر عن تعاليم ماني، رُبَّما بشكل رَمْزي. احتوىٰ الكتاب صُور تُظهر الثّنويَّة بين أبناء النُّور وأبناء الظَّلام. هذا الكتاب استُعمل أثناء مهرجان بيتما. رُبَّما كتاب مُماثل من الرُّمُوز يُشكِّل جُزءاً من كَنز الكَاثَار. المُؤلِّفون).

هل يُمكن أنْ تحمل هذه الحقيقةُ مفتاحاً جُزئيّاً ـ علىٰ الأقلّ ـ لما تمَّ تهريبه إلىٰ خارج مُونتسيغُور بعد ليلتَيْن؟!

هل يُمكن أنْ يكون ما تمَّ تهريبه ضروريّاً ـ بطريقة ما ـ للمهرجان في الرَّابع عشر من ذلك الشّهر؟!

هل يُمكن أنَّه ـ بطريقة ما ـ كان ذا دور فعَّال في إقناع ـ علىٰ الأقلّ ـ عشرين من المُدافعين أنْ يُصبحوا كُلِّيِّيْن في اللَّحظة الأخيرة؟!

وهل يُمكن ـ بشكل ما ـ هُو الذي ضمن التَّواطُؤ اللَّاحق للحامية، حتَّىٰ لو كلَّفهم ذلك حياتهم؟!

إنْ كان الجواب نعم لكُلِّ هذه الأسئلة، فذلك سيُوضِّح سبب أنَّه مهما كان الشَّيء الذي هُرِّب في السَّادس عشر، فإنَّه لم يتمّ تهريبه في وقت سابق من يناير/ كانون الثَّاني، علىٰ سبيل المثال، عندما تمَّ تهريب الكَنز النَّقْدي. قد يكون ذلك الشَّيء ضروريّاً للمهرجان. وبالتَّالي؛ يجب أنْ يبقىٰ بعيداً عن مُتناول الأعداء.

لُغز الكَاثَار

لدىٰ تأمُّلنا هذه الاستنتاجات، كُنَّا قد ذُكِّرنا ـ بشكل ثابت ـ بالأساطير التي تربط الكَاثَار بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». لم نكن مُهيَّئين لأنْ نعدَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» شيئاً ما غير أُسطُوري. نحنُ كُنَّا ـ بالتَّأكيد ـ غير مُستعدِّين لأنْ نُصرِّح بأنَّه غير موجود ـ أبداً ـ في الواقع. حتَّىٰ إنْ كان موجوداً، نحنُ لا نستطيع أنْ نتخيَّل بأنَّه إنْ كان كَأساً، أو طاسة، سواء حمل دم السَّيِّد المسيح، أم لا، سيكون ثميناً جدّاً جدّاً بالنِّسبة للكَاثَار، الذين يعدُّون أنَّ السَّيِّد المسيح ـ ولدرجة عالية ـ أمراً ثانويّاً (لا أهمِّيَّة له). ناهيكَ عن أنَّ الأساطير لم تتوقَّف عن مُطاردتنا، وإرباكنا.

علىٰ الرّغم من أنَّ في ذلك حَيْرَة، يبدو أنَّه تُوجد هُناك بعض الصِّلة بين الكَاثَار وبين الطَّائفة الكاملة للـ«كَأس المُقَدَّسَة» في تطوُّرها أثناء القرنَيْن الثَّاني عشر والثَّالث عشر. عدد من الكُتَّاب شكَّكوا بأنَّ أساطير «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ تلك مثلاً التي تتحدَّث عن «كريشين دُو تروي» و«وولفرام

فُون اسكِباتش» ـ مُشبعة بالتّحريف والزّيادات من أفكار الكَاثَـار، مُـستترة بالرَّمْزيّـة المُتقنـة، ضـمن قُلُوب المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة. قد يكون هُناك بعض المُبالغة في ذلـك الـزَّعْم، لكـنْ؛ هُنـاك ـ أيـضاً ـ بعض الحقيقة. أثناء حملـة البيجينيِّيْن الـصَّليبيَّة شَـجَبَ الكَهَنَـةُ المـسيحيُّون ـ بعُنـف ـ رُومانـسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»، مُعلنين أنَّها خبيثة، هذا؛ إنْ لم تكن هَرْطَقَـة. وفي الـبعض مـن هـذه الرُّومانـسيَّات هُناك مقالات مُفردة، ليست هي غير تقليديَّة فحسب، بل هي ـ تماماً وبشكل واضح ـ ثنويَّـة؛ بكلمـة أُخرىٰ، كَاثَاريَّة.

الأكثر من ذلك، «وولفرام فُون اسكِباتش» في إحدىٰ رُومانسيَّاته التي تتحدَّث عـن «الكَـأس المُقَدَّسَة»، يُصرِّح بأنَّ قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة» كانت تقع في بيرينه ـ ذلك زعم ـ علىٰ أيَّة حال ـ صرَّح به ـ أيضاً، وبشكل حَرْفي ـ رينشارد وانجبر. طبقاً لـ«وولفـرام»؛ اسـم قلعـة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» كـان «مُونسيلفيسك» (Munsalvaesche) – علىٰ ما يبدو أنَّها ترجمة جرمانيَّة لكلمة «Montsalvat»، والتي هي تسمية كَاثَاريَّة. وفي إحدىٰ قصائد «وولفرام»، لُورد قلعة «الكَأس المُقَدَّسَـة» كـان اسـمه بـيريلا. المُثير للانتباه، أنَّ لُورد مُونتسيغُور كان اسمه «ريمون دُو بيريـل»، والـذي اسـمه، بـشكله اللَّاتينـي، يظهر علىٰ وثائق تعود لنفس فترة بيريلا[1].

واستنتجنا بأنَّه إذا استمرَّت مثل هذه المُصادفات المُميَّزة بمُطاردتنا، فلابُدَّ أنَّها ـ أيضاً ـ كانـت تُطارد سُونير، الذي كان ـ بالإضافة لذلك ـ حافلاً بالأساطير وفُولُكلُور المنطقة. وكأيِّ مُواطن آخـر في المنطقة، لابُدَّ أنَّ سُونير كان مُدركاً ـ بثبات ـ بأنَّ قلعة مُونتسيغُور علىٰ مقربة، والتي كـان مـصيرها المُحزن والمأساوي مايزال يُسيطر علىٰ الوعي المحلِّيّ. ولكنْ؛ بالنِّسبة لـسُونير، قُـرب القلعـة الكبـيرة، لرُبَّما استلزم بعض النَّتائج العمليَّة.

(1) (الكاتب الأكثر ارتباطاً بهذا النَّوع من الرَّبط هُو أُوتُو راهن. ادَّعىٰ أُوتُو راهن بـأنَّ قلعـة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» التـي وردت في رُومانسيَّة وولفرام هي مُونتسيغُور. كُتُبُ راهن نُشرت ـ أوَّلاً ـ في ألمانيا في الثَّلاثينات. أبحاثـه حـول الكَاثَـار و«الكَأس المُقَدَّسَة» دُعمَتْ من قِبَل ألفريد رُوزينبرغ، فيلسوف عرْقي رائد، مُتحدِّث للحزب النَّازي، وصـديق لِهتْلَـر. راهن اختفىٰ عام 1939، ويُزعَم أنَّه انتحر. علىٰ أيَّة حال؛ باحث فرنسي وجد عدَّة وثائق تتعلَّـق بـراهن، آخرهـا يعـود تاريخها لعام 1945. إنْ كانت هذه الوثائق ـ في الحقيقة ـ تتعلَّق بالمُؤلِّف أُوتُو راهن، فإنَّه من المُمتع تخمين سواء هُـو مَـنْ كان وراء عمليَّة التَّنقيب الألمانيَّة الغامضة، التي نُفِّذَتْ في مُونتسغُور، وفي غيرها مـن المواقـع الكَاثَاريَّـة الأُخـرَىٰ أثنـاء الحرب العالميَّة الثَّانية. المُؤلِّفون).

شيءٌ ما كان قد هُرِّب خارج مُونتسيغُور مُباشرة بعد انتهاء الهُدنة. طبقاً للتَّقليد؛ الرِّجال الأربعة الذين هربوا من الحصن المنكوب حملوا معهم كَنز الكَاثَار. لكنَّ الكَنز النَّقْدي كان قد هُرِّب للخارج قبل ثلاثة شُهُور.

هل يُمكن أنْ يكون «كَنز» الكَاثَار ـ كما هُو الحال بالنِّسبة للكَنز الذي اكتشفه سُونير ـ فيه سرٌّ عظيم ما؟!

هل ذلك السِّرُّ من المُمكن أنْ يكون مُتعلِّقاً ـ بطريقة ما، مُستحيلة التَّصوُّر ـ بالشّيء الذي أصبح معروفاً بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»؟!

بدا الأمر لا يُصدَّق ـ بالنِّسبة لنا ـ بأنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» يُمكن أنْ تكون مأخوذة بشكل حَرْفي.

أيّاً كان الشَّيء الذي هُرِّبَ إلىٰ خارج قلعة مُونتسيغُور، فلابُدَّ أنْ يكون قد وُضِعَ في مكان ما آخر. طبقاً للتَّقليد؛ أُخذ ذلك الكَنز إلىٰ الكُهُوف المُحصَّنة في أُورنُولاك في أريجه؛ حيثُ فرقة من الكَاثَار أُبيدت ـ بعد ذلك ـ بقليل. لكنْ؛ لا يتوفَّر ـ علىٰ الإطلاق ـ أيُّ شيء يدلُّ علىٰ هياكل عظميَّة وُجدَتْ في أُورنُولاك. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ قرية رين لُو شاتُو تبعد مسيرة نصف يوم علىٰ ظهر الفَرَس عن قلعة مُونتسيغُور. فمهما كان ذلك الشَّيء الذي تمَّ تهريبه من مُونتسيغُور، فرُبَّما سيتمُّ جلبه إلىٰ قرية رين لُو شاتُو، أو علىٰ الأرجح، إلىٰ أحد الكُهُوف التي تنخرب في[1] الجبال المُحيطة. وإنْ كان «سرُّ» مُونتسيغُور هُو ما اكتشفه سُونير بعد ذلك، فمن الواضح أنَّ تلك ستكون صفقة عظيمة. في حالة الكَاثَار، كما هُو الحال مع سُونير، يبدو أنَّ كلمة «كَنز» تُخفي في ثناياها شيئاً آخر ـ قد يكون علْماً، أو معلومات ما. نَظَراً للتَّمسُّك العنيد للكَاثَار بمذهبهم وكراهيَّتهم المُستميتة لرُومَا، تساءلنا إنْ كانت مثل هذه المعرفة، أو المعلومات (علىٰ فَرَض أنَّها موجودة) تتعلَّق ـ بطريقة ما ـ بالمسيحيَّة ـ بمذاهب وبعلم اللَّاهُوت المسيحي، أو ـ رُبَّما ـ بتاريخه، وأُصُوله.

(1) (يُنَخرِب: يجعله مليئاً بالثُّقُوب كقرص العسل. المُترجم).

باختصار؛ هل كان مُحتملاً أنَّ الكَاثَار عرفوا (أو علىٰ الأقلِّ كانوا مُتأكِّدين) شيئاً ما ساهم في التَّأجُّج المسعور، الذي قاد رُومَا إلىٰ إبادتهم؟

الكَاهن الذي كَتَبَ إلينا أشار إلىٰ «بُرهان حاسم»، هل يُمكن أنْ يكون مثل هذا «البُرهان» معروفاً من قِبَل الكَاثَار؟!

في ذلك الوقت؛ لم يكن بمقدورنا إلَّا أنْ نُفكِّر بأشياء تافهة، والمعلومات عن الكَاثَار كانت ـ عُمُوماً ـ ضئيلة جدًّا؛ بحيثُ منعت حتَّىٰ من وَضْع فَرَضيَّة عمليَّة. من النَّاحية الأُخْرَىٰ، أبحاثنا المُتعلِّقة بالكَاثَار اصطدمت ـ مراراً وتكراراً ـ بموضوع آخر أكثر تعقيداً، وغُمُوضاً، ومُحاطاً بأساطير مُثيرة. ذلك الموضوع كان فُرسان الهَيكَل.

ولذلك؛ كان توجُّهنا التَّالي نحو فُرسان الهَيكَل من أجل إكمال تحقيقنا. وبالتَّالي؛ وجدنا أنَّ تحقيقاتنا بدأت تُتوَّج بتوثيق مُؤكَّد، واللُّغز بدأ يتَّخذ اقتراحات أعظم وأبعد بكثير ممَّا كُنَّا نتخيَّله.

3

الرّهبان المحاربون

الشُّرُوع في بحث حول فُرسان الهَيكَل أظهر أنّه أمر مهيب. كمّيّة المادّة المكتوبة التي كُرّسَت هذا الموضوع كانت مُخيفة، ونحنُ لا نستطيع ـ في بادئ الأمر ـ أنْ نكون مُتأكّدين من مقدار مصداقيّة هذه المادّة. إذا كان الكاثار قد أحدثوا ضجّة في الأُسطُورة المُزوَّرة، وفي الرُّومانسيّة، فالحَيْرَة والتّشويش الذي يُحيط بفُرسان الهَيكَل كان أعظم بكثير.

في إحدىٰ المُستويات كانوا مألوفين بالنِّسبة لنا بشكل كافٍ ـ فكُنّا نعلم أنّهم الرُّهبان المُحاربون، الفُرسان العنيفون والمُتعصّبون؛ صُوفيُّون يرتدون عباءة بيضاء، يمتدُّ عليها صليب أحمر، لعبوا دوراً حاسماً جدّاً في الحملات الصَّليبيّة. هُنا ـ بشكل ما ـ هُم كانوا الصَّليبيّيْن البدائيّيْن، أعضاء الفرقة العاصفة في الأرض المُقدَّسَة، الذين قاتلوا وماتوا ـ بشكل بُطُولي ـ فداء للسَّيِّد المسيح بعدّة آلاف. رغم أنّ العديد من الكُتّاب ـ حتّىٰ اليوم ـ عدُّوهم أكثر بكثير من مُجرَّد مُؤسَّسة غامضة، نظاماً سرّيّاً بشكل أساسي، يعتزم زَرْعَ الدَّسائس الغامضة، والمكائد السّرّيّة، والمُؤامرات والنَّوايا الغامضة. ويقىٰ هُناك حقيقة واحدة مُحيِّرة، وغامضة. في نهاية مهنتهم التي دامت قرنَيْن من الزَّمن، هؤلاء المَكْسُوون بالأبيض، أبطال السَّيِّد المسيح، اتُّهموا بأنّهم كافرون، ومُنكرون للسَّيِّد المسيح، وبأنّهم يدوسون، ويبصقون علىٰ الصَّليب.

في روايَة «آيفنهو» للرِّوائي سكُوت[1]، تمّ تصوير فُرسان الهَيكَل كأشقياء، ومُتغطرسين، ومُحتالين، وطُغاة، وطمّاعين، ومُنافقين، ويستغلُّون سُلطتهم، وينتهكونها، مُراوغين، ومُحتالين، يُنظِّمون شُؤُون الرِّجال، والممالك. في كتابات القرن التّاسع عشر الأُخرَىٰ؛ تمّ تصويرهم علىٰ أنّهم أبالسة حُقراء، وعَبَدَة شياطين، ومُمارسون لكُلِّ الأساليب المكروهة والبذيئة، و/ أو المناسك الضّلاليّة. مال المُؤرِّخون الأكثر حداثة إلىٰ النَّظَر إليهم علىٰ أنّهم ضحايا قليلو الحظِّ، وبيادق قُربانيّة للمُناورات السّياسيّة العالية المُستوىٰ للدّولة والكَنيسَة. ولحَدِّ الآن؛ هُناك كُتّاب آخرون، خُصُوصاً في

(1) (السِّير وولتر سكُوت (1771 ـ 1832): روائي اسكتلندي. من أشهر آثاره: «آيفنهو» «Ivanhoe» (عام 1820). المُترجم).

تقليد الماسُونيَّة، يعدُّون فُرسان الهَيكَل كبارعين ومُطَّلعين باطنيِّيْن، وأنَّهم حُماة الحكمة الغامضة، التي تتجاوز المسيحيَّة بنفسها.

مهما كان تحيُّز التَّوجُّه المُعيَّن لمثل هؤلاء الكُتَّاب، لا أحد يُعارض الحماس البُطُولي لفُرسان الهَيكَل، أو مُساهمتهم إلىٰ التَّاريخ. ولا حتَّىٰ هُناك أيُّ شكٍّ بأنَّ تنظيمهم هُو إحدىٰ أكثر المُؤسَّسات إبهاماً وفتنة في سجلَّات الثَّقافة الغربيَّة. لا رواية عن الحملات الصَّليبيَّة، أو عن أُورُوبا في القرنَيْن الثَّاني عشر والثَّالث عشر، ستُهمل ذكْر فُرسان الهَيكَل. عندما كانوا في ذروة قُوَّتهم، كانوا المُنظَّمة الأكثر قُوَّة وتأثيراً في كُلِّ المسيحيَّة، مع إمكانيَّة استثناء وحيد هُو البَابَويَّة[1].

ومع ذلك؛ ماتزال هُناك أسئلة ترتبط بذلك الشأن.

ماذا كانوا؟

ومَنْ هُم فُرسان الهَيكَل؟

هل كانوا ـ فقط ـ ما بدا أنَّهم كانوا عليه؟

أم هل كانوا شيئاً آخر؟

هل كانوا الجُنُود البُسطاء الذين التحمت بهم هالة الأُسطُورة والغُمُوض بعد ذلك؟

إنْ كان الأمر كذلك، لماذا؟

بدلاً من ذلك، هل كان هُناك لُغز حقيقي مُرتبط بهم؟!

هل من المُمكن أنْ تكون هُناك أُسُس اعتمدت عليها زخرفة الأُسطُورة فيما بعد؟!

كان اهتمامنا الأوَّل بالرِّوايات المقبولة حول فُرسان الهَيكَل، الرِّوايات التي قدَّمها مُؤرِّخون ومسؤولون رفيعو المُستوىٰ. عَمَليّاً؛ في كُلِّ نُقطة من هذه الرِّوايات انبثقت أسئلة أكثر بكثير من الأجوبة التي كُنَّا ننتظرها. تلك الرِّوايات لم تكن تنهار تحت الفحص والتَّحقيق الذي كُنَّا نقوم به فحسب، بل كانت تقترح المزيد من «التّعتيم». نحنُ لا نستطيع أنْ نتهرَّب من شُكُوكنا بأنَّ شيئاً ما كان قد أُخفي بتعمُّد، وأنَّ قصَّة ما مُلفَّقة قد تمَّ نشرها، والتي ـ لاحقاً ـ لم يقمْ المُؤرِّخون السَّيِّئون إلَّا بتكرارها.

(1) (البَابَويَّة: نظام الحُكم في الكَنيسَة الرُّومانيَّة الكَاثُوليكيَّة، الذي يُعدُّ البَابَا رأسَهُ الأعلىٰ. المُترجم).

فُرسان الهَيكَل. الرِّواية الأرثُوذكسيَّة

بقدر ما هُو معروف عُمُوماً، المعلومات التَّاريخيَّة الأُولىٰ عن فُرسان الهَيكَل أُعِدَّت من قِبَل مُؤرِّخ فرنجي، «غليُوم دُو تاير»، الذي كتب بين عامَيْ 1175 و 1185. كان ذلك في قمَّة الحملات الصَّليبيَّة، عندما فتحت الجُيُوش الغربيَّة الأرضَ المُقدَّسَة، وأسَّست مملكة القُدْس ـ أو، كما دعاها فُرسان الهَيكَل أنفسهم الـ«Outremer»؛ أيْ «أرض ما وراء البحر». ولكنْ؛ في الوقت الذي بدأ فيه غليُوم بالكتابة، فلسطين كانت في الأيدي الغربيَّة لسبعين سنة، وفُرسان الهَيكَل كانوا في الوُجُود لأكثر من خمسين عاماً. لذا؛ كان غليُوم يكتب عن أحداث سبَّقت أحداث عُمره ـ أحداث لم يشهدها، أو يُجرّبها شَخْصيّاً، بل علم بها من طرف ثان، أو رُبَّما ثالث، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ علىٰ أُسُس غير مُؤكَّدة. لذلك؛ لم يكن هُناك مُؤرِّخون غربيُّون في أرض ما وراء البحر بين عامَيْ 1127 و 1144. وهكذا، ليس هُناك سجلَّات مكتوبة لتلك السَّنوات الحاسمة.

باختصار؛ نحنُ لا نعرف مُعظم المصادر التي اعتمدها غليُوم، وبالتَّالي؛ لرُبَّما ذلك يضع بعضاً من تصريحاته موضع الشَّكّ. لرُبَّما كان يُدوِّن من الكلام الشَّعبي المنقول، وُفقاً لبيانات شفهيَّة، لا يُمكن الاعتماد عليها. بدلاً عن ذلك، هُو ـ لرُبَّما ـ استشار فُرسان الهَيكَل أنفسهم، وأعاد تدوين ما أخبروه به. إنْ كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنَّه كتب ـ فقط ـ ما أراده فُرسان الهَيكَل أنْ يكتب.

علىٰ افتراض أنَّ غليُوم زوَّدنا بالمعلومات الأساسيَّة المُؤكَّدة، وأنَّ هذه المعلومات هي التي بُنيَتْ عليها كُلُّ الرِّوايات اللَّاحقة لفُرسان الهَيكَل، وكُلُّ التَّفسيرات حول مُؤسَّستهم، وكُلُّ القَصَص حول نشاطاتهم، لكنْ؛ بسبب غُمُوض غليُوم وسطحيَّته، وبسبب الوقت الذي كان يكتب عنه، وبسبب ندرة المصادر المُوثَّقة، فإنَّه يُشكِّل قاعدة غير راسخة لكي نبني عليها صُورتنا الجازمة. سجلَّات غليُوم مُفيدة بلا شكٍّ، ولكنَّه خطأ ـ وخطأ استسلم له العديد من المُؤرِّخين ـ أنْ يتمَّ اعتبارها دقيقة تماماً، وغير قابلة للطّعن. حتَّىٰ تواريخ غليُوم، كما أكَّد السِّير ستيفن رُونسيمان، «مُلخبطة وخاطئة بشكل واضح أحياناً».

طبقاً لغليُوم؛ «نظام الفُقراء فُرسان السَّيِّد المسيح وهَيكَل سُلَيْمان»[1]، أُسِّس عام 1118.

---

(1) (فُرسان الهَيكَل. المُترجم).

مُؤسِّسه قيل بأنَّه كان «هيُوغز دُو باين»، نبيل من شمبانيا، وتابع لكُونت شمبانيا. في أحد الأيَّام؛ قام هيُوغز بالمُثُول طوعاً مع ثمانية من رفاقه أمام ملك القُدْس «بُودوين الأوَّل»، والذي كان أخوه الأكبر «غُودفرُوي دُو بلُويُون» قد أسر المدينة المُقدَّسة قبل تسع عشرة سنة. يبدو أنَّ بُودوين استقبلهم بترحيب كبير، كما فعل بَطْرِيَرْك القُدْس؛ الزّعيم الدِّيني للمملكة الجديدة، والمبعوث الخاصّ من البَابَا.

ويستمرُّ غليُوم بالقول، إنَّ الهدف المُعلن لفُرسان الهَيكَل كان «بقدر ما كانت تسمح لهم قُوَّتهم، هُم يجب أنْ يُحافظوا علىٰ سلامة وأمن الطُّرُق الرَّئيسيَّة والفرعيَّة... مع اهتمام خاصٍّ بحماية الحُجَّاج». هذا الهدف ـ علىٰ ما يبدو ـ كان جديراً جدَّاً بالاهتمام، لدرجة أنَّ الملك أخلىٰ جناحاً كاملاً في القصر المَلَكي، ووضعه في أمرة الفُرسان. وعلىٰ الرّغم من قَسَمهم المُعلن بالفقر، إلَّا أنَّ الفُرسان انتقلوا إلىٰ ذلك المكان الفاخر. طبقاً للرِّواية؛ فإنَّ مساكنهم بُنيَتْ علىٰ أساسات هَيكَل سُلَيْمان القديم، ومن هُنا؛ اشتَقَّ النِّظام الجديدُ اسمَهُ.

لتسع سنوات، غليُوم يُخبرنا بأنَّ الفُرسان التّسعة لم يُدخلوا أيَّ مُرشَّحين جُدُد إلىٰ نظامهم. كان من المُفترض أنَّهم مايزالون يعيشون في فاقة؛ فاقة لدرجة أنَّ أختام رَسْميَّة تُظهر فارسَيْن يركبان حصاناً واحداً، دلالة علىٰ أنَّهم ليسوا ـ فقط ـ إخوة، بل ـ أيضاً ـ إلىٰ درجة من الفقر تمنعهم من رُكُوب مطيَّة، كُلّ علىٰ انفراد. هذا النَّمَط من الأختام يُعدُّ الأكثر شُهرَة وتميُّزاً في شعارات فُرسان الهَيكَل، وينحدر مُنْذُ الأيَّام الأُولىٰ لتأسيس نظامهم. علىٰ أيَّة حال؛ في الحقيقة، تاريخه يعود إلىٰ قرن كامل مضىٰ، عندما كان فُرسان الهَيكَل رُبَّما فُقراء، في الحقيقة، هُم لم يكونوا كذلك أبداً.

طبقاً لغليُوم؛ يكتب بعد نصف قرن، فُرسان الهَيكَل أُسِّسوا في **1118**، وانتقلوا إلىٰ قصر الملك، من المُفترض أنَّهم كانوا يتمركزون هُناك كقُوَّة مُهاجمة لحماية الحُجَّاج علىٰ الطُّرُق الرَّئيسيَّة والفرعيَّة للحُجَّاج إلىٰ الأرض المُقدَّسة، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ كان هُناك ـ في ذلك الوقت ـ مُؤرِّخ مَلَكي رَسْمي استُخدم من قِبَل الملك. كان اسمه «فُولك دُو شارتر»، وكان يكتب ليس ـ فقط ـ بعد خمسين سنة من التَّاريخ المزعوم لتأسيس النِّظام، بل أثناء السَّنوات المعنيَّة ذاتها. فُولك لم يذكر أيَّة إشارة عن أيٍّ من غُوغُوز دُو باين، أو حملات الهيُوغز، أو أيِّ شيء مُرتبط ـ ولو عن بُعْد ـ بفُرسان الهَيكَل.

في الحقيقة؛ هُناك صمت كبير حول نشاطات فُرسان الهَيكَل أثناء الأيّام الأُولىٰ من وُجُودهم. بالتَّأكيد؛ ليس هُناك سجلٌّ في أيِّ مكان ـ ولا حتَّىٰ مُؤخَّراً ـ عن قيامهم بأيِّ عمل لحماية الحُجَّاج. والمرء ليس بإمكانه إلَّا أنْ يتعجَّب كيف أنَّ عدداً قليلاً جدَّاً من الرِّجال بإمكانهم أنْ يقوموا بمهمَّة ذاتيَّة عظيمة كهذه. تسعة رجال لحماية الحُجَّاج علىٰ كُلِّ طُرُق الأرض المُقَدَّسة؟! فقط تسعة!! وكُلّ الحُجَّاج!! إنْ كان هذا هدفهم، فلابُدَّ أنْ يتوقَّع أحدنا أنَّهم سيستقبلون ويُجَنِّدون المزيد من المُحاربين. رغم ذلك، وطبقاً لغليُوم؛ هُم لم يُدخلوا أيَّ مُرشَّحين جُدُد إلىٰ النِّظام لمُدَّة تسع سنوات.

مع هذا، خلال عقد من الزَّمن، بدا أنَّ شُهرَة فُرسان الهَيكَل قد انتشرت لتصل إلىٰ أُورُوبا. تكلَّمت السُّلطات الكَنَسيَّة ـ إلىٰ حَدٍّ كبير ـ عنهم، ومجَّدت تعهُّدهم المسيحي. في عام **1128**، أو بعد ذلك بقليل، ولتمجيد وتعظيم فضائلهم وجَودتهم تمَّ إصدار كُرَّاسة[1] من شَخْص لا يقلُّ عن القدِّيس بيرنارد بذاته، والذي كان رئيس دَيْر كليرفُوكس، والنَّاطق الرَّئيسي للمنطقة المسيحيَّة في بيرنارد لمُدَّة طويلة، كَتب «تمجيداً للفُرُوسيَّة الجديدة»، هذه العبارة تُعلن بأنَّ فُرسان الهَيكَل هُم نُخبة الفئة المسيحيَّة، وأعظمهم تمجيداً.

بعد تسع سنوات، في عام **1127**، أغلب الفُرسان التّسعة عادوا إلىٰ أُورُوبا، وسط ترحيب عظيم بالانتصار، والذي تمَّ تنظيمه ـ بشكل أكبر ـ من قِبَل القدِّيس بيرنارد. في يناير/ كانون الثَّاني **1128**، تمَّ طلب عقد مجلس كَنيسَة في ترُويز ـ محكمة كُونت شمبانيا، السَّيِّد الإقطاعي لهيُوغز دُو باين ـ والذي كان فيه بيرناند ـ أيضاً ـ الرُّوح المُرشدة. في هذا المجلس، تمَّ الاعتراف ـ رَسْميَّاً ـ بفُرسان الهَيكَل، وتمَّ إعلانهم كنظام ديني سياسي. هيُوغز دي باين أُعطي منصب السَّيِّد الأعظم. هُو وأتباعه كانوا قد أصبحوا الرُّهبان المُحاربين، الجُنُود السِّرِّيِّن، ينضمُّون تحت انضباط صارم في الدَّيْر، مع حماس عَسْكَري لا يقلُّ عن تعصُّبهم؛ «ميليشيا السَّيِّد المسيح» هكذا سُمُّوا آنذاك.

(1) (يُقصَد بها ـ هُنا ـ دعاية دينيَّة، أو سياسيَّة. المُترجم).

ومرَّة ثانية؛ كان القدِّيس بيرنارد هُو مَنْ ساعد في وضع القانون الذي يجب الالتزام والتَّصرُّف بمُوجبه من قِبَل الفُرسان، قانون يُشبه ويرتكز علىٰ قانون «النِّظـام السِّيـستيري الرُّهبـاني»[1]، والـذي كان بيرنارد نفسه له تأثير مُهيمن عليه.

فُرسان الهَيكَل أقسموا علىٰ الفاقة، والعفَّة، والطَّاعة. أُلزموا بحَلْـق شُـعُورهم، ولكـنْ؛ حُـرِّم عليهم حَلْق لحاهم، حتَّىٰ يتمكَّنوا من تمييز أنفسهم، في وقت كان فيه أكثـر الرِّجـال حليقـي الوجـه. الحمية، واللّباس، وسمات أُخـرىٰ مـن الحيـاة اليوميَّـة نُظِّمَـتْ بـصرامة بمُوجـب الـرُّوتين الرُّهبـاني والعَسْكَري. كُلُّ أعضاء النِّظام أُلزموا بلبس رداء أبيض من معاطف وعبـي، وتطـوَّر ذلـك بـسُرعة؛ ليصل إلىٰ الزّيِّ الذي اشتُهر به فُرسـان الهَيكَل. «غير مسموح لأيِّ شَخْص أنْ يلبس الـرّداء الأبـيض، أو أنْ يمتلك عبياً بيضاء، باستثناء... فُرسان السَّيِّد المسيح». هكذا نصَّ قانون النِّظام، الـذي أسـهب في الأهمِّيَّة الرَّمْزيَّة لهذه الملابس: «إلىٰ كُلِّ الفُرسان المُعترف بهم، نُقدِّم في الشّتاء، وفي الـصَّيف، إنْ هُـم لم يُحصِّلوا، ملابس بيضاء؛ إذْ إنَّ أُولئك الذين اختاروا أنْ يتركوا خلفهم الحياة المُظلمـة قـد يعلمـون ـ أنَّهم بذلك ـ يُودعون أنفسهم لخالقهم بحياة نقيَّة، وبيضاء».

بالإضافة إلىٰ هذه التَّفاصيل، النِّظـام أسَّـس تـدرُّجاً هَرَميَّـاً للمناصـب. والـسُّلُوك في سـاحة المعركة كان مُسَيْطَرَاً عليه بصرامة. إنْ تمَّ أَسْرُ أحد فُرسان الهَيكَل ـ علىٰ سبيل المثال ـ فـلا يُـسمَح لـه بأنْ يَطلب الرَّحمة، أو الفدية؛ وبالتَّالي؛ هُم مُرغمون علىٰ القتـال حتَّـىٰ المـوت. ولا هُـو مـسموح لهـم بالتَّراجع، إلَّا إنْ كان عدد الأعداء ثلاثة إلىٰ واحد.

(1) (مُلاحظة هامَّة: كلمة سيستيري بالإنكليزيَّة هي «Cistercian» وكافَّة القواميس تُترجمها علىٰ أنَّها بَنَـدَكْتيّ، ولكـنْ؛ في الحقيقة، ذلك لا يجوز؛ إذْ إنَّ البندكتيِّيْن بالإنكليزيَّة لهم تسمية ثانية هي «Benedictines»، وبالمُناسـبة، السِّيـستيريُّون هُم نظام رهباني كَاثُوليكي رُوماني أُسِّـس في 1098 في ستُوكس «سيـستيريُوم باللَّاتينيَّـة» في فرنـسا، مـن قِبَـل مجموعـة الرُّهبان البندكتيِّيْن من دَيْر مُوليسم بزعامة القدِّيس رُوبرت في مُوليسم. أيضاً؛ سُمّوا بالرُّهبـان البـيض بـسبب الـرّداء الأبيض، أو الرّمادي، الذي كانوا يلبسونه تحت الوشاح الكتفي الأسود، السِّيستيريُّون أرادوا تأسيس مُجتمع يتبع تفسيراً صارماً للقواعد الرُّهبانيَّـة للقـدِّيس بنيـديكت أُوف نُورسـيا حـوالي العـام 540. أعتقـد أنَّ القـواميس عـدَّت تـسمية البندكتيِّيْن بدلاً من السِّيـستيريِّيْن انطلاقاً من أنَّ مُؤسِّسي هذا النِّظام الأخير هُم الرُّهبـان البنـدكتيُّون، ولكـنْ؛ مـاذا لـو وردت الكلمتان معاً في سطر واحد؟ المُترجم).

في عام 1139[1]؛ بيان رَسْمي بَابَوي أُصدر من قِبَل البَابَا إِنُوسنت الثَّاني، راهب سيستيري سابق في كليرفُوكس ومَحْمِيّ[2] القدِّيس بيرنارد. طبقاً لهذا البيان؛ فُرسان الهَيكَل لا يدينون بالولاء لأيَّة قُوَّة عالميَّة، أو كَنَسيَّة، ماعدا البَابَا بنفسه. بكلمة أُخرىٰ؛ هُم يُصبحون مُستقلِّين ـ كُلِّيّاً ـ عن كُلِّ المُلُوك، والأُمراء، والأساقفة، وكُلُّ التّدخُّلات من السُّلطات السِّياسيَّة، والدِّينيَّة. لقد أصبحوا ـ في الواقع ـ يحكمون أنفسهم، وأصبحوا إمبراطُوريَّة دوليَّة مُستقلَّة ذاتيّاً.

بعد عقدَيْن من مجلس ترُويز، توسَّع النِّظام بسُرعة استثنائيَّة، وعلىٰ مقياس كبير. عندما زار هيُوغز دي باين إنجلترا في أواخر 1128، استُقبل بـ«تأليه عظيم» من قِبَل الملك هنري الأوَّل. في كافَّة أنحاء أُورُوبا، الأبناء الشَّباب للعائلات النَّبيلة توجَّهوا ليُسجِّلوا في ذلك النِّظام، وحصل النِّظام علىٰ تبرُّعات واسعة في المال، والسِّلَع، والأرض التي مُنحَتْ من كُلِّ قطاع مسيحي. تبرَّع هيُوغز بملكيَّاته الخاصَّة، وكُلُّ المُجنَّدون الجُدُد أُلزموا بالقيام بالمثل. لقبول انضمام العُضو؛ عليه أنْ يُوقِّع مُتنازلاً عن كُلِّ أملاكه.

وُفقاً لسياسات كهذه، ليس من المُفاجأ أنْ تتكاثر أملاك فُرسان الهَيكَل بشكل كبير. خلال 12 شهراً فقط من عقد مجلس ترُويز، حصل النِّظام علىٰ عقارات كبيرة في فرنسا، وإنجلترا، واسكوتلندا، وإسبانيا، والبُرتغال، وفلاندر[3].

وخلال عقد آخر؛ ضمَّت مُتلكاتهم أراض في إيطاليا، والنَّمسا، وألمانيا، وهنغاريا، والأرض المُقَدَّسَة، ومناطق في الشَّرق. مع ذلك؛ كان الفُرسان الأفراد مُلزَمين بقَسَمهم الذي قطعوه علىٰ أنفسهم بالفقر، لكنَّ ذلك لم يمنع النِّظام من الثَّراء الرَّهيب، وبسُرعة مُتناهية. كُلُّ الهدايا كانت تُقبَل، في الوقت ذاته؛ النِّظام كان مُحرَّماً عليه التَصرُّف بأيِّ شيء، حتَّىٰ ولو فدية لزعيمهم. الهَيكَل استلم الكثير، ولكنْ؛ كمسألة سياسة صارمة، هُو لم يُعط. لذا؛ عندما عاد هيُوغز إلىٰ فلسطين في عام 1130 ومعه حاشية تُقدَّر بحوالي 300 فارس (عدد كبير جدّاً في ذلك الوقت)، ترك وراءه ـ في رعاية المُجنَّدين الآخرين ـ مناطق واسعة من الأقاليم الأُورُوبيَّة.

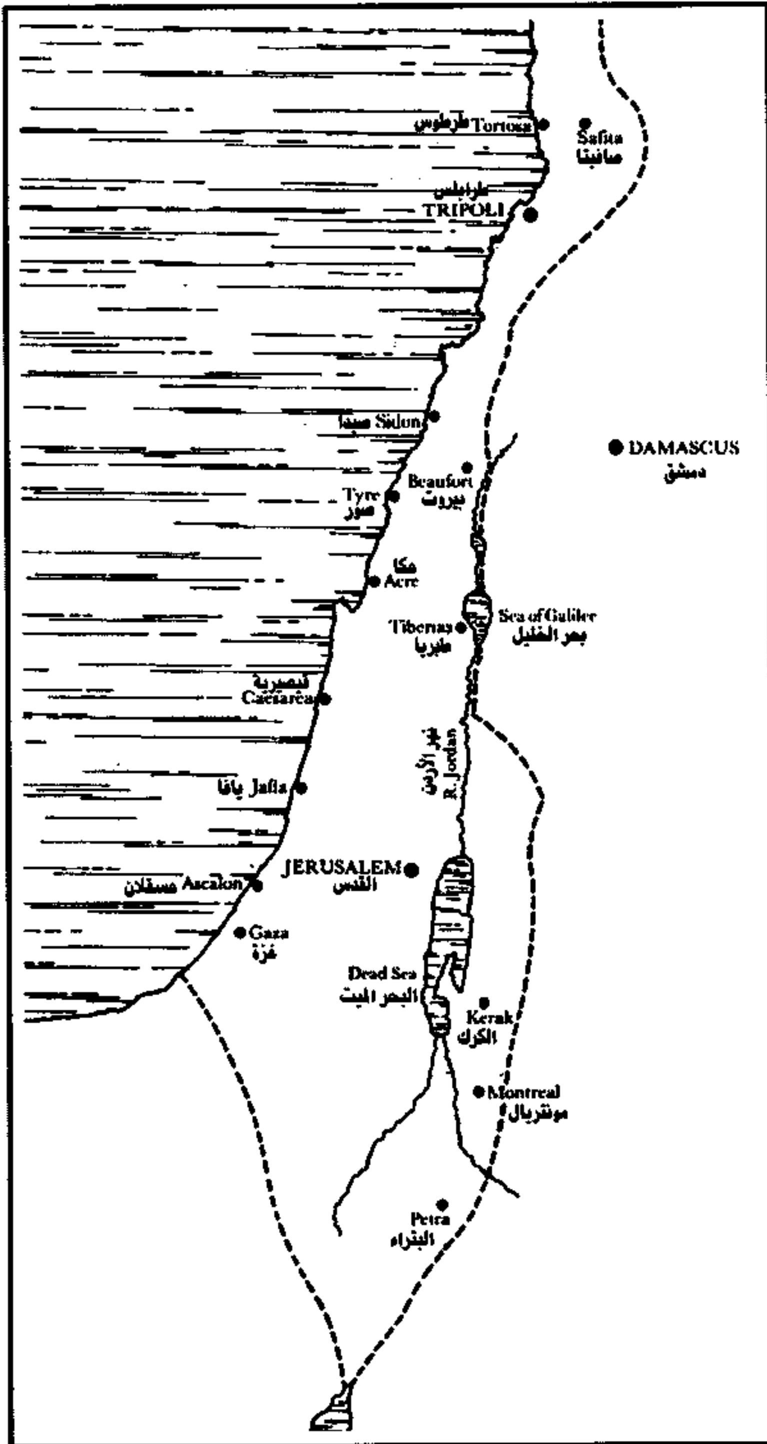
(1) (هذا التَّاريخ شُكِّك به؛ تمَّ الجدال علىٰ أنَّه لا يجب أنْ يكون قبل عام 1152. المُؤلِّفون).
(2) (المَحْمِيّ: شَخص تحت حماية، أو رعاية، مُتنفِّذ، أو ذي سُلطان. المُترجم).
(3) (أرض الفلمنكيِّين، الإمارة التَّاريخيَّة لشمال أُورُوبا. المُترجم).

في عام 1146، فُرسان الهَيكَل تبنُّوا الصَّليب الأحمر المشهور. بهذه الرّسمة التي زُخرفَتْ علىٰ عبيهم، رافق الفُرسانُ الملكَ الفرنسيَّ لويس السَّابع في الحملة الصَّليبيَّة الثَّانية. هُنا؛ أسَّسوا سُمعتهم بالحماس العَسْكَريّ المُقترن بالتَّهوُّر المجنون تقريباً، والغطرسة الشّديدة أيضاً. علىٰ أيّة حال؛ كانوا ـ بشكل إجمالي ـ قد نظَّموا أنفسهم بشكل رائع. لقد كانوا القُوَّة القتاليّة الأكثر انضباطاً في العالم في ذلك الوقت. الملك الفرنسي نفسه كَتَبَ بأنَّ الفضل يعود لفُرسان الهَيكَل ـ وحدهم ـ في مَنْع الطّيش وسُوء الإدارة المُعتادة في الحرب الصَّليبيَّة الثَّانية من التَحوُّل إلىٰ كارثة كُلّيَّة.

أثناء السَّنوات المئة التَّالية، أصبح فُرسانُ الهَيكَل قُوَّةً ذات تأثير دولي. كانوا ـ بشكل ثابت ـ ذوي مناصب دبلوماسيَّة عالية المُستوىٰ بين النُّبلاء والمُلُوك في كافَّة أنحاء العالم الغربي والأرض المُقَدَّسَة. في إنجلترا ـ علىٰ سبيل المثال ـ السَّيِّد الأعظم للهَيكَل كان يُدعَىٰ ـ بانتظام ـ إلىٰ المجلس البرلماني المَلَكي، وكان يُعدُّ رئيسَ كُلِّ الأنظمة الدِّينيَّة، آخذاً الأولويَّة علىٰ كُلِّ الأديرة ورُؤساء الأديرة الأسبق في الأرض. إبقاء الصِّلات الوثيقة مع كُلٍّ من هنري الثَّاني وتُوماس بيكيت، فُرسان الهَيكَل كانوا ذوي دور فعَّال في مُحاولة للصُّلح بين الملك ورئيس أساقفته المُبعَد. المُلُوك الإنجليز المُتعاقبون، بمَنْ فيهم الملك جُون، كانوا يُقيمون ـ في أغلب الأحيان ـ في مقرِّ الهَيكَل التَّعليمي في لندن، بالإضافة إلىٰ أنَّ السَّيِّد الأعظم للهَيكَل وقف إلىٰ جانب الملك في توقيع الوثيقة العُظْمَىٰ[1].

ولم ينحصر تدخُّل نظام فُرسان الهَيكَل السِّياسي في المسيحيَّة وحدها. تمَّ تشكيل ارتباطات وثيقة مع العالم الإسلامي أيضاً، الأمر الذي عارضه العالم ـ علىٰ الأغلب ـ في ساحة القتال. والفُرسان نالوا احترام الزُّعماء المُسلمين بدرجة تفوق ما نالوه من أيِّ زُعماء أُورُوبيِّيْن آخرين. الارتباطات السِّرِّيَّة تمَّتْ ـ أيضاً ـ مع الحشَّاشين، أو القَتَلَة، وهي طائفة مشهورة من المُقاتلين، وعلىٰ الأغلب؛ كانوا مُتعصِّبين بارعين، وكانوا المُضاهين من المُسلمين لفُرسان الهَيكَل. الحشَّاشون قدَّموا الاحترام والتّقدير لفُرسان الهَيكَل، وأُشيع أنَّهم كانوا طَوْعَ خدمتهم.

(1) (الوثيقة العُظْمَىٰ: وثيقة الحُقُوق التي أَكْرَهَ النُّبلاءُ الإنكليزُ الملكَ جُونَ علىٰ إقرارها في عام 1215. المُؤلِّفون يُعلِّقون علىٰ هذه الفقرة قائلين: الملك ريتشارد الأوَّل كان صديقاً مُقرَّباً من النِّظام، وعاش معهم أثناء إقامته في عكَّا. عندما ترك الأرض المُقَدَّسَة عام 1192، غادر مُتنكِّراً أثناء إبحار فُرسان الهَيكَل في سفينة من سُفُن الهَيكَل برفقة أربعة أعضاء من النِّظام. المُترجم).



القلاع والمدن الرئيسة في الأرض المقدسة في منتصف القرن الثاني عشر

تقريباً؛ علىٰ كافَّة المُستويات السِّياسيَّة، كان فُرسان الهَيكَل كالمُحكّمين الرّسميِّيْن في النّزاعات. وحتَّىٰ المُلُوك أذعنوا لسُلطتهم. في 1252، هنري الثَّالث ملك إنجلترا تجاسر لتحدِّيهم، وكان يُهدِّد بمُصادرة أكيدة لمُمتلكاتهم. «أنتُم فُرسان الهَيكَل... لكم العديد من الحُرِّيَّات والأنظمة، لدرجة أنَّ أملاككم الهائلة جعلتكُم تهتاجون بالفخر، والغَطْرَسَة. وبالتَّالي؛ ما أُعطي بشكل أحمق يجب أنْ يُسحَب بشكل مُتعقِّل؛ وما مُنحَ بشكل مُتهوِّر يجب ـ بتعقُّل ـ أنْ يُرَدَّ». سيِّد النِّظام أجاب: «ما تقوله أنتَ، يا ملكُ؟ والتي حاشا للفم أنْ ينطق كلام مرفوض، وسخيف جدَّاً مثله. طالما أنَّكَ تُقيم العدلَ. ستحكمُ، ولكنْ؛ إنْ خالفتهُ، ستُوقف عن كَونكَ مَلكاً». من الصَّعب علىٰ العقل الحديث أنْ يتصوَّر مدىٰ فداحة وجُرأة هذا التَّصريح. في ذلك البيان، السَّيِّد الأعظم يُبيِّن أنَّه ونظامه يمتلكان قُوَّة، حتَّى البَابَويَّة لا يُمكنها التَّصريح عنها بوُضُوح؛ قُوَّة تنصيب، أو خَلْع المُلُوك.

في الوقت ذاته، امتدَّت مصالح فُرسان الهَيكَل إلىٰ مدىٰ أبعد من الحرب، والدِّبلُوماسيَّة. والإثارة السِّياسيَّة. في الواقع؛ خلقوا وأسَّسوا مُؤسَّسة أعمال مصرفيَّة حديثة. بإعارتهم مبالغ ضخمة للمُلُوك المُعدمين يُصبحون المُصرفيِّيْن لكُلِّ عَرْش في أُورُوبا، ولحُكَّام مُسلمين مُعيَّنين أيضاً. وبشبكتهم التَّعليميَّة في كافَّة أنحاء أُورُوبا والشَّرق الأوسط، نظَّموا ـ أيضاً، بمُعدَّل فائدة مُتوسِّط ـ النَّقل الآمن والفعَّال لأموال التُّجَّار، والذين أصبحوا الصّنف الذي يعتمد عليهم علىٰ نحو مُتزايد. مثلاً، كان المال يُودَع في إحدىٰ المُدُن، وبالتَّالي؛ يُمكن أنْ يُسحَب في مدينة أُخرىٰ بواسطة الكمبيالات، التي كُتب عليها برُمُوز مُعقَّدة. بهذا؛ أصبح فُرسان الهَيكَل الصَّرَّافين الأساسيِّيْن في ذلك العصر، وأصبح مُجتمع فُرسان الهَيكَل في باريس مركز الماليَّة الأُورُوبيَّة. من المُحتمل أنَّه حتَّىٰ الشّيك الذي نتعامل به اليوم قد تمَّ اختراعه من قِبَل ذلك النِّظام.

فُرسان الهَيكَل لم يُتاجروا بالمال فحسب، بل بالفِكْر أيضاً. عبر اتِّصالهم الثَّابت والمُناصر للثَّقافة الإسلاميَّة واليهُوديَّة أصبحوا كدار المُقاصَّة[1] للأفكار الحديثة، وللعُلُوم والمعارف في ذلك العصر. تمتَّعوا باحتكار حقيقي لأفضل وأكثر التِّقنيَّات المُتقدِّمة في عصرهم ـ أفضل ما يُمكن إنتاجه من قِبَل صانعي الأسلحة، وعُمَّال الجُلُود، والحجَّارين، والمُصمِّمين العَسْكَريِّيْن، والمُهندسين البنَّائين.

(1) (المُقاصَّة: تبادل الشّيكات وتصفية الحسابات بين مُختلف البُنُوك، وهُنا؛ يُقصد بها فكريَّاً، وليس ماديَّاً. المُترجم).

ساهموا في تطوير عمليَّات المَسْح، وصُنْع الخرائط، وشقِّ الطُّرُق، والملاحة. امتلكوا موانئهم البَحْريَّة الخاصَّة، والسُّفُن، وأُسطُولاً بحريَّاً، وأُسطُولاً تجاريَّاً وعَسْكَرِيَّاً، والذي كان أوَّل أُسطُول يستخدم البُوصلة المغناطيسيَّة. وكجُنُود، حاجة فُرسان الهَيكَل لُمعالجة الجُرُوح والمرض جعلتهم بارعين في استعمال الأدوية. كان النِّظام يمتلك مُستشفياته الخاصَّة، مع أطبَّائه وجرَّاحيه الخاصِّين، والذي أعطىٰ استخدامهم لُمستخرجات العفن لمحة عن خصائص المُضادَّات الحيويَّة. كانوا يعرفون المبادئ الحديثة في النَّظافة والصِّحَّة. ومع تطوُّرهم السَّابق لعهدهم، عدُّوا الصّرع ليس كتملُّك شيطاني، بل كَمَرَض يُمكن السَّيطرة عليه.

ونتيجة إنجازاتهم الخاصَّة، فُرسان الهَيكَل في أُورُوبا، أصبحوا أغنياء، وأقوياء، وأثرياء، بشكل مُتزايد. لا عجب، رُبَّما كان نُمُوُّهم مُتزايداً في الفساد والوحشيَّة والغطرسة أيضاً. «تشرب الكُحُول كفُرسان الهَيكَل»؛ كانت الرّوسم (الكليشه) المُتداولة آنذاك. وبعض المصادر صرَّحت بأنَّ النِّظام اهتمَّ بتجنيد الفُرسان المحرومين كَنَسيَّاً.

لكنْ؛ في الوقت نفسه الذي أصبح فيه نُمُوُّ وسُمعة فُرسان الهَيكَل سيِّئة في أُورُوبا، تدهور الوضع في الأرض المُقَدَّسَة بجدِّيَّة. في **1185**، الملك بُودوين الرَّابع للقُدْس مات. في الشّجار السُّلالي الذي تلا ذلك، جيرارد دُو ريدفورت، السَّيِّد الأعظم للهَيكَل، خان العهد الذي قطعه علىٰ نفسه أمام الملك الرَّاحل، وبالتَّالي؛ جلب المجموعة الأُورُوبيَّة في فلسطين إلىٰ حافَّة حرب أهليَّة. ولم يكن هذا العمل لريدفورت هُو الوحيد المشكوك فيه. موقفه المُتعجرف نحو المُسلمين أَحْدَثَ قَطْعَاً للعلاقات لمُدَّة طويلة، أُوقفت الهُدنة، وأُثيرت دورة جديدة من العداوات. بعد ذلك، في يُوليُو/ تمُّوز **1187**، ريدفورت قاد فُرسانه ـ بتهوُّر وسُوء في الحُكم والتّقدير، سويَّة مع بقيَّة الجيش المسيحي ـ إلىٰ معركة كارثيَّة في حطِّين. القُوَّات المسيحيَّة أُبيدَتْ عَمَليَّاً؛ وبعد شهرَيْن، القُدْس نفسها ـ التي أُسرَتْ قبل قرن تقريباً ـ كانت ـ ثانية ـ بأيدي المُسلمين.

أثناء القرن التَّالي، الحالة أصبحت يائسة جدَّاً. بحُلُول عام **1291**، تقريباً كُلُّ الـ«Outremer»[1] سَقَطَتْ، والأرض المُقَدَّسَة ـ تقريباً، بشكل كُلِّيٍّ ـ أصبحت تحت السَّيطرة

(1) (وهي باللُّغة الفرنسيَّة، وتعني «ما وراء البحار». المُترجم).

الإسلاميَّة. لم يبقَ سوىٰ «عكَّا»، وفي مايو/ مايس 1291، سَقَطَتْ هذه القلعة الأخيرة أيضاً. دفاعاً عن المدينة المنكوبة، فُرسان الهَيكَل أظهروا أفضل ما عندهم من بُطُولة. السَّيِّد الأعظم للهَيكَل بنفسه، علىٰ الرّغم من أنّه جُرح بشدَّة، استمرَّ في المُحاربة حتَّىٰ الموت. بما أنّه لم يكن هُناك سوىٰ شاغر محدود في سُفُن النِّظام، تمَّ إخلاء النِّساء والأطفال فقط، بينما كُلُّ الفُرسان، حتَّىٰ المجروحين، اختاروا البقاء في الخلف. عندما سقط المعقل الأخير في عكَّا، انهارت الجُدران، وَدَفَنَت المُهاجمين والمُدافعين علىٰ حَدٍّ سواء، وقد تمَّ ذلك بشدَّة تدميريَّة كبيرة.

أسَّس فُرسان الهَيكَل لمقرِّهم الجديد في قُبرُص، لكنْ؛ بخسارة الأرض المُقَدَّسة، هُم كانوا ـ عَمَليّاً ـ محرومين من سبب وُجُودهم. بما أنّه لم يعد هُناك أيَّة أراض غير نصرانيَّة في مُتناول اليد لكي يتمَّ فتحها، بدأ النِّظام بتحويل أنظاره نحو أُورُوبا، آملاً في العُثُور هُناك علىٰ تبرير لوُجُوده المُستمرِّ.

قبل قرن من ذلك الوقت، فُرسان الهَيكَل كانوا قد ترأَّسوا، وأشرفوا، علىٰ تأسيس نظام فُرُوسي عَسْكَري ديني، وهُو نظام الفُرسان التّيُوتُونيُّون[1]. ذلك الأخير كان نشيطاً بأعداد صغيرة في الشَّرق الأوسط، ولكنْ؛ في مُنتصف القرن الثَّالث عشر أداروا انتباههم إلىٰ الحُدُود الشّماليَّة الشَّرقيَّة للمسيحيَّة. هُنا؛ كانوا قد أسَّسوا إمارة مُستقلَّة لأنفسهم ـ «أُوردينز تات»، أو «أُوردينز لاند»، والتي أحاطت ـ تقريباً ـ بكُلِّ منطقة البلطيق الشَّرقيَّة. في هذه الإمارة، التي امتدَّت من برُوسيا إلىٰ خليج فلندا، والتي هي تُربة رُوسيَّة الآن، تمتَّع الفُرسان التّيُوتُونيُّون بسيادة لا مُنازع عليها، بعيداً عن أيدي السَّيطرة العِلْمانِيَّة والإكليرُوسيَّة (الكَنَسيَّة).

ونتيجة لذلك، فُرسان الهَيكَل حسدوا الاستقلال والمناعة التي يتمتَّع بها نظامهم الشّقيق في «أُوردينز لاند». بعد سُقُوط الأرض المُقَدَّسة؛ فكَّروا ـ علىٰ نحو مُتزايد ـ بالحُصُول علىٰ إمارة يمتلكونها؛ بحيثُ يستطيعون مُمارسة الصلاحيَّة غير المُقيَّدة نفسها ، والحُكْم الذّاتي الذي يتمتَّع به الفُرسان التّيُوتُونيُّون (الفُرسان الجيرمان). علىٰ خلاف الفُرسان الجيرمان ـ علىٰ أيَّة حال ـ فُرسان الهَيكَل لم يُعجبهم الطَّبيعة القاسية والقفر في أُورُوبا الشَّرقيَّة. فهُم كانوا ـ آنذاك ـ مُعتادين علىٰ التَّرف والثَّراء. وُفقاً لذلك؛ حلموا بتأسيس إمارتهم علىٰ تُربة أفضل وأسهل للوُصُول، والتي كانت لانغدُوق.

---

(1) (التّيُوتُونيّ: واحد التّيوتون، وهُم شعب جرمانيّ، أو سلتيّ، قديم. المُترجم).

مُنْذُ سنواتهم الأُولىٰ، فُرسان الهَيكَل حافظوا علىٰ وئام مُعيَّن جيِّد ودافئ مع الكَاثَار، خُصُوصاً؛ في لانغدُوق.

العديد من مُلاَّك الأراضي الأغنياء ـ الكَاثَار أنفسهم، أو المُتعاطفون مع الكَاثَار ـ تبرَّعوا بمناطق واسعة من الأرض إلىٰ النِّظام. طبقاً لكاتب حديث؛ علىٰ الأقلِّ؛ واحد من مُؤسِّسي نظام الهَيكَل كان من الكَاثَار. هذا يبدو ـ نوعاً ما ـ غير مُحتمل، ولكنْ؛ ما لا خلاف عليه هُو أنَّ بيرتراند دُو بلانتشفُورت، السَّيِّد الأعظم الرَّابع للنِّظام، تحدَّر من عائلة كَاثَاريَّة.

بعد أربعين سنة من موت بيرتراند، كان أحفاده يُحاربون ـ جنباً إلىٰ جنب ـ مع لُوردات الكَاثَار الآخرين ضدَّ المُحتلِّين الشّماليِّيْن لسيمون دُو مُونتفُورت[1].

أثناء حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة، يُزعَم أنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا مُحايدين، مُقيِّدين أنفسهم بدور شُهُود فقط. علىٰ أيَّة حال؛ السَّيِّد الأعظم في ذلك الوقت يبدو أنَّه وضَّح موقف النِّظام عندما أعلن بأنَّه هُناك ـ في الحقيقة فقط ـ حملة صليبيَّة حقيقيَّة واحدة ـ الحملة الصَّليبيَّة ضدَّ المُسلمين[2].

علاوةً علىٰ ذلك؛ يكشف استنطاق حريص لشَخْصيَّات مُعاصرة بأنَّ فُرسان الهَيكَل زوَّدوا الكثير من اللَّاجئين الكَاثَار بالمأوىٰ[3]. أحياناً؛ يبدو أنَّهم حملوا السّلاح دفاعاً عن هؤلاء اللَّاجئين. وفي مُعاينة لوثائق رَسْميَّة للنِّظام تتعلَّق ببداية الحملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة كشفت تدفُّقاً رئيسيَّاً للكَاثَار إلىٰ صُفُوف نظام فُرسان الهَيكَل؛ حيثُ لم يجرؤ حتَّىٰ صليبيِّ سيمون دُو مُونتفورب علىٰ تحدِّيهم.

---

(1) (بلانتشفُورت دُمِّرَتْ أثناء الحملة البيجينيَّة الصَّليبيَّة، سَقَطَتْ في وقت ما قبل عام 1215. لُورد بلانتشفُورت قاتل إلىٰ جانب رايموند روجيرت ترينكافيل زعيم الكَاثَار. بيرتراند دُو بلانتشفُورت بنفسه، وعلىٰ الأغلب بالتَّعاون مع ترينكافيل السَّابق، اشترك في تبرُّعات ماليَّة وعقاريَّة لفُرسان الهَيكَل. هذه الصَّفقات سُجِّلَتْ قبل انضمامه إلىٰ النِّظام، عندما كان مايزال مُتزوِّجاً زوجته فابريسَّا. المُؤلِّفون).

(2) (أيْ أنَّه لم يكن مُؤيِّداً لتسمية تلك الحملة بالحملة الصَّليبيَّة، وبالتَّالي؛ كان ـ ضمنيَّاً ـ مُؤيِّداً للكَاثَار. المُترجم).

(3) (وثيقة وُجِدَتْ في أرشيف عائلتَيْ برُويرن ومُوليُون تذكر كيف قام فُرسان الهَيكَل في شمبانيا والبيدون بتأسيس ملاجئ للكَاثَار. هذه الوثيقة ووثائق أُخرىٰ اختفت أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، في وقت ما في شهر نوفمبر/ تشرين الثَّاني من عام 1942. المُؤلِّفون).

في الحقيقة، الوثائق الرَّسْميَّة لنظام فُرسان الهَيكَل لتلك الفترة تُظهر بأنَّ نسبة هامَّة من وُجهاء النِّظام الكبار كانوا من عائلات كَاثَاريَّة.

في لانغدُوق، مسؤولو نظام الهَيكَل كانوا ـ علىٰ الأغلب ـ كَاثَاراً بشكل أكثر من الكَاثُوليك. الأكثر من ذلك، النُّبلاء الكَاثَار الذين انضمُّوا إلىٰ نظام الهَيكَل لا يبدو أنَّهم تنقَّلوا في العالم بقدر إخوتهم الكَاثُوليك. بالعكس، يبدو أنَّ الجُزء الأكبر منهم بقي في لانغدُوق، ممَّا جعل للنِّظام قاعدة طويلة الأمد، ومُستقرَّة في المنطقة.

استناداً إلىٰ اتِّصالهم بالثَّقافات الإسلاميَّة واليهُوديَّة، امتصَّ فُرسان الهَيكَل عدداً كبيراً من الأفكار الغريبة بالنِّسبة للمسيحيَّة الرُّومانيَّة الأرثُذُوكسيَّة. علىٰ سبيل المثال، الأسياد العظام لنظام الهَيكَل استخدموا السّكرتيرات العَرَبيَّات في أغلب الأحيان، والكثير من فُرسان الهَيكَل ـ بعد أنْ تعلَّموا العَرَبيَّة في الأَسْر ـ كانوا طليقين في تلك اللُّغة. كما أنَّه تمَّ الاحتفاظ بعلاقة قريبة ووُدِّيَّة مع الجاليات اليهُوديَّة، وكذلك الاهتمامات الماليَّة، والثَّقافة. وهكذا؛ كان فُرسان الهَيكَل مُطَّلعين علىٰ العديد من الأشياء التي لم تعرفها رُومَا عادةً.

خلال تدفُّق المُجنَّدين الكَاثَار، اطَّلع فُرسان الهَيكَل ـ أيضاً ـ علىٰ الثُّنائيَّة المعرفيَّة؛ إذْ إنَّهم ـ في الحقيقة ـ كانوا جاهلين تماماً بذلك الأمر.

بحُلُول عام **1306**، فيليب الرَّابع ملك فرنسا ـ فيليب لو بيل ـ كان مُتلهِّفاً ـ بشدَّة ـ لتخليص أرضه من فُرسان الهَيكَل. فقد كانوا مُتغطرسين، وغير مُطيعين. كانوا أكفَّاء ومُتدرِّبين بشكل مُمتاز، وكانوا قُوَّة عَسْكَريَّة مُنظَّمة ومُحترفة، وتُعدُّ أقوىٰ وأفضل بكثير من أيِّ قُوَّة هُو بنفسه يُمكن أنْ يجمعها. أسَّسوا أنفسهم بحزم وثبات في كافَّة أنحاء فرنسا، وآنذاك؛ حتَّىٰ ولاءهم للبَابَا كان إسميَّاً فقط. فيليب لم يكن قادراً علىٰ السَّيطرة علىٰ النِّظام. وكان مديناً لهم بالمال الكثير. لقد تمَّ إذلاله عندما هرب من الثُّوَّار الفرنسيِّيْن، طالباً اللُّجُوء المُهين في طائفة فُرسان الهَيكَل. طمع بثروة فُرسان الهَيكَل الهائلة، والتي اطَّلع عليها ـ بوُضُوح ـ لدىٰ زيارته لمبانيهم. وبعد أنْ قدَّم طلباً للانضمام إلىٰ النِّظام كمُرشَّح للدُّخُول في الرَّهْبَنَة، عانىٰ من مذلَّة الرَّفْض المُتغطرس. هذه العوامل ـ وبالطَّبع

ـويَّة مع الفُرصة الخطيرة لتشكيل ولاية مُستقلَّة لنظام الهَيكَل في بابه الخلفي ـ كانت كافية لـدَفْع الملك للشُّروع بالتّنفيذ، كما أنَّ الهَرْطَقَة كانت عُذراً سهلاً آخر.

فيليب ـ أوَّلاً ـ كان لابُدَّ أنْ يستخدم تعاون البَابَا، الذي إليه ـ علىٰ أيَّة حال ـ دان فُرسان الهَيكَل بالولاء والطاعة. بين عامَيْ 1303 و 1305 الملك الفرنسي ووُزرائه دبَّروا اختطاف وموت أحد البابوات (بونيفيس الثَّامن)، ومن المُحتمل ـ تماماً ـ دبَّروا القَتْلَ بالسُّمِّ لبَابَا آخر (بينيدكت الحادي عشر).

عند ذلك، في 1305، فيليب استطاع ضمان انتخاب مُرشَّحه الخاصّ، رئيس أساقفة بُوردُو، إلىٰ العَرْش البَابَوي الشّاغر. الحبْرُ الجديد كان اسمه كليمنت الخامس. ولأنَّه مدين للملك فيليب لُمساعدته في الوُصُول إلىٰ هذا المنصب، كان من الصَّعب أنْ يرفض له أيَّ طلب. وتضمَّنت هذه الطّلبات الإخماد النِّهائي لفُرسان الهَيكَل.

خطَّط فيليب تحرُّكاته بعناية. وتمَّ جمع قائمة من التُّهم، جُزئيّاً من جواسيس الملك، الذين اخترقوا النِّظام، وجُزئيّاً من الاعتراف الطّوعي لُمرتدٍّ مزعوم عن نظام الهَيكَل. مُسلَّحاً بهذه الاتِّهامات، فيليب يُمكنه أنْ يتحرَّك أخيراً؛ وعندما باشر هُجُومه، كان قاتلاً وفعَّالاً وسريعاً ومُفاجئاً. في عمليَّة أمنيَّة أشبه بعمليَّات الـ«إس إس»، أو الجستابُو، أصدر الملكُ أوامرَ غامضةً وسرِّيَّة إلىٰ قَهْرَماناته[1] في كافَّة أنحاء البلاد. هذه الأوامر كانت علىٰ أنْ تُفتَح في كُلِّ مكان بآن واحد، وأنْ تُطبَّق حالاً.

عند فجر يوم الجُمعة، في 13 أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل من عام 1307، تمَّ أسر كُلِّ فُرسان الهَيكَل في فرنسا، وتمَّ إيقافهم من قِبَل رجال الملك، ووُضعت كافَّة مُمتلكاتهم وسلَعهم تحت المُصادرة المَلَكيَّة. ولكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ هدف فيليب في المُفاجأة يبدو أنَّه قد أُنجز، إلَّا أنَّ اهتمامه الأساسي ـ ثروة النِّظام الهائلة ـ لم يكن كذلك. لم يتمّ العُثُور علىٰ ذلك الكَنز أبداً، وما حصل لـ«كَنز فُرسان الهَيكَل العظيم» بقي لُغزاً.

(1) (القَهْرَمان: وكيل الأمير الإقطاعي. المُترجم).

في الحقيقة؛ هُناك ريبة في أنَّ هُجُوم فيليب المُفاجئ علىٰ النِّظام كان غير مُتوقَّع، كما كان يتوقَّع هُو، أو المُؤرِّخون فيما بعدُ. هُناك دليل كبير يقترح بأنَّ فُرسان الهَيكَل تلقّوا إنذاراً مُبَكِّراً من نوع ما.

قبل فترة قليلة من التَّوقيف، علىٰ سبيل المثال، السَّيِّد الأعظم، جاك دُو مُولاي، طَلَبَ العديد من كُتُب النِّظام، وأنظمته الموجودة، وأحرقها.

الفارس الذي ارتدَّ عن النِّظام أُخبر في ذلك الوقت من قِبَل أمين الصُّندُوق بأنَّه كان «حكيماً» جدَّاً؛ إذْ إنَّ كارثة كبيرة علىٰ وشك الحُدُوث. مُذكّرة رَسْمِيَّة وُزِّعَتْ إلىٰ كُلِّ أفراد الطَّائفة الفرنسيِّين، تُشدِّد علىٰ أنَّه لا يجب ـ بأيِّ شكل ـ أنْ يتمَّ نشر أيَّة معلومات بخُصُوص عادات وطُقُوس النِّظام.

في أيِّ حال من الأحوال، سواء فُرسان الهَيكَل حُذِّروا مُسبقاً، أم أنَّهم تنبَّؤوا بالعاصفة القادمة، قد تمَّ اتِّخاذ تدابير وقائيَّة أكيدة بشكل مُسبق[1].

في المقام الأوَّل، الفُرسان الذين أُسروا يبدو أنَّهم استسلموا بشكل سلبي، كما لو أنَّهم أُمروا بذلك؛ إذْ إنَّه لا يُوجد هُناك أيُّ سجلٍّ بأنَّ النِّظام قاوم قهرمانات الملك بشكل فعَّال.

في المقام الثَّاني، هُناك دليل مُقنع حول رحلات مُنظَّمة لمجموعة مُعيَّنة من الفُرسان، عَمَليَّاً؛ جميعهم ارتبطوا بأمين صُندُوق النِّظام بطريقة ما. وبالتَّالي؛ رُبَّما ليس من المُفاجئ، أنَّ كَنز الهَيكَل ـ بالإضافة إلىٰ كُلِّ وثائقه وسجلَّاته تقريباً ـ قد اختفىٰ. كان هُناك إشاعات مُتواصلة ـ ولكنْ؛ غير مُؤكَّدة ضمن طائفة الهَيكَل ـ تتكلَّم عن أنَّ الكَنز يُهرَّب في اللَّيل من باريس قبل فترة قليلة من التَّوقيف.

طبقاً لهذه الإشاعات؛ ذلك الكَنز كان قد نُقل بالعَرَبات إلىٰ السّاحل ـ من المُفترض إلىٰ قاعدة النِّظام في «لا رُوشِل» ـ وقد حُمل بثماني عشرة سفينة، والتي لم يُسمَع عنها ـ أبداً ـ ثانية. سواء هذا كان

(1) (طريقة واحدة ـ لرُبَّما ـ النِّظام استلم فيها إنذاراً مُبَكِّراً عن الكارثة هي عن طريق جين دُو جُوينفيل. هُو كان مندوب أمير شمبانيا، وبالتَّالي؛ هُو كان سيستلم الأوامر السِّرِّيَّة من فيليب لو بيل لتنفيذ الاعتقالات. عُرف بأنَّه كان مُتعاطفاً مع فُرسان الهَيكَل، وعمّه أندريه كان عُضواً في النِّظام، وكان رئيس مجمع بابن لفُرسان الهَيكَل في 1260. جين كتب عن يمين غامض، يذكر فيه عن البصق علىٰ الصَّليب، في الوقت الذي اتُّهم فُرسان الهَيكَل بأنَّهم يقومون بذلك. علاوةً علىٰ ذلك؛ لَمَّح ـ بقُوَّة شديدة ـ إلىٰ أنَّ القدِّيس لويس عُرف بذلك قبل خمسين عاماً من ذلك، ورفض إدانته. جين نظَّم اتِّحاداً من النُّبلاء لمُعارضة تطاول الملك الفرنسي ضدَّ الهَيكَل. الاتِّحاد أصبح زائداً عن الحاجة بعد موت الملك. المُؤلِّفون).

حقيقيّاً أم لا، يبدو أنَّ أُسطُول فُرسان الهَيكَل قد نجا من مخالب الملك؛ لأنَّه ليس هُناك أيُّ تقرير عن مُصادرة أيٍّ من سُفُن النِّظام. بالعكس؛ يبدو أنَّ تلك السُّفُن قد اختفت كُلِّيّاً، بالإضافة إلىٰ كُلِّ ما يُتوقَّع أنَّها حملته[1].

في فرنسا، فُرسان الهَيكَل المُعتقلون تمَّ ابتلاؤهم، والعديد منهم خضعوا للتّعذيب. تمَّ انتزاع اعترافات غريبة واتِّهامات أغرب. بدأت الإشاعات المُتجهِّمة بالانتشار حول البلاد. تمَّ ادِّعاء أنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا يعبدون شيطاناً يُدعىٰ «بافُوميت»، وأنَّهم في طُقُوسهم السِّرِّيَّة كانوا يسجدون أمام رأس رجل مُلتحٍ، والذي كان يتكلَّم معهم، ويُزوِّدهم بالقُدرات الغامضة. الشُّهُود الرّافضون لهذه الطُّقُوس لم يتمّ رُؤيتهم مُجدَّداً. وكان هُناك تُهم أُخرىٰ أيضاً، والتي كانت مُبهمة لدرجة أكبر: عن الوَأْد، وعن تعليم النِّساء كيفيَّة الإجهاض، وعن القُبل البذيئة عند تنصيب المُرشَّحين لدُخُول الرَّهْبَنَة، وعن الشُّذُوذ الجنسي. ولكنْ؛ من كُلِّ تلك التُّهم المُوجَّهة ضدَّ جُنُود السَّيِّد المسيح ـ الذين قاتلوا وعرَّضوا حياتهم للسَّيِّد المسيح ـ يقف الإنسان مُستغرباً، وعلىٰ ما يبدو؛ غير مُصدِّق؛ لقد اتُّهموا بأنَّهم ـ في طُقُوسهم ـ يُنكرون السَّيِّد المسيح، ويدوسون، ويبصقون، علىٰ الصَّليب.

في فرنسا ـ علىٰ الأقلِّ ـ مصير فُرسان الهَيكَل المُعتقلين كان قد انتهىٰ عَمَليّاً. فيليب استباحهم بشكل وحشي، وقاسٍ. الكثيرون أُحرقوا، والأكثر منهم سُجنوا، وعُذِّبوا. وبالوقت نفسه؛ واصل

(1) (عندما ضُبّاط الاعتقال ـ برفقة الملك بنفسه ـ استولوا علىٰ هَيكَل باريس عام 1307، لم يجدوا، لا مالاً، ولا وثائق، تخصُّ النِّظام. أمين صُندُوق النِّظام كان هيُوغز دُو بيرود، وتحت أمرته كان يخدم جيرارد دُو فيلرز، رئيس مجمع فُرسان الهَيكَل في فرنسا. في عام 1308، أُخذَ 72 فارساً من فُرسان الهَيكَل إلىٰ بواتيه للإدلاء بالشَّهادة أمام البَابَا بنفسه. لم تنجُ كُلُّ الوثائق من تلك الفترة. من المُحتمل جدّاً أنَّ العديد منها اختفىٰ عندما أُخذت كُلُّ أرشيفات الفَاتيكَان السِّرِّيَّة، بما فيها كُلُّ الوثائق التي تتعلَّق بفُرسان الهَيكَل، إلىٰ باريس بأمر من نابُليُون. كانت الفوضىٰ شديدة، إلىٰ درجة أنَّ أصحاب البقَّاليَّات وجدوا وثائق ثمينة ليُغلِّفوا بها سلَعهم. ثلاث وثلاثون وثيقة من بواتيه نُشرَتْ من قِبَل المُؤرِّخ الألماني كُونراد سكوتمولير في عام 1887، وسبع فوق ذلك من قِبَل هنريك فينك عام 1907. في هذه المجموعة الأخيرة؛ هُناك بيان مُحرِّر لجين دُو تشالونز يدَّعي بأنَّ جيرارد دُو فيلرز كان علىٰ علْم مُسبق بالاعتقالات، وهرب من الهَيكَل بصُحبة خمسين فارساً، وأبحر في ثمانية عشر من سُفُن الهَيكَل. يُضيف بأنَّ هيُوغز دُو تشالونز رحل ومعه كُلُّ كُنُوز هيُوغز دُو بيرود. وقيل إنَّ هذا الأمر ـ أثناء الاستجواب ـ بقي سرّاً؛ لأنَّ أُولئك الفُرسان الخمسين يُزعَم أنَّهم كانوا خائفين من أنْ يُقتَلُوا إنْ هُم تكلَّموا. هُناك بعض الأدلَّة تُثبت مثل هذا الزَّعْم. عندما اعتُقل فُرسان الهَيكَل في ذلك الفجر، البعض منهم لم يكن موجوداً، وأُسر بعد عدَّة أيَّام. من بين المجموعة الصَّغيرة التي أُمسكَتْ لاحقاً كان جيرارد دُو فيلرز وهيُوغز دُو تشالونز. المُؤلِّفون).

الملكُ إرهابَ البَابَا، طالباً منه التَّدابير الصارمة الدّائمة ضدَّ النِّظام. بعد مُقاومة البَابَا لفترة من الوقت، فسح ـ أخيراً ـ المجال لما يُريده الملك في عام 1312، وتمَّ التَّخلُّص من فُرسان الهَيكَل رَسْميَّاً، بدُون دليل حاسم وواضح حول إدانتهم، أو براءتهم. لكنْ؛ في المُقاطعات الخاضعة لحُكْم فيليب، استمرَّت المُحاكمات والتَّحقيقات والاستعلامات لمُدَّة سنتَيْن فيما بعد.

أخيراً، في مارس/ آذار 1314، جاك دُو مولاي، السَّيِّد الأعظم، وجُوفروي دُو تشارني، المُعلِّم في النُّورماندي، تمَّ شَيُّهم علىٰ نار هادئة.

بإعدامهم؛ يختفي فُرسان الهَيكَل ـ زَعْمَاً ـ من تلك الصّفحة من التَّاريخ. علىٰ الرّغم من هذا، النِّظام لم يُزَلْ نهائيَّاً من الوُجُود. نَظَرَاً لأنَّ عدداً من الفُرسان قد هربوا، وبقوا طُلَقاء، أو قد يكون نفر منهم قد بُرِّئ، ومن المُفاجئ أنْ يكون ذلك قد حَدَثَ.

فيليب حاول أنْ يُؤثِّر علىٰ زُملائه المُلُوك، آملاً ـ في ذلك ـ أنْ يضمن زوال نظام وفُرسان الهَيكَل من أيِّ مكان في الأراضي المسيحيَّة.

في الحقيقة؛ حماس الملك في هذا المجال مُريب تقريباً. المرء قد يستوعب رغبة الملك في التَّخلُّص التَّامِّ من وُجُود النِّظام في أراضيه، ولكنْ؛ لماذا كان راغباً ـ بشدَّة ـ بإبادته عن بكرة أبيه من كافَّة الأراضي الأُخْرَىٰ، أو بالأحرىٰ من الوُجُود. بالتَّأكيد؛ هُو بنفسه لم يكن مثالاً للفضيلة؛ ومن الصَّعب تخيُّل أنَّ الملك الذي رتَّب لقَتْل اثنَيْن من البابوات أنْ يحزن ـ بصدق ـ علىٰ انتهاكات دينيَّة.

ببساطة؛ هل فيليب كان خائفاً من بقاء النِّظام خارج فرنسا؟!

أم هل كان هُناك شيء آخر ضمنيَّاً؟!

في أيِّ حال من الأحوال، مُحاولته لإزالة فُرسان الهَيكَل خارج فرنسا لم تكن ناجحة تماماً. صهر فيليب الخاصّ، علىٰ سبيل المثال، إدوارد الثَّاني ملك إنجلترا، في بادئ الأمر، هُرع للدِّفاع عن النِّظام. في النِّهاية، وبضغط من قِبَل البَابَا والملك الفرنسي، امتثل لطلباتهما، ولكنْ؛ بشكل جُزئي وفاتر. بالرّغم من أنَّ أكثر فُرسان الهَيكَل في إنجلترا يبدو أنَّهم هربوا بالكامل، إلَّا أنَّ عدداً منهم قد اعتُقل. علىٰ أيَّة حال، مُعظم أُولئك المُعتقلين خضعوا لعُقُوبات مُخفَّفة، أحياناً؛ لا تتعدَّىٰ كفَّارة لعدَّة سنوات

في الأديرة والكَنائس؛ حيثُ عاشوا في شُرُوط مُريحة عُمُوماً. أراضيهم أُودعت ـ في النِّهاية ـ إلىٰ الفُرسان الاسبتاريِّيْن[1] للقدِّيس جُون، لكنَّهم ـ أنفسهم ـ حزنوا علىٰ الاضطهاد الشِّرِّير الذي نزل بأُخوتهم في فرنسا.

في مكان آخر؛ إزالة فُرسان الهَيكَل تمَّتْ بصُعُوبة أكبر. اسكوتلندا ـ علىٰ سبيل المثال ـ كانت في حالة حرب مع إنجلترا في ذلك الوقت، والفوضىٰ النَّاتجة لم تُتحْ إلَّا فُرصة قليلة لتطبيق النِّظام بدقَّة. وهكذا، الشّرطة السِّرِّيَّة البَابَويَّة ـ التي كانت مسؤولة عن إزالة النِّظام ـ لم تظهر في اسكوتلندا ـ وبالتَّالي؛ لم يتمّ ـ أبداً ـ إزالة النِّظام الهَيكَلي بشكل عملي من اسكوتلندا. العديد من فُرسان الهَيكَل الإنجليز، وعلىٰ ما يبدو؛ الفرنسيِّيْن، كانوا قد وجدوا مأوىٰ في اسكوتلندا، وفريق كبير قيل بأنَّه قاتل إلىٰ جانب رُوبرت بروس في معركة بانُكبورن عام **1314**. طبقاً للأُسطُورة ـ وهُناك دليل لدعمها ـ النِّظام حافظ علىٰ تماسكه في اسكوتلندا لأربعة قُرُون أُخرىٰ. في القتال من عام **1688** حتَّىٰ **1691**، جيمس الثَّاني ملك إنجلترا خُلع من قِبَل «وليام أُوف أُورنج».

في اسكوتلندا، مُؤيِّدو الملك ستيوارت المُحاصر، أشعلوا ثورة تجسَّدت في معركة «كيلي كرانكي» عام **1689**، جُون Claverhouse، فيكُونت[2] مدينة دندي، قُتل في الميدان. عندما استُعيد جُثمانه، وُجدَ ـ علىٰ ما يُقال ـ أنَّه كان يلبس الصَّليب الكبير لفُرسان الهَيكَل، لم يكن أداة حديثة، بل قيل إنَّ تاريخها كان يعود إلىٰ ما قبل عام **1307**.

في لُورين، التي كانت جُزءاً من ألمانيا آنذاك، وليست جُزءاً من فرنسا، كان فُرسان الهَيكَل يتلقَّون الدَّعم من قِبَل دُوق تلك الإمارة. القليل تمَّتْ مُحاكمتهم، وتبرئتهم. والكُثُرُ ـ علىٰ ما يبدو ـ أطاعوا مُعلِّمهم، الذي نصحهم ـ كما يُعتَقَدُ ـ بحَلْق لحاهم، وارتداء الزِّيِّ العالمي، وأنْ يتشبَّهوا بعامَّة السُّكَّان المحلِّيِّيْن.

---

(1) (الاسبتاري: عُضو في مُنظَّمة دينيَّة عَسْكَريَّة أُنشئت في بيت المَقْدس في القرن 12 م. وتُعرَف بـ «الاسبتاريَّة». المُترجم).

(2) (الفيكُونت: نبيل دُون الكُونت وفوق البارون. المُترجم).

في ألمانيا؛ صحيح أنَّ فُرسان الهَيكَل تحدُّوا قُضاتهم بشكل علني، مُهدِّدين بحمل السلاح. وخوفاً، أعلن قُضاتهم براءتهم؛ وعندما تمَّ حَلُّ النِّظام رَسْمِيّاً، العديد من فُرسان الهَيكَل الألمان وجدوا لأنفسهم ملجأ في الفُرسان الاسبتاريِّيْن للقدِّيس جُون، وكذلك في الفُرسان الجيرمانيِّيْن (التِّيوتونيِّيْن). في إسبانيا ـ أيضاً ـ قاوم فُرسان الهَيكَل مُضطهديهم، ووجدوا مأوىٰ في مُنظَّمات أُخرىٰ.

في البُرتغال، النِّظام بُرِّئ من التَّحقيق، وببساطة؛ غيَّر اسمه، مُصبحاً «فُرسان السَّيِّد المسيح». تحت هذا الاسم عملوا ـ بشكل جيِّد ـ في القرن السَّادس عشر، الأعضاء كرَّسوا أنفسهم إلىٰ النَّشَاطات البَحْريَّة. فاسكو دي غاما كان من فُرسان السَّيِّد المسيح، والأمير هنري ـ الذي كان ملَّاحاً ـ كان سيِّداً أعظم في النِّظام. سُفُن فُرسان السَّيِّد المسيح أبحرت تحت راية الصَّليب الأحمر المألوف لفُرسان الهَيكَل. وكان ـ أيضاً ـ نفس الصَّليب الذي حملته السُّفُن الشّراعيَّة الثّلاث، التي عبر فيها كرستُوفرُ كُولُومبُوس الأطلسيَّ إلىٰ العالم الجديد؛ كُولُومبُوس نفسه كان مُتزوِّجاً من بنت فارس سابق من فُرسان السَّيِّد المسيح، وكان لديه اطِّلاع علىٰ مُخطَّطات ومُفكّرات عمِّه.

وهكذا، في عدد من الطُّرُق المُتنوِّعة، نجا فُرسان الهَيكَل من هُجُوم 13 أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل عام **1307**. وفي عام **1522**، سُلالة فُرسان الهَيكَل البروسيُّون، الفُرسان الجيرمانيُّون، عَلْمَنُوا[1] أنفسهم، وأنكروا ولاءهم لرُومَا، وقدَّموا دعمهم لثائر وزنديق مُبتدئ سُمِّيَ مارتن لُوثر. بعد قرنَيْن من حَلِّ فُرسان الهَيكَل كانوا، أيّاً كان تفويضهم، ينتقمون من الكَنِيسَة التي خانتهم.

(1) (يُعَلْمن: ينتزع عنه الصِّفة، أو السَّيطرة الإكليركيَّة. المُترجم).

فُرسان الهَيكَل. الألغاز

بشكل مُختصر جدًّا؛ هذا هُو تاريخ فُرسان الهَيكَل كما قدَّمه وقبله الكُتَّاب، وكما صادفناه في بحثنا. ولكنَّنا ـ بسُرعة ـ اكتشفنا أنَّ هُناك أبعاداً أُخرىٰ في تاريخ ذلك النِّظام، أبعاداً أكثر حَيْرَة وغُمُوض إلىٰ حَدٍّ كبير، وأكثر إثارة وتخميناً. حتَّىٰ أثناء وُجُودهم كان هُناك غُمُوض مُحيط بأُولئك الفُرسان. البعض قالوا بأنَّهم كانوا ساحرين، وساحرات، وبأنَّهم كانوا بارعين، وعُلماء سرِّيِّيْن في الكيمياء في القُرُون الوُسْطَىٰ. العديد من مُعاصريهم تجنَّبوهم، يعتقدون بأنَّهم مُتَّحدين مع قوىٰ شرِّيرة.

حوالي العام **1208**، في بداية حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة، البَابَا إنُوسنت الثَّالث حذَّر فُرسان الهَيكَل من السُّلُوك غير المسيحي، والمُشار إليه ـ بشكل واضح ـ إلىٰ أنَّه استحضار الأرواح. من النَّاحية الأُخْرَىٰ، كان هُناك أفراد مجَّدوهم بحماس مُفرط.

في أواخر القرن الثَّاني عشر، الرَّاحل وولفرام فُون اسكيباتش، أعظم شاعر مُتجوِّل ألماني في القُرُون الوُسْطَىٰ، أو كاتب الرُّومانس، قام بزيارة خاصَّة إلىٰ «بلاد ما وراء البحار»؛ ليشهد نظام الهَيكَل بشكل عملي. وبين عامَيْ **1195** و**1220**، وعندما أعدَّ وولفرام رُومانسيَّته الملحميَّة «بارزيفال»، مَنَحَ فُرسان الهَيكَل أكثر المناصب سُمُوَّاً. في قصيدة وولفرام، الفُرسان الذين يحرسون «الكَأس المُقَدَّسَة»، وقلعة «الكَأس المُقَدَّسَة»، وعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» هُم فُرسان الهَيكَل.

بعد فناء الهَيكَل، استمرَّ الغُمُوض الذي يُحيط به. آخر عمل سُجِّلَ للنِّظام وُفق التَّاريخ كان احتراق السَّيِّد الأعظم الأخير، جاك دي مُولا، في مارس/ آذار **1314**. عندما كان دُخان النَّار البطيئة يخنق الحياة في جسمه، قيل إنَّ جاك نَشَرَ لعنةً من النِّيران.

طبقاً للرِّواية؛ أنَّه دعا مُضطهديه ـ البَابَا كليمنت، وفيليب ـ للانضمام إليه، وتبرئة نَفْسَيهما أمام المحكمة الإلهيَّة خلال عام واحد. خلال شهر؛ كان البَابَا كليمنت قد مات، يُفترَضُ أنَّه من هَجْمَة زحار مُفاجئة. في نهاية السَّنة؛ كان فيليب ميِّتاً أيضاً، والأسباب مازالت غامضة إلىٰ يومنا هذا.

بالطَّبع، ليس هُناك حاجة للبحث عن تفسيرات خارقة. فُرسان الهَيكَل كان لديهم خبرة عظيمة في استعمال السُّمُوم. وكان هُناك ما يكفي من النَّاس في كافَّة الأنحاء؛ فُرسان لاجئون يُسافرون تحت

أسماء مُستعارة، من المُتعاطفين مع النِّظام، أو من أقرباء الإخوة المُضطهدين، لانتزاع الثَّأر المُلائم. علىٰ الرّغم من هذا، الإنجاز الظَّاهر للعنة بطل الشّطرنج مَنَحَ مصداقيّة للإيمان بقُدرات النِّظام الغامضة. واللّعنة لم تنته هُناك. طبقاً للأُسطُورة؛ إنَّما كانت تُلقي ظلالاً من الكآبة علىٰ طُول الخطِّ المَلَكي الفرنسي بعيداً إلىٰ المُستقبل. وهكذا أصداء قُوَّة فُرسان الهَيكَل الباطنيَّة المزعومة دوَّت لقُرُون.

بحُلُول القرن الثَّامن عشر؛ العديد من الجمعيَّات الدِّينيَّة السِّرِّيَّة، وما يُفترض أنَّها سرِّيَّة كانوا يمدحون فُرسان الهَيكَل علىٰ أنَّهم مُبشِّرون، ومُطَّلعون باطنيُّون. العديد من الماسُونيِّيْن في هذه الفترة عدُّوا أنَّ فُرسان الهَيكَل أسلافهم. بعض الشَّعائر والطُّقُوس المُحَدَّدة للماسُونيِّيْن تدَّعي أنَّها تنحدر ـ مُباشرة ـ من نظام فُرسان الهَيكَل، بالإضافة إلىٰ الوصاية الرَّسْميَّة علىٰ أسرارها الغامضة. البعض من هذه الادِّعاءات كان ـ بشكل واضح ـ غير معقول. الأُخْرَىٰ ـ علىٰ سبيل المثال، تعود إلىٰ نجاة الفُرسان في اسكتلندا، لرُبَّما ـ تكون أصليَّة، حتَّىٰ وإنْ كانت البهارج المُرافقة مُزوَّرة.

بحُلُول عام **1789**، الأُسطُورة المُحيطة بفُرسان الهَيكَل نالت ـ بشكل إيجابي ـ أبعاداً أُسطُوريَّة، وحقيقتهم التَّاريخيَّة حُجبَتْ بهالة من التّحريف والرُّومانسيَّة (الخيال). فُرسان الهَيكَل عُدُّوا سرِّيِّيْن بارعين، وكيميائيِّيْن مشهورين في القُرُون الوُسْطَىٰ، وسَحَرَة، وحُكَماء، وماسُونيِّيْن بارعين، ورجال خارقين حقيقيِّيْن، وُهبوا ترسانةً رهيبةً من القُوَّة والمعرفة الغامضَتَيْن. عُدُّوا الأبطال والشُّهداء أيضاً، ورُوَّاد الرُّوح المُعادية للكَنَسيَّة في عصرهم؛ والعديد من الماسُونيِّيْن الفرنسيِّيْن، في التآمر ضدَّ لويس السَّادس عشر، أحسُّوا بأنَّهم كانوا يُساعدون في تطبيق لعنة جاك دُو مولاي، التي أطلقها عندما كان يُحتضَر علىٰ السُّلالة الفرنسيَّة. عندما سقط رئيس الملك تحت المقصلة، رجل مجهول ذُكر بأنَّه قفز إلىٰ منصَّة الإعدام. غمس يده بدم الملك، ورفعها عالياً أمام الحشد المُحيط، وبكىٰ قائلاً: «جاكْ دُي مُولاي، ها قد انتُقمَ لكَ!».

مُنْذُ الثَّورة الفرنسيَّة، الهالة التي تُحيط بفُرسان الهَيكَل لم تتلاشَ. علىٰ الأقلِّ؛ هُناك ثلاث مُنظَّمات مُعاصرة تدعو نفسها بفُرسان الهَيكَل اليوم، تدَّعي امتلاكها لنَسَب مُنْذُ عام **1314**، وروايات لم يسبق أنْ أُسِّس أيُّ توثيق لها. تبنَّت بعض المحافل الماسُونيَّة طبقة «فُرسان الهَيكَل»، بالإضافة إلىٰ طُقُوس وألقاب يدَّعون أنَّها انحدرت من النِّظام الأصلي.

وُصُولاً إلىٰ نهاية القرن التَّاسع عشر، تمَّ تأسيس نظام شرِّير يُدعىٰ «فُرسان الهَيكَل الجُدُد» في ألمانيا والنِّمسا، يستخدمون رمز الصَّليب المعقوف كأحد شعاراته. شَخْصيَّات مثل هـ.ب. بلافاتسكي[1]، مُؤسِّسة الثِّيُوصُوفيَّة، ورُودُولف شتانير، مُؤسِّس الـ«أنثرُوبُوزُوفيَّة»، التي تتحدَّث عن «الحكمة الباطنيَّة»، مُستعيداً التَّقاليد الرُّوزيكرُوشيَّة[2]، والكَاثَار، وفُرسان الهَيكَل، والذين زُعم أنَّهم كانوا مُستودعات الأسرار الأكثر قُدُماً.

الأولاد المُراهقون الأمريكيُّون يعترفون بمُجتمع دُو مولاي ـ عن علْم، أو لا علْم ـ بالمصدر الذي اشتُقَّ منه هذا الاسم.

في بريطانيا، بالإضافة إلىٰ أماكن أُخرىٰ في الغرب، نوادي الرُّوتاري[3] ـ وبشكل مُبهَم ـ تُبجِّل نفسها باسم «فُرسان الهَيكَل»، وتتضمَّن شَخْصيَّات اجتماعيَّة بارزة. من المملكة السماويَّة التي أراد فَتْحَهَا بسيفه، هيُوغز دُو باين، لابُدَّ أنَّه ـ الآن ـ ينظر إلىٰ الأسفل بحَيْرَة ساخرة مُعيَّنة إلىٰ الفُرسان الجُدُد، الصّلعان وذوي البُطُون المُنتفخة والنَّظَّارات المُلوَّنة، أُولئك هُم الفُرسان الذين أنجبهم. وأيضاً؛ رُبَّما يكون مُندهشاً ومُتعجِّباً باستمرار وحيويَّة تُراثه.

---

(1) (هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي (1831ـ1891)، أمريكيَّة رُوسيَّة المولد، وزعيمة للنِّظام الجديد المعروف بالثِّيُوصُوفيَّة ـ أيْ معرفة الله من طريق «الكَشْف» الصُّوفي، أو التَّأمُّل الفلسفيّ، أو كلَيْهما ـ. اسمها الأصلي هيلينا هان، والداها ألمانيَّان. تزوَّجت في عُمر 16 من رجل أكبر منها سنّاً بكثير، ولكنَّها تركتهُ بعد بضعة شُهُور. أمضت السَّنوات العشرين التَّالية في السَّفر إلىٰ أُورُوبا، وآسيا، والولايات المُتَّحدة، لاحقاً؛ ادَّعت بأنَّها درست ـ لسبع سنوات ـ الهندُوسيَّة بإشراف (المُعلِّمين الكبار) في الشَّرق. بعد نجاة شاقَّة من الغرق في البحر، اتَّجهت إلىٰ الرُّوحانيَّة، وادَّعت بأنَّها تمتلك قوىٰ رُوحيَّة. المُترجم).

(2) (الرُّوزيكرُوشيَّة: جمعيَّة سرِّيَّة اشتُهرت في القرنَيْن الـ 17 و18، وزعمت أنَّها تملك معرفة سرِّيَّة للطَّبيعة والدِّين. المُترجم).

(3) (رُوتاري أنترناشونال: مُنظَّمة عالميَّة لنوادي العمل والحِرَف، مُخصَّصة للمعايير المهنيَّة العالية، والخدمة الاجتماعيَّة، والتَّفاهم الدّولي. هدفها بناء زمالة بين المصالح المُتنوِّعة، ويمتلك مُمثِّلاً لكُلِّ عمل ومهنة في المُجتمع. أُسِّست في 1905 في شيكاغو. وفي الوقت الحاضر؛ مقرُّها الرَّئيس في إيفانستون في ولاية إلينويز، وهي أقدم مُنظَّمة خدمة في العالم؛ في عام 1922، أصبح الاسم «رُوتاري أنترناشونال»؛ لأنَّ النَّوادي أصبحت مُنتشرة في البُلدان الأُخرَىٰ. «رُوتاري أنترناشونال» تشتمل علىٰ أكثر من 1.1 مليون رجل وامرأة تقريباً، في 27 ألف نادي رُوتاري، في 149 بلد، و39 منطقة جغرافيَّة. العُضويَّة تتمُّ بالدَّعوة، وتُقرِّر نوادي نشاطات خدمتهم الخاصَّة. حاليَّاً؛ المُنظَّمة تُركِّز علىٰ النَّشاطات الاجتماعيَّة لمُكافحة الجُوع، والأُمِّيَّة، والإفراط في المُخدِّرات، وتُساعد المُسنِّين، وحماية البيئة. المُترجم).

في فرنسا؛ هذا التُّراث قويٌّ جدّاً. في الحقيقة، فُرسان الهَيكَل صناعة حقيقيَّة في فرنسا، كما هُو الحال في احتفالات «غلاستونبيري» و«ليلاينز» و«وحش بُحَيْرة لوخ» في بريطانيا. مكتبات باريس مُمتلئة بالقَصَص والرِّوَايَات عن نظام فُرسان الهَيكَل؛ بعضها صحيح، وبعض يقودها الحماس إلىٰ الجُنُون.

تقريباً؛ أثناء رُبع القرن الماضي عدد من الادِّعاءات الغريبة قُدِّمَتْ نيابة عن فُرسان الهَيكَل، والتي بعضها لا يستند علىٰ أيَّة أُسُس. بعض الكُتَّاب ـ علىٰ الأقلِّ؛ جُزء كبير منهم ـ نسبوا إليهم بناء الكاتدرائيَّات القُوطيَّة ـ أو علىٰ الأقلِّ؛ نسبوا إليهم أنَّهم هُم مَنْ زوَّدوا البنَّائين بذلك التَّطوُّر المعماري المُفاجئ والعبقري وبالطّاقة العظيمة. كُتَّاب آخرون تجادلوا علىٰ أنَّ النِّظام أسَّس تواصلاً تجاريَّاً مع الأمريكتَيْن حوالي عام 1269، وبأنَّه جنىٰ مُعظم ثروته من الفضَّة المكسيكيَّة المُستوردة. وهُناك تصريحات كثيرة بأنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا علىٰ علْم بسرٍّ ما يتعلَّق بأُصُول المسيحيَّة. قيل بأنَّهم كانوا غنُوسطيِّيْن[1]، وبأنَّهم كانوا هَرَاطقَة، وبأنَّهم كانوا مُنشقِّين عن الإسلام. أُعلن بأنَّهم سعوا لإقامة وحدة مُبدعة بين الدِّماء، والأجناس، والأديان ـ سياسة مُنتظمة للدَّمج بين الفِكْر الإسلامي، والمسيحي، واليهُودي. ومراراً وتكراراً تبقىٰ المقولة، التي زعمها «وولفرام فون اسكِباتش» قبل ثمانية قُرُون تقريباً، بأنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة»، أيّاً كانت تلك «الكَأس المُقَدَّسَة».

إنَّ الادِّعاءات مُضحكة في أغلب الأحيان. في الوقت نفسه؛ هُناك ـ بما لاشكَّ ـ فيه ألغاز ارتبطت بفُرسان الهَيكَل، ونحنُ أصبحنا مُقتنعين، وأيضاً؛ أسرار من نوع ما. كان من الواضح أنَّ البعض من هذه الأسرار تتعلَّق بما يُعرَف ـ الآن ـ بـ«الأُمُور السِّرِّيَّة». المنحوتات الرَّمْزيَّة في مُجتمعات فُرسان الهَيكَل ـ علىٰ سبيل المثال ـ تقترح بأنَّ بعض المسؤولين المُنضمِّين للنِّظام كانوا مُلمِّين بمجالات كالتّنجيم، والكيمياء، والهندسة المُقَدَّسَة، ودراسة الدّلالات السِّحْريَّة للأعداد، وأيضاً ـ بالطَّبع ـ بعلْم الفَلَك، الذي ـ في القَرْنَيْن الثَّاني عشر والثَّالث عشر ـ كانت مُتلازمة مع التَّنجيم، وكُلِّ مجال سرِّيٍّ.

---

(1) (الغنُوسطيَّة: مذهب العرفان: مذهب بعض المسيحيِّيْن الذين اعتقدوا بأنَّ المادَّة شرٌّ، وبأنَّ الخلاص يأتي من طريق المعرفة الرُّوحيَّة. المُترجم).

ولكنْ؛ لم تكن لا الادّعاءات المُفرطة، ولا البقايا السِّرِّيّة، هي التـي فَتَنَتْنَـا. بـالعكس، وجـدنا أنفسنا أنّنا قد سُحرنا بشيء أكثر دُنيويّة وواقعيّة بكثير؛ فوضىٰ التّناقضات و«ستائر الدُّخان» الظّـاهرة في التّاريخ المقبول. الأسرار الباطنيّة التي ـ لرُبّما ـ كان يتمتّع بها فُرسان الهَيكَل. لكنْ؛ شيء آخر أُخفي عنهم أيضاً؛ شيء مُتجذِّر في التّيّارات الدِّينيّة والسِّياسيّة في عهدهم. لقد كان إلىٰ المُستوىٰ الذي جعلنا نرتكز إليه في أغلب تحقيقنا.

بدأنا بنهاية القـصَّة، سُـقُوط النِّظـام والـتُّهم المُوجَّهـة ضـدَّه. العديـد مـن الكُتُـب كُتبَـتْ في استكشاف وتقييم الحقيقة المُحتملة لهذه التُّهَم، ومن الدَّليل الذي استنتجناه ـ كأكثر الباحثين غيرنـا ـ يبدو بأنّه كان هُناك بعض الأُسُس لتلك التُّهم. مثلاً، أُخضع إلىٰ الاستجواب من قِبَل محكمة التَّفتيش عدد من الفُرسان، أُشير إليهم بشيء يُسمَّىٰ «بافُوميت»، الكثير من الرِّوايات، وفي الكثير من الأماكن المُختلفة، كان اسم «البافُوميت» مُتعلِّقاً بشَخْص ما، أو بمُجتمع ما. في الوقت نفسه؛ ليس هُنـاك أيّـة إشارة إلىٰ ما هُو الـ«بافُوميت»، هل هُو شَـخْص؟ أم شيء مـا؟ مـاذا يُمثِّـل هـذا الـشَّخص، أو هـذا الشَّيء؟ ولماذا كان هذا الإنسان ـ أو الشَّيء ـ ذا أهمِّيَّة خاصَّة؟!.

يظهر بأنّه كان يُنظَر إلىٰ البافُوميت بوقار، ووقار ـ رُبَّـما ـ مُكـافئ لعبـادة الأصـنام. في بعـض الحالات، الاسم كان مُرتبطاً بصُورة لكائن بشع الوجه، نَحْت شيطاني وُجدَ في مُجتمعات مُختلفة.

في مُناسبات أُخرىٰ، يبدو أنَّ البافُوميت كـان مُرتبطـاً بظُهُـور رأس مُلـتح. علـىٰ الـرّغم مـن ادِّعاءات بعض المُؤرِّخين الأقدم، بأنّه من الواضح أنَّ بافُوميت لم يكن مُشتقّاً ـ بـشكل تحريفـي ـ مـن الاسم «مُحمَّد». من النَّاحية الأُخرَىٰ، كان يُمكن أنْ يكون الاسم بافُوميت (Baphomet) مُحرَّفـاً عـن الاسـم العَـرَبي «أبـو فهـات» (abufihamet)، والـذي يُلفَـظ بالإسـباني المغـاربي كــ«بـوفهات» (bufihimat)، هذا يعني «أبو الفَهْم» أو «أبو الحكمة»، و«أب» في العَرَبيَّة تُستخدَم للدّلالـة ـ أيـضاً ـ علىٰ «مصدر».

إنْ كان هذا ـ في الحقيقة ـ هُو أصل بافُوميت، فمـن المُفـترض ـ إذاً ـ أنّـه يـدلُّ علـىٰ مبـدأ مـا خارق، أو مُقدَّس.

لكنْ؛ ما هُو الشَّيء الذي ـ لرُبَّما ـ ميَّز البافُوميت بقُدسيَّته وبقُدراته من عالم ماوراء الطَّبيعة؟

هُو أمر غير واضح.

إنْ كان بافُوميت ـ ببساطة ـ هُو الرَّبُّ، أو الله، لماذا اهتمَّ فُرسان الهَيكَل بإعادة تعميده؟! وإذا بافُوميت لم يكن الرَّبَّ، أو الله، مَنْ، أو ماذا، كان إذاً؟!

في أيِّ حال من الأحوال، وجدنا دليلاً غير قابل للجَدَل لتُهمة الطُّقُوس السِّرِّيَّة، التي تتضمَّن رأساً من نوع ما. في الحقيقة؛ وُجُود مثل ذلك الرَّأس أثبت أنَّه كان أحد المواضيع المُهيمنة، التي مرَّت عبر سجلَّات محكمة التَّفتيش.

علىٰ أيَّة حال، كما هُو الحال بالنِّسبة للبافُوميت، أهمِّيَّة ذلك الرَّأس ماتزال غامضة. رُبَّما قد يكون ذلك الرَّأس مُرتبطاً بالخيمياء[1]. في عمليَّة الخيمياء؛ كان هُناك مرحلة تُدعىٰ « Caput Mortuum» أو «الرَّأس الميِّت» ـ «Nigredo»، أو «التَّسويد»، الذي قيل بأنَّه يحدث قبل الإحداث المُفاجيء لحجر الفلاسفة[2].

طبقاً لتقارير أُخرىٰ ـ علىٰ أيَّة حال ـ الرَّأس كان رأس هيُوغز دُو باين، مُؤسِّس نظام فُرسان الهَيكَل، والسَّيِّد الأعظم الأوَّل لهم؛ ويُذكَر بأنَّ درع هيُوغز كان يشمل ثلاثة رُؤُوس سوداء علىٰ أرضيَّة ذَهَبيَّة.

---

(1) (الكيمياء القديمة، وكانت غايتها تحويلَ المعادن الخسيسة إلىٰ ذَهَب، واكتشاف علاج كُلِّيٍّ للمرض، ووسيلة لإطالة الحياة إلىٰ ما لا نهاية. المُترجم).

(2) (من العَرَب، وَجَدَت الخيمياءُ طريقَهَا ـ عُمُوماً ـ إلىٰ إسبانيا، وإلىٰ أُورُوبا. إنَّ الأعمال الأصيلة الأسبق الموجودة حول الخيمياء الأُورُوبيَّة هي تلك للرّاهب الإنجليزي رُوجر بيكُون، والفيلسوف الألماني ألبيرت ماغنوس؛ كلاهما آمن بإمكانيَّة تحويل المعادن الخسيسة إلىٰ الذَّهَب. أثارت هذه الفِكْرَة خيالَ ـ ولاحقاً جشعَ ـ العديد من الرِّوايات في العُصُور الوُسْطَىٰ. تعتقد بأنَّ الذَّهَب هُو المعدن المثالي، وبأنَّ تلك المعادن الأساسيَّة كانت أقلَّ مكانة من الذَّهَب. وهكذا؛ أرادوا صناعة، أو اكتشاف، مادَّة، والتي تُسمَّىٰ بحجر الفلاسفة، أسمىٰ بكثير من الذَّهَب، يُمكن أنْ تُستعمَل لترقية المعادن الأساسيَّة إلىٰ كمال الذَّهَب. المُترجم).

الرَّأس ـ لرُبَّما؛ أيضاً ـ مُرتبط بكَفَن تُورين[1] المشهور، الذي يبدو بأنَّه كـان في ملْكيَّـة فُرسـان الهَيكَل بين عامَيْ **1204** و **1307**، والذي ـ إنْ تمَّ طيُّه ـ سوف لن يُظهر إلَّا الرَّأس.

في الحقيقة، في مُجتمع فُرسان الهَيكَل في «تيمبل كُومب» في سُومرسيت في بريطانيَّة، إعادة إنتاج للرَّأس أثبتت بأنَّه يحمل تشابهاً مُدهشاً لذلك الذي علىٰ الكَفَن. في الوقت ذاتـه؛ هُنـاك اعتقـاد أخـير رُبط بالرَّأس، علىٰ الأقلِّ؛ بشكل تجريبـي، وهُـو الـرَّأس المقطـوع ليُوحنَّـا المَعْمَـدَان؛ واقـترح بعـض الكُتَّاب بأنَّ فُرسان الهَيكَل «أُصيبوا بالعدوىٰ» من بدعة «اليُوحنيِّيْن» «أو الماندِيِّيْن»[2]. وهـذه البدعـة أعلنت أنَّ السَّيِّد المسيح هُو نبيٌّ مُزيَّف، وأقرَّت بأنَّ يُوحنَّا هُو المسيح المُنتظَر الحقيقي. أثناء نشاطاتهم في الشَّرق الأوسط؛ أقام ـ بلا شكٍّ ـ فُرسان الهَيكَل اتِّـصالاً مـع طوائـف المانـدِيِّيْن، وإمكانيَّـة مُيُـول الماندِيِّيْن للانضمام إلىٰ النِّظام لا يُمكن استبعادها تماماً. ولكنْ؛ لا يستطيع أحدنا ـ أيضاً ـ أنْ يقول بـأنَّ مثل تلك المُيُول حصلت للنِّظام كَكُلٍّ، أو بأنَّه كان مسألة سياسة رَسْميَّة.

أثناء الاستجوابات التي تلت التَّوقيفات في **1307**، اعتُقد ـ أيضاً ـ بأنَّ الـرَّأس لـه ارتباطـان آخران. طبقاً لسجلَّات محكمة التَّفتيش؛ أنَّه من بين السِّلع المُصادرة لمُجتمع فُرسان الهَيكَل في بـاريس كان هُناك وعاء ذخائر مُقَدَّسَة علىٰ شكل رأس امرأة. لقد كان موجوداً علىٰ قمَّة مفْصَل، ويحتوي علىٰ ما يبدو أنَّه آثار من نوع غريب. تمَّ وَصْفُهُ كالتَّالي:

رأس عظيم من الفضَّة المُذهَّبة، الأكثر جمالاً، ويُشكِّل صُورة امـرأة. في الـدَّاخل؛ كـان هُنـاك عَظْمَتَان، لُفَّتَا بقماشة بطانة بيضاء، وقطعة قماش أحمر أُخرىٰ حولها. هُناك شارة مكتوبة رُبطت، كُتب عليها «**CAPUT LVIIIm**».

العظام التي في الدَّاخل كانت لامرأة صغيرة نوعاً ما.

---

(1) (قطعة من القماش مُثيرة للجَدَل، والمُسمَّاة بلاتينيَّة الكَنيسَة الفاتيكانيَّة «القماش المُبلَّل بالعَرَق المُقَدَّس»، وهي عبـارة عن قماشة من القُطن، طُولها 4 أمتار و63 سم ، وبعرض متر و10 سم ، موجودة في كَنيسَة بمدينة تُورين الإيطاليَّة، مُنْـذُ أنْ عُثر عليها قبل 1687 عاماً، عليها أثر واضح لجسم إنسان. المُترجم).

(2) (وهُم الذي يعبدون يُوحنَّا المَعْمَدَان، ويعتقدون بأنَّهم أنفسهم أحفاد يُوحنَّا المَعْمَدَان. المجموعة نـشأت في الأردن، ومازالت في العراق، وإيران. المُترجم).

أثر فُضُولي ـ خُصُوصاً لمُؤسَّسة عَسْكَريَّة رهبانيَّة مُتعصِّبة كفُرسان الهَيكَل. علىٰ الرّغم من أنَّ الفارس كان تحت الاستجواب، عندما تمَّتْ مُواجهته بهذا الرَّأس الأُنثوي، أعلن بأنَّه لم يكن له أيَّة علاقة بالرَّأس الذَّكَر المُلتحي، الذي استُعمل في طُقُوس النِّظام. «CAPUT LVIIIm» ـ «رأس 58 م» ـ يبقىٰ لُغزاً مُحيِّراً. لكنْ؛ من الجدير بالمُلاحظة أنَّ «M» قد لا يكون «م» أيْ «متر» مُطلقاً، بل «هُنا يجب وضع الرمز الموجود صفحة 83 من الكتاب الأصلي في مُنتصف السطر 12 من الأسفل»، وهُو الرَّمْز التَّنجيمي لبُرج العذراء.

مرَّة ثانية؛ الرَّأس يُعتقَد بأنَّه قصَّة غامضة أُخرىٰ ارتبطت ـ تقليديَّاً ـ بفُرسان الهَيكَل. وهُو يستحقُّ الاقتباس ـ مرَّة أُخرىٰ ـ من إحدىٰ مُتغيِّراته الكثيرة.

أحبَّ أحدُ الفُرسان سيِّدةً عظيمةً من مرسيليا، وكان حاكم صيدا، ولكنَّها ماتت في ريعان شبابها، وبعد ليلة من دَفْنها، تسلَّل هذا الحبيب الشِّرِّير إلىٰ القَبْر، وأخرج جُثَّتها، واغتصبها. وإذْ بصوت من الخلاء يطلب منه أنْ يعود بعد تسعة أشهر ليجد طفلاً. أطاع الأمر، وفي الوقت المُعيَّن، فتح القَبْر ثانية، ووجد رأساً علىٰ عظمتَيْ ساق الهَيكَل العظمي (كرمز الجُمْجُمَة والعَظْمَتَيْن).

الصَّوت نفسه أمره بأنْ «يحرسها بشكل جيِّد؛ لأنَّها ستكون مانحة لكُلِّ الأشياء الجيِّدة»، وبالتَّالي؛ أخذها معه. أصبحت الرُّوح الحارسة له، وكان قادراً علىٰ هزيمة أعدائه بمُجرَّد عرضه للرَّأس السِّحْري. في الوقت المُناسب، وصلت تلك الجُمْجُمَة إلىٰ نظام الهَيكَل.

هذه القصَّة المُريعة قد تعود ـ علىٰ الأقلِّ ـ لعهد قَصَص والتر ماب(1)، الذي كان يكتب في أواخر القرن الثَّاني عشر. ولكنْ؛ لا هُو، ولا أيّ كاتب آخر ـ من الذين أعادوا سرد القصَّة نفسها تقريباً، بعد قرن من الزَّمن ـ بإمكانهم أنْ يُحدِّدوا بأنَّ المُغتصب المُشتهي للموتىٰ كان من فُرسان الهَيكَل.

---

(1) (والتر ماب (1140ـ1210)، كاتب إنجليزي، وُلد في ويلز. كَاهن علىٰ درجة عالية من التَعلُّم، خدم والتر ـ أيضاً ـ في حاشية الملك هنري الثَّاني، ملك إنجلترا. المُترجم).

علىٰ الرّغم من هذا، عام 1307، القصَّة كانت قد أصبحت مُرتبطة بالنِّظام بشكل مُباشر. وهي مذكورة ـ مراراً، وتكراراً ـ في سجلّات محكمة التَّفتيش، وعلىٰ الأقلِّ؛ فارسان تحت الاستجواب أقرّا بأنّهما يُعانيان المرض نفسه (اشتهاء الموتىٰ).

في الرِّوايات اللَّاحقة، كتلك أعلاه، المُغتصب بذاته تمَّ تحديده علىٰ أنّه من فُرسان الهَيكَل، وبقي كذلك في الرِّوايات التي احتفظ بها الماسُونيُّون ـ الذين يتبنّون شعار الجُمْجُمَة، والعَظْمتَيْن، ويستخدمونه ـ في أغلب الأحيان ـ كرمز علىٰ شواهد القُبُور.

جُزئيّاً؛ الحكاية قد تبدو مُشوَّهة لولادة السَّيِّدة العذراء. وقد تبدو ـ جُزئيّاً ـ رواية رَمْزيَّة مُحرَّفة عن بعض الطُّقُوس الدِّينيَّة، تلك الطُّقُوس التي تتضمَّن ـ بشكل رَمْزيٍّ ـ الموت والإحياء.

أحد المُؤرِّخين أورد أنَّ اسم المرأة هُو «يسىٰ» ـ وذلك يبدو ـ تماماً وبوُضُوح ـ أنّه اشتقاق من إيسيس.

وبالتَّأكيد؛ الحكاية تستدعي أصداء الألغاز التي ارتبطت بإيسيس، بالإضافة إلىٰ تاموز، أو أدونيس، الذي رأسه رُمي في البحر، وأُورفيُوس، الذي رأسه رُمي في نهر «درب التَّبانة». تستدعىٰ الخصائص السِّحْريَّة للرَّأس ـ أيضاً ـ رأس «بران» المُقَدَّس في أُسطُورة السّلتيّيْن، وفي روايات الويلزيِّيْن، التي تُدعىٰ (Mabinogion). والعديد من الكُتَّاب ذكروا أنَّ «قِدر بران» هُو السَّلَف الوَثَني للـ«كَأس المُقَدَّسَة».

مهما كانت الأهمِّيَّة المنسوبة إلىٰ «طائفة الرَّأس»، محكمة التَّفتيش آمنت ـ بوُضُوح ـ بأنَّها كانت أمراً هامَّاً. في قائمة من التُّهم وُضعت في 12 أغسطس/ آب 1308، كان هُناك ما يلي:

ـ مادَّة، أنَّهم في كُلِّ مُحافظة لديهم أصنام، يعني الرُّؤُوس...

ـ مادَّة، أنَّهم عشقوا هذه الأصنام...

ـ مادَّة، أنَّهم قالوا بأنَّ الرَّأس يُمكن أنْ يُنقذهم..

ـ مادَّة، أنَّ ذلك الرَّأس (قادر) علىٰ صُنْع الأغنياء...

ـ مادَّة، أنَّه يجعل الأشجار تُزهر..

ـ مادَّة، أنَّه يجعل الأرض تنمو..

ـ مادَّة، بأنَّهم أحاطوا ـ أو مسُّوا ـ كُلَّ رأس من الأصنام الآنفة الذِّكْر بحبال صغيرة، يلبسونها حول أنفسهم بجانب القميص، أو اللّحم.

إنَّ الحبل الذي ذُكر في المادَّة الأخيرة يُشبه الكَاثَار، الذي زُعم ـ أيضاً ـ أنَّهم لبسوا حبلاً مُقدَّساً من نوع ما. لكنَّ أكثر ما هُو مُميَّز في القائمة هُو قُدرة الرَّأس المزعومة علىٰ صُنْع الثَّروات، وإزهار الأشجار، وجَلْب الخُصُوبة للأرض. تتزامن هذه الخصائص ـ علىٰ نحو كبير ـ مع تلك التي في الرُّومانسيَّات المنسوبة للـ«كَأس المُقَدَّسَة».

كُلُّ التُّهم مُوجَّهة ضدَّ فُرسان الهَيكَل، الأكثر جدِّيَّة؛ كانت تلك التُّهم عن الكُفْر، والبدْعة ـ إنكار، ودَوْس، وبَصْق علىٰ الصَّليب.

ليس واضحاً ـ بالضَّبط ـ ما كانت تعتزمه تلك الطُّقُوس المزعومة.

بكلمة أُخرىٰ، ما هُو الشَّيء الذي كان فُرسان الهَيكَل يُنكرونه في الحقيقة؟

هل كانوا يُنكرون السَّيِّد المسيح؟!

أم هل كانوا ـ ببساطة ـ يُنكرون الصَّلب؟!

ومهما كان ما أنكروه، ما الذي عبدوه ـ بالضَّبط ـ عوضاً عنه؟!

لا أحد أجاب عن هذه الأسئلة بشكل مُقنع، لكنَّه يبدو ـ من الواضح ـ بأنَّ رفضاً من نوع ما للسُّلطة الدِّينيَّة كان ـ فعلاً ـ قد حَدَثَ، وذلك كان مبدأً كاملاً لنظام فُرسان الهَيكَل.

أحد الفُرسان ـ علىٰ سبيل المثال ـ أكَّد أنَّه ـ عند تجنيده في النِّظام ـ كان قد أُخبر، «أنتَ تُؤمن بشكل خاطئ؛ لأنَّ (السَّيِّد المسيح) ـ في الحقيقة ـ هُو نبي مُزيَّف. اعتقدْ ـ فقط بالله ـ الذي في السَّماء، وليس بالمسيح». وفارس آخر صرَّح بأنَّه أُخبر، «لا تُؤمنْ بأنَّ ذلك الرَّجل (السَّيِّد المسيح) الذي صَلَبَهُ اليهُود في بلاد ما وراء البحار هُو الله، وبأنَّه قادر علىٰ أنْ يُنقذكَ». فارس ثالث ادَّعىٰ ـ بالطَّريقة نفسها

ـ بأنَّه أُمر بأنْ لا يُؤمن بالسَّيِّد المسيح، النَّبيِّ المُزيَّف، بل ـ فقط ـ بالله الأعلىٰ». بعد ذلك؛ شُوِّف صُورة للمسيح المصلوب، وأُخبر، «لا تُؤمن بهذا كثيراً، لأنَّه صغير جدّاً».

مثل هذه الرِّوايات مُتكرِّرة وثابتة بما فيه الكفاية لتصديق التُّهمة. محكمة التَّفتيش كانت عديمة العاطفة نسبيّاً؛ وإذا رغبت المحكمة بتلفيق دليل ما، كان يُمكنها أنْ تبتكر تجريباً أكبر حجماً، وأكثر إثارة، وأكثر لعنة. وبالتَّالي؛ يبدو أنَّه هُناك القليل من الشَّكِّ بأنَّ موقف فُرسان الهَيكَل نحو السَّيِّد المسيح لم يكن مُتَّفقاً مع الموقف الأرثُذُوكسي الكَاثُوليكي، ولكنَّه غير مُؤكَّد ـ بالضَّبط ـ ما كان عليه موقف ذلك النِّظام.

في أيِّ حال من الأحوال، هُناك دليل علىٰ أنَّ الطُّقُوس المنسوبة لفُرسان الهَيكَل... الدَّوْس والبَصْق علىٰ الصَّليب لم تكن مُقرَّرة ـ علىٰ الأقلِّ ـ قبل نصف قرن من عام **1307**. مُحتواه مُثير للحَيْرَة، ولكنَّه مذكور بالارتباط مع الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة، التي حَدَثَتْ في عام **1249**.

فُرسان الهَيكَل ـ الجانب الخفيّ

إنْ كانت نهاية الفُرسان الهَيكَل مشحونة بألغاز مُحيِّرة، فإنَّ التَّأسيس والتَّاريخ المُبَكِّر لهذا النِّظام يبدو إلينا أنَّه علىٰ درجة أكبر من الحَيْرَة. لقد تأثَّرنا ـ مُسبقاً ـ بعدد من التَّضاربات واللَّااحتماليَّات. تسعة فُرسان، تسعة فُرسان «فُقراء»، ظهروا كما لو أنَّهم من العَدَم، ومساكن الملك ـ من بين كُلِّ الصليبيِّيْن الآخرين التي كانت تعجُّ بهم الأرض المُقَدَّسَة ـ فوراً قُدِّمت إليهم! تسعة فُرسان «فُقراء» ـ بدُون ضمِّ أيِّ مجنَّدين جُدُد إلىٰ صُفُوفهم ـ من المُفترض بأنَّهم ـ وحدهم ـ مسؤولين عن الدِّفاع عن طرق الحجِّ الرَّئيسة إلىٰ فلسطين! وليس هُناك ـ في الحقيقة ـ أيُّ سجلٍّ عن قيامهم بأيِّ شيء، ولا حتَّىٰ من «فُولك دُو تشارتريس»، والذي كان المُؤرِّخ الرَّسْمي للملك، والذي يجب أنْ يعرف ـ بالتَّأكيد ـ أيَّ شيء عنهم!

وهكذا، رَاوَدَنَا السُّؤال أنَّه هل من المُمكن أنَّ نشاطاتهم وتحرُّكاتهم ضمن المباني المَلَكيَّة ـ علىٰ سبيل المثال ـ كانت بعيدة عن أنظار فُولك؟!

يبدو ذلك مُدهشاً، ورغم ذلك؛ المُؤرِّخ لم يذكر أيَّ شيء. لم تقلْ أيَّةُ رواية شيئاً في الحقيقة، حتَّىٰ أيَّام غليُوم دُو تاير، بعد نصف قرن من الزَّمن.

ما الذي يُمكننا أنْ نستنتجه من هذا؟

هل إنَّ الفُرسان لم يكونوا يعملون في الخدمة الحُكُوميَّة الجديرة بالاحترام، التي نُسبَتْ إليهم؟!

أم أنَّهم ـ رُبَّما ـ ارتبطوا ـ بدلاً من ذلك ـ بنشاط أكثر سرِّيَّة، والذي حتَّىٰ المُؤرِّخ الرَّسْمي كان غير قادر علىٰ كشفه؟!

أم أنَّ المُؤرِّخ نفسه أُجبرَ علىٰ حفْظ لسانه؟!

التَّفسير الأخير يبدو بأنَّه الأنسب علىٰ الأغلب. ذلك لأنَّ الفُرسان ـ سريعاً ـ انضمُّوا إلىٰ اثنَيْن من أكثر النُّبلاء شُهرَة، النَّبيلَيْن اللَّذَيْن حُضُورهما كان من المُستحيل أنْ لا تتمَّ مُلاحظته.

طبقاً لغليُوم دُو تاير؛ نظام الهَيكَل أُسِّس في عام **1118**، وعدده الأصلي كان تسعة فُرسان، ولم يُدخَل أيُّ مُجنَّدين جُدُد لِمُدَّة تسع سنوات.

علىٰ أيَّة حال، من الواضح في السِّجلَّات أنَّ كُونت مُقاطعة انجاو[1] - والذي هُو والد جيفري بلانتاجنيت - انضمَّ إلىٰ النِّظام في عام **1120**، فقط؛ بعد سنتَيْن من تاريخ تأسيسها المُفترض.

وفي عام **1124**، كُونت شمبانيا، وهُو أحد اللُّوردات الأغنىٰ في أُورُوبا، قام بالمثْل. إنْ كان غليُوم مُحقّاً، فإنَّه لا يجب أنْ يكون هُناك أعضاء جُدُد حتَّىٰ عام **1127**، ولكنْ؛ بحُلُول عام **1126**، فُرسان الهَيكَل - في الحقيقة - اعترفوا بأربعة أعضاء جُدُد إلىٰ صُفُوفهم.

هل غليُوم - إذاً - كان مُخطئاً بالقول إنَّه لا أعضاء جُدُد سُمِحَ لهم بالانضمام، ولِمُدَّة تسع سنوات؟!

أم هل هُو - رُبَّما - مُحقٌّ في ذلك الرَّغم، ولكنَّه كان مُخطئاً في التَّاريخ الذي نسبه لتأسيس النِّظام؟!

إنْ كان كُونت انجاو قد انضمَّ إلىٰ نظام الهَيكَل في عام **1120**، وإنْ كان النِّظام لم يُدخل أيَّ أعضاء جُدُد لتسع سنوات بعد تأسيسه، فإنَّ تاريخ تأسيسه لن يكون مُنْذُ عام **1118**، بل علىٰ الأقلِّ، مُنْذُ عام **1111**، أو **1112**.

في الحقيقة؛ هُناك دليل مُقنع جدّاً لهذه النَّتيجة. في عام **1114**، كُونت شمبانيا كان يستعدُّ لرحلة إلىٰ الأرض المُقدَّسَة. قبل فترة قليلة من مُغادرته؛ استلمَ رسالة من أُسقُف شارتر[2] في مرحلة ما، الأُسقُف كَتَبَ، «سمعنا أنَّ... قبل توجُّهكَ إلىٰ القُدْس؛ أَقْسمْ علىٰ انضمامكَ إلىٰ « **Ia milice du Christ**»، وبأنَّكَ تتمنَّىٰ التَّسجيل في هذا العَسْكَر الإنجيلي». «**Ia milice du Christ**» كان الاسم الذي يُعرَف به فُرسان الهَيكَل أصلاً، وهُو - أيضاً - الاسم الذي يُشير به القدِّيس بيرنارد إليهم.

---

(1) (مُقاطعة فرنسيَّة قديمة. المُترجم).

(2) (مدينة فرنسيَّة. المُترجم).

ضمن سياق رسالة الأُسقُف لا يُمكن أنْ تكون التَّسمية مُشيرة إلىٰ أيَّة مُنظَّمة أُخرىٰ. إنَّها لا تعني - علىٰ سبيل المثال - بأنَّ كُونت شمبانيا قرَّر - ببساطة - أنْ يُصبح صليبيّاً؛ لأنَّ الأُسقُف يستمرُّ بالتَّحدُّث عن قَسَم العفَّة، الذي يستلزمه قراره. الصَّليبي العادي لا يُحتمَل أنْ يُطلَبَ منه قَسَمٌ كهذا.

إذاً؛ من رسالة أُسقُف شارتر؛ يبدو أنَّه يتَّضح وُجُود فُرسان الهَيكَل، أو علىٰ الأقلِّ؛ كان مُخطَّطاً لهم، حوالي العام 1114، أربع سنوات قبل التَّاريخ المقبول عُمُوماً؛ وأنَّه حوالي العام 1114، كُونت شمبانيا كان ينوي - سَلَفَاً - الانضمام إلىٰ صُفُوفهم، والذي نفَّذه بعد عقد من الزَّمن.

أحد المُؤرِّخين - الذين لاحظوا هذه الرِّسالة - توصَّل إلىٰ نتيجة أكثر فُضُولاً، مفادها أنَّ الأُسقُف لا يُمكن أنَّه عنىٰ ما قاله!

ويُناقش المُؤرِّخ بأنَّه من غير المُمكن أنَّه كان يقصد الإشارة إلىٰ فُرسان الهَيكَل؛ لأنَّ فُرسان الهَيكَل لم يُؤسَّسوا إلَّا بعد أربع سنوات من ذلك الوقت؛ أيْ في عام 1118. أو - رُبَّما - الأُسقُف لم يعرف السَّنَة التي كان يكتب فيها؟ لكنَّ الأُسقُف مات عام 1115. كيف، في عام 1114، بإمكانه أنْ يُشير - «بشكل خاطئ» - إلىٰ شيء لم يحدث بعدُ؟! هُناك إمكانيَّة واحدة، وواضحة جدَّاً، كجواب عن ذلك السُّؤال - بأنَّه ليس الأُسقُف هُو الذي كان مُخطئاً، بل غليُوم، بالإضافة إلىٰ كُلِّ المُؤرِّخين اللَّاحقين الذين يُصرُّون علىٰ أنَّ غليُوم هُو صوت الحقِّ الموثوق.

إنَّ تاريخ تأسيس النِّظام - بحَدِّ ذاته - ليس - بالضَّرورة - أنْ يكون مشكوكاً فيه. ولكنْ؛ هُناك ظُرُوف أُخرىٰ ومُصادفات مُفردة هي - بالتَّأكيد - موضع شَكٍّ وريبة.

علىٰ الأقلِّ؛ ثلاثة من الفُرسان التّسعة المُؤسِّسين، بمَنْ فيهم هُوغُو دُو باين، يبدو أنَّهم أتوا من المناطق المُجاورة، وأنَّه كان بينهم روابط عائليَّة، وأنَّهم يعرفون بعضهم بعضاً سابقاً، وبأنَّهم يتبعون السَّيِّد ذاته. هذا اللُّورد كان كُونت شمبانيا، الذي وجَّه إليه أُسقُف شارتر رسالتَهُ عام 1114، والذي أصبح من فُرسان الهَيكَل عام 1124، يتعهَّد بالطَّاعة إلىٰ تابعه الخاصِّ!

في عام 1115، كُونت شمبانيا تبرَّع بالأرض التي بنىٰ فيها القدِّيس بيرنارد - راعي فُرسان الهَيكَل - الدَّيْرَ المشهور في كليرفُوكس، فرنسا؛ وأحد الفُرسان التِّسعة المُؤسِّسون، أندريه دُو مُونتبارد، كان عمَّ القدِّيس بيرنارد.

علاوةً علىٰ ذلك؛ في ترُويز، محكمة كُونت شمبانيا، وهي مدرسة ذات سُلطة لتعليم الدِّراسات القَبَلانيَّة والباطنيَّة، ازدهرت مُنْذُ عام **1070**.

في مجلس ترُويز عام **1128**، تمَّ ـ رَسْميّاً ـ ضَمُّ فُرسان الهَيكَل. ولمُدَّة قرنَيْن ـ بعد ذلك ـ كانت «ترُويز» المركز الاستراتيجي للنِّظام؛ وحتَّىٰ اليوم ـ هُناك ـ فُسحة مُشجَّرة مُجاورة للمدينة تُدعىٰ «**Forêt du Temple**» (غابة الهَيكَل). وقد صدرت من محكمة كُونت شمبانيا، في ترُويز، إحدىٰ أُولىٰ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ من المُحتمل أنَّها الأسبق تماماً، أُعدَّت من قِبَل «كريشين دُو ترُويز».

وسط هذه الفوضىٰ العارمة من البَيَانَات؛ كان بإمكاننا أنْ نشرع برُؤية شبكة ضعيفة من الارتباطات ـ نمط بدا أنَّه ليس مُجرَّد تزامن. إنْ وُجد نمطٌ كهذا، فهُو ـ بالتَّأكيد ـ سيدعم شُكُوكنا حول انخراط فُرسان الهَيكَل ببعض النَّشَاطات السِّرِّيَّة.

علىٰ الرّغم من هذا، لا يسعنا إلَّا أنْ نُخمِّن ـ فقط ـ حول ماهيَّة ذلك النَّشَاط. قاعدة واحدة لبدء تخميننا كانت الموقع المُعيَّن لمسكن الفُرسان ـ جناح القصر المَلَكي، جبل الهَيكَل، والذي مُنحَ لهم بشكل غير قابل للتَّوضيح.

في عام **70** للميلاد، الهَيكَل الذي كان واقفاً هُناك كان قد دُمِّر من الجحافل الرُّومانيَّة تحت أمرة تيطَس[1]، كَنزه سُلب، وجُلب إلىٰ رُومَا، ثُمَّ سُلب ثانية، ورُبَّما جُلب إلىٰ بيرينه، في فرنسا.

لكنْ؛ ماذا لو أنَّ هُناك شيئاً آخر كان في الهَيكَل، شيئاً مُهمَّاً لدرجة أكبر من الكَنز الذي سُلب من قِبَل الرُّومان؟! من المُحتمل جدَّاً أنَّ كَهَنَة الهَيكَل ـ عندما واجهوا الكتائب الرُّومانيَّة المُتقدِّمة ـ كانوا سيتركون لهم الغنيمة التي يتوقَّعون أنْ يجدوها. وإنْ كان هُناك شيء آخر، هُو ـ لرُبَّما ـ أُخفي في مكان ما قريب؛ تحت الهَيكَل، علىٰ سبيل المثال.

بين لفائف البحر الميِّت التي وُجِدَتْ في قمران[2]، هُناك ـ الآن ـ واحدة تُعرَف باللّفيفة النُّحاسيَّة. هذه اللّفيفة، تمَّ حَلُّها في جامعة مانشستر في عام **1955 ـ 1956**، والتي تُشير ـ بوُضُوح ـ

(1) (تيطَس «39 ـ 81 م» : إمبراطُور رُوماني «79 ـ 81 م». احتلَّ بيت المَقْدس، ودمَّرها عام 70 م. المُترجم).
(2) (تُدعىٰ ـ الآن ـ خربة قمران، وكانت مركزاً دينيَّاً هامَّاً أيَّام السَّيِّد المسيح. المُترجم).

إلىٰ عدد هائل من السّبائك الذَّهبيَّة، وإلىٰ السُّفُن المُقَدَّسَة، وإلىٰ موادَّ إضافيَّة غير مُحَدَّدة، وإلىٰ «كَنز» من نوع غير مُحَدَّد. يستشهد بأربعة وعشرين كَنزاً مُختلفاً مدفوناً تحت الهَيكَل بنفسه.

في مُنتصف القرن الثَّاني عشر، أحد الحُجَّاج إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة، اسمه «يُوهان فُون وورسبيرغ» كتب عن زيارته لما يُسمَّىٰ بإسطبلات سُلَيْمان. هذه الإسطبلات تقع ـ مُباشرة، تحت الهَيكَل بنفسه، مازالت مرئيَّة. وذكر يُوهان أنَّها كانت كبيرة جدَّاً، لدرجة أنَّها تتَّسع لألفَيْ حصان؛ ومن تلك الإسطبلات جهَّز فُرسان الهَيكَل مأواهم المُحصَّن. وُفقاً لما ذكره ـ علىٰ الأقلِّ ـ مُؤرِّخ واحد آخر، فُرسان الهَيكَل كانوا يستعملون هذه الإسطبلات لخُيُولهم حوالي العام **1124**، وذلك عندما يُفترَض أنَّ عددهم كان تسعة فقط. وهكذا يبدو أنَّه ـ رُبَّما ـ قام ذلك النِّظام الجديد ـ فوراً بعد بدايته ـ بالتَّنقيب تحت الهَيكَل.

تنقيب كهذا ـ لرُبَّما ـ يُشير ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّ الفُرسان كانوا يبحثون عن شيء ما بشكل نشيط. حتَّىٰ إنَّه قد يُشير ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّهم أُرسلوا ـ بتعمُّد ـ إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة؛ بتفويض عاجل للعُثُور علىٰ شيء ما.

إنْ كان هذا الافتراض صحيحاً، فهُو يُوضِّح عدداً من الأشياء الشَّاذَّة ـ إقامتهم في القصر المَلَكي ـ علىٰ سبيل المثال ـ وصَمْت المُؤرِّخ. لكنْ؛ إنْ هُم أُرسلوا إلىٰ فلسطين، مَن الذي أرسلهم؟!

في عام **1104**، كُونت شمبانيا عقد اجتماعاً سرِّيَّاً مع نُبلاء مُعيَّنين ذوي مناصب عُليا، علىٰ الأقلِّ؛ مع واحد ممَّنْ عادوا للتَّوِّ من القُدْس.

من بين حُضُور ذلك الاجتماع السِّرِّيِّ؛ كان هُناك مُمثِّلون عن بعض العائلات المُحَدَّدة ـ بريين، جوينفيل، تشُومُونت ـ والتي اكتشفنا ـ لاحقاً ـ أنَّها ذات أهمِّيَّة ملحوظة في قصَّتنا. أيضاً؛ من بين الحُضُور، كان اللُّورد الإقطاعي أندريه دُو مُونتبارد، أندريه كان أحد المُؤسِّسين لنظام الهَيكَل، وكان عمَّ القدِّيس بيرنارد.

بعد فترة قليلة من الاجتماع السِّرِّيِّ، كُونت شمبانيا غادر بنفسه إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة، وبقي هُناك لأربع سنوات، وعاد في عام **1108**.

في عام 1114، قام برحلة ثانية إلىٰ فلسطين، وكان ينوي الانـضمام إلىٰ «Forêt du Temple»، ثُمَّ يُغيِّر رأيه، ويعود إلىٰ أُورُوبا بعد سنة.

أثناء عودته؛ تبرَّع ـ فوراً ـ بمنطقة من الأرض إلىٰ النِّظام السِّيستيري، الذي كان ناطقه البـارز القدِّيس بيرنارد. علىٰ هذه المنطقة من الأرض، بنىٰ القدِّيس بيرنارد دَيْـر كليرفُـوكس؛ حيـثُ أسَّـس سَكَنَهُ الخاصّ. وبعد ذلك؛ دَعَمَ النِّظامَ السِّيستيريَّ.

قبل عام 1112، السِّيستيريُّون كانوا مُشرفين علىٰ الإفلاس بشكل خطير. بعد ذلك، وبتوجيه من القدِّيس بيرنارد، مرُّوا بمرحلة من التَّغيُّر الرَّائع في الثَّروة.

خلال السَّنوات القليلة التي تَلَتْ، تمَّ إنشاء نصف دزِّينة مـن الأديـرة. بحُلُـول عـام 1153، كان هُناك أكثر من ثلاثمائة دَيْر، والتي القدِّيس بيرنارد بنفسه أسَّس تسعة وستِّين منها شَخْـصيَّاً. هـذا النُّمُوُّ الاستثنائي يُشبه ـ إلىٰ حَدٍّ كبير ـ التَّطوُر الذي شهده نظام الهَيكَل، والذي كان يتوسَّع بالطَّريقـة نفسها، وبالفترة نفسها من السَّنوات. وكما قُلنا، أحد مُؤسِّسي نظام الهَيكَل كان عمَّ القدِّيس بيرنـارد، أندريه دُو مُونتبارد.

الأمر يستحقُّ مُراجعة هذه السِّلسلة المُعقَّدة للأحداث. في عام 1104، كُونت شـمبانيا غـادر إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة بعد الاجـتماع مـع بعـض النُّـبلاء المُحَـدَّدين، أحـدهم كـان مُرتبطـاً بأندريـه دُو مُونتبارد. في عام 1112، ابن أخ أندريه دُو مُونتبارد، القدِّيس بيرنارد، انضمَّ إلىٰ النِّظـام السِّيـستيري. عام 1114، كُونت شمبانيا غادر في رحلة ثانية إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة، ينوىٰ الانضمام إلىٰ نظام الهَيكَـل، الذي أسَّسه مع مُقطعه[1] الخاصّ سويَّةً مع أندريه دُو مُونتبارد، والـذي ـ كـما تـشهد رسـالة أُسـقُف شارتر ـ كان موجود أصلاً، أو أنَّه في عمليَّة التَّأسيس مُسبقاً.

في عام 1115، كُونت شمبانيا عاد إلىٰ أُورُوبا، بعد أنْ رحل لأقـلَّ مـن سـنة، وتـبرَّع بـأرض لدَيْر كليرفُوكس ـ والذي كان رئيسه ابن أخ أندريه دُو مُونتبارد. في السَّنوات التَّاليـة؛ كـلا النظـامَيْن السِّيستيري وفُرسان الهَيكَل ـ كلاهما نظامان للقدِّيس بيرنارد وأندريه دُو مُونتبارد ـ يُـصبحان غنيَّـيْن جدَّاً، ومُتمتِّعَيْن بمراحل من النُّمُوِّ الهائل.

(1) (المُقْطَع: شَخْص يُقطعه السَّيِّد الإقطاعي أرضاً لقاء تعهُّده بتقديم المُساعدة العَسْكَريَّة... إليه. المُترجم).

BREACH OF 1099
ثغرة عام 1099
LEPER HOSPITAL
مشفى المجذومين
Church of the Holy Sepulchre
كنيسة الضريح المقدس
THE TEMPLE
الهيكل
St Mary the Great
القديسة ماري العظيمة
St Mary of the Latins
قديسة ماري
THE GOLDEN GATE
البوابة الذهبية
TOWER OF DAVID
برج داوود
El Aksa Mosque
المسجد الأقصى
St Mary of the Germans
ماري قديسة الألمان
فرسان الهيكل
أسطبلات سليمان
To the Mount of Olives and Bethany
إلى جبل الزيتون وبيت عَنيا
SION GATE
بوابة صهيون
AREA OWNED BY THE TEMPLARS
منطقة يمتلكها فرسان الهيكل
NOTRE DAME DE SION
(Cenacle and Tomb of David)
نوتردام دو صهيون
To Bethlehem
إلى بيت لحم

القُدس ـ الهَيكَل ومنطقة جبل صهيُون في مُنتصف القرن الثَّاني عشر

لو تأمَّلنا هذه السِّلسلة من الأحداث، لاقتنعنا ـ بتزايد ـ بأنَّه كـان هُنـاك قالـب ونمـط مُعـيَّن يحكم مثل هذه الشّبكة المُعقَّدة. بالتَّأكيد؛ لم يكن ذلك عشوائيَّاً، أو عَرَضـيَّاً بالكامـل. بـالعكس؛ بـدا الأمر لنا وكأنَّنا نتعامل مع آثار مُخطَّط كُلِّيٍّ طموح ومُعقَّد، مع التَّفاصـيل الكاملـة التـي فقـد التَّـاريخ الكثير منها. لكي نُعيد بناء هذه التَّفاصيل؛ طوَّرنا فَرَضـيَّة تجريبيَّـة ـ «سـيناريو»، علىٰ سـبيل المثـال ـ الذي قد يتلاءم مع الحقائق المعروفة.

افترضنا بأنَّ الشَّيء الذي اكتُشف في الأرض المُقَدَّسَة، إمَّـا مُـصادفة، أو عَمْـدَاً ـ هُـو شيء ذُو أهمِّيَّة عظيمة، ممَّا أثار اهتمام البعض من نُبلاء أُورُوبا الأكثر نُفُوذاً. افترضنا بأنَّ هذا الاكتشاف يتعلَّـق ـ بشكل مُباشر، أو ضمنيَّاً ـ بثروة هائلة مُحتملة ـ ورُبَّما ـ أيضاً ـ بـشيء آخـر، الـشَّيء الـذي كـان مـن الواجب أنْ يبقىٰ طيَّ الكتمان، الشَّيء الذي يُمكن أنْ يُباح ـ فقط ـ لعدد قليل من اللُّوردات الكبار.

أخيراً، افترضنا بأنَّ هذا الاكتشاف أُبلغ عنه، ونُوقش في الاجتماع السِّرِّيِّ.

لذلك، غادر كُونت شمبانيا ـ حالاً ـ إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة، رُبَّما للتَّحقُّق ـ شَخْصيَّاً ـ من الـذي سـمعه، ورُبَّـما للقيـام بنفـسه بـبعض الأعـمال ـ التَّأسـيس، علـىٰ سـبيل المثـال، الـذي أصـبح ـ فيما بعد ـ نظام الهَيكَل.

في عام **1114**، إنْ لم يكن قبل ذلك، تمَّ تأسيس فُرسان الهَيكَل، وكان لكُونـت شمبانيا الـدَّور الحاسم في ذلك، والذي ـ رُبَّما ـ كان يقوم بدور المُرشد الرُّوحي والرَّاعي.

بحُلُـول عـام **1115**، كانـت الأمـوال ـ في ذلـك الحـين ـ تتـدفَّق إلىٰ أُورُوبـا، وإلىٰ صـناديق السِّيستيرِيِّيْن، جماعة القدِّيس بيرنارد، ومن موقع قُوَّتهم الجديد، أيَّـدوا، ومَنَحُـوا، المـصداقيَّة للنِّظـام الجديد للهَيكَل.

تحت قيادة بيرنارد، السِّيستيرِيُّون حقَّقوا سُمُوَّاً رُوحيَّاً في أُورُوبا. وتحت قيادة هيُوغز دُو بـاين، وأندريه دُو مُونتبارد، فُرسان الهَيكَل حقَّقـوا الـسُّمُوَّ العَـسْكَريَّ والإداريَّ في الأرض المُقَدَّسَـة، التـي سُرعان ما انتشرت عائدة إلىٰ أُورُوبا.

وراء نُمُوّ النِّظامَيْن كلَيْهِما لاح الوُجُودُ الغـامضُ للعَـمِّ، ولابـن الأخ، بالإضـافة إلىٰ الثَّـروة، والتَّأثير، ورعاية كُونت شمبانيا، هؤلاء الأفراد الثَّلاثة يُشكِّلون صلة حاسمة. إنَّهم كعلامـات تحطُّـم سطح التَّاريخ، لتُشير إلىٰ الصُّور الخافتة للتّصميهات المحجوبة بشكل مُتقَن.

في الحقيقة؛ إنْ وُجدَ مثل هذا المُخطَّط، فإنَّه ـ بالطَّبع ـ لـن يكـون منـسوباً ـ فقـط ـ إلىٰ هـؤلاء الرِّجال الثَّلاثة.

بالعكس؛ لابُدَّ وأنْ يستلزم ذلك الكثير من التّعاون مع بعـض النَّـاس الآخـرين، ومـع مُنظَّمـة دقيقة. كلمة مُنظَّمة ـ رُبَّما ـ هي الكلمة الدَّالَّة، وإذا كانت فَرَضيَّتنا صحيحة، فإنَّ تلك المُنظَّمـة يُفـتَرَض أنْ تكون مُنظَّمة بمُستوىٰ يُكافئ لنِّظام بحَدِّ ذاته ـ نظام ثالث وسرِّيٌّ وراء النِّظامَيْن المعروفَيْن والمُـوثَّقَيْن (نظام الهَيكَل والنِّظام السِّيستيري). الدَّليل علىٰ وُجُود مثل هذا النِّظام الثَّالث لم يكن بعيد المنال.

في هذه الأثنـاء؛ كَرَّسْـنَا انتباهنـا إلىٰ «الاكتـشاف» الافـتراضي في الأرض المُقَدَّسَـة ـ القاعـدة التَّخمينيَّة التي أسَّسنا عليها «السِّيناريو».

ماذا يُمكن أنْ يُوجد هُناك؟

ما الذي تكتَّم عليه فُرسان الهَيكَل، سويَّة مع القدِّيس بيرنارد، وكُونت شمبانيا؟!

في نهاية تاريخهم؛ أبقىٰ فُرسان الهَيكَل سرَّ مكان وطبيعة كَنزهم منيعاً. حتَّىٰ الوثائق لم تَبْقَ. إنْ كان الكَنز المَعْنيُّ ماليّاً حقّاً ـ سبائك، علىٰ سبيل المثال ـ فلم يكن من الضَّروري تحطيم، أو، إخفاء كُلِّ السِّجلَّات، كُلِّ الأرشيفات، وكُلِّ القوانين.

النَّتيجة هي أنَّ فُرسان الهَيكَل كان لديهم شيء آخر في وصايتهم، شيء ثمين جدّاً، لدرجـة أنَّـه حتَّىٰ التَّعذيب كان عاجزاً عن إفشاء، ولو تنويه من شفاههم. الثَّروة ـ وحدها ـ لا يُمكن أنْ تـدفعهم لمثل هذه السِّرِّيَّة المُطلقة والجماعيَّة. أيّاً كان ذلك الكَنز؛ فلابُدَّ أنَّ له علاقة بأمُور أُخـرىٰ، مثـل موقـف النِّظام من السَّيِّد المسيح.

في 13 أُكتُوبر/ تشرين الأوّل 1307، كُلُّ فُرسان الهَيكَل في كافَّة أنحاء فرنسا اعتُقلوا من قِبَل مندوبي الأمير فيليب لُو بيل. ولكنَّ ذلك البيان ليس حقيقيّاً جدّاً. علىٰ الأقلّ؛ مُجتمع واحد من فُرسان الهَيكَل كان قد سلم من أذىٰ شبكة الملك ـ مُجتمع بيزُو، المُجاورة لقرية رين لُـو شـاتُو. كيـف، ولمـاذا هربوا؟! للإجابة عن ذلك السُّؤال؛ أُرغمنا علىٰ تحرِّي نشاطات النِّظام علىٰ مقربة من قرية بيـزُو. أثبتت تلك النَّشَاطات بأنَّها كانت مُكثَّفة جدّاً.

في الحقيقة؛ كان هُناك حوالي ستَّة مُجتمعات لفُرسان الهَيكَل، بالإضـافة إلىٰ عـدد مـن الأمـلاك الأُخْرَىٰ في المنطقة، والتي كانت تُغطِّي حوالي عشرين ميلاً مُربَّعاً.

في عـام 1153، رجـل نبيـل مـن المنطقـة ـ نبيـل مُتعـاطف مـع الكَاثَـار ـ أصـبح الـسَّيِّد الأعظـم الرَّابـع لنظـام فُرسـان الهَيكَـل. كـان اسـمه بيرترانـد دُو بلانتـشفُورت، وبيتـه الـسَّلَفي كان موقعـه علىٰ قمَّـة جبـل، علىٰ بُعْـد بـضعة أميـال مـن كُـلٍّ مـن بيـزُو، وقريـة ريـن لُـو شـاتُو. بيرترانـد دُو بلانتـشفُورت، الـذي تـرأَّس النِّظـام مـن عـام 1153 وحتَّـىٰ عـام 1170، مـن المُحتمل أنَّه كان الأهمَّ من كُلِّ الأسياد العظام للهَيكَل.

قبل قيادته للنِّظام، التَّدرُّج الهَرَمي والهَيكَل الإداري كانـا ـ في أحـسن الأحـوال ـ ضـبابيَّيْن. بيرتراند هُو الذي نظَّم فُرسان الهَيكَل بشكل جيِّد وفعَّال ومُمتاز، وحوَّلهم ـ بشكل رائع ـ إلىٰ المُؤسَّـسة ذات التَّرتيب الهَرَمي، الذي أصبحوا عليه.

بيرتراند هُو الذي أطلق تدخُّلهم في الدّبلُوماسيَّة والسِّياسة الدّوليَّة العالية المُستوىٰ. بيرترانـد هُو الذي خَلَقَ لهم مجالاً رئيساً في الاهتمام بأُورُوبا، وخُصُوصاً في فرنسا.

وطبقاً للدَّليل الذي بقيٰ؛ المُعلِّم الخاصُّ لبيرتراند كـان أندريـه دُو مُونتبـارد؛ حتَّـىٰ إنَّ بعـض المُؤرِّخين يُدرجونه علىٰ أنَّه السَّيِّد الأعظم الذي سبق بيرتراند فوراً.

خلال بضع سنوات من انضمام بيرتراند للهَيكَل منحهم أراض في ضواحي قرية رين لُو شاتُو وبيزُو.

وفي عام 1156، تحت قيادة بيرتراند للنِّظام كَسَيِّد أعظم، قيل بأنَّ النِّظام استورد إلىٰ المنطقة فريق عُمَّال مناجم ناطقين بالألمانيَّة. هؤلاء العُمَّال يُفترَض أنَّهم أُخضعوا لنظام عَسْكَري مُتصلِّب، وانضباطي. حُرموا من التَّآخي مع السُّكَّان المحلِّيِّين بأيِّ شكل من الأشكال، وتمَّ الاحتفاظ بهم ـ بصرامة ـ بعيداً عن الجالية المُحيطة. حتَّىٰ إنَّه تمَّ تأسيس هيئة قضائيَّة خاصَّة بهم (محكمة الألمان) « la Judicature des Allemands» للتَّعامل مع التَّفاصيل القانونيَّة المُتعلِّقة بهم. مهمَّتهم المزعومة كانت التَّنقيب عن مناجم الذَّهَب في مُنحدرات جبل بلانتشفُورت ـ تلك المناجم التي كانت قد اسْتُنْزِفَتْ ـ تماماً ـ من قِبَل الرُّومان قبل ألف سنة من ذلك الوقت.

أثناء القرن السَّابع عشر؛ كُلِّف مُهندسون بالتَّحرِّي عن السِّمات العدانيَّة[1] للمنطقة، وبأنْ يرسموا، ويُقدِّموا، تقارير مُفصَّلة.

في أحد تقاريره؛ ناقش «سيزار داركَنز» موضوع البقايا، والخرائب، التي وجدها بقايا نشاط العُمَّال الألمان. وُفقاً لبحثه؛ صرَّح بأنَّ العُمَّال الألمان ما كان يبدو أنَّهم يعملون في التّعدين. إذاً؛ ما الذي كانوا مُنشغلين به؟! سيزار داركَنز لم يكن مُتأكِّداً؛ لقد كانوا يصهرون، رُبَّما، يُذوِّبون شيئاً ما في الأسفل، ويبنون شيئاً ما من المعدن، حتَّىٰ إنَّهم ـ رُبَّما ـ كانوا يُنقِّبون عن قبو تحت الأرض، من نوع ما، ويُنشئون مُستودعاً ما.

مهما كان جواب هذا اللُّغز، لقد كان هُناك حُضُور لفُرسان الهَيكَل في مقربة من قرية رين لُو شاتُو ـ علىٰ الأقلّ ـ مُنْذُ مُنتصف القرن الثَّاني عشر.

بحُلُول عام 1285، كان هُناك مُجتمع لفُرسان الهَيكَل رئيسيّ علىٰ بُعْد بضعة أميال من بيزُو، في «كامبين سور أود»[2].

علاوةً علىٰ ذلك؛ قُرب نهاية القرن الثَّالث عشر بيير دُو فُويزنز، لُورد قريَتَيْ بيزُو، ورين لُو شاتُو، دعا كتيبة من فُرسان الهَيكَل إلىٰ المنطقة، كتيبة خاصَّة من مُقاطعة أراغُونيس في رُوسيلُون.

---

(1) (مُتعلِّق بالعِدانة، أو علم المعادن. المُترجم).

(2) (في جنوب فرنسا. المُترجم).

هذه الكتيبة الجديدة أسَّست نفسها علىٰ قمَّة جبل بيزُو، وأقاموا موقع مُراقبة، ومكاناً للعبادة. زعماً، فُرسان الهَيكَل من رُوسيلُون كانوا قد دُعيوا إلىٰ بيزُو، للمُحافظة علىٰ أمن المنطقة، ولحماية طريق الحُجَّاج، الذي كان يمرُّ عبر الوادي إلىٰ سانتياغُو دُو كُوبُوستيلا في إسبانيا.

لكنَّه من غير الواضح لماذا كانت الحاجة لهؤلاء الفُرسان الإضافيِّيْن. أوَّلاً؛ هُم لا يُمكن أنْ يكونوا كثيرين جدَّاً ـ بما فيه الكفاية ـ لأنْ يُحدثوا أيَّ فرق هامٍّ. ثانياً؛ كان هُناك ـ مُسبقاً ـ فُرسان الهَيكَل في الجوار. أخيراً؛ بيير دي فُويزنز كان لديه قُوَّاته الخاصَّة به، والذين ـ بمُساعدة فُرسان الهَيكَل الذين كانوا هُناك ـ يُمكنهم أنْ يضمنوا الأمن في تلك الضَّواحي.

إذاً؛ لماذا جاء فُرسان الهَيكَل من رُوسيلُون إلىٰ بيزُو؟! طبقاً للرِّواية المحلِّيَّة؛ هُم جاؤوا للتَّجسُّس، ولاستخدام، أو دَفْن، أو حراسة، كَنز من نوع ما.

مهما كانت مهمَّتهم الغامضة، من الواضح أنَّهم تمتَّعوا بنوع من الحصانة الخاصَّة. من بين كُلِّ فُرسان الهَيكَل في فرنسا هُم الوحيدون الذين تُركوا بدُون أيِّ تدخُّل من قِبَل مندوبي الأمير فيليب لُو بيل.

في **13** أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل عام **1307**، في ذلك اليوم الحاسم، قائد فريق فُرسان الهَيكَل في بيزُو كان سيغنور القُوطي. وقبل أنْ يحصل علىٰ منصب البَابَا كليمنت الخامس، رئيس أساقفة بوردو ـ البيدق المُتذبذب للملك فيليب ـ كان اسمه بيرتراند القُوطي (بيرتراند دي غُوث).

علاوةً علىٰ ذلك؛ والدة الحبْر الجديد كانت «إدا دُو بلانتشفُورت»، من عائلة بيرتراند دُو بلانتشفُورت نفسها. كان البَابَا ـ آنذاك ـ يُخفي سرَّاً ما ائتُمن في رعاية عائلته ـ ذلك السِّرُّ الذي بقي في عائلة بلانتشفُورت حتَّىٰ القرن الثَّامن عشر، عندما آبي أنطوان بيغُو راعي أبرشيَّة رين لُو شاتُو وكَاهن ماري دُو بلانتشفُورت، أعدَّ المَخطُوطَات التي عُثر عليها من قِبَل سُونير؟ إنْ كانت هذه هي الحالة، فمن المُمكن أنَّ البَابَا ـ رُبَّما ـ قدَّم نوعاً من الحصانة إلىٰ قريبه، الذي يقود فُرسان الهَيكَل في بيزُو.

تاريخ فُرسان الهَيكَل قُرب قرية رين لُو شاتُو كان ـ بوُضُوح ـ مشحوناً بألغاز مُحيِّرة تماماً؛ مثل تاريخ النِّظام بشكل عامٍّ.

في الحقيقة، كان هُناك عدد من العوامل ـ دَوْر بيرتراند دُو بلانتشفُورت، علىٰ سبيل المثال ـ الذي بدا بأنَّه يُشكِّل صلة مُدركة بين الألغاز العامَّة والمحليَّة.

في هذه الأثناء ـ علىٰ أيَّة حال ـ واجهنا نَسَقاً رهيباً من الأُمُور المُتزامنة ـ أمُوراً مُتزامنة عديدة جدَّاً ـ بحيثُ لا يُمكن أنْ تكون مُجرَّد مُصادفات.

هل نحنُ كُنَّا ـ في الحقيقة ـ نتعامل مع مُخطَّط مدروس؟ إنْ كان الأمر كذلك، فهناك سُؤال واضح، مَن الذي ابتكره؟! مُخطَّطات بهذا التَّعقيد لا يُمكن أنْ تبتكر نفسها بنفسها.

كُلُّ الأدلَّة المُتوفِّرة إلينا أشارت إلىٰ تنظيم دقيق ومُنظَّمة سرِّيَّة حريصة، إلىٰ حَدِّ أنَّنا ـ علىٰ نحو مُتزايد ـ بدأنا بالشَّكِّ بأنَّه لابُدَّ أنْ يكون هُناك مجموعة مُعيَّنة من الأفراد، رُبَّما تشمل نظاماً من نوع ما، ويعمل بسرِّيَّة تامَّة خلف الكواليس. لم يكن لزاماً علينا أنْ نتأكَّد من وُجُود نظام كهذا، التَّأكيد رمىٰ بنفسه في أحضاننا.

4

الوثائقُ السِّرِّيَّةُ

تأكيد علىٰ وُجُود نظام ثالث ـ نظام وراء فُرسان الهَيكَل و السِّيستيريِّيْن كلَيْهما ـ رمىٰ بنفسه إلينا.

في بادئ الأمر ـ علىٰ أيَّة حال ـ لم نستطع أنْ نأخذ الأمر بجدِّيَّة. بدا الأمر بأنَّه ينبثق من مصدر عديم الثِّقة بشكل كبير. إلىٰ أنْ نتمكَّن من التَّحقُّق من صحَّة هذا المصدر، لا يُمكننا أنْ نُصدِّق ادِّعاءاته.

في 1956، سلسلة من الكُتُب والدّفاتر والوثائق الأُخْرَىٰ تتعلَّق بـ«بيرنجر سُونير» ولُغز رين لُو شاتُو بدأت بالظُّهور في فرنسا. انتشرت هذه المادَّة بثبات، وهي ـ الآن ـ مُنتشرة بزَخْم.

في الحقيقة؛ شكَّلت القاعدة لـ«صناعة» حقيقيَّة. والكمِّيَّة الكبيرة لتلك الكُتُب ـ بالإضافة إلىٰ الجهد والمصادر التي اشتركت في إنتاجها، ونَشْرها ـ تشهد ـ ضمنيّاً ـ علىٰ شيء ذي أهمِّيَّة عظيمة، ولكنَّها غير مُفسَّرة لحَدِّ الآن.

لا عجب أنَّ القضيَّة خُدمَتْ لشَحْذ شهيَّة العديد من الباحثين المُستقلِّين أمثالنا، الذين أعمالهم أُضيفَتْ إلىٰ كمِّيَّة المادَّة المُتوفِّرة. المادَّة الأصليَّة ـ علىٰ أيَّة حال ـ يبدو أنَّها أُصدرَتْ من مصدر وحيد مُعيَّن. شَخْص ما، من الواضح أنَّ لديه مصلحة شَخْصيَّة في «التّرويج» لـ«رين لُو شاتُو»، وفي جَذْب اهتمام الرَّأي العامّ للقصَّة، وفي توليد الدِّعاية والإعلان، وخَلْق المزيد من التَّحقيق.

أيّاً كانت المآرب الشَّخصيَّة الأُخْرَىٰ، إلَّا أنَّها لا تبدو مادِّيَّة. بالعكس، يبدو أنَّها ـ علىٰ الأغلب ـ من أجل الدِّعاية؛ الدِّعاية التي تُؤسِّس مصداقيَّة لشيء ما. وأيّاً كان هؤلاء الأفراد المسؤولون عن هذه الدِّعاية، فهُم يسعون لتركيز الأضواء علىٰ بعض القضايا، بينما يُحافظون علىٰ أنفسهم خلف الكواليس.

مُنذُ عام 1956، كمّيّة المادّة ذات العلاقة كانت قد «سُرِّبَتْ» بتعمُّد، وبشكل مُنظَّم بأُسلُوب تدريجي، جُزءاً تلو الآخر. أغلب هذه الأجزاء يبدو أنّها ـ ضمنيّاً، أو بشكل واضح ـ تصدر من مصدر «مُميَّز»، أو «موثوق». أكثرها يحتوي علىٰ معلومات إضافيّة، التي تُكمل ما عُرف قبل ذلك، وهكذا تُساهم في ترتيب عامٍّ، ومُعقَّد.

علىٰ أيّة حال؛ لا المعلومات الواردة، ولا المعنىٰ الكامل واضح لحَدِّ الآن. بدلاً من ذلك، كُلُّ قصاصة جديدة من المعلومات عملت علىٰ تكثيف، بدلاً من توضيح اللُّغز. النَّتيجة كانت توالد دائم لشبكة من التَّلميحات المُغرية، تلميحات استفزازيّة، وتشتيت أنظار، وارتباطات إيحائيَّة.

في مُواجهة لفوضىٰ البيَانَات المُتوفِّرة الآن، القارئ ـ لرُبَّما ـ يشعر بأنَّه يلهو مع ـ أو يُقاد بشكل مُبدع وماهر ـ من نتيجة إلىٰ نتيجة بالجَزَرة المُعلَّقة أمام أنفه بشكل مُستمرٍّ. وبشكل ضمني؛ يُوجد هُناك وراء كُلِّ ذلك تنويه إلىٰ سرٍّ دائم وواسع الانتشار، سرٌّ ضخم ذي أبعاد تاريخيَّة ومُفاجئة.

المادَّة التي نُشِرَتْ مُنذُ عام 1956، أخذت عدداً من الأشكال. بعضها ظهر بشكل شعبيّ، وحتّىٰ في الكُتُب الأكثر رواجاً، وبعضها كان مُدهشاً تقريباً، وبعضها كان ـ تقريباً ـ غامضاً لدرجة التّعذيب بالرّغبة والإثارة. لذلك ـ علىٰ سبيل المثال ـ «جيرارد دُو سيد» أنتج سلسلة من الأعمال حول هذه المواضيع، التي تبدو بأنّها مُتباعدة؛ كالكَاثَار، وفُرسان الهَيكَل، وسُلالة الميرُوفنجيِّين، و«Croix_Rose» «الصَّليب الوَرْدي»، وسُونير، ورين لُو شاتُو.

في هذه الأعمال، «دُو سيد» كان يبدو ـ في أغلب الأحيان ـ خجولاً، ومُحيِّراً بتعمُّد، ومُراوغاً بشكل جذَّاب. صوته يدلُّ ـ بشكل ثابت ـ علىٰ أنّه يعرف أكثر ممّا يقول ـ رُبَّما هُو أُسلُوب للإخفاء بأنّه لا يعرف بقدر ما يدَّعي. لكنَّ كُتُبه تحتوي تفاصيل كافية وقابلة للإثبات لإقامة علاقة بين مواضيعها الخاصَّة. أيّاً كانت الأشياء الأُخرَىٰ التي يعتقدها المرء حيال «دُو سيد»، فهُو يُثبت ـ عَمَليّاً ـ بأنَّ المواضيع المُتنوِّعة التي يُقدِّمها هي مُتداخلة ومُترابطة بطريقة ما.

من النَّاحية الأُخرَىٰ، لا يسعنا إلّا أنْ نشكَّ بأنَّ عمل «دُو سيد» يعتمد ـ بشدَّة ـ علىٰ معلومات يُزوِّدها راوية[1].

(1) (مَنْ يُقدِّم معلومات لُغويَّة للدِّراسة العِلْمِيَّة. المُترجم).

وفي الحقيقة، «دُو سيد» ـ تقريباً ـ يعترف بذلك بنفسه. بالمُصادفة المحضة، علمنا مَنْ كان ذلك الرّاوية. في عام **1971**، عندما بدأنا فيلمنا الأوّل على شاشة الـ **BBC** ـ الذي يتحدَّث عن رين لُو شاتُو ـ كتبنا إلىٰ ناشر «دُو سيد» في باريس نطلب منه مادَّة مرئيَّة مُعيَّنة. الصُّور التي طلبناها أُرسلَتْ إلينا. علىٰ ظهر كُلٍّ منها يُوجد خَتْمُ «بلانتارد». في ذلك الوقت؛ لم يعن ذلك الاسمُ الكثيرَ بالنِّسبة لنا. ولكنَّ مُلحق أحد كُتُب «دُو سيد» شمل مُقابلة مع شَخْص اسمه «بيير بلانتارد». وبعد ذلك؛ حصلنا علىٰ دليل يُؤكِّد أنَّ أعمال «دُو سيد» مُتعلِّقة ـ بشدَّة ـ بـ«بيير بلانتارد». في النِّهاية؛ بدأ بيير بلانتارد بالظُّهُور كإحدىٰ الشَّخصيَّات المُؤثِّرة في تحقيقنا.

المعلومات التي نُشرت مُنْذُ عام **1956**، لم تكن ـ دائماً ـ شعبيَّة وسهلة الوُصُول كالشّكل الذي عليه معلومات «دُو سيد». بعض من تلك المعلومات التي ظهرت في مُجلَّدات هامَّة عارضت ـ تماماً ـ النَّظْرَة الصُّحُفيَّة لـ«دُو سيد». أحد تلك الأعمال كان كتاباً من إنتاج رينيه ديسكاديلاس، المُدير السَّابق لمكتبة البلديَّة في كركسُون، والذي كان كتابه غير مُثير تماماً. كُرِّس ذلك الكتاب لتاريخ رين لُو شاتُو وضواحيها، يحتوي ـ بكثرة ـ علىٰ التَّفاصيل الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة؛ علىٰ سبيل المثال، الولادات، الوفيَّات، الزّيجات، الأموال، الضّرائب، والأشغال العامَّة بين عامَيْ **1820** ـ **1830**. إجمالاً؛ هُو قد لا يختلف كثيراً عن سُوق مجموعات كُتُب «دُو سيد»، والتي وجَّه إليها ديسكاديلاس ـ في مكان آخر ـ نقداً قاسياً.

بالإضافة إلىٰ الكُتُب المنشورة، بما فيها البعض من تلك التي نُشرَت بصُورة خاصَّة، كان هُناك عدد من المقالات في الصُّحُف والمجلات. كانت هُناك مُقابلات مع أفراد مُختلفين يدَّعون بأنَّهم مُلمُّون ـ بطريقة، أو بأُخْرَىٰ ـ بشيء ما من اللُّغز. لكنَّ المعلومات المُثيرة والأكثر أهمِّيَّة، الجُزء الأكبر منها، لم تظهر علىٰ شكل كُتُب. أغلبها طفا علىٰ السّطح في مكان آخر؛ في الوثائق والكراريس التي ليست مُخصَّصة للتَّوزيع العامّ.

العديد من هذه الوثائق والكراريس أُودعَتْ ـ بصُورة محدودة ـ علىٰ شكل نُسخ مطبوعة بشكل خاصٍّ، في المكتبة الوَطَنيَّة في باريس. يبدو أنَّها كانت قد أُنتجَتْ بسعر رخيص جدّاً.

البعض ـ في الحقيقة ـ مُجرَّد طباعة (أُوفسيت)، وأُعيد إنتاجها عبر النّاسخة المكتبيَّة. هذه الموادُّ ـ ولدرجة أكبر من الأعمال المُسوَّقة ـ تبدو أنَّها جاءت من المصدر نفسه. عبر التّعليقات الجانبيَّة والهوامش الغامضة المُتعلِّقة بسُونير، رين لُو شاتُو، بُوسَّان، سُلالة الميرُوفنجيِّيْن، ومواضيع أُخرىٰ، كُلُّ جُزء منها يُتمِّم ويُوسِّع الضّوء علىٰ الأجزاء الأُخَرَىٰ، ويزيد تأكيدها. في أكثر الحالات، المادَّة ذات التّأليف المجهول، تظهر بشكل واضح وجليّ، وحتَّىٰ إنَّها تُقدِّم أسماء مُستعارة «بارعة»؛مَجْدَلِيْن، بلانكاسال، علىٰ سبيل المثال، ونيقولا بُوجن، وجين ديلُود، وأنطوان آيرمايت.

«مَجْدَلِيْن» ـ بالطَّبع ـ تُشير إلىٰ مَرْيَم المَجْدَليَّة، التي كُرِّسَتْ لها كَنيسَة «مَجْدَلِيْن» في رين لُو شاتُو، والتي إليها يُكرِّس سُونير بُرجه «بُرج مجدلا»، «بلانكاسال» مُشكَّل من أسماء النَّهرَيْن الصّغيرَيْن اللّذَيْن يتلاقيان قُرب قرية «رين لُو باين»، واسمهما «بلانك»، والثَّاني «سالز».

اسم «بُوجن» يعود إلىٰ «بُوجنت»، وهي الصّيحة والرّاية الرَّسْميَّة للمعارك بالنِّسبة لفُرسان الهَيكَل. «Jean Delaude» (جين ديلُود) هي «Jean de l'Aude»؛ «John of the Aude»؛ أيْ (جُون من أود)؛ حيثُ إنَّ «أود» هي المُقاطعة الفرنسيَّة التي تقع فيها قرية رين لُو شاتُو.

و«Antoine I'Ermite» (أنطوان آيرمايت) هُو «Saint Anthony the Hermit» (القدِّيس أنتوني النَّاسك)، الذي يُزيِّن تمثاله الكَنيسَةَ في رين لُو شاتُو، والذي عيدُ صيامه هُو 17 يناير/ كانون الثَّاني، وهُو التَّاريخ الذي يُوجد علىٰ شاهدة قَبْر ماري دُو بلانتشفُورت، وهُو التَّاريخ الذي فيه سُونير عانىٰ من جلطته القاتلة. العمل المنسوب لمَجْدَلِيْن بلانكاسال عُنوانه بالفرنسيَّة (Les descendants merovingiens et l'enigme du Razes wisigoth)؛ أيْ (أحفاد الميرُوفنجيِّيْن، ولُغز قُوطيِّيْ ريزس)، ريزس يبدو أنَّها كانت الاسم القديم للمنطقة التي عاش فيها سُونير.

هذا العمل ـ طبقاً لصفحة عُنوانه ـ كان قد نُشر ـ أصلاً ـ باللُّغة الألمانيَّة، وتُرجم إلىٰ الفرنسيَّة من قِبَل والتر سلس نازير؛ وهُو اسم مُستعار آخر رُكِّبَ من القدِّيسَيْن سلس، ونازير، اللَّذَيْن كُرِّسَتْ إليهما الكَنيسَة في «رين لُو باين». وطبقاً لصفحة العُنوان؛ ناشر العمل كان «محفل ألبينا العظيم»، وهُو المحفل الماسُوني الأعلىٰ في سويسرا؛ وهُو المُكافئ السُّويسري للمحفل الكبير في بريطانيا، أو الـ«غراند أُورينت»[1]

(1) (أيْ المحفل الذي مذبحه الرَّئيس يتَّجه نحو الشَّرق. المُترجم). في فرنسا.

ليس هُناك إشارة لماذا علىٰ المحفل الماسُوني الحديث أنْ يُبدي مثل هذا الاهتمام باللُّغز الغامض، الذي كان يُحيط بكَاهن فرنسي عاش في القرن التَّاسع عشر، وبأبرشيَّتِه التي يعود تاريخها إلىٰ قبل قرن ونصف؟!

أحد زُملائنا ـ بالإضافة إلىٰ باحث مُستقلٍّ ـ اسْتَجْوَبَا المسؤولين في محفل ألبينا. والنَّتيجة أنَّهم أنكروا كُلَّ المعرفة، ليس ـ فقط ـ بالنَّشْر، ولكنْ؛ ـ أيضاً ـ بحقيقة ووُجُود ما نُشرَ.

رغم ذلك، باحث مُستقلٌّ يدَّعي بأنَّه ـ شَخْصيَّاً ـ رأىٰ العمل علىٰ رُفُوف مكتبة ألبينا. وبعد ذلك؛ اكتشفنا بأنَّ دمغة محفل ألبينا ظهرت علىٰ كُرَّاستَيْن أخريَيْن أيضاً.

من بين كُلِّ الوثائق الخاصَّة المنشورة التي أُودعت في المكتبة الوَطَنيَّة، كان أهمّها مجموعة من الأوراق مُعنونة بشكل جماعي بـ (Dossiers secrets)؛ أيْ «الملفَّات السِّرِّيَّة». مُصنَّفة تحت الرَّقْم « 4 Im 249»، هذه المجموعة ـ الآن ـ موجودة علىٰ شكل ميكروفيش[1].

علىٰ أيَّة حال؛ حتَّىٰ فترة قريبة، تتضمَّن مُجلَّداً رقيقاً غير مُصنَّف، نوعاً من الحافظات ذات الغلاف المُتصلِّب، التي تحتوي علىٰ مجموعة غير مُربطة بإحكام من الموادِّ (المعلومات) التي يُزعَم بأنَّها غير مُرتبطة ببعضها البعض؛ قصاصات أخبار، رسائل مُلصقة علىٰ صفحات إضافيَّة، كراريس، شجرة أنساب مُتعدِّدة، ويبدو أنَّ الصّفحة المطبوعة ـ بشكل غريب ـ قد تمَّ انتزاعها.

بشكل دوري؛ البعض من الصَّفحات الفرديَّة ستُزال. وفي أوقات مُختلفة؛ سيتمُّ إدخال صفحات بشكل جديد. في بعض الصَّفحات المُعيَّنة؛ سيتمُّ ـ أحياناً ـ بعض الإضافات والتّصحيحات بشكل كتابي بخطٍّ صغير. في موعد لاحق؛ هذه الصَّفحات ستُستبدَل بأُخْرَىٰ جديدة، مطبوعة، وتتضمَّن كُلَّ التّصحيحات السَّابقة.

مُعظم الملفَّات ـ التي تشمل شجرة النَّسَب ـ منسوبة إلىٰ شَخْص يُدعىٰ هنري لُوبينُو، والذي يظهر اسمه علىٰ صفحة العُنوان. الموادُّ الأُخْرَىٰ في الحافظة تُعلن بأنَّ هنري لُوبينُو هُو ـ أيضاً ـ اسم

(1) (تقنية لتحويل الوثائق إلىٰ صُور مجهريَّة علىٰ فيلم فُوتُوغرافي لتوفير المكان، وللتّخزين الدَّائم. الميكروفيش هي صفحة من الفيلم تحتوي علىٰ صُور مُحوَّلة كهذه؛ الميكروفيلم يُشير إلىٰ لفَّة فيلم يحتوي علىٰ صُور من هذا النَّوع. المُترجم).

مُستعار آخر؛ رُبَّما اشتُقَّ من اسم شارع، رُو لُوبينُو، الذي يمرُّ خارج القدِّيس سُولبيس في باريس، وأنَّ الأنساب ـ في الحقيقة ـ هي من عمل رجل يُسمَّىٰ ليُو سكيدلُوف، وهُو مُؤرِّخ وعالم آثار نمساوي عاش ـ كما يُزعَم ـ في سويسرا، ومات عام 1966. علىٰ أساس هذه المعلومات؛ باشرنا بمعرفة ما استطعنا معرفته عن ليُو سكيدلُوف.

في 1978، استطعنا تحديد مكان ابنة ليُو سكيدلُوف، الذي كان يعيش في إنجلترا. أبوها ـ كما قالت ـ كان ـ في الحقيقة ـ نمساويًّا. هُو لم يكن أخصائيّاً بعلم الأنساب، ولا مُؤرِّخاً، أو عالم آثار، ولكنَّه كان تاجراً وخبيراً في المُنَمْنَمات[1]، وقد ألَّف كتابَيْن حول ذلك الموضوع. في عام 1948، استقرَّ في لندن؛ حيثُ عاش حتَّىٰ موته في فيينَّا عام 1966، السَّنة والمكان حُدِّدا في الملفَّات السِّرِّيَّة.

زعمت الآنسة سكيدلُوف ـ بشدَّة ـ أنَّ أباها لم يسبق وأنْ كان عنده أيُّ اهتمام بالأنساب، أو بسُلالة الميرُوفنجيِّيْن، أو السُّلُوك الغامض الذي كان في جنوب فرنسا. ورغم ذلك؛ استمرَّت بالقول بأنَّ بعض النَّاس من الواضح أنَّهم يعتقدون أنَّه كان كذلك. أثناء السِّتِّينات ـ علىٰ سبيل المثال ـ استلم رسائل ومُكالمات هاتفيَّة عديدة من أفراد غير معروفين من أُورُوبا والولايات المُتَّحدة كانوا يتمنّون الاجتماع به، وأنْ يُناقشوا معه أُمُوراً هُو لم يكن لديه أيَّة معرفة بها. عند وفاته عام 1966، كان هُناك وابل آخر من الرَّسائل، مُعظمها كان استفساراً عن صُحُفه.

أيّاً كانت القضيَّة التي تسبَّبت ـ بلا تعمُّد ـ في تورُّط والد الآنسة سكيدلُوف، بدا أنَّ الحُكُومة الأمريكيَّة لها ضلع في الموضوع.

في 1946 ـ قبل عقدٍ من الزَّمن الذي قيل إنَّه تمَّ تجميع الملفَّات السِّرِّيَّة فيه ـ تقدَّم ليُو سكيدلُوف بطلب تأشيرة لدُخُول الولايات المُتَّحدة. تمَّ رفض الطّلب بسبب شُكُوك بالتَّجسُّس، أو بشكل آخر من النَّشاطات السِّرِّيَّة. في النِّهاية؛ يبدو أنَّ المسألة قد سُوِّيَتْ، وتمَّ إصدار التَّأشيرة، وبالتَّالي؛ ليُو سكيدلُوف أُدخل إلىٰ الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة. رُبَّما كُلُّ ذلك كان مزيجاً بيروقراطيّاً نموذجيّاً. لكنَّ الآنسة سكيدلُوف بدت بأنَّها تشكُّ أنَّ المسألة كانت مُرتبطة بالانهماك الغامض، الذي نُسِب ـ بطريقة ما ـ إلىٰ أبيها بشكل مُحيِّر.

---

(1) (النَّمنَمة: فنُّ رسم المُصَغَّرات أو المُنمنَمات علىٰ عاج أو معدن، إلخ. المُترجم).

قصَّة الآنسة سكيدلُوف جعلتنا نتمهَّل قليلاً. رَفْضُ التَّأشيرة الأمريكيَّة ـ لرُبَّما ـ لم يكـن مُجـرَّد حادث عَرَضي؛ لأنَّه كان هُناك بين أوراق الملفَّات السِّرِّيَّة إشارات إلىٰ ارتباط المُسمَّىٰ ليُـو سـكيدلُوف ببعض قضايا التَّجسُّس الدّولي.

في هذه الأثناء ـ علىٰ أيَّة حال ـ ظهرت كُرَّاسة جديدة في باريس، والتـي تـمَّ تأكيـدها ـ خـلال الشُّهُور التي تَلَتْ ـ من مصادر أُخرىٰ. طبقاً لهذا الكُتيِّب؛ ثبت ـ في النِّهايـة ـ أنَّ هنـري لُوبينُـو المُثيـر للحَيْرَة لم يكن ليُو سكيدلُوف، بل كان أرستُوقراطيَّاً فرنسيَّاً من السُّلالة البارزة، هنري كُونـت مدينـة ليبنكُورت.

مسألة هُويَّة لُوبينُو الحقيقيَّة لم تكن اللُّغز الوحيد الـذي ارتـبط بالملفَّـات الـسِّرِّيَّة. كـان هُنـاك ـ أيضاً ـ مادَّة تُشير إلىٰ «حقيبة ليُو سكيدلُوف الجلديَّة». يُفتَرَض أنَّ هذه الحقيبـة كانـت تحتـوي علـىٰ عدد من الأوراق السِّرِّيَّة التي تتعلَّق بقرية رين لُو شاتُو بين عامَيْ **1600** و **1800**.

بعد فترة قليلة من موت سكيدلُوف، قيل إنَّ الحقيبة وصلت إلىٰ يـدَيْ جاسـوس موثـوق بـه؛ يُدعىٰ فخر الإسلام، والذي، في فبراير/ شُباط **1967**، كان عليه أنْ يلتقي في ألمانيا الشَّرقيَّة مع «وكيل مُوفَد من جنيف»، ويُسلِّمه الأمانة.

قبل أنْ تتمَّ الصَّفقة ـ علىٰ أيَّة حال ـ طُرد فخر الإسلام ـ علىٰ ما يُقال ـ من ألمانيا الشَّرقيَّة، وعاد إلىٰ باريس «لانتظار أوامر أُخرىٰ».

في **20** فبراير/ شُباط **1967**، وُجدت جُثَّته علىٰ خُطُوط السِّكَّة الحديديَّة في ميلُون[1]، وقُـذف بها من الخطِّ السَّريع الواصل بين باريس وجنيف. ويُفترَض أنَّ الحقيبة قد اختفت.

شرعنا بالتَّدقيق في هذه القصَّة البشعة بقدر ما يُمكن. سلسلة المقالات في الـصُّحُف الفرنـسيَّة في **21** فبراير/ شُباط أغلبها أكَّدت ذلك الخبر.

بالفعل؛ تمَّ العُثُور علىٰ جُثَّة مقطوعة الرَّأس علىٰ الطَّريق المارَّة من ميلُون. وقد تمَّ وَصْفُهَا علىٰ أنَّها جُثَّة شابٍّ باكستاني يُدعىٰ فخر الإسلام. لأسباب ماتزال غامضة تمَّ طَرْدُ ذلك الشَّابِّ مـن ألمانيـا

(1) (مدينة فرنسيَّة في الجنوب الشَّرقي من باريس. المُترجم).

الشَّرقيَّة، وكان مُسافراً من باريس إلىٰ جنيف ـ علىٰ ما يبدو ـ في مهمَّة تجسُّس. طبقاً لقارير صُحُفيَّة؛ إنَّ السُّلطات توقَّعت أنَّ القضيَّة جريمة قَتْل، وتمَّ التَّحرِّي في ذلك الموضوع من قِبَل الـ«DST» (مُستشاريَّة المُراقبة الإقليميَّة، أو مُكافحة الجاسوسيَّة).

من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ الصُّحُف لم تذكر أيَّ شيء عن ليُو سكيدلُوف، أو الحقيبة الجلديَّة، أو أيِّ شيء آخر قد يربط بين الحادث ولُغز رين لُو شاتُو.

كنتيجة؛ وجدنا أنفسنا نُجابهين بعدد من الأسئلة. من النَّاحية الأُخْرَىٰ، رُبَّما كان موت فخر الإسلام مُتعلِّقاً بقرية رين لُو شاتُو؛ إذْ إنَّ المادَّة في الملفَّات السِّرِّيَّة ـ في الحقيقة ـ تعتمد علىٰ «معلومات سرِّيَّة» من الصَّعب وُصُولها إلىٰ الصُّحُف. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ المادَّة في الملفَّات السِّرِّيَّة كان يُمكن أنْ تكون حَيْرَة مُتعمَّدة، ومُزوَّرة. المرء يحتاج ـ فقط ـ لأنْ يجد قضيَّة موت مُريب، أو غير مُفسَّر، ويجعلها ـ ما بعد الحَدَث ـ هوايته الخاصَّة.

لكنْ؛ إنْ كان ـ في الحقيقة ـ هذا هُو الوضع، فما هُو الهدف من هذا الإجراء؟!

لماذا علىٰ شَخْص ما أنْ يُحاول ـ بتعمُّد ـ خَلْق جوٍّ من الإثارة المُعذِّبة حول قرية رين لُو شاتُو؟!

ماذا يكسب بخَلْق مثل هذا الجوِّ؟

ومَنْ يُمكن أنْ يكسب منه؟!

هذه الأسئلة حيَّرتنا لدرجة أكبر؛ لأنَّ موت فخر الإسلام لم يكنْ ـ علىٰ ما يبدو ـ حادثاً معزولاً. بعد أقلّ من شهر، أُودعَ في المكتبة الوَطَنيَّة عمل آخر مطبوع بشكل خاصٍّ؛ كان يُدعىٰ «Le Serpent rouge» (الثُّعبان الأحمر)، وكان تاريخه ـ بشكل رَمْزي بما فيه الكفاية ـ في 17 يناير/ كانون الثَّاني. صفحة العُنوان في ذلك العمل نسبته إلىٰ ثلاثة مُؤلِّفين؛ هُم بيير فيغري، ولويس سانت ماكسنت، وغاستن دُو كُوكير.

الثُّعبان الأحمر هُو عمل مُفرد. يحتوي علىٰ علْم أنساب الميرُوفنجيِّين، وعلىٰ خريطتَيْن لفرنسا في عهد الميرُوفنجيِّين، بالإضافة إلىٰ تعليق سريع. يحتوي ـ أيضاً ـ علىٰ تصميم أساسي للقدِّيس سُولبيس في باريس، والذي يُحدِّد مُصلَّيات قدِّيسي الكَنيسَة المُختلفين. لكنَّ مُعظم النَّصِّ يشمل علىٰ

ثلاث عشرة قصيدة نَثْر قصيرة من النّوعيّة الأدبيّة الرَّائعة؛ العديد منها يُشبه عمل ريمبود. كُلُّ قصائد النَّثْر هذه لم يتجاوز طُولها أكثر من فقرة واحدة، وكُلٌّ منها تتطابق مع إشارة من إشارات الأبراج؛ الأبراج ذات الـ 13 إشارة، عند الإشارة الـ 13، البُرج الكبير، أو حامل الثُّعبان، تمَّ إدخاله بين بُرجَيْ العقرب والقوس.

في الرِّواية الأصليَّة، قصائد النَّثْر الـ 13 هي نوع من الحجِّ الرَّمْزي، أو المجازي، يبدأ بالدّلو، وينتهي بالجَدي، والذي ـ كما ذكر النَّصُّ بشكل واضح ـ يُشرف علىٰ 17 يناير/ كانون الثّاني. في النَّصِّ الغامض ـ عادةً ـ هُناك إشارات مألوفة إلىٰ عائلة بلانتشفُورت، إلىٰ الزّينة في الكَنيسَة؛ كتلك التي في كَنيسَة رين لُو شاتُو، إلىٰ البعض من نُقُوش سُونير هُناك، إلىٰ بُوسَّان وصُورة « Les Bergers d'Arcadie»، إلىٰ الشِّعار علىٰ القَبْر «Et in Arcadia Ego». في مكان ما هُناك إشارة إلىٰ أفعىٰ حمراء، «وردت في المَخْطُوطَات»، يتمُّ حلُّها عبر القُرُون ـ تلميح واضح، علىٰ ما يبدو، إلىٰ سُلالة، أو نسب. وبالنِّسبة لبُرج الأسد هُناك فقرة مُبهمة تستحقُّ الذِّكر بكاملها:

منها أرغب بالتَّحرُّر، هُناك هُبُوب نحوي لشذا العطر الذي يُشبع القَبْر. سابقاً، البعض سمّوها: إيسيس، ملكة كُلِّ المصادر الخيِّرة.

(تعالوا إليَّ كُلُّكم؛ يا مَنْ تُعانون، وعندكم مُصاب، وأنا سأُعطيكم الرَّاحة). وبالنِّسبة لآخرين، هي مَجْدَلِيَن، ذات الزّهريَّة المشهورة المُمتلئة بالبلسم الشّافي. البدائيُّون يعرفون اسمها الحقيقي: (نُوتر دام دي كرُوس)[1].

إنَّ نتائج هذه الفقرة مُمتعة للغاية. إيسيس ـ بالطَّبع ـ هي الإلهة المصريَّة الأُمّ، راعية الألغاز ـ «المَلِكة البيضاء» في سماتها الخيِّرة، «المَلِكة السّوداء» في سماتها الحقودة. الكُتَّاب العديدون في علم الأساطير، وعلم الأجناس البشريَّة، وعلم النَّفْس، وعلم اللّاهُوت تتبّعوا طائفة الإلهة الأُمّ مُنْذُ الأوقات الوَثَنيَّة وحتَّىٰ العهد المسيحي. وطبقاً لهؤلاء الكُتَّاب؛ قيل بأنَّها نجت في الفترة المسيحيَّة بهيئة مَرْيَم العذراء ـ ملكة السّماء، كما دعاها القدِّيس بيرنارد، اسم وُضع في العهد القديم للإلهة الأُمّ عشتار، وهي المُكافئة لإيسيس عند الفينيقيِّين.

---

(1) (كاتدرائيَّة «نُوتر دام» (تعني سيِّدتنا)، تقع في قلب العاصمة باريس. كانت نموذجاً للكاتدرائيَّات القُوطيَّة الفرنسيَّة في العُصُور الوُسْطَىٰ. المُترجم).

لكنْ؛ وُفقاً للنَّصِّ في «الثُّعبان الأحمر» الإلهة الأُمّ المسيحيَّة لا تبدو أنَّها العذراء. بالعكس؛ هي تبدو مَجْدَلِيْن ـ التي كُرِّسَت لها الكَنيسَة في رين لُو شاتُو، والتي إليها كرَّس سُونير بُرجَهُ. علاوةً علىٰ ذلك؛ النَّصُّ يبدو بأنَّه يُشير ـ ضمنيَّاً ـ إلىٰ أنَّ «نُوتر دام» لا تُشير إلىٰ العذراء أيضاً؛ لأنَّ العُنوان الرَّنَّان ـ الذي مُنح لكُلِّ الكاتدرائيَّات العظيمة في فرنسا ـ يبدو ـ أيضاً ـ أنَّه للإشارة إلىٰ مَجْدَلِيْن.

ولكنْ؛ لماذا يجب أنْ تكون مَجْدَلِيْن مُحترمة كـ«سيِّدتنا» ـ والأكثر من ذلك، كآلهتنا الأُمّ؟!

الأُمُومة هي آخر شيء ارتبط بمَجْدَلِيْن عُمُوماً. في التَّقليد المسيحي الشَّعبي هي مُومس تخلَّصت من خطاياها بتعلُّمها علىٰ يد السَّيِّد المسيح. وتُصوَّر ـ بشكل ملحوظ جدَّاً ـ في الإنجيل الرَّابع؛ حيثُ إنَّها الشَّخص الأوَّل الذي يُشاهد السَّيِّد المسيح بعد الانبعاث.

في النَّتيجة؛ هي مُبجَّلة كقدِّيسة، خُصُوصاً في فرنسا؛ حيثُ ـ طبقاً للأساطير من القُرُون الوُسْطَىٰ ـ قيل بأنَّها جَلَبَتْ «الكَأسَ المُقَدَّسَة».

وفي الحقيقة؛ عبارة «زهريَّة مُمتلئة بالبلسم الشَّافي» ـ لرُبَّما ـ يُقصَد بها «الكَأس المُقَدَّسَة». ولكنَّ تقدِّيس مَجْدَلِيْن في المكان المحجوز ـ عادةً ـ للعذراء يبدو ـ علىٰ أقلِّ تقدير ـ هَرْطَقَة.

مهما كان قَصدهم، مُؤلِّفو «الثُّعبان الأحمر» ـ أو بالأحرىٰ، المُؤلِّفون المزعومون ـ واجهوا المصير المُرعب نفسه، الذي واجهه فخر الإسلام .في **6** مارس/ آذار عام **1967**، لويس سانت ماكسينت، وغاستن دُو كُوكير كانا قد شُنقا، وفي اليوم التَّالي، **7** مارس/ آذار، وُجد بيير فيغري مشنوقاً أيضاً.

بالطَّبع؛ أحدنا قد سيفترض ـ فوراً ـ بأنَّ هذه الوفيَّات ـ وبطريقة ما ـ ارتبطت بالتَّأليف والنَّشر العامِّ لكتاب الثُّعبان الأحمر.

كما في حالة فخر الإسلام ـ علىٰ أيَّة حال ـ لم نستطع الحُصُول علىٰ تفسير بديل. إنْ تمنَّىٰ أحدنا أنْ يُحدث هالة من لُغز شرِّير، سيكون ذلك الأمر سهلاً جدَّاً. ما عليه إلَّا أنْ يُمشِّط الصُّحُف واحدة تلو الأُخْرَىٰ، ويبحث عن قضيَّة موت مُريبة؛ أو في هذه الحالة، ثلاث وفيَّات مُريبة.

بعد الحادثة؛ يقوم المرء بإلحاق أسماء الموتىٰ إلىٰ كُتيِّب من إعداده الخاصّ. وبالتَّالي؛ يقوم بإيداعه في المكتبة الوَطَنيَّة؛ بتاريخ سابق للسّابع عشر من يناير/ كانون الثَّاني في صفحة العُنوان. سيكون ـ عَمَليّاً ـ من المُستحيل كشف مثل هذه الخدعة، والتي سينتج عنها التَّنويه المطلوب لجريمة قتل.

لكنْ؛ لماذا تُمارَس مثل هذه الخدعة علىٰ الإطلاق؟!

لماذا علىٰ أحدهم أنْ يحتاج الاستناد والاستشهاد بهالة من الرُّعب والقَتْل والإثارة؟!

مثل هذه الخدعة تُعيق المُحقِّقين بصُعُوبة. بالعكس؛ سوف لن تقوم إلَّا بجَذْبهم بشكل أكبر.

من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ إنْ لم نكن نتعامل مع خدعة، فمايزال هُناك وُجُود لعدد من الأسئلة المُحيِّرة.

هل كان علينا أنْ نعتقد ـ علىٰ سبيل المثال ـ بأنَّ الرِّجال المشنوقين الثَّلاثة قد انتحروا؟

أم أنَّهم ضحايا جريمة قَتْل؟!

الانتحار ـ في الظُّرُوف الحاليَّة ـ يبدو أمراً مُستبعداً وتافهاً. والقتل يبدو أكثر أهمِّيَّة. أحدنا يُمكنه أنْ يفهم أنَّ الأشخاص الثَّلاثة قُتلوا خشية أنْ يُبيحوا معلومات خطيرة مُؤكَّدة. لكنْ؛ في هذه الحالة، المعلومات كانت مَفْشيَّة، فهي أُودعت في المكتبة الوَطَنيَّة. هل عمليَّات القتل ـ إنْ كانت كذلك ـ هي شكل من أشكال العقاب؟ أو رُبَّما وسائل لمنع القيام بأيَّة أعمال طائشة مُستقبلاً؟ ولا أيّ من هذه التَّفسيرات هُو مُقنع. إذا أُغضب شَخْص ما بكشف معلومات مُعيَّنة، أو إذا رغب الشَّخص بإحباط عمليَّات الكشف الإضافيَّة، فإنَّ هذا الشَّخص سوف لن يجذب الانتباه إلىٰ المسألة بارتكاب جريمة ثُلاثيَّة بشعة، ومُدهشة، ما لم يكن الشَّخص واثقاً ـ إلىٰ حَدٍّ معقول ـ بأنَّه لن يكون هُناك تحقيق جادٌّ جدّاً.

مُغامراتنا الخاصَّة التي خُضناها أثناء تحقيقنا كانت مُتأثِّرة ـ قليلاً ـ بالرَّحمة، ومُحيِّرة علىٰ حدٍّ سواء. في بحثنا ـ علىٰ سبيل المثال ـ صادفنا إشارات مُتكرِّرة إلىٰ عمل من قِبَل أنطوان آيرمايت عُنوانه «Château_le_Un Trésor merovingien a Rennes» (كَنز ميرُوفنجي في رين لُو شاتُو).

حاولنا أنْ نُحدِّد مكان هذا العمل (الكتاب)، ووجدناه ـ بسُرعة ـ مُدرجاً في دليل المكتبة الوَطَنيَّة؛ ولكنَّه ثبت أنَّه من الصَّعب الحُصُول عليه. في كُلِّ يوم، ولِمُدَّة أُسبُوع، كُنَّا نذهب إلىٰ المكتبة، ونحصل علىٰ كُلِّ ما ينقص من الميكروفيشات الضَّروريَّة لعملنا.

في كُلِّ زيارة، الميكروفيش كان مُدوَّناً عليه عبارة «بيان صُحُفي» ؛ في إشارة إلىٰ أنَّ العمل كان مُستعملاً من قِبَل شَخْص آخر. لحَدِّ الآن، ذلك لم يكن شيئاً غير مُعتاد. ولكنْ؛ بعد أُسبُوعَيْن ـ علىٰ أيَّة حال ـ بدأ الأمر يُصبح غير عادي، ومُغضب أيضاً، لأنَّه لم يكن بإمكاننا البقاء لِمُدَّة أطول في باريس. طلبنا المُساعدة من أمين المكتبة. أخبرنا بأنَّ الكتاب سيكون مشغولاً لِمُدَّة ثلاثة شُهُور ـ حالة استثنائيَّة جدَّاً ـ وبأنَّنا لن نستطيع أنْ نطلبه قبل إعادته.

في إنكلترا، وبعد ذلك بفترة قصيرة، كان هُناك صديقة لنا أَخْبَرَتْنَا بأنَّها عازمة علىٰ الذَّهاب إلىٰ باريس لقضاء عُطلة. طلبنا منها مُحاولة الحُصُول علىٰ ذلك الكتاب المُراوغ لأنطوان آيرمايت، وعلىٰ أقلِّ تقدير؛ أنْ تُسجِّل مُلاحظة عن مُحتواه. طلبت الكتابَ من المكتبة الوَطَنيَّة في باريس، ولكنْ؛ حتَّىٰ الميكروفيش الذي قدَّمته لم يُرجَع إليها. في اليوم التَّالي؛ حاولت ثانية، ولكنْ؛ النَّتيجة نفسها.

عندما عُدنا إلىٰ باريس، بعد حوالي أربعة شُهُور، قُمنا بمُحاولة أُخرىٰ. الميكروفيش الذي قدَّمناه أُرجِع إلينا ثانية، مكتوب عليه «بيان صُحُفي». في هذه المرحلة؛ بدأنا نحسُّ بأنَّ اللُّعبة قد تمَّ المُبالغة فيها بعض الشَّيء، وبدأنا بنَسْج خُيُوط لُعبة خاصَّة بنا. نحنُ شَقَقْنَا طريقنا إلىٰ غُرفة الدَّليل في الأسفل، المُجاورة للرُّفُوف المُتراصَّة للكُتُب؛ والتي ـ بالطَّبع ـ من الصَّعب وُصُول العامَّة إليها. لنجد مُساعد المكتبة المُسنَّ والعطوف المظهر، وكُنَّا نُمثِّل دور السُّيَّاح الإنجليز بلُغة مُبعثرة أشبه بإنسان الكُهُوف القديم. طلبنا مُساعدته، وأوضحنا له بأنَّنا كُنَّا نُريد كتاباً مُعيَّناً، لكنَّنا لم نكن قادرين علىٰ الحُصُول عليه، لا شكَّ بسبب نَقْص فَهْمنا لإجراءات المكتبة المطلوبة.

وافق الرَّجل المُحترمُ اللَّطيف الكبير السِّنّ علىٰ المُساعدة. أعطيناه رَقْم الكتاب، واختفىٰ الرَّجل بين الأكوام. عندما ظهر، اعتذر، قائلاً بأنَّه ليس بمقدوره عمل شيء حيال الموضوع؛ الكتاب قد سُرق. والأكثر من ذلك، أضاف، مُواطنة من عندنا ـ علىٰ ما يبدو ـ هي المسؤولة عن السّرقة ؛ هي امرأة إنجليزيَّة. بعد بعض الإزعاج، وافق علىٰ إعطائنا اسمها. لقد كانت صديقتنا!

عند العودة إلىٰ إنجلترا ثانية، طلبنا مُساعدة المكتبة في لندن. وافقوا علىٰ النَّظَر في تلك القـضيَّة الغريبة. لمصلحتنا، كتبت المكتبة المركزيَّة الوَطَنيَّة إلىٰ المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة تطلب تفسيراً لما يبـدو إعاقة مُتعمَّدة للبحث الشَّرعي. لم يرد أيُّ تفسير منها.

علىٰ أيَّة حال، بعد فترة وجيزة، أُرسلت إلينا نُسخة زيروكس لكتاب من تأليف أنطوان آيرمايت، بُعثت أخيراً إلينا، بالإضافة إلىٰ أوامر توكيديَّة لإعادته فوراً. هذا ـ بحَدِّ ذاته ـ كان أمراً غريباً جدًّا؛ إذْ إنَّ المكتبات العامَّة لا تطلب ـ عُمُوماً ـ إعادة نُسخ من نوع زيروكس. فَنُسَخٌ من هذا النَّوع تُعتبر مُجرَّد ورق نفايات عادةً، ويتمُّ التَّخلُّص منها وُفقاً لذلك.

الكتاب ـ بعد أنْ أصبح أخيراً في أيدينا ـ أثبت ـ بوُضُوح ـ أنَّه مُخيِّب للآمال، وأنَّه من غير المُحتمل أنَّه يستحقُّ العناء الكبير والمُعقَّد للحُصُول عليه. مثل كتاب مُجَدَلِيْن للكاتب بلانكاسال، كان يحمل خَتْم «محفل ألبينا السُّويسري العظيم». لكنَّه لم يتحدَّث عن أيِّ شيء جديد.

باختصار شديد؛ لَخَّص ذلك الكتابُ تاريخَ مُقاطعة ريزس، وقرية رين لُو شاتُو، وسُونير. باختصار؛ أعاد قَوْلَبَة كُلِّ التَّفاصيل، التي كُنَّا ـ لفترة طويلة ـ مُطَّلعين عليها. بدا أنَّه ليس هُناك أيُّ سبب يُمكن تخيُّله، لماذا شَخْص ما سيستعمله ويحتفظ به لأكثر من أُسبُوع، ولم يبدُ هُناك أيُّ سبب يُمكن تخيُّله؛ لكي يتمَّ حَجْبُهُ عنَّا؟. لكنَّ الأكثر حيرة من كُلِّ ذلك، الكتاب ـ بحَدِّ ذاته ـ لم يكن الأصلي؛ باستثناء بضع كلمات تمَّ تعديلها، هُنا، وهُناك، كان الكتاب نصَّاً حرفيَّاً، عُدِّل، وأُعيدَتْ طباعته، عن فصل من أحد الكُتُب الشّعبيَّة ذات الغلاف الورقي، والتي من السّهل أنْ تكون من الأكثر رواجاً، وتُباع في أكشاك بيع الصُّحُف ببضع فرنكات، وتتحدَّث عن الكُنُوز المفقودة في كافَّة أنحاء العالم. إمَّا أنطوان آيرمايت سرق ـ بوقاحة ـ ذلك الكتاب المنشور، أو أنَّ الكتاب المنشور سرق أنطوان آيرمايت.

مثل هذه الحوادث مثاليَّة للحَيْرَة التي تلفُّ الأعمال الأدبيَّة، التي مُنْذُ عام **1956**، تظهر جُزءاً تلو الآخر في فرنسا. صادف الباحثون الآخرون ألغازاً مُماثلة. بعض الأسماء المزعومة المقبولة أثبتت أنَّها كانت أسماء مُستعارة. العناوين ـ بما في ذلك عناوين دُور النَّشر والمُنظَّمات ـ أثبتت أنَّها غير موجودة. المراجع التي استشهدت بها الكُتُب لا أحد ـ علىٰ حَدِّ

علمنا ـ رآها من قبلُ. الوثائق اختفت، أو عُدِّلت، أو بشكل غير قابل للتَّوضيح تمَّتْ فَهْرَسَتُهَا بطريقة مُشوَّشة في المكتبة الوَطَنِيَّة الفرنسيَّة.

أحياناً؛ المرء قد يشكُّ بأنَّ ذلك نُكتة عمليَّة. إنْ كان الأمر كذلك ـ علىٰ أيَّة حال ـ فإنَّها نُكتة عمليَّة علىٰ مقياس هائل، تتضمَّن صفَّاً رائعاً من المصادر الماليَّة، وما عدا ذلك. ومَنْ قد يُمارس مثل هذه النُّكتة يبدو أنَّه ـ في الحقيقة ـ يعتبرها بجدِّيَّة كبيرة.

في تلك الأثناء؛ مادَّة جديدة[1] واصلت الظُّهُور، تتحدَّث عن المواضيع المألوفة التَّكراريَّة؛ مثل النَّزعات المُتكرِّرة ـ سُونير، رين لُو شاتُو، بُوسَّان، صُورة «Les Bergers d'Arcadie»، فُرسان الهَيكَل، داغُوبرت الثَّاني، سُلالة الميرُوفنجيِّين. التَّلميحات إلىٰ زراعة العنب ـ تطعيم الكُرُوم ـ تظهر بوُضُوح، رُبَّما ببعض الإحساس المجازي. وفي الوقت ذاته؛ يتمُّ إضافة المزيد والمزيد من المعلومات.

إنّ تعريف هنري لُوبينُو علىٰ أنّه كُونت لينُونكُورت هُو أحد الأمثلة. وهُناك زيادة غير مُوضَّحة في التَّركيز علىٰ أهمِّيَّة مُجدَلِيْن. وهُناك تشديد مُتزايد في موقعَيْن آخرَيْن، قد تبدو ـ الآن ـ منزلتها مُتعادلة ـ علىٰ ما يبدو ـ مع رين لُو شاتُو. أحد هذَيْن الموقعَيْن هُو جزُورز، وهي قلعة في نُورماندي، كان لها من أهمِّيَّة استراتيجيَّة وسياسيَّة حيويَّة في قمَّة الحملات الصَّليبيَّة. الموقع الآخر هُو ستيناي، كان تُدعىٰ ـ مرَّة ـ ساتانيكُوم، علىٰ حافَّة الآردن ـ العاصمة القديمة لسُلالة الميرُوفنجيِّين، قُرب المكان الذي اغتيل فيه داغُوبرت الثَّاني عام 679.

مجموعة المادَّة المُتوفِّرة ـ الآن ـ لا يُمكن مُراجعتها، أو مُناقشتها، بشكل كاف، في هذه الصَّفحات. إنَّها كثيفة جدَّاً، ومُشوَّشة جدَّاً، ومُنقطعة جدَّاً، والأهمُّ من ذلك؛ غزيرة جدَّاً. ولكنْ؛ من الانتشار العشوائي الدَّائم للمعلومات تظهر بعض النّقاط الرَّئيسة، التي تُشكِّل أساساً لبحث آخر. تلك النّقاط تُقدِّم حقيقة تاريخيَّة غير قابلة للنِّقاش، ويُمكن تلخيصها بما يلي:

1) كان هُناك نظام سرِّيٌّ وراء فُرسان الهَيكَل، والذي أنشأ فُرسان الهَيكَل كذراعه العَسْكَريّ والإداريّ. هذا النِّظام ـ الذي عمل تحت عدَّة أسماء ـ يُعرَف كثيراً باسم «Prieuré de Sion»، «The Priory Of Sion» (دَيْر صهيُون).

(1) (أيْ عمل أدبي. المُترجم).

2) دَيْر صهيُون كان مُوجَّهاً من قِبَل سلسلة من الأسياد العظام، الذين أسماؤهم هي من بين الأسماء الأكثر شُهرَة في التَّاريخ والثَّقافة الغربيَّة.

3) بالرّغم من أنَّ فُرسان الهَيكَل أُبيدوا بين عامَيْ 1307 و 1314، إلَّا أنَّ دَيْر صهيُون بقي سليماً. بالرّغم من أنَّه ـ بذاته ـ تمزَّق ـ بشكل دوري ـ نتيجة النِّزاعات الحزبيَّة والمُميتة، إلَّا أنَّه واصل العمل علىٰ مَرِّ القُرُون. عاملاً وراء الكواليس، وبالسِّرِّ، قام بتنظيم سلسلة من الأحداث الحرجة المُعيَّنة في التَّاريخ الغربي.

4) دَيْر صهيُون مايزال موجوداً إلىٰ يومنا هذا، ومايزال يعمل. يلعب دور مُؤثِّر في الشُّؤُون الدّوليَّة العالية المُستوىٰ، وكذلك في الشُّؤُون الدَّاخليَّة لبعض البُلدان الأُورُوبيَّة. إلىٰ درجة من الأهمِّيَّة؛ إنَّه هُو المسؤول عن مجموعة المعلومات التي نُشرت مُنْذُ 1956.

5) الهدف المُقرّ والمُعلَن لدَيْر صهيُون هُو إعادة سُلالة النَّسَب والحُكْم للميرُوفنجيِّيْن، ليس ـ فقط ـ بالنِّسبة لعرش فرنسا، بل لعُرُوش الدُّول الأُورُوبيَّة الأُخْرَىٰ أيضاً.

6) إعادة سُلالة الميرُوفنجيِّيْن مُقرَّة ومُبرَّرة، قانونيَّاً، وأدبيَّاً. بالرّغم من أنَّها خُلعَتْ في القرن الثَّامن، إلَّا أنَّ الميرُوفنجيِّيْن سُلالة لم تنقرض بعدُ. بالعكس، خلَّدت نفسها بخطٍّ مُباشر من داغُوبرت الثَّاني، وابنه سيجِس بيرت الرَّابع. نتيجة التَّحالفات السُّلاليَّة والتَّزاوُج المُتبادل اشتملت هذه السُّلالة علىٰ غُودفرُوي دُو بلُويُون، الذي أُسر في القُدْس في عام 1099، وعائلات مُختلفة مَلَكيَّة ونبيلة أُخرىٰ، قديمة وحديثة ـ بلانتشفُورت، جيزرز، سانتكلير (سينكلير في إنجلترا)، مُونتسكيُو، مُونتبيزات، بُوهير، لويسغنان، بلانتارد، هابسبرغلُورين. في الوقت الحاضر؛ سُلالة الميرُوفنجيِّيْن تتمتَّع بتشريع المُطالبة بتُراثها الشَّرْعي.

هُنا؛ ومن خلال المدعو دَيْر صهيُون «Prieuré de Sion» علمنا أنَّه الشَّرح المُناسب والمُمكن لكلمة «صهيُون»، التي كانت موجودة في المَخْطُوطَات التي وجدها سُونير. هُنا ـ أيضاً ـ كان التَّفسير الواضح للتَّوقيع المُحيِّر «P.S». الذي ظهر علىٰ إحدىٰ تلك المَخْطُوطَات، وعلىٰ شاهدة قَبْر ماري دُو بلانتشفُورت.

علىٰ الرّغم من هـذا، نحـنُ كُنَّـا مُـشكّكين جـدًّا، كـأكثر النَّـاس، حـول «نظريَّـات المُـؤامرة التَّاريخيَّة»؛ وأغلب المزاعم صَدَمَتْنَا بأنَّها من المُمكن أنْ تكون غير ذات علاقـة، و/ أو سـخيفة. لكـنَّ الحقيقة بقيت بأنَّ بعض النَّاس كانوا ينشرونها، ويعملون ذلك بجدِّيَّة تامَّة ـ بجدِّيَّة تامَّة (وكان هُنـاك سبب للاعتقاد) ومن مواقع سُلطة كبيرة. ومهما كانت حقيقة المزاعم، هي أوصلت ـ بشكل واضـح، وبطريقة ما ـ اللُّغز الذي كان يُحيط بسُونير وقرية رين لُو شاتُو.

لذا؛ بدأنا بفَحْص مُنظَّم للشَّيء الذي بدأنا بتـسميته ـ بـتهكُّم ـ بـ«وثـائق الـدَّيْر» (أو وثـائق بريير)، وللمزاعم التي تحتويها. حاولنـا أنْ نُخـضع هـذه المـزاعم لفَحْـص حـذر، وأنْ نُقـرِّر سـواء بالإمكان إثباتها بـأيِّ حـال مـن الأحـوال. عملنـا ذلـك بـتهكُّم، وبـشكٍّ سـاخر تقريبـاً، مُقتنعـين ـ تماماً ـ بأنَّ تلك الادِّعاءات الغريبة سوف تتلاشىٰ تحت عمليَّة التَّحقيـق الـسّريعة. بـالرّغم مـن أنّنـا لم نستطعْ أنْ نعرف ذلك آنذاك، إلَّا أنَّنا كُنَّا مُفاجَئين جدًّا.

الجُزء الثَّاني

المُجتمع السّرّيُّ

5

النِّظام خلف الكواليس

توقَّعنا وُجُود مجموعة من الأفراد، هذا؛ إنْ لم يكن «نظاماً» مُتماسكاً، تدعم فُرسان الهَيكَل. الادِّعاء القائل بأنَّ الهَيكَل أُنشئ من قِبَل دَيْر صهيُون بدا أكثر تصديقاً من المزاعم الأُخرَىٰ التي وردت في «وثائق الدَّيْر». انطلاقاً من هذا الادِّعاء، لذا؛ بدأنا دراستنا.

بحُدُود عام **1962**؛ دَيْر صهيُون كان قد ذُكر ـ بشكل مُختصر وغامض وسريع ـ في كتاب من تأليف جيرارد دُو سيد. علىٰ أيّة حال، المرجع المُفصَّل الأوَّل الذي وجدناه والمُتعلِّق بذلك الكتاب كان صفحة وحيدة في الملفَّات السِّرِّيَّة. في بداية هذه الصّفحة هُناك فقرة مُقتطفة من رينيه غراوسيت، أحد المراجع الأُولىٰ في القرن العشرين حول الحملات الصَّليبيَّة، والذي تأليفه الضّخم حول الموضوع، الذي نُشر في الثَّلاثينات، يُعدُّ عملاً مُؤثِّراً ومحوريّاً للمُؤرِّخين الحديثين؛ أمثال السِّير ستيفن رُونسيمان.

تُشير الفقرة المُقتبسة إلىٰ أنَّ بُودوين الأوَّل، هُو الأخُّ الأصغر لـ«غُودفرُوي دُو بليُون»، دُوق لُورين وفاتح الأرض المُقدَّسَة.

بعد موت غُودفرُوي، بُودوين قبل التَّاجَ الذي عُرض عليه. وبذلك؛ أصبح الملك الرَّسمي الأوَّل للقُدْس. طبقاً لرينيه غراوسيت؛ إنَّه تمَّ خَلْق «تقليد مَلَكي»، وذلك من قِبَل بُودوين الأوَّل. ولأنَّه «أُسِّس علىٰ صخرة صهيُون»، هذا التَّقليد كان «نظيراً» للسُّلالات السَّائدة في أُورُوبا؛ سُلالة كابيشان من فرنسا، وأنغلو- نُورمان (البلانتاجينَت)[1]، سُلالة إنجلترا، سلالات هُوهَنْزتُوفِّين

(1) (البلانتاجينَت: الأُسرة المالكة التي حكمت إنكلترا من عام 1154 ـ 1485. المُترجم).

وهابسبرغ التي ترأَّست ألمانيا والإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة القديمة. لكنَّ بُودوين وأحفاده انتُخبوا كمُلُوك، ليس مُلُوكاً بالدَّم.

إذاً، لماذا يجب أنْ يتكلَّم غراوسيت عن «التَّقليد المَلَكي» الذي «نشأ» من خلاله؟! غراوسيت نفسه لا يُوضِّح ذلك، ولا يُوضِّح لماذا هذا التَّقليد؛ لأنَّه «أُسِّس علىٰ صخرة صهيُون»، يجب أنْ يكون «مُساوياً» للسُّلالات الأُولىٰ لأُورُوبا.

بعد اقتباس غراوسيت الموجود في تلك الصّفحة في الملفَّات السِّرِّيَّة هُناك إشارة إلىٰ دَيْر صهيُون الغامض ـ أو نظام صهيُون كما يبدو أنَّه كان يُسمَّىٰ في وقت ما.

وُفقاً للنَّصِّ، نظام صهيُون أُسِّس من قِبَل غُودفرُوي دُو بلُويُون في عام **1090**، تسع سنوات قبل غزو القُدْس؛ بالرّغم من أنَّ هُناك «وثائق الدَّيْر» الأُخْرَىٰ تذكر أنَّ تاريخ التَّأسيس هُو **1099**.

وُفقاً للنَّصِّ، بُودوين، أخُ غُودفرُوي الأصغر، «يدين بعرشه» للنِّظام.

ووُفقاً للنَّصِّ، الإقامة الرَّسْميَّة، أو «المقرّ الرَّئيس» للنِّظام كان دَيْراً مُعيَّناً ـ هُو دَيْر نُوتر دام دُو مُونت دُو صهيُون في القُدْس (**Abbey of Notre Dame du Mont de Sion**)، أو رُبَّما خارج القُدْس ـ علىٰ جبل صهيُون، وهُو «تلٌّ عالٍ مشهور» تماماً جنوب المدينة.

لدىٰ استشارتنا لكُلِّ أعمال القرن العشرين القياسيَّة المُتعلِّقة بالحملات الصَّليبيَّة، لم نجد أيَّة إشارة من أيِّ نوع لنظام يُدعَىٰ نظام صهيُون. لذلك؛ شرعنا ببرهنة سواء وُجد ذلك النِّظام، أم لم يكن موجوداً، وسواء كان لديه القُوَّة الكافية ليمنح العُرُوش المَلَكيَّة. للقيام بذلك تطلَّب الأمر منَّا أنْ نقوم بالتَّفتيش في حزم وأكوام الوثائق والمُستندات ذات الصِّلة. نحنُ لم نبحث ـ فقط ـ عن دلائل واضحة عن النِّظام، بل أردنا ـ أيضاً ـ بعض الإشارات إلىٰ مدىٰ تأثيره المُحتمل، وإلىٰ نشاطاته. وحاولنا التَّأكُّد سواء كان أم لم يكن هُناك دَيْر يُدعىٰ «نُوتر دام دُو مُونت دُو صهيُون».

إلىٰ الجنوب من القُدْس؛ يلوح هُناك التَّلُّ العالي لجبل صهيُون. في عام **1099**، عندما سَقَطَتْ القُدْس بيد صليبيِّيْ غُودفرُوي دُو بلُويُون، كان يُوجد هُناك علىٰ هذا التَّلِّ خراب كَنيسَة بيزنطيَّة قديمة، يُفترَض أنَّ تاريخها يعود إلىٰ القرن الرَّابع، وكانت تُدعىٰ أُمّ الكَنائس كُلّها؛ أعظم اسم رنَّان.

طبقاً للمواثيق العديدة الموجودة، والسِّجلَّات، والشَّخصيَّات المُعاصرة؛ بُني الدَّيْر علىٰ موقع ذلك الخراب. بُني سريعاً تحت أمرة غُودفرُوي دُو بلُويُون. لابُدَّ وأنَّه كان صرحاً بارزاً، وكان موطناً مُكتفياً ذاتيَّاً للجماعة.

طبقاً لأحد المُؤرِّخين، كَتَبَ عام 1172؛ أنَّ ذلك البناء كان مُحصَّناً بشكل جيِّد جدَّاً، وله حيطانه الخاصَّة، وأبراجه، وشُرفاته. وهذا البناء العظيم كان يُدعىٰ «دَيْر نُوتر دام دُو مُونت دُو صهيُون».

من الواضح أنَّه لابُدَّ لشَخْص ما أنْ يسكن في تلك المباني. هل يُمكن أنْ يكونوا «نظاماً مُستقلاً ذاتيَّاً»، أخذ اسمه من الموقع نفسه؟!

هل قاطنو الدَّيْر ـ في الحقيقة ـ يُمكن أنْ يكونوا نظام صهيُون؟!

ليس من المُستحيل افتراض ذلك. الفُرسان والرُّهبان الذي احتلُّوا كَنيسَة الضَّريح المُقَدَّس، والذين عُيِّنوا ـ أيضاً ـ من قِبَل غُودفرُوي، كانوا قد شكَّلوا ووُحِّدُوا في «نظام» مُستحقّ ومُؤسّس «نظام الضَّريح المُقَدَّس».

المبدأ نفسه ـ لرُبَّما ـ حصل عليه شاغلو الدَّيْر في جبل صهيُون، ويبدو أنَّهم ـ فعلاً ـ قاموا بذلك.

طبقاً لخبير بارز في القرن التَّاسع عشر في هذا الموضوع؛ الدَّيْر «سُكن من قِبَل مجموعة رُهبان أغُسْطينيِّين[1]، كُلِّفوا بخدمة الأماكن المُقَدَّسة تحت إشراف رئيس الدَّيْر. تلك الجماعة اتَّخذت اسم مُضاعفاً «Esprit_Marie du Mont Syon et du Saint_Sainte» ».

مُؤرِّخ آخر، كَتَبَ عام 1698، كان أكثر وُضُوحاً: «كان هُناك في القُدْس ـ أثناء الحملات الصَّليبيَّة... ـ فُرسان يتبعون لدَيْر نُوتر دام صهيُون، الذي أخذ اسم «فُرسان نظام نُوتر دام صهيُون»».

إنْ لم يكن ذلك التَّأكيد كافياً، اكتشفنا ـ أيضاً ـ وثائق في الفترة، وثائق أصليَّة ـ تحمل الخَتْمَ والتَّوقيع من واحد، أو أكثر، من رُؤساء الكَهَنَة لنُوتر دام صهيُون.

---

(1) (أغُسْطينيّ؛ مُتعلِّق بالقدِّيس أغُسْطين (354ـ430 ب.م)، أو بتعاليمه، أو بأيٍّ من الرَّهبنات المُنتسبة إليه. المُترجم).

هُناك صَكٌّ ـ علىٰ سبيل المثال ـ مُوقَّع من قِبَل رئيس الكَهَنَة أرنادلُوس، ويعـود تاريخـه إلىٰ 19 يُوليُو/ تمُّوز من عام 1116.

في صَكٍّ آخر، مُؤرَّخ في الثَّاني من مايو/ مايس لعام 1125، يظهر اسم أرنادلُوس مُرتبطـاً مـع اسم هيُوغز دُو باين، السَّيِّد الأعظم الأوَّل للهَيكَل.

حتَّىٰ الآن «وثائق الدَّيْر» أُثبت أنَّها صحيحة، ويُمكننا أنْ نُؤكِّد بأنّ نظام صهيُون وُجد ـ تماماً ـ مع بداية القرن الثَّاني عشر. سواء شُـكِّل النِّظـام ـ تمامـاً ـ في ذلـك الوقـت أم لا، بقـي ذلـك الـسُّؤال مطروحاً. ليس هُناك تأكيد علىٰ حقيقة مَنْ نشأ أوَّلاً، النِّظام أم المباني التـي سـكن فيهـا أعـضاء ذلـك النِّظام. السِّيستيريُّون ـ علىٰ سبيل المثال ـ اشتقُّوا اسمهم من مكان مُعيَّن، «سيتوكس»[1]، من النَّاحيـة الأُخْرَىٰ، الفرانسيسكانيُّون «Franciscans»، والبنـدكتيُّون «Benedjctines» ـــ للاستـشهاد بمثـالَيْن فقط ـ اشتقّوا أسماءهم من أشخاص، علىٰ الرّغم مـن أنّهـم سـكنوا ونـشؤوا في أمـاكن مُهمَّـة كـانوا السَّبَّاقين إليها[2].

وبالتَّالي؛ أكثر ما يُمكننا قوله، إنَّ دَيْراً وُجد عام 1100، وأسكن نظاماً له الاسم نفسه، ذلـك النِّظام الذي ـ لرُبَّما ـ يكون قد أُسِّس في وقت سابق.

«وثائق الدَّيْر» تُشير ـ ضمنيّاً ـ إلىٰ أنَّه ـ في الحقيقة ـ كان الأمر كذلك، وهُناك بعـض البراهـين ليتمَّ اقتراحها، ولو أنَّها مُبهمة، وغير مُباشرة. يُعرَف بأنَّه في عام 1070، 29 سنة قبل الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ، فرقة مُعيَّنة من الرُّهبان من كلابريا في جنوب إيطاليا وصلت إلىٰ جوار غابة آردينيه، والتي هي جُزء مُقاطعات غُودفرُوي دُو بلُويُون. طبقاً لـ«جيرارد دُو سيد»؛ هذه الفرقة من الرُّهبان كانت تحـت قيادة شَخْص يُسمَّىٰ أُرسُوس ـ اسم تربطه «وثائق الدَّيْر» مُباشرة بسُلالة الميرُوفيِّين. عند وُصُولهم إلىٰ آردينيه، حصل رُهبان كلابريـا عـلىٰ رعايـة ماثيلـد دُو تُوسـكان، دُوقـة لُـورين ـ التـي كانـت عمَّـة غُودفرُوي دُو بلُويُون، وفي الواقع، أُمّه بالرّضاعة.

---

(1) (منطقة إلىٰ الجنوب الشَّرقي من ديجُون في فرنسا، المُترجم).
(2) (ولم يعتمدوا اسم المكان، بل أشخاصاً قد يكونون المُؤسِّسين مثلاً. المُترجم).

من ماثيلد، الرُّهبان استلموا منطقة من الأرض في أُورفال، ليست بعيدة عن ستيناي؛ حيثُ داغُوبرت الثَّاني اغتيل قبل حوالي خمسمئة سنة. هُنا؛ أُسِّس دَيْر لإسكانهم. علىٰ الرّغم من هـذا، هُـم لم يبقوا في أُورفال لُمدَّة طويلة جدّاً. بحُلُول عام 1108، اختفوا بشكل غامض، وليس هُناك سجلَّات عن مكان عيشهم. الرِّواية تقول بأنَّهم عادوا إلىٰ كلابريا. أُورفال، بحُلُول عام 1131، كان قد أصبحت إحدىٰ الإقطاعيَّات التي يمتلكها القدِّيس بيرنارد.

قبل مُغادرتهم من أُورفال ـ علىٰ أيّة حال ـ رُهبان كلابريا ـ لـرُبَّما ـ تركوا علامة حاسمة في التَّاريخ الغربي. طبقاً لـ«جيرارد دُو سيد»؛ إنَّهم ـ علىٰ الأقلِّ ـ تضمَّنوا الرَّجل الذي كان يُعـرَف ـ بعد ذلك ـ بـ«النَّاسك بُطرُس». إذا كان الأمر كذلك، فإنَّ ذلك مُهمٌّ جـدَّاً، لأنَّـه يُعتقَد ـ في أغلب الأحيان ـ أنَّ بُطرُس النَّاسك هُو مُعلِّم غُودفرُوي دُو بلُويُون الشَّخصي[1]، وذلك لم يكن سَعْيه الوحيد للشُّهرة.

في عام 1095، سويَّة مع البَابَا أُوربان الثَّاني، بُطرُس جعل نفسه معروفاً في كافَّة أنحاء المسيحيَّة عبر عظاته الفاتنة في الحاجة لحملة صليبيَّة ـ الجهاد المُقدَّس الذي سيستردُّ قَبْر السَّيِّد المسيح والأرض المُقدَّسَة من أيدي الكُفَّار المُسلمين. اليوم؛ بُطرُس النَّاسك يُعدُّ أحد المُحرِّضين الرَّئيسيِّيْن للحملات الصَّليبيَّة.

علىٰ أساس إشارات أُلمح إليها في «وثائق الدَّيْر» بدأنا بالتَّساؤل سواء أنّه قد كان هُناك نوع من التَّواصل الغامض بين رُهبان أُورفال وبُطرُس النَّاسك ونظام صهيُون. يبدو بأنَّ الرُّهبان في أُورفال لم يكونوا مُجرَّد فرقة عشوائيَّة من المُتجوِّلين المُحبِّين للدِّين. بالعكس؛ حَرَكَاتهم، وُصُولهم الجماعي إلىٰ آردينيه من كلابريا، واختفاؤهم الكُلِّيُّ الغامض، يشهد علىٰ نوع من التَّماسُك، نوع من التَّنظيم، ورُبَّما قاعدة دائمة في مكان ما. وإنْ كان بُطرُس عُضواً في فرقة الرُّهبان هذه، فإنَّ خُطبه وعظاته التي تُحرِّض علىٰ الحملة الصَّليبيَّة ـ لرُبَّما ـ كانت لهدف ما، هدف ليس ناتجاً عن التَّعصُّب الشديد، بل عن سياسة مدروسة.

---

(1) (يُزعَم بأنَّ بُطرُس قبل أنْ يُصبح راهباً كان نبيلاً من درجة مُنخفضة، يمتلك إقطاعيَّة قُرب قُرب أميان، وكان تابعاً ليُوستاش دُو بُولُوجن، والد غُودفرُوي. علىٰ أيّة حال؛ هاجينميير لا يقبل بأنَّ بُطرُس كان مُعلِّم غُودفرُوي. من الواضح أنَّ بُطرُس كان يتمتَّع بهيبة كبيرة؛ لأنَّه بعد أنْ أخذ القُدْس، بدأ الجيشُ الصَّليبيُّ بحَمْلة جديدة، تاركاً بُطرُس مسؤولاً عن المدينة. المُؤلِّفون).

علاوةً علىٰ ذلك؛ إنْ هُو كان مُعلِّم غُودفرُوي الشَّخصي، فلرُبَّما لعب دوراً ما في إقناع تلميذه بالمُباشرة للأرض المُقدَّسَة. وحتَّىٰ عندما الرُّهبان اختفوا من أُورفال، رُبَّما لم يكونوا قد عادُوا إلىٰ كلابريا. هُم ـ لرُبَّما ـ أسَّسوا أنفسهم في القُدْس، رُبَّما في دَيْر نُوتر دام دُو صهيُون.

هذا ـ بالطَّبع ـ كان مُجرَّد فَرَضيَّة تخمينيَّة، بدُون تأكيد وثائقي. مرَّة أُخرىٰ ـ علىٰ أيَّة حال ـ وجدنا ـ بسُرعة ـ بعض الأدلَّة التَّفصيليَّة لدَعْم تلك الفَرَضيَّة. عندما غُودفرُوي دُو بلُويُون ذهب للأرض المُقدَّسَة، من المعروف بأنَّه يصطحب حاشية من شَخْصيَّات مجهولة كانت تعمل كمُستشارين ومُدبرين، والتي تُضاهي ـ في الواقع ـ الأركان العامَّة الحديثة. لكنَّ جيش غُودفرُوي لم يكن الجيش المسيحي الوحيد الذي زحف إلىٰ فلسطين، كان هُناك ما لا يقلُّ عن ثلاثة جُيُوش أُخرىٰ، كُلٌّ منها تحت قيادة ملك غربي شهير، وذي نُفُوذ.

إنْ أثبتت الحملة الصَّليبيَّة نجاحها، وإنْ سَقَطَتْ القُدْس، وتمَّ تأسيس مملكة فرنجيَّة، فأيُّ واحد من هؤلاء المُلُوك الأربعة كان يُمكن أنْ يكون مُؤهَّلاً لتولِّي العَرْش. ومع ذلك؛ يبدو أنَّ غُودفرُوي كان يُعرَف سَلَفَاً بأنَّه هُو المُختار. وحده من بين القادة الأُورُوبيِّيْن، هجر إقطاعيَّاته، وباع كُلَّ سلعه، وجعل الأمر ظاهراً أنَّه سيجعل الأرض المُقدَّسَة، لمدىٰ حياته، ستكون موطنه.

في **1099**، فوراً بعد أَسْر القُدْس، مجموعة من الشَّخصيَّات المجهولة اجتمعوا سرَّاً في اجتماع سرِّيٍّ. هُويَّة هذه المجموعة تملَّصت من كُلِّ التَّحقيقات التَّاريخيَّة، بالرّغم من أنَّ غليُوم، الذي كَتَبَ لثلاثة أرباع قرن بعد تلك الفترة، أخبر بأنَّ الشَّخصيَّة الأهمَّ بينهم كان «أُسقُفاً ما من كلابريا[1]».

(1) (هذا الأُسقُف نفسه من كلابريا كان صديقاً لشَخْص يُدعَىٰ أرنُولف، وهُو قسٌّ من درجة مُنخفضة جدَّاً، والذي انتُخب لاحقاً بمُساعدة الأُسقُف ليكون البطريرك اللَّاتيني الأوَّل للقُدْس! مجموعة غريبة نجت من الحملة الصَّليبيَّة السَّابقة تُدعَىٰ «الطّافوريِّيْن» (Tafurs)، الذين اكتسبوا سُمعة سيِّئة كبيرة عندما اتُّهم بعض أعضائها بأكْل لُحوم البشر. هذه المجموعة كان فيها «كُلِّيَّة» داخليَّة يترأَّسها الملك طافور. السِّجلَّات المُعاصرة تُظهر الملك طافور كرجل مهيب؛ لدرجة أنَّه حتَّىٰ أُمراء الحملة الصَّليبيَّة كانوا يُعاملونه بتواضع ووقار أيضاً. يُقال إنَّ الملك طافور هُو الذي قام بتتويج غُودفرُوي دُو بلُويُون. علاوةً علىٰ ذلك؛ يُقال إنَّ الملك طافور مُرتبط ببُطرُس النَّاسك. هل من المُمكن أنَّ هذه المجموعة الدَّاخليَّة، والملك، كانوا المُمثِّلين من كلابريا؟! المُؤلِّفون).

في أيِّ حال من الأحوال؛ غرض الاجتماع السِّرِّيِّ كان واضحاً؛ لانتخاب ملك القُدْس. وعلىٰ الرّغم من الادِّعاء المُقنع من قِبَل رايموند، كُونت تُولُوز، النَّاخبون الغامضون والمُؤثِّرون جدّاً عرضوا ـ مُباشرة ـ العَرْش علىٰ غُودفرُوي دُو بلُويُون. بالتَّواضع غير المعهود؛ غُودفرُوي تجنَّب ذلك اللَّقَب، ليقبل بدلاً من ذلك بلقب «المُدافع عن الضَّريح المُقَدَّس». بكلمة أُخرىٰ؛ هُو كان مَلكاً في كُلِّ شيء ما عدا اللَّقَب. وعندما مات، في عام **1100**، أخوه، بُودوين، لم يتردَّد في قبول ذلك اللَّقَب أيضاً.

هل الاجتماع السِّرِّيُّ الغامض الذي انتَخَبَ حاكم غُودفرُوي كان يُمكن أنْ يكون للرُّهبان المُراوغين من أُورفال، رُبَّما بُطرُس النَّاسك معهم أيضاً، والذي كان في الأرض المُقَدَّسة ـ آنذاك ـ ويتمتَّع بالسُّلطة الكبيرة؟!

وهل أعضاء هذا الاجتماع السِّرِّيِّ أنفسهم ـ رُبَّما ـ كانوا سُكَّان الدَّيْر في جبل صهيُون؟!

باختصار؛ هل يُمكن أنْ تكون تلك المجموعات المُتميِّزة الثَّلاثة من الأشخاص ـ الرُّهبان من أُورفال، الاجتماع السِّرِّيّ الذي انتَخَبَ غُودفرُوي، وسُكَّان دَيْر صهيُون ـ هُم الأشخاص أنفسهم؟

الإمكانيَّة لا يُمكن أنْ تثبت، وبالوقت نفسه، لا يُمكن استبعادها عن الحقيقة. إنْ كان ذلك حقيقيّاً، فذلك يشهد علىٰ قُوَّة سَلَكَة نظام صهيُون ـ الذي كان له الحقُّ في مَنْح العُرُوش.

اللُّغز المُحيط بتأسيس فُرسان الهَيكَل

النَّصُّ في الملفَّات السِّرِّيَّة يستمرُّ في الإشارة إلىٰ نظام الهَيكَل. إنَّ مُؤسِّسي الهَيكَل يُدرَجُون ـ بشكل مُحَدَّد ـ بأنَّهم «هيُوغز دُو باين، القدِّيس عُمر بيسول، هيُوغز (كُونت شمبانيا)، بالإضافة إلىٰ بعض أعضاء نظام صهيُون، أندريه دُو مُونتبارد، القدِّيس ايغنان أرشامبُود، نيفارد دُو مُونتيدير، غُونديار، رُوسال».

نحنُ كُنَّا علىٰ علْم بهيُوغز دُو باين، وأندريه دُو مُونتبارد، عمّ القدِّيس بيرنارد. كُنَّا علىٰ علْم ـ أيضاً ـ بهيُوغز (كُونت شمبانيا) ـ الذي تبرَّع بالأرض لدَيْر القدِّيس بيرنارد في كليرفُوكس، وأصبح بنفسه من فُرسان الهَيكَل عام **1124** (تعهَّد بالولاء لمُقْطَعه[1] الخاصّ، واستلم من أُسقُف شارتر الرِّسالة التي استُشهد بها في الفصل الثَّالث. ولكنْ؛ بالرّغم من أنَّ اتِّصال كُونت شمبانيا مع فُرسان الهَيكَل كان مشهوراً، لم يسبق لنا أنْ رأينا أنَّه قد أُشير إليه كأحد مُؤسِّسيهم. في الملفَّات السِّرِّيَّة هُو كذلك. وأندريه دُو مُونتبارد، عمّ القدِّيس بيرنارد الغامض، مُدرج علىٰ أنَّه يعود لنظام صهيُون، بكلمة أُخرىٰ؛ إلىٰ النِّظام الآخر، الذي سبق تأسيسه نظام الهَيكَل، ويلعب دوراً فعَّالاً في تأسيس نظام الهَيكَل.

ناهيكَ عن ذلك كُلِّه؛ النَّصُّ في الملفَّات السِّرِّيَّة يقول بأنَّه في مارس/ آذار **1117**، بُودوين الأوَّل، «الذي كان يدين بعرشه لصهيُون»، كان قد «أُلزم» علىٰ مَنْح السُّلطة الشَّرْعيَّة لنظام الهَيكَل ـ في سانت ليونارد دُو عكَّار[2].

كشف بحثنا الخاصُّ بأنَّ سانت ليُونارد دُو عكَّار كان ـ في الحقيقة ـ إحدىٰ إقطاعيَّات نظام صهيُون. لكنَّنا لم نكن مُتأكِّدين بأنَّ بُودوين كان عليه أنْ يكون «مُلزماً» علىٰ مَنْح السُّلطة الشَّرْعيَّة لنظام الهَيكَل. في الفرنسيَّة، عبارة «بكُلِّ تأكيد» تحتوي علىٰ درجة من الإجبار، أو الضَّغط. والنَّتيجة في الملفَّات السِّرِّيَّة كانت بأنَّ هذا الضَّغط فَرَضَهُ نظام صهيُون، الذي إليه بُودوين كان «يدين بعرشه».

(1) (المُقطَع: شَخْص يُقطعه السَّيِّد الإقطاعي أرضاً لقاء تعهُّده بتقديم المُساعدة إليه. المُترجم).

(2) (دُو بالفرنسيَّة تعني «of» بالإنكليزيَّة، وفي هذه الحالة؛ تعني صلة الشَّخص بالمكان، فنقول ـ مثلاً ـ سانت ليُونارد دُو عكَّار، ذلك يعني القدِّيس ليُونارد العكَّاري؛ من عكَّا في فلسطين. وهذا ينطبق علىٰ مُعظم الأماكن التي وَرَدَتْ فيها لفظة «دُو». المُترجم).

إنْ كان الوضع كذلك، فإنَّ نظام صهيُون ـ رُبَّما ـ كان المُنظَّمة الأكثر قُوَّة وتأثيراً، المُنظَّمة التي لا تستطيع أنْ تمنح العُرُوش فقط، ولكنْ؛ ـ أيضاً، كما يبدو ـ تُرغم الملكَ بأنْ يُنفِّذ مطالبَهَا.

إنْ كان نظام صهيُون ـ في الحقيقة ـ هُو المسؤول عن انتخاب غُودفرُوي دُو بلُويون، بالتَّالي؛ فإنَّ بُودوين، الأخَّ الأصغر لغُودفرُوي، سيكون ـ أيضاً ـ مديناً بعرشه لتأثير ذلك النِّظام.

علاوةً علىٰ ذلك؛ وكما كشفنا، كان هُناك دليل لا نقاش فيه أنَّ نظام الهَيكَل وُجد ـ علىٰ الأقلّ، بشكل جنيني ـ قبل أربع سنوات من تاريخ التَّأسيس المُعلَن والمقبول عُمُوماً في **1118**.

في عام **1117**، بُودوين كان رجلاً مريضاً، وكان موته وشيكاً بوُضُوح. لذا؛ من المُحتمل أنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا نشيطين قبل عام **1118** بكثير، ولو بحُكْم المنصب ـ كالذِّراع العَسْكَريّ، أو الإداري، لنظام صهيُون، الذي سكن في دَيْره المُحصَّن. ومن المُحتمل أنَّ الملك بُودوين ـ وهُو علىٰ فراش الموت ـ أُرغم ـ نتيجة المرض، أو من قِبَل نظام صهيُون، أو من كلَيْهما ـ علىٰ مَنْح فُرسان الهَيكَل بعض المنزلة الرَّسْميَّة، ومنحهم السُّلطة الشَّرْعيَّة، وفيما بعد؛ تمَّ إشهارهم.

في بحث فُرسان الهَيكَل بدأنا بمعرفة شبكة الارتباطات الاستفزازيَّة، والمُراوغة، والمُعقَّدة، ورُبَّما الآثار الغامضة لخُطَّة ما طموحة. علىٰ أساس هذه الارتباطات صُغنا فَرَضيَّة تجريبيَّة. سواء فَرَضيَّتنا كانت صحيحة أم لا، لا نستطيع أنْ نعرف، لكنَّ آثار التَّصميم أصبحت ظاهرة لدرجة أكبر الآن. جمَّعنا الأجزاء كالتّالي:

1) في أواخر القرن الحادي عشر، مجموعة غامضة من الرُّهبان من كلابريا تظهر في آردينيه؛ حيثُ تمَّ التَّرحيب بهم، وتمَّتْ رعايتهم، ومَنْحهم أرضاً في أُورفال من قِبَل عمَّة غُودفرُوي دُو بلُويون، وأمّه بالرّضاعة.

2) عُضو في هذه المجموعة ـ لرُبَّما ـ كان مُعلِّم غُودفرُوي الشَّخصي، وـ لرُبَّما ـ حرَّض علىٰ الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ بالتَّعاون معه.

3) في وقت ما قبل **1108**، الرُّهبان في أُورفال يرتحلون، ويختفون. بالرّغم من أنَّه ليست هُناك سجلَّات عن وُجهتهم، لرُبَّما كانت القُدْس. بالتَّأكيد؛ بُطرُس النَّاسك ذهب إلىٰ القُدْس؛ وإنْ كان هُو أحد الرُّهبان في أُورفال، من المُحتمل بأنَّ إخوته انضمُّوا إليه لاحقاً.

4) في عام 1099، انهيار القُدْس، وغُودفرُوي يُعرَض عليه العَرْش باجتماع سرِّيٍّ مجهول، الزَّعيم الذي ـ كرُهبان أُورفال ـ أصله من كلابريا.

5) دَيْر يُبنىٰ بأمر من غُودفرُوي علىٰ جبل صهيُون، والذي يُسكن نظاماً له الاسم نفسه كاسمه؛ النِّظام الذي قد يشمل علىٰ الأفراد الذين عرضوا عليه العَرْش.

6) بحُلُول عام 1114، فُرسان الهَيكَل كانوا نشطين مُسبقاً، رُبَّما كحاشية نظام صهيُون المُسلَّحة؛ لكنْ؛ مَنْحُهُم السُّلطة الشَّرعيَّة لم يُقرّ حتَّىٰ عام 1117، وهُم أنفسهم لم يُشهَرُوا حتَّىٰ السَّنة التَّالية.

7) في عام 1115، القدِّيس بيرنارد ـ عُضو النِّظام السِّيستيريّ، آنذاك علىٰ حافَّة الانهيار الاقتصادي ـ يظهر كالنَّاطق البارز للمسيحيَّة. والسِّيستيريُّون المُعدمون سابقاً أصبحوا ـ بسُرعة ـ من إحدىٰ المُؤسَّسات الغنيَّة، والمُؤثِّرة، والأبرز في أُورُوبا.

8) في عام 1131، القدِّيس بيرنارد يستلم دَيْر أُورفال، الذي أُخليٰ قبل حوالي سنوات من قِبَل الرُّهبان من كلابريا. أُورفال ـ بعد ذلك ـ أصبح بيت سيستيري (بندكتي).

9) في الوقت نفسه؛ بعض الشَّخصيَّات الغامضة يبدو بأنَّها كانت تتحرَّك ـ وبشكل ثابت ـ جيئة وذهاباً في هذه الأحداث، تُخيط القماش مع بعضه بعضاً بأُسلُوب غامض كُلِّيّاً.

إنَّ كُونت شمبانيا ـ علىٰ سبيل المثال ـ يتبرَّع بالأرض لدَيْر القدِّيس بيرنارد في كليرفُوكس، ويُؤسِّس محكمة في ترُويز، والذي منه انطلقت رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة» بعد ذلك، وفي عام 1114، يعتزم الانضمام إلىٰ فُرسان الهَيكَل، والذي أوَّل الأسياد العظام المُسجَّلين فيه هُو هيُوغز دُو باين، تابعه (مُقْطَعَه).

10) أندريه دُو مُونتبارد ـ عمّ القدِّيس بيرنارد وعُضو مزعوم في نظام صهيُون ـ ينضمُّ إلىٰ هيُوغز دُو باين في تأسيس فُرسان الهَيكَل. بعد ذلك بقليل؛ ينضمُّ أخوان أندريه إلىٰ القدِّيس بيرنارد في كليرفُوكس.

11) أصبح القدِّيس بيرنارد داعية علاقات عامَّة مُتحمِّساً لفُرسان الهَيكَل، يُساهم في اندماجهم الرَّسمي، ورَسْم قانونهم؛ والذي هُو ـ جَوْهَريّاً ـ ذلك الذي للسِّيستيريِّين، نظام بيرنارد الخاصّ.

12) تقريباً؛ بين عامَيْ 1115 و 1140 كلا السِّيستيريِّيْن «البندكتيِّيْن» و«فُرسان الهَيكَل» يبدؤون بالنَّجاح، يكتسبون مبالغ ضخمة من المال، ومناطق واسعة من الأرض.

مرَّة ثانية؛ لا نستطيع إلَّا أنْ نتساءل سواء هذا التَّعدُّد من الارتباطات المُعقَّدة كان ـ في الحقيقة ـ أمراً عَرَضيَّاً بالكامل.

هل كُنَّا ننظر إلىٰ عدد من النَّاس والأحداث والظَّواهر المُنفصلة جَوْهَريَّاً؛ والتي كانت ـ فقط ـ «تحدث»، علىٰ مراحل، لتتداخل، وتتشابك مع بعضها بعضاً؟!

أم هل كُنَّا نتعامل مع شيء لم يكن عشوائيَّاً أو عَرَضيَّاً علىٰ الإطلاق؟!

هل كُنَّا نتعامل مع خُطَّة من نوع ما، محبوكة ومُهندَسَة من قِبَل كالة إنسانيَّة ما؟!

وهل تلك الوكالة كان يُمكن أنْ تكون نظام صهيُون؟!

هل نظام صهيُون كان يُمكن أنْ يقف ـ في الحقيقة ـ وراء القدِّيس بيرنارد وفُرسان الهَيكَل كلَيْهما؟!

وهل كلاهما كان يُمكن لهما أنْ يتصرَّفا وُفق سياسة مُطوَّرة بعناية؟!

لويس السَّابع ودَيْر صهيُون

«وثائق الدَّيْر» لم تُعط أيّة إشارة إلىٰ نشاطات نظام صهيُون بين عام 1118 - التَّأسيس العامّ لفُرسان الهَيكَل - وعام 1152. لكُلِّ ذلك الوقت، يبدو أنَّ نظام صهيُون بقي مقرُّه في الأرض المُقَدَّسَة في الدَّيْر خارج القُدْس.

بعد ذلك، وعند عودته من الحملة الصَّليبيَّة الثَّانية، قيل إنَّ لويس السَّابع ملك فرنسا جلب معه خمسة وتسعين من أعضاء النِّظام. ليس هُناك إشارة للسُّلطة، التي - لرُبَّما - مثلوا فيها أمام الملك، ولا السَّبب في مَنْحهم سخاءه. لكنْ؛ إنْ كان نظام صهيُون - في الحقيقة - هُو القُوَّة خلف بناء نظام الهَيكَل، فإنَّ ذلك سيُشكِّل تفسيراً؛ لأنَّ لويس السَّابع كان مديناً - بشدَّة - إلىٰ الهَيكَل بالمال والدَّعم العَسْكَريّ كلَيْهما.

في أيِّ حال من الأحوال؛ نظام صهيُون، أُسِّس قبل نصف قرن من قِبَل غُودفرُوي دُو بلُويُون، أُسِّس عام 1152 - أو أعاد تأسيس - موطئ قَدَم في فرنسا.

وُفقاً للنَّصِّ، اثنان وسُتُّون من أعضاء النِّظام وُضعوا في «دَيْر كبير» هُو دَيْر القدِّيس سامسن في أُورليان، والذي تبرَّع لهم به الملك لويس.

سبعة - علىٰ ما يُقال - انضمُّوا إلىٰ الصُّفُوف المُقاتلة لفُرسان الهَيكَل. و26 - مجموعتان كُلٌّ منها 13 - قيل بأنَّهم دخلوا إلىٰ «دَيْر صغير في جبل صهيُون»، الذي يقع في «سانت جين لُو بلانك» علىٰ أطراف أُورليان.

في مُحاولة لإثبات هذه البَيانَات؛ وجدنا أنفسنا - فجأة - أمام دليل سهل. المواثيق التي نصَّب فيها لويسُ السَّابع نظامَ صهيُون في أُورليان مازالت موجودة.

النُّسخ أُعيد إنتاجها في عدد من المصادر، والأصليَّة يُمكن مُشاهدتها في أرشيفات البلديَّة في أُورليان. في الأرشيفات أنفسها، هُناك - أيضاً - بيان بَابَوي، تاريخه في عام 1178، من البَابَا ألكساندر الثَّالث، الذي يُؤكِّد - رَسْمياً - الأملاكَ لنظام صهيُون. هذه الأملاك تشهد علىٰ ثروة النِّظام، وقُوَّته، وتأثيره.

الأملاك تتضمَّن بُيُوتاً ومناطق كبيرة من الأرض في بيكـاردي في فرنـسا (بـما في ذلـك سـانت سامسن في أُورليان)، وفي لُومباردي، وصقلية، وإسبانيا، و كلابريا؛ وبالطَّبع؛ هُناك ـ أيضاً ـ عدد مـن المواقع في الأرض المُقَدَّسَة، بما في ذلك سانت ليُونارد دُو عكَّار.

حتَّىٰ الحرب العالميَّة الثَّانية ـ في الحقيقة ـ كان هُناك في أرشيفات أُورليـان مـا لا يقـلُّ عـن عـشرين دُستُوراً، تشهد ـ بالتَّحديد ـ علىٰ نظام صهيُون. أثناء قصف المدينة عام **1940**، كُلُّها اختفت؛ عدا ثلاثة.

«قَطْع الدّردار» في جيزرز

إنْ كانت «وثـائق الـدَّيْر» يُمكـن تـصديقها، فـإنَّ سـنة **1188**، كانـت ذات أهمِّيَّـة حاسـمة للنِّظامَيْن صهيُون وفُرسان الهَيكَل كلَيْهما. سنة قبل ذلك، عـام **1187**، القُـدْس كانـت قـد سَـقَطَتْ بأيدي المُسلمين؛ بصُورة رئيسة، نتيجة التَّهوُّر وحماقة جيرارد دُو ريدفُورت، السَّيِّد الأعظم للهَيكَل.

إنَّ النَّصَّ في الملفَّات السِّرِّيَّة ـ هُو ـ أكثر صرامة إلىٰ حَدٍّ كبير. لا يـتكلَّم عـن تهـوُّر، أو حماقـة، جيرارد، بل عن «خيانته»؛ كلمة قاسية جدًّاً في الحقيقة. لأنَّ شكل هـذه «الخيانـة» لم يُوضَّـح. ولكـنْ؛ كنتيجة لذلك، «الكبار» في نظام صهيُون قيل بأنَّهم عادوا ـ بشكل جماعي ـ إلىٰ فرنسا، ومن المُفـترض إلىٰ أُورليان. منطقيَّاً؛ هذا الزَّعْم معقول كفاية. عندما سَقَطَتْ القُـدْس بأيـدي المُـسلمين، الـدَّيْر علىٰ جبل صهيُون من الواضح أنَّه سقط أيضاً. وبعد أنْ حُرموا من قاعدتهم في الأرض المُقَدَّسَة، فمن غـير المُفاجئ أنْ بَحَثَ سُكَّان الدَّيْر عن مأوىٰ في فرنسا؛ حيثُ تُوجد ـ سَلَفَاً ـ قاعدة هُناك.

أحداث عام **1187** ـ «خيانة» جيرارد دُو ريدفُورت، وخسارة القُدْس ـ يبدو أنَّها خلقت شقَّاً كارثيَّاً بين نظام صهيُون ونظام الهَيكَل. من غير الواضح ـ بالضَّبط ـ لماذا كان يجـب أنْ يحـدث ذلـك، لكنْ؛ طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ السَّنة التَّالية شهدت نُقطة تحوُّل حاسمة في شُؤُون النظامَيْن كلَيْهما.

في عام **1188**، من المُفترض أنَّ انفصالاً رَسْميَّاً حَدَثَ بين المُؤسَّستَيْن. نظام صـهيُون ـ الـذي خَلَقَ الفُرسان الهَيكَل ـ غسل يدَيْه ـ الآن ـ من محميه المشهور. بكلمة أُخرىٰ، «الوالـد» رفـض التَّبنِّـي الرَّسْمي «للولد». هذا الانفصال قيل إنَّه تمَّ إحياؤه ضمن طُقُوس، أو مراسم، من نوع ما. في الملفَّات السِّرِّيَّة وفي «وثائق الدَّيْر» تُدعىٰ تلك المُناسبة باسم «قَطْع الدّردار»، ويُزعَم أنَّه حَدَثَ في جيزرز.

الرِّوايات مُحرَّفة وغامضة، لكنَّ التَّاريخ والرِّوَايَات كلَيْهما يُؤكِّدان بأنَّ شيئاً ما غريباً جدَّاً حَدَثَ في جيزرز عام 1188 مُرتبط بشعائر قَطْع الدّردار.

في الأرض المُجاورة للقلعة، كان هُناك مرج يُدعىٰ «Champ Sacré» ـ الحقل المُقَدَّس. وُفقاً للمُؤرِّخين من القُرُون الوُسْطَىٰ، الموقع كان قد يُعَدُّ مُقدَّساً مُنْذُ أوقات ما قبل المسيحيَّة، وأثناء القرن الثَّاني عشر كان يُعَدُّ مقرَّاً لاجتماعات عديدة بين مُلُوك إنجلترا وفرنسا. في مُنتصف الحقل المُقَدَّس؛ كانت تقف شجرة دردار قديمة. وفي عام 1188، أثناء اجتماع بين هنري الثَّاني ملك إنجلترا وفيليب الثَّاني ملك فرنسا، ولسبب ما مجهول، شجرة الدّردار تلك أصبحت سبب نزاع جدِّيٍّ، ودام أيضاً.

طبقاً لإحدىٰ الرِّوايات؛ فإنَّ شجرة الدّردار كانت تُوفِّر الظِّلَّ الوحيد في الحقل المُقَدَّس. وتقول بأنَّ عُمرها أكثر من ثمنمائة سنة، وكبيرة جدَّاً؛ بحيثُ إنَّ تسعة رجال لو مسكوا أيدي بعضهم بعضاً يُمكنهم أنْ يُحيطوا بالكاد بجذع تلك الشَّجرة. تحت ظلِّ هذه الشَّجرة يُزعَم أنَّ هنري الثَّاني وحاشيته اتَّخذوا ملجأ لهم، تاركين الملك الفرنسي ـ الذي وصل لاحقاً ـ في نُور الشَّمس القاسي.

في اليوم الثَّالث من المُفاوضات، انهارت أعصاب الفرنسيِّيْن من شدَّة الحرارة، وتمَّ تبادل الإهانات والشّتائم بين المُقاتلين، وطار سَهْمٌ من بين صُفُوف مُرتزقة هنري الويلزيِّيْن. هذا؛ أثار هُجُوماً شاملاً من قِبَل الفرنسيِّيْن، الذين فاق عددُهُم الإنجليزَ بكثير. الإنكليز بحثوا عن مأوىٰ ضمن حيطان جيزرز نفسها، بينما يُقال إنَّ الفرنسيِّيْن قطعوا الشَّجرة نكايةً.

بعد ذلك، عاد فيليب الثَّاني إلىٰ باريس غاضباً، مُعلناً أنَّه لم يأت إلىٰ جيزرز ليقوم بدور حطَّاب.

القصَّة تتمتَّع ببساطة القُرُون الوُسْطَىٰ، وطرافتها، لتُقنعنا بصحَّتها عبر قصَّة سطحيَّة، بينما تُلمِّح بين سُطُورها إلىٰ شيء أهمّ وأعظم بكثير ـ التَّفسيرات والحوافز بقيت غير مُستكشَفَة. القصَّة ـ علىٰ ما هي عليه ـ تبدو ـ تقريباً ـ سخيفة؛ رُبَّما سخيفة ومُزوَّرة كالقَصَص التي ارتبطت بتأسيس نظام غارتر[1].

(1) (نظام غارتر: النِّظام الأعلىٰ في إنجلترا، أُسِّس عام 1348، من قِبَل الملك إدوارد الثَّالث. متكوِّن من الملك الحاكم،

ورغم ذلك، هُناك تأكيد للقصّة، إنْ لم يكن تفاصيلها المُعيَّنة، في روايات أُخرىٰ.

طبقاً لسجلٍّ آخر؛ يبدو أنَّ فيليب (الفرنسي) أخبر هنري بأنّه ينوي قَطْعَ الشَّجرة. ردَّ هنري علىٰ ذلك بدَعْم جذع شجرة الدّردار بأعمدة من الحديد.

في اليوم التَّالي؛ الفرنسيُّون سلَّحوا أنفسهم، وشكَّلوا كتيبة من خمسة سريَّات، كُلّ منها بأمرة قائد مُميَّز من المملكة، الذين تقدَّموا نحو شجرة الدّردار، ومعهم عَرَبَات ونجَّارون مُجهَّزون بالفُؤُوس والمطارق. يُقال إنَّ كفاحاً مريراً تلا ذلك، والذي شارك فيه ريتشارد قلب الأسد، الابن الأكبر لهنري، وكذلك وريثه، مُحاولاً حماية الشَّجرة، وأَراقَ الكثير من الدِّماء في سبيل ذلك.

علىٰ الرّغم من هذا، احتلَّ الفرنسيُّون الحقلَ في نهاية اليوم، وتمَّ قَطْعُ الشَّجرة.

هذه الرِّواية الثَّانية تدلُّ علىٰ أنَّ العمليَّة ليست مُجرَّد شجار تافه، أو مُناوشة بسيطة. تدلُّ علىٰ معركة شاملة، رُبَّما تضمَّنت أعداداً كبيرة من الجُنُود، وإصابات كثيرة. مع ذلك؛ السِّيرة الذَّاتيَّة لريتشارد لم تُبالغ بالقضيَّة، لا أكثر من سَرْد لها.

مرَّة أُخرىٰ، علىٰ أيَّة حال، «وثائق الدَّيْر» المُوثَّقة بالتّاريخ والرّواية المُسجَّلة تقول بأنَّه ـ علىٰ الأقلِّ ـ نزاع فُضُولي حَدَثَ في جيزرز عام **1188**، والذي تضمَّن قَطْعَ شجرة الدّردار. ليس هُناك تأكيد خارجي بأنَّ هذا الحَدَثَ تعلَّق ـ بأيِّ حال ـ مع فُرسان الهَيكَل، أو نظام صهيُون. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ الرِّوايات الحاليَّة للقضيَّة مُبهمة جدَّاً، ضئيلة جدَّاً، وغامضة جدَّاً، ومُتناقضة جدَّاً؛ لأنْ يتمَّ قبولها بشكل جازم. من المُحتمل جدَّاً أنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا حاضرين في الحادثة ـ ريتشارد الأوَّل كان ـ علىٰ الأغلب ـ مُرافَقَاً بفُرسان الهَيكَل، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ جيزرز ـ قبل ثلاثين سنة من ذلك ـ كانت قد أُودعَتْ لفُرسان الهَيكَل.

وُفقاً للدّليل الحالي، من المُحتمل جدَّاً، إنْ لم يكن من المُؤكَّد، أنَّ قَطْعَ شجرة الدّردار مُتعلِّق بشيء آخر، أو أكثر ممَّا نقلتْهُ الرِّوايات للأجيال القادمة.

أمير ويلز، بالإضافة إلىٰ 24 فارساً، بالإضافة إلىٰ عدد من الأُمراء الإنجليز، والمُلُوك الأجانب، وأعضاء آخرين تمَّ انتقاؤهم بشكل خاصّ. النِّظام أُسِّس تكريماً لمَرْيَم العذراء، والقدِّيس إدوارد كاهن الاعتراف، والقدِّيس جُورج، القدِّيس الشّفيع لإنجلترا. (المُترجم).

في الحقيقة؛ نَظَرَاً للغرابة المُطلقة للرِّوايات الباقية علىٰ قيد الحياة، لن يكون مُفاجئاً لو أنَّه كان هُناك شيء آخر مُرتبط بالقصَّة؛ شيء لم يتمّ التَّنويه إليه في التَّاريخ، أو رُبَّما لم يُصبح عَلَنيَّاً.

باختصار، الرِّوايات التي بقيت علىٰ قيد الحياة ليست إلَّا ضرباً من الحكايات الرَّمْزيَّة، التي تروي لنا، وبالوقت نفسه، تُخفي عنَّا قضيَّة ذات أهمِّيَّة أعظم بكثير.

أُورمُوس «ORMUS»

من عام **1188**، فصاعداً، «وثائق الدَّيْر» تُؤكِّد ـ بالدَّليل والحُجَّة ـ أنَّ فُرسان الهَيكَل كانوا مُستقلِّين ذاتيَّاً ـ لم يعودوا تحت سُلطة دَيْر صهيُون، أو يعملون كذراعه العَسْكَريّ، والإداري. من عام **1188**، فصاعدا، فُرسان الهَيكَل كانوا ـ بشكل رَسْمي ـ أحراراً في الاهتمام بأهدافهم، ومصالحهم الخاصَّة، ولاتِّباع منهجهم الخاصّ خلال القرن (أو ما شابه) الباقي من وُجُودهم، وُصُولاً إلىٰ نهايتهم المُريعة عام **1307**.

وفي هذه الأثناء، ابتداء من **1188**، قيل بأنَّ نظام صهيُون مرَّ بإعادة هَيكَلة إداريَّة رئيسيَّة خاصَّة به.

حتَّىٰ **1188**، نظام صهيُون ونظام الهَيكَل قيل بأنَّهما كانا تحت قيادة السَّيِّد الأعظم ذاته. وبالتَّالي؛، هيُوغز دُو باين، وبيرتراند دُو بلانتشفُورت ـ علىٰ سبيل المثال ـ قد ترأَّسا المُؤسَّستَيْن كلتيْهما في آن واحد. بدءاً من عام **1188** ـ علىٰ أيَّة حال ـ بعد «قَطْع الدّردار»، يُقال إنَّ نظام صهيُون اختار سيِّده الأعظم الخاصّ به، سيِّداً لم يكنْ له أيَّة صلة بالهَيكَل. أوَّل سيِّد أعظم من ذلك النَّوع، طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ كان جين دُو جيزرز.

في عام **1188**، يُقال إنَّ نظام صهيُون ـ أيضاً ـ عدَّل اسمه، مُتبنِّياً ذلك الاسم الذي استمرَّ إلىٰ الآن «دَيْر صهيُون». وكنوع من الاسم الثَّانوي قيل بأنَّه تبنَّىٰ اسماً غريباً هُو «أُورمُوس». هذا الاسم الثَّانوي يُعتقَد بأنَّه استُعمل حتَّىٰ عام **1306** ـ أيْ قبل سنة من توقيف فرنسيِّيْ فُرسان الهَيكَل. شعار الـ«أُورمُوس» (Ormus) كان ويتضمَّن أحرفاً لو جُمعَتْ لشكَّلتْ عدداً من الكلمات الدَّليليَّة والرُّمُوز. كلمة «Ours» باللُّغة الفرنسيَّة هي «دُبّ» ـ «Ursus» باللَّاتينيَّة، وهي مُحاكاة لـ«داغُوبرت

الثَّاني»، وللسُّلالة الميرُوفينجيَّة، كما تبيَّن فيما بعد. «Orme» بالفرنسيَّة تعني «دردار»، «Or» ـ بالطَّبع ـ هي «ذهب»، وحرف «M» الذي يتركَّب مع الأحرف الأُخرَىٰ هُو ليس مُجرَّد حرف «M»، بل ـ أيضاً ـ هُو الإشارة التَّنجيميَّة لبُرج العذراء ـ يتضمَّن «نُوتر دام» باللُّغة الرَّمْزيَّة للقُرُون الوُسْطَىٰ «نُوتر دام».

أبحاثنا لم تكتشف أيَّة إشارة في أيِّ مكان لنظام أو مُؤسَّسة تحمل الاسم «Ormus» في القُرُون الوُسْطَىٰ.

في هذه الحالة؛ لم نستطع العُثُور علىٰ بديل خارجي للنَّصِّ في الملفَّات السِّرِّيَّة، ولا حتَّىٰ أيَّ دليل ثانوي يُشكِّك بصدْقه. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ أُورمُوس «Ormus» قد يكون له معنيان آخران مُختلفان بشكل جَذْري؛ لها معان رَمْزيَّة في الفِكْر الزّرادشتي، وفي النُّصُوص الغنُوسطيَّة[1]؛ حيثُ إنَّها مُرادف لمبدأ النُّور. وتظهر تلك الكلمة ـ مرَّة أُخرىٰ ـ بين الأنساب التي ادَّعاها ماسُونيُّو أواخر القرن الثَّامن عشر؛ حيثُ ـ طبقاً للتَّعليمات الماسُونيَّة ـ أُورمُوس كان اسم حكيم وصُوفي مصري، غنوسطي «بارع» من الإسكندريَّة، عاش ـ كما يُقال ـ أثناء السَّنوات الأُولىٰ من العهد المسيحي، يُزعَم أنَّه في 46 بعد الميلاد وستَّة من أتباعه تحوَّلوا إلىٰ الدّيانة المسيحيَّة من قِبَل أحد أتباع السَّيِّد المسيح، وهُو سانت مارك في أكثر الرِّوايات.

نتيجة لهذا التَّحوُّل قيل بأنَّ طائفة أو نظاماً جديداً قد وُلد، ذلك النِّظام قام بدَمْج عقائد المسيحيَّة المُبَكِّرة بتعليمات أُخرىٰ، حتَّىٰ إنَّها من مدارس غامضة أقدم.

حسب معرفتنا؛ هذه القصَّة لا يُمكن توثيقها. في الوقت نفسه ـ علىٰ أيَّة حال ـ هي معقولة جدَّاً.

أثناء القرن الأوَّل بعد الميلاد، الإسكندريَّة كانت مُستنبتاً حقيقيّاً للنَّشاطات الباطنيَّة، وكانت البوتقة التي امتلأت بالمذاهب اليهُوديَّة، والمثرائيَّة[2]، والأفلاطونيَّة المُحدثة، والفيثاغوريَّة،

---

(1) (الغنُوسطيَّة: مذهب العرفان: مذهب بعض المسيحيِّين الذين اعتقدوا بأنَّ المادَّة شَرٌّ، وبأنَّ الخلاص يأتي من طريق المعرفة الرُّوحيَّة. المُترجم).

(2) (مِثرا: إله النُّور وحامي الحقيقة وعدوّ قِوىٰ الظَّلام عند الفُرْس. المُترجم).

والهيرميزيَّة[1]، والزّرادشتيَّة، واندمجت مع مذاهب أُخرىٰ غير معدودة. كثر المُعلِّمون من كافَّة الحُقُول، ومن غير المُفاجئ إنْ تبنَّىٰ أحدُهُم الاسمَ الذي يدلُّ علىٰ مبدأ النُّور.

طبقاً للرِّواية الماسُونيَّة، في 46 بعد الميلاد؛ قيل إنَّ اسم «أُورمُوس» أُطلق علىٰ رمز التّمييز المُعيَّن للنِّظام الحديث العهد «نظام المُطَّلعين» ـ وكان ذلك الرَّمز هُو الصَّليب الأحمر، أو الوردي.

صحيح أنَّ الصَّليب الأحمر ـ بعد ذلك ـ تكرَّر في شعار فُرسان الهَيكَل، لكنَّ فحوىٰ النَّصّ في الملفَّات السِّرِّيَّة وفي «وثائق الدَّيْر» الأُخرَىٰ واضح بشكل صريح؛ أحدها ينوي أنْ يُرَىٰ في كلمة «أُورمُوس» أنَّها تعني «الصَّليب الوَرْدي»، أو تعني الرُّوزيكرُوشيِّيْن[2].

وفي 1188، دَيْر صهيُون قيل بأنَّه تبنَّىٰ اسماً آخر، بالإضافة إلىٰ «أُورمُوس»، قيل بأنَّه دعا نفسه بـ«Croix Veritas ـ l'Ordre de Ia Rose» (نظام الصَّليب الوَرْدي).

في هذه النُّقطة؛ يبدو أنَّنا في نطاق مُثير للشَّكّ بشكل كبير، والنَّصُّ في «وثائق الدَّيْر» بدأ يظهر بأنَّه مُشتبه فيه كثيراً. كُنَّا مُطَّلعين علىٰ ادِّعاءات «الرُّوزيكرُوشيِّيْن» الحديثة في كاليفُورنيا، وعلىٰ المُنظَّمات المُعاصرة الأُخرَىٰ، التي تدَّعي بأنَّ نسبها يعود إلىٰ سديم العصر القديم، وبأنَّها مُرتبطة بأغلب الرِّجال العُظماء في العالم، وإنَّ تاريخ «نظام الصَّليب الوَرْدي» العائد إلىٰ عام 1188، يبدو أنَّه مُزوَّر علىٰ حَدٍّ سواء.

كما برهنت فرانسيس ييتس بإقناع، ليس هُناك دليل معروف لأيٍّ من «الرُّوزيكرُوشيِّيْن» (علىٰ الأقلّ بذلك الاسم) قبل أوائل القرن السَّابع عشر، أو رُبَّما السَّنوات الأخيرة في القرن السَّادس عشر.

تاريخ الأُسطُورة المُحيطة بالنِّظام الأُسطُوري يبدأ ـ تقريباً ـ مُنْذُ العام 1605، وأوَّل تأثير مُثير كان بعد عقد من الزَّمن عبر نَشْر ثلاث كُرَّاسات مُثيرة. هذه الكُرَّاسات ـ والتي ظهرت في الأعوام 1614 و1615 و 1616 علىٰ التّوالي ـ أعلنت وُجُود أُخُوَّة، أو جمعيَّة دينيَّة سرِّيَّة لـ«المُطَّلعين»

(1) (هرميز: رسول الآلهة عند الإغريق، وإله الطُّرُق والتِّجارة والاختراع والفصاحة والمَكْر واللُّصُوصيَّة. المُترجم).

(2) (الرُّوزيكرُوشيّ: عُضو جمعيَّة سرِّيَّة اشتُهرت في القرنَيْن الـ 17 و18، وزعمت أنَّها تملك معرفة سرِّيَّة للطَّبيعة، والدِّين، المُترجم).

الباطنيِّيْن، وأُسِّست رَغماً من قِبَل مسيحي اسمه كريستيان رُوزينكرُوز، والذي ـ كما هُو موثَّق ـ كان قد وُلد عام 1378، وتُوفِّي عام 1484، عن عُمر يُناهز الـ 106. كريستيان رُوزينكرُوز وجمعيَّته الأخويَّة السِّرِّيَّة معروف ـ الآن، بشكل عامٍّ ـ أنَّهما خياليَّان، خدعة ابتُكِرَت لغرض ما، لم يشرحه ـ لحَدِّ الآن ـ أحد بشكل كاف، بالرّغم من أنَّه كان لها تبعات سياسيَّة في ذلك الوقت.

علاوةً علىٰ ذلك؛ معروف ـ الآن ـ مَنْ هُو مُؤلِّف أحد الكُرَّاسات الثّلاث، وهي الكُرَّاسة المشهورة، التي اسمها «الزّفاف الكيميائي لكريستيان رُوزينكرُوز»، والتي ظهرت في 1616.

إنَّه يُوهان فالانتاين أندريا، كاتب ألماني وعالِم ديني عاش في فُرتمبورغ، الذي اعترف بأنَّه أعدَّ مادَّة «الزّفاف الكيمياوي» كنُكتة، أو رُبَّما كُوميديا بأحاسيس كلمات الشّاعر دانتي، والرِّوائي بلزاك. هُناك سبب لاعتقاد أنَّ أندريا أو أحد شُركائه أعدُّوا كُرَّاسات «الرُّوزيكرُوشيَّة» الأُخرَىٰ أيضاً؛ وأنَّه من هذا المصدر يُمكن تتبُّع «الرُّوزيكرُوشيَّة» عندما نشأت، وكيف وصلت إلىٰ ما يعتقده النَّاس بها اليوم.

إنْ كانت «وثائق الدَّيْر» حقيقة ـ علىٰ أيَّة حال ـ يجب علينا أنْ نُعيد النَّظَر فيها، ونُفكِّر بشيء ما آخر، عدا خدعة القرن السَّابع عشر.

يجب علينا أنْ نُفكِّر بنظام، أو مُجتمع سرِّيٍّ، وُجد حقّاً، أخوَّة سرِّيَّة أصيلة، أو جمعيَّة خيريَّة.

في الواقع؛ ليس من الضَّروري أنْ تكون باطنيَّة بشكل كُلِّيٍّ، أو أوَّلي. هي ـ لرُبَّما ـ سياسيَّة لحَدٍّ بعيد. لكنَّها كانت ستعيش لمُدَّة 425 سنة كاملة قبل أنْ تُصبح اسماً مشهوراً بشكل مُطلق، وقبل قرنَيْن كاملَيْن من الفترة التي يزعم أنَّ مُؤسِّسها قد عاشها.

مرَّة ثانية؛ لم نعثر علىٰ دليل يُثبت اعتقادنا. بالتَّأكيد؛ الوردة كانت رمزاً باطنيّاً مُنْذُ الأزل، وتمتَّعت برواج مُعيَّن أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ؛ في القصَّة الرَّمْزيَّة الشّعبيَّة «رُومانسيَّة الورد» لـ«جين دُو ميُون» علىٰ سبيل المثال، وفي «باراديسو» لـ«دانتي». والصَّليب الأحمر كان ـ أيضاً ـ موضوعاً رَمْزيّاً تقليديّاً. ليس ـ فقط ـ كان لوَصْف فُرسان الهَيكَل، لكنَّه أصبح ـ بعد ذلك ـ صليب القدِّيس جُورج، وبالتَّالي؛ تمَّ تبنِّيه من قِبَل نظام غارتر، الذي نشأ بعد حوالي ثلاثين سنة من سُقُوط الهَيكَل.

لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ الورد والصّلبان الحُمر كانت بزَخْم كمواضيع رَمْزيَّة، لم يكن هُناك دليل عن مُؤسَّسة، أو هَيكَل، ولدرجة أقلّ، دليل عن جمعيّة سرِّيَّة.

من النَّاحية الأُخْرَىٰ، فرانسيس ييتس تُؤكِّد ـ بالدَّليل والبُرهان ـ أنَّه كان هُناك جمعيَّات سرِّيَّة تعمل قبل فترة طويلة من «رُوزيكرُوشيِّيْ» القرن السَّابع عشر، وبأنَّ هذه المُجتمعات السَّابقة كانت ـ في الحقيقة ـ «رُوزيكرُوشيَّة» في التَّوجُّه السّياسي والفلسفي، إنْ لم يكن ـ بالضَّرورة ـ في الاسم.

وهكذا، في مُحادثة مع أحد باحثينا فرانسيس ييتس وصفت ليُوناردو بأنَّه «رُوزيكرُوشيّ»، مُستعملة التَّعبير كاستعارة للتَّعريف بقيَمه، ومواقفه. ليس ذلك فقط، في **1629**، عندما كان اهتمام «الرُّوزيكرُوشيِّيْن» بأُورُوبا في قمَّته، رجل اسمه رُوبيرت دينيان، راعي الأبرشيَّة في جيزرز، أعدَّ تاريخاً شاملاً لجيزرز، ولعائلة جيزرز.

في هذه المَخْطُوطَة يُصرِّح دينيان ـ بشكل واضح ـ بأنَّ الصَّليب الوَرْدي أُسِّس من قِبَل جين دُو جيزرز عام **1188**.

بكلمة أُخرىٰ؛ هُناك تأكيد حَرْفي من القرن السَّابع عشر للادِّعاءات التي أطلقتْهَا «وثائق الدَّيْر».

صحيح أنَّ مَخْطُوطَة دينيان أُعدَّتْ ـ تقريباً ـ بعد أربعة قُرُون ونصف من الحقيقة المزعومة. لكنَّها تُشكِّل جُزءاً مُهمّاً جدّاً من الدَّليل. وحقيقة أنَّها تصدر من جيزرز يجعلها ذات أهمِّيَّة قُصْوَىٰ.

علىٰ أيَّة حال؛ لم يكن لدينا إلَّا الاحتمال، وبدُون التَّأكيد. لكنْ؛ حتَّىٰ الآن، أثبتت «وثائق الدَّيْر» في كافَّة الجوانب أنَّها دقيقة بشكل مُدهش. وبالتَّالي؛ من التَّهوُّر رَفْعُ اليد عنها. نحنُ لم نكن مُستعدِّين لقبولها بتصديق مُطلق. لكنَّنا شعرنا بالاضطرار لتأجيل الحُكْم.

الدَّيْر في أُورليان

بالإضافة إلىٰ ادِّعاءاتها الأكثر فخامة؛ «وثائق الدَّيْر» عرض معلومات من نوع مُختلف جدّاً، تفاصيل علىٰ ما يبدو أنَّها بديهيَّة وغير هامَّة بشكل كبير، لدرجة أنَّه فاتنا إدراك أهمِّيَّتها. في الوقت ذاته؛ اللَّاأهمِّيَّة المُطلقة لهذه المعلومات أقنعت لتأييد صدْقها؛ بدا الأمر ـ ببساطة ـ أنَّه ليس هُناك أهمِّيَّة لاختراع، أو إعداد، مثل هذه التَّفاصيل البسيطة. والأكثر، توثيق العديد من هذه التَّفاصيل يُمكن تأكيده.

وبالتَّالي؛ علىٰ سبيل المثال، جيرارد، رئيس «دَيْر ليتل» في أُورليان بين عام **1239** و **1244**، قيل بأنَّه ترك منطقة من الأرض في عكَّا إلىٰ الفُرسان التّيُوتُونيِّيْن[1].

سبب استحقاق الإشارة إلىٰ ذلك هُو غير واضح، ولكنْ؛ يُمكن تصديقه بشكل حاسم. الصَّكُّ الفعلي موجود، تاريخه يعود إلىٰ عام **1239**، ويحمل توقيع جيرارد.

معلومات من نوع مُماثل، ولو أنَّها أكثر إيحاء، توفَّرت عن رئيس دَيْر اسمه آدم، الذي ترأَّس «دَيْر ليتل» في أُورليان عام **1281**.

في تلك السَّنة ـ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر ـ» آدم تخلَّىٰ عن منطقة من الأرض قُرب أُورفال إلىٰ الرُّهبان الذين سكنوا الدَّيْر هُناك؛ السّيستيريُّون الذين انتقلوا إلىٰ هُناك بدَعْم من القدِّيس بيرنارد قبل قرن ونصف من ذلك.

لا نستطيع أنْ نجد دليلاً مكتوباً عن هذه الصّفقة خُصُوصاً، ولكنَّها تبدو معقولة جدّاً؛ هُناك صُكُوك تشهد علىٰ صفقات أُخرىٰ عديدة من الطَّبيعة ذاتها.

الذي يجعل هذا مُهمّاً هُو ـ بالطَّبع ـ تكرار أُورفال، والتي تمَّ التَّحدُّث عنها في وقت سابق من تحقيقنا.

علاوةً علىٰ ذلك؛ قطعة الأرض المَعنيَّة يبدو أنَّه لها أهمِّيَّة خاصَّة؛ إذْ إنَّ «وثائق الدَّيْر» تُخبرنا بأنَّ آدم تلقَّىٰ سخط إخوة صهيُون لتبرُّعه الذي قام به، إلىٰ حَدِّ أنَّه أُرغم ـ علىٰ ما يبدو ـ علىٰ ترك موقعه.

(1) (أحد الأنظمة الرَّئيسيَّة الثَّلاثة التي نشطت في فلسطين أثناء الحرب الصَّليبيَّة، وهُم جرمانيُّون. المُترجم).

عمليَّة التَّنازل ـ طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة ـ شهد عليها ـ رَسْـميَّاً ـ تُوماس دُو سـينفيل، السَّيِّد الأعظم لنظام القدِّيس لازارُوس. بعد ذلك مُباشرة؛ قيل إنَّ آدم ذهب إلىٰ عكَّا، وبعد ذلك، هرب من المدينة عندما سَقَطَتْ بأيدي المُسلمين، ومات في صقلية عام **1291**.

مرَّة أُخرىٰ؛ نحنُ لا نستطيع العُثُور علىٰ الصَّكِّ الفعلي لعمليَّة التّنازل تلك.

لكنَّ تُوماس دُو سينفيل كان السَّيِّد الأعظم لنظام القـدِّيس لازاروس في عـام **1281**، ومقـرّ القدِّيس لازارُوس كان قُرب أُورليان؛ حيثُ تَنَازُلُ آدم ـ رُبَّما ـ حدث فيه.

وليس هُناك خلاف علىٰ أنَّ آدم ذهب إلىٰ عكَّا.

في الحقيقة؛ هُناك إعلانان ورسالتان وُقِّعتَا من قِبَله هُناك، تاريخ الأُولىٰ هُو **15** أغـسطس/ آب **1281**، والثّانية هُو **16** مارس/ آذار عام **1289**.

«رأس» فُرسان الهَيكَل

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» - دَيْر صهيُون - ما كان - علىٰ وجه التَّحديد - تخليد أو استمرار لنظام الهَيكَل. بالعكس؛ يُؤكِّد النَّصُّ - بشدَّة - بأنَّ تاريخ الانفصال بين النِّظامَيْن «قَطْع الدّردار» يعود إلىٰ عام **1188**.

علىٰ ما يبدو - علىٰ أيَّة حال - بقي هُناك استمراريَّة لبعض الوئام، وفي عام **1307**، استلم غليُوم دُو جيزرز الرَّأسَ الذَّهبيَّ، ♍ Caput LVIII، من فُرسان الهَيكَل».

تحقيقنا حول فُرسان الهَيكَل أحاطنا علماً - حتَّىٰ الآن - بهذا الرَّأس الغامض. علىٰ أيَّة حال؛ إنَّ رَبْطَهُ بصهيُون، وبعائلة جيزرز المُهمَّة - علىٰ ما يبدو - جعلنا - مرَّة أُخرىٰ - نُواجه الشُّكُوك، كما لو أنَّ «وثائق الدَّيْر» كانت تُجاهد للقيام بارتباطات قويَّة ومُثيرة للذّكريات. ومع ذلك؛ وجدنا - في هذه النُّقطة بالتَّحديد - بعضاً من أكثر تأكيداتنا قُوَّة وإثارة. طبقاً للسِّجلَّات الرَّسْميَّة من محكمة التَّفتيش:

رئيس الدَّيْر ومُدير السِّلع لنظام الهَيكَل في باريس، بعد التّوقيفات، كان أحد رجال الملك يُدعىٰ غليُوم بيدوي. قبل المحكمة في **11** مايو/ مايس **1308**، أعلن بأنَّه - في وقت توقيف فُرسان الهَيكَل - هُو ومعه زميله غليُوم دُو جيزرز وآخر اسمه رينر بُوردُون، أُمروا بأنْ يُحضِروا لمحكمة التَّفتيش كُلَّ الأجسام المعدنيَّة، أو الخشبيَّة، التي وجدوها. بين سلع الهَيكَل وجدوا رأساً كبيراً من الفضَّة والذَّهَب... صُورة امرأة، وقد أحضره غليُوم في **11** مايو/ مايس لمحكمة التَّفتيش.

الرَّأس كُتب عليه « ♍ CAPUT LVIII»

إنْ كان الرَّأس لا ينفكُّ يُحيِّرنا، فإنَّ السِّياق الذي ظهر فيه غليُوم دُو جيزرز كان مُحيِّراً علىٰ حَدٍّ سواء. تمَّ الاستشهاد به علىٰ أنَّه - بالتَّحديد - زميل لغليُوم بيدوي، أحد رجال الملك فيليب.

بكلمة أُخرىٰ هُو - مثل فيليب - يبدو بأنَّه كان مُعادياً لفُرسان الهَيكَل، وأنَّه شارك في الهُجُوم ضدَّهم. طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» - علىٰ أيَّة حال - غليُوم كان سيِّداً أعظم لدَيْر صهيُون في ذلك الوقت.

هل ذلك يعني أنَّ صهيُون أيَّد عمل فيليب ضدَّ الهَيكَل، ورُبَّما قدَّم يد العون أيضاً؟! هُناك معلومات في «وثائق الدَّيْر» تُلمِّح بأنَّه - رُبَّما - كان الوضع كذلك؛ أنَّ صهيُون - ببعض الطُّرُق

غير المُحَدَّدة ـ كان مسؤولاً عن، ومُشرفاً علىٰ، حَلِّ الأعضاء السّابقين المُنفلتين (فُرسان الهَيكَل).

من النَّاحية الأُخْرَىٰ، «وثائق الدَّيْر» تُشير ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّ صهيُون ـ أيضاً ـ مارس نوعاً من الحماية الأبويَّة ـ علىٰ الأقلِّ ـ نحو فُرسان مُعيَّنين من الهَيكَل في آخر أيَّام نظام الهَيكَل.

إنْ كان هذا حقيقيّاً، غليُوم دُو جيزرز ـ لرُبَّما ـ كان «عميلاً مُزدوجاً».

هُو ـ لرُبَّما ـ كان مسؤولاً عن «تسريب» خُطط فيليب، مثلاً؛ عندما تلقَّىٰ فُرسان الهَيكَل إنذاراً مُبَكِّراً عن المكائد التي يعتزمها الملك ضدَّهم.

إذاً؛ بعد الانفصال الرَّسْمي في **1188**، صهيُون ـ في الحقيقة ـ واصل مُمارسة بعض الرّقابة السِّرِّيَّة علىٰ شُؤُون الهَيكَل، غليُوم دُو جيزرز ـ رُبَّما ـ كان مسؤولاً ـ جُزئيّاً ـ عن الدّمار المُتعمَّد لوثائق الهَيكَل، وعن الاختفاء غير المُفسَّر لكَنزه.

الأسياد العظام لفُرسان الهَيكَل

بالإضافة إلىٰ المعلومات المُتجزِّئة التي تمَّتْ مُناقشتها أعلاه، النَّصُّ في الملفَّات السِّرِّيَّة يتضمَّن ثلاثة من قوائم الأسماء؛ أوَّلها بسيط وواضح بما فيه الكفاية، أقلُّها إثارة وأقلُّها تعرُّضاً للرِّيبة، أو الشَّكِّ، إنَّها مُجرَّد قائمة لرُؤساء الأديرة، التي ترأَّست أراضي صهيُون في فلسطين بين عام **1152** وعام **1281**.

بحثنا أكَّد صدقه؛ فهذه القائمة تظهر في أماكن أُخرىٰ، بعيداً عن الملفَّات السِّرِّيَّة، وفي مصادر سهلة المنال، وصادقة. قوائم هذه المصادر تتَّفق مع القائمة الموجودة في الملفَّات السِّرِّيَّة، إلَّا أنَّ المصادر تنتقص اسمَيْن ـ فقط ـ من القائمة. إذاً؛ في هذه الحالة، «وثائق الدَّيْر» لا تتَّفق ـ فقط ـ مع التَّاريخ المُمكن إثباته، لكنَّها أكثر شُمُوليَّة ـ أيضاً ـ في ملء بعض الفجوات.

إنَّ القائمة الثَّانية في الملفَّات السِّرِّيَّة هي قائمة الأسياد العظام لفُرسان الهَيكَل مُنْذُ عام **1118** وحتَّىٰ عام **1190**، بكلمة أُخرىٰ، مُنْذُ التَّأسيس العامّ للهَيكَل، وحتَّىٰ انفصاله عن صهيُون و«قَطْع الدّردار» في جيزرز.

في بادئ؛ لم يَبْدُ أنَّه يُوجد هُناك شيء غير عادي، أو شاذّ في هذه القائمة، ولكنْ؛ عندما قارنَّاها مع القوائم الأُخْرَىٰ ـ علىٰ أيَّة حال، مثلاً مع تلك المُستشْهَد بها من قِبَل المُؤرِّخين المشهورين، الذين يكتبون عن فُرسان الهَيكَل ـ ظهرت بعض التَّناقضات الواضحة بشكل سريع.

طبقاً لكُلِّ القوائم الأُخْرَىٰ المعروفة فعليّاً؛ كان هُناك عشر أسياد عظام بين عام **1118** وعام **1190**.

طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ كان هُناك ـ فقط ـ ثمانية. طبقاً لمُعظم القوائم الأُخْرَىٰ؛ أندريه دُو مُونتبارد ـ عمّ القدِّيس بيرنارد ـ لم يكن ـ فقط ـ مُؤسِّس الهَيكَل، بل ـ أيضاً ـ سيِّده الأعظم بين عامَيْ **1153** و **1156**.

طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ علىٰ أيَّة حال، أندريه لم يكن ـ أبداً ـ سيِّداً أعظم، ولكنْ؛ يبدو أنَّه استمرَّ بالقيام بعمله المُعتاد طوال فترته المهنيَّة وراء الكواليس.

طبقاً لُمعظم القوائم الأُخـرَىٰ؛ بيرترانـد دُو بلانتـشفُورت يظهـر كالـسَّيِّد الأعظـم الـسَّادس للهَيكَل، حاصلاً علىٰ منصبه بعد أندريه دُو مُونتبارد، عام **1156**.

طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ بيرتراند ليس السَّادس، بل الرَّابع في التّعاقب، وقد أصبح سيِّداً أعظم عام **1153**.

كان هُناك الكثير من التَّناقضات والتّعارضات الأُخرَىٰ، وكُنَّا بحَيْرَة شديدة حول ما نُـصدِّقه، أو نُهمله؛ لأنَّ القائمة تختلف عن تلك التي جمعها المُؤرِّخون النّـاجحون، هـل علينـا أنْ نعـدَّ القائمـة الموجودة في الملفَّات السِّرِّيَّة خاطئةً؟!

يجب أنْ يتمَّ التَّأكيد أنّه لا وُجُود لقائمة رَسْميَّة، أو مُؤكَّدة، وجازمة، للأسياد العظام لفُرسـان الهَيكَل. لم يُحفَظ، أو يُسلَّم، أيُّ شيء مـن هـذا النَّـوع للأجيـال اللَّاحقـة. سـجلَّات الهَيكَـل الخاصَّـة حُطِّمَتْ، أو اختفت. والتّرتيب الأوَّل المعروف لتـواريخ الأسـياد العظـام للهَيكَـل يعـود تاريخـه إلىٰ **1342**؛ أيْ بعد **30** سنة قُمع الهَيكَل بذاته، وبعد **225** سنة من تأسيسه. كنتيجة؛ المُؤرِّخـون الـذين يجمعون قوائم عن الأسياد العظام أُسندَتْ نتائجهم علىٰ المُؤرِّخين المُعاصرين؛ علىٰ رجـل كتـب عـام **1170** علىٰ سبيل المثال، والذي قام بتلميح لشَخص، أو لآخر، علىٰ أنَّه سيِّد، أو سيِّد عظيم للهَيكَل.

والدَّليل الإضافي يُمكن أنْ يحصل عليه بفَحْص الوثائق والـصُّكُوك لتلـك الفـترة، لـرُبَّما يجـد سيِّداً، أو آخر، للهَيكَل، يُذيِّل تلـك الوثـائق، أو الـصُّكُوك بتوقيعـه، وبمنـصبه. وبالتَّـالي؛ فإنَّـه مـن المُدهش جدَّاً أنَّ تسلسل وتاريخ الأسياد العظام يجب أنْ يُحدث حَيْرَةً وتشويـشاً كبـيرَيْن. ومـن غـير المُفاجئ أنَّ التّسلسل قد يتفاوت ـ أحياناً بشكل كبير ـ من كاتب لكاتب، ومن رواية لأُخرىٰ.

مع ذلك، كان هُناك بعض التَّفاصيل الحاسمة؛ كتلك المُلخَّصة أعـلاه، والتـي انحرفـت فيهـا «وثائق الدَّيْر» بشكل ملحوظ عن كُلِّ المصادر الأُخرَىٰ. لـذا؛ نحـنُ لا نـستطيع أنْ نُهمـل مثـل هـذه الانحرافات.

كان لابُدَّ لنا أنْ نُقرِّر، بقدر ما نستطيع، سواء تلـك القائمـة التـي في الملفَّـات الـسِّرِّيَّة كانـت مُستندة علىٰ الإهمال، أو الجهل، أو كلَيْهما؛ أو بدلاً عن ذلك، سواء هذه القائمة كانـت ـ في الحقيقـة ـ هي القائمة المُؤكَّدة الوحيدة، والتي استندت علىٰ معلومات «سرِّيَّة» صعب وُصُول المُؤرِّخين إليها.

إنْ كان صهيُون هُو مَنْ أسَّس فُرسان الهَيكَل، وإنْ كان صهيُون (أو علىٰ الأقلّ سجلَّاته) بقي حتَّىٰ يومنا هذا، فنحنُ من المُؤكَّد أنَّنا ستوقَّع ـ لحَدٍّ ما ـ أنَّه علىٰ علم بتفاصيل غير مُتوفِّرة في أيِّ مكان آخر.

أغلب التَّناقضات بين قائمة الملفَّات السِّرِّيَّة، وتلك التي في المصادر الأُخرَىٰ، يُمكن أنْ تُوضَّح بسُهُولة كبيرة. في هذه المسألة؛ ليس من الضَّروري استكشاف كُلِّ تلك التَّناقضات، وتفسيرها. ولكنَّ مثالاً وحيداً لابُدَّ أنْ يُوضِّح كيفيَّة وسبب حُدُوث تلك التَّناقضات. بالإضافة إلىٰ الأسياد العظام؛ كان للهَيكَل عدد من السَّادة المحلِّيِّين؛ سيِّد لإنجلترا، وسيِّد للنُّورماندي، وسيِّد لأكيتين[1]، ولكُلِّ الأقاليم ضمن ملكيَّتها. كان هُناك ـ أيضاً ـ سيِّد عامٌّ لأُورُوبا، وسيِّد بَحْري ـ أيضاً ـ علىٰ ما يبدو.

في الوثائق والصُّكُوك؛ هؤلاء السَّادة المحلِّيُّون، أو الإقليميُّون، يُوقِّعون ـ دائماً ـ باسم «Magister Templi» ـ «سيِّد الهَيكَل»، وفي أكثر المُناسبات؛ السَّيِّد الأعظم؛ بسبب التّواضع، أو الإهمال، أو اللَّامُبالاة، أو التّسرُّع، يُوقِّع ـ أيضاً ـ بنفس التّوقيع «Magister Templi».

بكلمات أُخرىٰ؛ أندريه دُو مُونتبارد، السَّيِّد الإقليمي للقُدْس، كان له التّوقيع نفسه علىٰ الصُّكُوك للسَّيِّد الأعظم بيرتراند دُو بلانتشفُورت.

وبالتَّالي؛ ليس من الصَّعب رُؤية كيف أنَّ المُؤرِّخ، الذي يعمل بصَكٍّ، أو اثنَيْن فقط، ولا يتحقَّق من مرجعه، رُبَّما يُخطئ ـ بسُهُولة ـ في تحديد المنصب الحقيقي لأندريه في الهَيكَل. بالضَّبط؛ استناداً إلىٰ هذا النَّوع من الخطأ، العديد من قوائم الأسياد العظام للهَيكَل تتضمَّن اسم رجل يُدعىٰ إفيرارد دُو باري. ولكنَّ السَّيِّد الأعظم ـ وُفقاً لقوانين الهَيكَل الخاصَّة ـ كان لزاماً عليه أنْ يُنتخَبَ من قِبَل اجتماع عامٍّ في القُدْس، وعليه أنْ يستقرَّ هُناك.

كشف بحثنا بأنَّ إفيرارد دُو باري كان سيِّداً إقليميَّاً، انتُخبَ، وأقام في فرنسا، وأنَّه لم يدخل إلىٰ الأرض المُقدَّسة إلَّا مُؤخَّراً بكثير.

---

(1) (أكيتين هُو الاسم التَّقليدي لجنوب غرب فرنسا. المُترجم).

وُفقاً لهذه القاعدة؛ يُمكن استبعاده من قائمة الأسياد العظام، وهُو ـ في الحقيقة ـ كذلك في الملفَّات السِّرِّيَّة.

بشكل خاصٍّ؛ في المسائل الدّقيقة كهذه؛ «وثائق الدَّيْر» أظهرت دقَّة مُتناهية، وإتقاناً، لم نكنْ نتخيَّلها إثر الحقيقة.

أهدرنا أكثر من سنة في دراسة ومُقارنة قوائم مُختلفة للأسياد العظام للهَيكَل. استشرنا كُلَّ كُتَّاب الهَيكَل؛ في إنكلترا، وألمانيا، وفرنسا، وبعد ذلك؛ دقَّقنا مصادرها أيضاً. فحصنا سجلَّات ذلك الوقت ـ كتلك لغليُوم دُو تاير ـ والرِّوَايَات المُعاصرة الأُخْرَىٰ.

راجعنا كافَّة الصُّكُوك، التي تمكَّنَّا من إيجادها، وحصلنا علىٰ معلومات شاملة عن كُلِّ ما هُو معروف أنَّه مازال موجوداً.

قارنَّا التَّواقيع والمناصب علىٰ العديد من البيَانَات والمراسيم والسَّنَدَات ووثائق الهَيكَل الأُخْرَىٰ.

كنتيجة لهذا التَّحقيق الشَّامل؛ أصبح واضحاً بأنَّ القائمة في الملفَّات السِّرِّيَّة كانت أكثر دقَّة من أيِّ قوائم أُخرىٰ، ليست ـ فقط ـ حول هُويَّة الأسياد العظام، بل علىٰ تواريخ أنظمتهم الخاصَّة أيضاً.

إنْ وُجد قائمة مُؤكَّدة للأسياد العظام للهَيكَل، فهي في الملفَّات السِّرِّيَّة.

دقَّة هذه القائمة ما كانت مُهمَّة ـ فقط ـ في ذاتها. النَّتائج التي قادت إليها كانت أوسع بكثير. صحيح أنَّ مثل هذا القائمة ـ لرُبَّما ـ جُمِّعَتْ من قِبَل باحث حذر جدَّاً، لكنَّ المهمَّة كانت ضخمة.

بدا ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّه من المُحتمل أنَّ قائمة بمثل هذه الدِّقَّة لابُدَّ أنَّها ارتكزت علىٰ مُستودع من المعلومات المُميَّزة، أو حتَّىٰ «السِّرِّيَّة»؛ معلومات صعبة الوُصُول ـ حتَّىٰ الآن ـ إلىٰ المُؤرِّخين.

سواء نتيجتنا كانت مضمونة أم لا، نحنُ جابهنا حقيقة واحدة مُسلَّماً بها؛ شَخْصٌ ما استطاع الوُصُول، بطريقة ما، إلىٰ القائمة التي كانت أكثر دقَّة من أيِّ قائمة أُخرىٰ. وبما أنَّ تلك القائمة ـ علىٰ

الرّغم من انحرافها عن القوائم الأُخرَىٰ الأكثر قبولاً ـ أثبتت ـ مراراً ـ أنّها أكثر صحّة، أعارت مصداقيّة كبيرة لـ«وثائق الدِّيْر» كَكُلٍّ.

إنْ كانت الملفّات السِّرِّيّة موثوقة ـ بشكل واضح ـ في هذا النّطاق، فسيكون هُناك شكٌّ أقلُّ بعض الشَّيء في المجالات الأُخْرَىٰ.

اطمئنان كهذا كان مُناسباً وضروريّاً. بدُونه ـ لرُبّما ـ كُنّا رمينا القائمة الثّالثة للملفّات السِّرِّيّة (الأسياد العظام لدَيْر صهيُون).

بالنِّسبة لهذه القائمة الثّالثة، حتَّىٰ ولو لمحة سريعة، تبدو سخيفة.

6

الأسياد العظام والجدول التّحأرْضيّ

في الملفّات السّرّيّة، الأفراد التّالية أسماؤهم مُدرجون كأسياد عظام تعاقبوا علىٰ دَيْر صهيُون، أو «Nautonnier» لو أردنا استعمال التّعبير الرّسْمي، وهي كلمة فرنسيّة قديمة تعني «المُرشد»، أو «القائد»:

جين دُو جيزرز	1188 ـ 1220
ماري دُو سانتكلير	1220 ـ 1266
غليُوم دُو جيزرز	1266 ـ 1307
إدوارد دُو بار	1307 ـ 1336
جين دُو بار	1336 ـ 1351
جين دُو سانتكلير	1351 ـ 1366
بلانتش ديفريُو	1366 ـ 1398
نيكُولاس فلاميل	1398 ـ 1418
رينيه دانجاو	1418 ـ 1480
إيُولند دُو بار	1480 ـ 1483
ساندُرو فيليبي	1483 ـ 1510
ليُوناردُو دافنتشي	1510 ـ 1519
كُونتيبل دُو باربُون	1519 ـ 1527
فيردناند دُو غُونزاغا	1527 ـ 1575

لويس دُو نيفرز	1575 ـ 1595
رُوبرت فلُود	1595 ـ 1637
يُوهان فالانتاين أندريا	1637 ـ 1654
رُوبرت بويل	1654 ـ 1691
إسحاق نيُوتن	1691 ـ 1727
تشارلز رادكليف	1727ـ1746
تشارلز دُو لُورين	1746 ـ 1780
ماكسيمليان دُو لُورين	1780 ـ 1801
تشارلز نُودير	1801 ـ 1844
فيكتُور هيوغُو	1844 ـ 1885
كلُود ديبُوسي	1885 ـ 1918
جين كُوكتُو	1918ـ

عندما رأينا هذه القائمة لأوَّل مرَّة، أثارت شُكُوكنا فوراً. من النَّاحية الأُولىٰ أنَّها تتضمَّن عدداً من الأسماء، التي يتوقَّع المرء ـ تلقائيّاً ـ إيجادها في مثل قائمة الأسماء هذه، التي تتضمَّن أشخاصاً مشهورين ارتبطوا بـ«الغُمُوض»، و«الباطنيَّة».

من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ هذه القائمة تتضمَّن عدداً من أسماء أفراد مشهورين مُستبعَدين عن التّوقُّع؛ أفراد لم نكن نتخيَّل ـ في بعض الحالات ـ أنَّهم يترأَّسون جمعيَّات سرِّيَّة.

وفي الوقت نفسه؛ العديد من هذه الأسماء هي ـ بالضَّبط ـ من النَّوع الذي حاولت مُنظَّمات القرن العشرين نَسْبَهَا ـ في أغلب الأحيان ـ لصُفُوفها؛ أيْ أنَّها تقوم بنوع من «النَّسَب الزّائف».

علىٰ سبيل المثال؛ هُناك قوائم نُشرَتْ من قِبَل «AMORC»[1]، وهي «الرُّوزيكرُوشيَّة» الحديثة، ومقرُّها في كاليفُورنيا، والتي تتضمَّن ـ عَمَليّاً ـ كُلَّ شَخْص مُهمٍّ في التَّاريخ والثَّقافة الغربيَّة، والذي قيَمُهُ ـ حتَّىٰ ولو بشكل بسيط جدّاً ـ تتَّفق مع قيَم النِّظام. التَّطابق أو التَّقارب العشوائي يُساء فَهمُهُ في أغلب الأحيان علىٰ أنَّه يُساوي «العُضويَّة الابتدائيَّة».

وهكذا يتمُّ إخبارك بأنَّ دانتي، وشكسبير، وغُوته[2]، وآخرون لا يُمكن إحصاؤهم كانوا «رُوزيكرُوشيِّيْن»؛ في الإشارة الضِّمنيَّة إلىٰ أنَّهم كانوا أعضاء يحملون بطاقة العُضويَّة، ويدفعون مُستحقَّاتهم بانتظام.

موقفنا الأوَّلي نحو القائمة أعلاه كان مُتهكِّماً علىٰ حَدٍّ سواء. مرَّة أُخرىٰ، هُناك الأسماء المُتوقَّعة ـ أسماء ارتبطت بـ«الغُمُوض» و«الباطنيَّة». نيكُولاس فلاميل، علىٰ سبيل المثال، رُبَّما الأكثر شُهرَة والمُوثَّق جيِّداً بأنَّه عالم كيماوي في القُرُون الوُسْطىٰ. رُوبرت فلُود، فيلسوف القرن السَّابع عشر، كان داعية فكْر لمواضيع السِّحْر، والمواضيع الغامضة الأُخْرَىٰ. يُوهان فالانتاين أندريا، ألماني مُعاصر لفلُود، أعَدَّ ـ من بين العديد من الأشياء الأُخْرَىٰ ـ البعض من الأعمال، التي خلَّفت أُسطُورة كريستيان رُوزينكرُوز الرَّائعة[3]. وهُناك ـ أيضاً ـ أسماء مثل ليُوناردُو دافينشي[4]، وساندُرو فيليبسي، والمشهور باسم بُوتيشيلي[5]. هُناك أسماء عُلماء بارزين، مثل رُوبرت بويل[6]، والسِّيْر إسحاق نيُوتن. أثناء القرنَيْن الأخيرَيْن؛ زُعمَ أنَّ الأسياد العظام لدَيْر صهيُون تضمَّنوا مثل هذه الشَّخصيَّات الأدبيَّة والثَّقافيَّة المُهمَّة كفيكتُور هيوغُو، وكلُود ديبُوسي، وجين كُوكتُو.

(1) (هي اللَّفظة الأوائليَّة من الجُملة التَّالية: Ancient Mystical Order Rosae Crucis. المُترجم).

(2) (غُوته، يُوهان فلفغانغ فُون (1749 ـ 1832): شاعر ألماني، يُعدُّ أعظم الشُّعراء الألمان في جميع العُصُور. المُترجم).

(3) (رُوزينكرُوز، أو رُوزينكرُوس هُو مُؤسِّس الرُّوزيكرُوشيَّة، والتي اشتقَّت اسمها منه، أمَّا هُو؛ فقد اشتقَّ اسمه من «رُوز كرُوس»؛ أيْ «الصَّليب الوَرْدي». المُترجم).

(4) (1452 ـ 1519: رسَّام ونحَّات ومُوسيقي ومُهندس إيطالي. يُعدُّ أحد أعظم العباقرة في جميع العُصُور. المُترجم).

(5) (بُوتيشيلي، ساندُرو 1445 ـ 1510: رسَّام إيطالي، من مواليد فلُورنسا. المُترجم).

(6) (فيلسوف بريطاني، وأحد مُؤسِّسي الكيمياء الحديثة، وأشهر إنجازاته قانون بويل الفيزيائي، الذي يشرح علاقة حجم الغاز بضغطه. المُترجم).

بتضمين مثل هذه الأسماء في قائمة الملفَّات السِّرِّيَّة سيجعلها موضع شكٍّ. لقد كان من المُستحيل ـ تقريباً ـ تصديق أنَّ البعض من أُولئك الأشخاص الذين استُشهد بهم كانوا يترأَّسون مُجتمعاً سرِّيَّاً؛ والأكثر من ذلك، مُجتمعاً سرِّيَّاً مُخصَّصاً للاهتمامات «الغامضة»، و«الباطنيَّة». بويل ونيُوتن، علىٰ سبيل المثال، من غير المُحتمل أنَّ أسماء أناس كهؤلاء ترتبط في القرن العشرين بـ«السِّرِّيِّيْن»، و«الباطنيِّيْن». وعلىٰ الرّغم من أنَّ هيُوغز، وديبُوسي، وكُوكتُو غُمرا بمثل هذه الأُمُور، يبدو أنَّهما كانا مشهورَيْن جدَّاً، وجيِّدَيْن جدَّاً في البحث والتَّوثيق، لكي يُمارسا دور «السِّيادة العُظْمَىٰ» في نظام سرِّيٍّ، والذي لا يتسرَّب منه أيَّة كلمة، مهما كانت الظُّرُوف.

من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ الأسماء البارزة ليست الأسماء الوحيدة في القائمة. أغلب الأسماء الأُخْرَىٰ تعود إلىٰ نُبلاء أُورُوبيِّيْن كبار، العديد منهم غامض جدَّاً، غريب ليس ـ فقط ـ بالنِّسبة للقارئ العامِّ، بل حتَّىٰ للمُؤرِّخ المُحترف. هُناك غليُوم دُو جيزرز، علىٰ سبيل المثال، الذي في عام 1306، قيل بأنَّه نظَّم دَيْر صهيُون إلىٰ «الماسُونيَّة السِّحْرِيَّة». وهُناك جَدُّ غليُوم، جين دُو جيزرز، الذي قيل بأنَّه كان السَّيِّد الأعظم المُستقبل الأوَّل لدَيْر صهيُون، مُتولِّياً منصبه بعد «قَطْع الدّردار»، والانفصال عن الهَيكَل عام 1188. لا خلاف أنَّ جين دُو جيزرز موجود من النَّاحية التَّاريخيَّة.

وُلد عام 1133، ومات في 1220. ذُكر في المواثيق، وكان ـ علىٰ الأقلِّ ـ سيِّداً اسميَّاً للقلعة المشهورة في النُّورماندي؛ حيثُ عُقدت الاجتماعات بين المُلُوك الإنجليز والفرنسيِّيْن بشكل تقليدي، كما فعل في «قَطْع الدّردار» عام 1188. يبدو أنَّ جين كان مالك أراض قويَّاً، وغنيَّاً جدَّاً، وحتَّىٰ 1193، كان المُقْطَع[1] لملك إنجلترا. معروف ـ أيضاً ـ أنَّه امتلك عقاراً في إنجلترا، في سوسيكس، وفي إقليم تيتشفيلد في هامبشاير. طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ قابل تُوماس بيكت في جيزرز في 1169 ـ مع أنَّه ليس هُناك إشارة لغرض هذا الاجتماع. كُنَّا قادرين علىٰ التَّأكُّد من أنَّ بيكت ـ في الحقيقة ـ كان في جيزرز عام 1169، وبالتَّالي؛ من المُحتمل بأنَّه كان علىٰ اتِّصال ما بلُورد القلعة؛ لكنَّنا لم نجد أيَّ سجلٍّ لأيِّ لقاء فعْلي بين الرَّجلَيْن.

(1) (المُقْطَع: شَخْص يُقطعه السَّيِّد الإقطاعي أرضاً لقاء تعهُّده بتقديم المُساعدة العَسْكَريَّة إليه. المُترجم).

باختصار؛ جين دُو جيزرز ـ ناهيكَ عن بعض التَّفاصيل العاديَّة ـ أثبت أنَّـه لا يُمكـن تقـصِّيه عَمَليّاً. يبدو أنَّه لم يترك أيَّ أثر مُهمٍّ في التَّاريخ، يُؤمِّن وُجُوده، وعُنوانه. لم نجد أيَّـة إشـارة لما عمله، والذي ـ لرُبَّما ـ شكَّل ادِّعاءه للشُّهرة، أو ضَمن فَرَضيَّته للسِّيادة العظيمة في دَيْر صهيُون.

إنْ كانت قائمة الأسياد العظام المزعومة لدَيْر صهيُون أصيلة، تساءلنا:

ما الذي قام به جين لكَسْب مكانه فيه؟

وإنْ كانت القائمة حديثة الصُّنع، لماذا يجب ـ علىٰ الإطلاق ـ تـضمين شَخْص ما شـديد الغُمُوض؟!

بدا ـ بالنِّسبة لنا أنَّه هُناك ـ فقط ـ تفسير مُحتمَل واحد، والذي ـ في الحقيقة ـ لم يُوضِّح الكثير. كالأسماء الأرستُوقراطيَّة الأُخرَىٰ في قائمة الأسياد العظام لـدَيْر صـهيُون، جـين دُو جيـزرز ظهـر في الأنساب المُعقَّدة، التي ظهرت في مكان آخر في «وثائق الـدَّيْر». سـويَّة مـع أُولئـك النُّـبلاء المُحيِّرين الآخرين، يبدو أنَّه عاد إلىٰ نفس الغابة الكثيفة لأشجار النَّسَب، تحـدَّر ـ بالأسـاس، كـما يـزعم ـ مـن سُلالة الميرُوفيِّين. وهكذا بدا واضحاً ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّ دَيْـر صـهيُون ـ إلىٰ مـدىٰ مُعـيَّن ـ كـان قـضيَّة وَطَنيَّة. بطريقة ما بدا أنَّ النِّظام ارتبط بحميميَّة بالسُّلالة والنَّسَب. ورُبَّما ارتباطهم بالأنـساب هُـو مـا يُفسِّر بعض الألقاب المُختلفة، التي وَرَدَتْ علىٰ قائمة الأسياد العظام.

من القائمة المُقتبسة أعلاه؛ يبدو بأنَّ السِّيادة العُظْمَىٰ لصهيُون انتقلت ـ بـشكل مُتكـرِّر ـ بـين مجموعتَيْن مُتميِّزتَيْن جَوْهَريّاً من الأفراد. من ناحية، هُناك الشَّخصيَّات ذات المنزلة العظيمة التي ـ من خلال العُلُوم الباطنيَّة، أو الفُنُون، أو العُلُوم ـ أنتجت بعض التَّأثير علىٰ التَّقليـد، والتَّـاريخ، والثَّقافـة الغربيَّة. من ناحية أُخرىٰ؛ هُناك أعضاء من شبكة مُعيَّنة مُرتبطـة بالعـائلات النَّبيلـة، وأحيانـاً؛ بأحـد أفراد العائلة المالكة. لدرجة ما هذا التَّراصُف الغريب منح بعض المعقُوليَّة للقائمة. إنْ كان الـشَّخص يرغب ـ فقط ـ بأنْ «يُلفِّق النَّسَبَ»، فلن يكون هُناك ضرورة لتـضمين العديـد مـن الأرسـتُوقراطيِّين المَنسيِّين، أو المجهولين، مُنذُ زمن طويل. ولن يكـون هُنـاك ضرورة ـ علـىٰ سـبيل المثـال ـ في تـضمين رجل مثل تشارلز دُو لُورين ـ مُشير نمساوي في القرن الثَّامن عشر، نسيب الإمبراطُورة ماريا تيريـزا ـ الذي أثبت حماقته ـ بشكل بارز ـ في ساحة المعركة، وكان يخسر المعركة تلـو الأُخـرَىٰ أمـام فردريـك الكبير من برُوسيا.

في هذا المجال، علىٰ الأقلّ، دَيْر صهيُون يبدو بأنَّه مُعتدل، وواقعي. إنَّه لا يدَّعي بأنَّه عمل تحت رعايــة العبــاقرة التّــامِّين، أو الــسَّادة الخــارقين، أو المُطَّلعــين المُنــوَّرين، أو القدِّيــسين، أو الحُكَمَاء، أو الخالدين. بالعكس؛ يعترف بأنَّ أسياده العظام هُم بشرٌ غـير معـصومين، وهُـو مقطـع تمثيلي للإنسانيَّة؛ بضعة عباقرة، وبضعة بارزين، وبضعة «نـماذج مُتوسِّـطة»، وبـضعة تـافهين، وحتَّـىٰ بضعة حَمْقَىٰ.

لماذا؟ لم يسعنا إلَّا أنْ نتساءل، قائمة مُركَّبة، أو مُشكَّلة، يجب أنْ تتضمَّن طيفاً مُتنوِّعاً كهذا؟

إذا رغب الشَّخص بتلفيق قائمـة للأسـياد العظـام، لِمَ لا يجعـل كُـلَّ الأسـماء التـي فيهـا مـن المشاهير؟

إذا الشَّخص رغب بتلفيق قائمة بالأنساب تضمُّ ليُوناردُو، ونيُوتن، وفيكتُور هيوغُو، فلِـمَ لا يضمّ إليها دانتي أيضاً، ومايكل أنغلُو، وغُوتيه، وتُولـستُوي[1]، بـدلاً مـن أشـخاص غامـضين مثـل إدوارد دُو بار، وماكسيمليان دُو لُورين؟

علاوةً علىٰ ذلك؛ لماذا كان هُناك العديد من الشَّخصيَّات الأقلّ شُهرَة في القائمة؟!

لماذا كاتب بسيط نسبيَّاً مثل نُودير، بدلاً من المُعاصرين أمثال تشارلز بيرُون، أو بُوشكين؟!

لماذا شَخْص غريب الأطوار نوعاً ما مثل كُوكتُو[2]، بدلاً من رجال ذوي سُمعة دوليَّـة كبـيرة أمثال أندريه جيد[3]، أو ألبرت كامُو[4]؟ ولماذا حُذف أشخاص مثل بُوسَّان، والذي كـان لـه بشكل مُؤسّس اتِّصال باللُّغز مُسبقاً؟!

مثل هذه الأسئلة ضايقتْنَا، وجعلتْنَا نشكُّ بأنَّ القائمة تحتـاج لـبعض الاهـتمام، قبـل أنْ ننظـر إليها علىٰ أنَّها احتيال محض.

---

(1) (تُولستُوي، ألكسي (1883 ـ 1945): روائي رُوسي. قاوم النِّظام السُّوفياتي، ثُمَّ أعلن تأييده له. المُترجم).
(2) (كُوكتُو، جان (1889 ـ 1963): شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي. عمل في حقلَيْ الرَّسْم والزّخرفة أيضاً. المُترجم).
(3) (جيد، أندريه (1869 ـ 1951): كاتب وناقد فرنسي. مُنح جائزة نُوبل في الآداب عام 1947. المُترجم).
(4) (كامُو، ألبير (1913 ـ 1960): روائي فرنسي. مُنح جائزة نُوبل في الآداب عـام 1957. أشـهر آثـاره: «الطَّـاعون» la peste (عام 1947). المُترجم).

لذلك بدأنا بدراسة مُفصَّلة وطويلة للأسياد العظام المزعومين؛ سِيَرهم الذَّاتيَّة، ونشاطاتهم، وإنجازاتهم. لإجراء هذه الدِّراسة حاولنا ـ بقدر الإمكان ـ إخضاع كُلِّ اسم في القائمة لبعض الأسئلة الحرجة:

1) هل كان هُناك أيُّ اتِّصال شَخْصي ـ مُباشر، أو غير مُباشر ـ بين كُلِّ سيِّد أعظم مزعوم، وسَلَفه المُباشر، ووريثه المُباشر؟!

2) هل كان هُناك أيُّ انتماء، بالدَّم، أو ما عدا ذلك، بين كُلِّ سيِّد أعظم مزعوم، والعائلات التي وردت في سُلالة «الوثائق السِّرِّيَّة»؛ وأيِّ من عائلات ذات أُصُول ميرُوفينجيَّة، وخُصُوصاً البيت الدُّوقي في لُورين؟!

3) هل كان كُلُّ سيِّد أعظم مزعوم قد ارتبط ـ بأيِّ شكل ـ برين لُو شاتُو، أو جيزرز، أو ستيناي، أو القدِّيس سُولبيس، أو أيِّ من المواقع الأُخْرَىٰ، التي تكرَّرت في سياق تحقيقنا السَّابق؟!

4) إنْ عرَّف دَيْر صهيُون نفسه بأنَّه «الماسُونيَّة السِّحْرِيَّة»، هل كُلُّ سيِّد أعظم مزعوم أبدىٰ مُيُولاً نحو الفِكْر السِّحْريِّ، أو الارتباط بالجمعيَّات السِّرِّيَّة؟!

بالرّغم من أنَّ المعلومات عن الأسياد العظام قبل عام 1400 هي صعبة، وأحياناً؛ من المُستحيل الحُصُول عليها، أنتج تحقيقنا حول الشَّخصيَّات التَّالية بعض النَّتائج والاتِّساق المُدهش. العديد منهم ارتبطوا ـ بطريقة، أو بأُخْرَىٰ ـ بواحد، أو أكثر، من المواقع التي بدا أنَّها قد تكون ذات علاقة ـ رين لُو شاتُو، جيزرز، ستيناري، أو القدِّيس سُولبيس. أغلب الأسماء في القائمة كانت إمَّا تحالفت بالدَّم مع آل لُورين، أو ارتبطت بهم بطُرُق أُخرىٰ؛ حتَّىٰ رُوبرت فلُود ـ علىٰ سبيل المثال ـ عمل كمُعلِّم خاصٍّ لأبناء هنري لُورين. بدءاً من نيكُولاس فلاميل وحتَّىٰ النِّهاية، كُلُّ اسم في القائمة ـ بدُون استثناء ـ كان حافلاً بالفِكْر السِّحْريِّ، ومُرتبطاً بالجمعيَّات السِّرِّيَّة في أغلب الأحيان أيضاً، حتَّىٰ الرِّجال الذين أحدهم لا يرتبط بمثل هذه الأشياء بسُهُولة، مثل بويل، ونيُوتن. وباستثناء واحد فقط، كُلُّ سيِّد أعظم كان له اتِّصال ما ـ أحياناً مُباشر، وأحياناً من خلال الأصدقاء المُشتركين القريبين ـ مع أُولئك الأسياد الذين سبقوه، وسيخلفونه.

إلىٰ القدر الذي استطعنا الوُصُول إليه من التَّحقيق، وجدنا أنَّه هُناك اقتحام واحد فقط للسِّلسلة. وحتَّىٰ ذلك الاقتحام ـ الذي يبدو أنَّه حَدَثَ أثناء الثَّورة الفرنسيَّة، بين ماكسيمليان دُو لُورين وتشارلز نُودير ـ ليس مُقنعاً بأيِّ وسيلة.

ضمن سياق هذا الفَصْل لا يُعقَل مُناقشة كُلٍّ من الأسياد العظام المزعومين بالتَّفصيل. بعض الشَّخصيَّات الأكثر غُمُوضاً لها بعض الأهمِّيَّة، ولكنْ؛ لتوضيح هذه الأهمِّيَّة بالكامل، يستلزم الأمر استطراداً طويلاً، يُودي إلىٰ تشعُّبات فرعيَّة مَنْسيَّة من التَّاريخ.

فيما يتعلَّق بالأسماء الأكثر شُهرَة؛ سيكون من المُستحيل إنصافهم ببضع صفحات. بالنَّتيجة، المادَّة المُتعلِّقة بالسِّيرة المُتعلِّقة بالأسياد العظام المزعومين، والارتباطات التي تمَّتْ بينهم أُودعَتْ في مُلحق هذا الكتاب، والفصل الحالي سيهتمُّ بالتَّطوُّرات الاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، الأوسع التي لعبت فيها سلسلة الأسياد العظام المزعومين دوراً جماعيَّاً. في مثل هذه التَّطوُّرات الاجتماعيَّة، والثَّقافيَّة، بدا بحثنا بإنتاج أثر قابل للإدراك عن حُكْم دَيْر صهيُون.

رينيه دانجاو

بالرّغم من أنَّه قليل الشُّهرة اليوم، رينيه دانجاو ـ «الملك الجيِّد رينيه» كما كان يُعرَف ـ كان أحد أهمِّ الشَّخصيَّات في الثَّقافة الأُورُوبيَّة أثناء السَّنوات التي سبقت عصر النَّهضَة مُباشرة.

وُلد عام **1408**. أثناء حياته؛ حصل علىٰ نَسَق رهيب من الألقاب، والمناصب. من الأكثر أهمِّيَّة كان كُونت بار[1]، كُونت برُوفانس، كُونت بيدمُونت، كُونت غايز، دُوق كلابريا، دُوق انجاو، دُوق لُورين، ملك هنغاريا، ملك نابولي وصقلية، ملك إرغن، وفالينسيا، ومايُوركا، وساردنيا، واللَّقَب الرَّنَّان، الذي ـ لرُبَّما ـ هُو أعظم من الكُلِّ «ملك القُدْس». هذا الأخير كان ـ بالطَّبع ـ لقباً فخريَّاً. علىٰ الرّغم من أنَّ ذلك يستشهد رُجُوعاً بالملك غُودفرُوي دُو بلُويُون، وقد أقرَّه المُلُوك الأُورُوبيُّون الآخرون. إحدىٰ بنات رينيه، مارغريت دانجاو، عام **1445**، تزوَّجت هنري السَّادس ملك إنجلترا، ولعبت دوراً بارزاً في حُرُوب الوَرْد[2].

---

(1) (بار قرية فرنسيَّة. المُترجم).

(2) (سلسلة من الحُرُوب الأهليَّة السُّلاليَّة في إنجلترا، حصلت بين العائلات المُتنافسة لآل لانكاستر ويُورك بين عامَيْ 1455 و 1485. المُترجم).

في مراحله السَّابقة بدا أنَّ مسيرة رينيه دانجاو المهنيَّة كانت بـبعض الطُّـرُق الغامـضة مُرتبطـة بـ«جين دارك»[1]. بقدر ما هُو معروف، جين وُلدت في بلدة دُومريمي في دُوقيَّة[2] بار، جـاعلاً إيَّاهـا أحد رعايا رينيه. أوَّل ما وضعت بصمتها في التَّاريخ كـان في عـام 1429، عنـدما ظهـرت في قلعـة فاكالُورز، والتي تبعد بضعة أميال فوق نهر ميُوس عن دُومريمي. بعد أنْ قدَّمت نفسها لقائد القلعـة، أعلنت بأنَّها في «مهمَّة مُقَدَّسَة» لإنقاذ فرنسا من المُحتلِّين الإنجليز، ولتضمن بأنَّ الدوفين[3] ـ آنذاك ـ تشارلز السَّابع، سيُتوَّج مَلكاً. لكي تُؤدِّي هذه المهمَّة، يجب أنْ تنضمَّ إلىٰ الدوفين في قصره في شـينون، علىٰ نهر «لوار»، بعيداً باتِّجاه المنطقة الجنوبيَّة الغربيَّة. لكنَّها لم تُطالب بالعُبُور إلىٰ شينُون مـن القائـد في فاكالُورز؛ طالبت بمُثُول خاصٍّ أمام دُوق لُورين؛ عمّ رينيه، وخال الأب.

احتراماً لطلبها؛ مُنحَتْ جينُ الإذنَ بالمُثُول أمام الدُّوق في عاصمته في نانـسي. عنـدما وصـلت هُناك، كما يُعرَف بأنَّ رينيه دانجاو كـان حـاضراً. وعنـدما دُوق لُـورين سـألها مـا رغبتهـا؟ أجابـت ـ بشكل واضح ـ ببضع كلمات، حيَّرت المُؤرِّخين علىٰ الدَّوام: (ابنكَ «نـسيبكَ»، وحـصان، وبعـض الرِّجال الجيِّدين، لأَخْذي إلىٰ فرنسا[4]).

في ذلك الوقت، وفيما بعد، شاع وُجُود اتِّصال بين رينيه وجـين. طبقـاً لـبعض المـصادر ـ مـن المُحتمل أنَّها خاطئة ـ الاثنان كانا في علاقة حُبٍّ. لكنْ؛ تبقىٰ الحقيقة بأنَّهما عرفـا بعـضهما بعـضاً، وأنَّ رينيه كان حاضراً عندما بدأت جين مهمَّتها الأُولىٰ.

علاوةً علىٰ ذلك؛ يزعم المُؤرِّخـون المُعـاصرون بأنَّـه عنـدما غـادرت جـينُ قـصرَ الـدوفين في شينُون، رينيه رافقها. وليس ذلك فقط، يُصرِّح المُؤرِّخون أنفـسهم بـأنَّ رينيـه كـان ـ بـشكل فعـلي ـ حاضراً إلىٰ جانبها أثناء حصار أُورليان.

---

(1) (القدِّيسة جين دارك: فرنسيَّة الأصل (1412 ـ 1431)، تُسمَّىٰ فتاة أُورليان، وهـي بَطَلَـة وَطَنيَّـة، وقدِّيسة شـفيعة لفرنسا، وتحدت الأُمَّة في ساعة خطرة، وغيَّرت مجرىٰ حرب السَّنوات المائة بشكل حاسم لصالح فرنسا. المُترجم).

(2) (الدُّوقيَّة: إمارة يحكمها دُوق. المُترجم).

(3) (الدوفين: الابن البكر لملك فرنسي. المُترجم).

(4) (دُوق لُورين لم يكن لديه وَلَد، وفي العُرْف المُتَّفق عليه آنذاك، جين كانت تقصد بحديثها رينيه. المُؤلِّفون).

في القُرُون التَّالية؛ مُحاولة مُنظَّمة يبدو بأنَّها قد استُخدمَتْ لحَذْف كُلِّ أثر لدَوْر رينيه المُحتمَل في حياة جين. رغم ذلك؛ الكُتَّاب التَّاليون لسيرة رينيه لم يستطيعوا كَشْف مكانه، أو نشاطاته بين عامَيْ 1429 و 1431 ذروة مهمَّة جين. يُزعَم ـ عادةً، وبشكل ضمني ـ بأنَّه كان مُنعزلاً في قصر دُوق في نانسي، لكنْ؛ ليس هُناك دليل لدَعْم هذه الفَرَضيَّة.

الظُّرُوف تُشكِّك بأنَّ رينيه رافق جين إلىٰ شينُون؛ لأنَّه إنْ كان هُناك شَخص ما مُهيمن في شينُون في ذلك الوقت، فذلك الشَّخص كان إيُولند دانجاو. كانت إيُولند هي التي زوَّدت الدوفين[1] المُصاب بالحُمَّىٰ والإحباط بجُرعات مُستمرَّة من الرُّوح المعنويَّة. كانت إيُولند هي التي عيَّنت نفسها الرَّاعية والكفيلة الرَّسْميَّة لجين، وبشكل لم يُمكن توضيحه. كانت إيُولند التي تغلَّبت علىٰ رفض المحكمة للبنت النُّبُوئيَّة، وللتَّفويض الذي مُنح لها لمُرافقة الجيش إلىٰ أُورليان. كانت إيُولند هي التي أقنعت الدوفين بأنَّ جين ـ في الحقيقة ـ قد تكون المُنقذة التي تدَّعي أنَّها هي. كانت إيُولند هي التي دبَّرت زواج الدوفين بينتها. وإيولند هي التي كانت أُمَّ رينيه دانجاو.

عبر قراءتنا لهذه التَّفاصيل، أصبحنا مُقتنعين جدّاً ـ كالعديد من المُؤرِّخين الحديثين ـ بأنَّ شيئاً ما كان يحدث «خلف السِّتار»، مُؤامرة ما عالية المُستوىٰ، ومُعقَّدة، أو خُطَّة جريئة. كُلَّما بحثنا أكثر في الموضوع، وجدنا ـ بشكل أكبر ـ أنَّ مهنة جين كانت «مُدبَّرة» ـ كما لو أنَّ شَخص ما، يستغلُّ الأساطير الشَّعبيَّة «عذراء من لُورين»، ويلعب ـ بشكل مُبدع ـ علمَ نَفْس جماعيّاً، هَنْدَسَ، ونظَّم، ما يُسمَّىٰ بمهمَّة فتاة أُورليان.

بالطَّبع؛ هذا لا يفترض وُجُود جمعيَّة سرِّيَّة. لكنَّه ـ بالتَّأكيد ـ يجعل وُجُود مثل هذا المُجتمع أكثر معقُوليَّة. وإنْ وُجدَ مثل هذا المُجتمع، الرَّجل الذي يترأَّسه ـ لرُبَّما ـ هُو رينيه دانجاو.

---

(1) (الدوفين هُو الابن البكر لملك فرنسي. المُترجم).

رينيه وموضوع أركادية [1]

إنْ كان رينيه قد ارتبط بجين دارك، فمهنته الأخيرة ـ في الجُزء الأكبر منها ـ كانت ـ بوُضُوح ـ أقلّ عُدوانيَّة.

علىٰ خلاف العديد من مُعاصريه؛ رينيه كان مُحارباً بشكل أقلّ من أحد أفراد الحاشية. في هذا المجال؛ كان قد وُضع في المكان الخاطئ لعُمْره، باختصار؛ كان رجلاً قبل أوانه، سابقاً للأُمراء الإيطاليِّيْن المُثقَّفين في عصر النَّهضَة. كان شَخْصاً مُثقَّفاً جدَّاً، كَتَبَ بغزارة، وشهر كُتُبَهُ الخاصَّة.

ألَّف الشِّعْرَ، والحكايات الباطنيَّة، بالإضافة إلىٰ خُلاصات قواعد المُسايفة. أراد تنمية تقدُّم المعرفة، ومرَّةً؛ وظَّف كريستُوفر كُولُومبُوس. كان حافلاً بالتَّقليد الباطني، وقصره تضمَّن المُنجِّم اليهُودي والقَبَلاني والطَّبيب المعروف بجين دُو سانت ريمي.

طبقاً لعدد من الرِّوايات؛ جين دُو سانت ريمي كان جَدَّ ناستراداmُوس، مُتنبِّئ القرن السَّادس عشر المشهور، الذي سيرد ـ أيضاً ـ في قصَّتنا[2].

تضمَّنت اهتمامات رينيه الفُرُوسيَّةَ، والآرثريَّات[3]، ورُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة».

في الحقيقة؛ يبدو أنَّه كان مُنشغلاً ـ بشكل خاصٍّ ـ بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». قيل بأنَّه كان يُفاخر ـ بشكل ـ كبير بكَأس رائع من الحَجَر السّمَاقي الأحمر، والذي ـ كما صرَّح ـ بأنَّه استُعمل في الزّفاف في «كان». وادَّعىٰ أنَّه حصل عليه من مرسيليا؛ حيثُ مَجْدَلِيْن (مَرْيَم المَجْدَليَّة)، طبقاً للتَّقاليد؛ هبطت بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». يتحدَّث مُؤرِّخون آخرون عن كَأس في حيازة رينيه ـ رُبَّما نفسه ـ كان يحمل نَقْشَاً غامضاً داخل الحافَّة:

---

(1) (أركادية: منطقة جبليَّة في بلاد اليُونان، اشتُهرت بأنَّها مَوْئل الرُّعاة البُسطاء القانعين بما قُسِمَ لهم. المُترجم).

(2) (لمزيد من المعلومات؛ يُراجَع كتاب ناستراداmُوس الألفيَّة الجديدة، للمُؤلِّف جُون هُوغ، الذي كلَّفتني دار الأوائل بترجمته، وصَدَرَ في دمشق،آذار،2006.المُترجم).

(3) (أساطير القُرُون الوُسْطَىٰ، التي تتحدَّث عن آرثر الملك البريطاني الذي كان قصره في كاملُوت، وكان قائد فُرسان الطَّاولة المُستديرة. المُترجم).

Qui bien beurra
Dieu voira.
Qui beurra tout d'une baleine
Voira Dieu et la Madeleine.

(ذلك الذي يشرب بشكل حَسَن

سيرىٰ الله.

والذي يعُبُّ بجرعة واحدة

سيرىٰ اللهَ ومَجْدَلِيْن).

لن يكون من الخطإ اعتبار أنَّ رينيه اينجاو هُو الحافز الرَّئيس وراء الظَّاهرة، التي تُسمَّىٰ ـ الآن ـ بعصر النَّهضَة. بسبب أملاكه الإيطاليَّة العديدة؛ أمضىٰ بعض السَّنوات في إيطاليا، وخلال صداقته العميقة مع عائلة سفُورزا الحاكمة في ميلان؛ أقام نوعاً من التَّواصل مع عائلة ميديسي، التي كانت فلورينس. هُناك سبب جيِّد للاعتقاد بأنَّ رينيه كان له تأثير كبير علىٰ دَفْع كُوزيمُو دُو ميديسي للبدء بسلسلة المشاريع الطّموحة، مشاريع قُدِّر لها أنْ تُحوِّل الحضارة الغربيَّة.

في **1439**، بينما كان رينيه مُقيماً في إيطاليا، كُوزيمُو دُو ميديسي بدأ بإرسال وُكلائه في جميع أنحاء العالم؛ بحثاً عن المَخْطُوطَات القديمة. ثُمَّ، في عام **1444**، أسَّس كُوزيمُو مكتبة أُورُوبا العامَّة الأُولىٰ، مكتبة سان ماركُو، وهكذا بدأ بتحدِّي احتكار التَّعلُّم في الكَنيسَة، الذي دام لمُدَّة طويلة. في لجنة كُوزيمُو السَّريعة، مجموعة الفِكْر السِّحْري، والمعرفي، والفيثاغُوري، والأفلاطوني المُحدث، والأفلاطوني، تُرجمت للمرَّة الأُولىٰ، وبالتَّالي؛ أصبحت سهلة المنال.

أقام كُوزيمُو ـ أيضاً ـ جامعة فلُورينس؛ للبدء بتعليم اليُونانيَّة للمرَّة الأُولىٰ في أُورُوبا مُنْذُ حوالي سبعمئة سنة. وتعهَّد بإنشاء أكَاديميَّة الدِّراسات الفيثاغُوريَّة، والأفلاطونيَّة. ولَّدت أكَاديميَّة كُوزيمُو ـ بسُرعة ـ عدداً من المُؤسَّسات المُماثلة في كافَّة أنحاء شبه الجزيرة الإيطاليَّة، والتي أصبحت معاقل التَّقليد الباطني الغربي. ومنها؛ بدأت الثَّقافة العالية لعصر النَّهضَة بالنُّمُوِّ، والتَّفتُّح.

إنْ كان رينيه اينجاو ساهم ـ بشكل خاصٍّ ـ في تشكيل الأكاديميَّات بطريقة ما، يبدو ـ أيضاً ـ أنَّه مَنَحَهَا أحد مواضيعها الرَّمْزيَّة المُفضَّلة؛ تلك المُتعلِّقة بأركادية.

بكُلِّ تأكيد، موضوع أركادية في ثقافة ما بعد المسيح الغربيَّة ظهر لأوَّل مرَّة في مهنة رينيه الخاصَّة.

في 1449، علىٰ سبيل المثال، في محكمته في تاراسكون، رينيه نظَّم سلسلةً تُدعىٰ الرَّقصة القتاليَّة «pas d'armes»؛ هي مزيج غريب مُركَّب من البُطُولة، والتَّمثيل، والتي فيها الفُرسان يُهاجمون بعضهم بعضاً، وفي الوقت نفسه؛ يُؤدُّون نوعاً من التَّمثيل، أو المسرحيَّة. أحد الحلقات الأكثر شُهرَة في تلك السّلسلة كانت تُدعىٰ «الرَّقصة القتاليَّة للفتاة الرِّيفيَّة». والتي لعب دورَها عشيقتُهُ في ذلك الوقت، الفتاة الرِّيفيَّة كانت شَخْصيَّة أركاديَّة بشكل واضح، تُجسِّد الخواصَّ الرُّومانسيَّة، والفَلْسَفِيَّة، كلتَيْهما. أشرفت علىٰ مُبارزة بين فُرسان ينتحلون شَخْصيَّات رَمْزيَّة، مُجسِّدين تنازعاً بين القيَم، والآراء. الحَدَثُ كان دَمْجاً مُفرداً للرُّومانسيَّة الأركاديَّة الرّعويَّة، مع روعة المائدة المُستديرة، وألغاز «الكَأس المُقَدَّسَة».

الأركاديَّة تمَّ تجسيدها في مكان آخر في عمل رينيه أيضاً. يُدَلُّ عليها كثيراً بنافورة، أو بشاهدة قَبْر، وهذان الأمران كلاهما مُرتبطان بالجدول التّحأرْضيّ. هذا الجدول ـ عادةً ـ يُطابق نهر ألفيُوس؛ هُو النَّهر المركزي في الجَغرافية الفعليَّة لأركاديا في اليُونان، والذي يتدفَّق تحت الأرض، ويُقال بأنَّه ظهر علىٰ سطح الأرض ثانية في «نافُورة أريثُوسا» في صقلية. مُنْذُ العصر الأكثر قدَماً، وحتَّىٰ روائيَّة كُوليريدج[1]، التي اسمها «قُبلا خان»، ويُعدُّ نهر ألفيُوس مُقدَّساً. اسمه الفعلي مُشتقٌّ من نفس جَذْر الكلمة اليُونانيَّة «ألفا»، والتي تعني «أوَّل»، أو «المصدر».

بالنِّسبة لرينيه؛ يبدو موضوع الجدول التَّحت أرضي بأنَّه غني جدَّاً بالأصداء الرَّمْزيَّة، والمجازيَّة. بين الأشياء الأُخرَىٰ، يبدو أنَّ هذا الجدول يتضمن التَّقاليد الباطنيَّة «التَّحت أرضيَّة» (السِّرِّيَّة) للفكر السِّحْري، والقَبَلاني، والمعرفي، والفيثاغُوري. لكنَّه ـ لرُبَّما ـ يعني ـ أيضاً ـ شيئاً أكثر من مُجرَّد مجموعة عامَّة من التَّعليمات، رُبَّما بعض المعلومات الواقعيَّة الدَّقيقة جدَّاً؛ «سرَّاً» من نوع ما أُرسل بزيٍّ سرِّيٍّ من جيل لجيل. وهُو ـ قد ـ يعني سُلالة غير ملحوظة؛ أيْ «تحت أرضيَّة».

في الأكاديميَّات الإيطاليَّة، صُورة «الجدول تحت الأرضي» يبدو بأنَّها قد استُخدمت في كُلِّ مُستويات ذلك المعنىٰ. ويتكرَّر ـ بثبات ـ ذلك كثيراً؛ لدرجة أنَّ الأكاديميَّات ـ بحَدِّ ذاتها ـ عُدَّت ـ في أغلب الأحيان ـ أركاديَّة.

---

(1) (كُولريدج، صموئيل تايلُور (1772ـ 1834): شاعر رُومانتيكي إنكليزي. يُعدُّ من أعظم المُنظِّرين الأدبيَّيْن في عصره. المُترجم).

وهكذا، في عام 1502، تمَّ نَشْر عمل أدبي رئيس، قصيدة طويلة عُنوانها «أركاديـة»، للـشَّاعر جاكُوبُو سانزارُو، وحاشية رينيه اينجاو الإيطاليَّة ـ قبل بضع سنوات ـ تضمَّنت شَخْصاً يُدعىٰ جـاك سانزار، من المُحتمل أنَّه والد ذلك الشَّاعر.

في عـام 1553، قـصيدة سـانزارو تُرجمـت إلىٰ الفرنـسيَّة. وكُرِّسـت ـ ممَّا يُثـير الانتبـاه ـ إلىٰ كاردينال لينُونكُـورت[1]؛ سَـلَف كُونـت[2] لينُونكُـورت في القـرن العـشرين، والـذي جَمَـعَ سُـلالة الأنساب في «وثائق الدَّيْر».

أثناء القرن السَّادس عشر؛ أركادية و«الجدول التَّحت أرضي» أصبحا طرازاً ثقافيَّـاً بـارزاً. في إنجلترا، ذلك الموضوع أدَّىٰ إلىٰ ولادة وإثارة العمل الأكثر أهمِّيَّة للسِّيْر فيليـب سـيدني، والـذي كـان عُنوانه «أركادية»[3].

في إيطاليا؛ ألهم ذلك الموضوعُ شَخصيَّات شهيرة؛ مثل تُوركاتُو تُوسُو ـ والذي عمله الـرَّئيس بعُنوان «القُدْس حُرِّرَتْ»، والذي يتحدَّث عن أَسْر المدينة المُقَدَّسَة من قِبَل غُـودفرُوي دُو بلُويُـون. في القـرن الـسَّابع عـشر؛ موضـوع أركاديـة تُـوِّج مـن قِبَـل نيكُـولاس بُوسَّـان في لوحـة «Les Bergers d'Arcadie».

كُلَّما استكشفنا المسألةَ أكثر، أصبح أكثر وُضُوحاً أنَّ هُناك شيئاً ما ـ تقليداً من نوع ما، تـدرُّجاً للقيَم، أو المواقف، وربَّما كمَّاً مُعيَّناً من المعلومات ـ وبـشكل ثابـت يـتمُّ الإعـلان عنـه عـبر «الجـدول التَّحت أرضي».

يبدو أنَّ هذه الفِكْرَة قد انتحلت أبعاداً استحواذيَّة في عُقُول بعض العائلات السِّياسيَّة الـسَّامية في تلك الفترة، جميعهم ـ بشكل مُباشر، أو غير مُباشر ـ وردوا في سُلالة الأنـساب في «وثـائق الـدَّيْر».

---

(1) (كاردينال: وجيه مسيحي كَاثُوليكي رُوماني: في الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة، هُو أحـد مجموعـة رجـال الـدِّين، الذين يتبعون البَابَا في الرُّتبة، والذين ينتخبون البَابَا، ويعملون كمُستشاريه. لينُونكُورت: منطقة فرنسيَّة. المُترجم).

(2) (الكُونت: هُو الأرستقراطي الأُورُوبي، وهُو رجل نبيل في بعض البُلدان الأُورُوبيَّة، ويُعادل لقب الإيرل البريطاني، والإيرل في بريطانية هُو أدنىٰ من المركيز، وأرفع من الفيكُونت. المُترجم).

(3) (السِّيْر فيليب سيدني كان شريك جين دي، وأيضاً؛ كان حافلاً بالفِكْر الهَرْطَقي. فرانسيس يـيتس عـدَّت جـين دي مصدرَ البيَانَات الرُّوزيكرُوشيَّة. المُؤلِّفون).

وتلك العائلات ـ موضع السُّؤال ـ يبدو أنَّها أرسلت المفهوم إلىٰ رعيَّتهم العاملين في مجال الفُنُون. من رينيه اينجاو يبدو أنَّ شيئاً ما عبر إلىٰ آل ميديسي، وآل سفُورزا، وآل ايستي، وآل غُونزاغا، وتلك العائلة الأخيرة ـ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ـ زوَّدت دَيْر صهيُون بسيِّدَيْن عظيمَيْن؛ هُما فيرانت دُو غُونزاغا، ولويس دُو غُونزاغا (كُونت نيفرز). ومنهما يبدو أنَّ المفهوم وجد طريقه إلىٰ عمل أكثر الشُّعراء والرَّسامين شُهرة في عصرهم، بمَنْ فيهم بُوتيشيلي وليُوناردُو دافنتشي.

البَيَانَات العامَّة للرُّوزيكرُوشيِّيْن

نَشْرٌ مُماثل جدَّاً للأفكار حَدَثَ في القرن السَّابع عشر، أوَّلاً في ألمانيا، ثُمَّ انتشر إلىٰ إنجلترا. في **1614**، ظهر أوَّل ما يُسمَّىٰ ببيانات الرُّوزيكرُوشيِّيْن العامَّة، وتبعها ـ بعد سنة ـ كُرَّاسة ثانية.

هذه البَيَانَات العامَّة خَلَقَتْ غضباً في ذلك الوقت، وأثارت انفجاراً حادَّاً لدىٰ الكَنيسَة، واليسوعيِّيْن، وحصلت علىٰ دعم مُتحمِّس من الفئات التَّحرُّريَّة البرُوتستانتيَّة في أُورُوبا. من بين الدُّعاة البُلغاء والأكثر تأثيراً للفكر الرُّوزيكرُوشي كان رُوبرت فلُود، الذي يُدرج اسمه كالسَّيِّد الأعظم السَّادس عشر في دَيْر صهيُون، ترأَّس بين عامَيْ **1595** و **1637**.

من بين الأشياء الأُخرَىٰ؛ أعلنت بيانات الرُّوزيكرُوشيِّيْن العامَّة قصَّة الأُسطُوري كريستيان رُوزينكرُوز.

يُدعىٰ بأنَّها صدرت من جمعيَّة خيريَّة «خفيَّة» سرِّيَّة، مُؤلَّفة من «المُطَّلعين» في ألمانيا وفرنسا.

وعدوا بتحويل العالم والمعرفة الإنسانيَّة بمُوجب مبادئ سِحْرِيَّة باطنيَّة ـ «الجدول التَّحت أرضي» الذي تدفَّق من رينيه اينجاو خلال عصر النَّهضَة. أيُّ عهد جديد من الحُرِّيَّة الرُّوحيَّة للبشر، عهد يُمكن فيه لأيِّ رجل أنْ يُحرِّر نفسه من قُيُوده السَّابقة، وسيفتح «أسرار الطَّبيعة» الخاملة حتَّىٰ الآن، وسوف يحكم قَدَرَهُ بنفسه وُفق قوانين كَونيَّة مُنسجمة وعالميَّة الانتشار!!

في الوقت نفسه؛ البَيَانَات العامَّة كانت تحريضيَّة جدَّاً سياسيَّاً، تُهاجم الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة بعُنف، وكذلك الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة القديمة. هذه البَيَانَات العامَّة يُعتقَد ـ عُمُوماً، الآن ـ بأنَّها قد كُتِبَتْ من قِبَل عالم ديني ألماني، وباطني، اسمه أندريا يُوهان فالانتاين، والذي أُدرج كالسَّيِّد

الأعظم لدَيْر صهيُون بعد رُوبرت فلُود. إنْ هي لم تُكتَبْ من قِبَل أندريا، فهي ـ بالتَّأكيد ـ قد كُتبت من قِبَل واحد، أو أكثر، من شُركائه.

في 1616، ظهرت الكُرَّاسة الرُّوزيكرُوشيَّة الثَّالثة، عُنوانها «الزّفاف الكيميائي لكريستيان رُوزينكرُوز». مثل العملَيْن السَّابقَيْن، الزّفاف الكيمياوي كان ـ أصلاً ـ مجهول المُؤلِّف، ولكنَّ أندريا بنفسه اعترف ـ لاحقاً ـ بأنَّه ألَّفه كـ«نُكتة»، أو كُوميديا.

الزّفاف الكيماوي هُو حكاية سِحْرِيَّة مُعقَّدة، والتي أثَّرت علىٰ أعمال كثيرة بعد ذلك؛ مثل «فاوست»[1]، للشَّاعر غُوتيه. كما أوضحت فرانسيس ييتس أنَّها تحتوي علىٰ أصداء واضحة للباطني الإنجليزي «جُون دي»، الذي أثَّر علىٰ رُوبرت فلُود أيضاً. يُستدعىٰ عمل أندريا ـ أيضاً ـ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»، وفُرسان الهَيكَل ـ كريستيان رُوزينكرُوز، علىٰ سبيل المثال، يُقال بأنَّه لبس سترة بيضاء مع صليب أحمر علىٰ الكتف. أثناء سرد القصَّة يتمُّ تأدية مسرحيَّة أيضاً ـ أيْ حكاية ضمن حكاية. هذه المسرحيَّة تتضمَّن أميرة من سُلالة «مَلَكيَّة» غير مُحَدَّدة، والتي أملاكها الشَّرْعيَّة اغتُصبَتْ من قِبَل البربر، وَرَمَتْهَا الأمواجُ بصُندُوقها الخشبي إلىٰ الشَّاطئ. بقيَّة المسرحيَّة تتعلَّق بتقلُّباتها وزواجها من الأمير، الذي سيُساعدها في استعادة أملاكها.

كشف بحثنا عن صلات مُتنوِّعة مع طرف ثان وثالث بين أندريا والعائلات التي سُلالتها وردت في «وثائق الدَّيْر». نحنُ لم نكتشف أيَّة صلات مُباشرة، أو من الطَّرف الأوَّل، علىٰ أيَّة حال؛ رُبَّما ما عدا فريدريك، بلاطينيّ[2] الرَّاين. فريدريك كان ابن أخ زعيم برُوتستانتي فرنسي مُهمّ، اسمه «هنري دُو لا تُور دُوفرين»، فيكُونت تُورين ودُوق بلُويُون ـ وهُو اللَّقَب القديم لغُودفرُوي دُو بلُويُون. هنري ارتبط بعائلة لُونغفيل أيضاً، والتي وردت في «وثائق الدَّيْر «وفي تحقيقنا الخاصّ كلَيْهما. وفي 1591، نال الكثير من المشاكل ليكتسب بلدة ستيناي.

(1) (يُوحنَّا فاوست: قارئ البَخْت، وساحر ألماني. يُعتقَد بأنَّه باع رُوحه للشَّيطان، مشهور جدَّاً بالأساطير التي تتعلَّق به، والتي شكَّلت قاعدة للأعمال الأدبيَّة والمُوسيقيَّة العديدة. المُترجم).

(2) (البلاطينيّ: أحد أبناء «البلاتينايت»،«Palatinate»،وهُما مُقاطعتان ألمانيَّان، كان يحكم كُلاًّ منهما، في عهد الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة، أمير بلاطينيّ. المُترجم).

في 1613، فريدريك البلاطيني تزوَّج إليزابيث ستيوارت، ابنة جيمس الأوَّل ملك إنجلترا، وحفيدة ماري ملكة الإسكتلنديِّيْن، وبنت حفيد ماري دُو غايس، وعائلة غايس كانت فرعاً من عائلة لُورين. ماري دُو غايس ـ قبل ذلك بقرن ـ كانت قد تزوَّجت بـدُوق لُونغفيل، وبعد ذلك ـ لدىٰ موته ـ تزوَّجت بجيمس الخامس ملك إسكوتلندا. هذا خلق نوعاً من التَّحالف السُّلالي بين عائلتَيْ ستيوارت، ولُورين.

في النَّتيجة؛ بدأ آل ستيوارت بالظُّهُور ـ ولو بشكل خارجي ـ في سُلالة الأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ وأندريا ـ بالإضافة إلىٰ الأسياد العظام الثَّلاثة الذين تلوه ـ أبدوا اهتماماً علىٰ مُستويات مُختلفة بالبيت المَلَكي الإسكتلندي.

أثناء هذه الفترة؛ آل لُورين كانوا ـ لدرجة كبيرة ـ في انحطاط. إنْ كان دَيْر صهيُون نظاماً مُتماسكاً ونشيطاً في ذلك الوقت، فهُو ـ لرُبَّما ـ حوَّل ولاءه ـ علىٰ الأقلِّ، جُزئيَّاً، وبشكل مُؤقَّت ـ إلىٰ آل ستيوارت، الأكثر نُفُوذاً بالتَّأكيد.

في أيِّ حال من الأحوال؛ فريدريك البلاطيني ـ بعد زواجه من إليزابيث ستيوارت ـ أسَّس محكمة ذات توجُّه باطني في عاصمته هايلدبيرغ. كما كتبت فرانسيس ييتس:

الثَّقافة كانت تُشكَّل في البَلاطِينيَّة[1]، التي جاءت ـ مُباشرة ـ من عصر النَّهضَة، ولكنْ؛ بإضافة بعض الاتِّجاهات الأكثر حداثة، ثقافة يُمكن تعريفها بالصِّفة التَّالية: «رُوزيكرُوشيَّة». الأمير الذي كانت تلتفُّ حوله هذه التَّيَّارات العميقة. كان فريدريك البلاطيني وأنصاره يتمنَّون تعبيراً دينيَّاً سياسيَّاً لأهدافهم... حَرَكَة الفريدريكيِّيْن... كان مُحاولة لإعطاء تلك تيَّارات التَّعبير الدِّيني السِّياسي، لإدراك المثاليَّة في الإصلاح السِّحْري المُرتكز علىٰ أمير حقيقي... إنَّها ... خلقت ثقافة، ولاية «رُوزيكرُوشيَّة»، ومحكمتها تمركزت في هايدلبيرغ.

باختصار؛ الرُّوزيكرُوشيُّون المجهولون وأنصارهم يبدو أنَّهم استخدموا فريدريك للمهمَّة الرُّوحيَّة، والسِّياسيَّة. ويبدو أنَّ فريدريك قبل ـ بسُهُولة ـ الدَّور الذي فُرض عليه، سويَّة مع الآمال والتَّوقُّعات المُرافقة.

(1) (البَلاطِينيَّة: مُقاطعة يحكمها بَلاطِيْن. المُترجم).

وهكذا، في **1618**، قبل تاج بُوهيميا[1]، الذي عُرِضَ عليه من قِبَل النُّبلاء المُتمرِّدين في البلد. بقيامه بذلك؛ لابُدَّ أنَّه تحمَّل غضب البَابَويَّة، والإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة، وعجَّل فوضىٰ حرب الثَّلاثين عاماً.

بعد عامَيْن؛ هُو وإليزابيث هربا إلىٰ المنفىٰ في هُولندا، وتمَّ اجتياح هايدلبيرغ من قِبَل القُوَّات الكَاثُوليكيَّة. ولرُبع القرن الذي تلا ذلك، ألمانيا أصبحت ساحة حرب رئيسة، وهي الأكثر مرارة ودمويَّة وشراسة في التَّاريخ الأُورُوبي قبل القرن العشرين، نزاع استطاعت فيه الكَنيسَة ـ تقريباً ـ إعادة فَرْض الهيمنة التي تمتَّعت بها أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ.

وسط الاضطراب والاهتياج من حوله، استطاع أندريا ـ تقريباً ـ أنْ يخلق شبكة من جمعيَّات سرِّيَّة تُعرَف بالاتِّحادات المسيحيَّة.

طبقاً لمُخطَّط أندريا؛ كُلُّ جمعيَّة كان برئاسة أمير مجهول، يُساعده اثنا عشر رجلاً آخر، قُسِّموا إلىٰ مجموعات من ثلاثة أفراد؛ كُلّ منهم كان اختصاصيَّاً في مجال ما من الدِّراسة. الهدف الأصلي للاتِّحادات المسيحيَّة كان الحفاظ علىٰ المعرفة المُهدَّدة؛ خُصُوصاً آخر ما توصَّل إليه العلم، والذي كانت الكَنيسَة تعدُّ العديدَ منه هَرْطَقَةً، وضلالاً.

في الوقت ذاته، علىٰ أيَّة حال، عملت الاتِّحادات المسيحيَّة ـ أيضاً ـ كمأوىٰ للأشخاص الذين يهربون من محاكم التَّفتيش، التي رافقت غزوَ الجُيُوش الكَاثُوليكيَّة، وكانت مُصمِّمة علىٰ استئصال كُلّ آثار الفِكْر الرُّوزيكرُوشي. وهكذا، العديد من العُلماء والفلاسفة والحُكَماء والباطنيِّيْن وجدوا ملجأ في مُؤسَّسات أندريا. من خلال تلك المُؤسَّسات، الكثير هُرِّبوا إلىٰ برِّ الأمان في إنجلترا؛ حيثُ كان الماسُونيُّون الأحرار في بداية الالتحام. في وُجهة نَظَر هامَّة، اتِّحادات أندريا المسيحيَّة ـ لرُبَّما ـ ساهمت في تنظيم نظام المحفل الماسُوني.

---

(1) (دُنيا البُوهيميِّيْن، والبُوهيمي هُو كاتب، أو رسَّام، إلخ.. يحيا حياة بُوهيميَّة، لا تُقيم وزناً للأعراف، والقواعد الاجتماعيَّة. المُترجم).

من بين الأُورُوبيّيْن المُرحَّلين الذين كانوا يشقُّون طريقهم إلىٰ إنجلترا كان هُناك عدد من شُركاء أندريا الشَّخصيّيْن: صموئيل هارتليب؛ وآدم كُومينسكي، علىٰ سبيل المثال، والذي اشتهر باسم كُومينُوس، والذي حافظ أندريا علىٰ اتِّصال مُستمرٍّ معه؛ وثيُودُور هاك، الذي كان ـ أيضاً ـ صديقاً شَخْصيّاً لإليزابيث ستيوارت، وحافظ علىٰ اتِّصال مُستمرٍّ معها؛ والدُّكتُور جُون ويلكينز، القسِّيس الشَّخصي السَّابق لفريدريك البلاطيني، وبعد ذلك أُسقُف تشيستر.

ما إنْ وصلوا إلىٰ إنجلترا، هؤلاء الرِّجال ارتبطوا ـ مُباشرة ـ مع الحلقات الماسُونيَّة. كانوا أصدقاء مُقرَّبين لرُوبرت مُوراي، علىٰ سبيل المثال، والذي كان من الأوائل في انضمامه إلىٰ المحفل الماسُوني عام **1641**، وُفقاً للسِّجلَّات المُدوَّنة؛ ولـ«إلياس أشمول»، عالم الآثار والخبير في المُنظَّمات الفُرُوسيَّة، والذي انضمَّ إلىٰ المحفل عام **1646**؛ وللشَّابِّ «رُوبرت بويل» المُبكِّر في النُّضُوج، الذي ـ مع أنَّه لم يكن بنفسه ماسُونيّاً ـ كان عُضواً في جمعيَّة سرِّيَّة أُخرىٰ أكثر غُمُوضاً[1].

ليس هُناك دليل مُؤكَّد بأنَّ هذه الجمعيَّة السِّرِّيَّة كانت دَيْر صهيُون، لكنَّ بويل ـ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ـ خَلَفَ أندريا كالسَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون.

أثناء الفترة الكرُومويليَّة[2]، شكَّلت هذه العُقُول الدِّيناميَّة الإنجليزيَّة والأُورُوبيَّة ما سمَّاه بويل بـ«الكُلِّيَّة الخفيَّة»؛ في صدىٰ مُتعمَّد لبيانات الرُّوزيكرُوشيِّيْن العامَّة. وبعودة الحُكْم المَلَكي عام **1660**، «الكُلِّيَّة الخفيَّة» أصبحت «الجمعيَّة المَلَكيَّة»، والتي كان تشارلز الثَّاني حاكم ستيوارت راعيها، وكفيلها. عَمَليّاً؛ كُلُّ الأعضاء المُؤسِّسين للجمعيَّة المَلَكيَّة كانوا من الماسُونيِّيْن. وأحدنا يُمكن أنْ يُشكِّك ـ لحَدٍّ معقول ـ بأنَّ الجمعيَّة المَلَكيَّة بنفسها ـ علىٰ الأقلِّ، في بدايتها ـ كانت مُؤسَّسة ماسُونيَّة مُشتقَّة ـ عبر اتِّحادات أندريا المسيحيَّة ـ من «الأُخوَّة الرُّوزيكرُوشيِّيْن الخفيِّيْن». ولكنَّ هذا لم يكن ذروة «الجدول التَّحت أرضي». بالعكس؛ كان يجب أنْ يتدفَّق من بويل إلىٰ السِّيْر إسحاق نيُوتن، الذي أُدرج كالسَّيِّد الأعظم التَّالي لدَيْر صهيُون، ومن هُناك؛ إلىٰ الرَّوافد المُعقَّدة لماسُونيِّيْ القرن الثَّامن عشر.

---

(1) (بعض الرَّسائل الموجودة في الجمعيَّة المَلَكيَّة، والتي كُتِبَتْ إلىٰ رُوبرت بويل تُظهر أنَّها تتعلَّق بجماعة تُدعىٰ المُجتمع القَبَلاني المُقدَّس للفلاسفة، الذين أدخلوه كعُضو. يبدو أنَّ مقرَّه في فرنسا. المُؤلِّفون).

(2) (كرُومويل، أُوليفر (1599 ـ 1658): زعيم سياسي وعَسْكَري. قائد في الثَّورة الإنكليزيَّة. هَزَمَ المَلَكيِّيْن، وأعلن الجُمهُوريَّة (عام 1653). المُترجم).

سُلالة ستيوارت

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ تشارلز رادكليف جاء بعد نيُوتن كَسَيِّد أعظم لدَيْر صهيُون من حيثُ التَّرتيب. هذا الاسم ـ بالنِّسبة لنا ـ لم يكن اسماً رنَّاناً كأسماء أُخرىٰ؛ مثل نيُوتن، أو بويل، أو حتَّىٰ أندريا.

في الحقيقة؛ نحنُ لم نكن ـ في بادئ الأمر ـ مُتأكِّدين مَنْ هُو تشارلز رادكليف. علىٰ أيَّة حال؛ كُلَّما تعمَّقنا في البحث في هذا الاسم ثبت لنا أنَّ له شَخْصيَّة كبيرة ـ إنْ لم تكن سرِّيَّة ـ كان لها تأثير كبير في التَّاريخ الثَّقافي للقرن الثَّامن عشر.

مُنْذُ القرن السَّادس عشر؛ عائلة رادكليف كانت عائلة نُورثمبريَّة[1] مُؤثِّرة.

في 1688، قبل فترة قليلة من خَلْعه، جيمس الثَّاني مَنَحَهُم لَقَبَ إيرل علىٰ منطقة «ديرُوينت ووتر»[2]. تشارلز رادكليف وُلد عام 1693. أُمُّه كانت بنتاً غير شَرْعيَّة لتشارلز الثَّاني من قِبَل عشيقة الملك مُول ديفيس. وبالتَّالي؛ كان رادكليف ـ من جانب أُمِّه، من الدَّم المَلَكي ـ حفيد آخر ملك ستيوارتي تقريباً. كان ابن عمِّ الأمير بُوني[3] تشارلز إدوارد، و ـ أيضاً ـ ابن عمِّ جُورج لي، إيرل ليتشفيلد؛ وهُو حفيد غير شَرْعي آخر لتشارلز الثَّاني. وبالتَّالي؛، لا عجب أنَّ رادكليف كرَّس مُعظم حياته فداء لآل ستيوارت.

في 1715، هذه القضيَّة سكنت مع «المُدَّعي العجوز»[4] جيمس الثَّالث ـ آنذاك ـ كان في المنفىٰ، وكان مُستقرَّاً في «بار لُو دُوك» تحت الحماية الخاصَّة لدُوق لُورين. رادكليف وأخوه الأكبر،

(1) (نُورثمبري: مُتعلِّق بنُورثمبريا «مملكة انكليزيَّة قديمة». المُترجم).

(2) (منطقة في كمبريا، شمال غرب إنكلترا. المُترجم).

(3) (بُوني هُو أحد ألقاب هذا الأمير، ويعني المُمتلئ صحَّة. له ألقاب أُخرىٰ؛ كالفارس الشَّابِّ، أو الشَّابِّ المُطالِب بالعرش. اسمه الكامل هُو تشارلز إدوارد ستيوارت. 1720 ـ 1788. ادَّعىٰ العَرْش البريطاني، وقاد ثورة الجيش الإسكتلندي في ثورة الـ45 يوماً. المُترجم).

(4) (جيمس فرانسيس إدوارد ستيوارت: علىٰ الأغلب؛ كان يُسمَّىٰ جيمس إدوارد ستيوارت 1688 ـ 1766، وهُو أمير ويلز، وكان المُدَّعي بحقِّه في استلام العَرْش، أيضاً؛ كان يُسمَّىٰ جيمس الثَّالث، أو المُدَّعي العجوز، أو نبيل القدِّيس جُورج؛ لأكثر من نصف قرن عُدَّ من قِبَل أتباعه الجيمسيِّيْن «السّتيوارتيِّيْن» كالملك الشَّرْعي لبريطانيا. المُترجم).

جيمس، كلاهما شاركا في التَّمرُّد الإسكتلندي تلك السَّنة. كلاهما أُسر، وسُجن، وجيمس أُعدم. وفي هذه الأثناء؛ قام تشارلز ـ علىٰ ما يبدو، بمُساعدة من قِبَل إيرل ليتشفيلد ـ بعمليَّة هُرُوب جسورة، لم يُسبَق لها مثيل من سجن نيُوغيت، ووجد مأوىٰ في صُفُوف الجيمسيِّين[1]، في فرنسا.

في السَّنوات التَّالية؛ أصبح السِّكرتير الشَّخصي للأمير بُوني تشارلز «المُدَّعي الشّابّ». في 1745، أخيراً؛ نزل في إسكوتلندا، وبدأ مُحاولته الخياليَّة لإعادة تنصيب عائلة ستيوارت علىٰ العَرْش البريطاني. في السَّنة نفسها، رادكليف ـ في طريقه للانضمام إليه ـ أُسر في سفينة فرنسيَّة عند «ضفَّة الدجر»[2]. بعد سنة، في 1746، المُدَّعي الشَّابُّ هُزِمَ هزيمة مشؤومة في معركة «كُولُودين مُور». بعد بضعة شُهُور، مات تشارلز رادكليف تحت فأس الجلَّاد في في بُرج لندن.

أثناء إقامتهم في فرنسا، آل ستيوارت كان مُتورِّطين جدّاً في نَشْر الماسُونيَّة. في الحقيقة؛ يُعدُّ أنَّهم مصدر الشَّكل العامّ للماسُونيَّة المعروفة بـ«المذهب الإسكتلندي». قدَّمت ماسُونيَّة «المذهب الإسكتلندي» درجات أعلىٰ من تلك التي قدَّمتْهَا الأنظمة الماسُونيَّة الأُخْرَىٰ في ذلك الوقت. وعدت بالاطِّلاع علىٰ ألغاز أعظم، وأكثر عُمقاً، ألغاز زُعم أنَّها بقيت، وسُلِّمَتْ في إسكوتلندا. أسَّست ارتباطات أكثر صلة بين الماسُونيَّة والنَّشَاطات المُختلفة؛ الكيمياء، والقَبَلانيَّة، والفِكْر السِّحْري ـ علىٰ سبيل المثال ـ التي كانت تُعَدُّ رُوزيكرُوشيَّة. ولم تتوسَّع ـ فقط ـ لتشمل العصر القديم، بل خلفيَّة الـ«الأُخُوَّة الماسُونيَّة».

من المُحتمل أنَّ ماسُونيِّ المذهب الإسكتلندي أُعلنَتْ بالأصل، إنْ لم تكن ـ في الحقيقة ـ ابتُكرت من قِبَل تشارلز رادكليف. في أيِّ حال من الأحوال؛ قيل إنَّ رادكليف في عام 1725، أسَّس المحفل الماسُوني الأوَّل في القارَّة، في باريس. أثناء السَّنة نفسها، أو ـ رُبَّما ـ في السَّنة التَّالية، يبدو بأنَّه اعتُرف به كالسَّيِّد الأعظم لكُلِّ المحافل الفرنسيَّة، واستمرَّ علىٰ تلك الحال لقرن بعد ذلك، حتَّىٰ عام 1736.

(1) (أو السّتيوارتيِّين، وهُو لقب لأنصار جيمس الثَّاني ملك إنكلترا، أو مَلك آل ستيوارت بعد ثورة عام 1688. المُترجم).
(2) (ضفَّة الدجر ـ الدجر مركب ذُو شراعَيْن ـ وهي شاطئ رملي قُرب مُنتصف بحر الشّمال، بين إنجلترا من الغرب، والدّنمارك من الشّرق. مُتوسِّط عرضه هُو 64 كيلُومتراً، و257 كيلُومتراً مُتوسِّط طُوله. المُترجم).

في النِّهاية، نَشْرُ ماسُونيَّة القرن الثَّامن عشر تدين لرادكليف بشكل أكثر من أيِّ رجل آخر.

هذا لم يكن ـ دائماً ـ ظاهراً بسُهُولة؛ لأنَّ رادكليف ـ خُصُوصاً بعد 1738 ـ احتفظ بسيرة ذاتيَّة صغيرة نسبيَّاً. يبدو أنَّه ـ ولدرجة هامَّة جدَّاً ـ عمل من خلال الوُسطاء و«النَّاطقين بلسانه». الشَّخصيَّة الأهمُّ، والأكثر شُهرَة، كان الرَّجل المُبهم المعروف بالنَّبيل أندرُو رَمْزي.

رَمْزي وُلد في إسكوتلندا حوالي العام 1680. في شبابه؛ كان عُضواً في جمعيَّة شبه ماسُونيَّة، وشبه رُوزيكرُوشيَّة، تُدعىٰ «الفيلاديلفيِّين». بين الأعضاء الآخرين لهذه الجمعيَّة؛ كان هُناك ـ علىٰ الأقلِّ ـ اثنان من الأصدقاء المُقرَّبين لإسحاق نيُوتن. رَمْزي بنفسه عدَّ نيُوتن بأنَّه المُبجَّل التَّامَّ، وكان يعدُّه رجلاً يتمتَّع بنوع من «الاطِّلاع» الباطني العالي المُستوىٰ، الرَّجل الذي أعاد اكتشاف وبناء الحقائق السّرمديَّة، التي أُخفيت في الألغاز القديمة.

رَمْزي كان يتمتَّع بصلات أُخرىٰ بنيُوتن. كان صديقاً لجين ديزاغيليير، أحد أعزِّ أصدقاء نيُوتن.

في عام 1707، درس الرّياضيَّات علىٰ يد رجل اسمه نيكُولاس «فاتيو دُو دويلير»، الصّديق الأعزّ لنيُوتن من بين الكُلِّ. مثل نيُوتن؛ أبدىٰ اهتماماً وتعاطفاً مع الكاميساردِيِّين؛ وهُم طائفة من الزَّنادقَة الأشبه بالكَاثَار، وكانوا يُعانون من الاضطهاد في جنوب فرنسا، ونوع من القضيَّة المشهورة لـ«فاتيو دُو دويلير».

في عام 1710، رَمْزي كان في كامباري، وعلىٰ صداقة حميمَّة مع الفيلسوف الباطني فينلُون. الذي كان ـ سابقاً ـ راعي أبرشيَّة القدِّيس سُولبيس، والتي ـ حتَّىٰ في ذلك الوقت ـ كانت معقلاً أرثُذُوكسيَّاً موضع شكٍّ نوعاً ما.

لم يُعرَف ـ بالضَّبط ـ متىٰ تعرَّف رَمْزي بتشارلز رادكليف، لكنْ؛ بحُلُول 1720، انتسب ـ مُباشرة ـ إلىٰ القضيَّة الجيمسيَّة. لفترة من الوقت؛ عمل ـ أيضاً ـ كمُعلِّم للأمير بُوني تشارلز.

علىٰ الرّغم من علاقته مع الجيمسيِّين، عاد رَمْزي إلىٰ إنجلترا عام 1729؛ حيثُ ـ علىٰ الرّغم من قلَّة المُؤهِّلات المُلائمة الظَّاهرة ـ أُدخل إلىٰ الجمعيَّة المَلَكيَّة فوراً. أصبح ـ أيضاً ـ عُضو مُؤسَّسة أكثر غُمُوضاً اسمها «نادي سبالدنغ للرّجال النُّبلاء». تضمَّن هذا «النَّادي» رجالاً مثل ديساغُولير. وألكساندر بُوب، وحتَّىٰ موته في 1727، إسحاق نيُوتن.

عام 1730، عاد رَمْزي إلىٰ فرنسا، ونشط ـ بشكل كبير ـ لصالح الماسُونيَّة. يُـذكَر أنَّـه حـضر اجتماعات المحفل مع عدد من الشَّخصيَّات البارزة، بمَنْ فيهم ديساغُوليير. وحظي برعاية خاصَّة من آل تاور دُوفرين، فيكُونتات تُورين، ودُوقات بلُويُون، والذين كانوا ـ قبل ثلاثة أرباع قرن من ذلـك ـ مُرتبطين بفريدريك البلاطيني.

في زمان رَمْزي، دُوق بلُويُون كان ابن عمِّ الأمير بُوني تشارلز، ومن بين الشَّخصيَّات الأبرز في الماسُونيَّة. قام بمَنْح عقار ومنزل بلدي لرَمْزي، وكان رَمْزي المُعلِّم الخاصَّ لابنه أيضاً.

في عام 1737، سـلَّم رَمْـزي «خطابـه الرَّسْـمي» المـشهور، وهُـو بحـث طويـل في التَّـاريخ الماسُوني، والذي أصبح ـ بعد ذلك ـ وثيقة مُؤثِّرة لـ«الأخويَّة الماسُونيَّة».

علىٰ أساس هذا «الخطاب»، رَمْزي أصبح النَّاطق الماسُوني الأبرز في وقته.

علىٰ أيَّة حال؛ بَحْثُنَا أَقْنَعَنَا بأنَّ الصَّوت الحقيقي خلف رَمْزي كـان تـشارلز رادكليـف، الـذي ترأَّس المحفل في الوقت الذي سلَّم فيه رَمْزي خطبته، والذي ظهر ثانية عام 1743، كالمُوقِّع الـرَّئيس في جنازة رَمْزي. ولكنْ؛ إنْ كان رادكليف هُو القُوَّة التي كانت خلف رَمْـزي، يبـدو بـأنَّ رَمْـزي هُـو الذي شكَّل الصلة بين رادكليف، ونيُوتن.

علىٰ الرّغم من مـوت رادكليـف المُبْتَـسَر[1]، في عـام 1746، البُـذُور التـي بَـذَرَهَا في أُورُوبـا واصلت النُّمُوَّ، والإثمار.

في أوائل عام 1750، ظهر السَّفير الجديد للماسُونيَّة، ألمانيٌّ يُدعَىٰ «كارل غُوتليب فُون هُوند». ادَّعىٰ هُوند بأنَّه انضمَّ للمحفل عام 1742؛ قبل عام من موت رَمْزي، وقبل أربع سنوات مـن مـوت رادكليف.

عند إدخاله، ادَّعىٰ بأنَّه قد اطَّلع علىٰ نظام جديد من الماسُـونيَّة، عُهـد إليـه مـن قِبَـل «رُؤسـاء مجهولين». وأكَّد هُوند أنَّ هؤلاء «الرُّؤساء المجهولين» ارتبطوا ـ مُباشرة ـ مع القضيَّة الجيمسيَّة. حتَّىٰ إنَّه يعتقد بأنَّ الرَّجل الذي ترأَّس شعائر انتسابه للمحفل كان الأمير بُوني تشارلز. وعلىٰ الرّغم من أنَّه

(1) (قبل أوانه! المُترجم).

ثبت أنَّ الأمر لم يكن كذلك، أصرَّ هُوند، وبقي مُقتنعاً بأنَّ الشَّخصيَّة البارزة المجهولة المَعنيَّة كانت مُرتبطة ـ بشدَّة ـ بـ«المُدَّعي الشَّابّ».

يبدو من المعقول افتراض أنَّ الرَّجل الذي ترأَّس الشَّعائر ـ في الحقيقة ـ كان تشارلز رادكليف.

نظام الماسُونيَّة الذي قدَّمه هُوند ـ الذي امتدَّ إلىٰ ما بعد المذهب الإسكتلندي ـ كان يُدعَىٰ ـ بعد ذلك ـ بـ«التَّقيُّد الصَّارم». اسمه اشتُقَّ من القَسَم الذي يطلبه، قَسَم الطَّاعة المُطلقة والدَّائمة لـ«الرُّؤساء المجهولين» الغامضين. والعقيدة الأساسيَّة لـ«التَّقيُّد الصَّارم» بدت بأنَّها انحدرت ـ مُباشرة ـ من فُرسان الهَيكَل، بعض من الذين نجوا من حملة التَّطهير بين عامَيْ **1307 ـ 1314**، وحافظوا علىٰ نظامهم في اسكوتلندا.

كُنَّا علىٰ علْم بهذا الادِّعاء. علىٰ أساس بحثنا الخاصّ؛ يُمكننا أنْ نمنحه بعض الصّحَّة. فريق من الهَيكَل واصلوا الكفاح إلىٰ جانب رُوبرت برُوس زعماً في معركة بانُوكبُورن؛ لأنَّ البيان الرَّسْمي البَابَوي الذي حلَّ نظام الهَيكَل لم يُعلَن ـ أبداً ـ في اسكوتلندا، النِّظام لم يكن ـ أبداً ـ قد قُمع رَسْميَّاً هُناك. ونحنُ بأنفسنا حدَّدنا مكان ما يبدو بأنَّه مقبرة لفُرسان الهَيكَل في أرغيلشير. الشَّواهد الأقدم في تلك المقبرة يعود تاريخها إلىٰ القرن الثَّالث عشر، والأخيرة للقرن الثَّامن عشر. حملت الشَّواهد القديمة نُقُوشاً فريدة مُعيَّنة، ورُمُوزاً منحوتة بشكل مُماثل لتلك التي في مُجتمعات الهَيكَل المشهورة في إنجلترا، وفرنسا. الشَّواهد الحديثة دَمَجَتْ تلك الرُّمُوز مع مواضيع ماسُونيَّة مُحَدَّدة، تشهد بذلك إلىٰ نوع من الانفصال.

استنتجنا أنَّه ليس من المُستحيل أنَّ النِّظام ـ في الحقيقة ـ قام بتخليد نفسه في البرِّيَّة الصَّعبة المنال في العُصُور الوُسْطَىٰ في أرغيل، مُحافظاً علىٰ وُجُوده السِّرِّي، ويُعَلْمِنُ نفسه بشكل تدريجي، ويُصبح مُرتبطاً بالطَّائفة الماسُونيَّة ونظام الجماعة السَّائد كلَيْهما.

وبالتَّالي؛ الخلفيَّة التي ادَّعاها هُوند لـ«التَّقيُّد الصَّارم» لم تبدُ ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّها مُستحيلة جُملة.

علىٰ أيَّة حال؛ نتيجة إحراجه وخزْيه اللَّاحق لم يكن قادراً علىٰ التَّوسُّع أكثر في نظامه الجديد للماسُونيَّة.

كنتيجة؛ مُعاصروه رفضوه، واتَّهموه بالاحتيال، وبأنَّه لفَّق القصَّة المُتعلِّقة بالاجتماع بـ«رُؤساء مجهولين» فوَّضوه بنَشْر «التَّقيُّد الصَّارم». في مُواجهة هذه التُّهم، هُوند لم يتمكَّن من الإجابة إلَّا بأنَّ «رُؤساءه المجهولين» تركوه بلا حُجَّة، بشكل غير قابل للتَّوضيح. واحتجَّ مُدَّعياً بأنَّهم (رُؤساؤه المجهولون). وَعَدُوْهُ بالاتِّصال به ثانية، وبأنْ يُعطوه تعليمات أوسع، ولكنَّهم لم يسبقْ لهم أنْ فعلوا ذلك.

حتَّىٰ نهاية حياته؛ أصرَّ علىٰ نزاهته، مُؤكِّداً بأنَّه هُجر من قِبَل كُفلائه الأصليِّيْن، والذين أصرَّ علىٰ أنَّهم وُجدُوا حقيقة.

كُلَّما وضعنا مزاعم هُوند في الاعتبار، وجدنا أنَّها تبدو أكثر معقُوليَّة، وبأنَّه كان ضحيَّة منحوسة، ليست خيانة مُتعمَّدة، إنْ كانت الظُّرُوف خارج سيطرة كُلِّ شَخْص.

طبقاً لحسابه الخاصِّ؛ هُوند كان قد ضُمَّ إلىٰ المحفل عام **1742**، عندما كان الجيمسيُّون مايزالون قُوَّة سياسيَّة مُعتبرة في الشُّؤُون القارِّيَّة.

بحُلُول عام **1746**، علىٰ أيَّة حال، رادكليف كان قد مات. وكذلك العديد من زُملائه، بينما الآخرون كانوا في السّجن، أو المنفىٰ، في أماكن بعيدة جدَّاً في بعض الحالات، كأمريكا الشّماليَّة.

إنْ كان «الرُّؤساء المجهولون» لهُوند قد أخفقوا في الاتِّصال ثانية مع عميلهم، فالتَّقصير لا يبدو بأنَّه كان طَوْعيَّاً. حقيقة أنَّ هُوند تُرِك ـ فوراً ـ بعد انهيار القضيَّة الجيمسيَّة تبدو أنَّها تُؤكِّد صحَّة قصَّته.

هُناك جُزء آخر من دليل يُعير التَّصديق، ليس ـ فقط ـ لادّعاءات هُوند، بل إلىٰ «وثائق الدَّيْر» أيضاً. هذا الدَّليل هُو قائمة الأسياد العظام لفُرسان الهَيكَل، والتي هُوند أصرَّ بأنَّه حصل عليها من «رُؤسائه المجهولين».

علىٰ أساس بحثنا الخاصِّ؛ استنتجنا بأنَّ قائمة الأسياد العظام للهَيكَل في الملفَّات السِّرِّيَّة كانت دقيقة، دقيقة جدَّاً، في الحقيقة، لدرجة أنَّها ـ علىٰ ما يبدو ـ مأخوذة من معلومات سرِّيَّة داخليَّة.

قائمة هُوند أثبتت أنَّها مُتَّفقة تماماً مع تلك التي في الملفَّات السِّرِّيَّة.

باختصار؛ حصل هُوند ـ بطريقة ما ـ علىٰ قائمة دقيقة للأسياد العظام للهَيكَل، وأكثر دقَّة من أيَّة قوائم أُخرىٰ معروفة في ذلك الوقت.

علاوةً علىٰ ذلك؛ حصل عليها عندما كانت العديد من الوثائق التي اعتمدنا عليها ـ صُكُوك، سندات ملْكيَّة، إعلانات ـ ماتزال تحت سيطرة الفَاتيكَان، وكانت غير مُتوفِّرة.

يبدو أنَّ ذلك تأكيد أنَّ قصَّة هُوند حول «الرُّؤساء المجهولين» لم تكن مُلفَّقة. يبدو ـ أيضاً ـ أنَّها تُشير إلىٰ أنَّ هؤلاء «الرُّؤساء المجهولين» كانوا واسعي الاطِّلاع جدَّاً حول نظام الهَيكَل، وكان اطِّلاعهم شديداً؛ لدرجة أنَّه من المُحتمل أنَّهم كانوا قادرين علىٰ الوُصُول إلىٰ مصادر مُميَّزة جدَّاً.

في أيِّ حال من الأحوال، علىٰ الرّغم من التُّهم المُوجَّهة ضدَّه، هُوند لم يُترَك نهائيَّاً بلا أصدقاء.

بعد انهيار القضيَّة الجيمسيَّة، وجد صديقاً قريباً، يرعاه، ويتعاطف معه، ذلك الشَّخص لم يكن أقلَّ من الإمبراطُور الرُّوماني المُقدَّس بذاته. الإمبراطُور الرُّوماني المُقدَّس في ذلك الوقت كان فرانسوا، دُوق لُورين، الذي، بزواجه إلىٰ ماريا تيريزا النّمساويَّة في **1735**ــ ربط آل هابسبرغ، ولُورين، وافتتح سُلالة هابسبرغ-لُورين. وطبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ تشارلز دُو لُورين (شقيق فرانسوا) هُو الذي خَلَفَ رادكليف كالسَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون.

فرانسوا كان الأمير الأُورُوبي الأوَّل، الذي أصبح ماسُونيَّاً، والذي أشاع انتساباته للماسُونيَّة.تمَّ ضمُّه عام **1731**، في لاهاي؛ معقل النَّشاط الباطني، مُنْذُ أنْ نُصِّبَت الحلقات الرُّوزيكرُوشيَّة نفسها هُناك أثناء حرب الثَّلاثين عاماً. والرَّجل الذي ترأَّس شعائر انضمام فرانسوا كان جين ديساغُولير، الصَّديق الحميم لنيُوتن، ورَمزي، ورادكليف. علاوةً علىٰ ذلك؛ بعد فترة قليلة من ضمِّه، شرع فرانسوا لإقامة طويلة في إنجلترا. وهُناك أصبح عُضواً في تلك المُؤسَّسة الحميدة المظهر، «نادي سبالدنج للرِّجال النُّبلاء».

في السَّنوات التَّالية، رُبَّما كان فرانسوا دُو لُورين هُو المسؤول الأكثر من أيِّ ملك أُورُوبي آخر عن نَشْر الماسُونيَّة. محكمته في فيينَّا أصبحت ـ نوعاً ما ـ عاصمة أُورُوبا الماسُونيَّة، ومركزاً لطيفاً واسعاً من الاهتمامات السِّرِّيَّة الأُخرَىٰ أيضاً.

فرانسوا بنفسه كان يُزاول كيمياء القُرون الوُسْطَىٰ، في مُختبر، في القصر الإمبراطُوري، الـ«هُوفبورغ».

عند موت آخر ميديسي؛ أصبح الدُّوق الأكبر في تسكانيا، وأحبط ـ بشكل حاذق ـ مُضايقة محاكم التَّفتيش للماسُونيِّين في فلُورينس، عبر فرانسوا وتشارلز رادكليف، الذي أسَّس المحفل الماسُوني الأوَّل في القارَّة.

تشارلز نُودييه وحَلَقَتُهُ

بالمُقارنة مع الثَّقافات المُهمَّة والشَّخصيَّات السِّياسيَّة التي سَبَقَتْهُ. وحتَّىٰ مُقارنة مع شَخص مثل تشارلز رادكليف، يبدو أنَّ تشارلز نُودييه هُو الأكثر استبعاداً من أنْ يكون سيِّداً أعظم. عرفناه بأنَّه ـ بشكل أساسي ـ أديب ذُو فُضُول أدبي؛ أيْ كاتب أنيق، بسيط نسبيَّاً، وثرثار جدَّاً، وروائي من الدَّرجة الثَّانية، وكاتب للقَصَص القصيرة ذات التَّقليد الغريب؛ مثل هُوفمان E.T.A[1]. وفيما بعد؛ مثل «إدغار ألان بُو». في زمانه، علىٰ أيَّة حال، نُودييه عُدَّ شَخْصيَّة ثقافيَّة رئيسة، وكان لها تأثير هائل. علاوةً علىٰ ذلك؛ أثبت أنَّه مُرتبط بتحقيقنا بعدَّة طُرُق مُفاجئة.

في عام 1824، نُودييه كان ـ في ذلك الوقت ـ أديباً مشهوراً. في تلك السَّنة؛ عُيِّن كأمين عامٍّ لمكتبة آرسنال، المُستودع الفرنسي الرَّئيس لمَخطُوطَات القُرُون الوُسْطَىٰ، وللمَخطُوطَات الغامضة بالتَّحديد. من بين كُنُوزها المُختلفة، قيل إنَّ مكتبة آرسنال كانت تحتوي علىٰ الأعمال الخيميائيَّة[2] لنيكُولاس فلاميل؛ عالم الكيمياء في القُرُون الوُسْطَىٰ، والذي أُدرج كأحد الأسياد العظام السَّابقين لدَيْر صهيُون. احتوت مكتبة آرسنال علىٰ مكتبة الكاردينال ريتشلُو أيضاً، مجموعة شاملة من الأعمال المُتعلِّقة بالفِكْر السِّحْري، والقَبَلاني، والغامض. وكان هُناك كُنُوز أُخرىٰ أيضاً.

عند اندلاع الثَّورة الفرنسيَّة، الأديرة في كافَّة أنحاء البلاد كانت قد سُلِبَتْ، وكُلُّ الكُتُب والمَخطُوطَات أُرسلَتْ إلىٰ باريس للخَزْن.

---

(1) (هُوفمان (1776 – 1822)، «E.T.A» هي اللَّفظة الأوائليَّة لاسمه الكامل، وهُو E(rnst) T(heodor) A(madeus)، هُو كاتب ومُلحِّن ألماني، كان مُؤثِّراً في الحَرَكَة الرُّومانسيَّة في الأدب الألماني. المُترجم).

(2) (الكيمياء القديمة؛ وبالتَّحديد؛ تحويل المعادن الخسيسة إلىٰ ذهب، وفضَّة. المُترجم).

بعـد ذلـك، في 1810، نـابُليُون ـ كجُـزء مـن طُمُوحـه لخَلْـق مكتبـة عالميَّـة فعليَّـة ـ صَـادَرَ، وَجَلَـبَ إلىٰ بـاريس ـ تقريبـاً ـ كامـل أرشـيف الفَاتيكَـان. كـان هُنـاك أكثـر مـن ثلاثـة آلاف صُندُوق من مـن المـوادّ الأدبيَّـة، الـبعض منهـا كـان مطلوبـاً بـشكل خـاصٍّ، وبـشغف، كُـلُّ الوثائق التي تخصُّ فُرسان الهَيكَل مثلاً.

بالرّغم من أنَّ البعض من هذه الصُّحُف أُرجعت ـ بعد ذلك ـ إلىٰ رُومَا، عدد كبير منهـا بقـي في فرنسا. وكانت تلك الموادّ الأدبيَّة من الكُتُب والمَخْطُوطَات الغامضة والسِّرِّيَّة والـسِّحْرِيَّة، وأعـمال أدبيَّة سُلبَتْ من الأديرة، ومن أرشيف الفَاتيكَان، والتي مرَّت إلىٰ يدَيْ نُـوديير، وإلىٰ أيـدي شُركائـه. بشكل منهجي؛ قاموا باستكشافها، وَغَرْبَلَتِهَا، وَفَهْرَسَتِهَا.

من بين زُملاء نُوديير في هذه المهمَّة كان «ألفيس ليفي»، و«جين باتيسته بيتيُـوس»، وقـد تبنَّيـا الاسم المُستعار لكريستيان بُول.

أعمال هذَيْن الرَّجلَيْن، ولَّدتْ ـ علىٰ مرِّ الـسِّنين ـ عـصر نهـضة رئيـساً للاهتمامـات الباطنيَّـة والسِّرِّيَّة. وكما يدَّعيان، يعود الفضل لهما، ولمُعلِّمهما الخاصّ تشارلز نُـوديير في «إحيـاء الغُمُـوض» في فرنسا القرن التَّاسع عشر.

في الحقيقة؛ كتاب بيتيُوس «تاريخ ومُمارسة السِّحْر» أصبح أشبه بالتَّوراة لطُلَّاب القرن التَّاسع عشر الباطنيِّيْن. هُناك كتاب صَدَرَ مُؤخَّراً بالتَّرجمة الإنجليزيَّة ـ مُنجز بتكريسه الأصلي لنُـوديير ـ هُـو ـ الآن ـ كتاب يطلبه طُلَّاب السِّحْر الحديثون، بشَغَف شديد.

أثناء مُدَّة خدمته في مكتبة آرسنال، واصل نُوديير الكتابة والنَّشْر بشكل كبـير. مـن بـين أكثـر أعماله الأخيرة أهمِّيَّة، هُناك مُجلَّدات عديدة مُسهبة في التَّوضيح، تتحدَّث عن الآثار، ومُخصَّصة لمواقـع ذات أهمِّيَّة خاصَّة في التَّاريخ الفرنسي القديم.

في هذه الخُلاصة التَّذكاريَّة الوافية يُكرِّس نُـوديير مجـالاً واسـعاً إلىٰ حقيقـة عهـد الميرُوفيِّيْن؛ والحقيقة الأكثر دهشة هُو أنّه لم يكن أيُّ شَخْص يُعير أدنىٰ انتباه للميرُوفيِّيْن في ذلـك الوقـت. هُنـاك أقسام مُطوَّلة ـ أيضاً ـ تتحدَّث عن فُرسان الهَيكَل، وهُناك مقالة خاصَّة عن جيـزرز، تتـضمَّن وصـفاً

تفصيليّاً لحادثة «قَطْع الدّردار» الغامضة عام 1188، والتي ـ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ــ كانت المُؤشِّر للافتراق بين فُرسان الهَيكَل ودَيْر صهيُون.

في الوقت ذاته، نُوديير لم يكن مُجرَّد كاتب وأمين مكتبة فقط. لقد كان ـ أيضاً ـ رجلاً مُتهوِّراً، ومغروراً، واجتماعيّاً، أراد ـ باستمرار ـ لَفْتَ الأنظار إليه، ولم يتردَّد في المُبالغة بأهمِّيَّته الخاصَّة.

في أقسامه، في مكتبة آرسنال، افتتح صالة جعلته كأحد «مُلُوك الفنِّ» الأكثر تأثيراً ورفعة في ذلك العصر.

بعد وفاته عام 1845، يُعَدُّ كمُرشد ومُعلِّم لكُلِّ الأجيال، الذين قام العديد منهم بالتَّفوُّق عليه ـ تماماً ـ في إنجازاتهم اللَّاحقة. علىٰ سبيل المثال؛ التَّابع الرَّئيس لنُوديير وصديقه الأقرب كان الشَّابَّ فيكتُور هيُوغُو؛ السَّيِّد الأعظم التَّالي لدَيْر صهيُون، طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر». من بينهم «فرانسوا ـ رينيه دُو تشاتو ـ برياند» ـ الذي قام بحجٍّ خاصٍّ إلىٰ قَبْر بُوسَّان في رُومَا، وشيَّد شاهدة هُناك، تحمل صُورة طبق الأصل عن لوحة «Les Bergers d'Arcadie». ومن بينهم بالزاك، وديلاكرُويكس، ودُوماس بيريه، ولامارتين، ومُوسيت، وثيُوفيل غُوتيير، وغيرارد نيرفال، وألفريد دُو فيجني.

مثل شُعراء ورسَّامين عصر النَّهضَة، هؤلاء الرِّجال ـ في أغلب الأحيان ـ انجذبوا ـ بشدَّة ـ نحو التَّقاليد الباطنيَّة، وخُصُوصاً السِّحْرِيَّة. دمجوا ـ أيضاً ـ بأعمالهم عدداً من المواضيع والأفكار والإشارات والتَّلميحات لذلك اللُّغز الذي يتعلَّق ـ بالنِّسبة لنا ـ بسُونير، وقرية رين لُو شاتُو.

في 1832، علىٰ سبيل المثال، نُشر كتاب عُنوانه «رين لُو باين»، يتكلَّم ـ بالتَّفصيل ـ عن كَنز أُسطُوري مُرتبط بـ«بلانتشفُورت»، وبـ«رين لُو شاتُو». مُؤلِّف هذا الكتاب الغامض، أُوغسط دُو لابويسروتشفُورت، أنتج عملاً آخر أيضاً، بعُنوان «أحبَّاء إليُونُور». علىٰ صفحة العُنوان يظهر هُناك ـ بدُون أيِّ تفسير ـ شعار «in Arcadia Ego Et».

نشاطات نُوديير الأدبيَّة والباطنيَّة كانت وثيقة الصلة جدّاً بتحقيقنا. ولكنْ؛ كان هُناك سمة أُخرىٰ لمسيرته المهنيَّة، والتي كانت أكثر صلة بكثير.

بالنِّسبة لنُوديير، مُنْذُ ريعان طُفُولته، كان مُرتبطاً جدَّاً بالجمعيَّات السِّرِّيَّة. حوالي العام 1790، علىٰ سبيل المثال، في عُمر العاشرة (!)، عُرف بأنَّه كان قد اشترك في جماعة تُدعىٰ «الفيلاديلفيِّين».

حوالي عام 1793، أنشأ جماعة أُخرىٰ ـ أو رُبَّما، حلقة داخليَّة للجماعة الأُولىٰ ـ والتي تضمَّنت أحد المُتآمرين اللَّاحقين ضدَّ نابُليُون. صَكٌّ يعود تاريخه إلىٰ عام 1797، يشهد علىٰ تأسيس جماعة أُخرىٰ أيضاً ـ تُدعىٰ «الفيلاديلفيِّين» ـ في تلك السَّنة.

في مكتبة «بيسانكُون»؛ هُناك مقالة غامضة أُعدَّتْ، وشُكِّلَتْ عن هذه المجموعة من قِبَل أحد أقرب أصدقاء نُوديير، عُنوانها « Le Berger Arcadien ou Premiere Accents d' une Flute Champêtre» (الرَّاعي الأركادي يعزف النَّغمة الأُولىٰ في النَّاي الرِّيفي).

في باريس عام 1802؛ نُوديير كتب عن انتسابه إلىٰ جمعيَّة سرِّيَّة، وَصَفَهَا بأنَّها «توراتيَّة وفيثاغُوريَّة».

بعد ذلك، عام 1816، نَشَرَ عملاً لمُؤلِّف مجهول، والذي يُعَدُّ أحد أكثر أعماله فُضُولاً وإثارةً، تاريخ جمعيَّات سرِّيَّة في جيش نابُليُون. في كتاب نُوديير هذا تعمَّد الغُمُوض. هُو لم يُوضِّح ـ بشكل قطعي ـ سواء كانت كتابته مُجرَّد قصَّة، أم مُجرَّد حقيقة.

إنْ كان ذلك يدلُّ علىٰ شيء، فهُو يدلُّ علىٰ أنَّ الكتاب هُو صنف من الحكاية المُتنكِّرة بشفافيَّة لحوادث تاريخيَّة فعليَّة. في أيِّ حال من الأحوال، الكتاب يُطوِّر فَلْسَفَة شاملة للجمعيَّات السِّرِّيَّة، وينسب إلىٰ مثل هذه المُجتمعات عدداً من الإنجازات التَّاريخيَّة، بما فيها سُقُوط نابُليُون. يُصرِّح نُوديير أنَّ هُناك تدخُّلاً لعدد كبير من الجمعيَّات السِّرِّيَّة في تلك العمليَّة، ويُضيف، لكنْ؛ هُناك واحدة أخذت الأسبقيَّة علىٰ كُلِّ الجمعيَّات الأُخرَىٰ، والتي هي ـ في الحقيقة ـ تترأَّسها. طبقاً لنُوديير؛ هذه الجمعيَّة السِّرِّيَّة «العُليا» تُدعىٰ «الفيلاديلفيِّين».

علىٰ أيَّة حال؛ هُو يتكلَّم ـ في الوقت نفسه ـ عن «القَسَم الذي أَلْزَمني بالفيلاديلفيِّين، والذي مَنَعَني من شهر اسمهم الاجتماعي».

علىٰ الرّغم من هذا، هُناكَ تلميح عن صهيُون في مقالة اقتبسها نُوديير. من المُفترض أنَّها وُجِّهَتْ لجمعيَّة الفيلاديلفيِّيْن من قِبَل أحد المُتآمرين ضدَّ نابُليُون. إنَّ الرَّجل المَعْنيَّ يتكلَّم عن ابنه، الذي وُلد حديثاً:

إنَّه صغير جدّاً لأنْ يُلزمَ نفسه معكم بقَسَم أنابيل، ولكنْ؛ تذكَّروا بأنَّني سمَّيْتُهُ إلياسين، وبأنَّني فوَّضتُ إليه حارس الهَيكَل والمذبح، إنْ كان عليَّ أنْ أموت قبل أنْ أرىٰ سُقُوط آخر مُضطهدين القُدْس عن عرشه.

كتاب نُوديير برز علىٰ الشَّاشة عندما الخوف من الجمعيَّات السِّرِّيَّة اتَّخذ ـ عَمَليّاً ـ أبعاداً مَرَضيَّة. مثل هذه الجمعيَّات وُضعَ عليها اللَّوم ـ غالباً ـ في التَّحريض علىٰ الثَّورة الفرنسيَّة؛ والوضع في أُورُوبا ما بعد النَّابُليُونيَّة كان مُماثلاً ـ من نواحٍ عديدة ـ لعصر مكارثي في الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة أثناء الخمسينات. النَّاس رأوا ـ أو تخيَّلوا بأنَّهم رأوا ـ المُؤامرات في كُلِّ مكان. كان السَّحَرَةُ يُطارَدُونَ بشدَّة. كُلُّ اضطراب عامٍّ، وكُلُّ اضطراب بسيط، وكُلُّ حُدُوث لما هُو غير مُتوقَّع نُسِب إلىٰ «نشاط تخريبي»، إلىٰ المُنظَّمات السِّرِّيَّة المُنظَّمة جدّاً، التي تعمل سرّاً خلف الكواليس، لتُضعف نسيج المُؤسَّسات المُرسَّخة، ولتُمارس كُلَّ أساليب الخداع والمَكْر من أجل التَّخريب.

أحدثت هذه العقليَّة إجراءات القَمْع المُتطرِّف. والقمع ـ والذي في أغلب الأحيان كان مُوجَّه نحو خطر زائف، بدوره ـ أحدث مُعارضة حقيقيَّة، ومجموعات حقيقيَّة من المُتآمرين المُخرِّبين، والذين شكَّلوا أنفسهم بمُوجب المُخطَّطات الخياليَّة. حتَّىٰ وإنْ كانت كخيال زائف، الجمعيَّات السِّرِّيَّة أدَّت إلىٰ ذُعْر واسع الانتشار في الصُّفُوف العُليا للحُكُومة؛ وهذا الذُّعر أنجز علىٰ الدَّوام ما لم تستطع الجمعيَّة السِّرِّيَّة بنفسها إنجازه. لا مجال للجَدَل في قضيَّة أنَّ أُسطُورة الجمعيَّة السِّرِّيَّة، إنْ لم يكن الجمعيَّة السِّرِّيَّة بنفسها، لعبت دوراً رئيساً في تاريخ القرن التَّاسع عشر الأُورُوبي.

وأحد المُصمِّمين الرَّئيسيِّيْن لتلك الأُسطُورة، والتي من المُحتمل وُجُود حقيقة خلفها، كان تشارلز نُوديير[1].

(1) (الشَّخصيَّة الأهمُّ في الجمعيَّات السِّرِّيَّة في تلك الفترة كان فيليبُو ميشيل بُونارُوتي (سليل من شقيق مايكل آنغلُو)، الذي

ديبُوسي والصَّليب الوَرْدي

النّزعات التي عبَّر عنها نُوديير ـ الافتتان بالجمعيَّات السِّرِّيَّة، والاهتمام المُتجدِّد بالباطنيَّة ـ واصلت كَسْبَ التَّأثير والأتباع في كافَّة أوقات القرن التَّاسع عشر. النَّزعتان كلتاهما وصلتا للذّروة في السَّنوات الأخيرة للقرن التَّاسع عشر في باريس؛ بيئة كلُود ديبُوسي[1]، السَّيِّد الأعظم المزعوم لدَيْر صهيُون عندما اكتشف سُونير عام 1891، المَخْطُوطَات الغامضة في رين لُو شاتُو. يبدو أنَّ ديبُوسي تعرَّف علىٰ فيكتُور هيُوغُو من خلال الشَّاعر الرَّمْزي بُول فيرلين. بعد ذلك؛ لَحَّن بعض أعمال هيُوغُز. أصبح ـ أيضاً ـ عُضواً مُكمِّلاً للحلقات[2] الرَّمْزيَّة، التي ـ في آخر عقد في القرن ـ سيطرت علىٰ الحياة الثَّقافيَّة الباريسيَّة. هذه الحلقات كانت شهيرة أحياناً، وشاذَّة أحياناً، وأحياناً؛ لها الصِّفتان كلاهما. تضمَّنت تلك الحلقات إيما كالف، ورجل الدِّين الشّابّ اينيل هُوفيت، والذي ـ من خلاله ـ استطاع ديبُوسي مُقابلة سُونير. كان هُناك ـ أيضاً ـ المجوسي المُلغز في الشِّعر الرَّمْزي الفرنسي، ستيفان مالارميه، وهُو الشَّخص الذي ألهمت قصيدته «L'Après-Midi d'un Faune» المُلحّن. وكان هُناك الكاتب الرَّمْزي المسرحي مُوريس ميترلنك، والذي قام ديبُوسي بتحويل مسرحيَّته المُتعلِّقة بالميرُوفيِّين «Pelléas et Mélisande» إلىٰ أُوبرا مشهورة عالميَّاً. وكان هُناك «فيليب أُوغسط فيلير كُونت ليلل»،

بدأ مهنته كوصيف للرّشيدُوق تسكانيا (ابن فرانسوا دُو لُورين)، وأصبح مُرتبطاً بالماسُونيَّة. بعد تفشّي الثَّورة الفرنسيَّة ذهب إلىٰ كُورسيكا؛ حيثُ بقي حتّىٰ 1794، وتعرَّف علىٰ نابُليُون. من أوائل عام 1800، بدأ بتأسيس سلسلة من الجمعيَّات السِّرِّيَّة. أسَّس الكثير منها، لدرجة أنَّ المُؤرِّخين ليس لديهم أدنىٰ فكرة عن العدد الفعلي لها. يُعلِّق أحدهم قائلاً: «بُونارُوتي كان إلهاً حقيقيّاً، وإنْ لم يكن كُلِّيَّ القُدرة. وأحد المصادر يقول بأنَّه اشترك في صداقة العديد من أصدقاء نُوديير وهيُوغُو ـ بُطرُس بُوريل، ولُويس بلانك، وسلستن نانيُول، وجيهان كُوزيغنُور، وجين غيغاوكس ـ وبالتَّالي؛ علىٰ الأغلب، أنَّهم كانوا يعرفون بعضهم البعض. في الحقيقة، غياب أيِّ سجلٍّ عن اجتماعاتهم هُو أمر مُريب جدَّاً، نَظَرَاً للمنزلة التي أدارها بُونارُوتي لاحقاً في حياته في باريس. راجعْ كتاب «علْم أساطير الجمعيَّات السِّرِّيَّة». ويُذكَر أنَّه «الثلاثين سنة بدُون أيِّ توقُّف علىٰ الإطلاق، كالعنكبُوت الذي ينسج بيته، قام بحياكة سريعة لخُيُوط المُؤامرات التي حطَّمَتْهَا الحُكُومات كُلُّها تباعاً، وبأنَّه لم يقمْ بتجديد أيٍّ منها علىٰ الإطلاق». علىٰ الأغلب؛ إنَّ بُونارُوتي ونُوديير كانا في دَيْر صهيُون؛ خُصُوصاً لأنَّ إحدىٰ مُنظَّمات بُونارُوتي كان اسمها «الفيلاديلفيِّين»، وهُو الاسم نفسه الذي استخدمه نُوديير لنظامه. المُؤلِّفون).

(1) (كلُود ديبُوس 1862 ـ 1918، مُلحِّن فرنسي، إبداعه المُتناسق ساعد علىٰ تمهيد الطَّريق للثَّورات المُوسيقيَّة في القرن العشرين. المُترجم).

(2) (يُقصَد بها هُنا جماعة تشدُّ بعض أفرادها إلىٰ بعض وحدةً في المصلحة. المُترجم).

والذي أصبحت مسرحيَّة الرُّوزيكرُوشيِّين «Axël» أشبه بالتَّوراة لُمجمل الحَرَكَة الرَّمْزيَّة. بالرّغم من أنَّ موته عام 1918، حال دُون إكماله، بدأ ديبُوسي بإعداد نصِّ كلمات الأُوبرا المسرحيَّة فيلير الغامضة، وكان ينوي تحويلها ـ أيضاً ـ إلىٰ أُوبرا. من بين شُركائه الآخرين؛ كان النُّجُوم الذين حضروا أُمسيَّات ليلة الثُّلاثاء المشهورة للشَّاعر مالارم[1]، أُوسكار وايلد، ويليام باتلير ييتس، ستيفان جُورج، باول فاليري، الشَّابّ أندريا جيد، ومارسيل براوست.

حلقات ديبُوسي ومالارم ـ بحَدِّ ذاتها ـ كانت حافلة بالغُمُوض والباطنيَّة. وبالوقت نفسه؛ تداخلت مع الحلقات التي كانت أكثر باطنيَّة.

وهكذا؛ وحَّد ديبُوسي ـ عَمَليَّاً ـ كُلَّ الأسماء الأبرز فيما يُسمَّىٰ بإعادة إحياء الغُمُوض الفرنسي. أحد تلك الأسماء البارزة كان المركيز ستانيسلاس دُو غويتا، صديق حميم لإيما كالف، ومُؤسِّس ما يُسمَّىٰ بالنِّظام القَبَلاني للصَّليب الوَرْدي. التَّالي كان جُولز بيُوس، شيطاني مشهور، وهُو صديق حميم آخر لإيما كالف، وصديق ماكجُورج ماثيرز. مدفوعاً من قِبَل جُولز بيُوس، أسَّس ماثيرز المُجتمع الغامض البريطاني الأكثر شُهرَة في تلك الفترة، «نظام الفجر الذَّهَبي».

أحد الغامضين الآخرين معرفة بديبُوسي كان الدُّكتُور جيرارد اينكُوس؛ معروف باسم «بابُوس»، والذي أسَّس تحت ذلك الاسم الشَّيءَ الذي مايزال يُعَدُّ أحد الأعمال الحاسمة في التَّارو[2].

بابُوس لم يكن مُجرَّد عُضو في المُنظَّمات والمُجتمعات الباطنيَّة العديدة، بل كان ـ أيضاً ـ مُستشار القَيْصَر والقَيْصَرَة (نيقُولاس وأليكساندرا) قياصرة رُوسيا.

ومن بين شُركاء بابُوس الأقرب كان اسمٌ قد وَرَدَ مُسبقاً في تحقيقنا ـ جُولز دوينل. في عام 1890، كان دوينل قد أصبح أمين المكتبة في كركسُون، وأسَّس كَنِيسَة الكَاثَار الجديدة في لانغدُوق، والتي عمل فيها مع بابُوس كأساقفة. دوينل ـ في الحقيقة ـ أعلن نفسه كأُسقُف رُوحي لمدينة مايربُويكس، التي تضمَّنت أبرشيَّة «مُونتسيغُور»، ولمدينة «أليت»، التي تضمَّنت أبرشيَّة رين لُو شاتُو.

(1) (ستيفان مالارم: شاعر فرنسي 1842ـ 1898، أحد مُنشئين الحَرَكَة الرَّمْزيَّة. المُترجم).
(2) (ورق لعب (شدَّة) يُستخدَم لقراءة الحظِّ، المُترجم).

كَنيسَة دوينل يُفترَض أنَّها كُرِّسَتْ من قِبَل أُسقُف شرقي في باريس، ومِمَّا يُثير الانتباه أنَّ الكَنيسَة كانت في بيت للسَّيِّدة كيثنيس، زوجة إيرل مُقاطعة كيثنيس اللُّورد جيمس سينكلير. عند التَّفكير بما حَدَثَ في السَّابق، هذه الكَنيسَة يبدو بأنَّها كانت مُجرَّد طائفة، أو جماعة دينيَّة حميدة أُخرىٰ، كالعديد من الجماعات في نهاية القرن التَّاسع عشر.

في ذلك الوقت ـ علىٰ أيَّة حال ـ سبَّبت إنذاراً كبيراً لدىٰ جماعات رَسْميَّة. تقرير خاصٌّ تمَّ تحضيره للمكتب المُقَدَّس (محكمة التَّفتيش) في الفَاتيكَان، يتحدَّث عن «الانبعاث الجديد للمُيُول الكَاثَاريَّة».

وبالتَّالي؛ أصدر البَابَا إدانةً واضحةً لمُؤسَّسة دوينل، والتي شَجَبَهَا برُوح فدائيَّة علىٰ أنَّها مظهر جديد لـ«بِدْعة البيجينيِّيْن القديمة».

علىٰ الرّغم من إدانة الفَاتيكَان، دوينل كان نشطاً في أواسط عام **1890**، في إقليم سُونيير، وتماماً في الوقت الذي كان فيه راعي أبرشيَّة رين لُو شاتُو يتباهىٰ بثروته. الرَّجلان ـ لرُبَّما ـ تعرَّفا إلىٰ بعضهما البعض من قِبَل ديبُوسي، أو من قِبَل إيما كالف، أو من قِبَل آبي هنري بُوديت، راعي أبرشيَّة رين لُو باين، وأفضل صديق لسُونير، وزميل دوينل في جمعيَّة الفُنُون والعُلُوم في كركسُون.

أحد أقرب اتِّصالات ديبُوسي الغامضة كان جُوسفين بيلادان، صديق آخر لبابُوس، وبتوقُّع كبير، أحد الأصدقاء الحميمين الآخرين لإيما كالف.

في **1889**، بيلادان شرع بزيارة إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة. عندما رجع، ادَّعىٰ أنَّه اكتشف قَبْر السَّيِّد المسيح، ليس في الموقع التَّقليدي للضَّريح المُقَدَّس، ولكنْ؛ تحت مسجد عُمر، سابقاً كان جُزء من جُيُوب فُرسان الهَيكَل. بكلمات فخر حماسيَّة؛ إنَّ اكتشاف بيلادان المزعوم كان «مُدهشا جدَّاً؛ بحيث إنَّه ـ في أيِّ عصر آخر ـ كان سيهزُّ العالم الكَاثُوليكي».

لا بيلادان، ولا شُركاءه ـ علىٰ أيَّة حال ـ تطوَّعوا بأيِّ إشارة إلىٰ السَّبب في التَّمييز الدَّقيق والحاسم لقَبْر السَّيِّد المسيح، أو لماذا اكتشافه سيهزُّ ـ بالضَّرورة ـ العالم الكَاثُوليكي، ما لم ـ بالطَّبع ـ احتوىٰ شيئاً هامَّاً مُثيراً للجَدَل، أو ـ رُبَّما ـ شيئاً ما صاعقاً.

في أيِّ حال من الأحوال؛ بيلادان لم يُسهب في الحديث عن اكتشافه المزعوم. لكنْ؛ مع أنَّه كـان مُعترفاً به شَخْصيّاً بأنَّه كَاثُوليكي، رغم ذلك، كان قد أصرَّ علىٰ فناء السَّيِّد المسيح.

في 1890، بيلادان أَسَّس نظاماً جديداً؛ (نظـام الـصَّليب الـوَرْدي الكَـاثُوليكي، والهَيكَـل، و«الكَأس المُقَدَّسَة»). وهذا النِّظام ـ علىٰ خلاف المُؤسَّسات الأُخْرَىٰ للصَّليب الوَرْدي في تلك الفترة ـ نجا ـ بطريقة ما ـ من الإدانة البَابَويَّة. سلَّط بيلادان ـ في هـذه الأثنـاء ـ انتباهـه عـلىٰ نحـو مُتزايـد إلىٰ الفُنُون. صرَّح بأنَّ الفنَّان يجب أنْ يكون (فارساً مُقاتلاً مُدرَّعاً، مُنخرطاً ـ بـشغف ـ بالمـسعىٰ الرَّمْـزي للـ«كَأس المُقَدَّسَة»). وفي تمسُّكه بمبدئه هذا، بدأ بيلادان بحملة صليبيَّة فنِّيَّة شاملة.

أخذت تلك الحملة شكل سلسلة مُكثَّفة من الدِّعاية في المعارض السَّنويَّة، المعروفة بـ« Salon de la Rose + Croix» ـ والتي هدفها المُعلن كان «هَدْمَ الواقعيَّة، وإصلاح الـذَّوق اللَّاتينـي، وخَلْـق مدرسة الفنِّ المثالي».

لتلك النَّتيجة، العديد من المواضيع والأفكار تمَّ رَفْضُهَا بسُرعة، وبشكل مُطلق، علىٰ أنَّها غـير جديرة، لا يهمُّ مقدار الجودة في تنفيذها، حتَّىٰ وإنْ كانت مثاليَّة. تضمَّنت قائمـة المواضـيع والأفكـار المرفوضـة الرُّسُـومات التَّاريخيَّـة «الواقعيَّـة»، والرُّسُـومات الوَطَنيَّـة والعَـسْكَريَّة، وتـصوير الحيـاة المُعاصرة، والصُّور الشَّخصيَّة، والمشاهد الرِّيفيَّة، و«كُلّ المناظر الطَّبيعيَّة عدا تلك المُشكَّلة وُفق طريقة عَمَل بُوسَّان».

وكذلك لم يُقيِّد بيلادانُ نفسَهُ بالرَّسْم. بالعكس؛ حاول إعلان فُنُونه بالمُوسيقىٰ والمسرح أيضاً. شكَّل شركة مسرحيَّة خاصَّة به، والتي أدَّت الأعمال المُركَّبة بشكل خاصٍّ وُفقـاً لهـذه المواضـيع مثـل «أُورفيُوس»، و «أرغُونُوتس، والمـسعىٰ للـصُّوف الـذَّهَبي»[1]، و«لُغـز الـصَّليب الـوَرْدي»، و(لُغـز «الكَأس المُقَدَّسَة»). أحد المُروِّجين المُعتادين والرُّعاة لهذه المُنتجات كانت كلُود ديبُوسي.

(1) (في الأساطير الإغريقيَّة، هُو الصُّوف المُقَدَّس الذَّهَبي للكبش المُجنَّح كريـسُومالُوس، الـذي احـتفظ بـه الملـك في بُستان، وبعد ذلك؛ سرقه جيسن. المُترجم).

من بين شُركاء بيلادان وديبُوسي الآخرين كان مُوريس باريس، والـذي انتسب في شبابه إلىٰ حلقة «الصَّليب الوَرْدي» مع فيكتُور هيُوغُو.

في 1912، باريس نَشَرَ روايته، التي ـ رُبَّما ـ كانت الأكثر شُهرَة، «La Colline Inspirée» (الجبل المُلهَم). اقترح بعض المُعلِّقين الحديثين بأنَّ هذا العمل ـ في الحقيقة ـ أخفىٰ ـ بشفافيَّة ـ حكاية سُونير، ورين لُو شاتُو. بالتَّأكيد؛ هُناك مُتوازيات تبدو بأنَّها مُتطابقة كُلِّيَّاً، وبشكل مُميَّز جداًّ. لكنَّ باريس لم يُحدِّد موقع قصَّته في رين لُو شاتُو، أو أيِّ مكان، ما عدا ذلك في لانغدُوق. بالعكس؛ العُنوان «الجبل المُلهَم» هُو جبل مُحاط بقرية في لُورين. والقرية هي مركز حَجٍّ قديم لدَيْر صهيُون.

جين كُوكتُو

أكثر من تشارلز رادكليف، وأكثر من تشارلز نُودير، جين كُوكتُو بدا إلينا المُرشَّح الأقلَّ علىٰ الإطلاق للسِّيادة الكبيرة لجمعيَّة سرِّيَّة مُؤثِّرة. في حالتَيْ رادكليف، ونُودير ـ علىٰ أيَّة حال ـ أنتج تحقيقُنا بعضَ الارتباطات ذات الأهمِّيَّة البالغة، وفي حالة كُوكتُو؛ اكتشفنا القليل جداًّ من الارتباطات.

بالتَّأكيد؛ ترعرع في بيئة مُقرَّبة من أروقة السُّلطة، عائلته كانت بارزة سياسيَّاً، وعمُّه كان دبلوماسيَّاً مُهمَّاً. لكنَّ كُوكتُو ـ علىٰ الأقلِّ زعماً ـ ترك هذا العالم، ترك المنزل في عُمر الخامسة عشر، وانغمر بالجمعيَّات الثَّقافيَّة المُنفصلة البذيئة السُّمعة في مرسيليا.

في عام 1908؛ رسَّخ نفسه في الحلقات الفنيَّة البُوهيميَّة. في أوائل عشريناته؛ أصبح مُرتبطاً مع براوست، وجيد، ومُوريس باريس. وكان ـ أيضاً ـ صديقاً مُقرَّباً لـ«جين» ابن حفيد فيكتُور هيُوغُو، والذي بدأ معه نُزهة مُتنوِّعة إلىٰ الرُّوحانيَّة، والباطنيَّة. أصبح ـ بشكل سريع ـ مُثقَّفاً بالأُمُور الباطنيَّة، وبالأفكار السِّحرِيَّة، والتي لم تُشكِّل مُعظم عمله فحسب، بل ـ أيضاً ـ كامل فنِّه.

بحُلُول عام 1912، إنْ لم يكن قبل ذلك، بدأ بالانسجام مع ديبُوسي، الذي لَمَّح إليه كثيراً في مجلاته. في عام 1926، صمَّم مجموعة لإنتاج أُوبرا «Pelléas et Mélisande»؛ لأنَّه ـ طبقاً لأحد المُعلِّقين ـ كان «غير قادر علىٰ مُقاومة رَبْط اسمه إلىٰ الأبد مع اسم كلُود ديبُوسي».

حياة كُوكتُو الخاصَّة ـ التي تضمَّنت نوبات الإدمان علىٰ المُخدّرات، وسلسلة الشُّؤُون الشاذَّة جنسيّاً ـ كانت شاذَّة جدّاً. هذا أعطىٰ عنه صُورة الشَّخص المُتقلّب، واللَّامُبالي، والمُتهوِّر.

في الحقيقة ـ علىٰ أيّة حال ـ كان ـ دائماً ـ مُدركاً بحدَّة لشَخْصيَّته التي اشتُهر بها أمام العامَّة؛ ومهما كان طيشه الشَّخصي، هُو لم يترك ذلك يُعرقل وُصُوله إلىٰ ذوي التَّأثير، والسُّلطة. كما اعترف بنفسه، كان ـ دائماً ـ يتوق للشُّهرة، والشّرف، والاحترام، وحتَّىٰ للدُّخُول إلىٰ أكَاديميَّة فرانسيس.

وهُو اهتمَّ بأنْ يتكيَّف بشكل كاف؛ ليُطمئن نفسه بحُصُوله علىٰ المنزلة التي يُريدها. وهكذا، هُو لم يبتعد ـ أبداً ـ عن الشَّخصيَّات البارزة؛ مثل جاك مارتن، وأندريه مالرُوكس. بالرّغم من أنَّه لم يهتمّ زعماً بالسِّياسة، شجب حُكُومة فيشي[1] أثناء الحرب، ويبدو بأنَّه كان بهُدُوء مُتَّحد مع المُقاومة. في عام 1949، عُيِّن «فارس في جوقة الشَّرف» (Chevalier of the Legion of Honor). في عام 1958، دُعي من قِبَل شقيق ديغُول ليقوم بخطاب عامٍّ عن الموضوع العامّ لفرنسا.

ذلك لم يكن ـ عُمُوماً ـ نوعاً من الأدوار التي اختصَّ بها كُوكتُو، ولكنْ؛ يبدو أنَّه أدَّىٰ ذلك الدَّور بشكل كاف، ولابُدَّ أنَّه استمتع في القيام بذلك.

تمَّ إشراك كُوكتُو في جُزء كبير من حياته، أحياناً؛ بحميميَّة، وأحياناً؛ بشكل ظاهري، بالحلقات الكَاثُوليكيَّة المَلَكيَّة. هُنا؛ عاشر الكثير من الأعضاء الأرستقراطيَّة القديمة؛ بمَنْ فيهم البعض من أصدقاء ورُعاة براوست[2].

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ كَاثُوليكيَّة كُوكتُو كان مشكوكاً فيها لدرجة كبيرة، وغير تقليديَّة لَحدٍّ كبير، وتبدو بأنَّها كانت أكثر فنيَّة من التزام ديني. في الجُزء الأخير من حياته؛ كرَّس مُعظم طاقته إلىٰ تجديد الكَنائس، رُبَّما؛ مُحاكاة لافتة للنَّظَر لسُونير. علىٰ الرّغم من أنَّه ـ آنذاك ـ كان مشكوكاً في إيمانه. «يعدُّونني رسَّاماً دينيّاً؛ لأنّي زيَّنْتُ مُصلَّىٰ. دائماً؛ الهَوَسُ نفسه في تصنيف

---

(1) (مدينة في وسط فرنسا، موقع الينابيع المعدنيَّة المُهمَّة. كانت مقرّ الحُكُومة الفرنسيَّة، التي تعاونت مع الألمان أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية. المُترجم).

(2) (مارسيل براوست 1871 ـ 1922، كاتب فرنسي، مُؤلِّف لرواية طويلة من 16 مُجلَّداً تُعرَف بالإنجليزيَّة بـ«ذكرىٰ الأشياء الماضية»، والتي عُدَّت أحد الإنجازات الأعظم في الأدب العالمي، المُترجم).

النَّاس». (هذا كان تعليقه عندما قام ببعض الرُّسُومات، التي هي ـ الآن ـ جُزء من مُصلًّى في كَنيسَة نُوتر دام في لندن. الكاتب).

مثل سُونير، في أعماله لتجديد الزّخرفة؛ يقوم كُوكتُو بدَمْج تفاصيل غريبة وإيحائيَّة مُعيَّنة. البعض منها يُمكن مُشاهدته في كَنيسَة نُوتر دام الفرنسيَّة، قُرب ساحة ليستر في لندن. الكَنيسَة بذاتها يعود تاريخها إلىٰ عام 1865، وربَّما عند تكريسها[1]؛ كانت تمتلك بعض الارتباطات بالماسُونيَّة.

في عام 1940، في ذروة الهُجُوم الخاطف للحملة الدِّينيَّة، تمَّ تدميرها تماماً. علىٰ الرّغم من هذا، بقيت المركز المُفضَّل للعبادة للعديد من الأعضاء المُهمِّين في قُوَّات الفرنسيِّيْن الأحرار، وبعد الحرب؛ أُعيد بناؤها، وتجديدها، من قِبَل الفنَّانين، من جميع أنحاء فرنسا.

ومن بينهم كان كُوكتُو ـ الذي قام في عام 1960، قبل ثلاث سنوات من موته ـ برَسْم لوحة جداريَّة، تُصوِّر صَلْبَ السَّيِّد المسيح. إنَّها لوحة استثنائيَّة فريدة من نوعها، فهُناك شمس سوداء، وشَخْصيَّة شرِّيرة مجهولة الهُويَّة، وممزوجة باللَّون الأخضر في أسفل الزَّاوية اليُمنىٰ.

هُناك جُندي رُوماني يحمل درعاً عليه شعار طائر؛ طائر مُصمَّم بطريقة مُميَّزة؛ ليُجسِّد طريقة العزف المصريَّة علىٰ البُوق.

بين النِّساء النَّادبات والقائد الرُّوماني هُناك شَخْصيَّتان حديثتان مُتناقضتان؛ إحداهما هي كُوكتُو بنفسه، مُقدّمة كرَسْم ذاتين، مُعطياً ظهره بشكل ملحوظ للصَّليب. الأكثر دهشة من كُلِّ ذلك هُو حقيقة أنَّ تلك اللَّوحة الجداريَّة تُصوِّر ـ فقط ـ الجُزء الأوطأ للصَّليب.

وأيّاً كان ذلك الشَّخص المصلوب علىٰ الصَّليب، فالذي يُمكن رُؤيته هُو ـ فقط ـ حتَّىٰ مُستوىٰ الرُّكبتَيْن، حتَّىٰ لا يتمكَّن المرء من مُشاهدة وجه المصلوب، أو يُحدِّد هُويَّته، ومُثبَّت علىٰ الصَّليب، مُباشرة تحت أقدام الضَّحيَّة المجهولة، وردة عملاقة.

باختصار؛ إنَّ ذلك التَّصميم هُو تجسيد صارخ لشعار «الصَّليب الوَرْدي». وإنْ لم تكن تلك اللَّوحة شيئاً آخر، فهي رَسْم مُفرد واستثنائي لكَنيسَة كَاثُوليكيَّة.

---

(1) (أيْ جعل البناء مُكرَّساً لغرض ما، وغالباً؛ غرض ديني، المُترجم).

جُون الثَّالث والعشرون (كلاهما)

الملفَّات السِّرِّيَّة، التي ظهرت فيها القائمة المزعومة للأسياد العظام لدَيْر صهيُون ظهرت، أُرِّخَتْ بعام 1956. كُوكتُو لم يمتْ حتَّىٰ 1963.

وبالتَّالي؛ ليس هُناك إشارة لَمَنْ ورثه، أو لِمَنْ ترأَّس دَيْر صهيُون في ذلك الوقت. لكنَّ كُوكتُو نفسه شكَّل نُقطة إضافيَّة ذات أهمِّيَّة هائلة.

حتَّىٰ حادثة «قَطْع الدّردار» عام 1188، صرَّحت «وثائق الدَّيْر» بأنَّ دَيْر صهيُون ونظام الهَيكَل اشتركا بنَفْس السَّيِّد الأعظم. بعد عام 1188، قيل بأنَّ دَيْر صهيُون اختار أسياداً عظاماً خاصِّين به، أوَّلهم كان جين دُو جيزرز.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ كُلُّ سيِّد أعظم ـ لدىٰ استلام منصبه ـ كان قد تبنَّىٰ الاسم «Jean» (يُوحنَّا)، أو، لأنَّه يُوجد هُناك أربع نساء اسمهنَّ «Jeanne» (جوان). لذلك؛ يُزعَم أنَّ الأسياد العظام لدَيْر صهيُون شكَّلوا تعاقباً مُستمرّاً للاسمَيْن كلَيْهما«Jean» و«Jeanne» مُنْذُ عام 1188، وحتَّىٰ الوقت الحاضر. هذا التَّعاقب يهدف ـ بشكل واضح ـ إلىٰ الدّلالة علىٰ البَابَويَّة الباطنيَّة والسِّحْرِيَّة المُستندة علىٰ يُوحنَّا، علىٰ النَّقيض من ذلك (ورُبَّما بشكل مُعارض) للبَابَويَّة الخارجيَّة المنسوبة لـ«بُطرُس»[1].

هُناك ـ بالطَّبع ـ سُؤال رئيس واحد؛ أيُّ جُون هُو يُوحنَّا المَعْمَدَان[2]؟ أم جُون، الدَّاعية، «التَّابع المحبوب» في الإنجيل الرَّابع؟ أم جُون، القسّ، مُؤلِّف سفر الرُّؤيا؟ بدا ـ بشكل واضح ـ أنَّه أحد هؤلاء الثَّلاثة؛ لأنَّه ـ كما يزعم ـ أنَّ جين دُو جيزرز في عام 1188، أخذ لقب جين الثَّاني. مَنْ ـ إذنْ ـ كان جين الأوَّل؟ مهما كان جواب ذلك السُّؤال، جين كُوكتُو ظهر علىٰ قائمة الأسياد العظام لدَيْر صهيُون كجين الثَّالث والعشرين. في عام 1958، بينما كان كُوكتُو مايزال يحمل السِّيادة الكبيرة،

---

(1) (بُطرُس، القدِّيس تُوفِّي حوالىٰ 64م: كبير رُسُل المسيح الاثنَيْ عشر. تولَّىٰ زعامة الكَنيسَة بعد المسيح. يُعرَف بـ«بُطرُس الرَّسول»، المُترجم).

(2) (يُوحنَّا المَعْمَدَان، القدِّيس: تُوفِّي حوالىٰ عام 30م، وهُو نبيٌّ يهُوديٌّ. بشَّر بمجيء المسيح، وعمَّده في نهر الأردن، المُترجم).

البَابَا بيُوس الثَّاني عشر مات ومجمع الكاردينالات انتخب الكاردينال أنجيلُو رُونكالي ليكون حبْرهم الجديد في فينيسيا. أيُّ بَابَا مُنتخَب حديثاً يُمكنه اختيار اسمه الخاصّ؛ وسبَّب الكاردينال رُونكالي ذُعراً كبيراً عندما اختار اسم جُون (يُوحنَّا) الثَّالث والعشرين.

ذُعرٌ كهذا لم يكن بلا مُبرِّر. في المقام الأوَّل، الاسم جُون كان قد أُدين بشكل مُطلق؛ لأنَّه استُعمل ـ فيما مضىٰ، في أوائل القرن الخامس عشر ـ من قِبَل بَابَا زائف. علاوةً علىٰ ذلك؛ كان ـ آنذاك ـ يُوجد جُون الثَّالث والعشرون. البَابَا المُزيَّف الذي تخلَّىٰ عن المنصب عام **1415** ـ والذي كان سابقاً أُسقُف «أليت» ـ كان ـ في الحقيقة ـ جُون الثَّالث والعشرين. وهكذا كان من الغريب ـ علىٰ أقلِّ تقدير ـ أنْ يتَّخذ الكاردينالُ رُونكالي الاسمَ نفسه.

في عام **1976**، كتاب صغير مُلغَز نُشر في إيطاليا ـ ومُباشرة ـ بعد ذلك؛ تُرجم إلىٰ الفرنسيَّة. كان عُنوانه «نُبُوءات البَابَا جُون الثَّالث والعشرين»، ويحتوي علىٰ مجموعة لأشعار نثريَّة نُبُوئيَّة غامضة، أُعدَّت ـ كما يُعتقَد ـ من قِبَل الحبْر الذي مات قبل ثلاث عشرة سنة، في **1963**، نفس العام الذي تُوفِّي فيه كُوكتُو. الجُزء الأكبر من هذه «النُّبُوءات» كانت غامضة جدَّاً، وتتحدَّىٰ أيَّ تفسير مُترابط منطقيّاً. إنْ هي كانت ـ في الحقيقة ـ من عمل جُون الثَّالث والعشرين، فذلك ـ أيضاً ـ موضع للشَّكِّ. لكنَّ مُقدّمة ذلك العمل تُؤكِّد بأنَّها من عمل البَابَا جُون، وتُؤكِّد شيئاً آخر ـ أيضاً ـ أبعد من ذلك ـ أنَّ جُون الثَّالث والعشرين كان عُضواً سرِّيّاً في الصَّليب الوَرْدي، الذي انتسب إليه عندما كان يشغل منصب السَّفير البَابَوي في تُركيا عام **1935**.

لا حاجة للقول، هذا الزَّعْم يبدو مُدهشاً. بالتَّأكيد؛ لا يُمكن إثباته، ونحنُ لم نجد أيَّ دليل ظاهري لدعمه. وتساءلنا، لماذا في المقام الأوَّل تمَّ القيام بمثل هذا الزَّعْم؟!

هل يُمكن أنْ يكون ذلك حقيقيّاً في النِّهاية؟

هل يُمكن أنْ يكون فيه ـ علىٰ الأقلِّ ـ ذرَّة من الحقيقة؟!

في عام **1188**، قيل بأنَّ دَيْر صهيُون تبنَّىٰ اسماً ثانويّاً «الصَّليب الوَرْدي الحقيقي» (Croix veritas_Rose). إنْ كان البَابَا جُون قد انتسب إليٰمُنظَّمة الصَّليب الوَرْدي، وإنْ كانت تلك المُنظَّمة هي دَيْر صهيُون، النَّتيجة ستكون فاتنة جدّاً.

من بين الأشياء الأُخرَىٰ المُقترَحَة أنَّ الكاردينال رُونكالي، عندما أصبح البَابَا، اختار اسمه السِّرِّيَّ الخاصَّ كَسَيِّد أعظم؛ لأنَّه ـ لسبب ما رَمْزِيٍّ ـ سيكون هُناك جُون الثَّالث والعشرون يترأَّس دَيْر صهيُون والبَابَوِيَّة في آن واحد.

في أيِّ حال من الأحوال؛ حُكْمُ جُون (أو جين) الثَّالث والعشرين لدَيْر صهيُون ورُوما في آن واحد يبدو بأنَّه مُصادفة خارقة. ولا حتَّىٰ «وثائق الدَّيْر» كان بإمكانها أنْ تبتكر قائمة خَلْق مثل هذه المُصادفة؛ قائمة تُوِّجَتْ بجين الثَّالث والعشرين، في الوقت ذاته الذي احتلَّ رجلٌ بنفس الاسم عَرْش القدِّيس بُطرُس.

قائمة الأسياد العظام لدَيْر صهيُون كانت قد أُعِدَّتْ، وأُودِعَتْ في المكتبة الوَطَنِيَّة في عام 1956، كأقصىٰ حَدٍّ؛ أيْ قبل سنتَيْن من اسلام جُون الثَّالث والعشرين منصب البَابَا.

كان هُناك مُصادفة مُمَيَّزة أُخرىٰ. في القرن الثَّاني عشر، الرَّاهب الآيرلندي المدعو «مالاتشي» جَمَعَ سلسلة من النُّبُوءات، التي تُشبه نُبُوءات ناسترادامُوس.

في هذه النُّبُوءات ـ التي ـ مُصادفة ـ قيل بأنَّها كانت ذات أهمِّيَّة كبيرة بالنِّسبة للعديد من الكَاثُوليك الرُّومان المُهمِّين، بمَنْ فيهم البَابَا جُون بُول الثَّاني ـ مالاتشي يُعدِّد الأحبار الذين سيحتلُّون عَرْش القدِّيس بُطرُس في القُرُون القادمة، وقدَّم شعاراً لكُلِّ حبْر منهم. بالنِّسبة لجون الثَّالث والعشرين كان الشِّعار مُترجماً إلىٰ الفرنسيَّة، «Pasteur et Nautonnier» ـ «كَاهن ومُرشد»[1]، واللَّقَب الرَّسْمي للسَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون هُو ـ أيضاً ـ «Nautonnier» (المُرشد).

مهما كانت الحقيقة التي تقع وراء هذه المُصادفات الغريبة، لا شكَّ أنَّ البَابَا جُون الثَّالث والعشرين، وبشكل أكثر من أيِّ شَخْص آخر كان مسؤولاً عن تغيير وُجهة الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة، وجَلْبها، كما يقول المُعلِّقون بكثرة، إلىٰ القرن العشرين. مُعظم ذلك أُنجز بالإصلاحات التي قام بها «مجلس الفَاتيكَان الثَّاني»، الذي دشَّنه جُون.

(1) (العبارة اللَّاتينيَّة هي «Pastor et Nauta ـ» كلمة «Nauta» قد تعني إمَّا «جُندي البَحْريَّة»، أو «الملَّاح»، والتي هي باللُّغة الفرنسيَّة القديمة تعني «Nautonnier» المُؤلِّفون).

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ جُون كان مسؤولاً عن تغييرات أُخرىٰ أيضاً. مثلاً، عدَّل موقف الكَنيسَة من الماسُونيَّة، أنهىٰ ـ بذلك ـ التَّقليد الرَّاسخ لِمُدَّة قرنَيْن من الزَّمن علىٰ الأقلّ، وأعلن بأنَّ الكَاثُوليكي قد يكون ماسُونيّاً.

وفي يُونيُو/ حُزَيْران **1960**، أصدر رسالة بَابَويَّة مُهمَّة جدّاً. هذا الخطاب وجَّه نفسه ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ موضوع «الدَّم النَّفيس للسَّيِّد المسيح». ينسب أهمِّيَّة لم يسبق لها مثيل حتَّىٰ الآن إلىٰ ذلك الدَّم. أكَّد مُعاناة السَّيِّد المسيح كإنسان، وزعم بأنَّ خلاص البشريَّة كان قد أُحدث بإراقة دمه.

ضمن سياق رسالة البَابَا جُون، عاطفة السَّيِّد المسيح الإنسانيَّة، وإراقة دمه، يفترضان نتيجة أعظم من البعث، أو حتَّىٰ من تقنيَّة الصَّلب.

إنَّ نتائج هذه الرِّسالة هائلة. كما لاحظ أحد المُعلِّقين، إنَّها تعدل ـ بالكامل ـ أُسُس الاعتقاد المسيحيَّة؛ إنْ كان خلال الإنسان بإراقة دم السَّيِّد المسيح، فإنَّ موته وبَعْثه يُصبحان أمراً ثانويّاً؛ إنْ لم يكن ـ في الحقيقة ـ غير ضروري؛ أيْ أنَّ السَّيِّد المسيح لم يكن من الضَّروري أنْ يموت علىٰ الصَّليب لكي ينال الإيمانُ المصداقيَّةَ.

7

المؤامرة عبر القرون

كيف كُنّا نُركّب الأدلّة التي نُجمّعها؟ مُعظمها كان مُثيراً، وبدت أنّها تشهد علىٰ شيء ما؛ بعض المُخطّطات، بعض الحبكات المُتماسكة.

قائمة الأسياد العظام المزعومة لدَيْر صهيُون ـ أيّاً كان احتمال عدم أصالتها ـ أظهرت ـ الآن ـ بعض الاتّساق المُثير.

أغلب الشّخصيّات علىٰ القائمة ـ علىٰ سبيل المثال ـ ارتبطت بالدّم، أو بالعلاقات الشّخصيّة، مع العائلات التي سُلالتها وردت في «وثائق الدَّيْر»، وخُصُوصاً بآل لُورين. أكثر الشّخصيّات في القائمة ارتبطت بنظام، أو آخر، أو بالجمعيّات السّرّيّة.

عَمَليّاً؛ كُلُّ الشّخصيّات في القائمة، حتّىٰ وإنْ كانوا كَاثُوليكيّيْن اسميّاً، يحملون مُعتقدات دينيّة مُحرّمة. عَمَليّاً؛ كُلُّهم انغمسوا بالفِكْر، والتّقاليد الباطنيّة. وتقريباً؛ في كُلِّ حالة، لقد كان هُناك نوع من التّماسّ المُباشر بين سيّد أعظم، وسَلَفه، ووريثه.

علىٰ الرّغم من هذا، هذه الاتّساق ـ مع أنّه كان مُثيراً ـ لم يثبت ـ بالضّرورة ـ أيَّ شيء. هُو لم يُثبت ـ علىٰ سبيل المثال ـ أنّ دَيْر صهيُون ـ الذي أكّدنا وُجُوده أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ ـ واصل ـ في الحقيقة ـ البقاء خلال القُرُون اللّاحقة.

لم يثبتوا أكثر من أنّ الأفراد الذين استُشهد بهم كأسياد عظام هُم ـ في الحقيقة ـ حملوا ذلك المنصب. مايزال يبدو ـ بالنِّسبة لنا ـ أنّه من المُستحيل أنّ بعضهم فعل ذلك. بقدر ما ارتبط بعض الأفراد المُعيّنين بالموضوع، بقدر ما كان الوقت الذي أصبحوا فيه أسياداً عظاماً أكثر جَدَلاً ضدّهم.

صحيح أنّه كان مُمكناً أنْ يتمّ اختيار إدوارد دُو بار كَسَيّد أعظم في عُمر الخامسة، أو رينيه دانجاو في عُمر الثّامنة، وُفق أُسُس المبدأ الوراثي، ولكنّ ذلك المبدأ لا يُؤهّل أشخاصاً مثل رُوبرت فلُود، أو تشارلز نُوديي، لاستلام ذلك المنصب، واللّذان أصبحا كلاهما كَسَيّدين عظيمَيْن في عُمر الواحد والعشرين، أو ديبُوسي، الذي أصبح سيّداً أعظم في عُمر الثّلاثة والعشرين.

مثل هؤلاء الأفراد لم يكن لديهم الوقت الكافي لـ«يشقُّوا طريقهم للسُّمُوِّ بالمناصب»، كما يستطيع الشَّخص في الماسُونيَّة مثلاً، ولا حتَّىٰ إنَّهم كانوا قد أُسِّسوا بشكل متين في مجالاتهم الخاصَّة. هذا الشَّيء الشَّاذُّ لم يُوضح أيَّ شيء.

ما لم يفترض المرء أنَّ السِّيادة العظيمة لدَيْر صهيُون كانت ـ علىٰ الأغلب ـ رَمْزيَّة تماماً، منصباً شعائريَّاً يشغله شَخص ما، شَخْص ـ لرُبَّما ـ لم يكن حتَّىٰ مُدركاً للمنزلة التي مُنحَتْ له.

علىٰ أيَّة حال؛ أثبت الاعتقاد أنَّه عقيم؛ علىٰ الأقلِّ، علىٰ أساس المعلومات التي امتلكناها. لذلك، عُدنا إلىٰ التَّاريخ مرَّة ثانية، باحثين عن دليل لدَيْر صهيُون في مكان آخر، في جهات غير قائمة الأسياد العظام المزعومين. توجَّهنا ـ بشكل خاصٍّ ـ إلىٰ ثروات آل لُورين، والبعض من العائلات الأُخرَىٰ الواردة في «وثائق الدَّيْر».

أردنا التَّحقيق في البيَانَات الأُخرَىٰ الواردة في تلك الوثائق. وأردنا دليلاً إضافيَّاً لعمل جمعيَّة سرِّيَّة، التي ـ لرُبَّما ـ كانت تعمل سرَّاً، وراء الكواليس.

في الواقع؛ إنْ كانت تلك الجمعيَّة سرِّيَّة بحقٍّ، فإنَّنا ـ بالطَّبع ـ لن نتوقَّع إيجاد دَيْر صهيُون مذكور بوُضُوح بذلك الاسم. إنْ كان قد واصل نشاطاته عبر القُرُون، فلابُدَّ أنَّه كان سيقوم بذلك تحت تشكيلة واسعة من المظاهر، والأقنعة، والأسماء المُختلفة، كما زُعم أنَّه عمل لفترة من الزَّمن تحت اسم أُورمُوس، الذي تخلَّت عنه، ولا حتَّىٰ إنَّه سيعرض سياسة وحيدة واضحة، ومُعيَّنة، أو موقف سياسي، أو موقف سائد.

في الحقيقة؛ أيٌّ من هذه المواقف المُتماسكة والمُوحَّدة، حتَّىٰ إنْ كانت مكشوفة، كانت ستبدو مشبوهة جدَّاً. إذا نحنُ كُنَّا نتعامل مع تلك المُنظَّمة التي بقيت لحوالي تسعة قُرُون، يجب علينا أنْ نُصدِّق، ونُؤمن، بمُرُونتها، وتكيُّفها، الكبيرَيْن. بقاؤها كان سيتوقَّف علىٰ هذه النَّوعيَّات؛ وبدُونها كان سيتحلَّل إلىٰ شكل فارغ، ليُصبح كأنَّه مُجرَّداً من أيِّ قُوَّة حقيقيَّة؛ كالحَرَس المَلَكي البريطاني مثلاً.

باختصار؛ دَيْر صهيُون لم يكن مُمكناً أنْ يبقىٰ ثابتاً وراسخاً في كُلِّ فترة تاريخه.

بالعكس، رُبَّما كان يُرغَم علىٰ التَّغيير بشكل دوري، ليُعدِّل نفسه، ونشاطاته، ليُعدِّل نفسه، وأهدافه، وُفقاً للوضع المُتغيِّر للشُّؤون العالميَّة، كما أُرغِم الفُرسان أثناء القرن الأخير علىٰ استبدال خُيُولهم بالدَّبَّابات، والسَّيَّارات المُدرَّعة. في قُدرته للتَّوافق مع العصر، ولاستغلال واستثمار تقنيَّة ومصادر ذلك العصر، دَيْر صهيُون لابُدَّ أنَّه كان مُكَافئاً لما يبدو أنَّه كان مُنافسه الخارجي، الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة؛ أو رُبَّما بالمُنظَّمة المعروفة بالمافيا، هذا إنْ أردنا الاستشهاد بمثال شرِّير مُخادع.

نحنُ - بالطَّبع - لم ننظر إلىٰ دَيْر صهيُون علىٰ أنَّه شرِّير محض، ولكنَّ مُنظَّمة المافيا - عبر تكليفها من جيل لآخر - تُقدِّم - علىٰ الأقلِّ - شهادة عن كيفيَّة وُجُود الجمعيَّات السِّرِّيَّة، وعن القُوَّة التي بإمكانها أنْ تُمارسها.

دَيْر صهيُون في فرنسا

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» بين عامَيْ 1306 و 1480؛ امتلك دَيْر صهيُون تسع مقرَّات. في عام 1481 - عندما مات رينيه دانجاو - هذا العدد يفترض أنَّه توسَّع إلىٰ سبعة وعشرين.

أكثرها أهمِّيَّة أُدرجت علىٰ أنَّها واقعة في بُورج، جيزرز، جيرناك، ماونت سانتميشيل، مُونتريفال، باريس، لُو بُوي، سُولسمس، وستيناي. وكما أضافت الملفَّات السِّرِّيَّة بغُمُوض، كان هُناك «قنطرة تُدعىٰ بيتـعَنيا (بيت عَنيا)، تقع في رين لُو شاتُو». وليس واضحاً - بالضَّبط - ما الذي تعنيه هذه العبارة، عدا أنَّ رين لُو شاتُو يبدو أنَّها تتمتَّع بأهمِّيَّة ما كبيرة جدَّاً. وبالتَّأكيد؛ لا يُمكن أنْ يكون عرضيَّاً تسمية سُونير للفيلا التي بناها بـ«فيلا بيت عَنيا».

طبقاً للملفَّات السِّرِّيَّة؛ مقرُّ جيزرر، تاريخه يعود إلىٰ 1306، وكان موقعه في «رُو دُو فيينه». من هُنا؛ يفترض أنَّه اتَّصل - عن طريق ممرٍّ تحت أرضي - بالمقبرة المحلِّيَّة، وبالمُصلَّىٰ التَّحت أرضي للقدِّيسة كاثرين، الذي يقع تحت القلعة.

في القرن السَّادس عشر؛ قيل إنَّ هذا المُصلَّىٰ، أو رُبَّما قبواً مُجاوراً له، أصبح مُستودعاً لأرشيفات دَيْر دَيْر صهيُون، التي أُودعَتْ في ثلاثين صُندُوق.

في أوائل عام **1944**، عندما تمَّ احتلال جيزرر من قِبَل الألمان، تمَّ إرسال مهمَّة عَسْكَرِيَّة خاصَّة من برلين، بأوامر للقيام بسلسلة عمليَّات تنقيب تحت القلعة. غزو الحُلفاء للنُّورماندي حال دُون تنفيذ أيٍّ من تلك المهمَّة، ولكنْ؛ بعد فترة قصيرة، بدأ عامل فرنسي اسمه رُوجر لُومُوي بالتَّنقيب وحده.

في **1946**، صرَّح لُومُوي لرئيس بلديَّة جيزرر بأنَّه وجد مُصلًّىٰ تحت الأرض، يحتوي تسعة عشر قَبْراً حجريَّاً، بالإضافة إلىٰ ثلاثين خزينة معدنيَّة.

وتمَّ تأجيل طلبه لمُتابعة المزيد من التَّنقيب، ولشَهْر اكتشافه، يبدو أنَّ ذلك كان مُتعمَّداً نوعاً ما، وذلك نتيجة الفوضىٰ في الرُّوتين الحُكُومي.

أخيراً، عام **1962**، لُومُوي شرع بتنقيبه المطلوب في جيزرر. تمَّ إجراء ذلك تحت رعاية أندريه مالرُوكس، وزير الثَّقافة الفرنسي آنذاك، ولم يتمّ نشر تلك العمليَّة علانيَّة. بالتَّأكيد؛ لم يتمّ العُثُور علىٰ القُبُور، ولا حتَّىٰ الخزائن.

سواء تمَّ العُثُور علىٰ مُصلًّىٰ تحت الأرض، أم لا، فذلك الأمر كان موضع جدال في الصّحافَة، وكذلك في الكُتُب، والمقالات المُختلفة. لُومُوي أصرَّ بأنَّه وجد ـ مرَّة أُخرىٰ ـ طريقه إلىٰ المُصلَّىٰ، ولكنَّ مُحتوياته كانت قد أُزيلَتْ. مهما كانت حقيقة المسألة، هُناك ذكْر لوُجُود مُصلًّىٰ تحت الأرض للقدِّيسة كاثرين في مَخْطُوطَتَيْن قديمتَيْن، أحدها يعود تاريخها لعام **1696**، والثَّانية لعام **1375**.

وُفق هٰذا الأساس، تُصبح قصَّة لُومُوي معقولة، علىٰ أقلِّ تقدير، وكذلك هُو الادّعاء القائل بأنَّ المُصلَّىٰ التَّحت أرضيَّة كانت مُستودعاً لأرشيفات دَيْر صهيُون.

في بحثنا الخاصّ، يبدو ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّ هُناك بُرهاناً قاطعاً علىٰ أنَّ دَيْر صهيُون استمرَّ في وُجُوده لمُدَّة ثلاثة قُرُون ـ علىٰ الأقلّ ـ بعد الحملات الصَّليبيَّة، وتفكُّك فُرسان الهَيكَل.

علىٰ سبيل المثال، بين أوائل القرن الرَّابع عشر وأوائل السَّابع عشر، وثائق تخصُّ أُورليان، ولقاعدة دَيْر صهيُون هُناك في سانتسامسن تُشكِّل مراجع مُتقطِّعة للنِّظام.

وهكذا، هُو مُدوَّن أنَّ أعضاء أوائل القرن السَّادس عشر لدَيْر دَيْر صهيُون في أُورليان ـ بخَرْق «نظامهم»، و«رَفْضهم العيش المُشترك» ـ تعرَّضوا لاستياء البَابَا، وملك فرنسا.

حوالي أواخر القرن الخامس عشر، النِّظام اتُّهم ثانية بعدد من المُخالفات؛ الإخفاق في إطاعة نظامهم، والعيش «بشكل مُنفرد» بدلاً من العيش «المُشترك»، والتَّحرُّر، والاستقرار خارج جُدران سانتسامسن، ومُقاطعة الخدمات المُقدَّسة، وإهمال إعادة بناء جُدران المنزل، الذي كان قد أُتلف بجدِّيَّة في عام 1562.

بحُلُول عام 1619، يبدو أنَّ السُّلطة فقدت الصَّبرَ. في تلك السَّنة، طبقاً للسِّجلَّات؛ دَيْر صهيُون طُرد من سانتسامسن، والبيت جُعل لليسوعيِّين.

مُنْذُ عام 1619، فصاعداً، لم نجد أيَّة إشارة إلىٰ دَيْر صهيُون، علىٰ أيَّة حال، ليس بذلك الاسم، ولكنْ؛ عدا ذلك، يُمكننا أنْ نُثبت وُجُوده علىٰ الأقلِّ حتَّىٰ القرن السَّابع عشر، علىٰ الرّغم من أنَّ ذلك البُرهان ـ بحَدِّ ذاته ـ طرح عدداً من الأسئلة الحاسمة.

في المقام الأوَّل، الإشارات التي وجدناها لا تُسلِّط أيَّ ضوء علىٰ أيَّة نشاطات حقيقيَّة لدَيْر صهيُون، أو أهدافه، أو مصالحه، أو تأثيره المُحتمل. في المقام الثَّاني، هذه الإشارات ـ كما يبدو ـ شهدت ـ فقط ـ علىٰ شيء ذي نتيجة تافهة، مجموعة أخويَّة مُحيِّرة وغريبة من الرُّهبان، أو الأنصار الدِّينيِّين، الذين كان سُلُوكهم ـ علىٰ الرّغم من أنَّه رُبَّما مُحرَّم وسرِّيٌّ ـ ذا أهمِّيَّة بسيطة نسبيّاً.

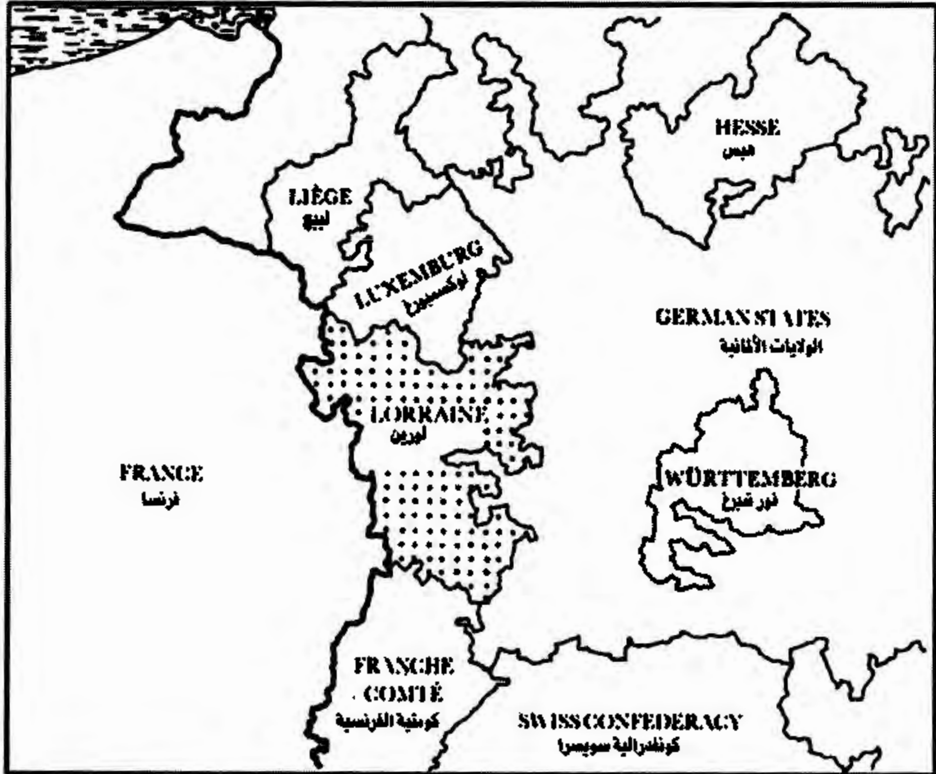
نحنُ لا نستطيع أنْ نجعل الشَّاغلين المُهملين ـ علىٰ ما يبدو ـ لسانتسامسن أصدقاء لمُنظَّمة الصَّليب الوَرْدي المشهورة، والأُسطُوريَّة، أو عصابة من الرُّهبان المُتمرِّدين مع مُؤسَّسة أسيادها العظام يُشكِّلون بعضاً من الأسماء الأكثر شُهرَة في التَّاريخ، وفي الثَّقافة الغربيَّة.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ دَيْر صهيُون كان مُنظَّمة ذات قُوَّة وتأثير كبيرَيْن، ومسؤولة عن تأسيس مُنظَّمة فُرسان الهَيكَل وقيادة الشُّؤُون الدّوليَّة.

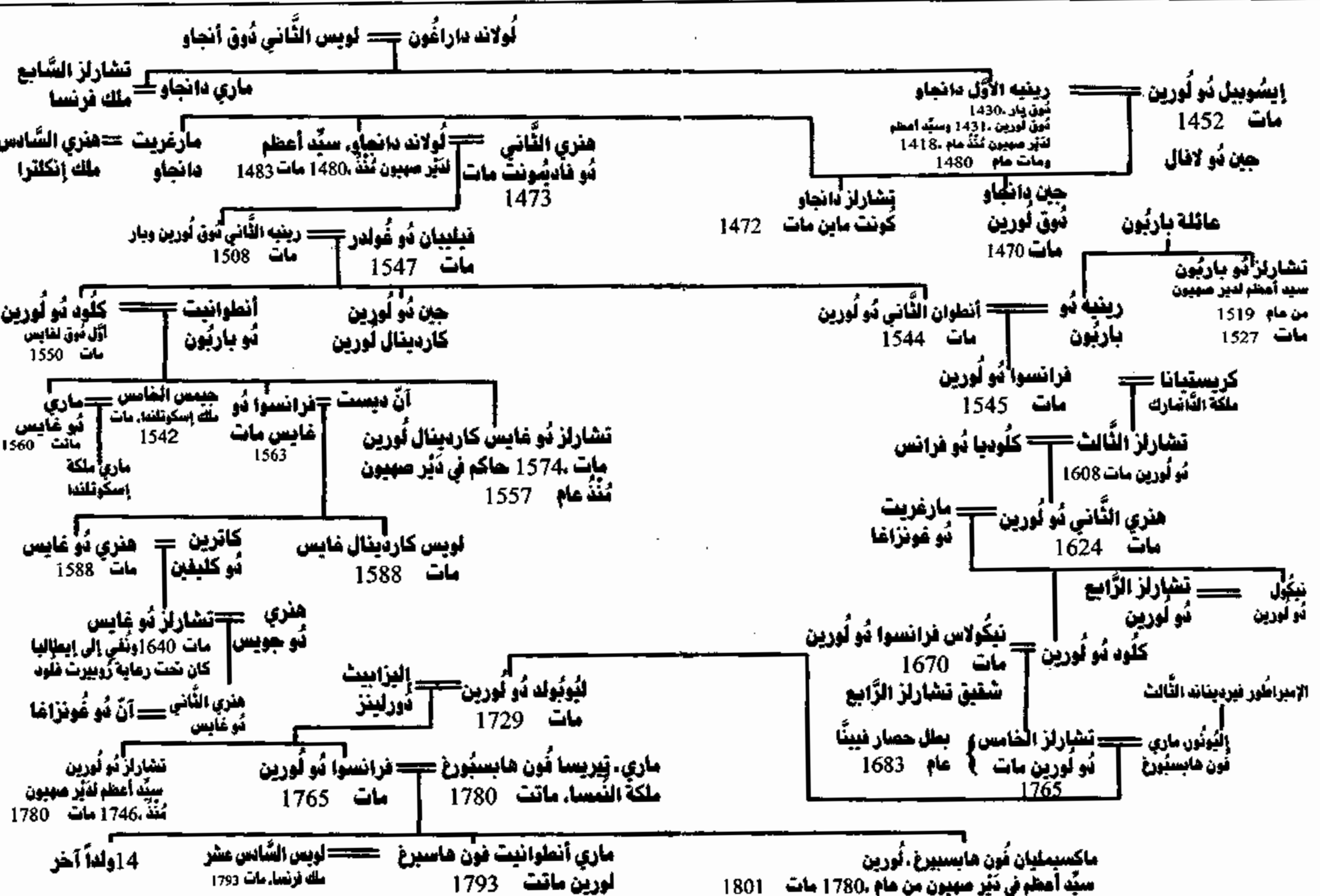
الإشارات التي وجدناها لا تقترح أيَّ شيء بهذا الحجم.

بالطَّبع؛ هُناك تفسير واحد مُحتمَل، هُو أنَّ سانتـسامسن في أُورليان لم يكن إلَّا موقعاً معـزولاً. ورُبَّما؛ ثانويّاً لنشاطات دَيْر صهيُون. حتَّىٰ إنَّـه ـ في الحقيقـة ـ قائمـة مقـرَّات دَيْـر صـهيُون المُهمَّـة في الملفَّات السِّرِّيَّة لا تتضمَّن أُورليان.

إنْ كان ـ في الحقيقة ـ دَيْر صهيُون قُوَّة يُحسَبُ لها حساب، رُبَّما أُورليان كانت مُجرَّد جُزء واحـد صغير واحد من خُطَّة أوسع بكثير. وإذا كانت الحالة كذلك، يجب علينا أنْ نبحث عن آثار النِّظـام في مكان آخر.



الإمارات الدُّوقيَّة في لُورين في مُنتصف القرن السَّادس عشر



لُولاند داراغُون
لويس الثّاني دُوق أنجاو
تشارلز السّابع ملك فرنسا
ماري دانجاو
رينيه الأوّل دانجاو دُوق بار 1430، دُوق لُورين 1431، وسيِّد أعظم لدَيْر صهيون مُنذ عام 1418، ومات عام 1480
إيسُوبيل دُو لُورين مات 1452
جين دُو لافال
هنري السّادس ملك إنكلترا
مارغريت دانجاو
لُولاند دانجاو، سيِّد أعظم لدَيْر صهيون مُنذ 1480، مات 1483
هنري الثّاني دُو فاديُمونت مات 1473
تشارلز دانجاو كونت ماين مات 1472
جين دانجاو دُوق لُورين مات 1470
عائلة باربُون
رينيه الثّاني دُوق لُورين وبار مات 1508
فيليبان دُو غُولدر مات 1547
تشارلز دُو باربُون سيد أعظم لدير صهيون من عام 1519 مات 1527
كلُود دُو لُورين أوّل دُوق لغايس مات 1550
أنطوانيت دُو باربُون
جين دُو لُورين كاردينال لورين
أنطوان الثّاني دُو لُورين مات 1544
رينيه دُو باربُون
فرانسوا دُو لُورين مات 1545
كريستيانا ملكة الدّانمارك
ماري دُو غايس مات 1560
جيمس الخامس ملك إسكوتلندا، مات 1542
فرانسوا دُو غايس مات 1563
آنّ ديست
تشارلز دُو غايس كاردينال لُورين مات 1574، حاكم في دَيْر صهيون مُنذُ عام 1557
ماري ملكة إسكوتلندا
كلُوديا دُو فرانس
تشارلز الثّالث دُو لُورين مات 1608
هنري الثّاني دُو لُورين مات 1624
مارغريت دُو غونزاغا
هنري دُو غايس مات 1588
كاترين دُو كليفين
لويس كاردينال غايس مات 1588
تشارلز الرّابع دُو لورين
نيكُول دُو لورين
هنري دُو جويس
تشارلز دُو غايس مات 1640 ونُفي إلى إيطاليا كان تحت رعاية رُوبيرت فلود
نيكُولاس فرانسوا دُو لُورين مات 1670 شقيق تشارلز الرّابع
كلُود دُو لُورين
الإمبراطور فيرديناند الثّالث
إليزابيث دورلينز
ليُوبُولد دُو لُورين مات 1729
هنري الثّاني دُو غايس
آنّ دُو غونزاغا
بطل حصار فيينّا عام 1683
تشارلز الخامس دُو لورين مات 1765
إليُونُور ماري فُون هابسبُورغ
تشارلز دُو لُورين سيِّد أعظم لدَيْر صهيون مُنذ 1746، مات 1780
فرانسوا دُو لُورين مات 1765
ماري. تِيريسا فُون هابسبُورغ ملكة النّمسا، ماتت 1780
14ولداً آخر
لويس السّادس عشر ملك فرنسا، مات 1793
ماري أنطوانيت فون هابسبرغ لورين ماتت 1793
ماكسيمليان فُون هابسبرغ. لُورين سيِّد أعظم في دَيْر صهيون من عام 1780، مات 1801

أثناء القرن السَّادس عشر، آل لُورين وابنها الأصغر آل غايس، قاموا بمُحاولة مُشتركة ومُحَدَّدة لإسقاط سُلالة فالوا «Valois» من فرنسا، لإبادة سُلالة فالوا، والاستيلاء علىٰ العَرْش الفرنسي. هذه المُحاولة ـ في عدَّة مُناسبات ـ كانت علىٰ مقربة شعرة من النَّجاح المُبهر.

في فترة حوالي ثلاثين سنة؛ كُلُّ حُكَّام فالوا والوَرَثَة والأُمراء كانوا قد أُبيدوا، والسُّلالة قيدَتْ للانقراض.

المُحاولة للاستيلاء علىٰ العَرْش الفرنسي امتدَّت عبر ثلاثة أجيال لآل غايس، ولُورين. أقربها للنَّجاح كان في عامَيْ **1550** و **1560**، تحت رعاية تشارلز، كاردينال لُورين، وأخوه فرانسوا، دُوق غايس. تشارلز وفرانسوا كانا قريبَيْن لعائلة كُونزاغا، حُكَّام مانتُوزا، وإلىٰ تشارلز دُو مُونتبنسير حاكم باربون، الذي أُدرج في الملفَّات السِّرِّيَّة كَسَيِّد أعظم لدَيْر صهيُون حتَّىٰ عام **1527**.

علاوةً علىٰ ذلك؛ فرانسوا، دُوق غايس، كان مُتزوِّجاً من آن ديست، دُوقة جيزرر. وفي مكائده للحُصُول علىٰ العَرْش يبدو أنَّه تلقَّىٰ مُساعدة ودَعْم سرِّيَّيْن من فيرانت دُو كُونزاغا، السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون من عام **1527** وحتَّىٰ **1575**.

فرانسوا وشقيقه كلاهما، كاردينال لُورين، وُصفا من قِبَل المُؤرِّخين اللَّاحقين علىٰ أنَّهما كَاثُوليكيَّان مُتزمِّتان، ومُتعصِّبان، بشكل مُتطرِّف، مُتعطِّشان للدِّماء، ووحشيَّان، وعديما التَّسامح.

لكنْ؛ هُناك دليل كبير يقترح بأنَّ هذه السُّمعة لا مُبرِّر لها لحَدٍّ ما، علىٰ الأقلِّ؛ فيما يتعلَّق بتمسُّكهما بالكَاثُوليكيَّة. فرانسوا وأخوه يبدوان ـ بوُضُوح تامٍّ ـ بأنَّهما كانا وقحان، ومُخادعان، وانتهازيَّان، ويتملَّقان الكَاثُوليكَ والبرُوتستانتيِّيْن، نيابة عن نيَّتهما الخفيَّة[1].

في عام **1562**، علىٰ سبيل المثال، في المجلس الكَنَسي في ترينت، كاردينال لُورين أطلق مُحاولة لجَعْل البَابَويَّة لا مركزيَّة، وبالتَّالي؛ مَنْح حُكْم ذاتي للأساقفة المحلِّيِّيْن، وإعادة التَّدرُّج الكَنَسي إلىٰ ما كان عليه في أوقات الميرُوفيِّيْن.

بحُلُول عام **1563**، فرانسوا دُو غايس ـ عَمَليّاً ـ كان ملكاً عندما أسقطتْهُ رصاصة قاتلة.

---

(1) (كاردينال لُورين كان وراء العفو الذي أُصدر لصالح الهُوغُونوت في أمبُويس في السَّابع من مارس/ آذار عام 1560. كما أنَّ الكاردينال قدَّم ـ أيضاً ـ بعض المال سرّاً إلىٰ بعض المجموعات البرُوتستانتيَّة. المُؤلِّفون).

أخوه، كاردينال لُورين، مات بعد اثنَيْ عشرة سنة، عام 1575. لكنَّ الثَّأر ضدَّ السُّلالة المَلَكيَّة الفرنسيَّة لم يُوقَف.

في عام 1584، الدُّوق الجديد لغايس، والكاردينال الجديد للُورين، بدأا هُجُوماً جديداً ضدَّ العَرْش. حليفهما الرَّئيس في هذا المشروع كان لويس دُو كُونزاغا، دُوق نيفرز، الذي ـ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ـ كان قد أصبح سيِّداً أعظم لدَيْر صهيُون قبل ذلك بتسع سنوات.

راية المُتآمرين كانت صليب لُورين، الشِّعار السَّابق لرينيه دانجاو[1].

العداء استمرَّ. في نهاية القرن، عائلة فالوا كانت قد انقرضت أخيراً.

لكنَّ عائلة غايس كانت قد نزفت حتَّىٰ الموت في تلك العمليَّة، ولم تُقدِّم أيَّ مُرشَّح مُؤهَّل للعَرْش، الذي وُضع ـ أخيراً ـ في قبضتها.

ببساطة؛ لم يُعرَف سواء كان هُناك جمعيَّة سرِّيَّة مُنظَّمة، أو نظاماً سرِّيَّاً وراء الدَّعْم الذي كان يُقدَّم لعائلتَيْ غايس، ولُورين. بالتَّأكيد؛ تمَّتْ مُساعدتهما عبر شبكة دوليَّة من المبعوثين، والسُّفراء، والقَتَلَة، والوُكلاء الاستفزازيِّين، والجواسيس، والوُكلاء، الذين ـ لرُبَّما ـ أسَّسوا مثل هذه المُؤسَّسة السِّرِّيَّة. طبقاً لجيرارد دُو سيد؛ أحد هؤلاء الوُكلاء كان ناسترادامُوس، وهُناك «وثائق دَيْر» أُخرىٰ تتطابق مع رأي «دُو سيد».

في أيِّ حال من الأحوال، هُناك دليل كاف ليقترح أنَّ ناسترادامُوس كان ـ في الحقيقة ـ عميلاً سرِّيَّاً يعمل لصالح فرانسوا دُو غايس، وتشارلز، كاردينال لُورين[2].

---

(1) (إنَّه ـ من خلال رينيه دانجاو ـ أصبح الصَّليب ثُنائيَّ القوائم، مُرتبطاً بلُورين. رينيه كان قد اتَّخذ هذا الصَّليب شعاراً له، وكان يستعمله في أختامه، وعلىٰ عُملته. شعبيَّة الصَّليب يعود تاريخها إلىٰ فترة استخدامه من قِبَل رينيه الثَّاني دُوق لُورين في معركة نانسي عام 1477. المُؤلِّفون).

(2) (ناسترادامُوس كان يتحرَّك في حلقات مُرتبطة بآل لُورين. عاش لبضع سنوات في آجين، وجين دُو لُورين كان أُسقُف آجين في ذلك الوقت، بالإضافة إلىٰ أنَّه كان رئيس محاكم التَّفتيش في فرنسا. يُشير البحث إلىٰ أنَّ ناسترادامُوس تلقَّىٰ تحذيراً من التفات محاكم التَّفتيش إليه، وتُشير كُلُّ العوامل إلىٰ أنَّ جين، كاردينال لُورين، كان مصدر ذلك التَّحذير. علاوةً علىٰ ذلك؛ صديق ناسترادامُوس سكاليجر في آجين كان صديق الكاردينال، وكان علىٰ معرفة ـ أيضاً ـ

إنْ كان ناسترادامُوس عميلاً لآل غايس، ولُورين، فهُـو قـد لا يكـون مـسؤولاً ـ فقـط ـ عـن تزويدهم بالمعلومات المُهمَّة، التي تتعلَّق بنشاطات وخُطَط خُصُومهم، ولكنَّه ـ أيضاً ـ بصفته كمُنجِّم للمحكمة الفرنسيَّة، كان مُتَّهماً بالاطِّلاع علىٰ كُلِّ أساليب الأسرار الباطنيَّة، بالإضـافة إلىٰ الخاصِّـيَّات والنَّقائص في الشَّخصيَّات. باللَّعب علىٰ نُقاط الضَّعف التي كان قد أصبح مُحاطاً بها علماً كـان يُمكنـه أنْ يُؤثِّر نَفْسيَّاً علىٰ آل فالوا لصالح أعدائهم.

واستناداً إلىٰ اطِّلاعه علىٰ خريطة الـبُرُوج الخاصَّـة بهـم (الطَّـالع)، هُـو ـ لـرُبَّما ـ كـان ينـصح أعداءهم بذلك الشَّأن، وعلىٰ ما يبدو باللَّحظة المُواتية للاغتيال.

العديد من نُبُوءات ناسترادامُوس ـ باختصار ـ لا يُمكن أنْ تكون نُبُوءات مُطلقاً.

هي ـ لرُبَّما ـ كانت رسائل غامضة، وشيفرات، وجداول، وأوامر، ومُخطَّطات للعمل.

سواء كانت تلك حقيقة الحالة أم لا، لا مجال للشَّكِّ بأنَّ بعض نُبُوءات ناسترادامُوس لم تكـن نُبُوءات، بل تُشير ـ تماماً، وبشكل واضح ـ إلىٰ الماضي، إلىٰ فُرسان الهَيكَل، وسُلالة الميرُوفيِّيْن، وتاريخ آل لُورين.

عـدد كبـير مـن تلـك النُّبُـوءات يُـشير إلىٰ ريـزس؛ الكُونـت القـديم لـرين لُـو شـاتُو[1]. والرُّباعيَّات[2] العديدة التي تُشير لقُدُوم «الملك العظيم» تُشير إلىٰ أنَّ هذا الملك سيأتي ـ في النِّهاية ـ من لانغدُوق.

بالمَرْطَقي وخالق «مسرح الذَّاكرة» غاليليُو كاميلُو. كاردينال لُورين كان علىٰ معرفة جيِّدة بكـاميلُو، وكـذلك ـ أيـضاً ـ بشاعرَيْن من شُعراء البلاط؛ هُما بيير دُو رُونسارد، وجين دورات، اللَّذَيْن كانا صديقَيْن لناسترادامُوس. كَتَبَ رُونسارد عدَّة قصائد في مديح ناسترادامُوس، والكاردينال. دَعَمَ الكاردينالُ هذَيْن الـشَّاعرَيْن. جـين دُورات هُـو الـذي أرسـل جينـأيمي دُو تشافيني إلىٰ ناسترادامُوس كسكرتيره. المُؤلِّفون).

(1) (الرُّباعيَّة 5: 74، علىٰ سبيل المثال، رُبَّما تتعلَّق بذَخر تشارلز مارتيل للمُسلمين في معركـة بواتيـه عـام 732. وهُنـاك رُباعيَّات ـ لرُبَّما ـ تُشير إلىٰ المُلُوك الميرُوفيِّيْن الطَّويلي الشَّعْر، الذين يستولون علىٰ مملكة أكُوتين، والتي أخـذوها ـ فعـلاً ـ بعد عام 507. العديد من الرُّباعيَّات والنُّذُر تذكر الوُرُود، والتي يبدو أنَّها مُتجانـسة مـع منطقـة ريـزس، ومـع النُّـبلاء المَنفيِّيْن «الحليقي الشَّعْر»، أحفاد الميرُوفيِّيْن. المُؤلِّفون).

(2) (كان ناسترادامُوس يكتب نُبُوءاته علىٰ شكل رُباعيَّات، كُلُّ رُباعيَّة منها تتألَّف من أربعة أبيات من الشِّعْر. المُترجم).

كَشَفَ بحثُنَا جُزءاً إضافيَّاً من شأنه أنْ يربط ناسترادامُوس لدرجة أكبر بتحقيقنا. طبقاً لجيرارد دُو سيد[1].

بالإضافة إلىٰ الأُسطُورة الشّعبيَّة؛ ناسترادامُوس، وقبل أنْ يبدأ مهنته كمُتنبِّيء، أمضىٰ وقتاً طويلاً في لُورين. هذا يظهر بأنَّه يكون نوعاً من التَّرهبن[2]، أو فترة الاختبار، التي يُفترض ـ بعدها ـ أنْ يطَّلع علىٰ سرٍّ ما مُذهل.

بشكل أكثر تحديداً، يُقال بأنَّه أُطلع علىٰ كتاب قديم وغامض، والذي اعتمد كُلَّ عمله اللَّاحق عليه.

وعلىٰ ما يُقال إنَّ هذا الكتاب مُنح إليه في مكان هامٍّ جدَّاً، الدَّيْر الغامض في أُورفال، تبرَّعتْ به أُمُّ غُودفرُوي دُو بلُويُون بالرّضاعة، وهُناك ـ لرُبَّما ـ استهلَّ دَيْر صهيُون عمله كما اقترح بحثنا مُسبقاً.

في أيِّ حال من الأحوال، أُورفال استمرَّت ـ لمُدَّة قرنَيْن آخرَيْن ـ مُرتبطة باسم ناسترادامُوس.

حتَّىٰ أواخر الثَّورة الفرنسيَّة والعصر النَّابُليُوني كانت كُتُبٌ مزعومة لناسترادامُوس تصدر من أُورفال.

---

(1) (في كتاب «الخُرافة العِرْقيَّة» يبدو أنَّه قد طُعن بمصداقيَّة دُو سيد في ادِّعائه المُستحيل بأنَّ الميرُوفنجيِّين هُم مخلوقات عُليا! في مُحادثة سُئل عن مصدر زَعْمه أنَّ ناسترادامُوس أمضىٰ مُدَّة في أُورفال. أجاب بأنَّ أيريك مُوريس يمتلك مَخطُوطَة تُثبت ذلك، وبأنَّ دُو سيد رآها بنفسه. استجوبنا البعض من الرُّهبان في دَيْر أُورفال حول إمكانيَّة وُجُود ناسترادامُوس هُناك. أنكروا، وقالوا بأنَّ ذلك رواية، ولكنَّهم لا يمتلكون أيَّة أدلَّة، لإثبات، أو دحض، ذلك. قال أحدهم بضَجَر: «من المُحتمل». المُؤلِّفون).

(2) (التَّدرُّب علىٰ الرَّهْبَنَة. المُترجم).

السَّعي لعرش فرنسا

في مُنتصف عام 1620، تمَّ احتلال عَرْش فرنسا من قِبَل لويس الثَّالث عشر. لكنَّ السُّلطة التي كانت وراء العَرْش، والمُصمِّم الحقيقي للسِّياسة الفرنسيَّة، كان رئيس وُزراء الملك، الكاردينال ريتشيليُو[1]. يُعرَف ـ عُمُوماً ـ أنَّ ريتشيليُو كان أكبر مُدبِّر للمكائد في عصره. لرُبَّما كان أكثر من ذلك أيضاً.

في الوقت الذي أسَّس فيه ريشيليُو استقراراً لم يسبق له مثيل في فرنسا، كانت بقيَّة أنحاء أُورُوبا ـ وخُصُوصاً ألمانيا ـ قد دخلت في المرحلة المُلتهبة لحرب الثَّلاثين عاماً. حرب الثَّلاثين عاماً ـ بالأصل ـ لم تكن دينيَّة جَوْهَريَّاً.

علىٰ الرّغم من هذا، استقطبت ـ بسُرعة ـ الشُّرُوط الدِّينيَّة. في جهة؛ كانت القُوَّات الكَاثُوليكيَّة المُوالية لإسبانيا والنِّمسا، في الجهة الأُخرَىٰ؛ كانت الجُيُوش البرُوتستانتيَّة للسُّويد والإمارات الألمانيَّة الأصغر، بما في ذلك بلاتينايت[2] الرَّاين، والتي كان حُكَّامها، البلاطيني فريدريك وزوجته إليزابيث ستيوارت، التي كانت في المَنْفَىٰ في لاهاي. فريدريك وحُلفاؤه في المعركة مُؤيَّدَيْن ومدعومَيْن من قِبَل المُفكِّرين، والكُتَّاب، الرُّوزيكرُوشيِّيْن في القارَّة، وفي إنجلترا.

في عام 1633، الكاردينال ريتشيليُو بدأ سياسة جريئة ومُدهشة علىٰ ما يبدو. جلب فرنسا إلىٰ حرب الثَّلاثين عاماً، ولكنْ؛ لم يكن إلىٰ الجانب الذي يتوقَّعه أحد. بالنِّسبة لريشيليُو؛ عدد من الاعتبارات أخذت الأسبقيَّة بالنِّسبة لالتزاماته الدِّينيَّة ككاردينال. أراد تأسيس السِّيادة الفرنسيَّة في أُورُوبا، أراد إبطال التَّهديد الأبدي والتَّقليدي الذي تُشكِّله النِّمسا وإسبانيا علىٰ الأمن الفرنسي، وأراد تحطيم الهيمنة التي حصلت عليها إسبانيا لأكثر من قرن، خُصُوصاً في الوسط الميرُوفينجي القديم للبُلدان المُنخفضة[3]، وأجزاء من لُورين الحديثة.

---

(1) (ريشيليُو، آرمان جان دُو بليسيس 1585 ـ 1642: كاردينال وسياسي فرنسي. كبير وُزراء لويس الثَّالث عشر، والحاكم الفعلي لفرنسا 1624 ـ 1642. المُترجم).

(2) (مُقاطعتان ألمانيَّتان كان يحكم كلاًّ منهما ـ في عهد الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقدَّسة ـ أمير بلاطينيّ. المُترجم).

(3) (مُصطلح يُطلَق علىٰ بلجيكا، وهُولندا، ولُوكسمبُورغ، سُمِّيَتْ كذلك نَظَرَاً لوُقُوعها علىٰ مُستوىٰ البحر، أو أعلىٰ منه بقليل، مُجاورة لبحر الشَّمال. المُترجم).

كنتيجة لهذه العوامل؛ أُورُوبا كانت مُندهشة بالعمل الذي لم يسبق أنْ فعله كاردينال كَاثُوليكي، يترأَّس بلاداً كَاثُوليكيَّة، وأنْ يبعث بقُوَّات كَاثُوليكيَّة لمُواصلة الكفاح إلىٰ الجانب البرُوتستانتي، ضدَّ الكَاثُوليك الآخرين. لم يذكر أيُّ مُؤرِّخ أبداً أنَّ ريشيليُو كان من الرُّوزيكرُوشيِّين.

لكنَّه - بأيِّ حال - لم يكن باستطاعته القيام بشيء أكثر ليجعله مُتوافقاً مع الرُّوزيكرُوشيِّين، أو علىٰ الأرجح؛ ليُكسبه التَّأييد الرُّوزيكرُوشيّ.

في هذه الأثناء؛ آل لُورين بدأوا بالطُّمُوح ثانية - ولو بشكل غير مُباشر - للعَرْش الفرنسي.

المطالب بالعرش في هذا الوقت كان غاستن دُورلينز، الأخ الأصغر للويس الثَّالث عشر. غاستن لم يكن نفسه من آل لُورين.

في 1632، علىٰ أيَّة حال، تزوَّج شقيقة دُوق لُورين. وهكذا وريثه يحمل دم لُورين من جانب الأُمّ، وإذا اعتلىٰ غاستنُ عَرْش لُورين فإنَّه سيُرشِّس فرنسا بجيل آخر.

هذه الفُرصة كانت كافية لحشد الدَعْم. من بين أُولئك الذين يُؤكِّدون حقَّ غاستن في الخلافة وجدنا شَخْص كُنَّا قد صادفناهُ من قبلُ، تشارلز، دُوق غايس. تشارلز كان تحت رعاية رُوبرت فلُود الشَّابّ. وتزوَّج هنرييت، كاثرين دُو جويس، مالكة كاوزا وآركس[1]؛ حيثُ تمَّ تحديد مكان قَبْر مُماثل لذلك الذي في صُورة بُوسَّان.

مُحاولات لخَلْع لويس تعاطفاً مع غاستن فشلت، ولكنَّه بدا أنَّ الفُرصة كانت لصالح غاستن، أو علىٰ الأقلّ؛ لصالح وَرَثَة غاستن؛ حيثُ إنَّ لويس الثَّالث عشر وزوجته، آن النّمساويَّة بقيا بدُون أطفال. الإشاعات التي كانت مُنتشرة أنَّ الملك كان شاذّاً جنسيَّاً، أو أنَّه عاجز جنسيَّاً؛ وفي الحقيقة، طبقاً لبعض التَّقارير عقب تشريح جُثَّته؛ أعلن أنَّه عاجز عن إنجاب الأطفال. لكنْ؛ بعد ذلك، في 1638، وبعد ثلاث وعشرين سنة من الزَّواج العقيم، أنجبت آن النّمساويَّة - فجأة - طفلاً. قلَّة من النَّاس - في ذلك الوقت - آمنوا بشَرْعيَّة الولد، ومايزال هُناك شكٌّ كبير حوله. طبقاً للكُتَّاب المُعاصرين، والتاليِّيْن؛ أبو الطّفل الحقيقي كان الكاردينال ريشيليُو، أو رُبَّما شَخصاً استُخدم من قِبَل

(1) (أسماء قُرىٰ في فرنسا. المُترجم).

ريشيليُو، والذي من المُحتمل تماماً أنْ يكون مَحْميُّه ووريثه، الكاردينال مازاران[1] وحتَّىٰ إنَّه يُقال إنَّه بعد موت لويس الثَّالث عشر، تزوَّج مازاران وآن النّمساويَّة سرَّاً.

في أيِّ حال من الأحوال ولادة وريث للويس الثَّالث عشر كان ضربة مُوجعة لآمال غاستن دُورلينز، وآل لُورين. وعندما مات لويس وريشيليُو في عام **1642**، أُولىٰ سلسلة المُحاولات المُنسَّقة أُطلقت لطَرْد مازاران، وإبعاد لويس الشّابّ الرَّابع عشر عن العَرْش. هذه المُحاولات ـ التي بدأت كانتفاضات شعبيَّة ـ تتوَّجَتْ بالحرب الأهليَّة، التي اندلعت بشكل مُتقطِّع لمُدَّة عشرة سنوات. تُعرَف تلك الحرب ـ بالنِّسبة للمُؤرِّخين ـ بحرب فرُوند. بالإضافة إلىٰ غاستن دُورلينز، المُحرِّضون الرَّئيسيُّون لتلك الحرب تضمَّنوا عدداً من الأسماء، والعائلات، وألقاباً مألوفة مُسبقاً بالنِّسبة لنا. من تلك الأسماء فريدريك، «مُوريس دُو تُور دُوفرن»، دُوق بلُويُون. ومن بينهم ـ أيضاً ـ فيكُونت تُورين. ودُوق لُونغفيل، حفيد لويس دُو كُونزاغا، دُوق نيفرز وسيِّد أعظم لدَيْر صهيُون قبل نصف قرن من ذلك. عاصمة ومقرّ قيادة الثُّوَّار كانت بلدة آردينيه القديمة في ستيناي.

جماعة القُربان المُقدَّس

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ دَيْر صهيُون، في مُنتصف القرن السَّابع عشر، «كرَّس نفسه لخَلْع مازاران». بشكل واضح تماماً؛ يبدو بأنَّه كان فاشلاً. حرب فرُوند فشلت، ولويس الرَّابع عشر اعتلىٰ عَرْش فرنسا، ومع ذلك، مازاران ـ علىٰ الرّغم من تنحيته لمُدَّة قصيرة ـ أُعيد تنصيبه بسُرعة، ليشغل منصب رئيس الوُزراء حتَّىٰ موته عام **1660**. لكنْ؛ إنْ كان دَيْر صهيُون ـ في الحقيقة ـ قد كرَّس نفسه ضدَّ مازاران، أخيراً؛ قد حصلنا علىٰ زاوية توجيه نحوه، وعلىٰ بعض الوسائل لتحديد مكانه، وهُويَّته.

بالنَّظَر إلىٰ العائلات التي اشتركت في حرب فرُوند ـ العائلات التي وردت أنسابها ـ أيضاً ـ في «وثائق الدَّيْر» ـ بدا أنَّه من المعقول رَبْط دَيْر صهيُون بأُولئك المُحرِّضين لذلك الاضطراب.

«وثائق الدَّيْر» صرَّحت بأنَّ دَيْر صهيُون عارض مازاران بشكل نشيط. صرَّحت ـ أيضاً ـ بأنَّ بعض العائلات والألقاب ـ علىٰ سبيل المثال، لُورين، وكُونزاغا، ونيفرز، وغايس، ولُونغفيل،

(1) (جُول مازاران 1602 ـ 1661: كردينال فرنسي. كبير وُزراء الملك لويس الرَّابع عشر. المُترجم).

وبلُويُون ـ لم تكن قد ارتبطت بالنِّظام بحميميَّة فقط، بل جهَّزَتْهُ ـ أيضاً ـ ببعض الأسياد العظام فيه. والتَّاريخ أكَّد بأنَّ هذه الأسماء والألقاب هي التي لاحت، وظهرت، في المُقدِّمة في مُقاومة الكردينال.

وهكذا يبدو أنَّنا حدَّدنا مكان دَيْر صهيُون، وأنَّنا ميَّزنا ـ علىٰ الأقلِّ ـ البعض من أعضائه. إنْ كُنَّا علىٰ حقٍّ، دَيْر صهيُون ـ أثناء الفترة المَعْنيَّة، مهما كانت الظُّرُوف ـ ببساطة، كان اسماً آخر لحَرَكَة ما، ومُؤرِّخو المُؤامرة أدركوها، واعترفوا بها، مُنْذُ مُدَّة طويلة.

لكنْ؛ إنْ كان الثُّوَّار في حرب فرُوند قد شكَّلوا جُيُوب المُعارضة لمازارين، فهُم لم يكونوا المُنفردين بتلك الجُيُوب. كان هُناك جُيُوب أُخرىٰ أيضاً، الجُيُوب المُتشابكة، التي لم تعمل ـ فقط ـ أثناء حرب فرُوند، بل استمرَّت في العمل بعد ذلك، بفترة طويلة.

«وثائق الدَّيْر» بذاتها تُنوِّه ـ مراراً، وتكراراً، وبإصرار ـ إلىٰ مجموعة تُدعىٰ «جماعة القُربان المُقَدَّس» (Sacrement_Compagnie du Saint). يُشيرون ـ بشكل واضح تماماً ـ إلىٰ أنَّ مجموعة القُربان ـ في الحقيقة ـ كانت دَيْر صهيُون، أو واجهة لدَيْر صهيُون، تعمل تحت اسم آخر.

وبالتَّأكيد؛ مجموعة القُربان ـ في تركيبتها، وتنظيمها، ونشاطاتها، وأنماطها العمليَّة ـ توافقت مع الصُّورة التي بدأنا بتشكيلها عن دَيْر صهيُون.

جماعة القُربان المُقَدَّس كانت جمعيَّة سرِّيَّة مُنظَّمة وفعَّالة جدَّاً. لا مجال للشَّكِّ في وُجُودها؛ بالعكس، وُجُودها أُقِرَّ به من قِبَل مُعاصريها، وكذلك من قِبَل المُؤرِّخين اللَّاحقين. لقد وُثِّقَتْ تلك المجموعة بشكل كامل، والكثير من الكُتُب والمقالات كُرِّسَتْ لها. اسمها مألوف بما فيه الكفاية في فرنسا، وماتزال تتمتَّع بغُمُوض عصري مُعيَّن، حتَّىٰ إنَّ البعض من صُحُفها الخاصَّة ظهرت للعيان.

مجموعة القُربان قيل بأنَّها أُسِّسَتْ بين عامَيْ 1627 و 1629، من قِبَل نبيل مُرتبط بغاستن دُورلينز.

علىٰ أيَّة حال؛ الأفراد الذين وجَّهوا، وشكَّلوا، سياساتها، كانوا مجهولين بشكل مُحيِّر، ومايزالون كذلك حتَّىٰ اليوم.

الأسماء الوحيدة التي ارتبطت بها ـ بشكل حاسم ـ هي أسماء أُولئك الأعضاء ذوي المناصب الأوطأ والمُتوسِّطة في تدرُّجها الهَرَمي ـ هُم أشخاص الواجهة، إنْ جاز التَّعبير، والذين يتصرَّفون وُفق الأوامر العُليا. أحدهم كان شقيق دُوقة لُونغفيل، وآخر كان تشارلز فاوكيت شقيق المُدير المالي للويس الرَّابع عشر.

وكان هُناك عمٌّ الفيلسوف فينلُون، الذي مارس ـ بعد نصف قرن ـ تأثيراً كبيراً علىٰ الماسُونيَّة من خلال النَّبيل «رَمْزي».

من بين أُولئك الذين ارتبطوا بمجموعة القُربان ـ بوُضُوح شديد ـ كانت الشَّخصيَّة الغامضة، والتي تعرف ـ الآن ـ بالقدِّيس فنسينت دُو بُول؛ نيكُولاس بافيليُون، أُسقُف أليت، البلدة التي تبعد بضعة أميال عن رين لُو شاتُو؛ وكذلك جين جاك أُولير، مُؤسِّس كُلِّيَّة القدِّيس سُولبيس.

في الحقيقة؛ من المعلوم ـ الآن، بشكل عامٍّ ـ أنَّ القدِّيس سُولبيس كانت «مركز العمليَّات» لجماعة القُربان المُقدَّس.

في تنظيمها، ونشاطاتها، قلَّدَتْ مجموعةُ القُربان نظامَ الهَيكَل، وجسَّدت ـ سلفاً ـ الماسُونيَّة اللَّاحقة.

عاملة من القدِّيس سُولبيس، أسَّست تلك المجموعة شبكة مُعقَّدة من الفُرُوع، أو الشُّعَب الإقليميَّة.

بقي الأعضاء الإقليميُّون جَهَلَةً بهُويَّات مُديريهم.

في أغلب الأحيان؛ أُديروا لتنفيذ أهداف، هُم بأنفسهم لم يشتركوا فيها. حتَّىٰ إنَّه كان مُحرَّماً عليهم الاتِّصال ببعضهم البعض، إلَّا في باريس، وهكذا تضمن المجموعةُ السَّيطرةَ المركزيَّة بشكل تامٍّ.

وحتَّىٰ في باريس، المُصمِّمون لتلك الجمعيَّة بقوا مجهولين بالنِّسبة لأُولئك الذين خدموهم بطاعة.

باختصار؛ جماعة القُربان المُقَدَّس كانت تُشكل العُدار[1]؛ مُنظَّمة لها رأس، وبقلب مُخفي. إلىٰ يومنا هذا لم يُعرَف مَنْ هُو القلب، ولا الذي يُشكِّله القلب. لكنَّه معروف أنَّ ذلك القلب ينبض بمُوجب سرٍّ ما، مُقنع، وهامٍّ. شَخْصيَّات مُعاصرة تستشهد ـ بشكل واضح ـ بـ«السِّرِّ الذي في صميم مجموعة القُربان».

طبقاً لأحد قوانين الجماعة، الذي اكتُشف بعد مُدَّة طويلة؛ «القناة الأساسيَّة التي تُشكِّل رُوح مجموعة القُربان، والتي هي ضروريَّة لها، هي السِّرُّ».

بقدر ما تعلَّق الأعضاء الحديثون غير المُطَّلعين بتلك المجموعة، بقدر ما كرَّست المجموعة ـ زعماً ـ عملها للعمل الخيري، خُصُوصاً في المناطق التي دمَّرتها الحُرُوب الدِّينيَّة، وبعد ذلك؛ التي دمَّرتها حرب فرُوند؛ علىٰ سبيل المثال، في بيكاردي، وشمبانيا، ولُورين.

علىٰ أيَّة حال؛ مقبول ـ عُمُوماً ـ «بأنَّ هذا العمل الخيري» كان مُجرَّد واجهة مُناسبة، ومُبدعة، وتلك الواجهة لم يكن لها أيَّة علاقة بالمُبرِّر الحقيقي لعمل مجموعة القُربان. المُبرِّر الحقيقي كان ازدواجيّاً؛ للعمل فيما كان يُسمَّىٰ بالتَّجسُّس الدِّيني، وجمع «المعلومات الاستخباريَّة»، ولاختراق المكاتب الأكثر أهمِّيَّة علىٰ وجه الأرض، بما فيها الحلقات القريبة مُباشرة من العَرْش.

في هذَيْن الهَدَفَيْن، يبدو أنَّ مجموعة القُربان كانت تمتَّع بنجاحات بارزة. مثلاً، كعُضو في «مجلس الضَّمير» المَلَكي، أصبح فنسينت دُو بُول كاهن الاعتراف للملك لويس الثَّالث عشر. كان ـ أيضاً ـ مُستشاراً حميماً للملك لويس الرَّابع عشر، إلىٰ أنْ أجبرتْهُ مُعارضته لمازاران علىٰ الاستقالة من هذا المنصب. والمَلَكة الأُمُّ، آن النّمساويَّة، والتي كانت ـ من نواح عديدة ـ الدُّمية القليلة الحظِّ لمجموعة القُربان، التي ـ لفترة من الوقت ـ استطاعت قَلْبَهَا ضدَّ مازاران.

لكنَّ مجموعة القُربان لم تُقيِّد نفسها ـ بشكل خاصٍّ ـ إلىٰ العَرْش.

(1) (العُدار: أُفعُوان خُرافي ذُو تسعة رُؤُوس، قتله هرقل، فكان كُلَّما قَطَعَ رأساً من رُؤُوسه هذه نبت محلَّه رأسان جديدان، لم يكن جسده ظاهراً. المُترجم).

في مُنتصف القرن السَّابع عشر، كان بإمكانها أنْ تستخدم السُّلطة عبر الأرستقراطيَّة، والبرلمان، والسُّلطة القضائيَّة، والشّرطة، وحتَّىٰ إنَّه ـ في الحقيقة ـ تجاسرت تلك المُنظَّمة في العديد من المُناسبات ـ وبشكل عَلَني ـ لتحدِّي الملك.

في أبحاثنا لم نجد أيَّ مُؤرِّخ كَتَبَ في ذلك الوقت، أو في وقت لاحق، وضَّح جماعة القُربان المُقَدَّس بشكل كاف. أكثر المصادر تُصوِّرها علىٰ أنَّها مُنظَّمة مُقاتلة ذات تطرُّف كَاثُوليكي، ومعقلاً مُتحصِّناً ومُتعصِّباً بشكل مُتصلِّب للأرثُوذُوكسيَّة. المصادر نفسها تدَّعي بأنَّها كرَّست نفسها للتَّخلُّص من الزَّنادقة.

ولكنْ؛ لماذا، في بلاد كَاثُوليكيَّة الدِّين، كان يجب علىٰ مُنظَّمة كهذه أنْ تعمل بهذه السِّرِّيَّة الصارمة؟!

ومَنْ هُم «الزَّنادقَة» في ذلك الوقت؟! البرُوتستانتيُّون؟! أم اليَنسينيُّون[1].

في الحقيقة؛ كان هُناك العديد من البرُوتستانتيِّين، والعديد من اليَنسينيِّين، ضمن صُفُوف جماعة القُربان المُقَدَّس.

إنْ كانت مجموعة القُربان كَاثُوليكيَّة دينيَّاً، فعليها ـ نظريَّاً ـ أنْ تُؤيِّد الكاردينال مازاران، الذي ـ بالنَّتيجة ـ كان مُجسِّداً للمصالح الكَاثُوليكيَّة في ذلك الوقت.

علىٰ الرّغم من أنَّ مجموعة القُربان عارضت ـ بالقُوَّة ـ مازاران؛ إلىٰ حَدِّ أنَّ الكاردينال ـ بعد أنْ فقد أعصابه ـ أقسم بأنَّه سيستخدم كُلَّ طاقاته لتحطيمها.

الأكثر من ذلك، مجموعة القُربان أثارت عداوة شديدة في مناطق تقليديَّة أُخرىٰ أيضاً. علىٰ سبيل المثال؛ شنَّت الجماعة حملةً قويَّة ومُتقنة ضدَّ اليسوعيِّين. السُّلطات الكَاثُوليكيَّة الأُخرَىٰ اتَّهمت مجموعة القُربان بـ«الهَرْطَقَة»؛ الشَّيء الذي عارضَتْهُ ـ زعماً ـ مجموعة القُربان بحَدِّ ذاتها.

(1) (اليَنسينيَّة: مذهب لاهوتي يقول بفُقدان حُرِّيَّة الإرادة، وبأنَّ الخلاص من طريق موت المسيح مقصور علىٰ فئة قليلة. المُترجم).

في عام 1651، أُسقُف تُولُوز اتَّهم مجموعة القُربان بـ«المُمارسات الأثيمـة»، ولَمَّـح إلىٰ شيء مـا شاذٍّ جدّاً تتمُّ مُمارسته أثناء مراسيم الانتساب والتَّنصيب في تلك المجموعة، هُناك تكرار مُثير للحَـيْرَة للتُّهم التي وُجِّهت ضدَّ فُرسان الهَيكَل، حتَّىٰ إنَّه هدَّد أعضاء الجمعيَّة بالطَّرْد. مُعظمهـم تحـدَّىٰ هـذا التَّهديد بوقاحة، إنَّه رَدٌّ شاذٌّ جدّاً من قِبَل ما يُزعَم بأنَّهم كَاثُوليك «أتقياء».

جماعة القُربان المُقَدَّس كانت قد شُكِّلَتْ عندما كان الغضب الرُّوزيكرُوشي مايزال في قمَّته.

«الجمعيَّة الخيريَّة الخفيَّة» يُعتقَد بأنَّـها كانـت في كُـلِّ مكـان؛ كُلِّيَّـة الوُجُـود، وهـذا لم يُحـدِث الرُّعب، والذُّعر، فحسب، بل المُطاردة الحتميَّة للسَّحَرَة أيضاً. ورغم ذلك لم يُعثَـر عـلىٰ أيِّ أثـر عـلىٰ الإطلاق لحامل بطاقة رُوزيكرُوشيَّة، ولا في أيِّ مكان، والأقلُّ من ذلك؛ كانـت فرنـسا الكَاثُوليكيَّـة. بقدر ما كانت فرنسا مُرتبطة بالموضوع، بقدر ما بقيت الرُّوزيكرُوشيَّة خيالاً شعبيّاً مُخيفاً مُلفَّقاً.

هل كانت كذلك؟ إنْ كان هُنـاك ـ في الحقيقـة ـ اهتمامـات رُوزيكرُوشـيَّة مُـصمِّمة لتأسـيس موطئ قَدَم في فرنسا، فما هُو الشَّيء الأفضل من تأسيس مُنظَّمة ذات مظهر كاذب، ومُكرَّسَة للبحـث عن الرُّوزيكرُوشيِّيْن؟!

باختصار؛ جماعة القُربان المُقَدَّس ـ لرُبَّما ـ أيَّدوا أهـداف الرُّوزيكرُوشـيِّيْن، وبالتَّـالي؛ كـسبوا أنصاراً لهم في فرنسا، وذلك بأنْ تظاهروا بأنَّه عدوُّهم اللّدود.

جماعة القُربان المُقَدَّس تحدَّت ـ بنجاح ـ مازاران، ولويس الرَّابع عشر، كلَيْهما.

في 1660، أقلّ من عام قبل موت مازاران، خطب الملك خطاباً رَسْـميّاً ضـدَّ جماعـة القُربـان المُقَدَّس، وأمر بحَلِّ ذلك النِّظام.

لخمس سنوات تالية؛ جماعة القُربان المُقَدَّس أهملوا المرسوم المَلَكي بتعجرف.

أخيراً، في 1665، استنتجوا بأنَّهم لا يستطيعون أنْ يُواصلوا العمل في «شكلهم الحالي». وُفقـاً لذلك؛ كُلُّ الوثائق الوثيقة الصِّلة تمَّ استرجاعها، وتـمَّ إخفاؤهـا في مُـستودع سرِّيٍّ في بـاريس. هـذا المُستودع لم يسبق أنْ حُدِّد مكانه، بالرّغم من أنَّه يُعتقد ـ عُمُوماً ـ بأنَّه قد يكون في القدِّيس سُولبيس.

إنْ كان الأمر كذلك، فإنَّ أرشيفات جماعة القُربان المُقَدَّس ستكون مُتوفِّرة بعد أكثر من قرنَيْن من الزَّمن لرجال أمثال «آبي إميل هُوفيت.

لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ جماعة القُربان المُقَدَّس زالت عن الوُجُود بالشَّكل الذي كانت عليه آنذاك، إلَّا أنَّها واصلت العمل ـ علىٰ الأقلِّ ـ حتَّىٰ بداية القرن التَّالي، وكانت ماتزال تُشكِّل شوكة في حَلْق لويس الرَّابع عشر. طبقاً لروايات غير مُؤكَّدة؛ إنَّها استمرَّت تماماً حتَّىٰ القرن العشرين.

سواء كان هذا الزَّعْم الأخير حقيقيّاً أم لا، لا مجال للشَّكِّ بأنَّ جماعة القُربان المُقَدَّس نجت من فنائها المُفترَض في عام **1665**.

في عام **1667**، مُوليير، تابع مُوال للملك لويس الرَّابع عشر، هاجم جماعة القُربان المُقَدَّس من خلال تلميحات مُعيَّنة مُقنعة وواضحة في مسرحيَّة «لُو تارتُوف». علىٰ الرّغم من انقراضها الظَّاهر، جماعة القُربان المُقَدَّس انتقمت بأنْ أوقفت تلك المسرحيَّة، وأبقتْها كذلك لمُدَّة سنتَيْن، علىٰ الرّغم من الرِّعاية المَلَكيَّة لمُوليير. ويبدو أنَّ جماعة القُربان المُقَدَّس استخدمت ناطقيها الأدبيِّيْن الخاصِّين أيضاً. تقول الشَّائعات: من أعضائها كان «لا رُوتشافا،وكُولد» مثلاً؛ الذي كان نشيطاً جدّاً في حرب فرُوند.

طبقاً لجيرارد دُو سيد؛ «لا فُونتن» كان ـ أيضاً ـ عُضواً في جماعة القُربان المُقَدَّس، والذي كان سحْره وخُرافاته الحميدة ـ زعماً ـ في الحقيقة هجمات مجازيَّة علىٰ العَرْش. هذا ليس مُستحيلاً. لويس الرَّابع عشر كره «لا فُونتن» بشدَّة، وعارض ـ بشكل كبير ـ دُخُوله إلىٰ الأكَاديميَّة الفرنسيَّة. ومن بين الكُفلاء والرُّعاة لـلا فُونتن» كان دُوق غايس، ودُوق بلُويُون، وفيكُونت تُورين، وأرملة غاستن دُورلينز[1].

وهكذا وجدنا أنَّ جماعة القُربان المُقَدَّس هي جمعيَّة سرِّيَّة فعليَّة، والتي مُعظم تاريخها كان مُسجَّلاً. يُزعَم أنَّها كانت كَاثُوليكيَّة، ولكنَّها ـ مع ذلك ـ كانت مُرتبطة ـ بوُضُوح ـ بنشاطات غير كَاثُوليكيَّة. ارتبطت ـ أيضاً، وبشكل حميم ـ مع بعض العائلات الأرستُوقراطيَّة المُهمَّة؛ العائلات التي

---

(1) (غاستن هُو شقيق لويس الثَّالث عشر، ملك فرنسا. المُترجم).

كانت نشيطة في حرب فرُوند، والتي سُلالتها وردت في «وثائق الدَّيْر». ارتبطت ـ أيضاً ـ بالقدِّيس سُولبيس[1]، بشكل مُباشر.

عملت ـ بشكل أساسي ـ عبر التَّغلغل، واستطاعت مُمارسة نُفُوذ هائل. وكانت مُعارضة ـ بشكل فعَّال ـ للكاردينال مازاران. في هذه النَّواحي كُلِّها؛ نُلاحظ أنَّ هذه الجماعة تتطابق ـ تقريباً، بشكل كامل ـ مع صُورة دَيْر صهيُون كما قُدِّمَتْ في «وثائق الدَّيْر». إنْ كان دَيْر صهيُون ـ في الحقيقة ـ نشيطاً أثناء القرن السَّابع عشر، فبإمكاننا أنْ نفترض إلىٰ حَدٍّ معقول بأنَّه كان مُرادفاً لجماعة القُربان المُقَدَّس. أو ـ رُبَّما ـ كان القُوَّة التي كانت وراء جماعة القُربان المُقَدَّس.

قلعة باربيري

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ مُعارضة دَيْر صهيُون لمازاران أثارت عُقُوبة مُرَّة من الكاردينال. قيل إنَّ من بين الضَّحايا الرَّئيسيَّيْن لهذه العُقُوبة كانت عائلة بلانتارد؛ الأحفاد المُباشرون لداغُوبرت الثَّاني، وسُلالة الميرُوفيِّيْن.

في عام **1548**، صرَّحت «وثائق الدَّيْر» أنَّ جين بلانتارد تزوَّجت من ماري دُو سانتكلير، وبالتَّالي؛ ذلك يصوغ صلة أُخرىٰ بين عائلته وعائلة سانتكلير/ جيزرز. و ـ أيضاً ـ في ذلك الوقت، يُفترَض أنَّ عائلة بلانتارد سَكَنَتْ في قلعة باربيري قُرب نيفرز، في إقليم نيفيرنيس[2] الفرنسي. يُزعَم أنَّ هذه القلعة شَكَّلَتْ المَسْكَنَ الرَّسْمي لآل بلانتارد للقرن التَّالي.

وبعد ذلك، في **11** يُوليُو/ تمُّوز **1659**، وطبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ مازاران أمر بالتَّهديم والدَّمار الكُلِّي للقلعة. ونتيجة للحريق الهائل الذي نتج، قيل بأنَّ عائلة بلانتارد فَقَدَتْ أملاكها كُلَّها.

ليس هُناك أيُّ كتاب تاريخي مُؤسَّس، أو تقليديّ، ولا سيرة ذاتيَّة لمازاران أكَّدت هذه المزاعم. أبحاثنا لم تُنتج أيَّة إشارة عن عائلة بلانتارد في نيفيرنيس، أو في بادئ الأمر، في قلعة باربيري.

---

(1) (أو سانت سُولبيس، وهُو اسم معهد لاهوتي لإعداد رجال الدِّين. المُترجم).

(2) (إقليم فرنسي سابق يقع في شرق وسط فرنسا. المُترجم).

وعلىٰ الرّغم من أنَّ مازاران ـ لسبب ما غير مُحَدَّد ـ كان يشتهي نيفيرنيس، ودُوقيَّة نيفرز. في النِّهاية؛ استطاع شراءها، وتمَّ توقيع العقد في 11 يُوليُو/ تمُّوز 1659، اليوم نفسه الذي قيل بأنَّ قلعة باربيري قد دُمِّرت فيه.

هذا دفعنا للتَّحرِّي عن القضيَّة بشكل أبعد. في النِّهاية؛ عثرنا علىٰ بضعة أجزاء مُتباينة من الدَّليل. هي لم تُوضِّح الأشياء بشكل كاف، لكنَّها شهدت علىٰ صِدْق «وثائق الدَّيْر».

في تصنيف يعود تاريخه إلىٰ 1506، للعقارات والحصَص في نيفيرنيس، في الحقيقة؛ تمَّ ذكْر قلعة باربيري. صَكٌّ من عام 1575، يذكر أنَّ هُناك قرية في نيفيرنيس تُدعَىٰ «ليز بلانتاردز» (آل بلانتارد).

الأكثر اقتناعاً من كُلِّ شيء، تَوضَّح أنَّ وُجُود قلعة باربيري كان ـ في الحقيقة ـ أمراً حاسماً.

أثناء الفترة ما بين 1874 ـ 1875، أعضاء «جمعيَّة الرَّسائل والعُلُوم والفُنُون في نيفرز» شرعوا بتنقيب استكشافي في الموقع المُؤكَّد للخراب.

كان المشروع صعباً؛ إذْ إنَّ الخراب ـ بحَدِّ ذاته ـ كان من المُستحيل تمييزه تقريباً؛ الأحجار كانت قد تزجَّجت من النَّار، والموقع بنفسه كان قد غُمر بالأشجار بشكل كثيف.

في النِّهاية، علىٰ أيَّة حال، كُشِفَتْ بقايا من حائط البلدة، ومن القلعة. هذا الموقع يُقرُّ ـ الآن ـ بأنَّه كان لقلعة باربيري. قبل دماره يبدو أنَّه شمل علىٰ بلدة مُحصَّنة صغيرة، وعلىٰ قلعة. وهُو علىٰ بُعْد مسافة قصيرة عن القرية القديمة ليز بلانتاردز.

يُمكننا أنْ نقول ـ الآن ـ بأنَّ قلعة باربيري كانت موجودة بلا شكٍّ، وبأنَّها أُحرقَتْ بالنَّار. وطبقاً لوُجُود قرية صغيرة اسمها ليز بلانتاردز؛ لا يُوجد هُناك أيُّ سبب للشَّكِّ بأنَّ تلك القرية كانت تملكها عائلة تحمل الاسم ذاته (أيْ آل بلانتارد). الواقع المُحيِّر هُو أنَّه لم يكن هُناك أيُّ سجلٍّ يُثبت تاريخ تلك الواقعة، التي أُحرقَتْ فيها القلعة، أو القائم بذلك العمل. إنْ كان مازاران هُو المسؤول، يبدو أنَّه عانىٰ ـ بشكل كبير ـ لاستئصال كُلِّ آثار عمله.

في الحقيقة؛ بدا أنَّه كان هُناك مُحاولة منهجيَّة ومُنظَّمة لمَسْح قلعة باربيري من الخريطة، ومن التَّاريخ. لماذا تمَّ القيام بعمليَّة نَحْو كهذه ما لم يكن هُناك شيء للإخفاء؟!

نيكُولاس فاوكيت

مازاران كان لديه أعداء آخرون، إضافة إلىٰ مُقاتلين حرب فرُوند وجماعة القُربان المُقدَّس. من بين أكثر قُوَّة كان نيكُولاس فاوكيت، الذي في عام 1653، كان قد أصبح المُدير المالي للملك لويس الرَّابع عشر. لأنَّه رجل موهوب وناضج وطموح؛ أصبح فاوكيت ـ خلال السَّنوات القليلة اللَّاحقة ـ الفرد الأغنىٰ والأقوىٰ في المملكة. كان يُدعَىٰ ـ أحياناً ـ بالملك الحقيقي لفرنسا. وهُو لم يستبعد التَّطلُّعات السِّياسيَّة. أُشيع بأنَّه كان ينوي أنْ يجعل بريطانيا دُوقيَّة مُستقلَّة، وبأنْ يترأَّسها كدُوق بنفسه.

والدة فاوكيت كانت عُضواً بارزاً في جماعة القُربان المُقدَّس، وكذلك شقيقه تشارلز، رئيس أساقفة ناربُون في لانغدُوق. أخوه الأصغر، لويس، كان ـ أيضاً ـ قسَّاً.

في عام 1656، نيكُولاس فاوكيت بعث لويسَ إلىٰ رُومَا، ولأسباب لم تُوضَّح أبداً، علىٰ الرّغم من أنَّها ليس غامضة بالضَّرورة.

من رُومَا؛ لويس كَتَبَت الرِّسالة الغامضة، التي اقتُبِسَتْ في الفصل الأوَّل، الرِّسالة التي تكلَّمت عن الاجتماع ببُوسَّان، وعن السِّرِّ الذي «حتَّىٰ المُلُوك سيُعانون كثيراً لسَحْبه منه».

وفي الحقيقة؛ إنْ كان لويس أحمقاً في المُراسلة، فلابُدَّ أنَّ بُوسَّان لم يُعطه أيَّ شيء أكثر. ختمه الشَّخصي كان يحمل الشِّعار «Tenet Confidentiam»[1].

في عام 1661، لويس الرَّابع عشر أمر بتوقيف نيكُولاس فاوكيت. التُّهم كانت عامَّة، وغير واضحة بشكل كبير. كان هُناك اتِّهامات مُبهَمَة عن اختلاس الأموال، واتِّهامات أُخرىٰ أكثر إبهاماً عن العصيان.

علىٰ أساس هذه الاتِّهامات؛ تمَّتْ المُصادرة المَلَكيَّة لكافَّة السِّلع والمُمتلكات، التي كانت لدىٰ فاوكيت. لكنَّ الملك مَنَعَ ضُبَّاطه من لَمس أوراق، أو مُراسلات، مُديره السَّابق، فقد أصرَّ علىٰ التَّدقيق في هذه الوثائق بنفسه، وشَخْصيَّاً، ووحده!

---

(1) (العقيدة السِّرِّيَّة. المُترجم).

المُحَاكَمَة التي تلت ذلك استمرَّت لأربع سنوات، وضجَّت بها فرنسا في ذلك الوقت، وكانت تستقطب وتقسم الرَّأي العامّ بشكل كبير.

لويس فاوكيت ـ الذي اجتمع مع بُوسَّان، وكَتَبَ رسالة من رُومَا ـ كان ميّتاً آنذاك. لكنَّ والدة المُدير والأخ الباقي علىٰ قيد الحياة حرَّكا ـ علىٰ الفور ـ جماعة القُربان المُقَدَّس، والتي كانت تضمُّ في أعضائها أحد رُؤساء القُضاة أيضاً.

جماعة القُربان المُقَدَّس وضعوا كُلَّ دَعْمهم للمُدير، فكانوا يعملون ـ بشكل نشيط ـ عبر المحاكم، وعبر تحريك الرَّأي العامّ. لويس الحادي عشر ـ الذي لم يكن عادةً مُتعطِّشاً للدِّماء ـ لم يُطالب بأقلّ من حُكْم الإعدام. وبعد أنْ رفضت المحكمة أنْ تهاب الملك، حَكَمَتْ بالنَّفي الدَّائم للمُتَّهم، ولأنَّ الملك الغاضب مايزال يُطالب بالموت، أزال جميع القُضاة العنيدين، واستبدلهم آخرين أكثر طاعة؛ ولكنْ؛ يبدو أنَّ جماعة القُربان المُقَدَّس مازالوا يتحدُّونه.

في النِّهاية، عام 1665، حُكم علىٰ فاوكيت بالسّجن الدَّائم، وتنفيذاً لأوامر الملك بقي في عُزلة تامَّة. حُرم من الموادّ، والأدوات الكتابيَّة كافَّة، الوسائل كُلُّها التي ـ لرُبَّما ـ تُمكِّنه من الاتِّصال مع أيِّ كان. ويُزعَم أنَّ كافَّة الجُنُود الذين تحدَّثوا معه أُودعوا في سجن السُّفُن، أو في بعض الحالات، شُنقُوا[1].

في عام 1665، بعد عام من سجن فاوكيت، مات بُوسَّان في رُومَا. أثناء السَّنوات التَّالية، لويس الرَّابع عشر سعىٰ ـ من خلال وُكلائه، بإصرار شديد ـ للحُصُول علىٰ لوحة بُوسَّان، التي اسمها «Les Bergers d'Arcadie» (رُعاة أركاديا).

في عام 1685، استطاع ـ أخيراً ـ تحقيق ذلك. لكنَّ الملك لم يضع الصُّورة للعرض، ولا حتَّىٰ في القصر المَلَكي. بالعكس؛ قام بعَزْلها في شقَّته الخاصَّة؛ بحيثُ لا أحد بإمكانه أنْ ينظر إليها بدُون إذن شَخْصيّ منه.

هُناك هامش لقصَّة فاوكيت؛ إذْ إنَّ العار الذي أُلحق به، مهما كانت أسبابه، وحجمه، لم يُصبْ أطفاله.

(1) (هذه أمثلة عن العوامل التي قادت المُؤلِّفين اللَّاحقين لاعتبار فاوكيت لأنْ يكون المُرشَّح المُحتمَل للرَّجل ذي القناع الحديدي. يُوجد الكثير من الأدلَّة المُقنعة التي تدعم هذا الزَّعْم. المُؤلِّفون).

في مُنتصف القرن التَّالي، حفيد فاوكيت، مركيز جزيرة بيلـإل، كـان ـ في الواقـع ـ قـد أصـبح الرَّجل الوحيد الأكثر أهمِّيَّة في فرنسا.

في عام **1718**، مركيز جزيرة بيلـإل تخلَّىٰ عن تلـك الجزيـرة، التـي هـي جزيـرة مُحـصَّنة عنـد ساحل بريتون؛ ليمنحها للملك. بالمُقابل؛ حصل علىٰ بعض الأراضي العظيمة. أحدها كان لُونغفيل، والتي تحدَّثنا كثيراً عن دُوقاتها السَّابقين في تحقيقنا. وأرض أُخرىٰ كانت جيزرز.

في عام **1718**، مركيز جزيـرة بيلـــإل أصـبح كُونـت جيـزرز. في عـام **1742**، أصـبح دُوق جيزرز. وفي عام **1748**، تمَّ رَفْع جيزرز إلىٰ المنزلة المُبجَّلة، «الدُّوقيَّة الأسمىٰ».

نيكُولاس بُوسَّان

بُوسَّان بنفسه كان قد وُلد في **1594**، في بلدة صغيرة تُدعَىٰ ليز أندليز؛ تقع علىٰ بضعة أميـال ـ كما اكتشفنا ـ من جيزرز. في شبابه؛ ترك فرنسا، واستقرَّ في رُومَا؛ حيثُ أمضىٰ كامل حياته، وعاد مـرَّة واحدة ـ فقط ـ إلىٰ وَطَنه الأصلي. كان ذلك في وقـت مـا في أوائـل عـام **1640**، رُبَّـما تنفيـذاً لطلـب الكاردينال ريتشيليُو، الذي دعاه للمُباشرة بمهمَّة مُعيَّنة.

بالرّغم من أنَّه لم يشترك ـ بشكل فعَّال ـ في السِّياسة، وبالرّغم مـن أنَّ بـضعة مُـؤرِّخين لَّمحـوا ـ ببساطة ـ إلىٰ اهتماماته السِّياسيَّة، بُوسَّان ـ في الحقيقة ـ ارتبط ـ بشكل مُباشر ـ بحرب فرُونـد. هُـو لم يترك مأواه في رُومَا. ولكنَّ مُراسلاته في تلك الفـترة تكـشف بأنَّـه كـان مُتورِّطـاً ـ بـشدَّة ـ في الحَرَكَـة المُعادية لمازاران، وبشكل يدعو للاستغراب، مع عدد مـن الثُّـوَّار المُـؤثِّرين في حـرب فرُونـد، وكـان ارتباطه شديداً جدَّاً إلىٰ درجة أنَّه ـ في الحقيقة ـ عندما كان يتكلَّم عنهم كان يـستعمل مـراراً وتكـراراً الضَّمير «نحنُ»، ممَّا يدلُّ رَبْط نفسه بهم بشكل واضح.

لقد تتبَّعنا ـ مُسبقاً ـ المواضيع المُتعلِّقة بالجدول التَّحـت أرضي ألفيُـوس، وأركاديـا، والرُّعـاة الأركاديِّيْن، والملك رينيه دانجاو.

الآن؛ شرعنا بالعُثُور علىٰ أصل العبارة المُعيَّنة في لوحة بُوسَّان ـ «**Et in Arcadia Ego**».

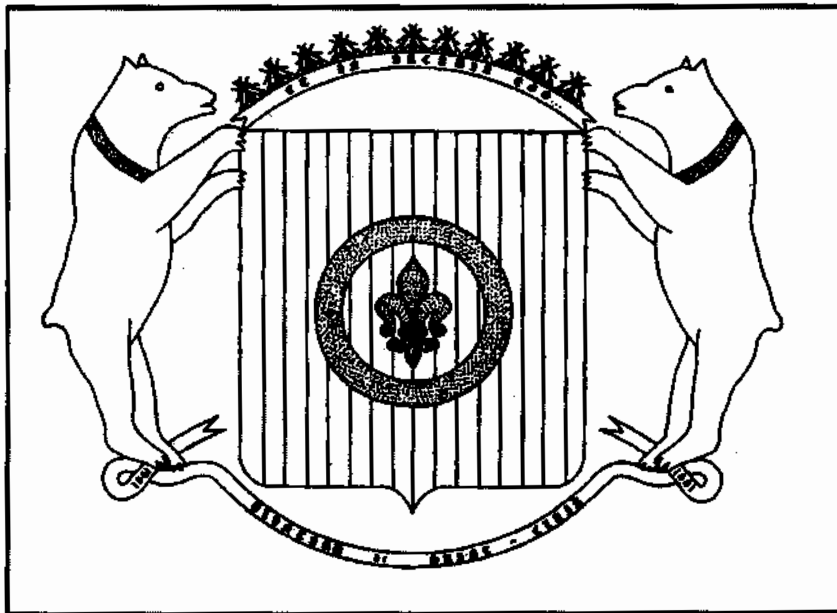
ظهرت تلك العبارة في صُورة سابقة للفنَّان بُوسَّان، والتي تُوِّج فيها القَبْر بجُمْجُمَة، وذلك القَبْر لا يُشكِّل صَرْحاً بحَدِّ ذاته، بل هُو مُثبت علىٰ جانب مُنحدر ما. في مُقدِّمة هذه الصُّورة يتمدَّد الإله المائي المُلتحي في وَضْع جسماني من الظُّلمة والكآبة؛ إلفيُوس إله النَّهر، سيِّد الجدول التَّحت أرضي. العمل يعود تاريخه إلىٰ حوالي العام **1630**؛ أيْ قبل حوالي عشرة سنوات من اللَّوحة الأكثر شُهرَة «**Les Bergers d'Arcadie**».

العبارة «**Et in Arcadia Ego**» أعلنت ظُهُورها لأوَّل مرَّة حوالي عام **1618**، في لوحة للفنَّان جيُوفاني فرانسيسكُو غريسينُو؛ اللَّوحة التي شكَّلت القاعدة الحقيقيَّة لعمل بُوسَّان.

في صُورة غريسينُو هُناك اثنان من الرُّعاة، يدخلون أرضاً مقطوعة من الشَّجر في غابة ما، ويُصادفون للتَّوِّ قَبْراً حجريَّاً، يحمل النَّقش الذي هُو مشهور الآن، وهُناك جُمْجُمَة كبيرة تستند علىٰ قمَّته. مهما تكن الأهمِّيَّة الرَّمْزيَّة لهذا العمل؛ فإنَّ عمل غريسينُو ـ بحَدِّ ذاته ـ طرح العديد من التَّساؤلات. لم يكن مُثقَّفاً ـ بشكل جيِّد ـ بالتَّقليد الباطني فحسب، يبدو أنَّه ـ أيضاً ـ كان مُلمَّاً بالمعارف والمُعتقدات التَّقليديَّة للجمعيَّات السِّرِّيَّة، والبعض من لوحاته الأُخرَىٰ تتعامل مع مواضيع لشَخْصيَّة ماسُونيَّة بالتَّحديد؛ عشرون سنة تماماً قبل أنْ تبدأ المحافل بالانتشار في إنجلترا، واسكوتلندا. إحدىٰ اللَّوحات، التي اسمها «بعث السَّيِّد»، تخصُّ ـ بشكل واضح ـ الأُسطُورة الماسُونيَّة لـ«حيرام أبيف»، مُصمِّم وباني هَيكَل سُلَيْمان. تلك اللَّوحة نُفِّذَتْ ـ تقريباً ـ قبل قرن من وُصُول أُسطُورة حيرام ـ عُمُوماً ـ إلىٰ الماسُونيَّة.

في «وثائق الدَّيْر»، قيل بأنَّ «**Et in Arcadia Ego**» كانت الشِّعار الرَّسْمي لعائلة بلانتارد مُنْذُ القرن الثَّاني عشر علىٰ الأقلِّ، عندما جين دُو بلانتارد تزوَّج آيدوين دُو جيزرز. طبقاً لأحد المصادر الواردة في «وثائق الدَّيْر»؛ إنَّ تلك العبارة ذُكِرَتْ حوالي العام **1210**، من قِبَل شَخْص اسمه رُوبرت، رئيس دَيْر مُونتسانتميشيل. لم يكن بمقدورنا الحُصُول علىٰ أرشيفات دَيْر مُونتسانتميشيل، وبالتَّالي؛ لم نستطع تأكيد هذا الزَّعْم. بَحْثُنَا أقنعنا ـ علىٰ أيَّة حال ـ أنَّ التَّاريخ **1210**، كان خاطئاً بشكل واضح.

في الحقيقة؛ لم يكن هُناك رئيس دَيْر مُونتسانتميشيل اسمه رُوبرت عام **1210**. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ الذي اسمه رُوبرت دُو تُوريغني كان ـ في الحقيقة ـ رئيس دَيْر مُونتسانتميشيل بين عامَيْ **1154** و **1186**. ورُوبرت دُو تُوريغني مشهور بأنَّه كان مُؤرِّخاً مُنتجاً ومُثابراً، وقد تضمَّنت هواياته جَمْع الشِّعارات والدُّرُوع وشعارات النّبالة للعائلات النَّبيلة في كافَّة أنحاء الدّولة المسيحيَّة[1].



شعار النّبالة لعائلة بلانتارد

---

(1) (رُوبرت دُو تُوريغني، راهب 1154 ـ 1186، كَتَبَ حوالي 140 مُجلَّداً أثناء حياته، وعدد كبير منها كُرِّس إلىٰ تاريخ المنطقة. أثناء فترة منصبه، تضاعف عدد الرُّهبان في الدَّيْر، وأصبح «المُعلِّم الرُّوحي». كان صديقاً مُقرَّباً لهنري الثَّاني، وبيكيت، ونَظَرَاً لعلاقتها المتينة مع دَيْر صهيُون، ومع فُرسان الهَيكَل، ومع آل جيزرز، سيكون من المُفاجئ إنْ لم يكن رُوبرت مُرتبطاً معهم أيضاً. إنْ كان آل بلانتارد ـ في الحقيقة ـ يستعملون الشِّعار كما هُو مُقترح، فسوف يتوقَّع المرء أنَّ رُوبرت هُو الذي طَبَعَهُ، بما أنَّه لا يبدو أنَّ آل بلانتارد كانوا قاطنين في في بريطانيا في ذلك الوقت فحسب، بل ـ أيضاً ـ كان جين الخامس دُو بلانتارد قد تزوَّج عام 1156 (طبقاً لهنري لُوبينيُو) من إيدوين دُو جيزرز، شقيقة جين دُو جيزرز؛ السَّيِّد الأعظم التَّاسع لنظام دَيْر صهيُون، مُؤسِّس نظام الصَّليب الوَرْدي. التَّاريخ يُدوِّن إيدوين بدُون زوجها؛ ممَّا لا يسمح لنا بالعُثُور علىٰ اللَّقَب، الذي كانت تستخدمه عائلة بلانتارد في القرن الثَّاني عشر. لم نكن قادرين علىٰ إيجاد أيِّ ذكْر لعائلة بلانتارد، أو أيِّ أثر لإحصائيَّات علْم الأنساب، التي دوَّنها رُوبرت. مَخْطُوطَاته بُعثرَتْ، ولم يُعثَر إلَّا علىٰ قوائم لها، مع ذلك؛ لا يبدو أنَّ أيّاً منها يتضمَّن مادَّة تتعلَّق بعلْم الأنساب. أُخبرنا ـ لاحقاً ـ بأنَّ المَخْطُوطَة ذات الصِّلة كانت في الأرشيفات «الخاصَّة» في سانتسُولبيس في باريس، ويبدو أنَّها نهاية غير مُرضية للطَّريق الذي يسلكه هذا التَّحقيق. المُؤلِّفون).

مهما كان أصل عبارة «Et in Arcadia Ego»، تبدو ـ لغريسينُو، وبُوسَّان، بأنَّها أكثر من مُجـرَّد شعْر رثائي. بشكل واضح تماماً، يبدو أنَّها تمتَّع ببعض الأهمِّيَّة السِّرِّيَّة العظيمـة، والتـي كانـت سـهلة التَّمييز بالنِّسبة لبعض النَّاس الآخرين، باختصار، هـي مُكَافئـة لكلمـة السِّرِّ،أو الإشـارة الماسُـونيَّة. وبالضَّبط؛ بمثل هذه الشُّرُوط أحد البَيَانَات في «وثائق الدَّيْر» تُعرِّف ميزة الفنِّ الرَّمْزيّ، أو المجازي:

الأعمال المجازيَّة لها الفائدة التَّالية؛ حيثُ إنَّ كلمة وحيدة تكفي لإنـارة الارتباطـات، التـي لا تستطيع العامَّةُ إدراكها. مثل هذه الأعمال مُتوفِّرة لكُلِّ شَخْص، لكنَّ أهمِّيَّتها تخصُّ نفسها لنُخبـة مـن النَّاس. أعلىٰ وخلف الجماهير، المُرسل والمُستلم يفهمان بعضهما البعض. النَّجاح غير القابل للتَّوضـيح لأعمال مُحَدَّدة ينبثق من النَّوعيَّة من الرَّمْزيَّة، والتـي هـي ليـست مُجـرَّد زيٍّ فحـسب، بـل شـكل مـن الاتِّصالات الغامضة.

هذا البيان، في هذا السِّياق، يُشير إلىٰ بُوسَّان. كما أوضحت فرانسيس ييتس ـ علىٰ أيَّـة حـال ـ رُبَّما قد يُطبَّق تماماً بالمثْل علىٰ أعمال ليُوناردُو، وبُوتيشيلي، وفنَّاني عصر النَّهضَة الآخرين. لرُبَّما ـ أيضاً ـ يُطبَّق علىٰ شَخْصيَّات لاحقة؛ نُودير، هيوغُو، ديبُوسي، كُوكتُو، وحلقاتهم الخاصَّة.

مُصلَّىٰ رُوزلين وقاعة شاغبُورُو

في بحثنا السَّابق؛ وجدنا عدداً من الصِّلات المُهمَّة بين الأسياد العظام لدَيْر صهيُون في القـرنَيْن السَّابع والثَّامن عشر وبين الماسُونيَّة الأُورُوبيَّة.

أثناء دراستنا للماسُونيَّة؛ اكتشفنا بعض الـصِّلات الأُخْـرَىٰ أيـضاً. هـذه الـصِّلات الإضـافيَّة لم تتعلَّق بالأسياد العظام المزعومين، بحَدِّ ذاتهم، لكنَّها تعلَّقت بسمات أُخرىٰ من تحقيقنا.

وهكذا، صادفنا ـ مثلاً ـ إشارات مُتكرِّرة إلىٰ عائلة سينكلير؛ فرع إسكتلندي لعائلـة نُورمـان سانتـكلير/ جيزرز.

أملاكهم في رُوزلين كانت ـ فقط ـ علىٰ بُعْد بضعة أميال من المَقَرِّ الإسكتلندي السَّابق لفُرسان الهَيكَل، والمُصلَّىٰ في رُوزلين ـ الذي بُني بين عام **1446** و **1486** ـ كان ـ مُنْذُ فـترة طويلـة ـ مُـشتركاً للماسُونيَّة والصَّليب الوَرْدي كلَيْهما.

علاوةً علىٰ ذلك؛ في صَكٍّ يُعتقَد أنَّه مُنْذُ عام 1601، عائلة سينكلير معروفة بأنَّها «الأسياد العظام الوراثيِّيْن للماسُونيَّة الاسكوتلنديَّة». هذه هي الوثيقة الماسُونيَّة المُسجَّلة، والأسبق تماماً.

طبقاً للمصادر الماسُونيَّة ـ علىٰ أيَّة حال ـ السِّيادة الكبيرة الوراثيَّة مُنحَتْ لعائلة سينكلير من قِبَل جيمس الثَّاني، الذي حَكَمَ بين عامَيْ 1437 و 1460 ـ في عهد الملك رينيه دانجاو.

الجُزء الآخر والأكثر غُمُوضاً بقليل من لُغزنا المُعقَّد ـ أيضاً ـ ظهر في بريطانيا، هذا الوقت في ستافُوردشير[1]، والتي كانت مُستنبتاً للنَّشاط الماسُوني في أوائل ومُنتصف القرن السَّابع عشر. عندما تشارلز رادكليف، السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون، هرب من سجن نيُوغيت في عام 1714، سُوعد من قِبَل ابن عمِّه، إيرل ليتشفيلد.

في وقت لاحق من القرن؛ سُلالة إيرل ليتشفيلد انقرضت، ومنصبه أُبطِل. فقد تمَّ شراؤه في أوائل القرن التَّاسع عشر من قِبَل أحفاد عائلة أنسون، الذين هُم ـ الآن ـ يشغلون منصب الإيرل في ليتشفيلد.

إنَّ مقعد «إيرلات» ليتشفيلد الحالي هُو قاعة شاغبُورُو في ستافُوردشير. شاغبُورُو ـ التي كانت سابقاً مَسْكَنَ الأُسقُف ـ تمَّ شراؤها من قِبَل عائلة أنسُون في 1697.

أثناء القرن التَّالي؛ كانت مَسْكَناً لشقيق جُورج أنسُون، الأدميرال المشهور، الذي أبحر حول الكُرة الأرضيَّة. عندما مات جُورج أنسُون في 1762، قصيدة رثائيَّة قُرئت عَلَناً في البرلمان. أحد مقاطع الشِّعْر في هذه القصيدة يقول:

علىٰ ذلك الرُّخام التَّاريخي تظهر عينُكَ.

المشهد يستحقُّ تحسُّراً أخلاقيّاً.

أنا في سُهُول أركاديا السَّماويَّة المُقَدَّسَة[2]

(1) (مُقاطعة وسط انكلترا. المُترجم).

(2) (E'en in Arcadia's blessed Elysian plains). هذه هي العبارة كما وَرَدَتْ. لاحظْ تَشَابُهَ الجُملة مع عبارة «Et in Arcadia Ego». المُترجم).

وسط الحُوريّات الضّاحكات والقرويّيْن المرحين،

شَاهِدِ البهجةَ الاحتفاليّة تنحسر، والنّعمة تذوبُ،

والشّفقة تزور الوجه النّصف مُبتسم؛

أين ـ الآن ـ الرّقص، والعُود، وعيد الزّواج،

العاطفة تخفق في صدر الحبيب،

رمز الحياة هُنا، في ريعان الشّباب والرّبيع،

لكنّ أصابع الصّواب تُشير إلىٰ القَبْر!

يبدو أنّ هذا تلميحاً واضحاً إلىٰ صُورة بُوسّان والنّقْش «**Et in Arcadia Ego**» إلىٰ حَدّ «لكنّ أصابع الصّواب تُشير إلىٰ القَبْر».

وفي حدائق شاغبُورُو هُناك رُخام عليه نَقْش قليل البُرُوز نُفّذَ بأمر من عائلة أنسُون بين عامَيْ **1761** و **1767**. هذا النّقْش القليل البُرُوز يشمل صُورة طبق الأصل، وكأنّها صُورة معكوسة عن مرآة لصُورة بُوسّان، التي اسمها «**Les Bergers d'Arcadie**».

وتحتها مُباشرة، هُناك نَقْش غامض لم يستطع أحدٌ أنْ يفكّ ـ بشكل مَرَضي ـ شيفرته علىٰ الإطلاق:

O.U.O.S.V.A.V.V.

D M

رسالة البَابَا السِّرِّيَّة

في عام 1738، البَابَا كليمنت الثَّاني عشر أصدر بياناً رَسْمِيّاً بَابَوِيّاً يدين ويطرد كُلَّ الماسُونيِّين، الذين أعلنهم كـ«أعداء الكَنيسَة الرُّومانيَّة». لم يسبق أنْ تمَّ التَّوضيح ـ جُملة وتفصيلاً ـ لماذا عُدُّوا كذلك، خُصُوصاً أنَّ العديد منهم، مثل اليعقُوبيِّين في ذلك الوقت، يزعم أنَّهم كانوا كَاثُوليكيِّين. رُبَّما البَابَا كان مُدركاً للارتباطات التي اكتشفناها مُسبقاً بين الماسُونيَّة والرُّوزيكرُوشيَّة المُعادية للرُّومان في القرن السَّابع عشر.

في أيِّ حال، يُمكن تسليط بعض الضّوء علىٰ المسألة من خلال رسالة أُصدرَتْ، ونُشرَتْ، للمرَّة الأُولىٰ عام 1962. هذه الرِّسالة كُتبَتْ من قِبَل البَابَا كليمنت الثَّاني عشر، ووُجِّهَتْ إلىٰ شَخْص مجهول. في نصِّها، يُعلن البَابَا بأنَّ الفِكْر الماسُوني يستند علىٰ بدْعة صادفناها ـ مراراً، وتكراراً ـ من قبلُ ـ وهي نُكران أُلُوهيَّة السَّيِّد المسيح.

ويُصرِّح إلىٰ ما هُو أكثر من ذلك، بأنَّ الأرواح المُوجِّهة و«العُقُول المُسيطرة» وراء الماسُونيَّة هي ـ تماماً ـ مثل تلك التي أثارت «الإصلاح اللّوثري»[1].

البَابَا ـ لرُبَّما ـ كان مذعوراً تماماً؛ لكنْ؛ من المُهمِّ مُلاحظة أنَّه لم يتكلَّم عن التَّيَّارات الغامضة، أو التَّقاليد المُبهمة. بالعكس، هُو يتكلَّم عن مجموعة مُنظَّمة جدّاً من الأفراد ـ طائفة، نظام، جمعيَّة سرِّيَّة ـ الذين ـ عبر الأجيال ـ كرَّسوا أنفسهم لتخريب صَرْح المسيحيَّة الكَاثُوليكيَّة.

(1) (نسبة إلىٰ مارتن لُوثر: 1483 ـ 1546، عالم ديني ألماني، ومُصلح ديني، أطلق الإصلاح البرُوتستانتي، والذي امتدَّ تأثيره الواسع إلىٰ ما بعد الدِّين، إلىٰ السِّياسة، والاقتصاد، والتَّعليم، واللُّغة، وجعله إحدىٰ الشَّخصيَّات الحاسمة في التَّاريخ الأُورُوبي الحديث. ومُؤلِّفو الكتاب يُعلِّقون هُنا قائلين بأنَّ الرِّسالة المَعنيَّة في الفقرة السَّابقة كانت مُرفقة بالبيان البَابَوي للحرْمان الكَنَسي، الذي أُصدر من قِبَل البَابَا في 28 أبريل عام 1738. المُترجم).

صخرة صهيُون

في أواخر القرن الثَّامن عشر، عندما كانت أنظمة ماسُونيَّة مُختلفة تنتشر بشكل كبير، ظهر ما يُسمَّىٰ بـ«مذهب ممفيس الشَّرقي»[1]. في هذا المذهب ظهر الاسم أُورمُوس حسب معرفتنا لأوَّل مرَّة، الاسم تمَّ تبنِّيه زَعْماً من قِبَل دَيْر صهيُون بين عامَيْ 1188 و 1307.

طبقاً لمذهب ميمفيس الشَّرقي، أُورمُوس كان حكيماً مصريَّاً، والذي حوالي عام 46 بعد الميلاد، دَمَجَ الوَثَنيَّة والألغاز المسيحيَّة، وبذلك، أسَّس الصَّليب الوَرْدي.

في مذاهب القرن الثَّامن عشر؛ الماسُونيَّة الأُخرَىٰ هُناك إشارات مُتكرِّرة إلىٰ «صخرة صهيُون» ـ نفس صخرة صهيُون التي كما وَرَدَ في «وثائق الدَّيْر» أنَّها جعلت «التَّقليد المَلَكي» الذي أُسِّس من قِبَل غُودفرُوي، وبُودوين دُو بلُويُون «مُكَافئاً» لذلك الموجود لدىٰ أيِّ سُلالة سائدة أُخرىٰ في أُورُوبا.

افترضنا ـ سابقاً ـ بأنَّ صخرة صهيُون كانت ـ ببساطة ـ جبل صهيُون ـ «تلّ عال» جنوب القُدْس، والذي بنىٰ فيه غُودفرُوي ديراً لإسكان النِّظام، الذي أصبح دَيْر صهيُون. لكنَّ المصادر الماسُونيَّة تنسب أهمِّيَّة إضافيَّة إلىٰ صخرة صهيُون. نَظَرَاً لاهتمامهم بهَيكَل القُدْس، فليس من المُفاجئ بأنْ ينتبهوا إلىٰ احدىٰ العبارات التي وردت في التَّوراة. وفي هذه العبارات، صخرة صهيُون هي شيء أكبر بكثير من مُجرَّد تلٍّ عال. هي صخرة تمَّ إهمالها بلا مُبرِّر أثناء بناء الهَيكَل، والتي استلزم ـ بعد ذلك ـ أنْ يتمَّ استرجاعها وضمّها للهَيكَل كحَجَر أساس فيه. طبقاً للمزمور 118، علىٰ سبيل المثال:

(1) (ظهر المذهب الشَّرقي لمفيس لأوَّل مرَّة في عام 1838، عندما قام جاك إتين ماركُونيس دُو نيجر بتأسيس «المحفل الكبير أُوزيرس» في برُوكسل. الأُسطُورة الأساسيَّة للمذهب انحدرت من أساطير الإله الإغريقي ديُونيسُوس، ومن الأساطير المصريَّة. قيل بأنَّ الحكيم أُوميُوس دمج الألغاز بالمسيحيَّة لخَلْق المذهب الأصلي للصَّليب الوَرْدي. المذهب الشَّرقي لمفيس كان نظاماً من سبع وتسعين درجة، من بينها ألقاب مهيبة مثل «قائد المُثلَّث المُنير»، و«الأمير المهيب للُّغز المَلَكي»، و«القسّ المهيب»، و«دُكتُور البلانيسفير»، وهكذا. المذهب خُفِّضَتْ درجاته إلىٰ ثلاث وثلاثين درجة في النِّهاية، مُسمِّياً نفسه بـ«المذهب القديم، والبدائي». أُخذ إلىٰ الولايات المُتَّحدة ـ تقريباً ـ في الفترة بين عامَيْ 1854 ـ 1856، من قِبَل سيمُور، وإلىٰ إنجلترا في 1872، من قِبَل جُون باركر. المُؤلِّفون).

الحجر الذي رَفَضَهُ البَنَّاؤون صار حَجَرَ الرَّأس في الزَّاوية.

في إنجيل مَتَّىٰ 21:42 السَّيِّد المسيح يُلمِّح ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ هذا المزمور:

أَمَا قرأتُم ـ قطُّ ـ في الكُتُب: الحَجَرُ الذي رَفَضَهُ البنَّاؤون صار رأس الزَّاوية.

في رُوما[1] 9:33 هُناك إشارة أُخرىٰ، أكثر التباساً:

هنذا أضع في صهيُون حجر زاوية، مُختاراً كريماً، والذي يُؤمن به لن يُخزَىٰ.

في أعمال الرُّسُل[2] 4:11 صخرة صهيُون ـ لـرُبَّما ـ تكون مُفسّرة تماماً كاستعارة للسَّيِّد المسيح بنفسه:

باسم يسوع المسيح النَّاصري، الذي صلبتُمُوه أنتُم، الذي أقامه الله من الأموات. بذاك؛ وقف هذا أمامكم صحيحاً. هذا هُو الحَجَر الذي احتقرتُمُوه، أيُّها البنَّاؤون، الذي صار رأس الزَّاوية.

في رسالة بُولُس الرَّسول[3] 2:20 مُساواة السَّيِّد المسيح بصخرة صهيُون تُصبح أكثر وُضُوحاً:

مَبنِيِّيْن علىٰ أساس الرُّسُل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حَجَر الزَّاوية، الذي فيه كُلُّ البناء مُركَّباً معاً ينمو هَيكَلاً مُقدَّساً في الرَّبِّ.

وفي رسالة بُطرُس الرَّسول الأُولىٰ 8 ـ 3 :2 هذه المُساواة أصبحت واضحة لدرجة أكبر:

إنْ كُنتُم قد ذُقتُم أنَّ الرَّبَّ صالحٌ، الذي إذْ تأتون إليه حَجَراً حيَّاً، مرفوضاً من النَّاس، ولكنْ؛ مُختاراً من الله، كريماً، كُونُوا أنتُم ـ أيضاً ـ مَبنِيِّيْن كحجارة حيَّة بيتاً رُوحيَّاً كَهَنُوتاً مُقدَّساً لتقديم ذبائح رُوحيَّة مقبولة عند الله يسوع المسيح. لذلك يُتَضَمَّن ـ أيضاً ـ في الكتاب، هنذا، أضع في صهيُون حَجَرَ زاوية مُختاراً كريماً: والذي يُؤمن به لن يُخزَىٰ. فلكُم أنتُم، الذين تُؤمنون الكرامة: وأمَّا للَّذين

---

(1) (رسالة القدِّيس بُولُس إلىٰ الكَنيسَة في رُومَا، كُتبت ـ تقريباً ـ عام 58 بعد الميلاد، وفيها شرح لنظريَّته في الفِكْر الدِّيني. المُترجم).

(2) (الكتاب الخامس من العهد الجديد. المُترجم).

(3) (رسالته إلىٰ أهل أفسُس. المُترجم).

لا يُطيعون؛ فالحَجَرُ الذي رفضه البنَّاؤون صار رأس الزَّاوية، وحَجَر صدمة، وصخرة عثرة، الذين يعثرون غير طائعين للكلمة، الأمر الذي جُعِلوا له.

ومُباشرة في الشِّعر الذي يلي ذلك؛ يستمرُّ النَّصُّ بالتَّشديد علىٰ المواضيع التي أهمِّيَّتها لم تُصبح ظاهرة بالنِّسبة لنا حتَّىٰ النِّهاية.

فالشِّعر التَّالي يتكلَّم عن صنف مُنتخَب من المُلُوك، الذين هُم زُعماء رُوحيُّون وعالميُّون، صَفٌّ من الكَهَنَة المُلُوك:

وأمَّا أنتُم؛ فجنسٌ مُختارٌ وكَهَنُوتٌ مُلُوكيٌّ، أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ، شعب اقتناء لكي تُخبِروا ...

ما الذي كان علينا فعْلُهُ بهذه العبارات المُحيِّرة؟

ما الذي كان علينا فعله بصخرة صهيُون ـ حجر الأساس للهَيكَل، والتي يبدو أنَّها تظهر بشكل بارز جدَّاً بين «الأسرار السِّرِّيَّة» للماسُونيَّة؟!

ما الذي كان علينا فعْلُهُ بالتَّجسيد الواضح لحَجَر الأساس هذا بالسَّيِّد المسيح بنفسه؟!

وما الذي كان علينا فعْلُهُ بذلك «التَّقليد المَلَكي» الذي ـ لأنَّه أُسِّس علىٰ صخرة دَيْر صهيُون، أو علىٰ السَّيِّد المسيح بنفسه ـ كان «نظيراً» للسُّلالات الحاكمة لأُورُوبا أثناء الحملات الصَّليبيَّة؟!

الحَرَكَة العَصْرَانيَّة الكَاثُوليكيَّة [1]

في عام 1833، جين بابتيست بيتُويس، الـذي كـان تابعـاً سـابقاً لتـشارلز نُـوديير في مكتبـة آرسنال، كان مسؤولاً في وزارة التَّعليم العامِّ[2].

وفي تلك السَّنة، أطلقت الوزارة مشروعاً طموحـاً لنَـشْر كُـلِّ الوثـائق المقموعـة حتَّىٰ ذلـك الوقت، والوثيقة الصِّلَة بالتَّاريخ الفرنسي. تمَّ تشكيل لجنتَيْن لتَرَؤُّس هذا المشروع. هاتـان اللَّجنتـان تضمَّنتا ـ من بين الآخـرين ـ فيكتُـور هيوغُـو، وجُـولز ميـشيليت[3]، والخبـير بـالحملات الـصَّليبيَّة البارُون إمانويل راي.

من بين الأعمال التي نُشرَتْ بعد ذلك تحت رعاية وزارة التَّعلـيم العـامِّ كـان العمـل الـضَّخم للمُؤرِّخ ميشيليت» بعُنـوان «Le Procès des Templiers» ـ وهُـو تجميـع شـامل لـسجلَّات محـاكم التَّفتيش التي تتعلَّق بمُحاكمات فُرسان الهَيكَل. تحت الرِّعايـة نفـسها، نَـشَرَ البـارون راي عـدداً مـن الأعمال تتعلَّق بالحملات الصَّليبيَّة والمملكة الفرانكيَّة في القُـدْس. في هـذه الأعـمال؛ صـدرت للمـرَّة الأُولىٰ مواثيق أصليَّة تخصُّ دَيْر صهيُون. في بعض النّقاط، نُصُوص راي كانـت ـ تقريبـاً ـ اقتباسـات حَرْفيَّة من عبارات وفقرات وَرَدَتْ في «وثائق الدَّيْر».

في عام 1875، البارون راي اشترك في اكتـشاف «Société de l'Orient Latin» ـ (المُجتمـع اللَّاتيُومي ـ أو فرانكيِّيْن الشَّرق الأوسط).

مُرتكزاً في جنيف؛ هذا المُجتمع كرَّس نفسه للمشاريع الآثاريَّة الطَّموحة. نَشَرَ ـ أيـضاً ـ مجلَّـة خاصَّة به، والتـي كـان اسـمها «Revue de l'Orient Latin»، والتـي هـي ـ الآن ـ إحـدىٰ المـصادر

(1) (حَرَكَة في الفِكْر الكَاثُوليكي، سعت إلىٰ تأويل تعاليم الكَنيسَة علىٰ ضوء المفـاهيم الفَلْـسَفِيَّة والعِلْمِيَّـة الـسَّائدة في أواخر القرن 19، وأوائل القرن العشرين. المُترجم).

(2) (بيتُويس، كمسؤول مكتبي في وزارة التَّعليم العامِّ، أُوكل بمهمَّة تدقيق كُلِّ الكُتُب في الأديرة والمكتبـات العامَّـة الإقليميَّـة التي جُلِبَتْ إلىٰ باريس. هُو وتشارلز نُوديير كرَّسا نفسَيْهُما لذلك، ويدَّعيان بأنَّهما قاما باكتشافات مُثيرة يوميّاً. المُؤلِّفون).

(3) (مُؤرِّخ فرنسي 1798 ـ 1874، ومُدرِّس لعلْم الأخلاق، من أشهر أعماله «التَّاريخ الفرنسي» المُؤلَّف مـن 17 مُجلَّـداً. المُترجم).

الأساسيَّة للمُؤرِّخين الحديثين مثل السِّيْر ستيفن رُونسيهان. هذه المجلَّة أعادت نَشْرَ عدد من المواثيق الإضافيَّة لدَيْر صهيُون.

بحثُ راي كان نموذجيّاً لشكل جديد من الثَّقافة التَّاريخيَّة التي تظهر في أورُوبا في ذلك الوقت، ببرُوز كبير جدّاً في ألمانيا، والتي شكَّلت تهديداً خطيراً جدّاً للكَنيسَة. انتشار الفِكْر الدّاروني واللَّاأدْرِيّ[1] كان ـ آنذاك ـ قد أنتج «أزمة الإيمان» في أواخر القرن التَّاسع عشر، والثَّقافة الجديدة عظَّمت الأزمة. البحث التَّاريخي الماضي كان ـ في الجُزء الأكبر منه ـ قضيَّة عديمة الثِّقة، وتستند إلىٰ المُؤسَّسات الضَّعيفة جدّاً؛ علىٰ الأساطير والتَّقاليد، وعلىٰ المُذكّرات الشَّخصيَّة، وعلىٰ المُبالغات، التي أُعلنَتْ لمصلحة شَخْص، أو آخر.

فقط؛ في القرن التَّاسع عشر، بدأ العُلماء الألمان بتقديم التّقنيَّات الدَّقيقة والكلمات الجازمة، التي تُقبل ـ الآن ـ كأمر مُعتاد من أيِّ مُؤرِّخ موثوق به. مثل هذا الانهماك بالفَحْص النَّقْدي، وبالتَّحقُّق من المصادر المُباشرة، وبالإسناد التَّرافقي[2]، وبالتَّأريخ الدَّقيق للأحداث؛ تمَّ تأسيس الفِكْرَة التَّقليديَّة الشَّائعة لما يُعرَف بـ«المُعلِّم التّيُوتُوني»[3].

لكنْ؛ وإنْ كان الكُتَّاب الألمان في تلك الفترة يتيهون في التَّفاصيل، إلَّا أنَّهم قدَّموا ـ أيضاً ـ قاعدة صلبة للتَّحقيق، ولعدد من الاكتشافات الآثاريَّة الرَّئيسيَّة أيضاً. إنَّ المثال الأكثر شُهرَة ـ بالطَّبع ـ هُو التَّنقيب الذي قام به هياينرك سكليمن[4] في موقع طروادة[5].

---

(1) (مذهب اللَّاأدْرِيّ: مذهب يعتقد بأنَّ وُجُود الله وطبيعته وأصل الكون أُمُور لا سبيل إلىٰ معرفتها. المُترجم).

(2) (إحالة من جُزء من كتاب، أو فهرس، إلخ. المُترجم).

(3) (التّيُوتُوني هُو الجرماني القديم. المُترجم).

(4) (هياينرك سكليمن 1822 ـ 1890، عالم آثار ألماني، اكتشف العديد من المواقع القديمة في اليُونان، وتُركيا. المُترجم).

(5) (في 1870، بدأ سكليمن بالتَّنقيب علىٰ تلِّ هيسارلك في تُركيا؛ حيثُ اعتُقد أنَّ بقايا مدينة طروادة القديمة تُوجد هُناك. اكتشف عدَّة طبقات من المُدُن، وأعلن بأنَّ المدينة الثَّانية من القاع ستكون مدينة هُوميرُوس طروادة. لاحقاً ـ علىٰ أيّة حال ـ اكتشف بأنَّ الخراب كانت لمُستوطنة أقدم من طروادة، وأنَّ طروادة كانت في مُستوىً أعلىٰ. بسبب اكتشافات سكليمن، يعتقد أكثر العُلماء بأنَّ رواية هُوميرُوس لحرب الطّروادة لها أساس من الصّحَّة. هُوميرُوس هُو مُؤلِّف المَلْحَمَتَيْن الرَّئيسيَّتَيْن في بلاد الإغريق، وهُما مَلْحَمَة هُوميرُوس ومَلْحَمَة الإلياذة. المُترجم).

كانت ـ فقط ـ مسألة وقت، قبل أنْ يتمّ تطبيق تقنيّات الثّقافة الألمانيّة بالبراعة ذاتها علىٰ التّوراة. والكَنيسَة ـ التي استندت إلىٰ القبول المُطلق للعقيدة ـ كانت مُدركة جيّداً أنَّ التّوراة ـ بحَدِّ ذاتها ـ لا تستطيع أنْ تُقاوم مثل هذا الفَحْص الحَرج. الكاتب إيرنست رينان مُؤلِّف كتاب «حياة السَّيِّد المسيح» المُثير للجَدَل، والحاصل علىٰ أفضل المبيعات قد قام سَلَفَاً بتطبيق علْم المنهج الألماني علىٰ العهد الجديد، والنَّتائج ـ بالنِّسبة لرُوما ـ كانت مُحرجة جدَّاً.

وهكذا، ظهرت الحَرَكَة العَصْرَانيَّة الكَاثُوليكيَّة بشكل أساسيّ للرَّدِّ علىٰ هذا التَّحدِّي الجديد. هدفها الأصلي كان أنْ يُنتِجَ جيلٌ من الخُبراء الكَنَسيِّيْن المُتدرِّبين علىٰ التَّقليد الألماني، والذين بإمكانهم أنْ يُدافعوا عن الحقيقة الحَرْفيَّة للكتاب المُقَدَّس بكُلِّ مصادر القُوَّة من الثَّقافة النَّقْديَّة.

علىٰ أيَّة حال؛ توضَّح أنَّ الخُطَّة كانت ذا أثر عكسي. كُلَّما ازداد شغف الكَنيسَة بتجهيز رجالها الدِّينيِّيْن الشَّباب بالأدوات القتاليَّة لخوض معركة العالم الانفعالي الحديث، قام أُولئك المُتديِّنين بذاتهم بهَجْر القضيَّة، التي جُنِّدوا من أجلها. الفَحْصُ النَّقْدي للتَّوراة كشف العديد من التَّضاربات والتَّناقضات والنَّتائج التي كانت عدائيَّة بشكل إيجابي للعقيدة الرُّومانيَّة.

وفي نهاية القرن، العَصْرانيُّون لم يكونوا تلك النُّخبة الخاصَّة من الجُنُود، الذين تَمَنَّتْهُم الكَنيسَة أنْ يكونوا، بل كانوا أوَّل المُنشقِّين، والزَّنادقَة.

في الحقيقة؛ شكَّلوا التَّهديد الأكثر خُطُورة من كُلِّ التَّهديدات التي واجهتْهَا الكَنيسَة مُنْذُ مارتن لُوثر، وَجَلَبَتْ صَرْحَ الكَاثُوليكيَّة بالكامل إلىٰ حافَّة انشقاق ديني فريد من نوعه مُنْذُ قُرُون.

مرتع نشاط العَصْرانيِّيْن ـ كما كان بالنِّسبة لجماعة القُربان المُقَدَّس ـ كان سانت سُولبيس في باريس.

في الحقيقة؛ أحد أكثر الشَّخصيَّات شُهرَة في الحَرَكَة العَصْرَانيَّة كانت للرَّجل الذي كان مُدير معهد سانت سُولبيس من **1852** إلىٰ **1884**. من معهد سانت سُولبيس انتشرت المواقف العَصْرَانيَّة بسُرعة إلىٰ بقيَّة أنحاء فرنسا، وإلىٰ إيطاليا، وإسبانيا.

طبقاً لهذه المواقف العَصْرَانيَّة؛ النُّصُوص التَّوراتيَّة لم يكن مشكوكاً في صحَّتها، بل يجب ـ بشكل إلزامي ـ فَهْمُهَا بسياق مُعيَّن حسب وقتها.

وثار العَصْرَانيُّون ـ أيضاً ـ ضدَّ القُوَّة المركزيَّة المُتزايدة للكَنيسَة ـ خُصُوصاً المذهب الذي نشأ مُؤخَّراً عن المعصوميَّة البَابَويَّة[1]، والتي وجَّهَتْ تصدِّياً كبيراً للنَّزعة الحديثة.

بعد فترة قصيرة؛ انتشرت مواقف العَصْرَانيِّيْن، وليس ـ فقط ـ عن طريق رجال الدِّين المُثقَّفين، بل من قِبَل الكُتَّاب البارزين، والمُؤثِّرين أيضاً.

شَخْصيَّات مثل «رُوجر مارتن دُو غارد» في فرنسا، و«ميجيل دُو أونامُونُو» في إسبانيا كانا من بين النَّاطقين الأساسيِّيْن للعَصْرَانيَّة.

الكَنيسَة ردَّت بالحماسة والغضب المُتوقَّعَيْن. العَصْرَانيُّون اتُّهموا بأنَّهم ماسُونيُّون. العديد منهم أُوقفوا، أو حتَّىٰ حُرموا من حقِّ العُضويَّة الكَنَسيَّة، وَكُتُبُهُم تمَّتْ فَهْرَسَتُهَا[2].

في عام 1903، البَابَا ليُو الثَّالث عشر أسَّس «اللَّجنة الأُسقُفيَّة التَّوراتيَّة» لمُراقبة عمل عُلماء الدِّين. في عام 1907، البَابَا بيُوس العاشر أصدر إدانة رَسْميَّة للعَصْرَانيَّة. وفي الأوَّل من سبتمبر/ أيلول لعام 1910، الكَنيسَة طالبت رجال الدِّين لديها بأنْ يُقسموا ضدَّ المُيُول العَصْرَانيَّة.

علىٰ الرّغم من هذا، العَصْرَانيَّة واصلت الازدهار، إلىٰ أنْ حوَّلَت الحرب العالميَّة الأُولىٰ اهتمام الرَّأي العامّ إلىٰ المخاوف الأُخْرَىٰ.

حتَّىٰ عام 1914، بقيت تلك القضيَّة مشهورة. أحد المُؤلِّفين العَصْرَانيِّيْن، آبي تُونيل، أثبت أنَّه شَخْص مُؤذ جدَّاً. بينما كان يزعم النَّزاهة في عمله كمُدرِّس في بريطانيا، نَشَرَ سلسلة أعمال عَصْرَانيَّة تحت أسماء مُستعارة لا يقلُّ عددها عن أربعة عشر اسم مُستعار مُختلف. كُلّ منها وُضعَ علىٰ فَهْرَس الممنوعات، ولكنْ؛ لم يُكتَشَف أنَّ مُؤلِّفها كان تُونيل حتَّىٰ عام 1929.

---

(1) (من المُحتمَل جدَّاً أنَّ مذهب المعصوميَّة البَابَويَّة، الذي قُرِّر رَسْميَّاً للمرَّة الأُولىٰ في 18 يُوليُو/ تمُّوز 1870، كان جُزءاً من ردَّة فعْل الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة للمُيُول المُتحرِّرة، بالإضافة إلىٰ المُعتقدات الدَّارونيَّة، والقُوَّة القارِّيَّة المُتزايدة لبرُوسيا اللُّوثريَّة. المُؤلِّفون).

(2) (هذا التَّعبير استُخدِم للإشارة إلى الكُتُب التي مُنعَتْ قراءتُها على الكاثُوليك من قِبَل السُّلطات الكَنَسيَّة. المُترجم).

لا حاجة للقول، ببساطة؛ تمَّ حرْمانه العُضويَّة الكَنَسيَّة بعد ذلك.

نُشِرَتْ في هذه الأثناء العَصْرَانيَّة في بريطانيا؛ حيثُ رُحِّبَ بها بدفء، وصُدِّقَتْ من قِبَل الكَنيسَة الأنجليكانيَّة. من بين أتباعها الأنجليكانيِّيْن كان وليام تيمبل، الذي أصبح ـ لاحقاً ـ رئيس أساقفة كانتربُوري، الذي أعلن بأنَّ العَصْرَانيَّة «هي ما آمن به أكثر النَّاس المُتعلِّمين». أحد شُركاء تيمبل كان «كانون ألفريد ليسلي ليلي». وليلي كان يعرف الكَاهن الذي استلمنا منه تلك الرِّسالة الفريدة، التي تتكلَّم عن «بُرهان حاسم» بأنَّ السَّيِّد المسيح لم يمت علىٰ الصَّليب.

ليلي ـ كما عرفنا ـ عمل لبعض الوقت في باريس؛ حيثُ تعرَّف علىٰ آبي أميل هُوفيت؛ الرَّجل الذي جَلَبَ إليه سُونير المَخطُوطَات التي وُجدت في رين لُو شاتُو. وبخبرته في التَّاريخ، واللُّغة، وعلْم اللُّغة، كان هُوفيت العالِم الشَّابّ العَصْرَاني المثالي في عصره. هُو لم يكن قد تدرَّب في معهد سانت سُولبيس علىٰ أيَّة حال. بالعكس؛ كان قد تدرَّب في لُورين. في معهد مدرسة صهيُون:

«La Colline Inspirée»[1].

(1) (هُوفيت وُلد في ألزاس، في فرنسا، في 11 مايو/ مايس عام 1873. في عام 1884، بدأ دراساته في باريس، وتابعها في الحلقات البدائيَّة في نُوتردام دُو صهيُون؛ حيثُ كان يتمُّ إعداده للدُّخُول إلىٰ الكَنيسَة. بدأ التَّرَهْبُن في سانتجير لاتش، في هُولندا، ودخل النِّظامَ الدِّينيَّ المُسمَّىٰ «أُوبلاتس دُو ماري» في 1892. في لييج/ بلجيكا، نُصِّب كَاهناً عام 1898. ثُمَّ عمل كَمُبشِّر، أوَّلاً في كُورسيكا، ثُمَّ في فرنسا. بين عامَيْ 1903 ـ 1904، كان في رُومَا. عاد إلىٰ باريس عام 1914، ومات هُناك في مارس/ آذار 1946. كَتَبَ بغزارة، وخُصُوصاً للمجلات المُختصَّة بالتَّاريخ الدِّيني. هُو كان فصيحاً، وطليق اللِّسان باللُّغات السَّنسكريتيَّة، والعبْريَّة، واليُونانيَّة. في أحد المصادر يذكر دُو سيد بأنَّ مُؤرشف نظام هُوفيت كَتَبَ ما يلي: «هُوفيت هُو مُؤلِّف بعض الدِّراسات الهامَّة جدّاً عن الماسُونيَّة، التي أجرىٰ عليها دراسة مُحَدَّدة، وأنا كشفتُ عن عدد من مَخطُوطَاته... أمرتُ بأنْ يتمَّ وَضعُ الوثائق الشَّديدة الأهمِّيَّة في مكان آمن وسرِّيٌّ». المُؤلِّفون).

برُوتُوكُولات صهيُون

أحد أكثر الأدلَّة المُقنعة التي وجدناها عن وُجُود ونشاطات دَيْر صهيُون تعود إلىٰ أواخر القرن التَّاسع عشر.

إنَّ الدَّليل المَعْني مشهور بشكل كاف؛ لكنَّه لم يُعرَف كدليل. بالعكس؛ هُو ارتبط ـ دائماً ـ بأشياء أكثر شرَّاً. لعب دوراً سيِّئ السُّمعة في التَّاريخ الأخير، ومازال يميل إلىٰ إثارة تلك العواطف القاسية، والعداء المُرّ، والذّكريات المُرعبة، لدرجة أنَّ أكثر الكُتَّاب سُعداء برَفْضه رفضاً قاطعاً، إلىٰ حَدِّ أنَّ هذا الدَّليل ساهم ـ بشكل ملحوظ ـ في إجحاف ومُعاناة الإنسان، ردَّة فعل كهذه منطقيَّة جدَّاً. ولكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّه قد أُسيء استعمال الدَّليل بشكل إجرامي، أبحاثنا أَقْنَعَتْنَا بأنَّه أُسيء فَهْمه بجدِّيَّة أيضاً.

تقريباً؛ دور راسبُوتين في بلاط الإمبراطُور الرُّوسي نيقُولاس وزوجته أليكساندرا هُو معروف عُمُوماً[1]، لكنَّه لم يُعرَف عُمُوماً ـ علىٰ أيَّة حال ـ أنَّه كان هُناك جُيُوب باطنيَّة مُؤثِّرة وقويَّة في البلاط الرُّوسي قبل فترة طويلة من راسبُوتين.

أثناء الفترة ما بين عامَيْ **1890** و **1900**، إحدىٰ تلك الجُيُوب شكَّلت نفسها حول شَخْص معروف بـ«مسيُو فيليب»، وحول مُعلِّمه الخاصّ، الذي قام بزيارات دوريَّة إلىٰ البلاط الإمبراطُوري في بيترزبُورغ. والمُعلِّم الخاصُّ لمسيُو فيليب لم يكن إلَّا شَخْصاً اسمه بابُوس[2] الفرنسي الباطني،

(1) (غريغُوري ييفيمُوفيتش راسبُوتين 1872ـ1916: فلَّاح سايبيري، وأعلن بأنَّه رجل مُقدَّس، والذي أدَّت صداقته مع آخر إمبراطُور وإمبراطُورة لرُوسيا بتحطيم شُهرَة سُلالة رُومانُوف، وساهم بحُدُوث الثَّورة الرُّوسيَّة عام 1917. المُترجم).

(2) (بابُوس وُلد في إسبانيا في 13 يُوليُو/ تمُّوز من عام 1865. في عام 1887، انضمَّ إلىٰ الجمعيَّة الثِّيُوصُوفيَّة، لكنَّه ـ في عام 1888 ـ تركها؛ ليُؤسِّس جماعته الخاصَّة علىٰ المبادئ المارتنيَّة. في السَّنة نفسها؛ هُو كان أحد الأعضاء المُؤسِّسين لـ«نظام الصَّليب الوَرْدي القَبَلاني»، بالاشتراك مع بيلادان، وستانيسلاس دُو غُوتيه. في 1889، سويَّة مع هذَيْن الاثنَيْن، ومع فيلبير دُو ليلل ـ آدم. في عام 1891، عُقد «المجلس الأعلىٰ» للنِّظام المارتني في باريس مُعيِّناً بابُوس كَسَيِّد أعظم. في تلك الفترة ـ تقريباً ـ قام بابُوس بمُساعدة دُونيل بتأسيس الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الغنُوسطيَّة. في 1895، انسحب دُونيل، تاركاً الكَنيسَة في رعاية بابُوس، واثنَيْن آخرَيْن، تحت سُلطة البطريرك. بعد ذلك؛ ذهب دُونيل إلىٰ كركسُون. في هذه السَّنة نفسها؛ أصبح بابُوس عُضواً في «نظام الفجر الذَّهَبي» في محفل «آهاثور باريس». في عام 1890، كان بابُوس

الذي كان صديقاً لكُلٍّ من جُولز دوينل (مُؤسِّس كَنيسَة الكَاثَار الجديدة في لانغدُوق)، وبيلادان (الذي ادَّعىٰ أنَّه اكتشف قَبْر السَّيِّد المسيح)، وإيما كالف، وكلُود ديبُوسي.

باختصار؛ إحياء الغُمُوض الفرنسي في أواخر القرن التَّاسع عشر لم ينتشر - فقط - إلىٰ بيترزبُورغ، مُمثِّلوه تمتَّعوا - أيضاً - بالمنزلة المُميَّزة كمُستشارين شَخْصيَّيْن للقَيْصَر، وزوجته.

علىٰ أيَّة حال؛ الجيب[1] السِّرِّيُّ لبابُوس ومسيُو فيليب تعارض - بشكل فعَّال - مع بعض المصالح القويَّة الأُخْرَىٰ - الدُّوقة الكبيرة إليزابيث، علىٰ سبيل المثال، التي كانت مُصمِّمة علىٰ تنصيب عُملائها الشَّخصيَّيْن بالقُرب من العَرْش الإمبراطُوري. أحد أُولئك العُملاء للدُّوقة الكبيرة كان شَخْصاً خسيساً معروفاً للأجيال تحت اسم مُستعار؛ هُو سيرجي نيلُوس.

في فترةٍ ما حوالي عام **1903**، نيلُوس قدَّم للقَيْصَر وثيقةً مُثيرةً جدّاً للجَدَل؛ وثيقة شهدت علىٰ فَرَضيَّة مُؤامرة خطرة. ولكنْ؛ رغم أنَّ نيلُوس توقَّع امتنان القَيْصَر لذلك الاكتشاف، إلَّا أنَّه يبدو أنَّه قد خاب أمله بشكل شديد. فقد أعلن القَيْصَر أنَّ الوثيقة عمل شنيع، وبالتَّالي؛ أمر بإتلاف كافَّة نُسخها. وتمَّ إبعاد نيلُوس عن البلاط بحالة من الخزي.

بالطَّبع؛ الوثيقة - أو بأيِّ حال، نُسخة منها - كُتبَ لها النَّجاة. في عام **1903**، تمَّ نَشْرَها بأجزاء في صحيفة ما، ولكنَّها أخفقت في جَذْب أيِّ اهتمام عامٍّ.

في عام **1905**، نُشرَتْ ثانية، في هذه المرَّة كمُلحق لكتاب ألَّفه فيلسوف باطني مُميَّز اسمه «فلاديمير سُولُوفيُوف». في هذه الأثناء؛ بدأت بجَذْب الانتباه. في السَّنوات التَّالية؛ أصبحت تلك الوثيقة واحدة من أكثر الوثائق السَّيِّئة السُّمعة في القرن العشرين.

صديقاً لإيما كالف. في 1899، ذَهَبَ أحد أصدقائه المُقرَّبين - فيليب دُو ليُون - إلىٰ رُوسيا؛ ليُؤسِّس محفلاً مارتنيَّاً في البلاط الإمبراطُوري. في 1900، بابُوس بنفسه ذَهَبَ إلىٰ سانت بيترزبرغ؛ حيثُ أصبح مُستشار القَيْصَر والقَيْصَرَة. زار رُوسيا - علىٰ الأقلّ - في ثلاث مُناسبات، آخرها كان في عام 1906. أثناء هذه الفترة تعرَّف علىٰ راسبُوتين. أصبح بابُوس - لاحقاً - السَّيِّد الأعظم في فرنسا لنظام «الهَيكَل الشَّرقي»، ولمحفل ميسريم، وممفيس. تُوفِّي في 25 أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل 1916. المؤلِّفون).

(1) (هُنا؛ مجموعة مُميَّزة من الأشخاص الذين يعملون سرّاً ضمن مُجتمع أكبر، ولهم مصالح مُشتركة. المُترجم).

الوثيقة المَعنيَّة كانت كُرَّاسة، أو بتحديد أكثر، كانت نظاماً اجتماعيّاً وسياسيّاً مزعوماً. ظهرت الوثيقة تحت تشكيلة مُختلفة نوعاً ما من الأسماء، وأكثرها شُيُوعاً هُو «برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون». تلك البرُوتُوكُولات يُزعَم أنَّها صَدَرَتْ من مصادر يهُوديَّة بالتَّحديد. وعدد كبير من اللَّاساميِّيْن في ذلك الوقت كانوا مُقتنعين بأنَّها رهان علىٰ «مُؤامرة يهُوديَّة دوليَّة». في 1919، علىٰ سبيل المثال، وُزِّعَتْ علىٰ قُوَّات الجيش الأبيض الرُّوسي ـ وتلك القُوَّات، خلال السَّنَتَيْن التَّاليتَيْن، ذبحت حوالي ستِّين ألف يهُودي، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ ثورة 1917.

بحُلُول عام 1919، تمَّ توزيع البرُوتُوكُولات ـ أيضاً ـ من قِبَل ألفريد رُوزينبرغ، الذي أصبح ـ لاحقاً ـ باحث عِرْقيّاً رئيسيّاً، وداعية للحزب الاشتراكي الوَطَني في ألمانيا. في كتاب «كفاحي»، استعمل هِتْلَر البرُوتُوكُولات لإثارة إجحافه التَّعصُّبي الخاصّ، وقيل بأنَّه آمن ـ بشكل مُطلق ـ بصحَّتها.

في إنجلترا؛ البرُوتُوكُولات لاقت التَّرحيب الفوري في صحيفة «مُورنينغ بُوست». حتَّىٰ صحيفة «التَّايمز»، في 1921، عدَّتها بجدِّيَّة، ولم تعترف إلَّا مُؤخَّراً بأنَّها خاطئة. يُجمع الخُبراء اليوم ـ واستنتجنا بكُلِّ حقٍّ ـ بأنَّ البرُوتُوكُولات ـ علىٰ الأقلّ في شكلها الحالي ـ هي تزييف شرِّير، وماكر.

علىٰ الرّغم من هذا، هي مانزال تُوزَّع ـ في أمريكا اللَّاتينيَّة، وفي إسبانيا، وحتَّىٰ في بريطانيا ـ كدعاية مُعادية للسَّاميَّة.

تقترح البرُوتُوكُولات ـ باختصار ـ مُخطَّطاً، لا يقلُّ عن الهَيْمَنَة العالميَّة الكُلِّيَّة. عند القراءة الأُولىٰ؛ ستبدو بأنَّها مكيافلِّيَّة[1]، مُذكِّرة مكتبيَّة علىٰ سبيل المثال ـ لمجموعة من الأفراد مُصمِّمة لفَرْض نظام عالمي جديد، وأنْ يكونوا هُم ـ مع أنفسهم ـ الطُّغاة الأعلىٰ فيه. يُشير النَّصُّ إلىٰ مُؤامرة مُتعدِّدة الأقطاب، ذات مجسَّات كثيرة، كُرِّسَتْ لإثارة الشَّغَب، والفَوْضَويَّة، وإلىٰ إسقاط بعض الأنظمة القائمة، ولاختراق الماسُونيَّة، وغيرها من أمثالها من المُنظَّمات، وفي النِّهاية؛ السَّيطرة المُطلقة علىٰ

(1) (المكيافلِّيَّة: مذهب مكيافلِّي في السِّياسة؛ وبخاصَّة: النَّظَرَة القائلة بأنَّ السِّياسة لا علاقة لها بالأخلاق، وإنَّ كُلَّ وسيلة مهما تكن لا أخلاقيَّة، أو غير قويمة مُبرَّرةٌ من أجل تحقيق السُّلطان السِّياسي. المُترجم).

مُؤسَّسات العالم الغربي الاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة. ويُعلن المُؤلِّفون المجهولون للبرُوتُوكُولات ـ بشكل واضح ـ بأنَّهم «نظَّموا» الشُّعُوب بالكامل «طبقاً للخُطَّة السِّياسيَّة، التي لم يُجزرها أيُّ شَخْص أثناء العديد من القُرُون.

بالنِّسبة للقارئ الحديث؛ البرُوتُوكُولات قد تبدو بأنَّها كان ابتُكرَتْ من قِبَل مُنظَّمة ما خياليَّة؛ مثل مُنظَّمة «سبيكتر» (الشَّبح)؛ والتي هي خصم جيمس بُوند في روايات إيان فليمنج.

علىٰ أيَّة حال؛ عندما نُشرَتْ البرُوتُوكُولات لأوَّل مرَّة، زَعَمَتْ بأنَّها كانت قد أُعدَّت في الكُونجرس اليهُودي الدّولي، الذي اجتمع في بال[1] عام 1897. هذا الادِّعاء دُحض مُنْذُ مُدَّة طويلة. إنَّ النُّسخ الأقدم من البرُوتُوكُولات ـ علىٰ سبيل المثال ـ عُرف بأنَّها كُتبَتْ بالفرنسيَّة، واجتماع الكُونجرس في بال عام 1897، لم يتضمَّن ولا حتَّىٰ مندوباً فرنسيَّاً واحداً.

علاوةً علىٰ ذلك؛ نُسخة البرُوتُوكُولات معروف بأنَّها وُزِّعَتْ بحُدُود عام 1884؛ أيْ قبل 13 سنة من اجتماع الكُونجرس في بال.

نُسخة عام 1884، من البرُوتُوكُولات ظهرت في يدَيْ عُضو في المحفل الماسُوني، المحفل نفسه الذي كان فيه بابُوس عُضواً، وفيما بعد؛ أصبح سيِّداً أعظم.

علاوةً علىٰ ذلك؛ في هذا المحفل نفسه كان قد ظهر تقليد أُورمُوس لأوَّل مرَّة؛ الحكيم المصري الأُسطُوري، الذي دَمَجَ الألغازَ الوَثَنيَّة والمسيحيَّة، وأسَّس الصَّليب الوَرْدي.

العُلماء الحديثون صرَّحوا ـ بالواقع ـ بأنَّ البرُوتُوكُولات ـ في شكلها المنشور ـ تستند ـ جُزئيَّاً، علىٰ الأقلِّ ـ إلىٰ عمل هجائي، كُتب، وطُبع في جنيف عام 1864. العمل أُعدَّ كهُجُوم علىٰ نابُليُون الثَّالث من قِبَل رجل يُدعىٰ مُوريس جُولي، الذي سُجن بعد ذلك. قيل بأنَّ جُولي كان عُضواً في نظام الصَّليب الوَرْدي. سواء هذا كان حقيقيَّاً أم لا، هُو كان صديق فيكتُور هيوغُو؛ وهيوغُو، الذي شارك جُولي في كراهيَّته لنابُليُون الثَّالث، كان عُضواً في نظام الصَّليب الوَرْدي.

---

(1) («Basle») بال: مدينة في سويسرا الشّماليَّة. المُترجم).

وهكذا؛ يُمكن ـ بشكل حاسم ـ إثبات أنَّ البرُوتُوكُولات لم تصدر من الكُونجرس اليهُودي في بال عام 1897. إنْ كان الأمر كذلك، فالسُّؤال الذي يطرح نفسه ـ بوُضُوح ـ هُو من أين صَدَرَتْ تلك البرُوتُوكُولات؟.

العُلماء الحديثون رَفَضُوها لأنَّها تزييف بالكامل، ولأنَّها وثيقة مُزوَّرة كُلّيّاً، أُعدَّت لمصالح مُعادية للسَّاميَّة، تنكبُّ علىٰ تشويه سُمعة اليهُوديَّة.

بالرّغم من أنَّ البرُوتُوكُولات ـ بحَدِّ ذاتها ـ تُشكِّك ـ بقُوَّة ـ بمثل هذه النَّتيجة.

علىٰ سبيل المثال، هي تحتوي علىٰ عدد من الإشارات الغامضة؛ إشارات هي ـ بشكل واضح ـ ليست يهُوديَّة، لكنَّ هذه الإشارات ليست يهُوديَّة بشكل واضح جدّاً، لدرجة أنَّه لا يُمكن تصديق أنَّها من صُنْع مُزوِّر ما. ولا حتَّىٰ أيّ مُزوِّر مُعاد للسَّاميَّة، وإنْ حصل علىٰ بعض الاستخبارات، من المُمكن أنْ يكون قد أعدَّ مثل هذه الإشارات لكي يُشوِّه سُمعة اليهُوديَّة. ولا أحد كان سيعتقد بأنَّ هذه الإشارات هي من مصدر يهُودي.

وهكذا، علىٰ سبيل المُقارنة، نصُّ البرُوتُوكُولات ينتهي، ويصل إلىٰ إقرار وحيد، «وُقِّع من قِبَل مُمثِّلي دَيْر صهيُون من الدَّرجة الثَّالثة والثّلاثين».

لماذا قد يقوم المُزوِّر المُعادي للسَّاميَّة باختلاق بيان كهذا؟!

لماذا لم يُحاول تجريم كُلِّ اليهُود، بدلاً من بضعة منهم؛ البعض الذين يُشكِّلون «مُمثِّلي دَيْر صهيُون من الدَّرجة الثَّالثة والثّلاثين»؟!

لماذا مثلاً لم يدَّعِ أنَّ الوثائق كانت قد وُقِّعَتْ من قِبَل مُمثِّلين من الكُونجرس اليهُودي الدّولي؟

في الحقيقة؛ «مُمثِّلو دَيْر صهيُون من الدَّرجة الثَّالثة والثّلاثين» يبدو بأنَّهم ـ بصُعُوبة ـ يُشيرون إلىٰ اليهُوديَّة علىٰ الإطلاق، أو إلىٰ أيِّ «مُؤامرة يهُوديَّة دوليَّة»، وإنْ كان هُناك أيُّ شيء، فلا يبدو أنَّهم يُشيرون سوىٰ إلىٰ شيء ماسُوني علىٰ وجه التَّحديد. والدَّرجة الثَّالثة والثَّلاثون في الماسُونيَّة هي تلك الدَّرجة التي تُسمَّىٰ بـ«التَّقيُّد الصَّارم»؛ وهُو النِّظام الذي قدَّمه هُوند للماسُونيَّة بناءً علىٰ رغبة «رُؤسائه المجهولين». أحدهم يبدو أنَّه كان تشارلز رادكليف.

تحتوي البرُوتُوكُولات علىٰ شُذُوذ آخر أكثر وُضُوحاً؛ مثلاً، يتكلَّم النَّصُّ ـ مراراً وتكراراً ـ عن قُدُوم «المملكة الماسُونيَّة»، و«ملك دم صهيُون» الذي سيترأَّس تلك «المملكة الماسُونيَّة». يُصرِّح النَّصُّ بأنَّ الملك المُستقبلي سيكون من «الجُذُور السُّلاليَّة للملك داود». يُؤكِّد بأنَّ «ملك اليهُود سيكون البَابَا الحقيقي»، و «بَطْرِيَرْك الكَنيسَة الدّوليَّة». وينتهي النَّصُّ بأكثر الأساليب غُمُوضاً «بعض الأعضاء من ذُرِّيَّة داود سيُعدُّون المُلُوكَ، وَوَرَثَتَهُم... فقط؛ الملك والثَّلاثة الذين رعوه سيعرفون مَنْ هُو القادم».

كتعبير عن الفِكْر اليهُودي، إنْ كان حقيقيَّاً، أو مُصنَّعاً، مثل هذه البيَانَات تبدو سخيفة بوُضُوح تامٍّ.

مُنْذُ أوقات التَّوراة ليس هُناك أيُّ ملك ظهر في التَّقليد اليهُودي، والمبدأ ذاته من المُلُوكيَّة أصبح ـ تماماً ـ غير ذي علاقة. مفهوم الملك هُو عديم الأهمِّيَّة لليهُود مُنْذُ عام **1897**، وبنفس المقدار ليهُود اليوم؛ ولا مُزوِّر يُمكنه أنْ يجهل هذه الحقيقة.

في الحقيقة؛ الإشارات المُقتبَسَة تبدو أنَّها مسيحيَّة، لدرجة أكثر من كونها يهُوديَّة. في الألفيَّتَيْن الماضيَتَيْن؛ «الملك الوحيد لليهُود» كان السَّيِّد المسيح بحَدِّ ذاته، والسَّيِّد المسيح ـ طبقاً للإنجيل ـ كان «من جُذُور سُلالة داود».

إنْ قام المرء بتلفيق وثيقة، وَنَسَبَهَا إلىٰ مُؤامرة يهُوديَّة، فلماذا تتضمَّن وثيقته أصداء وإشارات مسيحيَّة بوُضُوح شديد؟!

لماذا تحدَّث عن مفهوم مسيحي مُحَدَّد واستثنائيّ كـ«البَابَا»؟!

لماذا تكلَّم عن «كَنيسَة دوليَّة» بدلاً من «الكَنِيْس الدّولي»، أو الهَيكَل الدّولي؟!

ولماذا تضمَّنت الوثيقة تلميحاً مُبهماً إلىٰ «الملك والثَّلاثة الذين رعوه»، والتي هي أقلُّ إيحاء لليهُوديَّة والمسيحيَّة منه إلىٰ الجمعيَّات السِّرِّيَّة لـ«يُوهان فالانتاين أندريا»، ولـ«تشارلز نُودييِر»؟!

إنْ كانت البرُوتُوكُولات قد صَدَرَتْ ـ بشكل كُلِّيٍّ ـ من خيال داعية مُعاد للسَّاميَّة، فمن الصَّعب تخيُّل وُجُود داعية بهذه الحماقة، وهذا الجهل، وعدم الاطِّلاع.

علىٰ أساس البحث المُطوَّل والمُنظَّم وصلْنَا إلىٰ بعض الاستنتاجات حول برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون؛ هي كالتّالي:

1) كان هُناكَ نصٌّ أصلي، والذي ارتكزت عليه نُسخة البرُوتُوكُولات التي نُشرَتْ. هذا النَّصُّ الأصلي لم يكن مُزيَّفاً، بالعكس، هُو كان أصيلاً، لكنْ؛ لا علاقة له باليهُوديَّة، أو بـ«مُؤامرة يهُوديَّة دوليَّة». بالأحرىٰ؛ أُصدِرَ من مُنظَّمة ماسُونيَّة ما، أو من جمعيَّة سرِّيَّة مُوجَّهة ماسُونيّاً، تضمَّنت الكلمة «صهيُون».

2) النَّصُّ الأصلي الذي أُسنِدَتْ إليه النُّسخة المنشورة للبرُوتُوكُولات لم يكن ـ بالضَّرورة ـ استفزازيّاً، أو تحريضيّاً في لُغته، لكنَّه ـ قد ـ يتضمَّن ـ لدرجة كبيرة ـ برنامجاً لاكتساب السُّلطة، ولاختراق الماسُونيَّة، والسَّيطرة علىٰ المُؤسَّسات الاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة. مثل هذا البرنامج من المُمكن أنْ يتوافق ـ بشكل مثالي ـ مع الجمعيَّات السِّرِّيَّة في عصر النَّهضَة، بالإضافة إلىٰ جماعة القُربان المُقَدَّس، ومُؤسَّسات أندريا، ونُودير.

3) النَّصُّ الأصلي الذي أُسنِدَتْ إليه النُّسخة المنشورة للبرُوتُوكُولات وَقَعَ في يدَيْ سيرجي نيلُوس. نيلُوس ـ في بادئ الأمر ـ لم يكن ينوي تشويه سُمعة الدّيانة اليهُوديَّة. بالعكس؛ جَلَبَهُ إلىٰ القَيْصَر بهدف تكذيب المجموعة السِّرِّيَّة (الجيب) الباطنيَّة في البلاط الإمبراطُوري؛ مجموعة بابُوس، ومسيُو فيليب، والآخرين، الذين كانوا أعضاء الجمعيَّة السِّرِّيَّة المَعنيَّة. قبل القيام بذلك من شبه المُؤكَّد أنَّه عالج اللُّغة، جاعلاً إيَّاها أكثر سُمِّيَّة، وتحريضاً، بشكل أكبر بكثير ممَّا كانت عليه أصلاً. عندما رَفَضَهُ القَيْصَر، نيلُوس ـ آنذاك ـ أصدر البرُوتُوكُولات ليتمَّ نَشْرها بشكلها المُعالج. فشلت في هدفها الأساسي في تعريض بابُوس ومسيُو فيليب للخطر، لكنَّها مازالت تُؤدِّي غرضاً ثانويّاً؛ ذلك الغرض الذي تبنَّتْهُ مُعاداة السَّاميَّة. بالرّغم من أنَّ الأهداف الرَّئيسة لنيلُوس كانت بابُوس، ومسيُو فيليب، إلَّا أنَّه كان ـ أيضاً ـ مُعادياً لليهُوديَّة.

4) بالتَّالي؛ النُّسخة المنشورة من البرُوتُوكُولات ليست نصّاً مُلفَّقاً بالكامل. هي ـ بالأحرىٰ ـ نصٌّ مُعدَّل بشكل جَذْري، لكنْ؛ علىٰ الرّغم من التَّعديلات يُمكن كَشْفُ بعض آثار النُّسخة الأصليَّة، كما في النُّصُوص المُعاد كتابتها، أو كما في عبارات التَّوراة. هذه الآثار ـ التي تُشير إلىٰ الملك، والبَابَا، والكَنيسَة الدّوليَّة، وصهيُون ـ رُبَّما كانت تعني القليل، أو لا تعني أيَّ شيء بالنِّسبة لنيلُوس.

بالتَّأكيد؛ هُو لم يكن قد اخترعها بنفسه. لكنْ؛ إنْ هي كانت هُناك مُسبقاً، فليس لديه أيُّ سبب ـ نَظَرَاً لجهله ـ لاستئصالها. وبما أنَّ مثل هذه الآثار لا تمتُّ بصلة لليهُوديَّة، إلَّا أنَّها قد تمتُّ بصلة كبيرة إلىٰ جمعيَّة سرِّيَّة ما. كما اكتشفنا بعد ذلك، هي كانت ـ ومازالت ـ ذات أهمِّيَّة عُظْمَىٰ لدَيْر صهيُون.

مُنظَّمة هايرُون دُو فالدُور

(THE HIERON DU VAL D'OR)

أثناء مُتابعتنا لأبحاثنا المُستقلَّة، وثائق جديدة من «وثائق الدَّيْر» واصلت الظُّهُور. البعض منها ـ الأعمال المطبوعة بشكل خاصٍّ؛ مثل الملفَّات السِّرِّيَّة، واعتزمت التَّوزيع المحدود ـ توفَّرت إلينا من خلال مكاتب الأصدقاء في فرنسا، أو من خلال المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة. ووثائق أُخرىٰ ظهرت علىٰ شكل كُتُب، نُشِرَتْ، وأُصدرت، حديثاً في الأسواق، وللمرَّة الأُولىٰ.

في البعض من هذه الأعمال كان هُناك معلومات إضافيَّة لفترة أواخر القرن التَّاسع عشر، وبشكل مُحَدَّد عن بيرينجر سُونير. طبقاً لمثل هذه الرِّوايات «المُحدَّثة»؛ سُونير لم يكتشف المَخطُوطَات المُقدَّرَة في كَنيسَته بالمُصادفة. بالعكس، قيل بأنَّه أُرشِدَ إليها من قِبَل مبعوثي دَيْر صهيُون، الذين زاروه في رين لُو شاتُو، وجنَّدوه كمُستَخدم عندهم.

في أواخر عام 1916، ذُكِرَ أنَّ سُونير تحدَّىٰ مبعوثي دَيْر صهيُون، وتشاجر معهم. إنْ كان هذا حقيقيَّاً، فإنَّ موت راعي الأبرشيَّة في يناير/ كانون الثَّاني من عام 1917، يكتسب نوعيَّة أكثر شرَّاً من النَّوعيَّة، التي تُنسَبُ إليه عُمُوماً. قبل عشرة أيَّام من موته؛ كان سُونير في صحَّة تامَّة.

علىٰ الرَّغم من هذا، قبل عشرة أيَّام من موته، تمَّ تجهيز تابوت له. إنَّ إيصال التَّابوت الذي حمل تاريخ 12 يناير/ كانون الثَّاني 1917، مكتوب باسم مُستشارة ومُدبِّرة منزل سُونير «ماري دينرنُود».

المنشور الأكثر حداثة والأكثر موثوقيَّة ـ علىٰ ما يبدو ـ توسَّع، وأسهب في الحديث عن قصَّة سُونير، ويبدو أنَّه يُؤكِّد ـ علىٰ الأقلِّ بشكل جُزئي ـ الرِّواية التي لَخَصَتْ أعلاه.

طبقاً لهذا المنشور؛ سُونير بنفسه لم يكن إلَّا دُمية، ودوره في لُغز رين لُو شاتُو كـان مُبالغـاً فيـه كثيراً. القُوَّة الحقيقيَّة خلف الأحداث في القرية الجَبَليَّة قيل بأنَّها كانت من صـديق سُـونير، آبي هنـري بُوديت، راعي أبرشيَّة القرية المُجاورة رين لُو بينز.

قيل إنَّ بُوديت زوَّد سُونير بكُلِّ ماله؛ ما مجموعه ثلاثة عشر مليـون فرنـك بـين عـامَيْ **1887** و **1915**. وقيل إنَّ بُوديت وجَّه سُونير للقيام بمشاريعه المُختلفة ـ الأشغال العامَّة، وبنـاء فـيلا بيـت عَنيا، وبُرج ماجدلا. يُقال ـ أيضاً ـ إنَّه أشرف علىٰ إعادة بناء الكَنيسَة في ريـن لُـو شـاتُو، وإنَّـه صـمَّم لسُونير مراحل الصَّلْب المُحيِّرة كنُسخة مُصوَّرة، أو مُكَافئ بَصَري لكتاب غامض يملكه.

طبقاً لهذا المنشور الأخير؛ سُونير بقي ـ جَوْهَريّاً ـ جاهلاً بالسِّرِّ الحقيقي، الذي عمل كحامٍ له، إلىٰ أنْ قام بُوديت في سَكَرَات موته بعَهْد ذلك السِّرِّ إلىٰ سُونير في مارس/ آذار **1915**.

طبقاً للمنشور نفسه؛ ماري دينرنُود، مُدبِّرة منزل سُـونير، كانـت ـ في الحقيقـة ـ مندوبـة مـن بُوديت. يُفتَرَض أنَّه ـ من خلالها ـ كان بُونديت يُرسل الأوامر إلىٰ سُونير. وإليهـا؛ توجَّـب دَفْـع كُـلِّ المال، أو بالأحرىٰ، أكثر المال.

بالنِّسبة لبُوديت، بين عامَيْ **1885** و **1901**، قيـل بأنَّـه دَفَـعَ **7655250** فرنكـاً إلىٰ أُسـقُف كركسُون، الرَّجل الذي ـ علىٰ نفقته الخاصَّة ـ بعث سُونير إلىٰ باريس بالمَخْطُوطَات.

الأُسقُف ـ أيضاً ـ يبدو ـ بذلك ـ أنَّه كان ـ بشكل جَوْهَري ـ مُستخدماً عنـد بُوديـت. يبـدو ذلـك مُتناقضاً جدَّاً؛ أنْ يكون أُسقُفاً إقليميَّاً مُهمَّاً كمُستخدم مأجور عند كَاهن أبرشيَّة مُتواضعة معزولة.

ومَنْ كان الكَاهن الأبرشي نفسه؟!

لمَنْ كان بُوديت يعمل؟!

ما المصلحة التي كان يُمثِّلها؟!

ما الذي مَنَحَهُ السُّلطة في تنفيذ خدمات رئيسه الكَنَسي، والالتزام بالصَّمت حيالها؟!

ومَن الذي يُمكن أنْ يكون قد مدَّه بتلك الموارد الماليَّة الهائلة، التي وُزِّعَتْ بشكل مُسرف جدَّاً؟!

هذه الأسئلة لم يتمّ الإجابة عنها بشكل واضح، لكنَّ الجواب الضِّمني ـ بشكل ثابت ـ هُو دَيْر صهيُون.

المزيد من النُّور سُلِّط علىٰ المسألة عبر عمل أدبي آخر، والذي ـ كأسلافه ـ بدا أنَّه كان يسحب المعلومات من «مصادر مُمَيَّزة».

إنَّ العمل المَعْني هُو «Le Trésor die triangle d'or» (كَنز المُثلَّث الذَّهَبي) للكاتب جينلُوك تشُوميل، والذي نُشِرَ عام **1979**.

طبقاً لتشُوميل؛ عدد من رجال الدِّين اشتركوا في لُغز رين لُو شاتُو؛ سُونير، وبُوديت، ومن المُحتمل تماماً آخرون ـ مثل هُوفيت، وعمّ هُوفيت في معهد سانت سُولبيس، وأُسقُف كركسُون ـ كانوا قد انتسبوا إلىٰ شكل من أشكال المذهب الماسُوني الإسكتلندي.

هذه الماسُونيَّة ـ يُصرِّح تشُوميل ـ اختلفت عن أكثر الأشكال الأُخرَىٰ بكَونها كانت «أرستُوقراطيَّة، وسِحْرِيَّة، ومسيحيَّة». باختصار؛ هي لم تضمّ ـ كالعديد من المذاهب الماسُونيَّة، بشكل أساسي ـ المُفكِّرين والمُلحدين الأحرار.

بالعكس، يبدو بأنَّها كانت دينيَّة جدَّاً، ومُوجَّهة بطريقة سِحْرِيَّة؛ وتشدد علىٰ تدرُّج اجتماعيٍّ، وسياسيٍّ مُقَدَّس، وعلىٰ نظام مُقَدَّس، وعلىٰ خُطَّة كَونيَّة أساسيَّة.

وطبقاً لتشُوميل؛ الدَّرجات، أو المرتبات، الأعلىٰ في هذه الماسُونيَّة، هي الدَّرجات، أو المرتبات الأدنىٰ في دَيْر صهيُون.

في أبحاثنا الخاصَّة؛ واجهنا نوعاً من الماسُونيَّة التي يصفها تشُوميل. في الواقع؛ وَصْفُ تشُوميل يُمكن أنْ يُطبَّق ـ بسُهُولة ـ علىٰ المذهب الإسكتلندي الأصلي، الذي قُدِّم من قِبَل تشارلز رادكليف، وشُركائه.

ماسُونيُّو رادكليف، والماسُونيُّون الذين وصفهم تشُوميل، يُمكن أنْ يُقبَل بأنَّهم كانوا كَاثُوليكاً مُؤمنين، بالرّغم من الإدانة البَابَويَّة، سواء كانوا يعقُوبيِّيْ القرن الثَّامن عشر، أو الكَهَنَة الفرنسيِّيْن في القرن التَّاسع عشر. في الحالتَيْن، تمَّ الرَّفْضُ من قِبَل رُومَا، وبشكل عنيف تماماً.

علىٰ الرّغم من هذا، الأفراد المُنتسبون يبدو أنَّهم لم يستمرُّوا فحسب بأنْ يعتبروا أنفسهم كمسيحيِّيْن وكَاثُوليك؛ يبدو ـ أيضاً، علىٰ أساس من الدَّليل المُتوفِّر ـ أنَّهم تلقّوا تعمُّقاً مُبهجاً ورئيسيّاً في الدِّين؛ تعمُّقاً جعلهم ينظرون إلىٰ أنفسهم بأنَّهم أكثر إيماناً من البَابَويَّة.

بالرّغم من أنَّ تشُومبيل هُو غامض ومُحيِّر، يُشير ـ ضمناً بقُوَّة ـ إلىٰ أنَّه في السَّنوات التي سبقت عام **1914**، الماسُونيَّة التي كان فيها بُوديت وسُونير أعضاء، اندمجت بمُؤسَّسة باطنيَّة أُخرىٰ.

هذه المُؤسَّسة ـ لربَّما ـ تُوضِّح البعض من الإشارات المُحيِّرة إلىٰ الملك، الذي وَرَدَ في برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون، خُصُوصاً إنْ كانت القُوَّة الحقيقيَّة وراء تلك المُؤسَّسة الأُخرَىٰ هي ـ أيضاً ـ دَيْر صهيُون، كما أضاف تشُومبيل في تصريحه.

المُؤسَّسة المَعنيَّة تُدعىٰ هايرون دُو فالدُور «**Hiéron du Val d'Or**»، والتي يبدو أنَّ اسمها شُكِّل بإجراء تبديلات حَرْفيَّة لموقع اسمه «أُورفال» (**Orval**)[1]. هايرون دُو فالدُور كانت جمعيَّة سياسيَّة سرِّيَّة، أُسِّسَتْ ـ كما يبدو ـ حوالي عام **1873**.

يبدو بأنَّها تشاركت كثيراً مع المُنظَّمات الباطنيَّة الأُخرَىٰ في تلك الفترة. علىٰ سبيل المثال؛ تأكيد مُميَّز علىٰ الهندسة المُقدَّسَة، وعلىٰ مواقع مُقَدَّسَة مُختلفة. كان هُناك إصرار علىٰ الحقيقة الباطنيَّة، أو الغنُوسطيَّة المُضمَّنة في المواضيع الأُسطُوريَّة.

كان هُناك اهتمام كبير بالأُصُول البَشَريَّة، والأجناس، واللُّغات، والرُّمُوز، كما هُو الحال في الثِّيُوصُوفيَّة. وكالعديد من الطَّوائف والمُجتمعات الأُخرَىٰ في ذلك الوقت، هايرون دُو فالدُور كان مذهباً مسيحيّاً، و«ما وراء المسيحي» بآن واحد.

مثلاً، شدَّد علىٰ أهمِّيَّة القلب المُقَدَّس، علىٰ الرّغم من أنّه ربط القلب المُقَدَّس برُمُوز أُخرىٰ قبل المسيحيَّة. أراد أنْ يُوفِّق بين الألغاز الوَثَنيَّة والمسيحيَّة، كما قيل إنَّ أُورمُوس الأُسطُوري فعل ذلك.

---

(1) (قرية فرنسيَّة قديمة. المُترجم).

وأعطىٰ أهمِّيَّة خاصَّة للفكْر الدَّرْويدي[1]، والذي يُعدُّ ـ في نَظَر العديد من الخُبراء الحديثين ـ أنَّه فيثاغُوري[2] بشكل جُزئي.

كُلُّ هذه المواضيع تُشير إلىٰ العمل المنشور لصديق سُونير، آبي هنري بُوديت.

أثبتت مُنظَّمة هايرون دُو فالدُور أنَّها ذات صلة بتحقيقنا، بمُوجب صياغتها لما يدعوه تشُوميل بالجَغرافيا السِّياسيَّة الباطنيَّة، ونظام قيادي عالمي.

مُفسِّرٌ للمُصطلحات الأكثر عالميَّة، هذا ـ في الواقع ـ يستلزم تأسيس إمبراطُوريَّة رُومانيَّة مُقَدَّسَة جديدة في أُورُوبا القرن التَّاسع عشر، إمبراطُوريَّة رُومانيَّة مُقَدَّسَة، مبعوثة مُجدَّداً، ومُعاداً تكوينها ثانية، دولة عِلْمانِيَّة وحَّدت كُلَّ النَّاس، واستندت ـ في النِّهاية ـ إلىٰ أُسُس رُوحيَّة، بدلاً من الأُسُس الاقتصاديَّة، أو السِّياسيَّة، أو الاجتماعيَّة.

علىٰ خلاف سَلَفها، هذه الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة الجديدة كانت ستُصبح «مُقَدَّسَة» بصدق، و«رُومانيَّة» بصدق، و«إمبراطُوريَّة» بصدق، بالرّغم من أنَّ المعنىٰ المُعيَّن لهذه التَّعابير كان سيختلف ـ بشكل حاسم ـ عن المعنىٰ الذي قبلتْهُ التَّقاليد والأعراف.

مثل هذه الدّولة كانت ستُدرك الحُلمَ الذي استمرَّ لقُرُون عن «مملكة سماويَّة» علىٰ الأرض، نُسخة أرضيَّة طبق الأصل، أو صُورة مُطابقة لنظام الكَون، وانسجامه، وتدرُّجه. كانت ستُحقِّق الفَرَضيَّة السِّحْرِيَّة القديمة «كما هُو فوق، هُو تحت».

لم يكن الأمر جُملة يُوطُوبي، أو ساذج. بالعكس، كان معقولاً ـ عن بُعْد علىٰ الأقلِّ ـ ضمن سياق أواخر أُورُوبا القرن التَّاسع عشر.

طبقاً لتشُوميل؛ أهداف هايرون دُو فالدُور كانت:

---

(1) (دين الدَّرْويديِّيْن: دين سلْتي قديم، كانت تُعبَد فيه قوىٰ الطَّبيعة، والكَهَنَة كانوا ـ أيضاً ـ أنبياء، وشُعراء، أو يُقال إنَّ الدِّين الحديث اشتُقَّ منه. المُترجم).

(2) (نسبة إلىٰ مذهب الفيلسوف فيثاغُورث، والمُصلح الدِّيني بيرُّو، الذي يُنسَب إليه مذهب التَّناسخ، والمُنادي بمذهب الشَّكِّ. المُترجم).

حُكُومة دينيَّة؛ حيثُ الأُمم سوف لن تكون أكثر من مُقاطعات، زُعماؤها ليسوا إلَّا حُكَّاماً في خدمة حُكُومة عالم خفي، مُتألِّف من النُّخبة. لأُورُوبا؛ نظام الملك العظيم هذا أشار إلىٰ هيمنة مُضاعفة للبَابَويَّة، والإمبراطُوريَّة، للفاتيكان، وآل هابسبرغ[1]؛ الذين ـ لرُبَّما ـ كانوا ذراع الفَاتيكَان الأيمن.

في القرن التَّاسع عشر ـ بالطَّبع ـ آل هابسبرغ كانوا مُكَافئين لآل لُورين. مُصطلح «الملك العظيم» سيكون قد حقَّق إنجازاً لنُبُوءات ناسترادامُوس. وهُو ـ أيضاً ـ حقَّق ـ علىٰ الأقلِّ، نوعاً ما ـ مُخطَّط مُناصرة المَلَكيَّة المرسومة في برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون.

في الوقت نفسه؛ إدراك مُخطَّط فخم جدَّاً كهذا سيستلزم ـ بشكل واضح ـ عدداً من التَّغييرات في المُؤسَّسات الموجودة. الفَاتيكَان ـ علىٰ سبيل المثال ـ من المُفترض أنْ تكون قد أصبحت فَاتيكَان مُختلفة جدَّاً من تلك التي تُوجد في رُومَا آنذاك. وآل هابسبرغ كان يُمكن أنْ يكونوا أكثر من رُؤساء دُول إمبراطُوريِّيْن. هُم كانوا سيُصبحون ـ في الواقع ـ سُلالة المُلُوك الكَهَنَة، مثل فراعنة مصر القديمة، أو مثل المسيح المُنتظَر المُتوقَّع من قِبَل اليهُود في بداية العصر المسيحي.

تشُوميل لا يُوضِّح المدىٰ الذي اشترك به آل هابسبرغ بشكل فعَّال بأنفسهم في هذه الخُطط السِّرِّيَّة الطَّموحة. علىٰ أيَّة حال؛ هُناك كَمِّيَّة من الأدلَّة ـ بما فيها زيارة أرشيدُوق هابسبرغ إلىٰ رين لُو شاتُو ـ التي تشهد ـ علىٰ ما يبدو ـ علىٰ مُلابسة ما علىٰ الأقلِّ. لكنْ؛ أيَّاً كانت الخُطط الجارية، قد تمَّ إحباطها من خلال الحرب العالميَّة الأُولىٰ، التي ـ من بين الأشياء الأُخرَىٰ ـ أسقطت آل هابسبرغ من السُّلطة.

كما أوضح تشُوميل، إنَّ أهداف هايرون دُو فالدُور ـ أو دَيْر صهيُون ـ أضفت أهمِّيَّة منطقيَّة مُعيَّنة ضمن السِّياق الذي اكتشفناه. فقد سلَّطت ضوءاً جديداً علىٰ برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون. اتَّفقت مع الأهداف المنصوصة للجمعيَّات السِّرِّيَّة المُختلفة، بما فيها جمعيَّات تشارلز رادكيلف، وتشارلز نُودير.

الأهمُّ من كُلِّ ذلك، توافقت مع التَّطلُّعات السِّياسيَّة التي تتبَّعناها في آل لُورين عبر القُرُون.

---

(1) (العائلة المالكة الألمانيَّة، التي برزت بين القرنَيْن الثَّالث عشر، والعشرين، في أُورُوبا، والتي تضمَّنت حُكَّام الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة، وإسبانيا، وهنغاريا، والنِّمسا. المُترجم).

لكنْ؛ إنْ كانت أهداف هايرُون دُو فالدُور أثارت أهمِّيَّة منطقيَّة، فإنَّها لم تصنع أهمِّيَّة سياسيَّة عمليَّة. تَسَاءَلْنَا:

ما الأُسُس التي اعتمد عليها آل هابسبرغ ليُؤكِّدوا حقَّهم في اعتبار أنفسهم سُلالة المُلُوك الكَهَنَة؟!

ما لم يحظَ بدَعْم شعبي ساحق، فمن المُحتمل أنَّ مثل هذا الحقِّ لم يكن بالإمكان الدِّفاع عنه أمام الحُكُومة الجُمهُوريَّة في فرنسا، ناهيكَ عن ذِكْر السُّلالات الإمبراطُوريَّة آنذاك، التي كانت تترأَّس رُوسيا، وألمانيا، وبريطانيا.

وكيف تمَّ الحُصُول علىٰ الدَّعْم الشَّعبي الضَّروري؟!

ضمن سياق الحقائق السِّياسيَّة في القرن التَّاسع عشر، يبدو مثل هذا المُخطَّط ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّه سخيف عَمَليّاً، رغم أنَّه مُتناغم منطقيّاً.

استنتجنا أنَّنا ـ لرُبَّما ـ أَسَأْنَا فَهْم هايرُون دُو فالدُور ـ أو ـ رُبَّما ـ تشُوميل أساء فَهْم هايرُون دُو فالدُور ـ أو ـ رُبَّما ـ أعضاء هايرُون دُو فالدُور كانوا ـ ببساطة ـ مجانيناً بعض الشَّيء.
إلىٰ أنْ حصلنا علىٰ معلومات إضافيَّة؛ لم يكن لدينا خيار إلَّا أنْ نُهمل المسألة. في هذه الأثناء؛ ركَّزنا انتباهنا إلىٰ الحاضر، لنُقرِّر سواء دَيْر صهيُون موجود اليوم، أم لا. وكما اكتشفنا ـ بشكل سريع ـ هُو كذلك. أعضاؤه لم يكونوا مجانين علىٰ الإطلاق، وكانوا مُنهمكين ـ في فترة ما بعد حرب القرن العشرين ـ في برنامج مُشابه تماماً لذلك الذي انهمك فيه هايرُون دُو فالدُور في القرن التَّاسع عشر.

طبقاً لتشُوميل؛ أهداف هايرون دُو فالدُور كانت:

حُكُومة دينيَّة؛ حيثُ الأُمم سوف لن تكون أكثر من مُقاطعات، زُعماؤها ليسوا إلَّا حُكَّاماً في خدمة حُكُومة عالم خفي، مُتألِّف من النُّخبة. لأُورُوبا؛ نظام الملك العظيم هذا أشار إلىٰ هيمنة مُضاعفة للبَابَويَّة، والإمبراطُوريَّة، للفاتيكان، وآل هابسبرغ[1]؛ الذين ـ لرُبَّما ـ كانوا ذراع الفَاتيكَان الأيمن.

(1) (العائلة المالكة الألمانيَّة، التي برزت بين القرنَيْن الثَّالث عشر، والعشرين، في أُورُوبا، والتي تضمَّنت حُكَّام الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقدَّسة، وإسبانيا، وهنغاريا، والنِّمسا. المُترجم).

في القرن التَّاسع عشر - بالطَّبع - آل هابسبرغ كانوا مُكَافئين لآل لُورين. مُصطلح «الملك العظيم» سيكون قد حقَّق إنجازاً لنُبُوءات ناستراداموس. وهُو - أيضاً - حقَّق - علىٰ الأقلّ، نوعاً ما - مُخطَّط مُناصرة المَلَكيَّة المرسومة في بُروتُوكُولات شُيُوخ صهيُون.

في الوقت نفسه؛ إدراك مُخطَّط فخم جدّاً كهذا سيستلزم - بشكل واضح - عدداً من التَّغييرات في المُؤسَّسات الموجودة. الفَاتيكَان - علىٰ سبيل المثال - من المُفترض أنْ تكون قد أصبحت فَاتيكَان مُختلفة جدّاً من تلك التي تُوجد في رُومَا آنذاك.

وآل هابسبرغ كان يُمكن أنْ يكونوا أكثر من رُؤساء دُول إمبراطُوريِّيْن. هُم كانوا سيُصبحون - في الواقع - سُلالة المُلُوك الكَهَنَة، مثل فراعنة مصر القديمة، أو مثل المسيح المُنتظَر المُتوقَّع من قِبَل اليهُود في بداية العصر المسيحي.

تشُوميل لا يُوضِّح المدىٰ الذي اشترك به آل هابسبرغ بشكل فعَّال بأنفسهم في هذه الخُطط السِّرِّيَّة الطَّموحة. علىٰ أيَّة حال؛ هُناك كَمِّيَّة من الأدلَّة - بما فيها زيارة أرشيدُوق هابسبرغ إلىٰ رين لُو شاتُو - التي تشهد - علىٰ ما يبدو - علىٰ مُلابسة ما علىٰ الأقلّ.

لكنْ؛ أيّاً كانت الخُطط الجارية، قد تمَّ إحباطها من خلال الحرب العالميَّة الأُولىٰ، التي - من بين الأشياء الأُخْرَىٰ - أسقطت آل هابسبرغ من السُّلطة.

كما أوضح تشُوميل، إنَّ أهداف هايرون دُو فالدُور - أو دَيْر صهيُون - أضفت أهمِّيَّة منطقيَّة مُعيَّنة ضمن السِّياق الذي اكتشفناه. فقد سلَّطت ضوءاً جديداً علىٰ بُروتُوكُولات شُيُوخ صهيُون.

اتَّفقت مع الأهداف المنصوصة للجمعيَّات السِّرِّيَّة المُختلفة، بما فيها جمعيَّات تشارلز رادكيلف، وتشارلز نُودير. الأهمُّ من كُلِّ ذلك، توافقت مع التَّطلُّعات السِّياسيَّة التي تتبَّعناها في آل لُورين عبر القُرُون.

لكنْ؛ إنْ كانت أهداف هايرُون دُو فالدُور أثارت أهمِّيَّة منطقيَّة، فإنَّها لم تصنع أهمِّيَّة سياسيَّة عمليَّة. تَسَاءَلْنَا:

ما الأُسُس التي اعتمد عليها آل هابسبرغ ليُؤكِّدوا حقَّهم في اعتبار أنفسهم سُلالة المُلُوك الكَهَنَة؟!

ما لم يحظَ بدَعْم شعبي ساحق، فمن المُحتمل أنَّ مثل هذا الحقّ لم يكن بالإمكان الدِّفاع عنه أمام الحُكُومة الجُمهُوريَّة في فرنسا، ناهيكَ عن ذِكْر السُّلالات الإمبراطُوريَّة آنذاك، التي كانت تترأَّس رُوسيا، وألمانيا، وبريطانيا.

وكيف تمَّ الحُصُول علىٰ الدَّعْم الشَّعبي الضَّروري؟!

ضمن سياق الحقائق السِّياسيَّة في القرن التَّاسع عشر، يبدو مثل هذا المُخطَّط ـ بالنِّسبة لنا ـ أنَّه سخيف عَمَليَّاً، رغم أنَّه مُتناغم منطقيَّاً.

استنتجنا أنَّنا ـ لرُبَّما ـ أَسَأْنَا فَهْم هايرُون دُو فالدُور ـ أو ـ رُبَّما ـ تشُومبيل أساء فَهْم هايرُون دُو فالدُور ـ أو ـ رُبَّما ـ أعضاء هايرُون دُو فالدُور كانوا ـ ببساطة ـ مجانيناً بعض الشَّيء.

إلىٰ أنْ حصلنا علىٰ معلومات إضافيَّة؛ لم يكن لدينا خيار إلَّا أنْ نُهمل المسألة. في هذه الأثناء؛ ركَّزنا انتباهنا إلىٰ الحاضر، لنُقرِّر سواء دَيْر صهيُون موجود اليوم، أم لا.

وكما اكتشفنا ـ بشكل سريع ـ هُو كذلك. أعضاؤه لم يكونوا مجانين علىٰ الإطلاق، وكانوا مُنهمكين ـ في فترة ما بعد حرب القرن العشرين ـ في برنامج مُشابه تماماً لذلك الذي انهمك فيه هايرُون دُو فالدُور في القرن التَّاسع عشر.

8

المُجتمع السرِّيّ اليوم

إنَّ المجلَّة الفرنسيَّة «جُورنال أُوفيشيل» هي منشور حُكُومي أُسْبُوعي، والذي فيه كُلُّ المجموعات، والجمعيَّات، والمُنظَّمات، في البلاد، عليها أنْ تُعلن عن نفسها. في مجلَّة «جُورنال أُوفيشيل» في أُسْبُوع 20 يُوليُو/ تمُّوز عام 1956 (العدد 167)، هُناك المادَّة التَّالية:

25 juin 1956. Declaration a la .cous_prefecture de Saint_Julien_en_Genevois. Prieuré de Sion. But: etudes et entr'aide des membres. Siege social. Sous_Cassan, Annemasse (Haute Savoie)

25 يُونيُو/ حُزَيْرَان عام 1956. بيان إلىٰ المقرّ الفَرْعي لقيادة الشّرطة الفرنسيَّة (قسم) في سانتجُوليانانجنيف. دَيْر صهيُون. الهدف: الدِّراسات والمعونة المُتبادلة للأعضاء. المقرُّ الرَّئيس: «ساوسكاسان، أنيماس، هُوت سافُوي».

دَيْر صهيُون سُجِّل رَسْميّاً لدىٰ الشّرطة. علىٰ أيَّة حال؛ يبدو أنَّه يُوجد هُنا بُرهان قاطع علىٰ وُجُوده في عصرنا الحالي، بالرّغم من أنَّنا وجدنا أنَّه ـ بطريقة ما ـ من الغريب جدَّاً أنْ تُعلن جمعيَّة سرِّيَّة عن نفسها هكذا.

ولكنْ؛ في النِّهاية ـ رُبَّما ـ لم يكن ذلك غريباً جدَّاً؛ حيثُ لم يكن هُناك أيُّ سجلٍّ لدَيْر صهيُون في أيِّ دليل هاتف فرنسي. وحتَّىٰ العُنوان السَّابق أثبت أنَّه غامض جدَّاً؛ بحيثُ لم نتمكَّن من تحديد أيِّ مكتب مُعيَّن، أو بيت، أو بناية، أو حتَّىٰ شارع. وقسم الشّرطة ـ عندما اتصلنا به ـ كانت المُساعدة ضئيلة جدَّاً. قالوا إنَّ هُناك استعلامات كثيرة، وصبر مُرهِق. لكنَّهم لم يستطيعوا أنْ يُزوِّدونا بمعلومات إضافيَّة. بقدر ما عرفوا، العُنوان كان غير قابل للتَّقصِّي. ذلك منحنا مُهلة، إنْ لم يكن شيئاً آخر. من بين الأشياء الأُخرَىٰ التي حيَّرتنا كيف أنَّ بعض الأفراد استطاعوا تسجيل عُنوان وَهْمي، أو غير موجود، عند الشّرطة، وبعد ذلك ـ علىٰ ما يبدو ـ تهرَّبوا من كُلِّ النَّتائج اللَّاحقة، ومن مُقاضاة المسألة.

هل كانت الشّرطة لا مُبالية كما بَدَتْ؟!

أم هل أنَّ دَيْر صهيُون ـ بطريقة ما ـ جنَّد علاقاته، وحُرِّيَّة تصرُّفه؟!

قسم الشّرطة ـ بناءً علىٰ طلبنا ـ زوَّدنا بنُسخة، علىٰ ما يبدو أنَّها تشريعات (النِّظام الأساسي) لدَيْر صهيُون.

هذه الوثيقة، التي شملت **21** مقالاً، لم تكن مُثيرة للجَدَل، ولا حتَّىٰ واضحة بشكل خاصٍّ. علىٰ سبيل المثال، هي لم تُوضِّح أهداف النِّظام، هي لم تُعط أيَّ إشارة عن مدىٰ تأثير دَيْر صهيُون، أو عُضويَّته، أو مصادره. إجمالاً؛ كانت عاديَّة نوعاً ما؛ بينما ـ في الوقت ذاته ـ أثارت حيرتنا. في نُقطة ما ـ علىٰ سبيل المثال ـ أعلنت التَّشريعات أنَّ الدُّخول إلىٰ النِّظام لم يعد مُقيَّداً علىٰ أساس اللُّغة، أو الأصل الاجتماعي، أو الطَّبقة، أو العقيدة السِّياسيَّة. في نُقطة أُخرىٰ؛ اشترط بأنَّ كُلَّ كَاثُوليكي عُمره تجاوز **21** عاماً هُو مُؤهَّلٌ للتَّرشيح.

في الحقيقة؛ يبدو ـ عُمُوماً ـ أنَّ التَّشريعات صدَرَتْ من مُؤسَّسة كَاثُوليكيَّة مُتديِّنة، وتقيَّة. وبالرّغم من أنَّ الأسياد العظام لدَيْر صهيُون والتَّاريخ الماضي ـ إلىٰ الحَدِّ الذي استطعنا تَقَفِّيهم فيه، وطالما أنَّنا نحنُ نستطيع أنْ نتتبَّعهم ـ لم يشهد علىٰ أيِّ كَاثُوليكيَّة راشدة وقويمة. لذلك؛ حتَّىٰ «وثائق الدَّيْر» الحديثة كان توجُّهها إلىٰ الهَرْطَقَة بشكل أكثر منه إلىٰ الكَاثُوليكيَّة، والتي العديد منها نُشِرَ في الوقت نفسه الذي نُشرت فيه تلك التَّشريعات.

بدا أنَّ ذلك التَّناقض غير معقول، ما لم يكن دَيْر صهيُون ـ كفُرسان الهَيكَل، وجماعة القُربان المُقَدَّس ـ مُتستِّراً بنظام كَاثُوليكي خارجي مُحتَّم، والذي قد يتمُّ تجاوزه ـ بعد ذلك ـ ضمن النِّظام.

علىٰ أيَّة حال؛ دَيْر صهيُون ـ كفُرسان الهَيكَل، وجماعة القُربان المُقَدَّس، علىٰ ما يبدو ـ يطلب بالطَّاعة ـ التي في طبيعتها المُطلقة ـ تتضمَّن كُلَّ الالتزامات الأُخرَىٰ العِلْمانِيَّة، أو الرُّوحيَّة.

وُفقاً للمادَّة السّابعة من التَّشريعات، «المُرشَّح يجب أنْ يتخلَّىٰ عن وُجُوده الشَّخصي لكي يُكرِّس نفسه لخدمة رسالة أخلاقيَّة سامية».

المزيد ممّاً تعنيه تلك التَّشريعات هُو أنَّ دَيْر صهيُون يعمل تحت اسم ثانويٍّ؛ هُو

«Chevalerie d'Institutions Ct Règles Catholiques, d'Union Independente et Traditionaliste»

(فُرسان القوانين الكَاثُوليكيّة، ومُؤسَّسات اتِّحاد المُستقلِّين والتَّقليديِّين)،

(Chivalry of and Institutions of the Independent and Traditionalist Union) Catholic Rules

وبالتَّالي؛ يتمُّ اختصار ذلـك بـالرَّمْز «CIRCUIT»[1] وهُـو اسـم تلـك المجلَّـة، طبقـاً لتلـك التَّشريعات؛ تُنشَر داخل النِّظام، وتُوزَّع بين أعضائه.

رُبَّما المعلومات الأكثر إثارة في تلك التَّشريعات هُو أنَّه مُنْذُ عام **1956**، يبدو أنَّ دَيْـر صـهيُون قد وسَّع عُضويَّته ـ تقريباً ـ إلىٰ خمسة أضعاف.

طبقاً لأحد صفحات الملفَّات السِّرِّيَّة التي أُعيد إنتاجها، وطُبعت في وقت ما قبل عام **1956**؛ كان دَيْر صهيُون يضمُّ ما مجموعه **1.093** عُضواً؛ صُـنِّفوا في سـبع درجـات. التَّركيـب كـان هرميَّـاً بشكل تقليديٍّ.

في القمَّة كان السَّيِّد الأعظم، أو «المُرشد». كان هُناك ثلاثة في الدَّرجة الأدنىٰ منه؛ هُم «وكيـل أمير نُـوتر دام» (Prince Noachite de Notre Dame)، وتـسعة في الدَّرجـة الأدنـىٰ مـن ذلـك؛ هُـم «صليبيُّو القدِّيس جين» (Jean Croise de Saint). كُلُّ درجـة أدنـىٰ هـي أكـبر بـثلاث مـرَّات مـن الدَّرجة التي قبلهـا؛ كالتـالي: **27**، **81**، **243**، **729**. الـدَّرجات الثلاثـة الأعـلىٰ ـ الـسَّيِّد الأعظـم، وأتباعه المُباشرون الاثنا عشر ـ قيل بأنَّهم يُشكِّلون الثَّلاثة عشر لـ«الصَّليب الوَرْدي». العدد ـ أيـضاً ـ يتطابق مع مجموعة السَّحَرَة الشَّيطانيِّيْن؛ المقصود بهم السَّيِّد المسيح، وأتباعه الاثنَيْ عشر.

---

(1) (فيليب دُو تشيرسي، صديق بيير بلانتارد دُو سانتـكلير، كَتَبَ «روايـة» مجازيَّـة تُـدعىٰ «سـيركيت» (CIRCUIT). يتراوح فيها موضوع البحث من أطلانطس حتَّىٰ نابُليُون. تحتوي علىٰ 22 فصلاً، كُلٌّ من هذه الفُصُول يحمل عُنواناً مـن أسماء الورقات الرَّابحة الرَّئيسة من وَرَق قراءة الحظِّ «التَّارو». تُوجد كَمِّيَّة وحيدة في مُلحق فيرساي في المكتبة الوَطَنيَّة في باريس. بعض أجزائها يتضمَّن قصَّة شَخصيَّتَيْن بارزَتَيْن رَمْزيَّتَيْن؛ تشارلُوت، ومادلين، اللَّذَيْن يجدان كَنزاً في رين لُو شاتُو. المُؤلِّفون).

طبقاً لبيان التَّشريعات الرَّسميَّة لدَيْر صهيُون عام 1956؛ إنَّ الدَّيْر كان يمتلك عُضويَّة تصل إلىٰ 9.841 عُضواً، وليست مُصنَّفة بسبع رُتَب، بل بتسعة. بدا أنَّ التَّركيب بقي نفسه جَوْهَريَّاً، بالرّغم من أنّه غُيِّرَ، وقد تمَّ إضافة رُتبتَيْن جديدتَيْن في أسفل التَّدرُّج الهَرَمي للرُّتب، وهكذا تُعزَل القيادة ـ بشكل أبعد بكثير ـ خلف شبكة أكبر من المُبتدئين. السَّيِّد الأعظم مازال يحتفظ بلقب «المُرشد». «قَهْرَمَانَات نُوتر دام» الثَّلاثة يُدْعَون ـ ببساطة ـ مندوبي الأمير. «صليبيُّو القدِّيس جين» كانوا يُدعَون بالقيِّمين، أو الأعضاء الإداريِّيْن. تنظيم النِّظام ـ باللُّغة الإصطلاحيَّة المُبهمة ـ كان كالتّالي:

إنَّ الاجتماع العامَّ يضمُّ كُلَّ أعضاء الجمعيَّة. يشمل 729 إقليماً، 27 مُقاطعة، والرُّؤساء «Kyria».

كُلُّ مُقاطعة ـ بالإضافة إلىٰ الرُّؤساء ـ يجب أنْ تشمل علىٰ أربعين عُضواً، وكُلُّ إقليم علىٰ ثلاثة عشر عُضواً.

إنَّ الأعضاء مُنقسمون إلىٰ مجموعَتَيْن فعَّالتَيْن:

أ) الفَيْلق، مُكلَّف بنشر الرِّسالة.

ب) الكتيبة، وَلِيَّة أمر العُرْف.

الأعضاء يتدرَّجون بتسع مناصب.

تدرُّج التسع مناصب يشمل:

في الأقاليم الـ729:

1) المُبتدئون (Novices): 6.561 عُضواً

2) الصَّليبيُّون (Croises): 2.187 عُضواً

في الـ27 مُقاطعة:

3) برُوكس (Preux): 729 عُضواً

4) إيكايرز (Ecuyers): 243 عُضواً

5) نُبلاء (من الدَّرجة الدُّنيا) (Chevaliers): 81 عُضواً

6) القادة (Commadeurs): 27 عُضواً

في الرُّؤساء «كيريا»:

7) كُونيتابلز (Connétables): 9 أعضاء

8) سينيتشُو (Sénéchaux): 3 أعضاء

9) المُرشد؛ نُوتُونيير؛ (Nautonnier): عُضو واحد

علىٰ ما يبدو ـ لأغراض قانونيَّة وبيرُوقراطيَّة رَسْميَّة ـ أربعة أشخاص أُدرجوا ليُشكِّلوا «مجلس الشُّورىٰ». ثلاثة من تلك الأسماء كانت تبدو غريبة بالنِّسبة لنا، ومن المُحتمل ـ تماماً ـ أنَّها أسماء مُستعارة؛ الرَّئيس هُو أندريه بُونهُوم، من مواليد 7 ديسمبر/ كانون الأوَّل **1934**؛ جين ديليفال، تولَّد 7 مارس/ آذار **1931**؛ هُو نائب الرَّئيس؛ وآرماند ديفاغُو، تولَّد **11** ديسمبر/ كانون الأوَّل **1928**؛ أميناً للصُّندُوق.

علىٰ أيَّة حال؛ هُناك اسم واحد قد صادفنا من قبلُ ـ بيير بلانتارد، تولَّد **18** مارس/ آذار **1920**، والذي شغل منصب الأمين العامّ.

طبقاً لبحث كاتب آخر؛ منصب بلانتارد الرَّسْمي كان أمين عامّ قسم التَّوثيق، ممَّا يدلُّ ـ بالطَّبع ـ علىٰ أنَّ هُناك أقساماً أُخرىٰ أيضاً.

ألين بُوهير

في أوائل السَّبعينات، دَيْر صهيُون كانت قد أصبح قضيَّة مشهورة بين بعض النَّاس في فرنسا. كان هُناك عدد من المقالات والتَّغطية الصُّحُفيَّة. في 13 فبراير/ شُباط 1973، مجلَّة «ميدي ليبر» نشرت مقالة خاصَّة مُطوَّلة عن دَيْر صهيُون، وعن سُونير، ولُغز رين لُو شاتُو.

هذه المقالة الخاصَّة ربطت ـ بشكل خاصٍّ ـ دَيْر صهيُون بالبقاء المُحتمل لسُلالة الميرُوفيِّيْن حتَّىٰ القرن العشرين.

صرَّحت تلك المقالة ـ أيضاً ـ بأنَّ من بين أحفاد الميرُوفيِّيْن هُناك «مُطالبون حقيقيُّون بعرش فرنسا»، والتي حدَّدته بأنَّه «ألين بُوهير».

علىٰ الرّغم من أنَّه ليس مشهوراً ـ بشكل خاصٍّ ـ في بريطانيا، أو الولايات المُتَّحدة، ألين بُوهير كان (ومازال) اسماً مشهوراً في فرنسا.

أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية حصل علىٰ وسام المُقاومة، وعلىٰ وسام صليب الحرب « Croix de Guerre». بعد استقالة ديغُول، كان رئيساً مُؤقَّتاً لفرنسا من 28 أبريل/ نيسان حتَّىٰ 19 يُونيُو/ حُزَيْرَان 1969. احتلَّ المنصب نفسه عند موت جُورجيس بُومبيدُو من 2 أبريل/ نيسان حتَّىٰ 27 مايو/ مايس 1974.

في 1973، عندما ظهرت المقالة الخاصَّة في «ميدي ليبر»، كان بُوهير يشغل منصب رئيس مجلس النُّوَّاب الفرنسي.

علىٰ حَدِّ علْمنا، بُوهير لم يُعلِّق ـ بشكل، أو بآخر ـ علىٰ ارتباطاته المزعومة مع دَيْر صهيُون، و(أو) بسُلالة الميرُوفيِّيْن.

علىٰ أيَّة حال، في تسلسل الأنساب في «وثائق الدَّيْر» هُناك تصريح بأنَّ أرنُود، كُونت بُوهير في وقت ما بين عامَيْ 894 و 896، كان قد تزوَّج بأحد أفراد عائلة بلانتارد، الأحفاد الذين يُفترَض أنَّهم من السُّلالة المُباشرة بداغُوبرت الثَّاني. «ماين» (حفيد أرنُود دُو بُوهير) أصبح دُوق بريطانيا عام 937.

وبالتَّالي؛ سواء كان بُوهير يعترف بدَيْر صهيُون، أم لا، يبدو ـ من الواضح ـ أنَّ دَيْر صهيُون يعترف به علىٰ أنَّه ـ علىٰ أقلِّ تقدير ـ من أُصُول الميرُوفيِّيْن.

المَلِك المفقود

في هذه الأثناء، بينما كُنَّا نُتابع بحثنا، وبينما كانت أجهزة الإعلام الفرنسيَّة في فَوْرة اهتمام دوري بالقضيَّة برُمَّتها، كانت وثائق جديدة من «وثائق الدَّيْر» تُواصل الظُّهُور. كما في السَّابق، البعض منها ظهر علىٰ شكل كُتُب، والأُخرَىٰ طُبعت علىٰ شكل كراريس، أو مقالات خاصَّة أُودعت في المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة. لقد صنعت ـ فقط ـ المزيد من الغُمُوض، والحَيْرَة، إنْ لم يكن شيئاً آخر.

من الواضح أنَّ شَخْصاً ما كان يُنتج هذه الموادّ، لكنَّ الهدف الحقيقي بقي غير واضح. في بعض الأحيان؛ كُنَّا نُشكِّك بالقضيَّة علىٰ أنَّها مُجرَّد نُكتة مُتقنة، أو خدعة مُفرطة الأبعاد. علىٰ أيِّ حال؛ إنْ كان ذلك صحيحاً، فهي تبدو خدعة قد دَعَمَهَا بعض الأشخاص لعدَّة قُرُون، وإنْ كان الشَّخص يهدر كُلَّ هذا الوقت، والطَّاقة، والمصادر، من أجل خدعة، فهل من المُمكن ـ حقَّاً ـ أنْ ندعوها خدعة علىٰ الإطلاق؟!

في الحقيقة؛ النَّسيج العامُّ والمُتشابك لـ«وثائق الدَّيْر» كان أقلَّ خدعة منه قطعة فنيَّة، عرضاً للإبداع، والتَّألُّق، والتَّشويق، والتَّعقيد، والمعرفة التَّاريخيَّة، ومُخطَّطاً عامَّاً ذا تعقيد يليق بجيمس جويس[1].

وإنْ كانت قصَّة «الصَّحوة الفنلنديَّة»[2]، قد تُعدُّ نُكتة من نوع ما، فلا مجال للشَّكِّ بأنَّ الذي ألَّفها أخذها ـ في الحقيقة ـ بمَحْمل الجدِّ.

(1) (جويس، جيمس 1882 ـ 1941، مُؤلِّف آيرلندي، تُجسِّد كتاباته الإبداع الثَّوريَّ في تقنيَّات النَّثر. كان أحد أشهر الشَّخصيَّات الأدبيَّة في القرن العشرين. أشهر أعمال جويس هُو روايته المَلْحَميَّة أُوليسيس 1922، التي تستعمل سيلاً من المشاعر، وهي التَّقنية الأدبيَّة، التي تُحاول تصوير التَّدفُّق الطَّبيعي، وأحياناً؛ اللَّاعقلاني من الأفكار والأحاسيس في عقل الإنسان. المُترجم).

(2) (الصَّحوة الفنلنديَّة: عام «1939»، وهي آخر أعمال جويس، وأكثرها تعقيداً، في تلك القصَّة هُناك مُحاولة لتجسيد نظريَّة التَّاريخ عبر كُلِّ ما هُو دوري؛ أيْ كُلُّ شيء يُكرِّر نفسه مراراً وتكراراً. المُترجم).

من المُهمّ مُلاحظة أنَّ «وثائق الدَّيْر» تُشكِّل عَرَبة الموسيقىٰ التَّقليديَّة[1]؛ بدعة مُربحة ازدهرت إلىٰ صناعة مُربحة، تُنتج التَّتِمّات، أو الجُزء السَّابق للأحداث، أو غير ذلك من الاشتقاقات المُتنوِّعة الأُخرَىٰ. هي لا يُمكن أنْ تُقارَن ـ علىٰ سبيل المثال ـ برواية دانيكين «عَرَبة الآلهة» السِّحْرِيَّة، أو بالرِّوايات المُختلفة عن مُثلَّث برمُودا، أو أعمال كارلُوس كاستانيدا[2]. مهما كان الحافز وراء «وثائق الدَّيْر» هي ـ بشكل واضح ـ لم تكن ذات مَكْسَب مادِّيٍّ.

في الحقيقة؛ بدا أنَّ المال هُو مُجرَّد عامل عَرَضي، إنْ كان عاملاً علىٰ الإطلاق. بالرّغم من أنَّها أثبتت أنَّها مُربحة جدّاً علىٰ شكل كُتُب، إلَّا أنَّ الأكثر أهمِّيَّة هُو أنَّ «وثائق الدَّيْر» لم تُنشَر بتلك الطَّريقة. علىٰ الرّغم من إمكانيَّتها التِّجاريَّة انحصرت ـ فقط ـ بمنشورات خاصَّة، وبطبعات محدودة، وبإيداع مُتحفِّظ في المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة؛ حيثُ ـ بسبب ذلك ـ لم تكن مُتوفِّرة بشكل دائم. والمعلومات التي ظهرت بشكل كُتُب تقليديَّة لم تكن عشوائيَّة، أو كيفيَّة، وفي الجُزء الأكبر منها لم تكن أعمال باحثين مُستقلِّين. أغلبها بدا أنَّه يصدر من مصدر وحيد. أغلبها كانت تستند علىٰ شهادة رُواة مُحَدَّدين جدّاً، الذين قسَّموا، ووزَّعوا، كَمِّيَّات دقيقة من المعلومات الجديدة، كما لو أنَّهم يستخدمون القطارة العَيْنيَّة، وطبقاً للبعض؛ تلك المعلومات قد رُتِّبَتْ بخُطَّة مُسبقة. كُلُّ جُزء جديد من المعلومات يُضيف تعديلاً واحداً علىٰ الأقلّ، قطعة واحدة أُخرىٰ إلىٰ الشَّبكة العامَّة المُعقَّدة. العديد من هذه الأجزاء أُصدرَتْ تحت أسماء مُختلفة. وبالتَّالي؛ الانطباع السَّطحي كان يُنقَل عن طريق كُتَّاب مُنفصلين، كُلٌّ منهم يُؤكِّد، ويمنح، المصداقيَّة للآخرين.

ظهر لنا أنَّ هُناك دافعاً واحداً ـ فقط ـ معقولاً لهذا الإجرا ؛ هُو جَذْب اهتمام الرَّأي العامّ إلىٰ بعض الأُمُور، ولتأسيس المصداقيَّة، ولإحداث الاهتمام، ولخَلْق مناخ، أو جوٍّ، نَفْسيٍّ، يُبقي النَّاسَ مُنتظرين بنَفَسٍ محبوس، بانتظار المُفاجآت الجديدة.

---

(1) (عَرَبة المُوسيقىٰ: عَرَبة تحمل فرقة مُوسيقيَّة في استعراضات السِّيرك، أو في احتفالات الأحزاب السِّياسيَّة. المُترجم).

(2) (كارلُوس كاستانيدا 1925 ـ 1998، عالم إنسانيَّات أمريكي، كُتُبُه تصف تجاربه المزعومة كمُتمرِّن عند ساحر من المُواطنين المكسيكيِّين الأصليِّين. المُترجم).

باختصار؛ يبدو أنَّ «وثائق الدِّيْر» تهدف ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ «تمهيد الطَّريق» لبعض الاكتشافات المُدهشة. أيّاً كانت النَّتيجة التي سيُثبتها ـ في النِّهاية ـ ذلك الاكتشاف، علىٰ ما يبدو أنَّها عمليَّة طويلة الأمد «لضربة استباقيَّة لإضعاف الخصم»؛ لتهيئة النَّاس. وأيّاً كانت النَّتيجة التي سيُثبتها ـ في النِّهاية ـ ذلك الاكتشاف، فإنَّه سيتضمَّن سُلالة الميرُوفيِّيْن بطريقة ما، وسيتضمَّن تخليد تلك السُّلالة حتَّىٰ يومنا هذا، وكذلك المَلَكيَّة السِّرِّيَّة. وهكذا، في أحد المجلات، وفي مقالة زُعِم أنَّها كُتِبَتْ من قِبَل عُضو في دَيْر صهيُون وجدنا البيان التَّالي: «بدُون الميرُوفيِّيْن، لا يُوجد دَيْر صهيُون، وبدُون دَيْر صهيُون، سُلالة الميرُوفيِّيْن ستنقرض». إنَّ العلاقة بين النِّظام والسُّلالة مُوضَّح جُزئيّاً، ومُشوَّش ـ بشكل أكبر ـ في الإسهاب التَّالي:

إنَّ الملك، هُو راعٍ وقسٌّ في الوقت نفسه. أحياناً؛ يبعث سفيراً رائعاً نوعاً ما إلىٰ تابعه في السُّلطة، المُستخدم لديه، الشَّخص الذي له سعادة عظيمة بخُضُوعه للموت. هكذا هُم رينيه دانجاو، كُونتيبل دُو بُوربُون، نيكُولاس فاوكيت... وآخرون عديدون ممَّنْ نجاحهم المُدهش مَتبُوع بالخزي المُتعذِّر تفسيره، لهؤلاء المبعوثين الفضاعة والوقار. حُماة السِّرِّ، المرء يُمكنه ـ فقط ـ أنْ يرفعهم، أو يُحطِّمهم. لذلك؛ أشخاص جلز دُو ريس، ليُوناردُو دافينشي، جُوزيف (يُوسُف) بالسَّامُو، دُوقات نيفرز، وكُونزاغا، الذين صحوتهم محضورة بعطر السِّحْر، الذي يختلط فيه الكبريت بالبخُور؛ عطر مَجْدَلِيْن (مَرْيَم المَجْدَليَّة).

إنْ كان الملك تشارلز السَّابع ـ عند دُخُول جين دارك إلىٰ التَّرحيب العظيم في قلعته في شينُون ـ قد أَخْفَىٰ نفسه بين حَشْد الخَدَم، لم يكن ذلك لأجل نُكتة عفويَّة؛ أين المرح في ذلك؟! لكنْ لكي يعرف مَنْ تكون تلك السَّفيرة، وأنَّه كان أمامها بين الحاشية كواحد من الخَدَم. السِّرُّ الذي سلَّمَتْهُ إيَّاه علىٰ انفراد احتوىٰ علىٰ هذه الكلمات:

«سيِّدي النَّبيل، أتيت نيابة عن الملك».

إنَّ مضمون تلك العبارة هُو مُثير وآسر، أوَّلاً أنَّ الملك ـ «الملك المفقود» من المُفترض أنَّه من سُلالة الميرُوفيِّيْن ـ استمرَّ ـ في الواقع ـ في الحُكْم، ببساطة؛ استناداً إلىٰ مَنْ هُو. ثانياً، ورُبَّما هي نتيجة

مُذهلة لدرجة أكبر، هُو أنَّ المُلُوك المُؤقَّتين مُدركون لوُجُوده، ومُقرُّون به، ويُحترمون لـه، ويخـافون منـه. المضمون الثَّالث هُو أنَّ السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون، أو بعـض الأعـضاء الآخـرين في النِّظـام يعملـون كسُفراء بين «المَلك المفقود» ونُوَّابه، أو بدائله المُؤقَّتين. ويبدو أنَّ مثل هؤلاء السُّفراء هُم مُستغنىٰ عنهم.

الكراريس المُحيِّرة

في المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة، باريس

في عام 1966، كان هُنـاك العديـد مـن المقـالات المُتبادلـة المُحـيِّرة التـي تتعلَّـق بمـوت ليُـو سكيدلُوف؛ وهُو الرَّجل الذي زعم (باسمه المستعار «هنري لُوبينُو») أنَّـه في ذلـك الوقـت قـد أعـدَّ سُلالة الأنساب في البعض من «وثائق الدَّيْر».

الرِّسالة الأُولىٰ كانت قد ظهرت في صحيفة «كَاثُوليك ويكلي أُوف جنيف»، ومُؤرَّخـة في 22 تشرين الثَّاني 1966، وهي مُوقَّعة باسم «ليُونيل بُورُوس» الذي يدَّعي أنَّه يتحدَّث نيابـة عـن مُنظَّمـة تُدعَىٰ «الشَّباب المسيحي السُّويسري».

بُورُوس يُعلن بأنَّ ليُو سكيدلُوف، المشهور باسم هنري لُوبينُـو، قـد مـات في فيينَّـا الأُسـبُوع الماضي، في 17 أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل. بعد ذلك؛ كان يُدافع عن الميِّـت ضـدَّ الهُجُـوم الافترائـي، كـما يزعم، الذي ظهر في نشرة «الكَاثُوليك الرُّومان» مُؤخَّراً.

بُورُوس دوَّن امتعاضه من هذا الهُجُوم. في تأبين سكيدلُوف أعلن أنَّ هذا الأخير ـ تحت اسمه المُستعار «لُوبينيُو» ـ ألَّف عام 1956 «دراسة رائعة... عن علْم أنساب المُلُوك الميرُوفيِّين، وعن قـضيَّة رين لُو شاتُو».

بُورُوس صرَّح ـ أيضاً ـ أنَّ رُومَا لم تتجرَّأ علىٰ الطَّعْن بسكيدلُوف عندما كان حيَّاً، بالرّغم مـن أنَّها كانت تمتلك ملفَّاً شاملاً عن الرَّجل، ونشاطاته. ولكنْ؛ حتَّىٰ الآن، علىٰ الرّغم من موتـه، مـاتزال المصالح الميرُوفينجيَّة مُعزَّزة.

لدَعْم هذا الزَّعْم يبدو أنَّ بُورُوس قدَّم شيئاً أكثر من الشَّيء، الذي ـ علىٰ ما يبدو ـ أنَّه مُستحيل نوعاً ما. هُو يستشهد بالذي كان في 1966، شعار «أنتار»، التي هي إحدىٰ شركات النِّفط الرَّائدة في فرنسا. هذا الشِّعار يُقال بأنَّه تجسيد لشعار الميرُوفيِّيْن، وتصوير ـ ولو أنَّه بشكل رَمْزي ـ للملك الميرُوفيِّيْن. وهذا الشِّعار ـ طبقاً لبُورُوس ـ يُثبت بأنَّ المعلومات والدِّعاية المُؤيِّدة للميرُوفيِّيْن تُنشَر عَمَليَّاً؛ ويُضيف ـ بعيداً بعض الشَّيء عن وثاقة الصِّلة بالموضوع ـ أنَّ رجال الدِّين الفرنسيِّيْن لا يُرحِّبون بوصيَّة الفَاتيكَان دائماً. أمَّا بالنِّسبة إلىٰ ليُو سكيدلُوف، ويختم بُورُوس ـ (بأصداء الماسُونيَّة والفِكْر الكَاثَاري) ـ حديثه بالقول: «لكُلِّ أُولئك الذين عرفوا هنري لُوبينيُو، الذي كان رَحَّالة عظيماً، وباحثاً عظيماً، ورجلاً مُخلصاً وجيِّداً، إنَّه يبقىٰ في قُلُوبنا كرمز لـ«السَّيِّد المُطلق»، الذي يحترمه، ويُبجِّله، الإنسان».

هذه الرِّسالة من ليُونيل بُورُوس تبدو غريبة بوُضُوح. بكُلِّ تأكيد؛ هي مُحيِّرة جدَّاً. وعلىٰ أيَّة حال؛ الأكثر حَيْرَة هُو الهُجُوم المزعوم علىٰ سكيدلُوف من قِبَل نشرة «الكَاثُوليك الرُّومان»، والتي يستشهد بها بُورُوس بشكل تحرُّري. إنَّ النَّشرة ـ طبقاً لبُورُوس ـ تتَّهم سكيدلُوف بأنَّه «سُوفييتي الولاء، وماسُوني سيِّئ السُّمعة، يُمهِّد الطَّريق ـ بشكل نشيط ـ أمام حُكْم مَلَكي شعبي في فرنسا».

هُو اتِّهام مُفرد، ومُتناقض، علىٰ ما يبدو؛ لأنَّ الشَّخص ـ عادةً ـ لا يجمع بين تعاطفه مع السُّوفيتيَّة، ومع مُحاولة تأسيس حُكْم مَلَكي. ومع ذلك؛ تقوم النَّشرة ـ كما استشهد بها بُورُوس ـ بتوجيه اتِّهامات أكثر تهوُّراً بكثير:

أحفاد الميرُوفيِّيْن كانوا ـ دائماً ـ خلف كُلِّ البِدَع، والهَرْطَقَة، من الآريُوسيَّة[1]، مُرُوراً بالكَاثَاريَّة، وفُرسان الهَيكَل، وُصُولاً إلىٰ الماسُونيَّة.

في بداية الإصلاح البرُوتستانتي، الكاردينال مازارين، في يُوليُو/ تمُّوز 1659، قام بتدمير قلعتهم باربيري، التي يعود تاريخها إلىٰ القرن الثَّاني عشر. الأُسرة والعائلة المَعْنيَّة ـ عبر كُلِّ القُرُون ـ لم تُنجب سوىٰ المُهيِّجين السِّرِّيِّيْن ضدَّ الكَنيسَة.

---

(1) (آريُوسيّ: منسوبٌ إلىٰ آريُوس، وهُو كَاهن إسكندريّ (ت عام 336 م) قال بأنَّ الابن (المسيح) غير مُساوٍ للآب (الله) في الجَوْهَر. المُترجم).

بُورُوس لا يُحدِّد ـ تماماً ـ نَشْرَة «الكَاثُوليك الرُّومان»، التي ظهر فيها هـذا الاقتبـاس المزعـوم، لذا؛ لا يُمكننا أنْ نتحقَّق من أصالته. إنْ كان هذا الاقتباس صحيحاً ـ علىٰ أيَّة حال ـ فهُـو سـيكون ذا أهمِّيَّة كبيرة. فهُو يُشكِّل مصدراً مُوثَّقاً مُستقلاًّ، من المصادر الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّـة، عـلىٰ تهـديم قلعـة باربيري في نيفرز.

يبدو ـ أيضاً ـ بأنَّه اقتراح علىٰ التَّبرير الجُزئي لدَيْر صهيُون، علىٰ أقلِّ تقدير. توصَّلنا مُـسبقاً إلىٰ النَّظَر إلىٰ دَيْر صهيُون، والعائلات التي ارتبطـت بـه، عـلىٰ أنَّـه يُنـاور في الـسُّلطة لمـصلحته الخاصَّـة، والعمليَّة تصطدم ـ مراراً، وتكراراً ـ مع الكَنيسَة.

علىٰ أيَّة حال، طبقاً للاقتباس أعلاه؛ مُعارضة الكَنيسَة لا تبـدو بأنَّهـا تكـون مـسألة مُـصادفة، أو ظُرُوف، أو حتَّىٰ سياسة. بالعكس، هي تبدو بأنَّها مسألة سياسة مُستمرَّة.

هذا جعلنا نُصادف تناقضاً آخر؛ بأنَّ التَّشريعات الخاصَّة لدَيْر صهيُون أُصدِرَتْ ـ عـلىٰ الأقـلِّ زعماً ـ من مُؤسَّسة كَاثُوليكيَّة متينة.

ليس بعد فترة طويلة من نَشْر رسالته، ليُونيل بُورُوس كان قد قُتِلَ في حادث سـيَّارة، زُعِـم أنَّ معه 6 ضحايا آخرين أيضاً.

علىٰ أيَّة حال، قبل فترة قليلة من موته، رسالته أحدثت استجابة أكثر حـيْرَة، وإثـارة، لدرجـة أكبر من التي كَتَبَهَا بنفسه. هذا الرَّدُّ نُشِرَ علىٰ شـكل كُتيِّـب مطبـوع ـ بـشكل خـاصٍّ ـ تحـت عُنـوان «إس.راوْكس».

في بعض النَّواحي؛ ظهر أنَّ ذلك الكُتيِّب هُو تكرار للهُجُوم الأصلي عـلىٰ سـكيدلُوف، الـذي حثَّ علىٰ رسالة بُورُوس. وهُو يُؤنِّب ـ أيضاً ـ بُورُوس لكونه شابّاً مُتحمِّساً جـدّاً، ولامُباليـاً، وكثـير الكلام. ولكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ هذا الكُتيِّب يبدو إدانة لموقـف بُـورُوس، إلَّا أنَّـه لا يُؤكِّـد حقائقـه فحسب، بل يتوسَّع فيها أيضاً.

يُؤكِّد الكُتيِّب بأنَّ سكيدلُوف كان صاحب مقام رفيع في محفل ألبينا السُّويسري الكبـير، وهُـو المحفل الماسُوني الذي ظهر أَثَرُهُ في عدَّة أماكن مُحَدَّدة من «وثائق الدَّيْر».

طبقاً لذلك الكُتيِّب؛ سكيدلُوف «لم يُخف مشاعره في الصَّداقة للكُتلة الشَّرقيَّة»، أمَّا بالنِّسبة إلىٰ بيانات بُورُوس حول الكَنيسَة؛ يستمرُّ الكُتيِّب بالتَّصريح:

المرء لا يستطيع القول بأنَّ الكَنيسَة جاهلة بِسُلالة ريزس، ولكنْ؛ يجب التَّذكير بأنَّ كُلَّ أحفادها ـ مُنْذُ داغُوبرت ـ كانوا مُهيِّجين سرِّيِّيْن ضدَّ السُّلالة المَلَكيَّة لفرنسا، وضدَّ الكَنيسَة كلَيْهما، وبأنَّهم كانوا مصدر كُلِّ البِدَع. عودة سُلالة الميرُوفيِّيْن للعمل يستلزم من فرنسا إعلان حُكْم مَلَكي شعبي حليف للاتِّحاد السُّوفييتي، ومُناصر للماسُونيَّة، باختصار؛ اختفاء الحُرِّيَّة الدِّينيَّة.

إنْ كان كُلُّ هذا يبدو استثنائيّاً نوعاً ما، فإنَّ البيَانَات الختاميَّة في كُتيِّب إس.راوكس تبدو أكثر من ذلك:

أمَّا بالنِّسبة إلىٰ مسألة الدِّعاية الميرُوفينجيَّة في فرنسا؛ كُلُّ شَخْص يعرف بأنَّ الدِّعاية والإعلان لشركة «أنتار بيترُول»، التي فيها مَلك الميرُوفيِّيْن يحمل زنبقة وطَوْقاً، هي مُناشدة شعبيَّة لصالح إعادة الميرُوفيِّيْن للعمل. والمرء لا يُمكنه إلَّا أنْ يستغرب ما الذي كان يُحضِّره لُوبينيُو في فترة موته في فيينَّا، عشيَّة التَّغييرات العميقة في ألمانيا. هل من الصَّحيح ـ أيضاً ـ أنَّ لُوبينيُو حضَّر في النِّمسا لاتِّفاقيَّة مُستقبليَّة مُتبادلة مع فرنسا؟! ألم يكن ذلك قاعدةً للاتِّفاقيَّة الفرنسيَّة ـ الرُّوسيَّة؟!

لا يدعو للاستغراب بأنَّنا احترنا تماماً، وتساءلنا ما ذلك الشَّيء العجيب الذي يتحدَّث عنه كُتيِّب إس.راوكس. يبدو أنَّه قد فاق بُورُوس في الجُنُون، إنْ لم يكن غير ذلك. الكُتيِّب يربط ـ معاً ـ أهدافاً سياسيَّة مُختلفة ومُتنوِّعة بنَفْس تنوُّع واختلاف الهَيْمَنَة السُّوفيتيَّة والحُكْم المَلَكي الشَّعبي.

يتوسَّع أكثر من بُورُوس بإعلانه «أنَّ كُلَّ شَخْص يعلم» أنَّ شعار شركة النَّفط هُو شكل غير ملحوظ من الدِّعاية، لسبب مجهول وسخيف علىٰ ما يبدو، يُلمِّح بالتَّغييرات الشَّاملة في فرنسا، وألمانيا، والنِّمسا، كما لو أنَّ هذه التَّغييرات كانت «مُحتمَلَة» مُسبقاً، إنْ لم تكن ـ في الحقيقة ـ قد حصلت.

وهُو يتكلَّم عن اتِّفاقيَّة «رُوسيَّة فرنسيَّة» غامضة، كما لو أنَّ هذه الاتِّفاقيَّة كانت مسألة عامَّة.

عند القراءة الأُولىٰ، كُتيِّب إس.راوكس يبدو أنَّه ـ عَمَليَّاً ـ جُنُوني.

لدىٰ قيامنا بتفحُّص أعمق؛ أقنعنا بأنَّه ـ في الحقيقة ـ كان وثيقة أُخرىٰ مُبدعة من وثائق الدَّيْر، يتعمَّد الحَيْرَة، والتَّشويش، والإثارة، وبذر التَّلميحات إلىٰ شيء ما مُذهل، وهامٌّ.

في أيِّ حال من الأحوال، عَرَضَ هذا الكُتيِّب ـ بطريقته الغريبة ـ تنويهاً إلىٰ عِظَم القضايا المُضمَّنة فيه. إنْ كان كُتيِّب إس.راوكس صحيحاً، فإنَّ موضوع تحقيقنا لم يكن محصوراً في نشاطات بعض الأنظمة الفُرُوسيَّة الحديثة غير المُؤذية.

إنْ كان ذلك الكُتيِّب صحيحاً، فإنَّ موضوع تحقيقنا خُصِّص ـ بطريقة ما ـ إلىٰ المرتبات العُليا من السِّياسة الدّوليَّة العالية المُستوىٰ.

الكَاثُوليك التَّقليديُّون

في عام **1977**، ظهر المزيد والجديد من «وثائق الدَّيْر» الهامَّة جدَّاً، كُتيِّب من ستِّ صفحات، عُنوانه «Le Cercle d' Ulysse» لكاتب يُدعىٰ جين ديلُود. في سياق ذلك النَّصِّ؛ قام الكاتب بالتَّوجُّه ـ بشكل خاصٍّ، وواضح ـ إلىٰ دَيْر صهيُون. وبالرّغم من أنَّه أعاد قَوْلَبَة موادّ قديمة جدَّاً، إلَّا أنَّه أعاد تأسيس بعض التَّفاصيل المُعيَّنة الجديدة عن النِّظام:

في مارس/ آذار **1117**، بُودوين كان قد أُرغم، في سانت ليُونارد دُو عكَّار، علىٰ مُناقشة وإعداد دُستُور نظام الهَيكَل، بتوجيهات من دَيْر صهيُون. بعد ذلك، في **1118**، تمَّ تأسيس نظام الهَيكَل من قِبَل هيُوغز دُو باين. من **1118** إلىٰ **1188**، دَيْر صهيُون ونظام الهَيكَل اشتركا بالأسياد العظام أنفسهم. مُنْذُ افتراق المُؤسَّستَيْن في **1188**، اعتمد دَيْر صهيُون سبعة وعشرين سيِّداً أعظم، حتَّىٰ يومنا هذا، آخرهم كانوا:

تشارلز نُودير	**1801 ـ 1844**
فيكتُور هيوغُو	**1844 ـ 1885**
كلُود ديبُوسي	**1885 ـ 1918**
جين كُوكتُو	**1918 ـ 1963**

وآبي دُوكُود بُورجيت من عام **1963**، وحتَّىٰ وُصُول النِّظام الجديد.

ما الذي يُحضِّر له دَيْر صهيُون؟ أنا لا أعرف، لكنَّه يُمثِّل قُوَّة قادرة علىٰ مُواجهة الفَاتيكَان في الأيَّام القادمة. المُونسينْيَر[1] ليفيفر هُو العُضو الأكثر نشاطاً، وَهَيْبَة، وهُو قادر علىٰ قول «اجعلني البَابَا، وسأجعلكَ ملكاً[2]».

---

(1) (لقب لكَاهن رفيع المُستوىٰ، يُستَخدَم في الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة، خُصُوصاً للأساقفة وللمسؤولين في المحكمة البَابَويَّة. المُترجم).

(2) (هذا وَرَدَ في كُتيِّب «Le Cercle d' Ulysse» في الصّفحة السادسة، للكاتب ديلُود. المُؤلِّفون).

هُناك جُزءان جديدان مُهمّان من المعلومات في هـذا المُقتطَـف؛ الأوَّل هُـو الانتـساب المزعـوم لرئيس الأساقفة مارسيل ليفيبفر إلىٰ دَيْر صهيُون. المُونسينْيَر ليفيبفر ـ بالطَّبع ـ يُمثِّل الجنـاح المُحـافظ المُتطرِّف للكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة.

تحدَّث ـ بشكل صريح، وصاخب ـ ضدَّ البَابَا بُولُس السَّادس، الـذي تحـدَّاه بـشكل مُلتهـب، وصارخ.

في الحقيقة، في عـامَيْ 1976 و 1977، هُـدِّد ـ بوُضُـوح ـ بـالطَّرْد؛ ولامُبالاتـه الوقحـة لهـذا التَّهديد عجَّلت ـ تقريباً ـ بالانشقاق الدِّيني الكَنَسي الشَّامل. لكنْ؛ كيـف نُطـابق بـين توجُّـه مُجاهـد كَـاثُوليكي «مُتـشدِّد» مثـل المُونـسينْيَر ليفيبفـر مـع توجُّـه حَرَكَـة ونظـام سـحْري، إنْ لم يكـن ـ بشكل مُؤكَّد ـ ضلاليَّاً؟ بدا أنَّه ليس هُناك أيُّ تفسير لهـذا التَّـناقض، مـا لم يكـن المُونـسينْيَر ليفيبفـر مندوباً مُعاصراً لماسُونيَّة القرن التَّاسع عشر ومُرتبطاً بـ«هايرون دُو فالدُور»، ذلـك النِّظـام «المـسيحي والماسُوني والأرستُوقراطي والسِّحْري» الذي عدَّ نفسه أكثر كَاثُوليكيَّة من البَابَا بذاته.

إنَّ النُّقطة الرَّئيسة الثَّانية في المُقتطف المُقتبس أعلاه هي ـ بالطَّبع ـ تحديد هُويَّة الـسَّيِّد الأعظـم لدَيْر صهيُون في ذلك الوقت؛ وهُـو «آبي دُوكُـود بُورجيـت». فرانـسوا دُوكُـود بُورجيـت وُلـد عـام 1897، وتدرَّب علىٰ الكَهَانَة في كُلِّيَّة القدِّيس سُولبيس.

وهكذا؛ فمن المُحتمل أنَّه عرف العديد من العَصْرَانيِّيْن هُناك في ذلك الوقت، ومـن المُحتمـل ـ تماماً ـ أميل هُوفيت. بعد ذلك؛ كان قسِّيساً رهبانيَّاً للنِّظام المَلَكي في مالطـا. وَنَظَـرَاً لنـشاطاته أثنـاء الحرب العالميَّة الثَّانية استلم وسام المُقاومة، ووسام صليب الحرب. اليوم هُو مشهور بأنَّـه رجـل أدب مُتميِّز، عُضو في الأكَاديميَّة الفرنسيَّة، وكاتب سِيَر الكُتَّاب الكَاثُوليكيِّيْن الفرنسيِّيْن المُهمِّين؛ مثل بُـول كلُوديل، وفرانسوا مُورياك، وشاعر مُقدّر إلىٰ حَدٍّ كبير؛ بحُكْم حقِّه الشَّخصي.

مثل المُونسينْيَر ليفيبفر، آبي دُوكُود بُورجيت تولَّىٰ موقف المُعارضة الفدائيَّة ضدَّ البَابَـا بُـولُس السَّادس. مثل المونسينْيَر ليفيبفر هُو مُؤيِّد للكُتلـة التِّرينتيَّـة[1]. مثـل المُونـسينْيَر ليفيبفـر، أعلـنَ بأنَّـه «تقليدي» مُعارض ـ بشدَّة ـ للإصلاح الكَنَسي، أو لأيِّ مُحاولة لـ«عَصْرَنَة» الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة.

(1) (يتعلَّق بمجلس ترينتي الكَنَسي،أو بمراسيمه، والذي أُعيد فيه التَّأكيد علىٰ المذاهب التَّقليديَّة للكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة بدأت مُقاومة الإصلاح. المُترجم).

في 22 مايو/ مايس 1976، هُو حُرِمَ من إدارة الاعتراف، أو التَّبرئة، ومثل المُونسينيُر ليفيبفر؛ هُو تحدَّىٰ ـ بجُرأة ـ ذلك الحرمان، الذي فُرِضَ عليه من قِبَل رُؤسائه.

في 27 فبراير/ شُباط 1977، قاد ألفاً من الكَاثُوليكيِّيْن التَّقليديِّيْن في احتلالهم لكَنيسَة القدِّيس نيكُولاس دُو تشاردُونيت في باريس.

إنْ كان مارسيل ليفيبفر، وفرانسوا دُوكُود ـ بُورجيت يبدوان «يَمِينِيَّيْن» لاهوتيّاً، فيبدو أنَّهما ـ أيضاً ـ سياسيَّان علىٰ حَدٍّ سواء.

قبل الحرب العالميَّة الثَّانية؛ رئيس الأساقفة ليفيبفر تعاون مع حَرَكَة «أكشن فرانسيس»[1]؛ اليمين المُتطرِّف في السِّياسة الفرنسيَّة آنذاك، والذي اشترك ببعض المواقف مع الاشتراكيَّة الوَطَنيَّة[2] في ألمانيا.

بعد فترة «رئيس الأساقفة الثَّائر» حظي بسُمعة سيِّئة كبيرة لدَعْمه الحميم للنِّظام العَسْكَريّ في الأرجنتين. عندما استُجْوِبَ عن هذا الموقف، أجاب بأنَّه أخطأ. قال بأنَّه لم يكن يعني الأرجنتين، بل تشيلي! فرانسوا دُوكُود ـ بُورجيت لا يبدو مُتطرِّفاً جدّاً، وأوسمته ـ علىٰ أيَّة حال ـ تشهد علىٰ نشاط وَطَني مُعاد للألمانيَّة أثناء الحرب.

علىٰ الرّغم من هذا، أبدىٰ الكثير من الاعتبار لمُوسُوليني، والكثير من الأمل بأنَّ فرنسا «تستعيد إحساسها بالقِيَم تحت قيادة نابُليُون جديد».

شَكُّنَا الأوَّل كان أنَّ مارسيل ليفيبفر، وفرانسوا دُوكُود ـ بُورجيت لم يكونا ـ في الحقيقة ـ مُنتسبَيْن إلىٰ دَيْر صهيُون علىٰ الإطلاق، لكنْ؛ هُناك شَخْص ما حاول إحراجهما ـ بتعمُّد ـ بنِسْبِهما إلىٰ القُوَّات ذاتها، التي هُما ـ نَظَرِيّاً ـ مُعارضَيْن لها بشدَّة كبيرة. ورغم ذلك، طبقاً للتَّشريعات التي حصلنا

(1) (في فرنسا، عام 1890، بدأت حَرَكَة «أكشن فرانسيس» بحملة لإسقاط الحُكُومة الدِّيمُقراطيَّة في فرنسا، ولإعادة المَلِك للسُّلطة. المُترجم).

(2) (الاشتراكيَّة الوَطَنيَّة ـ عُمُوماً ـ تُدعَىٰ بالنَّازيَّة، وهي حَرَكَة سياسيَّة ألمانيَّة، بدأت عام 1920، من قِبَل مُنظَّمة حزب العُمَّال الوَطَنيِّيْن الاشتراكيِّيْن الألمان، كانت تُسمَّىٰ بالحزب النَّازي أيضاً. الحَرَكَة بلغت ذروتها بتأسيس الرَّايخ الثَّالث، الذي هُو الولاية الألمانيَّة الاستبداديَّة تحت قيادة الدِّكتاتُور أدُولف هِتْلَر 1933 ـ 1945. المُترجم).

عليها من الشّرطة الفرنسيَّة، كان هُناك اسم ثانوي لدَيْر صهيُون هُو:

(Chevalerie d'Institutions et Règles Catholiques, d'Union Indépendante et Traditionaliste.)

مُؤسَّسة بمثل هذه الاسم قد تحضن ـ تماماً ـ أشخاصاً مثل مارسيل ليفيبفر، وفرانسوا دُوكُود بُورجيت.

بدا لنا أنَّ هُناك احتمالاً لتفسير آخر، في الحقيقة؛ هُو تفسير بعيد الاحتمال، ولكنَّه ـ علىٰ الأقلِّ ـ تفسير للتَّناقض الذي يُواجهنا. رُبَّما مارسيل ليفيبفر، وفرانسوا دُوكُود ـ بُورجيت لم يكونا كما يبدوان. رُبَّما كانا شيئاً ما آخر. رُبَّما ـ في الواقع ـ كانا عميلَيْن سرِّيَّيْن، هدفهما هُو أنْ يقوما ـ بشكل مُنظَّم ـ بخَلْق الاضطراب، وبزَرْع بُذُور المُعارضة، وبإثارة الانشقاق الدِّيني الأوَّلي، الذي يُهدِّد منصب البَابَا بُول. مثل هذه الوسائل ستكون ناجعة، بالتَّعاون مع الجمعيَّات السِّرِّيَّة التي وُصِفَتْ من قِبَل تشارلز نُودير، بالإضافة إلىٰ برُوتُوكُولات شُيُوخ صهيُون. وعدد من المُعلِّقين مُؤخَّراً؛ الصُّحُفيُّون ـ بالإضافة إلىٰ السُّلطات الكَنَسيَّة ـ أعلنوا بأنَّ رئيس الأساقفة ليفيبفر هُو يعمل لصالح، أو يُدار من قِبَل، شَخْص آخر[1].

علىٰ الرّغم من أنَّ فَرَضيَّتنا قد تكون بعيدة الاحتمال، إلَّا أنَّه يُوجد خلفها منطق مُتماسك. إنْ كان البَابَا بُولُس يُعدُّ «العدوَّ»، وإنْ كان شَخْص ما يرغب بإجباره لاستلام موقف أكثر تحرُّراً، فكيف يُشرّع الشّخص بذلك؟! ليس بالتَّهيُّج من وُجهة نَظَر تحرُّريَّة. ذلك سوف يجعل البَابَا مُلتزماً أكثر ـ وبحزم ـ بمبادئه المُحافظة. ولكنْ؛ ماذا لو أنَّ الشَّخص تبنَّىٰ ـ بشكل علني ـ منصباً أكثر مُحافظة بكثير من بُول؟ علىٰ الرّغم من أنَّ رغباته هي عكس ذلك، ألن يُجبره ذلك علىٰ اتِّخاذ موقف تحرُّري جدَّاً؟ وذلك ـ بالتَّأكيد، ما أنجزه رئيس الأساقفة ليفيبفر وزُملاؤه ـ المَفْخَرَة التي لم يسبق لها مثيل، وهي جَعْل البَابَا تحرُّريَّاً.

---

(1) (مُونسيغنُور برُونُون، الذي استبدل ليفيبفر كأُسقُف لمدينة «تُول»، قال رأيه بأنَّ ليفيبفر كان مُسيَّراً من قِبَل آخرين. المُؤلِّفون).

سواء استنتاجاتنا كانت صحيحة أم لا، بدا واضحاً بأنَّ رئيس الأساقفة ليفيبفر ـ كالعديد من الأفراد الآخرين في تحقيقنا ـ كان علىٰ علْم بسرٍّ ما بالغ الأهمّيّة، وعظيم. في 1976، علىٰ سبيل المثال، حرمانه من الحُقُوق الكَنَسيَّة بدا وشيكاً. الصّحافَة ـ في الحقيقة ـ كان تتوقّع ذلك في أيِّ لحظة، وذلك لأنَّ البَابَا بُولُس الذي يتعرَّض لمُواجهة وتحدٍّ وقح ومُتواصل ـ لن يكون عنده اختيار آخر. ومع ذلك، في اللَّحظة الأخيرة؛ تراجع البَابَا عن قراره. مازال غير واضح ـ بالضَّبط ـ سبب قيامه بذلك، لكنَّ المُقتطف التَّالي من الغارديان، في 30 آب عام 1976، يقترح حلّاً من نوع ما:

فريق رئيس أساقفة الكَهَنَة في إنجلترا... يعتقدون بأنَّ زعيمهم مايزال يمتلك سلاحاً إكليرُوسيّاً (كَنَسيّاً) قويّاً؛ لكي يستخدمه في نزاعه ضدَّ الفَاتيكَان. لا أحد سيُعطي أيَّ إشارة، أو تلميح، عن طبيعة ذلك السّلاح، ولكنَّ الأب بُطرُس مُورغان، زعيم المجموعة... يصفه بأنّه شيء ما «يجعل الأرض تهتزُّ»[1].

ما نوع ذلك الشّيء، أو ذلك «السّلاح السِّرّيّ» الذي سيجعل «الأرض تهتزُّ»، والذي أَخَافَ الفَاتيكَانَ لهذا الحَدِّ؟!

أيُّ نوع من سيف دامُوكلين[2] المخفي إلىٰ العالم بشكل عامٍّ، قد وُضِعَ فوق رأس الحِبْر؟!

أيّاً كان ذلك السَّيف، يبدو ـ بالتَّأكيد ـ أنَّه أثبت جدارته.

في الحقيقة، يبدو أنَّه جعل رئيس الأساقفة مُحصَّن كُلّيّاً ضدَّ أيِّ عمل تأديبيٍّ من رُومَا. كما كَتَبَ جين ديلُود، يبدو أنَّ مارسيل ليفيبفر ـ في الحقيقة ـ «يُمثِّل قُوَّة قادرة علىٰ مُواجهة الفَاتيكَان»؛ «رأسٌ برأسٍ» إنْ كان ذلك ضروريّاً.

ولكنْ؛ لِمَنْ زُعِمَ أنَّه وجَّه كلمته؛ أو سيُوجِّهها: «اجعلني البَابَا، وسأجعلكَ مَلكاً؟!»

---

(1) (كان ذلك في الصّفحة 13 من صحيفة الغارديان في 30 آب عام 1976، وقد كتبنا للأب بُطرُس مُورغان نسأله إنْ كان بإمكانه أنْ يُوضِّح هذه المسألة، لكنَّ الأب مُورغان لم يُجب. المُؤلِّفون).

(2) (خادم في الحاشية المَلَكيَّة في القرن الرَّابع الميلادي عند الملك ديُونيسيُوس، إله الخمر، وحاكم سيراكُوس في إيطاليا. بعد أنْ ملَّ الملك من تملُّقه الحسود، وضعه تحت سيف مُعلَّق بشعرة. المُترجم).

دَيْر عام 1981، وتشريعات كُوكتُو

مُؤَخَّراً؛ البعض من القضايا التي تُحيط بفرانسوا دُوكُود بُورجيت يبدو بأنَّها كانت قد وُضِّحِتْ. هذا التَّوضيح نَتَجَ من وَهج مُفاجئ من الدِّعاية والإعلان، التي تلقَّاها دَيْر صهيُون في فرنسا، في أواخر **1980**، وأوائل **1981**. هذه الدِّعاية وهذا الإعلان جعلتاه شيئاً مألوفاً.

في أغسطس/ آب **1980**، المجلَّة الشّعبيَّة «بُون سوار»؛ نوع من التَّقاطع ما بين مُلحق الأحد البريطاني وبين ودليل التّلفزيون الأمريكي؛ قامت بنَشْر مادَّة من جُزءين حول لُغز رين لُو شاتُو ودَيْر صهيُون. في هذه المادَّة؛ مارسيل ليفيفر، وفرانسوا دُوكُود بُورجيت كلاهما يرتبطان ـ بشكل واضح ـ بدير صهيُون. قيل بأنَّ كلَيْهما قاما بزيارة خاصَّة مُنْذُ عهد قريب جدَّاً إلىٰ أحد مواقع دَيْر صهيُون المُقَدَّسَة، قرية «سانتكُولُومب» في نيفرز؛ حيثُ كانت تُوجد مُقاطعة آل بلانتارد، التي فيها قلعة باربيري، قبل أنْ يتمَّ تدميرها من قِبَل الكاردينال مازارين عام **1659**.

في هذه الأثناء؛ قُمنا بأنفسنا بإجراء مُكالمة هاتفيَّة، وبمُراسلة بريديَّة، مع آبي دُوكُود بُورجيت. أثبت أنّه مُهذَّب بما فيه الكفاية. لكنَّ أجوبته عن أغلب أسئلتنا كانت مُبهَمَة، إنْ لم تكن مُراوغة؛ ولا عجبَ، أنكر ـ بالكامل ـ انتسابه إلىٰ دَيْر صهيُون. هذا الإنكار كُرِّر في الرِّسالة الإخباريَّة التي وجَّهها بعد ذلك بقليل إلىٰ مجلَّة «بُون سوار».

في **22** يناير/ كانون الثَّاني **1981**، ظهرت مقالة قصيرة في الصّحافَة الفرنسيَّة[1]، والتي تستحقُّ اقتباس الجُزء الأعظم منها:

جمعيَّة سرِّيَّة حقيقيَّة مُؤلَّفة من **121** من الوُجهاء، دَيْر صهيُون، أُسِّسَت من قِبَل غُودفرُوي دُو بُولوين في القُدْس عام **1099**، ويُعدُّ بين أسيادها العظام ليُوناردُو دافينشي، وفيكتُور هيوغُو، وجين كُوكتُو. هذا النِّظام دعا لعقد اجتماع للمجلس في «بلوا»[2]، في **17** يناير/ كانون الثَّاني **1981** (الاجتماع السَّابق كان في **5** يُونيُو/ حُزَيْران **1956**، في باريس).

---

(1) (لا نمتلك إلَّا نُسخة عن المقالة، بدُون معرفة للمصدر، لذا؛ ليس هُناك طريقة لتحديد أيّة مجلَّة. المُؤلِّفون).

(2) (Blois: مدينة فرنسيَّة. المُترجم).

كنتيجة لهذا الاجتماع الأخير للمجلس في «بلوا»، بيير بلانتارد دُو سانتـكلير انتُخب كَسَيِّد أعظم للنِّظام بنسبة 83 صوتاً من أصل 92، في الاقتراع الثَّالث.

هذا الاختيار للسَّيِّد الأعظم يُؤشِّر إلىٰ خُطوة حاسمة في تطوُّر مفهوم ورُوح النِّظام فيما يتعلَّق بالعالم؛ لأنَّ جميع الوُجهاء الـ121 لدَيْر صهيُون هُم أشخاص ذون قُوَّة سرِّيَّة عظيمة من حيثُ الموارد الماليَّة، ومن المُجتمعات السِّياسيَّة، أو الفَلْسَفِيَّة الدّوليَّة؛ وبيير بلانتارد يتحدَّر ـ مُباشرة ـ من سُلالة المُلُوك الميرُوفيِّين، عبر داغُوبرت الثَّاني. تحدُّره من ذلك النَّسَب أُثبِتَ قانونيّاً في مَخْطُوطات المَلَكة بلانتش، ملكة قشتالة، والتي اكتُشِفَتْ من قِبَل آبي سُونير في كَنيسَته في رين لُو شاتُو (أود)[1] عام 1891.

هذه الوثائق بيعت من قِبَل ابنة أُخت الكَاهن عام 1965، إلىٰ النَّقيب رُولند ستانمُور، والسِّيْر تُوماس فرايزر، وأُودِعَتْ في صُندُوق آمن في «بنك لويد الأُورُوبي المحدود» في لندن[2].

قبل فترة قليلة من ظُهُور هذه المادَّة في الصّحافَة، كتبنا إلىٰ فيليب دُو تشيرسي، الذي أجرينا معه اتِّصالاً هاتفيّاً مُسبقاً، والذي يظهر اسمه ـ بشكل مُتكرِّر جدّاً، كتكرار اسم بيير بلانتارد ـ كناطق رَسْمي لدَيْر صهيُون. في الرَّدِّ علىٰ أحد الأسئلة التي سألناها، دُو تشيرسي أعلن بأنَّ فرانسوا دُوكُود بُورجيت لم يكن قد انتُخب كَسَيِّد أعظم بالنّصاب الصّحيح. علاوةً علىٰ ذلك؛ أضاف، أنكر آبي دُوكُود بُورجيت انتسابه عَلَنَاً للنِّظام. هذا الزَّعْم الأخير بدا غير واضح. إلَّا أنَّ ذلك الزَّعْم ـ علىٰ أيَّة حال ـ خَلَقَ أهمِّيَّة أكبر ضمن سياق رسالة دُو تشيرسي.

في وقت ما مُسبقاً، حصلنا علىٰ تشريعات دَيْر صهيُون من قسم شرطة سانتـجُوليان. نُسخة من هذه التَّشريعات بنفسها كانت قد نُشِرَتْ عام 1973، من قِبَل مجلَّة فرنسيَّة. علىٰ أيَّة حال؛ كُنَّا قد أُخبِرْنَا في باريس من قِبَل جين لُوك تشُوميبل بأنَّ هذه التَّشريعات كانت عملاً احتياليّاً.

في رسالته إلينا؛ أرفق دُو تشيرسي النُّسخة التي قال بأنَّها التَّشريعات الحقيقيَّة لدَيْر صهيُون ـ مُترجمة عن اللُّغة اللَّاتينيَّة. حملت هذه التَّشريعات توقيع جين كُوكتُو؛ وإنْ لم يكن ذلك التَّوقيع من صُنْع مُزوِّر ماهر جدّاً، فإنَّنا نعدُّه حقيقيّاً.

---

(1) (اسم مُقاطعة فرنسيَّة جنوبيَّة. المُترجم).

(2) (آخر المعلومات أفادتْنَا بأنَّها عادت ـ الآن ـ إلىٰ فرنسا. المُؤلِّفون).

بالتَّأكيد؛ لا نستطيع أنْ نُميِّزه من النَّماذج الأُخْرَىٰ لتوقيع كُوكتُو. وعلىٰ هذا الأساس؛ قبلنا بأنَّ تلك التَّشريعات التي تحمل التَّوقيع الأصلي هي صحيحة[1]، وهي كالتالي:

البند الأوَّل ـ شُكِّل، بين المُوقِّعين أدناه علىٰ هذا الدُّستُور الحالي وأُولئك الذين سينضمُّون فيما بعد ذلك، ويُحقِّقون الشُّروط التَّالية، نظاماً أوَّليّاً من الفُرسان، والذي أعرافه وتقاليده وعاداته تستند إلىٰ المُؤسَّسة التي أُنشئت من قِبَل غُودفرُوي السَّادس، المَدْعو بالتَّقي، دُوق دُو بُولوين، في القُدْس عام 1099، والذي عُرِفَ عام 1100.

البند الثَّاني ـ النِّظام يُدعَىٰ «دَيْر الرُّهبان الصّهاينة»، أو «دَيْر صهيُون».

البند الثَّالث ـ كأهداف لدَيْر دَيْر صهيُون، تخليد النِّظام الفُرسان التَّقليدي، وتعاليمه الأوَّليَّة خَلْق المُساعدة المُتبادلة بين الأعضاء، ماديَّاً بقدر ما هُو معنويَّاً، في كُلِّ الظُّرُوف.

البند الرَّابع ـ مُدَّة دَيْر صهيُون غير محدودة.

البند الخامس ـ دَيْر صهيُون يتبنَّىٰ ـ كمكتبه التَّمثيلي ـ مقرَّ الأمين العامّ، والذي يُسمَّىٰ من قِبَل المجلس. دَيْر صهيُون ليس جمعيَّة سرِّيَّة. كُلُّ مراسيمه ـ بالإضافة إلىٰ سجلَّاته، ومواعيده ـ مُتوفِّرة للجُمهُور بالنَّصِّ اللَّاتيني.

البند السَّادس ـ دَيْر صهيُون يشمل 121 عُضواً. ضمن هذه الحُدُود، هُو مفتوح لكُلِّ الأشخاص البالغين، الذين يعرفون أهدافه، ويقبلون الالتزامات التي حُدِّدَت في هذا الدُّستُور الحالي. الأعضاء يُقبَلُون بدُون أيِّ اعتبار للجنس، للعرْق، أو للفَلْسَفَة المُتعلِّقة بطبيعة الحقيقة، الأفكار الدِّينيَّة، أو السِّياسيَّة.

البند السَّابع ـ مع ذلك، في حال أراد العُضو ـ يُعيِّن كتابة أحد أحفاده لخلفه، فإنَّ المجلس سيستجيب لهذا الطَّلَب، وقد يلتزم ـ عند الضَّرورة، في حالة الأقلِّيَّة، بتعليم المُنتسب أعلاه.

---

(1) (طبقاً للإصدار الثَّاني، والذي يحمل تاريخ 3 يُونيُو/ حُزَيْرَان 1956؛ أنَّه عُقِد اجتماع في ذلك الأُسْبُوع لمُناقشة التَّشريعات. التَّشريعات التي تحمل توقيع كُوكتُو تحمل تاريخ 5 يُونيُو/ حُزَيْرَان 1956. المُؤلِّفون).

البند الثامن - أيُّ عُضو مُستقبلي من أجل أنْ يُنصَّب للدَّرجة الأُولىٰ عليه أنْ يحصل - من نفقته الخاصَّة - علىٰ عباءة بيضاء، وحزام. من لحظة دُخُوله إلىٰ الدَّرجة الأُولىٰ، يحصل للعُضو حقُّ التَّصويت. عند الدُّخُول، العُضو الجديد يجب أنْ يُقسِم علىٰ خدمة النِّظام في كُلِّ الظُّرُوف، بالإضافة إلىٰ العمل من أجل السّلام، واحترام الحياة الإنسانيَّة.

البند التَّاسع - العُضو - عند الانتساب - عليه أنْ يدفع أجراً رَمْزيّاً، مقداره اختياري. كُلُّ سنة، عليه أنْ يُرسل إلىٰ الأمانة العامَّة للنِّظام مُساهمة ماليَّة اختياريَّة، يُقرِّرها وحده.

البند العاشر - عند الانتساب، علىٰ العُضو أنْ يُقدِّم شهادة ميلاد، ونموذجاً يحمل توقيعه.

البند الحادي عشر - العُضو في دَيْر صهيُون الذي أُعلن ضدَّه حُكْم صادر عن المحكمة، نتيجة مُخالفته للقانون العامّ، قد تُعلَّق واجباته، ومناصبه، بالإضافة إلىٰ عُضويَّته.

البند الثَّاني عشر - الاجتماع العامُّ للأعضاء هُو الذي يُعيِّن المجلس. لا يُعدُّ أيُّ تشاور للمجلس ساري المفعول إذا كان عدد الأعضاء الحاضرين أقلّ من واحد وثمانين. إنَّ التَّصويت سرِّيٌّ، ويتمُّ باختيار الكُرات البيضاء، والسَّوداء. لكي يتمَّ التَّبنِّي، كُلُّ الاقتراحات يجب أنْ تحصل علىٰ الكُرات البيضاء الـ81. كُلُّ الاقتراحات التي لا تحصل علىٰ 61 كُرة بيضاء في التَّصويت - قد - لا يُعاد تقديمها.

البند الثَّالث عشر - مجلس دَيْر صهيُون وحده يُقرِّر - بأغلبيَّة 81 صوتاً من أصل 121 عُضواً - كافَّة التَّغييرات علىٰ الدُّستُور، وعلىٰ الأنظمة الدَّاخليَّة الشَّعائريَّة.

البند الرَّابع عشر - القبول يُقرَّر من قِبَل «مجلس الصَّليب الوَرْدي الثَّلاثة عشر». المناصب والواجبات تُمنَح من قِبَل السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون. الأعضاء يدخلون إلىٰ منصبهم مدىٰ الحياة. يحقُّ لهم تحويل المناصب إلىٰ أحد أطفالهم، الذين يختارونهم بأنفسهم، دُون أيِّ اعتبار للجنس. وبالتَّالي؛ رُبَّما يقوم الطفل المُعيَّن بالتَّنازل عن حُقُوقه، لكنَّه لا يستطيع القيام بذلك لمصلحة الأخ، أو الأُخت، أو النَّسيب، أو أيِّ شَخْص آخر. وقد لا يُدخَل ثانية إلىٰ دَيْر صهيُون.

البند الخامس عشرـ ضمن مُدَّة 27 يوماً بالكامل، سيتمُّ تنظيم عُضوَيْن للاتِّصال بعُضو مُستقبلي؛ للحُصُول علىٰ مُوافقته، أو عن تخلِّيه. في حال فشل القبول بعد تفكير طويل لُمدَّة 81 يوماً كاملاً، سيتمُّ الاعتراف قانونيّاً بعمليَّة الرَّفض، وسيُعَدُّ المكان شاغراً.

البند السَّادس عشرـ استناداً إلىٰ الحقِّ الوراثي المُؤكَّد بالبُنُود السَّابقة، واجبات ومناصب السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون ستنتقل إلىٰ وريثه طبقاً لنفس الامتيازات. في حالة كان منصب السَّيِّد الأعظم شاغراً، وغياب الوريث المُباشر، المجلس يجب أنْ يقوم بإجراء انتخاب خلال 81 يوماً.

البند السَّابع عشرـ المراسيم والقرارات يجب أنْ يتمَّ التَّصويت عليها من المجلس، وتُمْهَر بخَتْم السَّيِّد الأعظم. الأمين العامّ يتمُّ تسميته من خلال المجلس لُمدَّة ثلاث سنوات، قابلة للتَّجديد بالقبول الضِّمني. الأمين العامُّ يجب أنْ يكون من درجة القائد ليشرع بواجباته. الوظائف والواجبات غير مأجورة.

البند الثَّامن عشرـ التَّسلسل الهَرَميُّ في دَيْر صهيُون مُؤلَّف من خمسة مناصب:

1) المُرشد؛ «نُوتُونيير»؛ (Nautonnier):	1	عُضو
2) الصَّليبيُّون (Croises):	3	أعضاء
3) القادة (Commadeurs):	9	أعضاء
4) نُبلاء (من الدَّرجة الدُّنيا) (Chevaliers):	27	عُضواً
5) إيكايرز (Ecuyers):	81	عُضواً
العدد الكُلِّي:	121	عُضواً

الأعضاء الـ13 في المراتب الأُولىٰ الثَّلاثة هُم رُؤساء فُرسان الصَّليب الوَرْدي الثَّلاثة عشر.
(Croix_Arche of the 13 Rose)

القادة التِّسعة هُم قادة الهَيكَل. (Commandenes of the Temple)

البند التّاسع عشر ـ هُناك الأخوة الأحرار، عددهم 243، يُسمّون «برُوكس»، أو يُسمّون مُنْذُ عام 1681، بـ«ناشئي القدّيس فنسينت» (Enfants de Saint Vincent)، الذين لا يُشاركون؛ لا في الصَّوت، ولا في المجلس (مجلس العُمُوم)، ولكنْ؛ يمنحهم دَيْر صهيُون بعضَ الحُقُوق والامتيازات وُفق مرسوم 17 يناير/ كانون الثّاني عام 1681.

البند العشرون ـ الرَّيْعُ المادّيّ لـدَيْر صهيُون يتكوَّن من الهدايا والأُجُور من الأعضاء. الاحتياطي، الذي يُسمَّىٰ «إرث النِّظام»، مسؤول عنه مجلس الأعضاء الثّلاثة عشر في الصَّليب الوَرْدي. هذا الكَنز قد يُستعمَل ـ فقط ـ في حالة الضَّرورة المُطلقة، وفي حالة الخَطَر الشَّديد علىٰ الدَّيْر، وعلىٰ أعضائه.

البند الواحد والعشرون ـ يتمُّ الدَّعوة لعقد مجلس عُمُوم من قِبَل الأمين العامّ عندما يُقرُّ مجلس الصَّليب الوَرْدي بأنّه ضروري.

البند الثّاني والعشرون ـ إنكار العُضويَّة في دَيْر صهيُون، المُوضَّح عَلَنَاً وكتابة، وبدُون سبب، أو أيِّ خطر شَخصي، سيُؤدِّي إلىٰ إبعاد العُضو وُفقاً لقرار المجلس.

نصُّ الدُّستُور في 22 بنداً، مُتوافق مع النَّصِّ الأصلي، ومع تعديل المجلس في الخامس من يُونيُو/ حُزَيْرَان عام 1956.

توقيع السَّيِّد الأعظم

جين كُوكتُو

في بعض التَّفاصيل؛ تختلف هذه التَّشريعات عن التَّشريعات التي استلمناها من الشّرطة الفرنسيَّة، وعن المعلومات التي تتعلَّق بدَيْر صهيُون في «وثائق الدَّيْر». وثائق الدَّيْر تُصرِّح بأنَّ العدد الكُلِّيَّ للأعضاء هُو 1093، بينما في تشريعات الشّرطة الفرنسيَّة الأعضاء هُم 9.841، أمّا في هذه التَّشريعات الأخيرة؛ فالعدد الكُلِّيُّ بمَنْ فيهم النّاشؤون الـ243 «ناشئو القدّيس فنسينت» هُم ـ فقط ـ 364.

علاوةً علىٰ ذلك؛ «وثائق الدَّيْر» تُصرِّح بأنَّ التَّسلسل الهَرَميَّ مُؤلَّف من سبع مناصب. أمّا تشريعات الشّرطة الفرنسيَّة فقد وصل العدد إلىٰ تسعة. وطبقاً للتَّشريعات أعلاه؛ هُناك خمس مناصب

ـ فقط ـ في التَّسلسل الهَرَمي. والمناصب المُحَدَّدة في هذا التَّسلسل تختلف عن تلك التي في المصدرَيْن السَّابقَيْن أيضاً.

هذه التَّناقضات ـ لرُبَّما ـ تكون دليلاً علىٰ نوع من الانشقاق الدِّيني، أو الانشقاق الدِّيني البدائي، ضمن دَيْر صهيُون، بدأ مُنْذُ حوالي عام 1956 ـ وذلك عندما بدأت «وثائق الدَّيْر» بالظُّهور لأوَّل مرَّة، في المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة.

وفي الحقيقة؛ يُلمِّح فيليب دُو تشيريسي ـ تماماً ـ إلىٰ مثل هذا الانشقاق الدِّيني في مقالة كتبها مُؤخَّراً. يقول إنَّ ذلك حصل بين عامَيْ 1956 و 1958، وهدَّد بأنْ يتَّخذ أبعاد الشّقّ الذي حَصَلَ بين بين دَيْر صهيُون ونظام الهَيكَل عام 1188 ـ الشقّ الذي يُشار إليه بـ«قَطْع الدّردار». طبقاً لـ دُو تشيرسي؛ الانشقاق الدِّيني تمَّ تفاديه بالمهارة الدّبلُوماسيَّة التي أبداها بلانتارد، الذي أعاد المُنشقِّين المُحتمَلين إلىٰ الجماعة.

علىٰ أيِّ حال من الأحوال، ومهما كانت السِّياسة الدَّاخليَّة لدَيْر صهيُون، يبدو أنَّ النِّظام ـ ابتداءً من جلسة يناير / كانون الثَّاني عام 1981 ـ قد شكَّل وحدة مُتماسكة.

إنْ كان فرانسوا دُوكُود بُورجيت هُو السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون، فمن الواضح أنَّه ليس كذلك الآن. دُو تشيرسي أعلن أنَّه لم يكن قد انتُخِبَ بالنِّصاب الكامل. هذا قد يعني بأنَّه قد انتُخِبَ من قِبَل المُنشقِّين الأوَّليِّيْن.

علىٰ أيَّة حال، أنكر ـ علىٰ الإطلاق، وبشكل عَلَني ـ انتسابه للنِّظام.

وبالتَّالي؛ هُو ينتهك البندَ الثَّاني والعشرين من التَّشريعات. وهكذا يُمكننا أنْ نفترض بأنَّ انتسابه إلىٰ دَيْر صهيُون ـ أيَّاً كان منصبه في الماضي ـ هُو غير مُمكن بعد الآن.

التَّشريعات المُقتبَسَة أعلاه لا تُوضِّح ـ فقط ـ وَضْعَ فرانسوا دُوكُود بُورجيت. هي ـ أيضاً ـ تُوضِّح مبدأ الانتخاب الذي يُعيِّن السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون. أصبح مفهوماً ـ الآن ـ سبب وُجُود أسياد عظام بعُمر الخامسة، أو الثَّامنة. ومن المفهوم ـ أيضاً ـ أنَّ السِّيادة العُظْمَىٰ يجب أنْ تنتقل ـ كما هُو الحال ـ جيئة وذهاباً ضمن سُلالة مُعيَّنة، وضمن شبكة خفيَّة من السُّلالات المُرتبطة. من هذا

المبدأ؛ يبدو أنَّ المنصب وراثي، وانحدر عبر القُرُون ضمن عُنقُود مُتشابك من العائلات، التي تـدَّعي كُلُّها بأنَّها ذات أُصُول ميرُوفينجيَّة.

علىٰ أيَّة حال، عندما المُرشَّح يـرفض المنصب المُخوَّل إليه، فإنَّ السِّيادة العُظمَىٰ ـ بمُوجب الإجراءات التي خُصِّصَتْ في التَّشريعات، سوف تُمنَح لشَخص خارجي يـتمُّ اختيـاره. بمثـل هـذه الطَّريقـة ـ لرُبَّما ـ وجد أشخاصاً مثل ليُوناردُو، ونيُوتن، ونُوديير، وكُوكتُو، طريقهم إلىٰ قائمة الأسياد العظام.

بلانتارد دُو سانتكلير

من بين الأسماء التي وردت ـ بوُضُوح شديد، وبشكل مُتكرِّر في «وثائق الدَّير» المُختلفة ـ كانـت لآل بلانتارد. ومن بين العديد من الأفراد الذين ارتبطـوا بلُغـز سُـونير وريـن لُـو شـاتُو، يبـدو أنَّ بيير بلانتارد هُو الأكثر اعتماداً وقبولاً، أو كما يُشير ـ الآن ـ إلىٰ اسمه بأنَّه «بيير بلانتارد دُو سانتـكلير[1]».

طبقاً للأنساب في «وثائق الدَّير»؛ بلانتـارد يتحـدَّر ـ مُبـاشرة ـ مـن الملـك داغُـوبرت الثَّـاني، وسُلالة الميرُوفيِّين. طبقاً لنفس الأنساب؛ هُو ـ أيضاً ـ يتحدَّر ـ مُباشرة ـ مـن مـالكي قلعـة بـاربيري، تلك المُقاطعة التي دُمِّرَتْ من قِبَل الكاردينال مازارين عام **1659**.

في كافَّة مراحل تحقيقنا؛ صادفنَا اسم بلانتارد، مراراً، وتكراراً.

في الحقيقة، بقدر ما تمَّ تحرير العديد من المعلومات في السَّنوات الخمس والعشرين الأخيرة، أو بقدر ما هُو مُرتبط بالموضوع، يبدو أنَّ كُلَّ الآثار تُوصل ـ في النِّهاية ـ إليه.

في **1960**، علىٰ سبيل المثـال، التقـىٰ بجـيرارد دُو سـيد، وتحـدَّث عـن «سرٍّ دولي» أُخفـي في جيزرز. أثناء العقد اللَّاحق يبدو بأنَّه كان مصدر المعلومـات الـرَّئيس لكُتُـب دُو سـيد عـن جيـزرز، ورين لُو شاتُو كلَيْهما[2].

---

(1) (أثناء قيامنا بكتابة هذا الكتاب، قُمنَا بالاستعانة بعدد كبير من الأعمال التي تتعلَّق بعلْم الأنساب للعائلات النَّبيلة، القديمة والمُعاصرة. لم نجد ـ أبداً ـ أيَّة إشارة إلىٰ لقب بلانتارد دُو سانتـكلير. علىٰ أيَّة حال، هذا الإخفاق في إيجاد اسمه لا يُبطل الادِّعاء، خُصُوصاً بأنْ يعترف بأنَّه كان سرِّيّاً لقُرُون. المُؤلِّفون).

(2) (أثناء قيامنا بإنجاز فيلم «الكَاهن والرَّسَّام والشَّيطان» للـBBC، استلمْنَا من ناشري دُو سيد كَمِّيَّة كبيرة مـن المـوادِّ البَصَريَّة، التي استُعمِلَتْ في الكُتُب. كُلُّ الصُّور كان عليها خَتْمُ «بلانتارد» علىٰ الظَّهر. المُؤلِّفون).

طبقاً لعمليَّات الكَشْف الأخيرة؛ جَدُّ بلانتارد كانت يعرف بيرينجر سُونير شَخْصيّاً، *وبلانتارد أثبت امتلاكه الشَّخصي لعدد من الأرضي علىٰ مقربة من رين لُو شاتُو، ومن رين لُو بينز،* بما فيها جبل بلانتشفُورت.

عندما أجرينا لقاءً مع تاجر آثار في بلدة ستيناي في آردينيه، أخبرنا بأنَّ موقع الكَنيسَة القديمة للقدِّيس داغُوبرت يمتلكه ـ أيضاً ـ بلانتارد.

وطبقاً للتَّشريعات التي حصلنا عليها من الشّرطة الفرنسيَّة؛ بلانتارد أُدرِجَ اسمه كأمين عامٍّ لدَيْر صهيُون.

في عام 1973، نشرت مجلَّة فرنسيَّة ما تبدو بأنَّها نُسخة طبق الأصل لاتِّصال هاتفي مع بلانتارد. لا عجب أنَّه لم يُعط المزيد. كما هُو مُتوقَّع، بياناته كانت مُتحفِّظة، وغامضة، ومُحيِّرة، ومُثيرة. في الحقيقة، حديثه وَلَّدَ أسئلةً أكثر من الأجوبة التي قدَّمها. مثلاً، عندما كان يتكلَّم عن سُلالة الميرُوفيِّيْن وادِّعاءاته بالمَلَكيَّة، صرَّح: «عليكم أنْ تستكشفوا أُصُول بعض العائلات الفرنسيَّة العظيمة، وبعد ذلك ستفهمون كيف أنَّ شَخْصاً ما اسمه هنري دُو مُونتبيزت يُمكن أنْ يُصبح ملكاً يوماً ما. وعندما سُئِل عن أهداف دَيْر صهيُون، أجاب بلانتارد بأُسلُوب التَّهرُّب، الذي كان مُتوقَّعاً منه «أنا لا أستطيع إخباركَ بذلك. الجمعيَّة التي أنا مُتَّصل بها هي قديمة جدّاً. وأنا لست إلَّا مُجرَّد وريث للآخرين، أنا نُقطة في سلسلة. نحنُ وُصاة علىٰ بعض الأشياء المُحَدَّدة. وبدُون دعاية».

المجلَّة الفرنسيَّة نفسها نشرت ـ أيضاً ـ مُسوَّدة لشَخْصيَّة بلانتارد، كُتِبَتْ من قِبَل زوجته الأُولىٰ، «آن لي هيسلر»، التي ماتت عام 1971. إنْ كان يجب تصديق المجلَّة، هذه المُسوَّدة ظهرت في «Circuit»، وهي النَّشرة الدَّاخليَّة الخاصَّة بدَيْر صهيُون، والتي قيل إنَّ بلانتارد يكتب فيها بانتظام تحت اسم مُستعار «شيرين»:

دعونا لا ننسىٰ بأنَّ هذا العالِم النَّفساني كان صديقاً لشَخْصيَّات بارزة مُتنوِّعة؛ مثل كُومت إسرائيل مُونتي، أحد الأخوة من مُنظَّمة «Holy Vehm»، غابريل تراريُو ديغمُونت، أحد الأعضاء الثَّلاثة عشر للصَّليب الوَرْدي، بُول ليكُور، فيلسوف عن قارَّة أطلانطس، آبي هُوفيت عُضو في مركز

خدمة التَّوثيق في الفَاتيكَان، ث.مُوراكس، مُدير المعهد المُوسيقي في بُورجيز، إلخ. دَعْنَا نتذكَّر بأنَّه ـ أثناء الاحتلال ـ تمَّ اعتقاله، وقد عانىٰ من التَّعذيب من قِبَل الجستابُو، وحُجز كسجين سياسي لشُهُور طويلة. في إمكانيَّاته كدُكتُور في العُلُوم الغامضة، تعلَّم تقدير قيمة المعلومات السِّرِّيَّة، ممَّا لا شكَّ فيه أدَّىٰ إلىٰ استلامه لمنصب عُضو فخري في عدَّة جمعيَّات سرِّيَّة. كُلُّ ذلك اجتمع ليُشكِّل شَخصيَّة بارزة فريدة، مُتصوِّف السَّلام، حواري الحُرِّيَّة، زاهد، هدفه أنْ يخدم عافية الإنسانيَّةونجاتها .

بالتَّالي؛ هل من المُدهش أنَّه يجب أنْ يُصبح أحد الأشخاص الباطنيِّيْن الأقوياء، الذين عُظماء هذا العالم يُريدون استشارتهم؟!

مَدْعُوَّاً في عام 1947، من قِبَل الحُكُومة الاتِّحاديَّة في سويسرا، استقرَّ لعدَّة سنوات هُناك، قُرب بُحيرة ليمان؛ حيثُ يتجمَّع السُّفراء والمندوبون بأعداد هائلة من دول العالم كافَّة.

السَّيِّدة هيسلر ـ بلا شكٍّ ـ كانت تنوي أنْ يكون ذلك تصويراً مُبهراً، ومُتوهِّجاً.

علىٰ أيَّة حال، ما لاحظناه هُو الإحساس بالتَّفرُّد المُطلق عن أيِّ شيء آخر. في بعض النّقاط كانت لُغة السَّيِّدة هيسلر مُبهَمَة، ومُتَّسمة بالغُلُوِّ.

علاوةً علىٰ ذلك؛ الأشخاص البارزون المُتنوِّعون الذين أُدرِجوا كأصدقاء لبلانتارد ـ علىٰ أقلِّ تقدير ـ هُم مجموعة شاذَّة نوعاً ما.

من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ حظُّ بلانتارد العاثر مع الجستابُو[1] يُشير إلىٰ النَّشَاط الجدير بالاحترام أثناء الاحتلال. وحصل باحثونا الخاصُّون علىٰ دليل وثائقي في النِّهاية. حوالي عام 1941، بيير بلانتارد بدأ بتحرير مجلَّة المُقاومة، اسمها فينكر «Vaincre»، نُشِرَتْ في ضواحي باريس. سُجِنَ من قِبَل جستابُو لأكثر من سنة، من أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل 1943 حتَّىٰ نهاية 1944[2].

---

(1) (جستابُو «Geheime Staatspolizei» أو شرطة الدّولة السِّرِّيَّة، اسم شائع للشّرطة السِّياسيَّة الإرهابيَّة للنِّظام النَّازي في ألمانيا من 1933 إلىٰ 1945؛ تقنيّاً، علىٰ أيَّة حال، التَّعبير يُعزَىٰ ـ فقط ـ إلىٰ سُلطتها التَّنفيذيَّة. أُسِّسَتْ من قِبَل هيرمان جُورينغ، أحد مُساعدي أدولف هِتْلَر، في أبريل/ نيسان 1933. المُترجم).

(2) (استلمْنَا من بلانتارد نُسخة عن وثيقة رَسْميَّة مُصدَّقة من قِبَل أحد أعضاء جَوْقَة الشَّرف الفرنسيَّة، وضابط في المُقاومة الفرنسيَّة، أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية، تذكر أنَّ بيير بلانتارد أصدر مجلَّة المُقاومة «Vaincre» بشكل سرِّيٍّ مُنْذُ عام

أصدقاء وشُركاء بلانتارد ثبت أنَّهم أشخاص ـ نوعاً ما ـ أكثر شُهرَة من أُولئك الذين أدرجت السَّيِّدة هيسلر أسماءهم. من بينهم أندريه مالرُو[1]، وتشارلز ديغُول[2].

في الحقيقة؛ ارتباطات بلانتارد ـ علىٰ ما يبدو ـ أنَّها تغلغلت ـ بشكل جيِّد ـ في أروقة السُّلطة. في 1958 ـ علىٰ سبيل المثال ـ كانت الثَّورة الجزائريَّة قد انتهت، والجنرال ديغُول أراد العودة إلىٰ رئاسة فرنسا. يبدو أنَّه طلب المُساعدة ـ بشكل مُحَدَّد ـ من بلانتارد. بلانتارد، مع أندريه مالرُو وآخرون، يبدو أنَّه استجاب بتعبئة ما يُسمَّىٰ بلجان السَّلامة العامَّة ـ التي لعبت دوراً حسَّاساً في إرجاع ديغُول إلىٰ قصر إليسي.

في رسالة مُؤرَّخة في 29 يُوليُو/ تمُّوز 1958، شكر ديغُولُ ـ شَخْصيّاً ـ بلانتاردَ علىٰ خدماته. في رسالة ثانية؛ أُرِّخَتْ ـ بعد ذلك ـ بخمسة أيَّام، الجنرال طلب من بلانتارد بأنْ يتمَّ حَلُّ اللِّجان، بعد أنْ أنجز هدفها. في بيان رَسْمي في الصّحافَة، وفي الإذاعة، قام بلانتارد بحَلِّ تلك اللِّجان.

لا حاجة للقول إنَّه كُلَّما تقدَّمنا في أبحاثنا أصبحنا أكثر تلهُّفاً للتَّعرُّف علىٰ بلانتارد.

1941. تُصرِّح ـ علاوةً علىٰ ذلك ـ بأنَّ بلانتارد سُجِنَ من قِبَل الجستابُو من أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل 1943 حتَّىٰ فبراير/ شُباط 1944. هذه الوثيقة تحمل خَتْمَ وتاريخ 11 مايو/ مايس 1953. التَّدقيق في ذلك لم يكن بالأمر السَّهل؛ أوَّلاً، كان هُناك العديد من المجلَّات التي اسمها «Vaincre»، والتي نُشِرَت من قِبَل مجموعات المُقاومة المُختلفة أثناء الحرب. قُمنَا بمُراسلة «الخدمة التَّاريخيَّة للجيش الفرنسي» نسألهم عن تفاصيل حول نشاطات المُقاومة لبلانتارد. استلمْنَا رسالة من وزارة الدِّفاع الفرنسيَّة تُعلمنا بأنَّ هذه المعلومات كانت شَخْصيَّة وسرِّيَّة. المُؤلِّفون).

(1) (أندريه مالرُو 1901 ـ 1976، روائي فرنسي، وعالم آثار، وعالم في الفنِّ النَّظَري، وناشط سياسي، ومسؤول عامّ، والذي كتاباته كانت مُساهمات رئيسة في ثقافة القرن العشرين. المُترجم).

(2) (تشارلز أندريه جُوزيف ماري ديغُول 1890 ـ 1970، جنرال، ورجل دولة فرنسي، مُخطِّط الجُمهُوريَّة الفرنسيَّة الخامسة، ورئيسها الأوَّل 1959 ـ 1969. في الحرب العالميَّة الأُولىٰ؛ اشترك في معركة فيردُون عام 1916، وجُرِحَ ثلاث مرَّات، وأخيراً؛ أُسِرَ من قِبَل الألمان. بعد سُقُوط فرنسا في الحرب العالميَّة الثَّانية، هرب إلىٰ لندن، ومن هُناك؛ أعلن تشكيل اللَّجنة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة، والتي تمَّ الاعتراف بها من قائد المُقاومة في فرنسا، ومن قِبَل جيش الحُلفاء عام 1942. وقام بقيادة جُيُوش المُقاومة وجيش فرنسا الحُرَّة، الذي شكَّله في لندن، وقام بالقتال إلىٰ جانب الحُلفاء، وبالمُقاومة داخل فرنسا المُحتلَّة من قِبَل ألمانيا آنذاك. 1940، قام بهُجُوم ناجح علىٰ السّنغال. 1941، ساعد القُوَّات البريطانيَّة في الاستيلاء علىٰ سُوريا... المُترجم).

علىٰ أيَّة حال؛ يبدو ـ في بادئ الأمر ـ أنَّه لم يكن هُناك إمكانيَّة كبيرة للقيام بذلك. بلانتارد بدا أنَّه غير قابل للتَّقصِّي، ولم يبد أنَّه لم يكن هُناك أيَّة طريقة يُمكننا ـ كأشخاص بمُفردنا ـ أنْ نُحدِّد مكانه.

بعد ذلك، في أوائل ربيع عام **1979**، بدأنا بعمل فيلم آخر عن رين لُو شاتُو في الـ«BBC»، التي وضعت مصادرها تحت تصرُّفنا. وتحت رعاية الـ«BBC»، استطعنا ـ أخيراً ـ إجراء اتِّصال مع بلانتارد، ومع دَيْر صهيُون.

التَّحقيقات الأوَّليَّة قامت بها امرأة إنجليزيَّة، صُحُفيَّة تعيش في باريس، والتي عملت في مشاريع مُختلفة في الـ«BBC»، والتي اكتسبت شبكة بارزة من العلاقات والارتباطات في أنحاء فرنسا كافَّة، تلك العلاقات ـ التي من خلالها ـ حاولتْ إيجادَ دَيْر صهيُون.

في بادئ الأمر، في مَسْعَاها من خلال «المجموعات المُتعدِّدة» الغامضة والسِّرِّيَّة للمحافل الماسُونيَّة، ولدَيْر صهيُون، صادفتْ ستارة دُخان مُتوقَّعة من الحَيْرَة، والتَّناقض. علىٰ سبيل المثال، أحد الصُّحُفيِّيْن حذَّرها بأنَّ أيَّ شَخْص يتقصَّىٰ ـ بشكل مُباشر ـ دَيْر صهيُون، فإنَّه ـ عاجلاً، أم آجلاً، سيُقتَلُ. صُحُفيٌّ آخر أخبرها بأنَّ دَيْر صهيُون ـ في الحقيقة ـ وُجِدَ أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ، لكنَّه لم يعد موجوداً اليوم.

من ناحية أُخرىٰ، مسؤول كبير في محفل ألبينا ذَكَرَ بأنَّ دَيْر صهيُون موجود اليوم، ولكنَّه مُنظَّمة حديثة، وأنَّه لم يكن ـ أبداً ـ موجوداً في الماضي.

وبينما هي تشقُّ طريقها خلال هذه الفوضىٰ الغامضة، قامت ـ أخيراً ـ باحثتنا بالاتِّصال مع جينلُوك تشُوميل، الذي أجرىٰ لقاء لمجلَّة مع بلانتارد، وَكَتَبَ علىٰ نطاق واسع عن رين لُو شاتُو، وسُونير، ودَيْر صهيُون. قال تشُوميل إنَّه لم يكن عُضواً في دَيْر صهيُون، لكنَّه قادر علىٰ أنْ يتَّصل ببلانتارد، ومن المُحتمل أنْ يُرتِّب لنا اجتماعاً معه.

في هذه الأثناء؛ زوَّد باحثتنا بأجزاء إضافيَّة من المعلومات.

طبقاً لتشُوميل؛ دَيْر صهيُون لم يكن ـ علىٰ وجه التَّحديد ـ «جمعيَّة سرِّيَّة»، وكُلُّ ما هُنالك هُو أنَّ دَيْر صهيُون يرغب بأنْ يكون مُتحفِّظاً حول وُجُوده، ونشاطاته، وعُضويَّته. وأضاف أنَّ المعلومات

التي نُشِرَتْ في مجلَّة «جُورنال أُوفيشيل» كانت مُزوَّرة، وُضِعَتْ هُناك من قِبَل أعضاء مُعيَّنين «مُرتدِّين» عن النِّظام.

طبقاً لتشُوميل؛ التَّشريعات التي سُجِّلَتْ عند الشّرطة كانت مُزوَّرة أيضاً، صادرة عن نفس الأعضاء «المُرتدِّين».

أكَّد تشُوميل شُكُوكَنا بأنَّ دَيْر صهيُون فكَّر بخُطَط سياسيَّة طموحة للمُستقبل القريب. صرَّح أنَّه ـ خلال بضع سنوات ـ سيكون هُناك تغيير مُثير في الحُكُومة الفرنسيَّة، التَّغيير الذي سيُمهِّد الطَّريق للمُلكيَّة شعبيَّة، يحكمها الميرُوفيُّون. وصرَّح ـ أبعد من ذلك ـ أنَّ دَيْر صهيُون سيكون وراء هذه التَّغييرات، وهُو الذي كان وراء التَّغييرات المُهمَّة الأُخْرىٰ العديدة علىٰ مَرِّ القُرُون.

طبقاً لتشُوميل؛ دَيْر صهيُون كان مُعادياً للمذهب المادِّيِّ، ومُصمِّماً علىٰ القيام بإعادة «القِيَم الحقيقيَّة»، التي ـ علىٰ ما يبدو ـ أنَّها القِيَم الرُّوحيَّة، ورُبَّما ذات الصِّفات الباطنيَّة. وأضاف تشُوميل أنَّ هذه القِيَم كانت ـ في الأساس ـ قبل العهد المسيحي، علىٰ الرّغم من التَّوجُّه المسيحي لدَيْر صهيُون، وعلىٰ الرّغم التَّشدُّد الكَاثُوليكي في التَّشريعات.

أكَّد تشوميل ـ أيضاً ـ بأنَّ السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون ـ في ذلك الوقت ـ كان ـ في الحقيقة ـ فرانسوا دُوكُود ـ بُورجيت. عندما سُئِلَ كيف أنَّ التَّقليديَّة الكَاثُوليكيَّة ـ التي ظهرت مُؤخَّراً ـ يُمكن أنْ تتَّفق مع القِيَم الـ«قبل ـ المسيحيَّة»، أجاب تشُوميل ـ بغُمُوض ـ بأنَّنا يجب أنْ نسأل آبي دُوكُود ـ بُورجيت بنفسه.

تشُوميل شدَّد علىٰ قِدَم دَيْر صهيُون، بالإضافة إلىٰ سَعَة عُضويَّته. قال بأنَّه يشمل أعضاء من كُلِّ مجالات الحياة، وأنَّ أهدافه لا تنحصر ـ بشكل خاصٍّ ـ في إعادة سُلالة الميرُوفيِّيْن. وفي هذه النُّقطة، قام تشُوميل بتصريح فُضُولي جدّاً لباحثنا.

قال أنْ ليس كُلُّ أعضاء دَيْر صهيُون من اليهُود. إنَّ نتيجة هذا البيان ـ الذي يبدو أنَّه لا صلة له بالموضوع ـ هي واضحة؛ وهي أنَّ بعض أعضاء النِّظام ـ إنْ لم يكن ـ في الحقيقة ـ أكثرهم ـ هُم يهُود. ومرَّة أُخرىٰ واجهنا تناقضاً مُحيِّراً. حتَّىٰ إنْ كانت التَّشريعات مُزوَّرة، فكيف يُمكننا أنْ نُوفِّق

بين نظام ذي عُضويَّة يهُوديَّة وبين السَّيِّد الأعظم، الذي اعتنق الكَاثُوليكيَّة التَّقليديَّة المُتطرِّفة، والذي يُعَدُّ مارسيل ليفيفر من بين أصدقائه المُقرَّبين، المشهور ببياناته المائلة لمُعاداة السَّاميَّة؟!

تشُوميل صرَّح ببيانات مُحيِّرة أُخرىٰ أيضاً. علىٰ سبيل المثال؛ تحدَّث عن «أمير لُورين»، الذي يتحدَّر من سُلالة الميرُوفيِّين، والذي «مهمَّته المُقدَّسة كانت ـ بالتَّالي ـ واضحة». هذا الزَّعم مُحيِّر لدرجة أكبر من حقيقة وُجُود أمير للُورين معروف اليوم، ولا حتَّىٰ لو كان أميراً فخريَّاً.

هل كان تشُوميل يُشير ـ بشكل ضمني ـ إلىٰ أنَّ مثل هذا الأمير كان موجوداً في الحقيقة، ورُبَّما كان يعيش مُتستِّراً؟

أم هل كان يعني أنَّ كلمة «أمير» هي معنىٰ أوسع لكلمة «وريث»؟

في هذه الحالة يكون الأمير الموجود في لُورين هُو الدُّكتُور أُوتُو فُون هابسبرغ، الذي يُعَدُّ الدُّوق الفخري للُورين (وملكاً فخريَّاً للقُدْس).

إجمالاً؛ أجوبة تشُوميل كانت أقلَّ أجوبة من كونها قواعد لأسئلة أُخرىٰ، وباحثتنا ـ في الوقت القصير الذي سُمح لها به للتَّحضير ـ لم تعرف ـ بالضَّبط ـ أيَّ أسئلة تُسأَل. علىٰ أيَّة حال، هي أحرزت تقدُّماً كبيراً بشَدِّ اهتمام الـ«BBC» للمسألة؛ لأنَّ الـ«BBC»، في القارَّة، تتمتَّع بالسُّمعة والشُّهرة بشكل كبير، وأكثر ممَّا هُو الحال في بريطانيا، وماتزال اسماً مُؤثِّراً.

في النَّتيجة، إمكانيَّة تدخُّل الـ«BBC» لم يُعامَل بخفَّة. «الدِّعاية» هي كلمة قويَّة جدَّاً، ولكنَّ فيلم الـ«BBC» الذي أكَّد ووثَّق بعض الحقائق كان فيلماً جذَّاباً، وسائل قويَّة لكَسْب الثِّقة، ولخَلْق مناخ، أو جوٍّ سيكُولُوجي، خُصُوصاً في العالم النَّاطق بالإنجليزيَّة. إنْ أصبح الميرُوفيُّون ودَيْر صهيُون مقبولين كـ«حقائق تاريخيَّة»، أو أُقِرَّ بهم كحقائق عامَّة؛ مثلاً كمعركة هاستينجز[1]، أو قتل تُوماس

(1) (معركة هاستينجز: إحدىٰ الاشتباكات العَسْكَريَّة الأكثر ضراوة في التَّاريخ الإنجليزي، حصلت في 14 أُكتُوبر/ تشرين الأوَّل 1066، بين الجيش الوَطَني تحت قيادة هارُولد الثَّاني، الملك السّكسُوني لإنجلترا، وبين قُوَّة الاحتلال تحت قيادة وليام، دُوق نُورماندي، بعدئذ؛ سُمِّي بـ«وليام الأوَّل» (الفاتح). ادَّعىٰ وليام أنَّ العَرْش الإنجليزي أُوكِلَ إليه من قِبَل ابن عمِّه إدوارد، الذي كان ملك إنجلترا بين 1042 و 1066. عارض وليام انتخاب هارُولد كملك لدىٰ موت إدوارد، وبِبَرَكَة البَابَا ألكساندر الثَّاني، الذي حَكَمَ 1061 ـ 1073، استعدَّ لغزو إنجلترا. المُترجم).

بيكيت[1]، فمن الواضح أنَّ ذلك لمصلحة دَيْر صهيُون. بلا شكٌّ، تلك الاعتبارات هي التي دفعت تشُوميل للاتِّصال ببلانتارد.

في النِّهاية، في مارس/ آذار 1979، برفقة مُنتجنا في الـ«BBC» رُوي دافيس، وباحثه الذي يعمل كمُنسِّق، تمَّ التَّحضير لاجتماع بيننا وبين بلانتارد. عندما حصل ذلك الاجتماع، كان أشبه باجتماع لعرَّابي[2] المافيا. عُقِدَ علىٰ «أرض مُحايدة» في سينما باريس، التي استُؤجِرَتْ من قِبَل الـ«BBC» لتلك المُناسبة، وكُلُّ حزب كان برفقته حاشيته.

أثبت بلانتارد أنَّه رجل مُبجَّل ومُهذَّب وأرستقراطي بشكل كتوم، لا يتفاخر بالظُّهُور، وذو أُسلُوب جليل وسريع الاستثارة، ولكنْ؛ بكلام لطيف. أثبت لنا ـ أيضاً ـ أنَّه ذُو سَعَة اطِّلاع هائلة وفطنة مُذهلة في العقل، موهوب في التَّلاعب الحذق الميَّال للدّعابة في إجاباته، ولكنْ؛ بعيد كُلَّ البُعْد عن الإغاظة. كان هُناك الكثير من التَّسلية اللَّطيفة، والوميض المُتساهل في عينَيه، من النَّوعيَّة العَمِّيَّة[3] تقريباً. بكُلِّ أُسلُوبه غير الحازم والبسيط، فَرَض سُلطة بارزة علىٰ رفاقه. وكان هُناك نوع ملحوظ من الزُّهد والتَّقشُّف لديه. هُو لم يتباه ـ أبداً ـ بالثَّروة. ملابسه كانت ذوَّاقة ومُحافظة وشكليَّة بشكل لا مُبال، لكنَّها لم تكن لا أنيقة بشكل تفاخري، ولا غالية. بقدر ما استطعنا معرفته، هُو لم يكن حتَّىٰ يقود سيَّارة.

في اجتماعانا الأوَّل، وفي الاجتماعَيْن بعده، بدا من الواضح لنا أنَّ بلانتارد لن يقول أيَّ شيء عن نشاطات دَيْر صهيُون، أو أهدافه في الوقت الحاضر. من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ أبدىٰ مُوافقته علىٰ إجابة أيَّة أسئلة لدينا عن التَّاريخ الماضي للنِّظام. وبالرّغم من أنَّه رفض طَرْحَ البيَانَات المُتعلِّقة

---

(1) (تُوماس بيكيت: جُعل رئيس أساقفة كانتيربُوري من قِبَل ملك إنكلترا هنري الثَّاني عام 1162. قاوم بيكيت مُحاولات هنري للسَّيطرة علىٰ شُؤُون الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة. بمُرُور الوقت؛ نما النِّزاع بينهما، وأصبح شديداً. أربعة من فُرسان هنري، تصرَّفوا بشكل انفرادي، قاموا بقَتْل بيكيت. وبعد أنْ حصلت بعض المُعجزات عند قَبْره كما يُزعَم، أعلنت الكَنيسَة الكَاثُوليكيَّة في رُومَا أنَّه قدِّيس في فبراير/ شُباط 1173. بعد ذلك؛ بدأ الحُجَّاج بزيارة كانتيربُوري بأعداد كبيرة، لدرجة أنَّ ضريحه أصبح أحد الأضرحة الثَّلاثة الأكثر شعبيَّة في أُورُوبا. المُترجم).

(2) (العرَّاب: الأب في العماد. المُترجم).

(3) (منسوب للعمِّ. المُترجم).

بالمُستقبل علىٰ الجُمهُور ـ في فيلم، علىٰ سبيل المثال ـ هُو تنازل لنا عن بضعة تلميحات يُمكن إعلانها للجُمهُور. علىٰ سبيل المثال، صرَّح بأنَّ دَيْر صهيُون ـ في الحقيقة ـ يمتلك الكَنز المفقود لهَيكَل القُدْس؛ الغنيمة التي سلبها جحافل تيتُوس الرُّومانيَّة عام 70 بعد الميلاد. ذكر بأنَّ هذه الكُنُوز «ستُعاد إلىٰ (إسرائيل) في الوقت المُناسب». لكنْ؛ مهما الأهمِّيَّة الآثاريَّة، أو التَّاريخيَّة، أو حتَّىٰ السِّياسيَّة لهذا الكَنز، بلانتارد أبعدها من أفكاره لاعتبارها أمراً ثانويَّاً. أصرَّ أنَّ الكَنز الحقيقي هُو «رُوحي». وأشار ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّ هذا «الكَنز الرُّوحي» يمتلك سرَّاً ما، علىٰ الأقلِّ بشكل جُزئي. بطريقة ما غير مُحَدَّدة، هذا السِّرُّ المَعْنيّ سوف يُسهِّل عمليَّة تغيُّر اجتماعيَّة رئيسة.

بلانتارد كرَّر ما قاله تشُوميل بأنَّه ـ في المُستقبل القريب ـ ستكون هُناك ثورة مُثيرة في فرنسا؛ ليست ثورة، بل تغيُّراً راديكاليَّاً في المُؤسَّسات الفرنسيَّة، والتي ستُمهِّد الطَّريق لإرجاع الحُكْم المَلَكي. هذا الزَّعْم لم ينتج عن إفراط عاطفي تنبُّؤي. بالعكس، بلانتارد طمأننا ـ ببساطة، وبشكل هادئ ـ بأنَّه أمر لا محالة واقع، وبأنَّه مُؤكَّد جدَّاً.

في حديث بلانتارد كان هُناك بعض التَّناقضات المُحيِّرة. علىٰ سبيل المثال، كان يبدو ـ أحياناً ـ أنَّه يتكلَّم نيابة عن دَيْر صهيُون، كان يقول «نحنُ» مُشيراً إلىٰ النِّظام. في أوقات أُخرىٰ؛ كان يبدو أنَّه يعزل نفسه ـ تماماً ـ عن النِّظام، يتكلَّم عن نفسه بشكل إفرادي، بأنَّه المُطالب بالحقِّ الميرُوفينجي، وبأنَّه الملك الشَّرْعي، وبأنَّ دَيْر صهيُون هُو حليفه، أو مُؤيِّده. بدا لنا أنَّنا نسمع ـ علىٰ الدَّوام ـ صوتَيْن مُتميِّزَيْن جدَّاً، اللَّذَيْن لم يكونا مُتوافقَيْن دائماً. الأوَّل كان صوت الأمين العامِّ لدَيْر صهيُون، الآخر كان صوت الملك المُتنكِّر، الذي «يُدير، ولا يحكم»، والذي عدَّ دَيْر صهيُون كمجلس شُورىٰ للملك. هذا الانقسام بين الصَّوتَيْن لم يكن ـ أبداً ـ عازماً بشكل مَرَضي، و بلانتارد لم يكن قادراً علىٰ الاقتناع بتوضيحه.

بعد ثلاثة اجتماعات مع بلانتارد وشُركائه لم نكن أكثر حكمة ممَّا كُنَّا عليه من قبلُ. عدا لجان السَّلامة العامَّة والرَّسائل من تشارلز ديغُول، لم نستلم أيَّة إشارة إلىٰ مدىٰ تأثير أو قُوَّة دَيْر صهيُون السِّياسيَّة ـ أو أيَّة إشارة عن أُولئك الرِّجال، الذين اجتمعنا معهم كانوا في المنصب والموقع الذي يُمكِّنهم من تحويل الحُكُومة والمُؤسَّسات في فرنسا. ولم نستلم أيَّة إشارة عن السَّبب في أنَّ سُلالة الميرُوفيِّيْن يجب أنْ تكون مُهمَّة جدَّاً، أو لماذا إعادتها يجب أنْ تُؤخَذ بجدِّيَّة أكبر من المُحاولات

المُختلفة لإعادة أيّة سُلالة مَلَكيَّة أُخرىٰ. مثلاً، هُناك العديد من المُطالبين بعودة سُلالة ستيوارت إلىٰ العَرْش البريطاني، وادِّعاءاتهم ـ علىٰ أقلّ تقدير وُفق ما يُؤكِّده المُؤرِّخون الحديثون ـ يستند علىٰ أُسُس صلبة، وبشكل أكبر ممَّا هُو الحال لدىٰ سُلالة الميرُوفيِّين.

وبالتَّالي، هُناك العديد من المُطَّالبين الآخرين بالعُرُوش المَلَكيَّة والتِّيجان الشَّاغرة في كافَّة أنحاء أُورُوبا، وهُناك أعضاء باقون علىٰ قيد الحياة من آل بُوربُون، وهابسبرغ، وهُوهينزُولرن[1]، ورُومانُوف. لماذا يجب مَنْحُهُم مصداقيَّة أقلّ من الميرُوفيِّين؟!

من النَّاحية «الشَّرعيَّة المُطلقة»، ومن وُجهة نَظَر تقنيَّة بحتة، يبدو أنَّ ادِّعاء الميرُوفيِّين ـ في الحقيقة ـ يأخذ الأولويَّة. لكنَّ المسألة مازالت تبدو أكَاديميَّة في العالم الحديث؛ أكاديمي بقدر ما يدَّعي رجل آيرلندي مُعاصر، تحدُّره من سُلالة المُلُوك الكبار لـ«تارا»[2].

مرَّة ثانية؛ اعتبرْنَا أنَّ دَيْر صهيُون طائفة صغيرة من «مجموعة طائشة» من الأشخاص، إنْ لم يكن خدعة بالكامل. وعلىٰ الرّغم من أنَّ كُلّ أبحاثنا الخاصَّة أشارت بأنَّ النِّظام ـ في الماضي ـ كان يمتلك قُوَّة حقيقيَّة ومُشتركة في أُمُور ذات أهمِّيَّة دوليَّة عالية المُستوىٰ.

حتَّىٰ اليوم؛ كان هُناك أكثر بكثير ممَّا هُو ظاهر للعيان. لم يكن هُناك أيُّ شكل من الجشع، أو الاستغلال مثلاً، مُتعلِّقاً به. علىٰ فَرَض أنَّ بلانتارد راغب بذلك، فبإمكانه أنْ يُحوِّل دَيْر صهيُون إلىٰ قضيَّة مُربحة جدَّاً؛ كالعديد من الطَّوائف العَصْريَّة، والمُؤسَّسات العديدة في «العصر الجديد».

مع ذلك، أغلب «وثائق الدَّيْر» المُؤثِّرة بقيت محصُورة بمطبوعات خاصَّة، وحَصْريَّة. ودَيْر صهيُون بنفسه لم يلتمس أو يُلحّ علىٰ التَّجنيد في صُفُوفه، ولا حتَّىٰ بالطَّريقة التي تقوم بها المحافل الماسُونيَّة. وبقدر ما أمكَنَنَا معرفته، عُضويَّته كانت محصُورة ـ بصرامة ـ بعدد مضبوط، ولم يتمّ تنسيب

---

(1) (هُوهينزُولرن، عائلة من الحُكَّام الألمان، نشأت عائلتهم في سوابيا في القرن الحادي عشر، أو القرن الثَّاني عشر. حكموا برُوسيا. وفي النِّهاية؛ وحَّدوا، وحكموا، ألمانيا، حتَّىٰ نهاية الحرب العالميَّة الأُولىٰ. جُيُوشهم القويَّة والمُنضبطة والصّلبة منحتْهُم في برُوسيا سُمعة في البراعة العَسْكَريَّة. تعود التَّسمية إلىٰ قلعتهم زُولرن «فيما بعد هُوهينزُولرن». المُترجم).

(2) (تارا، تلٌّ تاريخي في مُقاطعة ميث في إيرلندا. التَّلُّ كان مركزاً لديانة قبل المسيح، وقبل عام 560 بعد الميلاد كانت مقرّ مُلُوك إيرلندا. كشفت عمليَّات التَّنقيب عن آثار مدفونة هُناك تعود للعصر البرُونزي. المُترجم).

أعضاء جُدُد إلّا عندما تُصبح بعض المناصب شاغرة. شهدت مثل هذه «الخُصُوصيَّة» من بين الأشياء الأُخرَىٰ علىٰ الثِّقة الفريدة بالنَّفْس، وشهدت علىٰ حقيقة أنَّه ـ ببساطة ـ لم يكن بحاجة إلىٰ أنْ يضمَّ حُشُود من المُبتدئين، للمكسب المالي، أو أيِّ سبب آخر.

بكلمة أُخرىٰ؛ هُناك سَلَفَاً «شيء ما يعملون لأجله»، يبدو أنَّه الشَّيء الذي أكْسَبَهُ ولاءَ رجال؛ مثل مالرُو، وديغول.

لكنْ؛ هل يُمكننا أنْ نعتقد ـ بجدِّيَّة ـ أنَّ رجالاً؛ مثل مالرُو، وديغُول، كانوا مُصمِّمَين علىٰ إعادة سُلالة الميرُوفيِّين؟!

سياسة دَيْر صهيُون

في عام 1973، تمَّ نَشْرُ كتاب بعُنوان «Les Dessous d'une ambition politique» (التَّوجُّهات الخفيَّة للطُّمُوح السِّياسي). هذا الكتاب، للصُّحُفي السُّويسري ماثيُو باولي، يسرد مُحاولات المُؤلِّف الشَّاملة للتَّحرِّي عن دَيْر صهيُون. كما هُو حالنا، قام باولي ـ في النِّهاية ـ بإجراء اتِّصال مع مُمثِّل النِّظام؛ الذي لم يُحدِّد اسمه. لكنَّ باولي لم تكن شُهرَة الـ«BBC» تدعمه، ويبدو أنَّ المندوب الذي اجتمع معه ـ إنْ كان بإمكاننا أنْ نُقدِّر وُفقاً لروايته ـ كان ذا منزلة أقلّ من بلانتارد. ولم يكن المندوب صريحاً كصراحة بلانتارد معنا.

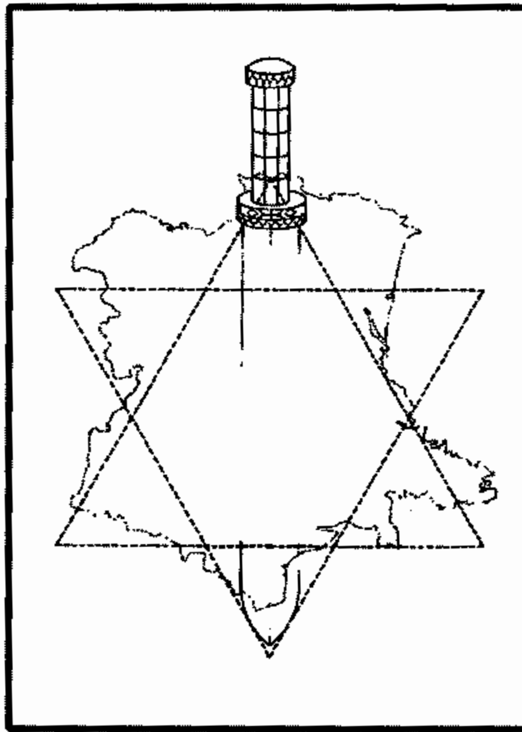
في الوقت ذاته، كان باولي ـ كونه مُقيماً في القارَّة، ويتمتَّع بقابليَّة حَرَكَة أكبر منَّا ـ قادراً علىٰ مُتابعة بعض الأدلَّة، وأنْ يبدأ «حالاً في الوقت الحرج» بإجراء بحث بطريقة لم نستطع أنْ نقوم بها نحنُ.

بالنَّتيجة، كان كتابه ثميناً جدّاً، ويحتوي علىٰ الكثير من المعلومات الجديدة؛ في الحقيقة، كانت جديدة لدرجة أنَّه يبدو بأنَّها بحاجة إلىٰ تتمَّة، وتساءلنا لماذا لم يقمْ باولي بتأليف كتاب آخر. عندما استفسرنا عنه، أُخبرنا بأنَّه في عام 1977 و 1978 كان قد قُتِل من قِبَل الحُكُومة الإسرائيليَّة؛ لأنَّه كان جاسوساً يُحاول بَيْعَ بعض الأسرار إلىٰ العَرَب[1].

(1) (هذه المعلومات جاءت من جينلُوك تشُوميل بعد مُحادثة معه. أردنا البحث عن معلومات تتعلَّق بباولي، وبدأنا بالتّلفزيُون السُّويسري، لأنَّه ـ كما علمنا ـ كان يعمل لصالحهم، في الوقت الذي كتب فيه كتابه. المُدير الإداري لهيئة الإذاعة والتّلفزيون السُّويسريَّة أخبرنا بأنَّ باولي غادر العمل عام 1971. قيل بأنَّه ذهب إلىٰ (إسرائيل)، وعمل للتّلفزيون الإسرائيلي في تلِّ أبيب. هُنا؛ انتهىٰ أثره لسُوء الحظِّ. المُؤلِّفون).

منهج باولي ـ كما يصفه في كتابه ـ كان ـ من نواح عديدة ـ مُشابهاً لمنهجنا. أيضاً، اتَّصل بابنه ليُو سكيدلُوف في لندن؛ وأيضاً، أُخبِر من قِبَل الآنسة سكيدلُوف بأنَّ أباها ـ علىٰ حَدِّ علمها ـ لم يكن عنده أيُّ اتِّصال بأيٍّ من الجمعيَّات السِّرِّيَّة، أو الماسُونيَّة، أو سُلالات الميرُوفيِّيْن. وكما فعلت باحثتنا في الـ«BBC»، اتَّصل باولي بـ«محفل ألبينا العظيم» ـ أيضاً ـ واجتمع مع مُستشار المحفل. وهُو ـ أيضاً ـ حصل علىٰ إجابة مشكوك بصحَّتها. طبقاً لباولي؛ أنكر المُستشار أيَّة معرفة بأيٍّ شَخص يُدعىٰ لُوبينيُو، أو سكيدلُوف.

أمّا بالنِّسبة إلىٰ الأعمال المُختلفة التي تحمل خَتْمَ محفل ألبينا؛ صرَّح المُستشار ـ بشكل مُطلق تماماً ـ بأنَّها غير موجودة. علىٰ الرّغم من أنَّ الصَّديق الشَّخصي لباولي، الذي كان ـ أيضاً ـ عُضواً في محفل ألبينا، ادَّعىٰ أنَّه رأىٰ الأعمال في مكتبة المحفل. نتيجة باولي كانت كالتّالي:



تصميم غلاف رواية «سيركيت» (circuit)

هُناك أحد احتمالَيْن. وُفقاً للسِّمة المُعيَّنة لأعمال هنري لُوبينيُو، محفل ألبينا العظيم ـ الذي يُحرِّم كُلَّ النَّشَاطات السِّياسيَّة ضمن سويسرا، وخارجها ـ لا يُريد أنْ يُعرَف تدخُّله في القضيَّة. أو أنَّ حَرَكَة أُخرىٰ استفادت من الاسم نفسه للمحفل العظيم؛ لكي تُموِّه نشاطاتها الخاصَّة.

في مُلحق فيرساي في المكتبة الوَطَنيَّة الفرنسيَّة اكتشف باولي أربعة من إصدارات «سيركيت» (Circuit)، وهي المجلَّة التي ذُكرت في تشريعات دَيْر صهيُون؛ الأُولىٰ مُؤرَّخة في الأوَّل من يُوليُو/ تمُّوز 1959، وأُدرج أنَّ المُدير كان بيير بلانتارد. لكنَّ المجلَّة ـ وحدها ـ لم تكن تعني بأنَّها مُرتبطة بدَيْر صهيُون. بالعكس، أعلنت نفسها بأنَّها عُضو رَسْمي لشيء يُدعىٰ «اتِّحاد القُوَّات الفرنسيَّة»، حتَّىٰ إنَّه كان هُناك خَتْم، الذي أعاد باولي إخراجه في كتابه، بالإضافة إلىٰ البيَانَات التَّالية:

Publication periodique culturelle de la Fédération des

Forces Francaises

116 Rue Pierre Jouhet, 116

Aulnay_sous_Bois – (Seine_et_Oise)

Tél: 929_72_49

(نَشْرَة دوريَّة ثقافيَّة لاتِّحاد القُوَّات الفرنسيَّة...)

دقَّق باولي بالعُنوان المُدوَّن أعلاه. لم يجد ـ أبداً ـ أنَّه من نَشْر أيَّة مجلَّة هُناك. بالإضافة إلىٰ أنَّ رَقْم الهاتف ثبت أنَّه خاطئ. وكُلُّ مُحاولات باولي لتعقُّب اتِّحاد القُوَّات الفرنسيَّة ثبت أنَّها عقيمة.

إلىٰ يومنا هذا لا تُوجد أيَّة معلومات عن المكان الذي جاءت منه تلك المُنظَّمة. لكنْ؛ يبدو أنَّ هُناك تطابقاً في المكان؛ إذْ إنَّ المقرَّ الفرنسي للجان السَّلامة العامَّة كان ـ أيضاً ـ في «Bois_sous_Aulnay».

وهكذا يبدو أنَّ اتِّحاد القُوَّات الفرنسيَّة هُو ـ بطريقة ما ـ قد ارتبط باللِّجان. يبدو أنَّ هُناك أساساً كبيراً لهذه الفَرَضيَّة. باولي يذكر بأنَّ الإصدار الثَّاني من مجلَّة «سيركيت» يُلمِّح إلىٰ رسالة من دي غُول إلىٰ بيير بلانتارد، يشكر فيها الأخير علىٰ خدماته. الخدمة المَعْنيَّة تبدو بأنَّها كانت عمل لجان السَّلامة العامَّة.

طبقاً لباولي؛ أغلب المقالات في «سيركيت» تعلَّقت بالأُمُور الباطنيَّة، كانت مُوقَّعة من قِبَل بيير بلانتارد، تحت الاسمَيْن الخاصّ والمُستعاركلَيْهما «شيرين»، ومن قِبَل آن لي هيسلر وآخرين ممَّنْ عرفناهم.

في الوقت نفسه، علىٰ أيَّة حال، كان هُناك مقالات أُخرىٰ من نوع مُختلف جدَّاً. البعض منها ـ علىٰ سبيل المثال ـ تكلَّم عن عِلْم سرِّيٍّ عن الكَرْمَة والكِرامة ـ تطعيم الكَرْمَة، التي ـ علىٰ ما يبدو ـ كان لها بعض تأثير علىٰ السِّياسة الحاسمة. بدا ذلك غير مُهمٍّ، ما لم نفترض بأنَّ الكَرْمَة والكِرامة هُما تعبيران مجازيَّان، رُبَّما استعارة للسُّلالات، وأشجار العائلة، وتحالفات الأنساب.

وطبقاً لباولي؛ عندما لا تكون المقالات في «سيركيت» غامضة، أو سِحْرِيَّة، كانت قوميَّة بشكل مُتحمِّس. في أحدها ـ علىٰ سبيل المثال ـ بتوقيع أدريان سيرفيت، يُصرِّح المُؤلِّف بأنَّه لا حلَّ قادم للمشاكل الموجودة.

إلَّا من خلال طُرُق جديدة، ورجال جُدُد؛ لأنَّ السِّياسة ميِّتة. الحقيقة المُحيِّرة تبقىٰ أنَّ الرِّجال لا يرغبون بأنْ يعترفوا بذلك. هُناك ـ فقط ـ مسألة واحدة: المُنظَّمة الاقتصاديَّة. ولكنْ؛ أمايزال يُوجد هُناك رجال قادرون علىٰ التَّفكير بفرنسا، كأثناء الاحتلال، عندما مُقاتلو المُقاومة والوَطَنيُّون لم يُتعبوا أنفسهم بالمُيُول السِّياسيَّة لرفاقهم في المعركة؟!

ومن الإصدار الرَّابع من «سيركيت» يقتبس باولي النَّصّ التَّالي:

نرغب بأنْ تكون الـ«**1500**» نُسخة من مجلَّة «سيركيت» هي صلة لإشعال النُّور، نرغب بأنْ يكون صوت الوَطَنيِّيْن قادراً علىٰ تجاوز العقبات، كما في عام **1940**، عندما تركوا فرنسا المَغْزُوَّة تأتي وتدقُّ علىٰ باب مكتب زعيم فرنسا الحُرَّة. اليوم، الوضع مُشابه، أمام الجميع، نحنُ فرنسيُّون، نحنُ تلك القُوَّة التي تُحارب ـ بطريقة، أو بأُخرَىٰ ـ لبناء فرنسا النَّظيفة، والجديدة. يجب القيام بذلك بالرُّوح الوَطَنيَّة نفسها، وبالإرادة والعمل المُتضامنَيْن نَفْسَيْهما. بهذه الطَّريقة؛ نحنُ نورد هُنا ما أعلنَّاه كفَلْسَفَة قديمة.

بعد ذلك؛ جاءت الخُطَّة المُفصَّلة للحُكُومة لإعادة المجد المفقود إلىٰ فرنسا. علىٰ سبيل المثال، هي تُصرُّ علىٰ تفكيك المُقاطعات، وإعادة الأقاليم:

إنَّ المُقاطعة هي ليست إلَّا نظاماً استبداديَّاً، خُلِقَتْ في وقت الثَّورة، فُرِضَتْ، وقُرِّرَتْ، في العصر بمُوجب طَلَبَات التَّنقُّل (الحصان). اليوم، هي لا تُمثِّل أيَّ شيء. علىٰ النَّقيض من ذلك، الإقليم هُو جُزء حيٌّ من فرنسا؛ هُو كُلُّ الأثر لماضينا، الأساس نفسه، الذي شكَّل وُجُود أُمَّتنا؛ له فُولُوكلُوره، وعاداته، ومعالمه الخاصَّة، وفي أغلب الأحيان؛ لهجاته المحلِّيَّة، التي نتمنَّىٰ استردادها، ونشْرَها. الإقليم يجب أنْ يكون فيه جهازه الخاصّ المُعيَّن للدِّفاع والإدارة، ومُكيَّف لحاجاته المُعيَّنة، بالوحدة الوَطَنيَّة.

بعد ذلك؛ باولي يقتبس الصَّفحات الثَّمانية التي تتبع ذلك. المادَّة التي تحتويها تلك الصَّفحات مُنظَّمة تحت العناوين الفرعيَّة التَّالية:

ـ مجلس الأقاليم ـ مجلس الدّولة ـ المجلس البرلماني ـ الضَّرائب ـ العمل والإنتاج ـ الطِّبّ ـ التَّعليم الوَطَني ـ عُمر الأغلبيَّة ـ الإسكان والمدارس.

خُطَّة الحُكُومة التي اقتُرِحَتْ تحت هذه العناوين الفرعيَّة ليست جَدَليَّة بإفراط، ورُبَّما يُمكن تأسيسها بحَدٍّ أدنىٰ من الثَّورة. ولا يُمكن اعتبار الخُطَّة سياسيَّاً. لا يُمكن تسميتها مُحافظة، أو تحرُّريَّة، يساريَّة، أو يمينيَّة، راديكاليَّة، أو رجعيَّة. إجمالاً؛ تبدو بأنَّها حيدة بعض الشَّيء، والشَّخص يحار لرُؤية كيف ستُعيد ـ بالضَّرورة ـ أيَّ مجد مُعيَّن مفقود لفرنسا. كما يقول باولي «المُقترحات... ليست ثوريَّة. علىٰ أيَّة حال؛ تستند إلىٰ التَّحليل الواقعي للمُؤسَّسات الفعليَّة في الحُكُومة الفرنسيَّة، وهي مُشبَعَة بالإحساس الرَّاسخ الجيِّد». ولكنَّ خُطَّة الحُكُومة ـ آنذاك، التي لُخِّصَتْ في مجلَّة «سيركيت» ـ لم تقُمْ بأيِّ تنويه واضح عن الأساس الحقيقي، الذي يُفترَض أنَّها ستستند عليه في النِّهاية، إنْ تمَّ تطبيقه: إعادة الحُكْم المَلَكي الشَّعبي بقيادة سُلالة الميرُوفيِّيْن. في «سيركيت» لن يكون هُناك حاجة لذِكْر ذلك؛ لأنَّها تَشَكِّلُ «مُفترَضٌ» أساسي، مُسلَّمة يتمحور عليها كُلُّ ما هُو منشور في المجلَّة. بالنِّسبة لقُرَّاء المجلَّة المَعنيِّيْن؛ إعادة سُلالة الميرُوفيِّيْن كان واضحاً جدَّاً، ومقبولاً بأنَّه هدف يحتاج إلىٰ التَّكرار المُتواصل.

عن تلك النُّقطة طرح باولي في كتابه سُؤالاً حاسماً، سُؤالاً راودنا أيضاً:

من أحد النَّواحي لدينا سُلالة مُخفيَّة من الميرُوفيِّين، ومن النَّاحية الأُخرَىٰ؛ لـدينا حَرَكَـة سرِّيَّة هي دَيْر صهيُون، والتي هدفها هُو تسهيل إعادة الحُكْم المَلَكي الشَّعبي لسُلالة الميرُوفيِّين... لكنَّـه مـن الضَّروري معرفة إنْ كانت هذه الحَرَكَة تُقنع نفسها بالتَّوقُّعات الباطنيَّة- السِّياسيَّة (التـي نهايتهـا غـير المُعلنة هي جَمْع المال الكثير باستغلال سذاجة وبساطة العالم) أم أنَّ هذه الحَرَكَة هي ـ بصدق ـ فعَّالة!.

بعـد ذلـك؛ قـام بـاولي بدراسـة هـذا الـسُّؤال، وقـام بمُراجعـة الأدلَّـة التـي بـين يدَيْـه. النَّتيجة كانت كالتَّالي:

بما لاشكَّ فيه، دَيْر صهيُون يبدو أنَّه يمتلك ارتباطات قويَّة. في الواقـع؛ إنَّ تأسـيس أيِّ جمعيَّـة يخضع لتحقيق أوَّلي من قِبَل وزير الدَّاخليَّة. يحصل ذلك ـ أيضاً ـ في حال تأسـيس مجلَّـة، أو دار نَـشْر. ومع ذلك؛ نجد أنَّ هؤلاء النَّاس قادرون علىٰ النَّشْر، تحت أسماء مُـستعارة، وبعنـاوين مُزيَّفـة، وعـن دُور نَشْر غير موجـودة. ينـشرون تلـك الأعـمال التـي لا يُمكـن العُثُـور عليهـا في المنـشورات، لا في سويسرا، ولا حتَّىٰ في فرنسا. ذلك يطرح احتمالَيْن، إمَّا أنَّ السُّلطات الحُكُوميَّة لا تُؤدِّي واجبها، أو...

باولي لم يُوضِّح البديل. في الوقت نفسه؛ يظهر بأنَّه يعتبر البديل الذي لم يـذكره شَخْـصيَّاً بأنَّـه أكثر إمكانيَّة واحتمالاً من ذلك المذكور. نتيجة باولي ـ باختصار ـ هي أنَّ المسؤولين الحُكُوميِّين،وعدداً كبيراً من النَّاس الأقوياء الآخرين هُم إمَّـا أعـضاء في دَيْـر صـهيُون،أو مُطيعـون لـه. إنْ كـان الأمـر كذلك، فلا شكَّ أنَّ دَيْر صهيُون هُو ـ في الحقيقة ـ مُنظَّمة مُؤثِّرة جدَّاً.

بعد أنْ أجرىٰ بحثاً شاملاً بنفسه، باولي كان مُقتنعاً بشَرْعيَّة ادِّعاء الميرُوفيِّين، وهُو يعترف بـأنَّ بإمكانه أنْ يتفهَّم أهداف دَيْر صهيُون إلىٰ ذلك المدىٰ، أمَّا بالنِّسبة لما بعد تلـك النُّقطـة؛ فيعـترف بأنَّـه وقع في حَيْرَة كبيرة. يتساءل:

ما الهدف من إعادة سُلالة الميرُوفيِّين اليوم بعد 113 سنة من خَلْعها؟!

هل نظام الميرُوفيِّين المُعاصر يرغب بأنْ يكون مُختلفاً عن أيِّ نظام مُعاصر آخر؟!

إنْ كان الأمر كذلك، كيف؟! ولماذا؟!

ما هُو المُميَّز جدَّاً بالميرُوفيِّين؟! حتَّىٰ إنْ كان ادِّعاؤهم شَرْعيَّاً، فإنَّ ذلك يبدو أنْ لا صلة له. لماذا ـ إذنْ ـ يجب علىٰ العديد من النَّاس الأقوياء والأذكياء في الحاضر وفي الماضي أنْ يُولُوا هذه المسألة ليس ـ فقط ـ انتباههم، ولكنْ؛ ولاءهم أيضاً؟!

بالطَّبع؛ نحنُ راودتنا ـ بالضَّبط ـ الأسئلة نفسها. مثل باولي؛ كُنَّا مُهيَّئين للاعتراف بشَرْعيَّة طَلَب الميرُوفيِّين. لكنْ؛

ما الأهمِّيَّة المُحتملة التي يُمكن أنْ يتمتَّع بها مثل هذا الادِّعاء اليوم؟!

هل حقَّاً أنَّ الشَّرعيَّة التِّقنيَّة لحُكْم مَلَكي يُمكن أنْ تكون حُجَّة مُقنعة جدَّاً؟

لماذا في أواخر القرن العشرين يجب علىٰ أيِّ حُكْم مَلَكي شَرْعي أم غير شَرْعي بأنْ يُطالب بنوع الولاء الذي يُطالب به الميرُوفيُّون؟!

إنْ كُنَّا نتعامل ـ فقط ـ مع مجموعة من المَهْوُوسين الخاصِّين، يُمكننا أنْ نرفض المسألة رَفْضاً قاطعاً. لكنَّنا لم نكن كذلك؛ علىٰ العكس، يبدو أنَّنا نتعامل مع مُنظَّمة مُؤثِّرة جدَّاً، ضمَّت بين صُفُوفها بعض الأشخاص الأكثر أهمِّيَّة، والأكثر شُهرَة، والأكثر مدحاً، والأكثر مسؤوليَّة في عصرنا. وهؤلاء الرِّجال ـ في العديد من الحالات ـ يبدوا أنَّهم عدُّوا إعادة سُلالة الميرُوفيِّين كهدف صحيح بما فيه الكفاية لتجاوز اختلافاتهم الدِّينيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة الشَّخصيَّة.

بدا أنَّه أمر غير مفهوم أنْ يستلزم إعادة سُلالة عُمرها 113 سنة قضيَّة مشهورة جدَّاً للعديد من الجُمهُور والنَّاس المُقدَّرين جدَّاً.

بالطَّبع؛ ما لم نكن قد فاتنا الانتباه إلىٰ شيء ما. ما لم تكن الشَّرعيَّة هي ادِّعاء الميرُوفيِّين الوحيد. ما لم يكن هُناك شيء آخر ذو نتيجة هائلة ميَّز الميرُوفيِّين عن السُّلالات الأُخرَىٰ. باختصار؛ ما لم يكن هُناك في الحقيقة شيء خاصٌّ جدَّاً حول أحد أفراد العائلة المالكة الميرُوفينجيَّة.

9

الملُّوك ذوو الشَّعْر الطويل

بهذا الوقت، بالطَّبع، كُنَّا قد بحثنا في سُلالة الميرُوفيِّيْن. بقـدر مـا اسـتطعنا، تلمَّسْنَا طريقنـا خلال سَحْب الخيال والغُمُوض الكثيف، الذي فاق ذلك الغُمُوض، الذي يُحِيط بالكَاثَـار، وفُرسـان الهَيكَل. أمضينا بضع شُهُور في السَّعْي لحَلِّ الخُيُوط المُعقَّدة المُتشابكة بين التَّاريخ والخُرافة.

علىٰ أيَّة حال، علىٰ الرّغم من جُهُودنا، بقي الجُزء الأكبر من الميرُوفيِّيْن مُغطًّىٰ بالغُمُوض.

سُلالة الميرُوفيِّيْن نشأت من السّيكامبريِّيْن، وهي قبيلة من الشَّعب الألمـاني، يُعرَفُـون ـ بـشكل جماعي ـ بالفَرَنْكيِّيْن. بين القرنَيْن الخامس والسَّابع، حَكَمَ الميرُوفيُّون أجزاء كبـيرة مـن المنـاطق التـي تُعرَف ـ الآن ـ بفرنسا، وألمانيا.

تتزامن فترة نُفُوذهم مع فترة الملك آرثر، الفترة التي تُشكِّل الخلفيَّة التي انطلقت منهـا رُومانـسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة». هي من المُحتمل أنَّها الفترة الأكثر غُمُوضـاً، والتـي تُـدعَىٰ ـ الآن ـ بالعُـصُور المُظلمـة. لكنْ؛ اكتشفْنَا أنَّ العُصُور المُظلمة لم يسبق وأنْ كانت مُظلمة بحقٍّ.

علىٰ العكس، بدا من الواضح جدّاً ـ وبشكل سريع بالنِّسبة لنا ـ أنَّ شَخْصاً مـا حَجَبَهَـا، وأَظْلَمَهَـا عمداً، إلىٰ درجـة أنَّ الكَنيـسَة الرُّومانيَّـة مارسـت احتكـاراً حقيقيّـاً عـلىٰ تعلُّـم (وبـشكل خـاصٍّ كتابـة) السِّجلَّات التي كُتِبَ لها النَّجاة، والتي كانت تُمثِّل بعض المصالح الشَّخصيَّة. فُقِـدَ ـ تقريبـاً ـ كُـلُّ شيء مـا عدا ذلك، أو أُخضِعَ للمُراقبة.

ولكنْ؛ من هُنا، وهُناك، ومن وقت لآخر، يبدو أنَّ شيئاً ما قد تسلَّل عبر ستارة الـسُّحُب عـلىٰ مرِّ الزَّمان، تسرَّب خارجاً إلينا، علىٰ الرّغم من الصَّمت الرَّسْمي.

من هذه الآثار الغامضة يُمكن إعادة بناء حقيقة ما، حقيقة من النَّوع الأكثر إثـارة، والمُخالفـة جدّاً للعقائد الأرثُذُوكسيَّة.

الأُسطُورة والميرُوفيُّون

صادَفَنَا عدد من الألغاز التي تُحيط بأُصُول سُلالة الميرُوفيّين. عادةً يعتقد المرء بأنَّ السُّلالة الحاكمة ـ علىٰ سبيل المثال ـ هي عائلة، أو بيت حاكم، يحصل علىٰ حُكْمه ليس بمُجرَّد أنَّها ورثت عائلة، أو بيت حاكم آخر، بل تقوم بذلك استناداً إلىٰ ما هُو أبعد من ذلك، وهُو إزاحة، أو خَلْع، أو إبعاد، أسلافها. بكلمة أُخرىٰ؛ المرء يعدُّ أنَّ السُّلالات تُشرَّع بانقلاب من أحد الأشكال، وتستلزم انقراض السُّلالة الحاكمة السَّابقة في أغلب الأحيان. حُرُوب الورد في إنجلترا ـ علىٰ سبيل المثال ـ أدَّت إلىٰ تغيير السُّلالة الحاكمة.

بعد حوالي قرن؛ مُؤخَّراً صعدت عائلة ستيوارت علىٰ العَرْش الإنجليزي ـ فقط ـ عندما انقرضت عائلة تُودُور تماماً، وعائلة ستيوارت ـ بحَدِّ ذاتها ـ تمَّ خَلْعُهَا بالقُوَّة من عائلات أُورنج، وهانُوفر.

علىٰ أيَّة حال، في حالة الميرُوفيّين لم يكن هُناك مثل هذا الانتقال العنيف، أو غير المُتوقَّع، ولا اغتصاب، ولا إزاحة، ولا انقراض، للنِّظام السَّابق. بالعكس؛ العائلة التي يُدعَىٰ أنَّها عائلة الميرُوفيّين يبدو أنَّها حَكَمَت الفرانكيّين. الميرُوفيُّون كانوا مُلُوكاً شرعيّين، ومُعترفاً بهم أُصُولاً. لكنْ؛ يظهر أنَّ هُناك شيئاً خاصّاً يتعلَّق بأحدهم، إلىٰ حَدِّ أنَّه منح اسمه لكامل السُّلالة.

إنَّ الحاكم الذي اشتقَّ الميرُوفيُّون اسمهم منه هُو مُحيِّر لأبعد الحُدُود، حقيقته التَّاريخيَّة غلبتها الأُسطُورة. «ميرُوفي» (ميرُوفيتش، أو ميرُوفيُوس) كان شَخْصيَّة شبه خارقة تستحقُّ الأُسطُورة الكلاسيكيَّة، حتَّىٰ إنَّ اسمه يشهد علىٰ أصله وشَخْصيَّته الأُعجُوبيَّة، إنَّه يُشبه الكلمة الفرنسيَّة الدَّالَّة علىٰ «أُمّ»، بالإضافة إلىٰ كلمة «بحر» في اللُّغتَيْن الفرنسيَّة واللَّاتينيَّة كلتَيْهما.

طبقاً لمُؤرِّخ فرانكي بارز؛ وطبقاً للتَّقليد اللَّاحق؛ ميرُوفي كان قد وُلِدَ من أبوَيْن اثنَيْن. عندما كانت حُبلَىٰ من زوجها الملك كلُوديُو، يُحكىٰ أنَّ والدة ميرُوفي ذهبت للسِّباحة في المُحيط، وأثناء وُجُودها في الماء يُقال إنَّها أُغوِيَتْ و/ أو تعرَّضت للاغتصاب من قِبَل مخلوق بَحْري مجهول قادم من

وراء البحر ـ «bestea Neptuni Quinotauri similis» (وحش نبتُون[1])، الشَّبيه بـ«كوينُوتُور»، أيّاً كان ذلك الـ«كوينُوتُور». هذا المخلوق علىٰ ما يبدو أنّه لقَّح السَّيِّدة مرَّة ثانية.

وعندما وُلِدَ ميرُوفي، يُزعَم أنَّه كان يتدفَّق في عُرُوقه مزيج من دمين مُختلفَيْن؛ دم الحاكم الفرانكي، ودم المخلوق المائي الغامض.

مثل هذه الأساطير الرَّائعة مشهورة جدّاً، بالطَّبع؛ ليس فقط في العالم القديم، ولكنْ؛ أيضاً، في التَّقليد الأُورُوبي لاحقاً. عادةً؛ هي ليست خياليَّة بالكامل، لكنَّها رَمْزيَّة، أو مجازيَّة، تُخفي بعضاً من الحقيقة التَّاريخيَّة الملموسة خلف مظهرها الأمامي المُذهل. في حالة ميرُوفي؛ الواجهة المُذهلة ـ لرُبَّما ـ تُشير إلىٰ نوع ما من التَّزاوُج المُتبادل، نَسَب نُقِلَ عبر الأُمّ، كما في اليهُوديَّة علىٰ سبيل المثال، أو خلط السُّلالات؛ بحيثُ أصبح الفرانكيُّون مُتحالفين بالدَّم مع شَخْص ما آخر، من المُحتمل ـ تماماً ـ مع مصدر ما من «ما وراء البحر»، المصدر الذي ـ لسبب، أو لآخر ـ تحوَّل بالخُرافة اللَّاحقة إلىٰ مخلوق بحر.

في أيِّ حال من الأحوال، استناداً إلىٰ دمه المُزدوج قيل إنَّ ميرُوفي كان قد مُنِحَ العديد من المواهب المُثيرة، التي تفوق طاقة البشر. ومهما كانت الحقيقة التَّاريخيَّة خلف هذه الأُسطُورة، استمرَّت سُلالة الميرُوفيِّين بأنْ تكون مغمورة بهالة من السِّحْر، والغُمُوض، وعالم ما وراء الطَّبيعة.

طبقاً للتَّقاليد؛ المُلُوك الميرُوفيُّون كانوا بارعين في السِّحْر، ومُطَّلعين علىٰ العُلُوم الغامضة، ومُمارسين للفُنُون الباطنيَّة، مُنافسين جديرين لمرلين[2]، ذلك الرَّجل الصَّعب التَّصديق الشّبه مُعاصر لهم. كانوا يُدعَون ـ في بعض الأحيان ـ بالمُلُوك السَّحَرة، أو المُلُوك صانعي المُعجزات.

استناداً إلىٰ بعض الخصائص العجيبة في دمهم، يُزعَم أنَّهم كانوا قادرين علىٰ الشِّفاء ـ فقط ـ بمَدِّ أيديهم؛ وطبقاً لإحدىٰ الرِّوايات؛ أنَّ خصل الخُيُوط التي كانت تتدلَّىٰ علىٰ حافَّات عباءاتهم

(1) (نبتُون: إله البحر عند الرُّومان. المُترجم).

(2) (في الأساطير الآرثريَّة، ميرلين هُو ساحر مُعمّر، ساعد علىٰ اعتلاء الملك آرثر للعَرْش. يصف بعض المُؤلِّفين ميرلين ـ أيضاً ـ بأنَّه المُعلِّم الخاصّ للملك الشَّابّ. يقع كهف ميرلين تحت قلعة تينتاجيل في كُورنوال، إنجلترا. يُقال إنَّ شبح السَّاحر ميرلين مُلازم للكهف، ويُصدر أصواتاً مُخيفة عندما يرتفع المَدُّ، ويتدفَّق الماء خلاله. المُترجم).

كانت تُعدُّ بأنَّها تمتلك قوىً شافية عجيبة. قيل بأنَّهم كانوا قادرين علىٰ الاستبصار[1]، والاتِّصال التَّخاطري مع الحيوانات، ومع العالم الطَّبيعي من حولهم، وبأنَّهم كانوا يرتدون عُقُوداً سِحْرِيَّة قويَّة. قيل بأنَّهم يمتلكون رُقْيَة سِحْرِيَّة، حَمَتْهُم، ومَنَحَتْهُم أعماراً هائلة، والذي لم يُؤكِّده التَّاريخ، علىٰ سبيل المُصادفة! ويُزعَم بأنَّهم جميعاً حملوا وشماً مُمَيِّزاً، ميَّزهم من كُلِّ الرِّجال الآخرين، والذي جعلهم مُمَيَّزين علىٰ الفور، والذي شهد علىٰ دمهم المُقَدَّس. هذا الوَشْم كما يُعتقَد أخذ شكل الصَّليب الأحمر، كان يُوضَع إمَّا علىٰ القلب ـ حدس فُضُولي لشعار النّبالة عند فُرسان الهَيكَل ـ أو بين عظام الكَتِف.

الميرُوفيُّون كانوا يُدعون ـ أيضاً ـ بالمُلُوك ذوي الشَّعْر الطَّويل. كما هُو الحال بالنِّسبة لـ«شَمْشُون»[2] في العهد القديم، كانوا كارهين لقَصِّ شُعُورهم. يُفترض أنَّ شُعُورهم، كشَمْشُون، كان تُحفتهم الفنيَّة، كانت جَوْهَر قُوَّتهم، وسرّها.

مهما كان أساس هذا الاعتقاد حول قُوَّة شعْر الميرُوفيّين، يبدو بأنَّه كان قد عُدَّ تماماً بجدِّيَّة، ولوقت مُتأخِّر حتَّىٰ عام 754 بعد الميلاد. عندما تشيلديرك الثَّالث[3] خُلع في تلك السَّنة، وسُجِنَ، وتمَّ قَصُّ شعْره بشكل شعائري تحت أوامر سريعة من البَابَا.

(1) (رُؤية أشياء ما بعد رُؤية البشر. المُترجم).

(2) (شَمْشُون ـ طبقاً للعهد القديم ـ هُو بطل عبْري ولُمدَّة 20 سنة، كان القاضي الثَّاني عشر لإسرائيل القديمة. يُقال بأنَّه كان ابناً مَنوحاً من قبيلة دان. زوجة مانوح كانت عاقراً، ولكنْ؛ ظهر لها مَلَك، وَوَعَدَهَا بابن، وقال لها إنَّ الولد يجب أنْ يكون من طائفة المنذورين «المنذور: يهُودي من العُهُود التَّوراتيَّة نُذر لله، فلا يحلّ له أنْ يُعاقر الخمرَ، أو يحلقَ شعره».. وكان ذلك، فلم يحلق الولدُ شعرَهُ، الذي ـ فيما بعد ـ أصبح مصدر القُوَّة الخارقة التي تمتَّع بها، ممَّا جعله يقوم بأعمال خارقة، ومنها ـ كما يُزعَم ـ خَنْق أسد، وقَتْل ألف فلسطيني بعَظْم فكّ حمار! أخيراً؛ وقع بغَدْر امرأة فلسطينيَّة اسمها دليلة، التي حلقت شعره، وبعد ذلك سلَّمَتْهُ إلىٰ الفلسطينيِّين. تمَّ إطفاء نُور عينَيْه، وأُجبِرَ علىٰ أداء أعمال ذليلة. لاحقاً؛ في مهرجان تكريم لداجون «الإله الفلسطيني»، تمَّ الاستهزاء بشَمْشُون، ووضعوه بين الأعمدة، وسأل الصبي الآخذ بيده أنْ يجعله يتَّكئ علىٰ الأعمدة، ودعا ربَّه أنْ يمنحه القُوَّة مرَّة ثانية، وقام بدَفْع تلك الأعمدة، مُمارساً قُوَّته العظيمة، وهدَّم أعمدة البيت، الذي تجمَّع فيه 3000 فلسطيني، دافناً نفسه وإيَّاهم في الخراب (راجِعْ العهدَ القديم 16: 23 ـ 30). القصَّة كُتِبَتْ في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وعلىٰ ما يبدو أنَّها مرَّت ببعض التَّنقيح التَّحريري. يبدو أنَّ الشَّخصيَّة الأُسطُوريَّة فيها واضحة للعديد من العُلماء. فمعنىٰ اسم شَمْشُون هُو الشَّخص المُشمس، وطبيعة بعض مآثره البُطُوليَّة تقترح بأنَّه كان ـ أصلاً ـ بطلاً لطائفة الشَّمس. المُترجم).

(3) (حَكَمَ ـ تقريباً ـ بين عامَيْ 743 ـ 751، آخر سُلالة الميرُوفيِّين. المُترجم).

أيَّاً كان مدىٰ الإفراط في الأساطير المُحيطة بـالميرُوفيِّين، يبـدو أنَّهـم يـستندون إلىٰ أسـاس مـا خَفِيٍّ، إلىٰ منزلة تمتَّع بها مُلُوك الميرُوفيِّين في زمانهم الخاصّ.

في الحقيقة؛ الميرُوفيُّون لم يُعَدُّوا الْمُلُوك بالمعنىٰ الحديث لتلك الكلمة. هُم عُدُّوا الْمُلُوك الكَهَنَـة؛ عُدُّوا مُقدَّسين، بكلمة أُخرىٰ، لنقل إنَّهم أشبه بفراعنـة المـصريِّين القُـدماء. ببـساطة؛ هُـم لم يحكمـوا بنعمة من الله. بالعكس، كانوا ـ علىٰ ما يبدو ـ يُعدُّون التَّضمينَ والتَّجسيدَ الحيَّ للنّعمة المُنزلة من الله، التي هي ـ عادةً ـ مقصُورة ـ بشكل خاصّ ـ علىٰ السَّيِّد المسيح. ويبدو أنَّهم مارسـوا شـعائر كَهَنُوتيَّـة أكثر منها مَلَكيَّة. علىٰ سبيل المثال، الجماجم التي وُجِدَتْ للمُلُوك الميرُوفيِّين كانت تحمل مـا يبـدو أنَّـه شقٌّ، أو فتحة شعائريَّة في أعلاها. شُقُوق مُماثلة يُمكن العُثُور عليها في جماجم كبار الكَهَنَة عند قُـدماء اللَّاميَّة[1]؛ وذلك للسَّماح للرُّوح بالهُرُوب عند الموت، ولإجراء اتِّـصال مُباشر مـع القَدَاسَـة. هُنـاك سـبب لافـتراض أنَّ حَلْـقَ الـشَّعْر جُزئيَّاً في ذروة الـرَّأس عنـد الرُّهبـان هـي مـن بقايـا المُارسـات الميرُوفينجيَّة.

في عام **1653**، تمَّ العُثُور علىٰ قَبْر ميرُوفينجي مُهمّ في آردينيه؛ قَبْر الملك تشيلديرك الأوَّل، ابن ميرُوفي، ووالد كلُوفيس، الحاكم الأكثر شُهرَة وتأثيراً من مُجمل حُكَّام الميرُوفيِّين. احتـوىٰ القَـبْر عـلىٰ أسـلحة، وكَنـز، وملابـس فخمـة، كـالتي يتوقَّـع المـرء أنْ يجـدها في قَـبْر مَلَكَـي. احتـوىٰ ـ أيضاً ـ علىٰ موادّ أقلّ خاصِّيَّة بالمُلُوك، وهي مـوادُّ سِـحْرِيَّة وباطنيَّـة؛ مـثلاً، رأس حـصان مقطـوع، ورأس ثور من الذَّهَب، وكُرة بلُّوريَّة.

أحد أكثر الرُّمُوز المُقَدَّسَة للميرُوفيِّيْن كـان النَّحْلَـة، وقَـبْر الملـك تـشيلديرك احتـوىٰ عـلىٰ ما لا يقلُّ عن ثلاثمائة نَحْلة صغيرة مصنوعة من الذَّهَب الخالص. سويَّة مع مُحتويات القَـبْر الأُخْـرَىٰ؛ هذه النَّحلات ائتُمِنَتْ عند ليُوبُولد ويلهيلم فُـون هابـسبرغ، الحـاكم العَـسْكَرِيّ لهُولنـدا النّمـساويَّة آنذاك، وشقيق الإمبراطُور فيردناند الثَّالث[2].

---

(1) (اللَّاميَّة: الدِّيانة البُوذيَّة لسُكَّان التِّيبت، ومنغُوليا. المُترجم).

(2) (أحد المصادر يقول إنَّ ليُوبُولد ويلهيلم ـ الذي كان ـ أيضاً ـ سيِّداً أعظم في «نظام الفُرسـان التيُوتُـونيِّين» احـتفظ بسبع وعشرين نَحْلَة، بينما تخلَّىٰ عن البقيَّة. رُبَّما قد يذهب تخميننا بعيداً، ولكنَّه قد يكون مُثيراً بأنْ نقول إنَّ دَيْر صهيُون ـ في ذلك الوقت ـ كان يمتلك سبعة وعشرين قائداً. المُؤلِّفون).

في النِّهاية؛ أغلب كَنز تشيلديرك أُعيد إلىٰ فرنسا. وعندما تمَّ تتويج نابُليُون كإمبراطُور في عام **1804**، جعل أهمِّيَّة خاصَّة لتثبيت النَّحْل الذَّهَبي علىٰ عباءات تتويجه.

هذه الحادثة لم تكن الوحيدة لتوضيح اهتمام نابُليُون بالميرُوفيِّيْن. كلَّف رجلاً يُدعىٰ آبي بيتشون بجَمْع الأنساب لتحديد سواء نجا أم لم ينج أحد من سُلالة الميرُوفيِّيْن، بعد انهيار تلك السُّلالة. لقد كانت تلك السُّلالات التي كُلِّف نابُليُون بجَمْعها هي السُّلالات التي استندت عليها «وثـائق الـدَّيْر» في الجُزء الأكبر منها.

الدُّبُّ من أركاديا

الأساطير التي تُحيط بـالميرُوفيِّيْن أثبـت بأنَّهـا تـستحقُّ أنْ تكـون في عهـد رُومانـسيَّات آرثـر و«الكَأس المُقَدَّسَة».

في الوقت نفسه؛ شكَّلت سُوراً رهيباً بيننا وبين الحقيقة التَّاريخيَّة التي أردنا استكشافها. عندما تمكَّنَّا ـ أخيراً ـ من الوُصُول إليها ـ أو إلىٰ القليل المُتبقِّي منهـا ـ هـذه الحقيقـة التَّاريخيَّـة كانـت مُختلفـة بعض الشَّيء عن الأساطير. لكنَّها لم تكن ـ أبداً ـ أقلَّ استثنائيَّة، أو غُمُوضاً، أو إثارة.

تمكَّنَّا من العُثُور علىٰ معلومات قليلة قابلة للإثبات حول الأُصُول الحقيقيَّـة للميرُوفيِّيْن. هُـم أنفـسهم ادَّعـوا أنَّهـم تحـدَّروا مـن سُـلالة نُـوح، الـذي عُـدَّ ـ ولدرجـة أكـبر مـن النَّبـيِّ مُوسـىٰ ـ كمصدر لكُلِّ الحكمة التَّوراتيَّة ـ مكانة مُثيرة للاهتمام، والتي ظهرت ـ ثانية ـ علىٰ السَّطح، بعد ألف سنة في الماسُونيَّة الأُورُوبيَّة.

الميرُوفيُّون يدَّعون ـ أيضاً ـ أنَّهم تحدَّروا مُباشرة من طروادة القديمة، والتي ـ سواء كـان ذلـك صحيحاً أم لا، تخدم في توضيح حادثة فرنسا المُتعلِّقة بطروادة وباريس[1].

(1) (باريس هُو ابن الملك بريام حاكم تروي، الذي وقع في حُبِّ هيلين الجميلة، زوجة مينيلُوس ملك إسبَرطة، وهربا معاً إلىٰ طروادة، وكعمل انتقامي؛ حَدَثَتْ مَلْحَمَةُ طروادة المشهورة، والتي استطاعت الجُيُوش الغازية ـ بعد حصار عشر سنوات ـ أنْ تدخلها بالخدعة. قدَّمت الجُيُوشُ الغازيةُ حصانَ كبيراً خشبياً كهديَّة للصُّمُود الطَّروادي، وأظهروا انسحابهم. الطَّرواديُّون المُبتهجون بالنَّصر أدخلوا الحصانَ إلىٰ القلعة، وأمضوا اللَّيل بطُوله في الشُّرب، والمرح. وفجأ؛ ظهر من قلب الحصان مجموعة من خيرة الجُنُود المُهاجين، الذين ـ بدورهم ـ استولوا علىٰ القلعة الحصينة، وفتحوا

الكثير من الكُتّاب المُعاصرين ـ بمَنْ فيهم أُولئك الذين ألّفوا «وثائق الدَّيْر» ـ حاولوا نَسْبَ الميرُوفيّيْن إلىٰ اليُونان القديمة، وبشكل مُحَدَّد؛ إلىٰ المنطقة المعروفة بأركاديا. طبقاً لهذه الوثائق؛ أسلاف الميرُوفيّيْن ارتبطوا بعائلة أركاديا المَلَكيَّة. في تاريخ غير مُحَدَّد تقريباً، في فترة ظُهُور العصر المسيحي، يُفترَضُ أنّهم هاجروا إلىٰ الدّانوب، ثُمَّ إلىٰ الرّاين، وأسَّسوا أنفسهم في المنطقة التي تُعرف ـ الآن ـ بألمانيا الغربيّة.

سواء كان الميرُوفيُّون قد تحدَّروا ـ في النِّهاية ـ من طروادة، أو من أركاديا، يبدو ذلك ـ الآن ـ أكاديميّاً، وليس هُناك ـ بالضَّرورة ـ اختلاف بين الادِّعاءَيْن. طبقاً لهُوميرُوس؛ فرقة كبيرة من الأركاديّيْن كانوا حاضرين في حصار طروادة. طبقاً للتّواريخ اليُونانيَّة الأُولىٰ؛ طروادة ـ في الحقيقة ـ أُسِّس من قِبَل مُواطني أركاديا. من الجدير ـ أيضاً ـ بالمُلاحظة بأنَّ الدُّبَّ في أركاديا القديمة كان حيواناً مُقدَّساً؛ الطَّوْطَم[1]، الذي كانت الطَّوائف الغامضة تستند إليه، والذي كانت تُقدَّم له الأضاحي والقرابين الشَّعائريَّة.

في الحقيقة؛ الاسم ذاته لأركاديا هُو مُشتقٌّ من «أركاديس»، والذي يعني «شعب الدُّبّ». الأركاديُّون القُدماء يدَّعون تحدُّرهم من أركاس، الإله الرَّاعي للأرض، والذي يعني اسمه ـ أيضاً ـ «دُبّاً».

طبقاً للأُسطُورة اليُونانيَّة؛ أركاس كان ابن كاليستُو، حُوريَّة مُرتبطة بآرتِميس[2] الصيَّادة. بالنِّسبة للمفهوم الحديث؛ كاليستُو مشهور جدّاً بأنّه مجموعة الدُّبِّ الأكبر.

بالنِّسبة للفرنكيّيْن السّيكامبريّيْن[3]، الذين ظهر منهم الميرُوفيُّون، تمتَّع الدُّبُّ بمنزلة سامية مُماثلة.

أبوابها أمام الجُيُوش الغازية، وسَقَطَتْ القلعة. يُعدُّ حصان طروادة رمزاً للمكيدة الاستراتيجيَّة، ومع ذلك؛ يتقبَّلها ـ بصدر رحب ـ الكثير من الحُكّام في عصرنا الرَّاهن كـ«هديَّة». المُترجم).

(1) (شيء كحيوان، أو نبات، يُتَّخَذ رمزاً للأُسرة، أو العشيرة. المُترجم).

(2) (آرتِميس: إلاهة القمر والقَنْص عند الإغريق. المُترجم).

(3) (السّيكامبريُّون، وهي قبيلة من الشَّعب الألماني، يُعرفون ـ بشكل جماعي ـ بالفَرَنْكيّيْن. المُترجم).

مثل الأركاديِّين القُدماء هُم قدَّسوا الدُّبَّ علىٰ شكل آرتميس، أو بشكل مُحَدَّد أكثر، علىٰ شكل مُكَافئها الغَالِيّ[1] أردوينا، الإلهة الرَّاعية لآردينيه. استمرَّت الطَّائفة الغامضة لآردوينا ـ تماماً ـ حتَّىٰ العُصُور الوُسْطَىٰ، وأحد مراكزها كان في بلدة لُونيفيل، ليست بعيدة عن موقعَيْن آخرَيْن وردا ـ مراراً، وتكراراً، في تحقيقنا ـ ستيناي، وأُورفال.

حتَّىٰ أواخر عام **1304**، التَّشريعات كانت ماتزال تُعلَن من قِبَل الكَنيسَة، والتي تُحرِّم عبادة الآلهة الوَثَنيَّة[2].

وُفقاً للأُسطُورة السِّحْرِيَّة والغامضة والطَّوْطَمِيَّة للدُّبِّ في الوسط الميرُوفينجي في آردينيه، ليس من المُفاجئ أنَّ الاسم «أُورسُوس» ـ باللُّغة اللَّاتينيَّة يعني «الدُّبّ» ـ يجب أنْ يُدرَج في «وثائق الدَّيْر» في السُّلالة المَلَكيَّة للميرُوفيِّين. ما هُو أكثر مُفاجأة هُو حقيقة أنَّ الكلمة الويلزيَّة للدُّبِّ هي «آرث»، والتي منها اشتُقَّ اسم آرثر. بالرّغم من أنّنا لم نُتابع المسألة في هذه النُّقطة، إلَّا أنَّ المُصادفة أَدْهَشَتْنا؛ إنَّ آرثر لا يجب أنْ يكون مُعاصراً للميرُوفيِّين فحسب، بل ـ أيضاً ـ كان مثلهم مُرتبطاً بالدُّبِّ.

السّيكامبريُّون يدخلون بلاد الغال

في أوائل القرن الخامس، أثار غَزْوُ الهُوْن[3] هجرات واسعة النِّطاق لكُلِّ القبائل الأُورُوبيَّة تقريباً، وكان ذلك الوقت هُو ـ تماماً ـ الوقت، الذي عبَّر فيه الميرُوفيُّون ـ أو بدقَّة أكثر، السّيكامبريُّون أسلاف الميرُوفيِّين ـ الرَّاين، وانتقلوا ـ بشكل جماعي ـ إلىٰ بلاد الغال، مُؤسِّسين أنفسهم في المناطق التي تُدعَىٰ ـ الآن ـ بلجيكا، وشمال فرنسا، علىٰ مقربة من آردينيه.

---

(1) (خاصّ ببلاد الغال، أو فرنسا. المُترجم).

(2) (الاسم الرُّوماني لآرتيميس كان دايانا، واسم آخر لطائفة أردُوينا كان «دايانا من آردينيه». تمثال ضخم لها كان موجوداً إلىٰ أنْ حُطِّم من قِبَل القدِّيس فُولفيلُو في القرن السَّادس. طائفتها كانت طائفة قَمَريَّة، وتُجسَّد بصُورتها وهي تحمل الهلال. عُدَّت ـ أيضاً ـ إلهة النَّوافير، والينابيع. مُؤسَّسة دَيْر أُورفال، التي ترتبط بالأُسطُورة الباطنيَّة للينابيع ـ رُبَّما ـ تقترح تأثُّرها ـ نوعاً ما ـ بطائفة أردُوينا. المُؤلِّفون).

(3) (الهُوْنيّ: هُو واحد الهُوْن، وهُم شعب مغولي مُتَرَحِّل، سيطر علىٰ جُزء كبير من أُورُوبة الوُسْطَىٰ والشَّرقيَّة بقيادة أتيلَّا، حوالي عام 450 ب.م. المُترجم).

بعد قرن من الزَّمن، أصبحت هذه المنطقة تُدعَىٰ بالمملكة الأُوستراسيَّة. وصميم مملكة أُوستراسيا كان ما يُعرَف ـ الآن ـ بلُورين.

إنَّ تدفُّق السيكامبريِّيْن إلىٰ بلاد الغال لم يتكوَّن من حشد من البَرْبَر الهَمَجيِّيْن المُتوحِّشين، الذين اكتسحوا الأرضَ بصَخَب. بالعكس، كان تدفُّقهم هادئاً، ومُتحضِّراً.

لعدَّة قُرُون، حافظ السيكامبريُّون علىٰ اتِّصال مُباشر مع الرُّومان؛ ومع أنَّهم كانوا وَثَنيِّيْن، هُم لم يكونوا هَمَجاً.

في الحقيقة؛ كانوا مُثقَّفين جدَّاً في العادات الرُّومانيَّة، وإداراتها، ومارسوا الأنماط الرُّومانيَّة. البعض من السّيكامبريِّيْن كانوا قد أصبحوا مسؤولين كباراً في الجيش الإمبراطُوري، حتَّىٰ إنَّ البعض منهم أصبحوا مُستشارين رُومانيِّيْن.

وهكذا، تدفُّق السّيكامبريِّيْن كان أقلَّ هُجُوماً، أو احتلالاً، من كونه تشرُّب، وتغلغل سلْمي.

وعند نهاية القرن الخامس، عندما انهارت الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، ملأ السّيكامبريُّون الفراغَ. هُم لم يقوموا بذلك بالقسوة، أو بالقُوَّة. احتفظوا بالعادات القديمة، وأجروا القليل جدَّاً من التَّعديلات.

بدُون أيَّة ثورة من أيِّ نوع، فَرَضوا السَّيطرة علىٰ الجهاز الإداري الموجود سَلَفَاً، ولكنَّه شاغر.

وبالتَّالي؛، نظام الميرُوفيِّيْن الأوَّل تطابق ـ بإنصاف، وبشكل مُباشر ، مع نموذج الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة القديمة.

ميرُوفي وأحفاده

بَحثُنَا كَشَفَ النِّقابَ عن شَخصيَّتَيْن ـ علىٰ الأقلِّ ـ اسمهما ميرُوفي، ومن غير الواضح جُملة أيٍّ منهما هُو بطل الأُسطُورة، التي تُؤمن بتحدُّره من صلب مخلوق بَحْري.

أحدهما كان زعيم السّيكامبريِّيْن، وُلِد عام 417، وقاتل إلىٰ جانب الرُّومان، ومات عام 438. تمَّ الاقتراح من قِبَل اثنَيْن مُعاصرين ـ علىٰ الأقلِّ ـ من الخُبراء بتلك الفترة أنَّ ميرُوفي هذا ـ في

الحقيقة ـ زار رُومَا، وسبَّبَ ضجَّة كبيرة. هُناك ـ بالتَّأكيد ـ سجلٌّ عن زيارة مـن قِبَـل زعـيم فرانكـي مهيب وبارز بشعره الأصفر المُنسدل.

في عام 448، ابن هذا الميرُوفي الأوَّل، يحمل الاسم نَفْسَه كأبيه، أُعلن كَمَلـك علىٰ الفـرنكيِّيْن في تُورنيه[1]، وحكم إلىٰ أنْ تُوفِّي بعد عشر سنوات. لرُبَّما هُو لم يكن الملك الرَّسْـمي الأوَّل للفـرانكيِّيْن كشعب مُوحَّد. ورُبَّما ـ استناداً إلىٰ هذا، ومهما كان ما جسَّدتْهُ ولادته المُزدوجـة العجيبـة ـ تـمَّ تـسمية السُّلالة التي خلفَتْهُ مُنْذُ ذلك الحين بالميرُوفيِّيْن.

تحت حُكْم وَرثَة ميرُوفي، ازدهرت المملكة الفرانكيَّة. هي لم تكن ثقافة بربريَّـة بذيئـة كـما يـتمُّ تخيُّلها في أغلب الأحيان. بالعكس، كانت تُقارن ـ في نواحٍ عديدة ـ بـ«الحضارة الرَّاقيـة» للبيـزنطيِّيْن، حتَّىٰ إنَّه تمَّ التَّشجيع علىٰ العُلُوم والمهارات الدُّنيويَّة.

في ظلِّ الحُكْم الميرُوفينجي كانت تلك العُلُوم الدُّنيويَّة أوسع انتشاراً ممَّا كـان عليـه الحـال في سُلالَتَيْن، وبعد خمسمائة سنة. تلك العُلُوم امتدَّت إلىٰ الحُكَّام بأنفسهم، الواقـع الأكثـر إدهاشـاً، نَظَـرَاً للشَّخصيَّة الأُمِّيَّة والجاهلة والمُتخلِّفة لمُلُوك القُرُون الوُسْطَىٰ التَّالين. الملك تشيلبيرك ـ علىٰ سبيل المثال ـ الذي حَكَمَ أثنـاء القـرن الـسَّادس، لم يبنـي المُـدرَّجات المُسرفة ذات الطِّـراز الرُّومـاني في بـاريس، وسُويسُونز[2] فحسب، بل ـ أيضاً ـ كان شاعراً مُخلصاً وبارعاً، افتخر كثيراً بصنعته. وهُناك روايـات حَرْفيَّة لمُناقشاته مع السُّلطات الإكليرُوسـيَّة (الكَنَـسيَّة)، التـي تعكـس الـذَّكاء، والحذاقـة، والـتَّعلُّم الاستثنائيّ، وهي صفات من غير المُحتمل أنْ يُصدِّقها المرء بمَلِكٍ في ذلك الوقت. في العديد من هـذه المُناقشات؛ تشيلبيرك يُثبت بأنَّه يفوق نظيره الكَنَسي، الذي يُجاوره.

في ظلِّ حُكْم الميرُوفيِّيْن، الفرانكيُّـون كـانوا وَحْـشيِّيْن في أغلـب الأحيـان، لكـنَّهم لم يكونـوا ـ حقَّاً ـ الأشخاص المُحاربين بالفطرة، أو بالمُيُول؛ هُم لم يكونوا مثل الفـايكنغ[3]، عـلىٰ سـبيل المثـال،

(1) (إلىٰ الشَّرق ـ تماماً ـ من مدينة ليل شمال فرنسا. المُترجم).

(2) (مدينة شمال فرنسا. المُترجم).

(3) (الفايكنغ، الشُّعُوب الشّماليَّة؛ الدّنمارك، والسُّويد، والنّرويج، الذين هـاجموا، واسـتقرُّوا في منـاطق كبـيرة في شرق أورُوبا، وغربها،أثنـاء فـترة التَّوسُّـع الاسـكندنافي ـ تقريبـاً ـ بـين عـامَيْ 800 إلىٰ 1100. يُـدعون ـ أيـضاً ـ بالقراصـنة

أو الوَنْداليّيْن «Vandals»[1]، أو القُوطيّيْن الغربيّيْن، أو الهُونيّيْن. نشاطاتهم الرَّئيسة كانت الزِّراعة، والتِّجارة. تمَّ التَّركيز علىٰ التِّجارة البَحْريَّة، وخُصُوصاً في البحر الأبيض المُتوسِّط. والمصنوعات اليدويَّة من عهد الميرُوفيّيْن تعكس نوعيَّة الصّناعة التي هي مُدهشة حقّاً؛ حيثُ إنَّ سفينة الكَنز في «ساتُون هُو»[2] تشهد علىٰ ذلك.

الثَّروة التي جُمِّعَتْ من قِبَل المُلُوك الميرُوفيّيْن كانت هائلة، حتَّىٰ وُفقاً للمقاييس الحديثة. مُعظم هذه الثَّروة كانت من العُملات المعدنيَّة الذَّهَبيَّة ذات النَّوعيَّة الرَّائعة، التي تمَّ إنتاجها من مصانع الصَّكِّ المَلَكيَّة في بعض المواقع المُهمَّة، بما فيها المصنع الذي هُو الآن دَيْر صهيُون في سويسرا. نماذج لمثل هذه العُملات المعدنيَّة وُجِدَتْ في سفينة الكَنز في «ساتُون هُو»، ويُمكن مُشاهدتها ـ الآن ـ في المُتحف البريطاني. العديد من العُملات المعدنيَّة تحمل صليباً مُميَّزاً مُتساوي الأضلاع، مُطابقاً لذلك الذي تمَّ تبنِّيه ـ بعد ذلك ـ أثناء الحملات الصَّليبيَّة للمملكة الفرانكيَّة في القُدْس.

الدَّم المَلَكي

بالرّغم من أنَّ ثقافة الميرُوفيّيْن كانت مُعتدلة وحديثة بشكل مُدهش، المُلُوك الذين حكموا هُم مسألة أُخرىٰ. هُم لم يكونوا مثاليّيْن، حتَّىٰ بالنِّسبة للحُكَّام في عهدهم، وذلك للمُحيط الغامض والأُسطُوري، والسِّحْر، وعالم ما وراء الطَّبيعة، الذي أحاطهم، حتَّىٰ أثناء فترات حياتهم. إنْ لم يكن التَّنظيم والعادات في عالم الميرُوفيّيْن مُختلفاً لدرجة كبيرة عن الآخرين في تلك الفترة، فإنَّ الهالة حول العَرْش وحول السُّلالة المَلَكيَّة كانت فريدة جدّاً.

الاسكندنافيّيْن. كانوا يغزون من الماء؛ إذْ إنَّ سُفُنَهم الشَّهيرة ـ التي كانت طويلة، ونحيلة ـ كانت قادرة علىٰ الدُّخُول إلىٰ مضائق مائيَّة لا يتوقَّع خَصْمُهُم قُدُومهم منها؛ كالأنهار مثلاً. المُترجم).

(1) (الوَنْدالِيّ: أحد أفراد قبيلة جرمانيَّة اجتاحت فرنسة وإسبانية وشمالي إفريقية في القرن الخامس الميلادي، وفي عام 455 ب.م. احتلَّت رُومة، وَنَهَبَتْهَا. أصبحت تلك التَّسمية تُطلَق ـ أيضاً ـ علىٰ المُخرِّبين للمُتلكات العامَّة. المُترجم).

(2) («ساتُون هُو»، تلَّة في ساحل مُقاطعة سُوفُولك شرق بريطانية. وهي موقع لأغنىٰ سفينة مدفونة تمَّ اكتشافها ـ حتَّىٰ الآن ـ في أُورُوبا. اكتُشفت عام 1939، بعمليَّات تنقيب. كان هُناك العديد من المواد الذَّهَبيَّة والأعمال المصنوعة بمهارة لا نظير لها. المُترجم).

أبناء الدَّم الميرُوفينجي لم «يُخلَقُوا» كمُلُوك. بالعكس، هُم كانوا يُعَدُّون كذلك بشكل آلِيّ عند وُصُولهم لعيد ميلادهم الثَّاني عشر. لم يكن هُناك شعائر تكريس عامَّة، ولا تتويج من أيِّ نوع. السُّلطة كانت تُمنَح لهم ـ ببساطة ـ كأمر مُسلَّم به، كما لو أنَّه حقٌّ مُقدَّسٌ. لكنْ؛ على الرّغم من أنَّ الملك كان السُّلطة العُليا في المملكة، إلَّا أنَّه لم يكن ـ أبداً ـ مُلتزم بتلك السُّلطة ـ أو حتَّىٰ من المُتوقَّع ـ أنْ يُلطِّخ يدَيْه بالحُكْم الدُّنيوي. لقد كان الملك ـ بشكل جَوْهَري ـ هُو شَخْصيَّة شعائريَّة رُوحيَّة، كان ملكاً كَاهناً، ودوره لم يكن دوره ـ بالضَّرورة ـ القيام بأيِّ شيء، ببساطة هُو كذلك.

باختصار؛ الملك يحكم، ولكنَّه لا يقود. في هذا المجال؛ مكانته هي مُشابهة بعض الشَّيء للمكانة التي تتمتَّع بها العائلة المالكة البريطانيَّة الحاليَّة. الحُكُومة والإدارة تُركَتا إلىٰ مسؤول آخر، ليس من أفراد العائلة المالكة، أشبه بالمُستشار، الذي يحمل لقب «عُمدَة القصر».

إجمالاً؛ تركيب نظام الميرُوفيِّيْن يمتلك العديد من الأشياء المُشابهة للحُكْم المَلَكي الأساسي الحديث.

حتَّىٰ بعد تحوُّلهم إلىٰ المسيحيَّة، الحُكَّام الميرُوفيُّون، كآباء(1) العهد القديم، كانوا مُتعدِّدي الزَّوجات. أحياناً؛ تمتَّعوا بالجواري كما في التَّقاليد الشَّرقيَّة.

وحتَّىٰ في الوقت الذي أُجبر فيه الأرستقراطيُّون تحت ضغط كبير من الكَنيسَة علىٰ أنْ أصبحوا أُحاديِّيْ الزَّواج، تمَّ استثناء المُلُوك. والكَنيسَة ـ بما يكفي من الحَيْرَة ـ يبدو بأنَّها قبلت ذلك الامتياز، بدُون أيِّ احتجاج مُغالىٰ فيه. طبقاً لأحد المُعلِّقين العَصْريِّيْن:

لماذا كان «تعدُّد الزَّوجات» مقبولاً ضمنيّاً لدىٰ الفرنكيِّيْن وحدهم؟ رُبَّما يكون وُجُودنا هُنا نتيجة للاستخدام القديم لتعدُّد الزَّوجات في عائلة مَلَكيَّة ما ـ عائلة من طبقة دمها لا يُمكن رفع مُستواها إلىٰ طبقة النُّبلاء بأيِّ شكل، مهما كانت مُفيدة، ولا يُمكن حتَّىٰ تخفيض مُستواها بدم العبيد... لقد كانت مسألة لا مُبالاة، سواء أُخِذَت الملكة من سُلالة مَلَكيَّة، أو من بين المحظيَّة... قَدْرُ السُّلالة رَقَدَ في دمها، وأشرك معه كُلَّ الذين يشتركون بذلك الدَّم.

---

(1) (هُم آباء الجنس البشري المذكورون في التَّوراة. المُترجم).

مرَّة ثانية، «من المُحتمل ـ تماماً ـ أنَّه ـ لرُبَّما ـ لدينا سُلالة ميرُوفينجيَّة تتحدَّر من سُلالة ألمانيَّة مَلَكيَّة نشأت من عائلة مَلَكيَّة قديمة في فترة الهجرة».

لكنْ؛ كم هُو عدد العائلات المُحتمَلَة علىٰ مَرِّ العُصُور والتَّاريخ العالمي، والتي من المُمكن أنَّها تتمتَّع بمثل هذه المنزلة الاستثنائيَّة والسَّامية؟!

لماذا يُعامَل الميرُوفيُّون كذلك؟!

لماذا يجب أنْ يُنظَر إلىٰ سُلالتهم بذلك القَدْر الكبير من الأهمِّيَّة؟

هذه الأسئلة ماتزال تُحيِّرنا.

كلُوفيس وميثاقه مع الكَنيسَة

الأكثر شُهرَة في كُلِّ الحُكَّام الميرُوفيِّيْن كان كلُوفيس الأوَّل، حفيد ميرُوفي، والذي حَكَمَ بين عامَيْ 481 و 511. اسم كلُوفيس مألوف لأيِّ تلميذ مدرسة فرنسي؛ لأنَّه في ظلِّ كلُوفيس تمَّ تحويل الفرنكيِّيْن إلىٰ المسيحيَّة الرُّومانيَّة. ومن خلال كلُوفيس؛ بدأت رُومَا بتأسيس سيادتها بلا مُنازع في أُورُوبا الغربيَّة؛ السِّيادة التي بقيت بلا مُنافسة، أو تحدٍّ لمُدَّة ألف سنة.

بحُلُول عام 496، الكَنيسَة الرُّومانيَّة كانت في حالة عدم استقرار. أثناء القرن الخامس؛ وُجُودها كان مُهدَّداً بشدَّة.

بين عامَيْ 384 و 399، أُسقُف رُومَا بدأ يدعو نفسه بالبَابَا، لكنَّ منزلته الرَّسْميَّة لم تكن أعظم من أيِّ أُسقُف آخر، وبشكل مُختلف ـ تماماً ـ عن البَابَا اليوم، هُو لم يكن ـ بأيِّ شكل ـ الزَّعيم الرُّوحي، أو الرَّئيس الأعلىٰ للمسيحيَّة؛ كان يُجسِّد ـ بشكل محض ـ فرداً وحيداً بمصالح شَخْصيَّة، أحد الأشكال العديدة المُختلفة في المسيحيَّة، وكان الشَّخص الذي يُكافح ـ بضراوة ـ من أجل البقاء ضدَّ تعدُّد الانشقاقات الدِّينيَّة المُتعارضة، ووُجهات النَّظَر اللَّاهُوتيَّة. رَسْميّاً؛ الكَنيسَة الرُّومانيَّة لم يكن لديها سُلطة أعظم من الكَنيسَة السَّلتيَّة، والتي كانت علىٰ خلاف معها علىٰ الدَّوام. لم يكن لديها سُلطة أعظم من سُلطة بِدَع كالآريَّة، التي أنكرت لاهوت السَّيِّد المسيح، وأصرَّت علىٰ إنسانيَّته.

في الحقيقة؛ في مُعظم أوقات القرن الخامس، كُلُّ منصب أُسقُف في أُورُوبا الغربيَّة كان إمَّا آريَّاً[1]، أو شاغر.

إنْ كان علىٰ الكَنيسَة الرُّومانيَّة أنْ تنجو، وأنْ تستمرَّ في تأكيد سُلطتها، فهي كانت بحاجة لدَعْم بطل؛ شَخْصيَّة كَاهن علْماني قوي قد يُمثِّلها. إنْ كان يجب أنْ تنشأ المسيحيَّة بمُوجب المذهب الرُّوماني، فإنَّ ذلك المذهب يجب أنْ ينتشر، وأنْ يُطبَّق، وأنْ يُفرَض بالقُوَّة العِلْمَانِيَّة؛ قُوَّة فعَّالة بما فيه الكفاية لمُقاومة واستئصال تحدِّي المذاهب المسيحيَّة المُنافسة في النِّهاية. لا عجب أنَّ الكَنيسَة الرُّومانيَّة ـ في أكثر لحظاتها الحاسمة ـ توجَّهت إلىٰ كلُوفيس.

في 486، كلُوفيس زاد ممالك الميرُوفيِّيْن بشكل ملحوظ. مُهاجِمَاً من آردينيه قام بضَمِّ عدد من المَالك والإمارات المُجاورة، وَهَزَمَ العديدَ من القبائل المُنافسة.

في النَّتيجة، قام بضَمِّ العديد من المُدُن المُهمَّة؛ مثلاً، ترُويز، وأمينز، وريمز، إلىٰ مملكته. خلال عقد؛ بدا ـ بشكل واضح ـ أنَّ كلُوفيس كان في طريقه لأنْ يُصبح الملك الأقوىٰ في أُورُوبا الغربيَّة.

إنَّ مَعمُوديَّة كلُوفيس وتحوُّله الدِّيني له صلة حاسمة في تحقيقنا. كان هُناك رواية في تلك الفترة عن ذلك الحَدَث بكُلِّ بُنُوده، وتفاصيله. بعد قرنَيْن ونصف، هذه الرِّواية ـ والتي تُسمَّىٰ حياة القدِّيس ريمي ـ أُتْلِفَتْ، إلَّا بضع صفحات مُتفرِّقة. والدَّليل يقترح بأنَّها أُتْلِفَتْ بشكل مُتعمَّد. علىٰ الرّغم من هذا، الأجزاء التي كُتِبَ لها النَّجاة تحمل شاهداً علىٰ أهمِّيَّة ما كانت تتضمَّنه.

طبقاً للتَّقاليد؛ تحوُّل كلُوفيس عن دينه كان قضيَّة مُفاجئة، وغير مُتوقَّعة، مُتأثِّراً بزوجة الملك «كلُوتيلد»ـ مُناصرة مُتشدِّدة لرُوما، والتي يبدو أنَّها أَزْعَجَتْ زوجَها إلىٰ أنْ قبل إيمانها، والتي قُدِّسَتْ ـ بعد ذلك ـ لجُهُودها. بتلك الجهود؛ قيل بأنَّها كانت مُوجَّهة ومُساعَدَة من قِبَل كَاهنها القدِّيس ريمي. ولكنْ؛ وراء هذه التَّقاليد هُناك حقيقة تاريخيَّة عَمَليَّة وعِلْمَانِيَّة جدَّاً.

(1) (آريُوسيّ: منسوبٌ إلىٰ آريُوس، وهُو كَاهن إسكندريّ «ت عام 336 م» قال بأنَّ الابن «المسيح» غير مُساوٍ للآب «الله» في الجَوْهَر. المُترجم).

عنـدما كلُـوفيس تحـوَّل عـن دينـه إلىٰ المـسيحيَّة الرُّومانيَّـة، وأصـبح أوَّل ملـك كَـاثُوليكي للفرنكيِّين، كان لديه الأكثر ليكسبه من مُجرَّد كَـسْب استحـسان زوجتـه، ومـن كَـسْب مملكـة أكـبر ـ بشكل ملموس ـ من مملكة السَّماء.

من المعروف بأنَّه في عام 496، حَدَثَتْ عدَّة اجتماعات سرِّيَّة بين كلُـوفيس والقـدِّيس ريمـي. فيما بعد، تمَّ ـ علىٰ الفور ـ المُصادقة علىٰ اتِّفاقيَّة بين كلُوفيس والكَنيسَة الرُّومانيَّة. بالنِّسبة لرُومـا؛ هـذه الاتِّفاقيَّة شكَّلت نصراً سياسيَّاً حاسماً. فذلك يضمن بقاء وتأسيس الكَنيسَة علىٰ أنَّها السُّلطة الرُّوحيَّـة الأعلىٰ في الغرب. ذلك سيُعزِّز منزلة رُومَا كنظير للدِّيانة الأرثُذُوكسيَّة اليُونانيَّة، التي مقرُّها في ما هُـو اليوم اسطنبول. ذلك سيمنح فُرصة الهيمنة الرُّومانيَّة، والوسائل الفعَّالة لاستئصال الرُّؤوس المُتشعِّبة للبِدَع. وكلُوفيس سيكون وسائل التَّطبيق لهذه الأشياء؛ سيف كَنيسَة رُومَا، الدُّمية التـي مـن خلالهـا رُومَا فَرَضَتْ سيادتها الرُّوحيَّة، اليد العِلْمَانِيَّة، والوُضُوح الملموس للقُوَّة الرُّومانيَّة.

بالمُقابل؛ كلُوفيس مُنِحَ لقب «Novus Constantinus» ـ «قسطنطين الجديد».

بكلمة أُخرىٰ؛ كان ليترأَّس الإمبراطُوريَّة المُوحَّدة؛ «الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّـة المُقدَّسَـة»، التـي اعتزمت أنْ تخلف تلك التي يُفترَض أنَّها أُسِّـسَتْ في ظـلِّ قـسطنطين، ودُمِّـرَتْ مـن قِبَـل القُـوطيِّيْن الغربيِّيْن قبل فترة ليست بالطَّويلة.

طبقـاً لأحـد الأشـخاص الحـديثين، والخُـبراء بتلـك الحقبـة مـن الـزَّمن؛ كلُـوفيس قبـل أنْ يُعمَّـد، كـان «مُـشجَّعاً... بتـصوُّر إمبراطُوريَّـة تخلـف تلـك التـي في رُومَـا، والتـي يجـب أنْ تكـون إرثاً لسُلالة الميرُوفيِّيْن».

طبقاً لكاتب مُعاصر آخر؛ «كلُوفيس لابُدَّ أنَّه ـ آنذاك ـ أصبح إمبراطُوراً غربيَّاً مـن نـوع مـا، بطريركاً للألمان الغربيِّيْن، يحكم ـ مع أنَّه لا يقود ـ كُلَّ النَّاس والمُلُوك».

باختـصار؛ الحلـف بـين كلُـوفيس والكَنيـسَة الرُّومانيَّـة كـان أحـد النَّتـائج البالغـة الأهمِّيَّـة للمسيحيَّة؛ ليست ـ فقط ـ للمسيحيَّة في الوقت الرَّاهن، بل ـ أيضاً ـ للمسيحيَّة في الألفيَّة القادمة.

تعميد كلُوفيس عُدَّ إشارة إلىٰ ولادة إمبراطُوريَّة رُومانيَّة جديدة؛ إمبراطُوريَّة مسيحيَّة تستند علىٰ الكَنيسَة الرُّومانيَّة، وتُدار ـ علىٰ المُستوىٰ العلْماني ـ من قِبَل سُلالة الميرُوفيّين.

بكلمة أُخرىٰ؛ رابطة غير قابلة للزَّوال أُسِّسَتْ بين الدّولة والكَنيسَة، كُلٌّ منهما تعهَّد بالولاء للآخر، وكُلٌّ دَعَمَ نفسه بالآخر علىٰ الدَّوام.

لإقرار هذه الرَّابطة، عام **496**، سمح كلُوفيس لنفسه بأنْ يُعمَّد رَسْميّاً من قِبَل القدِّيس ريمي في ريمز[1]. وفي ذروة مراسم التَّعميد صرَّح القدِّيس ريمي بكلماته المشهورة التَّالية:

Mitis depone colla, Sicamber, adora quod incendisti, incendi quod adorasti.

(احنِ رأسكَ بتواضع، أيُّها السّيكامبري،

وَقِّرْ ما أحرقته، وأَحْرِقْ ما وقَّرْته)

من المُهمِّ مُلاحظة أنَّ تعميد كلُوفيس لم يكن تتويجاً ـ كما يقترح المُؤرِّخون أحياناً. الكَنيسَة لم تجعل كلُوفيس ملكاً. فهُو كان سَلَفَاً كذلك، وكُلُّ ما كان باستطاعة الكَنيسَة القيام به هُو أنْ تعترف بكونه ملكاً.

استناداً إلىٰ ما عملته الكَنيسَة، هي قامت بِرَبْط نفسها بذلك الأمر رَسْميّاً، ليس بكلُوفيس وحده، بل بوَرَثَته ـ أيضاً ـ ليس لفرد واحد، بل بالسُّلالة.

في هذا النِّطاق، الحلْف يُشبه العهد الذي قطعه اللهُ مع داود، كما وَرَدَ في العهد القديم؛ حلْف يُمكن تعديله، كما في حالة سُلَيْمان، ولكنْ؛ ليس إبطاله، أو فسخه، أو الحنْث به. والميرُوفيُّون لم يغضُّوا الطَّرْفَ عن المُكَافئ[2].

أثناء السَّنوات الباقية من حياته، كلُوفيس أدرك ـ تماماً ـ توقُّعات رُومَا الطَّموحة التي تنتظرها منه. بالإيمان بالكفاءة التي لا تُقاوَم، والتي فُرِضَتْ بحَدِّ السَّيف؛ وبالتَّشجيع والتَّفويض الرُّوحي من

(1) (طبقاً لأحد المُصوَّرات الحديثة؛ وَرَدَ اسم هذه المدينة بأنَّه «رامس»، ولكنْ؛ أعتقد أنَّ التَّسمية خاطئة، فأصل الكلمة هُو «Reims». وهي مدينة تقع إلىٰ شمال شرق باريس. المُترجم).

(2) (أيْ أنَّهم فعلوا كما هُو الحال بالنِّسبة للمُكَافئ، والذي هُو العهد بين الله ـ عزَّ، وجلَّ ـ وبين سُلَيْمان وداود، كما ورد في العهد القديم؛ أيْ أنَّهم ـ باختصار ـ نفَّذوا تلك الميثاقيَّة، ولم يخونوا العهد. المُترجم).

الكَنيسَة، توسَّعت مملكة الفرنكيِّين إلىٰ الشَّرق، والجنوب، مُحيطة بمُعظم الأراضي، التي تُشكِّل فرنسا الحديثة، وألمانيا الحديثة.

من بين خُصُوم كلُوفيس العديدين، القُوطيُّون الغربيُّون كانوا الأكثر أهمِّيَّة، والذين كانوا يعتنقون المسيحيَّة الآريَّة.

وجَّه كلُوفيس أكثر حملاته المُثابِرة والمُنسَّقة ضدَّ إمبراطُوريَّة القُوطيِّين الغربيِّين؛ التي امتدَّت علىٰ جانبَيْ بيرينه، وامتدَّت إلىٰ أقصىٰ الشّمال، وُصُولاً إلىٰ تُولُوز.

عام 507، هُزم القُوطيُّون الغربيُّون - بشكل حاسم - في معركة فاوِيلْ.

بعد ذلك بقليل؛ سَقَطَتْ آكويتين[1]، وتُولُوز في أيدي الفرنكِّيْن. إمبراطُوريَّة القُوطيِّيْن الغربيِّيْن شمال بيرينه انهارت - عَمَليّاً - أمام الهُجُوم الفرنكي.

من تُولُوز، تراجع القُوطيُّون الغربيُّون إلىٰ كركسُون. وبعد أنْ أُبعِدُوا عن كركسُون، أسَّسوا عاصمتهم، وآخر معاقلهم في ريزس، في ريدا؛ والتي هي - الآن - قرية رين لُو شاتُو.

داغُوبرت الثَّاني

في عام 511، مات كلُوفيس، والإمبراطُوريَّة التي أسَّسها قُسِّمَتْ، طبقاً لعادة الميرُوفيِّيْن، بين أبنائه الأربعة.

لأكثر من قرن - فيما بعد - سُلالة الميرُوفيِّيْن ترأَّست عدداً من الممالك المُتناحرة والمُتحاربة في أغلب الأحيان، في الوقت نفسه الذي أصبحت فيه خُيُوط النَّسَب مُتشابكة علىٰ نحو مُتزايد، وتُطالب بالعُرُوش بشكل مُعقَّد، ومُشوَّش جدّاً.

(1) (آكويتين، باللَّاتينيَّة «آكويتينيا»، وهي اسم تقليدي لجنوب غرب فرنسا، استُعمِلَ لأوَّل مرَّة من قِبَل القَيْصَر جُوليُوس في القرن الأوَّل قبل الميلاد. المُترجم).

السُّلطة التي تمركزت ـ مرَّة ـ في الملك كلُوفيس، أصبحت ـ بتقـدُّم تـدريجي ـ أكثـر انتـشاراً، وبتقدُّم تدريجي؛ أصبحت أكثر بدائيَّة، والنِّظام المَدَني تدهور.

الدَّسائس والمكائد وحوادث الاختطاف والاغتيالات السِّياسيَّة أصبحت أمراً مُعتاداً.

ومُستشارو البلاط، أو «عُمدات القصر» جمَّعـوا قُـوَّة أكثـر، فـأكثر، العامـل الـذي سـاهم في سُقُوط السُّلالة في النِّهاية.

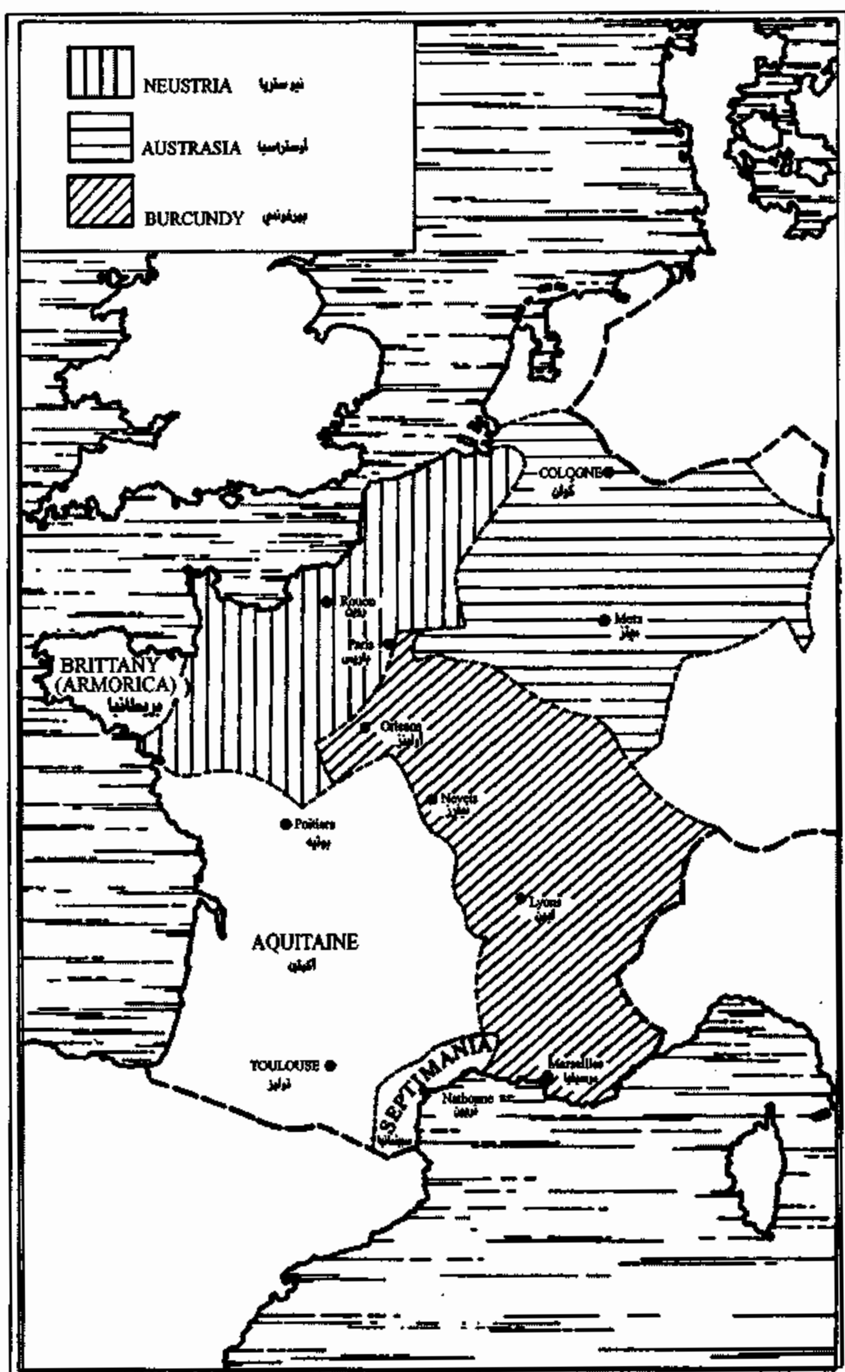
الحُكَّام الميرُوفيُّون اللَّاحقون الذين كانوا ـ علىٰ نحو مُتزايد ـ يُحرَمُون مـن الـسُّلطة، كـانوا يُلقَّبـون ـ في أغلب الأحيان ـ بـ«les rois fainéant»؛ أيْ «المُلُوك المُضْعَفُون».

الأجيال القادمة وشمتهم ـ بشكل مُحتقر ـ بالمُلُوك الضُّعفاء غير النَّـافعين، والمُختَّـين العـاجزين في أيدي المُستشارين المُخادعين.

كَشَفَ بحثُنَا بأنَّ هذه الفِكْرَة الشَّائعة لم تكن دقيقة تماماً.

صحيح أنَّ الحُرُوب المُتواصلة وعمليَّات الثَّأر والنِّزاع المُميت دفعت عدداً من أُمراء الميرُوفيِّيْن إلىٰ العَرْش بعُمر شابٍّ جدّاً؛ وبذلك؛ كان ـ بسُهُولة ـ يتمُّ التَّلاعب بهم من قِبَل مُستشاريهم.

لكنَّ أُولئك الذين بلغوا سنَّ الرُّجُولة أثبتوا حَسْمَهُم وقُوَّتهم كأيٍّ من أسلافهم. يبدو ذلـك ـ بالتَّأكيد ـ بأنَّه حال داغُوبرت الثَّاني.



الممالك الميروفينجيّة

داغُوبرت الثَّاني وُلد عام 651، وريثاً لمملكة أُوستراسيا. أثناء موت أبيه عام 656، تمَّ القيام بمُحاولات مُفرطة لتحول دُون وُصُوله للعَرْش.

في الحقيقة؛ حياة داغُوبرت المُبكِّرة تبدو وكأنَّها أُسطُورة من القُرُون الوُسطَىٰ، أو قصَّة من قَصَص الحواري، لكنَّها تاريخ مُوثَّق بشكل جيِّد.

عند موت أبيه، اختُطف داغُوبرت من قِبَل عُمدة مُشرف علىٰ القصر يُدعَىٰ غريمُولد. مُحاولات للعُثُور علىٰ طفل بعُمر الخمس سنوات أثبتت أنَّها غير مُثمرة، ولم يكن من الصَّعب إقناع البلاط بأنَّه كان ميِّتاً.

وعلىٰ هذا الأساس؛ رتَّب غريمُولد ـ بعد ذلك ـ استيلاء ابنه علىٰ العَرْش، مُدَّعياً أنَّ تلك كانت أُمنيَّة الملك السَّابق الأب الميِّت لداغُوبرت. الحيلة نجحت عَمَليَّاً. حتَّىٰ والدة داغُوبرت ـ التي تعتقد أنَّ ابنها ميِّت ـ أذعنت باستلام عُمدة القصر الطَّموح للعَرْش.

علىٰ أيَّة حال؛ يبدو أنَّه ـ في الحقيقة ـ غريمُولد رفض أنْ يقتل الأمير الشَّابَّ. داغُوبرت كان قد عُهد بشكل سرِّيٍّ تحت وصاية أُسقُف بواتيه[1]. يبدو أنَّ الأُسقُف كان مُمانعاً لقَتْل الطِّفل. بعد ذلك؛ أُودع داغُوبرت في منفىٰ دائم في إيرلندا. تربَّىٰ حتَّىٰ الرُّجُولة في الدَّيْر الأيرلندي في سلان، التي لا تبعد كثيراً عن دبلن؛ وهُنا، في المدرسة المُلحقة بالدَّيْر، تلقَّىٰ علْماً لم يكن مُتوفِّراً في فرنسا آنذاك.

في وقت ما أثناء هذه الفترة؛ يُفترَضُ أنَّه حضر في بلاط الملك الكبير لـ«تارن»[2]. وقيل بأنَّه تعرَّف إلىٰ ثلاثة أُمراء نُورثمبريِّيْن[3]، الذين تعلَّموا ـ أيضاً ـ في سلان.

عام 666، من المُحتمل أنَّه كان مايزال في إيرلندا، تزوَّج داغُوبرت بماتيلد، وهي أميرة سلْتيَّة. بعد فترة ليست بالطَّويلة؛ انتقل من إيرلندا إلىٰ إنجلترا؛ حيثُ أسَّس مسكناً في يُورك، في المملكة النُّورثمبريَّة. هُنا؛ أسَّس صداقة حميمة مع القدِّيس «ويلفريد»، أُسقُف يُورك، الذي أصبح مُعلِّمه الخاصَّ.

---

(1) («Poitiers»: مدينة في الوسط الغربي لفرنسا. المُترجم).
(2) (مُقاطعة في جنوبي فرنسا الآن، وقد شُكِّلَتْ من جُزء من إقليم لانغدُوق عام 1790. المُترجم).
(3) (نورثمبريَّا: مملكة إنكليزيَّة قديمة. المُترجم).

أثناء الفترة المَعنيَّة؛ كان الانشقاق الدِّيني مايزال موجوداً بين الكَنائس الرُّومانيَّة والسّلتيَّة، نتيجة لرَفْض الأخير الإقرار بسُلطة الأوَّل.

لمصلحة الوحدة؛ «ويلفريد» كان مُصمِّماً علىٰ ضَمِّ الكَنيسَة السّلتيَّة إلىٰ الرُّومانيَّة.

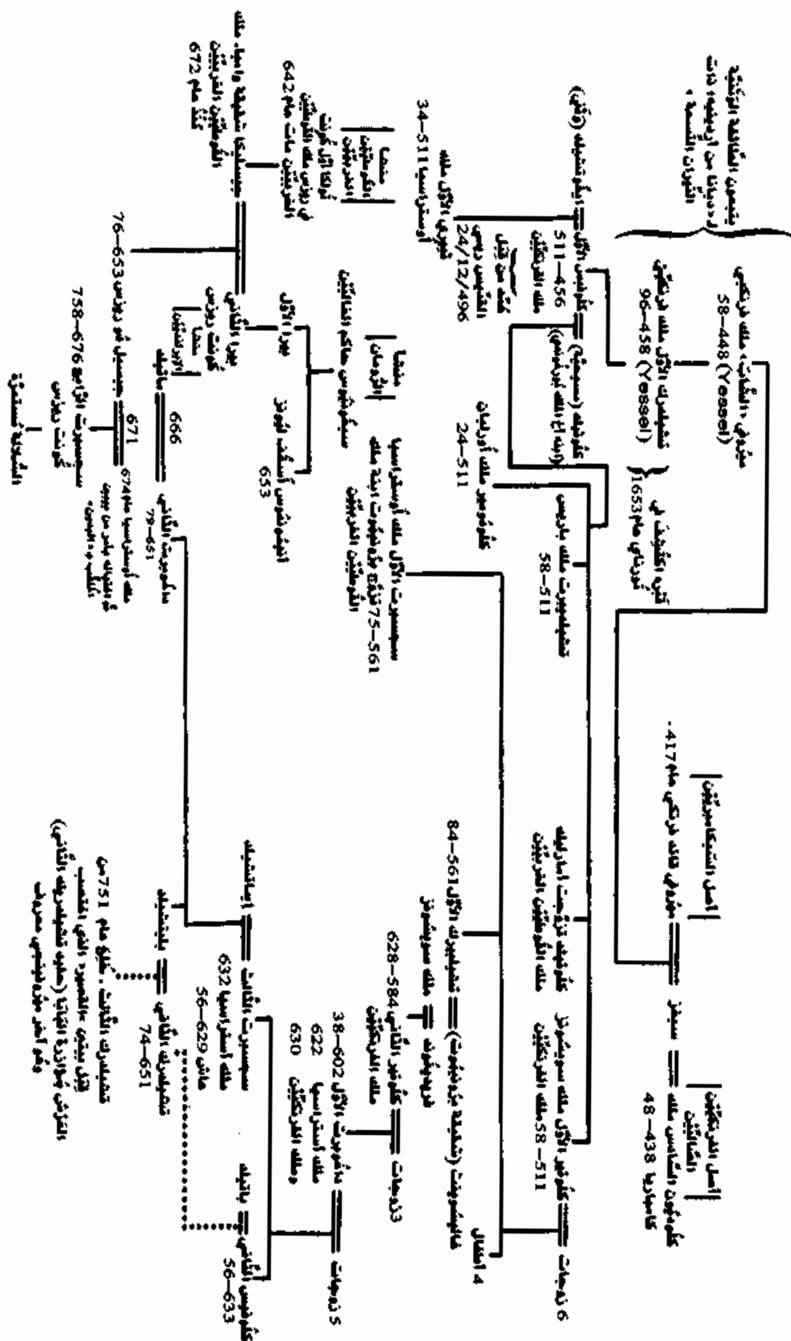
لقد أنجز ذلك ـ سَلَفَاً ـ في مجلس ويتبي المشهور عام **664**. لكنَّ صداقته ورعايته اللَّاحقَتَيْن لداغُوبرت الثَّاني لا يُمكن أنْ تكون خالية من دوافع خفيَّة.

في زمان داغُوبرت، ولاء الميرُوفيِّيْن إلىٰ رُومَا ـ كما هُو مفروض بمُوجب المُعاهدة بين الكَنيسَة وكلُوفيس قبل قرن ونصف ـ كان نوعاً ما أقلّ حميَّة ممَّا كان عليه من قبلُ.

كتابعٍ مُوالٍ لرُوما، «ويلفريد» كان مُتلهِّفاً لدَعْم السِّيادة الرُّومانيَّة؛ ليس ـ فقط ـ في بريطانيا، لكنْ؛ في القارَّة أيضاً.

في إعادة داغُوبرت إلىٰ فرنسا؛ واسترداده لمملكة أُوستراسيا، قد يكون ذلك مُناسباً لضمان الولاء. «ويلفريد» ـ لرُبَّما ـ رأىٰ في الملك المَنْفي كالذِّراع الحامية والسَّيف المُستقبلي المُحتَمَل للكَنيسَة.

(سلالة الميروفنجيين)



في عام 670، ماتت ماتيلد، زوجة داغُوبرت السّلتيَّة، وهي تلد ابنتها الثَّالثة. عجَّل «ويلفريد» لترتيب زوجة جديدة للملك المفجوع مُؤخَّراً، وفي عام 671، تزوَّج داغُوبرت للمرَّة الثَّانية. إنْ كان تحالفه (زواجه) الأوَّل كان ذا أهمِّيَّة سُلاليَّة مُمكنة، الزَّواج الثَّاني كان أكثر إمكانيَّة. زوجة داغُوبرت الجديدة كانت جيسيل دُو ريزس، ابنة كُونت ريزس، وابنة أُخت ملك القُوطيِّيْن الغربيِّيْن.

بكلمة أُخرىٰ؛ سُلالة الميرُوفيِّيْن تحالفت ـ الآن ـ مع السُّلالة المَلَكيَّة للقُوطيِّيْن الغربيِّيْن. ومن هُنا؛ نشأت بُذُور إمبراطُوريَّة جنينيَّة، والتي ستُوحِّد مُعظم فرنسا الحديثة، تمتدُّ من بيرينه إلىٰ آردينيه.

علاوةً علىٰ ذلك؛ إمبراطُوريَّة كهذه كانت ستضع القُوطيِّيْن الغربيِّيْن ـ الذين كانوا مايزالون ذوي مُيُول آريَّة قويَّة، بحَزْم ـ تحت السَّيطرة الرُّومانيَّة.

عندما تزوَّج داغُوبرت جيسيل، عاد إلىٰ القارَّة. طبقاً للتَّوثيق الموجود؛ تمَّ الاحتفال بالزَّواج في سَكَن جيسيل الرَّسْمي في ريدا (رين لُو شاتُو).

في الحقيقة؛ الزَّواج احتُفِلَ به كما يُعتَقَد في كَنيسَة القدِّيسة مَجْدَلِيْن؛ البناء الموجود في الموقع الذي نُصِبَتْ فيه ـ فيما بعد ـ كَنيسَة سُونير.

زواج داغُوبرت الأوَّل أنجب ثلاث بنات، ولكنْ؛ لا وريث ذَكَر. ومن جيسيل؛ حصل داغُوبرت علىٰ ابنتَيْن إضافيَّتَيْن، وأخيراً، في عام 676، رُزِقَ بوَلَد وحيد؛ الرَّضيع كان اسمه سجسبرت الرَّابع. وفي الوقت الذي وُلِدَ فيه سجسبرت، داغُوبرت كان ملكاً لمرَّة أُخرىٰ.

لحوالي ثلاث سنوات يبدو أنَّه كان ينتظر الفُرصة المُلائمة في رين لُو شاتُو، مُراقباً التَّقلُّبات في أراضي مملكته في الشّمال.

أخيراً؛ في عام 674، الفُرصة قدَّمت نفسها. بدَعْم من أُمِّه ومُستشاريها، الملك المَنْفي مُنْذُ زمن طويل أعلن نفسه، واستردَّ مملكته، وأُعلِنَ كَمَلك رَسْمي لأُوستراسيا. «ويلفريد» اليُوركي[1] كان له دور فعَّال في إرجاعه.

---

(1) (من يُورك. المُترجم).

وطبقاً لجيرارد دُو سيد؛ كذلك ـ أيضاً ـ كان الفضل لشَخْصيَّة أكثر حَيْرَة وغُمُوضاً بكثير، والذي لا يُوجد عنه إلَّا القليل من المعلومات التَّاريخيَّة؛ إنَّه القدِّيس أماتيُوس، أُسقُف دَيْر صهيُون في سويسرا[1].

عندما عاد للعَرْش، داغُوبرت لم يكن «roi fainéant» (ملكاً كسولاً). بالعكس، أثبت بأنَّه جدير أنْ يكون وريثاً للملك كلُوفيس. بدأ ـ بشكل سريع ـ بفَرْض وتعزيز سُلطته، ويُهدِّئ من الفوضىٰ التي سادت في كافَّة أنحاء أُوستراسيا، وبدأ بتجديد النِّظام. حَكَمَ بحَزْم، وَكَسَرَ شوكة النُّبلاء المُختلفين المُتمرِّدين، الذين عبَّؤوا الجيش الكافي والقُوَّة الاقتصاديَّة لتحدِّي العَرْش. وفي رين لُو شاتُو؛ قيل بأنَّه جَمَعَ ثروةً كبيرةً. هذه المصادر الماليَّة قيل بأنَّها كانت ستُستعمَل لتمويل إعادة غزو آكويتين، التي انفصلت عن حُكْم الميرُوفيِّيْن حوالي أربعين سنة سابقاً، وأعلنت نفسها كإمارة مُستقلَّة.

في الوقت ذاته، داغُوبرت لابُدَّ وأنَّه قد سبَّب إحباطاً حادَّاً لصديقه «ويلفريد» اليُوركي؛ إذْ إنَّ هذا الأخير توقَّع بأنَّ داغُوبرت سيكون اليد الضَّاربة للكَنيسَة، إلَّا أنَّ داغُوبرت أثبت أنَّه ليس كذلك. بالعكس؛ يبدو أنَّه كَبَحَ مُحاولة توسُّع الكَنيسَة ضمن مملكته، وبذلك؛ تسبَّب في استياء كَنَسي. رسالة من أُسقُف فرانكي غاضب إلىٰ «ويلفريد» ماتزال موجودة، وهي تدين داغُوبرت لجَمْعه الضَّرائب؛ ولأنَّه «يحتقر كَنائس الله سويَّة مع أساقفتها».

ولم تكن ـ أيضاً ـ هذه النَّاحية الوحيدة التي يبدو فيها أنَّ داغُوبرت قد أخطأ مع رُومَا. زواجه من أميرة قُوطيَّة غربيَّة أَكْسَبَهُ أرضاً كبيرةً في المنطقة، التي هي ـ الآن ـ لانغدُوق. رُبَّما هُو اكتسب شيئاً آخر أيضاً. القُوطيُّون الغربيُّون كانوا مُوالين ـ بشكل اسمي فقط ـ للكَنيسَة الرُّومانيَّة.

(1) (تصريح دُو سيد فيه نوع من المصداقيَّة وُفقاً لبعض الحقائق المعروفة عن حياة القدِّيس أماتيوس. تحمَّل ـ أيضاً ـ عداوة عُمدة قصر الملك تيري الثَّالث، الذي كان وراء اغتيال داغُوبرت الثَّاني. أُزيح من منصبه كأُسقُف ـ تقريباً ـ في الوقت نفسه الذي عاد فيه داغُوبرت إلىٰ إرْثه الشَّرعي. التَّوافق التَّاريخي للحادثَيْن يُمكن أنْ يعكس تدخُّله في عودة داغُوبرت. داغُوبرت ـ علىٰ الأغلب ـ سافر عائداً إلىٰ مملكته عن طريق أُسقُفيَّة القدِّيس أماتيُوس؛ لأنَّ السَّفَر مُباشرة عبر ريزس يتطلَّب السَّفَر عبر مملكة تيري الثَّالث. المُؤلِّفون).

في الحقيقة؛ ولاؤهم إلىٰ رُومَا كان ضعيفاً جدّاً، ومُيُولهم نحو الآريَّة[1] كانت ماتزال موجودة في العائلة المالكة. هُناك دليل لاقتراح أنَّ داغُوبرت اكتسب شيئاً من تلك المُيُول.

بحُلُول عام 679، بعد مُرُور ثلاث سنوات في العَرْش، داغُوبرت كان قد صَنَعَ العديد من الأعداء الأقوياء، العلْمانيِّيْن والكَنَسيِّيْن. بكَبْحِهِ لحُكْمهم الذَّاتي المُتمرِّد لابُدَّ أنَّه تسبَّب بعداوة الكثير من النُّبلاء الحاقدين. وبإحباط؛ لمُحاولة توسُّعها أشعل الكراهية عند الكَنيسَة. وبتأسيس نظام فعَّال ومركزي أثار الحسد، وَقَرَعَ جرس الإنذار لدىٰ المُلُوك الفرنكيِّيْن الآخرين؛ حُكَّام الممالك المُجاورة. البعض من هؤلاء الحُكَّام كان لديهم الحُلفاء والعُملاء ضمن مملكة داغُوبرت، أحدهم ـ مثلاً ـ كان عُمدة الملك الخاصّ في القصر، بيبين، المُلقَّب بـ«السَّمين». وبيبين ـ الذي نسَّق ـ بشكل سرِّيٍّ ـ مع خُصُوم داغُوبرت السِّياسيِّيْن ـ لم يتردَّد عن أيَّة خيانة، أو عمليَّة اغتيال.

كأكثر الحُكَّام الميرُوفيِّيْن، داغُوبرت كان يمتلك مدينتَيْن رئيسيَّتَيْن علىٰ الأقلّ. أهمّها كان ستيناي، علىٰ مشارف آردينيه. قُرب القصر المَلَكي في ستيناي امتدَّت فسحة كثيفة الشَّجر، وكانت لمُدَّة طويلة تُعدُّ مُقَدَّسَة، وتُسمَّىٰ غابة «ووفرز». يُقال إنَّه في هذه الغابة، وفي 23 ديسمبر/ كانون الأوَّل عام 679، ذهب داغُوبرت للصَّيد. نَظَراً للتَّاريخ، يبدو أنَّ الصَّيد ـ لرُبَّما ـ كانت مُناسبة شعائريَّة من نوع ما.

علىٰ أيٍّ حال، ما حصل بعد ذلك يستدعي إظهار أصداء نموذجيَّة، بما فيها مقتل سيغفريد في قصيدة «**Nibelungenlied**»[2].

في مُنتصف النَّهار تقريباً، مُستسلماً للتَّعب، اضطجع الملك أسفل الشَّجرة، لينال قسطاً من الرَّاحة بجانب الجدول. بينما هُو نائم، أحد خَدَمه ـ يُفترَض أنَّه ابنه بالمَعمُوديَّة ـ تسلَّل خلْسَة إليه، مُنفِّذاً لأوامر بيبين، وطعنه برُمح في عينه.

---

(1) (الآريُوسيَّة؛ نسبة إلىٰ آريُوس الكَاهن الإسكندريّ (ت عام 336 م)، الذي يُؤمن بأنَّ الابن (المسيح) غير مُساوٍ للآب (الله) في الجَوْهَر. المُترجم).

(2) («نيبلُونجين ليد» قصيدة مَلْحَميَّة ألمانيَّة من القُرُون الوُسْطَىٰ لمُؤلِّف مجهول، من أوائل القرن الثَّالث عشر. القصيدة مُركَّبة من علْم الأساطير النّرويجي والتيُوتُوني، وبداية تاريخ مملكة بيرغُوندي. المُترجم).

بعد ذلك؛ عاد القَتَلَةُ إلىٰ ستيناي، بهدف إبادة بقيَّة العائلة المالكة في القصر هُناك. ما مقدار نجاحهم في تلك المهمَّة الأخيرة. هُو ليس معروفاً. ولكنْ؛ ما لا شكَّ فيه أنَّ نهاية عهد داغُوبرت وعائلته كانت مُفاجئة، وعنيفة. وما لا شكَّ فيه ـ أيضاً ـ هُو أنَّ الكَنيسَة لم تهدر الكثير من الوقت في حدادها عليه. بالعكس، دعمت، وأيَّدت ـ علىٰ الفور ـ صنيع قَتَلَة الملك. حتَّىٰ إنَّه يُوجد هُناك رسالة من أُسقُف فرنكي إلىٰ «ويلفريد» اليُوركي، التي تُحاول تبرير جريمة قَتْل الملك.

جُثَّة داغُوبرت وحالته بعد الوفاة مرَّت بتقلُّبات مُحيِّرة عديدة. بعد موته فوراً؛ دُفن في ستيناي، في المُصلَّىٰ المَلَكي للقدِّيس ريمي.

عام 872 ـ تقريباً بعد قرنَيْن ـ نُبِشَ قَبْرُهُ، ونُقِلَتْ جُثَّته إلىٰ كَنيسَة أُخرىٰ. أصبحت هذه الكَنيسَة الجديدة كَنيسَة القدِّيس داغُوبرت، في السَّنة نفسها، الملك الميِّت قُدِّس ـ ليس من قِبَل البَابَا (الذي لم يدَّع هذا الحقَّ علىٰ وجْه الحَصْر، أو القَصْر، حتَّىٰ عام 1159)، لكنْ؛ من قِبَل اجتماع سرِّيٍّ للكرادلة. السَّبب لإعلان قَدَاسَة داغُوبرت هُو غير واضح.

طبقاً لأحد المصادر؛ السَّبب هُو أنَّه يعتقد أنَّ جُثَّته حفظت المنطقة المُجاورة لستيناي ضدَّ هجمات الفايكنغ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ هذا التَّفسير يطرح مُساءلة؛ لأنَّه ليس واضحاً لماذا تمتلك جُثَّته قوىٰ كهذه في المقام الأوَّل.

تبدو السُّلطات الكَنَسيَّة أنَّها جاهلة بشكل مُحرج بما يتعلَّق بالمسألة. يعترفون بأنَّ داغُوبرت ـ لسبب ما ـ أصبح الحافز لطائفة كاملة، وله عيد خاصٌّ ـ هُو 23 ديسمبر/ كانون الأوَّل، وهُو ذكرىٰ وفاته. ولكنْ؛ يبدو أنَّه من المُحيِّر جدّاً لماذا كان يجب عدُّه مُمجَّداً جدّاً. رُبَّما ـ بالطَّبع ـ لأنَّ الكَنيسَة شعرت بالذَّنب بشأن دورها في مقتل الملك. لذا، إعلان قَدَاسَة داغُوبرت ـ رُبَّما ـ مُحاولة لوَضْع الأُمُور في نصابها.

علىٰ أيَّة حال؛ إنْ كان الأمر كذلك، فليس هُناك إشارة لماذا يجب أنْ تُعدَّ ضروريَّة هذه البادرة، ولا السَّبب في القيام بذلك بعد انتظار قرنَيْن من الزَّمن.

ستيناي، كَنيسَة القدِّيس داغُوبرت، ورُبَّما الجُثَّة التي بداخلها كان لها أهمِّيَّة عظيمة أبداها عدد كبير من الشَّخصيَّات الشهيرة في القُرُون التَّالية.

في عام 1069، علىٰ سبيل المثال، دُوق لُورين ـ جَدُّ غُودفرُوي دُو بلُويُون ـ مَنَحَ حماية خاصَّة للكَنيسَة، ووضعها تحت رعاية الدَّيْر القريب في جُورز[1].

بعد بضع سنوات؛ تمَّ الاستيلاء علىٰ الكَنيسَة من قِبَل أحد النُّبلاء المحلِّيِّين. في عام 1093، غُودفرُوي دُو بلُويُون عبَّأ جيشاً، وأخضع ستيناي لحصار شامل؛ لهدف وحيد، كما يبدو، وهُو استعادة الكَنيسَة، وإرجاعها لرعاية دَيْر جُورز.

أثناء الثَّورة الفرنسيَّة؛ الكَنيسَة حُطِّمَتْ، وبُعْثِرَتْ جُثَّة القدِّيس داغُوبرت، كالعديد من مثيلاتها الأُخريات في كافَّة أنحاء فرنسا.

اليوم جُمْجُمَة مثقوبة بشكل شعائري يُقال بأنَّها لداغُوبرت، وهي برعاية دَيْر في مُونز[2]. وكُلُّ ما تبقىٰ من الجُثَّة وحاجيَّات الملك اختفتْ.

لكنْ؛ في مُنتصف القرن التَّاسع عشر، ظهرت الوثيقة الأكثر حَيْرَة، وغُمُوضاً. كانت قصيدة ابتهاليَّة من عشرين بيت عُنوانها «De sancta Dagoberto martyre prose» ـ مُشيرة ـ بشكل ضمني ـ إلىٰ أنَّ داغُوبرت ضُحِّيَ به من أجل شيء ما.

هذه القصيدة يُعتقَدُ بأنَّ تاريخها يعود ـ علىٰ الأقلِّ ـ للعُصُور الوُسْطَىٰ، ورُبَّما قبل ذلك بكثير. وبشكل هامٍّ، موجودة في دَيْر أُورفال.

---

(1) (مدينة فرنسيَّة، جنوب غرب مِتس، قُرب الحُدُود الألمانيَّة. المُترجم).

(2) (مدينة في جنوب غرب بلجيكا. المُترجم).

الاغتصاب من قِبَل الكارُولينيِّيْن[1]

علىٰ وجه التَّحديد، داغُوبرت لم يكن الحاكم الأخير لسُلالة الميرُوفيِّيْن.

في الحقيقة؛ احتفظ مُلُوك الميرُوفيِّيْن بالمنزلة الاسميَّة ـ علىٰ الأقلّ ـ لثلاثة أرباع قرن أُخرىٰ. لكنَّ هؤلاء الميرُوفيِّيْن الأخيرين كانوا يستحقُّون لقب المُلُوك الكَسَالىٰ. العديد منهم كانوا شباباً.

بالنَّتيجة؛ كانوا دُمىٰ عاجزة وضعيفة في أغلب الأحيان، تُحرِّكها أيدي عُمدات القصر، وعاجزة عن فَرْض سُلطتها، أو صُنْع القرارات بأنفسهم. حقّاً؛ لم يكونوا سوىٰ ضحايا؛ وقد تمَّ التَّضحية ببعضهم.

علاوةً علىٰ ذلك؛ الميرُوفيُّون اللَّاحقون كانوا من فُرُوع مُتشعِّبة؛ أيْ لم يتحدَّروا ـ بشكل مُباشر ـ من السُّلالة الرَّئيسة لكلُوفيس، وميرُوفي.

السُّلالة الرَّئيسة الأصليَّة للميرُوفيِّيْن كان قد انتهت مع خَلْع داغُوبرت الثَّاني. وبالتَّالي؛ تحقيقاً لكُلِّ النَّوايا، والأهداف، اغتيال داغُوبرت قد يُعَدُّ إشارة إلىٰ نهاية سُلالة الميرُوفيِّيْن. عندما مات تشيلديرك الثَّالث عام 754، كان موته شكليّاً محضاً، بقدر ما كانت أهمِّيَّة القُوَّة السُّلاليَّة. كحُكَّام للفرانكيِّيْن، سُلالة الميرُوفيِّيْن كانت مُنقرضة عَمَليّاً قبل فترة طويلة.

بينما كانت السُّلطة تتسرَّب من أيدي الميرُوفيِّيْن، كانت تعبر إلىٰ أيدي عُمدات القصر؛ عمليَّة بدأت قبل عهد داغُوبرت. لقد كان عُمدة القصر، ببين ديهيرسال، هُو الذي خطَّط لقَتْل داغُوبرت. وقد خَلَف ببين ديهيرسال ابنه تشارلز مارتيل الشَّهير.

في نَظَر الأجيال القادمة؛ يُعدُّ تشارلز مارتيل أحد أكثر الشَّخصيَّات البُطُوليَّة في التَّاريخ الفرنسي. بالتَّأكيد؛ هُناك أساس ما للمديح الذي مُنِحَ له. في ظلِّ تشارلز، الاحتلال المغاربي[2] لفرنسا

(1) (Carolingian): الكارُولينيُّون ـ وهُم بالطَّبع مُختلفون عن الكارُولينيِّيْن المنسوبين إلىٰ كارُولينا الشَّماليَّة، أو الجنوبيَّة، في الولايات المُتَّحدة الأميركيَّة ـ أحياناً؛ يتمُّ تسميتهم ـ أيضاً ـ بالكارلُوفينيِّيْن. هُم السُّلالة الثَّانية للمُلُوك الفرانكيِّيْن، والتي حكمت أجزاء من أُورُوبا الغربيَّة من القرنَيْن السَّابع حتَّىٰ العاشر. المُترجم).

(2) (بخاصَّة: فاتحو الأندلس المُسلمون في القرن الثَّامن ب.م. المُترجم).

كان قد كُبِحَ في معركة بواتيه[1] عام 732؛ وتشارلز ـ استناداً إلىٰ هذا النَّصر ـ كان ـ بشكل ما هُو ـ «حامي الدِّين»، و«مُنقذ المسيحيَّة».

المُحيِّر هُو أنَّ تشارلز مارتيل ـ مع أنَّه كان رجلاً قويّاً ـ لم يستول علىٰ العَرْش؛ الذي كان ـ بالتَّأكيد ـ في قبضته. في الحقيقة؛ يبدو أنَّه نَظَرَ إلىٰ العَرْش برَهْبَة مُعيَّنة مُؤمنة بالخُرافات؛ وبكُلِّ احتمال عدَّ العَرْش أنَّه مُخصَّص ـ حصريّاً ـ للميرُوفيِّيْن.

بالتَّأكيد؛ وَرَثَةُ تشارلز ـ الذين استولوا علىٰ العَرْش ـ شقُّوا طريقهم الخاص لتأسيس شَرْعيَّتهم، وذلك بالزَّواج من الأميرات الميرُوفينجيَّة.

تُوفِّي تشارلز مارتيل عام 741. بعد عشر سنوات ابنه، بيبين الثَّالث، عُمدة قصر الملك تشيلديرك الثَّالث، استخدَمَ دَعْمَ الكَنيسَة لنصرة ادِّعائه الرَّسْمي للاستيلاء علىٰ العَرْش.

«مَنْ يجب أنْ يكون الملك؟»

هذا كان سُؤال السُّفراء الذين أرسلهم «بيبين» إلىٰ البَابَا. ردَّ البَابَا مُؤيِّداً لبيبين قائلاً: «هل الرَّجل الذي يمتلك القُوَّة حقّاً؟ أم ذلك الرَّجل الذي ـ علىٰ الرّغم من أنَّه مُلقَّب بالملك ـ لا يمتلك أيَّة قُوَّة مُطلقاً؟!». بالسُّلطة البَابَويَّة؛ أمر بتعيين بيبين ملكاً للفرنكيِّيْن[2]، خيانة صفيقة وقحة من الحلف، أُقِرَّت بعد قرنَيْن ونصف من عهد كلُوفيس.

وهكذا ـ مدعوماً من قِبَل رُومَا ـ خلع «بيبينُ» تشيلديركَ الثَّالث، وَسَجَنَهُ في الدَّيْر، ولإذلاله وحرمانه من «قواه السِّحْرِيَّة»، قام بقَصِّ شعره المُقَدَّس. تشيلديرك تُوفِّي بعد أربع سنوات، ولم يكن هُناك مُنازع لادِّعاء «بيبين» العَرْش[3].

قبل سنة من ذلك، وثيقة حاسمة ظهرت بشكل مُلائم؛ وعدَّلت مجرىٰ التَّاريخ الغربي بعد ذلك. هذه الوثيقة كان اسمها «هِبَة قسطنطين». اليوم لا يُوجد خلاف علىٰ أنَّها كانت تزويراً، كانت

---

(1) (نسبة إلىٰ مدينة بواتيه، التي تقع في الوسط الغربي لفرنسا. المُترجم).

(2) (وهُم القبائل الجرمانيَّة الفرنسيَّة في تلك الفترة. المُترجم).

(3) (بشكل مُثير للانتباه؛ جُولز دُونيل، أمين المكتبة، ومُؤسِّس الكَنيسَة، والكَاثُوليكيّ الغنُوسطيَّة في كركسُون، نَشَرَ في 1899، عملاً صغيراً يستهجن إزاحة الميرُوفيِّيْن من قِبَل الكارُولينيِّيْن. المُؤلِّفون).

مُعدَّة ـ وليس بشكل ماهر جدَّاً ـ ضمن المجلس البَابَوي. في ذلك الوقت ـ علىٰ أيَّة حال ـ كانت تُعدُّ أصيلة، وكان تأثيرها هائلاً.

«هِبَة قسطنطين» قيل بأنَّها تعود إلىٰ فترة تحوُّل قسطنطين المزعومة إلىٰ المسيحيَّة في 312 بعد الميلاد.

طبقاً للـ«هِبَة»؛ قسطنطين مَنَحَ ـ رَسْميَّاً ـ إلىٰ أُسقُف رُومَا الشِّعارات والرُّمُوزَ الإمبراطُوريَّة (كالتَّاج، إلخ)، والتي ـ بالتَّالي ـ أصبحت مُلكاً للكَنيسَة. والأكثر من ذلك؛ أنَّه يُزعَم أنَّ الـ«هِبَة» هي ـ أيضاً ـ قيام قسطنطين ـ وللمرَّة الأُولىٰ ـ بإعلان أُسقُف رُومَا بأنَّه «كَاهن المسيح»، ومنحه منصب الإمبراطُور. بصفته كَاهناً للسَّيِّد المسيح، يُفتَرَضُ أنَّه الأُسقُف (الأُسقُف) أعاد الشِّعارات والرُّمُوزَ الإمبراطُوريَّةَ إلىٰ قسطنطين، الذين لبسهم بعد ذلك بمُوافقة وترخيص كَنَسي؛ أيْ بشكل، أو بآخر، كإعارة، أو قرض.

نتائج هذه الوثيقة واضحة بما فيه الكفاية. طبقاً لـ«هِبَة قسطنطين»؛ أُسقُف رُومَا مارس سُلطة عِلْمَانِيَّة ورُوحيَّة عُليا علىٰ المسيحيَّة.

في الواقع؛ هُو كان الإمبراطُور البَابَوي الذي يُمكنه أنْ يمنح التَّاجَ الإمبراطُوريَّ لَمنْ يشاء، والذي يُمكنه أنْ يمنح سُلطته أيَّ سمة منها لَمنْ يراه مُناسباً. بكلمة أُخرىٰ؛ كان يمتلك ـ بقُوَّة السَّيِّد المسيح ـ الحقَّ الرَّاسخ في وَضْع، أو خَلْع، المُلُوك. إنَّه من «هِبَة قسطنطين» كانت السُّلطة اللَّاحقة للفاتيكَان في الشُّؤون الدُّنيويَّة (العِلْمَانِيَّة) قد اشتُقَّت في النِّهاية.

مُدَّعية السُّلطة التي مُنِحَتْ لها من «هِبَة قسطنطين»، نَشَرَت الكَنيسَةُ نُفُوذَها وتأثيرها لصالح «بيبين» الثَّالث. ابتكرت مراسمَ من خلالها يُمكنها أنْ تجعل دم المُغتصبين للعَرْش، أو أيِّ شَخْص آخر، في ذلك الشَّأن مُقدَّساً. هذه المراسم كانت معروفة بالتَّتويج والتَّكريس ـ (المَسْح بالزَّيت) ـ هكذا كانت تلك المُصطلحات مفهومة أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ، وفي عصر النَّهضَة. أساقفة تتويج «بيبين» للمرَّة الأُولىٰ خوَّلوا بأنْ يعملوا بمنزلة مُكَافئة لتلك التي لدىٰ النُّبلاء العلمانيِّيْن. والتَّتويج ـ بحَدِّ ذاته ـ لن يتطلَّب اعتراف الملك، أو أداءه القَسَم. التَّتويج لم يشمل أكثر من مُجرَّد جَعْله مَلكاً.

طُقُوس التَّكريس (الدَّهْن بالزَّيت) تمَّ تغييرها بالطَّريقة نفسها. في الماضي، عندما كانت تُطبَّق، كانت تجهيزاً شعائريَّاً؛ عمل الاعتراف، والإقرار. الآن ـ علىٰ أيَّة حال ـ هي اتَّخذت أهمِّيَّة جديدة. الآن؛ أخذت الأسبقيَّة علىٰ الدَّم، ويُمكنها ـ «بطريقة سِحْريَّة»، إذا جاز التَّعبير ـ أنْ تُقدِّس دمَ أحدهم. لم يعد التَّكريس أكثر من مُجرَّد إشارة رَمْزيَّة. أصبح الفعل الواقعي الذي بمُوجبه مُنِحَت النِّعمة المُقَدَّسَة للحاكم. والبَابَا ـ بقيامه بذلك العمل ـ أصبح الوسيط الأعلىٰ بين الله والمُلُوك. من خلال شعائر التَّكريس، الكَنيسَة ادَّعت لنفسها الحقَّ بصُنْع المُلُوك. الدَّم ـ الآن ـ أصبح ثانويَّاً بالنِّسبة للزَّيت. وفي النِّهاية؛ كُلُّ المُلُوك أصبحوا تابعين ومُتذلِّلين للبَابَا.

في عام 754، «بيبين الثَّالث» دُهِنَ رَسْميَّاً بالزَّيت في بُونثيُون[1]، وهكذا افتتح سُلالة الكارُولينيِّيْن. الاسم مُشتقٌّ من تشارلز مارتيل، بالرَّغم من أنَّها مُتعلِّقة بأكثر الحُكَّام الكارُولينيِّيْن شُهرَة، تشارلز العظيم، أو كارُولُوس ماغنُوس المشهور باسم «شارلمان»[2].

وفي عام 800، شارلمان أُعلِنَ الإمبراطُورَ الرُّومانيَّ المُقَدَّس؛ وهُو اللَّقَب الذي ـ استناداً إلىٰ المُعاهدة مع كلُوفيس قبل ثلاثة قُرُون ـ كان يجب أنْ يكون حكْراً علىٰ سُلالة الميرُوفيِّيْن. أصبحت رُومَا ـ الآن ـ مقرَّ الإمبراطُوريَّة التي احتضنت كُلَّ أُورُوبا الغربيَّة، والتي حَكَمَ حُكَّامها ـ فقط ـ بمُوافقة البَابَا.

في عام 496، الكَنيسَة تعهَّدت بنفسها لسُلالة الميرُوفيِّيْن بشكل دائم. بإقرار اغتيال داغُوبرت، وفي ابتكار مراسيم التَّتويج والتَّكريس، وفي إقرار ادِّعاء «بيبين» العَرْش، خانت حليفها بشكل سرِّيٍّ. في تتويجها لشارلمان هي لم تجعل خيانته عَلَنيَّة فحسب، بل إنَّها نُفِّذت مُسبقاً. في كلمات نصٍّ حديث:

(1) (مدينة تقع شمال شرق ميرلُوت، فرنسا. المُترجم).

(2) (كارلُوس ماغنُوس هُو اسمه اللَّاتيني، والذي يعني تشارلز العظيم، وهُو ملك الفرنكيِّيْن 768ـ 814، وإمبراطُور الرُّومان 800ـ 814. أثناء عهده، شارلمان أسَّس المملكة التي تضمَّنت ـ تقريباً ـ كُلَّ أُورُوبا الغربيَّة، والوُسْطَىٰ، وترأَّس الإحياء الثَّقافي والقانوني الذي عُرِفَ ـ فيما بعد ـ بعصر النَّهضَة الكارُوليني. المُترجم).

بالتَّالي؛ لا يُمكننا أنْ نتأكَّد من أنَّ المسح بالمَيْرُون[1] للكارُولينيِّيْن قُصِدَ بـه تعـويض لخـسارة القوىٰ السِّحْرِيَّة للدَّم، التي رُمِزَ إليها بذوي الشَّعْر الطويل. إنْ كان يُعـوِّض عـن أيِّ شيء، فهُـو مـن المُحتمل أنَّه يُعوِّض عن خسارة الإيمان، التي حصلت نتيجة خيانة قَسَم الوفاء علىٰ نحو مُريع جدّاً.

ومرَّة ثانية، «رُومَا أظهرت الطَّريقـة عـبر شـعائر المَسْح بالزَّيـت الـصَّانعة للمُلُـوك... التـي ـ بطريقة ما ـ برَّأت ضمائر كُلِّ الفرنكيِّيْن»، ليس كُلُّ الضَّمائر.

علىٰ أيَّة حال؛ المُغتصبون بأنفسهم يبدو بأنَّهم شعروا، إنْ لم يكن إحساساً بالذَّنب، بأنَّهم ـ علىٰ الأقلِّ ـ بحاجة ماسَّة إلىٰ إثبات شَرْعيَّتهم. بهذه النَّتيجة؛ قام «بيبين الثَّالـث» ـ مُبـاشرة، قبـل مَـسْحه بالزَّيت ـ بالزَّواج ـ بفخر ـ بأميرة ميرُوفينجيَّة. وشارلمان قام بالعمل ذاته.

علاوةً علىٰ ذلك؛ يبدو بأنَّ شـارلمان كـان مُـدركاً بـألم للخيانـة التـي سـاهمت في تتويجه. طبقـاً للرِّوايات المُعاصرة؛ التَّتويج كان قضيَّة مُـدبَّرة بعنايـة، حُبكَـتْ مـن قِبَـل البَابَـا، مـن دُون علْـم الملـك الفرنكي؛ ويظهر أنَّ شارلمان كان ـ بشكل كبير ـ مُتفاجئاً، ومُحرجاً بآن واحد؛ أيْ أنَّ التَّاج كان قـد هُيِّـئ ـ نوعاً ما ـ بشكل سرِّيٍّ. شارلمان كان قد أُغري من رُومَا، وأُقنِعَ هُناك لحُـضُور قـدَّاس خـاصٍّ. عنـدما أخذ مجلسه في الكَنيسَة، قام البَابَا ـ وبدُون سابق إنذار ـ بوَضْع التَّاج علىٰ رأسه، في الوقت الذي كان فيـه الجماهير تهتف «تشارلز أُوغسطس، توَّجَهُ اللهُ، إمبراطُور رُومَا العظيم، والمُحبّ للسَّلام».

كلمات مُؤرِّخة في ذلك الوقت تقول: «هُو (شارلمان)، صرَّح بأنَّه لم يكن سيدخل الكاتدرائيَّة في ذلك اليوم مُطلقاً، بالرّغم من أنَّه كان المهرجان الأعظم للكَنيسَة؛ إذْ إنَّه عرف سَلَفَاً ما الـذي كـان يُخطِّط لعَمَلِهِ البَابَا».

لكنْ؛ مهما كانت مسؤوليَّة شارلمان في القضيَّة، المُعاهدة مع كلُـوفيس وسُـلالة الميرُوفيِّـيْن قـد غُدِرَ بها بوقاحة. وتحقيقاتنا كُلُّها أشارت إلىٰ أنَّ هذه الخيانة ـ بالرّغـم من أنَّها حَـدَثَتْ قبـل أكثـر مـن 111 سنة ـ ماتزال تُهيِّج دَيْر صهيُون.

---

(1) (المَيْرُون: زيت مُقَدَّس يُمْسَح به عند التَّعميد. المُترجم).

ماثيو باولي، الباحث المُستقلُّ الذي ذُكِرَ في الفصل السَّابق[1] توصَّل إلىٰ نتيجة مُماثلة:

بالنِّسبة لهم (دَيْر صهيُون)، طبقة النُّبلاء الأصيلة الوحيدة هي طبقة النُّبلاء القُوطيِّيْن الغربيِّيْن/ أصل الميرُوفيِّيْن. الكارُولينيُّون، كُلُّ الآخرين آنذاك، ليسوا إلَّا مُغتصبين.

في الواقع؛ لم يكونوا إلَّا مُوظَّفين عند الملك، مُكلَّفين بإدارة الأراضي، الذين ـ بعد أنْ أذاعوا حقَّهم في وراثة حُكْم هذه الأراضي ـ استولوا ـ ببساطة، تماماً ـ علىٰ السُّلطة.

في تكريس شارلمان؛ في عام 800، الكَنيسَة حَنَثَتْ بعهدها؛ لأنَّها عقدت ـ أثناء مَعمُوديَّة كلُوفيس ـ مُعاهدة مع الميرُوفيِّيْن، الذين جعلوا فرنسا البنت الأكبرَ للكَنيسَة.

إقصاء داغُوبرت الثَّاني من التَّاريخ

بقَتْل داغُوبرت الثَّاني عام 679، سُلالة الميرُوفيِّيْن انتهت عَمَليّاً. بموت تشيلديرك الثَّالث عام 754؛ يبدو أنَّ الميرُوفيِّيْن قد اختفوا من مجرىٰ التَّاريخ العالمي بالكامل.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ـ علىٰ أيَّة حال ـ سُلالة الميرُوفيِّيْن ـ في الحقيقة ـ استمرَّت.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ هي دامت حتَّىٰ يومنا هذا عبر الرَّضيع سجسبرت الرَّابع ـ ابن داغُوبرت من زوجته الثَّانية، جيسيل دُو ريزس.

من المُؤكَّد أنَّ سجسبرت كان موجوداً، وبأنَّه كان وريث داغُوبرت.

طبقاً للمصادر كُلِّها ـ عدا «وثائق الدَّيْر» ـ علىٰ أيَّة حال، من غير الواضح ما الذي حَدَثَ له. افترض بعضُ المُؤرِّخين ـ ضمنيّاً ـ بأنَّه قُتل سويَّة مع أبيه، وأعضاء العائلة المالكة الآخرين.

هُناك رواية مُريبة جدّاً تُصرِّح بأنَّه مات في حادث صَيْد قبل سنة، أو اثنتَيْن، قبل موت أبيه. إنْ كان ذلك صحيحاً، سجسبرت لابُدَّ وأنَّه كان صيَّاداً مُبكِّر النُّضُوج؛ لأنَّه ـ رُبَّما ـ لم يكن عُمره يتجاوز الثَّلاث سنوات في ذلك الوقت.

(1) (في فقرة سياسة دَيْر صهيُون. المُترجم).

ليس هُناك سجلٌ قَيِّمٌ عن موت سجسبرت. وليس هُناك أيُّ سجلٍ ـ عـدا الـدَّليل في «وثـائق الدَّيْر» ـ عن بقائه.

تبدو القضيَّة بالكامل بأنَّها كانت قد نُسيَتْ مع «مُرُور الوقت»، ولا يبدو أنَّ هُناك أحـداً أكثـر قلقاً بشأنها؛ ماعدا ـ بالطَّبع ـ دَيْر صهيُون.

في أيِّ حال من الأحوال، بدا أنَّ دَيْر صهيُون علىٰ علْم بمعلومـات مُؤكَّـدة لم تكـن مُتـوفِّرة في مكان آخر، أو أنَّها عُدَّت ذات أهمِّيَّة قليلة، ولا تستحقُّ الكثير من التَّحقيق، أو أنَّها أُخْمِدَتْ بتعمُّد.

لا عجب أنَّنا لم نحصل علىٰ أيَّة رواية عـن مـصير سجـسبرت. لم يكـن هُنـاك روايـة عامَّـة في مُتناول اليد، حتَّىٰ عن داغُوبرت، حتَّىٰ القرن السَّابع عشر.

في وقت ما أثناء العُصُور الوُسْطَىٰ ـ علىٰ ما يبدو ـ كان هُناك مُحاولة مُنظَّمة لِمَحْوِ داغُوبرت من التَّاريخ، لإنكار وُجُوده علىٰ الإطلاق.

اليوم؛ داغُوبرت الثَّاني يُمكن العُثُور عليه في أيِّ موسوعة.

علىٰ أيَّة حال، حتَّىٰ عام **1646**، لم يكن هُناك أيَّة معلومات من أيِّ نوع عن أنَّه قد عاش أبـداً. أيَّة قائمة أو أيِّ سُلالات للحُكَّام الفرنسيِّيْن جُمِعَتْ قبل عام **1646**، كانت ـ ببساطة ـ تحذف اسـمه. وهذه السُّلالات كانت تقفز (علىٰ الرّغم من التَّضارب الصَّارخ) من داغُـوبرت الأوَّل إلىٰ داغُـوبرت الثَّالث؛ أحد آخر مُلُوك الميرُوفيِّيْن، الذي مات عام **715**.

وداغُوبرت الثَّاني لم يُدرَج اسمه ـ ثانية ـ في القوائم المُعترَف بها للمُلُوك الفرنسيِّيْن حتَّىٰ عام **1655**.

نَظَرَاً لعمليَّـة الاستئصال هـذه، نحـنُ لم نُـنْدَهَش ـ بـشدَّة ـ حـول نـدرة المعلومـات المُتعلِّقـة بسجسبرت. ولا نستطيع إلَّا أنْ نشتبه بأنَّه أيَّاً كانت المعلومات الموجودة عنه قد أُزِيْلَتْ بتعمُّد.

ولكنْ؛ تساءلنا: لماذا كان من الضَّروري إزالة داغُوبرت الثَّاني من التَّاريخ؟!

ما هُو الشَّيء المَخْفي خلف هذه العمليَّة؟!

لماذا يجب علىٰ المرء أنْ يرغب بإنكار وُجُود شَخْص ما؟!

هُناك احتمال واحد، وهُو ـ بالطَّبع ـ أنْ ينفي ـ بذلك ـ وُجُود وَرَثَتِهِ. إنْ كان داغُوبرت لم يعش، فإنَّ سجسبرت لا يُمكن أنْ يكون قد عاش أيضاً.

ولكنْ؛ لماذا كان من المُهمّ ـ بشكل مُتأخّر حتَّىٰ القرن السَّابع عشر ـ إنكار أنَّ سجسبرت كان قد عاش أبداً؟ ما لم يكن قد نجا ـ في الحقيقة ـ وأحفاده مازالوا يُعدُّون كَخَطَر، وتهديد.

بدا الأمر بأنَّنا كُنَّا نتعامل ـ بشكل واضح ـ مع نوع من «التَّغطية». من الواضح ـ تماماً ـ أنَّه يُوجد هُناك مصالح شَخْصيَّة ستفقد شيئاً ما، في حال توفَّرت معلومات عامَّة عن نجاة سجسبرت.

في القرن التَّاسع؛ وربَّما حتَّىٰ الحملات الصَّليبيَّة، يبدو بأنَّ هذه المصالح كانت الكَنيسَة الرُّومانيَّة والسُّلالة المَلَكيَّة الفرنسيَّة.

ولكنْ؛ لماذا كان يجب أنْ تُواصل القضيَّة أهمِّيَّتها إلىٰ وقت مُتأخِّر حتَّىٰ عهد لويس الرَّابع عشر؟!

بالتَّأكيد؛ مسألة نَظَريَّة آنذاك؛ حيثُ إنَّ ثلاث سُلالات فرنسيَّة، جاءتْ، وذهبتْ، بينما البرُوتستانتيَّة حطَّمَتْ الهَيْمَنَةَ الرُّومانيَّةَ.

ما لم يكن ـ هُناك، في الحقيقة ـ شيئاً خاصّاً جدّاً حول دم الميرُوفيِّيْن: ليس «الخصائص السِّحْرِيَّة»، ولكنْ؛ شيء آخر؛ الشَّيء الذي احتفظ بفعَّاليَّته المُتوهِّجة، حتَّىٰ بعد أنْ زالت خُرافات الدَّم السِّحْري.

الأمير غليُوم دُو جيلُون، كُونت ريزس

PRINCE GUILLEM DE GELLONE, COMTE DE RAZES

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ سجسبرت الرَّابع، لدىٰ موت أبيه، أُنقِذَ من قِبَل أُخته، وهُرِّب جنوباً إلىٰ مملكة أُمِّه؛ الأميرة القُوطيَّة الغربيَّة، جيسيل دُو ريزس. قيل بأنَّه وصل إلىٰ لانغدُوق عام 681، وبعد ذلك بفترة وجيزة، قيل بأنَّه تبنَّىٰ ـ أو ورث ـ مناصب عمِّه، دُوق ريزس وكُونت ريدا (رين لُو شاتُو).

يُقال ـ أيضاً ـ بأنّه تبنّىٰ اللّقَب، أو الكُنية «بلانتـآرد» (والتي أصبحت ـ بعد ذلـك ـ بلانتـارد) المُشتقّة من التّسمية «rejeton ardent» ـ التي تعني «النّبتة المُزهرة باتّقاد» للكَرْمَة الميرُوفينجيّـة. تحـت هذا الاسم، وتحت المناصب التي اكتسبها من عمِّه، قيل بأنّه خلّد نَسَبَهُ. وبحُلُـول عـام 886، واحـد من تلك السُّلالة يُقال بأنّه تُوِّج باسم بيرنارد بلانتافيلو، علىٰ مـا يبـدو؛ أنّـه مُـشتقٌّ مـن بلانتـآرد، أو بلانتارد؛ والذي أصبح ابنه أوّل دُوق في آكُوتين.

بقَدْر ما استطعْنَا من التّحقُّق، لم يُوجد هُناك أيُّ مُؤرِّخ مُستقلٍّ، أكّد، أو عارض، هذه المزاعم.

المسألة ـ ببساطة ـ أُهْمِلَتْ برُمّتها. لكنّ الدّليل الظّرفيّ شكّكَ ـ بشكل مُقنع ـ بـأنّ سجـسبرت ـ في الحقيقة ـ نجا لخُلْد نَسَبِهِ.

الاستئصال المُثابر لداغُوبرت من التّاريخ يُضفي صحّة علىٰ هذه النّتيجة. بإنكار وُجُوده؛ فـإنّ أيّ سُلالة مُتحدِّرة منه يُمكن أنْ تُبطَل. هذا يُشكِّل دافعاً لعمل لا يُمكن توضيحه. مـن بـين الأجـزاء الأُخْـرَىٰ للـدّليل؛ هُنـاك وثيقـة رَسْـميّة تحمـل تـاريخ سـنة 718، والتـي تتعلّـق بتأسـيس دَيْـر ـ يبعد بضعة أميال عن رين لُو شاتُو ـ من قِبَل «سيجيبرت، كُونت ريدا وزوجتـه ماجـدلا». ناهيـكَ عن هذه الوثيقة، لم يُسمَع شيء عن ألقاب في ريدا، أو ريزس، لمُدّة قـرن بعـد ذلـك. عـلىٰ أيّـة حـال؛ عندما يظهر أحدها ثانية، فإنّه يظهر بسياق مُمتع للغاية.

في عام 742، كان هُناك دولة مُستقرّة، وذات استقلال ذاتيّ تامّ في جنوب فرنسا، طبقاً لـبعض الرِّوايات؛ هي إمـارة، مملكـة مُـستقلّة بالكامـل، بالنِّسبة للمَمْلَكَـات الأُخْـرَىٰ. التّوثيـق سَـطْحيٌّ، والتّاريخ غامض حول حقيقة ذلك الموضوع. أكثر المُؤرِّخين ـ في الحقيقـة ـ غـافلون عـن وُجُودهـا، لكنْ؛ ليس هُناك شكٌّ بصحّتها. كانت معروفة ـ بشكل رَسْمي ـ من قِبَل شارلمان، وَوَرَثَتِهِ، ومن قِبَـل خليفة بغداد، والعالم الإسلامي. كانت الكَنيسَة تنظر إليها بحقـد، وضـغينة؛ لأنّهـا صـادرت بعـض أراضيها، وَكُتِبَ لها البقاء، حتّىٰ أواخر القرن التّاسع.

في وقت ما بين عامَيْ 759 و 768، حاكم هذه الإمارة ـ الذي تتضمّن ريزس ورين لُو شاتُو ـ أُعلن رَسْميّاً كَمَلك.

علىٰ الرّغم من رَفْض رُومَا لذلك، إلّا أنّه تمَّ الاعتراف به من قِبَل الكارُولينيِّين، الـذي عهـد بنفسه إليهم كتَابع.

في الرِّوايات الموجودة؛ يظهر ـ علىٰ الأغلب ـ تحت اسم ثيُودُوريك، أو تيري. وأكثـر العُلـماء الحديثين يعدُّون أنّه ـ لرُبَّما ـ يتحدَّر من أُصُول ميرُوفينجيَّة. ليس هُناك دليل جازم من أيـن نـشأ هـذا النَّسَب. لرُبَّما نشأ من سجسبرت.

في أيِّ حال من الأحوال، ليس هُناك شكٌّ أنّه بحُلُول عام 790، ابـن ثيُودُوريـك، غليُـوم دُو جيلُون[1] حمل لقب كُونت ريزس؛ اللَّقَب الذي قيل إنَّ سجسبرت كان يحمله، ونقله إلىٰ أحفاده.

غليُوم دُو جيلُون كان أحد الرِّجال الأكثر شُهرَة في عصره، إلىٰ درجة أنّه ـ في الواقـع ـ غطَّـت الأُسطُورة حقيقته التَّاريخيَّة؛ كما هُو حال شارلمان، وغُودفرُوي دُو بلُويُون.

قبل عهد الحملات الصَّليبيَّة؛ كان هُناك ـ علىٰ الأقلّ ـ ستُّ قصائد مَلْحَمِيَّـة رئيـسة ـ أُعِـدَّتْ عنه، «chansons de geste»، مُشابهة لَلْحَمَة «Chanson de Roland» (أُنشُودة البُطُولة) الشَّهيرة.

في مَلحَمَة «الكُوميديا الإلهيَّة»[2]؛ منحه دانتي منزلة سامية استثنائيَّة. لكنْ؛ حتَّىٰ قبـل دانتـي، أصبح غليُوم ـ ثانية ـ مَحَطَّ الانتباه الأدبيّ. في أوائل القرن الثَّالـث عـشر؛ تـمَّ تـصويره كَبَطَـل لروايـة «وِهْلَم»، وهي مَلْحَمَة رُومانسيَّة لم تكتمل، أُعِدَّتْ من قِبَل وولفرام فُون اسـكِباتش؛ الـذي قـد يُعـدُّ عمله الأكثر شُهرَة «بارزيفال» أهمّ كُلّ الرُّومانسيَّات المُتعلِّقة بألغاز «الكَأس المُقَدَّسَة».

(1) (غليُوم دُورانج: حوالي 750 ـ 812، وهُو زعيم عَسْكَري تحت أمرة شارلمان، وبطل مجموعة من القصائد الفرنسيَّة الجنوبيَّة، معروف ـ أيضاً ـ بـ«القدِّيس غليُوم دُو جيلُون»، و«المركيز ذي الأنـف القصير». هُـو جُنـديّ بـارع، وكـان مسؤولاً عن تعليم ابن شارلمان الأكبر سنّاً؛ لويس، الذي أصبح الإمبراطُور الرُّوماني المُقَدَّس ـ لويس الأوَّل فيما بعـد ـ وقاد قُوَّات شارلمان ضدَّ المُسلمين عام 793. بالرّغم من أنَّ قُوَّات غليُوم هُزِمَتْ، إلّا أنّه انتقم لتلك الهزيمـة بعـد عـشر سنوات، عندما غزا جيشُهُ إسبانيا، واحتلَّ بَرْشَلُونَة. المُترجم).

(2) (أفضل أعمال دانتي، وهي مَلْحَمَة من المُحتمل أنّه بدأها حوالي عام 1307؛ أكملها قبـل فـترة قليلـة مـن موتـه. إنَّ العمل قصَّة مجازيَّة، بشعر ذي دقَّة عظيمة، وقُـوَّة مُثيرة، تـصف رحلـة الـشَّاعر الخياليَّـة خـلال الجحيم، والعـذاب، والجنَّة. في كُلِّ هذه العوالم؛ الشَّاعر يجتمع بشَخصيَّات بارزة مُعاصرة، وتاريخيَّة، وأُسطُوريَّة. كُـلُّ شَخـصيَّة هـي رَمْزيَّـة لحَسَنَة، أو ذنب مُعيَّن، إمَّا ديني، أو سياسي؛ والثَّواب، أو العقاب، الذي مُنِحَ للأشخاص يُـصوِّر بُعْـداً آخـر للمعنـىٰ، يتعلَّق بأعمالهم الدُّنيويَّة. المُترجم).

في باديء الأمر؛ بدا من المُحيِّر بالنِّسبة لنا أنْ يُكرِّس وولفرام - الذي كُلُّ أعماله الأُخرَىٰ تتعلَّق بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، و(عائلة «الكَـأس المُقَدَّسَـة»)، و(سُـلالة «عائلـة «الكَـأس المُقَدَّسَـة») ــ نَفْسَهُ ـ فجأة ـ إلىٰ موضوع مُختلف جدّاً، وبشكل جَذْري كموضوع غِليُوم دُو جيلُون.

من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ وولفرام صرَّح ـ في قصيدة أُخرىٰ ـ بأنَّ (قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة») ـ التي هي مَسْكن (عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة») ـ تقع في بيرينه؛ التي كانت ـ في بداية القرن التَّاسع ـ مملكة غِليُوم دُو جيلُون.

غِليُوم حافظ علىٰ علاقة حميمة مع شارلمان. في الحقيقة؛ أُخته كانت مُتزوِّجة من أحد أبناء شارلمان، وبالتَّالي؛ يُؤسِّس صلة سُلاليَّة مع الدَّم الإمبراطُوري. وغِليُوم نفسه كان أحد قادة شارلمان الأكثر أهمِّيَّة في الحرب المُستمرَّة ضدَّ المغاربة.

عام **803**، بعد فترة قليلة من تتويج شارلمان ليكون الإمبراطُور الرُّوماني المُقَدَّس، احتلَّ غِليُوم بَرْشَلُونَة، ممَّا ضاعف أراضيه الخاصَّة، ومَدَّ نُفُوذَهُ عبر بيرينه.

كان شارلمان شديد الامتنان لخدماته، إلىٰ درجة أنَّ إمارته أُثبِتَتْ من قِبَل الإمبراطُور كولاية دائمة. الوثيقة التي تُصادق علىٰ صحَّة وُجُود هذه الولاية قد فُقِدَتْ، أو ـ رُبَّما ـ أُتلِفَتْ، ولكنْ؛ هُناك أدلَّة وفيرة علىٰ وُجُودها.

مصادر مُوثَّقة مُستقلَّة وغير قابلة للتَّفنيد قد زُوِّدَتْ بسُلالات مُفصَّلة لغِليُوم دُو جيلُون؛ عائلته، وأحفاده. هذه المصادر ـ علىٰ أيَّة حال ـ لم تُقدِّم أيَّة إشارة لأسلاف غِليُوم، ماعدا أبيه، ثيُودُوريك.

باختصار؛ الأُصُول الحقيقيَّة للعائلة لُفَّتْ بالغُمُوض، والعُلماء والمُؤرِّخون المُعاصرون ـ بشكل عامٍّ ـ انتابَتْهُم الحَيْرَةُ نوعاً ما حول الظُّهُور المُبهَم لعائلة نبيلة مُؤثِّرة جدّاً كهذه، كما لو أنَّها جيل تلقائي. لكنْ؛ علىٰ أيَّة حال، هُناك شيء واحد مُؤكَّد. من المُؤكَّد أنَّه في عام **886**، تتوَّجَتْ (انتهت) سُلالة غِليُوم دُو جيلُون بـ«بيرنارد بلانتافيلُو»، الذي أسَّس دُوقيَّة آكويتين. بكلمة أُخرىٰ؛ سُلالة غِليُوم تتوَّجتْ ـ بالضَّبط ـ بنفس الشَّخص الذي نسبتْهُ «وثائق الدَّيْر» إلىٰ سُلالة سجسبرت الرَّابع، وأحفاده.

ونحنُ ـ بالطَّبع ـ أُغرينا لاستباق النَّتائج، والاعتماد علىٰ السُّلالات التي وَرَدَتْ في «وثائق الدَّيْر» لرَدْم الفجوة التي صنعها التَّاريخ المُقَرّ.

أُغرينا لافتراض أنَّ الأسلاف المُتملِّصين لغِلْيُوم دُو جيلُون كان داغُوبرت الثَّاني، وسجسبرت الرَّابع، والسُّلالة الرَّئيسيَّة المخلوعة للميرُوفيِّين، السُّلالة وَرَدَتْ في «وثائق الدَّيْر» تحت اسم بلانتارد، أو بلانتارد.

لسُوء الحظِّ؛ نحنُ لم نستطع القيام بذلك. نَظَراً للحالة المُشوَّشة للسِّجلَّات الحاليَّة، لا نستطيع أنْ نُؤسِّس صلة دقيقة مُؤكَّدة بين سُلالة بلانتارد، وسُلالة غِلْيُوم دُو جيلُون.

في الحقيقة؛ رُبَّما كانت الشَّيء ذاته. من ناحية أُخرىٰ؛ السُّلالتان ـ لرُبَّما ـ حدث بينهما تزاوج في وقت ما.

علىٰ أيَّة حال؛ ما هُو مُؤكَّد أنَّ السُّلالتَيْن كلْتَيْهما، بحُلُول عام 886، تتوَّجتا بـ«بيرنارد بلانتافيلُو»، ودُوقات آكويتين.

السُّلالات المُرتبطة بغِلْيُوم دُو جيلُون، بالرّغم من أنَّها لم تتطابق ـ دائماً ـ بالتَّاريخ، وترجمة الأسماء بالضَّبط، إلَّا أنَّها شكَّلت تأكيداً مُوثَّقاً للسُّلالات التي وَرَدَتْ في «وثائق الدَّيْر».

وبالتَّالي؛ يُمكننا أنْ نقبل ـ بشكل تجريبي، نَظَراً لغياب أيِّ دليل مُناقض ـ أنَّ سُلالة الميرُوفيِّين استمرَّت ـ تقريباً ـ كما وردت في «وثائق الدَّيْر». يُمكننا أنْ نقبل ـ بشكل تجريبي ـ بأنَّ سجسبرت نجا بعد قَتْل أبيه، وتبنَّىٰ اسم عائلة بلانتارد، وبصفته كُونت ريزس، خلَّد سُلالة أبيه.

الأمير أُورسُوس

بحُلُول عام 886، بالطَّبع، «النَّبتة المُزهرة للكَرْمَة الميرُوفينجيَّة» تحوَّلت إلىٰ شجرة عائلة كبيرة، ومُتشابكة.

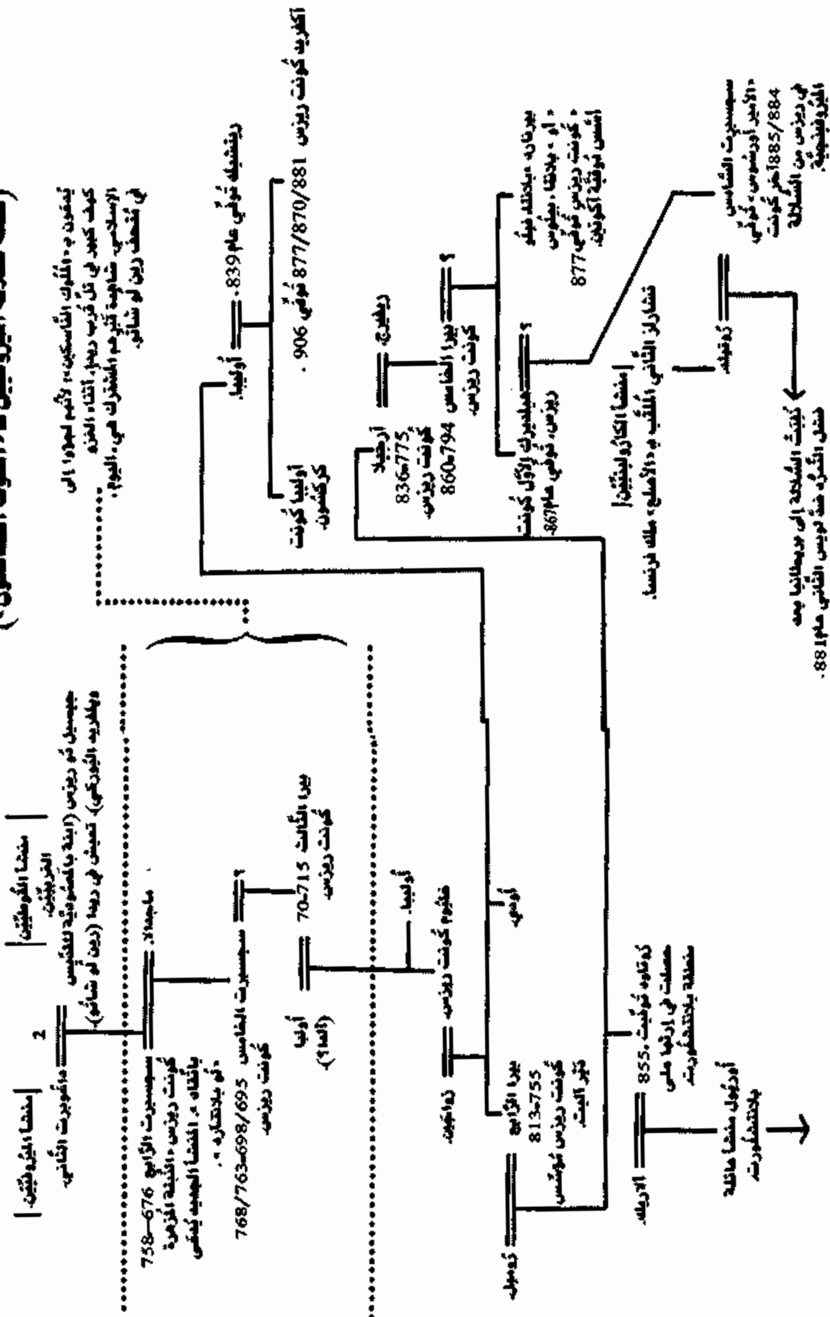
بيرنارد بلانتافيلُو ودُوقات آكويتين شكَّلوا أحد الأفرع.

كان هُناك فُرُوع أُخرىٰ أيضاً. وهكذا، «وثائق الدِّير» تُصرِّح بأنَّ حفيد سجسبرت الرَّابع، سجسبرت السَّادس، عُرِفَ باسم «الأمير أُورسُوس».

بين عامَيْ 877 و 879، قيل إنَّ الأمير أُورسُوس أُعْلِنَ رَسْمياً «الملكَ أُورسُوس».

بمُساعدة اثنَيْن من النُّبلاء ـ بيرنارد دُوفيرجن، ومركيز غُوثي ـ قيل بأنَّه شرَع بتمرُّد ضدَّ لويس الثَّاني، في فرنسا، في مُحاولة لاستعادة عَرْشه الشَّرْعي.

(تتمة سلالة الميروفنجيين)



يُؤكِّد المُؤرِّخون المُستقلُّون بأنَّ مثل هذا التَّمرُّد قد حَدَثَ فعلاً بين عامَيْ **877** و **879**. هؤلاء المُؤرِّخون أنفسهم يُشيرون إلىٰ بيرنارد دُوفيرجن، وإلىٰ مركيز غُوثي. زعيم التَّمرُّد، أو المُحرِّض عليه لم يُذكَر بشكل مُحَدَّد أنَّ اسمه هُو سجسبرت. ولكنْ؛ هُناك إشارات إلىٰ شَخْص معروف باسم «الأمير أُورسُوس».

علاوةً علىٰ ذلك؛ الأمير أُورسُوس معروف بأنَّه كان قد اشترك في مراسم مُحيِّرة ومُسهبة في نيمس[1]، والتي تجمَّع فيها **500** قسٌّ يُنشدون «تسبيحة الشُّكر».

الرِّوايات كُلُّها التي تتحدَّث عن هذه المراسم تُصرِّح بأنَّها ـ علىٰ ما يبدو ـ تتويجٌ ما. لـرُبَّما التَّتويج الذي أشارت إليه «وثائق الدَّيْر»؛ إعلان الأمير أُورسُوس كملك.

مرَّة أُخرىٰ؛ «وثائق الدَّيْر» تُثبت مصداقيَّتها. مرَّة أُخرىٰ تبدو أنَّها تغرف من معلومات غير مُتوفِّرة في أيِّ مكان آخر؛ المعلومات التي أَكْمَلَتْ، وأحياناً؛ ساعدتْ علىٰ توضيح الانقطاع في التَّاريخ المقبول. في هذه الحالة؛ علىٰ ما يبدو، أنَّها أخبرتنا مَنْ كان ـ فعلاً ـ الأمير المُحيِّر أُورسُوس؛ السَّليل المُباشر، خلال سجسبرت الرَّابع، لداغُوبرت الثَّاني المقتول. والتَّمرُّد، الذي حتَّىٰ ـ الآن ـ لم يهتمَّ به المُؤرِّخون، يُمكن أنْ يُنظَر إليه ـ الآن ـ علىٰ أنَّه مُحاولة مفهومة جدّاً لـسُلالة الميرُوفيِّيْن المخلوعة في استعادة تُراثها؛ التُّراث الذي مَنَحَتْهَا إيَّاه رُومَا خلال المُعاهدة مع كلُوفيس، والتي غُدِرَ بها بعد ذلك.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» ولمصادر مُوثَّقة؛ أنَّ التَّمرُّد فشل، وأنَّ الأمير أُورسُوس ومُناصريه هُزِمُوا في معركة قُرب بواتيه عام **881**.

بهذه النَّكسة؛ قيل إنَّ عائلة بلانتارد فَقَدَتْ أملاكها في جنوب فرنسا؛ بالرّغم من أنَّه مازال ـ الآن ـ يتشبَّث ـ تماماً ـ بالمنزلة الفخريَّة كدُوق ريداي، وكُونت ريزس. الأمير أُورسُوس قيل بأنَّه مات في بريطانيا، بينما أصبحت عائلته مُتحالفة بالزَّواج مع العائلة الدُّوقيَّة البريتانيِّة[2].

بعد ذلك؛ في نهاية القرن التَّاسع، اختلط الدَّم الميرُوفينجي مع دُوقيَّات بريطانيا، وآكويتين كلَيْهما.

(1) (مدينة في شمال فرنسا. المُترجم).

(2) (البريتانيِّ: أحد أبناء مُقاطعة بريتاني في شمال غربي فرنسا. المُترجم).

في السّنوات التّالية؛ العائلة ـ بمَنْ فيها ألين، الذي كان ـ فيما بعد ـ دُوق بريطانيا ـ قيل بأنّه لجأ إلىٰ إنجلترا، ليُؤسّس فرعاً إنجليزيّاً دُعِيَ «بلانتا».

تُؤكّد المصادر الموثوقة مرّة ثانية بأنّ ألين وعائلته وحاشيته هربوا من الفايكنغ إلىٰ إنجلترا. طبقاً لـ«وثائق الدّيْر»؛ أحد الأفرع الإنجليزيّة للعائلة، أُدرِجَ كـ«بيرا السّادس»، كان مُلقّباً بـ«آرتشيتكت» (المُهندس المعماري).

هُو وأحفاده، بعد أنْ لجؤوا إلىٰ إنجلترا في ظلّ حُكْم الملك آثيلستان[1] قيل بأنّه زاول مهنة «فنّ العمارة»؛ إشارة مُحيِّرة علىٰ ما يبدو. المُثير للانتباه أنّ مصادر ماسُونيّة تُؤرِّخ أصل الماسُونيّة في إنجلترا في عهد الملك آثيلستان. تساءلنا: هل من المُمكن أنّ سُلالة الميرُوفيِّيْن ـ بالإضافة إلىٰ ادّعائها العَرْش الفرنسي ـ كانت ـ بطريقة ما ـ مُرتبطة بصميم الماسُونيّة؟!

عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»

العُصُور الوُسْطَىٰ تزخر بعلْم الأساطير بشكل غنيّ ورنّان كتلك في اليُونان القديمة، ورُوما. البعض من هذه الأساطير تخصُّ ـ بالرّغم من أنّه مُبالغ فيها جدّاً ـ شَخصيّات تاريخيّة بارزة واقعيّة؛ آرثر، ورُولند، وشارلمان، ورُودريغُو دياز دُو فيفار[2] مشهور بـ«إل سيد».

أساطير أُخرىٰ ـ كتلك التي تتعلّق بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، علىٰ سبيل المثال ـ تبدو ـ في بادئ الأمر ـ بأنّها تستند إلىٰ أُسُس وهينة. من بين الأساطير الأكثر شعبيّة وإثارة في القُرُون الوُسْطَىٰ هي أُسطُورة لُوهينغرين[3] «فارس البَجَعَة». من إحدىٰ النّواحي، هُو مُرتبط ـ بشكل وثيق ـ

(1) (آثيلستان (895 ـ 939)، الملك الأوّل الذي يحصل علىٰ لقب ملك إنجلترا، هُو حفيد الملك ألفريد، ويبدو أنّه امتلك الطُّمُوح والموهبة العظيمة. المُترجم).

(2) («إل سيد» 1043 ـ 1099، مُحارب إسباني، الأُسطُورة ـ لاحقاً ـ جَعَلَتْهُ بطلاً وَطَنيّاً، ويتمتّع بمزايا الفُرُوسيّة، والفضيلة. يُلقّب إل سيد كامبيدُور؛ أيْ «بطل الرّبّ»، كان اسمه الأصلي رُودريغُو دياز دُو فيفار. المُترجم).

(3) (لُوهينغرين: بطل حكاية ألمانيّة شعبيّة في الأُسطُورة الآرثريّة. كان ابن بيرسيفال، أحد الفُرسان الذين رافقوا جالاهاد في مسعاه النّاجح للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، «الكَأس المُقَدَّسَة» التي شرب منها السّيِّد المسيح في العشاء الأخير. بقيادة الملك آرثر، لُوهينغرين أخذ بمركب تجرُّه بَجَعَةٌ إلىٰ مدينة آنتويرب شمال بلجيكا؛ حيثُ قاتل من أجل سيِّدة نبيلة اسمها

برُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» الرَّائعة؛ من النَّاحية الأُخْـرَىٰ، تستـشهد بشَخْـصيَّات تاريخيَّـة مُعيَّنـة بارزة. في خَلْطها بين الحقيقة والخيال ـ لرُبَّما ـ تكون فريدة من نوعها.

ومن خلال أعمال كأعمال وانجر[1] ماتزال مُستمرَّة في جاذبيَّتها الطِّرازيَّة البدائيَّة حتَّىٰ اليوم.

طبقاً لروايات من القُرُون الوُسْطَىٰ؛ لُوهينغرين ـ أحياناً؛ يُدعَىٰ هيلياس، للدّلالة علىٰ الرَّوابط الشَّمسيَّة ـ كان سليلاً من (عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة») الغامضة المُحيِّرة.

في قصيدة وولفرام فُون اسكِباتش هُو ـ في الحقيقة ـ ابن بارزيفال، الفارس الأعلىٰ للـ«كَأس المُقَدَّسَة».

في أحد الأيَّام، في الهَيكَل المُقَدَّس، أو في قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة» في «مُونسيلفيسك»، قيـل بـأنَّ لُوهينغرين سمع جَرَسَ الكَنيسَة يُقرَع وحده، بدُون أيِّ تدخُّل من أيدي بشريَّة؛ إشـارة أنَّ مُـساعدته العاجلة مطلوبة في مكان ما من العالم. كانت المُساعدة مطلوبة ـ بشكل مُتوقَّع تماماً ـ من قِبَل فتاة ما في مأزق؛ دُوقة برابانت، وطبقاً لمصادر أُخرىٰ؛ دُوقة بلُويُون. السَّيِّدة كانت بمـساس الحاجـة إلىٰ بطـل، وبالتَّالي؛ سارع لُوهينغرين إلىٰ إنقاذها في مركب تجرُّه بَجَعَات مُرسَلة.

في معركة واحدة؛ هَزَمَ مُضطهدٌ الدُّوقَةَ، ثُمَّ تزوَّجها. علىٰ أيَّة حال؛ في العُـرس أصـدر تحـذيراً صارماً. لا يجب من عروسه أنْ تسأله عن أُصُوله، أو أسلافه، أو خلفيَّته، أو المكـان الـذي جـاء منـه. ولبضع سنوات؛ أطاعت السَّيِّدةُ تحذيرَ زوجها.

أخيراً، علىٰ أيَّة حال، بعد أنْ دَفَعَهَا الفُضُولُ القاتلُ نتيجـة التَّلميحـات الـسَّفيهة للمُنافـسين، يُفترَض أنَّها طَرَحَتْ سُؤالها المُحرَّم. عقب ذلك؛ أُرغِمَ لُوهينغرين عـلىٰ المُغـادرة، مُختفيـاً في الغُـرُوب بمركبته التي تجرُّها البَجَعَات، تاركاً خلفه ـ مع زوجته ـ طفلاً مجهول النَّسَب. طبقاً لروايات مُختلفـة؛ هذا الطِّفل كان إمَّا والد، أو جَدَّ، غُودفرُوي دُو بلُويُون.

إليسا. تزوَّج لُوهينغرين بإليسا، بشرط أنَّها لا تسأله ـ أبداً ـ عن اسمه، أو أصله. إليسا حَنَثَتْ بوعدها، علىٰ أيَّـة حـال، وبالتَّالي؛ اختفىٰ لُوهينغرين. المُترجم).

(1) (وانجر، (وِلْهِلْم) ريتشارد (1813 ـ 1883)، مُلحِّن ألماني، قائد فرقة مُوسيقيَّة، وكاتـب، وهُـو أحـد الشَّخـصيَّات الثَّقافيَّـة الأكثر تأثيراً في القرن التَّاسع عشر. من خلال أعماله المُبدعة، وكتاباته النَّظريَّة، أثار وانجر مفهومَ وبنيَةَ الأُوبرا. المُترجم).

يصعب للعقل الحديث أنْ يُقدِّر حجم منزلة غُودفرُوي في الإدراك العام؛ ليس ـ فقط ـ في زمانه، بل لوقت مُتأخِّر حتَّىٰ القرن السَّابع عشر. اليوم عندما يُفكِّر أحدنا بالحملات الصَّليبيَّة، فإنَّه يتذكَّر ريتشارد قلب الأسد (Richard Coeur de Lion)، أو الملك جُون، أو ـ رُبَّما ـ لويس التَّاسع (القدِّيس لويس)، أو فريدريك بَاربَارُوسَّا. ولكنْ؛ حتَّىٰ وقت مُتأخِّر نسبيَّاً، لم يتمتَّع أيٌّ من هؤلاء الشَّخصيَّات بالمنزلة والهَيْبَة التي تمتَّع بها غُودفرُوي. غُودفرُوي، زعيم الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ، كان البطل الشَّعبي الأعلىٰ، البطل من الدَّرجة الأُولىٰ.

كان غُودفرُوي هُو الذي افتتح الحملات الصَّليبيَّة. كان غُودفرُوي هُو الذي احتلَّ القُدْس من المُسلمين. كان غُودفرُوي هُو الذي أنقذ قَبْر السَّيِّد المسيح من الفِرَق الكافرة. كان غُودفرُوي ـ قبل كُلِّ الآخرين ـ هُو الذي وفَّق بين أهداف المُؤسَّسات الفُرُوسيَّة العُليا وبين أهداف التَّقوىٰ المسيحيَّة المُتَّقدة.

وهكذا، لا عجبَ أنَّ غُودفرُوي أصبح حافز الطَّائفة التي استمرَّت بعد فترة طويلة من موته.

وُفقاً لهذه المنزلة السَّامية، فمن المعقول أنَّ غُودفرُوي يجب أنْ يُنسَب إلىٰ كافَّة أنواع الأنساب الأُسطُوريَّة الشَّهيرة. حتَّىٰ إنَّه من المعقول ـ أيضاً ـ أنَّ وولفرام فُون اسكنباش والرُّومانسيِّيْن الآخرين من القُرُون الوُسْطَىٰ يجب أنْ يربطوه ـ مُباشرة ـ بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»؛ يجب أنْ يُصوِّره كسليل مُباشر لـ(عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة») الغامضة. وحتَّىٰ إنَّ مثل هذه الأنساب الرَّائعة قد تُصبح أكثر إدراكاً؛ لأنَّ ـ في الواقع ـ نَسَبَ غُودفرُوي الحقيقي غامض. يبقىٰ تاريخ أسلافه غامضاً بشكل مُزعج.

«وثائق الدَّيْر» زوَّدتْنَا بالأنساب الأكثر معقُوليَّة؛ في الحقيقة، رُبَّما الشَّيء المعقول الأوَّل، لغُودفرُوي دُو بلُويُون التي عُرِفَتْ لحَدِّ الآن. بقَدْر ما تمَّ تدقيق هذه الأنساب ـ ويُمكن تدقيق مُعظمها ـ بقَدْر ما أثبت أنَّها دقيقة. لم نجد أيَّ دليل يُناقضها، بل وجدنا الكثير الذي دَعَمَهَا؛ وهي رَدَمَتْ ـ بشكل مُقنع ـ الكثير من الفجوات التَّاريخيَّة المُحيِّرة.

طبقاً للأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ غُودفرُوي دُو بلُويُون ـ استناداً إلىٰ والدة جدَّته، التي تزوَّجت هيُوغز دُو بلانتارد في 1009 ـ كانت سليلاً مُباشراً لعائلة بلانتارد.

بكلمة أُخرىٰ؛ غُودفرُوي كـان مـن دم الميرُوفيّيْن، تحـدَّر ـ مُبـاشرة ـ مـن داغُـوبرت الثَّـاني، سجسبرت الرَّابع، وسُلالة «المُلُوك المفقودين» الميرُوفينجيَّة «les roisperdus». لأربعة قُـرُون؛ يظهـر أنَّ الدَّم الميرُوفينجي المَلَكي تدفَّق خلال العديد من أشجار النَّسَب المُغضَّنة، والعديدة. أخـيراً؛ وعـبر عمليَّة مُماثلة لتطعيم الكَرْمَات في زراعة العنب، يبدو أنَّها أثمرت غُودفرُوي دُو بلُويُون، دُوق لُـورين. وهُنا، بآل لُورين، أسَّس ميراثاً جديداً.

هذا الكَشْفُ سلَّط ضوءاً هامَّاً جديداً علىٰ الحمـلات الـصَّليبيَّة. يُمكننـا أنْ نُـدرك الحمـلات الصَّليبيَّة ـ الآن ـ من منظور ورُؤية جديدة، وأنْ نراها علىٰ أنَّها شيء ما أبعد من إشارة رَمْزيَّة لاسترداد قَبْر السَّيِّد المسيح من المُسلمين.

بعينيه الخاصَّتَيْن، بالإضافة إلىٰ عُيُون أُولئك من مُؤيِّديه، غُودفرُوي كان يُمكن أنْ يكون أكثـر من مُجرَّد دُوق لُورين.

في الحقيقة؛ كان الملك الشَّرْعي ـ المُدَّعي الشَّرْعي لسُلالة خُلِعَتْ مع داغُوبرت الثَّاني في 679. لكنْ؛ إنْ كان غُودفرُوي الملك الشَّرْعي، فهُو كان ـ أيضاً ـ ملكاً بدُون مملكة؛ وسُلالة الكـابيتيِّيْن[1] في فرنسا، مدعومة من قِبَل الكَنيسَة الرُّومانيَّة، كانت ـ في ذلك الوقت ـ مُحصَّنة بشكل جيِّد، لدرجـة أنَّـه لا يُمكن خَلْعُهَا.

ماذا يُمكن للشَّخص أنْ يفعل إنْ كان هذا الشَّخص ملكاً، وبدُون مملكة؟!

رُبَّما يبحث عن مملكة، أو يُؤسِّس مملكة. المملكـة الأثمـن في كُـلِّ العـالم ـ فلـسطين، الأرض المُقَدَّسَة، التُّربة التي وطئها السَّيِّد المسيح بنفسه. ألا يكون حاكم لمثل هذه المملكة مُكَافئـاً لأيِّ حـاكم في أُورُوبا؟!

وَبِتَرَؤُّسِهِ لأكثر المواقع الدِّنيويَّة المُقَدَّسَة؛ ألا يكون قد كَنَّ انتقامـاً حُلـواً مـن الكَنيـسَة، التـي خانت أسلافه، قبل أربعة قُرُون مَضَتْ؟!

---

(1) (المُلُوك الفرنسيُّون الذين حكموا من 987 إلىٰ 1328، الاسم اشتُقّ من مُؤسِّس السُّلالة «هيُو كابيت». المُترجم).

اللُّغز المُحيِّر

بشكل تـدريجي؛ بعـض أجـزاء اللُّغـز بـدأت تُـصبح مفهومـة. إنْ كـان غُـودفرُوي مـن دم الميرُوفيِّين، فإنَّ ـ علىٰ ما يبدو ـ عدداً من الأجزاء المُنقطعة توقَّفت عن انقطاعها، واستأنفت استمراريَّة مُتماسكة.

وبالتَّالي؛ يُمكننـا أنْ نُوضِّـح أهمِّيَّـة العنـاصر المُتباينـة ـ علـىٰ مـا يبـدو ـ كـسُلالة الميرُوفيِّين، والحملات الصَّليبيَّة، داغُوبرت الثَّاني، وغُودفرُوي، رين لُو شاتُو، فُرسـان الهَيكَـل، آل لُـورين، دَيْـر صهيُون.

نحنُ يُمكن أنْ نتتبَّع سُلالة الميرُوفيِّين حتَّىٰ الوقت الحاضر؛ حتَّىٰ ألين بُوهير، وحتَّىٰ هنري دُو مُونتبيزات[1] (زوج ملكة الدّانمارك)، وحتَّىٰ بيير بلانتارد دُو سانتـكلير، وحتَّىٰ أُوتُو فُـون هابـسبرغ (الدُّوق الفَخري للُورين، وملك القُدْس).

ورغم ذلك، مايزال السُّؤال الهامُّ جدَّاً يُحيِّرنا. مازلنا لا نعرف:

لماذا سُلالة الميرُوفيِّين تصل اليوم إلىٰ تلك الدَّرجة الكبيرة المُبهمة من الأهمِّيَّة؟!

مازلنا لا نعرف:

لماذا الاعتراف بها ـ بأيِّ شكل ـ هُو ذو علاقة بالشُّؤُون المُعاصرة؟!

أو لماذا تحظىٰ بولاء العديد من الرِّجال البارزين علىٰ مرِّ القُرُون؟!

مازلنا لا نعرف:

لماذا حُكـمُ الميرُوفيِّين المَلَكـي الحـديث ـ أيّـاً كـان تـشريعه التّقنـي ـ يـستحقُّ هـذا الإقـرار المُستعجل. بشكل واضح تماماً، نحنُ غفلنا عن شيء ما.

(1) (فرنسيّ الأصل، تزوَّج الملكة مارغريت الثَّانية ملكة الدّنمارك عام 1967. مُنِحَ منصب أمير الدّنمارك. المُترجم).

[منشأ السَلنتيّين]
ألين «العظيم»، مات907

منشأ
الميرُوفنّيّن
رُوتيلد = سجسبرت السَّادس
«الأمير أورزوس» تُوفّي 884/885

إيفون = غليُوم الثّاني
تُوفّي 914
هربا إلى إنكلترا عام 914 نتيجة
غزوات الفايكنغ على بريطانية

جيميج = آرنُود
كُونت بُوهير

بيرنارد
آرنُود
فرع «بلانتآمور»

سجسبرت السَّابع = ؟
تُوفّي 978/982

غليُوم الثَّالث = ؟
874–936

بيرا «الشّاب» الفرع
الذي بقي في إنكلترا

هافور = سانُودوي 897؟
916
كُونت بُوهير

آرنُود تُوفّي = ؟
952

عودة إلى
بريطانية عام
939

بيرا السَّادس، تُوفّي 975 = ؟
كان «مهندساً معماريّاً»
في إنكلترا وسُلالاته مارست
مهنة «الفن المعماري»

ألان الرَّابع «اللّحية القويَّة» 917–952
دُوق بريطانيا عام 937

[منشأ الإفريق]
هيُوغز الأوَّل = أنَّا
951–971

جين الأوَّل = إيزابيل
تُوفّي 1020

هيُوغز الثّاني
من لُوسيغنان = آجنس

يُوستاش
كُونت جُوميج

جُوزيلُون
دُوق لُورين الَعُليا
تُوفّي 1044

أنّا = جين الثّاني
تُوفّي 1054

غُودفرُوي
دُوق لُورين = بيتريكس
دُو بار = بُونيفيس
ماركيز تُوسكاني

هيُوغز = أغنيس = ايرنيكُول
تُوفّي 1015
كُونت بُولُوجن
تُوفّي 1041

مافوت
دُو لُوفاين = يُوستاش الأوَّل
كُونت بُولُوجن 1010؟
تبنّاه ايرنيكول

جين الثَّالث = بيتريكس
تُوفّي 1068–1072
دُو لُورين

فريدريك
البَابَا ستيفن التَّاسع

منشأ
الإسكتلنديّين
مالكُولم ملك إسكتلندا

سُلالة بلانتارد
مُستمرّة إلى اليوم

ماتيلد كُونتيسة تُوسكاني
مُؤسِّسة دَيْر أُورفال عام
1070

إيدي ماردينس
«القدِّيس إيدي»
تُوفّي 1113 = يُوستاش الثَّاني كُونت بُولُوجن
تُوفّي 1081 صاحب وبليام الفاتح
إلى إنكلترا

ماري = يُوستاش الثَّالث
ملكة إسكتلندا
كُونت بُولُوجن

ماتيلد = ستيفن
ملك إنكلترا

غُودفرُوي
1061–1100 كُونت بويلُون
دُوق لُورين الأدنى، ملك القُدس
مُؤسّس نظام صهيُون عام 1099

بُودوين ملك القُدس
سيّد أعظم
لدَيْر صهيُون تُوفّي 1118

جيرترُود

ألبكس = الإمبراطُور
هنري الرَّابع

السُّلالة الميرُوفينجيَّة، «المُلوك الضائعون» من عمل هنري لُوبينُو (هنري دُو لينُونكُورت)

10

القبيلة المَنْفيَّة

هل يُمكن أنْ يكون هُناك شيء خاصٌ حول سُلالة الميرُوفيّين؛ شيء أكثر من الشَّرْعيَّة التّقنيَّة الأكَاديميَّة؟!

هل هُناك ـ حقّاً ـ يُمكن أنْ يكون الشَّيء؛ الذي بطريقة ما سيهمُّ ـ بصدق ـ الشَّعب اليوم؟!

هل يُمكن أنْ يكون هُناك الشَّيء، الذي قد يُؤثِّر، أو رُبَّما يُعدِّل، المُؤسَّسات الدِّينيَّة، أو السِّياسيَّة، أو الاجتماعيَّة الموجودة؟!

هذه الأسئلة واصلت مُضايقتنا.

علىٰ أيَّة حال؛ حتَّىٰ الآن؛ يبدو أنَّه لا يُوجد جواب لها.

مرَّة أُخرىٰ؛ دَقَّقْنَا في مجموعة من «وثائق الدَّيْر»، وخُصُوصاً الملفَّات السِّرِّيَّة المُهمَّة جدّاً. نُعيد قراءة العبارات التي لم تعن أيَّ شيء بالنِّسبة لنا قبل ذلك. الآن أصبحت مفهومة، لكنَّها لم تخدم في توضيح اللُّغز، أو الإجابة عن الأسئلة التي أصبحت حرجة وهامَّة الآن. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ كان هُناك عبارات أُخرىٰ ماتزال صلتها غير واضحة بالنِّسبة لنا. هذه العبارات لا تحلُّ اللُّغز علىٰ الإطلاق، لكنَّها وَضَعَتْنَا مُفكِّرين علىٰ بعض السِّكَك المُعيَّنة (إنْ لم يكنْ أكثر من ذلك)؛ السِّكك التي أثبت ـ في النِّهاية ـ بأنَّها ذات أهمِّيَّة أساسيَّة.

كما اكتشفنا، الميرُوفيُّون أنفسهم، طبقاً لمُؤرِّخيهم الخاصِّين؛ ادَّعوا التَّحدُّر من طروادة القديمة. لكنْ؛ طبقاً لوثائق مُؤكَّدة من «وثائق الدَّيْر»؛ سُلالة الميرُوفيِّيْن كانت أقدم من حصار طروادة. طبقاً لوثائق مُؤكَّدة من «وثائق الدَّيْر»؛ سُلالة الميرُوفيِّيْن يُمكن ـ في الحقيقة ـ أنْ تعود آثارها حتَّىٰ العهد القديم.

مثلاً، من بين السُّلالات التي في الملفَّات السِّرِّيَّة، كان هُناك هوامش وتذييلات عديدة.

العديد منها تُشير ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ إحدىٰ القبائل الـ12 مـن قبائـل إسرائيـل القديمـة، إلىٰ قبيلة بنيامين. إحدىٰ تلك الإشارات تُؤكِّد، وتستشهد، بـثلاث عبـارات توراتيَّـة: سِـفْر التَّثنيـة 33، ويُوشع 18، والقُضاة 20 و 21.

سِفْر التَّثنية 33، يحتوي علىٰ البَرَكَة، التي أُعْلِنَتْ من قِبَل النَّبيِّ مُوسىٰ علىٰ آباء كُلِّ القبائل الاثنتَيْ عشر. مُوسىٰ يقول لقبيلة بنيامين في (12:33): «هؤلاء أحبَّاء الرَّبِّ، يسكنون عنده آمنين، ويحرسهم طُول النَّهار، وبين جوانحهم يسكنُ». بكلمة أُخرىٰ؛ بنيامين وأحفـاده تميَّـزوا، وانفـردوا، ببَرَكَة خاصَّة، وسامية جدّاً.

علىٰ أيَّة حال، ذلك الكثير، كان واضحاً. بالطَّبع؛ نحنُ كُنَّا حائرين بوعد الرَّبِّ بأنَّـه سيـسكنُ «بين جوانح بنيامين».

هل يجب أنْ نربط بينها وبين وَشْم الميرُوفيِّيْن الأُسطُوري ـ الصَّليب الأحمر بين الأكتاف؟! الصلة تبدو بعيدة الاحتمال. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ كانت هُناك تشابهات أُخرىٰ أوضح بين بنيـامين في العهد القديم وموضوع تحقيقنا.

طبقاً لرُوبرت غريفس ـ علىٰ سبيل المثال ـ اليوم المُقَدَّس عند بنيامين كان 23 ديسمبر/ كـانون الأوَّل؛ يوم العيد الدِّيني لداغُوبرت.

بين العشائر الثَّلاث، التي شملت قبيلة بنيامين، كان هُناك عشيرة أحيرام، التي ببعض الطُّـرُق الغامضة قد تخصُّ حيرام[1]؛ باني هَيكَل سُلَيْمان، والشَّخصيَّة الرَّئيسيَّة في التَّقليد الماسُوني.

علاوةً علىٰ ذلك؛ تابع حيرام الأكثر إخلاصـاً، كـان اسـمه «بَـنْ أوني» (Benoni)؛ وممَّـا يُثـير الانتباه أنَّ «بَنْ أوني» كان الاسم الذي مُنِحَ ـ أصلاً ـ للرَّضيع بنيامين من قِبَل أُمِّه «راحيل» (Rachel) قبل أنْ تموت.

الإشارة التَّوراتيَّة الثَّانية في الملفَّات السِّرِّيَّة، يُوشع 18، هي أكثر وُضُـوحاً. تتحـدَّث عـن وُصُـول شعب مُوسىٰ إلىٰ الأرض الموعودة، وعن التَّقسيم إلىٰ كُلٍّ من الاثنتيْ عشر قبيلة مناطق مُعيَّنة من الأرض.

---

(1) (ملك صُور الفينيقي 969 ـ 936 ق. م. المُترجم).

طبقاً لهذا التَّقسيم؛ أرض قبيلة بنيامين تضمَّنت الأرض، التي أصبحت ـ فيما بعد ـ القُدْس المدينة المُقَدَّسَة.

بكلمة أُخرىٰ، القُدْس، حتَّىٰ قبل أنْ تُصبح عاصمة داود وسُلَيْمان، كانت الحقَّ الطَّبيعي المُخصَّص لقبيلة بنيامين. طبقاً ليشُوع 28:18؛ الحقُّ الطَّبيعي لقبيلة بنيامين شمل (وصيلَعَ، وآلَفَ، ويَبوسَ، وهي أُورشليم، وجَبعَةَ، وقِريَةَ. فهناك أربع عشرة مدينة بقُراها. هذه حصَّة بنيامين بحسب عشائرهم).

الفقرة التَّوراتيَّة الثَّالثة التي استُشهد بها في الملفَّات السِّرِّيَّة تتضمَّن سلسلة مُعقَّدة جدَّاً من الأحداث. كان هُناك لاويّ[1] مُسافراً في الأرض البنياميئيَّة، وتمَّت مُهاجمته، واختُطفَتْ خليلته من قِبَل عَبَدَة الشَّياطين؛ مُغاير للآلهة الأُمّ عند السُّومريِّيْن،المعروفة بعشتار عند البابليِّيْن، وعَشْتَروت[2] عند الفينيقيِّيْن. بعد أنْ دعا مُمثِّلين عن القبائل الاثنتيْ عشر للشَّهادة، طلب اللَّاويّ الثَّأر لذلك العمل الوحشي؛ وفي الاجتماع، أُمِرَ البنياميئيُّون بتسليم الأشرار للعدالة. قد يتوقَّع المرء أنْ يمتثل البنياميئيُّون ـ بسُهُولةـ لهذا الطلب. علىٰ أيَّة حال؛ هُم لم يفعلوا ما أُمِرُوا به، والأكثر أنَّهم تعهَّدوا ـ وبقُوَّة السِّلاح ـ علىٰ حماية «أبناء الشَّيطان».

كانت النَّتيجة حرباً طاحنة مُرَّة ودامية بين البنياميئيِّيْن والقبائل الباقية الإحدىٰ عشرة. ونتيجة لتلك العداوات، القبائل الإحدىٰ عشرة لَعَنَتْ كُلَّ رجل منها يُزوِّج ابنته من رجل بنياميني. عندما انتهت الحرب ـ علىٰ أيَّة حال ـ وأُبيد البنياميئيُّون عَمَليّاً، الإسرائيليُّون المُتصرون ندموا علىٰ لعنتهم؛ التي ـ علىٰ أيَّة حال ـ لا يُمكن التَّراجع عنها:

---

(1) (اللَّاويّ: فردٌ من قبيلة لاوي العبرانيَّة. المُترجم).

(2) (عَشْتَروت: إلاهة الخصب والحُبِّ عند الفينيقيِّيْن. المُترجم).



1. قرية رين لُو شاتُو، المدينة الأصليَّة لريداي، امتدَّت عبر الوادي إلى اليسار.

2. قلعة داتِيتباول، رين لُو شاتُو، تمتلكها ـ الآن ـ عائلة فاتن. يعود تاريخ تأسيسها إلى عُصُور القوطيّيْن الغربيّيْن.



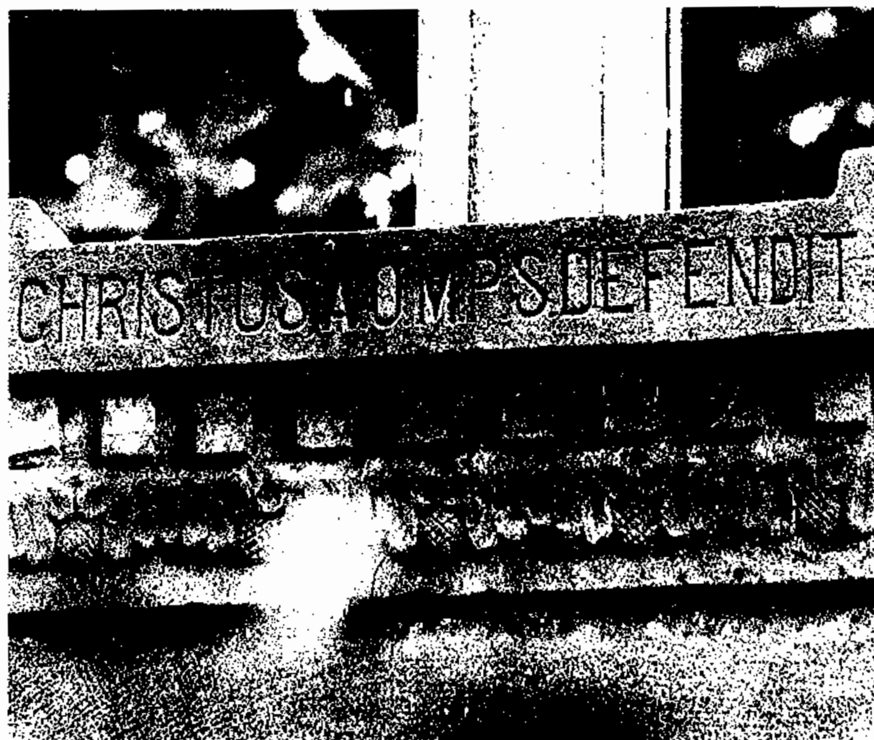

3 كاهن رين لو شاتو، بيرنجر سُونير (واقف في المنتصف).

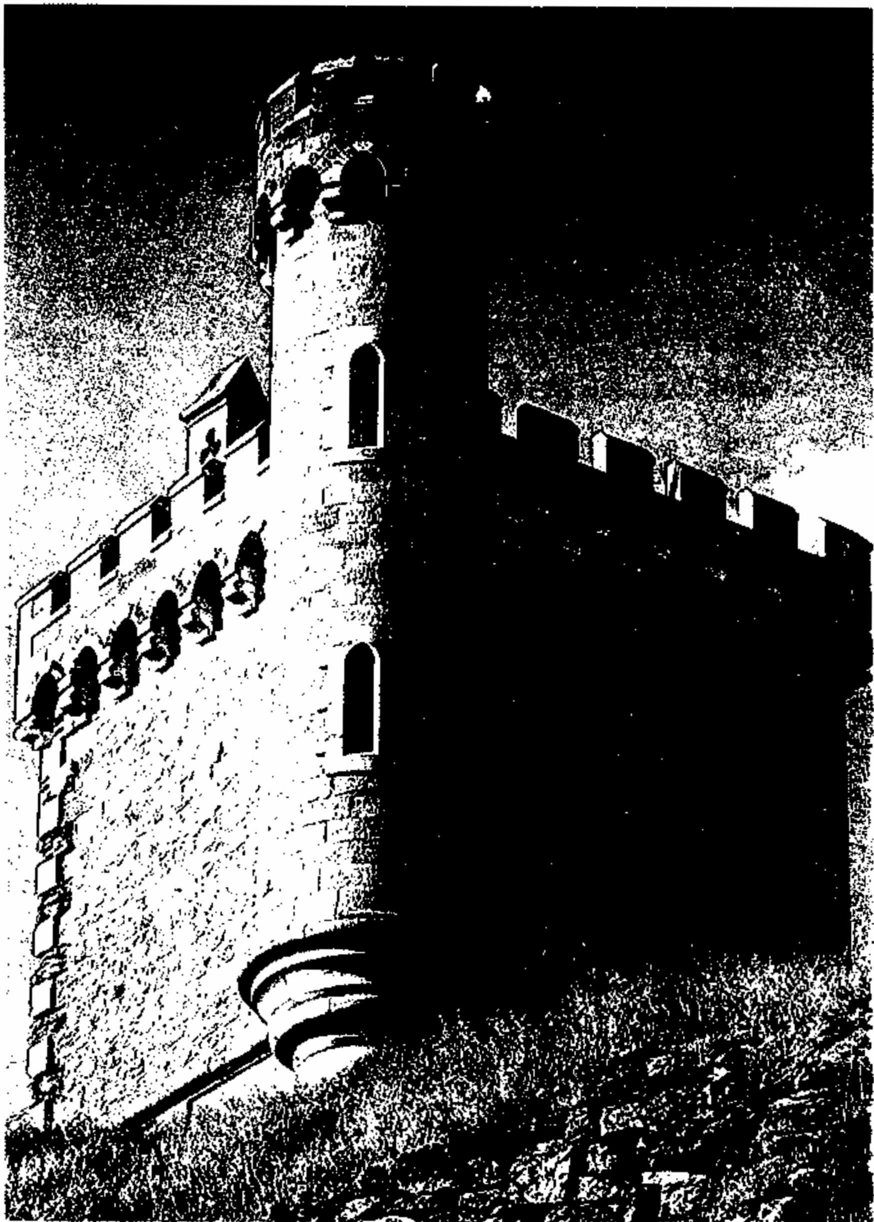

4 سُونير بيرنجر، ومُدبِّرة منزله، ماري دينرنُود، في حدائق فيلا بيت عَنيا، ويظهر في الخلف

5 عمود قُوطي غربي من الكَنيسَة، التي في رين لو شاتو، التي وجد فيها سُونير الوثائق المشفَّرة في عام 1891 .



6 الزَّاوية السُّفليَّة اليُمنى: تمثال يُجسِّد الصَّلْبَ موجود في باحة الكَنيسَة في رين لو شاتو.
الأحرف A.O.M.P.S رُبَّما تعني
Atitiquus Ordo Mysticusque Prioratus Sionis
(نظام دَيْر صهيون الباطني القديم).





7بُرج مجدلا، بُني من قِبل سونير في رين لُو شاتُو، والذي يضمُّ مكتبته.



8قلعة الكاثار في مونتسغور في لانغدوق، التي سقطت بأيدي الصليبيّين الفرنسيّين الشماليّين في عام 1244. كانت لفترة طويلة المركز الرئيس للكاثاريّة.



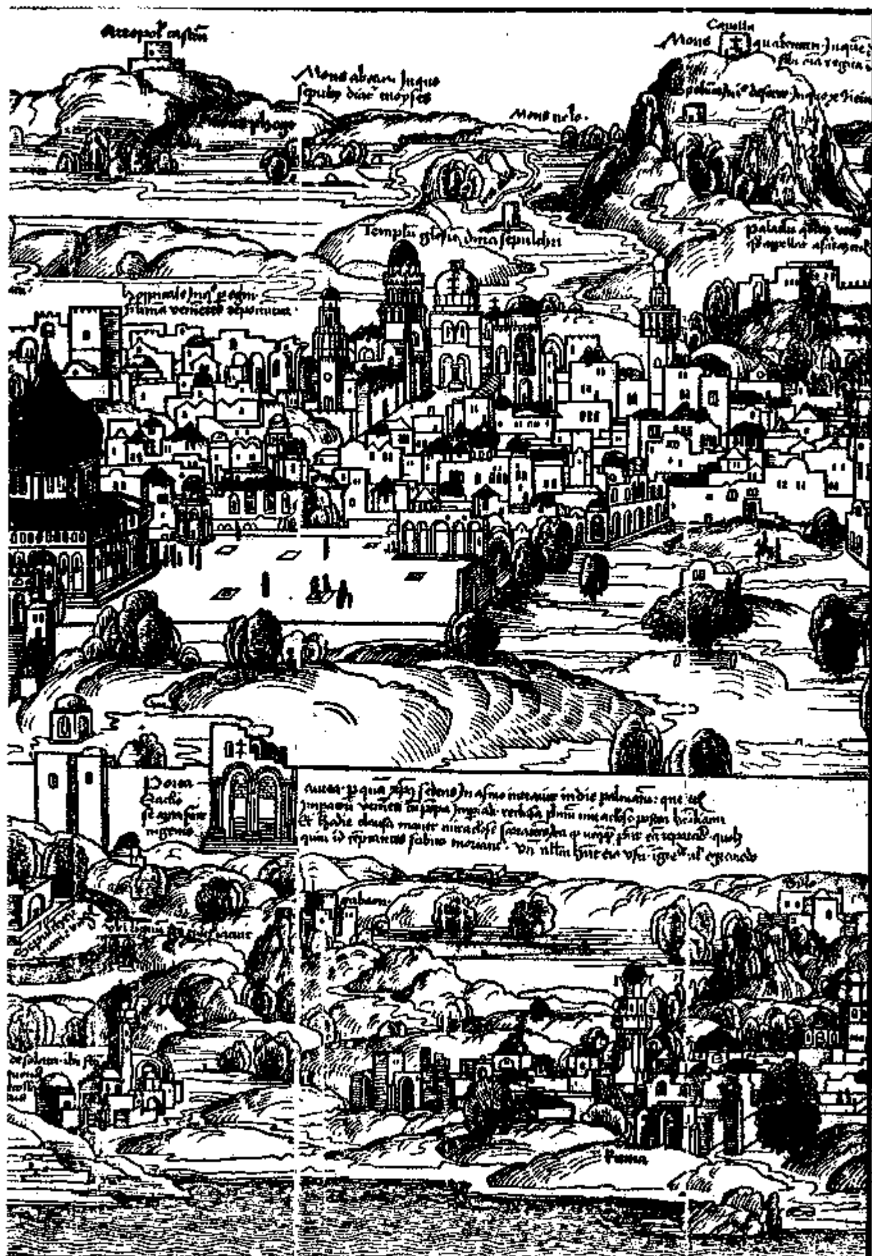
9رَسْم هُولندي من القرن الخامس عشر لأُورشليم، يُظهر الهيكل في الزَّاوية العُلويَّة اليُسْرَى، ويظهر دَيْر نوتردام جبل صهيون.



10صُورة من القرن التاسع عشر، تُظهر قبر داود، والذي يُشكِّل في الرَّسْم دَيْر نُوتردام جبل صهيون في أورشليم أثناء الحملات الصَّليبيَّة. مُؤسِّسه كان غودفرُوي دُو بلويُون عام 1099وكان مقرّ نظام صهيون حتّى عام 1187.

11الهيكل، أُورشليم. في المركز تُوجد قُبَّة الصَّخرة في المسجد الأَقْصَى، التي شغلها فُرسان الهيكل حتى عام 1187إلى اليسار.



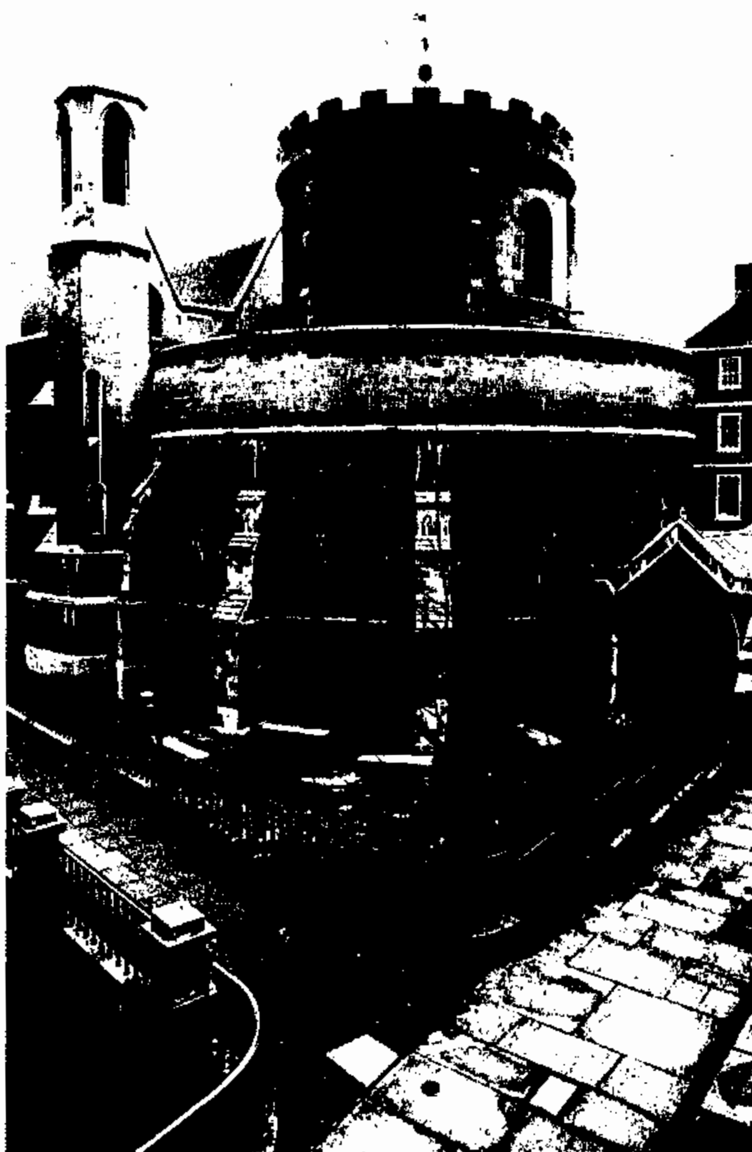




12البُرج الثُماني الأضلاع لقلعة جيزرز، مقرّ دَيْر صهيون بعد عام 1188.

13جُزء من الجدار المُطلّ على البحر لقلعة حيفا في فلسطين، بُنيَتْ من قِبَل فُرسان الهيكل في عام 1218أخلِيَتْ في عام 1291بعد سُقوط عكّا.





14كَنيسَة فُرسان الهيكل في الهيكل في لُندن. صحن الكَنيسَة المُستدير كُرِّس في عام 1185 من قبَل بطريرك القدْس.



15 | كَنيسَة الهيكل في لندن من الدَّاخل. تماثيل الفُرسان تعود للقرن الثَّالث عشر.
ليس جميعهم من فُرسان الهيكل.




16.أ– خَتْم دَيْر نوتردام جبل صهيون في القُدْس. تاريخه 2 مارس/آذار 9821. يُصوِّر هُبُوط الرُّوح القُدُس على الحوارِيِّيْن على هيئة حمامة.

ب – خَتْم فُرسان الهيكل، إنجلترا، 3031. يُظهر أسد إنجلترا، والصَّليب الثُّلاثي ذا النِّهاية المتَّسعة، وهلال الإلهة الأمّ مع النُّجوم.



17طبعة من مُنتصف القرن التَّاسع عشر تُظهر خراب دَيْر أُورفال.



18القبر الموجود قُرْب أركس، يبدو أنَّه كالقبر الذي رَسَمَهُ بُوسَّان في لوحته
Les Bergers d'Arcadie



لوحة La Fontaine de Fortune التي رَسَمَهَا رينيه دانجاو عام 1457، طبقاً للنقش. النبع جُلب من قِبَل الساحر فيرجل، الذي، لرُبَّما، كان مُرتبطاً بأركاديا من قِبَل مُعاصري رينيه. هذا هو الظهور الأوَّل لألفيُوس، جدول أركاديا التحت أرضي، في الثقافة الغربيَّة الحديثة.



20 لوحة Et in Arcadia Ego من قِبَل غُورسينُو عام 1618 وهي أوَّل صُورة تستخدم هذه العبارة.

لوحة 21 Et in Arcadia Ego
من قِبَل بُوسَّان، وهي أوّل رُسُوماته حول هذا الموضوع، أكمِلت حوالي عام 1630.



لوحة 22 Les Bergers d'Arcadie
من قِبَل بوسَّان، رُسِمَت بين عامَيْ 1640–1642





23 نُصُب الرُّعاة في شاغبُورُو هاوس، ستافُورد شير، إنكلترا. هذه نُسخة من القرن الثّامن عشر للوحة بُوسّان Les Bergers d'Arcadie تظهر معكوسة، صُورة مرآوية. النَّقش لم يُحلّ لغزه مُطلقاً.



24قبر ماسُوني من القرن السَّابع عشر. تُشير الجُمْجُمَة والعَظْمَتَان بأنَّ الرَّجل المدفون كان سيِّداً ماسُونيًّا أعظمٍ الكثير من أمثال هذه القُبُور سبق تاريخها تأسيس المحفل الإنجليزي العظيم، الذي تمّ في عام 1717.

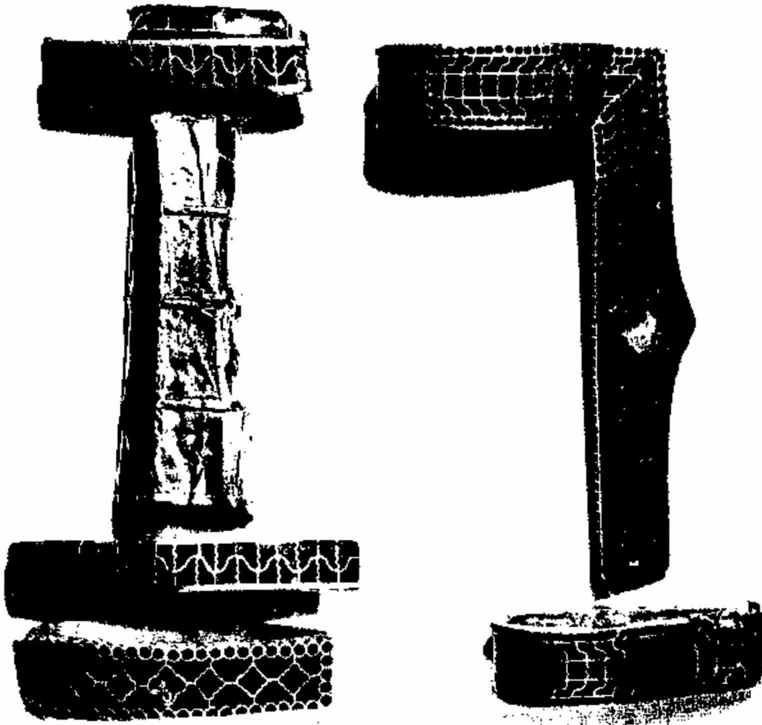


25 مَذْخَر فضِّي مُقدَّس يحتوي الجُمْجُمَة المثقوبة لِداغُوبيرت الثَّاني، الذي تَّم اغتياله قُرْب ستيناي في 23 ديسمبر/كانون الأوَّل عام 679. الجمْجُمَة محفوظة في دَيْر في مُونز، بلجيكا.





26و 27بيير بلانتارد دُو سانت-كلير وابنه تُوماس، صُوِّرتْ في باريس عام 1979.



28في الأعلى: مقبض وغمد سيف من الذَّهب المُرصَّع بالعقيق الأحمر. وُجِدَ في قبر تشيلديرك الأوّل، والد كلُوفيس الأوّل.

29الزَّاوية السُّفْليَّة اليُسْرَى: كُرة بلُّوريَّة وُجِدَتْ في قبر تشيلديرك. العديد من الكُرات المُشابهة وُجِدَت في القُبُور الميُروفيَّة. استخدامها غير معروف.

30الزَّاوية السُّفْليَّة اليُمْنَى: نحلتَان من الذَّهب – كُلُّ ما تبقَّى من الثَّلاثمائة نحلة التي وُجِدَت في قبر تشيلديرك.



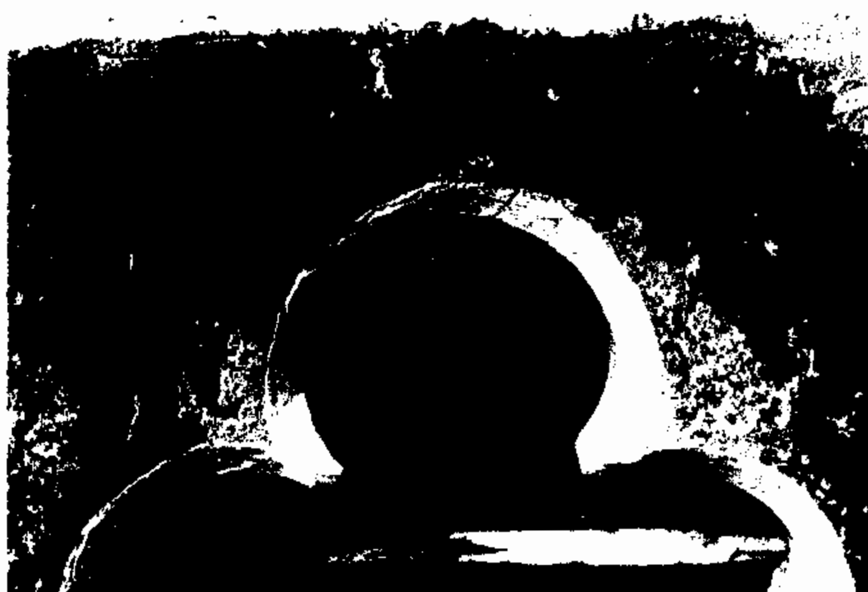






31 كَنيسَة فُرسانِ الهيكل في غاروي، هيتيفُورد شير، إنكلترا. الكَنيسَة الأصليَّة كانت دائريَّة. لكنَّها فُكِّكَت، وأُعيد بناؤها لاحقاً.

32 كتابات جداريَّة على رأسٍ جرن الماء الكَنسَي في المُصلَّى الجنوبي لكَنيسَة غاروي، يُظهر هَرَماً مُجنَّحاً، وشعاراً شمسيّاً، وسمكة، وأفعى.



33 الزَّاوية العُلويَّة اليُسرَى: عُمْلَة معدنيَّة يهُوديَّة من عهد أنتيُوخُوس السَّابع، 129 – 138 قبل الميلاد. الزنبق – صُمِّم هُنا، ورُبَّما كان سلف الزَّنبقة الفرنسيَّة – كان رمز منطقة اليهوديَّة.



34 الزَّاوية السُّفْليَّة اليُسرَى: نافذة في كَاتدرائية أليت، قُرْب رين لُو شاتُو، على شكل نجمة داود.





35لوحة «أُسطورة الزّنبق». إضاءة من إلقرن الخامس عشر على أُسطورة الأُصول المُقدَّسة للزّنبق، للسُّلالة المَلكيّة الفرنسيَّة. كلوفيس الأوَّل يظهر وهُو يستلم الرَّاية من مَلكته كلوتيلد.



36صُورة بلا اسم لغُودفرُوي دُو بُولُوين يلبس تاجاً من الأشواك، للفنَّان كلاود فيغنُون، حوالي عام 1623 . رُسِمَتْ لكلود دُو لورين، الذي شعار النَبالة خاصَّته على اليمين. كلاود وأخوه تشارلز، دُوق غايس، كانا تلميذَيْن عند رُوبرت فلود، سيِّد أعظم لدَيْر صهيون.

(وَحَلَفَ رجال بني إسرائيل في المصفاة، وقالوا: لا يُزوِّج رجل منَّا ابنته لأحد من بني بنيامين. وقَدِمِ الشَّعب إلىٰ بيت إيلَ[1]، وبقوا هُناك أمام الله إلىٰ المساء، ورفعوا أصواتهم، وبكوا بُكاءً شديداً. وقالوا: لماذا يا ربُّ ـ إله إسرائيل ـ حدث هذا في بني إسرائيل؟! لماذا فقدوا اليوم سبطاً من أسباطهم؟!).

(القُضاة: **21**: **1 ـ 3**).

بعد بضعة أشعار لاحقاً؛ الرِّثاء يتكرَّر:

(وندم بنو إسرائيل علىٰ ما فعلوا بقبيلة بنيامين إخوتهم، وقالوا: اليوم انقطعت قبيلة من بين إسرائيل، فماذا نفعل ليكون نساءٌ للرِّجال الذين بقوا منهم أحياء، ونحنُ حَلَفْنَا بالرَّبِّ أنْ لا نُعطيهم من بناتنا زوجات؟!

(القُضاة: **21**: **6 ـ 7**).

ومرَّة ثانية:

(وأسف الشَّعب علىٰ بني بنيامين؛ لأنَّ الرَّبَّ جعل فجوة في أسباط بني إسرائيل. فقال شُيُوخ المجمع: ماذا نفعل بالباقين الذين لم يحصلوا علىٰ نساء، والنِّساء انقطعت من بني بنيامين؟! وقالوا: ميراث بني بنيامين يكون للنَّاجين منهم، فلا يُمحَىٰ سبط من بين إسرائيل. أمَّا نحنُ؛ فلا نقدر أنْ نُزوِّجهم من بناتنا؛ لأنَّنا حَلَفْنَا، وقُلنا: ملعون مَنْ يُعطي زوجة لأحد من بني بنيامين).

(القُضاة: **21**: **15 ـ 18**).

بعد أنْ جَابَهَتْهُم إمكانيَّة الانقراض الكامل للقبيلة، الشُّيُوخ ابتكروا ـ بسُرعة ـ الحلَّ. في «شيلوهَ»، في «بيت إيل»، سيكون هُناك مهرجان قريباً؛ ونساء «شيلوهَ» ـ اللَّواتي رجال قبيلتهنَّ بقوا مُحايدين في الحرب ـ سيُعتبرنَ الهدف. البنياميتُّون الباقون علىٰ قيد الحياة يُأْمَرُون بالذَّهاب إلىٰ «شيلوهَ»، ويكمنون في مزارع الكَرْمَة. عندما تتجمَّع نساء البلدة للرَّقص في المهرجان القادم، علىٰ البنيامينيِّين أنْ ينقضُّوا عليهنَّ، ويأخذوهنَّ كزوجات[2].

---

(1) (بيت الرَّبِّ حسب النَّصِّ الإنكليزي. المُترجم).

(2) (التَّحايل في تلك العمليَّة يكمن في تتمَّة النَّصِّ التَّوراتي، الذي لم يُورده المُؤلِّفون هُنا، وهُو أنَّه إنْ جاء ذوو الأمر لأُولئك النِّساء سيقول لهم الشُّيُوخ أنْ يُشفقوا علىٰ بني بنيامين، وأنَّهم ـ بذلك ـ لم ينكثوا العهد الذي قطعوه مع الله، فهُم

ليس واضحاً علىٰ الإطلاق لماذا تُصرُّ الملفَّات السِّرِّيَّة علىٰ لَفْت الأنظار إلىٰ هذه الفقرة. لكنْ؛ مهما كان السَّبب، البنياميتُّيون ـ بقَدْر تعلُّقهم بالتَّاريخ التَّوراتي ـ هُم مُهمُّون جدَّاً. علىٰ الرّغم من خراب الحرب، استعادوا ـ بسُرعة ـ هيبتهم، إنْ لم يكن عددهم.

في الحقيقة؛ تعافوا بشكل جيِّد، لدرجة أنَّهم زوَّدوا إسرائيل بملكها الأوَّل، شاول «Saul»، عندما قام شَخص يُدعىٰ صموئيل (Samuel) بتنصيبه ملكاً. أيَّاً كان التَّحسُّن، الذي قام به البنياميتُّيون.

علىٰ أيَّة حال؛ تُشير الملفَّات السِّرِّيَّة ـ ضمنيَّاً ـ إلىٰ أنَّ الحرب علىٰ أتباع الشَّيطان كانت نُقطة تحوُّل حاسمة. يبدو بأنَّه في أعقاب هذا النِّزاع، رحل الكثير من البنيامينيِّين إلىٰ المنفىٰ؛ إنْ لم يكن أكثرهم. لذا؛ هُناك مُلاحظة مُذهلة في الملفَّات السِّرِّيَّة كُتِبَتْ بالحُرُوف الكبيرة:

أحد الأيَّام ترك أحفادُ بنيامين موطنَهُم؛ البعض بقوا؛ بعد ألفَيْ سنة؛ غُودفرُوي الخامس (دُو بُولوين) أصبح ملك القُدْس، وأسَّس دَيْر صهيُون.

(يذكر المُؤلِّفون في مُلحق الكتاب أنَّ النَّص التَّالي هُو النَّصُّ الكامل، الذي اقتُبِسَ، وتُرجِمَ منه النَّصُّ السَّابق):

UN JOUR LES DESCENDANTS DE BENJAMIN QUITTERENT LEUR PAYS, CERTAINS RESTERENT, DEUX MILLLE ANS APRES GODEFROY VI, DEVIENT ROI DE JEUSALEM ET FONDE L'OEDRE DE SION - De cette legende merveilleuse qui orne l'histoire, ansi que l'architecture d'un temple dont le sommet se perd dans l'immensite de l'espace et des temps, dont POUSSIN a voulu exprimer le mystère dans ses deux tableaux, les «Bergers d'Arcadie,» se trouve sans doute le secret du trésor devant lequel, les descendants paysans et bergers du fier sicambre, méditent sur «et in arcadia ego ,et le ✡ Roi «Midas.» Avant 1200 a notre ère - Un fait important est, l'arrivée des Hébreux dans la terre promise et leur lente installation en Canaan. Dans la Bible, an Deuteronome 33, il est dit sur BENJAMIN:

C'est le bien aimé de l'Eternal, il habitera en sècuritè auprès de lui, l'Eternal le couvrira toujours, et rèsidera entre ses épaules. ♆ Il est encore dit a Josuè 18 que le sort donnapour héritage aux fils de BENJAMIN parmi les qüatorze villes et leur villages: JEBUS, de nos jours JERUSALEM avec ses trois points d'un triangle: GOLGOTHA, SION et BETHANIE.

(الشُّيُوخ) لم يغنموا أُولئك النِّساء في الحرب، ومن ثَمَّ؛ قدَّموهنَّ إلىٰ بني بنيامين، ولا قبيلة شيلوهَ زوَّجت بناتها من بني بنيامين. وكأنَّ الله غافل عمَّا يفعلون! المُترجم).

Et enfin il est ècrit, aux Juges 20 et 21: «aucun de nous de donnera sa fille pour femme a un Benjamite... O Eternel, Dieu d'Israël, pourquoi est-il arrivè en Israël qu'il manque aujourd'hui une tribu d'Israël A la grand ènigme de l'Arcadie VIRGILE qui était dans le secret des dieux, lève le voile aux Bucoliques X-46/50: «Tu procul a patria (nec sit mihi credere tantum). Alpinas, a, dura, nives et frigora Rheni me sine sola vides. A, te ne frigora Iaedant! a tibi ne teneras glacies secet aspera plantas!«



SIX PORTES ou le sceau de l'Etoile, voici les secrets des parchemins de l'Abbe SAUNIERE, Curé de Rennes-le-Chiteau et qu'avant lui le grand initiè POUSSIN connaissait Iorsqu'il réalisa son oeuvre ala demande du PAPE, l'inscription sur la tombe est la même. - Lobineau, Dossiers secrets, planche no. 1, 400-600.

في بادئ الأمر؛ بدا ذلك أنَّه سلسلة من النَّتائج البسيطة غير المُترابطة. عندما جمَّعنا الإشارات المُتنوِّعة والمُتفرِّقة في الملفَّات السِّرِّيَّة، علىٰ أيَّة حال، بدأت القصَّة المُتماسكة بالظُّهُور.

طبقاً لهذه الرِّواية؛ أكثر البنياميتِّين ذهبوا إلىٰ المنفىٰ. يُفترَض أنَّ منفاهم أَوْصَلَهُم إلىٰ اليُونان، إلىٰ وسط بيلُوبُونيُوس، باختصار؛ إلىٰ أركاديا؛ حيثُ يُفترَض أنَّهم اصطفُّوا إلىٰ جانب الخطِّ المَلَكي الأركادي. باقتراب قُدُوم العصر المسيحي؛ يُقال إنَّهم سافروا ـ بعد ذلك ـ إلىٰ الأعلىٰ نحو نهرَيْ الدَّانوب، والرَّاين، وتزاوجوا مع بعض القبائل التِّيُوتُونيَّة. وأخيراً؛ أنجبوا الفرنكيِّين السِّيكامبريِّين(1)؛ الأجداد المُباشرين للميرُوفيِّين.

بعد ذلك، طبقاً لـ«وثائق الدِّيْر»؛ نشأت سُلالة الميرُوفيِّين، من أركاديا، من قبيلة بنيامين. بكلمة أُخرىٰ؛ الميرُوفيُّون ـ بالإضافة إلىٰ أحفادهم اللَّاحقين؛ سلالات بلانتارد، ولُورين ـ علىٰ سبيل المثال ـ كانوا ـ في النِّهاية ـ من أصل ساميّ، أو إسرائيلي. وإنْ كانت القُدْس ـ في الحقيقة ـ الحقَّ الطَّبيعي الوراثي للبنياميتِّين، فإنَّ غُودفرُوي دُو بُولوين، في زَحْفه نحو المدينة المُقَدَّسَة، كان ـ في الحقيقة ـ يستردُّ تُراثه القديم، والشَّرْعي. مرَّة أُخرىٰ؛ هُو هامٌّ غُودفرُوي، وحده من بين الأُمراء المهيبين الغربيِّين الذين بدؤوا الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ، تخلَّص من كُلِّ أملاكه قبل مُغادرته؛ يعني ـ بذلك ـ أنَّه لم يَنْوِ العودةَ إلىٰ أُورُوبا.

(1) (السِّيكامبريُّون، وهُم قبيلة من الشَّعب الألماني يُعرَفُون ـ بشكل جماعي ـ بالفَرَنْكيِّين. المُترجم).

لا حاجة للقول، لم يكن لدينا طريقة للتَّحقُّق؛ سواء أكان الميرُوفيُّون كانوا من أصل بنياميني،أم لا، المعلومات في «وثائق الدَّيْر»، كما كانت، تتعلَّق بحقائق بعيدة جدَّاً، وغامضة جدَّاً من الماضي، الذي لا يُمكن الحُصُول منه علىٰ أيَّة سجلَّات، أو وثائق من أيِّ نوع، لكنَّ المزاعم لم تكن لا فريدة جدَّاً، ولا جديدة جدَّاً. بالعكس، هي كانت موجودة علىٰ شكل إشاعات مُبهمة، وتقاليد ضبابيَّة لوقت طويل. للاستشهاد بحالة واحدة فقط، برُوست[1] يتبنَّاهم في مُؤلَّفاته، ومُؤخَّراً؛ الرِّوائيَّة جين دُورنيسُون تقترح الأصلَ اليهُودي لبعض العائلات الفرنسيَّة النَّبيلة. وفي عام **1965**، رُوجر بيريفيت، الذي يبدو أنَّه صَدَمَ، وروَّع، مُواطنيه، عمل ذلك بشُهرة مُدوِّية في رواية يُؤكِّد فيها أنَّ كُلَّ الفرنسيِّين، وأكثر طبقة النُّبلاء الأُورُوبيَّة، هُم ـ في الأساس ـ يهُود.

في الحقيقة؛ الحُجَّة ـ بالرّغم من أنَّها غير قابلة للبُرهان ـ لا يُمكن تصديقها جُملة؛ ولا حتَّىٰ المَنْفَىٰ والهجرة التي نُسِبَتْ إلىٰ قبيلة بنيامين في «وثائق الدَّيْر». قبيلة بنيامين حملت السِّلاح نيابة عن أتباع الشَّيطان؛ الذي هُو أحد أشكال الإلهة الأُمِّ، والتي جُسِّدَتْ ـ في أغلب الأحيان ـ بصُورة ثور، أو عجل. هُناك سبب للاعتقاد بأنَّ البنيامينيِّيْن أنفسهم عبدوا الإله نفسه.

في الحقيقة؛ من المُحتمَل أنَّ عبادة العجل الذَّهبي في سِفْر الخُرُوج[2] ـ وهُو موضوع ذو أهمِّيَّة كبيرة، جَعَلَتْهُ أحد صُور بُوسَّان الأكثر شُهرَة ـ لرُبَّما كانت ـ بشكل مُحَدَّد ـ طُقُوساً بنيامينيَّة.

بعد حربهم ضدَّ القبائل الإسرائيليَّة الـ**11** الأُخْرَىٰ، البنيامينيُّون هربوا إلىٰ المنفىٰ، والضَّرورة تسلتزم بأنْ يهرُبوا غَرْبَاً، نحو السَّاحل الفينيقي. امتلك الفينيقيُّون السُّفُنَ القادرةَ علىٰ نَقْل الأعداد الكبيرة من اللَّاجئين. ومن المُمكن أنَّهم كانوا حُلفاء واضحين للهاربين البنيامينيِّيْن،لأنَّهم ـ أيضاً ـ عبدو الإلهة الأُمِّ عشتار، ملكة السَّماء.

إنْ كان هُناك ـ في الحقيقة ـ نُزُوح جماعي للبنيامينيِّيْن من فلسطين، قد يتمنَّىٰ المرء أنْ يجد بعض السِّجلَّات الأثريَّة الدَّالَّة علىٰ ذلك.

---

(1) (بروست، مارسيل (1871 ـ 1922): روائي فرنسي. يُعدُّ أحد أبرز مُمثِّلي الرِّواية النَّفسيَّة. المُترجم).

(2) (سِفْر الخُرُوج: ثاني أسفار العهد القديم. المُترجم).

في أُسطُورة يُونانيَّة؛ هُناك دليل: في أُسطُورة دانُـوس ـ ابـن الملـك بيلُـوس ـ الـذي يـصل إلىٰ اليُونان مع بناته بالسَّفينة، قيل إنَّ بناته قـدَّمنَ طائفـة الإلهـة الأُمّ، التـي أصـبحت الطَّائفـة الأساسـيَّة للأركاديِّيْن.

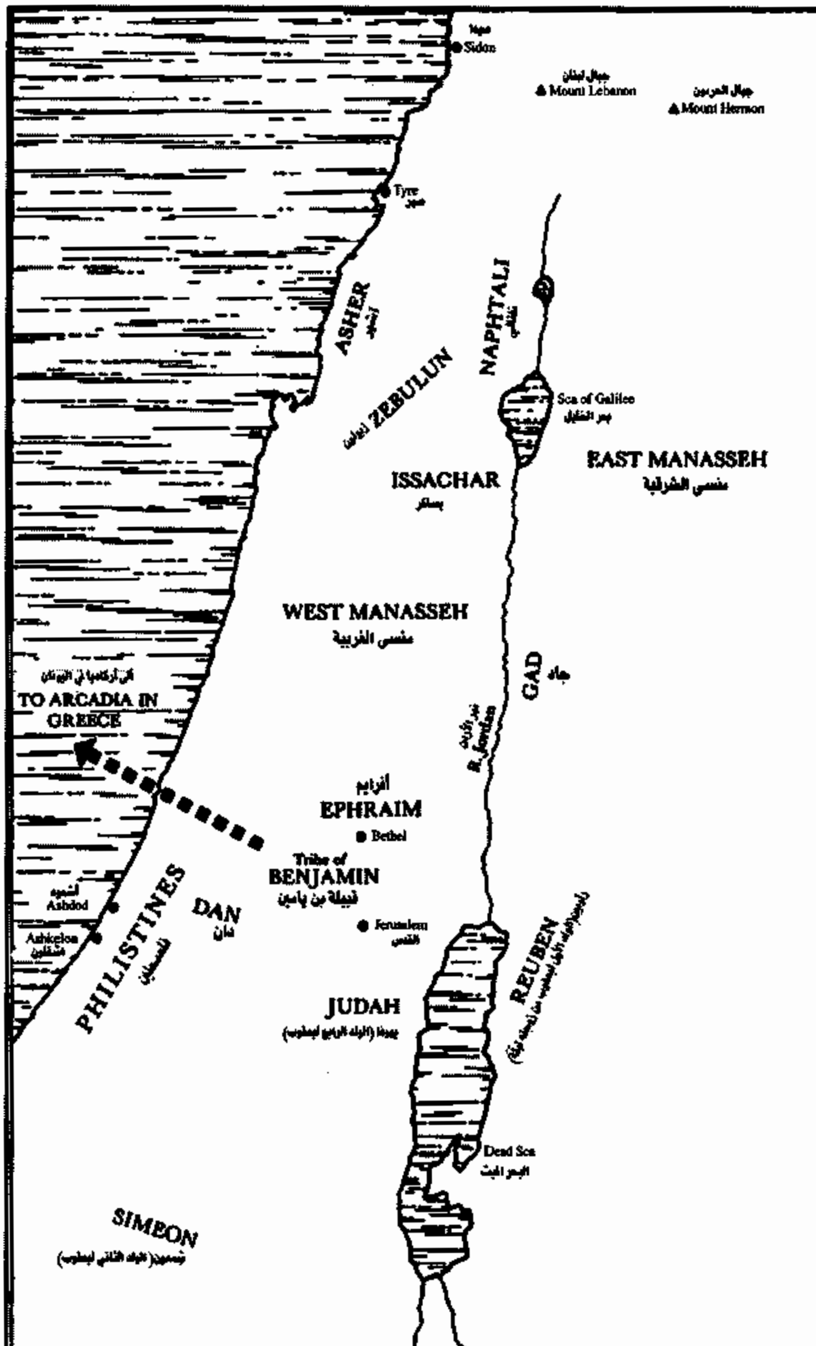
طبقاً لرُوبـرت غـريفس؛ أُسـطُورة دانُـوس تُـدوِّن وُصُـول «مُـستعمرين مـن فلـسطين» إلىٰ بيلُوبُونيسُوس. يُصرِّح غريفس بـأنَّ الملـك بيلُـوس ـ في الحقيقـة ـ هُـو «حائـل» (Haal)، أو «بيـل» (Bel)، أو ـ رُبَّما ـ «Beiial» من العهد القديم. ممَّا يستحقُّ المُلاحظة ـ أيضاً ـ أنَّ إحـدىٰ عـشائر قبيلـة بنيامين كانت عشيرة «بيلا» (Bela).

في أركاديا، طائفة الإلهة الأُمّ لم تكن مُزدهرة فحسب، بل استمرَّت لمُـدَّة أطـول مـن أيِّ جُـزء آخر في اليُونان. أصـبحت مُرتبطـة بعبـادة «دِيْمَـتْر»[1]، ثُـمَّ «ديانـا»[2]، أو «آرتمـيس»[3]، آرتيمـيس المعروف ـ محلِّيَّاً ـ بـ«آردينا»، أصبح الإلـه الـوَصيّ عـلىٰ منطقـة آردينيـه؛ ومـن آردينيـه؛ حيـثُ نـشأ السيكامبريُّون الفرنكيُّون أوَّلاً إلىٰ ما تُسمَّىٰ ـ الآن ـ فرنسا.

الشِّعار المُقَدَّس لآرتيميس كان أُنثىٰ الدُّبّ كاليستُو، الذي ابنه كان أركـاس، الطفـل الـدُّبّ، وراعي أركاديا. وكاليستُو ـ بعد أنْ نُقِلَ إلىٰ السّماوات من قِبَل آرتيمـيس ـ أصـبح مجموعـة النَّجميَّـة للدُّبِّ الأكبر.

وبالتَّالي؛ قـد يكـون هُنـاك شيء أكثـر مـن مُجـرَّد مُـصادفة في أنَّ الكُنيـة «أُورُوس» تُـستخدَم ـ مراراً، وتكراراً ـ في سُلالة الميرُوفيِّيْن.

(1)(دِيْمَتْر: إلاهة الزِّراعة عند الإغريق. المُترجم).
(2)(ديانا: إلاهة القمر والحيوانات الضَّارية والصَّيد في الميثُولُوجيا الرُّومانيَّة. المُترجم).
(3)(آرتميس: إلاهة القمر والقَنْص عند الإغريق. المُترجم).



اليهُوديَّة «Judaea» (منطقة فلسطين القديمة)، تُظهر الدَّربَ الوحيد هُرُوب قبيلة بنيامين.

في أيِّ حال من الأحوال؛ هُناك دليل آخر ـ ناهيكَ عن الأُسطُورة ـ يقترح هجرة يهُوديَّة إلىٰ أركاديا.

في العُصُور الكلاسيكيَّة، المنطقة المعروفة بأركاديا حُكِمَتْ من قِبَل الدّولة الإسبَرطيَّة القويَّة المُشْرَبَة بالرُّوح الحَرْبيَّة. امتصَّ الإسبَرطيُّون مُعظمَ الثَّقافة الأركاديَّة القديمة، وفي الحقيقة؛ ليكايُوس «Lycaeus» الأركادي الأُسطُوري قد يكون ـ في الحقيقة ـ هُو نفسه ليكُورغُوس «Lycurgus»، الذي وضع دُستُور القانون الإسبارطي. في سنِّ الرُّجُولة؛ الإسبَرطيُّون كالميرُوفيِّيْن، يُولُون أهمِّيَّة سِحْريَّة خاصَّة لشَعْرهم؛ الذي ـ كالميرُوفيِّيْن ـ يتركونه طويلاً.

طبقاً لإحدىٰ الرِّوايات؛ «طُول شَعْرهم كان يدلُّ علىٰ قُوَّتهم الطَّبيعيَّة، وأصبح رمزاً مُقدَّساً». الأكثر من ذلك، كتابا الأبُوكريفا[1]، والمكابيُّون[2] يُشدِّدان علىٰ الصِّلة بين الإسبَرطيِّيْن واليهُود. الكتاب المكابيُّ الثَّاني يتكلَّم عن بعض اليهُود «الذين شرعوا في الذَّهاب إلىٰ الـ إسبَرطين[3]، علىٰ أمل الحُصُول علىٰ حماية هُناك بسبب قرابتهم[4]». والكتاب المكابيُّ الأوَّل يذكر ـ بشكل واضح ـ: «وجدنا وثيقة عن الإسبَرطيِّيْن واليهُود تنصُّ علىٰ أنَّهم أُخوة من نَسْل إبراهيم[5]».

يُمكننا ـ بذلك ـ أنْ نعترف ـ علىٰ الأقلِّ ـ بإمكانيَّة هجرة يهُوديَّة إلىٰ أركاديا، وبالتَّالي؛ إنْ لم نستطع أنْ نُثبت صحَّة «وثائق الدَّيْر»، بالمِثْلِ؛ لا يُمكننا أنْ نُكذِّبها. أمَّا بالنِّسبة إلىٰ التَّأثير السَّاميّ علىٰ الثَّقافة الفرانكيَّة؛ فقد كان هُناك دليل أثري راسخ. خطُّ التِّجارة الفينيقي، أو السَّاميّ عبر كُلِّ جنوب فرنسا، من بُوردُو إلىٰ مرسيليا، وناربُون. امتدَّ ـ أيضاً ـ فوق نهر الرّون. ورُجُوعاً حتَّىٰ الفترة بين عامَيْ 700 ـ 600 قبل الميلاد، كان هُناك مُستوطنات فينيقيَّة، ليست ـ فقط ـ علىٰ طُول السَّاحل الفرنسي، لكنْ؛ داخل البلاد أيضاً، في مواقع مثل كركاسُون، وتُولُوز. من بين

---

(1) (الأبُوكريفا: أربعة عشر سِفراً تُلحَق أحياناً ـ بـ«العهد القديم» من الكتاب المُقدَّس، ولكنَّ البرُوتستانت لا تعترف بصحَّتها. المُترجم).

(2) (المكابيُّون: في تاريخ العبرانيِّيْن، هُم أتباع يهُوذا المكابي، الذي قاد ثورة اليهُود ضدَّ سُوريا في 168. المُترجم).

(3) (الكلمة الإنكليزيَّة هي «Lacedaemonians»، وهي الاسم القديم لإسبَرطه (Sparta). المُترجم).

(4) (المكابيُّون الثَّاني 5: 9. المُؤلِّفون).

(5) (المكابيُّون الأوَّل 12: 21. المُؤلِّفون).

المصنوعات اليدويَّة التي وُجِدَتْ في هذه المواقع، كان هُناك العديد منها من أصل ساميّ. هذا ليس مُدهشاً. في القرن التَّاسع قبل الميلاد؛ سُلالة المُلُوك الفينيقيِّيْن في صُور زاوجت مع سُلالة مُلُوك إسرائيل، ويهُوذا، وهكذا؛ أسَّسوا تحالفاً سُلاليّاً، لابُدَّ أنَّه أدَّىٰ إلىٰ احتكاك مُباشر بين شُعُوبهم.

سَلْبُ القُدْس في عام 70 بعد الميلاد، ودمار الهَيكَل، دَفَعَا إلىٰ نُزُوح جماعيٍّ هائل لليهُود من الأرض المُقَدَّسَة.

وبالتَّالي؛، مدينة بُومبي[1] دُفِنَتْ بالرَّماد البُركاني أثناء انفجار جبل فيسُوفيُوس عام 79 بعد الميلاد، وكان فيها جالية يهُوديَّة. بعض المُدُن في جنوب فرنسا -علىٰ سبيل المثال، أرليس، ولُونيل، وناربُون- أمَّنَتْ ملجأً للَّاجئين اليهُود في الفترة نَفْسها تقريباً.

ورغم ذلك السَّيل المُتدفِّق من اليهُود إلىٰ أُورُوبا، وخُصُوصاً فرنسا، سَبَقَ سُقُوط القُدْس في القرن الأوَّل.

في الحقيقة؛ كان التَّدفُّق مُستمرّاً قبل العصر المسيحي، بين عامَيْ 106 و 48 قبل الميلاد. أُسِّسَتْ مُستعمرة يهُوديَّة في رُومَا. وبعد ذلك بفترة قصيرة، أُسِّسَتْ مُستعمرة أُخرىٰ مثلها، بعيداً فوق نهر الرّاين، في كُولُون «Cologne».

بعض الجحافل الرُّومانيَّة كانت تحتوي -بين صُفُوفها- فِرَقاً من العبيد اليهُود، الذين رافقوا سادتهم في جميع أنحاء أُورُوبا.

في النِّهاية؛ العديد من هؤلاء العبيد حصلوا علىٰ حُرِّيَّتهم إمَّا برِبْحِهَا، أو بشرائها، أو بطريقة أُخرىٰ، وشكَّلوا مُجتمعات.

في النَّتيجة؛ هُناك العديد من أسماء الأماكن السَّاميَّة انتشرت -وبشكل مُحَدَّد- في أنحاء فرنسا.

البعض منها يقع -مُباشرة- في وسط الميرُوفيِّيْن القُدماء. مثلاً؛ بضعة كيلومترات من ستيناي، علىٰ أطراف غابة ووفرز، التي تمَّ اغتيال داغُوبرت فيها، تُوجد هُناك قرية تُدعىٰ بعلُون «Baalon».

(1) (Pompeii): مدينة رُومانيَّة قديمة في جنوب إيطاليا، دَفَنَهَا البُركان... نُقِّبَتْ -جُزئيّاً- مُنْذُ ذلك الحين. المُترجم).

بين ستيناي، وأورفال، هُناك بلدة تُدعىٰ أفيُوث. وجبل صهيُون في لُورين - «la colline inspirée» (الجبل المُلهَم) - كان اسمه - أصلاً - الجبل السَّاميّ.

مرَّة ثانية؛ عندما لا نستطيع أنْ نُثبت ادِّعاءات «وثائق الدَّيْر»، فإنَّنا - في الوقت نفسه - لا يُمكننا أنْ نُنكرها. بالتَّأكيد؛ كان هُناك ما يكفي من الأدلَّة لجَعْلها - علىٰ الأقلّ - معقولة. أُرْغِمْنَا علىٰ الاعتراف بأنَّ «وثائق الدَّيْر» قد تكون صحيحة؛ أيْ أنَّ الميرُوفيِّيْن والعائلات النَّبيلة المُختلفة - لرُبَّما - تحدَّرتْ من مصادر ساميَّة[1].

ولكنْ؛ تساءلنا:

هل يُمكن أنْ يكون هذا هُو - حقَّاً - كُلّ ما في القصَّة؟!

هل هذا - حقَّاً - يُمكن أنْ يكون السِّرّ الهائل - الذي أحدث الكثير من الاهتمام، والإثارة، الكثير من الكيد، والغُمُوض، والكثير من الخلاف، والنِّزاع، عبر القُرُون - مُجرَّد أُسطُورة قبيلة مفقودة أُخرىٰ؟!

وحتَّىٰ إنْ لم تكن أُسطُورة، بل حقيقة، هل يُمكنها - حقَّاً - أنْ تُوضِّح حافز دَيْر صهيُون، وادِّعاء سُلالة الميرُوفيِّيْن؟!

(1) (نحنُ لا نُشكِّك بمصداقيَّة الكتاب، ولكنْ؛ كُلُّنا نعرف السُّمّ بالدَّسَم. أعتقد أنَّ هذا الادِّعاء لا يستحقُّ عناء كتاب كهذا، بل آلاف الكُتُب حتَّىٰ يتمّ إيصال هذه الفِكْرَة للجماهير. تصوَّروا؛ اليهُود - الآن - يُحاولون إثبات أنَّهم - هُم - الميرُوفيُّون، وبالتَّالي؛ هُم ليسوا - فحسب - من السُّلالة المَلَكيَّة، بل هُم أُصُول تلك السُّلالة، وبالتَّالي؛ كُلُّ مُلُوك الغرب، وممالكهم، من أُصُول ساميَّة! أَلَم يخلق اللهُ غير اليهُود؟ أَلَم يكونوا عبيداً هُناك باعتراف مُؤلِّفي هذا الكتاب؟! أين السُّكَّان المحلِّيُّون الذين سمحوا لعبيدهم بأنْ يستلموا المُلك؟! أَلَم يحتفظ المُلوك القدماءُ بمَخطُوطات سُلالاتهم؟! ألا يكفي أنَّهم - الآن - يشنُّون حملة عالميَّة ليدَّعوا بأنَّهم بُناة الأهرامات أيضاً؟!...؟! ...؟! علىٰ أيَّة حال؛ يُعلق المُؤلِّفون علىٰ الفقرة السَّابقة بالقول: كلمة «ساميّ» (Semitic) ابتُكِرَتْ - لأوَّل مرَّة - عام 1781، من قِبَل العالم الألماني سكلزر «Schlzer»، للإشارة إلىٰ مجموعة اللُّغات الوثيقة الصِّلة فيما بينها. أُولئك الذين تكلَّموا بتلك اللُّغات أصبحوا يُعرَفُون بالسَّاميِّيْن. الكلمة مُشتقَّة من سام بن نُوح. إنْ كان الجبل المَعْني يحمل مُستعمرة يهُوديَّة، فمن المُمكن أنَّ اسمه كان سام. ولكنْ؛ هُناك - أيضاً - احتمال أكثر دُنيويَّة للتَّسمية. الكلمة اللَّاتينيَّة «semita» تعني «طريق»، وبالتَّالي؛ يجب أنْ نضع هذه التَّسمية البديلة في عين الاعتبار. المُؤلِّفون «طريقاً» أو «طريق، «وهذا البديل يجب أنْ يُؤخذ بنَظَر الاعتبار. المُترجم).

هل يُمكنها ـ حقّاً ـ أنْ تُوضِّح تمسُّك رجال مثل ليُونـاردُو، ونيُوتن، أو نـشاطات آل غـايس، ولُورين، والمساعي السِّرِّيَّة لجماعة القُربان المُقدَّس، والأسرار المُحيِّرة للمحفل الماسُوني الإسكتلندي؟!

من الواضح: لا.

لماذا التَّحذُّر من قبيلة بنيامين يُشكِّل سرّاً هامّاً جدّاً؟

والسُّؤال الأكثر حَسْماً ـ رُبَّما ـ :لماذا يجب أنْ تكون سُلالة قبيلة بنيامين مُهمَّة اليوم؟!

كيف يُمكن توضيح نشاطات دَيْر صهيُون، وأهدافه المُعاصرة؟!

علاوةً علىٰ ذلك؛ إنْ كان تحقيقنا يتضمَّن مصالح شَخصيَّة ساميَّة، أو يهُوديَّـة، بـشكل مُحَـدَّد، فلماذا تضمَّن الكثير جدّاً من الشَّخصيَّات، التي هي ـ بشكل مُحَدَّد ـ مسيحيَّة، وبشكل مُتَّقد أيضاً؟!

الحِلْفُ بين كلُوفيس والكَنيسَة الرُّومانيَّة ـ علىٰ سبيل المثـال؛ المسيحيَّة المُقـرَّة بغُـودفرُوي دُو بُولوين؛ غزو القُدْس؛ الأفكار المسيحيَّة الهَرْطَقيَّة للكَاثار، ولفُرسان الهَيكَل (والذين ـ رُبَّما ـ لم يكونوا أقلَّ ديناً من غيرهم من المسيحيِّين)؛ المُؤسَّسات الدِّينيَّة كجماعة القُربان المُقدَّس؛ الماسُونيَّة التي كانت «مسيحيَّة، وأرستُوقراطيَّة، وهَرْطَقيَّة»؛ وتورُّط العديد من القَساوسَة المـسيحيِّين، مـن الأُمـراء ذوي المناصب العُليا في الكَنيسَة، إلىٰ رُعاة الأبرشيَّات في القُرىٰ المحلِّيَّة الصَّغيرة؛ مثـل بُوديـت، وسُـونير ـ هُو قد يشير إلىٰ أنَّ الميرُوفيِّين كانوا ـ في النِّهاية ـ من الأصل اليهُودي، لكنْ إنْ كان هذا صحيحاً، فقـد بدا لنا ـ جَوْهَريّاً ـ بمحض المُصادفة[1].

مهما كان السِّرُّ الحقيقي وراء تحقيقنا، بدا أنَّه تعلَّق ـ بشكل مُعقَّد ـ ليس بيهُوديَّة العهد القديم، بل بالمسيحيَّة.

باختصار؛ قبيلة بنيامين تبدو ـ الآن، علىٰ الأقلِّ ـ بأنَّها كانت صَرْفٌ للانتباه. أيّاً كانت أهمِّيَّتهـا المُمكنة، هُناك شيء ذُو صلة وذُو أهمِّيَّة أعظم بكثير. كُنَّا مانزال ـ أيضاً ـ غافلين عن شيء ما.

---

(1) (لابُدَّ أنَّ هذا يُعزِّز نظريَّتي السَّابقة بأنَّ العمل مُكرَّس ـ رُبَّما ـ لأجل هذا الزَّعم. والدَّليل ـ رُبَّما ـ أنَّ المُؤلِّفين ـ هُنـا ـ يُعلنون براءتهم، وأنَّهم توصَّلوا إلىٰ هذه النَّتيجة بمُجرَّد المُصادفة، وأنَّ عملهم مُكرَّس لشيء آخر. المُترجم).

الجُزء الثَّالث

السُّلالة

11

«الكَأس المقَدَّسَة»

ما الشَّيء الذي ـ لرُبَّما ـ أغفلناه؟

أو ـ بدلاً عن ذلك ـ ما الشَّيء الذي ـ لرُبَّما ـ أنَّنا كُنَّا نبحث عنه في المكان الخاطئ؟

هل ـ رُبَّما ـ كان هُناك شيء ما أمام أعيننا طوال الوقت، ولسبب ـ أو لآخر ـ أَخفَقْنَا في مُلاحظته؟

بقدر ما يُمكننا أنْ نُقرِّر، نحنُ لم نُغفل أيّة مادَّة، ولا أيّة بيانات ثقافيَّة تاريخيَّة مقبولة.

لكنْ؛ هل يُمكن أنْ يكون هُناك شيء آخر؛ الشَّيء الذي وُجِدَ «خارج حُدُود» التَّاريخ المُوثَّق، والحقائق المُتماسكة، التي سعينا لكي نُقيِّد أنفسنا بها؟!

بالتَّأكيد؛ كان هُناك موضوع واحد، رائع في الحقيقة، شقَّ طريقه عبر تحقيقنا، ويتكرَّر ـ مراراً ـ باتِّساق مُثير، ومُصرٍّ. هذه المادَّة الغامضة تُعرَف بـ«الكَأس المُقَدَّسَة».

من قِبَل مُعاصريهم ـ علىٰ سبيل المثال ـ الكَاثَار يعتقدون بأنَّهم كانوا يمتلكون «الكَأس المُقَدَّسَة».

فُرسان الهَيكَل ـ أيضاً ـ عُدُّوا حُماةَ «الكَأس المُقَدَّسَة» في أغلب الأحيان؛ ورُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» صَدَرَتْ ـ أصلاً ـ من بلاط كُونت شمبانيا، الذي ارتبط بمُؤسَّسة فُرسان الهَيكَل بشكل حميمي.

علاوةً علىٰ ذلك؛ عندما قُمِعَ فُرسان الهَيكَل، وطبقاً لتقارير محاكم التَّفتيش؛ الرُّؤُوس الغريبة ـ التي يُفترض أنَّهم عبدوها ـ تمتلك العديد من الخواصّ، التي نُسِبَتْ ـ تقليديَّاً ـ إلىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة»؛ تلك الرُّؤُوس تزيد العُمر ـ علىٰ سبيل المثال ـ وتُشبع الأرضَ بالخُصُوبة.

أثناء تحقيقنا؛ صادفنا موضوع «الكَأس المُقَدَّسَة» في العديد من البيئات الأُخرَىٰ أيضاً. البعض منها كان مُؤَخَّراً نسبيَّاً، كالحلقة الغامضة لجُوزيف بيلادان، وكلُود ديبُوسي في نهاية القرن التَّاسع عشر. الأُخرَىٰ كانت أكبر عُمراً لحَدٍّ كبير. مثلاً؛ غُودفرُوي دُو بُولوين ـ طبقاً لأُسطُورة وفُولُوكلُور القُرُون الوُسْطَىٰ ـ هُو مُتحدِّر من لُوهينغرين، فارس البَجَعَة؛ ولُوهينغرين، في الرُّومانسيَّات، كان ابن بيرسيفال، أو بارزيفال، بطل كُلِّ روايات «الكَأس المُقَدَّسَة» المُبَكِّرة.

علاوةً علىٰ ذلك؛ غِليُوم دُو جيلُون، حاكم إمارة من القُرُون الوُسْطَىٰ في جنوب فرنسا أثناء عهد شارلمان، كان بطل قصيدة من تأليف وولفرام فُون إسكِنباش، والذي ـ في الحقيقة ـ يُعدُّ المُؤرِّخ الأكثر أهمِّيَّة من بين مُؤرِّخي «الكَأس المُقَدَّسَة». غِليُوم في قصيدة وولفرام قيل بأنَّه مُرتبط ـ بطريقة ما ـ مع (عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»).

هل هذه التَّدخُّلات للـ«كَأس المُقَدَّسَة» في تحقيقنا ـ هي ـ مُجرَّد عشوائيَّة، وعَرَضيَّة؟!

أم أنَّ هُناك مُتَّصليَّة[1] تُشكِّل أساساً لها، وتربطها بتحقيقنا؛ المُتَّصليَّة، التي ـ بطريقة ما؛ مُستحيلة التَّصوُّر ـ ترتبط بتحقيقنا بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، أيَّاً كانت إمكانيَّة حقيقة «الكَأس المُقَدَّسَة»؟!

في هذه المرحلة؛ وَاجَهَنَا سُؤال مُدهش:

هل «الكَأس المُقَدَّسَة» يُمكن أنْ تكون شئاً ما أكثر من محض خيال؟!

هل هُو ـ في الحقيقة ـ وُجِدَ بشكل ما؟!

هل يُمكن ـ حقّاً ـ أنْ يكون هُناك شيء ما كـ«الكَأس المُقَدَّسَة»؟!

أم هل هُناك ـ علىٰ أيَّة حال ـ شيئاً ما ملموساً استخدمه «الكَأس المُقَدَّسَة» كَرَمز؟!

(1) (كون الشَّيء مُتَّصلاً من غير انقطاع. المُترجم).

السُّؤال كان مُثيراً واستفزازيّاً جدّاً؛ علىٰ أقلّ تقدير. في الوقت نفسه؛ تلك المرحلة هدَّدت بأَخْذنا بعيد جدّاً في الميدان، إلىٰ مجالات الحقائق المُزوَّرة.

علىٰ أيّة حال، ذلك وجَّه انتباهَنَا إلىٰ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» ذاتها. ورُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ بذاتها ـ شكَّلت ـ بوُضُوح ـ عدداً من الألغاز والتَّساؤلات ذات الصِّلة.

يُفترَضُ ـ عُمُوماً ـ بأنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» تتعلَّق ـ بطريقة ما ـ بالسَّيِّد المسيح.

طبقاً لبعض التَّقاليد؛ كانت الكَأس التي شرب منها السَّيِّد المسيح وحواريه في العشاء الأخير.

طبقاً لتقاليد أُخرىٰ؛ هي كانت الكَأس التي فيها سَكَبَ فيها يُوسُفُ من الرَّامة[1] دمَ السَّيِّد المسيح، بينما كان موجوداً علىٰ الصَّليب.

طبقاً لتقاليد أُخرىٰ؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» هي الشَّيئان كلاهما معاً. لكنْ؛ إنْ كانت «الكَأس المُقَدَّسَة» مُرتبطة بالسَّيِّد المسيح بهذه الصِّلة الوثيقة، أو إنْ كانت موجودة حقيقة، لماذا لا تُوجد هُناك أيّة إشارة إليها لأكثر من ألف سنة؟!

أين كانت أثناء كُلِّ ذلك الوقت؟!

لماذا لم تُدرَج في الأدب، أو الفُولُوكلُور، أو التَّقاليد السَّابقة؟!

لماذا يجب أنْ يُدفَن شيء بهذه الصِّلة الوثيقة والمُباشرة بالمسيحيَّة لهذه الفترة؟!

الأكثر فُضُولاً:

لماذا ظهرت «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ أخيراً ـ علىٰ السَّطح ـ بالضَّبط؛ في الفترة التي ظهر فيها ـ في ذروة الحملات الصَّليبيَّة؟!

هل كان ذلك مُجرَّد مُصادفة بأنَّ هذا الجسم الغامض ـ الذي لم يكن موجوداً زَعْماً لعشرة قُرُون ـ كان يجب أنْ يحصل علىٰ المنزلة التي حصل عليها أثناء ظُهُوره ـ تقريباً ـ عندما كانت المملكة

(1) (يُوسُف الرَّامي؛ أيْ من الرَّامة وهي مدينة تبعد 40 كلم إلىٰ الشّمال الغربي من أُورشليم. الرَّامة تعني حَرْفيّاً: رمتايم صُوفيم (أو القمَّتَيْن). المُترجم).

الفرنكيَّة في القُدْس في مَجْدها الكامل، وعندما كان فُرسان الهَيكَل في قمَّة قُوَّتهم، وعندما كانت بِدْعة الكَاثَار تتمتَّع بزَخْم، وتوسُّع كاد أنْ يُهدِّد بإزاحة مَذْهب رُومَا فعلاً؟!

هل هذا التَّقارب في الظُّرُوف هُو عَرَضيٌّ حقّاً؟!

أم هل كان هُناك صلة ما بين تلك الظُّرُوف؟!

بعد أنْ غَمَرَنَا، ونوعاً ما؛ أَرْهَبَنَا هذا النَّوع من الأسئلة، لَفَتْنَا انتباهنا إلىٰ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة».

كان أملنا ـ فقط ـ بأنَّه في الفَحْص المُباشر لهذه «التَّخيُّلات» يُمكننا أنْ نُقرِّر سواء كان تكرارها في تحقيقنا هُو ـ في الحقيقة ـ عَرَضيّ، أم توضيح للمُخطَّط؛ المُخطَّط الذي قد يُثبت ـ بطريقة ما ـ أنَّه ذُو أهمِّيَّة عُظْمَىٰ.

أسطُورة «الكَأس المُقَدَّسَة»

مُعظم ثقافات القرن العشرين تشترك بعَدِّ أنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» تستند ـ في النِّهاية ـ علىٰ أساس وَثَني؛ طُقُوس، ترتبط بدَوْرَة فُصُول السَّنة؛ أيْ بموت وحياة السَّنَة. في أُصُولها الأكثر بدائيَّة بدا أنَّها تتعلَّق بطائفة النَّباتيِّين، بشكل وثيق الصِّلة نوعاً ما، هذا؛ إنْ لم يكن ـ بشكل مُباشر ـ مع تلك الطَّوائف مثل تمُّوز «Tammuz»[1]، وآتيس «Attis»[2] وأدونيس، وأُوزيرس[3] في الشَّرق الأوسط.

وهكذا؛ في الأساطير الآيرلنديَّة والويلزيَّة كلَيْهما؛ هُناك إشارات مُتكرِّرة إلىٰ الموت، والانبعاث، والتَّجديد، بالإضافة إلىٰ عمليَّة تجديد مُماثلة في الأرض؛ الجَدْب، والخُصُوبة. الموضوع هُو محْوَرِيٌّ في القصيدة الإنكليزيَّة المجهولة المصدر في القرن الرَّابع عشر، التي عُنوانها «السِّيْر غاواين والفارس الأخضر»، وفي مجموعة القَصَص الويلزيَّة التي تُدعىٰ الـ«Mabinogion»[4]؛ مجموعة الأساطير الويلزيَّة، التي هي ـ تقريباً ـ مُعاصرة لرُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»، علىٰ الرّغم من أنَّها ـ بشكل واضح ـ تلتفت إلىٰ مواضيع أكثر قُدُماً، يُوجد هُناك «قِدْر الإحياء» الغامض، والذي يُوضَع فيه المُحاربون القَتْلَىٰ في المساء؛ ليعيشوا في الصَّباح التَّالي. هذا القِدْرُ يرتبط ـ في أغلب الأحيان ـ بالبطل العملاق الذي يُسمَّىٰ «بران». بران كان يمتلك ـ أيضاً ـ قِدْراً كبيراً،«والذي يحصل منه المرء ـ فوراً ـ علىٰ أيِّ شيء يتمنَّاه من الطَّعام»؛ هذه السِّمة نُسِبَتْ ـ أيضاً، في بعض الأحيان ـ إلىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة».

(1) (تمُّوز: في الأساطير السُّومريَّة، والبابليَّة، والآشُوريَّة، هُو إله خُصُوبة النَّبات والحيوان. المُترجم).

(2) (آتيس ـ في علْم الأساطير الكلاسيكي ـ هُو إله الفريجيِّين «Phrygian»؛ وهُم سُكَّان فريجيا، البلد القديم الذي كان يقع فيما تُسمَّىٰ اليوم بتُركيا، والذي كان موته وإحياؤه يُجسِّد نهاية الشِّتاء، ووُصُول الرَّبيع. كان حبيب الإلهة سيبيل ـ الإلهة الطَّبيعة عند شُعُوب آسية الصُّغرَىٰ ـ وعندما أثبت بأنَّه غير مُخلص، قامت بخَصْيه، ممَّا أدَّىٰ إلىٰ موته. المُترجم).

(3) (أُوزيرس أحد الآلهة الرَّئيسة في الأساطير المصريَّة. كان يُجسِّد قُوَّة الإنتاج الذَّكريَّة في الطَّبيعة. كان أخ وزوج إيسيس، الإلهة الأرض، والقمر، التي كانت تُجسِّد القُوَّة المُنتجة الأُنثويَّة في الطَّبيعة. طبقاً للأُسطُورة؛ أُوزيرس، كملك مصر، وجد شعبه مُنغمساً في الهَمَجيَّة، وبالتَّالي؛ علَّمهم القانون، والزِّراعة، والدِّين، والبَرَكَات الأُخرَىٰ من الحضارة. قُتِلَ من قِبَل أخيه الشِّرِّير، سيت، الذي مزَّق جسده إرباً إرباً، وبعثره. المُترجم).

(4) (مجموعة من القَصَص الويلزيَّة القديمة عن السِّحر والأساطير، بما فيها قَصَص الملك آرثر. المُترجم).

علاوةً علىٰ ذلك؛ يُفترَض أنّه في نهاية حياة بران، قُطِعَ رأسه، ووُضِعَ كنوع من السِّحْر في لندن. يُقال إنَّ ذلك يُؤدّي عدداً من الوظائف السِّحْرِيَّة؛ لا يضمن خُصُوبة الأرض فحسب، بل ـ أيضاً، وببعض القُوَّة السِّحْرِيَّة ـ يتصدَّىٰ للمُحتلِّين.

العديد من هذه المواضيع دُمِجَتْ ـ بعد ذلك ـ برُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة». لا جدال في أنَّ بران ـ بقِدْرِهِ وطَبَقِهِ الكبير ـ أضفىٰ ـ لاحقاً ـ شيئاً ما إلىٰ مفاهيم «الكَأس المُقَدَّسة». ورأس بران لا يشترك في خواصّ «الكَأس المُقَدَّسة» فحسب، ولكنْ؛ ـ أيضاً ـ بالرُّؤُوس التي زُعم أنَّها عُبِدَتْ من قِبَل فُرسان الهَيكَل.

الأساس الوَثَني لرُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة» استُكْشِفَتْ ـ بشكل كامل ـ من قِبَل العُلماء، من السِّيْر جيمس فرايزر في «الغُصن الذَّهَبي»[1]، وحتَّىٰ الوقت الحاضر. لكنْ؛ أثناء أواسط إلىٰ أواخر القرن الثَّاني عشر، الأساس الوَثَني ـ أصلاً ـ لرُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة» مرَّت بتحوُّل مُثير ومُهمٍّ جدَّاً. ببعض الطُّرُق الغامضة التي حيَّرت تحقيقات الباحثين، أصبحت «الكَأس المُقَدَّسة» شيئاً استثنائيَّاً جدَّاً، وارتبط بالمسيحيَّة بشكل مُحَدَّد، وبالأُخرَىٰ؛ بطراز مسيحي غير تقليديٍّ في ذلك.

علىٰ أساس من نوع مُحيِّر من الدَّمْج، أصبحت «الكَأس المُقَدَّسة» مُرتبطة ـ بشكل لا يُمكن فَصْلُهُ ـ بالسَّيِّد المسيح. ويبدو أنَّ هُناك شيئاً ما أكثر عُمقاً وصلة من الارتباط السَّطحي الظَّاهري بين التَّقاليد الوَثَنيَّة والمسيحيَّة.

كأثر مُرتبط بشكل باطني بالسَّيِّد المسيح، «الكَأس المُقَدَّسة» أنتجت كَمِّيَّات ضخمة من الرُّومانسيَّات، أو القصائد القَصَصيَّة الطَّويلة، التي ماتزال تُثير الخيال حتَّىٰ اليوم.

علىٰ الرّغم من الرَّفْض الكَنَسي، هذه الرُّومانسيَّات ازدهرت لحوالي قرن من الزَّمن، أصبحت عبادة مُستقلَّة بالكامل، العبادة التي خلال فترة حياتها، ممَّا يُثير الانتباه، أنَّه شابهت ـ بشكل مُباشر ـ تلك العبادة التي كانت لدىٰ نظام الهَيكَل بعد افتراقه عن دَيْر صهيُون عام **1188**.

---

(1) (كتاب الغُصن الذَّهَبي (1890) هُو أفضل أعماله، وهُو دراسة للطَّوائف والمناسك والأساطير القديمة، ومُقارنتها بالمسيحيَّة المُبَكِّرة. المُترجم).

بسُقُوط الأرض المُقَدَّسَة في عام **1291**، وبحَلّ فُرسان الهَيكَل بين عامَيْ **1307** و **1314**، بدأت رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» بالاختفاء ـ أيضاً ـ من مجرىٰ التَّاريخ، لقرنَيْن آخرَيْن، أو ما شابه. ثُمَّ، في **1470**، الموضوع ظهر ثانية عن طريق السِّيْر تُوماس مالُوري في عمله الشهير « **La Morte d'Arthur**»[1]. وتقريباً؛ بقي هذا الموضوع بارزاً في الثَّقافة الغربيَّة مُنْذُ ذلك الوقت، ولا حتَّىٰ سياقه كان ـ دائماً ـ أدبيَّاً بشكل كامل.

يبدو وكأنَّ هُناك دليلاً وثائقيّاً كافياً علىٰ أنَّ بعض الأعضاء الألمان الاشتراكيِّيْن الوَطَنيِّيْن ذوي المناصب آمنوا ـ في الحقيقة ـ بالوُجُود الطَّبيعي للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، وعمليَّات تنقيب عنها كانت ـ بالفعل ـ قد حصلت أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية في جنوب فرنسا.

في زمن مالُوري، يُفترَض بأنَّ الأداة الغامضة المعروفة بـ«الكَأس المُقَدَّسَة» قد حصلت ـ تقريباً ـ علىٰ نَفْس الهُويَّة المُميِّزة لها اليوم. زُعم بأنَّها كانت كَأس العشاء الأخير، الذي فيه حفظ يُوسُفُ الرَّامي دمَ السَّيِّد المسيح لاحقاً.

طبقاً لبعض الرِّوايات؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» جُلِبَتْ من قِبَل يُوسُف الرَّامي إلىٰ إنجلترا؛ وبشكل مُحَدَّد أكثر، إلىٰ غلاستُونبيري.

طبقاً لروايات أُخرىٰ؛ هي جُلِبَتْ من قِبَل مَرْيَم المَجْدَليَّة إلىٰ فرنسا.

حوالي القرن الرَّابع؛ تُصرِّح الأساطير بأنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة هربت من الأرض المُقَدَّسَة، وأنَّها نزلت علىٰ اليابسة قُرب مارسيليا؛ المكان الذي أصبحت آثارها فيه مُقَدَّسَة نتيجة لذلك.

طبقاً لأساطير القُرُون الوُسْطَىٰ؛ أنَّها حملت معها «الكَأس المُقَدَّسَة» إلىٰ مارسيليا.

في القرن الخامس عشر، هذا التَّقليد تمتَّع ـ بوُضُوح ـ بأهمِّيَّة هائلة، لدرجة أنَّ أشخاصاً كالملك رينيه دانجاو قام بجَمْع «الكُؤُوس المُقَدَّسَة».

---

(1) («موت آرثر»؛ رُومانسيَّة في الفترة بين عامَيْ 1469 ـ 1470. المُترجم).

لكنَّ الأساطير القديمة تقول بأنَّ مَرْيَم المَجْدَلِيَّة جَلَبَت «الكَأس المُقَدَّسَة» إلىٰ فرنسا، وليست كأساً.

بكلمة أُخرىٰ؛ الرَّبط البسيط بين «الكَأس المُقَدَّسَة» والكَأس كان قد حصل في وقت حديث نسبيّاً. مالُوري خلَّد هذه الصِّلة الظَّاهريَّة، ومُنْذُ ذلك الوقت؛ أصبحت أمراً بديهيّاً. لكنَّ مالُوري - في الحقيقة - تخطَّىٰ أداب السُّلُوك واللّياقة في مصادره الأصليَّة. في هذه المصادر الأصليَّة؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» هي شيء أكثر بكثير من مُجرَّد كَأس. والسِّمات الباطنيَّة للـ«كَأس المُقَدَّسَة» ذات أهمِّيَّة أكبر بكثير من السِّمات الفُرُوسيَّة، التي قَدَّسَهَا مالُوري.

برأي أكثر العُلماء؛ رُومانسيَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» الأصيلة الأُولىٰ يعود تاريخها إلىٰ أواخر القرن الثَّاني عشر، حوالي عام 8811؛ تلك السَّنة الحاسمة التي شهدت سُقُوط القُدْس، والانفصال المزعوم بين نظام الهَيكَل ودَيْر صهيُون.

إنَّ الرُّومانسيَّة المَعنيَّة اسمها «Le Roman de Perceval» (رُومانسيَّة بارسيفال)، أو « Le Conte du Graal» (قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة»). أُعِدَّت بواحد: كريشين دُو ترُويز، الذي يبدو بأنَّه كان مُرتبطاً - بمسؤوليَّة غير مُحَدَّدة - ببلاط كُونت شمبانيا.

القليل معروف عن سيرة كريشين الذَّاتيَّة. ارتباطه مع بلاط شمبانيا ظاهر في الأعمال العديدة التي أعدَّها قبل رُومانسيَّته عن «الكَأس المُقَدَّسَة»؛ أعمال كُرِّسَتْ إلىٰ ماري، كُونتيسة شمبانيا. ومن خلال هذه المجموعة من الرُّومانسيَّات المُتودِّدة - بما فيها عمل يتعلَّق بـ«بلانسيلوت»[1]، التي لم تُورد أيَّ ذِكْر للـ«كَأس المُقَدَّسَة»؛ في فترة عام 1180، أسَّس كريشين سُمعة بارزةً له. ونَظَراً لأعماله السَّابقة، يتوقَّعه المرء أنْ يستمرَّ بالنَّوعيَّة المُحَدَّدة نَفْسها. قُرب نهاية حياته - علىٰ أيَّة حال - وجَّه كريشينُ أنظارَهُ إلىٰ موضوع جديد، وغير موجود لحَدِّ الآن؛ و«الكَأس المُقَدَّسَة» - كما وصلت إلينا اليوم - صَنَعَتْ ظُهُورها الأوَّل - بشكل رَسْمي - في الثَّقافة والوعي الغربي.

(1) (في الرُّومانسيَّات الآرثريَّة هُو أكثر فُرسان الملك آرثر شُهرَة، الذي كان عشيق الملكة جينيفر. المُترجم).

رُومانسيَّة كريشين عن «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تُكرَّس لماري دُو شمبانيا، بل إلىٰ فيليب دالساس، كُونت فلانديرز[1].

في بداية قصيدته كريشين؛ يُعلن بأنَّ عمله أُعِدَّ بناءً علىٰ طَلَب فيليب بشكل مُحَدَّد، وأنَّه من فيليب سمع القصَّة لأوَّل مرَّة. العمل ـ بحَدِّ ذاته ـ يُقدِّم نَمَطاً عامَّاً، ويُشكِّل نموذجاً، لقَصَص «الكَأس المُقَدَّسَة» اللَّاحقة. بطلها يُسمَّىٰ بيرسيفال، الذي وُصف كـ«ابن السَّيِّدة الأرملة». هذا اللَّقَب ـ بحَدِّ ذاته ـ هامٌّ ومُثير بآن واحد. كان يُستخدَم لفترة طويلة من قِبَل البِدَع الغنُوسطيَّة[2]، والثَّنويَّة[3] أحياناً؛ يُعزىٰ لأنبيائهم الخاصِّين، وأحياناً؛ للسَّيِّد المسيح بنفسه. بعد ذلك؛ أصبح اسماً ذا أهمِّيَّة كبيرة في الماسُونيَّة.

تارك أُمَّه المُرمَّلة، بيرسيفال قام برحلة ليكسب فُرُوسيَّته. أثناء سفراته صادف صيَّاد سمك مُبهم؛ وهُو «الملك الصَّيَّاد» المشهور، والذي أمَّن له المأوىٰ ليلاً في قلعته. في تلك اللَّيلة؛ ظهرت «الكَأس المُقَدَّسَة». «الكَأس المُقَدَّسَة» لا ترتبط بالسَّيِّد المسيح، لا في هذه المرحلة، ولا بأيِّ مرحلة أُخرىٰ من القصَّة.

في الحقيقة؛ القارئ ـ بذلك ـ لن يعلم إلَّا القليل جدَّاً عن تلك «الكَأس المُقَدَّسَة». حتَّىٰ إنَّ القارئ لم يُخبَر بما هي تلك الكَأس. لكنْ؛ مهما كانت تلك الكَأس، وَرَدَ أنَّها كانت محمولة من قِبَل فتاة، وكانت الكَأس ذهبيَّة ومُرصَّعة بالمُجوهرات. بيرسيفال لا يعرف بأنَّه مُتوقَّع منه أنْ يسأل عن هذا الجسم الغامض، وأنَّه مُتوقَّع منه أنْ يسأل «مَن الذي يُخدم بها؟».

---

(1) (زار فيليب فلانديرز شمبانيا في أغلب الأحيان، وفي 1182، حاول بفَشَل الزَّواج من ماري دُو شمبانيا (ابنة إلينُور من آكُوتين)، التي كانت قد ترمَّلت في السَّنة السَّابقة. هُناك اتِّصال بين آل ألساس، وآل لُورين. جيرارد دالساس، بعد موت أخيه في 1048، أصبح الدُّوق الوراثي الأُولفي لُورين. كُلّ سَلَف الدُّوقات اللَّاحقين للُورين يعود إليه. المُؤلِّفون).

(2) (الغنُوسطيَّة: مذهب العرفان: مذهب بعض المسيحيِّين، الذين اعتقدوا بأنَّ المادَّة شرٌّ، وبأنَّ الخلاص يأتي من طريق المعرفة الرُّوحيَّة. المُترجم).

(3) (الثَّنويَّة مذهب يقول بأنَّ الإنسان هُو رُوح، وجَسَد، وبالتَّالي؛ هُو قادر علىٰ أنْ يتعامل مع كلَيْهما. المُترجم).

إنَّ السُّؤال غامض جدَّاً. إنْ كانت هـذه «الكَـأس المُقَدَّسَـة» وعـاءً، أو صـحناً مـن نـوع مـا، فالسُّؤال قد يعني «مَنْ هُو المقصود ليأكل منه؟!».

بدلاً من ذلك السُّؤال؛ قد يُصاغ السُّؤال ثانية: (مَـن الـذي يخدمـه المـرء (بـالمعنىٰ الفُـرُوسي) استنادا إلىٰ خدمة «الكَأس المُقَدَّسَة»؟!).

مهما كان معنىٰ السُّؤال، بيرسيفال لم يطرحه. وفي الصباح التَّالي عنـدما يـستيقظ، كانـت القلعـة فارغة. وعلم ـ بعد ذلك ـ أنَّ عدم طرحه لأيِّ سُؤال أدَّىٰ إلىٰ نكبة كارثيَّة في الأرض. علم ـ أيـضاً، فـيما بعد ـ أنَّه بنفسه من (عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»)، وبأنَّ الملك الصَّيَّاد الغامض كان ـ في الحقيقة ـ عمَّه.

في هذه المرحلة؛ بيرسيفال قام باعتراف مُثير، بما أنَّ تجربته مع «الكَأس المُقَدَّسَة» كانت مُحزنـة، فقد أعلن أنَّه توقَّف عن محبَّة الله، أو الإيمان به[1].

قصيدة كريشين أدَّت إلىٰ حَيْرَة كبيرة حول الحقيقة؛ إذْ إنَّها لم تُكمل. كريشين تُوفِّي حوالي عـام 1188، ورُبَّما ـ تماماً ـ قبل أنْ يتمَّ عمله؛ وحتَّىٰ إنْ هُو أكمله، فلا تُوجد هُناك أيَّة نُـسخة مـن العمـل الكامل. إنْ وُجِدَتْ نُسخة كهذه علىٰ الإطلاق، لرُبَّما هي اختفت في الحريق الذي حـصل في ترُويـز[2] عام 1188. هذه النُّقطة ليست هامَّة، ولكنَّ بعض العُلماء وجدوا أنَّ هذه النَّـار ـ بـالتَّزامن مـع وفـاة الشَّاعر ـ هي مُريبة بشكل غامض.

في أيِّ حال من الأحوال، رواية كريشين لقصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» هي أقلُّ أهمِّيَّـة في ذاتهـا مـن أهمِّيَّتها كالسَّلَف الأوَّل لمثيلاتها.

خلال نصف القرن الذي تلىٰ ذلك، الموضوع الذي قُـدِّم في بـلاط ترُويـز كـان قـد امتـدَّ عـبر أُورُوبا الغربيَّة كالنَّار المُنتشرة.

---

(1) (هُناك رواية أُخرىٰ لهذه الرِّواية، وهي أنَّ بيرسيفال ـ أثناء رحلته ـ واجه الملك الصَّيَّاد، الذي أخذه معه إلىٰ قلعتـه، وليلاً، أمر بمُرُور موكب من الخَدَم أمام بيرسيفال، وهُم يحملون تلك «الكَأس المُقَدَّسَة»، والملك كان يُـصاب بـالخَرَس في حُضُور «الكَأس المُقَدَّسَة». لدهشته؛ بارسيفال لم يستطع أنْ يطرح أيَّ سُؤال، وعلـم ـ فـيما بعـد ـ أنَّـه لـو طَـرَحَ أيَّ سُؤال، لكان الملك قد شُفي... المُترجم).

(2) (عاصمة إقليم أوب في شمبانيا، شمال شرق فرنسا. المُترجم).

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ الخُبراء الحديثون الذين يُوافقون بأنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» اللَّاحقة لا يبدو أنَّها اشتُقَّتْ ـ بشكل كُلِّيٍّ ـ من رواية كريشين، ولكنْ؛ يبدو أنَّها ـ أيضاً ـ أُخِذَتْ من مصدر آخر واحد علىٰ الأقلّ؛ المصدر الذي ـ بكُلِّ احتمال ـ سَبَقَ كريشين. وأثناء انتشارها، أصبحت قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» مُرتبطة بشكل أكثر صلة بالملك آرثر، الذي كان مُجرَّد شَخْصيَّة ثانويَّة في رواية كريشين. وأصبحت ـ أيضاً ـ مُرتبطة بالسَّيِّد المسيح.

في رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» العديدة التي تَلَتْ نُسخة كريشين، كان هُناك ثلاثة منها، أثبت أنَّها ذات أهمِّيَّة وصلة خاصَّة بأبحاثنا؛ أحدها، «**Estoire dou Saint Graal'Roman de I**»[1]، أُعِدَّ من قِبَل رُوبرت دُو بُورُون في وقت ما بين عامَيْ **1190** و **1199**. بشكل قابل للتَّبرير أم لا، رُوبرت ـ في أغلب الأحيان ـ يُصادق علىٰ جَعْل «الكَأس المُقَدَّسَة» رمزاً مسيحيَّاً بشكل مُحَدَّد. رُوبرت بنفسه يُصرِّح بأنَّه كان يحصل علىٰ معلوماته من مصدر سابق، ومصدر مُختلف تماماً عن كريشين. في تحدُّثه عن قصيدته، وخُصُوصاً عن السِّمة المسيحيَّة للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، لَمَّح إلىٰ «الكتاب العظيم»، والذي هُو من الأسرار التي اطَّلع عليها، والتي اعتمد عليها في قصيدته[2].

وهكذا، ليس من المُؤكَّد سواء رُوبرت بنفسه أضفىٰ السِّمة المسيحيَّة علىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة»، أم سواء شَخْص آخر قام بذلك قبله. تميل أكثر المصادر المُوثَّقة اليوم نحو الإمكانيَّة الثَّانية. علىٰ أيَّة حال؛ لا خلاف أنَّ رواية رُوبرت دُو بُولُون هي الأُولىٰ في طَرْح تاريخ «الكَأس المُقَدَّسَة». فهي تُوضِّح بأنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» كانت كَأس العشاء الأخير. بعد ذلك ـ رُبَّما ـ وصل ليدي يُوسُف من الرَّامة، الذي ملأه بالدَّم المُنقِذ، بعد أنْ أُزيح السَّيِّد المسيح عن الصَّليب، وأنَّ هذا الدَّم المُقَدَّس هُو الذي يمنح «الكَأس المُقَدَّسَة» إمكانيَّتها السِّحْرِيَّة.

---

(1) (رُومانسيَّة تاريخ «الكَأس المُقَدَّسَة». المُترجم).

(2) (يبدو بأنَّه ـ لرُبَّما ـ كان هُناك بعض الوثائق المُرتبطة بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، والتي كانت بمُتناول يدَيْ فيليب فلاندرز، والتي شكَّلت أساساً لرُومانسيَّات رُوبرت دُو بُورُون، وكريشين، كلَيْهما. يقول البرُوفيسُور لُوميس إنَّ المرء مُجبر علىٰ افتراض وُجُود مصدر مُشترك بين رُومانسيَّة «السَّعي» ورُومانسيَّة رُوبرت دُو بُورُون. يشعر بأنَّ رُوبرت دُو بُورُون كان يُخبر الحقيقة عندما أشار إلىٰ كتاب يتعلَّق بأسرار «الكَأس المُقَدَّسَة»، والذي منه حصل علىٰ مُعظم معلوماته. المُؤلِّفون).

ويُواصل رُوبرت ـ أنَّه بعد الصَّلْب ـ أصبحت عائلة يُوسُف هي المُوكَّلة علىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة». ولهذا السَّبب؛ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» لرُوبرت تتضمَّن مُغامرات وتقلُّبات هذه العائلة بالتَّحديد.

وهكذا؛ يُقال إنَّ غالاهيد (Galahad)[1] كان ابن يُوسُف الرَّامي، وأنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» بنفسها عبرت إلىٰ نسيب يُوسُف، برُونس «Brons»، الذي حمله ـ بدوره ـ إلىٰ إنجلترا، وأصبح الملك الصَّيَّاد. كما في قصيدة كريشين، بيرسيفال هُو «ابن السَّيِّدة الأرملة»، ولكنَّه ـ بالوقت نفسه ـ هُو حفيد الملك الصَّيَّاد (صيَّاد السَّمك).

وهكذا نُلاحظ أنَّ رواية رُوبرت عن قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» تنحرف بعدد من النَّواحي المُهمَّة عن تلك لدىٰ كريشين. في الرِّوايتَيْن كلتَيْهما؛ بيرسيفال هُو «ابن السَّيِّدة الأرملة»، ولكنْ؛ في رواية رُوبرت هُو حفيد الملك الصَّيَّاد، وليس ابن أخيه؛ وبذلك، يكون تعلُّقه ـ بشكل أكبر ـ بعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة». وبينما نجد أنَّ قصَّة كريشين مُبهمة في تاريخ أحداثها ـ في وقت ما أثناء العهد الآرثري ـ نجد أنَّ قصَّة رُوبرت دقيقة جدَّاً. بالنِّسبة لرُوبرت؛ قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» حصلت في إنجلترا، وليست مُعاصرة لآرثر، بل ليُوسُف الرَّامي.

هُناك رُومانسيَّة أُخرىٰ للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، والمُشابهة كثيراً لقصَّة رُوبرت. في الحقيقة؛ يبدو أنَّها اعتمدت علىٰ المصادر نفسها، ولكنَّ استخدامها لهذه المصادر كان مُختلفاً جدَّاً ـ وبشكل مُؤكَّد ـ أكثر إثارة.

إنَّ الرُّومانسيَّة المَعنيَّة معروفة باسم «بِرلِسفُوز» (Perlesvaus) أُعِدَّت ـ تقريباً ـ في الوقت نفسه كقصيدة رُوبرت، بين عامَيْ **1190** و **1212**، من قِبَل المُؤلِّف، الذي ـ علىٰ نقيض الأعراف آنذاك ـ فضَّل أنْ يبقىٰ مجهول الهُويَّة. إنَّ ذلك يبدو غريباً أنْ يتصرَّف كذلك ـ نَظَرَاً للمنزلة السَّامية التي كان يتمتَّع بها الشُّعراء آنذاك ـ ما لم يكن مُنتسباً إلىٰ نظام ما رهباني، أو عَسْكَري (مثلاً)، والذي كان سيُعيد تركيب مثل هذه الرُّومانسيَّات بشكل غير مُلائم،أو غير مُناسب.

---

(1) (الرَّجل الأكثر إخلاصاً في فُرسان الطَّاولة المُستديرة في الأُسطُورة الآرثريَّة، والذي نجح في مسعاه للـ«كَأس المُقَدَّسَة». المُترجم).

وفي الحقيقة؛ أهمِّيَّة الدَّليل الكتابي المُتعلِّق بـ«بِرلِسفُوز» تقترح بأنَّ الوضع كان كذلك.

طبقاً لخبر حديث واحد علىٰ الأقلِّ؛ رُبَّما «بِرلِسفُوز» ـ في الحقيقة ـ كُتِبَتْ من قِبَل أحد فُرسان الهَيكَل. وهُناك ـ بالتَّأكيد ـ دليل لدَعْم مثل هذا الاعتقاد. من المعروف ـ علىٰ سبيل المثال ـ أنَّ الفُرسان التِّيوتُونيِّيْن شجَّعوا، وضمُّوا، شُعراء مجهولين لصُفُوفهم، ورُبَّما كان الوضع ذاته حصل بالنِّسبة لفُرسان الهَيكَل. الأكثر من ذلك، مُؤلِّف «بِرلِسفُوز» يكشف ـ أثناء القصيدة ـ عن معرفة تفصيليَّة مُذهلة عن الحقائق القتاليَّة؛ عن الدُّرُوع، والعتاد، وعن الاستراتيجيَّة، والتّقنيَّات، والأسلحة، وتأثيراتها علىٰ اللَّحم البشري. الوصف التَّخطيطي للجُرُوح ـ علىٰ سبيل المثال ـ يبدو دليلاً علىٰ تجربة مُباشرة في ساحة المعركة؛ تجربة واقعيَّة غير معهودة، وغير مسبوقة، بأيِّ رُومانسيَّات أُخرىٰ للـ«كَأس المُقَدَّسَة».

إنْ كانت قصَّة «بِرلِسفُوز» لم تُعدَّ ـ في الحقيقة ـ من قِبَل نظام الهَيكَل، فإنَّها ـ علىٰ الرّغم من هذا ـ تُزوِّد قاعدة راسخة لرَبْط فُرسان الهَيكَل بـ«الكَأس المُقَدَّسَة».

بالرّغم من أنَّ النِّظام لم يُذكَر بالاسم، ظُهُوره في القصيدة يبدو أنَّه كان واضحاً. هكذا، بيرسيفال أثناء رحلاته يُصادف قلعة، هذه القلعة لا تمتلك «الكَأس المُقَدَّسَة»، لكنَّه يحضر اجتماعاً سرِّيّاً من «المُطَّلعين»، الذين عندهم معرفة كافية بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». وهُنا؛ يتمُّ استقبال بيرسيفال من قِبَل اثنَيْن من «السَّادة»؛ الذين يُصفِّقون له، وينضمُّ إليهم ثلاثة وثلاثون رجلاً آخر. «كانوا يلفُّون أنفسهم بملابس بيضاء، ولا يُوجد واحد منهم إلَّا ويضع صليباً أحمر في وسط صدره، وبدوا بأنَّهم ـ جميعاً ـ مُسنِّين». أحد هؤلاء «السَّادة» الغامضين يُصرِّح بأنَّه رأىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة» شَخصيّاً؛ ذلك ممنوح ـ فقط ـ لنُخبة من البشر، وهُو يُصرِّح ـ أيضاً ـ بأنَّه علىٰ علْم بنَسَب بيرسيفال.

مثل قصائد كريشين، ورُوبرت، «بِرلِسفُوز» تضع ثقلاً هائلاً علىٰ النَّسَب. في نقاط عديدة؛ بيرسيفال موصوف بأنَّه «الأكثر قَدَاسَة». وفي حالات أُخرىٰ؛ منصوص ـ بشكل واضح ـ أنَّ بيرسيفال «كان من نَسَب يُوسُف الرَّامي»، وأنَّ «يُوسُف هذا كان عمَّ أُمِّ بيرسيفال، ذلك كان جُنديَّ بيلاطُس البُنْطي لسبع سنوات».

علىٰ الرّغم من هذا، «بِرلِسفُوز» لم تُوضَع في عهد يُوسُف. بالعكس، حدثت - كقصَّة كريشين - في عهد آرثر.

تاريخ الأحداث مخلوط لدرجة أكبر في حقيقة أنَّ الأرض المُقَدَّسَة كانت - آنذاك - في أيدي «اللّا نصرانيِّيْن»؛ وذلك لم يكن إلّا بعد قرنَيْن - تقريباً - من عهد آرثر، وبحقيقة أنَّ الأرض المُقَدَّسَة - علىٰ ما يبدو - تمثَّلت بكاميلُوت[1].

لدرجة أعظم من قصيدتَيْ كريشين، أو رُوبرت، قصيدة «بِرلِسفُوز» سِحْرِيَّة بطبيعتها. بالإضافة إلىٰ معرفته بساحة المعركة، أبدىٰ المُؤلِّف المجهول معرفته - أيضاً - باستحضار الأرواح، وبالرُّقيات، وذلك مُفاجِئ جدّاً آنذاك.

هُناك - أيضاً - العديد من الإشارات الخيميائيَّة؛ مثلاً، إشارات إلىٰ رجلَيْن «صُنِعَا من النُّحاس لمهنة التَّخاطب مع الأرواح». والبعض من الإشارات السِّحْرِيَّة والخيميائيَّة تُعيد أصداء اللُّغز الذي يُحيط بفُرسان الهَيكَل. وهكذا، أحد «السَّادة» من الجماعة المُلتفِّين بالأبيض، والشَّبيهين بفُرسان الهَيكَل يقول لبيرسيفال، «هُناك رُؤُوس خُتِمَتْ بالفضَّة، ورُؤُوس خُتِمَتْ بالرَّصاص، وهُناك أجساد هذه الرُّؤُوس؛ أُخبرك بأنَّكَ يجب أنْ تجعل رأسَيْ الملك والملكة كُلَيْهما يأتيان إلىٰ هُناك».

إنْ كانت قصَّة «بِرلِسفُوز» تُكثر من التَّلميحات السِّحْرِيَّة، فهي تُكثر - أيضاً - من التَّلميحات الأُخرَىٰ الهَرْطَقيَّة، و/ أو الوَثَنيَّة.

مرَّة ثانية؛ يتمُّ تحديد بيرسيفال بالكُنية الثّنويَّة «ابن السَّيِّدة الأرملة». هُناك إشارات إلىٰ طُقُوس مُقرَّة لقُربان الملك، والتي هي مُتعارضة - بشدَّة - مع قصيدة كريشين المزعومة. هُناك إشارات إلىٰ شَيٍّ والتهام الأطفال؛ وهي الجريمة التي اتُّهم بها فُرسان الهَيكَل بشكل عامٍّ. وفي نُقطة ما؛ هُناك مَنْسَك مُفرَد، الذي يستدعي - ثانية - ذكريات مُحاكمات نظام الهَيكَل. عند صليب أحمر نُصِبَ في غابة ما، هُناك وحش أبيض جميل ذُو طبيعة غير مُحَدَّدة، تُمزِّقه كلاب الصَّيد. بينما كان بيرسيفال يُراقب، فارس وفتاة يظهرا بأطباق ذهبيَّة، ويجمعون أجزاء اللَّحم المُشوَّهة، وبعد أنْ قبَّلا الصَّليب، اختفيا بين الأشجار. بعد ذلك؛ بيرسيفال بنفسه يسجد أمام الصَّليب، ويُقبِّله:

(1) (مدينة الملك آرثر. المُترجم).

وهُناك هبَّت عليه رائحة زكيَّة من الصَّليب، ومن المكان، كانت زكيَّة لدرجة أنَّه لا يُمكن مُقارنتها بأيِّ شيء. نَظَرَ، ورأىٰ كَاهنَيْن قادمَيْن من الغابة، كُلّ منهما يجري؛ والأوَّل ناداه: «أيُّها السَّيْر الفارس، تَنَحَّ بعيداً عن الصَّليب، لا حقَّ لكَ بأنْ تقترب منه»:

بيرسيفال ابتعد، والكَاهن انحنىٰ أمام الصَّليب، ومجَّده، وانحنىٰ للأسفل، وقبَّله لأكثر من مرَّة، وأبدىٰ المُتعة الأكبر في الدُّنيا. الكَاهن الآخر تبعه، وَجَلَبَ قضيباً عظيماً، وَدَفَعَ الكَاهن الأوَّل جانباً بالقُوَّة، وَضَرَبَ الصَّليبَ بالقضيب في كُلِّ جُزء منه، وبكىٰ بشكل مُؤلم. بيرسيفال نَظَرَ إليه باستغراب شديد، وقال له: «سيِّدي؛ يبدو ـ هُنا ـ بأنَّكَ لستَ كَاهناً! ولهذا السَّبب أَلستَ في حياء شديد؟!». قال الكَاهن: «أيُّها السَّيْر، لا يَعْنيكَ ما نقوم به مُطلقاً، ولا يحِقُّ لكَ أنْ تعرف مصدرنا!» لو أنَّه لم يكن كَاهناً، كان بيرسيفال غضب جدّاً منه، لكنَّه لم يعتزم أنْ يُلحق به أيَّ أذىٰ.

سُوء كهذا للتَّعامل مع الصَّليب يستدعي أصداءً مُتميِّزة للاتِّهامات المُوجَّهة ضدَّ فُرسان الهَيكَل. ولكنْ؛ ليس لفُرسان الهَيكَل وحدهم، فذلك ـ لرُبَّما، أيضاً ـ يعكس أصداء عن الفِكْر الثّنوي، أو الغنُوسطي ـ الفِكْر الكَاثَاري، علىٰ سبيل المثال، الذي أنكر الصَّليب أيضاً.

في «بِرلِسفُوز»، ذلك الفِكْر الثّنوي، أو الغنُوسطي المُعقَّد، يمتدُّ ـ بشكل ما ـ إلىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة» بنفسها.

بالنِّسبة لقصَّة كريشين، «الكَأس المُقَدَّسَة» كانت شيئاً غير مُحَدَّد، مصنوعاً من الذَّهَب، ومُغطَّىٰ بالمُجوهرات. وبالنِّسبة لقصَّة رُوبرت دُو بُورُون؛ ميَّزت الكَأسَ بأنَّها التي استُعمِلَتْ في العشاء الأخير، ومن ثمَّ؛ استُخدِمَتْ لجَمْع دم السَّيِّد المسيح.

في «بِرلِسفُوز»، علىٰ أيَّة حال، «الكَأس المُقَدَّسَة» اتَّخذت أبعاداً أكثر أهمِّيَّة، وإثارة. من النَّاحية الأُولىٰ، السَّيْر غاواين حُذِّرَ من قِبَل الكَاهن، «بأنَّه لا ينبغي أنْ يكتشف أسرار السَّيِّد المسيح، وهُم ـ أيضاً ـ ينبغي عليهم أنْ يلتزموا بحفْظ ذلك الأمر سرّاً». إذنْ؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» تتضمَّن سرّاً من نوع ما يتعلَّق بالسَّيِّد المسيح؛ وطبيعة هذا السِّرّ مُؤتمنة إلىٰ جماعة مُختارة.

عندما غاواين ـ في النِّهاية ـ رأىٰ «الكَـأس المُقَدَّسَـة»، «بـدا بالنِّسبة لـه أنَّـه شـاهد في وسـط «الكَأس المُقَدَّسَة» صُورة طفل... وَنَظَرَ للأعلىٰ، فبدت له الكَأس بشَخْصِها، وشاهد فوق ـ كما يعتقـد ـ ملك مُتوَّجاً، مُثبَّتاً علىٰ صليب». وفي وقت ما لاحقاً:

«الكَأس المُقَدَّسَة» ظهرت عند القُربان المُقَدَّس للجماعة بخمسة أساليب مُتعـدِّدة، لا يجـب أنْ يُخبَرَ أيٌّ منها؛ لأنَّ الشَّيء السِّرِّيَّ للقُربان المُقَدَّس لا يجب أنْ يُخبَرَ بشكل عَلَني، إلَّا للَّـذي إليـه منحـه الله. الملك آرثر شهد كُلَّ التَّبدُّلات، التَّبدُّل الأخير فيها كان التَّبدُّل إلىٰ كَأس القُربان[1].

باختصار؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» في قصيدة «بِرلِسفُوز» تشمل سلسلة مُتغيِّرة ومُتبدِّلة من الصُّور، أو الرُّؤىٰ؛ الأُولىٰ هي صُورة الملك المُتوَّج المصلوب، الثَّانية هي الطِّفل، الثَّالثة هي رجـل يلـبس تاجـاً من الأشواك، وينزف من جبهته، وَقَدَمَيْه، وَكَفَّيْه، وَجَنْبَيْه، والصُّورة الرَّابعة لم تُوضَّح، والخامسة هـي كَأس القُربان. في كُلِّ مُناسبة، التَّجلِّي يُرافقه عبير، ونُور، عظيمان.

من هذه الرِّواية، «الكَأس المُقَدَّسَة» في «بِرلِسفُوز» يبدو بأنَّها عدَّة أشياء معاً، أو الـشَّيء الـذي يُمكن أنْ يُفسَّر بعدَّة مُستويات مُختلفة: في المُستوىٰ الدُّنيوي هي ـ لرُبَّما ـ تكون مادَّة من نوع مـا ؛ مثـل كَأس، أو طاسة، أو كَأس القُربـان. هـي ـ أيـضاً، بـبعض الاسـتعارة المجازيَّـة ـ يبـدو بأنَّهـا نَـسَب، أو ـ رُبَّما ـ بعض الأفراد الذين يرتبطون بهذا النَّسَب. ومن الواضح تماماً أنَّ «الكَـأس المُقَدَّسَـة» يبـدو ـ أيضاً ـ بأنَّها تجربة من نوع ما، من المُحتمل جدَّاً أنَّها قد تكون إنارة غنُوسطيَّة كتلـك التـي يُمجِّـدها الكَاثَار، وغيرهم من الطَّوائف الأُخرَىٰ الثّنويَّة آنذاك.

---

(1)(كَأس ذهبيَّة، أو فضِّيَّة، تُستعمَل في الكَنيسَة لتقديم النَّبيذ بشكل مُشترك في العـشاء الرَّبَّـاني، أو في القدَّاس. المُترجم).

قصَّة وولفرام فُون إسكِنباش

من بين كُلِّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» الأكثر شُهرَة، والأكثر أهمِّيَّـة فنِّيـاً، هـي رُومانـسيَّة بارزيفال، أُعِدَّتْ في وقت ما بين عامَيْ 1195 و 1216. مُؤلِّفها هُو وولفرام فُون إسكِنباش، فـارس من أصل بافاري.[1]

في بادئ الأمر؛ اعتقدنا بأنَّ هذا قد يُبعده عن موضوعه، ويجعـل الرِّوايـة أقـلّ مـصداقيَّة مـن الرِّوايات الأُخْرَىٰ المُختلفة. قريبـاً ـ عـلىٰ أيَّـة حـال ـ اسـتنتجْنَا بأنَّـه إنْ كـان هُنـاك روايـة تتحـدَّث ـ بشكل رَسْمي ـ عن «الكَأس المُقَدَّسَة»، هي رواية وولفرام.

في بداية رواية بارزيفال؛ وولفرام يُصرِّح ـ بجُرأة ـ بـأنَّ روايـة كريـشين عـن قـصَّة «الكَـأس المُقَدَّسَة» هي خاطئة، بينما روايته دقيقة؛ لأنَّه يستند علىٰ معلومات مُميَّزة.

هذه المعلومات ـ كما أوضح لاحقاً ـ حصل عليها من شَـخْص يُـدعَىٰ كيُـوت ذُو برُوفـانس؛ الذي يُفترَض أنَّه استلمها تباعاً من شَخْص يُدعَىٰ فليغيتانس. ذلك يستحقُّ اقتباس كلمات وولفـرام بالكامل:

أيُّ شَخْص ممَّنْ سألوني من قبلُ عن «الكَأس المُقَدَّسَة»، وانتقدني لأنَّنـي لم أُخـبره كـان مُخطئـاً جدَّاً. كيُوت طلب منِّي عدم كشف ذلك؛ لأنَّ المُغامرة أمرته بأنْ لا يُفكِّر بها حتَّىٰ تقـوم هـي بنفـسها بطَلَب الإفصاح، وبعد ذلك ـ بالطَّبع ـ علىٰ المرء أنْ يتحدَّث عنها.

كيُوت، السَّيِّد المشهور، وجد في تُوليدُو (طُلَيْطُلَة)، المصدر الأوَّل لهـذه المُغـامرة، الـذي كـان مَرْمِيَّاً ومكتوباً بطريقة وَثَنيَّة. كان عليه ـ أوَّلاً ـ أنْ يتعلَّم الألف باء، ولكنْ؛ بدُون فنِّ الشَّعوذة...

فليغيتانس الوَثَني، كان ذائع الصِّيت بالتَّعليم. عالم الطَّبيعة هـذا تحـدَّر مـن سُـلَيْمان ووُلـد في عائلة كانت لفترة طويلة إسرائيليَّة، إلىٰ أنْ أصبحت مَعْمُودِيَّتنا دِرْعَنَا الواقي من نار جهنَّم.

كتب مُغامرة «الكَأس المُقَدَّسَة». من طرف أبيه، فليغيتانس كان وَثَنيَّاً، كان يعبد العجلَ.

---

(1) (بافاريا ولاية في جنوب شرق ألمانيا. المُترجم).

فليغيتانس الوَثَني، يُمكنه أنْ يُخبرنا كيف وُضِعَتْ كُلُّ النُّجُوم، وكيف ارتفعت ثانية... بتقـدُّم دوران النُّجُوم ترتبط إدارة شُؤُون وقَدَر الإنسان. فليغيتانس الوَثَني، رأىٰ بأُمِّ عينَيه في الأبراج أشـياء، كان يخجل من التَّحدُّث عنها، ألغازاً خَفِيَّةً. قال بأنَّه كان هُناك شيء ما يُدعَىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة»، ذلك الشَّيء الذي قرأ ـ بشكل واضح ـ في الأبراج. جَمْعٌ من الملائكة تركوه علىٰ الأرض.

مُنْذُ ذلك الحين، رجال مُعمَّدون كانت مهمَّتهم حراسته، ونتيجة لضبط النَّفْس العفيـف هـذا من قِبَل أُولئك الذين دَعُوا إلىٰ خدمة «الكَأس المُقَدَّسَة»، هُم يُدعَون ـ دائماً ـ بالرِّجال النُّبلاء. لـذلك؛ كَتَبَ فليغيتانس عن هذه الأشياء.

كيُوت، السَّيِّد الحكيم، بدأ يتتبَّع هذه الحكاية في الكُتُب اللَّاتينيَّة، لمعرفة إنْ كـان هُنـاك ـ علىٰ الإطلاق ـ أشخاص مُكرَّسون، ونقيُّون، ويستحقُّون رعاية «الكَأس المُقَدَّسَة».

قرأ سجلَّات الأراضي، في بريطانيا، وفي أماكن أُخرىٰ، في فرنسا، وفي ايرلندا، وفي أنجاو وَجَدَ الحكاية. هُناك قرأ القصَّة الحقيقيَّة لمازادان، والسِّجلُّ الدقيق لعائلته كُلِّها كُتِبَ هُناك.

نَظَرَاً للموضوعات العديدة التي تستجدي التَّعليق في هذه الفقـرة، مـن المُهـمِّ ـ علىٰ الأقلِّ ـ مُلاحظة أربعة منها؛ أوَّلاً، أنَّ تلك قصَّة عن «الكَأس المُقَدَّسَة»، تتضمَّن ـ علىٰ ما يبدو ـ عائلة شَخْص يُدعَىٰ مازادان، ثانياً، آل أنجاو ـ بطريقة ما ـ ذوو صلة أساسيَّة، ثالثاً، أنَّ النُّسخة الأصليَّة للقصَّة يبدو أنَّها تسرَّبتْ إلىٰ أُورُوبا الغربيَّة، إلىٰ بيرنيه، من إسبانيا الإسـلاميَّة؛ رَغْـمٌ معقـول جـدَّاً نَظَـرَاً للمنزلـة الرَّفيعة، التي كانت تتمتَّع بها تُوليدُو[1] كمركز للدِّراسات الباطنيَّة، لليهُوديَّة والإسلاميَّة كلَيْهما.

لكنَّ العُنصُر الأكثر تمييزاً في الفقرة المُقتبَسَة هي قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة»، كما يُوضِّـح وولفـرام مصدرها، يبدو أنَّها ـ في النِّهاية ـ من أصل يهُودي. إنْ كانت «الكَأس المُقَدَّسَة» لُغزاً مـسيحيَّاً مُرهبـاً، فلماذا يجب أنْ يُنقَل سرُّها من قِبَل المُطَّلعين اليهُود؟! لذلك السَّبب، لماذا كان للكُتَّاب اليهُود الوُصُول لمادَّة مسيحيَّة بشكل مُحَدَّد، والتي المسيحيَّة بنفسها كانت غافلة عنها؟!

(1) (تُوليدُو(طُلَيْطُلَة) مدينة في وسط إسبانيا. المُترجم).

أمضىٰ العُلماء وقتاً طويلاً، وطاقة كبيرة، يُناقشون سواء أ كان كيُوت وفليغيتانس شَخْصيَّتَيْن حقيقيَّتَيْن، أم هُما مُجرَّد خيال.

في الحقيقة؛ هُويَّة كيُوت، كما تعلَّمْنَا من دراستنا لفُرسان الهَيكَل، يُمكن أنْ تُبرهَنَ بشكل راسخ. كيُوت دُو برُوفانس يبدو ـ رُبَّما بشكل مُؤكَّد ـ بأنَّه غيُوت دُو برُوفانس؛ وهُو شاعر مُتجوِّل، وراهب، وناطق لفُرسان الهَيكَل، وعاش في برُوفانس، وهُو الذي كَتَبَ أغاني عن الحُبِّ، وهاجم الكَنيسَةَ، وألَّفَ أُنشُودة الشُّكْر، التي تمدح الهَيكَلَ، وألَّفَ الكثير من الأشعار الهجائيَّة. غيُوت معروف أنَّه زار ماين في ألمانيا عام 1184. المُناسبة كانت مهرجان الفُرُوسيَّة في عيد العنصرة[1]، والذي فيه قام الإمبراطُور الرُّوماني المُقَدَّس فريدريك بَاربَارُوسَّا بمَنْح الفُرُوسيَّة لأبنائه. كأمر طبيعي؛ حضر المراسم العديد من الشُّعراء والشُّعراء المُتجوِّلين من جميع أنحاء المسيحيَّة.

كفارس في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة، وولفرام ـ بالتَّأكيد ـ حَضَرَ، ومن المعقول جدَّاً افتراض أنَّه وغيُوت اجتمعا معاً. الرِّجال المُتعلِّمون لم يكونوا شائعين جدَّاً آنذاك. حتماً هُما اجتمعا معاً، وأنَّهما بحثا عن بعضهما البعض، وتعرَّفا إلىٰ بعضهما البعض؛ ورُبَّما غيُوت وَجَدَ في وولفرام المُيُولَ المُتشابهةَ، والذي ـ رُبَّما ـ عهد إليه معلومات مُعيَّنة، حتَّىٰ وإنْ كانت بشكل رَمْزي فحسب. وإنْ سمح غيُوت لكيُوت بأنْ يكون حقيقيَّاً، فمن المعقول ـ علىٰ الأقلِّ ـ افتراض أنَّ فليغيتانس كان حقيقيَّاً أيضاً. إنْ لم يكن كذلك، فلابُدَّ أنَّ وولفرام و/ أو غيُوت كان لديهما هدف خاصٌّ في خَلْقه، وفي إعطائه النَّسَبَ والخَلْفيَّة المُتميِّزة التي قيل بأنَّه يمتلكها.

بالإضافة إلىٰ قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة»، وولفرام ـ لرُبَّما ـ حصل ـ أيضاً ـ من غيُوت علىٰ اهتمام شديد بفُرسان الهَيكَل. في أيِّ حال من الأحوال؛ من المعروف بأنَّ وولفرام كان لديه اهتمامات كهذه، حتَّىٰ إنَّه ـ مثل غيُوت ـ قام بالحَجِّ إلىٰ الأرض المُقَدَّسَة؛ حيثُ كان بإمكانه أنْ يُشاهد فُرسان الهَيكَل علىٰ رأس عملهم مُباشرة. وفي رواية «بارزيفال» يُؤكِّد بأنَّ حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة»، وعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، هُم فُرسان الهَيكَل.

(1) (الأحد السَّابع بعد عيد الفصح؛ لإحياء هُبُوط الرُّوح القُدُس علىٰ الحواريِّيْن. المُترجم).

هذا ـ بالطَّبع ـ قد يكون تأريخاً غير مُتقن للأحداث، ومُفارقة تاريخيَّة مُتعجرفة لحُرِّيَّة العمل الشِّعريَّة؛ كما هُو الحال في البعض من رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» الأُخْرَىٰ. لكنَّ وولفرام حذر بشكل أكبر بكثير من الكُتَّاب الآخرين في عهده فيما يتعلَّق بمثل هذه الأشياء.

علاوةً علىٰ ذلك؛ وَرَدَتْ هُناك تلميحات إلىٰ نظام الهَيكَل في قصيدة «بِرلِسفُوز».

هل من المُمكن أنْ يكون وولفرام ومُؤلِّف «بِرلِسفُوز» كلاهما مُذنبَيْن بالمُفارقة التَّاريخيَّة السَّاطعة نفسها ؟!

رُبَّما. لكنَّه من المُحتمل ـ أيضاً ـ أنَّ هُناك دلالة علىٰ شيء ما عبر هذه الارتباطات المُتفاخرة لفُرسان الهَيكَل بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». إنْ كان فُرسان الهَيكَل ـ في الحقيقة ـ هُم حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة»، فهناك نتيجة صارخة؛ وهي أنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تُوجد في الأوقات الآرثريَّة فحسب، بل وُجِدَت ـ أيضاً ـ أثناء الحملات الصَّليبيَّة، في الوقت الذي أُلِّفَتْ عليه الرُّومانسيَّات.

بتقديمها فُرسان الهَيكَل، وولفرام ومُؤلِّف «بِرلِسفُوز» كلاهما قد يقترحان بأنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تكن ـ فقط ـ شيئاً في الماضي، ولكنْ ـ أيضاً ـ هُو الشَّيء الذي لهم صلة مُعاصرة به.

وبالتَّالي؛ إنَّ خلفيَّة قصيدة وولفرام هي ـ بطريقة ما غامضة ـ مُهمَّة كأهمِّيَّة نصّ القصيدة بذاته.

في الحقيقة؛ دور فُرسان الهَيكَل، كهُويَّة كيُوت وفليغيتانس كلَيْهما، يبدو بأنَّه حاسم؛ وهذه العوامل ـ لرُبَّما ـ تحمل الحَلَّ الكامل للُّغز الذي يُحيط بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». لسُوء الحظِّ؛ نصُّ بارزيفال قدَّم القليل لحَلِّ هذه الأسئلة، لكنَّه قدَّم عدداً لا بأس به من الأسئلة الأُخْرَىٰ.

في المقام الأوَّل، وولفرام لا يزعم ـ فقط ـ بأنَّ نُسخته من قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ بالمُقارنة مع كريشين ـ هي الصَّحيحة، بل يزعم ـ أيضاً ـ بأنَّ رواية كريشين مُجرَّد خُرافة خياليَّة، بينما روايته هي ـ في الحقيقة ـ «وثيقة معرفة».

بكلمة أُخرىٰ، كما يذكر وولفرام بشكل صريح تماماً، هُناك في لُغز «الكَأس المُقَدَّسَة» أكثر ممَّا هُو ظاهر. وهُو أوضح الأمر، بالإشارات العديدة في كافَّة أنحاء قصيدته، أنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة»

ليست مُجرَّد مادَّة خياليَّة لا مُبرِّر لها، بل هي وسائل تُخفي شيئاً ما ذا نتيجة هائلة. يُعلن مـراراً وتكـراراً لجُمهُوره أنْ يقرؤوا ما بين السُّطُور، فقد أسقط ـ هُنـا، وهُنـاك ـ تلميحـات إيحائيَّـة. بالوقـت نفسه؛ يُكرِّر ـ بشكل ثابت ـ ضرورة التَّكتُّم علىٰ أنَّه (لا يُمكن لأيِّ رجل أنْ يحـصل ـ أبـداً ـ عـلىٰ «الكَـأس المُقدَّسَة» ما لم يكن معروفاً في الجنَّة، وأنْ يكون مُسمَّىٰ بالاسم للـ«كَـأس المُقدَّسَـة»)، وأنَّ («الكَـأس المُقدَّسَة» ـ بشكل مجهول ـ محفوظة لأُولئك الذين دُعوا بالاسم... لجماعة الكَأس المُقدَّسَة»).

وولفرام دقيق ومُراوغ في تحديد «الكَأس المُقدَّسَة». عندما ظهر لأوَّل مرَّة، عند زيارة بارزيفال لقلعة الملك الصَّيَّاد، ليس هُناك إشارة حقيقيَّة لما هي. يبدو ـ علىٰ أيَّة حال ـ أنَّه يشترك مع كريـشين في الوَصْف المُبهَم لذلك الشَّيء:

هي (ملكة عائلة «الكَأس المُقدَّسَة») كُسِيَتْ بلباس من الحرير العَرَبيّ. عـلىٰ الأخـضر الـداَّكن الأرمشدي حَمَلَتْ كمال الجنَّة، أصلاً، وفرعاً. ذلك كان شيئاً يُدعَىٰ «الكَأس المُقدَّسَة»، التي تفوق كُـلَّ الكمال الدُّنيوي. كان اسمها (Repanse de Schoye)[1]، التي سُمِحَ لها بـأنْ تكـون حاملـة «الكَـأس المُقدَّسَة». هكذا كانت طبيعة «الكَأس المُقدَّسَة»؛ حيثُ إنَّ المرأة المُخوَّلة بحراستها كان لابُدَّ أنْ تحتفظ بطهارتها، وأنْ تهجر الزِّيف كُلَّه.

من بين الأشياء الأُخرَىٰ، «الكَأس المُقدَّسَـة» ــ في هـذه النُّقطـة ـ يبـدو بأنَّهـا قرنـت الـوَفْرَة، أو الخصب[2] السِّحْري:

مئة ملاك، هكذا أُمِرُوا، أخذوا الخُبزَ بشكل مُوقَّر، بمناديل بيضاء من أمام «الكَأس المُقدَّسَة»، تراجعوا بشكل جماعي، واقتسموا الخُبز، ومرَّروه عبر كُلِّ الطَّاولات. أُخْبِرْتُ، وأنا أُخبركم ـ أيضاً ـ ولكنْ؛ علىٰ قَسَمِكُم، ليس قَسَمِي؛ هذا يعني إنْ كُنتُ أخدعُكُم، فهذا يعني أنَّنا ـ جميعاً ـ كـذَّابون؛ أنَّ كُلَّ ما وصلتْ إليه يدا الإنسان كان وَجَدَهُ جاهزاً، أمام «الكَـأس المُقدَّسَـة»، طعامـاً دافئـاً، أو طعامـاً بارداً، أطباقاً جديدة، أو قديمة، لحماً داجناً، أو لحم طرائد (meat tame or game). الكثير سيقولون:

---

(1) (معنىٰ هذه العبارة سيرد في الفقرات القادمة. المُترجم).

(2) (في الأساطير الإغريقيَّة، هُو أحد قرنَيْ العنزة أمالثيا، الذي جعله زيُـوس يمـلأ نفسه بـشكل غـير مُحَـدَّد بالطَّعـام والشَّراب. في الرُّسُومات، قَرْنُ الخصب يُصوَّر علىٰ هيئة قِدْر كبير علىٰ شكل قَرْن تطفح بالفاكهة والزُّهُور. المُترجم).

«لم يكن هُناك أيُّ شيء كذلك». لكنَّهم سيكونون خاطئين باحتجاجهم الغاضب، كان للـ«كَأس المُقَدَّسَة» فاكهة مُباركة، غزيرة بحلاوة العالم، لدرجة أنَّ مسرَّاته كانت تُشبه كثيراً التي حُكي لنا عن وُجُودها في مملكة السَّماء.

كُلُّ هذا هُو ـ نوعاً ما ـ دنُيويٌّ بطريقته، حتَّىٰ المُبتذل، و«الكَأس المُقَدَّسَة» يبدو أنَّها قضيَّة حميدة بما فيه الكافية. ولكنْ؛ لاحقاً، عندما يشرح عمٌّ بارزيفال النَّاسك عن «الكَأس المُقَدَّسَة»، أصبح الأمر ـ بالتَّأكيد ـ أكثر قُوَّة، وتأثيراً. بعد خُطبة طويلة، والتي تضمَّنت ـ بشكل صارخ ـ بحاراً من الفِكْر الغنُوسطي، يصف النَّاسك «الكَأس المُقَدَّسَة» كالتَّالي: هكذا:

أعرف ـ بشكل جيِّد ـ أنَّ العديد من الفُرسان الشُّجعان يسكنون مع «الكَأس المُقَدَّسَة» في مُونسيلفيسك. دائماً عندما يخرجون بخُيُولهم، كما يفعلون دائماً، يبحثون عن المُغامرة. فُرسان الهَيكَل هؤلاء يقومون بذلك من أجل ذُنُوبهم، سواء جائزتهم كانت الهزيمة، أو النَّصر. مجموعة من الصَّناديد تعيش هُناك، وأنا سأُخبركم كيف هُم ثابتون. إنَّهم يعيشون من حُجرة من أطهر الأنواع. إنْ كُنتُم لا تعرفونه، سيتمُّ إعلامكم باسمه هُنا. إنَّه يُدعَىٰ «lapsit exillis». بقُوَّة ذلك الحجر يحترق طائر العنقاء[1] كُلِّيَّاً، لكنَّ الرَّماد يُعطيه الحياة ثانية. هكذا يطرح، ويُغيِّر، طائر العنقاء ريشه علىٰ الدَّوام، والذي ـ بعدئذ ـ أصبح مُشرقاً ومُشعَّاً بالرَّوعة نفسها التي كان عليها. لم يكن هُناك ـ قطُّ ـ إنسان مريض جدَّاً، ونظر في يوم ما إلىٰ ذلك الحجر، فإنَّه لن يموت في الأُسْبُوع الذي يلي ذلك، وفي نظرات هُو لن يخبو. سيبقىٰ منظره ـ سواء كان النَّاظر فتاة، أم رجلاً ـ كما كان في اليوم الذي رأىٰ فيه الحجر، تماماً كالوقت الذي بدأت فيه أفضل سنوات حياته، وبالتَّالي؛ سيرىٰ الحجر لمئتَيْ عام، هُو لن يتغيَّر، ناهيكَ عن أنَّ شَعْرَهُ ـ لرُبَّما ـ قد أصبح أشيب. قُوَّة مُذهلة يمنح الحجر للرَّجل، لدرجة أنَّ العَظْمَ واللَّحْمَ يتحوَّلان ـ في الحال ـ إلىٰ الشَّباب ثانية. إنَّ تلك الحجرة تُدعَىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة».

إذنْ؛ طبقاً لوولفرام؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» هي حجر من نوع ما. ولكنَّ تعريفاً كهذا للـ«كَأس المُقَدَّس» هُو أكثر حَيْرة منه وُضُوحاً. العُلماء اقترحوا عدداً من التَّفسيرات للعبارة «lapsit exillis»،

(1) (الفُونيكْس؛ العنقاء: طائر خُرافي زَعَمَ قُدماء المصريِّين أنَّه يُعمِّر خمسة قُرُون، أو ستَّة، وبعد أنْ يحرق نفسه ينبعث من رماده وهُو أتمُّ ما يكون شباباً وجمالاً. المُترجم).

وجميعها ـ تقريباً ـ معقولة. «Lapsit exillis» قد تكون تحريفاً لعبارة «lapis ex caelis» ـ «حجر من السَّماوات». لرُبَّما تكون ـ أيضاً ـ يكون تحريفاً لعبارة «lapsit ex caelis» ـ «سقط من السَّماوات»؛ أو «– lapis lapsus ex caelus» «حجر ساقط من السَّماء»؛ أو ،أخيراً، «lapis elixir» ـ «حجر الفلاسفة» المُذهل في علم الخيمياء. بالتَّأكيد؛ الفقرة المُقتبَسَة، كَكُلِّ قصيدة وولفرام عن ذلك الموضوع، مُحمَّلة بالرَّمْزيَّة الخيميائيَّة.

إنَّ العنقاء ـ علىٰ سبيل المثال ـ هي اختصار خيميائي يدلُّ علىٰ الإحياء، أو الانبعاث، و ـ أيضاً ـ في رَمْزيَّة القُرُون الوُسْطَىٰ، هُو رمز للسَّيِّد المسيح المُحتضر، والمُنبعث. إذا كان العنقاء ـ في الحقيقة ـ هي ـ بطريقة ما ـ تجسيد للسَّيِّد المسيح، فإنَّ وولفرام يربط ـ ضمنيَّاً ـ بين السَّيِّد المسيح، والحجر. مثل هذا الرَّبْط ـ بالطَّبع ـ هُو استثنائيٌّ بشكل فريد. هُناك بيتر (بيير أو «الحجر» بالفرنسيَّة)، وهُو «الحجر»، أو «الصَّخرة» التي عليها يُؤسِّس السَّيِّدُ المسيحُ كَنيسَتَهُ. وكما اكتشفْنَا، السَّيِّدُ المسيحُ، في العهد الجديد، يُساوي نفسه ـ بشكل واضح ـ بـ«حجر الأساس الذي أُهمِلَ من قِبَل البُناة» ـ حجر أساس الهَيكَل، صخرة صهيُون. لأنَّه كان قد «أُسِّس» علىٰ هذه الصَّخرة، يُفترَض أنَّه يُوجد هُناك تقليد مَلَكي تحدَّر من غُودفرُوي دُو بُولوين مُشابه للسُّلالات الحاكمة في أُورُوبا.

في الفقرة التي تلي مُباشرة الفقرة التي اقتُبِسَتْ يربط وولفرام «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ بالتَّحديد ـ مع الصَّلْب، ويربط رمز الحمامة بمَرْيَم المَجْدَليَّة.

في هذا اليوم بالذَّات، تأتي إليه (إلىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة») الرِّسالة التي تنبسط فيها قُوَّته العُظْمَىٰ. اليوم هُو يوم الجُمعة العظيمة، وهُم ينتظرون هُناك حمامة، تُرفرف هابطة من السَّماء. تجلب معها رُقاقة صغيرة من خُبز فطير[1]، وتتركها علىٰ الحجر. ثُمَّ تُشرق باللَّون الأبيض، الحمامة ترتفع إلىٰ السَّماء ثانية. دائماً في يوم الجُمعة العظيمة تجلب إلىٰ الحجر ما أنا أخبرتُكُم به للتَّوِّ. ومن ذلك يُنتِجُ الحجرُ الطَّيِّبات من الشَّراب والطَّعام، الذي علىٰ وجه الأرض، مثل كمال الجنَّة. أعني كُلَّ الأشياء التي قد تحملها الأرض. والأكثر أنَّ الحجر يُقدِّم كُلَّ الطَّرائد التي تعيش تحت السَّماء، سواء أَ كانت تطير، أو تعدو، أو تسبح.

---

(1) (التي تُستخدَم في العشاء الرَّبَّاني عند الإخوان المسيحيِّيْن. المُترجم).

وهكذا، يمنحُ «الكَأس المُقَدَّسَة» للأُخوَّة الفُروسيَّةَ الشُّجاعةَ، والرّباط.

بالإضافة إلىٰ خواصّه الاستثنائيّة الأُخرىٰ، «الكَأس المُقَدَّسَة» في قصيدة وولفرام تبدو ـ تقريباً ـ أنّها تمتلك إحساسيَّة مُعيَّنة.

إنَّها تمتلك القُدرة علىٰ دعوة الأشخاص لخدمته، تدعوهم بإحساس نشيط:

اسمع الآن: كيف يُعرَف أُولئك الذين دعاهم «الكَأس المُقَدَّسَة». علىٰ الحجر، وحول حافَّته، تظهر رسائل مكتوبة، تُظهر اسمَ وَنَسَبَ كُلِّ واحد منهم، فتاة، أم ولداً، أُولئك الذين عليهم أنْ يقوموا بالرِّحلة المُباركة. لا أحد بحاجة لأنْ يمحو النَّقْش، ما إنْ يقرأ الاسم لأوَّل مرَّة فإنَّه يتلاشىٰ أمام عينيْه. كُلُّ أُولئك الذين نضجوا ـ الآن ـ جاءوا هُناك كأطفال. مُباركة هي الأُمُّ التي حملت طفلاً قُدِّر له بأنْ يخدم هُناك. الفُقراء والأغنياء يبتهجون علىٰ حَدٍّ سواء، إنْ تمَّ استدعاء طفلهم للانضمام إلىٰ المجمع. هُم يُجلَبون هُناك من شتَّىٰ أنحاء الأرض. من الخزي الآثم هُم أكثر حماية من الآخرين، ويتلقّون مُكَافأة جيِّدة في الجنَّة. عندما تنتهي الحياة فيهم هُنا، فإنَّهم يحصلون علىٰ الكمال هُناك.

إنْ كان حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة» هُم فُرسان الهَيكَل، فإنَّ حُماته الفعليّيْن يبدو أنَّهم أعضاء عائلة مُعيَّنة. تبدو هذه العائلة أنَّها تمتلك فُرُوعاً مُشعَّبة عديدة، البعض منهم مُنتشرون حول العالم؛ لدرجة أنَّ هُويَّتهم ـ في أغلب الأحيان ـ مجهولة حتَّىٰ لأنفسهم.

لكنَّ الأفراد الآخرين من العائلة الذين يسكنون في قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة» «مُونسيلفيسك» (Munsalvaesche) ارتبطوا ـ بشكل واضح ـ بالقلعة الأُسطُوريَّة للكَاثَار في «مانسلفات» (Montsalvat)، والتي ـ علىٰ الأقلِّ ـ كاتب واحد حدَّدها كـ«Montsegur».

في «مُونسيلفيسك» عاش عدد من الشَّخصيَّات الغامضة. هُناك حُرَّاس وحَمَلَة «الكَأس المُقَدَّسَة» الفعليّين، (Réponse de Choir») «Repanse de Schoye» أو «الاستجابة المُختارة»).

وبالطَّبع؛ يُوجد هُناك أنفُورتاس (الملك الصَّيَّاد) سيِّد قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة»، المُصاب بالأعضاء التَّناسُليَّة، وغير القادر علىٰ الإنجاب، أو بدلاً عن ذلك، غير قادر علىٰ الموت. كما في رُومانسيَّة كريشين عن «الكَأس المُقَدَّسَة»، أنفُورتاس، بالنِّسبة لوولفرام، هُو عمُّ بارزيفال.

وفي نهاية القصيدة، عندما تزول اللَّعنة، وأنفورتاس يُمكنه أنْ يموت أخيراً، أصبح بارزيفال وريثاً لقلعة «الكَأس المُقَدَّسَة».

يدعو «الكَأس المُقَدَّسَة»، أو عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» بعض الأفراد لخدمتها من العالم الخارجي؛ الأفراد الذين يجب أنْ يطَّلعوا علىٰ لُغز ما. بالوتيرة نفسها يتمُّ إرسال الخادمين المُدرَّبين إلىٰ العالم الخارجي للقيام بأعمال لصالحه، وأحياناً؛ لاحتلال عَرْش ما. «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ علىٰ ما يبدو ـ تمتلك القُوَّة لصُنْع المُلُوك.

البكْر هُم المُعيَّنون للاهتمام بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»... تلك كانت شريعة الله، وهؤلاء البكْر يُقدِّمون خدماتهم أمامها. «الكَأس المُقَدَّسَة» تنتقي المجموعة النَّبيلة فقط. الفُرسان، المُؤمنون، والجيِّدون، يُختارون لحراسته. مجيء النُّجُوم العالية يجلب لهؤلاء النَّاس الحُزن الكبير، للصَّغير والكبير علىٰ حَدٍّ سواء. غَضَبُ الله عليهم دام طويلاً جدَّاً. متىٰ سيقولون نعم للبهجة؟! ... سأُخبركم المزيد، الذي ـ لرُبَّما ـ ستُؤمنون بصِدْقه. الفُرصة ذات الحَدَّيْن هي لهم في أغلب الأحيان؛ هُم يَجْنُون، ويُقدِّمون، المنفعة. يستقبلون الأطفال هُناك، من النَّسَب النَّبيل، والجميل. وإنْ خسرتْ أيُّ أرض سيِّدها، وكان النَّاس هُناك يُعلِّمون بيد الله، ويبحثون عن سيِّد جديد، فإنَّهم يُمنَحُون واحداً من جماعة «الكَأس المُقَدَّسَة». هُم يجب أنْ يُعاملوا بلُطف، حتَّىٰ تحميه بركة الله.

من الفقرة أعلاه يبدو بأنَّه ـ في وقت ما في الماضي ـ تحمَّلت عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» غضب الله بطريقة ما. التَّلميح إلىٰ «غضب الله فيهم» يُردِّد عبارات عديدة من القُرُون الوُسْطَىٰ المُتعلِّقة باليهُود. يُردِّد ـ أيضاً ـ عُنوان الكتاب الغامض المُرتبط بنيكُولاس فلاميل ـ (الكتاب المُقَدَّس لإبراهيم اليهُودي، الأمير والكَاهن واللَّاويّ والمُنجِّم وفيلسوف القبيلة اليهُوديَّة، التي بغضب الله فرَّقها بين الغاليِّيْن). وفليغيتانس، الذي وولفرام يقول عنه إنَّه كَتَبَ الرِّواية الأصليَّة للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، قيل بأنَّه كان قد تحدَّر من سُلَيْمان. هل عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» من المُحتمل أنْ تكون من أصل يهُودي؟!

مهما كانت اللَّعنة التي حلَّت ـ سابقاً ـ بعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، بما لاشكَّ فيه أنَّه في وقت بارزيفال كانت تتمتَّع بإحسان مُقدَّس، وبالكثير من القُوَّة أيضاً. بالرّغم من أنَّ هُويَّتها سرِّيَّة للغاية، علىٰ الأقلِّ؛ في بعض النَّواحي.

رجال عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» يبعثهم الله سرّاً؛ البكْر (العذارىٰ) يُعلَنون ... وهكذا الخادمات يُبعثنَ ـ بشكل عَلَني ـ من «الكَأس المُقَدَّسَة»، والرِّجال يُبعثُون سرّاً؛ لأنَّهم ـ لرُبَّما ـ عندهم الأطفال الذين سيدخلون تباعاً في يوم ما في خدمة «الكَأس المُقَدَّسَة»، ويخدمون، ويُعزِّزون، الجماعة. الله قادر علىٰ أنْ يُعلِّمهم كيف يعملون ذلك.

إذنْ؛ عندما نساء عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» يتزوَّجنَ في العالم الخارجي، قد يكشفنَ نسبهنَّ وهُويَّتهنَّ.

أما الرِّجال ـ علىٰ أيَّة حال ـ؛ يجب أنْ يُبقوا هذه المعلومات سرّاً؛ وفي الحقيقة، يكون ذلك سرّاً لدرجة أنَّهم قد لا يسمحون لأحد بأنْ يسألهم عن أصلهم. هذه النُّقطة علىٰ ما يبدو أنَّها حاسمة؛ لأنَّ ولفرام يعود إليها ليُؤكِّد عليها جدّاً في نهاية القصيدة تماماً:

علىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة» وُجد مكتوب ـ الآن ـ أنَّ أيَّ فارس من فُرسان الهَيكَل، الذي يد الله عيَّنتْهُ كَسَيِّد علىٰ شعب أجنبي، عليه أنْ يُحرِّم السُّؤال عن اسمه، أو عِرْقه، وبأنَّه يجب عليه أنْ يُساعدهم لنَيْل حُقُوقهم. إنْ تمَّ طَرْحُ السُّؤال عليه، فإنَّ مُساعدته لهم يجب أنْ لا تستمرَّ لفترة أطول.

من هذا ـ بالطَّبع ـ استُمدَّت مُعضلة لُوهينغرين، ابن بارزيفال، الذي عندما سُئل علىٰ أصله كان عليه أنْ يترك زوجته، وأطفاله، وينسحب إلىٰ العُزلة التي جاء منها.

لكنْ؛ لماذا يجب أنْ تُطلَب هذه السِّرِّيَّة الصَّارمة؟

ما هي تلك الأشياء الباقية بعد الموت، والتي يجب أنْ تأمر بهذه السِّرِّيَّة؟!

إنْ كانت عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ في الحقيقة ـ من أصل يهُودي، فإنَّ ذلك سيُعطي تفسيراً مُحتملاً؛ في الفترة التي كان يكتب فيها ولفرام. ومثل هذا التَّفسير يكتسب ـ علىٰ الأقلِّ ـ بعض التَّصديق من قصَّة لُوهينغرين. هُناك العديد من التَّنوُّعات لقصَّة لُوهينغرين، ولُوهينغرين لم يتمّ ـ دائماً ـ تحديده بنفس هذا الاسم. في بعض الرِّوايات، هُو يُدعَىٰ إيلياس؛ دلالة علىٰ الشَّمس. في روايات أُخرىٰ؛ هُو يدعَىٰ «إليي» أو «إلي»؛ وهُو ـ بوُضُوح ـ اسم يهُودي.

في رُومانسيَّة رُوبرت دُو بُورُون، وفي «بِرلِسفُوز»، بيرسيفال هُو من سُلالة يهُوديَّة ـ من «النَّسَب المُقَدَّس» من يُوسُف الرَّامي. في قصيدة وولفرام تبدو هذه المنزلة عَرَضيَّة، بقدر ما هُو عَرَضيّ ارتباط بارزيفال. الصِّدْقُ، بارزيفال هُو ابن أخ الملك الصَّيَّاد المجروح، وهكذا هُو علىٰ قرابة بالدَّم بعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، ومع أنَّه لم يتزوَّج من عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، هُو ـ في الحقيقة ـ مُتزوِّج، إلَّا أنَّه ورث قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة»، وأصبح سيِّدها الجديد. لكنْ؛ بالنِّسبة لوولفرام، نَسَبُ بطل الرِّواية يبدو بأنَّه أقلّ أهمِّيَّة من الوسائل التي أثبت بها جدارته. باختصار؛ يجب عليه أنْ يتوافق مع بعض المعايير التي فَرَضها الدَّم الذي يجري في عُرُوقه. وهذا التَّأكيد يبدو ـ بشكل واضح ـ أنَّه إشارة إلىٰ الأهمِّيَّة التي ينسبها ولفرام لذلك الدَّم.

من المُؤكَّد أنَّ وولفرام ينسب أهمِّيَّة هائلة لسُلالة مُعيَّنة. إنْ كان هُناك موضوع ما مُهيمن، يتخلَّل قصَّة بارزيفال، بل كُلّ أعماله الأُخرَىٰ أيضاً، فما لا شكَّ فيه أنَّ ذلك الموضوع لا يتعلَّق كثيراً بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، بل بعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة».

في الحقيقة؛ يبدو أنَّ عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» مُسيطرة علىٰ فكْر وولفرام، إلىٰ درجة استحواذيَّة تقريباً، وهُو يُكرِّس انتباهه لها، ولسُلالتها بشكل أكبر بكثير من الشَّيء الذي هُم حُماته («الكَأس المُقَدَّسَة»).

سُلالة عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» يُمكن إعادة بنائها بقراءة مُتأنِّية لبارزيفال. بارزيفال نفسه هُو ابن أخ أنفُورتاس، الملك الصَّيَّاد المُعوَّق، وسيِّد قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة». أنفُورتاس، تباعاً، ابن شَخْص يُدعَىٰ فريمُوتِل، وفريمُوتِل هُو ابن تيتُورِل.

في هذه النُّقطة، النَّسَبُ أصبح أكثر تشابكاً. في النِّهاية ـ علىٰ أيَّة حال ـ يُؤدِّي إلىٰ لِعازَل (Laziliez) ـ الذي قد يكون اشتقاق من اسم لِعازار (Lazarus) الذي هُو شقيق مَرْيَم في العهد الجديد[1]. ووالدي لِعازَل، الأسلاف الأصليُّون لعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، هُما «Mazadan» و «Terdelaschoye». من الواضح أنَّ كلمة «Terdelaschoye» هي نُسخة ألمانيَّة عن العبارة

(1) (وَرَدَ اسمه ـ فقط ـ في يُوحنَّا «11 ـ 12»، لِعازار هُو اسم دارج آنذاك، ويعني الله. المُترجم).

الفرنسيَّة «Terre de Ia Choix»، والتي تعني «الأرض المُختارة». أمَّا كلمة «Mazadan»؛ فهي أكثـر غُمُوضاً. يُعقَل أنَّها مُشتقَّة من الإله «Ahura Mazda» الزّرداتشتي[1]؛ وهُو المبدأ الثّنـوي للنُّـور. وفي الوقت ذاته؛ لو طبَّقْنَا علْم الصَّوتيَّات، ذلك الاسم قد يعني ـ أيضاً ـ «Masada» (مَسْعَدَة) ـــ معقـل رئيس أثناء الثَّورة اليهُوديَّة ضدَّ الاحتلال الرُّوماني عام 68 بعد الميلاد.

وهكذا نجد أنَّ الأسماء التي نسبها وولفرام لأفراد عائلة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» هـي ـ في أغلـب الأحيان ـ إيحائيَّة، واستفزازيَّة.

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيَّة حال ـ هي لم تُخبرنا بأيِّ شيء مُفيد مـن النَّاحيـة التَّاريخيَّـة. إنْ أردنـا الحُصُول علىٰ نمُوذج تاريخي فعْلي لعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، فإنَّه يجب علينا أنْ نبحث في مكـان آخـر. الأدلَّة كانت ضئيلة جدَّاً. عرفنا ـ مثلاً ـ أنَّ عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» يُزعَم بأنَّها تتوَّجت بغُودفرُوي دُو بُولوين، لكنَّ ذلك لم يُسلِّط الكثير من النُّور علىٰ أسلاف غُـودفرُوي الأُسـطُوريَّة، إلَّا شـيئاً واحـداً، بالطَّبع، وهُو أنَّهم (كأسلافه الحقيقيِّيْن) أبقوا هُويَّتهم سرِّيَّة بشكل يُثير الشَّكَّ.

لكنْ؛ طبقاً لوولفرام؛ وَجَدَ كيُوت روايـةَ قـصَّة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» في سـجلَّات آل أنجـاو، وبارزيفال نفسه قيل بأنَّه كان من دم أنجاوي. علىٰ الأقلِّ؛ هذا كان مُهمَّاً للغايـة؛ لأنَّ آل أنجـاو كـانوا مُرتبطين بصلة وثيقة مع فُرسان الهَيكَل، ومع الأرض المُقَدَّسَة.

في الحقيقة؛ فُولكيس، كُونت أنجـاو، بنفـسه أصـبح ـ عـلىٰ سـبيل المثـال ـ فارسـاً «فَخْريَّـاً»، أو فارساً «جُزئيَّاً» من فُرسان الهَيكَل.

علاوةً علىٰ ذلك؛ عام 1131، تزوَّج ابنة أخ غُـودفرُوي دُو بُولـوين، ميلُـوزين الأُسـطُوري، وأصبح ملكاً للقُدْس.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ أنَّه بذلك تمَّ التَّحالف بين لُوردات أنجـاو ـ العائلـة البلانتاجيَّـة ـ مـع سُلالة الميرُوفيِّيْن. واسم «بلانتاجي» ـ رُبَّما ـ هُو تكرار لكلمة «بلانتارد»، أو «بلانتـارد».

(1) (زرادشت هُو الذي أسَّس الزّرادشتيَّة، والذي تعاليمه تُعارض كُلَّ الآلهة، عدا أهورا مازدا، الذي يجب أنْ يُعبَد للأبـد علىٰ حَدِّ قوله. أهورا مازدا تعني إله الحكمة في كتاب الأفَسْتا ـ كتاب الزّرادشتيِّيْن المُقَدَّس ـ في بلاد فارس. المُترجم).

ارتباطات كهذه كانت كَشْكُوليّة[1]، وغامضة. لكنّنا حصلنا علىٰ أدلّة إضافيّة من خلال الموقع الجَغرافي لقصيدة وولفرام. في الجُزء الأكبر، هذا المكان كان فرنسا. حتّىٰ إنّ وولفرام ـ بالمُقارنة مع مُؤرِّخي «الكَأس المُقَدَّسَة» اللّاحقين ـ يزعم بأنّ قصر آرثر، كاميلُوت، كان واقعاً في فرنسا،أيضاً؛ بشكل مُحَدَّد تماماً كان في نانِتس. نانِتس ـ الآن ـ تقع في بريطانيا، كانت الحَدَّ الغربي الأقصىٰ لمملكة الميرُوفيِّين القديمة في ذروة قُوَّتها[2].

في مَخطُوطة نُسخة كريشين عن قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة»، يُذكَر بأنّ بيرسيفال وُلِد في «Scaudone» أو «Sinadon»، أو في مكان كهذا، والذي وَرَدَ بعدد من المُغايرات الإملائيَّة؛ والمنطقة وُصِفَتْ بأنّها جَبَليّة.

طبقاً لوولفرام؛ بارزيفال جاء من «واليز». أكثر العُلَماء عدُّوا «ويليز» أنّها «ويلز»، وعدُّوا «Sinadon» بتهجئاتها المُختلفة أنّها «سنُودن»، أو «سنُودُونيا»[3]. إنْ كان الأمر كذلك ـ علىٰ أيّة حال ـ فإنّ ذلك سيُؤدّي إلىٰ ظُهُور بعض المشاكل المُستعصية، وكما أشار أحد المُعلّقين «الخرائط تجلعنا عاجزين»؛ لأنّ الأشخاص كانوا يتنقّلون دائماً بين ويليز وقصر آرثر في نانِتس، بالإضافة إلىٰ المواقع الفرنسيَّة الأُخرَىٰ، بدُون عُبُور أيِّ ماء!

باختصار؛ كانوا يتنقّلون برّاً، وعبر المناطق التي كان سُكّانها يتكلّمون اللُّغة الفرنسيَّة.

هل جَغرافيَّة وولفرام هي غير مُتقنة حقّاً؟!

هل بالإمكان أنّها كانت رديئة لهذه الدَّرجة؟!

أم أنّ ويليز هي ليست ويلز؟!

عالِمان اقترحا بأنّها قد تكون «فالوا» (Valois)، وهي المنطقة الفرنسيَّة التي تقع في المنطقة الشّماليّة الشّرقيّة من باريس، ولكنْ؛ ليس هُناك جبال في فالوا، ولا حتّىٰ إنّ بقيّة المنظر الطّبيعي يتوافق ـ بأيِّ شكل ـ مع وَصْف وولفرام.

---

(1) (مُؤلَّفة من أجزاءٍ مُختلطة، أو مُتفاوتة. المُترجم).

(2) (من المُثير أنّ المدينة الفرنسيَّة أفالُون يعود تاريخها حتّىٰ العُهُود الميرُوفيَّة. لقد كانت عاصمة المنطقة، التي كانت جُزءاً من مملكة أكُوتين. لقد أعطت اسمها للمنطقة بأكملها؛ أفالُونيس. المُؤلِّفون).

(3) (سنُودن؛ سنُودونيا: سلسلة جبال في شمال غرب ويلز. المُترجم).

علىٰ أيّة حال، في الوقت ذاته، هُناك موقع مُحتمَل آخر لويليز؛ الموقع الجبلي الذي يتوافق ـ بالضَّبط ـ مع أوصاف ولفرام الأُخرَىٰ، والذي سُكَّانه يتكلَّمون الفرنسيَّة. هذا الموقع هُو «Valais»[1] في سويسرا، علىٰ شواطئ بُحيرة ليمان، إلىٰ الشَّرق من جنيف.

باختصار؛ يبدو أنَّ موطن بارزيفال هُو ليس ويلز، ولا فالوا، بل فالِس. ومسقط رأسه الفعْلي في «Sinadon» هُو ليس سنُودن، أو سنُودُونيا، بل «Sidonensis»، والتي هي عاصمة فالِس. والاسم الحديث لـ«Sidonensis» (عاصمة فالِس) هُو صهيُون «sion».

إذنْ، طبقاً لوولفرام؛ قصر آرثر يقع في بريطانيا. بارزيفال يبدو بأنَّه وُلِدَ في سويسرا. وولفرام يُعطي الجواب في عمله الأكثر طُمُوحاً، الذي لم يُنهِهِ نتيجة موته، والذي اسمه «Der Junge Titurel».

في هذه القطعة المُثيرة للذِّكريات والعواطف يُوجِّه وولفرام نفسه إلىٰ حياة تيتيُورل (Titurel)، وهُو والد أنفُورتاس والبنَّاء الأصلي لقلعة «الكَأس المُقَدَّسَة».

رواية «Der Junge Titurel» هي دقيقة جدَّاً، ليس ـ فقط ـ بتفاصيلها عن الأنساب، بل ـ أيضاً ـ بأبعاد، ومُكوِّنات، وموادّ، وشكل، قلعة «الكَأس المُقَدَّسَة»؛ كَنيسَتها الدَّائريَّة ـ علىٰ سبيل المثال ـ أشبه بتلك التي لدىٰ فُرسان الهَيكَل. والقلعة بنفسها تقع في بيرنيه.

بالإضافة إلىٰ «Der Junge Titurel»، ترك وولفرام عملاً آخر غير مَنْهي عند موته؛ وهي القصيدة المعروفة بـ«ولهلْم» (Willehahn)، التي بطلها هُو غِليُوم دُو جيلُون، الحاكم الميرُوفيني لإمارة في القرن التَّاسع، التي امتدَّت علىٰ جانبَيْ بيرنيه.

قيل إنَّ غِليُوم كان مُرتبطاً بعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة». وبالتَّالي؛ يبدو أنَّه الشَّخصيَّة الوحيدة في أعمال وولفرام التي تمَّ تحديد هُويَّتها التَّاريخيَّة الحقيقيَّة. وحتَّىٰ في تعامله مع الشَّخصيَّات غير المُحَدَّدة، كانت دقَّة وولفرام مُدهشة. كُلَّما دَرَسَهَا المرءُ بشكل أكثر، رجَّح أنَّ وولفرام يُشير إلىٰ جماعة حقيقيَّة من النَّاس، ليست عائلة أُسطُوريَّة، أو قَصَصيَّة، بل مجموعة وُجِدَتْ تاريخيَّاً، ولرُبَّما تضمَّنت غِليُوم دُو

---

(1) (فالِس: إقليم يقع علىٰ الحَدِّ الجنوبي الغربي لسويسرا. المُترجم).

جيلُون. تُصبح هذه الخاتمة معقولة لدرجة أكبر عندما يعترف وولفرام بأنَّه يُخفي شيئاً ما؛ أنَّ بارزيفال وأعماله الأُخرَىٰ ليست مُجرَّد رُومانسيَّات، بل ـ أيضاً ـ وثائق اطِّلاعيَّة، ومُستودعات للأسرار.

«الكَأس المُقَدَّسَة» والقَبَلانيَّة

كما تقترح «بِرلِسفُوز»، يبدو أنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ علىٰ الأقلِّ جُزئيَّاً ـ هي تجربة من نوع ما. في استطراده المُطوَّل عن الخصائص الشَّافية للـ«كَأس المُقَدَّسَة» وقُوَّتها في إطالة العُمر، وولفرام يبدو ـ أيضاً ـ أنَّه يدلُّ علىٰ شيء ما تجريبي، بالإضافة إلىٰ الرَّمْزيَّة؛ حالة ذهنيَّة، أو حالة ملموسة.

يبدو أنَّ هُناك سُؤالاً صغيراً حول الزَّعْم بأنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» في إحدىٰ مراحلها تكون تجربة شعائريَّة تُوصف بالمُصطلحات الحديثة بأنَّها نوع من «التَّحوُّل»، أو «تغيير في حالة الوعي». بالمُقابل؛ يُمكن وصفها بأنَّها «تجربة غنُوسطيَّة»، أو «تجربة باطنيَّة»، أو «الاستنارة»، أو «الاتِّحاد مع الله».

من المُحتمل أنْ تكون تلك الحالة في أكثر دقَّة، وتربط السِّمة التَّجريبيَّة للـ«كَأس المُقَدَّسَة» بسياق مُحَدَّد جدَّاً. ذلك السِّياق هُو القَبَلانيَّة، والفِكْر القَبَلاني[1].

بالتَّأكيد؛ مثل هذا الفِكْر كان مُنتشراً جدَّاً في ذلك الوقت، الذي أُعِدَّتْ فيه رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة». كان هُناك مدرسة قَبَلانيَّة مشهورة في تُوليدُو (طُلَيْطُلَة) ـ علىٰ سبيل المثال ـ حيثُ قيل إنَّ كيُوت عَلِمَ بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». كان هُناك مدارس أُخرىٰ في جيرُونا[2]، ومُونبليه (Montpellier)[3]، وفي مكان آخر في جنوب فرنسا. ويبدو أنَّه من المُستحيل أنْ يكون عَرَضيَّاً وُجُود مثل هذه المدرسة في ترُويز أيضاً. يعود تاريخها إلىٰ عام 1070 ـ في زمن غُودفرُوي دُو بُولوين ـ وكان يُديرها شَخْص يُدعَىٰ راشي «Rashi»، والذي ـ لرُبَّما ـ كان القَبَلاني الأكثر شُهرَة في القُرُون الوُسْطَىٰ.

من المُستحيل هُنا ـ بالطَّبع ـ إنصاف القَبَلانيَّة، أو الفِكْر القَبَلاني. علىٰ الرّغم من هذا، يجب أنْ نُشير إلىٰ بعض النّقاط لكي نُظهر الصِّلة بين القَبَلانيَّة ورُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة». بشكل مُختصر جدَّاً، القَبَلانيَّة يُمكن وَصْفُهَا باليهُوديَّة الباطنيَّة؛علْم منهجي نَفْسي عملي، ومن أصل يهُودي بشكل

(1) (القَبَلانيَّة: فَلْسَفَة دينيَّة سرِّيَّة، عند أحبار اليهُود وبعض نصارىٰ العصر الوسيط، مَبْنيَّة علىٰ تفسير الكتاب المُقَدَّس تفسيراً صُوفيَّاً. المُترجم).

(2) (مدينة في شمال شرق إسبانيا. المُترجم).

(3) (مدينة في شمال فرنسا، تقع علىٰ خليج الأسد. المُترجم).

استثنائي، وهُو مُصمَّم ليُحدِثَ تحوُّلاً مُثيراً في حالة الوعي. في هذا المجال؛ قد يُنظَر إلىٰ هذا العلْم علىٰ أنَّه المُكافئ اليهُودي للمَنْهجيَّات أو العُلُوم المُماثلة في التَّقاليد الطَّاويَّة[1]، والبُوذيَّة، والهندُوسيَّة؛ نوع من اليُوغا، علىٰ سبيل المثال، أو الزِّنِّيَّة[2].

كأشباهها الشَّرقيَّة، التَّدريبات القَبَلانيَّة تستلزم سلسلةً من الطُّقُوس؛ سلسلة مُنظَّمة من التَّجارب الأوَّليَّة المُتعاقبة، التي تقود المُمارس إلىٰ تعديلات جَذْريَّة دائمة للوعي والإدراك. ومع أنَّ معنىٰ وأهمِّيَّة مثل هذه التَّعديلات بحاجة إلىٰ تفسير، إلَّا أنَّ حقيقتها كظواهر نَفْسيَّة لا خلاف عليها. من «المراحل» الشَّعائريَّة القَبَلانيَّة؛ أهمّ مرحلة هي المعروفة بـ«التَّفريط» (Tiferet). في تجربة «التَّفريط»، يُقال إنَّ الفرد يتجاوز عالم الشَّكل إلىٰ اللَّاشكل، أو بالمُصطلحات المُعاصرة هي «التَّفوُّق علىٰ الذَّات».

وفي الشَّرح الرَّمْزي، ذلك يشمل نوعاً من «الموت» القُرباني؛ إنَّه «موت» الذَّات، أو الأنا، موت الإحساس بالفَرْديَّة، وموت العُزلة، التي تستلزمها تلك الفَرْديَّة؛ وبالطَّبع؛ الانبعاث، أو الإحياء إلىٰ بُعْد آخر من الوحدة والانسجام المُهيمنَيْن. وبالتَّالي؛ في التَّكيُّف المسيحي للقَبَلانيَّة، «التَّفريط» يرتبط بالسَّيِّد المسيح.

بالنِّسبة لقَبَلانيِّيْ القُرُون الوُسْطَىٰ، شعائر «التَّفريط» ارتبطت ببعض الرُّمُوز المُعيَّنة. تلك الشَّعائر تتضمَّن رجلاً عجوزاً ناسكاً، أو مُرشداً، أو حكيماً، وملك مهيباً، وطفلاً، وضحيَّة. بمُرُور الوقت؛ أُضيفَتْ رُمُوز أُخرىٰ ـ أيضاً، علىٰ سبيل المثال ـ هَرَم مقطوع، ومُكعَّب، وصليب وردي. علاقة هذه الرُّمُوز برُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» ظاهرة بما فيه الكفاية.

في كُلِّ قصَّة من قَصَص «الكَأس المُقَدَّسَة» هُناك ناسك مُسنٌّ حكيم ـ دائماً هُو عمُّ بيرسيفال أو بارزيفال ـ يعمل كمُرشد رُوحي. في قصيدة وولفرام ـ رُبَّما ـ تجسيد «الكَأس المُقَدَّسَة» كـ«حَجَر» قد يُطابق المُكعَّب. وفي «بِرلِسفوز»، مراحل التَّجلِّي المُختلفة للـ«كَأس المُقَدَّسَة» قد تتطابق ـ بالضَّبط ـ مع رُمُوز «التَّفريط».

في الحقيقة؛ «بِرلِسفُوز» ـ بحَدِّ ذاتها ـ تُشكِّل صلة حاسمة بين تجربة «التَّفريط» و«الكَأس المُقَدَّسَة[3]».

---

(1) (الطَّاويَّة: فَلْسَفَة دينيَّة مَبْنيَّة علىٰ تعاليم لاوتسي، وتُعدُّ ـ بالإضافة إلىٰ الكُونفُوشيُوسيَّة، والبُوذيَّة ـ أحد أديان الصِّين الثَّلاثة. المُترجم).

(2) (الزِّنِّيَّة: فرقة بُوذيَّة تُؤمن بأنَّه في ميسور المَرْء أنْ ينفذ إلىٰ طبيعة الحقيقة من طريق التَّأمُّل. المُترجم).

(3) (يُقال ـ أحياناً ـ بأنَّ التَّقاليد المسيحيَّة والقَبَلانيَّة لم تلتق ـ حتَّىٰ القرن الخامس عشر ـ في أيدي أُولئك الكُتَّاب أمثال بيكُو ديلا ميراندُولا. المُؤلِّفون).

التَّلاعب بالألفاظ

وهكذا يُمكننا أنْ نُحدِّد السِّمة التَّجريبيَّة للـ«كَأس المُقَدَّسة»، ونربطها ـ تماماً ـ مع القَبَلانيَّة. هذا منح عُنصُراً مُتعارضاً آخر مع السِّمة المسيحيَّة المزعومة للـ«كَأس المُقَدَّسة»، عُنصُراً يهُوديَّاً آخر.

لكنْ؛ مهما كانت سمات «الكَأس المُقَدَّسة» التَّجريبيَّة، كان هُناك سمات أُخرىٰ أيضاً؛ السِّمات التي لا يُمكننا أنْ نُهملها، والتي كانت ذات أهمِّيَّة عُظْمَىٰ في قصَّتنا. هذه السِّمات كانت تاريخيَّة، وتتعلَّق بالأنساب.

مراراً، وتكراراً؛ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة» صادفتْنَا ـ بوُضُوح ـ بنَمَط ذي طبيعة دُنيويَّة غير باطنيَّة.

مراراً، وتكراراً؛ كان هُناك فارس غِرٌّ، أثبتَ جدارتَهُ ببعض الاختبارات، وتمَّ إطلاعه علىٰ بعض الأسرار المُثيرة.

مراراً، وتكراراً؛ هذا السِّرُّ كان محروساً بشكل مُباشر من قِبَل نظام من نوع ما، علىٰ ما يبدو أنَّه فُرُوسي في تركيبته. مراراً، وتكراراً؛ السِّرُّ ـ بطريقة ما ـ ارتبط بعائلة مُعيَّنة.

مراراً، وتكراراً؛ البطل أصبح سيِّد قلعة «الكَأس المُقَدَّسة»؛ نتيجة تزاوج مع هذه العائلة، أو لنَسَبِهِ الخاصِّ، أو للأمرين كلَيْهما، وأصبح كُلُّ شيء مُرتبطاً به. علىٰ هذا المُستوىٰ ـ علىٰ الأقلِّ ـ بدا أنَّنا نتعامل مع شيء ذي شَخْصيَّة تاريخيَّة واقعيَّة.

المرء يُمكنه أنْ يُصبح سيِّد قلعة، أو سيِّد مجموعة من النَّاس. المرء يُمكنه أنْ يُصبح وريثاً لبعض الأراضي، أو حتَّىٰ وريثاً لتُراث مُعيَّن. لكنَّ المرء لا يُمكنه أنْ يُصبح سيِّداً، أو وريثاً لتجربة (بـ«الكَأس المُقَدَّسة»).

بعد أنْ أجرينا فحصاً دقيقاً، تساءلنا:

هل كان هُناك صلة في اعتماد رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسة» بشكل حاسم علىٰ أُمُور تتعلَّق بالأنساب، والسُّلالات، والإرث، والتُّراث؟!

هل كان هُناك صلة في أنَّ الأنساب المَعْنيَّة يجب أنْ تتشابك مع تلك النّقاط الأساسيَّة، التي وَرَدَتْ ـ بشكل بارز ـ في تحقيقنا؛ آل أنجاو ـ علىٰ سبيل المثال ـ غِليُوم دُو جيلُون، وغُودفرُوي دُو بُولوين؟!

هل يُمكن أنْ يرتبط لُغز رين لُو شاتُو ودَيْر صهيُون بطريقة ما غامضة بذلك الشَّيء الغامض الذي يُسمَّىٰ «الكَأس المُقَدَّسَة»؟!

هل قُمنا بتتبُّع خُطوات بارزيفال، وواصلنَا مسعانا الحديث للـ«كَأس المُقَدَّسَة»؟!

الأدلَّة تقترح بأنَّ ذلك وارد وواقعي جدّاً.

وفي الحقيقة؛ كان هُناك دليل آخر أكثر حسماً أمام كَفَّة الميزان ـ بشكل حَتْمي ـ لصالح هذه النَّتيجة.

في العديد من المَخْطُوطات السَّابقة، «الكَأس المُقَدَّسَة» تُسمَّىٰ السَّنجرال «Sangraal»، وحتَّىٰ في النُّسخة التَّالية من قِبَل مالُوري هي تُسمَّىٰ السَّنجريل «Sangreal». من المُحتمل أنَّ «Sangraal» أو «Sangreal» ـ في الحقيقة ـ هُما التَّسميَتَان الأصليَّتان. من المُحتمل ـ أيضاً ـ ذلك التي كلمة واحدة فُصِّلَتْ ـ بشكل خاطئ ـ إلىٰ كلمتَيْن. بكلمة أُخرىٰ، «Sangraal»، أو «Sangreal»، من غير المُحتمل أنَّها تقصد فَصْلها لتكون «San Graal»، أو «San Greal»، بل يُمكن فَصْلُهَا لتكون «Sang Raal»، أو «Sang Real»، أو باستخدام التَّهجئة الحديثة «Sang Royal»؛ أيْ «Royal blood»؛ أيْ «الدَّم المُقَدَّس».

تَلاعُبٌ بالألفاظ كهذا هُو ـ بحَدِّ ذاته ـ استفزازيٌّ، ولكنَّه مُقنع بالكاد.

علىٰ أيَّة حال؛ بالرَّبط ـ مع التَّأكيد علىٰ الأنساب والسُّلالات ـ ليس هُناك مجال للشَّكِّ. ولذلك؛ الرَّوابط التَّقليديَّة؛ الكَأس التي حَمَلَتْ دَمَ السَّيِّد المسيح، علىٰ سبيل المثال؛ يبدو كتعزيز لهذا الافتراض. بشكل واضح تماماً؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» تظهر بأنَّها تخصُّ ـ بطريقة ما ـ الدَّم، والسُّلالة.

هذا ـ بالطَّبع ـ يدفع ـ بشكل واضح ـ ببعض الأسئلة.

لِمَنْ الدَّم؟! ولِمَنْ السُّلالة؟!

المُلُوك المفقودون و«الكَأس المُقَدَّسَة»

رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تكن القصائد الوحيدة من نوعها التي تمتَّعت بجُمهُور مُتقبّل في أواخر القرن الثَّاني عشر، وأوائل الثَّالث عشر. كان هُناك العديد من الأعمال الأُخرىٰ؛ مثلاً، «تريستان آند إيزُولت»[1]، و«إيريك آند إينايد»، أُعِدَّت في بعض الحالات من قِبَل كريشين بنفسه، في بعض الحالات؛ من قِبَل مُعاصرين لوولفرام، ومن مُواطنيه مثل «هارلمان فُون»، أو / و «غُوتفريد فُون ستارسبرغ».

هذه الرُّومانسيَّات لم تُعط أيَّة إشارة عن «الكَأس المُقَدَّسَة». لكنَّها أُعِدَّت - بوُضُوح - في نفس الفترة التَّاريخيَّة الأُسطُوريَّة كرُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»؛ لأنَّها تعتمد - بشدَّة - علىٰ آرثر. بقَدْر ما يُمكن تأريخه، يبدو أنَّ آرثر عاش في أواخر القرن الخامس و/ أو أوائل القرن السَّادس. بكلمة أُخرىٰ، آرثر عاش في قمَّة الهَيْمَنَة الميرُوفيَّة علىٰ بلاد الغال، وكان - في الحقيقة - مُعاصراً - بشكل مُباشر - لكلُوفيس. إنْ كان التَّعبير أُورُوس - «الدُّب» - يُشير إلىٰ سُلالة الميرُوفيِّيْن المَلكيَّة، فرُبَّما الاسم «آرثر - الذي يعني - أيضاً - «الدُّبّ» - كان مُحاولة لمَنْح الشَّرف ذاته للزَّعيم البريطاني.

بالنِّسبة للكُتَّاب المُعاصرين للحملات الصَّليبيَّة؛ يبدو أنَّ عصر الميرُوفيِّيْن كان له أهمِّيَّة حاسمة، إلىٰ حَدٍّ أنَّه - في الحقيقة - كان خَلْفيَّة للعديد من الرُّومانسيَّات، التي لم يكن لها علاقة بآرثر، ولا بـ«الكَأس المُقَدَّسَة». مثال علىٰ ذلك النَّوع هُو المَلْحَمَة الوَطَنيَّة الألمانيَّة «نيبلُونجين ليد»، أو «أُغنيَّة النيبلُونجين» (Song of the Nibelungen)[2]، والتي اعتمد عليها كثيراً وانجير، في القرن التَّاسع عشر، في سلسلته الأُوبراليَّة التَّذكاريَّة «الخَاتَم» (The Ring). هذه المقطوعة المُوسيقيَّة، والقصيدة التي اشتُقَّتْ منها، ترفض أنْ يتمَّ اعتبارها مُجرَّد خُرافة وخُيال؛ أنْ تُعدَّ مُنفصلة - تماماً - عن أيِّ أساس تاريخي؛ كانفصال أعمال كأعمال تُولكين[3] مثلاً.

---

(1) (أُسطُورة حبيبَيْن من القُرُون الوُسْطَىٰ. تريستان فارس وقع في حُبِّ إيزُولت، عروس عمِّه، بعد أنْ شرب جُرعة الحُبِّ. المُترجم).

(2) (النِّيبلُونجيُّون هُم الأقزام في الأُسطُورة الألمانيَّة، الذين امتلكوا الكَنز الذي أُسِرَ من قِبَل الأمير البطل سيغفريد. المُترجم).

(3) (مُؤلِّف أُسطُورة سيِّد الخاتم. المُترجم).

في الحقيقـة؛ «النّيبلُونجيُّـون» كـانوا شـعباً حقيقيّـاً، كـانوا القبيلـة التـي عاشـت في أوقـات الميرُوفيِّين. والأكثر من ذلك، العديد من الأسماء في «نيبلُونجين ليد» هي ـ بوُضُوح ـ أسماء ميرُوفيَّـة؛ علىٰ سبيل المثال، سيغمُوند، وسيغفريد، وبرانهيلد، وسيغليند، وكريمهيلد. العديد مـن الأحـداث في القصيدة تُشابه تماماً ـ وقد تُشير أيضاً ـ لأحداث مُعيَّنة حصلت في عهد الميرُوفيِّين.

بالرّغم من أنَّها لا تمتُّ بصلة لآرثر، أو للـ«كَأس المُقَدَّسَة»، «نيبلُونجين ليد» هي دليل إضـافي إلىٰ أنَّ العهد الميرُوفي مارس سيطرة قويَّة علىٰ مُخيِّلات شُعراء القرن الثَّاني عشر، والثَّالث عشر، كما لـو أنَّهم عرفوا شيئاً حاسماً حول ذلك العهد، لا يعرفه الكُتَّاب والمُؤرِّخون اللَّاحقون.

علىٰ أيِّ حـال، يتَّفـق العُلـماء الحـديثون عـلىٰ أنَّ رُومانـسيَّات «الكَـأس المُقَدَّسَـة»، كـما هـي «نيبلُونجين ليد»، تُشير إلىٰ عهد الميرُوفيِّين.

بشكل جُزئي ـ بالطَّبع ـ هذه الخاتمة تبدو بديهيَّة، نَظَرَاً لأهمِّيَّة آرثر، لكنَّها ـ أيضاً ـ تـستند عـلىٰ تلميحات مُعيَّنة زُوِّدَتْ من قِبَل رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَـة» بـذاتها. «del Saint Graal Queste» (السَّعي للـ«كَأس المُقَدَّسَة») علىٰ سبيل المثال، أُعِدَّتْ بين عـامَيْ 1215 و 1230، وتُعلـن ـ بـشكل واضح ـ بأنَّ أحداث قصَّة «الكَأس المُقَدَّسَة» حصلت ـ بالضَّبط ـ بعد 454 سنة مـن انبعـاث الـسَّيِّد المسيح. بافتراض أنَّ السَّيِّد المسيح مات عام 33 بعد الميلاد، بالتَّالي؛ ستكون قصَّة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» حَدَثَتْ عام 487 بعد الميلاد؛ أثنـاء التَّـوهُّج الأوَّل للقُـوَّة الميرُوفيَّـة، وقبـل تـسع سـنوات تمامـاً مـن مَعمُوديَّة كلُوفيس.

لذا؛ لـيس هُنـاك أيُّ شيء مُتطـرِّف، أو قابـل للجَـدَل في الـرَّبْط بـين رُومانـسيَّات «الكَـأس المُقَدَّسَة»، وعهد الميرُوفيِّين. مع هذا؛ شعرنا بأنَّ هُناك شيئاً ما تمَّ إغفاله. بشكل جَوْهَري؛ كان سـبب ذلك الشُّعُور أنَّ آرثر كان يُقيم ـ أساساً ـ في بريطانيا. كنتيجة لهذا التَّأكيد البريطـاني الواضـح، نحـنُ ـ بشكل تلقائي ـ لم نُشرك «الكَأس المُقَدَّسَة» بسُلالة الميرُوفيِّين.

عـلىٰ الـرَّغم مـن أنَّ وولفـرام يُـصرُّ عـلىٰ أنَّ قـصر آرثـر كـان في نـانتِس، وبـأنَّ قـصيدته أُعِدَّت في فرنسا.

الزَّعْم نفسه وَرَدَ في رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» الأُخْرَىٰ؛ (السَّعي للـ«كَأس المُقَدَّسَة») علىٰ سبيل المثال. وهُناك تقاليد من القُرُون الوُسْطَىٰ تُصرُّ علىٰ أنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تُجلَب إلىٰ بريطانيا من قِبَل يُوسُف الرَّامي، بل إلىٰ فرنسا من قِبَل مَرْيَم المَجْدَليَّة. بدأنا ـ الآن ـ بالتَّساؤل: سواء أكانت الأَوْلويَّة التي خُصِّصَتْ لبريطانيا من قِبَل المُعلِّقين برُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» لم تكن مُخطئة، وسواء أنَّ الرُّومانسيَّات ـ في الحقيقة ـ كانت تُشير ـ بشكل أساسي ـ إلىٰ أحداث حصلت في القارَّة؛ خُصُوصاً إلىٰ الأحداث في فرنسا. ونحنُ بدأنا الشَّكَّ أنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» بنفسها، «الدَّم المَلَكي»، كان تُشير ـ في الحقيقة ـ إلىٰ الدَّم المَلَكي لسُلالة الدَّم الميرُوفي، الذي كان يُعدُّ مُقدَّساً، ويتمتَّع بخصائص سِحْريَّة، أو عجيبة.

رُبَّما رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» شكَّلت ـ علىٰ الأقلِّ جُزئيَّاً ـ رواية رَمْزيَّة، أو مجازيَّة، لبعض الأحداث في عهد الميرُوفيِّيْن.

ورُبَّما صادفنا ـ مُسبقاً ـ البعض من تلك الأحداث أثناء تحقيقنا: تزاوُج حصل مع عائلة مُعيَّنة مثلاً، والذي ـ بمُرُور الوقت ـ أنشأ الأساطير، التي تُلازم الأُبُوَّة الثُّنائيَّة لميرُوفي؛ أو رُبَّما، في عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، تصوير للتَّخليد السِّرِّيِّ لسُلالة الميرُوفيِّيْن «les rois perdus»، أو «المُلُوك المفقودين» في الجبال وكُهُوف ريزس؛ أو ـ رُبَّما ـ منفىٰ تلك السُّلالة في إنجلترا، أثناء أواخر القرن التَّاسع، وأوائل القرن العاشر؛ والتَّحالفات السُّلاليَّة السِّرِّيَّة المهيبة للشَّجرة الميرُوفيَّة ـ كما في عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ أثمرت ـ في النِّهاية ـ غُودفرُوي دُو بُولوين، وآل لُورين. رُبَّما آرثر بنفسه ـ «الدُّبّ» ـ كان ـ بمُجرَّد المُصادفة ـ يقرب زعيم السَّلْتيِّيْن، أو الفرنسيِّيْن القُدماء.

رُبَّما آرثر في رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» كان ـ حقَّاً ـ «أُورسُوس» ـ وهُو اسم آخر لـ«الدُّبّ». رُبَّما آرثر الأُسطُوري في سجلَّات جيفري من مُنموث[1] كان قد خُصِّص من قِبَل الكُتَّاب ليرتبط بـ«الكَأس المُقَدَّسَة»، وحُوِّل ـ بتعمُّد ـ إلىٰ تقليد مُختلف وسرِّيٍّ جدَّاً. إنْ كان الأمر كذلك، هذا يُوضِّح لماذا فُرسان الهَيكَل ـ الذين أُسِّسُوا من قِبَل دَيْر صهيُون كحُرَّاس لسُلالة الميرُوفيِّيْن ـ أعلنوا بأنَّهم حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة»، وحُرَّاس عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة».

(1) (مدينة في جنوب شرق ويلز. المُترجم).

إنْ كانت سُلالة عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» هي سُلالة الميرُوفيِّيْن نفسها، فإنَّه ـ في الحقيقة ـ فُرسان الهَيكَل هُم الذين كانوا حُرَّاس «الكَأس المُقَدَّسَة»، في ذلك الوقت الذي أُعِدَّت فيه ـ تقريباً ـ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة». لذا؛ حُضُورهم في رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» لم يكن خطأ تاريخيّاً.

الفَرَضيَّة كانت مُثيرة، لكنَّها طرحت سُؤالاً حاسماً جدّاً. الرُّومانسيَّات ـ لرُبَّما ـ أُعِدَّت في عهد الميرُوفيِّيْن، لكنَّها تربط «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ بشكل واضح تماماً، بالأُصُول المسيحيَّة ـ بالسَّيِّد المسيح، بيُوسُف الرَّامي، بمَرْيَم المَجْدَليَّة. حتَّىٰ إنَّه ـ في الواقع ـ البعض منها يذهب إلىٰ أبعد من ذلك.

في قصيدة رُوبرت دُو بورون قيل إنَّ غالاهيد كان ابن يُوسُف الرَّامي، بالرّغم من أنَّ هُويَّة أُمّ الفارس غير واضحة. ورُومانسيَّة (السَّعي للـ«كَأس المُقَدَّسَة») تدعو غالاهيد، كالسَّيِّد المسيح، بأنَّه سليل من آل داود، وتصف غالاهيد بأنَّه السَّيِّد المسيح بنفسه.

في الحقيقة؛ اسم غالاهيد «Galahad» ـ بحَدِّ ذاته، وطبقاً للعُلماء الحديثين ـ هُو مُشتقٌّ من الاسم «Gilead»، الذي يُعدُّ اسماً رُوحيّاً للسَّيِّد المسيح.

إنْ كانت سُلالة «الكَأس المُقَدَّسَة» تتطابق مع سُلالة الميرُوفيِّيْن، فما هي صلته بالسَّيِّد المسيح؟!

لماذا يجب أنْ يكون شيء ما مُرتبطاً بالسَّيِّد المسيح؛ وبشكل وثيق؛ مُرتبطاً ـ أيضاً ـ بالعهد الميرُوفي؟!

كيف يُمكننا أنْ نُسوِّي التَّناقض الزَّمني؛ العلاقة بين شيء وثيقة الصِّلة جدّاً بالسَّيِّد المسيح والأحداث التي حَدَثَتْ بعد أربعة قُرُون علىٰ الأقلّ؟!

كيف يُمكن أنْ يعزو «الكَأس المُقَدَّسَة» إلىٰ عهد الميرُوفيِّيْن من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ إلىٰ شيء جُلِبَ من قِبَل يُوسُف الرَّامي إلىٰ إنجلترا، أو من قِبَل مَرْيَم المَجْدَليَّة إلىٰ فرنسا؟!

حتَّىٰ علىٰ المُستوىٰ الرَّمْزي أسئلة كهذه أكَّدت نفسها. «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ علىٰ سبيل المثال ـ مُرتبطة ـ بطريقة ما ـ بالدَّم. حتَّىٰ بدُون فَصْل كلمة «Sangraal» لتُصبح «Sang raal»، قيل إنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» إناء لدم السَّيِّد المسيح.

كيف يكون هذا مُتعلِّقاً بالميرُوفيِّين؟!

ولماذا يجب أنْ يتعلَّق بهم ـ بالضَّبط ـ في ذلك الوقت، أثناء الحملات الـصَّليبيَّة، عنـدما لـبس الميرُوفيُّون تاج مملكة القُدْس، مَحْميِّيْن من قِبَل نظام الهَيكَل ودَيْر صهيُون؟!

تُؤكِّد رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» علىٰ أهمِّيَّة دم السَّيِّد المسيح. تُشدِّد ـ أيـضاً ـ عـلىٰ سُـلالة ونَسَب من نوع ما. ونَظَرَاً لعوامل مُعيَّنة كتـأوُّج عائلـة «الكَـأس المُقَدَّسَـة» بغُـودفرُوي دُو بُولـوين، فذلك يبدو أنَّها ترتبط بالدَّم الميرُوفي.

هل من المُحتمل أنَّه يُوجد هُناك صلة ما بـين هـذَيْن الاثنَـيْن، اللَّـذَيْن ـ عـلىٰ مـا يبـدو ـ أنَّهـما عُنصُران مُنفصلان؟!

هل دم السَّيِّد المسيح ـ بطريقة ما ـ يُمكن أنْ يتعلَّق بالدَّم المَلَكي الميرُوفي؟!

هل يُمكن أنَّ النَّسَبَ المُرتبط بـ«الكَأس المُقَدَّسَة» قد جُلبَ إلىٰ أُورُوبا الغربيَّة، بعد فترة قليلـة من الصَّلْب، واختلط بالنَّسَب الميرُوفي؟!

الحاجة للتَّركيب

في هذه النُّقطة؛ توقَّفْنَا لمُراجعة الدَّليل الذي بين أيدينا. كان يقودنا في اتِّجاه مُحَفِّل، علىٰ الرّغم من أنَّه جليّ. تَسَاءَلْنَا:

ولكنْ؛ لماذا هذا الدَّليل لم يسبق أنْ طُلب إحضاره من قِبَل العُلماء؟! لقد كان مُتوفِّراً بسُهُولة مُؤكَّدة، ولعدَّة قُرُون.

لماذا لم يقمْ أحدٌ ـ علىٰ الإطلاق، علىٰ حَدِّ عِلْمنا ـ بتركيبه، والتَّوصُّل إلىٰ الاستنتاجات التي تبدو ـ إنْ كانت تأمُّليَّة فقط ـ واضحة جدّاً؟!

لا شكَّ أنَّ مثل هذه الاستنتاجات ـ قبل قُرُون قليلة ـ من المُمكن أنَّها كانت مُحَرَّمة بصرامة، وإنْ تمَّ نَشْرُهَا، فإنَّها كانت ستلقىٰ العقابَ الشَّديد.

ولكنْ؛ لمَ يكن هُناك خطر كهذا ـ علىٰ الأقلِّ ـ في المائتَيْ سنة الأخيرة، إذنْ؛ لماذا لم تُجمَع أجزاء اللُّغز حتَّىٰ الآن لتكون كُتلة مُتماسكة؟!

أدركنا أنَّ الأجوبة عن هذه الأسئلة تكمن في عصرنا الخاصِّ، وفي أنماط وطُرُق التَّفكير، التي تُميِّزه. مُنْذُ ما يُسمَّىٰ بتنوير القرن الثَّامن عشر، توجيه الثَّقافة والوعي الغربي كانا نحو التَّحليل، بدلاً من التَّأليف.

كنتيجة؛ عصرنا هُو عصر تخصُّص مُستمرّ التَّزايد. بمُوجب هذه المُيُول الثَّقافة المُعاصرة تُشدّد ـ بشكل مُغالىٰ فيه ـ علىٰ التَّخصُّص، والذي ـ كما تشهد الجامعات الحديثة ـ يعني ويستلزم تفرقة المعرفة إلىٰ «اختصاصات» مُميَّزة.

في النَّتيجة؛ الأطياف المُتنوِّعة التي غطَّاها تحقيقنا قُسِّمَت ـ بشكل تقليدي ـ إلىٰ أقسام مُنفصلة تماماً. في كُلِّ قسم، المادَّة المَعْنيَّة استُكْشِفَتْ حسب الأُصُول، وقُيِّمَتْ من قِبَل الاختصاصيِّيْن، أو «الخُبراء» في الحقل. لكنَّ البعض من هؤلاء الخُبراء سعوا لتأسيس اتِّصال بين حُقُولهم المُعيَّنة وبين حُقُول أُخرىٰ، والتي تداخلت في أغلب الأحيان.

في الحقيقة؛ مثل هؤلاء الخُبراء كانوا ـ عُمُوماً ـ ينظرون إلىٰ كُلِّ الحُقُول ـ عدا حُقُولهم ـ بشَكٍّ كبير، ويعدُّونها مُزوَّرة في أسوأ الأحوال، وفي أحسن الأحوال؛ يعدُّون أنْ لا صلة لها. والبحث الانتقائي أو «الذي يرتبط بحُقُول دراسة مُختلفة» يُعاق ـ في أغلب الأحيان ـ بشكل فعَّال؛ لأنَّه يكون نظريّاً جدّاً بين الأشياء الأُخرَىٰ.

كانت هُناك أُطرُوحات عديدة عن رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»، أُصُولها، وتطوُّرها، وتأثيرها الثَّقافي، ونوعيَّتها الأدبيَّة. وكانت هُناك دراسات عديدة، صحيحة أو لا، عن فُرسان الهَيكَل، وعن الحملات الصَّليبيَّة. لكنَّ القليل من خُبراء رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» كانوا مُؤرِّخين ـ بينما عدد أقلّ مايزالون يُبدون الكثير من الاهتمام بالتَّاريخ المُعقَّد، والدَّنيء، وغير الرُّومانسي في أغلب الأحيان ـ لفُرسان الهَيكَل، والحملات الصَّليبيَّة.

بالطَّريقة نفسها؛ مُؤرِّخو فُرسان الهَيكَل والحملات الصَّليبيَّة، كَكُلِّ المُؤرِّخين، تمسَّكوا ـ بشكل مُباشر ـ بالسِّجلَّات والوثائق «الواقعيَّة».

رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» نُبِذَتْ علىٰ أنَّها مُجرَّد روايات، علىٰ أنَّها لا شيء أكثر من «ظاهرة ثقافيَّة»، وصُنِّفَ من «النَّاتج العَرَضي» النَّاتج عن «أوهام العَصْر». يعني هَرْطَقَةً أنْ تقترح هؤلاء المُؤرِّخين أنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ قد ـ تحتوي لُبَّ الحقيقة التَّاريخيَّة، بالرّغم من أنَّ سكليمن ـ قبل أكثر من قرن ـ اكتشف موقع طروادة، عبر القراءة المُتأنِّية لرواية هُوميرُوس.

صحيح أنَّ الكُتَّاب السَّخريِّيْن المُختلفين ـ الذين يسيرون ـ بشكل أوَّليٍّ ـ علىٰ أساس التَّفكير الحالم ـ قد مَنَحُوا مصداقيَّة حَرْفيَّة للأساطير، مُدَّعين بأنَّه ـ بطريقة سِحْريَّة ما ـ فُرسان الهَيكَل كانوا حُماة «الكَأس المُقَدَّسَة»؛ مهما كانت «الكَأس المُقَدَّسَة». لكنْ؛ لم يكن هُناك دراسة تاريخيَّة جدِّيَّة لمُحاولة تأسيس أيِّ صلة حقيقيَّة.

فُرسان الهَيكَل يُعدُّون حقيقة، و«الكَأس المُقَدَّسَة» يُعدُّ كرواية، وليس هُناك صلة مُحتملة مُعترَف بها بين الاثنَيْن. وبالتَّالي؛ إنْ كانت رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» أُهمِلَتْ من قِبَل العُلماء والمُؤرِّخين في الفترة التي كُتِبَ بها، فإنَّه ليس من المُدهش بأنَّها أُهمِلَتْ من قِبَل الخُبراء في العُهُود السَّابقة لذلك.

ببساطة؛ لم يخطر ببال اختصاصي في العهد الميرُوفي أنْ يشكَّ بأنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» تُسلِّط الضَّوء ـ بأيِّ شكل ـ علىٰ موضوع دراسته، إنْ كـان ـ في الحقيقـة ـ لديـه أيَّـة معلومـات عـن رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة».

لكنْ؛ أَ لا يُعدُّ إغفال جدِّيٌّ أنَّه ولا عالِمٍ ميرُوفي من الذين صادفناهم قـام حتَّـىٰ بمُجـرَّد ذِكْـر للأساطير الآرثريَّة؛ التي ـ زمنيّاً ـ تُشير إلىٰ العهد ذاته، الذي ادَّعىٰ أنَّه عايشه؟!

إنْ كان المُؤرِّخون غير مُستعدِّين للقيام بهذه الارتباطات، فإنَّ العُلماء التَّوراتيِّيْن أقلُّ اسـتعداداً للقيام بذلك.

أثناء العُقُود الأخيرة؛ ظهر خليط مُشوَّش من الكُتُب؛ التي تذكر أنَّ السَّيِّد المسيح كان مُسالماً، وزاهداً، وباطنيّاً، وبُوذيّاً، وساحراً، وثوريّاً، وشاذّاً جنسيّاً، وحتَّىٰ إنَّه وُصِفَ بالفُطْر.

لكنْ؛ علىٰ الرّغم من كثرة هذه المادَّة التي تتحدَّث عن السَّيِّد المسيح والمُحيط التَّـاريخي للعهـد الجديد، لم يكن هُناك أيُّ مُؤلِّف ـ علىٰ حَدِّ علْمنا ـ تطرَّق لمسألة «الكَأس المُقَدَّسَة».

لماذا عليه أنْ يقوم بذلك؟!

لماذا يجب علىٰ خبير بالتَّاريخ التَّوراتي أنْ يمتلك أيَّ اهتمام أو إلمام بسَيْل القـصائد الرُّومانـسيَّة الخياليَّة، التي أُعِدَّتْ في أُورُوبا الغربيَّة بعد أكثر من ألف سنة؟!

يبدو أنَّه لا يُصدِّق بأنَّ رُومانـسيَّات «الكَـأس المُقَدَّسَـة» يُمكنهـا ـ بـأيِّ شـكل ـ أنْ تُوضِّـح الألغاز التي تُحيط بالعهد الجديد.

لكنَّ الحقيقة والتَّاريخ والمعرفة لا يُمكنها أنْ تُقسَّم وتُفصَل طبقاً لنظـام تنقـيح كَيْفـي للفكْـر الإنساني. وبما أنَّ الدَّليل الوثائقي قد يكون من الصَّعب أنْ يصل، فمن الواضح أنَّ التَّقاليد قـد تبقـىٰ لمُدَّة ألف سنة، ثُمَّ تظهر علىٰ السَّطح علىٰ شـكل كُتُـب، تُنير الأحـداث الـسَّابقة. بعـض القَـصَص الأيرلنديَّة ـ علىٰ سبيل المثال ـ يُمكن أنْ تكشف الكثير عن التَّغيير في المُجتمع الأيرلنـدي القـديم مـن المُجتمع الأُمُومي[1]، إلىٰ المُجتمع الأبوي.

(1) (أيْ مُجتمع، أو دولة، تحكمها امرأة. المُترجم).

وبدُون عَمَل هُوميرُوس، الذي أُعِدَّ بعد فترة طويلة مـن الحَـدَث، لم يكـن بمقـدور أحـد أنْ يسمع عن حصار طروادة البتَّة. أُوبرا «الحَرْب والسَّلام» ـ بالرّغم من أنَّها كُتِبَتْ بعد أكثر مـن نـصف قرن ـ يُمكنها أنْ تُخبرنا عن رُوسيا أثناء العصر النَّابُليُوني بشكل أكثر من مُعظم كُتُب التَّاريخ، وحتَّىٰ أكثر من مُعظم الوثائق الرَّسْميَّة.

الباحث الموثوق يجب أنْ يعمل كالمخبر، أنْ يتتبَّع أيَّة أفكار تقع بين يدَيْـه، مهـما كانـت تبـدو بعيدة الاحتمال. الشَّخص لا يجب أنْ يرفض المادَّة بشكل افتراضي، حالاً، لأنَّ ذلك يُهـدِّد بسَحْبه إلىٰ أرض اللَّاإمكانيَّة، أو إلىٰ أرض غريبة. أحداث فضيحة وُترغيت[1]. علىٰ سبيل المثـال، أُعيـد بناؤهـا ـ بشكل أساسي ـ من أجزاء تبدو مُتباينة، كُلٌّ منها لا معنىٰ له من دُون الاتِّصال مع غيره من الأجزاء.

في الحقيقة؛ لابُدَّ وأنَّ البعض من «الأعمال الخبيثة» الطُّفُوليَّة ـ في أغلـب الأحيـان ـ قـد بـدت إلىٰ المُحقِّقين آنذاك، وكأنَّها مُنفصلة عن قضايا أوسع بالطَّريقة نفسها، التي تبدو فيها رُومانسيَّات «الكَـأس المُقَدَّسَة» مُنفصلة عن العهد الجديد. وفضيحة وترغيت كانت محصُورة في بلـد وحيـد، والوقـت امتـدَّ لبضع سنوات قصيرة. موضوع تحقيقنا يُحيط بكُلِّ الثَّقافة الغربيَّة، والوقت امتدَّ لألفيَّتَيْن.

الضَّروري للمرء أنْ يعتمد في مادَّته المُختارة علىٰ منهج يعتمد حُقُـول دراسـة مُختلفـة؛ المـنهج المُتنقِّل والمرن، الذي يسمح للشَّخص بالتَّحرُّك ـ بحُرِّيَّة ـ بين الحُقُول المُختلفة، عبر الزَّمـان والمكـان. المرء يجب أنْ يكون قـادراً عـلىٰ رَبْـط البيَانَـات، ويـصنع الارتباطـات بـين الأشـخاص والأحـداث والظَّواهر المُبتعدة علىٰ نحو واسع عن بعضها البعض.

المرء يجب أنْ يكون قادراً علىٰ التَّحرُّك، كما تُملي الضَّرورة، مـن القـرن الثَّالـث، إلىٰ الثَّـاني، إلىٰ السَّابع، إلىٰ الثَّامن عشر، مُستخدماً الطَّيف المُتنوِّع مـن المـصادر؛ النُّصُوص الإكليرُوسـيَّة القديمـة، رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة»، سجلَّات الميرُوفيِّيْن وتواريخهم ، الكتابات الماسُونيَّة.

(1) (وُترغيت، اسم فضيحة سياسيَّة أمريكيَّة رئيسة، بدأت بالسَّطو والتَّـنصُّت عـلىٰ مقـرِّ حملـة الحـزب الـدِّيمُقراطي، وأدَّت ـ فيما بعد ـ إلىٰ غَمْر الرَّئيس ريتشارد نيكسون والعديد من مُؤيِّديه بتشكيلة من الأفعال غير الـشَّرعيَّة، وتتوَّجـت العمليَّة بالاستقالة الأُولىٰ لرئيس أمريكي. المُترجم).

باختصار؛ المرء يجب أنْ يُركّب ـ فقط ـ بمثل هذا التأليف، يُمكن للشّخص أنْ يعرف الاستمراريّة التّحتيّة، والنّسيج المُوحّد والمُتماسك، الذي يكمن في صميم أيٍّ مُشكلة تاريخيّة.

موقف كهذا هُو لا تطرُّقيّ جدّاً من حيثُ المبدأ، ولا جداليّ جدّاً. هُو أشبه ـ إلىٰ حَدٍّ ما ـ بالتّمسُّك بعقيدة الكَنيسَة المُعاصرة؛ مفهوم الطّهارة ـ علىٰ سبيل المثال ـ أو العُزُوبة الإلزاميّة للكَهَنَة ـ واستعمالها لإنارة المسيحيّة القديمة.

تقريباً؛ بالطّريقة نفسها قد تُستخدَم رُومانسيّات «الكَأس المُقَدَّسَة» لتسليط بعض الضّوء الهامّ علىٰ العهد الجديد؛ علىٰ وظيفة وهُويّة السّيِّد المسيح.

أخيراً؛ ليس من الكافي أنْ يُقيِّد المرء نفسه إلىٰ الحقائق بشكل خاصٍّ. علىٰ المرء ـ أيضاً ـ أنْ يعرف تشعُّبات ونتائج الحقائق، كتلك التّشَعُّبَات والنّتائج التي أشرقت عبر القُرُون ـ في أغلب الأحيان ـ علىٰ شكل أُسطُورة، وخُرافة.

صحيح أنَّ الحقائق بذاتها قد تُحرَّف بمُرُور الوقت، كاهتزاز الصَّدَىٰ بين المُنحدرات. ولكنْ؛ إنْ كان الصّوت بذاته لا يُمكن تحديد مكانه، فإنَّ الصَّدَىٰ، مهما كان مُشوَّهاً ـ لرُبَّما ـ سيُشير إلىٰ الطّريق المُؤدِّية إلىٰ ذلك الصّوت.

باختصار؛ الحقائق سَقَطَتْ كالأحجار في بركة التّاريخ. تختفي بسُرعة، وفي أغلب الأحيان؛ بدُون أثر. لكنّها تُولِّد تلك الموجات التي ـ إنْ كان منظور المرء واسعاً بما فيه الكفاية ـ تُمكِّن المرء من أنْ يُحدِّد ـ بدقّة ـ المكان الأصليّ لسُقُوط الحصاة. مُوجَّهاً بالموجات، قد يتمكّن الشّخص من أنْ يغوص، أو يجرف، أو يتبنّىٰ أيَّ منهج يرغب به.

الفِكْرَة هي أنَّ تلك الموجات تسمح للشّخص بتحديد المكان، الذي ـ رُبّما ـ لا يُمكن تحديده، أو استعادته بطريقة ثانية.

أصبح من الواضح ـ بالنّسبة لنا الآن ـ أنَّ كُلَّ شيء درسناه أثناء تحقيقنا لم يكن إلّا موجة، الموجة التي ـ بعد أنْ راقبناها بشكل صحيح ـ وجّهتنا إلىٰ حجر واحد، رُمي في بركة التّاريخ، قبل ألفَيْ عام.

الفَرَضيَّة

شَخْصيَّة مَجْدَلِيْن (مَرْيَم المَجْدَليَّة) وَرَدَتَ - بوُضُوح - في كافَّة أنحاء تحقيقنا. طبقاً لبعض الأساطير من القُرُون الوُسْطَىٰ؛ مَجْدَلِيْن جَلَبَتْ «الكَأس المُقَدَّسَة» - أو «الدَّم المَلَكي» - إلىٰ فرنسا. إنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» ترتبط بالسَّيِّد المسيح بشكل مُباشر. و«الكَأس المُقَدَّسَة» - في أحد المُستويات علىٰ الأقلِّ - تتعلَّق - بطريقة ما - بالدَّم، أو بشكل مُحَدَّد أكثر، بسُلالة ونَسَب.

إنَّ رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة» - في الجُزء الأكبر منها، علىٰ أيَّة حال - أُعِدَّتْ في عهد الميرُوفيِّيْن. لكنَّها لم تُعدّ حتَّىٰ الفترة التي تلت تنصيب غُودفرُوي دُو بُولوين - السَّليل القَصَصي لعائلة «الكَأس المُقَدَّسَة»، والسَّليل الفِعْلي للميرُوفيِّيْن - كملك للقُدْس، ملك لكُلِّ شيء، ولكنْ؛ بالاسم.

إنْ كُنَّا نتعامل مع أيِّ شَخْص عدا السَّيِّد المسيح - إنْ كُنَّا نتعامل مع شَخْصيَّة بارزة مثل ألكساندر، علىٰ سبيل المثال، أو جُوليُوس قَيْصَر - فإنَّ هذه القصاصات المُتجزِّئة للدَّليل - وحدها - كانت ستقود إلىٰ خاتمة واضحة بشكل ساطع، وغالباً؛ بشكل حَتْمي.

ونحنُ قُمنا بالاستناد علىٰ تلك النَّتيجة، مهما كانت إمكانيَّتها الجَدَليَّة والمُثيرة، وبدأنا باختبارها - علىٰ الأقلِّ - كَفَرَضيَّة تجريبيَّة.

رُبَّما مَجْدَلِيْن - تلك المرأة المُحيِّرة في الإنجيل - كانت - في الحقيقة - زوجة السَّيِّد المسيح. رُبَّما زواجهما أنتج نَسْلاً.

بعد الصَّلْب؛ رُبَّما مَجْدَلِيْن هربت إلىٰ بلاد الغال، ومعها - علىٰ الأقلِّ - طفل واحد؛ حيثُ كانت الجاليات اليهُوديَّة المُؤسَّسة قد وُجِدَتْ سَلَفَاً، وحيثُ - بالنَّتيجة، لرُبَّما - وجدت مأوىٰ لها.

باختصار؛ رُبَّما كان هُناك سُلالة وراثيَّة تحدَّرت - مُباشرة - من السَّيِّد المسيح. رُبَّما هذه السُّلالة، هذا الدَّم المُقَدَّس الأسمىٰ، خلَّد نفسه بعد ذلك، بشكل سليم ومُتنكِّر، لحوالي أربعمائة سنة؛ والذي - بالنَّتيجة - ليس وقتاً طويلاً جدَّاً لسُلالة مُهمَّة.

رُبَّما كان هُناك تزاوج سُلالي مُختلط، ليس ـ فقط ـ مع العائلات اليهُوديَّة الأُخرَىٰ، بل مع الرُّومان والقُوطيِّيْن الغربيِّيْن أيضاً. ورُبَّما في القرن الخامس؛ أصبحت سُلالة السَّيِّد المسيح مُتحالفاً مع السُّلالة المَلَكيَّة الفرنكيَّة، وبذلك؛ نشأت سُلالة الميرُوفيِّيْن.

إنْ كانت هذه الفَرَضيَّة التَّمهيديَّة صحيحة من أيَّة ناحية، فإنَّها ستخدمنا في توضيح عدد كبير من العناصر المُحيِّرة، التي وَرَدَتْ في تحقيقنا، ستُوضِّح المكانةَ الاستثنائيَّةَ التي مُنِحَتْ لمَجْدَلِيْن، والأهمِّيَّة الدِّينيَّة، التي أنجزتْها أثناء الحملات الصَّليبيَّة، ستُوضِّح المنزلةَ المُقَدَّسَةَ، التي مُنِحَتْ للميرُوفيِّيْن، ستُوضِّح الولادة الأُسطُوريَّة لميرُوفي؛ الطِّفل ذي الأبوَيْن، أحدهما مخلوق بَحْري رَمْزي من وراء البحر، المخلوق البَحْري، الذي ـ كالسَّيِّد المسيح ـ قد يُكافِئ السَّمكة الرَّمْزيَّة، ستُوضِّح التَّحالف بين الكَنيسَة الرُّومانيَّة وسُلالة كلُوفيس؛ لأنَّه أَلن يكون التَّحالف مع أحفاد السَّيِّد المسيح المُباشرين هُو تحالف واضح مع الكَنيسَة، الذي أُسِّس علىٰ اسمه؟! وستُوضِّح الأهمِّيَّة التي تبدو غير مُتناسبة في اغتيال داغُوبرت الثَّاني؛ بالنِّسبة للكَنيسَة؛ لأنَّها طرف في عمليَّة القَتْل تلك، كانت مُذنبة، ليس ـ فقط ـ بجريمة قَتْل الملك، ولكنْ؛ طبقاً لعقائدها الخاصَّة، قاتلةً لإله، ستُوضِّح مُحاولة استئصال داغُوبرت من التَّاريخ، ستُوضِّح هَوَس الكَارُولينيِّيْن لتشريع أنفسهم كأباطرة رُومَا المُقدَّسين، بادِّعائهم النَّسَب الميرُوفي.

سُلالة تحدَّرت من السَّيِّد المسيح عبر داغُوبرت ستُوضِّح ـ أيضاً ـ عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة» في الرُّومانسيَّات السِّرِّيَّة، التي أحاطت بها، منزلتها السَّامية، الملك الصَّيَّاد المعوق، غير القادر علىٰ الحُكْم، العمليَّة التي من خلالها أصبح بارزيفال، أو بيرسيفال، وريثاً لقلعة «الكَأس المُقَدَّسَة».

أخيراً؛ ستُوضِّح النَّسَبَ الخفيَّ لغُودفرُوي دُو بُولوين؛ ابن، أو حفيد، لُوهينغرين، حفيد، أو ابن حفيد بارزيفال، سليل عائلة «الكَأس المُقَدَّسَة».

وإنْ كان غُودفرُوي تحدَّر من السَّيِّد المسيح، فإنَّ انتصاره في أَسْر القُدْس عام **1099**، سيعني شيئاً أكثر أهمِّيَّة بكثير من مُجرَّد إنقاذ الضَّريح المُقَدَّس من الكَفَرَة. غُودفرُوي كان قد استردَّ تُراثه الشَّرْعي الخاصّ.

كما قد أصبنا ـ سَلَفَاً ـ في تخميننا بأنَّ الإشارات المُتكرِّرة في تحقيقنا إلىٰ الكِرامة[1] كانت تُمثِّل تحالفات سُلاليَّة. علىٰ أساس فَرَضيَّتنا الكِرامة؛ بدت ـ الآن ـ بتمثيل العمليَّة التي خلَّد عبرها السَّيِّد المسيح نفسه؛ الذي يُميِّز نفسه ـ مراراً، وتكراراً، بالكرمة.

كتأكيد؛ اكتشفنا باباً منقوشاً، يُصوِّر السَّيِّد المسيح كعُنقُود العنب. هذا الباب كان في دَيْر صهيُون، في سويسرا.

السِّيناريو الافتراضي الذي اعتمدناه كان مُثيراً ومُتوافقاً منطقيَّاً. لحَدِّ الآن ـ علىٰ أيَّة حال ـ كان مُحالاً أيضاً.

علىٰ الرّغم من أنَّه يبدو جذَّاباً، إلَّا أنَّه كان ـ لحَدِّ الآن ـ سطحيَّاً جدَّاً، ويستند ـ إلىٰ حَدٍّ بعيد ـ علىٰ أساس ضعيف.

بالرّغم من أنَّه وضَّح العديد من الأشياء، إلَّا أنَّه لا يستطيع ـ لحَدِّ الآن ـ أنْ يكون مُؤيَّداً بذاته.

مازال هُناك الكثير من الثَّغرات فيه، الكثير من التَّضاربات والأشياء الشَّاذَّة، الكثير من النِّهايات المُخَلْخَلَة. قبل أنْ نقدر علىٰ أنْ نُفكِّر به، أو نهتمّ به بجدِّيَّة، كان علينا أنْ نضع في الحسبان؛ سواء كان هُناك أيُّ دليل حقيقي يدعمه.

في مُحاولة لإيجاد مثل هذا الدَّليل؛ بدأنا باستكشاف الإنجيل، البيئة التَّاريخيَّة للعهد الجديد، وكتابات الآباء الأوائل للكَنيسَة.

---

(1)(الكِرامة: زراعة الكُرُوم. المُترجم).

12

الملك الكَاهن الذي لم يَحكُم أبداً

أكثر النَّاس يتكلَّمون عن المسيحيَّة اليوم كما لو أنَّها كانت شيئاً مُعيَّناً مفرداً؛ كياناً مُوحَّداً، ومُتجانساً، ومُتماسكاً.

لا حاجة للقول بأنَّ المسيحيَّة لا شيء من ذلك. كُلُّ شَخص يعرف أنَّ هُناك أشكالاً عديدة من المسيحيَّة: الكَاثُوليكيَّة الرُّومانيَّة، علىٰ سبيل المثال، أو الكَنيسَة الإنجليزيَّة التي أُنشئت من قِبَل هنري الثَّامن. هُناك الطَّوائف الأُخرىٰ المُختلفة للبرُوتستانتيَّة ـ من اللُّوثريَّة[1] (Lutheranism) الأصليَّة، والكَالفينيَّة في القرن السَّادس عشر، وُصُولاً إلىٰ التَّطوُّرات الحديثة نسبيَّاً كالتَّوحيديَّة.

هُناك الكثير من الجماعات، أو التَّجمُّعات «الإنجيليَّة»، كمُؤمني اليوم السَّابع بعودة المسيح[2]، وشُهُود يَهْوَه[3]. وهُناك طوائف وفِرَق مُعاصرة مُتنوِّعة، مثل «أطفال الله»، و«كَنيسَة التَّوحيد للكَاهن مُون»[4].

إنْ قام الشَّخص بإجراء مَسْح لهذا الطَّيف المُحيِّر من الاعتقادات ـ من الدُّوغماتي والمُحافظ المُتطرِّف، وُصُولاً إلىٰ الرَّاديكالي والباطني، فمن الصَّعب عليه تحديد ما تُشكِّله المسيحيَّة بالضَّبط.

إنْ كان هُناك عامل واحد يسمح للإنسان بالتَّحدُّث عن المسيحيَّة، العامل الوحيد الذي يربط المذاهب المسيحيَّة المُتنوِّعة والمُتباعدة ـ عادةً ـ ببعضها، هُو العهد الجديد، وبشكل أكثر خُصُوصيَّة،

---

(1) (لُوثريّ: ذو علاقة بالمُصلح الدِّيني لُوثر (1483 ـ 1546)، أو بمذهبه، أو بالكَنائس البرُوتستانتيَّة المُتمسِّكة بتعاليمه. المُترجم).

(2) (Day Adventists-Seventh): الطَّائفة البرُوتستانتيَّة، التي تُؤمن بالعودة الثَّانية للسَّيِّد المسيح، وتتَّخذ السَّبت كيَوم راحة، وعُطلة. المُترجم).

(3) (مجموعة دينيَّة، تُؤمن بوشاكة عودة عهد السَّيِّد المسيح إلىٰ الأرض، وترفض القانون العلْماني، الذي يظهر فيه تضارب مع القُدْسيَّة. يرفض شُهُود يَهْوَه مذهب الثَّالُوث. المُترجم).

(4) (طائفة دينيَّة أُسِّست في 1954، من قِبَل الصِّناعي والكَاتب والوزير الكُوري الجنوبي سُون مايُونغ مُون. أتباعه يُدعَون بالمُونيِّين. المُترجم).

المنزلة الفريدة التي نُسِبَتْ في العهد الجديد إلىٰ السَّيِّد المسيح، أَلا وهي صَلبه وانبعاثه. حتَّىٰ إنْ كان الشَّخص لا يُؤيِّد الحقيقة الحَرْفيَّة، أو التَّاريخيَّة، لتلك الأحداث، يكفي قبوله لأهمِّيَّتها الرَّمْزيَّة عُموماً لكي يُعدَّ مسيحيّاً.

إذنْ؛ إنْ كان هُناك أيّة وحدة، في الظَّاهرة المُنتشرة التي تُسمَّىٰ المسيحيَّة، فهي مُستقرَّة في العهد الجديد، وبشكل مُحَدَّد أكثر؛ في روايات السَّيِّد المسيح المعروفة بكُتُب الإنجيل الأربعة. هذه الرِّوايات تُعدُّ ـ عُموماً ـ بأنَّها المعلومات المُدوَّنة الأكثر ثقة؛ وللعديد من المسيحيِّين؛ يُفترَض أنَّها مُتماسكة، وصادقة.

مُنْذُ الطُّفُولة يقتنع الشَّخص بأنَّ قصَّة السَّيِّد المسيح المحفوظة في كُتُب الإنجيل الأربعة هي ـ علىٰ الأقلِّ ـ مُؤكَّدة، هذا إنْ لم تكن كلام الله. الدُّعاة الأربعة، المُفترَض بأنَّهم مُؤلِّفو كُتُب الإنجيل، يُعدُّون الشُّهُود المُوثَّقين، الذين يُعزِّزون ويُؤكِّدون شهادات بعضهم البعض.

بالنِّسبة للأشخاص الذين يدعون أنفسهم اليوم مسيحيِّين؛ القليل نسبيّاً هُم المُدركون أنَّ كُتُبَ الإنجيل الأربعة لا تُناقض بعضها البعض فحسب، بل تختلف بشدَّة كبيرة أحياناً.

بقدر ما يتعلَّق الأمر بالتَّقاليد الشَّعبيَّة، أصل وولادة السَّيِّد المسيح معروفة بشكل كافٍ تماماً. لكنْ؛ في الواقع، ذلك الموضوع هُو مُبهم جدّاً في كُتُب الإنجيل، التي تستند إليها تلك التَّقاليد. فقط؛ اثنان من كُتُب الإنجيل ـ مَتَّىٰ ولُوقَا ـ تحدَّثا عن أُصُول وولادة السَّيِّد المسيح بشكل قليل جدّاً؛ وهُما مُختلفان ـ بشكل صارخ ـ مع بعضها البعض. طبقاً لمَتَّىٰ ـ علىٰ سبيل المثال ـ السَّيِّد المسيح كان أرستقراطيّاً، إنْ لم يكن الملك الشَّرْعي والحقيقي؛ تحدَّر من داود عن طريق سُلَيْمان. طبقاً للُوقَا، من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ عائلة السَّيِّد المسيح، مع أنَّها تحدَّرت من آل داود، كانت ـ نوعاً ما ـ من أصل أقلّ نَبالة؛ ووُفقاً لرواية مَرْقُس؛ ظهرت أُسطُورة «النَّجَّار الفقير» للوُجُود.

باختصار، النَسَبَان مُختلفان جدّاً، كما لو أنَّهما يُشيران إلىٰ شَخْصَيْن مُختلفَيْن تماماً.

التَّناقضات بين كُتُب الإنجيل لم تنحصر في مسألة أسلاف السَّيِّد المسيح وأنسابه.

طبقاً للُوقَا؛ عند ولادة السَّيِّد المسيح زاره رُعاة. وطبقاً لمَتَّىٰ؛ زاره مُلُوك. طبقاً للُوقَا؛ عائلة السَّيِّد المسيح عاشت في النَّاصرة. من هُنا؛ قيل بأنَّهم سافروا ـ استجابة للإحصاء السُّكَّاني، الذي

يقترح التَّاريخ بأنَّه لم يحدث قطُّ[1] ــ إلىٰ بيت لحم؛ حيثُ وُلِدَ السَّيِّد المسيح في فاقة، في معلَف للحيوانات. لكنْ؛ طبقاً لمَتَّىٰ؛ عائلة السَّيِّد المسيح كانت ـ نوعاً ما ـ من مُقيمين ـ أصلاً ـ في بيت لحم من البدء، والسَّيِّد المسيح بنفسه كان قد وُلِدَ في منزل. في نُسخة مَتَّىٰ؛ اضطهاد هيرُودُوس للأبرياء، دفع العائلة للهُرُوب إلىٰ مصر، وفقط؛ عند عودتهم، أقاموا في النَّاصرة.

إنَّ المعلومات في كُلِّ هذه الرِّوايات مُحَدَّدة تماماً، ومعقولة جدَّاً؛ علىٰ فَرَض أنَّ الإحصاء السُّكَّاني قد حَدَثَ فعلاً. ومع ذلك؛ المعلومات ـ ببساطة ـ لا تتوافق مع بعضها البعض. هذا التَّناقض لا يُمكن تبريره. ليس هُناك وسائل مُحتملة يُمكن من خلالها أنْ نجعل القصَّتَيْن المُتعارضتَيْن صحيحتَيْن، وليس هُناك وسائل ـ من خلالها ـ يُمكن أنْ نجعلهما مُتَّفقتَيْن. سواء اهتمَّ المرء بالاعتراف بها أم لا، الحقيقة يجب أنْ تُعرَف بأنَّ أحد الإنجيلَيْن، أو كلاهما، خاطئ. ونَظَراً لهذه النَّتيجة الواضحة والمُؤكَّدة، لا يُمكن أنْ نعدَّ كُتُب الإنجيل بأنَّها لا تُخطئ. كيف تكون كذلك، وهي تُناقض بعضها البعض؟!

كُلَّما درس الشَّخص كُتُبَ الإنجيل أكثر، اكتشف المزيد من التَّناقضات الواضحة بينها. في الحقيقة؛ هي لا تتَّفق حتَّىٰ في اليوم الذي تمَّ فيه الصَّلْب. طبقاً لإنجيل يُوحنَّا؛ الصَّلْب حَدَثَ في اليوم الذي سبق عيد الفصح. طبقاً لإنجيل مَتَّىٰ ولُوقَا ومَرْقُس، هُو حَدَثَ في اليوم الذي تبع عيد الفصح. ولا تتَّفق كُتُبُ الإنجيل في شَخْصيَّة وطبيعة السَّيِّد المسيح. كُلٌّ منها يُصوِّر شَخْصيَّة تختلف ـ بوُضُوح ـ مع الشَّخصيَّة، التي تُصوِّرها كُتُبُ الإنجيل الأُخْرَىٰ، مثلاً، في لُوقَا؛ هُو المُنقذ، والأشبه بالحَمَل الوديع، وفي مَتَّىٰ؛ هُو ملك مهيب وقويّ، جاء ليس ليجلب السَّلام، بل السَّيف. وهُناك خلافات أُخرىٰ حول كلمات السَّيِّد المسيح الأخيرة علىٰ الصَّليب. في مَتَّىٰ ومَرْقُس؛ الكلمات كانت «إيلي، إيلي، لِمَ شَبقتَني؟!» أيْ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟!». أمَّا في لُوقَا؛ فهي «يا أبي، في يدَيْكَ أستودعُ رُوحي». وفي يُوحنَّا؛ هي ـ ببساطة ـ «تمَّ كُلُّ شيء».

(1) تقول التَّوراة: «وفي تلك الأيَّام؛ أمر القَيْصَر أُوغسطس بإحصاء سُكَّان الإمبراطُوريَّة، وجرىٰ هذا الإحصاء الأوَّل عندما كان كيرينيُوس حاكماً لسُوريا. فذهب كُلٌّ واحد إلىٰ مدينته ليكتتب فيها... وبينما هُما في بيت لحم، جاء وقتها لتلد، فولدتْ ابنها البكْر، وقمَّطتْهُ، وأضجعتْهُ في مِذْود (معلَف للحيوانات)؛ لأنَّه كان لا محلَّ لهما في الفُندُق». المُترجم).

نَظَرَاً لهذه التَّناقضات، لا يُمكن تقبُّل كُتُب الإنجيل إلَّا كمصادر مشكوك فيها جدَّاً، وبالتَّأكيد؛ ليس بشكل قطعي. إنَّها لا تُجسِّد الكلمة المثاليَّة لأيِّ إله؛ إنْ كانت كذلك، فلا شكَّ أنَّ كلمات الله حُرِّرَتْ، ونُقِّحَتْ، وصُقِلَتْ، وأُعِيْدَتْ كتابتها بأيد بَشَريَّة. التَّوراة ـ يجب أنْ نتذكَّر، وهذا يُطبَّق علىٰ العهدَيْن القديم والجديد كلَيْهما ـ أنَّها مُجرَّد أعمال مُنتقاة، ومن نواح عديدة، أعمال مُنتقاة بشكل كَيْفي.

في الحقيقة؛ كان بالإمكان أنْ تتضمَّن التَّوراة كُتُب وكتابات أكثر بكثير ممَّا هي عليه الآن. ولا حتَّىٰ إنَّه يُوجد هُناك كُتب مفقودة. علىٰ العكس، تلك الكُتُب تمَّ استثناؤها وإخفاؤها بتعمُّد.

عام **367**، بعد الميلاد، الأُسقُف أثناسيُوس الإسكندراني جَمَعَ قائمة بالأعمال التي سيتمُّ تضمينها في العهد الجديد. هذه القائمة صُدِّقَتْ من قِبَل مجلس كَنيسَة بنزرت[1]، عام **393**، وصُدِّقَتْ ـ مرَّة ثانية ـ من قِبَل مجلس قرطاجة بعد أربع سنوات. في هذه المجالس؛ تمَّ الاتِّفاق علىٰ مجموعة مُختارة. بعض الأعمال المُحَدَّدة جُمِّعَتْ لتُشكِّل ما هُو اليوم العهد الجديد، والأعمال الأُخْرَىٰ أُهْمِلَتْ بتعجرُف.

كيف يُمكن اعتبار أنَّ عمليَّة انتقائيَّة كهذه من المُمكن أنْ تكون جازمة؟!

كيف لاجتماع سرِّيٍّ ناجح لرجال الدِّين أنْ يُقرِّر الكُتُب التي يجب اعتمادها لتُشكِّل الكتاب المُقدَّس، بينما يتمُّ رَفْض كُتُب أُخرىٰ؟! خُصُوصاً عندما تكون البعض من تلك الكُتُب المُستثناة تمتلك معلومات موثوقة جدَّاً تاريخيَّاً!!

علاوةً علىٰ ذلك؛ التَّوراة ـ كما هُو موجود اليوم ـ ليس ـ فقط ـ مُنتجاً عن عمليَّة انتقائيَّة كَيفيَّة، بل تعرض ـ أيضاً، بشكل صارم ومُتشدِّد ـ لبعض التَّحرير والرَّقابة والتَّنقيح.

في عام **1958**، علىٰ سبيل المثال، الأُستاذ مُورتن سميث في جامعة كُولُومبيا اكتشف في دَيْر قُرب القُدْس رسالةً، احتوت علىٰ جُزء مفقود من إنجيل مَرْقُس. هذا الجُزء المفقود لم يكن مفقوداً. بالعكس؛ علىٰ ما يبدو أنَّه انتُزِعَ بتعمُّد ـ بتحريض ـ إنْ لم يكن بأمر عاجل، من الأُسقُف كليمنت

---

(1) (مدينة تُونُسيَّة تقع علىٰ البحر المُتوسِّط. المُترجم).

الإسكندراني، أحد «آباء الكَنيسَة» القُدماء الأكثر تبجيلاً. كليمنت ـ علىٰ ما يبدو ـ استلم رسالة من شَخْص يُدعىٰ ثيُودُور، الذي اشتكىٰ من طائفة غنُوسطيَّة، تُدعَىٰ الكربُوقراطيِّيْن «Carpocratians»[1]. يبدو أنَّ الكربُوقراطيِّيْن قد فسَّروا بعض العبارات التي وَرَدَتْ في إنجيل مَرْقُس، وُفقاً لمبادئهم الخاصَّة؛ المبادئ التي لم تتَّفق مع موقف كليمنت، وثيُودور.

في النَّتيجة؛ يبدو أنَّ ثيُودور هاجمهم، وأبلغ كليمنت بما قام به. في الرِّسالة التي وُجِدَتْ من قِبَل الأُستاذ سميث، جواب كليمنت لتابعه كانت كالتّالي:

أحسنتَ صُنعاً في إسكات التَّعليمات الشَّنيعة للكربُوقراطيِّيْن؛ لأنَّهم «النُّجُوم الضَّالَّة»، التي أُشير إليها في النُّبُوءة، الذين يتيهون عن الطَّريق الضَّيِّق للوصايا إلىٰ الهاوية، التي لا حُدُود لها من الذُّنُوب الجَسَديَّة، والمادِّيَّة؛ لأنَّهم ـ كما يدَّعون ـ يفتخرون بأنفسهم بمعرفة «الأشياء العميقة للشَّيطان»، هُم لا يعرفون بأنَّهم يختارون لأنفسهم طريقاً من الزَّيف نحو «العالَم الأسفل للظَّلام»، ويفتخرون بأنَّهم أحرار، هُم أصبحوا عبيد الرَّغبات الذَّليلة. «رجال» كهؤلاء يجب مُعارضتهم بشتَّىٰ الطُّرُق، جُملة، وتفصيلاً؛ لأنَّهم حتَّىٰ وإنْ كانوا يقولون شيئاً من الحقيقة، رغم ذلك، علىٰ الشَّخص الذي يُحبُّ الحقيقة أنْ لا يتَّفق معهم؛ لأنَّه ليس كُلُّ الأشياء الحقيقيَّة هي حقيقة، ولا يجب أنْ تكون تلك الحقيقة ـ التي تبدو بشكل «محض» حقيقيَّة وُفقاً للآراء الإنسانيَّة ـ مُفضَّلة علىٰ الحقيقة الحقيقيَّة، التي وُفق الإيمان.

إنَّه بيان استثنائيّ يصدر عن أب كَنيسَة. في الواقع؛ كليمنت لا يقول إلَّا «إنْ حدث وأنْ قال مُعارضوكَ الحقَّ، عليكَ أنْ تدحضَهُ، وأنْ تكذب من أجل دَحْضه». لكنَّ ذلك كُلّ ما في الأمر.

في الفقرة التَّالية؛ رسالة كليمنت تستمرُّ في مُناقشة إنجيل مَرْقُس، و«سُوء استعماله» ـ برأيه ـ من قِبَل الكربُوقراطيِّيْن:

---

(1) (لعدم وُجُود هذه الكلمة في القواميس الإنكليزيَّة، ولندرة المادَّة التي تتحدَّث عن هذه الطَّائفة الغنُوسطيَّة، أودُّ التَّنويه إلىٰ المعنىٰ الذي يُمكن التَّوصُّل إليه بالدِّراسة التَّحليليَّة. هذه الكلمة مُؤلَّفة من شطرَيْن؛ الأوَّل هُو «Carpo»، والذي يعني «مُقْتاتٌ بالأثمار»، والثَّاني هُو «cratians»، ويعني «أنصاراً، أو مُؤيِّدين». هُناك احتمال آخر لو تمَّ اعتبار الشَّطر الأوَّل هُو «Carp» والذي يعني «يعيب، ينتقد». كنتيجة؛ المعنىٰ الأوَّل رُبَّما يكون «النَّباتيِّيْن»، والثَّاني هُو «المُنتقدين». للسُّهُولة سأعتمد مُصطلح «الكربُوقراطيِّيْن». المُترجم).

أمَّا بالنِّسبة لمَتَّىٰ، فقد قام بعد ذلك ـ أثناء إقامة بُطرُس في رُومَا ـ بكتابة «رواية» عن أعمال الرَّبِّ، ولم يُعلن عنها كُلِّها علىٰ أيَّة حال، ولا حتَّىٰ إنَّه أشار ـ لَحَدِّ الآن ـ إلىٰ «الأعمال» السِّرِّيَّة، لكنَّه انتقىٰ تلك التي يعتقد بأنَّها الأكثر إفادة في زيادة إيمان أُولئك الذين عُلِّموا. ولكنْ؛ عندما مات بُطرُس كشهيد، جاء مَرْقُس إلىٰ الإسكندريَّة، جالباً معه مُلاحظاته الخاصَّة، وتلك التي لبُطرُس، والتي منها نَقَلَ إلىٰ كتابه السَّابق الأشياء المُناسبة لأيِّ شيء من شأنه أنْ يصنع التَّقدُّم نحو المعرفة «الرُّوحيَّة». «وهكذا» أُعِدَّ إنجيل أكثر رُوحيَّة للاستعمال من قِبَل أُولئك الذين جُعلوا مثاليِّيْن. علىٰ الرّغم من هذا، هُو ـ لَحَدَّ الآن ـ لم يُفشِ الأشياء التي لا يجب أنْ تُنطَق، ولم يكتب تعاليم الرَّبِّ التَّفسيريَّة، ولكنَّه ـ أيضاً ـ أضاف المزيد إلىٰ القَصَص التي كُتِبَتْ مُسبقاً، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ وضع بعض الأقوال التي عرف ـ بصفته مُعلِّم أسرار الدِّين ـ أنَّه ـ من خلال تفسيرها ـ سينقاد السامُعون إلىٰ الملاذ الأعمق للحقيقة المُخبَّأة خلف سبعة «ستائر». وهكذا، بالحاصل، رتَّب الأُمُور مُسبقاً وُفقاً لاعتقادي، لا بتذمُّر، ولا بتعجُّل، وترك ميِّتاً تأليفه في كَنيسَة الإسكندريَّة؛ حيثُ إنَّه ـ لَحَدِّ الآن ـ محروس بعناية فائقة، ولا يُقرَأ إلَّا من قِبَل أُولئك المُطَّلعين علىٰ الألغاز العظيمة.

لكنْ؛ بما أنَّ الشياطين القذرة تبتكر ـ دائماً ـ الدَّمار للجنس البشري، قام أحد الكربُوقراطيِّيْن ـ مُوجَّهاً من قِبَل أُولئك الشَّياطين، ومُستخدماً لفُنُونهم المُخادعة ـ باستعباد قسِّيس ما من الكَنيسَة في الإسكندريَّة، وحصل منه علىٰ نُسخة للإنجيل السِّرِّيِّ، الذي قام بتفسيره، وترجمته، طبقاً لمذهبه الكافر، والمادِّيِّ، وعلاوةً علىٰ ذلك؛ لوَّث، وخَلَطَ، الكلمات المُقَدَّسَة الطَّاهرة بالأكاذيب الوقحة تماماً.

إذنْ؛ كليمنت يعترف ـ بصراحة ـ أنَّ هُناك إنجيلاً سرِّيَّاً أصيلاً لمَرْقُس. بعد ذلك؛ يأمر ثيُودُور بإنكاره:

لذا؛ كما صرَّحتُ أعلاه، أُولئك الكربُوقراطيُّون لا يجب علىٰ المرء أنْ يفسح لهم المجال أبداً، ولا يجب حتَّىٰ إنْ قدَّموا تزييفهم، علىٰ المرء أنْ يعترف بأنَّه الإنجيل السِّرِّيّ لمَرْقُس، بل يجب عليه أنْ يُنكره، حتَّىٰ لو تطلَّب ذلك أداء القَسَم؛ لأنَّه لا يجب أنْ تُقال كُلُّ «الأشياء» الحقيقيَّة للبشر.

ماذا كان ذلك «الإنجيل السِّرِّيُّ»، الذي أمر كليمنت تابعه بإنكاره، والذي «أساء فَهْمَهُ» الكربُوقراطيُّون؟!

يُجيب كليمنت علىٰ السُّؤال بتضمين نُسخة حَرْفيَّة للنَّصِّ في رسالته:

إليكَ، لذا؛ أنا لن أتردَّد بالإجابة عن «الأسئلة» التي سُئِلَتْ، لأدحض التَّزييف بالكلمات ذاتها من الإنجيل. علىٰ سبيل المثال، ما بين عبارة «وكانوا في طريقهم صُعُوداً إلىٰ أُورشليم»، وعبارة «بعد ثلاثة أيَّام سيقوم»، يذكر «الإنجيل السِّرِّيُّ» حَرْفيّاً «المادَّة» التَّالية:

«وهُم جاءوا إلىٰ بيت عَنيا[1]، وامرأة ما، التي مات أخوها، كانت هُناك. وجاءت، وسجدت أمام السَّيِّد المسيح، وقالت له: «ابن داود، أَشْفِقْ عليَّ». لكنَّ الحواريِّيْن وبَّخوها. والسَّيِّد المسيح، الذي أُغضب، انطلق معها إلىٰ إلىٰ الحديقة؛ حيثُ كان القَبْر، وحالاً؛ سُمِعَتْ صرخة عظيمة من القَبْر. واقترب السَّيِّد المسيح، ودحرج الحجر بعيداً عن باب القَبْر. وحالاً؛ دخل إلىٰ حيثُ كان الشَّابُّ موجوداً، شدَّ يدَيْه للأعلىٰ، ورفعه، قابضاً علىٰ يدَيْه. ولكنَّ الشَّابَّ، وهُو يُحدِّق نحوه، أحبَّه، وبدأ يتوسَّله بأنَّه قد يكون معه. وبعد أنْ خرجوا من القَبْر، ذهبوا إلىٰ بيت الشَّابِّ؛ لأنَّه كان غنيّاً. وبعد ستّة أيَّام، السَّيِّد المسيح أخبره ما عليه فعْله، وفي المساء جاء الشَّابُّ إليه، مُرتدياً قماشاً كُتَّانيّاً فوق جسده العاري. وبقي معه تلك اللَّيلة؛ لأنَّ السَّيِّد المسيح سيُعلِّمه لُغز مملكة الله. ومن ثمَّ؛ ظهر، وعاد إلىٰ الجانب الآخر من الأردن[2]».

هذه الحادثة لا تُوجد ـ الآن ـ في أيّة نُسخة من إنجيل مَرْقُس. في خُطُوطها العريضة ـ علىٰ أيّة حال ـ هي مفهومة بما فيه الكفاية. إنَّها ـ بالطَّبع ـ إحياء لِعازار، الذي وُصف في الإنجيل الرَّابع المنسوب إلىٰ يُوحنَّا.

علىٰ أيّة حال؛ في النُّسخة المُقتبَسة، تُوجد هُناك بعض الاختلافات الهامَّة. في المقام الأوَّل هُناك «صرخة عظيمة» انطلقت من القَبْر قبل أنْ يُدحرج السَّيِّد المسيح الصَّخرة جانباً، أو قبل أنْ يأمر شاغل ذلك القَبْر بالخُرُوج. هذا يقترح ـ بقُوّة ـ بأنَّ الشاغل لم يكن ميّتاً، وبذلك ـ بضربة وحيدة ـ هذا دَحْض لأيِّ أُعجُوبة في ذلك. في المقام الثَّاني، يبدو ـ بوُضُوح ـ أنَّ هُناك أشياء أُخرىٰ مُرتبطة بشكل

(1) (Bethany): بيت عَنيا نسبة إلىٰ قرية في أسفل جبل الزَّيتون قُرب القُدْس في فلسطين القديمة. المُترجم).

(2) (الشَّابُّ الذي لا يلبس إلَّا ثوباً علىٰ جسده العاري ظهر ـ أيضاً، فيما بعد ـ في إنجيل مَرْقُس «14: 50 ـ 51»: «فتركوه كُلُّهم، وهربوا. وتبعه شابٌّ لا يلبس غير عباءة علىٰ عُرْيه، فأمسكوه. فترك عباءته، وهرب عُرياناً». المُؤلِّفون).

أكبر ممَّا يبدو عليه الحال في الرِّوايات المقبولة لحادثة لِعازار، التي يُؤمن بها النَّاس. بالتَّأكيد؛ الفقرة المُقتبَسَة تشهد علىٰ علاقة ما خاصَّة بين الرَّجل الذي في القَبْر والرَّجل الذي «أحياه». القارئ المُعاصر ـ رُبَّما ـ يشعر بالإغراء، عندما يقرأ تلميحاً عن الشُّذُوذ الجنسيّ. من المُحتمَل أنَّ الكاربُوقراطيِّيْن ـ الطَّائفة التي تطلَّعت إلىٰ التَّفوُّق بالأحاسيس عبر إشباع الأحاسيس ـ عَرَفَتْ ـ بالضَّبط ـ معنىٰ هذا التَّلميح. لكنْ؛ كما يُناقش البرُوفيسُور سميث، في الحقيقة؛ إنَّه لَمِن المُحتمل أنَّ الحادثة برُمَّتها تُشير إلىٰ شعائر لمدرسة سرِّيَّة مثاليَّة ـ الموت والإحياء الشَّعائري والرَّمزي من هذا النَّوع كان سائداً جدَّاً في الشَّرق الأوسط، في ذلك الوقت.

في أيِّ حال من الأحوال؛ الفِكْرَة أنَّ تلك الحادثة ـ بالإضافة إلىٰ الفقرة المُقتبَسَة أعلاه ـ لا تظهران في أيِّ نُسخة حديثة، أو مُقرَّة، لمَرْقُس.

في الحقيقة؛ الإشارات الوحيدة إلىٰ لِعازار، أو لشَخْص لِعازار، في العهد الجديد هي في الإنجيل المنسوب إلىٰ يُوحنَّا. وهكذا؛ من الواضح أنَّ نصيحة كليمنت قُبِلَتْ ـ ليست فقط من قِبَل ثيُودور، بل من قِبَل السُّلطات اللَّاحقة أيضاً. ببساطة؛ مُجمل حادثة لِعازار اقْتُطِفَتْ بالكامل من إنجيل مَرْقُس.

إنْ كان إنجيل مَرْقُس مُحرَّراً بهذه الشِّدَّة، فهُو ـ أيضاً ـ أُرْهِقَ بالإضافات المُزوَّرة. في نُسخته الأصليَّة؛ ينتهي المطاف بالصَّلْب، والدَّفْن، وقَبْر فارغ. ليس هُناك مشهد للإحياء، ولا إعادة لَمِّ الشَّمل مع الحوارِيِّيْن. صحيح أنَّ هُناك بعض كُتُب حديثة من التَّوراة تحتوي نهاية أكثر تقليداً من إنجيل مَرْقُس، نهاية تتضمَّن انبعاث المسيح بعد موته بثلاثة أيَّام.

ولكن؛ عَمَليَّاً، كُلُّ العُلماء التَّوراتيِّيْن الحديثين يتَّفقون بأنَّ هذه النِّهاية المُوسَّعة هي إضافة حصلت مُؤخَّراً، ويعود تاريخها إلىٰ أواخر القرن الثَّاني، وهي مُضافة إلىٰ الوثيقة الأصليَّة[1].

(1) (المَخطُوطات الأقدم للكُتُب المُقدَّسَة، بما فيها مَخطُوطة فاتيكانُوس ومَخطُوطة سيناتيُوس، لا تمتلك النِّهاية الموجودة في إنجيل مَرْقُس. في كلَيْهما؛ إنجيل مَرْقُس ينتهي عند 16: 8. كلاهما يعود تاريخه للقرن الرَّابع، وهي الفترة التي جُمِعَت فيها التَّوراة كاملة في مُجلَّد واحد للمرَّة الأولىٰ. المُؤلِّفون).

وهكذا نجد أنَّ إنجيل مَرْقُس يُقدِّم حالتَيْن من العَبَث بالوثيقة المُقَدَّسَة - المُفترَض أنَّها مُلهَمَة من الله - وتحريرها ومُراقبتها وتعديلها وتنقيحها بالأيدي البشريَّة. وحتَّىٰ إنَّ هاتَيْن الحالتَيْن ليستا تخميناً. بالعكس؛ هُما الآن مقبولتان ومُثبتتان تماماً من قِبَل العُلماء.

إذنْ؛ هل بالإمكان أنْ يفترض المرء بأنَّ إنجيل مَرْقُس هُو الحالة الفريدة التي خضع فيها إلىٰ التَّعديل؟!

إنْ كان قد تمَّ التَّلاعب - بسُهُولة - بإنجيل مَرْقُس، فمن المعقول - أيضاً - أنْ نفترض أنَّ كُتُبَ الإنجيل الأُخرَىٰ قد تمَّ التَّلاعب فيها بالطَّريقة نفسها.

إذنْ؛ لأهداف تحقيقنا، نحنُ لا يُمكننا أنْ نقبل كُتُبَ الإنجيل علىٰ أنَّها مصدر مُوثَّق للمعلومات، وأنَّها غير قابلة للتَّفنيد، ولكنْ؛ بالوقت نفسه لا يُمكننا أنْ نرفضها. بالتَّأكيد؛ هي ليست مُختَلَقَة كُلِّيّاً، وبالتَّأكيد؛ قدَّمت القليل من الأدلَّة المُتوفِّرة، التي حصلت حقّاً في الأرض المُقَدَّسَة قبل ألفَيْ سنة.

لذلك؛ تعهَّدنا بالنَّظَر إليها بشكل أكثر دقَّة، وحرصاً، لنفصل الحقيقة عن الخُرافة، ولنفصل الحقيقة التي احتوتْها عن النَّسيج المُفبرك والمُزوَّر، الذي أُخفِيَتْ فيه تلك الحقيقة غالباً. ولكي نُنجز ذلك بشكل فعَّال، أُلزِمْنَا أوَّلاً علىٰ التَّآلف والإلمام بالحقائق التَّاريخيَّة والظُّرُوف المُحيطة بالأرض المُقَدَّسَة عند ظُهُور العهد المسيحي.

كُتُبُ الإنجيل ليست كيانات مُستقلَّة ذاتيّاً، جاءت - بشكل سِحْري - من العَدَم، وظهرت - بشكل عالمي، وأبدي - عبر القُرُون. إنَّها وثائق تاريخيَّة كغيرها من الوثائق الأُخرَىٰ - مثل لفائف البحر الميِّت[1]، ملاحم هُوميرُوس وفيرجيل[2]، ورُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة». إنَّها مُنتجات لمكان مُحَدَّد جدّاً، ولوقت مُحَدَّد جدّاً، ولشعب مُحَدَّد جدّاً، ولعوامل تاريخيَّة مُحَدَّدة جدّاً.

---

(1) (مجموعة مُؤلَّفة من حوالي 600 مخطوطة عبْريَّة وآراميَّة اكتُشِفَتْ في مجموعة كُهُوف قُرب خربة قمران في الأردن، عند النِّهاية الشماليَّة الغربيَّة للبحر الميِّت. المُترجم).

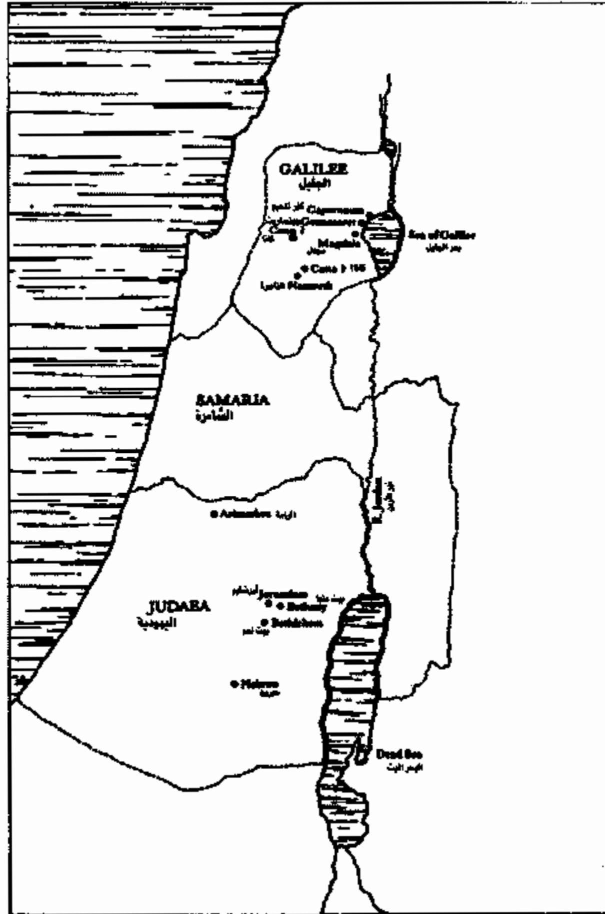
(2) (فيرجيل 70-19 ق. م، وهُو كبير شُعراء الرُّومان. صاحب مَلْحَمَة «الإنياذة» Aeneid. المُترجم).

فلسطين في عهد السَّيِّد المسيح

فلسطين ـــ في القرن الأوَّل ـ كانت بُقعة كثيرة المشاكل من الكُـرة الأرضـيَّة. لـبعض الوقـت؛ الأرض المُقَدَّسَة كانت مشحونة بالمُشاجرات السُّلاليَّة، والنِّزاعات المُميتة، وأحياناً؛ الحرب الشَّاملة والطَّاحنة.

أثناء القرن الثَّاني قبل الميلاد؛ تمَّ ـ بشكل عابر ـ تأسيس المملكة اليهُوديَّة، التي كانت ـ تقريباً ـ مُتَّحدة ـ كما هُو مُدوَّن في كُتُب «المكابيُّون» «Maccabees» في العهد قديم.

عام 63، قبل الميلاد ـ علىٰ أيَّة حال ـ المنطقة كانت في هيجان مرَّة ثانية، وكانت ناضجة للغزو.



فلسطين في عهد السَّيِّد المسيح

قبل أكثر من نصف قرن من ولادة السَّيِّد المسيح سَقَطَتْ فلسطين إلىٰ جُيُوش بُومبي[1]، وفُرِضَ الحُكْم الرُّوماني. لكنَّ رُومَا ـ في ذلك الوقت ـ كانت مملكتها مُمتدَّة أكثر من اللَّازم، بالإضافة إلىٰ انشغالها بشُؤُونها الخاصَّة لتعيين الجهاز الإداري الضَّروري للحُكْم المُباشر. لذلك؛ أنشأت سُلالة من المُلُوك الدُّمىٰ للحُكْم تحت دِرْعِهَا. هذه السُّلالة كانت السُّلالة الهيرُوديَّة (نسبة إلىٰ هيرُود العظيم 73 ـ 74 قبل الميلاد، مُسْنَدَاً من رُومَا، كان ملكاً علىٰ اليهُوديَّة «Judaea»[2] 37 ـ 34 قبل الميلاد، صُوِّر كمُستبدٍّ في التَّعاليم المسيحيَّة واليهُوديَّة. هيرُودُوس وُلِدَ في جنوب فلسطين، من أصل عَرَبي من الجانبَيْن كلَيْهما. أبوه، آنتيبتر، شغل منصب مُدير المال في اليهُوديَّة عند جُوليُوس قَيْصَر عام 47 قبل الميلاد. الذي لم يكن يهُوديَّاً، بل عَرَبيَّاً. أوَّل السُّلالة كان آنتيبتر «Antipater»،واعتلىٰ عَرْش فلسطين في 63 قبل الميلاد. بعد موته في 37 قبل الميلاد، ورثه ابنه، هيرُودُوس العظيم، الذي حكم حتَّىٰ 4 قبل الميلاد.

إذنْ؛ المرء يجب أنْ يتصوَّر حالة مُماثلة لتلك التي كانت في فرنسا تحت الحُكُومة الفيشيَّة[3] بين عامَيْ 1940 و 1944. المرء يجب أنْ يتصوَّر أرضاً، يجب أنْ يتصوَّر أرضاً مُحتلَّة، وشعباً مقهوراً، محكوماً من نظام مُسيَّر، حافظ علىٰ السُّلطة بالقُوَّة العَسْكَريَّة. شُعُوب تلك البلاد سُمِحَ لهم بالاحتفاظ بدينهم الخاصِّ، وبعاداتهم. لكنَّ السُّلطة النِّهائيَّة كانت لرُوما. هذه السُّلطة طُبِّقَتْ طبقاً للقانون الرُّوماني، وفُرِضت بالعَسْكَر الرُّوماني، كما كان الوَضْع في بريطانيا، بعد فترة ليست بالطَّويلة.

في عام 6 قبل الميلاد، أصبح الوَضْع أكثر خَطَرَاً. في هذه السَّنة، البلاد قُسِّمَتْ إداريَّاً إلىٰ مُحافظة واحدة، وحُكُومتَيْن رُباعيَّتَيْن. أصبح هيرُودُوس آنتِباس حاكماً لواحدة، وهي الجليل. لكنَّ اليهُوديَّة ـ العاصمة الرُّوحيَّة والعِلْمَانِيَّة ـ جُعِلَتْ خاضعة للحُكْم الرُّوماني المُباشر، وأدارها مُدير مالٍ رُوماني، تمركز في القَيْصَريَّة[4]. النِّظام الرُّوماني كان وحشيَّاً، واستبداديَّاً. عندما فَرَض سيطرة مُباشرة علىٰ

(1) (بُومبي 106 ـ 48 ق. م: زعيم عَسْكَري وسياسي رُوماني. هزمه يُوليُوس قَيْصَر عام 48 ق. م. المُترجم).

(2) (للانتباه في الصَّفحات القادمة؛ هذه التَّسمية يُقصَدُ بها منطقة فلسطين القديمة، وليس الشَّعب اليهُودي. انظرْ الخريطة السَّابقة. المُترجم).

(3) (نسبة إلىٰ مدينة فيشي، وسط فرنسا. المُترجم).

(4) («Caesarea»: ميناء بَحْري قديم علىٰ شاطئ السَّامريَّة، والعاصمة الرُّومانيَّة في فلسطين، تقع علىٰ بُعْد 35 كلم ـ تقريباً ـ جنوب ما تُسمَّىٰ ـ الآن ـ حيفا في فلسطين المُحتلَّة. المُترجم).

اليهُوديَّة، قام بصَلْب أكثر من ثلاثة آلاف ثائر بشكل سريع. كما تمَّ سَلْب وتدنيس الهَيكَل. وفَرَضَ نظاماً ضريبيَّاً ثقيلاً. واستخدم التَّعذيب كثيراً، والعديد من عامَّة النَّاس انتحروا.

هذه الحالة لم تُحسَّن من قِبَل بيلاطُس البُنْطي، الذي ترأَّس كَوَكيل علىٰ بلاد اليهُوديَّة بين عامَيْ 26 و 36 بعد الميلاد.

بالمُقارنة مع الصُّور التَّوراتيَّة له؛ السِّجلَّات الموجودة تُشير إلىٰ أنَّ بيلاطُس البُنْطي هُو رجل قاسٍ، وفاسد، وهُو الرَّجل الذي لم يستمرّ ـ فقط ـ بالانتهاكات التي اتَّبعها سَلَفُهُ، بل تشدَّد بها أيضاً. ذلك شيء مُفاجئ لدرجة أكبر ـ علىٰ الأقلّ للوهلة الأُولىٰ ـ أنَّه لا يجب أنْ يكون هُناك نَقْد لرُوما في كُتُب الإنجيل، ولا يجب أنْ يكون حتَّىٰ لو مُجرَّد إشارة عن عبء النِّيْر الرُّوماني. في الحقيقة؛ تقترح الرِّوايات الإنجيليَّة بأنَّ سُكَّان بلاد اليهُوديَّة كانوا هادئين ومُقتنعين بنصيبهم.

في الحقيقة؛ القليل جدَّاً منهم كان مُقتنعاً، والكثير كانوا بعيدين كُلَّ البُعْد عن الهُدُوء. اليهُود في الأرض المُقَدَّسَة ـ في ذلك الوقت ـ كانوا ـ بطلاقة ـ مُقسَّمين إلىٰ عدَّة طوائف، وطوائف فَرْعيَّة. علىٰ سبيل المثال، كان هُناك «Sadducees» الصَّدُوْقيُّون[1]؛ وكانوا فئة قليلة، ولكنَّها ثريَّة، ومن مالكي الأراضي، ورغم غضب مُواطنيهم، كانوا خَوَنَةً، ومُتعاونين مع الرُّومان. كان هُناك «Pharisees» الفَرِّيسيُّون[2]؛ وهُم مجموعة تقدُّميَّة، قدَّمت الكثير من الإصلاح إلىٰ اليهُوديَّة، والتي ـ علىٰ الرّغم من صُورتهم في الإنجيل ـ اتَّخذوا موقفاً وفيَّاً، ولو أنَّه سلبيٌّ بشكل كبير، مُعارض لرُوما. كان هُناك «Essenes» الأسنيُّون[3]؛ وهُم طائفة صارمة ومُوجَّهة باطنيَّاً، تعليماتها كانت سائدة، ومُؤثِّرة، أكثر بكثير ممَّا هُو معروف مُفترَض عُمُوماً. بين الطَّوائف الأصغر والطَّوائف الفَرْعيَّة كان هُناك العديد، والتي فَقَدتْ هُويَّاتها في التَّاريخ مُنْذُ مُدَّة طويلة، ويصعب ـ بالتَّالي ـ التَّعرُّف عليها. يستحقُّ الأمر أنْ نستشهد بطائفة المنذورين[4]. علىٰ أيَّة حال؛ كان سامسن ـ قبل قُرُون من ذلك ـ

(1) (طائفة يهُوديَّة، في زمن المسيح، أنكرت الحَشْرَ، وأنكرت وُجُود الملائكة، إلخ. المُترجم).
(2) (الفَرِّيسيُّون، وهُم طائفة من يهُود عهد المسيح عُرِفَتْ بتمسُّكها بالطُّقُوس، وبالتَّقوىٰ الكاذبة. المُترجم).
(3) (كانوا يعتمدون توراةً لا تحتوي إلَّا أسفار مُوسىٰ الخمسة، ويُنكرون ما عداها، وكانوا يهتمُّون جدَّاً بالنَّظافة، إلىٰ درجة أنَّهم شُهروا بالمُتطهِّرين، أو المُغتسلين... المُترجم).
(4) (طائفة يهُوديَّة من العُهُود التَّوراتيَّة، نُذروا لله، فلا يحلُّ لهم أنْ يُعاقروا الخمرَ، أو يحلقوا شَعْرَهُم، أو يمسُّوا جُثَّة. المُترجم).

عُضواً فيها، والتي كانت ماتزال موجودة في عهد السَّيِّد المسيح. كما يستحقُّ الاستشهاد بالنَّاصريِّيْن «Nazoreans»؛ التَّعبير الذي يبدو بأنَّه أُطلِقَ علىٰ السَّيِّد المسيح وأتباعه.

في الحقيقة؛ النُّسخة اليُونانيَّة الأصليَّة للعهد الجديد تُشير إلىٰ السَّيِّد المسيح كَـ«السَّيِّد المسيح النَّاصري»، والذي أُسيء ترجمتها لتكون «السَّيِّد المسيح من النَّاصرة».

باختصار؛ النَّاصريُّ كلمة طائفيَّة بالتَّحديد، وليس لها أيَّة صلة بالنَّاصرة.

كان هُناك مجموعات وطوائف أُخرىٰ عديدة أيضاً، واحدة منها أثبتت أنَّ لها صلة مُعيَّنة بتحقيقنا.

في عام 6 بعد الميلاد، عندما فَرَضَتْ رُومَا سيطرة مُباشرة علىٰ اليهُوديَّة، حاخام فرِّيسيّ، حِبْرٌ معروف بيهُوذا من الجليل، شكَّل مجموعة ثَوْريَّة فدائيَّة مُتشدِّدة، تشمل ـ علىٰ ما يبدو ـ الفريسيِّيْن، والأسنيِّيْن. عُرِفُوا ـ فيما بعد ـ بالزَّيلُوت[1]؛ الزَّيلُوت لم تكن علىٰ وجه التَّحديد طائفة؛ بل كانت الحَرَكَة التي في عُضويَّتها شملت عدداً من الطَّوائف. في وقت مهمَّة السَّيِّد المسيح، الزَّيلُوت أدُّوا دوراً بارزاً جدَّاً في شُؤُون الأرض المُقَدَّسَة. نشاطاتهم ـ رُبَّما ـ شكَّلت الخَلْفيَّة السِّياسيَّة الأكثر أهمِّيَّة ضدَّ ما سنَّتْهُ سلسلةُ أحداث السَّيِّد المسيح. بعد فترة طويلة من الصَّلْب؛ استمر نشاط الزَّيلُوت بلا كلال.

بحُلُول عام 44 بعد الميلاد؛ كان هذا النَّشَاط مُكثَّفاً للغاية؛ لدرجة أنَّ نوعاً من الكفاح المُسلَّح بدا حَتْميَّاً.

عام 66 بعد الميلاد، انفجر ذلك الكفاح، وفي كُلِّ اليهُوديَّة، اندلعت ثورة تمرُّد مُنظَّمة ضدَّ رُومَا. كانت الثَّورة عنيدة، ومُستميتة، ولكنَّها كانت عقيمة في النِّهاية، ذلك ـ مثلاً ـ يُذكِّر ـ من ناحية ما ـ بهنغاريا عام 1956. في القَيْصَريَّة ـ وحدها ـ تمَّ ذبح 20000 يهُودي من قِبَل الرُّومان. خلال أربع سنوات؛ الجحافل الرُّومانيَّة احتلَّت القُدْس، وهدَّمت المدينة، وسَلَبَتْ، وَدنَّسَتْ الهَيكَلَ.

علىٰ الرّغم من هذا كُلِّه، قلعة جبل مَسْعَدَة (Masada) صمدت لُمدَّة ثلاث سنوات أُخرىٰ، بقيادة سليل مُباشر ليهُوذا من الجليل.

إبَّان الثَّورة في اليهُوديَّة، شهدت نُزُوحاً جماعيَّاً هائلاً لليهُود من الأرض المُقَدَّسَة. علىٰ الرّغم

(1) (مجموعة يهُوديَّة قديمة عُرِفَتْ بمُقاومتها الشَّديدة للسَّيطرة الرُّومانيَّة علىٰ فلسطين. المُترجم).

من هذا، بقيٰ هُناك ما يكفي لإثارة تمرُّد آخر بعد حوالي ستّين سنة في عام 132 بعد الميلاد.

وأخيراً؛ عام 135، أمر الإمبراطُور أدريان بأنْ يُطرَد كُلُّ اليهُود قانوناً من اليهُوديَّة، وأصبحت القُدْس ـ جَوْهَريّاً ـ مدينة رُومانيَّة. وبدَّل اسمها ليُصبح «Aelia Capitolina»[1].

امتدَّ عُمر عيسىٰ[2] ـ تقريباً ـ عبر السَّنوات الأُولىٰ الـ 35 من اضطراب دام 140 سنة. الاضطراب لم يُوقَف بموته، بل استمرَّ لقرن آخر. وقد أحدث ذلك الاضطراب المُلحقَات النَّفسيَّة والثَّقافيَّة التي تحدث ـ عادةً ـ بشكل لا يُمكن تجنُّبه من أجل التَّحدِّي والمُواجهة الثَّابتة للمُضطهد. إحدىٰ هذه المُلحقات كانت الأمل والاشتياق لعيسىٰ المسيح المُنتظَر المُخلِّص، الذي سيُنقذ شعبه من نير المُسْتَبِدِّ. حَدَثَ ذلك ـ فقط ـ بمُوجب حادث تاريخي وسياسي، أدَّىٰ إلىٰ استخدام هذا المُصطلح وتطبيقه بشكل خاصٍّ ومُحَدَّد علىٰ عيسىٰ[3].

بالنِّسبة لمُعاصري عيسىٰ؛ لَقَبُ المسيح لم يُعدَّ ـ آنذاك ـ مُقدَّساً علىٰ الإطلاق.

في الحقيقة؛ فكرة أنَّ هُناك مسيحاً مُقدَّساً مُنتظراً هي ـ بحَدِّ ذاتها ـ كانت غير معقولة، إنْ لم تكن مُستحيلة. ويجدر بالذِّكر ـ هُنا ـ أنَّ الكلمة اليُونانيَّة الدَّالَّة علىٰ المسيح المُنتظَر هي «خريست» (Christ)، أو «خريستُوس» (Christos). هذا التَّعبير ـ سواء بالعِبْرِيَّة، أو اليُونانيَّة ـ يعني ـ ببساطة ـ «الشَّخص المَمْسُوح بالزَّيت»[4]، وكان يُشير ـ عُمُوماً ـ إلىٰ ملك ما. وهكذا، داود، لأنَّه كان ملك ممسوح بالزَّيت في العهد القديم، أصبح ـ بشكل واضح تماماً ـ هُو «المسيح»، أو «كريست»، وكُلُّ ملك يهُودي لاحق من آل داود عُرِفَ بنَفْس اللَّقَب. والأكثر من ذلك، حتَّىٰ أثناء الاحتلال الرُّوماني لليهُوديَّة، الكَاهن الأكبر الذي عيَّنه الرُّومان كان يُعرَف بالكَاهن المسيح (Priest Messiah)، أو الكَاهن «كريست» (Priest Christ)[5].

(1) (بالرّغم من أنَّ المدينة احتفظت ـ عَمَليّاً ـ باسمها كَأُورشليم، لكنَّها لم تخدم ثانية كعاصمة حتَّىٰ عام 1099، عندما احتُلَّت من قِبَل الصَّليبيِّين. المُترجم).

(2) (في الفقرات التَّالية سأستخدم اسم عيسىٰ بدلاً من السَّيِّد المسيح، وذلك لإظهار الفَرْق، وُفقاً لرأي المُؤلِّفين. المُترجم).

(3) (أيْ؛ كما يبدو ـ برأي المُؤلِّفين ـ أنَّ المُجتمع ـ آنذاك ـ الذي كان ينتظر رجلاً يُعرَفُ بالمسيح؛ ليُخلِّصهم من نير الاستبداد، وطبَّقوا ـ بمحض المُصادفة ـ ذلك اللَّقَب علىٰ ذلك الشَّخص، الذي يُعرَف ـ اليوم ـ بالسَّيِّد المسيح، وُفقاً لأُسُس تاريخيَّة، وللأوضاع الرَّاهنة آنذاك. وستتَّضح الصُّورة أكثر في الفقرات القادمة. المُترجم).

(4) (المُكرَّس، وُفقاً للطُّقُوس المسيحيَّة. المُترجم).

(5) (في الواقع؛ لم يُسمِّ الكَاهنُ الأكبرُ اليُونانيُّ نفسَهُ بلقب البَابَا حتَّىٰ عام 384، ولأوَّل مرَّة. المُؤلِّفون).

بالنِّسبة للزَّيلوت ـ علىٰ أيّة حال ـ وللمُعارضين الآخرين لرُوما، هذا الكَاهن المُسيَّر كان ـ بالضَّرورة ـ المسيح المُنتظَر المُزيَّف. بالنِّسبة لهم؛ المسيح المُنتظَر الحقيقي دلَّ علىٰ شيء مُختلف تماماً؛ الـ«roi perdu» الشَّرعي، أو «الملك المفقود» الشَّرعي، وهُو السَّليل المجهول لآل داود، الذي سيُخلِّص شعبه من الاستبداد الرُّوماني.

في فترة حياة عيسىٰ، كان ترقُّب قُدُوم مسيح مُنتظَر كهذا قد وصل ـ تقريباً ـ إلىٰ درجة من الهستيريا الجماعيَّة. وهذا التَّوقُّع استمرَّ حتَّىٰ بعد موت عيسىٰ.

في الحقيقة؛ الثَّورة التي حصلت عام 66 بعد الميلاد، كان الزَّيلُوت ـ هُم ـ الذي أثاروها، وأذاعوها بالدَّرجة الأكبر، وكان ذلك لصالح المسيح المُنتظَر، الذي قيل بأنَّ وُصُوله كان وشيكاً.

إذنْ؛ لَقَبُ «المسيح» لا يدلُّ ـ أبداً ـ علىٰ أيِّ شيء مُقدَّس. إنَّ التَّعريف التَّامَّ لهذا اللَّقب، أو لهذه التَّسمية هُو لا شيء أكثر من ملك ممسوح بالزَّيت، وفي الفِكْر العامِّ؛ أصبح اللَّقَبُ يعني الملك الممسوح بالزَّيت، الذي سيكون ـ أيضاً ـ المُخلِّص.

بكلمة أُخرىٰ؛ هذه التَّسمية كانت ـ بالتَّحديد ـ ذات مضمون سياسي بحت؛ شيئاً مُختلفاً تماماً عن الفِكْرَة المسيحيَّة اللَّاحقة (التي تدعو صاحبها) بأنَّه «ابن الرَّبِّ»[1].

لقد كان هذا التَّعبير السِّياسي الدُّنيوي هُو الذي أُطلِقَ وطُبِّق علىٰ عيسىٰ. كان يُقال له «عيسىٰ المسيح»، أو كما تُرجِمَ إلىٰ اليُونانيَّة «عيسىٰ الممسوح بالزَّيت؛ عيسىٰ الكريست» (Jesus the Christ). مُؤخَّراً ـ فقط ـ تمَّ اختصار تلك التَّسمية إلىٰ «Jesus Christ» وبذلك؛ تمَّ تحريفٌ تامٌّ للقَب عَمَلي إلىٰ اسم عَلَم.

(1) (كما هُو واضح، المُؤلِّفون يقصدون ـ بذلك ـ أنَّ لقب «مسيح» كان يدلُّ علىٰ ملك ممسوح مُخلِّص من الاستبداد الرُّوماني آنذاك، وليست هُناك أيَّة إشارة إلىٰ أنَّه كان ملكاً مُقدَّساً؛ أيْ أنَّ المضمون سياسي؛ أيْ أنَّه ملك ثوري، وليس ـ بالضَّرورة ـ مُقدَّساً. المُترجم).

تاريخ الإنجيل

الإنجيلُ أُصْدِرَ من حقيقة تاريخيَّة معروفة ومُؤكَّدة. كانت حقيقة ناتجة عن الظُّلم، وعن السّخطَيْن: المَدَني، والاجتماعي، وعن الاضطراب السّياسي، وعن الاضطهاد المُستمرّ، والتَّمرُّد المُتقطّع.

كانت ـ أيضاً ـ حقيقة مليئة بالوُعُود الدَّائمة والمُثيرة، الآمال، والأحلام ـ بأنَّ هُناك ملك شَرعيّاً سيظهر، الزَّعيم الرُّوحي والعِلْماني، الذي سيُخلِّص شعبه، ويقودهم إلى الحُرِّيَّة. بقدر ما تعلَّقت الآمال بالحُرِّيَّة السّياسيَّة، بقدر ما أُطفِئَتْ تلك التَّطلُّعات بقسوة الحَرْب المُدمِّرة بين عامَيْ 66 و 74 بعد الميلاد. بتحويلها التَّام إلى شكل ديني ـ على أيَّة حال ـ تلك التَّطلُّعات لم تُخلَّد ـ فقط ـ بالإنجيل، بل مَنَحَتْ حافزاً قويّاً جديداً.

العُلماء الحديثون مُتَّفقون بأنَّ كُتُبَ الإنجيل لا يعود تاريخها إلى فترة السَّيِّد المسيح. الجُزء الأكبر منها يعود تاريخه إلى الفترة الواقعة بين الثَّورتَيْن الرَّئيسيَّتَيْن في اليهوديَّة ـ 66 إلى 74 ومن 132 إلى 135، بالرغم من أنَّها ـ بالتَّأكيد؛ تقريباً ـ تستند على الرّوايات السَّابقة. هذه الرِّوايات السَّابقة ـ لرُبَّما ـ تضمَّنت وثائق مكتوبة، فُقِدَتْ بعد ذلك؛ لأنَّه كان هُناك دمار شامل للسّجلَّات في أعقاب التَّمرُّد الأوّل. لكنْ؛ من المُؤكَّد أنَّه كان هُناك نواميس شَفَهيَّة أيضاً.

بلا شكٍّ؛ تمَّتْ المُبالغة في البعض من هذه التَّعاليم و/ أو تمّ تحريفها كُلّيّاً، استُلِمَتْ، وأُرسِلَتْ إلى طرف ثانٍ، وثالث، ورابع.

على أيَّة حال؛ هُناك نواميس اشتُقَّتْ من الأشخاص الذين كانوا أحياء في زمان السَّيِّد المسيح، ومنهم مَنْ كان يعرفه شَخْصيّاً أيضاً. شابٌّ كان حَيّاً وَقْتَ الصَّلْب ـ لرُبَّما ـ كان حَيّاً ـ أيضاً ـ عندما أُعِدَّ الإنجيل.

أقدم كُتُب الإنجيل يُعدُّ ـ عُمُوماً ـ أنَّه إنجيل مَرْقُس، الذي أُعِدَّ في وقت ما أثناء الثَّورة بين عامَيْ 66 ـ 74، أو بعد ذلك بقليل ـ ما عدا إيراده لمسألة البَعْث، التي هي إضافة لاحقة ومُزوَّرة[1].

(1) (البَعْثُ لا يُقصَد به عودة السَّيِّد المسيح إلى الأرض، بل قيامه ـ آنذاك ـ من القَبْر بعد ثلاثة أيَّام من دَفْنه. يبدو أنَّ المُؤلِّفين غير مُؤمنين بهذا؛ ولا أنا كمُسلم. وأُعقِّب ـ أيضاً ـ اعتقادي بأنَّ اليهُود سَرَقُوا الجُثَّة، كما حاولوا سَرقة جُثَّة الرَّسول الكريم مُحمَّد ﷺ. المُترجم).

بالرغم من أنَّ مَرْقُس ـ بحَدِّ ذاته ـ ليس أحد حواريِّي السَّيِّد المسيح الأصليِّين، إلَّا أنَّه ـ على ما يبدو ـ قد جاء من القُدْس. يبدو بأنَّه كان صديقاً للقدِّيس بُولُس، وإنجيله ـ بشكل واضح ـ يحمل طابع الفِكْر البُولُسيّ. لكنْ؛ إنْ كان مَرْقُس من مُواطني القُدْس، إنجيله ـ كما يذكر كليمنت الإسكندراني ـ أُعِدَّ في رُومَا، ووُجِّهَ إلى جُمْهُور رُوماني إغريقي. هذا بنفسه يُوضِّح مسألة ذات أهمِّيَّة عظيمة.

في الوقت الذي أُعِدَّ فيه إنجيل مَرْقُس، اليهُوديَّة كانت ـ آنذاك، أو مُؤخَّراً ـ في ثورة عامَّة، وآلاف اليهُود كانوا قد صُلِبُوا لتمرُّدهم ضدَّ النِّظام الرُّوماني.

إنْ كان مَرْقُس يودُّ أنْ يدوم إنجيله، وأنْ ينال إعجاب الجُمهُور الرُّوماني، فلم يكن من المُمكن له أنْ يُقدِّم السَّيِّد المسيح كمُعادٍ للرُّومانيَّة.

في الحقيقة؛ لم يكن بإمكانه ـ مُطلقاً ـ أنْ يُقدِّم السَّيِّد المسيح كرجل ذي توجُّهات سياسيَّة. لكي يضمن بقاء رسالته، كان عليه أنْ يلتزم بتبرئة الرُّومان من أيِّ ذنب في موت السَّيِّد المسيح؛ وذلك ليُؤمِّن التَّغطية للنِّظام الحالي، والمُتحصِّن، ويُلقي اللَّومَ في موت المسيح المُنتظَر على بعض اليهُود. هذه الحيلة لم يتبنَّاها مُؤلِّفو كُتُب الإنجيل الآخرين فحسب، بل تبنَّتهَا الكَنِيسَة المسيحيَّة القديمة أيضاً. بدُون مثل هذه الحيلة لما استمرَّ أيُّ إنجيل، أو كَنِيسَة.

بالنِّسبة لإنجيل لُوقَا؛ أثبت العُلماء أنَّ تاريخه يعود إلى حوالي عام 80 بعد الميلاد. لُوقَا بنفسه يبدو أنَّه كان الطَّبيب اليُوناني الذي أُعِدَّ عمله (إنجيله) لمسؤول رُوماني كبير في القَيْصَريَّة، التي كانت العاصمة الرُّومانيَّة لفلسطين.

لذلك؛ كان من الضَّروري للُوقَا ـ أيضاً ـ أنْ يسترضي الرُّومان بإنجيله، ويُحوِّل اللَّائمة (في قَتْل المسيح) إلى مكان آخر.

في الوقت الذي أُعِدَّ فيه إنجيل مَتَّى ـ تقريباً 85 بعد الميلاد ـ مثل هذا الانتقال يبدو بأنَّه مقبول كحقيقة راسخة، ومُؤكَّدة. أكثر من نصف إنجيل مَتَّى ـ في الحقيقة ـ مُشتقٌّ مُباشرة من مَرْقُس، بالرغم من أنَّه أُعِدَّ ـ أصلاً ـ باللُّغة اليُونانيَّة، ويعكس خصائص يُونانيَّة بشكل مُحَدَّد. يبدو بأنَّ المُؤلِّف

كان يُهودِّيّاً، من المُحتمل ـ تماماً ـ أنّه كان لاجئاً من فلسطين. لا يجب خَلْطُهُ بـالحواري الـذي يُـدعىٰ مَتّىٰ، الذي كان يعيش في وقت سابق لذلك بكثير، والـذي مـن المُحتمـل أنّـه كـان يُعـرَفُ بـالآرامي فقط[1].

إنّ إنجيل مَرْقُس ولُوقَا ومَتّىٰ معروفة ـ بشكل جماعي ـ بأنّها كُتُب الإنجيل المُتشابهة، في إشارة ضمنيَّة إلىٰ أنّها «تَتّفق اتّفاقاً كُلّيّاً»، أو أنّها «تنظر بعين واحدة»؛ ذلك ـ بالطّبع ـ غير صحيح.

علىٰ الرّغم من هذا، هُناك تداخل كافٍ بينها لاقتراح بأنّها اشتُقّت من مصدر مُشترك وحيـد؛ إمّا من تعاليم شَفَهِيّة، أو وثائق أُخرىٰ، والتي فُقِدَتْ بعد ذلك. هذا يُميّزها من إنجيل يُوحنّـا، الـذي يبدو أنّه من أُصول مُختلفة جدّاً.

لا شيء معروف علىٰ الإطلاق عن مُؤلّف الإنجيل الرّابع.

في الحقيقة؛ ليس هُناك سبب يبعث علىٰ الافتراض بأنّ اسمه كان يُوحنّا.

إنّ اسم يُوحنّا ليس مذكوراً في أيّ موقع في ذات الإنجيل، ناهيكَ عن يُوحنّا المَعْمَـدان، ومـن المُتّفق عليه ـ عُموماً ـ أنّ نَسْبَ ذلك الإنجيل إلىٰ رجل يُسمّىٰ يُوحنّا هُو تقليد لاحق.

إنّ الإنجيل الرّابع هُو آخر تلك الكُتُب ـ التي في العهد الجديد ـ أُعِـدّ حـوالي عـام **100** بعـد الميلاد، وعلىٰ مقربة من المدينة اليُونانيّة افيسُوس[2]. هذا الإنجيل يُظهـر عـدداً مـن السِّمات المُتميّـزة جدّاً. مثلاً؛ ليس هُناك أيّ مشهد لميلاد المسيح، وليس هُنـاك أيّ وَصْـف لمـيلاده، والافتتاحيّـة هـي ـ تقريباً ـ ذات طبيعة غنُوسطيّة.

---

(1) (بما أنّ مَتّىٰ الحواري كان حوارِيّاً، فلا شكّ أنّه كان من المُميّزين، الذين انتقاهم السّيّد المسيح، كَحَـدٍّ أدنىٰ لـذلك التّميُّز هُو الثّقافة، والمُثقّف ـ آنذاك ـ لن يكون عـاجزاً عـن معرفـة لُغـة المُحتلّين الرُّومـان، الـذين وَصَـفَهُم المُؤلّفـون بالمُستبدّين. والاحتلال الدّكتاتُوري الطّويل الأمد لابُدّ أنّه فَرَض لُغته علىٰ البلد المُحتَلّ. باختصار؛ مُعظـم المُـواطنين في اليهُوديّة كانوا يُتقنون اللُّغة الرُّومانيّة. المُترجم).

(2) (مدينة يُونانيّة قديمة علىٰ السّاحل الغربي لآسيا الصُّغرىٰ، قُـرب ازمير في تُركيـا. كانـت مركـزاً مُهمّاً للمـسيحيّة القديمة، وكانت ـ أيضاً ـ موقع معبد آرتيميس، أحد عجائب الدُّنيا السّبع. المُترجم).

إنَّ النُّصُوص التي فيه ـ بالتَّأكيد ـ ذات طبيعة أكثر باطنيَّة من كُتُب الإنجيل الأُخرَىٰ، والُمحتوىٰ مُختلف أيضاً. كُتُبُ الإنجيل الأُخرَىٰ ـ علىٰ سبيل المثال ـ تُركّز ـ أوّليّاً ـ علىٰ نشاطات السَّيِّد المسيح في الُمحافظة الشّماليَّة للجليل، وعلىٰ ما يبدو أنَّها تعكس من طرف ثان، وثالث فقط، معلومات عن أحداث في الجنوب في اليَهُوديَّة والقُدْس؛ بما في ذلك الصَّلْب. الإنجيل الرَّابع ـ علىٰ النَّقيض من ذلك ـ يتحدَّث قليلاً نسبيّاً عن الجليل. يُسهب ـ بشكل كامل ـ في ذِكْر الأحداث التي وقعت في اليَهُوديَّة والقُدْس، بما فيها منصب السَّيِّد المسيح الُمقرَّر، وروايته عن الصَّلْب ـ لرُبَّما ـ تستند ـ في النِّهاية ـ إلىٰ شهادات البعض من شُهُود العيان بشكل مُباشر. يحتوي ـ أيضاً ـ عدداً من الوقائع والحوادث، التي لم تُذكَر في كُتُب الإنجيل الأُخرَىٰ؛ الزّفاف في قانا، الدَّور الذي قام به كُلٌّ من نيقُوديمُوس، ويُوسُف الرَّامي، وإحياء لِعازار (بالرّغم من أنَّ الأخير كان قد ذُكِرَ مرَّة في إنجيل مَرْقُس). علىٰ أساس عوامل كهذه؛ اقترح العُلماء الحديثون بأنَّ إنجيل يُوحنَّا ـ علىٰ الرّغم من إعداده الُمتأخّر، لرُبَّما ـ هُو الأكثر مصداقيَّة ودقَّة من النَّاحية التَّاريخيَّة من الكُتُب الأربعة. يبدو بأنَّه ـ بشكل أكثر من كُتُب الإنجيل الأُخرَىٰ ـ يعتمد علىٰ نواميس وتعاليم جارية في عهد السَّيِّد المسيح، بالإضافة إلىٰ الموادّ الأدبيَّة الأُخرَىٰ غير الُمتوفّرة في كُتُب مَرْقُس ولُوقَا ومَتَّىٰ.

باحث حديث يُشير إلىٰ أنَّ هذا الإنجيل ـ علىٰ ما يبدو ـ يعكس معرفة ـ طبق الأصل ـ عن المصدر الأصلي قبل الثَّورة عام 66 بعد الميلاد.

الُمؤلِّف نفسه يستنتج، «يعتمد الإنجيل الرَّابع علىٰ خَلْفيَّة من التَّعاليم القديمة الُمستقلَّة عن كُتُب الإنجيل الأُخرَىٰ». هذا ليس رأياً معزولاً.

في الحقيقة؛ هُو الرَّأي الأكثر شُيُوعاً في الثَّقافة التَّوراتيَّة الحديثة.

طبقاً لكاتب آخر؛ «إنجيل يُوحنَّا ـ علىٰ الرّغم من أنَّه لا يلتزم بالإطار المَرْقُسي الزَّمني، وأنَّه وُجِدَ بعد فترة طويلة لاحقة في التَّاريخ ـ يُظهر معرفته للتَّعاليم، التي تتعلَّق بالسَّيِّد المسيح، وبالتَّالي؛ لابُدَّ من أنَّه بدائيّ، وأصيل».

علىٰ أساس بحثنا الخاصّ؛ نحنُ ـ أيضاً ـ استنتجنا بأنَّ الإنجيل الرَّابع كـان الأكثـر مـصداقيَّة في كُتُـب العهد الجديد ـ بالرّغم من أنّه ـ كالكُتُب الأُخرىٰ ـ تعرَّض للمُعالجة، والتَّحرير، والتَّنقيح، والمُراجعة.

في تحقيقنا؛ كان هُناك داعٍ للاعتماد علىٰ الكُتُب الإنجيليَّة الأربعة كُلّها، وعلىٰ الكثير من الموادّ الأدبيَّة العَرَضيَّة أيضاً. ولكنَّنا لم نجد الدَّليل الأكثر إقناعاً لفَرَضيّتنا التَّجريبيَّة ـ لحدّ الآن ـ إلَّا في الإنجيل الرَّابع.

الوَضْعُ العائليُّ للسَّيِّد المسيح

لم يكن هدفُنَا تكذيبَ كُتُب الإنجيل، بل أردنا ـ فقط ـ أنْ نُدقِّق فيها؛ لتحديد مواقع بعض الأجزاء ذات الحقيقة المُمكنة، أو المُحتملة، وانتزاعها من النَّسيج المحبوك الذي يُحيطها.

علاوةً علىٰ ذلك؛ كُنَّا نبحث عن الأجزاء ذات الميزة الدَّقيقة جدَّاً؛ الأجزاء الذي قد تشهد علىٰ زواج مُحتمل بين السَّيِّد المسيح والمرأة المعروفة بمَرْيَم المَجْدَليَّة. لا حاجة للقول إنَّ أدلَّة كهذه لن تكون واضحة ببساطة.

أدركنا أنَّنا إنْ أردنا العُثُور عليها علينا أنْ نبحث، ونقرأ، ما بين السُّطُور، ونملأ بعض الفجوات، وأنْ نأخذ بالحسبان الانقطاعات، والحُذُوفات المُعيَّنة.

كان علينا أنْ نتعامل مع الأخطاء، ومع الإساءة المُبطَّنة، ومع الإشارات، التي كانت ـ في أحسن أحوالها ـ مُحرَّفة.

ولم يكن علينا أنْ نبحث ـ فقط ـ عن دليل للزَّواج، بل ـ أيضاً ـ البحث عن دليل للظُّرُوف، التي من المُمكن أنَّها كانت مُحفِّزاً لذلك الزَّواج.

لذلك؛ كان علىٰ تحقيقنا أنْ يُحيط بعدد من الأسئلة المُتميِّزة، ولكنْ؛ الوثيقة الصِّلة. بدأنا بالأكثر وُضُوحاً فيها.

هل هُناك أيُّ دليل في كُتُب الإنجيل ـ مُباشر، أو غير مُباشر ـ يقترح بأنَّ السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ كان مُتزوِّجاً؟!

بالطَّبع؛ ليس هُناك بيان واضح أنَّه كان كذلك.

من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ ليس هُناك بيان واضح بأنَّه لم يكن كذلك؛ وهذا كان أكثر أهمِّيَّة وفُضُولاً ممَّا بدا عليه للوهلة الأُولىٰ. كما أشار الدُّكتُور جيزا فيرمِس في جامعة أُكسفُورد: «هُناك صمت كامل في كُتُب الإنجيل يتعلَّق بالوَضْع العائلي للسَّيِّد المسيح... مثل هذه الحالة كانت غير عاديَّة عند اليهُود القُدَامَىٰ، وبشكل كافٍ يدفع إلىٰ تحقيق آخر.

كُتُبُ الإنجيل تذكر أنَّ العديد من الحواريِّيْن ـ بُطرُس، علىٰ سبيل المثال ـ كانوا مُتزوِّجين. وليس هُناك أيَّة إشارة يذكر فيها السَّيِّد المسيح بنفسه أنَّه كان أعزباً. بالعكس؛ هُو يُعلن ـ في إنجيل مَتَّىٰ ـ :«أَمَا قَرَأْتُم أنَّ الخالق من البدء جَعَلَهُمَا ذَكَرَاً، وأُنثىٰ. وقال: لذلك؛ يترك الرَّجل أباه، وأُمَّه، ويتَّحد بامرأته، فيصير الاثنان جَسَدَاً واحداً؟! فلا يكونان اثنَيْن، بل جسداً واحداً. وما جَمَعَهُ اللهُ لا يُفرِّقُهُ الإنسان». (19: 4-5).

مثل هذا التَّصريح يصعب أنْ يتوافق مع التَّوصية والأمر بالعُزُوبيَّة. وإنْ كان السَّيِّد المسيح لم يأمر بالعُزُوبة، فليس هُناك سبب لافتراض بأنَّه كان أعزباً. طبقاً للعادات والتَّقاليد اليهُوديَّة آنذاك؛ لم تكن تلك المسألة عاديَّة فحسب، بل كانت إلزاميَّة تقريباً، علىٰ الرَّجل أنْ يكون مُتزوِّجاً. ما عدا بعض الأسنيِّيْن «Essenes» في بعض الجاليات، العُزُوبة كانت قد أُدِينَتْ بشدَّة.

وحتَّىٰ إنَّ أحد الكُتَّاب اليهُود في أواخر القرن الأوَّل قارن العُزُوبة المُتعمَّدة بالجريمة، ولا يبدو بأنَّه كان مُنفرداً في هذا الموقف. وكان إلزاميَّاً علىٰ الأب اليهُودي إيجاد زوجة لابنه، كما كان عليه ـ أيضاً ـ أنْ يتأكَّد من خَتْنِهِ.

إنْ كان السَّيِّد المسيح غير مُتزوِّج، فلرُبَّما كان ينبغي علىٰ هذه الحقيقة أنْ تكون واضحة بشكل كبير. تلك الحقيقة كانت ستُسلِّط الأضواء عليها، وستُستَعْمَل كإشارة لتمييز ووَصْف السَّيِّد المسيح. تلك الحقيقة كانت ستجعله ينفرد بأهمِّيَّة ما عن مُعاصريه.

إنْ كان الوضع كذلك، فمن المُؤكَّد أنَّه ـ علىٰ الأقلِّ ـ واحدة من الرِّوايات الإلهيَّة كانت لتُشير ـ بشكل ملحوظ جدَّاً ـ عن ذلك الانحراف عن العادة الشَّائعة!

إنْ كان السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ أعزباً كما تدّعي التّقاليد اللّاحقة، فإنَّه لأمر استثنائيّ جدّاً عدم وُجُود أيّة إشارة إلىٰ هذه العُزُوبة.غياب أيٍّ من هذه الإشارات يقترح ـ بقُوَّة ـ بأنَّ السَّيِّد المسيح ـ توافقاً مع الأهمِّيَّة التي كانت عليها هذه المسألة آنذاك ـ قد التزم بأعراف وثقافة زمانه.

باختصار؛ غياب تلك الإشارات يقترح بأنَّه كان مُتزوِّجاً. هذا وحده كافٍ لتوضيح سبب تَكَتُّم كُتُب الإنجيل علىٰ نحوٍ مُرْضٍ علىٰ المسألة. إنَّ هذه المسألة المُثيرة للجَدَل قد لُخِّصَتْ من قِبَل عالم لاهوتي مُعاصر مُقدَّر:

من الصَّحيح أنَّ الخَلْفيَّة الثَّقافيَّة كما استُشهد بها... فمن المُستحيل تماماً أنَّ السَّيِّد المسيح لم يكن مُتزوِّج قبل بداية مهمَّته العامَّة. إنْ كان قد أصرَّ علىٰ العُزُوبة، لكان ذلك سيخلق ضجَّة وردَّة فعْل كبيرة، كانت ستترك بعض الأثر. لذا؛ قلَّة ذِكْر زواج السَّيِّد المسيح في كُتُب الإنجيل هي حُجَّة قويَّة لا تُناقض إلَّا فَرَضيَّة الزَّواج؛ لأنَّ أيَّة مُمارسة، أو دعم، للعُزُوبة الطَّوعيَّة في المُحيط اليهُودي ـ آنذاك ـ كان أمراً استثنائيّاً جدّاً، لدرجة أنَّه كان سيلفت الكثير من الانتباه، والتَّعليق.

فَرَضيَّة الزَّواج يُمكن الدِّفاع عنها لدرجة أكبر استناداً إلىٰ لَقَب «الحاخام»، الذي أشار إلىٰ السَّيِّد المسيح كثيراً في كُتُب الإنجيل.

من المُحتمل ـ بالطَّبع ـ أنَّ هذا اللَّقَب استُخدِمَ بمعناه الأوسع، ببساطة؛ هُو يعني المُعلِّم الذي نصَّب نفسه. لكنَّ معرفة السَّيِّد المسيح للقراءة والكتابة ـ علىٰ سبيل المثال، العرض المعرفي الذي قام به أمام الشُّيُوخ في الهَيكَل ـ تقترح ـ بقُوَّة ـ بأنَّه كان أكثر من مُجرَّد المُعلِّم، الذي نصَّب نفسه. ذلك يقترح بأنَّه مرَّ ببعض التَّدريبات الحاخاميَّة الرَّسميَّة المُعيَّنة، ومُنح ـ رَسْميّاً ـ لَقَبَ الحاخام. هذا يتوافق مع التَّقليد، الذي يُصوِّر السَّيِّد المسيح علىٰ أنَّه حاخام بكُلِّ ما في الكلمة من معنىٰ. لكنْ؛ إنْ كان السَّيِّد المسيح حاخاماً بكُلِّ ما في الكلمة من معنىٰ، فإنَّ زواجه لم يكن مُحتملاً فقط، بل مُؤكَّداً بالفعل. قانون المِشْنا اليهُودي[1] هُو واضح جدّاً حول هذا الموضوع. فهُو يقول: «الرَّجل الأعزب قد لا يكون مُعلِّماً».

(1) (الجُزء المركزي الأساسي للقانون اليهُودي المَدَني والشَّرعي، ويُشكِّل الجُزء الأوَّل من التلمود. هذه القوانين كانت تُنقَل ـ بشكل شَفَهي ـ إلىٰ أنْ كُتِبَتْ حوالي عام 200 بعد الميلاد. المُترجم).

في الإنجيل الرَّابع؛ هُناك حادثة تتعلَّق بزواج ـ رُبَّما ـ هُو ـ في الحقيقة ـ للسَّيِّد المسيح. هذه الحادثة ـ بالطَّبع ـ هي عُرس قانا الجليل؛ قصَّة مألوفة بما فيه الكفاية. لكنْ؛ لكُلِّ مَنْ يعرفها، هُناك بعض الأسئلة البارزة المُعيَّنة تحضر في تلك القصَّة، والتي تستحقُّ الاعتبار.

وُفقاً للرِّواية في الإنجيل الرَّابع، عُرس قانا الجليل يبدو بأنَّه كان حفلة محلِّيَّة بسيطة؛ زفاف قروي مثالي يبقىٰ فيه العريس وعُرْسه مجهولَيْن. «دُعِيَ» السَّيِّد المسيح ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ هذا الزّفاف، رُبَّما في ذلك بعض الفُضُول؛ لأنَّ السَّيِّد المسيح ـ آنذاك ـ لم يكن قد بدأ مهمَّته بعدُ. والأكثر فُضُولاً ـ علىٰ أيَّة حال ـ هُو حقيقة أنَّ أُمَّه كانت موجودة. هل ذلك «مُصادفة» إنْ جاز التَّعبير؟! ويبدو أنَّ حُضُورها كان يُعَدُّ بديهيّاً. بالتَّأكيد؛ لم يُوضَّح ذلك بأيَّة طريقة.

الأكثر من ذلك، هُو أنَّ مَرْيَم لا تقترح علىٰ ابنها، بل تأمره بإعادة ملء النَّبيذ. تتصرَّف ـ تماماً ـ كما لو أنَّها كانت المضيفة. «ونفدت الخمرُ، فقالت له أُمُّه: ما بقي عندهم خمر. فأجابها: ما لي، ولكِ، يا امرأة؟ ما جاءت ساعتي بعدُ». يُوحنَّا (2: 3ـ4). لكنَّ مَرْيَم ـ برباطة جأش شديدة ـ تُهمِلُ احتجاج ابنها، وتقول: اعملوا ما يأمركم به»، يُوحنَّا (2: 5). ويمتثل الخَدَمُ فوراً للأمر؛ تماماً كما لو أنَّهم كانوا مُعتادين علىٰ تلقِّي الأوامر من مَرْيَم والسَّيِّد المسيح كلَيْهما.

علىٰ الرّغم من مُحاولة السَّيِّد المسيح المزعومة لـرَفْض سُلطتها عليه، مَرْيَم تنتصر؛ والسَّيِّد المسيح ـ عقب ذلك ـ يُنجز مُعجزته الرَّئيسة الأُولىٰ، تحويل الماء إلىٰ النَّبيذ. بقدر ما أورد كتاب الإنجيل، هُو لم يعرض قُدراته حتَّىٰ الآن، وحتَّىٰ إنَّه ليس هُناك سبب يدعو مَرْيَم للافتراض بأنَّه يمتلك تلك القُدرات.

ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ كان لديه قُدرات، لماذا كان عليه أنْ يستخدم مثل هذه الهدايا الفريدة والمُقَدَّسَة لأجل ذلك الغرض العادي جدّاً؟!

لماذا كان علىٰ مَرْيَم أنْ تطلب هذا الطَّلَبَ من ابنها؟!

الأكثر أهمِّيَّة من ذلك، لماذا كان يجب علىٰ «ضَيْفَيْن»[1] في زفاف ما أنْ يُسخِّرا نفسَيْهما لخدمة الشَّرَاب؛ تلك المسؤوليَّة التي تكون ـ عادةً ـ محجوزة للمضيف؟! ما لم ـ بالطَّبع ـ يكن عُرس قانا الجليل هُو زفاف السَّيِّد المسيح. في تلك الحالة تكون مسؤوليَّته ـ في الحقيقة ـ إعادة ملء النَّبيذ.

---

(1) (السَّيِّد المسيح وأُمّه. المُترجم).

هُناك دليل آخر علىٰ أنَّ عُرس قانا ـ في الحقيقة ـ كان عُرس السَّيِّد المسيح. مُباشرة بعد إنجاز المُعجزة؛ قام «رئيس الوليمة» قَهْرَمان من نوع ما، أو سيِّد حفلات ـ بتذوُّق النَّبيذ، الذي أُنتج حديثاً. «رئيس الوليمة دعا العريس، وقال له: جميع النَّاس يُقدِّمون الخمر الجيِّدة أوَّلاً، حتَّىٰ إذا سكر الضُّيُوف، قدَّموا الخمر الرَّديئة. أمَّا أنت؛ فأخَّرتَ الخمر الجيِّدة إلىٰ الآن!» (يُوحنَّا **2: 9ـ10**). هذه الكلمات تبدو ـ بشكل واضح ـ أنَّها كانت مُوجَّهة إلىٰ السَّيِّد المسيح.

طبقاً للإنجيل ـ علىٰ أيَّة حال ـ كانت مُوجَّهة لـ«العريس». نتيجة واضحة هي أنَّ السَّيِّد المسيح و«العريس» هُما الشَّخص ذاته.

زوجة السَّيِّد المسيح

إنْ كان السَّيِّد المسيح مُتزوِّجاً، فهل هُناك أيَّة إشارة في كُتُب الإنجيل عن هُويَّة زوجته؟!

في النَّظْرَة الأُولىٰ يبدو أنَّ هُناك شَخْصيَّتَيْن مُرشَّحتَيْن مُحتملَتَيْن؛ هُناك امرأتان، ما عدا أُمّه، ذُكِرَتَا ـ مراراً، وتكراراً ـ في كُتُب الإنجيل، كما لو أنَّهما من حاشيته. أوَّلهما مَجْدَلِيْن؛ أو بدقَّة أكثر، مَرْيَم من قرية مَجْدَل، أو مَجْدَلا، في الجليل. في كُلِّ كُتُب الإنجيل الأربعة دَور هذه المرأة غامض بشكل كبير، ويبدو بأنَّه كان قد حُجِبَ بتعمُّد.

في روايات مَرْقُس ومَتَّىٰ هي لم تُذكَر بالاسم، حتَّىٰ وقت مُتأخِّر جدَّاً. عندما ظهرت، كانت في اليهُوديَّة، أثناء الصَّلْب، وعُدَّت من بين حوارِيِّي السَّيِّد المسيح.

في إنجيل لُوقَا ـ علىٰ أيَّة حال ـ تظهر ـ بشكل مُبكِّر نسبيَّاً ـ في مهمَّة السَّيِّد المسيح، عندما كان مايزال يعظُ في الجليل. وهكذا يبدو بأنَّها كانت تُرافقه من الجليل إلىٰ اليهُوديَّة؛ أو إنْ لم يكن كذلك، فهي كانت ـ علىٰ الأقلِّ ـ تتنقل بين المُحافظتَيْن ببساطة كما يفعل هُو.

هذا ـ بحَدِّ ذاته ـ يقترح ـ بشدَّة ـ بأنَّها كانت مُتزوِّجة من شَخْص ما.

في فلسطين؛ في عهد السَّيِّد المسيح؛ كان من المُستحيل علىٰ امرأة عازبة أنْ تُسافر وحدها؛ والاستحالة تكون أكبر إنْ كان السَّفَر مع مُرشد ديني، ومع حاشيته. يبدو أنَّ العديد من التَّقاليد أدركت ـ فعلاً ـ هذه الحقيقة المُحرجة.

وهكذا؛ يتمُّ الادِّعاء ـ أحياناً ـ بأنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة كانت مُتزوِّجة من أحد حوارِيِّيْ السَّيِّد المسيح. إنْ كان ذلك صحيحاً ـ علىٰ أيَّة حال ـ علاقتها الخاصَّة بالسَّيِّد المسيح، وتقرُّبها منه، كان سيجعل كلَيْهما موضعاً للشَّكِّ، هذا إنْ لم يجعلها عُرضة لتُهمة الزِّنا أيضاً.

التَّعاليم الشّعبيَّة ـ مع ذلك ـ لم تذكر في أيِّ موقع، في أيٍّ من كُتُب الإنجيل، بأنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة كانت مُومساً. عندما ذُكِرَتْ لأوَّل مرَّة في إنجيل لُوقَا، كانت موصوفة كامرأة «التي منها خرج سبعة شياطين». ويُفترَض ـ عُمُوماً ـ بأنَّ هذه العبارة تُشير إلىٰ نوع من طَرْد الأرواح من قِبَل السَّيِّد المسيح، وتدلُّ علىٰ أنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة كانت «مَمْسُوسَة». لكنَّ العبارة قد تُشير ـ علىٰ حَدٍّ سواء ـ إلىٰ نوع من التَّحوُّل الدِّيني و/ أو الطُّقُوس الشَّعائريَّة. علىٰ سبيل المثال؛ طائفة عشتار، أو عَشْتَروت ـ الإلهة الأُمّ و«ملكة السماء» ـ هي طائفة تتضمَّن طُقُوساً ذات سبعة مراحل. قبل انضمامها إلىٰ السَّيِّد المسيح ـ رُبَّما ـ كانت مَرْيَم المَجْدَليَّة مُرتبطة بمثل هذه الطَّائفة.

قبل فصل واحد من تكلُّمه عن مَرْيَم المَجْدَليَّة، إنجيل لُوقَا يُلمِّح إلىٰ امرأة دَهَنَت السَّيِّد المسيح. في إنجيل مَرْقُس هُناك عمليَّة دَهْن مُماثلة من قِبَل امرأة لم تتمّ تسميتها. لا إنجيل لُوقَا، ولا إنجيل مَرْقُس، يربطان ـ بشكل واضح ـ هذه المرأة بمَرْيَم المَجْدَليَّة. لكنَّ لُوقَا يذكر بأنَّها كانت «امرأة ساقطة»، و«آثمة».

افترض المُعلِّقون اللَّاحقون بأنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة، بما أنَّه علىٰ ما يبدو طُرِدَ منها سبعة شياطين، فلا شكَّ أنَّها كانت الآثمة.

وُفقاً لهذه القاعدة، مَرْيَم المَجْدَليَّة والمرأة التي دَهَنَت السَّيِّدَ المسيح قد تُعدَّان بأنَّهما الشَّخص ذاته.

في الحقيقة؛ كان ذلك مُمكناً جدَّاً. إنْ كانت مَرْيَم المَجْدَليَّة مُرتبطة بطائفة وَثَنيَّة، فإنَّ ذلك سيجعلها «آثمة» في نَظَر ليس لُوقَا وحده، بل في نَظَر الكُتَّاب اللَّاحقين أيضاً.

إنْ كانت مَرْيَم المَجْدَليَّة «آثمة»، فهي كانت ـ أيضاً، بشكل واضح تماماً ـ أكثر من مُجرَّد المُومس المعروفة للتَّعاليم الشَّعبيَّة. بشكل واضح تماماً؛ هي كانت امرأة غنيَّة. لُوقَا يذكر ـ علىٰ سبيل المثال ـ بأنَّ من بين صديقاتها كانت زوجة وجيه رفيع المُستوىٰ في قَصْر هيرُودُوس؛ وأنَّ الامرأتَيْن

كلتيْهما، سويّة مع آخرين مُختلفين، دَعَمَتَا السَّيِّدَ المسيحَ وحواريه بمصادرهما الماليّة[1]. المرأة التي دَهَنَت السَّيِّدَ المسيحَ كانت ـ أيضاً ـ امرأة ثريَّة. في إنجيل مَرْقُس؛ هُناك تشديد كبير علىٰ غلاء مَرْهَم النَّاردين العطري، الذي أُنجِزَت به تلك الطُّقُوس.

الحادثة الكاملة لدَهْن السَّيِّد المسيح تبدو بأنَّها كانت قضيَّة ذات نتيجة هامَّة. ما هُو السَّبب الآخر الذي يجعلها مذكورة بالأهمِّيَّة التي ذُكِرَت بها في كُتُب الإنجيل؟ نَظَرَاً للأهمِّيَّة الممنوحة، يبدو بأنَّها كانت أكثر من مُجرَّد بادرة تلقائيَّة مُتهوِّرة. تبدو بأنَّها كانت مَنْسكاً مُتعمَّداً بعناية. علىٰ المرء أنْ يتذكَّر بأنَّ الدَّهْنَ كان يمتاز به المُلُوك تقليديَّاً، وأنْ يتذكَّر «المسيح الشَّرْعي» الذي يعني «الرَّجل المدهون، أو الممسوح».

من هُنا؛ كانت النَّتيجة أنَّ عيسىٰ أصبح المسيحَ المُنتظَرَ الحقيقيَّ، استناداً إلىٰ عمليَّة الدَّهْن التي تعرَّض لها. والمرأة التي تُكرِّسه في ذلك الدَّور الجليل من المُستحيل أنَّها كانت غير مُهمَّة.

في أيِّ حال من الأحوال؛ من الواضح أنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة، عند نهاية مَهَمَّة السَّيِّد المسيح، كان قد أصبحت شَخْصيَّة ذات أهمِّيَّة هائلة. في الكُتُب الإنجيليَّة الثَّلاثة المُتشابهة، اسمها يترأَّس ـ بثبات ـ قوائم النِّساء اللَّواتي تبعنَ السَّيِّدَ المسيح، بالطَّريقة نفسها التي يترأَّس فيها سَمْعَان بُطرُس قائمة الحواريِّيْن الذُّكُور. وبالطَّبع؛ هي كانت الشَّاهدة الأُولىٰ علىٰ القَبْر الفارغ بعد الصَّلْب. من بين كُلِّ مُحبِّيه، اختار المسيحُ مَرْيَمَ المَجْدَليَّةَ لتكون أوَّل مُكتشفي انبعاثه.

في كافَّة أنحاء كُتُب الإنجيل، السَّيِّدُ المسيح يُعامل مَرْيَمَ المَجْدَليَّةَ بأُسلُوب مُفرَد، وتفضيلي. مثل هذه المُعاملة ـ لرُبَّما ـ ولَّدت الغَيْرَةَ لدىٰ الحواريِّيْن الآخرين. كان يبدو ـ من الواضح جدَّاً ـ أنَّ التَّعاليم اللَّاحقة سَعَتْ لتسويد خَلْفيَّة مَرْيَم المَجْدَليَّة، إنْ لم يكن اسمها. تصويرها كعاهرة ـ لرُبَّما ـ كان تعويضاً فائضاً عن نتاج حَقُود؛ يُقصَدُ تشويه سُمعة المرأة، التي كان ارتباطها بالسَّيِّد المسيح أقرب من ارتباطهم به، وبالتَّالي؛ أثار الكثير من الحسد الإنساني.

---

(1) (ولكنْ؛ كيف يدَّعي المُؤلِّفون أنَّ السَّيِّدَ المسيحَ كان ثوريٌّ ومُناهضاً لرُوما، التي صَلَبَتْهُ، والآن؛ يقولون إنَّ زوجة أحد المسؤولين الكبار في قصر هيرُودُوس العظيم، الذي عَيَّنَتْهُ رُومَا حاكماً علىٰ اليهُوديَّة ـ بلا شكٍّ كان مُوالياً جدَّاً لهم كَرَدٍّ لهذا المعروف ـ كانت مُؤيِّدة للسَّيِّد المسيح ولمهمَّته؟ هل ذلك يعني أنَّ ذلك المسؤول كان وزوجته خائنَيْن لهيرُودُوس؟ علىٰ الأقلِّ؛ يجب التَّنويه إلىٰ هذه القضيَّة الهامَّة! المُترجم).

إنْ قام «المسيحيُّون» الآخرون ـ إمَّا أثناء عهد السَّيِّد المسيح، أو بعده ـ بإنكار الرَّابطة الفريدة لَمَرْيَم المَجْدَليَّة مع زعيمهم الرُّوحي، فربَّما في ذلك مُحاولة لتقليل أهمِّيَّتها في نَظَر الأجيال القادمة[1]. لاشكَّ بأنَّها كانت مُتَقَصَةً جدًّاً. حتَّىٰ اليوم؛ قد يُفكِّر فيها المرءُ كَعَاهرة، وفي العُصُور الوُسْطَىٰ؛ كانت الأُسَرُ التي تمتلك عاهرات مُصلَحَات تُدعَىٰ الأُسَر المَجْدَليَّة. لكنَّ كُتُبَ الإنجيل بنفسها تشهد بأنَّ المرأة التي مَنَحَت اسمَها إلىٰ هذه المُؤسَّسات لم تكن تستحقُّ أنْ تُوصَف بهذه الصِّفة.

مهما كانت منزلة مَرْيَم المَجْدَليَّة في كُتُب الإنجيل، هي ليست المُرشَّحة المُحتَمَلَة الوحيدة كَزَوجة للسَّيِّد المسيح. هُناكَ واحدة أُخرىٰ، والتي وَرَدَتْ ببُرُوز شديد في الإنجيل الرَّابع، والتي قد تُحدَّد كَمَرْيَم من بيت عَنيا، شقيقة مَارتا، ولِعازار. بشكل واضح؛ إنَّها وعائلتها ـ بشكل واضح ـ كانوا علىٰ علاقة مألوفة جدًّاً مع السَّيِّد المسيح. وهُم أغنياء ـ أيضاً ـ لديهم منزل في ضاحية عَصْريَّة في القُدْس، وكان كبيراً بما فيه الكفاية لإسكان السَّيِّد المسيح وكامل حاشيته. الأكثر من ذلك، حادثة إحياء لِعازار تُشير إلىٰ أنَّ هذا البيت يحتوي قَبْراً خاصًّاً؛ قَبْراً مُترفاً، ومُبهرجاً جدًّاً، مُقارنة مع عهد السَّيِّد المسيح، لا يُشير ذلك إلىٰ الثَّراء فحسب، بل ـ أيضاً ـ يرمز إلىٰ المكانة الاجتماعيَّة المرموقة، التي تشهد علىٰ ارتباطات أرستقراطيَّة. في أُورشليم التَّوراتيَّة ـ كما هُو الحال في أيِّ مدينة حديثة ـ الأرض كانت ثمينة، والقلائل ـ فقط ـ هُم قادرون علىٰ مُمارسة الرَّفاهيَّة الذَّاتيَّة في الحُصُول علىٰ موقع خاصٍّ للدَّفْن.

في الإنجيل الرَّابع؛ عندما مرض لِعازار، السَّيِّدُ المسيحُ غادر بيت عَنيا لبضعة أيَّام، وبقي مع حواريِّيه في الأردن.

علىٰ الرّغم من أنَّه سمع بحُدُوث ذلك، إلَّا أنَّه تأخَّر ليومَيْن؛ ردَّة فِعْلٍ تُثير الفُضُول نوعاً ما؛ وبعد ذلك، يعود إلىٰ بيت عَنيا؛ حيثُ لِعازار يكمن في القَبْر. عندما اقترب، أسرعت مَارتا لمُقابلته وهي تصرخ، «لو كُنتَ هُنا، يا سيِّدُ، ما مات أخي». (يُوحنَّا 11: 21)، هذا زَعْمٌ مُحيِّر، فلماذا ـ بالضَّرورة ـ حُضُور السَّيِّد المسيح الطَّبيعي كان سيحول دُون موت الرَّجل؟! لكنَّ الحادثة هامَّة؛

(1) (إنْ كان المُؤلِّفين يعدُّونها كزوجة للسَّيِّد المسيح، فكيف نشأت الغَيْرَة لدىٰ الحواريِّيْن؟! هل يغار الإنسان من مُعاملة زوج لزوجته؟! أم أنَّهم يتوقَّعون بأنْ ينبذ الزَّوج زوجته؟! إنْ كانوا ـ فعلاً ـ يغارون من ذلك، فلا شكَّ أنَّهم ليسوا بأتباع أو حواريِّيْ السَّيِّد المسيح المُتَّصفين بالقُدْسيَّة. المُترجم).

لأنَّ مَارتا ـ عندما رحَّبت بالسَّيِّد المسيح ـ كانت وحـدها. أحـدنا سـيتوقَّع أنَّ أختهـا مَـرْيَم يجـب أنْ تكون معها. مَرْيَم ـ علىٰ أيَّة حال ـ كانت تجلـس في البيـت، ولم تظهـر حتَّـىٰ يأمرهـا الـسَّيِّد ـ بـشكل واضح ـ بعمل ذلك. بذلك؛ تُصبح الفِكْرَة التي وَرَدَت في الإنجيل «السِّرِّيّ» لمَرْقُس أكثـر وُضُـوحاً، والتي اكتُشِفَتْ من قِبَل الأُستاذ مُورتن سميث، واستُشهد مُسبقاً في هذا الفصل. في الرِّواية الملموسة لمَرْقُس، يبدو أنَّ مَرْيَم خرجت من البيت قبل أنْ يأمرها الـسَّيِّد المسيح بالقيـام بـذلك. وبالتَّالي؛ تـمَّ توبيخها علىٰ الفور، وبشكل غاضب، من قِبَل الحواريِّيْن، الذين ألْزَمَهُم السَّيِّدُ المسيح بأنْ يسكتوا.

إنَّه لمن المعقول بما فيه الكفاية أنَّ علىٰ مَرْيَم أنْ تجلس في البيت عندما يـصل الـسَّيِّد المـسيح إلىٰ بيت عَنيا. وُفقاً للتَّقاليد اليهُوديَّة هي كانت في «جلسة الشِّيفا»[1]؛ أيْ الجُلُوس في حـداد. لكـنْ؛ لمـاذا هي لم تنضمّ إلىٰ مَارتا، وتُسرع لمُقابلة السَّيِّد المسيح لدىٰ عودته؟! هُناك تفـسير واضـح وحيـد. وُفقـاً لعقائد القانون اليهُودي في ذلك الوقـت، الامـرأة التـي تُمـارس «الـسَّبعيَّة» يُحـرَّم عليهـا ـ بـصرامة ـ الخُرُوج من البيت إلَّا في حالة طَلَب عاجل من زوجها. في هذه الحادثة، ما حَدَثَ بـين الـسَّيِّد المـسيح ومَرْيَم من بيت عَنيا ينطبق ـ تماماً ـ علىٰ تصرُّف تقليدي لزوج وزوجة يهُوديَّيْن.

هُناك دليل إضافي لزواج مُحتمل بين السَّيِّد المسيح ومَرْيَم من بيت عَنيا، يحدث في إنجيـل لُوقَـا كاستنباط خُلْفيّ[2]:

وبينما هُم سائرون، دخل يسوعُ قريةً، فرحَّبتْ به امرأةٌ اسمها مَرتا في بيتهـا. وكـان لهـا أُخـتٌ اسمها مَرْيَم، جلست عند قَدَمَيْ الرَّبِّ يسوع، تستمع إلىٰ كلامه. وكانت مَرتـا مُنهمكَـة في كثـير مـن الأُمُور الضِّيافيَّة، جاءت، وقالت ليسوع: «ياربُّ، أَما تُبالي أنْ تتركني أُختي أخدم وحدي؟! قُـل لهـا أنْ تُساعدني!».

(1) (شيفا «Shivah sitting» الفترة اليهُوديَّة للحداد: سبعة أيَّام من الحداد الرَّسْمي، يتَّبعها الأقرباء المُقرَّبون للـشَّخص اليهُودي الميِّت، وفي تلك الفـترة؛ يجلـسون علىٰ مقاعـد مُنخفـضة، ولا يخرجـون، ولا يعملـون، ولا يـستحمُّون، ولا يحلقون. أقترح بأنَّه بإمكاننا أنْ نُسمِّيها «السَّبعيَّة»؛ لأنَّ «شيفا» أصلاً مُشتقَّة من لفظة سبعة باللُّغة العِبْرِيَّة. المُترجم).
(2) (استنباط، أو استنتاج غير مُتَّفق مع المُقدِّمات. المُترجم).

فأجابها الرَّبُّ: «مَرتا، مَرتا، أنت تقلقين وتهتمِّين بأُمُورٍ كثيرةٍ، مع أنَّ الحاجة إلىٰ شيءٍ واحدٍ. فمَرْيَم اختارت النَّصيب الأفضل، ولن ينزعه أحدٌ منها». (لُوقَا: 10: 38 ـ 42).

من مُناشدة مَارتا؛ يبدو ـ من الواضح ـ أنَّ السَّيِّد المسيح يُمارس نوعاً من السُّلطة علىٰ مَرْيَم. الأكثر أهمِّيَّة من ذلك ـ علىٰ أيَّة حال ـ هُو إجابة السَّيِّد المسيح. في أيِّ سياق آخر لن يتردَّد المرء في تفسير هذه الإجابة كتلميح إلىٰ الزَّواج، في أيِّ حال من الأحوال تلك؛ الإجابة تقترح ـ بشكل واضح ـ بأنَّ مَرْيَم من بيت عَنيا كانت حواريَّة شغوفة بنَفْس شغف مَرْيَم المَجْدَليَّة.

هُناك سبب كبير لاعتبار أنَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة والمرأة التي دَهَنَت السَّيِّدَ المسيحَ هُما نفس الشَّخص. تَسَاءَلْنَا:

هل يُمكن أنَّ هذا الشَّخص هُو ـ أيضاً ـ مَرْيَم من بيت عَنيا، أُخت لِعازار ومَارتا؟!

هل يُمكن أنَّ هؤلاء النِّساء اللَّواتي ظهرنَ في كُتُب الإنجيل في ثلاثة سياقات مُختلفة هُنَّ ـ في الحقيقة ـ الشَّخص نفسه ؟!

الكَنيسَة في القُرُون الوُسْطَىٰ اعتبرتهنَّ كذلك بالتَّأكيد، وكذلك التَّعاليم الشَّعبيَّة. العديد من العُلماء التَّوراتيِّيْن اليوم مُتَّفقون علىٰ ذلك. وهُناك دليل كافٍ لدَعْم مثل هذه النَّتيجة.

إنجيل مَتَّىٰ ومَرْقُس ويُوحنَّا، علىٰ سبيل المثال، كُلُّها تستشهد بمَرْيَم المَجْدَليَّة علىٰ أنَّها كانت حاضرة في وقت الصَّلْب. لا أحد منها يستشهد بمَرْيَم من بيت عَنيا. لكنْ؛ إنْ كانت مَرْيَم من بيت عَنيا كانت مُكرَّسة كَحَواريَّة بالقَدْر نَفْسه، الذي بدت عليه، فيبدو أنَّ غيابها هُو ـ علىٰ الأقلِّ ـ تقاعس. هل يُعقل بأنَّها ـ ناهيكَ عن ذِكْر أخيها لِعازار ـ أخفقت في أنْ تشهد علىٰ اللَّحظة الأخيرة لحياة السَّيِّد المسيح؟! إنَّ حذفاً وإسقاطاً كهذا سيكون غير قابل للتَّوضيح، ويستحقُّ التَّعجبَ؛ إلَّا ـ بالطَّبع ـ إنْ كانت موجودة، وتمَّ الاستشهاد بها في كُتُب الإنجيل باسم مَرْيَم المَجْدَليَّة ذاتها. إنْ كانت مَرْيَم المَجْدَليَّة ومَرْيَم من بيت عَنيا هُما الشَّيء ذاته، فليس هُناك سُؤال عن تغيُّب الأخيرة عن الصَّلْب.

مَرْيَم المَجْدَليَّة يُمكن مُطابقتها مع مَرْيَم من بيت عَنيا. ومَرْيَم المَجْدَليَّة يُمكن مُطابقتها ـ أيضاً ـ مع المرأة التي دَهَنَت السَّيِّد المسيح.

يُميِّز الإنجيلُ الرَّابعُ المرأةَ التي تدهن السَّيِّدَ المسيحَ بأنَّها مَرْيَم من بيت عَنيا. في الحقيقة؛ مُؤلِّف الإنجيل الرَّابع واضح جدَّاً في هذه المسألة:

ومرض رجل اسمه لِعازار من بيت عَنيا، من قرية مَرْيَم وأُختها مَرتا. ومَرْيَم هذه هي التي سَكَبَت الطِّيبَ علىٰ قَدَمَي الرَّبِّ يسوع، وَمَسَحَتْهُمَا بشَعْرها. وكان لِعازار المريض أخاها. (يُوحنَّا: 11: 1 ـ 2).

ومرَّة ثانية؛ بعد فَصْل لاحق:

وقبل الفِصح بستَّة أيَّام، جاء يسوع إلىٰ بيت عَنيا، ونزل عند لِعازار، الذي أقامه من بين الأموات. فهيَّؤوا له عشاءً، وأخذت مَرتا تخدم، وكان لِعازار أحد الجالسين معه للطَّعام. فناولت مَرْيَمُ قارورةَ طِيْبٍ غالي الثَّمن من النَّاردين النَّقيِّ، وَسَكَبَتْهَا علىٰ قَدَمَيْ يسوع، وَمَسَحَتْهُمَا بشَعْرها. فامتلأ البيتُ برائحة الطِّيب. يُوحنَّا (12: 1 ـ 3).

وهكذا؛ من الواضح أنَّ مَرْيَم من بيت عَنيا والمرأة التي دَهَنَت السَّيِّد المسيح هي المرأة ذاتها. إنْ لم يكن واضحاً بالمثل، فمن المُحتمل جدَّاً أنَّ هذه المرأة هي ـ أيضاً ـ مَرْيَم المَجْدَليَّة. إنْ كان السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ مُتزوِّجاً، بالتَّالي؛ يبدو أنَّه كان هُناك مُرشَّحة واحدة ـ فقط ـ لتكون زوجته المرأة الوحيدة التي ذُكِرَتْ ـ مراراً، وتكراراً ـ في كُتُب الإنجيل تحت أسماء مُختلفة، وفي أدوار مُختلفة.

الحواري المحبوب

إذا مَرْيَم المَجْدَليَّة ومَرْيَم من بيت عَنيا هُما نَفْس المرأة، وإذا كانت هذه المرأة هي زوجة السَّيِّد المسيح، إذنْ؛ لِعازار كان يُمكن أنْ يكون نسيب السَّيِّد المسيح.

هل هُناك أيُّ دليل في الإنجيل يقترح بأنَّ لِعازار ـ في الحقيقة ـ تمتَّع بمثل هذه المنزلة؟!

لِعازار لا يُذكَر بالاسم في إنجيل لُوقَا ومَتَّىٰ ومَرْقُس، بالرّغم من أنَّ قصَّة «إحيائه من الموت» كانت موجود ـ أصلاً ـ في رواية مَرْقُس، وبعد ذلك؛ حُذِفَتْ.

بالنَّتيجة؛ لِعازار عُرِفَ للأجيال اللَّاحقة ـ فقط ـ من خلال الإنجيل الرَّابع؛ إنجيل يُوحنَّا. لكنْ؛ من الواضح أنَّه كان يتمتَّع بنوع من المُعاملة التَّفضيليَّة، التي لم تنحصر ـ فقط ـ في «إحيائه». في هذه الحادثة، وفي عدد من النَّواحي الأُخْرَىٰ، يبدو بأنَّه كان أقرب إلىٰ السَّيِّد المسيح حتَّىٰ من الحواريِّيْن أنفسهم. ورغم ذلك، وبشكل يُثير ما يكفي من الفُضُول، كُتُبُ الإنجيل لم تذكره حتَّىٰ كأحد الحواريِّيْن.

علىٰ خلاف الحواريِّيْن، في الحقيقة؛ لِعازار كان مُهدَّداً بالقَتْل. طبقاً للإنجيل الرَّابع؛ رُؤساء الكَهَنَة عندما قرَّروا قَتْلَ المسيح، تشاوروا علىٰ قَتْل لِعازار ـ أيضاً ـ (يُوحنَّا 12: 10). قيل إنَّ لِعازار كان نشيطاً بطريقة ما لصالح السَّيِّد المسيح، ويُعدُّ ذلك أكثر ممَّا يُمكن قوله عن البعض من الحواريِّيْن.

نَظَرِيَّاً؛ هذا كان يجب أنْ يُؤهِّله ليكون حواريَّاً بنفسه، علىٰ الرّغم من أنَّه لم يُستَشْهَد به بحَدِّ ذاته، ولا حتَّىٰ يُقال بأنَّه كان حاضراً عند الصَّلْب، علىٰ ما يبدو ذلك إجحاداً وقحاً من قِبَل الرَّجل، الذي ـ بدُون مُبالغة ـ يدين بحياته للسَّيِّد المسيح. صحيح أنَّه ـ لرُبَّما ـ اختفىٰ نتيجة التَّهديد الذي وُجِّه ضدَّه. ولكنَّه من المُثير جدَّاً للرِّيبة بأنَّه لا تُوجد هُناك أيَّة إشارة أُخرىٰ إليه في الإنجيل. يبدو أنَّه اختفىٰ نهائيَّاً، ولم يُذكَر ثانية، أم أنَّه لم يكن كذلك؟ حاولنا تَفَحُّص المسألة بعناية أكبر.

بعد البقاء في بيت عَنيا لثلاثة شُهُور؛ السَّيِّد المسيح انسحب مع حواريِّيه إلىٰ ضفاف الأردن، والتي لا تبعد أكثر من مسافة يوم. هُنا؛ جاءه ـ علىٰ عجل ـ رسول بأخبار أنَّ لِعازار مريض. لكنَّ الرَّسول لا يُشير إلىٰ لِعازار بالاسم. بالعكس؛ يُصوِّر الرَّجل المريض وكأنَّه ذو أهمِّيَّة خاصَّة جدَّاً. «فأرسلت الأُختان إلىٰ يسوع تقولان: يا سيِّد، الذي تُحبُّه مريض». (يُوحنَّا 11: 3). ردَّة فِعْل السَّيِّد المسيح لهذه الأخبار هي غريبة بشكل واضح. بدلاً من أنْ يرجع بسُرعة بالغة لإغاثة الرَّجل الذي يُزعم أنَّه يُحبُّه، هُو أنكر المسألة بشكل مُبتهج: «فلمَّا سمع يسوع، قال: ما هذا المرضُ للموتِ، بل لمجد الله. فيه سيتمجَّد ابن الله». (11: 4). وإنْ كانت كلماته مُحيِّرة، فأعماله كانت مُحيِّرة لدرجة أكبر: «لكنَّه بقي في مكانه يومَيْن، بعد أنْ عرف أنَّ لِعازار مريض». (11: 6).

باختصار؛ السَّيِّد المسيح بقي يومَيْن آخرَيْن في الأردن، علىٰ الرّغم من تلقِّيه لتلك الأخبار الخطيرة. أخيراً؛ يُصمِّم علىٰ العودة إلىٰ بيت عَنيا. وبعد ذلك؛ يُناقض ـ بشكل صارخ ـ بيانه السَّابق بإخبار الحواريِّيْن بأنَّ لِعازار ميِّت.

علىٰ أيَّة حال؛ كان مايزال مُحافظاً علىٰ رباطة جأشه. «ثُمَّ قال لهم: حبيبنا لِعازار نائم، وأنا ذاهب لأُوقظه». (11: 11) وفي أربعة أشعار لاحقاً هُو يعترف ـ عَمَليّاً ـ بأنَّ القضيَّة برُمَّتها كانت ـ سَلَفَاً ـ مُدبَّرة، ومُرتَّبة، بعناية: «ويسرُّني، لأجلكم حتَّىٰ تُؤمنوا، أنِّي ما كُنتُ هُناك. قُومُوا نذهب إليه». (11: 15). وإنْ كان سُلُوك كهذا يُثير الحَيْرَة، فإنَّ ردَّة فِعْل الحواريِّيْن لم تكن أقلّ شأناً من ذلك أيضاً. «فقال تُوما المُلقَّب بالتَّوأم لإخوانه التَّلاميذ: تعالوا؛ نذهب نحنُ ـ أيضاً ـ ونموت معه!». (11: 16) ماذا يعني ذلك؟ إنْ كان لِعازار ميِّتاً بالمعنىٰ الحَرْفي للكلمة، فإنَّه لمن المُؤكَّد أنَّ الحواريِّيْن لم تكن نيَّتهم أنْ ينضمُّوا إليه بعمليَّة انتحار جماعيَّة! وكيف سيُفسِّر المرء لا مُبالاة السَّيِّد المسيح؛ لا مُبالاته عندما سمع بمرض لِعازار، وتأخُّره في العودة إلىٰ بيت عَنيا؟!

تفسير المسألة يبدو ـ تقريباً ـ بأنَّه يكمن ـ كما يقترح الأُستاذ مُورتن سميث ـ في شعائر «مدرسة سرِّيَّة». وكما يُوضِّح الأُستاذ سميث، مثل هذه الشَّعائر والطُّقُوس المُرافقة لها كانت شائعة بما فيه الكفاية في فلسطين في عهد السَّيِّد المسيح. كانت تستلزم ـ في أغلب الأحيان ـ الموت والإحياء الرَّمْزيَّ، والتي كانت تُدعَىٰ بالأسماء التَّالية: «العَزْل في القَبْر»؛ حيثُ أصبح القَبْر هُنا كالرَّحم الذي يبعث مُعاون الكَاهن؛ «المنسك»، وذلك ما يُسمَّىٰ ـ الآن ـ بالمَعمُوديَّة؛ وهُو غمر رَمْزي في الماء؛ و«كَأس النَّبيذ»، والذي كان يُجسِّد دم النَّبيِّ، أو السَّاحر، الذي يترأس تلك الشَّعائر. بالشُّرب من مثل هذه الكَأس، يكون التَّابع قد أكمل اتِّحاده الرَّمْزي مع مُعلِّمه، الأوَّل والأخير يُصبحان ـ بشكل باطني ـ «رجلاً واحداً». من الواضح جدّاً، أنَّه ـ بالضَّبط ـ في مثل هذه المُصطلحات يشرح القدِّيسُ بُولُسُ هَدَفَ المَعمُوديَّة. والسَّيِّد المسيح بنفسه يستخدم المُصطلحات نفسها في العشاء الأخير.

وكما يُشير الأُستاذ سميث، مهنة السَّيِّد المسيح كانت مُشابهة جدّاً لمهنة أُولئك السَّحَرَة الآخرين، وصانعي الأعاجيب والمُعجزات والمُعالجين في تلك الفترة. علىٰ سبيل المثال، في كافَّة أنحاء الكُتُب الأربعة للإنجيل يُذكَر أنَّه كان ـ بثبات ـ يجتمع سرّاً مع النَّاس الذين كان علىٰ وشك أنْ

يشفيهم، أو أنَّه كان يتكلَّم معهم بشكل معزول تماماً. وبعدئذ ـ وفي أغلب الأحيان ـ كان يطلب منهم عدم الإباحة بما حصل معهم. وبقدر تعلُّق الأمر بالنَّاس؛ كان يتكلَّم ـ بشكل اعتيادي ـ بالحكايات، والأمثال.

إذنْ؛ يبدو أنَّ لِعازار ـ أثناء زيارة السَّيِّد المسيح في الأردن ـ كان قد شرع في تأدية منسك شعائري مثالي، يقود ـ بحَدِّ ذاته ـ إلىٰ المناسك التَّقليديَّة في الإحياء، أو الانبعاث الرَّمْزي. في ضوء هذا؛ رغبة الحواريِّيْن في أنْ «يموتوا معه» أصبحت مفهومة جدَّاً؛ وكذلك بالنِّسبة لرضا السَّيِّد المسيح، غير القابل للتَّوضيح حول القضيَّة برُمَّتها. صحيح أنَّ مَرْيَم ومَارتا يبدوان بأنَّهما كانتا مذهولتَيْن بصِدْق، كما هُو الحال لعدد آخر من النَّاس. لكنَّهم ـ ببساطة ـ قد أساءوا التَّقدير، أو أساءوا فَهْم فكْرة التَّمرين. أو رُبَّما بدا أنَّ خطأً ما قد حَصَلَ في الطُّقُوس، وذلك الأمر شائع عادةً. أو رُبَّما القضيَّة برُمَّتها كانت قطعة من عمل مسرحي مُدبَّر بشكل ماهر، وكانت طبيعته وهدفه الحقيقي معروفاً ـ فقط ـ لقلائل جدَّاً.

إنْ كانت حادثة لِعازار تعكس طُقُوساً شعائريَّة، فهُو قد تلقَّىٰ مُعاملة تفضيليَّة بشكل واضح جدَّاً.

من بين الأشياء الأُخْرَىٰ؛ يبدو أنَّه كان الأوَّل في أداء شعائر الدُّخُول لجماعة السَّيِّد المسيح، وبشكل سَبَقَ فيه كُلَّ الحواريِّيْن الآخرين، والذين ـ في الحقيقة ـ يبدو بأنَّهم ـ بالتَّأكيد ـ كانوا يحسدونه علىٰ الامتياز الذي تمتَّع به.

ولكنْ؛ لماذا يجب تمييز وإفراد هذا الرَّجل المجهول ـ حتَّىٰ الآن ـ من بيت عَنيا، وبهذا الشَّكل؟!

لماذا كان يجب أنْ يمرَّ بالتَّجربة التي كان الحواريُّون مُتلهِّفين جدَّاً لأدائها؟!

لماذا يجب علىٰ «الزَّنادقَة» المُوجَّهين باطنيَّاً كالكربُوقراطيِّيْن أنْ يُولُوا هذه المسألةَ الكثيرَ من الاهتمام فيما بعد؟!

ولماذا كان يجب أنْ تُشطَبَ الحادثة برُمَّتها من إنجيل مَرْقُس؟!

رُبَّما لأنَّ لِعازار كان «الذي أحبَّه السَّيِّد المسيح»، وبشكل أكثر من باقي الحواريِّيْن. رُبَّما لأنَّ لِعازار كان يتمتَّع بصلة ما خاصَّة بالسَّيِّد المسيح؛ كأنْ يكون نسيبه. رُبَّما للسَّببَيْن كلَيْهما. من المُحتمل أنَّ السَّيِّد المسيح تعرَّف علىٰ لِعازار، وأحبَّه؛ لأنَّ لِعازار كان ـ بالضَّبط ـ نسيبه.

في أيِّ حال من الأحوال؛ علاقة الحُبِّ كانت مُشدَّدة مراراً، وتكراراً. عندما يعود السَّيِّد المسيح إلىٰ بيت عَنيا، ويبكي، أو يتظاهر بالبُكاء، لموت لِعازار، يُردِّد الحُضورُ كلمات الرَّسول قائلين: «انظروا كم كان يُحبُّه!» (يُوحنَّا 11: 36).

مُؤلِّف إنجيل يُوحنَّا ـ الإنجيل الذي ترد فيه قصَّة لِعازار ـ لا يُعرِّف في أيِّ نُقطة منه بأنَّه «يُوحنَّا».

في الحقيقة؛ هُو لا يُسمِّي نفسه مُطلقاً. علىٰ أيَّة حال؛ هُو يُشير إلىٰ نفسه بأكثر من كُنية مُتميِّزة. يدعو نفسه ـ بشكل ثابت ـ «التَّابع المحبوب»، «الشَّخص الذي أحبَّه السَّيِّد المسيح»، ويُشير ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّه ـ بشكل واضح ـ يتمتَّع بمنزلة فريدة، ومُفضَّلة علىٰ رفاقه. في العشاء الأخير ـ علىٰ سبيل المثال ـ يُظهر ـ بشكل واضح ـ قُربَهُ الشَّخصي إلىٰ السَّيِّد المسيح، وله وحده يعهد السَّيِّد المسيح الوسائلَ التي ستحدثُ فيها الخيانة:

وكان أحد التّلاميذ، وهُو الذي يُحبُّه يسوع، جالساً بجانبه. فأومأ إليه سَمْعَان بُطرُس، وقال له: «سَلْهُ مَنْ يعني بقوله». فمال التِّلميذ علىٰ صدر يسوع، وسأله: «مَنْ هُو يا سيِّد؟» فأجاب يسوع: «هُو الذي أُناوله اللُّقمة التي أغمسها!» وغمس يسوع لُقمة، ورفعها، وناول يهُوذا بن سَمْعَان الأسخَريوطيِّ. (يُوحنَّا 13: 23 ـ 6).

مَنْ هُو «هذا التَّابع المحبوب» الذي تعتمد عليه شهادة الإنجيل الرَّابع؟ كُلُّ الأدلَّة تقترح بأنَّه ـ في الحقيقة ـ لِعازار؛ «هُو الذي أحبَّه السَّيِّد المسيح».

إذنْ؛ يبدو أنَّ لِعازار و«التَّابع المحبوب» هُما الشَّخص نفسه، وأنَّ هُويَّة لِعازار الحقيقيَّة هي «يُوحنَّا».

هذه النَّتيجة تبدو ـ تقريباً ـ بأنَّها حَتْميَّة. ولم نكن نحنُ وحدنا في التَّوصُّل إليها. طبقاً للأُستاذ وليام براونلي، عالم توراتي رائد، وأحد الخُبراء الأبرز في مَخطُوطَات البَحْر الميِّت؛ فهُو يقول: «من دليل داخلي في الإنجيل الرَّابع... النَّتيجة هي أنَّ التَّابع المحبوب هُو لِعازار من بيت عَنيا».

إنْ كان لِعازار و«التَّابع المحبوب» هُما الشَّيء ذاته، فذلك سيُوضِّح عدداً من الأشياء الغريبة. ذلك سيُوضِّح اختفاء لِعازار الغامض من الرِّواية الدِّينيَّة، وغيابه الواضح أثناء الصَّلْب. وإنْ كان لِعازار و«التَّابع المحبوب» هُما الشَّيء نفسه، فإنَّه من المُمكن أنَّ لِعازار كان حاضراً أثناء الصَّلْب. ومن المُمكن أنَّ السَّيِّد المسيح ائتَمَنَ لِعازارَ للعناية بأُمِّه. والكلمات التي عمل بها المسيح ذلك ـ لرُبَّما ـ تكون كلمات تُشير إلىٰ أنَّه يتحدَّث مع نسيبه:

ورأي يسوعُ أُمَّه، وإلىٰ جانبها التِّلميذ الحبيب إليه، فقال لأُمِّه: «يا امرأة، هذا ابنكَ». وقال للتِّلميذ: «هذه أُمُّكَ». فأخذها التِّلميذ إلىٰ بيته من تلك السَّاعة. (يُوحنَّا 19: 26 ـ 7).

الكلمة الأخيرة في هذا القول تكشف ـ بشكل خاصٍّ ـ أمراً هامَّاً. بالنِّسبة للحوارِيِّيْن الآخرين؛ فهُم تركوا بُيُوتهم في الجليل لجميع الأغراض والمقاصد، وكانوا مُشرَّدين. لِعازار ـ علىٰ أيَّة حال ـ يمتلك بيتاً؛ إنَّه ذلك البيت الحاسم في بيت عَنيا؛ حيثُ كان السَّيِّد المسيح بنفسه يُقيم عادةً.

بعد أنْ قيل بأنَّ الكَهَنَة قرَّروا قَتْلَهُ، لِعازار لم يُذكَر ثانيةً بالاسم. يبدو أنَّه اختفىٰ تماماً. ولكنْ؛ إنْ كان هُو ـ في الحقيقة ـ «التِّلميذ المحبوب»، فإنَّه لم يختف في النِّهاية، ويُمكن تتبُّع حَرَكَاته ونشاطاته حتَّىٰ النِّهاية في الإنجيل الرَّابع ذاته. وهُنا ـ أيضاً ـ تُوجد حادثة فُضُوليَّة، تستحقُّ المُعاينة.

في نهاية الإنجيل الرَّابع؛ يتوقَّع السَّيِّدُ المسيحُ موتَ بُطرُس، ويأمر بُطرُسَ بـ«اتِّباعه»:

والتفتَ بُطرُس، فرأىٰ التِّلميذ الذي كان يُحبُّه يسوع يمشي خلفهما، وهُو الذي مال علىٰ صدر يسوع وقت العشاء، وقال له: «يا سيِّدُ؛ مَن الذي سيُسلِّمك؟!». فلمَّا رآه بُطرُس قال ليسوع: «يا ربُّ، وهذا ما هُو مصيره؟».

فأجابه يسوع: «لو شئتُ أنْ يبقىٰ إلىٰ أنْ أجيء، فماذا يعنيكَ؟ اتبعني أنتَ!». فشاع بين الأُخوة أنَّ هذا التِّلميذ لا يموت، مع أنَّ يسوع ما قال لبُطرُس إنَّه لا يموت، بل قال له: «لو شئتُ أنْ يبقىٰ إلىٰ أنْ أجيء، فماذا يعنيكَ؟».

وهذا التِّلميذ هُو الذي يشهد بهذه الأُمُور، ويُدوِّنها، ونحنُ نعرف أنَّ شهادته صادقة. (يُوحنَّا 21: 20 ـ 24).

علىٰ الرّغم من أُسلُوب كلامه الغامض، أهمِّيَّة هذه العبارة تبدو بأنَّها واضحة. «التِّلميذ المحبوب» أُمِرَ ـ بشكل واضح ـ بأنْ ينتظر عودة السَّيِّد المسيح. والنَّصُّ بنفسه يُؤكِّد ـ تماماً ـ علىٰ التَّشديد بأنَّ هذه العودة لا يجب أنْ تُفهَم بشكل رَمْزي بأنَّها تعني «الانبعاث الثَّاني». بالعكس؛ تدلُّ علىٰ شيء أكثر دُنيويَّة بكثير. تُشير ـ ضمناً ـ إلىٰ أنَّ السَّيِّد المسيح ـ بعد أنْ أرسل أتباعه الآخرين إلىٰ العالم ـ عليه أنْ يعود قريباً بمهمَّة خاصَّة جديدة للـ«التِّلميذ المحبوب». علىٰ الأغلب يبدو كما لو أنَّ لديهم ترتيبات مُعيَّنة، يجب إنهاؤها، وخُطط يجب تنفيذها.

إنْ كان «التِّلميذ المحبوب» هُو لِعازار، مثل هذه المُؤامرة، المجهولة إلىٰ الحواريِّيْن الآخرين، تبدو أنَّها تمتلك سابقة مُحَدَّدة. في الأُسْبُوع الذي سَبَقَ الصَّلْبَ، باشر السَّيِّدُ المسيحُ بالقيام بدُخُوله الانتصاري إلىٰ أُورشليم، ولكي يقوم بذلك وُفقاً لنُبُوءات العهد القديم عن المسيح المُنتظَر، كان عليه أنْ يركب وهُو فارجٌ ساقَيْه علىٰ حمار (زكريَّا 9: 9 ـ 10). وُفقا لذلك؛ يجب الحُصُول علىٰ حمار. في إنجيل لُوقَا، أرسل السَّيِّدُ المسيحُ اثنَيْن من تلاميذه إلىٰ بيت عَنيا؛ حيثُ أخبرهم بأنَّهم سيجدون حماراً ينتظرهم. أُمِرُوا بإخبار مالك الحمار أنَّ «السَّيِّد بحاجة له». وعندما يتوضَّح كُلُّ شيء كما توقَّعه السَّيِّد المسيح بالضَّبط، سيُعدُّ ذلك نوعاً من الإعجاز.

ولكنْ؛ هل ـ حقّاً ـ هُناك أيُّ مُعجزة في ذلك العمل؟!

أَ لا يشهد ذلك ـ بشكل محض ـ علىٰ التَّخطيط المُتقَن؟!

أَ لا يبدو أنَّ الرَّجل من بيت عَنيا ـ الذي جَلَبَ الحمار في الوقت المُناسب ـ بأنَّه لِعازار؟!

هذه ـ بالتَّأكيد ـ هي نتيجة الدُّكتُور «هيُو سكُونفيلد». يُناقش ـ بشكل مُقنع ـ بأنَّ التَّرتيبات لدُخُول السَّيِّد المسيح المُنتصر إلىٰ القُدْس ائتُمِنَتْ إلىٰ لِعازار، وأنَّ الحواريِّيْن الآخرين لم يكونوا علىٰ عِلْم بذلك. إنْ كانت هذه هي الحقيقة، فذلك يشهد علىٰ وُجُود حلقة داخليَّة في تلاميذ السَّيِّد المسيح، صميم من المُتعاونين، أو الشُّركاء، أو أفراد العائلة، الذين ـ وحدهم ـ ينالون ثقة سيِّدهم.

يعتقد الدُّكتُور سكُونفيلد بأنَّ لِعازار ـ تماماً ـ جُزء من هذه الحلقة. ويلتقي اعتقاده مع إصرار الأُستاذ سميث علىٰ المُعاملة التَّفضيليَّة التي يتلقَّاها لِعازار استناداً إلىٰ الطُّقُوس التي نالها، أو الموت الرَّمْزي، في بيت عَنيا. ومن المُحتمل أنَّ بيت عَنيا كان مركزاً لطائفة، مكانَاً حُجِزَ للطُّقُوس الفريدة، التي ترأَّسها السَّيِّد المسيح.

إنْ كان الأمر كذلك، هذا قد يُوضِّح ـ بطريقة أُخرىٰ ـ الظُّهُور المُبهَم لبيت عَنيا في مكان آخر في تحقيقنا. دَيْر صهيُون دعا «قوسه» في رين لُو شاتُو بـ«بيت عَنيا». وسُونير ـ علىٰ ما يبدو بطَلَب من دَيْر صهيُون ـ سمَّىٰ الفيلَّا التي أقامها له بـ«بيت عَنيا».

في أيِّ حال من الأحوال؛ التَّواطُؤ الذي يبدو بأنَّه كان للحُصُول علىٰ الحمار من «رجل من بيت عَنيا» ـ لرُبَّما ـ يُظهر نفسه ـ ثانية ـ في النِّهاية الغامضة للإنجيل الرَّابع؛ عندما يطلب السَّيِّدُ المسيحُ من «التِّلميذ المحبوب» التَّلكُّؤ ريثما يعود. يبدو بأنَّه و«التِّلميذ المحبوب» لديهما خُطَط للتَّنفيذ. وليس من المُستحيل الافتراض بأنَّ هذه الخُطط تضمَّنت العناية بعائلة السَّيِّد المسيح. أثناء الصَّلْب ائتَمَنَ أُمَّه إلىٰ رعاية «التِّلميذ المحبوب». إنْ كان عنده زوجة وأطفال، فمن المُفترض أنَّه ائتمَنَهُم إلىٰ «التِّلميذ المحبوب» أيضاً. هذا سيكون ـ بالطَّبع ـ معقولاً لدرجة أكبر إنْ كان «التِّلميذ المحبوب» ـ في الحقيقة ـ نسيبه.

طبقاً لرواية لاحقة أحدث بكثير؛ أُمُّ السَّيِّد المسيح ماتت ـ فيما بعد ـ في المنفىٰ، في ايفيسُوس؛ وهُو المكان الذي قيل إنَّ الإنجيل الرَّابع صَدَرَ منه بعد ذلك. ليس هُناك إشارة ـ علىٰ أيَّة حال ـ أنَّ «التِّلميذ المحبوب» وُجِدَ في حياة أُمِّ السَّيِّد المسيح طوال فترة حياتها. طبقاً للأُستاذ سكُونفيلد؛ يُحتمَل أنَّ الإنجيل الرَّابع لم يُعدَّ في ايفيسُوس، بل ـ فقط ـ جُدِّدَ، وحُرِّرَ، وُعدِّلَ من قِبَل رجل يُوناني مُسنّ كان يُقيم هُناك؛ والذي جَعَلَهُ يتوافق مع أفكاره الخاصَّة.

إنْ لم يذهب «التِّلميذ المحبوب» إلىٰ ايفيسُوس، فما الذي حصل له؟! إنْ كان ولِعازار هُما الشَّخص نفسه، فإنَّ ذلك السُّؤال يُمكن الإجابة عنه؛ لأنَّ الرِّواية واضحة جدَّاً حول مصير لِعازار.

طبقاً للرِّواية ـ بالإضافة إلىٰ بعض كُتَّاب الكَنيسَة الأوائل ـ لِعازار، ومَرْيَم المَجْدَليَّة، ومَارتا، ويُوسُف من الرَّامة، وبضعة آخرون، نُقِلُوا بالسَّفينة إلىٰ مرسيليا. هُناك يُفترَض أنَّ يُوسُف عُيِّن أُسقُفاً من قِبَل القدِّيس فيليب، وأُرسِل إلىٰ إنجلترا؛ حيثُ أسَّس كَنيسَة في غلاستُونبيري.

لِعازار ومَرْيَم المَجْدَليَّة ـ علىٰ أيّة حال ـ قيل بأنَّهما بقيا في بلاد الغال. تـزعم الرِّوايـة بـأنَّ مَـرْيَم المَجْدَليَّة ماتت إمَّا في «ايكسانـبرُوفانس»[1]، أو «سـانت بُـوم» (Saint Baume)، ولِعـازار مـات في مرسيليا، بعد أنْ أسَّس الأُسقُفيَّة الأُولىٰ هُناك. أحد رفـاقهم، القـدِّيس مَكـسيمين، يُقـال إنَّـه أسَّـس الأُسقُفيَّة الأُولىٰ في نَربُون.

إنْ كان لِعازار و«التِّلميذ المحبوب» هُمـا الـشَّخص نفسه، بـذلك يكـون هُنـاك تفسير لاختفـائهما المُشترَك. لِعازار ـ في الحقيقة ـ «التِّلميذ المحبوب»، يبدو بأنَّه نزل في مرسـيليا، سـويَّة مـع أُختـه؛ التـي ـ كـما تذكر الرِّوايات اللَّاحقة ـ كانت تحمل «الكَأس المُقَدَّسة»، «الدَّم المَلَكي». والتَّرتيبات لهـذا الهُـرُوب والمنفـىٰ يبدو بأنَّها وُضِعَتْ من قِبَل السَّيِّد المسيح بنفسه، سويَّة مع «التِّلميذ المحبوب» في نهاية الإنجيل الرَّابع.

سُلالة السَّيِّد المسيح

إنْ كان السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ مُتزوِّجاً من مَرْيَم المَجْدَليَّـة، هـل مثـل هـذا الـزَّواج كـان يُمكن أنْ يخدم هدفاً مُعيَّناً؟!

بكلمة أُخرىٰ؛ هل من المُمكن أنَّه كان شيئاً ما أبعد من مُجرَّد زواج تقليدي؟!

هل من المُمكن أنَّه كان تحالفاً سُلاليّاً من نوع ما، ذا مُلابسات ونتائج سياسيَّة؟!

باختصار؛ هل من المُحتمل أنَّ السُّلالة النَّاتجة عن مثل هذا الزَّواج كانت تستحقُّ ـ بالكامـل ـ كُنية «الدَّم المَلَكي»؟!

يُصرِّح إنجيل مَتَّىٰ ـ بشكل واضح ـ بأنَّ السَّيِّد المسيح كان من الدَّم المَلَكي؛ ملكاً أصيلاً، وهُو السَّليل المُباشر لسُلَيْمان، وداود. إنْ كان هذا حقيقيّاً، فلابُـدَّ أنَّـه كـان يتمتَّـع بادِّعـاء شَرْعـي لعـرش فلسطين مُوحَّدة، وحتَّىٰ إنَّه ـ لرُبَّما ـ كان ادِّعـاؤه هُـو الادِّعـاء الـشَّرْعي. والـنَّقْش الـذي ثُبِّـت علـىٰ الصَّليب ـ رُبَّما ـ كان أكثر من مُجرَّد سُخرية ساديَّة[2]؛ لأنَّ الـسَّيِّد المـسيح ـ رُبَّـما ـ في ـ الحقيقـة ـ كـان «ملك اليهُود». منصبه ـ في نواح عديدة ـ رُبَّـما مـثلاً كـان أشـبه بمنـصب الأمـير بُـوني تـشارلز عـام 1745[3]. وهكذا ـ رُبَّما ـ أطلق مُعارضـةً، والتـي نفَّـذها ـ بالـضَّبط ـ اسـتناداً إلىٰ دوره؛ دور الملـك

(1) (مدينة جنوب شرق فرنسا، قُرب مرسيليا من الشّمال. المُترجم).

(2) (السَّاديَّة هي التَّلذُّذ بإنزال العذاب بالشَّخص الآخر. المُترجم).

(3) (تشارلز إدوارد ستيوارت ادَّعىٰ عَرْش بريطانيا، وقاد الجيش الاسكتلندي في ثورة الـ 45 يوماً. المُترجم).

الكَاهن، الذي ـ لرُبَّما ـ سيُوحِّد بلاده، والشَّعب اليهُودي، وبذلك؛ كان قد شكَّل تهديداً خطيراً لهيرُودُوس ورُوما كلَيْهما.

شكَّك بعض العُلماء التَّوراتيِّين الحديثين بأنَّ «مذبحة الأبرياء» المشهورة التي قام بها هيرُودُوس هي ـ في الحقيقة ـ لم تحدث. حتَّىٰ إنْ حَدَثَتْ، فمن المُحتمل أنَّها لم تكن بالأبعاد المُبهرجة والمُروِّعة التي نُسِبَتْ إليها في كُتُب الإنجيل، وفي الرِّوايات اللَّاحقة. ورغم ذلك؛ تخليد القصَّة ـ بحَدِّ ذاته ـ يبدو أنَّه شهادة علىٰ شيء ما؛ رُبَّما كان إنذاراً صادقاً أطلقه هيرُودُوس، رُبَّما قلقاً واقعيَّاً جدَّاً حول إمكانيَّة خَلْعه من العَرْش. صحيح أنَّ هيرُودُوس كان حاكماً مُتزعزعاً لدرجة كبيرة، كان مكروهاً لأحكامه الاستعباديَّة، وثُبِّتَ في الحُكْم ـ فقط ـ بواسطة الكتائب الرُّومانيَّة. ولكنْ؛ علىٰ أيَّة حال، مهما كانت درجة التَّزعزُع في منصبه، فلو تكلَّمنا بواقعيَّة، من غير المُمكن أنَّه كان قد هُدِّدَ ـ بجدِّيَّة ـ من الإشاعات، التي تُنادي بقُدُوم مُنقذ باطني، أو رُوحي، وذلك النَّوع من الإشاعات كانت تزخم به الأرض المُقدَّسَة في ذلك الوقت علىٰ أيَّة حال.

إنْ كان هيرُودُوس ـ في الحقيقة ـ قلق، فلابُدَّ أنَّ السَّبب كان ـ تماماً ـ تهديداً كبيراً سياسيَّاً حقيقيَّاً وملموساً، وهُو التَّهديد الذي شكَّله الرَّجل، الذي امتلك حقَّاً عرشيَّاً أكثر شَرْعيَّة من حقِّه، والذي يُمكن أنْ يحظىٰ بالدَّعْم الشَّعبي الكبير. «مذبحة الأبرياء» ـ رُبَّما ـ لم تحدث مُطلقاً، لكنَّ الرِّوايات التي تتحدَّث عنها تعكس بعض القلق من طرف هيرُودُوس حول ادِّعاءٍ للعَرْش مُنافس له، ومن المُحتمل ـ تماماً ـ أنَّه قام ببعض الأعمال، التي تهدف إلىٰ إحباط، أو مَنْع ذلك الادِّعاء. ادِّعاء كهذا لم يكن إلَّا بطبيعة سياسيَّة. وبالتَّالي؛ كان من الواجب النَّظَر إليه بجدِّيَّة.

إنَّ اقتراح أنَّ السَّيِّد المسيح تمتَّع بمثل هذا الادِّعاء، هُو ـ بالطَّبع ـ يُعارض الصُّورة الشَّعبيَّة للسَّيِّد المسيح كـ«نجَّار فقير من النَّاصرة». ولكنْ؛ هُناك أسباب مُقنعة لذلك. في المركز الأوَّل، هُو ليس مُؤكَّداً بأنَّ السَّيِّد المسيح كان من النَّاصرة. (Jesus of Nazareth) «يسوع من النَّاصرة» هي ـ في الحقيقة ـ تحريف، أو خطأ في ترجمة (Jesus the Nazorite) «يسوع المنذور»[1]، أو ـ رُبَّما ـ (Jesus of Gennescareth) «يسوع من الخليل». في المركز الثَّاني، هُناك شكٌّ كبير في الوُجُود الحقيقي

(1) (الطَّائفة التي نذرت نفسها، فلا تحلق شَعْرها، ولا تشرب الخمر، أو يمسّ جُثَّة ... ولكنْ؛ هل هذا معقول؟! المُترجم).

لبلدة النَّاصرة في زمان السَّيِّد المسيح. النَّاصرة لم تُذكَر في أيَّة خرائط، أو وثائق، أو سجلَّات رُومانيَّة. هي لم تُذكَر في التّلمود. هي لم تُذكَر في أيٍّ من كتابات القدِّيس بُولُوس، التي هي أقلُّ ارتباطاً بالسَّيِّد المسيح، والتي ـ بعد كُلِّ شيء ـ أُعِدَّتْ قَبْلَ كُتُب الإنجيل. وفلافيُوس جُوزيفُوس ـ المُؤرِّخ الأوَّل في تلك الفترة، الذي قاد قُوَّات في الجليل، وصَنَعَ قوائم لبلدات الإقليم ـ لم يُورد أيَّ ذِكْر للنَّاصرة.

باختصار؛ يبدو أنَّ النَّاصرة لم تظهر كبلدة حتَّىٰ فترة ما بعد ثورة عام **66 ـ 74** بعد الميلاد، والتي أصبح اسم السَّيِّد المسيح مُرتبطاً بها، استناداً إلىٰ التَّشويش اللَّفظي ـ العَرَضي، أو المُتعمَّد ـ الذي يتميَّز به العهد الجديد كثيراً.

سواء السَّيِّد المسيح كان من «النَّاصرة» أم لم يكن، ليس هُناك إشارة البتَّة علىٰ أنَّه كان «نجَّاراً فقيراً[1]».

بالتَّأكيد؛ ليس هُناك تصوير كهذا في أيٍّ من الأناجيل، في الحقيقة؛ هي تقترح أدلَّة مُعاكسة ـ تماماً ـ لهذا الزَّعْم. مثلاً، يبدو بأنَّه علىٰ درجة عالية جدَّاً من العِلْم. يبدو بأنَّه مارس التَّدريبات الحاخاميَّة، وأنَّه عاشر الكثير من النَّاس الأغنياء والمُؤثِّرين، وبالمثل؛ الفُقراء ـ يُوسُف من الرَّامة، علىٰ سبيل المثال، ونيقُوديمُوس. والزَّفاف في قانا يبدو أنَّه يحمل شاهداً آخر علىٰ منزلة السَّيِّد المسيح، ومركزه الاجتماعي.

هذا الزَّفاف لا يظهر بأنَّه كان حفلاً مُتواضعاً أُجْرِيَ لـ«عامَّة الشَّعب». بالعكس؛ يحمل كُلَّ دلائل الزَّواج الأرستقراطي المُبذِّر، مسألة «مُجتمع رفيع المُستوىٰ»، حضره ـ علىٰ الأقلِّ ـ عدَّة مئات من الضُّيُوف. علىٰ سبيل المثال؛ كان هُناك الكثير من الخَدَم؛ الذين سارعوا بتنفيذ أوامر مَرْيَم والسَّيِّد المسيح كلَيْهما. وهُناك «رئيس الوليمة»، أو «رئيس الحفلات»؛ الذي ـ وُفقاً لسياق الكلام ـ يبدو بأنَّه كان كبير خَدَم من نوع ما، أو ما شابه، أو رُبَّما كان أرستقراطيَّاً بحَدِّ ذاته. بشكل واضح جدَّاً؛ كان هُناك كمِّيَّة هائلة من النَّبيذ. عندما «يُحوِّل» السَّيِّدُ المسيحُ الماءَ إلىٰ النَّبيذ، هُو يُنتج ـ طبقاً لتوراة البشارة ـ ما لا يقلُّ عن ستُّمئة لِتْر، والتي هي أكثر من ثمنمائة زُجاجة! هذا؛ بالإضافة إلىٰ ما تمَّ استهلاكه.

---

(1) (في كتاب «عيسىٰ اليهُودي» للكاتب فيرمِس يُذكَر أنَّه في الأقوال التّلموديَّة الاسم الآرامي «naggar» الدَّالّ علىٰ «نجَّار»، أو «المهني» يعني «الرَّجل المُتعلِّم»، أو «العالم». المُؤلِّفون).

باعتبار عامٍّ؛ الزَّفاف في قانا يبدو بأنَّه كان حفلاً فاخراً لطبقة من النُّبلاء، أو الأرستقراطيِّين. حتَّىٰ إنْ لم يكن الزَّفاف هُو زفاف السَّيِّد المسيح، فإنَّ حُضُوره وأُمّه فيه يقترح بأنَّهما كانا أعضاء من الطَّائفة نفسها. هذا وحده يُوضِّح طاعة الخَدَم لهم.إنْ كان السَّيِّد المسيح أرستقراطيَّاً، وإنْ كان مُتزوِّج من مَرْيَم المَجْدَليَّة، فمن المُحتمل ـ أيضاً ـ أنَّها كانت من الطَّبقة الاجتماعيَّة ذاتها.

وفي الحقيقة؛ هي تبدو كذلك ـ كما رأينا ـ كانت تُعدُّ بين أصدقائها كزوجة مسؤول مُهمٍّ في قصر هيرُودُوس. لكنَّها ـ لرُبَّما ـ كانت أكثر أهمِّيَّة من ذلك أيضاً.

كما اكتشفنا باقتفاء الإشارات التي وَرَدَتْ في «وثائق الدَّيْر»، القُدْس ـ المدينة المُقَدَّسة وعاصمة اليهُوديَّة ـ كانت ـ بالأصل ـ ملكاً لقبيلة بنيامين. بعد ذلك؛ تمَّ تدمير البنيامينيِّيْن في حربهم الطَّاحنة مع القبائل الأُخْرَىٰ في إسرائيل، والعديد منهم ذهبوا إلىٰ المنفىٰ؛ بالرّغم من أنَّ «البعض منهم بقي هُناك» كما تُؤكِّد «وثائق الدَّيْر». سليل من أُولئك الذين بقوا كان القدِّيس بُولُوس، الذي يُصرِّح ـ بشكل واضح ـ بأنَّه بنياميني. (رُومة 11: 1)[1].

علىٰ الرّغم من نزاعهم مع القبائل الأُخْرَىٰ في إسرائيل، يبدو أنَّ قبيلة بنيامين تمتَّعت بمنزلة خاصَّة. من بين الأشياء الأُخْرَىٰ؛ نعلم أنَّها هي التي زوَّدت إسرائيل بملكها الأوَّل ـ شاول، الذي دُهِنَ بالزَّيت من قِبَل النَّبي صموئيل، وبعائلتها المَلَكيَّة الأُولىٰ. لكنَّ شاول خُلِعَ ـ في النِّهاية ـ من قِبَل داود، من قبيلة يهُودا. وداود ـ بذلك العمل ـ لم يحرم البنياميِّيْن من حقِّهم في العَرْش فحسب، بل بتأسيسه لعاصمته في القُدْس هُو حرمهم ـ أيضاً ـ من إرْثهم الشَّرْعي.

طبقاً لكُلِّ كُتُب العهد الجديد؛ هي تذكر بأنَّ السَّيِّد المسيح كان من سُلالة داود، وبالتَّالي؛ هُو ـ أيضاً ـ نفرٌ من قبيلة يهُودا. وبالتَّالي؛ فإنَّه في نَظَر البنيامينيِّيْن يُعدُّ مُغتصباً، علىٰ الأقلِّ؛ نوعاً ما.

علىٰ أيَّة حال؛ أيُّ اعتراض من هذا النَّوع يُمكن تجاوزه إنْ كان المسيح قد تزوَّج من امرأة بنيامينيَّة. زواج كهذا سيُشكِّل تحالفاً سُلاليَّاً مُهمَّاً، ومُفعماً بالنَّتائج والعواقب السِّياسيَّة. ذلك التَّحالف لا يُزوِّد إسرائيل بملك كَاهن قوي فحسب، بل ـ أيضاً ـ يُؤدِّي ـ رَمْزيَّاً ـ إلىٰ إرجاع القُدْس إلىٰ مُلَّاكها الحقيقيِّيْن الأصليِّيْن. وهكذا؛ سيُؤدِّي ذلك الحِلْف إلىٰ تشجيع الوحدة الشَّعبيَّة، وسيدعم أيَّ ادِّعاء للعَرْش، الذي ـ لرُبَّما ـ زَعَمَهُ السَّيِّد المسيح.

---

(1) (النَّصُّ يقول: «لكنِّي أقول: هل نَبَذَ اللهُ شعبَهُ؟ كلَّا! فأنا نفسي من بني إسرائيل، من نَسْل إبراهيم وعشيرة بنيامين». رُومة في كُتُب الإنجيل هي رسالة القدِّيس بُولُوس إلىٰ رُومة، وأُعِدَّت حوالي عام 58 بعد الميلاد، وفيها يُوضِّح وُجهة نَظَره الدِّينيَّة. المُترجم).

في العهد الجديد؛ ليس هُناك إشارة إلىٰ الانتساب العشائري لَمرْيَم المَجْدَلِيَّة. في الأساطير اللَّاحقة ـ علىٰ أيَّة حال ـ قيل بأنَّها كانت من السُّلالة المَلَكيَّة. وهُناك تقاليد أُخرىٰ تُصرِّح ـ بشكل مُحَدَّد ـ بأنَّها كانت من قبيلة بنيامين.

في هذه النُّقطة؛ يبدو أنَّ الخُطُوط العامَّة للسِّيناريو التَّاريخي المُتماسك بدأت بالوُضُوح. وبقَدْر ما يُمكننا أنْ نُلاحظ، يبدو بأنَّه ذُو أهمِّيَّة سياسيَّة. السَّيِّد المسيح من المُمكن أنَّه كان الملك الكَاهن السَّليل من داود، وبالتَّالي؛ كان له حقّ شَرْعي في المُطالبة بالعرش. وبلا شكٍّ؛ دَعَمَ موقفه ـ بشكل أكبر ـ عند زواجه من سُلالة بنيامينيَّة (التي له الحقُّ الأصلي في العَرْش). وبعد ذلك؛ استعدَّ لتوحيد بلاده، وقام بالتعبئة العامَّة للشَّعب؛ ليتبعه، واستعدَّ لطَرْد المُضطَهِدِيْن، ولخَلْع دُميتهم المُنحطَّة[1]، ويُعيد للحُكْم المَلَكي مجدَهُ، كما كان في عهد سُلَيْمان. رجل كهذا ـ بلا شكٍّ ـ كان «ملك اليهُود».

الصَّلْب

كما تشهد إنجازات الزَّعيم الرُّوحي غاندي، ونَظَرَاً للدَّعْم الشَّعبي الكافي، كان باستطاعته أنْ يُشكِّل تهديداً إلىٰ النِّظام القائم. ولكنَّ رجلاً مُتزوِّجاً يمتلك حقَّاً شَرْعيَّاً في العَرْش، ويمتلك نَسْلاً، وسُلالة، لا شكَّ أنَّه كان سيُشكِّل تهديداً ذا طبيعة أكثر جدِّيَّة وخُطُورة. هل هُناك أيُّ دليل في الإنجيل يذكر بأنَّ السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ كان يُعدُّ من قِبَل الرُّومان بأنَّه مصدر لتهديد كهذا؟!

أثناء مُقابلته مع بيلاطُس البُنْطي؛ كان السَّيِّد المسيح يُدعَىٰ ـ مراراً، وتكراراً ـ بـ«ملك اليهُود». بمُوجب أوامر من بيلاطُس البُنْطي نُقِشَ هذا اللَّقَبُ ـ أيضاً ـ علىٰ الصَّليب. وكما يُناقِش البرُوفيسُور براندُون في جامعة مانشستر، النَّقْش الذي ثُبِّتَ علىٰ الصَّليب يجب اعتباره صحيحاً بقَدْر صحَّة أيِّ شيء في العهد الجديد. في المركز الأوَّل، ذلك اللَّقَبُ وَرَدَ في الكُتُب الأربعة للإنجيل، وبدُون اختلاف عَمَليّ بينها. في المركز الثَّاني، إنَّه لمن المُخزي والخطير بالنِّسبة للمُحرِّرين اللَّاحقين أنْ يختلقوا حادثة كهذه.

في إنجيل مَرْقُس، يسأل بيلاطُس البُنْطي بعد استجواب السَّيِّد المسيح الوُجهاء المُتجمِّعيِّن، «فماذا أفعل بالذي تدعونه ملك اليهُود؟» (مَرْقُس 15: 12). هذا يبدو إشارة إلىٰ أنَّه ـ علىٰ الأقلِّ ـ بعض اليهُود يُشيرون ـ في الواقع ـ إلىٰ السَّيِّد المسيح كَمَلكهم.

(1) (الملك هيرُودُوس الذي يُشبه الدُّمية المُسيَّرة من قِبَل الرُّومان. المُترجم).

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ في مُجمل الكُتُب الأربعة للإنجيل؛ بيلاطُس البُنْطي يُضفي علىٰ السَّيِّد المسيح ذلك اللَّقَبَ أيضاً. ليس هُناك سبب لافتراض بأنَّه يقوم بذلك بشكل ساخر. في الإنجيل الرَّابع هُو يُصرُّ ـ تماماً، وبجدِّيَّة ـ علىٰ ذلك اللَّقَب، علىٰ الرّغم من سلسلة الاحتجاجات.

علاوةً علىٰ ذلك؛ في كُتُب الإنجيل الثَّلاثة المُتشابهة، السَّيِّد المسيح بنفسه يعترف بادِّعائه لذلك اللَّقَب. «فسأله بيلاطُس: أَ أنتَ ملك اليهُود؟ فأجابه: أنتَ قُلتَ». (مَرْقُس 15: 2). في التَّرجمة الإنجليزيَّة؛ هذه الإجابة قد تبدو مُتناقضة؛ رُبَّما تمَّ ذلك بشكل مُتعمَّد. باللُّغة اليُونانيَّة الأصليَّة ـ علىٰ أيّة حال ـ ترِدُ تلك الإجابة بشكل صريح جدّاً. يُمكن ترجمتها ـ تماماً ـ كالتَّالي: «أنتَ قُلتَ ما هُو صحيح». وبهذا الشَّكل؛ تُرجمت العبارة في أيِّ مكان آخر وَرَدَتْ فيه هذه العبارة في التَّوراة.

الإنجيل أُعِدَّ أثناء وبعد الثَّورة، بين عامَيْ 66 ـ 74 بعد الميلاد، وذلك عندما تمَّتْ إزالة اليهُوديَّة عَمَليّاً من الوُجُود كقُوَّة سياسيَّة اجتماعيَّة عَسْكَرِيَّة مُنظَّمة. الأكثر من ذلك، الإنجيل أُعِدَّ للقُرَّاء الإغريق الرُّومان، والذي يجب أنْ يُجعَل ـ بالضَّرورة ـ مقبولاً بالنِّسبة لهم. رُومَا كانت للتَّوِّ قد قاتلت في حرب مُرَّة ومُكلفة ضدَّ اليهُود. بالنَّتيجة؛ من الطَّبيعي جدّاً أنْ تقوم بوَضْع اليهُود في دَور، يبدون فيه أوغاداً.

علاوةً علىٰ ذلك؛ في أعقاب الثَّورة اليهُوديَّة، السَّيِّد المسيح لم يكن من المُمكن تصويره كشَخْصيَّة سياسيَّة ـ شَخْصيَّة تتَّصل بأيِّ شكل بالتَّهيُّج، الذي توَّج الحَرْبَ.

أخيراً، دور الرُّومان في مُحَاكَمَة وإعدام السَّيِّد المسيح كان من الضَّروري تغطيته، وأنْ يُقدَّم ـ بشكل عاطفي ـ بقدر الإمكان. هكذا، بيلاطُس البُنْطي صُوِّر في الإنجيل كرجل مُتسامح، ومُحترم، وموثوق، وهُو الرَّجل الذي قَبِلَ الصَّلْبَ بتردُّد (ونتيجة للضُّغُوط). لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ هذه التَّحريفات للحقائق قد دَثَرَهَا التَّاريخ، إلَّا أنَّ موقف رُومَا الحقيقي في القضيَّة يُمكن إدراكه.

طبقاً للإنجيل؛ السَّيِّد المسيح يُدانُ ـ بشكل أوَّلي ـ من قِبَل السَّنْهَدْ ريم[1]؛ مجلس الشُّيُوخ اليهُود، الذي يجلبه ـ بعد ذلك ـ إلىٰ بيلاطُس البُنْطي، وتوسَّل إلىٰ الوكيل للحُكْم ضدَّه.

---

(1) («Sanhedrin»، «Sanhedrim»، أو «Sanhedrim»): هُو المجلس الأعلىٰ عند اليهُود القُدماء. المُترجم).

من النَّاحية التَّاريخيَّة؛ هذا لا يبدو منطقيّاً مُطلقاً. في الكُتُب الثَّلاثة المُتوافقة للإنجيل، السَّيِّد المسيح يُعتَقَل، ويُدانُ، من قِبَل السَّنْهَدْ ريم في ليلة عيد الفصح. ولكنْ؛ في القانون اليهُودي، السَّنْهَدْ ريم حُرِّم عليه الاجتماع في عيد الفصح. توقيف ومُحَاكَمَة السَّيِّد المسيح في كُتُب الإنجيل تحدث في اللَّيل. في القانون اليهُودي، السَّنْهَدْ ريم حُرِّم عليه الاجتماع في اللَّيل، أو في بُيُوت خاصَّة، أو في أيِّ مكان خارج فناء الهَيكَل. في الإنجيل؛ السَّنْهَدْ ريم غير مُخَوَّل ـ علىٰ ما يبدو ـ لإصدار حُكْم الإعدام، وهذا كان السَّبب المزعوم في جَلْب السَّيِّد المسيح إلىٰ بيلاطُس البُنْطي.

علىٰ أيَّة حال؛ السَّنْهَدْ ريم كان مُخَوَّلاً لإصدار أحكام الإعدام؛ بالرَّجْم، إنْ لم يكن بالصَّلْب. لذلك؛ إنْ كان السَّنْهَدْ ريم يتمنَّىٰ التَّخلُّص من السَّيِّد المسيح، كان يُمكنه أنْ يُصدر حُكْماً بالموت عليه بالرَّجْم، وُفقاً لسُلطته الخاصَّة التي يتمتَّع بها. لم يكن هُناك أيُّ حاجة لمُضايقة بيلاطُس البُنْطي مُطلقاً.

هُناك مُحاولات أُخرىٰ عديدة من قِبَل مُؤلِّفي الإنجيل لإبعاد الذَّنْب والمسؤوليَّة عن رُومَا. إحدىٰ تلك المُحاولات هُو العرض الظَّاهري، الذي قدَّمه بيلاطُس البُنْطي للعَفْو عن السَّيِّد المسيح؛ استعداده لتحرير سجين، يختاره الحشد. طبقاً لإنجيل مَرْقُس ومَتَّىٰ؛ كان ذلك تقليداً يُتَّبع في مهرجان عيد الفصح. في الحقيقة؛ لم يكن هُناك شيءٌ كهذا[1]. والمصادر الحديثة تتَّفق علىٰ أنَّه لم يكن هُناك وُجُود لسياسة كهذه في رُومَا مُطلقاً، وأنَّ العرض الذي قُدِّم لتحرير إمَّا السَّيِّد المسيح، أو بَارَابَاس، هي قصَّة مُلفَّقة. وتردُّد بيلاطُس البُنْطي في إدانة السَّيِّد المسيح، واستسلامه المُكرَه للضَّغْط النَّاجم عن خشية حُصُول نوع من الفوضىٰ، يبدو بأنَّه قصَّة خياليَّة أيضاً.

في الواقع؛ كان من المُستحيل لوَكيل رُوماني ـ وخُصُوصاً وكيل عديم الرَّحمة كبيلاطُس البُنْطي ـ أنْ ينحني لضَغْط الفوضىٰ. مرَّة ثانية؛ الهدف من مثل هذا التَّلفيق هُو واضح ـ بما فيه الكفاية ـ لتبرئة الرُّومان، ولتحويل اللَّائمة علىٰ اليهُود، وذلك لجَعْل السَّيِّد المسيح مقبولاً للجُمهُور الرُّوماني.

وبالطَّبع؛ من المُحتمل ـ أيضاً ـ أنَّ اليهُود لم يكونوا جميعاً أبرياء. حتَّىٰ إنْ كانت الإدارة الرُّومانيَّة تخاف من مُطالبة الملك الكَاهن بالعَرْش، فمن غير المُناسب أنْ تُباشر ـ بشكل عَلَني ـ بأفعال استفزازيَّة؛ أفعال قد تُؤدِّي إلىٰ تمرُّد شامل.

(1) (كُلُّ العُلماء يتَّفقون علىٰ أنَّه لا وُجُود لمثل هذا الامتياز. إنَّ الهدف من القصَّة هُو زيادة اللَّوم علىٰ اليهُود. المُؤلِّفون).

بالتَّأكيد؛ كان من الأفضل لرُوما أنْ تتخلَّص من تهديد الملك الكَاهن، عبر إيقاعه في غدر شعبه الخاصّ.

وهكذا؛ كان من المعقول أنَّ رُومَا استَخْدَمَتْ بعضَ الصَّدُوْقيِّيْن «Sadducees» المُعيَّنين ليكُونُوا عُملاء لها. ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ كان الوَضْع كذلك، تبقىٰ الحقيقة المُحتومة بأنَّ السَّيِّد المسيح كان ضحيَّة الإدارة الرُّومانيَّة، والمحكمة الرُّومانيَّة، والحُكْم الرُّوماني، والعَسْكَر الرُّوماني، والإعدام الرُّوماني؛ حيثُ إنَّ ذلك النَّوع من الإعدام كان محجوزاً ـ بشكل خاصّ ـ لأعداء رُومَا. السَّيِّد المسيح لم يُصلَبْ لجرائم اقترفها ضدَّ اليهُوديَّة، بل لجرائم ضدَّ الإمبراطُوريَّة[1].

مَنْ كان بَارَابَاس؟

هل هُناك أيُّ دليل في الإنجيل أنَّ السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ كان لديه أطفال؟!

ليس هُناك شيء صريح حيال ذلك. لكنَّ الأحبار يُتوقَّع ـ كأمر طبيعي ـ أنْ يكون لديهم أطفالٌ؛ وإنْ كان السَّيِّدُ المسيحُ حِبْراً، فإنَّه كان من الشَّاذِّ جدَّاً أنْ لا يكون لديه أطفال.

في الحقيقة؛ إنَّه لمن الشَّاذِّ جدَّاً أنْ يكون بلا أطفال؛ سواء أكان حبراً أم لم يكن. صحيح أنَّ هذه الحُجج وحدها لا تُشكِّل أيَّ دليل إيجابي. لكنْ؛ هُناك دليل أكثر تحديداً، وقُوَّة. ذلك الدَّليل يتضمَّن الشَّخص المُحيِّر، الذي يرد في الإنجيل؛ وهُو بَارَابَاس، أو لكي نكون أكثر دقَّة، يسوع بَارَابَاس؛ لأنَّه ـ بهذا الاسم ـ تمَّ تحديده في إحدىٰ المَخْطُوطَات القديمة لإنجيل مَتَّىٰ. إنَّه لَتطَابُقٌ مُدهش، إنْ لم يكن غير ذلك.

العُلماء الحديثون مُتقلِّبون حول معنىٰ ومنشأ الاسم «بَارَابَاس». «يسوع بَارَابَاس» قد يكون تحريفاً لـ«يسوع البيرابي». «بيرابي» كان لَقَبَ الأشخاص الأعلىٰ مقاماً وقَدْراً في الأحبار، وكان يُوضَع بعد اسم الحِبْر. وبالتَّالي؛ الاسم «يسوع البيرابي» ـ رُبَّما ـ كان يُشير إلىٰ السَّيِّد المسيح بنفسه. بدلاً عن

---

(1) (كما يقول البرُوفيسُور براندُون (في كتابه «السَّيِّد المسيح والزِّيلُوت») كُلُّ التَّحقيق المُتعلِّق بالسَّيِّد المسيح التَّاريخي يجب أنْ يبدأ من حقيقة إعدامه من قِبَل الرُّومان بتُهمة العصيان. يُضيف براندُون بأنَّ الرِّواية عن كَونه «ملك اليهُود» يجب أنْ تُقبَل علىٰ أنَّها أصيلة. نَظَرَاً للسِّمة المُحرجة، بلا شكٍّ؛ المسيحيُّون الأوائل لم يخترعوا مثل هذا اللَّقَب. المُؤلِّفون).

ذلك؛ «يسوع بَارَابَاس» ـ لرُبَّما أصلاً ـ «يسوع بار رابي»؛ وتعني «يسوع ابن رابي». ليس هُناك أيُّ سِجِلٍّ يُذكَر فيه أنَّ والد السَّيِّد المسيح كان اسمه رابي، ولكنْ؛ إنْ كان السَّيِّد المسيح لديه وَلَدٌ سُمِّيَ رابي، مُرفق مع اسمه، سيكون ذلك الابن ـ في الحقيقة ـ هُو «يسوع ابن رابي»[1]. هُناك إمكانيَّة أُخرىٰ أيضاً، «يسوع بَارَابَاس» قد تكون مُشتقَّة من «يسوع بار آبا»؛ وبما أنَّ «آبا» باللُّغة العِبْريَّة تعني «أب»، إذاً؛ كلمة «بَارَابَاس» تعني «ابن الأب»؛ هذه التَّسمية التي تُركِّز علىٰ الأب تعني أنَّ «الأب» كان شيئاً مُميَّزاً. إنْ كان «الأب» ـ في الحقيقة ـ هُو «أب سماوي»، إذاً؛ «بَارَابَاس» قد يُشير ـ ثانية ـ إلىٰ السَّيِّد المسيح بنفسه. من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ إنْ كان السَّيِّد المسيح بنفسه «أب»، فإنَّ «بَارَابَاس» يُشير ـ ثانية ـ إلىٰ ابنه.

مهما كان معنىٰ الاسم ومنشؤه، شَخْصيَّة بَارَابَاس تُثير الكثير من الفُضُول والشَّكِّ. وكُلَّما أنعم المرء في الحادثة التي تتعلَّق به بشكل أكثر، بدا له ـ بشكل أكثر ـ أنَّ هُناك شيئاً ما غريباً يحصل، وأنَّ شَخْصاً ما يُحاول إخفاء شيء ما. في المقام الأوَّل اسم بَارَابَاس، كاسم مَرْيَم المَجْدَليَّة، يبدو بأنَّ الصُّورة المُحيطة بهذا الاسم أُخْضِعَتْ إلىٰ تشويه مُتعمَّد، ومُنظَّم. التَّقليد الشَّعبي يُصوِّر مَرْيَم المَجْدَليَّة بأنَّها عاهرة، وبالمثْل؛ فهُو يُصوِّر بَارَابَاس كَلِصٍّ. ولكنْ؛ إنْ كان بَارَابَاس هُو أيَّ شيء من الأشياء، التي يدلُّ عليها اسمه، فمن الصَّعب جدّاً بأنَّه كان لصّاً شهيراً.

إذنْ؛ لماذا تمَّ تسويد اسمه؛ ما لم يكن ـ في الواقع ـ شيئاً آخر، شيئاً ما لا يرغب مُحرِّرو العهد الجديد بأنْ تعرفه الأجيال القادمة؟!.

كُتُبُ الإنجيل ـ بحَدِّ ذاتها، وعلىٰ وجه التَّحديد ـ لا تصف بَارَابَاس كَلِصٍّ. طبقاً لمَرْقُس ولُوقَا؛ هُو سجين سياسي، ثائر اتُّهِم بالقَتْل، والتَّمرُّد. في إنجيل مَتَّىٰ ـ علىٰ أيَّة حال ـ بَارَابَاس موصوف كـ«سجين بارز». وفي الإنجيل الرَّابع؛ بَارَابَاس قيل بأنَّه كان (باللُّغة اليُونانيَّة) «Lestai» (يُوحنَّا **18: 40**). وهذا يُمكن أنْ يُفسَّر إمَّا كـ«سارق»، أو كـ«قاطع طريق».

(1) (باللُّغة الإنكليزيَّة تُقرأ الجُملة بالعكس، باعتبار أنَّ هُناك صفة، أو حالاً، وللسُّهُولة لم أذكر العبارات باللُّغة الإنكليزيَّة، وبالتَّالي؛ تكون العبارة الأخيرة هي: رابي ابن يسوع «Jesus bar Rabbi». المُترجم).

في سياقه التَّاريخي ـ علىٰ أيَّة حال ـ عنىٰ شيئاً مُختلفاً جدّاً. «Lestes» ـ في الحقيقة ـ كانت تسميةً يُطلقها الرُّومان ـ عادةً ـ علىٰ المُتطرِّفين، الثَّوريِّين، والقوميِّين، والفدائيِّين، الذين ـ لبعض الوقت ـ كانوا يُهيِّجون ثورة اجتماعيَّة.

وانطلاقاً من مُوافقة إنجيليِّ مَرْقُس ولُوقَا علىٰ أنَّ بَارَابَاس كان مُتَّهماً بالتَّمرُّد، وبما أنَّ مَتَّىٰ لا يُناقض هذا الزَّعم، فمن الطَّبيعي الاستنتاج بأنَّ بَارَابَاس كان من الزَّيلُوت[1].

لكنَّ هذه ليست المعلومات الوحيدة المُتوفِّرة عن بَارَابَاس. طبقاً للُوقَا؛ هُو كان قد اشترك في «اضطراب»، أو «عصيان»، أو «تمرُّد»، حصل مُؤخَّراً في المدينة. التَّاريخ لم يذكر أيَّة إشارة إلىٰ مثل هذا التَّمرُّد في القُدْس في ذلك الوقت. الإنجيل ـ علىٰ أيَّة حال ـ فَعَلَ. طبقاً للإنجيل؛ لقد كان هُناك تمرُّد مَدَنيٌّ في القُدْس ـ تماماً ـ قبل أيَّام قليلة، عندما قَلَبَ السَّيِّد المسيح وأتباعه مناضد المُرابين في الهَيكَل. هل هذا هُو الاضطراب الذي شارك فيه بَارَابَاس، ولأجله سُجِنَ؟ يبدو ذلك مُحتملاً بالتَّأكيد. وفي تلك الحالة؛ هُناك نتيجة واضحة: إنَّ بَارَابَاس كان واحداً من حاشية السَّيِّد المسيح.

طبقاً للعُلماء الحديثين؛ «عادةُ» تحرير سجين في عيد الفصح هي غير موجودة. ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ كان ذلك صحيحاً، فإنَّ تفضيل بَارَابَاس علىٰ السَّيِّد المسيح لن يكون معقولاً. إنْ كان بَارَابَاس ـ في الحقيقة ـ مُجرماً ومُذنباً بالقَتْل، فلماذا قد يختار النَّاس إنقاذ حياته؟! وإذا هُو كان ـ في الحقيقة ـ ثوريَّاً، أو من الزَّيلُوت، فمن الصَّعب جدّاً أنْ يُخاطر بيلاطُس البُنْطي بإطلاق سراح شَخْص خطير جدّاً، بدلاً من حالم غير مُؤذ، والذي كان مُهيَّأ تماماً ـ كما يُزعَم ـ لأنْ يُصبح قَيْصَراً.

من بين كُلِّ التَّناقضات والتَّضاربات والاستحالات في كُتُب الإنجيل، اختيار بَارَابَاس هُو أحد أكثرها تمييزاً وغُمُوضاً. يبدو ـ بشكل واضح ـ أنَّ هُناك شيئاً ما يكمن خلف ذلك الاختلاق الأخرق، والمُحيِّر جدّاً.

اقترح أحد الكُتَّاب الحديثين تفسيراً مُثيراً ومعقولاً. يقترح بأنَّ بَارَابَاس كان ابن السَّيِّد المسيح، وأنَّ السَّيِّد المسيح كان ملكاً شَرْعيَّاً. إنْ كان هذا هُو الوَضْع، فاختيار بَارَابَاس سيُصبح

---

(1) (واحد من طائفة يهُوديَّة قديمة عُرِفَتْ بمُقاومتها الشَّديدة للسَّيطرة الرُّومانيَّة علىٰ فلسطين. المُترجم).

مفهوماً فجأةً. علىٰ المرء أنْ يتخيَّل شعباً مُضطَهَداً يُجابَه بالإبادة الوشيكة لحاكمهم الرُّوحي والسِّياسي؛ والذي هُو المسيح المُنتظَر، والذي أصبح وُصُوله وشيكاً جدّاً[1].

في مثل هذه الظُّرُوف؛ أَ لا تُعَدُّ السُّلالة أكثر أهمِّيَّة من الفرد؟!

أَ لن يكون الحفاظ علىٰ السُّلالة أمراً أساسيّاً، وله الأولويَّة قبل كُلِّ شيء آخر؟!

أَ لن يُفضِّل الشَّعب ـ الذي واجه الاختيار الرَّهيب ـ رُؤية أنْ يكون ملكهم هُو الضَّحيَّة لكي يبقىٰ نَسْلُهُ وسُلالته؟!

إنْ بقيت السُّلالة، فسيكون هُناك ـ علىٰ الأقلِّ ـ أمل للمُستقبل.

بالتَّأكيد؛ ليس من المُستحيل أنْ يكون بَارَابَاس هُو ابن السَّيِّد المسيح. فالسَّيِّد المسيح يُعتقَد ـ عُمُوماً ـ أنَّه وُلِدَ حوالي عام 6 قبل الميلاد.

الصَّلْبُ لم يحدث ـ كأعلىٰ تقدير ـ بعد عام 36 بعد الميلاد، ممَّا يجعل السَّيِّد المسيح ـ علىٰ الأغلب ـ بعُمر اثنَيْن وأربعين سنة. ولكنْ؛ حتَّىٰ لو أنَّه تُوفِّي عندما كان عُمره ثلاثة وثلاثين فقط، فمايزال هُناك إمكانيَّة أنَّه كان أباً لابن.

بمُوجب العادات في ذلك الوقت؛ هُو ـ لرُبَّما ـ كان مُتزوِّجاً في عُمر ستَّة عشر، أو سبعة عشر. ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ هُو لم يتزوَّج حتَّىٰ عُمر العشرين، فسيكون لديه وَلَدٌ بعُمر ثلاثة عشر؛ والذي ـ وُفقاً للتَّقليد اليهُودي ـ يُمكن أنْ يُعَدَّ رجلاً.

وبالطَّبع؛ لرُبَّما يكون هُناك أطفال آخرون أيضاً. مثل هؤلاء الأطفال كان يُمكن أنْ تحمل بهم أُمُّهم في أيِّ وقت، حتَّىٰ اليوم الذي حَدَثَ فيه الصَّلْب تقريباً.

---

(1) (يُشير المُؤلِّفون ـ هُنا ـ إلىٰ أنَّ الشَّعب ـ آنذاك ـ لم يكن يُؤمن بالسَّيِّد المسيح بأنَّه المُنقِذ، بل هُم ينتظرون وُصُول المسيح الحقيقي، الذي كان وشيكاً. المُترجم).

تفاصيل حادثة الصَّلْب

السَّيِّد المسيح ـ رُبَّما ـ أنجب عدداً من الأطفال قبل الصَّلْب. لو أنَّه نجا من الصَّلْب ـ علىٰ أيَّة حال ـ فإنَّ إمكانيَّة النَّسْل ستكون قابلة للزِّيادة بشكل أكبر.

هل هُناك أيُّ دليل علىٰ أنَّ السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ نجا من الصَّلْب، أو أنَّ الصَّلْب كان ـ بطريقة ما ـ ضرباً من الاحتيال؟!

وُفقاً لتصويره في الإنجيل، فإنَّه من غير الواضح ـ علىٰ الإطلاق ـ أنَّ السَّيِّد المسيح قد صُلِبَ.

طبقاً للإنجيل؛ أعداؤه كانوا اليهُود ذوي المصالح الشَّخصيَّة في القُدْس. لكنَّ مثل هؤلاء الأعداء ـ إنْ هُم وُجدوا في الحقيقة ـ كان بإمكانهم أنْ يقتلوه رَجْماً بالحجارة، وُفقاً لشُرُوطهم الخاصَّة، وبسُلطتهم الخاصَّة، وبدُون أنْ تنخرط رُومَا في المسألة.

وطبقاً للإنجيل؛ السَّيِّد المسيح لم يكن علىٰ خلاف مُعيَّن مع رُومَا، ولم ينتهك القانون الرُّوماني.

وبالرغم من أنَّه عُوقب من قِبَل الرُّومان، بمُوجب قانون رُوماني، وإجراءات رُومانيَّة. كان عقابه الصَّلْب؛ وهي العُقُوبة التي كانت مُخصَّصة لأُولئك المُتَّهمين بجرائم ضدَّ الإمبراطُوريَّة. إنْ كان السَّيِّد المسيح ـ في الحقيقة ـ قد صُلِبَ، فلا يُمكن أنْ نعدَّه بعيداً عن السِّياسة، بالصُّورة التي أظهرتْهُ بها كُتُبُ الإنجيل.

بالعكس، وبالضَّرورة، لابُدَّ أنَّه قام بشيء، أثار الغضب الرُّوماني.

مهما كانت الانتهاكات التي أَوْدَتْ بالسَّيِّد المسيح إلىٰ الصَّلْب، موته الظَّاهر علىٰ الصَّليب مشحون بالتَّضاربات.

ببساطة؛ ليس هُناك سبب لكي يكون صَلْبُهُ قاتلاً كما صوَّره الإنجيل. الزَّعْم الذي كان يستحقُّ أنْ يُفحَصَ بعناية أكثر.

المُمارسة الرُّومانيَّة للصَّلْب كانت تلتزم بإجراءاتها، وبشكل دقيق جدَّاً. بعد إقرار الحُكْم، كان الضَّحيَّة يُجْلَد، وبالتَّالي؛ كان يضعف لفُقدانه بعض الدَّم. وبعد ذلك؛ يتمُّ تثبيت ذراعَيْه الممدودَتَيْن

ـ عادةً بأربطة من الجلد، ولكنْ؛ أحياناً، بالمسامير ـ إلىٰ عارضة خشبيَّة ثقيلة، تُوضع أُفقيّاً عبر رقبته، وكتفَيْه. حاملاً هذه العارضة؛ يُقاد ـ بعد ذلك ـ إلىٰ مكان الإعدام. وهُنا؛ يتمُّ رَفْع الضَّحيَّة، وتعليقها، بواسطة العارضة الأُفقيَّة علىٰ سارية، أو وَتَد خشبي مُثبَت بشكل عمودي.

وهكذا؛ يكون مُعلَّقاً من يدَيْه، وبالتَّالي؛ سيكون من المُستحيل عليه التَّنفُّس ـ ما لم يتمّ تثبيت أقدامه ـ أيضاً ـ إلىٰ الصَّليب، بذلك؛ يكون قادراً علىٰ الضَّغط علىٰ قَدَمَيْه إلىٰ الأسفل، وبالتَّالي؛ تخفيف الضَّغط عن صدره. لكنْ؛ علىٰ الرّغم من المُعاناة، الرَّجل المُعلَّق الذي تكون قَدَماه مُثبَّتَيْن ـ وخُصُوصاً إنْ كان رجلاً مُعافىٰ، وبصحَّة جيِّدة ـ ينجو ـ عادةً ـ لُمدَّة يوم، أو اثنَيْن علىٰ الأقلّ.

في الحقيقة؛ الضَّحيَّة ـ في أغلب الأحيان ـ تحتاج إلىٰ أُسبُوع ـ تقريباً ـ لكي تموت من الإعياء، والعطش، أو بتسمُّم الدَّم، إنْ تمَّ استخدام المسامير. هذه المُعاناة البطيئة يُمكن أنْ تنتهي بسُرعة أكبر بكَسْر ساقَيْ، أو رُكبَتَي الضَّحيَّة، وذلك العمل ـ كما وَرَدَ في الإنجيل ـ كان جلَّادُو السَّيِّد المسيح علىٰ وشك القيام به قبل أنْ يُحبَطُوا. كَسْرُ السَّاقَيْن، أو الرُّكبتَيْن، لم يكن يعني المزيد من العذاب السَّاديِّ، بالعكس، كان ذلك نوعاً من الرَّحمة؛ كان ذلك الضَّربة القاضية، التي ستُسبِّب الموتَ السَّريع جدّاً؛ لأنَّه لن يكون هُناك شيء يُساعد الضَّحيَّة في تخفيف الضَّغط عن صدره، ممَّا يُؤدِّي إلىٰ اختناقه سريعاً.

هُناك إجماع بين العُلماء الحديثين علىٰ أنَّ الإنجيل الرَّابع هُو الوحيد الذي يعتمد علىٰ رواية شاهد عيان لعمليَّة الصَّلْب. طبقاً للإنجيل الرَّابع؛ قَدَمَا السَّيِّد المسيح كانتا مُثبَّتَيْن إلىٰ الصَّليب، وبذلك؛ يُخفِّف الضَّغط علىٰ عضلات صدره، وساقاه لم تُكْسَرا. لذلك؛ وعلىٰ الأقلِّ نَظَريّاً، كان يجب أنْ يبقىٰ لُمدَّة يومَيْن، أو ثلاثة. ورغم ذلك، لم يكن قد مضىٰ له علىٰ الصَّليب سوىٰ ساعات قليلة، حتَّىٰ أُعلن موته. في إنجيل مَرْقُس؛ حتَّىٰ بيلاطُس البُنْطي كان مُتعجِّباً للسُّرعة التي حَدَثَ فيها موته (مَرْقُس 15: 44).

ما الشَّيء المُمكن الذي كان سبباً للموت؟! السَّبب ليس طعنة الرُّمح في جَنْبه؛ لأنَّ الإنجيل الرَّابع يزعم بأنَّ السَّيِّد المسيح كان ميِّتاً عندما طُعن (يُوحنَّا 19: 33)[1].

(1) (بعد أنْ طلب اليهُود من بيلاطس أنْ يأمر بكَسْر سيقان المصلوبين، قام الجُنُود بذلك، ولكنْ؛ عندما وصلوا إلىٰ السَّيِّد المسيح لم يكسروا ساقَيْه. النَّصُّ يقول: «ولمَّا وصلوا إلىٰ يسوع، وجدوه ميِّتاً، فما كسروا ساقَيْه. ولكنَّ أحد الجُنُود طعنه بحَرْبة في جنبه، فخرج منه دم، وماء». المُترجم).

هُناك تفسير واحد ـ فقط ـ للموت؛ رُبَّما نتيجة عدَّة عوامل مُجتمعة؛ وهي الإعياء، والتَّعب، والوَهَن العامّ، والجُرُوح النَّاجمة عن الجَلْد، الذي تعرَّض له. ولكنْ؛ حتَّىٰ هذه العوامل ما كان يجب أنْ تكون كافية لتقتله بهذه السُّرعة. من المُحتمل ـ بالطَّبع ـ أنَّها أدَّت إلىٰ قَتْله، علىٰ الرّغم من أنَّ القوانين الفيزيُولُوجيَّة تقول بأنَّ الإنسان قد يموت ـ أحياناً ـ من ضربة واحدة، غير مُؤذية نسبيَّاً. ولكنْ؛ يبدو أنَّه مايزال هُناك شيء مُريب حول القضيَّة.

طبقاً للإنجيل الرَّابع؛ جلَّادو السَّيِّد المسيح كانوا علىٰ وشك كَسْر ساقَيْه، لكي يُعجِّلوا موته. لماذا يُضايقون أنفسهم؛ إذْ إنَّه كان ـ مُسبقاً ـ مُحْتَضَراً؟!

باختصار؛ ما كانت هُناك أيَّة إشارة إلىٰ كَسْر ساقَيْ السَّيِّد المسيح، لولا أنَّه لم يكن يحتضر (إنْ كان ميِّتاً، فلا داعي لذكْر كَسْر ساقَيْه).

في الإنجيل؛ موت السَّيِّد المسيح يحدث في لحظة مُناسبة جدَّاً تقريباً، لحظة جاءت في وقتها تماماً. حَدَثَتْ في الوقت المُناسب؛ لتحول دُون كَسْر ساقَيْه من قِبَل جلَّاديه. وبذلك؛ تسمح تلك المُصادفة له بتحقيق نُبُوءة العهد القديم[1].

تُوافق المصادر الحديثة المُوثَّقة علىٰ أنَّ السَّيِّد المسيح ـ تماماً، وبلا خَجَل ـ صاغ، ودبَّر حياته، حتَّىٰ بمُوجب نُبُوءات كهذه، والتي أعلنت قُدُوم المسيحَ المُنتظَر. لهذا السَّبب؛ كان لزاماً عليه أنْ يحصل علىٰ الحمار من بيت عَنيا؛ بحيثُ يتمكَّن من تنفيذ دُخُوله المُنتصر إلىٰ القُدْس. وتفاصيل الصَّلْب يبدو أنَّها هُنْدِسَتْ علىٰ نَفْس النَّمَط؛ لتشريع نُبُوءات العهد القديم.

باختصار؛ «موت» السَّيِّد المسيح الظَّاهري والمُناسب ـ والذي أنقذه في آخر لحظة من الموت الحقيقي، ومكَّنه من إنجاز النُّبُوءة ـ هُو مُشتبه به علىٰ أقلِّ تقدير.

إنَّه لوقت استثنائيّ ودقيق جدَّاً لأنْ يكون مُجرَّد مُصادفة. إنَّ ذلك يجب أنْ يكون إمَّا استيفاء لاحقاً، أو جُزءاً من خُطَّة مُدبَّرة بعناية. هُناك بُرهان وافٍ يُؤكِّد الفِكْرَة الأخيرة.

(1) (تقول النُّبُوءة: «لن يُكسَر له عَظْمٌ». (يُوحنَّا 19: 36). المُترجم).

في الإنجيل الرَّابع؛ السَّيِّد المسيح ـ وهُو مُعلَّق علىٰ الصَّليب ـ يُصرِّح بأنَّه عطشان. الاستجابة لهذه الشَّكوىٰ كانت بتقديم إسفنجة نُقعَتْ ـ زَعْمَاً ـ في الخَلِّ؛ إنَّها حادثة ذُكِرَتْ ـ أيضاً ـ في كُتُب الإنجيل الأُخْرَىٰ. هذه الإسفنجة تمَّ تفسيرها ـ عُمُوماً ـ كفعْل آخر من أفعال السُّخرية السَّاديَّة. لكنْ؛ هل هذا كان صحيحاً؟ الخلُّ ـ أو حمض النَّبيذ ـ هُو مُنبِّه مُؤقَّت ذُو تأثيرات لا تختلف عن شَمِّ الأملاح. كان يُستعمَل ـ في أغلب الأحيان، في ذلك الوقت ـ لإنعاش العبيد الضُّعفاء علىٰ ظَهْر السُّفُن. بالنِّسبة لرجل مجروح ينزف دماً؛ شَمُّ، أو تَذَوُّق الخَلِّ، يُؤدِّي إلىٰ فعْل إنعاش، وتقوية، جُرعة مُؤقَّتة من الطَّاقة. ورغم ذلك، وفي حالة السَّيِّد المسيح، التَّأثير لم يكن إلَّا العكس. بقدر ما كانت سُرعة استنشاقه، أو تَذَوُّقه للخَلِّ، بقدر ما كانت سُرعة إعلانه لكلماته النِّهائيَّة، «وأسلم رُوحه». ردَّة فعل كهذه للخَلِّ لا يُمكن توضيحها بشكل فسلجي. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ ردَّة فعْل كهذه ستكون مُتوافقة جدَّاً مع إسفنج نُقع ليس في الخلِّ، بل في نوع من المُخدِّر ـ مُركَّب الأفيُون و/ أو البَلادونَّة[1]، علىٰ سبيل المثال، والتي كانت تُستخدَم ـ بشكل شائع ـ في الشَّرق الأوسط آنذاك.

لكنْ؛ لماذا يُقدَّم له المُخدِّر، ما لم يكن ذلك ـ سويَّة مع كُلِّ المُكوِّنات الأُخْرَىٰ لآليَّة الصَّلب ـ عناصر استراتيجيَّة مُعقَّدة ومُبدعة؛ حيلة صُمِّمَتْ للتَّظاهر بالموت، في الوقت الذي كانت فيه الضَّحيَّة ـ في الحقيقة ـ ماتزال علىٰ قَيْد الحياة؟!

إنَّ حيلة كهذه لا تُنقذ حياة السَّيِّد المسيح فقط، بل ـ أيضاً ـ حقَّقت نُبُوءات العهد القديم، التي تُحيط بالمسيح المُنتظَر.

هُناك سمات شاذَّة أُخرىٰ للصَّلْب، والتي تُشير ـ بالضَّبط ـ إلىٰ حِيَل كهذه. طبقاً للإنجيل؛ السَّيِّد المسيح صُلِبَ في مكان يُسمَّىٰ جُلجُثَةُ (Golgotha)، والذي يعني «مكان الجُمْجُمَة». رواية لاحقة تُحاول وَصْف موقع جُلجُثَةُ بأنَّه كان قاحلاً، ويقع ـ تقريباً ـ علىٰ تلَّة، علىٰ هيئة جُمْجُمَة في المنطقة الشّماليَّة الغربيَّة من القُدْس. ورغم ذلك؛ فإنَّ كُتُبَ الإنجيل بذاتها تُوضِّح بأنَّ موقع الصَّلْب مُختلف جدَّاً عن الموقع الذي علىٰ تلَّة قاحلة تُشبه الجُمْجُمَة. إنَّ الإنجيل الرَّابع واضح جدَّاً حول هذه

(1) (حشيشة ستّ الحُسْن. المُترجم).

المسألة، «وكان في الموضع الذي صلبوا فيه يسوع بُستان، وفي البُستان قَبْر جديد ما دُفِنَ فيه أحد». (يُوحنَّا 19: 41). إذنْ؛ لم يُصلَب ـ آنذاك ـ السَّيِّدُ المسيحُ في تلَّة قاحلة علىٰ هيئة جُمْجُمَة، أو في أيِّ «مكان عامٍّ للإعدام». لقد صُلِبَ في داخل، أو في جوار حديقة فيها قَبْر خاصٌّ. طبقاً لمَتّىٰ (27: 60)؛ هذا القَبْر والحديقة كان يملكهما شَخْص يُدعىٰ يُوسُف من الرَّامة، والذي ـ طبقاً لكُلِّ الكُتُب الأربعة للإنجيل ـ كان رجلاً ثريّاً، وتابعاً سرِّيّاً للسَّيِّد المسيح.

تُصوِّر التَّقاليد الشَّعبيَّة عمليَّة الصَّلْب بأنَّها كانت قضيَّة عامَّة، واسعة النِّطاق، وسهلة الوُصُول للعديد من الجماهير، التي بلغ عددها الآلاف. علىٰ الرّغم من أنَّ كُتُبَ الإنجيل بذاتها تقترح ظُرُوفاً مُختلفة جدّاً. طبقاً لمَتّىٰ ومَرْقُس ولُوقَا؛ عمليَّة الصَّلْب شاهَدَهَا أغلبيَّة النَّاس، بمَنْ فيهم النِّساء، «عن بُعْد» (لُوقَا 23: 49).

وهكذا يبدو واضحاً بأنَّ موت السَّيِّد المسيح لم يكن حَدَثاً عامّاً، بل كان حَدَثاً خاصّاً؛ صَلْباً خاصّاً أُجرِيَ في مُمتلكات خاصَّة. عدد من العُلماء الحديثين يُناقشون بأنَّ الموقع الفِعْلي كان من المُحتمل حديقة الجُثمانيَّة[1]. إنْ كانت الجُثمانيَّة ـ في الحقيقة ـ هي الأرض الخاصَّة لأحد حواريَّيْ السَّيِّد المسيح السِّرِّيَّيْن، فهذا يُوضِّح لماذا كان بإمكان السَّيِّد المسيح ـ قَبْلَ الصَّلْب ـ أنْ يستخدم ويتصرَّف بحُرِّيَّة في ذلك المكان.

لا حاجة للقول، عمليَّة صَلْب خاصَّة، في مُمتلكات خاصَّة، يترك مجالاً كبيراً للشَّكِّ، وللخِدْعة؛ صَلْب وَهْمي، وطُقُوس مُدبَّرة بمهارة. من المُمكن أنَّه كان هُناك ـ فقط ـ بضعة شُهُود عيان حاضرون بشكل مُباشر (عن قُرْب). بالنِّسبة لعامَّة النَّاس؛ كانت المسرحيَّة مَرْئيَّة ـ فقط ـ عن بُعْد، كما تُؤكِّد كُتُب الإنجيل الثَّلاثة المُتَّفقة. ومن مثل هذه المسافة لم يكن من المُمكن أنْ يكون ظاهراً مَنْ هُو ـ في الحقيقة ـ الذي صُلِبَ، أو إنْ كان ـ في الحقيقة ـ ميِّتاً.

مثل هذه التَّمثيليَّة التَّحزيريَّة ـ بالطَّبع ـ تستوجب بعض التَّغاضي والتَّواطؤ من ناحية بيلاطُس البُنْطي، أو من ناحية شَخْص ما مُؤثِّر في الإدارة الرُّومانيَّة. وفي الحقيقة؛ مثل هذا التَّغاضي والتَّواطؤ

(1) (بُستان زيتون، يقع علىٰ جبل الزَّيتون، الذي يقع ـ مُباشرة ـ علىٰ مشارف القُدْس قديماً. المُترجم).

هُو مُحتمَل جدَّاً. صحيح أنَّ بيلاطُس البُنْطي كان رجل قاسياً، واستبداديَّاً، لكنَّه كان فاسداً ـ أيضاً ـ ومُرتشٍ. بيلاطُس البُنْطي التَّاريخي ـ بشكل مُناقض لذلك الذي صُوِّر في الإنجيل ـ لمْ أسمىٰ من أنْ يصفح عن حياة السَّيِّد المسيح؛ رُبَّما مُقابل مبلغ كبير من المال، ورُبَّما لضمان عدم حُصُول شَغَب واضطراب سياسي بشكل أكبر.

علىٰ أيَّة حال؛ مهما كان حافز بيلاطُس البُنْطي، ما لا شكَّ فيه أنَّ هذا الأخير اشترك في القضيَّة، بشكل ما، وبطريقة مُباشرة. لقد اعترف بادِّعاء السَّيِّد المسيح كـ«ملك لليهُود». أظهر ـ أيضاً ـ أو تظاهر، بأنَّه تفاجأ لموت السَّيِّد المسيح بتلك السُّرعة، التي بَدَتْ عليها. ورُبَّما الأهمُّ من كُلِّ شيء، مَنَحَ جَسَدَ السَّيِّدَ المسيحَ إلىٰ يُوسُف من الرَّامة.

طبقاً للقانون الرُّوماني في ذلك الوقت؛ الرَّجل المصلوب كان يُمنَع ـ مَنْعَاً باتَّاً ـ دَفْنُهُ. في الحقيقة؛ كان يُوضَع بعض الحُرَّاس ـ بشكل مألوف ـ لَمنع الأقرباء، أو الأصدقاء، من إزالة الجُثث. ببساطة؛ كانت الضَّحيَّة تُترَك علىٰ الصَّليب، تحت رحمة الطُّيُور، والعوامل الجوِّيَّة. رغم ذلك؛ قام بيلاطُس البُنْطي بخَرْقٍ صارخٍ لتلك التَّقاليد، وَمَنَحَ جَسَدَ السَّيِّدَ المسيحَ ـ بسُهُولة ـ إلىٰ يُوسُف الرَّامي. هذا يشهد ـ بوُضُوح ـ علىٰ بعض التَّواطُؤ من ناحية بيلاطُس البُنْطي. وقد يشهد علىٰ الأشياء الأُخْرَىٰ أيضاً.

في التَّرجمات الإنجليزيَّة لمَرْقُس، يُوسُف يطلب من بيلاطُس البُنْطي الحُصُول علىٰ جَسَد السَّيِّد المسيح. وبيلاطُس البُنْطي يُظهِر أنَّه تفاجأ من موت السَّيِّد المسيح، ويستشير قائد المئة، ثُمَّ يُوافق ـ بسُرُور ـ علىٰ طلب يُوسُف. هذا يظهر ـ بوُضُوح كافٍ ـ من النَّظْرَة الأُولىٰ؛ ولكنْ؛ في النُّسخة اليُونانيَّة الأصليَّة لإنجيل مَرْقُس؛ تُصبح المسألة أكثر تعقيداً. في النُّسخة اليُونانيَّة، عندما يطلب يُوسُفُ جَسَدَ السَّيِّد المسيح، يستعمل كلمة «soma» (جسم)؛ وهي كلمة تنطبق ـ فقط ـ علىٰ الجسم الحَيِّ. بيلاطُس البُنْطي يُوافق علىٰ الطَّلَب، ويستخدم كلمة «ptoma»؛ التي تعني «جُثَّة».

إذنْ؛ طبقاً للنَّصِّ اليُوناني، يُوسُف يطلب ـ بشكل واضح ـ جسماً حيَّاً، وبيلاطُس البُنْطي يمنحه الجَسَدَ الذي يعتقد، أو يتظاهر، بأنَّه يعتقد، بأنَّه ميِّت.

نَظَرَاً لحَظْر دَفْن الرِّجال المصلوبين، إنَّه لَتَصَرُّف استثنائيٌّ جدَّاً ـ أيضاً ـ أنْ يستلم يُوسُفُ ـ علىٰ الإطلاق ـ أيَّة جُثَّة لأيِّ رجل.

علىٰ أيِّ أساس هُو استلم الجُثَّة؟!

علىٰ أيِّ ادِّعاء هُو اعتمد لكي يحصل علىٰ جَسَد السَّيِّد المسيح[1]؟!

إنْ هُو كان تابعاً سرِّيَّاً، فمن الصَّعب جدَّاً أنْ يُبدي أيَّ ادِّعاء إلَّا أنْ يكشف أنَّه أحد أتباع يسوع السِّرِّيِّيْن؛ إلَّا إنْ كان بيلاطُس البُنْطي مُدركاً ذلك، أو أنَّ هُناك عاملاً آخر مُرتبطاً بالموضوع، ومُؤثِّراً لصالح يُوسُف.

هُناك القليل من المعلومات حول يُوسُف الرَّامي. رواية الإنجيل هي ـ فقط ـ بأنَّه كان تابعاً سرِّيَّاً للسَّيِّد المسيح، ويمتلك ثروة عظيمة، وينتمي إلىٰ السَّنْهَدْ ريم؛ مجلس الشُّيُوخ، الذي حَكَمَ الجاليةَ اليهُوديَّةَ في القُدْس تحت الرِّعاية الرُّومانيَّة. وهكذا يبدو من الواضح أنَّ يُوسُف كان رجلاً مُؤثِّراً. وهذه النَّتيجة تحظىٰ بالمزيد من التَّأكيد، نتيجة تعاملاته مع بيلاطُس البُنْطي، ومن حقيقة أنَّه يمتلك منطقة الأرض، التي تحتوي القَبْر الخاصّ.

تُصوِّر روايات القُرُون الوُسْطىٰ يُوسُف الرَّامي بأنَّه حامي «الكَأس المُقَدَّسَة»، وقيل بأنَّ بيرسيفال كان من نَسْله.

طبقاً للرِّوايات الأُخْرَىٰ اللَّاحقة؛ كان يُوسُف ـ بطريقة، أو بأُخْرَىٰ ـ قريباً بالدَّم للسَّيِّد المسيح، ولآله. إنْ كان الوضع كذلك ـ وفي الواقع هُو كذلك ـ فإنَّه ـ علىٰ أقلِّ تقدير ـ يدعم معقُوليَّة مُطالبة يُوسُف بجَسَد السَّيِّد المسيح؛ لأنَّه إنْ كان علىٰ بيلاطُس البُنْطي أنْ يمنح ـ بشكل عشوائي ـ جُثَّة مُجرم معدوم إلىٰ رجل غريب، فلرُبَّما بحافز الرَّشوة قام بمَنْحها إلىٰ قريب الرَّجل الميِّت. إنْ كان يُوسُف ـ العُضو الغني والمُؤثِّر في السَّنْهَدْ ريم، في الحقيقة ـ من أقرباء السَّيِّد المسيح، فتلك شهادة أُخرىٰ علىٰ النَّسَب الأرستقراطي للسَّيِّد المسيح. وإنْ كان من أقرباء السَّيِّد المسيح، فإنَّ صلته بـ«الكَأس المُقَدَّسَة» ـ «الدَّم المَلَكي» ـ ستكون قابلة للتَّوضيح لدرجة أكبر.

---

(1) (إنْ كان المُؤلِّفون يعتقدون بأنَّ بيلاطس مُرتشٍ وفاسدٌ، وأنَّ يُوسُف ثريٌّ وتابعٌ سرِّيٌّ للسَّيِّد المسيح، فمن البديهي أنَّه كان الوحيد الوقَ القادر علىٰ «شراء» تلك الجُثَّة! المُترجم).

السِّيناريو

لقد قُمنَا ـ مُسبقاً ـ بوَضْع مُخطَّط لفَرَضيَّة تجريبيَّة، تقترح السُّلالة، التي تحدَّرت من السَّيِّد المسيح. بدأنا ـ الآن ـ بالتَّوسُّع في تلك الفَرَضيَّة، وبدأنا ـ أيضاً ـ بملء الكثير من الثَّغرات، والتَّفاصيل الحاسمة، ولو أنَّه مايزال ذلك بشكل مُؤقَّت.

عندما قُمنا بذلك، بدأت الصُّورة العامَّة تكتسب التَّماسُك، والمعقوليَّة، كلَيْهما.

بدا من الواضح جدَّاً أنَّ السَّيِّد المسيح كان ملكاً، كَاهناً، أرستقراطيَّاً، ومُطالباً شَرْعيَّاً للعَرْش؛ وأنَّه يبدأ مُحاولة لاستعادة إرْثه الشَّرْعي. هُو بنفسه كان بالإمكان أنْ يكون مُواطناً من الجليل، المرتع التَّقليدي لمُعارضة النِّظام الرُّوماني.

في الوقت ذاته، كان لديه العديد من المُؤيِّدين المُؤثِّرين الأغنياء والنُّبلاء في كافَّة أنحاء فلسطين، بما فيها تلك المدينة الكبيرة أُورشليم؛ وأحد هؤلاء المُؤيِّدين، والذي كان عُضواً قويَّاً في السَّنْهَدْ ريم، رُبَّما كان قريبه أيضاً.

علاوةً علىٰ ذلك؛ كان منزل زوجته ومنزل أهلها كلاهما في بيت عَنيا، التي كانت ضاحية من ضواحي القُدْس؛ وهُنا؛ في عشيَّة دُخُوله المُنتصر إلىٰ العاصمة، استقرَّ الملكُ الكَاهنُ الطَّموح. هُنا؛ أسَّس مركز طائفته الغامضة. هُنا؛ قام بزيادة عدد أتباعه بإنجاز بعض الطُّقُوس الشَّعائريَّة، بما فيها تلك الطُّقُوس المُتعلِّقة بنسيبه[1].

ملك كَاهن طموح كهذا لابُدَّ أنَّه ولَّد مُعارضة قويَّة في قطاعات مُعيَّنة؛ حتماً بين الإدارة الرُّومانيَّة، ورُبَّما بين المصالح اليهُوديَّة المُتحصِّنة، التي يُمثِّلها الصَّدُوقيُّون. أحد أو كلا هذه المصالح استطاعت ـ علىٰ ما يبدو ـ إحباط مُطالبته بالعرش.

ولكنْ؛ في مُحاولتهم لإبادته، هُم لم يكونوا ناجحين كما هُم كانوا يتمنُّون؛ لأنَّ الكَاهن الملك يبدو أنَّه كان لديه أصدقاء في مناصب مرموقة؛ وهؤلاء الأصدقاء يبدو أنَّهم مثَّلوا عِلْمِيَّة صَلْب وَهْمِيَّة، بعد أنْ قاموا برشوة الوكيل الرُّوماني بسُهُولة؛ عمليَّة صَلْب علىٰ أرض خاصَّة، والتي كانت

(1) (إحياء لِعازار. المُترجم).

صعبة الوُصُول بالنِّسبة للجميع، عدا بضعة مُختارة. وبعد إبعاد العامَّة إلىٰ مسافة معقولة، تمَّ تنفيذ عمليَّة الصَّلْب، والتي يبدو فيها أنَّه تمَّ وَضْع بديل للملك الكَاهن علىٰ الصَّليب، أو ـ رُبَّما ـ كانت عمليَّة صَلْب لم يمتْ فيها الكَاهن الملك فعلاً.

قُبيل الغَسَق ـ ممَّا أدَّىٰ إلىٰ عَرْقَلَة أكبر للرُّؤية ـ أُزِيْلَ «جسم» إلىٰ قَبْر مُجاور تماماً، والذي منه، بعد يوم، أو اثنَيْن لاحقاً، اختفىٰ ذلك الجسم «بشكل عجيب».

إنْ كان هذا السِّيناريو الذي صنعناهُ صحيحاً، فإلىٰ أين ذَهَبَ السَّيِّدُ المسيحُ بعد ذلك؟! بالنِّسبة لفَرَضيَّتنا؛ إنَّ الجواب علىٰ ذلك السُّؤال ـ بشكل خاصٍّ ـ هُو أقلُّ شأناً من السُّلالة بحَدِّ ذاتها.

طبقاً لأساطير إسلاميَّة وهنديَّة مُعيَّنة؛ هُو ـ في النِّهاية ـ تُوفِّي في سنِّ الشَّيخوخة، في مكان ما، في الشَّرق، ويُقال ـ علىٰ الأغلب ـ بأنَّه تُوفِّي في كشمير.

من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ قدَّم صُحُفيٌّ أُستراليِ حُجَّة مُثيرة ومُقنعة بأنَّ السَّيِّد المسيح مات في مَسْعَدَة، عندما سَقَطَتْ القلعة بأيدي الرُّومان عام 74 بعد الميلاد؛ كان علىٰ وشك الوُصُول إلىٰ عامه الثَّمانين آنذاك[1].

طبقاً للرِّسالة التي استلمناها؛ الوثائق التي وجدها بيرنجر سُونير في رين لُو شاتُو كانت تحتوي علىٰ «بُرهان قَطْعي» علىٰ أنَّ السَّيِّد المسيح كان حيَّاً في عام 45 بعد الميلاد، ولكنْ؛ ليس هُناك أيَّة إشارة إلىٰ مكان وُجُوده آنذاك. إمكانيَّة واحدة مُحتَمَلَة أنَّه كان في مصر، وبشكل مُحَدَّد؛ في الإسكندريَّة؛ حيثُ قيل ـ تقريباً في الوقت نفسه ـ إنَّ أُورمُوس الحكيم أنشأ الصَّليب الوَرْدي بدَمْجه للطُّقُوس المسيحيَّة مع الطُّقُوس القَبْل مسيحيَّة.

وحتَّىٰ إنَّه تمَّ التَّلميح إلىٰ أنَّ جسم السَّيِّد المسيح المُحنَّط ـ رُبَّما ـ أُخفي في مكان ما في ضواحي رين لُو شاتُو، وذلك من شأنه أنْ يُوضِّح الرِّسالة المُشفَّرة في مَخْطُوطَات سُونير «IL EST LA MORT» (هُو ميِّت هُناك). نحنُ لم نكن مُهيَّئين للتَّصريح بأنَّه رافق عائلته إلىٰ مرسيليا.

---

(1) (في كتاب «لَفيفة السَّيِّد المسيح» يدَّعي المُؤلِّف جويس بأنَّه بينما كان في إسرائيل، طُلِبَ منه المُساعدة علىٰ تهريب لفيفة مسروقة من عمليَّات التَّنقيب في مَسْعَدَة إلىٰ خارج البلاد. بالرَّغم من أنَّه رَفَضَ، يدَّعي بأنَّه رأىٰ اللَّفيفة. كانت مُوقَّعة بالاسم التَّالي: «Gennesareth Yeshua ben Ya'akob ben»، والذي يصف نفسه بأنَّه كان في الثَّمانين من العُمر، وبأنَّه كان آخر المُلُوك الشَّرعيِّين لإسرائيل. هذا الاسم عندما تُرجِمَ إلىٰ الإنكليزيَّة أصبح «Jesus of Gennesareth»؛ أيْ عيسىٰ بن يعقُوب من النَّاصرة. المُؤلِّفون).

في الحقيقة؛ الظُّرُوف تُشكِّك بذلك. هُو ـ لرُبَّما ـ لم يكن في ظُرُوف تُمكِّنه من السَّفَر، ووُجُوده كان سيُشكِّل تهديداً إلىٰ أمن أقربائه. وبالتَّالي؛ رُبَّما عَدَّ أنَّه لمن الأكثر أهمِّيَّة أنْ يبقىٰ في الأرض المُقَدَّسَة ـ كأخيه، القدِّيس جيمس ـ لمُتابعة أهدافه هُناك.

باختصار، نحنُ لم نطرح أيَّ اقتراح حول حقيقة ما حصل، أكثر ممَّا اقترحتْهُ كُتُبُ الإنجيل، بحَدِّ ذاتها.

علىٰ أيَّة حال ـ لأهداف فَرَضيَّتنا ـ إنَّ ما حصل للسَّيِّد المسيح كان أقلَّ أهمِّيَّة من الذي حصل للعائلة المُقَدَّسَة؛ وخُصُوصاً إلىٰ نسيبه، وزوجته، وأطفاله.

إنْ كان السِّيناريو الذي وضعناه صحيحاً، هربوا برفقة يُوسُف الرَّامي وبعض الآخرين بسفينة من الأرض المُقَدَّسَة. وعندما حطُّوا علىٰ اليابسة في مرسيليا، جَلَبَتْ مَرْيَم المَجْدَلِيَّة ـ في الحقيقة ـ «الكَأْس المُقَدَّسَة» ـ «الدَّم المَلَكي» السَّليل لآل داود ـ إلىٰ فرنسا.

13

السرّ الذي حرّمَتْهُ الكَنيسَة

نحنُ كُنَّا مُدركون جيِّداً ـ بالطَّبع ـ بأنَّ السِّيناريو الذي وضعناه لم يتوافق مع التَّعليمات المسيحيَّة المعروفة. ولكنْ؛ كُلَّما بحثنا أكثر، كُلَّما بدا ـ أكثر وُضُوحاً ـ بأنَّ هذه التَّعليمات ـ على مَرِّ القُرُون ـ لا تُمثِّل سوىٰ تجميع انتقائي جدّاً للأجزاء التي أُخضِعَتْ إلىٰ الكثير جدّاً من التَّنقيح، والتَّعديل. بكلمة أُخرىٰ؛ العهد الجديد يُقدِّم صُورة للسَّيِّد المسيح، ولعهده، بما يتوافق مع حاجات بعض الأفراد ذوي المصالح الشَّخصيَّة؛ بعض المجموعات، والأشخاص، الذين كان لهم ـ ومايزال إلىٰ درجة كبيرة ـ حصَّة هامَّة في المسألة.

وأيُّ شيء قد يُساوم، أو يُحرِجُ هذه المصالح ـ كالإنجيل «السِّرِّيّ» لمَرْقُس، علىٰ سبيل المثال ـ قد تمَّ استئصاله تماماً.

في الواقع؛ تمَّ استئصال الكثير؛ ممَّا شكَّل نوعاً من الفراغ، والحلقات المفقودة. وفي تلك الحلقات المفقودة؛ يُصبح من المُبرِّر والضَّروري وَضْعُ الفَرَضيَّات، والتَّوقُّعات.

إنْ كان السَّيِّد المسيح هُو المُدَّعي الشَّرْعي للعَرْش، فمن المُحتمل أنَّه دُعِمَ ـ علىٰ الأقلِّ مبدئيّاً ـ من قِبَل مجموعة صغيرة نسبيّاً من عامَّة النَّاس؛ عائلته المُباشرة من الجليل، وبعض الأعضاء الآخرين من طبقته الاجتماعيَّة الأرستقراطيَّة، وبضعة من المُمثِّلين الموضوعين بشكل استراتيجي في اليهُوديَّة، وفي المدينة الكبيرة القُدْس.

تبْعٌ كهذا، ولو أنَّه مُميَّز، من غير المُحتمل أنَّه كافٍ لضمان تحقيق أهدافه؛ نجاح مُطالبته بالعرش.

بالنَّتيجة؛ رُبَّما كان لزاماً عليه تجنيد أتباع من أصناف أُخرىٰ ـ وبشكل أكبر عدداً ـ بالطَّريقة نفسها التي عمل فيها الأمير بُوني تشارلز عام **1745**، للسَّعي إلىٰ الشَّيء المُشابه ـ جُزئيّاً ـ للموضوع المَعْني.

كيف بإمكان المرء أنْ يُجنِّد المزيد من الأتباع؟! بشكل واضح؛ عليه أنْ يقوم بإعلان رسالة، من شأنها أنْ تحظىٰ بولائهم، ودَعْمهم. رسالة كهذه ليس ـ بالضَّرورة ـ أنْ تكون مُتهكِّمة كتلك المُرتبطة بالسِّياسة الحديثة. بالعكس، لرُبَّما أُعلِنَتْ تلك الرِّسالة بشكل مثالي، يدلُّ علىٰ حُسْن النِّيَّة، وبمثاليَّة نبيلة، ومُحترقة جدَّاً. لكنْ؛ علىٰ الرّغم من توجُّهها الدِّيني الواضح، هدفها الأساسي ـ رُبَّما ـ كان ـ تماماً ـ كهدف السِّياسة الحديثة؛ لضمان تمسُّك عامَّة النَّاس بها.

السَّيِّد المسيح أعلن الرِّسالة، التي حاولت ـ تماماً ـ القيام بتلك، والتي منحت الأمل للمظلومين، والمنكوبين، والمحرومين من حُقُوقهم، والمُضْطَهَدِيْنَ.

باختصار؛ كانت رسالة واعدة. إنْ استطاع القارئ الحديث أنْ يتغلَّب علىٰ تحيُّزاته وتصوُّراته السَّابقة للمسألة، فإنَّه سيُدرك ـ بشكل استثنائي ـ آليَّة قريبة إلىٰ تلك المَرْئيَّة في كُلِّ مكان من العالم اليوم؛ الآليَّة التي يتَّحد بها الشَّعب ـ كالمُعتاد ـ باسم قضيَّة مُشتركة، ويلتحمون في اتِّفاقيَّة تسعىٰ إلىٰ إسقاط نظام استبدادي. النُّقطة هي أنَّ رسالة السَّيِّد المسيح كانت أخلاقيَّة، وسياسيَّة، معاً. وُجِّهَتْ إلىٰ فئة مُعيَّنة من عامَّة النَّاس، بمُوجب اعتبارات سياسيَّة؛ لأنَّه لم يكن بوُسعه أنْ يجمع ما يكفي من الأتباع والدَّعْم إلَّا من الشَّريحة المُضطَهَدَة، والمظلومة، والمنكوبة، والمحرومة من حُقُوقها. الصَّدُوقيُّون، الذين توصَّلوا إلىٰ اتِّفاق مع الاحتلال الرُّوماني، رُبَّما كانوا رافضين ـ كَكُلِّ الصَّدُوقيِّيْن علىٰ مَرِّ العُصُور ـ للتَّخلِّي عمَّا امتلكوه، أو للمُخاطرة بأمنهم، واستقرارهم.

رسالة السَّيِّد المسيح ـ كما تظهر في الإنجيل ـ ليست جديدة كُلِّيَّاً، ولا فريدة كُلِّيَّاً. من المُحتمل أنَّه بنفسه كان فَرِّيسيَّاً[1]، وكانت تعليماته تحتوي العديد من عناصر المذهب الفَرِّيسيِّ. كما تشهد مَخْطُوطَات البَحْر المَيِّت، إنَّها تحتوي ـ أيضاً ـ علىٰ عدد من السِّمات المُهمَّة من فِكْر الأسنيِّيْن. ولكنْ؛ إنْ كانت الرِّسالة ـ بحَدِّ ذاتها ـ غير أصليَّة كُلِّيَّاً، فإنَّ وسائل تبليغها وإيصالها ـ رُبَّما ـ كانت كذلك. السَّيِّد المسيح بنفسه كان ـ بلا شكٍّ ـ فرداً مُؤثِّراً جدَّاً. لرُبَّما لم يكن يمتلك القُدرة علىٰ الشِّفاء، وعلىٰ

(1) (الفَرِّيسيُّ: عُضو مجموعة دينيَّة يهُوديَّة قديمة، اتَّبعت القانون الشَّفهي، بالإضافة إلىٰ التَّوراة، وحاولت العيش في حالة دائمة من النَّقاء. القانون الشَّفهي هُو تفسيرات التَّوراة، التي تمَّ تداولها عبر السِّنين بشكل شَفَهي من قِبَل الأحبار والحُكَماء، إلىٰ أنْ تمَّ تسجيلها كتابة ـ بشكل أساسي ـ في المِشنا، والتّلمود، حوالي عام 200 بعد الميلاد. المُترجم).

القيام بـ«المُعجزات» الأُخْرَىٰ. لكنَّه ـ بالتَّأكيد ـ كانت يمتلك موهبـة في إبـلاغ أفكـاره عـبر الأمثـال المُثيرة والحيويَّة؛ التي لم تتطلَّب أيَّ تـدريب مُتطـوِّر في خُطَبـه، ولكنَّهـا كانـت ـ بطريقـة مـا ـ سـهلة الوُصُول إلىٰ عامَّة النَّاس.

علاوةً علىٰ ذلك؛ علىٰ خلاف سَلَفَه الأسنيِّيْن، السَّيِّد المسيح لم يكتفِ بـالتَّنبُّؤ بوُصُـول المـسيح المُنتظَر، كان بإمكانه أنْ يدَّعي بأنَّه هُو ذلك المسيح المُنتظَر. وهذا ـ بشكل طبيعي تماماً ـ كان من شـأنه أنْ مَنَحَ ثقة ومصداقيَّة أعظم بكثير لتعاليمه، وكلماته.

من الواضـح أنَّه في وقت دُخُوله المُنتصر إلىٰ القُدْس، جنَّد السَّيِّد المسيح أتباعاً له. لكنَّ هـؤلاء الأتباع ـ رُبَّما ـ كانوا من فئتَيْن مُتميِّزتَيْن جدَّاً؛ أتباع ـ رُبَّما ـ لم تكن مصالحهم مُتشابهة تماماً. من النَّاحية الأُولىٰ؛ رُبَّما كان هُناك نُواة صغيرة من «الأعضاء السِّرِّيِّيْن»؛ أعضاء الأُسرة، وأعضاء آخرين من طبقة النُّبلاء، ومن المُؤيِّدين المُؤثِّرين والأغنيـاء الـذين كـان هـدفهم الأسـاسي أنْ يـروا مُرشَّـحهم يعـتلي العَرْش. من النَّاحية الأُخْرَىٰ؛ رُبَّما كـان هُنـاك حاشـية أكـبر بكثـير مـن «عامَّـة الـشَّعب»؛ «الجُنُـود العاديُّون» للحَرَكَة، الذين كان هدفهم الأساسي أنْ تُنجَز الرِّسالة، ويُحقَّـق الوعـدُ. مـن المُهـمِّ معرفـة الفَرْق بين هاتَيْن الفئتَيْن. هدفهما السِّياسي ـ اعتلاء السَّيِّد المسيح العَـرْش ـ رُبَّـما كـان نفـسه، ولكـنَّ حوافزهـم ـ رُبَّما ـ كانت مُختلفة جَوْهَريَّاً.

يبدو أنَّه عندما أخفق المشروع ـ كما هُو واضح ـ انهار التَّحالف المُتقلقـل بـين هـاتَيْن الفئتَـيْن: «أتباع الرِّسالة»، وأتباع العائلة. ونتيجـة لمُواجهـة العائلـة لكَارثـة وخطـر مُحـدقَيْن، وتهديـد وشـيك بالإبادة، كان عليها أنْ تمنح الأَولويَّة لعامل وحيد، الذي هُو مُنـذُ الأزل العامـل ذُو الأهمِّيَّـة العُظْمَـىٰ للعائلات المَلَكيَّة والنَّبيلة؛ وهُو حفْظ السُّلالة بأيِّ ثمن، في المنفىٰ إنْ لزم الأمر. علىٰ أيَّة حال؛ بالنِّسبة لـ«أتباع الرِّسالة»، مُستقبل العائلة لم يكن ذا أهمِّيَّة؛ بقاء السُّلالة ـ رُبَّما ـ كان ذا درجة ثانويَّة. رُبَّما كـان هدفهم الأساسي هُو تخليد الرِّسالة، ونَشْرها.

المسيحيَّة ـ كما نشأت عبر قُرُونها الأُولىٰ، وكما وصلت في النِّهاية إلينا اليوم ـ هي مُنتَج لـ«أتباع الرِّسالة». منهج انتشارها وتطويرها تمَّ ـ أيضاً ـ تخطيطه علىٰ نحو واسع مـن قِبَـل العُلَـماء الآخـرين، وذلك يستلزم الكثير من الانتباه هُنا. يكفي القول إنَّه مع القـدِّيس بُولُـوس بـدأت «الرِّسـالة» تتَّخـذ

شكلها المُتبلور والجازم، وأصبح هذا الشَّكل هُو القاعدة التي نُصب عليها الصَّرحُ اللَّاهُوتي الكامل للمسيحيَّة. في الوقت الذي أُعِدَّ فيه الإنجيل، العقائد الأساسيَّة للدِّين الجديد كانت كاملة عَمَليَّاً.

الدِّين الجديد كان مُوجَّهاً ـ بشكل أساسي ـ للقارئ، والجُمهُور الرُّوماني، أو المُرَوْمَن. وهكذا؛ كان دور رُومَا في قَتْل السَّيِّد المسيح ـ بالضَّرورة ـ محجوباً، وتمَّ تحويل الذَّنب إلىٰ اليهُود. لكنَّ هذا لم يكن التَّحريف الوحيد للأحداث لجَعْل ذلك الدِّين مُستساغاً للعالم الرُّوماني. العالم الرُّوماني كان مُعتاداً علىٰ تحدِّي حُكَّامه، والقَيْصَر كان قد نُصِّب رَسْميَّاً كإله. ومن أجل خَلْق مُنافس للقَيْصَر، كان من الضَّروري تأليه السَّيِّد المسيح أيضاً؛ الذي لم يعدُّه أحد من ـ قبلُ ـ بأنَّه مُقدَّس. بيَدَيْ بُولُس هُو كان كذلك.

قبل أنْ يمرَّ نَشْر هذا الدِّين الجديد بنجاح ـ من فلسطين إلىٰ سُوريا، إلىٰ آسيا الصُّغْرَىٰ، إلىٰ اليُونان، إلىٰ مصر، إلىٰ رُومَا، إلىٰ أُورُوبا الغربيَّة ـ كان من الضَّروري جَعْله مقبولاً لشُعُوب تلك المناطق. وكان من الضَّروري أنْ يكون قادراً علىٰ الحفاظ علىٰ نفسه أمام المذاهب المُؤسَّسة مُسبقاً هُناك.

باختصار؛ الإله الجديد كان من الضَّروري أنْ يكون مُوازياً بالسُّلطة والفخامة وذخيرة المُعجزات لأُولئك الذين ينوي إزاحتهم. لكي يكسب السَّيِّدُ المسيحُ موطئَ قَدَم في العالم المُرَوْمَن آنذاك، كان بالضَّرورة أنْ يُجعَل إلهاً تامَّاً. لم يُصوَّر بأنَّه كَمسيح مُنتظَر بالإحساس القديم لذلك المُصطلح، وليس كَمَلك كَاهن، بل كان يُجسِّد الله ـ الذي، كنُظرائه الفينيقيِّيْن، والسُّوريِّيْن، والمصريِّيْن، والكلاسيكيِّيْن ـ تجاوز عالم الرَّذيلة، والجحيم، وأعاد الرَّبيع مُجدَّداً. في هذه النُّقطة بالذَّات؛ حصلت فكْرة الإحياء ـ بشكل أساسي ـ علىٰ تلك الأهمِّيَّة الحاسمة، ولسبب واضح جدَّاً؛ وهُو وضْعُ السَّيِّد المسيح في مكان مُكَافئ للآلهة تمُّوز، وأدُونيس، وآتيس، وأُوزيرس، وكُلِّ الآلهة الأُخْرَىٰ، التي تموت، وتحيا من جديد، والتي سَكَنَتْ في العالم والوعي كلَيْهما في أوقاتها. وبالضَّبط؛ لنَفْس السَّبب؛ أُعلِنَ مذهب الولادة البتُوليَّة. وعيد الفصح ـ عيد الموت والانبعاث ـ جُعِلَ مُتزامناً مع الطُّقُوس الرَّبيعيَّة للطَّوائف المُعاصرة، وللمدارس الباطنيَّة الأُخْرَىٰ.

نَظَرَاً للحاجة إلىٰ نَشْر أُسطُورة الإله، فإنَّ العائلة المادِّيَّة الفعْليَّة للـ«إله» والعناصر السِّياسيَّة والسُّلاليَّة في قصَّته كانت غير ضروريَّة. مُقيَّدين كما كانوا في زمان ومكان مُعيَّنَيْن، هُم كانوا

سيُنقِصون من فوزه بالعالميَّة. وهكذا؛ للفوز بالعالميَّة بشكل أكبر، كان علىٰ كُلِّ العناصر السِّياسيَّة والسُّلاليَّة أنْ تُزال ـ تماماً ـ من سيرة السَّيِّد المسيح. وهكذا تمَّتْ إزالة تامَّة لكُلِّ الإشارات إلىٰ الزَّيلُوت والأسنيِّيْن مثلاً. مثل هذه الإشارات ـ رُبَّما ـ كانت إحراجاً، علىٰ أقلِّ تقدير. لم يكن من اللَّائق لإله أنْ يشترك ـ في النِّهاية ـ في سياسيَّة مُعقَّدة، وعابرة، وفي مُؤامرة سُلاليَّة؛ وخُصُوصاً أنَّها أخفقت. في النِّهاية؛ لم يُترَك شيء إلَّا الذي احتواه الإنجيل؛ رواية بسيطة، وأُسطُوريَّة، حَدَثَتْ بمحض المُصادفة في فلسطين، التي كانت تحت الاحتلال الرُّوماني في القرن الأوَّل، وبشكل أساسي؛ في وُجُود كافَّة الأساطير الأبديَّة.

بينما كانت «الرِّسالة» تُطوَّر بهذه الأزياء، العائلة ومُؤيِّدوها لا يبدو بأنَّهم كانوا عديمي الجدوىٰ. يُوليُوس أفريكانُوس، الذي كان يكتب في القرن الثَّالث، أورد أنَّ الناجين من أقرباء السَّيِّد المسيح اتَّهموا الحُكَّام الهيرُوديِّيْن[1] بأنَّهم أبادوا ـ بشكل مرير ـ سُلالة النُّبلاء اليهُود، وبذلك؛ أزالوا كُلَّ الأدلَّة، التي قد تتحدَّىٰ ادِّعاءهم العَرْش. وقيل بأنَّ هؤلاء الأقرباء بأنفسهم «هاجروا عبر العالم»، حاملين معهم عِلْمَ أنساب مُعيَّناً، نجا من دمار الوثائق أثناء الثَّورة بين عامَيْ 66 و 74 بعد الميلاد.

ومن أجل نَشْر الأُسطُورة الجديدة، أصبح وُجُود هذه العائلة ـ بسُرعة ـ مسألة ذات علاقة. كان وُجُودها سيُصبح إحراجاً مُحتملاً ذا أبعاد مهيبة؛ لأنَّ العائلة ـ والتي لرُبَّما تحمل شهادة مُباشرة للأحداث الحقيقة التَّاريخيَّة ـ كانت ستُشكِّل تهديداً خطيراً علىٰ الأُسطُورة.

في الحقيقة؛ علىٰ أساس المعرفة المُباشرة، العائلة ـ لرُبَّما ـ كان بإمكانها أنْ تنسف الأُسطُورة من جُذُورها. وهكذا؛ في الأيَّام الأُولىٰ من المسيحيَّة توجَّب قَمْعُ وإزالة كُلِّ ذِكْرٍ لعائلة نبيلة، أو عائلة مالكة، أو عِلْم أنساب، أو سُلالة ذات طُمُوحات سياسيَّة. وتخوُّفاً من معرفة الحقائق الكاذبة للمسألة، كان يجب إبادة العائلة ـ بحَدِّ ذاتها ـ قَدْرَ الإمكان، تلك العائلة التي قد تُفنِّد الدِّينَ الجديد.

من هُنا؛ كانت الحاجة لأنْ تتبع تلك العائلة أقصىٰ درجات السِّرِّيَّة. من هُنا؛ كان تعصُّب آباء الكَنيسَة الأوائل نحو أيِّ انحراف عن الأرثُذُوكسيَّة، التي حاولوا فَرْضَهَا. ورُبَّما ذلك ـ أيضاً ـ كان أحد أُصُول مُعاداة السَّاميَّة.

---

(1) (من سُلالة هيرُودُوس. المُترجم).

في الواقع؛ «أتباع الرِّسالة» والنَّاشرون للأُسطُورة كان لديهم هدف مُزدوج بإلقاء اللَّائمة علىٰ اليهُود، وتبرئة الرُّومان؛ لأنَّهم ـ بذلك ـ لا يجعلون الأُسطُورة و«الرِّسالة» مُستساغة للجُمهُور الرُّوماني فحسب، بل هُم ـ أيضاً ـ يطعنون بمصداقيَّة العائلة؛ لأنَّها كانت يهُوديَّة. والشُّعُور بمُعاداة اليهُوديَّة الذي أحدثوه كان سيُسرِّع آليَّة تحقيق أهدافهم بشكل أكبر. إنْ وَجَدَت العائلةُ مأوىٰ ضمن جاليَّة يهُوديَّة في مكان ما داخل الإمبراطُوريَّة، فإنَّ الاضطهاد الشَّعبيَّ في زخمه قد يُسكت ـ بشكل مُلائم ـ الشُّهُود الخطرين.

بإشباع رغبات الجُمهُور الرُّوماني، وتأليه السَّيِّد المسيح، واختيار اليهُود ككباش فداء، سيتمُّ الاطمئنان ـ بالتَّالي ـ علىٰ نجاح انتشار المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة. موقف هذه الأرثُذُوكسيَّة بدأ يدعم نفسه ـ بشكل حاسم ـ في القرن الثَّاني، وبشكل أساسي؛ من خلال آيرينيُوس، الذي كان أُسقُف ليون حوالي عام **180** بعد الميلاد.

رُبَّما بشكل أكثر من أيِّ أب آخر من آباء الكَنيسَة الأوائل، استطاع آيرينيُوس مَنْح عِلْم اللَّاهُوت المسيحي شكلاً مُستقرّاً، ومُتماسكاً. لقد أنجز ذلك ـ بشكل أوَّلي ـ بواسطة عمل ضخم اسمه «**Libros Quinque Adversus Haereses**» (خمسة كُتُب ضدَّ البِدَع). في هذا المُؤلَّف الشَّامل؛ استطاع آيرينيُوس أنْ يُصنِّف ويُحدِّد كُلَّ الانحرافات عن الأرثُذُوكسيَّة المُتماسكة، وبالتَّالي؛ أدانها بشكل عنيف. بشَجْبه للتَّنوُّع، استطاع أنْ يُحافظ علىٰ وُجُود كَنيسَة صحيحة واحدة فقط، والتي بدُونها لن يكون هُناك خلاص. كُلُّ مَنْ تحدَّىٰ هذا الزَّعْم، أعلن آيرينيُوس بأنَّه زنديق، وبالتَّالي؛ يُطرَد، وإنْ كان بالإمكان، يُقتَل.

من بين الأشكال المُتنوِّعة العديدة للمسيحيَّة المُبكِّرة، كانت الغنُوسطيَّة[1] هي التي تعرَّضت للغضب الذَّمِّيِّ الأكبر لآيرينيُوس. استندت الغنُوسطيَّة علىٰ التَّجربة الشَّخصيَّة، الاتِّحاد الشَّخصي مع الإله. بالنِّسبة لآيرينيُوس؛ هذا ـ بشكل طبيعي ـ يُقوِّض سُلطة الكَهَنَة، والأساقفة، ويُعرقل مُحاولة فَرْض التَّوحيد.

---

(1) (مذهب العرفان: مذهب بعض المسيحيِّين، الذين اعتقدوا بأنَّ المادَّة شرٌّ، وبأنَّ الخلاص يأتي من طريق المعرفة الرُّوحيَّة. المُترجم).

في النَّتيجة؛ كرَّس كافَّة جُهُوده وطاقاته لقَمْع الغنُوسطيَّة. ولهذه النِّهاية؛ كان من الضَّروري إعاقة الاعتقاد الفَرْدي، وتشجيع الإيمان المُطلَق بالعقيدة الثَّابتة. تطلَّب ذلك وُجُود نظام لاهوتي، بناء للعقائد المُنظَّمة، والتي لا تسمح بالتَّفسير الفَرْدي.

في مُعارضة للتَّجربة الشَّخصيَّة والمعرفة الرُّوحيَّة، آيرينيُوس أصرَّ علىٰ كَنيسَة «كَاثُوليكيَّة» وحيدة (أيْ عالميَّة) تستند إلىٰ أساس وتعاقُب بَابَوي. ولتطبيق خَلْق مثل هذه الكَنيسَة، أدرك آيرينيُوس الحاجة لشريعة جازمة؛ قائمة راسخة للكتابات المُوثَّقة. وُفقاً لذلك؛ قام بجَمْع تلك الشَّريعة، مُدقِّقاً بالأعمال المُتوفِّرة، آخذاً بالبعض منها، وتاركاً الأُخرَىٰ. آيرينيُوس هُو الكاتب الأوَّل، الذي تتوافق شريعة عهده الجديد ـ جَوْهَريَّاً ـ مع تلك التي في الوقت الحاضر.

مثل هذه الإجراءات ـ بالطَّبع ـ لم تمنع انتشار البِدَع المُبَكِّرة. بالعكس؛ واصلت الازدهار. ولكنَّ أرثوذكسيَّة آيرينيُوس ـ نوع المسيحيَّة الذي أُعلِنَ من قِبَل «أتباع الرِّسالة» ـ استأنفت الشَّكل المُتماسك، الذي ضمن بقاءه ونصره حتَّىٰ النِّهاية.

ليس من المُستحيل الادِّعاء بأنَّ آيرينيُوس مهَّد الطَّريق لما حَدَثَ أثناء ومُباشرة بعد عهد قسطنطين؛ الذي أصبحت الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة تحت رعايته إمبراطُوريَّة مسيحيَّة نوعاً ما.

دور قسطنطين في تاريخ المسيحيَّة وتطويرها زُيِّف، وأُسيء تمثيله، وأُسيء فَهْمُهُ. «هبة قسطنطين» المُزيَّفة في القرن الثَّامن، التي نُوقشَتْ في الفصل التَّاسع، خَدَمَتْ في تشويش الأُمُور حتَّىٰ لُمستوىٰ أبعد في نَظَر الكُتَّاب اللَّاحقين. علىٰ الرّغم من هذا، قسطنطين ـ في أغلب الأحيان ـ يُمدَح بأنَّه أنجز النَّصر الحاسم لـ«أتباع الرِّسالة»؛ وليس ذلك بلا مُبرِّر كُلِّيَّاً.

لذلك؛ أُجْبِرْنَا علىٰ الاهتمام بمسألته بعناية أكبر، ولكي نقوم بذلك كان علينا أنْ نُبدِّد بعضاً من إنجازاته الخياليَّة، والمُخادعة المنسوبة إليه.

طبقاً لرواية الكَنيسَة مُؤخَّراً؛ قسطنطين ورث من أبيه مُيُولاً مُتعاطفة مع المسيحيَّة. في الحقيقة؛ يبدو أنَّ هذه المُيُول كانت ـ بشكل أساسي ـ لمصالح شَخصيَّة؛ لأنَّ عدد المسيحيِّين في ذلك الوقت كان كبيراً، وقسطنطين احتاج كُلَّ المُساعدة المُمكنة ضدَّ ماكسنتيُوس، مُنافسه علىٰ العَرْش الإمبراطُوري.

في عام 312 بعد الميلاد؛ تمَّ دَحْرُ ماكسنتيُوس في معركة جسر ميلفين، وهكذا تُرك ادِّعاء قسطنطين للعَرْش بلا مُنازع. مُباشرة قبل هذا الاشتباك؛ قيل بأنَّ قسطنطين شاهد رُؤيا، والتي قيل ـ لاحقاً ـ بأنَّها كانت حُلماً نَبويّاً. شاهد صليباً مُضيئاً مُعلَّقاً في السَّماء. وكُتِبَت عليه العبارة التَّالية: «In Hoc Signo Vinces» («بهذه الإشارة أنتَ ستنتصر»). الرِّواية تذكر أنَّ قسطنطين أذعن لهذه البشارة السَّماويَّة، وأمر ـ بسُرعة ـ بأنْ يُنقَش علىٰ دُرُوع جُنُوده إشارة مسيحيَّة ـ وهي الأحرف اليُونانيَّة «Chi Rho»، وهُما الحرفان الأوَّلان من كلمة «Christos» (المسيح). في النَّتيجة؛ نَصْرُ قسطنطين علىٰ ماكسنتيُوس في جسر ميلفين جاء لمثل نصر عجيب للمسيحيَّة علىٰ الوَثَنيَّة.

من هُنا؛ أصبح تقليد الكَنيسَة الشَّعبي، الذي يُعتقد ـ غالباً ـ بأنَّ قسطنطين هُو الذي «حوَّل الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة إلىٰ المسيحيَّة».

في واقع الحال؛ قسطنطين لم يقمْ بأيِّ شيء من ذلك. ولكنْ؛ لكي نُقرِّر ـ بالضَّبط ـ ما قام به، علينا أنْ نفحص الدَّليل بشكل أكثر عناية.

في المقام الأوَّل «تحويل» قسطنطين للمسيحيَّة ـ إنْ كانت تلك الكلمة مُلائمة ـ لا يبدو بأنَّه كان مسيحيّاً علىٰ الإطلاق، بل كان وَثَنيّاً بلا خجل.

يبدو أنَّه شاهد رُؤيا من نوع ما، أو تجربة رُوحيَّة، في حَرَم معبد وَثَنيٍّ لأبولُو الغاليّ، إمَّا في فُوسجيز «Vosges»[1]، أو قُرب أُوتُون «Autun»[2].

طبقاً لشاهد رافق جيش قسطنطين في ذلك الوقت؛ الرُّؤيا كانت من إله الشَّمس ـ الإله الذي عَبَدَتْهُ بعضُ الطَّوائف تحت اسم «سُول إنفيكتُوس»؛ أيْ (الشَّمس المنيعة).

هُناك دليل علىٰ أنَّ قسطنطين ـ مُباشرة قبل رُؤيته ـ يبدو أنَّه كان من طائفة «سُول إنفيكتُوس». علىٰ أيَّة حال؛ قام مجلس الشُّيُوخ الرُّوماني ـ بعد معركة جسر ميلفين ـ بنَصْب قوس نَصْر في كُولُوسيُوم[3].

---

(1) (في منطقة لُورين شمال شرق فرنسا. المُترجم).

(2) (مدينة في بُورغُوندي، فرنسا. علىٰ بُعْد 70 كلم، جنوب غرب ديجُون. المُترجم).

(3) (Colosseum: وهُو المُدرَّج الأثري الأكبر والأكثر شُهرَة عند الرُّومان. المُترجم).

طبقاً للنَّقْش الموجود علىٰ هذا القوس؛ قسطنطين كسب نصره «من خلال تشجيع الإله». لكنَّ الإله المَعنيَّ لم يكن السَّيِّد المسيح، بل كان سُول إنفيكتُوس، إله الشَّمس الوَثَني.

علىٰ نقيض الرِّواية، قسطنطين لم يجعل المسيحيَّةَ الدِّينَ الرَّسْمي لرُوما. الدِّين الرَّسْمي لرُوما تحت قسطنطين كان ـ في الحقيقة ـ عبادة الشَّمس الوَثَنيَّة؛ وقسطنطين ـ في كُلِّ فترة حياته ـ عمل كَكَاهن رئيس لتلك الدِّيانة. في الحقيقة؛ عهده دُعي «سفينة الشَّمس الإمبراطُوريَّة» ورُمُوز ديانة الـ«سُول إنفيكتُوس» ظهرت في كُلِّ مكان، بما في ذلك الرَّايات الإمبراطُوريَّة، وعُملة المملكة. صُورة قسطنطين كمُتحوِّل مُتَّقد إلىٰ الدِّيانة المسيحيَّة هي خاطئة جدَّاً. هُو ـ بنفسه ـ لم يُعمَّد حتَّىٰ عام 337 ـ عندما كان مُمدَّداً علىٰ فراش الموت، وعندما كان ـ علىٰ ما يبدو ـ لا مُبالياً وضعيفاً جدَّاً؛ لأنْ يحتجَّ. ولا حتَّىٰ يُمكن تصديق أنَّه مَنْ خَلَقَ شعار «Chi Rho»؛ لأنَّه تمَّ العُثُور علىٰ نَقْش لهذا الشِّعار في قَبْر في بُومبي[1]، يعود تاريخه إلىٰ قرنَيْن ونصف قبل ذلك.

طائفة سُول إنفيكتُوس كانت سُوريَّة الأصل، وَفُرِضَتْ من قِبَل الأباطرة الرُّومان علىٰ رعاياهم، قبل قرن من عهد قسطنطين. بالرّغم من أنَّها تتضمَّن عناصر من عبادة الآلهة بعل وعشتار؛ إلَّا أنَّها كانت توحيديَّة جَوْهَريَّاً.

في الواقع؛ عدَّت تلك الدِّيانة أنَّ إله الشَّمس هُو مجموع كُلِّ رُمُوز الآلهة الأُخرَىٰ، وهكذا؛ كانت تلك الدِّيانة تتضمَّن كُلَّ مُنافسيها المُحتمَلين بسلام.

علاوةً علىٰ ذلك؛ هي تتوافق ـ بشكل مُلائم ـ مع طائفة مِثرا ـ التي كانت سائدة ـ أيضاً ـ في رُومَا، وفي الإمبراطُوريَّة، في ذلك الوقت، والتي تضمَّنت عبادة الشَّمس أيضاً.

بالنِّسبة لقسطنطين؛ طائفة سُول إنفيكتُوس كانت ـ ببساطة ـ مُجرَّد وسيلة. هدفه الأساسي كان الوحدة (في الحقيقة الاستحواذ) ـ الوحدة، والحُكُومة، والدِّينيَّة، والإقليميَّة. الطَّائفة، أو الدَّولة التي تتضمَّن كُلَّ الطَّوائف الأُخرَىٰ من الواضح أنَّها ستُساعد علىٰ إنجاز هذا الهدف. والمسيحيَّة كانت قد دَعَمَتْ موقفها تحت رعاية طائفة سُول إنفيكتُوس.

---

(1) (Pompeii: مدينة إيطاليَّة قديمة. المُترجم).

المسيحيَّة الأرثُذوكسيَّة كانت تتمتَّع بالكثير من الخصائص المُشترَكة مع طائفة سُول إنفيكتُوس، وهكذا؛ كان باستطاعة الأوَّل الازدهار بدُون تدخُّل تحت حماية الأخير وتسامحه.

طائفة سُول إنفيكتُوس ـ كونها توحيديَّة بشكل جَوْهَري ـ مهَّدت الطَّريق لتوحيد المسيحيَّة. وطائفة سُول إنفيكتُوس كانت مُتساهلة في نواحي أُخرىٰ أيضاً؛ والعاملان كلاهما قادا إلىٰ تعديل المسيحيَّة، وتسهيل انتشارها. مثلاً، صَدَرَ عام 321، مرسوم يُعلن أنَّ قسطنطين يأمر بإغلاق المحاكم العَدْليَّة في «اليوم المُوقَّر للشَّمس»، وبأنْ يكون هذا اليوم عُطلة. المسيحيَّة تعدُّ السَّبت اليهُودي ـ حتَّىٰ ذلك الوقت ـ مُقدَّساً. ولكنْ؛ الآن، بمُوجب مرسوم قسطنطين، حُوِّل يومها المُقدَّس إلىٰ يوم الأحد. هذا لا يجعلها ـ فقط ـ تنسجم مع النِّظام القائم، بل يسمح لها ـ أيضاً ـ بعَزْل نفسها بشكل أبعد عن أُصُولها اليهُوديَّة.

علاوةً علىٰ ذلك؛ حتَّىٰ القرن الرَّابع، عيد ميلاد السَّيِّد المسيح كان يُحتفَل به في السَّادس من يناير/ كانون الثَّاني. بالنِّسبة لطائفة سُول إنفيكتُوس ـ علىٰ أيَّة حال ـ اليوم الهامّ من السَّنة كان 25 ديسمبر/ كانون الأوَّل ـ احتفال «ناتاليس إنفيكتُوس»؛ أيْ (ولادة أو انبعاث الشَّمس)، وهُو اليوم الذي يبدأ فيه زيادة طُول النَّهار[1]. وأيضاً؛ في هذا المجال، قامت المسيحيَّة بالانضمام إلىٰ النِّظام، وإلىٰ دين الدّولة الرَّسْمي.

طائفة سُول إنفيكتُوس تشابكت ـ بسعادة ـ مع طائفة «مِثرا»[2]؛ إلىٰ حَدِّ أنَّه ـ في الحقيقة ـ يتمُّ الخَلْط بينهما غالباً[3].

كلاهما يُقدِّس منزلة الشَّمس. كلاهما يعدُّ الأحد يوماً مُقدَّساً. كلاهما مشهور بمهرجان الولادة الرَّئيس في 25 ديسمبر/ كانون الأوَّل.

---

(1) (يُعدُّ أقصر أيَّام السَّنة؛ حيثُ يبدأ طُول النَّهار بالقِصَر؛ ابتداءً من 25 حُزَيْرَان ـ أطول أيَّام السَّنة ـ وُصُولاً إلىٰ 25 كانون الأوَّل، الذي يبدأ فيه طُول النَّهار بالزِّيادة ثانية. المُترجم).

(2) (مِثرا: إله النُّور، وحامي الحقيقة، وعدوُّ قِوىٰ الظَّلام عند الفُرْس. المُترجم).

(3) (كتاب «طائفة سُول إنفيكتُوس» يُوضِّح فيه المُؤلِّف هالسبرغ بأنَّ هذه الطَّائفة جُلِبَتْ إلىٰ رُومَا في القرن الثَّالث الميلادي. من قِبَل الإمبراطُور إلَّاغابيلوس. عندما قدَّم أُورليان إصلاحه الدِّيني، هُو كان ـ في الحقيقة ـ يُعيد تأسيس طائفة سُول إنفيكتُوس كما قُدِّمَتْ أصلاً. المُؤلِّفون).

كنتيجة، المسيحيَّة يُمكنها ـ أيضاً ـ أنْ تجد نُقاطاً تتقارب مع المثرانيَّة، ولدرجة أكبر؛ لأنَّ المثرانيَّة تُؤكِّد علىٰ خُلُود الرُّوح، وعلىٰ المُحاكَمَة المُستقبليَّة، وعلىٰ إحياء الموتىٰ.

لمصلحة الوحدة؛ قرَّر قسطنطين ـ بشكل مُتعمَّد ـ أنْ يُشوِّه الفُرُوقات بين المسيحيَّة والمثرانيَّة وسُول إنفيكتُوس، قرَّر عَمْدَاً أنْ لا يرىٰ أيَّة تناقضات بينها.

وهكذا؛ أجاز بأنْ يكون السَّيِّد المسيح المُؤلَّه كظاهرة دُنيويَّة لسُول إنفيكتُوس. وهكذا؛ كان بإمكانه أنْ يبني كَنيسَة مسيحيَّة، وفي الوقت ذاته أنْ يبني تماثيل للإلهة الأُمِّ سيبيل[1]، وتماثيل لسُول إنفيكتُوس إله الشَّمس، الأخيرة كانت صُورته نفسه، تحمل ميزاته.

في مثل هذه البوادر الانتقائيَّة والتوحُّديَّة، يُمكننا أنْ نُلاحظ التَّأكيد علىٰ الوحدة مرَّة ثانية. باختصار؛ كان الإيمان ـ بالنِّسبة لقسطنطين ـ مسألة سياسيَّة؛ وأيُّ إيمان كان يبعث علىٰ الوحدة تمَّتْ مُعاملته برِفْق، ولِين.

وبالتَّالي؛ علىٰ الرّغم من أنَّ قسطنطين لم يكن ذلك المسيحيّ الجيِّد كما صوَّرتْهُ الرِّوايات والتَّقاليد اللَّاحقة، إلَّا أنَّه دَعَمَ ـ باسم الوحدة، والانسجام ـ منزلة المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة.

في عام 325 بعد الميلاد ـ علىٰ سبيل المثال ـ دعا إلىٰ عقد «مجلس نيسيا». في هذا المجلس؛ تمَّ تأسيس تاريخ عيد الفصح. تمَّت قَوْلَبَةُ القوانين بحيثُ تُبرز سُلطةَ الأساقفة، وبذلك؛ تمهيد الطَّريق لتركيز القُوَّة في الأيدي الكَنَسيَّة.

الأهمُّ من ذلك كُلِّه، مجلس نيسيا قرَّر ـ بالإجماع ـ أنَّ السَّيِّد المسيح كان إلهاً، وليس نبيَّاً هالكاً[2]. مرَّة ثانية ـ علىٰ أيَّة حال ـ يجب التَّأكيد علىٰ أنَّ الاعتبار الأساسي لدىٰ قسطنطين لم يكن التَّقوىٰ، بل الوحدة، والمنفعة. كإله؛ بإمكان السَّيِّد المسيح أنْ يرتبط ـ بشكل مُلائم ومُريح ـ مع سُول إنفيكتُوس. كَنبيٍّ هالك؛ رُبَّما كان أكثر صُعُوبة لرَبْطِهِ.

---

(1) (إلهة الطَّبيعة. المُترجم).

(2) (نتيجة التَّصويت كانت 218 قبول، مُقابل 2 رَفْض. بذلك؛ تمَّ إقرار أنَّ الآب هُو الابن. المُؤلِّفون).

باختصار؛ المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة أَحْنَتْ نفسها ـ بكُلِّ رغبة ـ للدَّمْج السِّياسي مع الدِّين الرَّسْمي للدَّولة؛ وطالما أنَّها قامت بذلك، مَنَحَهَا قسطنطينُ دَعْمَهُ.

وهكذا؛ بعد سنة، بعد مجلس نيسيا، أقرَّ مُصادرة وتدمير كُلِّ الأعمال الأدبيَّة، التي تتحدَّىٰ التَّعليمات الأرثُذُوكسيَّة؛ أعمال المُؤلِّفين الوَثَنيِّيْن، التي أشارت إلىٰ السَّيِّد المسيح، بالإضافة إلىٰ أعمال المسيحيِّيْن «المُنشقِّين». رتَّب ـ أيضاً ـ دَخْلاً ثابتاً، خُصِّصَ للكَنيسَة، ووُضِعَ أُسقُف رُومَا في قصر لاتيران.

بعد ذلك؛ عام 331 بعد الميلاد، كَلَّفَ، ومَوَّلَ نُسخاً جديدة للتَّوراة. وكان ذلك أحد أكثر العوامل الحاسمة المُفردة في كامل تاريخ المسيحيَّة، وزوَّد المسيحيَّة الأرثُذُوكسيَّة ـ «أتباع الرِّسالة» ـ بفُرصة فريدة.

في عام 303 بعد الميلاد، قبل ذلك برُبع قرن، تعهَّد الإمبراطُور الوَثَني ديُوقليتانُس[1] بالقضاء علىٰ كُلِّ الكتابات المسيحيَّة الموجودة.

نتيجة لذلك؛ اختفت ـ تقريباً ـ كُلُّ الوثائق المسيحيَّة، وخُصُوصاً في رُومَا. وعندما سمح قسطنطين بإعادة نَسْخ وتدوين هذه الوثائق، مكَّن الحُماةَ الأرثُذُوكسيِّيْن من تحرير وتعديل وإعادة كتابة مادَّتهم بما رؤوه مُناسباً، وُفقاً لاعتقاداتهم. من المُحتمل أنَّه في هذه النُّقطة وُضِعَتْ أغلب التَّعديلات الحاسمة علىٰ العهد الجديد، وبالتَّالي؛ حَصَلَ السَّيِّد المسيح علىٰ المنزلة الفريدة، التي تمتَّع بها مُنْذُ ذلك الوقت.

أهمِّيَّة لجنة قسطنطين لا يجب أنْ يُستهانَ بها. من المَخْطُوطَات القديمة للعهد الجديد البالغ عددها خمسة آلاف، ليس هُناك أيَّة مَخْطُوطَة يعود تاريخها لقبل القرن الرَّابع[2].

(1) (Diocletian): ديُوقليتانُس 245 ـ 316 م: إمبراطُور رُوماني 284 ـ 305 م. أصلح الإدارةَ الماليَّة، والجيش. المُترجم).

(2) (هُناك احتمال أنَّ البعض ـ لرُبَّما ـ اكتُشِفَ. في عام 1976، مُستودع كبير من المَخْطُوطَات القديمة اكتُشِفَ في دَيْر القدِّيسة كاثرين في جبل سيناء. البَحْثُ كان سرِّيّاً لمُدَّة سنتَيْن تقريباً، إلىٰ أنْ تسرَّب إلىٰ صحيفة ألمانيَّة عام 1978. هُناك آلاف الأجزاء من المعلومات والموادّ، البعض منها يعود تاريخه إلىٰ عام 300 قبل الميلاد، بما فيها الصَّفحات الثَّمانيَّة المفقودة من مَخْطُوطَة سيناتيُوس، موجودة ـ الآن ـ في المُتحف البريطاني. الرُّهبان المسؤولون عن هذه الكُتلة من الموادِّ سمحوا ـ فقط ـ لعالم، أو اثنَيْن يُونانيَّيْن بالاطِّلاع عليها. المُؤلِّفون).

إذاً؛ العهد الجديد ـ كما هُو موجود اليوم ـ هُو ـ بشكل جَوْهَري ـ من نتاج المُحـرِّرين، والكُتَّـاب في القرن الرَّابع؛ حماة الأرثُذُوكسيَّة، «أتباع الرِّسالة»، الذين صانوا الرِّسالة، وُفقاً لمصالح شَخْصيَّة.

الزَّيلُوت

بعد قسطنطين؛ أصبح المنهج والمسلك المسيحي الأرثُذُوكسي مُوثَّقاً ومعروفاً بشكل جيِّد. لا حاجة للقول بأنَّ تلك الفترة توَّجت النَّصرَ النِّهائي لـ«أتباع الرِّسالة». لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ «الرِّسالة» أسَّستْ نَفْسَهَا كَالمبدأ المُوجِّه، والحاكم، للحضارة الغربيَّة، إلَّا أنَّها لم تبقَ ـ بالكامل ـ دُون تحدٍّ.

بالرّغم من وُجُود العائلة مُتخفِّية في المنفىٰ، إلَّا أنَّ وُجُودها وادِّعاءها أطلق نداء واضحاً جدَّاً؛ النِّداء الذي شكَّل ـ في أغلب الأحيان ـ تهديداً مُزعجاً إلىٰ أرثُذُوكسيِّ رُومَا.

الأرثُذُوكسيَّة الرُّومانيَّة تستند ـ بشكل جَوْهَري ـ علىٰ كُتُب العهد الجديد. لكنَّ العهد الجديد بنفسه لم يختزْ إلَّا الوثائق المسيحيَّة القديمة، التي يعود تاريخها إلىٰ القرن الرَّابع. هُناك عدد كبير من الأعمال الأُخْرَىٰ التي تسبق العهد الجديد في شكله الحالي، البعض منها يُسلِّط ضوءاً جديداً هامَّاً مُشكِّكاً ـ في أغلب الأحيان ـ الرِّوايات المقبولة عُمُوماً.

علىٰ سبيل المثال، هُناك كُتُبٌ مُتنوِّعة تمَّ استثناؤها من التَّوراة، والتي تشمل ـ الآن ـ المجموعة المعروفة بكُتُب التَّوراة المُزوَّرة. البعض من الأعمال في كُتُب التَّوراة المُزوَّرة هي ـ في الحقيقة ـ حديثة، يعود تاريخها إلىٰ القرن السَّادس. والأعمال الأُخْرَىٰ ـ علىٰ أيَّة حال ـ يعود تاريخها إلىٰ القرن الثَّاني تقريباً، ولرُبَّما هي صادقة بقَدْر صِدْق الإنجيل الأصلي بنفسه.

مثل هذه الأعمال هُو إنجيل بُطرُس، والنُّسخة وُجِدَتْ أوَّلاً في وادي النِّيل الأعلىٰ عام 1886، بالرّغم من أنَّه تمَّ التَّنويه إليه من قِبَل أُسقُف أنطاكيا عام 180 بعد الميلاد.

وطبقاً لهذا «الإنجيل المُزوَّر»؛ يُوسُف الرَّامي كان صديقاً مُقرَّباً من بيلاطُس البنطي؛ وإنْ كان ذلك صحيحاً، فإنَّه سيزيد من التَّأكيد علىٰ أنَّ عمليَّة الصَّلْب كانت ضرب احتيال. يذكر إنجيل بُطرُس ـ أيضاً ـ بأنَّ القَبْر الذي دُفِنَ فيه السَّيِّد المسيح كان في موقع يُسمَّىٰ «حديقة يُوسُف». وكلمات السَّيِّد المسيح الأخيرة علىٰ الصَّليب كانت ـ بشكل خاصٍّ ـ مُدهشة، «إلهي، إلهي، لماذا تَرَكْتَني؟!».

عملٌ مُزوَّرٌ آخر يُثير الاهتمام هُو إنجيل طُفُولة السَّيِّد المسيح، الذي يعود تاريخه لفترة لا تزيد عن القرن الثَّاني، ورُبَّما قبل ذلك.

في هذا الكتاب؛ صُوِّر السَّيِّد المسيح طفلاً بشريّاً مُتألِّقاً، ومُتفوِّقاً. رُبَّما بشريّ تماماً؛ لأنَّه كان عنيفاً وصعب الانقياد، وعُرضة لحالات مزاجيَّة مُريعة، وكان غير مسؤول عن تصرُّفاته، وطاقاته.

في الحقيقة؛ في إحدىٰ المرَّات، قَتَلَ طفلاً؛ لأنَّه أهَانَهُ. مصير مُشابه للعقاب الذي يقوم به المُرشد المُطلق. مثل هذه الحوادث هي مُزوَّرة بلا شكٍّ، لكنَّها تشهد علىٰ الطَّريقة التي كان يجب أنْ يُصوَّر بها السَّيِّد المسيح آنذاك؛ لكي يصل إلىٰ المنزلة القُدْسيَّة بين أتباعه.

بالإضافة إلىٰ السُّلُوك المُخزي نوعاً ما للسَّيِّد المسيح كَطفل، هُناك حادثة فُضُوليَّة، ورُبَّما هامَّة في إنجيل الطُّفُولة. عندما خُتِنَ السَّيِّدُ المسيحُ، قيل بأنَّ قُلْفَةً[1] أُخِذَتْ من قِبَل امرأة عجوز غير معروفة، وحفظتْهَا في صُندُوق من المَرْمَر، استُعمِلَ لمَرْهَم النَّاردين[2]. و«ذلك الصُّندُوق المَرْمَري هُو الذي استخدمتْهُ مَرْيَم الآثمة لصَبِّ المَرْهَم منه علىٰ رأس وقَدَمَيْ ربِّنا السَّيِّد المسيح».

إذنْ؛ في هذه الحالة، وكما هُو مقبول في الإنجيل، هُناك عِلْمِيَّة دَهْن، هي ـ بشكل واضح ـ أكثر ممَّا تبدو عليه في الإنجيل، دِهْنٌ يُشبه بعض الطُّقُوس الهامَّة.

علىٰ أيَّة حال؛ في هذه الحالة، من الواضح أنَّ الدَّهْنَ تمَّ التَّنبُّؤ به، وتمَّ الاستعداد له مُنْذُ فترة طويلة. والحادثة كاملة تدلُّ علىٰ اتِّصال ـ ولو أنَّه غامض ومُعقَّد ـ بين مَرْيَم المَجْدَليَّة وعائلة السَّيِّد المسيح قبل فترة طويلة من بدء السَّيِّد المسيح لمهمَّته في عُمر الثَّلاثين. من المعقول افتراض أنَّ والدَيْ السَّيِّد المسيح ما كانا ليمنحا قُلْفَتَهُ لأوَّل امرأة عجوز تطلبها؛ حتَّىٰ وإنْ لم يكن هُناك أيُّ شيء يبدو غير طبيعي في ذلك الطَّلَب. لذلك؛ لابُدَّ أنَّ المرأة العجوز كانت ذات شأن و/ أو أنَّها علىٰ صلة عميقة مع والدَيْ السَّيِّد المسيح. وامتلاك مَرْيَم المَجْدَليَّة اللَّاحق للتَّذكار الغريب ـ أو رُبَّما حاويته ـ يقترح أنَّ هُناك اتِّصالاً بينها وبين المرأة العجوز. مرَّة ثانية؛ يبدو أنَّنا نُواجَه بآثار غامضة لشيء كان أكثر أهمِّيَّة ممَّا نعتقد ـ الآن ـ عُمُوماً.

---

(1) (القُلْفَة؛ الغُرْلَة: جِلْدة الذَّكَر التي تُقطَع في الختان. المُترجم).

(2) (مرهم عطري عند القُدماء. المُترجم).

بعض المقاطع في كُتُب التَّوراة المُزوَّرة ـ الزِّيادات الصَّارخة لطُفُولة السَّيِّد المسيح، علىٰ سبيل المثال ـ كانت مُحرجة ـ بلا شكٍّ ـ إلىٰ الأرثُذُوكسيَّة لاحقاً. وهي كذلك بالنِّسبة لأكثر المسيحيِّين اليوم. ولكنَّه يجب أنْ نتذكَّر بأنَّ كُتُبَ التَّوراة المُزوَّرة، مثل الكُتُب المقبولة للعهد الجديد، أُعِدَّتْ من قِبَل «أتباع الرِّسالة»، التي تهدف إلىٰ تأليه السَّيِّد المسيح. لذلك؛ لا يُمكن توقُّع أنَّ كُتُبَ التَّوراة المُزوَّرة تحتوي علىٰ أيِّ شيء قد يُعرِّض «الرِّسالة» لخَطَر جِدِّيٍّ، التي ـ بشكل ظاهر ـ لا تُورد أيَّ ذِكْر لنشاط السَّيِّد المسيح السِّياسي، ولدرجة أكبر لطُمُوحاته السُّلاليَّة المُحتملة. للدَّلالة علىٰ مثل هذه الأُمُور الجَدَليَّة، أُلْزِمْنَا للنَّظَر في مكان آخر.

الأرض المُقَدَّسَة في عهد السَّيِّد المسيح احتوت عدداً مُذهلاً من المجموعات، والفئات، والطَّوائف، والطَّوائف الثَّانويَّة اليهُوديَّة المُتنوِّعة.

في الإنجيل استُشهِدَ ـ فقط ـ باثنتَيْن منها، وهُما الفرِّيسيُّون، والصَّدُوقيُّون، وكلاهما صُوِّرا بدَورٍ وَغْد. علىٰ أيَّة حال؛ دور الأنذال خُصِّص ـ فقط ـ للصَّدُوقيِّين، الذين تعاونوا مع الإدارة الرُّومانيَّة.

الفرِّيسيُّون حافظوا علىٰ مُعارضة مُخلصة ضدَّ رُومَا؛ والسَّيِّد المسيح بنفسه، إنْ لم يكن ـ في الحقيقة ـ فريسيَّاً، تصرَّف ـ جَوْهَريَّاً ـ ضمن التَّقاليد الفرِّيسيَّة[1].

لكي تكون مقبولة للجُمهُور المُرَوْمَن أُجْبِرَتْ كُتُبُ الإنجيل علىٰ تبرئة رُومَا، وتلطيخ صُورة اليهُود. هذا يُوضِّح لماذا كان يجب تشويه صُورة الفرِّيسيِّين، وأنْ يُلْحَقُوا ـ بتعمُّد ـ بمُواطنيهم الصَّدُوقيِّين، الذين يستحقُّون اللَّومَ حقيقة.

لكنْ؛ لماذا ليس هُناك إشارة في الإنجيل إلىٰ الزِّيلُوت ـ «مُقاتلو الحُرِّيَّة»، والثَّوريِّين القوميِّين الفدائيِّين، الذين كان الجُمهُور الرُّوماني مُتلهِّفاً جدَّاً لكي يراهم بصُورة الأوغاد، إنْ لم يكن شيئاً آخر؟!

---

(1) (في كتاب «الثَّورة في اليهُوديَّة» يضيف المُؤلِّف ماكوبي بأنَّ تصوير السَّيِّد المسيح كمُعادٍ للفرِّيسيَّة هُو ـ رُبَّما ـ جُزء من مُحاولة إظهاره كثَائر ضدَّ الدِّين اليهُودي، بدلاً من كونه ثائراً ضدَّ رُومَا. المُؤلِّفون).

يبدو أنّه ليس هُناك أيٌّ تفسير لاستئصالهم الظّاهر من الإنجيل، إلّا إنْ كان السَّيِّد المسيح مُرتبطاً مُباشرة بهذه الجمعيَّة، لدرجة أنَّها لا تستطيع ـ رُبَّما ـ إنكاره، الإنجيل الذي تحدَّث عنهم بإيجاز، وبالتَّالي؛ أَخفَاهُم. كما يُناقش الأُستاذ براندُون،«صَمْتَ كُتُبُ الإنجيل علىٰ الزَّيلُوت... بالتَّأكيد؛ يجب أنْ يكون مُؤشِّراً علىٰ علاقة بين السَّيِّد المسيح وهؤلاء الوَطَنيِّين، الذين سجلَّات الإنجيل فضَّلتْ أنْ لا يتمّ كَشْفُهُم».

أيّاً كان ارتباط السَّيِّد المسيح المُحتمَل مع الزَّيلُوت، ليس هُناك شَكٌّ بأنَّه صُلِبَ كواحد منهم.

في الحقيقة؛ الرَّجلان المزعومان اللَّذان صُلِبَا معه يُوصفان ـ بشكل واضح ـ بـ«Lestai»؛ وهُو اللَّقَبُ الذي عُرِفَ به الزَّيلُوت بالنِّسبة للرُّومان.

من المُريب أنَّ السَّيِّدَ المسيحَ بنفسه كان من الزَّيلُوت. علىٰ الرّغم من هذا، يُوصَف ـ في لحظات شاذَّة في الإنجيل ـ بأنَّه عَسْكَرِيٌّ عُدواني مُقارنٌ جدَّاً لهم. في العبارة المشهورة بشكل غير مُلائم، يُعلن بأنَّه جاء «لا ليجلب السَّلام، بل السَّيف». في إنجيل لُوقَا؛ يأمر أتباعه ـ الذين لا يمتلكون سيفاً ـ بشراء واحد (لُوقَا 22: 36)؛ وبنفسه ـ بعد ذلك ـ يتأكَّد، ويتفقَّد، بأنَّهم مُسلَّحون بعد وجبة عيد الفصح (لُوقَا 22: 38). في الإنجيل الرَّابع؛ سَمْعَان بُطرُس ـ في الحقيقة ـ كان يحمل سيفاً عندما تمَّ اعتقال السَّيِّد المسيح. من الصَّعب مُقارنة مثل هذه الإشارات مع الصُّورة التَّقليديَّة للمُنقِذ السِّلْمي المُعتدل.

هل مُنقِذٌ كهذا كان يُقِرُّ حَمْلَ الأسلحة، وخُصُوصاً لأحد أتباعه المُفضَّلين، ذلك الشَّخص الذي يُزعَم أنَّه أسَّس كَنِيسَته به؟!

إنْ لم يكن السَّيِّد المسيح بنفسه من الزَّيلُوت، كُتُب الإنجيل ـ علىٰ ما يبدو رغماً عنها ـ تُخوِّنُه، وتجعله علىٰ صلة بتلك الفئة الفدائيَّة.

هُناك دليل مُقنع لرَبْط بَارَابَاس بالسَّيِّد المسيح؛ وبَارَابَاس كان يُوصَف ـ أيضاً ـ بـ«Lestai»، جيمس، يُوحنَّا، وسَمْعَان بُطرُس، كُلُّهم لديهم ألقاب قد تُلمِّح ـ بشكل غير مُباشر ـ لتعاطفهم مع الزَّيلُوت، هذا؛ إنْ لم يكن ارتباطاً مع الزَّيلُوت.

طبقاً للرِّوايات الحديثة؛ اسم يهُوذا الأسخريوطي مُشتقٌّ من يهُوذا الـ«Sicarii»، و«Sicarii» كان تعبيراً آخر يدلُّ علىٰ الزَّيلُوت، بديل لـ«lestai».

في الحقيقة؛ يبدو أنَّ لَقَبَ «Sicarii» كان يدلُّ علىٰ النُّخبة ضمن صُفُوف الزَّيلُوت، كادرٌ مُتفوِّق من المُنفِّذين المُحترفين لعمليَّات الاغتيال.

أخيراً؛ هُناك التَّابع المعروف بسَمْعَان. في النُّسخة اليُونانيَّة لَمرْقُس، سَمْعَان يُدعَىٰ «Kananaios»؛ وهي تَفْحَرَة[1] يُونانيَّة للكلمة الآراميَّة الدَّالَّة علىٰ الزَّيلُوت.

في إنجيل الملك جيمس[2]، أُسيء ترجمة الكلمة اليُونانيَّة، واسم سَمْعَان ظهر كسَمْعَان الـ«Canaanite» (الكَنعاني)، لكنَّ إنجيل لُوقَا لم يترك أيَّ مجال للشَّكّ. سَمْعَان مُيِّز ـ بشكل واضح ـ كـ«زيلوتي»، وحتَّىٰ إنجيل الملك جيمس أَوْرَدَهُ كـ«سَمْعَان الزَّيلُوتي». وهكذا يبدو من المُؤكَّد جدًّاً أنَّ السَّيِّد المسيح عُدَّ ـ علىٰ الأقلّ ـ واحداً من أتباع الزَّيلُوت.

إنْ كان غياب ـ أو بالأحرىٰ الغياب الظَّاهري ـ للزَّيلوت من الإنجيل هُو أمر مُذهل، فإنَّه لمن المُذهل ـ أيضاً ـ غياب الأسنيِّين. في الأرض المُقَدَّسَة في زمن السَّيِّد المسيح، شكَّل الأسنيُّون طائفةً مُهمَّة كالفرِّيسيِّين، والصَّدُوقيِّين، ومن غير الوارد أنَّ السَّيِّد المسيح لم يكن مُتَّصلاً معهم.

في الحقيقة؛ من الرِّواية المُقدَّمة منه، يحيىٰ المَعْمَدَان يبدو بأنَّه كان من الأسنيِّين. حَذْفُ كُلِّ الإشارات إلىٰ الأسنيِّين؛ يبدو بأنَّه فُرِضَ بنَفْس الاعتبارات، التي فَرَضَت الحَذْفَ الكُلِّيَّ للإشارات الدَّالَّة علىٰ الزَّيلُوت.

باختصار؛ ارتباطات السَّيِّد المسيح مع الأسنيِّين، مثل ارتباطاته مع الزَّيلُوت، كانت مشهورة ووثيقة جدًّاً، لدرجة لا يُمكن إنكارها. يُمكن أنَّها ـ فقط ـ بُرِّرَتْ، وأُخْفِيَتْ.

من المُؤرِّخين، ومن الكتابات التأريخيَّة في ذلك الوقت، يُعرَف بأنَّ الأسنيِّين كان لديهم جاليات في كافَّة أنحاء الأرض المُقَدَّسَة، ومن المُحتمل تماماً، في أماكن أُخرىٰ أيضاً. بدءوا بالظُّهُور حوالي عام **150** قبل الميلاد، وهُم استعملوا العهد القديم، ولكنّ تفسيرهم له لم يكن إلَّا مُجرَّد حكاية بعيدة كُلِّيَّاً عن الحقيقة التَّاريخيَّة.

---

(1) (تَفْحِر: ينقل حُرُوف لُغَة إلىٰ حُرُوف لُغَة أُخرىٰ؛ يكتب لُغَة بحُرُوف لُغَة أُخرىٰ. المُترجم).

(2) (في عام 1604، الملك جيمس الأوَّل كُلِّف بتنقيح جديد للتَّوراة الإنجليزيَّة؛ أُكْمِلَ العمل عام 1611. المُترجم).

أنكروا اليهُوديَّة التَّقليديَّة المُؤيِّدة للثنويَّة الغنُوسطيَّة؛ التي يبدو أنَّها دَمَجَتْ عناصر عبادة الشَّمس مع الفِكْر الفيثاغُورثي. مارسوا الشِّفاء، واشتُهروا بخبرتهم في التقنيَّات العلاجيَّة. كانوا زاهدين بصرامة، ويُمكن تمييزهم بسُهُولة لزيّهم الأبيض البسيط.

أكثر الرِّوايات الحديثة عن مَخْطُوطَات البَحْر الميِّتالمشهورة، التي وُجِدَتْ في قمران تعتقد بأنَّ تلك المَخْطُوطَات كانت ـ بشكل جَوْهَري ـ وثائق للأسنيِّين. وليس هُناك مجال للشَّكّ بأنَّ طائفة من الطَّوائف ـ التي كانت تعيش في قمران ـ كانت تُشبه كثيراً فِكْر الأسنيِّين. كما هُو الحال بالنِّسبة للأسنيِّين؛ مَخْطُوطَات البَحْر الميِّتتعكس عِلْماً لاهوتيَّاً ثَنويَّاً. في الوقت نفسه؛ هي تُشدِّد علىٰ مجيء مسيح مُنتظَر ـ «الشَّخص الممسوح» ـ الذي تحدَّر من سُلالة داود. يلتزمون ـ أيضاً ـ بتقويم خاصّ بهم؛ حيثُ إنَّهم يحتفلون بعيد الفصح اليهُودي، ليس في يوم الجُمعة، بل في يوم الأربعاء؛ الذي يُوافق عيد الفصح اليهُودي في الإنجيل الرَّابع. وفي عدد من النَّواحي الهامَّة، تتوافق ـ بشكل حَرْفي تقريباً ـ مع بعض تعاليم السَّيِّد المسيح. علىٰ أقلّ تقدير؛ يظهر بأنَّ السَّيِّد المسيح كان مُدركاً لجالية قمران، علىٰ أيَّة حال؛ يبدو أنَّه جعل تعاليمه الخاصَّة مُتَّفقة مع تعاليمهم.

أحد الخُبراء الحديثين في مَخْطُوطَات البَحْر الميِّت يعتقد بأنَّها «تُعطي أساساً إضافيَّاً للاعتقاد بأنَّ العديد من الحوادث في العهد الجديد هي مُجرَّد تخمينات، وُضِعَتْ في تاريخ عيسىٰ، ممَّا هُو مُتوقَّع للمسيح المُنتظَر».

سواء كانت طائفة قمران تقنيَّاً من الأسنيِّين أم لا، يبدو من الواضح بأنَّ السَّيِّد المسيح ـ حتَّىٰ إنء هُو لم يُمارس تدريباً رَسْميَّاً لِفكْر الأسنيِّين ـ كان مُثقَّفاً جدَّاً في فِكْر الأسنيِّين.

في الحقيقة؛ العديد من تعاليمه تُكرِّر تلك المنسوبة إلىٰ الأسنيِّين. وقُدرته علىٰ الشِّفاء تقترح بعض التَّأثُّر بفِكْر الأسنيِّين أيضاً. لكنَّ تمحيصاً أدقَّ للإنجيل يكشف بأنَّ الأسنيِّين برزوا ـ بشكل أكثر أهمِّيَّة ـ في مسيرة السَّيِّد المسيح.

الأسنيُّون كانوا مُميَّزين بسُهُولة بملابسهم البيضاء، والتي لم تكن شائعة في الأرض المُقدَّسة في ذلك الوقت، كما هُو مُعتقد عُمُوماً، علىٰ الرّغم من الرُّسُومات والأفلام.

في الإنجيل «السِّرِّيِّ» المحظور لمَرْقُس، تلعب العباءة الكُتَّانيَّة البيضاء دوراً هامّاً في طُقُوسهم؛ وتمَّ تكرار ذلك - لاحقاً - حتَّىٰ في النُّسخة المقبولة المسموح بها.

إنْ كان السَّيِّد المسيح يُدير مدرسةً سرِّيَّة في بيت عَنيا، أو في مكان آخر، فإنَّ العباءة الكُتَّانيَّة البيضاء تقترح - تماماً - بأنَّ هذه الطُّقُوس - لرُبَّما - هي من أسنيَّة بطبيعتها. الأكثر من ذلك، موضوع العباءة الكُتَّانيَّة البيضاء يُكرَّر لاحقاً في كُلِّ الكُتُب الأربعة للإنجيل.

بعد أنْ يختفي جَسَدُ السَّيِّد المسيح المصلوب «بشكل عجيب» من القَبْر، تبيَّن بأنَّ القَبْر كان يشغله - علىٰ الأقلِّ - شَخْصٌ واحدٌ مُلتفٌّ بالأبيض. في مَتَّىٰ؛ يُقال إنَّه ملاك، «منظره كالبرق، وثوبه أبيض كالثَّلج» (28: 3). في مَرْقُس؛ هُو «شابٌّ جالس عن اليمين، عليه ثوب أبيض» (16: 5)[1]. لُوقَا يذكر بأنَّه كان هُناك «وبينما هُنَّ في حَيْرَة؛ ظهر لهُنَّ رجلان، عليهما ثياب برَّاقة» (24: 4). بينما الإنجيل الرَّابع يتكلَّم عن «مَلاكَيْن في ثياب بيضاء» (20: 12). حتَّىٰ إنَّه في اثنتَيْن من هذه الرِّوايات؛ الشَّخص، أو الأشخاص الذين في القَبْر، لم يبدُ عليهما أيَّة منزلة خارقة. من المُفترض أنَّ هذه الشَّخصيَّات بشريَّة تماماً؛ ومع ذلك، هي مجهولة لأتباع السَّيِّد المسيح. من المعقول جدّاً افتراض أنَّهم من الأسنيِّيْن. ونَظَرَاً لكفاءة الأسنيِّيْن في الشِّفاء، مثل هذه الافتراض أصبح أكثر قُوَّة. إنْ كان - في الحقيقة - السَّيِّد المسيح - وهُو مايزال علىٰ الصَّليب - مايزال حيَّاً، فإنَّه من الواضح أنَّه بحاجة إلىٰ مُعالِج. حتَّىٰ وإنْ كان ميِّتاً، من المُحتمل وُجُود المُعالِج؛ لأنَّه - لرُبَّما - هُناك بصيص أمل في شفائه. وفي ذلك الوقت؛ لم يكن هُناك مُعالجون أكثر كفاءة في الأرض المُقَدَّسَة من الأسنيِّيْن.

طبقاً للسِّيناريو الذي وضعناه؛ تمَّ ترتيب صَلْبٍ وَهْمِيٍّ علىٰ أرض خاصَّة، بتواطؤ مع بيلاطُس، بواسطة مُؤيِّدين مُعيَّنين للسَّيِّد المسيح. بشكل أكثر تحديداً؛ التَّرتيبات الأساسيَّة - رُبَّما - لم تكن بواسطة «أتباع الرِّسالة»، بل بواسطة أتباع السُّلالة؛ بكلمة أُخرىٰ؛ العائلة الخاصَّة و/ أو الأرستقراطيُّون الآخرون، و/ أو أعضاء الحلقة الدَّاخليَّة. هؤلاء الأفراد - لرُبَّما - كان لديهم ارتباطات مع الأسنيِّيْن، أو - رُبَّما - كانوا بأنفسهم من الأسنيِّيْن.

(1) (العبارة الإنكليزيَّة تُشير إلىٰ أنَّه شابٌّ يرتدي ثوباً أبيض طويلاً، ولكنْ؛ ما هُو موجود في الإنجيل ذي النُّسخة العَرَبيَّة هُو ما قُمتُ بتدوينه. المُترجم).

علىٰ أيَّة حال؛ لم يكن من الواجب إباحة السِّرّ لـ«أتباع الرِّسالة»؛ «الجُنُود العاديِّيْن» من أتباع السَّيِّد المسيح؛ أمثال سَمْعَان بُطرُس.

في حَمْلِهِ إلىٰ قَبْر يُوسُف الرَّامي، رُبَّما كان السَّيِّد المسيح بحاجة إلىٰ رعاية طبِّيَّة، ولذلك ـ رُبَّما ـ كان المُعالِجُ الأسنيُّ موجوداً. وبعدئذ؛ عندما وُجِدَ القَبْر فارغاً، كان من الضَّروري وُجُود مبعوث للمرَّة الثَّانية؛ مبعوث مجهول من «الجُنُود العاديِّيْن» التَّابعين. هذا المبعوث كان عليه أنْ يُعيد التَّأكيد علىٰ «أتباع الرِّسالة»، الذين لم يشكُّوا بأيِّ شيء بأنْ يعملوا كَوُسطاء بين السَّيِّد المسيح وأتباعه؛ ولإنكار التُّهمة الخطيرة في سرقة، أو تدنيس، القَبْر من قِبَل الرُّومان، الذي ـ لرُبَّما ـ كان من شأنه أنْ يُثير اضطرابات مَدَنيَّة خطيرة.

سواء هذا السِّيناريو كان صحيحاً أم لا، بدا من الواضح جدَّاً لنا بأنَّ السَّيِّد المسيح مُرتبط بشكل مُباشر مع الأسنيِّيْن بنَفْس قَدْر ارتباطه مع الزَّيلُوت.

في بادئ الأمر؛ هذا قد يبدو غريباً جدَّاً؛ لأنَّه يُتخيَّل ـ غالباً ـ بأنَّ الزَّيلُوت والأسنيِّيْن كانوا غير مُتوافقين. الزَّيلُوت كانوا عنيفين، وعُدوانيِّيْن، وعَسْكَريِّيْن، ولا يكرهون عمليَّات الاغتيال، والإرهاب. الأسنيُّون ـ علىٰ النَّقيض من ذلك ـ يتمُّ تصويرهم بأنَّهم كانوا بعيدين كُلَّ البُعْد عن القضايا السِّياسيَّة، وكانوا مُتصوِّفين، وسِلْمِيِّيْن، ولطيفين.

في واقع الحال؛ الزَّيلُوت ضمُّوا العديدَ من الأسنيِّيْن إلىٰ صُفُوفهم؛ لأنَّ الزَّيلُوت لم يكونوا طائفة، بل فئة سياسيَّة. وكفئة سياسيَّة؛ حصلوا علىٰ الدَّعْم، ليس ـ فقط ـ من الفرِّيسيِّيْن المُعادين للرُّومان، بل من الأسنيِّيْن أيضاً، الذين كانوا قوميِّيْن جدَّاً، كغيرهم من الأشخاص.

إنَّ تعاون الزَّيلُوت والأسنيِّيْن كان واضحاً ـ بشكل خاصٍّ ـ في كتابات جُوزيفُوس، الذي منه اشتُقَّت مُعظم المعلومات المُتوفِّرة عن فلسطين، في ذلك الوقت. يُوسُف بن ماثياس وُلِدَ من طبقة من نُبلاء اليهُوديَّة عام 37 بعد الميلاد. وعند انتشار الثَّورة عام 66 بعد الميلاد؛ عُيِّن حاكماً للجليل؛ حيثُ يُفتَرَضُ أنَّه قاد القُوَّات المُحتشدَة ضدَّ الرُّومان. كقائد عَسْكَري يبدو أنَّه أثبت حماقته بشكل بارز، وتمَّ أَسْرُهُ فوراً من قِبَل الإمبراطُور الرُّوماني فَسْبازيان[1].

---

(1) (اسمه الكامل هُو تيتُوس فلافيُوس سابينُوس فَسْبازيان 9ـ79 م: إمبراطُور رُوماني 69ـ 79 م. أعاد للإمبراطُوريَّة استقرارها المادِّيَّ للشَّعب والحُكُومة عندما عاد عام 69 إلىٰ رُومَا بعد تعيينه كإمبراطُور لرُوما، تاركاً الحَرْب في اليهُوديَّة إلىٰ ابنه تيتُوس. المُترجم).

عقب ذلك؛ أصبح خائناً. آخذاً الاسم المُرَوْمَن فلافيُوس جُوزيفُوس، وأصبح مُواطناً رُومانيّاً، وطلَّق زوجته، وتزوَّج وريثة رُومانيَّة، وتقبَّل هداية مُسرفة من الإمبراطُور الرُّوماني؛ التي تضمَّنت شقَّة خاصَّة في القصر الإمبراطُوري، بالإضافة إلىٰ الأرض التي صادرها من اليهُود في الأرض المُقَدَّسَة. عند موته حوالي العام 100 بعد الميلاد، سجلَّاته التَّاريخيَّة الغزيرة عن تلك الفترة بدأت بالظُّهُور.

في كتاب «حَرْب اليهُوديَّة»؛ قدَّم جُوزيفُوس وَصْفاً تفصيليّاً للثَّورة بين عامَيْ 66 و 74 بعد الميلاد.

في الحقيقة؛ من جُوزيفُوس عَلِمَ المُؤرِّخون اللَّاحقون الكثيرَ حول ذلك التَّمرُّد الكَارثي، وعن نَهْب القُدْس، وعن تهْديم الهَيكَل. وعمل جُوزيفُوس يحتوي علىٰ الرِّواية الوحيدة ـ أيضاً ـ عن سُقُوط قلعة مَسْعَدَة عام 74 بعد الميلاد، التي تقع في الزَّاوية الجنوبيَّة الغربيَّة من البحر الميِّت.

مثل مُونتسغُور، بعد حوالي 112 سنة، مَسْعَدَة مثَّلتْ دور البُطُولة، والتَّماسُك، والاستشهاد، في الدِّفاع عن قضيَّة خاسرة. مثل مُونتسغُور واصلت مُقاومة المُحتلّ بشكل فعَّال، بعد فترة طويلة من توقُّف المُقاومة المُنظَّمة الأُخرَىٰ.

عندما انهارت بقيَّة أنحاء فلسطين تحت الهُجُوم الرُّوماني، استمرَّت مَسْعَدَة في كونها الحصن الحصين.

أخيراً، في عام 74 بعد الميلاد، أصبح موقف القلعة ضعيفاً؛ بعد القَصْف المُتواصل بآلات الحصار الثَّقيلة، الرُّومان نصبوا سلالم مُتحرِّكة، مَكَّنَتْهُم من خَرْق الدِّفاعات.

في ليلة 15 أبريل/ نيسان استعدُّوا لشنِّ هُجُوم شامل. وفي نَفْس تلك اللَّيلة، قام الرِّجال والنِّساء والأطفال البالغ عددهم 960 ضمن القلعة بانتحار جماعي. وعندما اندفع الرُّومان عبر الباب في الصباح التَّالي، لم يجدوا إلَّا الجُثَث وسط النِّيران.

جُوزيفُوس نفسه ـ برفقة القُوَّات الرُّومانيَّة التي دخلت مَسْعَدَة في صباح السَّادس عشر من أبريل/ نيسان ـ يدَّعي بأنَّ شهد المجزرة شَخصيّاً، ويدَّعي بأنَّه قابل ثلاثة من الذين نجوا من الكارثة؛ امرأة وطفلان، وقد اختفوا كما يُزعَم في القنوات التي تحت القلعة، بينما بقيَّة الحامية قتلوا أنفسهم.

من هؤلاء النَّاجين؛ يذكر جُوزيفُوس بأنَّه حصل علىٰ وَصْف تَفْصيلي لما حصل في اللَّيلة السَّابقة.

طبقاً لهذه الرِّواية؛ قائد الحامية كان رجلاً اسمه أليعازار، وهُو ـ بشكل يُثير الانتباه ـ مُشابه لاسم لِعازار. ويبدو بأنَّ أليعازار هُو الذي قاد ـ بفصاحته المُقنعة، والمُؤثِّرة ـ المُدافعين إلىٰ قرارهم المُريع. جُوزيفُوس يُعيد في كتاباته كلمات أليعازار، التي يدَّعي بأنَّه سمعها من النَّاجين. وهذه الخطابات هي هامَّة للغاية.

يذكر التَّاريخ بأنَّه تمَّ الدِّفاع عن مَسْعَدَة من قِبَل الزِّيلُوت الفدائيِّين. جُوزيفُوس بنفسه استعمل كلمتَيْ «الزِّيلُوت» و«Sicarii» بشكل مُتبادل. ومع ذلك؛ حتَّىٰ خطابات أليعازار لم تكن يهُوديَّة بشكل تقليدي. بالعكس؛ كانت ـ بشكل واضح ـ أسنيَّة، وغنُوسطيَّة، وثَنويَّة:

مُنْذُ أنْ بدأ الإنسان البدائي بالتَّفكير، كلمات أسلافنا، والآلهة، مدعومة بأعمال ورُوح أسلافنا، أكَّدت علينا ـ بشكل دائم ـ أنَّ الحياة هي الكَارثة بالنِّسبة للإنسان، وليس الموت. الموتُ يمنحُ الحُرِّيَّةَ لأرواحنا، ويتركها تُغادر إلىٰ مأواها النَّقيِّ؛ حيثُ لن تعرفَ أيَّ شيء عن الكَوارث؛ ولكنْ؛ عندما تكون محصُورة ضمن جَسَد بشري هالك، وتُشاركه تعاسته، فإنَّها ميِّتة بالحقيقة المُطلقة.

إنَّ رَبْطَ الآلهة بالبَشَر هُو أمر غير مُلائم تماماً. بالتَّأكيد؛ الرُّوح يُمكنها أنْ تقوم بالكثير من الأشياء الهامَّة، حتَّىٰ وإنْ كانت مسجونة في الجسم: إنَّها تجعل الجسمَ عُضوَها الخاصَّ بالأعمال الحسِّيَّة، تُحرِّكه بخفاء، وتدفعه ليقوم بأعمال أبعد ممَّا يُمكن للطَّبيعة البشريَّة أنْ تُدركه.

ولكنْ؛ عندما يتمُّ تخليصها من الثِّقَل الذي يشدُّها إلىٰ الأرض، فإنَّ الرُّوح ستعود إلىٰ مكانها الخاصِّ، وبعد ذلك ـ في الحقيقة ـ ستحظىٰ بالقُدرات المُباركة، والقُوَّة اللَّامحدُودة، وتبقىٰ مَخْفيَّة في نَظَر البشريَّة كما هُو الله بنفسه.

وحتَّىٰ إنْ كانت في الجَسَد لا يُمكن رُؤيتها؛ تدخل بشكل مَخْفي، وتُغادر بشكل غير مَرئي، مُمتلكة لنفسها الطَّبيعةَ الخالدةَ، لكنَّها تقوم ـ فقط ـ بتغيير الجَسَد؛ وكُلُّ ما تمسُّه الرُّوح يحيا، ويتفتَّح، وكُلُّ ما تهجره، يموت، ويذبل: إنَّها تمتلك الكثيرَ والوفيرَ من الخُلُود.

ومرَّة ثانية:

هُناك رجال ذوو الشَّجاعة الحقيقيَّة، الذين يعدُّون أنَّ هذه الحياة هي نوع من الخدمة، التي يجب أنْ نُعيدها إلىٰ الطَّبيعة، الذين، بخُصُوص هذه الحياة ـ كنوع من خدمة ـ نحنُ يجب أنْ نُعيد إلىٰ الطَّبيعة، يتحمَّلونها ببُغض، ويُسارعون لتحرير أرواحهم من أجسادهم؛ وعلىٰ الرّغم من أنَّ المحن لا تدفعها، ولا تُبعدها، رغبة الحياة الخالدة تحثُّهم علىٰ إعلام أصدقائهم بأنَّهم سيُغادرون.

إنَّه لمن الغريب جدَّاً أنَّه ليس هُناك أيُّ عالم علىٰ الإطلاق ـ علىٰ حَدِّ عِلْمِنَا ـ قام بأيِّ تعليق علىٰ هذه الخطابات من قبلُ؛ لأنَّها تطرح العديد من الأسئلة المُثيرة. علىٰ سبيل المثال، اليهُوديَّة الأرثُذُوكسيَّة لم تتحدَّث مُطلقاً في أيَّة نُقطة منها عن «الرُّوح»، وبشكل أقلّ؛ تحدُّثها عن الطَّبيعة «الخالدة»، أو «الدَّائمة»، لتلك الرُّوح.

في الحقيقة؛ المفاهيم ذاتها التي تتحدَّث عن الرُّوح، والخُلُود، هي غريبة علىٰ الاتِّجاه العامِّ للتَّقليد وللفِكْر اليهُودي. وكذلك ـ أيضاً ـ سيادة الرُّوح علىٰ المادَّة، والاتِّحاد مع الله في الموت، ووسم الحياة بأنَّها شرٌّ. هذه المواقف هي ـ بشكل صريح تماماً ـ مُشتقَّة من تقليد باطني. هي ـ بوُضُوح ـ غنُوسطيَّة وثَنويَّة، وضمن سياق أحداث مَسْعَدَة، فهي ـ علىٰ نحو مُمَيَّز ـ أسنيَّة.

بالطَّبع؛ بعض من هذه المواقف ـ لرُبَّما ـ تُوصَف ـ بطريقة ما ـ بأنَّها «مسيحيَّة» أيضاً. ليس بالضَّرورة وُفقاً للمعنىٰ الذي أصبحت عليه تلك الكلمة فيما بعدُ، بل لأنَّها ـ رُبَّما ـ كانت سمة لأتباع السَّيِّد المسيح الأصليِّيْن؛ أُولئك ـ علىٰ سبيل المثال ـ الذين تمنَّوا الانضمام إلىٰ لِعازار، في الموت، في الإنجيل الرَّابع. من المُحتمل أنَّ المُدافعين عن مَسْعَدَة كان من بينهم بعض أتباع سُلالة السَّيِّد المسيح.

أثناء الثَّورة بين عامَيْ 66 و 74 بعد الميلاد، كان هُناك العديد من «المسيحيِّيْن» الذين قاتلوا ضدَّ الرُّومان بالشِّدَّة نفسها التي قام بها اليهُود.

في الحقيقة؛ العديد من الزَّيلُوت كانوا ـ كما هي التَّسمية اليوم ـ من «المسيحيِّيْن الأوائل»، ومن المُحتمل جدَّاً أنَّه كان هُناك البعض منهم في مَسْعَدَة.

جُوزيفُوس ـ بالطَّبع ـ لا يقترح أيَّ شيء من هذا النَّوع؛ حتَّىٰ لو أنَّه قام بذلك مرَّة، فإنَّه سيتمُّ استئصالها وحَذْفها من قِبَل المُحرِّرين اللَّاحقين. في الوقت ذاته؛ لابُدَّ أنَّ المرء يتوقَّع أنْ يقوم جُوزيفُوس ـ الذي يكتب عن تاريخ فلسطين أثناء القرن الأوَّل ـ بالإشارة ـ نوعاً ما ـ إلىٰ السَّيِّد المسيح. صحيح أنَّ العديد من الطَّبعات التَّالية لعمل جُوزيفُوس تحتوي مثل هذه الإشارات؛ لكنَّ هذه الإشارات تتوافق مع السَّيِّد المسيح في الأرثُذُوكسيَّة المُؤسَّسة، وأكثر العُلماء الحديثين يرفضونها؛ علىٰ أنَّها إضافات مُزوَّرة، يعود تاريخها إلىٰ وقت لا يسبق عهد قسطنطين.

في القرن التَّاسع عشر ـ علىٰ أيَّة حال ـ طبعة جُوزيفُوس ـ التي اكتُشِفَتْ في رُوسيا ـ اختلفت ـ تماماً ـ عن كُلِّ الطَّبعات الأُخرَىٰ. النَّصُّ بنفسه، الذي تُرْجِمَ إلىٰ اللُّغة الرُّوسيَّة القديمة، يعود تاريخه إلىٰ عام **1261** تقريباً. الرَّجل الذي ترجمه ـ بشكل واضح ـ لم يكن يهُوديَّاً أرثُذُوكسيَّاً؛ لأنَّه أبقىٰ علىٰ بعض الإشارات التي تعود لفترة ما قبل المسيحيَّة. وعلىٰ الرّغم من أنَّ يسوع تمَّ وَصْفُهُ في هذه النُّسخة لجُوزيفُوس بأنَّه إنسان ثوري، وسياسي، وبأنَّه «الملك الذي لم يحكم»، إلَّا أنَّه يُقال بأنَّه كان ـ أيضاً ـ يمتلك «خطَّاً في مُنتصف رأسه، كما هُو الحال بالنِّسبة بطريقة عمل المنذورين[1].»

العُلماء استهلكوا الكثير من الورق والطَّاقة لمُعارضة الأصالة المُحتملة لما يُدعَىٰ ـ الآن ـ جُوزيفُوس السّلافُونيّ[2].

بعد اعتبار كُلِّ شيء، اقتنعنا بأنَّها ـ تقريباً ـ أصيلة؛ نُسخة من نُسخة، أو من نُسخ جُوزيفُوس، التي نجت من دمار الوثائق المسيحيَّة من قِبَل ديُوقليتانُس، وتملَّصت من الحماس التَّحريري، والتَّعديلي للأرثُذُوكسيَّة الجديدة في عهد قسطنطين.

كان هُناك عدد من الأسباب المُقنعة لنتيجتنا هذه. إنْ كانت النُّسخة المُسمَّاة بـ«جُوزيفُوس السّلافُونيّ» مُزيَّفة مثلاً، فما المصالح التي كانت تخدمها؟! وَصْفُهَا للسَّيِّد المسيح كَمَلك هُو من غير المُحتمل أنْ لا يكون مقبولاً لجُمهُور القرن الثَّالث عشر اليهُودي. وتصويرها للسَّيِّد المسيح كإنسان

(1) (Nazireans): المنذور: اليهُودي من العُهُود التَّوراتيَّة، نُذر لله، فلا يحلُّ له أنْ يُعاقر الخمر، أو يحلق شَعْرَهُ، أو يمسَّ جُثَّة. المُترجم).

(2) (السّلافُونيّ: أحد أبناء سلافُونيا، وهي مُقاطعة في شمالي يُوغُوسلافيا. المُترجم).

من غير المُحتمل أنّه أسعد مسيحيّة القرن الثَّالث عشر. والأكثر من ذلك، أُوريجن[1] أحد آباء الكَنيسَة، ومن كُتّاب أوائل القرن الثَّالث، يُلمِّح إلىٰ نُسخة جُوزيفُوس، التي تُنكر أنَّ عيسىٰ اليسوع هُو المسيح المُنتظَر. هذه النُّسخة ـ التي كانت مرَّة هي النُّسخة «القياسيَّة»، والأصيلة، والمُؤكَّدة ـ من المُمكن جدّاً أنّها زوَّدت النَّصَّ لنُسخة جُوزيفُوس السّلافُونيّ.

الكتابات الغنُوسطيَّة

عقب الثَّورة بين عامَيْ 66 و 74 بعد الميلاد؛ كان هُناك تمرُّد رئيسٌ ثانٍ بعد حوالي ستِّيْن سنة، بين عامَيْ 132 و 135.

كنتيجة لهذا الاضطراب الجديد؛ كُلُّ اليهُود طُرِدُوا ـ رَسْميّاً ـ من القُدْس، التي أصبحت مدينة رُومانيَّة. ولكنْ؛ من فترة مُبَكِّرة تعود حتَّىٰ فترة الثَّورة الأُولىٰ، التَّاريخُ طَمَسَ الأحداثَ في الأرض المُقَدَّسة، وعَمَليّاً؛ ليس هُناك سجلّات لقرنَيْن آخرَيْن من الزَّمن.

في الحقيقة؛ الفترة لا تختلف ـ في بعض النُّقاط ـ عن الفترة الأُورُوبيَّة التي تُسمَّىٰ بالعُصُور المُظلمة. علىٰ الرّغم من هذا؛ من المعروف بأنَّ الكثير من اليهُود بقوا في البلاد، حتَّىٰ وإنْ كان خارج القُدْس. وكذلك فَعَلَ عددٌ من المسيحيِّيْن. وحتَّىٰ إنَّه كان هُناك طائفة من اليهُود مُسمّاة «Ebionites» (الفُقراء)[2]، والتي علىٰ الرّغم من التزامها ـ عُمُوماً ـ بإيمانها، إلّا أنّها ـ في الوقت نفسه ـ كانت تُوقِّر السَّيِّدَ المسيحَ كَنَبيٍّ ـ لكنَّه بشريّ.

علىٰ الرّغم من هذا، الرُّوح الحقيقيَّة لليهُوديَّة وللمسيحيَّة كلتَيْهما ابتعدتا عن الأرض المُقَدَّسَة. أغلبيَّة سُكّان فلسطين اليهُود تفرَّقوا في شتات، بالطَّريقة نفسها التي حَدَثَتْ قبل حوالي سبعمئة سنة، عندما سَقَطَت القُدْس في أيدي البابليِّيْن. والمسيحيَّة ـ بطُرُق مُماثلة ـ بدأت بالهجرة عبر الكُرة الأرضيَّة؛ إلىٰ آسيا الصُّغرَىٰ، وإلىٰ اليُونان، وإلىٰ رُومَا، وإلىٰ بلاد الغال، وإلىٰ بريطانيا، وإلىٰ شمال

(1) (أُوريجن: كاتب مسيحي مشهور، ومُعلِّم، وعالم ديني، في العصر القديم. المُترجم).

(2) (الكلمة بأصلها اليهُودي هي «ebyon»، والتي تعني الفقير، ورُبَّما هُناك ترجمات أُخرىٰ مثل «الإيبيُونيّيْن»، ولكنْ؛ كما ترون أنَّ التَّرجمة الأمثل هي «الفُقراء». جماعة الفُقراء هُم مجموعة مسيحيَّة قديمة، رَفَضَتْ تعليمات القدِّيس بُولُوس، وأكَّدت الجُذُورَ اليهُوديَّة للمسيحيَّة. المُترجم).

أفريقيا. لا يدعو للاستغراب أنَّ تقارير مُتضاربة عن أحداث حصلت في عام 33 م، أو حوالي تلك الفترة، بدأت بالظُّهُور في جميع أنحاء العالم المُتحضِّر. وعلىٰ الرّغم من جُهُود كليمنت الإسكندراني، وآيرينيُوس، وقريبهما، هذه الرِّوايات ـ التي تُعَدُّ رَسْمِيّاً «بِدَع» ـ واصلت الازدهار. البعض منها اشتُقَّ ـ بلا شكٍّ ـ من نوع من المعرفة المُباشرة، التي احتُفِظَ بها من قِبَل اليهُود المُخلصين، ومن مجموعات كمجموعة «الفُقراء»، الذين هُم يهُود، تحوَّلوا إلىٰ شكل، أو آخر، من أشكال المسيحيَّة.

الرِّوايات الأُخرَىٰ كانت ـ بوُضُوح ـ مُستندة علىٰ الأُسطُورة، أو الإشاعة، أو دَمْج للمُعتقدات السَّائدة؛ كالتَّقاليد المصريَّة، والهِلِّينيَّة[1]، والمثريَّة[2]. مهما كانت مصادرها المُحَدَّدة، هي سبَّبت الكثير من الإزعاج إلىٰ «أتباع الرِّسالة»، وإلىٰ الالتحام والوحدة الأرثُذُوكسيَّة، التي كانت تسعىٰ لدَعْم منصبها.

المعلومات عن «البِدَع» القديمة هي ضئيلة. المعرفة الحديث عنها تُشتقُّ ـ بشكل كبير ـ من الهجمات، التي يشنُّها مُعارضوها، والتي ـ بشكل طبيعي ـ ستكون مُحرَّفة بصُورة تُشبه الصُّورة التي قد تُظهر المُقاومة الفرنسيَّة ـ علىٰ سبيل المثال ـ في وثائق الجستابُو.

علىٰ أيَّة حال؛ إجمالاً، يبدو أنَّ السَّيِّد المسيح ـ رُبَّما ـ كان يُنظَر إليه من قِبَل «الزَّنادقَة» الأوائل بإحدىٰ طريقتَيْن: للبعض هُو كان إلهاً تامّاً، وللبعض الآخر ـ إنْ وُجِدَ ـ كان بخواصّ بشريَّة. وبالنِّسبة لآخرين؛ كان نبيّاً بشريّاً، ولا يختلف ـ جَوْهَرِيّاً ـ عن بُوذا مثلاً، أو عن مُحمَّد، بعد نصف أَلْفِيَّة.

من بين المُبتدِّعين الأوائل الأكثر أهمِّيَّة كان فالانتينيُوس، وهُو مُواطن من الإسكندريَّة، والذي أمضىٰ الجُزء الأخير من حياته في رُومَا (136 ـ 65 م) في رُومَا.

في زمانه؛ كان فالانتينيُوس مُؤثِّراً جدّاً، كان يُعدُّ كهؤلاء الرِّجال أمثال بَطْلَمْيوس بين أتباعه. بادِّعائه أنَّه يمتلك مجموعة من «التَّعليمات السِّرِّيَّة» للسَّيِّد المسيح، رَفَضَ الإذعان للسُّلطة الرُّومانيَّة، مُصرِّحاً بأنَّ المعرفة الرُّوحيَّة الشَّخصيَّة لها الأَولويَّة علىٰ أيِّ سُلطة خارجيَّة. وبشكل مُتوقَّع بما فيه الكفاية؛ كان فالانتينيُوس وأتباعه من بين الأهداف الأكثر عُرضة للهُجُوم من غضب آيرينيُوس.

(1) (هِلِّيني؛ خاصّ بتاريخ الإغريق، أو ثقافتهم، أو فنِّهم بعد الإسكندر الكبير. المُترجم).
(2) (المُتعلِّقة بمِثرا إله النُّور، وحامي الحقيقة، وعدوّ قِوىٰ الظَّلام عند الفُرْس. المُترجم).

هدف آخر مُماثِل كان مارشن، وهُو أُسقُف، وثريّ، وأحد أقطاب صناعة السُّفُن والشَّحن، والذي وصل إلىٰ رُومَا حوالي عام **140**، وطُرِدَ منها بعد أربع سنوات. مارشن وضع تمييزاً جَذْريّاً بين «القانون» و«الحُبّ»، الذي ارتبط بالعهد القديم والعهد الجديد علىٰ التَّوالي؛ البعض من هذه الأفكار المارشنيَّة ظهر بعد ألف سنة كاملة في أعمال مثل رُومانسيَّة «بِرلِسفُوز». مارشن كان الكاتب الأوَّل الذي جمع قائمة قانُونيَّة للكُتُب التَّوراتيَّة؛ والتي في حالته؛ استثنت كاملَ العهد القديم. في رَدٍّ مُباشر علىٰ مارشن؛ قام آيرينيُوس بجَمْع قائمته القانونيَّة، والتي زوَّدها بالأساس الذي يستند عليه التَّوراة كما نعرفه اليوم.

المُبتدع الرَّئيس الثَّالث في تلك الفترة ـ وفي عدَّة أشكال، هُو الأكثر فتنة ـ كان باسيليدس، العالِم الإسكندري، الذي كَتَبَ بين عامَيْ **120** و **130** م. باسيليدس كان مُلمّاً بالكُتُب المُقَدَّسة العبريَّة، وبالإنجيل المسيحي. وكان ـ أيضاً ـ حافلاً بالفِكْر المصري، والهيلِّيني. يُفترَض بأنَّه كَتَبَ ما لا يقلُّ عن أربعة وعشرون تعليقاً علىٰ الإنجيل.

طبقاً لآيرينيُوس؛ هُو ـ في الحقيقة ـ أعلن البِدَعَ الأكثر شناعة. ادَّعىٰ باسيليدس بأنَّ الصَّلْب كان عمليَّة احتيال، وأنَّ السَّيِّد المسيح لم يمتْ علىٰ الصَّليب، وأنَّ سَمْعَان من قُورينة[1] هُو الذي أخذ مكانه كبديل. إنَّ زَعْماً كهذا يبدو غريباً. ورغم ذلك؛ أثبت ذلك الزَّعْم أنَّه راسخٌ، ودائمٌ. حتَّىٰ أواخر القرن السَّابع؛ القُرآن أورد ـ بالضَّبط ـ الرَّأي نفسه ـ بأنَّ هُناك بديلاً أخذ مكان السَّيِّد المسيح علىٰ الصَّليب، تقليديّاً؛ هُو سَمْعَان من قُورينة[2]. والرَّأي نفسه أيَّده الكَاهن الذي منه استلمنا الرِّسالة الغامضة، التي ناقشناها في الفصل الأوَّل؛ الرِّسالة التي لَمَّحَتْ إلىٰ «بُرهان قَطْعي» عن وُجُود بديل.

إذا كان هُناك منطقة حيثُ تتحصَّن فيها البِدَعُ القديمة بأعلىٰ درجة، فإنَّها مصر، وبشكل أكثر تحديداً؛ الإسكندريَّة، المدينة الأكثر تعلُّماً وعالميَّةً في العالم بأسره آنذاك، وهي ثاني أكبر مدينة في الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة، ومُستودع لتشكيلة مُحيِّرة، ومُتنوِّعة، من المُعتقدات، والتَّعاليم، والتَّقاليد.

(1) (بلدة يُونانيَّة قديمة في ليبيا، أُسِّست حوالي عام 630 قبل الميلاد. بقايا تلك البلدة تقع علىٰ بُعْد حوالي 225 كيلومتر من بنغازي، في شمال شرق ليبيا. المُترجم).
(2) (القُرآن الكريم 4: 157. المُؤلِّفون).

في أعقاب الثَّورتَيْن في اليهُوديَّة، أثبتت مصر أنَّها الملجأ الأكثر سُهُولة للوُصُول للَّاجئين اليهُود والمسيحيِّين، وحُشُود كبيرة اجتمعت إلىٰ الإسكندريَّة. وهكذا؛ فإنَّه من غير المُفاجئ أنَّ مصر أنتجت الدَّليل الأكثر إقناعاً لدَعْم فَرَضيَّتنا. ذلك الدَّليل موجود في ما يُسمَّىٰ بالإنجيل الغنُوسطي، أو بدقَّة أكثر، لفائف نَجْع حمَّادي.

في ديسمبر/ كانون الأوَّل من عام **1945**، كان فلَّاح مصري يحفر في تُربة ناعمة، وخصبة، قُرب قرية نَجْع حمَّادي في مصر العُليا، ونبش جرَّة فخَّاريَّة حمراء. أثبت أنَّها تحتوي علىٰ **13** مَخطُوطَة؛ كُتُب، أو لفائف، من وَرَق البردي ـ مربوطة بالجلد. ونتيجة جهله لقيمة اكتشافه، استعمل الفلَّاح وعائلته البعض من المَخطُوطَات لإشعال نارهم.

في النِّهاية ـ علىٰ أيَّة حال ـ جذبت البقيَّة انتباهَ الخُبراء؛ وأحدها هُرِّب خارج مصر، وعُرض للبَيْع في السُّوق السَّوداء. جُزء من هذه المَخْطُوطَة، والذي اشترتْهُ مُؤسَّسة «سي. جي. جُونغ»، أثبت أنَّها تحتوي ما هُو مشهور ـ الآن ـ بإنجيل تُوما.

في هذه الأثناء؛ عمَّمَت الحُكُومة المصريَّة ما تبقَّىٰ من مجموعة نَجْع حمَّادي في عام **1952**. علىٰ أيَّة حال؛ فقط حتَّىٰ عام **1961**، تمَّ تجميع فريق دولي من الخُبراء لنَسْخ وترجمة المجموعة كاملة. في **1972**، ظهر المُجلَّد الأوَّل للطَّبعة الفُوتُوغرافيَّة. وفي **1977**، مجموعة اللَّفائف كاملة ظهرت بالتَّرجمة الإنجليزيَّة للمرَّة الأُولىٰ.

لفائف نَجْع حمَّادي هي مجموعة من النُّصُوص التَّوراتيَّة، وبشكل جَوْهَري؛ تتَّسم بالغنُوسطيَّة، ويعود تاريخها ـ كما يبدو ـ إلىٰ أواخر القرن الرَّابع، وأوائل القرن الخامس؛ أيْ مُنْذُ عام **400** م تقريباً. اللَّفائف هي نُسخ، والأصليَّة التي هي نُسِخَتْ منها، يعود تاريخها إلىٰ وقت أقدم بكثير. البعض منها ـ إنجيل تُوما، علىٰ سبيل المثال، وإنجيل الحقيقة، وإنجيل المصريِّيْن ـ تمَّ ذِكْرها من قِبَل آباء الكَنيسَة القديمين جدَّاً، مثل كليمنت الإسكندراني، وآيرينيُوس، وأُوريجن.

برهن العُلماء الحديثون بأنَّ البعض ـ إنْ لم يكن أغلب ـ النُّصُوص في اللَّفائف يعود تاريخها إلىٰ ما لا يزيد عن عام **150** م. وعلىٰ الأقلِّ؛ أحدها قد يتضمَّن المادَّة التي هي أقدم حتَّىٰ من الكُتُب الأربعة للإنجيل النَّموذجي للعهد الجديد.

بشكل كُلِّيٍّ؛ تُشكِّل مجموعة نَجْع حَمَّادي مُستودعاً ثميناً من الوثائق المسيحيَّة القديمة، البعض منها يمتلك ميثاقيَّة نظيرة لتلك التي في كُتُب الإنجيل. والأكثر من ذلك؛ البعض من هذه الوثائق يتمتَّع بدقَّة وصحَّة فريدة بذاتها؛ لأنَّه في المقام الأوَّل هي نَجَتْ من الرَّقابة، ومن التَّنقيح الأرثُذُوكسي الرُّومانيِّ اللَّاحق. في المقام الثَّاني؛ هي أُعِدَّت ـ أصلاً ـ للجُمهُور المصري، وليس الرُّوماني، وبالتَّالي؛ هي لم تُحرَّف، ولم تنحزْ إلىٰ الأُذن المُرَوْمَنَة.

أخيراً؛ هي ـ لرُبَّما ـ تستند علىٰ مصادر مُباشرة و/ أو شُهُود عيان ـ روايات شَفَهيَّة من قِبَل اليهُود، الذين هربوا من الأرض المُقَدَّسَة، علىٰ سبيل المثال، ورُبَّما أصدقاء شَخْصيِّيْن، أو شُركاء للسَّيِّد المسيح، الذين يُمكنهم أنْ يسردوا قصَّتهم بالإخلاص التَّاريخي، الذي لا يستطيع الإنجيل تحمُّله.

لا عجب أنَّ لفائف نَجْع حَمَّادي تحتوي عدداً لا بأس به من العبارات العدائيَّة للأرثُذُوكسيِّيْن، و«أتباع الرِّسالة». مثلاً؛ في إحدىٰ المَخطُوطَات غير المُؤرَّخة، الأُطرُوحة الثَّانية لـ«سيث العظيم»، تُصوِّر السَّيِّد المسيح ـ بالضَّبط، كما هُو مُصوَّر في بِدْعَة باسيليدس[1] ـ هارباً من موته علىٰ الصَّليب، باستعمال بديل بارع. في المُقتطف التَّالي؛ يتكلَّم السَّيِّد المسيح كالشَّخص الأوَّل:

أنا لم أستسلم إليهم كما خطَّطوا... وأنا لم أَمُتْ ـ في الحقيقة ـ فقط؛ بالشَّكْل، خشية أنْ يتمَّ تعريضي للخِزْي والعار بواسطتهم... بالنِّسبة لموتي؛ الذي ظنُّوا أنَّه حَدَثَ، فقد حَدَثَ لهم بخَطَئِهِم وغشية عُيُونهم، مُنْذُ أنْ دقُّوا المسامير علىٰ رَجُلِهِم ليقودُوه إلىٰ موتهم... كان رجل آخر، كان أبُوهم، الذي شرب المرارة والخَلَّ؛ هُو لم يكن أنا. ضربُوني بالقَصَبَة؛ وكان رجل آخر، سَمْعَان، الذي حمل الصَّليب علىٰ كَتِفه. لقد كان رجل آخر الذي وضعوا علىٰ رأسه تاج الأشواك... وأنا كُنتُ أسخر من جَهْلِهِم.

بتناسق مُقنع، بعض الأعمال الأُخرَىٰ في مجموعة نجْع حَمَّادي تشهد علىٰ عداء مُرٍّ، ومُستمرٍّ بين بُطرُس ومَرْيَم المَجْدَليَّة، العداء الذي يبدو بأنَّه عكس الانشقاق الدِّيني بين «أتباع الرِّسالة»، وأتباع السُّلالة.

(1) (عاش في القرن الثَّاني، كان مُعلِّماً في الإسكندريَّة، وهُو مَنْ أسَّس الطَّائفة التي تلتزم بالمذاهب الفَلْسَفيَّة الغنُوسطيَّة. المُترجم).

وهكذا؛ في إنجيل مَرْيَم، بُطرُس يخاطب مَرْيَم المَجْدَليَّة كالتَّالي: «أُختاه؛ نعلم بأنَّ المُنقِذَ أحبَّك أكثر من بقيَّة النِّساء. أَخْبِرِيْنَا كلماتِ المُنقِذ التي تتذكَّرينها، التي تعرفينها، لكنَّنا لا نعرفها». لاحقاً؛ يطلب بُطرُس ـ بسُخط ـ من الأتباع قائلاً: «هل يتكلَّم ـ حقّاً ـ بشكل سرِّيٍّ ـ مع امرأة، ولا يتكلَّم معنا عَلَانِيَّة؟! هل علينا جميعاً أنْ نلتفَّ، ونستمع إليها؟! هل فَضَّلَهَا علينا؟!». ولاحقاً؛ أحد الأتباع يجيب عن أسئلة بُطرُس قائلاً: «بالتَّأكيد؛ المُنقِذُ يعرفها بشكل جيِّد. لهذا أحبَّها أكثر منَّا».

في إنجيل فيليب؛ الأسباب لهذا العداء تبدو واضحة بما فيه الكفاية. هُناك ـ علىٰ سبيل المثال ـ تكرار للتَّأكيد علىٰ تصوير غُرفة عُرْس. طبقاً لإنجيل فيليب؛ «المسيح عمل كُلَّ شيء بسرٍّ، المَعمُوديَّة، والمَسْح بالزَّيت، والقُربان المُقَدَّس، والتَّخليص، والغُرفة العُرْسيَّة». صحيح أنَّ الغُرفة العُرْسيَّة ـ لرُبَّما ـ تبدو من النَّظْرَة الأُولىٰ أنَّها رَمْزيَّة، أو مجازيَّة، لكنَّ إنجيل فيليب أكثر وُضُوحاً: «كان هُناك ثلاثة يمشون ـ دائماً ـ مع المسيح؛ أُمُّه مَرْيَم، وأُختها، ومَرْيَم المَجْدَليَّة، التي كانت تُدعَىٰ رفيقته». طبقاً لأحد العُلماء؛ كلمة «رفيقة» تُفسَّر كـ«زوجة». هُناك ـ بالتَّأكيد ـ أُسُس للقيام بذلك؛ حيثُ إنَّ إنجيل فيليب يُوضِّح بشكل أكثر:

ورفيقة المُنقِذِ هي مَرْيَم المَجْدَليَّة. لكنَّ السَّيِّد المسيح أحبَّها أكثر من كُلِّ الأتباع، واعتاد أنْ يُقبِّلها ـ غالباً ـ علىٰ فمها. بقيَّة الأتباع كانوا مُهانين بذلك، وأبدوا رَفْضَهُم. قالوا له: «لماذا تُحِبُّها أكثر منَّا كُلّنا؟!» أجاب المُنقِذُ: «لماذا لا أُحِبُّكم كما أُحبُّها؟!».

يتوسَّع إنجيل فيليب في المسألة، فيقول: «لا تَخَفْ من الجَسَد، ولا تُحبّه. إنْ تَخَفْهُ، سيتفوَّق عليكَ. وإنْ تُحبّه، سيبتلعكَ، وَيَشْدَهكَ».

في موقع آخر؛ هذا الإسهاب يُفسَّر إلىٰ معاني ملموسة، «عظيم لُغز الزَّواج! لأنَّه بدُونه ما كان العالم موجوداً. يعتمد ـ الآن ـ وُجُود العالم علىٰ الرَّجل، ووُجُود الرَّجل علىٰ الزَّواج».

وفي نهاية إنجيل فيليب هُناك البيان التَّالي: «هُناك ابن الرَّجل، وهُناك ابن ابن الرَّجل. إنَّ المسيح ابن الرَّجل، وابن ابن الرَّجل هُو الذي خُلِقَ من خلال ابن الرَّجل».

14

سلالة «الكأس المقدَّسة»

علىٰ أساس لفائف نَجْع حَمَّادي وحدها؛ إمكانيَّة وُجُود سُلالة تحدَّرت ـ مُباشرة ـ من السَّيِّد المسيح كَسبت معقُوليَّة كبيرة بالنِّسبة لنا. بعض ممَّا يُسمَّىٰ بالإنجيل المعرفي تمتَّع بمصداقيَّة عظيمة كَكُتُب العهد الجديد.

كنتيجة؛ الأشياء التي تشهد عليها ـ بشكل واضح، أو بشكل ضمني ـ بديل علىٰ الصَّليب، ونزاع مُستمرّ بين بُطرُس ومَرْيَم المَجْدَليَّة، وزواج بين مَرْيَم المَجْدَليَّة والسَّيِّد المسيح، وولادة «ابن ابن الرَّجل» لا يُمكن أنْ تُرفَضَ رَفْضَاً قاطعاً، مها كانت جَدَليَّة. نحنُ كُنَّا نتعامل مع التَّاريخ، وليس عِلْم اللَّاهُوت. والتَّاريخ في وقت السَّيِّد المسيح لم يكن أقلَّ تعقيداً وتعدُّداً للأوجه، وتوجُّهاً لتطبيقات عَمَليَّة ممَّا هُو الحال اليوم.

العداء ـ في لفائف نَجْع حَمَّادي ـ بين بُطرُس ومَرْيَم المَجْدَليَّة شهدت ـ علىٰ ما يبدو، بالضَّبط ـ إلىٰ النِّزاع الذي افترضناهُ، النِّزاع بين «أتباع الرِّسالة»، وأتباع السُّلالة. لكنَّ الأوَّل هُو الذي ظهر مُنتصراً في النِّهاية؛ ليُشكِّل منهج الحضارة الغربيَّة. نَظَراً لاحتكارهم المُتزايد للتَّعلُّم، والاتِّصال، والتَّوثيق، لم يبقَ هُناك إلَّا أدلَّة قليلة لاقتراح أنَّ عائلة السَّيِّد المسيح كانت موجودة علىٰ الإطلاق. والأقلُّ من ذلك هُو الأدلَّة التي تقترح وُجُود صلة بين تلك العائلة وبين سُلالة الميرُوفيِّين.

ذلك لا يعني أنَّ «أتباع الرِّسالة» كان لديهم أشياء بطريقهم الخاصَّة كُلِّيَّاً. إنْ كان القرنان الأوَّلان من التَّاريخ المسيحي أُصِيبَا بالبِدَعِ المُتعذِّرة الكَبْت، فإنَّ القُرُون التي تلت كانت قد أُصِيبَتْ لدرجة أكبر من ذلك. بينما الأرثُذُوكسيَّة تدعم نفسها ـ بشكل لاهوتي ـ من قِبَل آيرينيوس، وبشكل سياسيٍّ من قِبَل قسطنطين ـ واصلت البِدَعُ الانتشارَ علىٰ مقياس لم يسبق له مثيل حتَّىٰ الآن.

مهما كان مقدار اختلافها في التَّفاصيل اللَّاهُوتيَّة، أغلب البِدَع الرَّئيسة اشتركت في بعض العوامل الحاسمة. مُعظمها كان ـ بشكل جَوْهَري ـ معرفيَّاً، أو غنُوسطيَّاً، يُؤثِّر، ويُنكر التَّسلسل

الهَرَميَّ للسُّلطة في رُومَا، ويُمجِّد سيادة التَّنوير الشَّخصي علىٰ الإيمان الأعمىٰ. مُعظمها كـان ـ أيـضاً، بطريقة، أو بأُخْرَىٰ ـ ثَنويَّاً، مُعتبراً الخيرَ والشَّرَّ بأنَّهما ـ لدرجة أقـلّ ـ كمـشاكل أخلاقيَّـة دُنيويَّـة منهـا كقضايا ذات أهمِّيَّة كَونيَّة في النِّهاية.

أخيراً، مُعظمها اتَّفق علىٰ أنَّ السَّيِّد المسيح بشريٌّ، وُلِدَ بعمليَّة حَمْل طبيعيَّة، نبيٌّ، رُبَّـما هُـو مُلهَـمٌ إلهيَّـاً، لكنَّه ليس إلهيَّاً جَوْهَريَّاً، وهُو الذي مات ـ قَطْعَاً ـ علىٰ الصَّليب، أو الذي لم يمتْ علىٰ الصَّليب مُطلقاً.

في تأكيدها علىٰ إنسانيَّة السَّيِّد المـسيح؛ العديـد مـن البِـدَعِ اعتمـدت عـلىٰ الـشَّهادة المهيبـة للقـدِّيس بُولُوس، الذي تكلَّم عنه قائلاً: «السَّيِّد المسيح ربُّنا، الذي خُلِقَ من بذرة داود طبقاً للجَسَد»(رُومة 1: 3)[1].

رُبَّما من بين البِدَعِ الأكثر شُهرَة، ولدرجة كبيرة، هي المانويَّة[2]، والتي هي ـ جَوْهَريَّاً ـ انشطار للمـسيحيَّة الغنُوسـطيَّة بتعقُّـد مُتـشابك مـع التَّقاليـد الزَّرادشـتيَّة القديمـة والتَّقاليـد المُتعلِّقـة بمِثرا[3]. أُسِّسَتْ من قِبَل شَخص يُدعَىٰ ماني، الذي وُلد قُرْب بغـداد عـام 214 م، في عائلـة مُرتبطـة بالبيت المَلَكي الفارسي. ماني في شبابه قُدِّم من قِبَل أبيه إلىٰ طائفة باطنيَّة غير مُحَدَّدة ـ من المُحتمـل أنَّهـا غنُوسطيَّة ـ والتي تُشدِّد علىٰ الزُّهْد، والتَّبتُّل، وتُمارس المَعمُوديَّة، وتلبس العباءات البيضاء.

حوالي عام 240 م، قام ماني بنَشْر تعاليمـه الخاصَّـة، وأُشـبِهَ بالـسَّيِّد المـسيح، كـان مـشهوراً بعلاجه الرُّوحي، وطَرْده الأرواحَ. أتباعه أعلنوه كَـ«السَّيِّد المسيح الجديد»، وحتَّىٰ إنَّهم آمنوا بولادتـه البتُوليَّة، والتي كانت حِكْرَاً للآلهة ـ فقط ـ آنذاك. كان معروفاً ـ كـذلك ـ بــ«المُنقِـذ»، و«الحـواريّ»، و«النُّور»، و«الرَّبّ»، و«مُحيي الموتىٰ»، و«المُرشد»، و«القائد». إنَّ التَّسميتَيْن الأخيرتَـيْن هُـما إيحائيَّتـان بشكل خاصٍّ، ويُمكن الاستعانة بهما بلَقَب «Nautonnier» (المُرشد)، وهُو اللَّقَب الرَّسْميّ المُفترَض أنَّه كان للسَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون.

---

(1) (هذه الترجمة كما وَرَدَتْ حَرْفيَّاً في النَّصّ الإنكليزيّ، أمَّا وُفقاً للإنجيل العَرَبيّ؛ فالتَّرجمة كالتَّالي: «في شأن ابنه الـذي في الجسد، جاء من نسل داود». (رُومة 1: 3). المُترجم).

(2) (المانَويّ: أحد أتباع ماني الفارسي (216؟ـ 276؟ ب. م)، التي دعت إلىٰ الإيمان بعقيدة ثَنويَّة، قِوامها الصِّراع بـين النُّور والظَّلام. المُترجم).

(3) (مِثرا: إله النُّور، وحامي الحقيقة، وعدوّ قِوىٰ الظَّلام عند الفُرْس. المُترجم).

طبقاً للمُؤرِّخين العَرَب التالين؛ ماني أنتج العديدَ من الكُتُب، التي ادَّعىٰ فيها كَشْفَ الأسرار، التي ذَكَرَهَا السَّيِّدُ المسيح، بدُون وُضُوح، وبشكل غير مُباشر. عدَّ أنَّ زَرادَشْت، وبُوذا، والسَّيِّد المسيح ـ هُم ـ أسلافه، وأعلن بأنَّه ـ مثلهم ـ حصل ـ جَوْهَريَّاً ـ علىٰ التَّنوير نفسه، من المصدر نفسه. تعليماته شملت ثُنائيَّة معرفيَّة، ارتبطت ـ بشدَّة ـ بصَرْح كُوزمُولوجيٍّ مهيب، ومُتقَن. النِّزاع العالميُّ بين النُّور والظَّلام يتخلَّل كُلَّ شيء؛ وساحة المعركة الأكثر أهمِّيَّة لهذَيْن المبدءَيْن المُتعارضَيْن هي الرُّوح الإنسانيَّة.

مثل الكَاثَار اللَّاحقين، ارتبط ماني ـ بشدَّة ـ بمذهب التَّقمُّص. مثل الكَاثَار أيضاً، أصرَّ علىٰ الطَّبقة المُطَّلعة «النُّخبة المُستنيرة». أشار إلىٰ السَّيِّد المسيح علىٰ أنَّه «ابن الأرملة»، عبارة خُصِّصَتْ ـ بعد ذلك ـ من قِبَل الماسُونيَّة. في الوقت نفسه؛ أعلن أنَّ السَّيِّد المسيح هُو بشر، أو أنَّه مُقدَّس ـ فقط ـ في الإحساس الرَّمْزي، أو المجازي، استناداً إلىٰ التَّنوير، هذا؛ إنْ كان مُقدَّساً علىٰ الإطلاق. وماني ـ مثل باسيليدس ـ زعم بأنَّ السَّيِّد المسيح لم يمتْ علىٰ الصَّليب، لكنْ؛ استبُدل ببديل.

في عام **276** م، بأمر من الملك، سُجِنَ ماني، وسُلِخَ جِلْدُهُ حتَّىٰ الموت، وضُرِبَ عُنقُهُ؛ ورُبَّما لمَنْع انبعاثه من جديد، وُضِعَ جَسَدُهُ المُشوَّه في مكان عامٍّ.

تعليماته ـ علىٰ أيَّة حال ـ اكتسبَت الزَّخم ـ فقط ـ لدىٰ استشهاده، ومن بين أتباعه التَّالين، علىٰ الأقلِّ لفترة من الوقت، كان القدِّيس أُوغسطين. بسُرعة استثنائيَّة؛ انتشرت المانويَّة في كافَّة أنحاء العالم المسيحي. علىٰ الرّغم من المساعي الشَّرسة لقَمْعِهَا، استطاعت البقاء، والتَّأثير علىٰ المُفكِّرين اللَّاحقين، والاستمرار حتَّىٰ الوقت الحاضر. في إسبانيا، وفي جنوب فرنسا، المدارس المانويَّة كانت نشيطة جدَّاً. في فترة الحملات الصَّليبيَّة؛ هذه المدارس شكَّلت اتِّصالاً مع الطَّوائف المانويَّة الأُخرَىٰ، في إيطاليا، وبلغاريا. يبدو من غير المُحتمل ـ الآن ـ أنَّ الكَاثَار كانوا الفَرْع البلغاري البُوغُومُولي. بالعكس؛ آخر بحث يقترح بأنَّ الكَاثَار نشؤوا عن مدارس المانويَّة، التي أُسِّسَتْ لمُدَّة طويلة في فرنسا.

في أيِّ حال من الأحوال؛ حملة البيجينيِّيْن الصَّليبيَّة كانت ـ جَوْهَريَّاً ـ حملة صليبيَّة ضدَّ المانويَّة؛ وعلىٰ الرّغم من الجُهُود الأكثر مُثابرة لرُوما، بقيت كلمة «مانويّ» جُزءاً مقبولاً في لُغتنا، ومُفرداتنا.

بالإضافة إلىٰ المانويَّة ـ بالطَّبع ـ كان هُناك بِدَعٌ أُخرىٰ عديدة. من بينها كُلِّها، كانت بِدْعَةُ «اينُس» (Anus)، التي شكَّلت التَّهديد الأكثر خُطُورة علىٰ المذهب المسيحي الأرثُذُوكسي أثناء السَّنوات الألف الأُولىٰ من تاريخه. اينُس كان قسِّيساً في الإسكندريَّة حوالي عام **318**، ومات عام **355**. نزاعه مع الأرثُذُوكسيَّة كان بسيطاً جدَّاً، واستند إلىٰ مُسلَّمة وحيدة؛ هي أنَّ السَّيِّد المسيح كان بشريَّاً بشكل كُلِّيٍّ، ولم يكن مُقدَّساً بأيِّ مفهوم، ولا حتَّىٰ بأيِّ شيء آخر، إلَّا أنَّه كان مُعلِّماً مُلهَماً. بافتراضه لوُجُود الله الواحد الأعلىٰ القدير ـ الله الذي لم يُجسَّد شَخْصيَّاً، ولم يُعانِ الإذلالَ والموتَ علىٰ يَدَيْ خَلْقِهِ ـ اينُس ضمَّن ـ عَمَليَّاً ـ المسيحيَّة في الإطار اليهُودي.

لرُبَّما لأنَّه قاطن في الإسكندريَّة، تأثَّر بالتَّعاليم اليهُوديَّة هُناك ـ تعاليم «الفُقراء» (Ebionites)، علىٰ سبيل المثال.

في الوقت نفسه، الإله الأعلىٰ للآريُوسيَّة[1] تمتَّع بقبول هائل في الغرب. بينما كانت المسيحيَّة تسعىٰ لاكتساب القُوَّة العِلْمَانِيَّة المُتزايدة، مثل هذا الإله أصبح جذَّاباً جدَّاً. الحُكَّام والمُلُوك يُمكن أنْ يتمثَّلوا بمثل هذا الإله بسُهُولة أكثر من تمثُّلهم بإله سلبي وديع، يستسلم بلا مُقاومة للاستشهاد، ويتجنَّب الاتِّصال بالعالم.

بالرّغم من أنَّ الآريُوسيَّة أُدِينَتْ في مجلس نيسيا عام **325**، كان قسطنطين ـ دائماً ـ مُتعاطفاً معها، وأصبح كذلك لدرجة أكبر في نهاية حياته. بعد موته، أصبح ابنه ووريثه قسطنطيُوس آريُوسيَّاً بلا خجل، وعُقِدَتْ تحته المجالسُ التي أَرْسَلَت زُعماء الكَنيسَة الأرثُذُوكسيِّين إلىٰ المَنْفَىٰ. عام **360**؛ الآريُوسيَّة أزاحت المسيحيَّة الرُّومانيَّة تقريباً.

وعلىٰ الرّغم من أنَّها أُدِينَتْ ثانية بشكل رَسْمي عام **381**، إلَّا أنَّها واصلت الازدهارَ، واكتساب الأتباع. عندما الميرُوفيُّون استملوا السُّلطة في القرن الخامس، كُلُّ الأُسقُفيَّة المسيحيَّة كانت ـ عَمَليَّاً ـ إمَّا آريُوسيَّة، أو شاغرة.

---

(1) (آريُوسيّ: منسوبٌ إلىٰ آريُوس، وهُو كَاهن إسكندريّ (ت عام 336 م) قال بأنَّ الابن (المسيح) غير مُساوٍ للآب (الله) في الجَوْهَر. المُترجم).

القُوطيُّون[1] كانوا من بين المُحبّين الأكثر حماساً للآريُوسيَّة، والذين كانوا قد تحوَّلوا إليها من الوَثَنيَّة أثناء القرن الرَّابع. السُّوفيُّون[2]، واللّمبارديُّون[3]، والألنيُّون[4]، والوَنْداليُّون[5]، والبُرغنديُّون «Burgundians»[6]، والقُوْطيُّون الشَّرقيُّون (Ostrogoths) كانوا كُلّهم آريُوسيِّيْن. وكذلك القُوطيُّون الغربيُّون، الذين عندما سَلَبُوا رُومَا عام **480**، استثنوا الكَنائس المسيحيَّة. إنْ كان الميرُوفيُّون الأوائل ـ قبل كلُوفيس ـ قد تقبَّلوا المسيحيَّة علىٰ الإطلاق، فرُبَّما هي المسيحيَّة الآريُوسيَّة لجيرانهم المُباشرين؛ القُوطيِّيْن الغربيِّيْن، والبُرغنديِّيْن.

تحت الرِّعاية القُوطيَّة الغربيَّة أصبحت الآريُوسيَّة الشَّكل المُهيمن علىٰ المسيحيَّة في إسبانيا، وبيرينه، وعلىٰ المنطقة التي هي ـ الآن ـ جنوب فرنسا.

إنْ كانت عائلة السَّيِّد المسيح قد وجدت ـ في الحقيقة ـ مأوىٰ لها في الغال، فإنَّ سادتها الكبار، في القرن الخامس، رُبَّما كانوا القُوطيِّيْن الغربيِّيْن الآريُوسيِّيْن.

تحت النِّظام الآريُوسي؛ ليس هُناك احتمال بأنْ تكون العائلة قد اضطُهِدَتْ. من المُحتمل جدَّاً ـ وإلىٰ حَدٍّ كبير ـ أنَّ تلك العائلة ـ لرُبَّما ـ تزاوجت مع طبقة النُّبلاء القُوطيِّيْن الغربيِّيْن قبل تزاوجها اللَّاحق مع الفرنكيِّيْن لإنتاج سُلالة الميرُوفيِّيْن. وتحت الرِّعاية والحماية القُوطيَّة الغربيَّة هي ـ رُبَّما ـ كانت آمنة ضدَّ كُلِّ التَّهديدات من رُومَا.

وهكذا؛ ليس من المُفاجئ جدَّاً وُجُود بعض الأسماء السَّاميَّة بين العائلات الأرستقراطيَّة والمالكة القُوطيَّة الغربيَّة، اسم «بيرا» مثلاً.

---

(1) (القُوطيّ: واحد القُوطيِّيْن، وهُم شعب جرْمانيّ، اجتاح الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة في القُرُون الأُولىٰ للميلاد. المُترجم).
(2) (سُوفي؛ Suevi: اسم جماعي لعدد من القبائل الألمانيَّة. المُترجم).
(3) (اللمبارديّ: واحد اللّمبارديِّيْن، وهُم شعب تيُوتُوني، غزا إيطالية عام 568 بعد الميلاد. المُترجم).
(4) (Alans، قبيلة بدويَّة ناطقة بالإيرانيَّة من العالم القديم، ظهروا لأوَّل مرَّة في التَّاريخ في شمال بحر قزوين؛ أثناء القرن الثَّاني والثَّالث والرَّابع، هاجروا غرباً إلىٰ الأقاليم الشَّرقيَّة للإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة. المُترجم).
(5) (الوَنْداليّ: أحد أفراد قبيلة جرْمانيَّة، اجتاحت فرنسة، وإسبانية، وشمالي إفريقية في القرن الخامس الميلادي، وفي عام 455 ب.م. احتلَّت رُوما، وَنَهَبَتْهَا. المُترجم).
(6) (قبيلة جرْمانيَّة، الاسم مُشتقٌّ من بُرغنديا بفرنسة. المُترجم).

داغُوبرت الذي تزوَّج من الأميرة القُوطيَّة الغربيَّة التي كان اسم أبوها هُو بيرا. الاسم بيرا يتكرَّر ـ مراراً، وتكراراً ـ في شجرة النَّسَب القُوطيَّة الغربيَّة ـ الميرُوفيَّة، التي تحدَّرت من داغُوبرت الثَّاني، وسيجسبرت الرَّابع.

الكَنيسَة الرُّومانيَّة قيل بأنَّها أعلنت بأنَّ ابن داغُوبرت تحوَّل إلىٰ الدّيانة الآريُوسيَّة، وإنَّه ليس بالاستثنائيّ والغريب جدَّاً قيامه بذلك. علىٰ الرّغم من الخِلْف بين الكَنيسَة وكلُوفيس، الميرُوفيُّون كانوا ـ دائماً ـ مُتعاطفين مع الآريُوسيَّة. أحد أحفاد كلُوفيس، تشيلبيرك، لم يُخفِ مُيُوله الآريُوسيَّة.

إنْ لم تكن الآريُوسيَّة عدائيَّة لليهُوديَّة، فإنَّها ليست كذلك للإسلام أيضاً، الذي ازدهر ـ بشكل سريع ـ في القرن السَّابع. وُجهة النَّظَر الآريُوسيَّة للسَّيِّد المسيح كانت ـ تماماً ـ مُتَّفقة مع تلك التي في القُرآن. في القُرآن؛ السَّيِّد المسيح ذُكِرَ ما لا يقلُّ عن خمسة وثلاثين مرَّة، بألقاب رائعة؛ مثل «رسول الله»، و «المسيح المُنتظَر».

علىٰ أيَّة حال؛ لم يُعَدّ ـ في أيَّة نُقطة ـ أنَّه أكثر من مُجرَّد نبيّ بَشَريّ، سَلَف لُمحمَّد، وناطق باسم الله الواحد الأعلىٰ. ومثل باسيليدس وماني، يذكر القُرآن بأنَّ السَّيِّد المسيح لم يمتْ علىٰ الصَّليب: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1].

القُرآن بنفسه لا يتوسَّع في شَرْح هذا البيان الغامض، لكنَّ المُعلِّقين الإسلاميِّيْن فَعَلُوا.

طبقاً لُمعظمهم؛ كان هُناك بديل، بشكل عامٍّ، علىٰ الرّغم من أنَّه ليس دائماً، يُفترَض أنَّه كان سَمْعَان من قُورينة. بعض الكُتَّاب المُسلمين يقولون إنَّ السَّيِّد المسيح كان مُختبئاً في كُوَّة حائط، ويُراقب صَلْبَ البديل، وذلك يتَّفق مع الفقرة التي اقتُبِسَتْ ـ مُسبقاً ـ من لفائف نَجْع حمَّادي.

(1) (القُرآن 4: 157. المُؤلِّفون).

اليهُوديَّة والميرُوفيُّون

من الجدير مُلاحظة الإصرار الشَّديد ـ وخُصُوصاً الآريُوسيّ ـ علىٰ فناء السَّيِّد المسيح، وطبيعته البشريَّة، حتَّىٰ في وجه الاضطهاد الأكثر شدَّة. لكنَّنا لم نجد أيَّة إشارة إلىٰ أنَّ أيّاً منها يمتلك معرفة مُباشرة للفَرَضيَّة، التي التزموا بها بإصرار. والأقلُّ من ذلك هُو وُجُود أيَّة أدلَّة، ماعدا لفائف نَجْع حمَّادي، تقترح وَعْيهم المُحتمَل للسُّلالة. من المعقول ـ بالطَّبع ـ وُجُود بعض من تلك الوثائق؛ وثائق قريبة من لفائف نَجْع حمَّادي، رُبَّما هُناك وُجُود حتَّىٰ لعِلْم الأنساب. الشِّدَّة المُطلقة للاضطهاد الرُّوماني ـ لرُبَّما ـ تقترح الخوف من مثل هذه الأدلَّة، والرَّغبة في ضمان أنْ لا ترىٰ النُّور أبداً. لكنْ؛ إنْ كانت تلك هي الحالة، يبدو أنَّ رُومَا قد نجحت في ذلك.

إذنْ؛ البِدَعُ[1] لم تُزوِّدنا بأيِّ تأكيد حاسم علىٰ الاتِّصال بين عائلة السَّيِّد المسيح والميرُوفيِّين، الذين ظهروا علىٰ المسرح العالمي بعد حوالي أربعة قُرُون. لذلك؛ أُلْزِمْنَا للبحث في مكان آخر؛ نعود إلىٰ الميرُوفيِّين أنفسهم. للوهلة الأُولىٰ، بدا أنَّ الأدلَّة كانت قليلة. لقد وضعنا في عين الاعتبار ـ مُسبقاً ـ بعضَ الأُمُور، ومن بينها الولادة الأُسطُوريَّة لميرُوفي مثلاً ـ وهُو الطِّفل الذي وُلِدَ من أبوَيْن ذَكَرَيْن، أحدهما كان مخلوقاً مائيّاً غامضاً من وراء البحار ـ واقترحنا بأنَّ هذه الخُرافة المُثيرة للفُضُول ـ رُبَّما ـ كانت تُشير إلىٰ تحالف، أو تزاوج سُلالي، والذي هُو ظاهر ومَخْفيّ بآن واحد. لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ رَمْزيَّة السَّمَكَة كانت إيحائيَّة، إلَّا أنَّه من غير المُحتمل أنَّها كانت حاسمة. بالطَّريقة نفسها، الحِلْفُ اللَّاحق بين كلُوفيس والكَنيسَة الرُّومانيَّة سلَّط المزيد من الضَّوء الهامّ والكبير علىٰ السِّيناريو الذي وضعناه؛ لكنَّ الحلف بنفسه لم يُشكِّل دليلاً مُؤكَّداً. وعلىٰ الرّغم من أنَّ الدَّم الميرُوفي المَلَكي مُجِّدَ بأنَّه ذو طبيعة عجيبة ومُقَدَّسَة، إلَّا أنَّه لم يُذكَر ـ بشكل واضح، في أيِّ مكان ـ بأنَّ هذا الدَّم كان ـ في الحقيقة ـ دم السَّيِّد المسيح.

في غياب أيِّ شهادة حاسمة، أو قطعيَّة، كان علينا ـ بلا شكٍّ ـ أنْ نمضي قُدُماً بشكل حذر. كان لابُدَّ أنْ نُقيِّم الأجزاءَ الظَّرفيَّة من الأدلَّة، وأنْ نُحاول تجميعها لتُكوِّن صُورة مُتماسكة. وكان علينا ـ أوَّلاً ـ أنْ نُقرِّر سواء كان هُناك أيَّة تأثيرات يهُوديَّة استثنائيَّة علىٰ الميرُوفيِّين.

---

(1) (في نَظَرهم هي كُلُّ الديانات والمُعتقدات اللَّا مسيحيَّة. المُترجم).

بالتَّأكيد؛ المُلوك الميرُوفيُّون لا يبدو بأنَّهم كانوا مُعادين للسَّاميَّة. بالعكس؛ يبدو أنَّهم لم يكونوا مُتسامحين معهم فحسب، بل كانوا ـ بشكل مُؤكَّد ـ نُصراء، ومُتعاطفين لليهُود في ممالكهم، وذلك علىٰ الرّغم من الاحتجاجات المُتواصلة للكَنيسَة الرُّومانيَّة. الزِّيجات المُختلطة كانت حَدَثاً مُتكرِّراً. العديد من اليهُود ـ خُصُوصاً في الجنوب ـ امتلكوا عقارات، وأراضٍ شاسعة. امتلك العديدُ منهم العبيدَ والخَدَمَ المسيحيِّيْن. والعديد منهم عملوا كَقُضاة، ومُديرين كبار لأسيادهم الميرُوفيِّين. إجمالاً؛ الموقف الميرُوفي نحو اليهُوديَّة يبدو بأنَّه لم يكن له مُكَافئ في التَّاريخ الغربي قبل الإصلاح اللُّوثريّ.

الميرُوفيُّون أنفسهم اعتقدوا بأنَّ قُوَّتهم الأُعجُوبيَّة تكمن في شَعْرهم، في الجُزء الأكبر منها، لذلك؛ حرَّموا قَطْعَهُ. موقفهم من هذه المسألة كان مُماثلاً لموقف أُولئك المنذورين في العهد القديم، والذي كان شَمْشُون عُضواً فيهم. هُناك دليل كبير لاقتراح أنَّ السَّيِّد المسيح كان ـ أيضاً ـ من المنذورين. طبقاً لكُتَّاب الكَنيسَة الأوائل والعُلماء الحديثين؛ كان أخوه القدِّيس جيمس واحداً منهم، وبشكل غير قابل للجَدَل.

في العائلة الميرُوفيَّة المَلَكيَّة، وفي العائلات التي ارتبط بها، من المُفاجئ أنَّه كان هُناك عدد من الأسماء اليهُوديَّة بشكل مُحَدَّد.

وهكذا، عام 577، شقيق الملك كلُوتير الثَّاني كان يُدعَىٰ شَمْشُون. بعد ذلك؛ كان هُناك شَخْص يُدعَىٰ ميرُون «لاويّ»، وكان كُونت بيسالُو «Bësalou»[1]، وأُسقُف جيرُونا[2]، وكُونت رُوسيلُون كان مرَّة اسمه سُلَيْمان، وسُلَيْمان آخر أصبح ملكاً لبريطانيا. كان هُناك رئيس دَيْر اسمه إليماشار ـ مُغاير أليعازار، ولِعازار. والاسم «ميرُوفي» ـ بحَدِّ ذاته ـ يبدو اشتقاقاً من الشَّرق الأوسط.

أصبحت الأسماء اليهُوديَّة بارزة جدّاً عبر الزِّيجات السُّلاليَّة بين الميرُوفيِّيْن والقُوطيِّيْن الغربيِّيْن. مثل هذه الأسماء تظهر في طبقة النُّبلاء، والعائلات المالكة القُوطيَّة الغربيَّة، ومن المُحتمل أنَّ الكثير من العائلات القُوطيَّة الغربيَّة كانت ـ في الحقيقة ـ يهُوديَّة. تكسب هذه الإمكانيَّة تصديقاً آخر من حقيقة أنَّ المُؤرِّخين يستعملون كثيراً كلمة «قُوطيّ»، وكلمة «يهُودي»، بشكل مُتبادل.

---

(1) (مدينة في إسبانيا. المُترجم).

(2) (مدينة في شمال شرق إسبانيا. المُترجم).

جنوب فرنسا والحُدُود الإسبانيَّة ـ المنطقة المعروفة بسيبتيمانيا في العهد الميرُوفي والكَارُولينيّ ـ كانت تحتوي عدداً كبيراً جدّاً من السُّكَّان اليهُود. هذه المنطقة كانت معروفة كذلك بـ«قُوطي» أو «قُوطيا»، ولذلك؛ كان سُكَّانها اليهُود يُدعَون ـ في أغلب الأحيان ـ بالقُوطيِّين؛ وهُو خطأ ـ لرُبَّما ـ كان مُتعمَّداً من حين لآخر. باستعمال هذا الخطأ، لا يُمكن تمييز اليهُود بذلك، إلَّا ـ رُبَّما ـ بأسماء عائلة مُحَدَّدة. وهكذا؛ عمّ داغُوبرت كان يُدعَىٰ بيرا، وهُو اسم ساميٌّ. وأُخت بيرا كانت مُتزوِّجة من عُضو في عائلة تُدعَىٰ ليفي[1].

صحيح أنَّ الأسماء والموقف المُقَدَّس نحو شَعْر أحدهم لم يكن ـ بالضَّرورة ـ القاعدة الصّلبة، التي يُؤسَّس عليها اتِّصال بين الميرُوفيِّين واليهُوديَّة، ولكنْ؛ كان هُناك دليل آخر كان فيه المزيد من الإقناع بعض الشَّيء. الميرُوفيُّون كانوا السُّلالة المَلَكيَّة للفرنكيِّين ـ القبيلة التيُوتُونيَّة[2]، التي التزمت بالقانون العشائري التيُوتُونيّ. في أواخر القرن الخامس؛ هذا القانون ـ بعد أنْ نُظِّم، وبُسِّط في إطار رُومانيّ ـ أصبح معروفاً بالشَّريعة الصَّاليَّة[3].

في أُصُولها ـ علىٰ أيَّة حال ـ الشَّريعة الصَّاليَّة كانت قانوناً عشائريَّاً تيُوتُونيَّاً بالأساس، وَسَبقَت وُصُول المسيحيَّة الرُّومانيَّة إلىٰ أُورُوبا الغربيَّة.

أثناء القُرُون التي تَلَتْ ذلك، واصلت الوُقُوفَ ضدَّ القانون الإكليرُوسيّ (الكَنَسيّ)، الذي أُعْلِنَ من قِبَل رُومَا. في كافَّة أوقات العُصُور الوُسْطَىٰ هي كانت القانون العِلْماني الرَّسْمي للإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة. وفي وقت لاحق؛ وُصُولاً حتَّىٰ الإصلاح اللُّوثري، قامت طبقة الفلَّاحين والفُرسان الألمان برَفْع شكاوي ضدَّ الكَنيسَة لإهمالها للشَّريعة الصَّاليَّة التَّقليديَّة.

هُناك قسم كامل من الشَّريعة الصَّاليَّة ـ الوثيقة 45، «الهجرة» ـ التي حيَّرت العُلماء والمُعلِّقين علىٰ الدَّوام، وكانت مصدر نقاش قانونيّ مُستمرّ. إنَّه قسم مُعقَّد عن الشُّرُوط والبُنُود التي تخصُّ

(1) (الاسم بالإنكليزيَّة هُو «Levy»، ولكنْ؛ هُنا، جدير بالذِّكْر أنَّ هذا الاسم هُو مُشتقٌّ من «Levite»، وهذا الأخير يعني اللَّاويّ: وهُو فَرْدٌ من قبيلة لاويّ العِبْرانيَّة. ومن هُنا؛ يقصد المُؤلِّفون أنَّ هذا الاسم يهُودي الأصل. المُترجم).

(2) (التيُوتُونيُّون هُم شعب ألماني قديم، جاء ـ أصلاً ـ من جتلاند، التي هي شبه الجزيرة، التي تقع علىٰ بحر الشَّمال في شمال أُورُوبا. أثناء القرن الثَّاني قبل الميلاد؛ قاموا بغَزْو الغال، ولكنَّهم أُبِيدُوا من قِبَل الرُّومان عام 102 قبل الميلاد. المُترجم).

(3) (منسوب إلىٰ الصَّاليِّين Salii، وهُم قبيلة من الفرنجة، سكنت في مناطق الرَّاين، الواقعة قُرب بحر الشَّمال. المُترجم).

الظُّروف التي يُسمَح بها للرَّحَّالة المُتجوِّلين بتأسيس مساكن لهم، ولكي يُقبلوا كمُواطنين. ما هُو مُثير للفُضُول في ذلك القسم هُو أنَّها تيوُتُونيَّة الأصل، والكُتَّاب توصَّلوا لوَضْع فَرَضيَّات غريبة لتفسير إدراجها في مجموعة القوانين الصَّاليَّة. فقط؛ مُؤخَّراً ـ علىٰ أيَّة حال ـ اكتُشِفَ بأنَّ هذا القسم من مجموعة القوانين الصَّاليَّة هُو ـ في الحقيقة ـ مُشتقٌّ مُباشرة من القانون اليهُودي، وبشكل أكثر تحديداً، رُبَّما يعود أصله إلىٰ قسم من التّلمود. وهكذا يُمكن القول بأنَّ الشَّريعة الصَّاليَّة ـ علىٰ الأقلّ جُزئيّاً ـ صَدَرَتْ مُباشرة من القانون اليهُودي التَّقليدي. وهذا تباعاً يقترح بأنَّ الميرُوفيِّيْن ـ الذين وُضِعَ القانون الصَّاليّ تحت رعايتهم ـ لم يكونوا مُثقَّفين في القانون اليهُودي فحسب، بل كان لديهم وُصُول إلىٰ النُّصُوص اليهُوديَّة.

إمارة سيبتِمانيا [1]

مثل هذه الأجزاء كانت هامَّة ومُثيرة، لكنَّها تُزوِّد بدَعْم ضعيف نسبيّاً لفَرَضيَّتنا؛ وهي أنَّ السُّلالة التي تحدَّرت من السَّيِّد المسيح وُجِدَتْ في جنوب فرنسا، وأنَّ هذه السُّلالة تزاوجت مع الميرُوفيِّيْن، وأنَّ الميرُوفيِّيْن ـ في النَّتيجة ـ كانوا يهُود جُزئيّاً. لكنْ؛ علىٰ الرّغم من أنَّ العهد الميرُوفي أخفق بتزويدنا بأيِّ دليل قاطع لفَرَضيَّتنا، إلَّا أنَّ العهد الذي تلاه فوراً أدَّىٰ المطلوب. بواسطة «هذا الدَّليل الارتجاعي» أصبح من المُمكن ـ فجأةً ـ الدِّفاع عن فَرَضيَّتنا.

---

(1)(سيبتِمانيا هي منطقة جنوب فرنسا، عليٰالحُدُود الإسبانيَّة، في العهد الميرُوفيّ والكَارُولينيّ، وكانت تحتوي عدداً كبيراً جدّاً من السُّكَّان اليهُود. المُترجم).



الإمارة اليهودية

استكشفنا ـ مُسبقاً ـ إمكانيَّة بقاء سُلالة الدَّم الميرُوفي، بعد أنْ خُلِعَتْ عن عُرُوشها من قِبَل الكَارُولينجيِّيْن. في تلك العمليَّة؛ صادفنا إمارة مُستقلَّة ذاتيّاً، وُجِدَتْ في جنوب فرنسا لمُدَّة قرن ونصف؛ إمارة كان حاكمها الأكثر شُهرَة هُو غِليُوم دُو جيلُون. غِليُوم كان أحد أكثر الأبطال شُهرَة في زمانه.

كان ـ أيضاً ـ نصير ولُمْلُم من قِبَل وولفرام فُون اسكِباتش، وقيل بأنَّ كان مُرتبطاً بعائلة «الكَأس المُقدَّسة». في غليُوم، وفي الخلفيَّة التي اعتمد عليها، وجدنا البعضَ من أكبر أدلَّتنا مُفاجأةً، وإثارةً.

في ذروة قُوَّته؛ كان غليُوم دُو جيلُون يضمُّ لمملكته مناطقَ شمال شرق إسبانيا، وبيرينه، ومنطقة جنوب فرنسا، المعروفة بسيبتِمانيا. هذه المنطقة كان يقطنها ـ لمُدَّة طويلة ـ عدد كبير من اليهُود. أثناء القرنَيْن السَّادس والسَّابع، تمتَّع هؤلاء السُّكَّان بعلاقات وُدِّيَّة جدّاً مع السَّادة الكبار القُوطيِّيْن الغربيِّيْن، الذين تزاوجوا مع المسيحيِّيْن الآريُوسيِّيْن، وكانت تلك الزِّيجات كثيرة، ومُتشعِّبة، إلىٰ درجة أنَّه ـ في الحقيقة ـ أدَّىٰ ذلك إلىٰ استخدام كلمتَيْ «قُوطيّ»، و«يهُوديّ» ـ في أغلب الأحيان ـ بشكل مُتبادل (أيْ تمَّ الخَلْط بين الكلمتَيْن).

بحُلُول عام 711 ـ علىٰ أيَّة حال ـ حالة اليهُود في سيبتِمانيا، وفي شمال شرق إسبانيا تدهورت لحَدِّ مُحزن. في ذلك الوقت؛ كان قد اغتيل داغُوبرت الثَّاني، وسُلالته أُجْبِرَتْ علىٰ الاختفاء في ريزس؛ المنطقة التي تشمل رين لُو شاتُو، وتُحيط بها.

وعلىٰ الرَّغم من أنَّ الفُرُوع ذات القرابة البعيدة مع سُلالة الميرُوفيِّيْن كانت ماتزال تحتلُّ العَرْش اسميّاً في الشَّمال، إلَّا أنَّ القُوَّة الحقيقيَّة الوحيدة كانت مُستقرَّة في أيدي الذين كانوا يُدعَون بعُمدات القُصُور، المُغتصبين الكَارُولينيِّيْن، الذين شرعوا بتشجيعٍ ودَعْم من رُومَا بتأسيس سُلالتهم الخاصَّة. في ذلك الوقت ـ أيضاً ـ القُوطيُّون الغربيُّون حوَّلوا ديانتهم إلىٰ المسيحيَّة الرُّومانيَّة، وبدءوا باضطهاد اليهُود في ممالكهم. وهكذا؛ عندما تمَّ غَزْوُ القُوطيِّيْن الغربيِّيْن في إسبانيا من قِبَل المَغْربيِّيْن عام 711، رحَّب اليهُودُ بالمُحتلِّين بلَهْفَة.

تحت الحُكْم الإسلامي، اليهُود في إسبانيا تمتَّعوا بوُجُود مُزدهر. المغربيُّون كانوا لطيفين معهم، وعيَّنوهم ـ في أغلب الأحيان ـ في مناصب إداريَّة في المُدُن المأسورة؛ مثل قُرْطُبَة، وغرناطة، وتُوليدُو (طُلَيْطُلَة). تمَّ تشجيع وتنفيذ التِّجارة والحِرَف اليهُوديَّة، وتمتَّعت بالازدهار من جديد. الفِكْر اليهُودي تعايش ـ جنباً إلىٰ جنب ـ مع الفِكْر الإسلامي، والاثنان أخصبا بعضهما البعض.

والعديد من البلدات ـ بما في ذلك قُرْطُبَة، العاصمة المغاربيَّة لإسبانيا ـ كانت يهُوديَّة السُّكَّان في الدَّرجة الأُولىٰ[1].

في بداية القرن الثَّامن، عَبَرَ المغاربةُ أراضي بيرينه، وُصُولاً إلىٰ سيبتِمانيا؛ ومن **720** حتَّىٰ **759** ـ في الفترة التي واصل حفيد وابن حفيد داغُوبرت وُجُودهما السِّرِّيّ في ريزس ـ سيبتِمانيا كانت في أيدٍ إسلاميَّة.

أصبحت سيبتِمانيا إمارة مغاربيَّة مُستقلَّة ذاتيَّاً، بعاصمتها الخاصَّة بها في ناربُون، وكان تُكِنُّ ـ فقط ـ بوَلاء اسمي لأمير قُرْطُبَة. ومن ناربُون، مغاربة سيبتِمانيا بدءوا بالتَّغلغل شمالاً، وَأَسَرُوا المُدُنَ البعيدةَ ـ تقريباً ـ كَبُعْد ليُون في الإقليم الفرنكي.

كان التَّقدُّم المغاربي مُراقباً من قِبَل تشارلز مارتيل، عُمدة قَصْر وجَدّ شارلمان. في عام **738**، أجبر تشارلزُ المغاربةَ علىٰ الرُّجُوع حتَّىٰ ناربُون، ثُمَّ شرع بالحصار. ناربُون ـ علىٰ أيَّة حال ـ التي دافعت ـ بيهُودها، ومغاربيِّيها ـ أثبتت أنَّها حصينة، وتشارلز أشفىٰ غليله بتدمير الرِّيف المُحيط بها.

في عام **752**، قام بيبين ابن تشارلز بتشكيل تحالفات مع الأرستُوقراطيِّيْن المحلِّيِّيْن، وبذلك؛ وَضَعَ سيبتِمانيا بالكامل تحت سيطرته. ناربُون ـ علىٰ أيَّة حال ـ واصلت مُقاومة الحصار، الحصار الذي دام سبع سنين من قِبَل قُوَّات بيبين. المدينة كانت شوكة مُؤلِمة في حَلْق بيبين، في الوقت الذي هُو كان بمساس الحاجة للعَجَلَة في دَعْم منصبه؛ لأنَّه وَوَرَثَته كانوا مُتَّهمين ـ بحدَّة ـ بأنَّهم اغتصبوا العَرْش الميرُوفي. ولتأسيس حقٍّ شَرْعي؛ أنشأ تحالفات سُلاليَّة مع عائلات من السُّلالة الميرُوفيَّة المَلَكيَّة. ولإقرار مكانته بشكل أكثر؛ رتَّب طُقُوس تتويجه بأنْ تكون مُمَيَّزة بالمنسك التَّوراتي بالدُّهْن؛ الدُّهْن الذي يُفترَض أنَّه مُخصَّص كَنَسيَّاً لخَلْق المُلُوك.

ولكنْ؛ كان هُناك سمة أُخرىٰ لطقُوس الدُّهْن أيضاً. طبقاً للعُلماء؛ الدُّهْن كان مُحاولة مدروسة لاقتراح أنَّ الحُكْم المَلَكي الفرنكي كان ـ تقريباً ـ نُسخة طبق الأصل، إنْ لم يكن ـ في الحقيقة ـ استمراراً للحُكْم المَلَكي اليهُودي في العهد القديم. هذا ـ بحَدِّ ذاته ـ أمر هامٌّ للغاية.

لماذا بيبين المُغتصب بحاجة إلىٰ تشريع نفسه وُفقاً لنموذج توراتي، ما لم تكن السُّلالة التي خُلِعَتْ ـ سُلالة الميرُوفيِّيْن ـ شرَّعَتْ نفسها باستخدام الوسائل نفسها بالضَّبط؟!.

---

(1) (تبدو أنَّها بداية الطَّريق لادِّعاء أنَّ اليهُود هُم ـ أيضاً ـ بُناة الحضارة الإسلاميَّة في إسبانيا، كما هُو ادِّعاؤهم بأنَّهم بُناة الأهرامات! المُترجم).

في أيِّ حال من الأحوال؛ بيبين وَاجَهَتْهُ مُشكلتَيْن: المُقاومة العنيدة لمدينة ناربُون، ومسألة تأسيس حقِّه الشَّرْعي، بالاعتماد علىٰ مُمارسة ذات أساس توراتي. كما أظهر الأُستاذ آرثر زُوكيرمان في جامعة كُولُومبيا، أنَّ بيبين حلَّ المُشكلتَيْن كلتَيْهما بحِلْف أقامه عام 759 مع سُكَّان ناربُون اليهُود.

طبقاً لهذا الحِلْف؛ بيبين نال المُصادقة اليهُوديَّة علىٰ ادِّعائه الحقَّ في التَّعاقب التَّوراتي. استلم المُساعدةَ اليهُوديَّة ـ أيضاً ـ ضدَّ المغاربة[1] في المُقابل؛ عليه مَنْحُ اليهُود في سيبتِمانيا إمارةً لهم، ومَلِكاً منهم.

عام 759، السُّكَّان اليهُود في ناربُون انقلبوا ـ فجأةً ـ ضدَّ مُدافعي المدينة المُسلمين، وذبحوهم، وفُتِحَ بابِ القلعة للمُحاصرين الفرنكيِّيْن. وبعد ذلك بفترة وجيزة؛ أقرَّ اليهُود ببيبين كَسَيِّدهم الأعلىٰ الاسمي، وصادقوا علىٰ حقِّه الشَّرْعي في التَّعاقب التَّوراتي.

بيبين ـ في هذه الأثناء ـ نفَّذ حصَّته من الصَّفقة. في 768، تمَّ إنشاء إمارة في سيبتِمانيا؛ إمارة يهُوديَّة بوَلاء اسمي لبيبين، ولكنَّها كانت مُستقلَّة جَوْهَريَّاً. وتمَّ تعيين حاكم رَسْمي كَمَلِك لليهُود. وُفقاً للرُّومانسيَّات؛ كان اسمه إيمري «Aymery». علىٰ أيَّة حال؛ طبقاً للسِّجلَّات الحاليَّة؛ يبدو بأنَّه أخذ اسم ثيُودُوريك، أو تيري، بعد أنْ تمَّ تصنيفه في طبقة النُّبلاء الفرنكيِّيْن. ثيُودُوريك، أو تيري، كان والد غليُوم دُو جيلُون. وكان يُعرَف من قِبَل بيبين وخليفة بغداد كلَيْهما بـ«بذرة البيت المَلَكي لداود».

كما اكتشفنا، العُلماء الحديثون كانوا غير مُتأكِّدين حول أُصُول وخَلْفيَّة ثيُودُوريك. طبقاً لمُعظم الباحثين؛ كان من أُصُول ميرُوفيَّة.

طبقاً لآرثر زُوكيرمان؛ قيل بأنَّه كان مُواطناً بغداديَّاً؛ شَخْصاً مُلقَّباً بـ«المَنْفيّ»[2]، الذي تحدَّر من اليهُود، الذين عاشوا في بابل مُنْذُ الأَسْر البابلي.

(1) (لطالما أثبت اليهُود خيانتهم لليد التي تمتدُّ لمُساعدتهم، وهذا ما نأمل أنْ يقوموا به ـ الآن ـ في أمريكا. يجب أنْ لا ننسىٰ أنَّهم قاموا بذلك في ألمانيا أيضاً، ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ هِتْلَر كان من المُعجبين والمُتعاطفين بشدَّة معهم في البداية، ولكنَّه اكتشف مُحاولتهم الخفيَّة لتدمير ألمانيا، وخُصُوصاً من تصرُّفاتهم حيال الحُرُوب الألمانيَّة مع جيرانها، قبل الحرب العالميَّة، ممَّا قاده للانقلاب ضدَّهم. المُترجم).

(2) (أصل الكلمة هُو «Exilarch»، ولأنَّها مُشتقَّة من كلمة «exile» (مَنْفىٰ)، ولأنَّها لقب الملك البابلي ـ زعيم يهُود بلاد بابل ـ بعد نَفْيِهم من المملكة القديمة اليهُوديَّة، أعتقد أنَّه بالإمكان استخدام لقب «المَنْفي» كترجمة لتلك الكلمة، التي لا وُجُود لها في القواميس. نبوخذنصَّر الثَّاني نفىٰ الشَّعب اليهُودي من فلسطين إلىٰ بلاد بابل في مرحلتَيْن، عام 597 قبل الميلاد، وعام 586 قبل الميلاد. الحاكم الأوَّل لليهُوديَّة هُو أوَّل مَنْ حَمَلَ لَقَبَ «المَنْفيّ». وكُلُّ «المَنْفِيِّيْن» اللَّاحقين ـ الذين حملوا لَقَبَ «المَنْفِيّ» ـ هُم من سُلالة، أو أثر ذلك الحاكم، والذي كان اسمه «Jehoiachin» (ييخُويخين وُفقاً للتَّرجمة الصَّوتيَّة). المُترجم).

علىٰ أيّة حال؛ من المُحتمَل ـ أيـضاً ـ أنَّ «المَنفيّ» البغـدادي لم يكـن ثيُودُوريـك. مـن المُحتمـل أنَّ «المَنفيّ» جاء من بغداد لتكـريس ثيُودُوريـك، وأنَّ السِّجلَّات اللَّاحقـة شوَّشَـتْ عـلىٰ الاثنَـيْن. الأُسـتاذ زُوكيرمان يذكر زَعْماً مُثيراً بأنَّ «المَنفِيِّيْن الغربيِّيْن» كانوا من «دم أكثر أصالة» من أُولئك الذين في الشَّرق.

مَنْ هُم الذين كانوا «المَنفِيِّيْن الغربيِّيْن»، إنْ لم يكونوا الميرُوفيِّيْن؟!

لماذا يجب أنْ يُعيَّن شَخص من أصل ميرُوفي مَلِكاً علىٰ اليهُود، وحاكماً للإمارة اليهُوديَّـة، ويُلقَّـب بـ«بذرة البيت المَلَكي لداود» ما لم يكـن الميرُوفيُّـون هُـم ـ في الحقيقـة ـ يهُـوداً إلىٰ حَـدٍّ مـا؟! بعـد تواطـؤ الكَنيسَة في اغتيال داغُوبرت، وخيانتها للحِلْف الذي عُقد مـع كلُـوفيس، الميرُوفيُّـون النَّـاجون ـ لـرُبَّما ـ أنكروا كُلَّ الولاء لرُوما، وعادوا إلىٰ ما كان دينهم السَّابق. ارتبـاطهم بـذلك الـدِّين ـ في أيِّ حـال مـن الأحوال ـ عُزِّز زَعْماً بزواج داغُوبرت من ابنة أمير «قُوطيّ غربيّ» تحمل بوُضُوح اسماً ساميَّاً هُو بيرا.

ثيُودُوريك، أو تيري، دعَمَ موقفه بشكل أبعد ـ وكذلك بيبين ـ بزواج عاجل مع شقيقة بيبين ـ ألدا، عمَّة شارلمان. في السَّنوات التَّالية، المملكة اليهُوديَّة في سيبتِمانيا تمتَّعت بوُجُود ناجح. حصلت ـ بغزارة ـ علىٰ مُمتلكات مُطلقة وحُرَّة عن المُلُوك الكَارُولينيِّيْن. وحصلت علىٰ منـاطق كبـيرة حتَّـىٰ مـن أرض الكَنيسَة، علىٰ الرّغم من الاحتجاجات النَّشيطة للبَابَا ستيفن الثَّالث، وَوَرَثَته.

ابن ثيُودُوريك، ملك يهُود سيبتِمانيا، كان غليُوم دُو جيلُون، الذي كـان لـه ألقـاب مـن بينهـا كُونت بَرْشَلُونَة، وتُولُوز، وأُوفرن[1]، بالإضافة إلىٰ كُونت ريزس. مثل أبيه غليُـوم؛ لم يكـن ـ فقـط ـ ميرُوفيَّاً، بل يهُوديَّاً من دم مَلَكي أيضاً. الدَّم المَلَكي أُقِرَّ من قِبَـل الكَـارُولينيِّيْن، والخليفـة، ومـن قِبَـل البَابَا، ولو بتذمُّر الأخير بأنَّه كان من آل داود.

علىٰ الرّغم من المُحاولات اللَّاحقة لإخفائها، أثبتت الثَّقافة والبحث الحـديث يهُوديَّـة غليُـوم بلا مُنازع. حتَّىٰ في الرُّومانسيَّات ـ حيثُ وَرَدَ كغليُوم أمـير أُورنـج ـ كـان طليقـاً في اللُّغتـين العِبْرِيَّـة والعَرَبيَّة كلتَيْهما .إنَّ الشِّعار الذي علىٰ دِرْعِهِ هُو ـ تماماً ـ كالذي كان علىٰ دُرُوع «المَنفيَّـيْن» الـشَّرقيِّيْن؛ ذلك الشِّعار كان أسد قبيلة يهُودا، وهـي القبيلـة التـي تنتمـي إلىٰ آل داود، وفـيما بعـد؛ إلىٰ آل الـسَّيِّد المسيح. كان مُلقَّب بـ«ذي الأنف المعقوف». وحتَّىٰ في خضمِّ حملاته، لم يتوانَ ـ أبـداً ـ عـن الاحتفـال بيوم السَّبت، والعيد اليهُودي، في الهياكل النَّقَّالة[2]، كما يُشير آرثـر زُوكيرمـان، المُؤرِّخ الـذي كَتَـبَ

(1) (إقليم سابق، كان يُوجد في المنطقة المعروفة ـ الآن ـ بجنوب وسط فرنسا. المُترجم).

(2) (كان اليهُود يتَّخذون خيمةً لتكون بمثابة هَيكَل نقَّال. المُترجم).

التَّقرير الأصلي للحصار، وسُقُوط بَرْشَلُونَة، سجَّل الأحداث طبقاً للتَّقويم اليهُودي... قائد البعثة، الدُّوق وليام دُوق ناربُون وتُولُوز، أدار العمل بالمُراعاة الصَّارمة للسَّبت، وللأيَّام المُقَدَّسَة اليهُوديَّة.

إجمالاً، حَصَلَ علىٰ الفَهْم والتَّعاون الكاملَيْن للملك لويس.

أصبح غليُوم دُو جيلُون واحداً من الذين كانوا يُدعون بنظائر شارلمان، بطلاً تاريخيَّاً أصيلاً، والذي صُنِّف في الفِكْر والتَّقليد الشَّعبي كَبَطل من أُولئك الأبطال الأُسطُوريِّيْن أمثال رُولند، وأُوليفير. عندما تمَّ تعيين لويس ابن شارلمان كإمبراطُور، كان غليُوم هُو الذي وضع التَّاج علىٰ رأسه.

لويس ذُكر بأنَّه قال: «اللُّورد وليام... إنَّه نَسَبُكَ الذي رفع نسبي». إنَّه تصريح استثنائيّ، نَظَرَاً لأنَّه وُجِّهَ إلىٰ الرَّجل الذي يُعدُّ نَسَبُهُ غامضاً جدَّاً في نَظَر المُؤرِّخين اللَّاحقين.

في الوقت ذاته؛ كان غليُوم أكثر من مُجرَّد مُحارب. قبل فترة قليلة من عام 792، أسَّس أكَاديميَّة في جيلُون، وقام باستقطاب العُلماء، وأنشأ مكتبة شهيرة؛ وأصبحت جيلُون مركز مُقدَّراً للدِّراسات اليهُوديَّة. لرُبَّما من هذه الأكَاديميَّة فحسب؛ نشأ فليجيتانيس «الوَثَني»؛ وهُو العالم العِبْري الذي تحدَّر من سُلالة سُلَيْمان، والذي ـ طبقاً لوولفرام ـ عهد سرَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» إلىٰ كيُوت من برُوفانس.

في عام 806، غليُوم انسحب من الحياة النَّشيطة، واعتزل في أكاديميَّته. وتُوفِّي هُناك في عام 812 تقريباً، والأكَاديميَّة حُوِّلَتْ ـ لاحقاً ـ إلىٰ دَيْر، الدَّيْر المشهور الآن، والذي اسمه «سانت‌غليُوم‌ملُو‌ديزرت».

علىٰ أيَّة حال؛ حتَّىٰ قبل موت غليُوم، جيلُون كانت قد أصبحت واحدة من أوَّل المعاقل المعروفة في أُورُوبا لطائفة مَرْيَم المَجْدَلِيَّة؛ التي ازدهرت هُناك بالتَّزامن مع الأكَاديميَّة اليهُوديَّة.

السَّيِّد المسيح كان من قبيلة يهُودا، ومن العائلة المَلَكيَّة لداود. مَرْيَم المَجْدَلِيَّة قيل بأنَّها حَمَلَت «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ «الكَأس المُقَدَّسَة» أو «الدَّم المَلَكي» ـ إلىٰ فرنسا.

وفي القرن الثَّامن كان هُناك، في جنوب فرنسا، ملك قبيلة يهُودا والبيت المَلَكي لداود، الذي أُقِرَّ كَمَلِك لليهُود. علىٰ أيَّة حال؛ هُو لم يكن مُجرَّد يهُودي مُلتزم؛ كان ـ أيضاً ـ ميرُوفيَّاً. ومن قصيدة وولفرام فُون اسكِباتش، هُو وعائلته ارتبطوا بـ«الكَأس المُقَدَّسَة».

سُلالة داود

في القُرُون اللَّاحقة؛ يبدو أنَّه كان هُناك مُحاولات مُتواصلة لحَذْف كُلِّ أثر للمملكة اليهُوديَّة في سبتِمانيا من السِّجلَّات التَّاريخيَّة. يبدو التَّشويش المُتكرِّر لـ«القُوطيّ»، و«اليهُودي»، مُؤشِّراً علىٰ هذه الرَّقابة. لكنَّ الرَّقابة لم تُثبتْ أنَّها كانت قادرة علىٰ أنْ تكون ناجحة كُلِّيّاً. في وقت مُتأخِّر كعام **1143**، بُطرُس؛ المُبجَّل من كلُوني[1] ـ في خطاب إلىٰ لويس السَّابع ملك فرنسا ـ أدان يهُود ناربُون، الذين ادَّعوا وُجُود مَلِكٍ بينهم.

في عام **1144**، راهب كامبردج[2] يُدعَىٰ ثيُوبُولد، تكلَّم عن «الأُمراء، والأحبار اليهُود الرَّئيسيِّيْن، الذين يسكنون في إسبانيا، ويتجمَّعون معاً في ناربُون؛ حيثُ تستقرُّ السُّلالة المَلَكيَّة». وبين عامَيْ **1165 ـ 1166**، صرَّح بنيامين من تُوديلا[3] ـ مُسافر ومُؤرِّخ مشهور ـ أنَّه يُوجد في ناربُون «حُكَماء وأقطاب وأُمراء علىٰ رأسهم الشَّخص الذي... هُو سليل من آل داود، كما هُو منصُوص في شجرة عائلته».

لكنَّ أيَّ سُلالة لداود استقرَّت في ناربُون، في القرن الثَّاني عشر، كانت أقلّ أهمِّيَّة من بعض السُّلالات الأُخرَىٰ، التي تعيش في مكان آخر. أشجار النَّسَب تتفرَّع، وتنتشر، وتتقسَّم، وتُنتج غابات حقيقيَّة. إنْ كان بعض أحفاد ثيُودُوريك وغليُوم دُو جيلُون، قد بقوا في ناربُون، فإنَّ هُناك آخرين، والذين علىٰ مدىٰ القُرُون الأربعة الفاصلة حقَّقوا مجالات أكثر أهمِّيَّة، وَهَيْبَة. في القرن الثَّاني عشر؛ هذه المجالات تضمَّنت الشَّيء الأكثر شُهرَة في المسيحيَّة؛ مملكة لُورين والمملكة الفرنكيَّة في القُدْس.

في القرن التَّاسع؛ سُلالة غليُوم دُو جيلُون تتوَّجت بالدُّوقات الأوائل لآكُوتين. أصبحت مُوازية ـ أيضاً ـ للبيت الدُّوقي في بريطانيا. وفي القرن العاشر، هيُوغز دُو بلانتارد ـ المُلقَّب بـ«ذي الأنف الطَّويل»، والسَّليل المُباشر لداغُوبرت، وغليُوم دُو جيلُون، أصبح والد يُوستاش، أوَّل كُونت في بالُون. حفيد يُوستاش كان غُودفرُوي دُو بلُويُون، دُوق لُورين، وفاتح القُدْس. ومن غُودفرُوي؛ صَدَرَتْ سُلالة و«تقليد مَلَكي» مُكَافئ؛ استناد تأسُّسها علىٰ «صخرة صهيُون»؛ لأُولئك الذين يترأَّسون فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا.

---

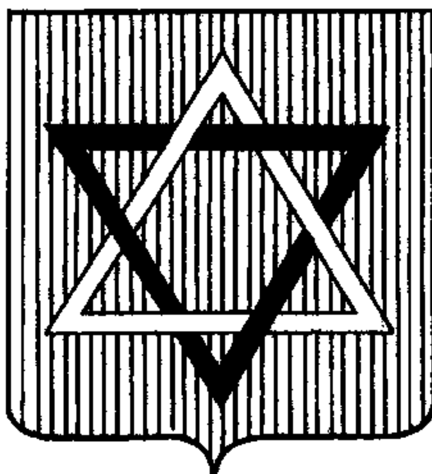
(1) (مدينة في شرق وسط فرنسا. المُترجم).

(2) (مدينة في وسط إنكلترا. المُترجم).

(3) (مدينة في شمال شرق اسبانيا. المُترجم).

إنْ كان الميرُوفيُّون ـ في الحقيقة ـ قد تحدَّر من السَّيِّد المسيح، إذاً؛ غُودفرُوي هُو سليل من الدَّم المَلَكي الميرُوفي، والذي استعاد إرْثَهُ الشَّرْعي عندما غزا القُدْس.

غُودفرُوي وعائلة لُورين اللَّاحقة كانوا ـ بالطَّبع ـ كَاثُوليكيِّيْن اسميَّاً. ولكي ينجو من العالم المسيحي اليوم، كان عليهم فعل ذلك. ولكنْ؛ يبدو أنَّ أُصُولهم كانت قد عُرِفَتْ ـ علىٰ الأقلِّ ـ في أماكن مُعيَّنة. في وقت مُتأخِّر حتَّىٰ القرن السَّادس عشر؛ قيل بأنَّ هنري من لُورين، دُوق غايز، لدىٰ دُخُوله بلدة جوينفيل في شمبانيا، تمَّ استقباله بحُشُود غفيرة. وقد وَرَدَ أنَّ بعض الأشخاص من بين الحُشُود كانوا يهتفون «المجد لابن داود».





تعليق الشكل الأيسر: رمز النبالة في رين لو شاتو تعليق الشكل الأيمن: الشعار الرسمي لدَيْر صهيون

رُبَّما ليس من التَّافه أنْ تُكرِّر هذه الحادثة في التَّاريخ الحديث لمدينة لُورين، الذي طُبِعَ عام 1966. العمل يحتوي مُقدِّمة خاصَّة لأُوتُو فُون هابسبرغ؛ الذي هُو ـ اليوم، بشكل فخري ـ يُعدُّ دُوق لُورين، وملك القُدْس.

15

الخاتمة

ونُذرٌ للمُستقبل

لكنْ؛ إنْ فُهِمَ ـ مثلاً، بشكل رَمْزي، وليس حَرْفيّاً البيان القائل بأنَّ السَّيِّد المسيح قد نَهَضَ من الموت ـ إذاً؛ من المُمكن وُجُود تفسيرات مُختلفة لا تتضارب مع معرفة البيان، ولا تُضعف معناه.

إنَّ الاعتراض علىٰ أنَّ فَهْمَ تلك القضيَّة ـ بشكل رَمْزي ـ يضع نهاية للأمل المسيحي في الخُلُود هُو باطل، لأنَّه قبل فترة طويلة من قُدُوم المسيحيَّة، آمنت البشريَّة بالحياة بعد الموت، وبالتَّالي؛ ليس هُناك حاجة لأنْ تكون حادثة عيد الفصح هي الضَّمان للخُلُود. الخطر هُو فَهْم الأساطير بشكل حَرْفيٍّ جدّاً، وكما هي مُدرَّسة من قِبَل الكَنيسَة سوف يتمُّ إنكارها برُمَّتها اليوم، فجأة، وبشكل أعظم من أيِّ وقت مضىٰ. أَليس هُو الوقت الذي تُفهم فيه الأساطير المسيحيَّة بشكل رَمْزيٍّ، ولو لمرَّة واحدة، بدلاً من أنْ تُباد؟!

كارل ينغ، «الذَّات غير المُكتَشَفَة»، الأعمال المجموعة (Collected Works)،

الجُزء 10 (1956)، صفحة 266.

في البداية؛ لم نكن قد شَرَعْنَا لإثبات، أو لتفنيد، أيِّ شيء، علىٰ الأقلِّ؛ لم نكن قد شَرَعْنَا للوُصُول إلىٰ الخاتمة التي أُوْصِلْنَا إليها بشكل لا يُمكن تجنُّبه. بالتَّأكيد؛ لم نكن ننوي التَّوجُّه في عملنا لتحدِّي بعضاً من أكثر المُعتقدات الأساسيَّة في الدِّيانة المسيحيَّة. بالعكس، نحنُ بدأنا بالتَّحقيق في لُغز مُعيَّن. كُنَّا نبحث عن أجوبة لبعض الأسئلة المُحيِّرة، وعن تفسيرات لبعض الألغاز التَّاريخيَّة.

وأثناء تلك العمليَّة، عثرنا ـ نوعاً ما ـ علىٰ شيء أعظم من الذي كُنَّا نبحث عنه في البداية. تمَّ توجيهنا إلىٰ نتيجة مُذهلة ومُثيرة للجَدَل، وعلىٰ ما يبدو؛ غير معقولة.

هذه الخاتمة أَرْغَمَتْنَا علىٰ تحويل انتباهنا إلىٰ حياة السَّيِّد المسيح، وإلىٰ أُصُول الدِّين، الذي أُسِّس وُفقاً له. عندما قُمنَا بذلك، كُنَّا مانزال مُبتعدين عن تحدِّي المسيحيَّة. كُنَّا نُحاول ـ ببساطة ـ أنْ نُقرِّر إنْ كان الدِّفاع عن نتيجتنا مُمكناً أم لا. وفي استكشاف شامل للمادَّة التَّوراتيَّة؛ اقتنعنا ـ في الحقيقة ـ بأنَّ نتيجتنا لم يكن من المُمكن الدِّفاع عنها فقط، بل هي مُحتَمَلَة جدَّاً.

نحنُ لا نستطيع ـ ومازلنا لا نستطيع ـ إثبات صحَّة نتيجتنا. إنَّها ماتزال فَرَضيَّة نوعاً ما علىٰ الأقلِّ. لكنَّها فَرَضيَّة معقولة ومفهومة بشكل مُتماسك. إنَّها تُوضح الكثير من الأُمُور. وبقَدْر ما نحنُ مَعنيُّون، فإنَّها تُشكِّل رواية أكثر احتمالاً من النَّاحية التَّاريخيَّة من أكثر من أيٍّ من الأحداث والنَّاس الذين صادفناهم، والذين رسَّخوا أنفسهم مُنذُ ألفَيْ سنة في الوعي الغربي، وفي القُرُون التَّالية، شكَّلوا ثقافتنا، وحضارتنا.

علىٰ أيَّة حال؛ إنْ كُنَّا لا نستطيع إثبات نتيجتنا، فإنَّنا قد استلمنا دليلاً كافياً علىٰ أنَّ دَيْر صهيُون بإمكانه أنْ يُثبت ذلك، بوثائقه، وبمُمثِّليه. علىٰ أساس تلميحاتهم المكتوبة ومُحادثاتهم الشَّخصيَّة معنا، كُنَّا مُستعدِّين لأنْ نُؤمن بأنَّ دَيْر صهيُون يمتلك شيئاً ما؛ الشَّيء الذي ـ بطريقة ما ـ سيُبلِّغ عن «بُرهان قَطْعي» للفَرَضيَّة التي قدَّمناها. نحنُ لا نعرف ـ بالضَّبط ـ ما قد يكون ذلك البُرهان. علىٰ أيَّة حال؛ يُمكننا أنْ نُخمِّن تخميناً عِلْميَّاً.

إنْ كانت فَرَضيَّتنا صحيحة، فإنَّ زوجة السَّيِّد المسيح ونَسْله (لرُبَّما كان والداً لعدد من الأطفال في الفترة المُمتدَّة مُنذُ أنْ كان عُمره 16 أو 17، وحتَّىٰ موته) بعد الهُرُوب من الأرض المُقدَّسة، وجدوا مأوىٰ لهم في جنوب فرنسا، وحافظوا علىٰ سُلالتهم ضمن الجالية اليهُوديَّة هُناك.

أثناء القرن الخامس؛ يظهر أنَّ هذه السُّلالة تزاوجت مع السُّلالة المَلَكيَّة الفرنكيَّة، وبالتَّالي؛ نتجت سُلالة الميرُوفنِيِّين. في عام 496 بعد الميلاد، عَقَدَت الكَنيسَةُ حلفاً مع هذه السُّلالة، وقطعت عهداً علىٰ نفسها بأنْ تُحافظ علىٰ استمرار السُّلالة الميرُوفيَّة، وهذا من المُفترض؛ لأنَّها كانت علىٰ يقين تامٍّ بأنَّ تلك السُّلالة كانت حقيقيَّة. هذا من شأنه أنْ يُوضِّح السَّبب في جَعْل كلُوفيس يحصل علىٰ منزلة الإمبراطُور الرُّوماني المُقدَّس، وأنْ يكون «قسطنطين الجديد»، ويُوضِّح ـ أيضاً ـ السَّببَ لماذا هُو لم يُجْعَل مَلكاً، بل تمَّ تمييزه كذلك فقط.

عندما الكَنيسَة تآمرت علىٰ اغتيال داغُوبرت، وعند الخيانة اللَّاحقة لسُلالة الميرُوفيِّيْن، عدَّت الكَنيسَةُ نفسَهَا مُذنبةً بالجريمة التي لا يُمكن أنْ تُبرَّر، ولا يُمكن أنْ تُزالَ. كان من المُمكن قَمْعُهَا فقط. إنَّ قَمْعَهَا كان عَمَلاً إلزامياً وضرورياً؛ لأنَّ كَشْفَ هُويَّة الميرُوفيِّيْن الحقيقيَّة من غير المُحتمل أنَّه سيُقوِّي موقف رُومَا ضدَّ أعدائها.

سُلالة السَّيِّد المسيح ـ أو علىٰ أيَّة حال، سُلالة الميرُوفيِّيْن ـ بقيت علىٰ الرّغم من كُلِّ الجُهُود لاستئصالها. بقيت جُزئيّاً من خلال الكَارُولينيِّيْن، الذين بدا ـ بشكل واضح ـ أنَّهم أكثر ذَنْباً من رُومَا في اغتصابهم للعَرْش، والذين أرادوا تشريع أنفسهم بإجراء التَّحالفات السُّلاليَّة مع الأميرات الميرُوفيَّات. ولكنَّ السُّلالة بقيت ـ بدرجة أكبر ـ من خلال ابن داغُوبرت، سيجسبرت، الذي كان من بين أحفاده غليُوم دُو جيلُون، حاكم المملكة اليهُوديَّة سيبتِيمانيا، وفي النِّهاية؛ غُودفرُوي دُو بلُويُون. عندما أَسَرَ غُودفرُويُّ القُدْسَ في 1099، سُلالة السَّيِّد المسيح كانت تستعيد إرْثَهَا الشَّرْعيَّ، الإرث الذي مُنِحَ لها في أزمنة العهد القديم.

من المُريب أنَّ سُلالة غُودفرُوي الحقيقيَّة كانت سرِّيَّة أثناء فترة الحملات الصَّليبيَّة، بقَدْر ما كانت رُومَا تتمنَّاها أنْ تكون. نَظَرَاً لهَيْمَنَة الكَنيسَة، بالطَّبع؛ لم يكن من المُمكن ـ آنذاك ـ الكَشْف العَلَني لتلك السُّلالة. لكنَّه من المُحتمل أنَّها كانت مُتفشِّية في الشَّائعات، والرِّوَايَات، والأساطير؛ وذلك يبدو أنَّه وَجَدَ طريقَهُ ـ بشكل بارز ـ في تلك الحكايات؛ مثل حكاية لُوهينغرين[1]، الذي هُو سَلَف غُودفرُوي الأُسطُوري؛ وبشكل طبيعي، في رُومانسيَّات «الكَأس المُقَدَّسَة».

إنْ كانت فَرَضيَّتنا صحيحة؛ فإنَّ «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ رُبَّما ـ كانت ـ علىٰ الأقلّ ـ شيئَيْن بآن واحد. من ناحية؛ هي ـ رُبَّما ـ كانت سُلالة وأحفاد السَّيِّد المسيح ـ الدَّم المَلَكي، الذي أسَّس دَيْرُ صهيُون فُرسانَ الهَيكَل ليكونوا حُرَّاساً، وحُماةً له. في الوقت ذاته؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» ـ رُبَّما ـ كانت ـ حَرْفيّاً ـ الوعاء، أو الإناء، الذي حَفظ، واحتوىٰ، دَمَ السَّيِّد المسيح. بكلمة أُخرىٰ؛ هي ـ رُبَّما ـ كان رحم مَرْيَم المَجْدَليَّة، وتوسُّعاً، مَرْيَم المَجْدَليَّة بنفسها. من هذا الرَّحم، ظهرت طائفة مَرْيَم المَجْدَليَّة،

---

(1) (الفارس الذي سافر في مركب البَجَعَة، وأنقذ الفتاة... المُترجم).

وقد أُعْلِنَ ذلك في العُصُور الوُسْطَىٰ، وقد تمَّ خَلْطُ الاسم بطائفة العذراء. من المُمكن ـ مثلاً ـ إثبات أنَّ العديد من الرُّسُومات والتَّجسيدات لـ«مَرْيَم العذراء الزّنجيَّة»، أو «العذراء الزّنجيَّة»، هي لم تكن تقدِّيساً لَمْرَيَم العذراء، بل لَمْرَيَم المَجْدَليَّة، وهي تُصوِّر أُمَّاً وطفلاً. وممَّا كان مُثيراً للجَدَل ـ أيضاً ـ أنَّ الكاتدرائيَّات القُوطيَّة ـ تلك الحجارة الكريمة المَلَكيَّة، التي هي نُسخ طبق الأصل للرّحم، والتي كُرِّست إلىٰ «سيِّدتنا» ـ كانت ـ أيضاً ـ تُقدِّس رفيقةَ السَّيِّد المسيح بدلاً من أُمِّه، كما صرَّحت «لُو سيربنت رُوج».

إذاً؛ «الكَأس المُقَدَّسَة» كانت ستُمثِّل سُلالة السَّيِّد المسيح ومَرْيَم المَجْدَليَّة، التي نشأت السُّلالة من رحمها. لكنْ؛ لرُبَّما كانت شيئاً آخر أيضاً. في عام 70 بعد الميلاد، أثناء الثَّورة العظيمة في اليهُوديَّة، الجحافل الرُّومانيَّة تحت قيادة تيتُوس سَلبتْ معبدَ القُدْس. وقيل بأنَّ الكَنزَ المسلوب من المعبد وَجَدَ طريقَهُ ـ في النِّهاية ـ إلىٰ بيرينه؛ وبلانتارد. في حديثه معنا؛ ذكر بأنَّ هذا الكَنزَ كان بأيدي دَيْر صهيُون اليوم. لكنَّ معبد القُدْس ـ لرُبَّما ـ احتوىٰ أكثر من مُجرَّد الكَنز، الذي سلبه القائد الرُّوماني تيتُوس.

في الدِّيانة اليهُوديَّة القديمة، الدِّين والسِّياسة كانا مُتلازمَيْن. المسيح المُنتظَر كان سيُصبح الملك الكَاهن، الذي شملت قُدراته المجالات الرُّوحيَّة والدُّنيويَّة علىٰ حَدٍّ سواء. وهكذا؛ فمن المُحتمل، وفي الحقيقة؛ من المُؤكَّد، أنَّ المعبد كان يحتوي علىٰ السِّجلَّات الرَّسميَّة التي تخصُّ السُّلالة المَلَكيَّة الإسرائيليَّة، وثائق كَشَهادات الولادة، وبيانات الأوضاع العائليَّة، ومعلومات أُخرىٰ بشكل يُشبه ما هُو عليه اليوم في العائلات المَلَكيَّة، أو الأرستوقراطيَّة. إنْ كان عيسىٰ ـ في الحقيقة ـ هُو «ملك اليهُود»، فلا شكَّ أنَّ المعبد كان يمتلك معلومات غزيرة وثيقة الصِّلة به. ورُبَّما كان يمتلك جَسَدَهُ أيضاً، أو علىٰ الأقلّ؛ قَبْرهُ، بما أنَّ جسمه أُزيْلَ من القَبْر المُؤقَّت في الإنجيل.

ليس هُناك إشارة إلىٰ أنَّ تيتُوس عندما سَلَبَ المعبد عام 70 بعد الميلاد قد امتلك أيَّ شيء من أيِّ نوع ذي علاقة بالسَّيِّد المسيح. مثل هذه المادَّة، إنْ وُجدت، لرُبَّما ـ بالطَّبع ـ حُطِّمَتْ. من النَّاحية الأُخرَىٰ، لرُبَّما ـ أيضاً ـ أُخْفِيَتْ؛ وجُنُود تيتُوس، اهتمُّوا ـ فقط ـ بالغنيمة، قد لا يكونون مُهتمِّين بالبحث عنها؛ لأنَّ ذلك العمل كان مُتوقَّعاً ـ بوُضُوح ـ من قِبَل أيِّ كَاهن في المعبد آنذاك. عند رُؤية كتيبة قائد المئة الرُّوماني تتقدَّم نحوه، فلابُدَّ أنَّ الكَاهن كان عليه أنْ يترك لهم الذَّهَب، والجواهر،

والكَنز الماديّ، الذي تتوقّع تلك الكتيبة أنْ تجده. وكان عليه ـ بالطّبع ـ أنْ يختفي، رُبَّما تحت المعبد، الموادّ التي كانت ذات أهمّيّة أعظم، الموادّ التي تتعلّق بالملك الشّرعي لإسرائيل، المسيح المُنتظَر المعروف، والعائلة المالكة.

بحُلُول عام **1100**، أحفاد السَّيّد المسيح لابُدَّ أنّهم ترعرعوا في أُورُوبا، وفي فلسطين ـ أيضاً ـ من خلال غُودفرُوي دُو بلُويُون. هُم بأنفسهم كانوا يعرفون نَسَبَهُم، وأسلافهم. لكنّهم ـ لرُبّما ـ لم يكونوا قادرين علىٰ إثبات هُويّتهم إلىٰ العالم كَكُلّ؛ ومثل هذا البُرهان ـ لرُبّما ـ كان يُعدُّ ضروريّاً لخُططهم المُستقبليّة. إنْ عُرِفَ أنَّ مثل هذا البُرهان كان موجوداً ـ أو يُحتمَل أنّه موجود ـ في حَرَم الهَيكَل، فإنّه ما كان ليُوفّر أيُّ جهْد لإيجاده. هذا يُوضّح دور فُرسان الهَيكَل، الذين تحت غطاء سرّيٍّ يُفترَض أنّهم باشروا التّنقيب تحت المعبد في ما يُسمّىٰ بإسطبلات سُلَيْمان. علىٰ أساس الدّليل الذي درسناه، يبدو أنّه كان لدينا قليل من التّساؤل حول حقيقة أنَّ فُرسان الهَيكَل أُرْسِلُوا إلىٰ الأرض المُقدَّسَة؛ بهدف واضح؛ هُو إيجاد شيء ما. وعلىٰ أساس الدّليل الذي فحصناهُ، يبدو أنّهم قد أنجزوا مهمّتهم. يبدو أنّهم وجدوا ما هُم أُرْسِلُوا لإيجاده، وأنّهم أعادوه إلىٰ أُورُوبا. ما حلَّ به بعد ذلك مايزال لُغزاً. لكنْ؛ يبدو أنَّ هُناك تساؤلاً صغيراً بأنّه تحت رعاية بيرتراند دُو بلانتشفُورت ـ السَّيّد الأعظم الرّابع لنظام الهَيكَل ـ أُخفِيَ شيء ما علىٰ مقربة من رين لُو شاتُو، وهُو الشّيء الذي جُلِبَ من أجله فريق عُمّال المناجم الألمان؛ لإنشاء مخبأ، وللتّنقيب تحت حراسة مُشدَّدة جدّاً. المرء لا يُمكنه إلّا أنْ يُخمّن ما هُو ذلك الشّيء الذي يُمكن أنْ يُخفىٰ هُناك. هُو ـ لرُبّما ـ كان جسد السَّيّد المسيح المُحنّط. هُو ـ لرُبّما ـ كان شهادات ـ مثلاً ـ تُثبت زواج السَّيّد المسيح و/ أو شهادات عن ولادة أطفاله. هُو ـ لرُبّما ـ كان شيئاً مُساوٍ ذا أهمّيّة أعظم بكثير. أيُّ شيء من هذه الموادّ، أو جميعها ـ رُبَّما ـ كانت تُسمّىٰ بـ«الكَأس المُقدَّسَة». أيُّ من هذه الموادّ، أو جميعها ـ رُبَّما ـ وصلت إلىٰ مُتناول الزّنادقة الكاثار مُصادفة، أو عَمْداً، وشكّلت جُزءاً من الكَنز الغامض في مُونتسغُور[1].

من خلال غُودفرُوي، وبُودوين دُو بلُويُون، قيل إنّه وُجِدَ «تقليد مَلَكيٌّ»، والذي لأنّه «أُسّس علىٰ صخرة صهيُون»، فإنّه يُكافئ في المنزلة السُّلالات الأُولىٰ لأُورُوبا. إنْ كانت «صخرة صهيُون»

(1) (راجعْ حصار مُونتسغُور. المُترجم).

مُرادفة للسَّيِّد المسيح ـ كما يذكر العهد الجديد والماسُونيَّة اللَّاحقة ـ فإنَّ ذلك الرَّغْم أصبح مفهوماً فجأة؛ في الحقيقة؛ إنْ دلَّ ذلك علىٰ شيء، فهُو يدلُّ علىٰ الإهانة.

ما إنْ نُصِّبت علىٰ عَرْش مملكة القُدْس، سُلالة الميرُوفيِّيْن كان بإمكانها أنْ تُقرَّ، وتُشجِّع ـ أيضاً ـ التَّلميحات عن أسلافها الحقيقيِّيْن. هذا يُوضِّح لماذا رُومانسيَّات «الكَأس المُقدَّسة» ظهرت ـ بالضَّبط ـ في الوقت التي ظهرت به، ولماذا هي ارتبطت ـ بوُضُوح شديد ـ بفُرسان الهَيكَل.

بمُرُور الوقت؛ عندما دَعَمَ مكانته في فلسطين، فمن المُحتمل أنَّ «التَّقليد المَلَكي» الذي تحدَّر من غُودفرُوي، وبُودوين، أنشىٰ أُصُوله. ملك القُدْس عند ذلك؛ أخذ الأسبقيَّة علىٰ كُلِّ مُلُوك أُورُوبا، وبطريرك القُدْس حلَّ محلَّ البَابَا. في إزاحة رُومَا، القُدْس ـ إذاً ـ أصبحت العاصمة الحقيقيَّة للمسيحيَّة، ورُبَّما ما هُو أكثر من المسيحيَّة بكثير. لأنَّه إنْ أُقِرَّ بأنَّ السَّيِّد المسيح نبيٌّ بشريٌّ، وبأنَّه ملك كَاهن، وحاكم شَرْعي من سُلالة داود، فلرُبَّما سيُصبح مقبولاً للمُسلمين، ولليهُود. وكملك لأُورشليم، فإنَّ سليله المُباشر سيكون قادراً ـ إذاً ـ علىٰ أنْ يُطبِّق أحد العقائد الأساسيَّة لسياسة فُرسان الهَيكَل ـ مُصالحة المسيحيَّة مع اليهُوديَّة، والإسلام.

الظُّرُوف التَّاريخيَّة ـ بالطَّبع ـ لم تسمح للأمُور بالوُصُول لهذه النُّقطة. المملكة الفرنكيَّة في القُدْس لم تدعم موقفها أبداً. بعد أنْ كانت مُحاصرة من كُلِّ الجهات بالجُيُوش الإسلاميَّة، ونتيجة تَزَعْزُع حُكُومتها، وإدارتها، هي لم تُتوصَّل للقُوَّة والأمن الدَّاخلي الضَّروري للبقاء؛ والأقلُّ من ذلك أنْ تفرض سيادتها علىٰ تيجان أُورُوبا وكَنيسَة رُومَا. الخُطَّة الفخمة أخفقتْ، وبخسارة الأرض المُقدَّسَة عام 1291، انهارت بالكامل. الميرُوفيُّون كانوا ـ مرَّة أُخرىٰ ـ بلا تاج. وفُرسان الهَيكَل لم يكونوا عاطلين عن العمل فحسب، بل كان يجب التَّخلُّص منهم أيضاً.

في القُرُون التَّالية؛ الميرُوفيُّون ـ تمَّتْ مُساعدتهم، و/ أو توجيههم، و/ أو حمايتهم من قِبَل دَيْر صهيُون ـ حاولوا ـ مراراً، وتكراراً ـ استعادة إرْثهم، لكنَّ هذه المُحاولات انحصرت في أُورُوبا. يبدو أنَّ تلك المُحاولات تضمَّنت ـ علىٰ الأقلِّ ـ ثلاثة برامج مُترابطة، لكنَّها مُتميِّزة جَوْهَريَّاً. أوَّلها كان خَلْق جوٍّ نَفْسي، وتقليد سرِّيٍّ، ينوي إضعاف الهَيْمَنَة الرُّوحيَّة لرُوما؛ التَّقليد الذي تمَّ التَّعبير عنه في الفِكْر السِّحْري، والباطني، وفي بيانات الرُّوزيكرُوشيِّيْن العامَّة، وفي الكتابات المُماثلة، وفي بعض المناسك

الماسُونيَّة، وبالطَّبع؛ في رُمُوز أركاديا، وفي الجدول التَّحت أرضي. البرنامج الثَّاني استلزم حياكة المكائد السِّياسيَّة، والثَّورات، واغتصاب السُّلطة العَلَني إنْ أمكن ـ التِّقنيَّات التي استُخدِمَتْ من قِبَل عائلات غايس، ولُورين، في القرن السَّادس عشر، ومن قِبَل المُصمِّمين المعماريِّيْن في فرُوند، في القرن السَّابع عشر. البرنامج الثَّالث الذي أراد من خلاله الميرُوفيُّون استعادة إرثهم كان التَّزاوُج السُّلالي.

في الاعتبار الأوَّل؛ قد يبدو بأنَّه من غير الضَّروري مثل هذه الإجراءات البيزنطيَّة؛ وقد يبدو بأنَّ الميرُوفيِّيْن ـ إنْ هُم ـ في الحقيقة ـ تحدَّروا من السَّيِّد المسيح ـ لم يكن لديهم مُشكلة في تأسيس سيادتهم. ما كان عليهم إلَّا أنْ يكشفوا هُويَّتهم الحقيقيَّة، والعالم سيُقرُّ بها.

في الحقيقة؛ علىٰ أيَّة حال، الأشياء لم تكن بتلك البساطة الشَّديدة. السَّيِّد المسيح بنفسه لم يكن معروفاً من قِبَل الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة. عندما كان الأمر مُناسباً للقيام بكَشْف تلك الهُويَّة، الكَنيسَة لم تكن نادمة في تشريع قَتْل داغُوبرت، وإسقاط سُلالته. بالنِّسبة للميرُوفيِّيْن؛ أيُّ كَشْف سابق لأوانه لنسَبِهِم لم يكن ضامناً للنَّجاح. بالعكس؛ رُبَّما كان احتمال الإخفاق هُو أكبر بكثير، وكذلك احتمال إحداث نزاع طائفيّ، ويُحدِثُ نكبةً للدِّين، ويُثير التَّحدِّيات من مُلُوك الكَنيسَة، والمُلُوك العِلْمانيِّيْن الآخرين. ما لم يتحصَّنوا ـ بشكل جيِّد ـ في مواقع منيعة، فإنَّه لم يكن بمقدور الميرُوفيِّيْن أنْ يُقاوموا مثل هذه النَّتائج، ولكان سرُّ هُويَّتهم، أو ورقتهم الرَّابحة ـ إذا جاز التَّعبير ـ سيُفقَد إلىٰ الأبد. نَظَراً للحقائق التَّاريخيَّة والسِّياسيَّة، هذه الورقة الرَّابحة لم تُستخدَم كَطَريق للوُصُول إلىٰ السُّلطة. يُمكن لعب تلك الورقة ـ فقط ـ عندما تكون السُّلطة قد اكتُسِبَتْ مُسبقاً؛ بكلمة أُخرىٰ؛ تلك الورقة تُلعَبُ من موقع قُوَّة فقط[1].

لذلك، لإعادة تأسيس أنفسهم، أُجْبِرَ الميرُوفيُّون للُّجُوء إلىٰ الإجراءات الأكثر تقليديَّة؛ الإجراءات المقبولة لذلك العصر المُحَدَّد المَعْني. علىٰ الأقلِّ؛ في أربع مُناسبات، كانت تلك الإجراءات قريبة من النَّجاح بشكل مُحيِّب، وأُحبِطَتْ ـ فقط ـ نتيجة خطأ في التَّقدير، أو بقُوَّة الظُّرُوف، أو لأحداث لم تكن مُتوقَّعة أبداً.

---

(1) (ولكنْ؛ ما الفائدة منها ـ إذاً ـ إنْ لم تُساعد ـ أصلاً ـ في الوُصُول إلىٰ السُّلطة؟! رُبَّما عليهم الانتظار لألفَيْ عام آخرين، حتَّىٰ يلعبوا تلك الورقة الرَّابحة. المُترجم).

في القرن السَّادس عشر ـ علىٰ سبيل المثال ـ آل غايس استطاعوا ـ تقريباً ـ الاستيلاء علىٰ العَرْش الفرنسي. في القرن السَّابع عشر؛ حرب الفرُوند[1] كانت قريبة جدَّاً من النَّجاح، ومن إبعاد لويس الرَّابع عشر عن العَرْش، واستبداله بمُمثِّل من آل لُورين.

في أواخر القرن التَّاسع عشر؛ وُضِعَتْ مُخطَّطات لنوع من إنعاش الوحدة المُقَدَّسة، والتي كانت ستُوحِّد أُورُوبا كَاثُوليكيَّاً ـ النِّمسا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا ـ تحت آل هابسبرغ. هذه الخُطط أُحْبِطَتْ بالسُّلُوك الشَّاذِّ والعُدواني لألمانيا ولرُوسيا؛ السُّلُوك الذي أدَّىٰ إلىٰ تحوُّل ثابت عن التَّحالفات بين السُّلطات الرَّئيسة، وعجَّلت بالحَرْب، التي أطاحت ـ في النِّهاية ـ بكُلِّ السُّلالات الأُورُوبيَّة والقارِّيَّة.

علىٰ أيَّة حال؛ من المُحتمل أنَّ سُلالة الميرُوفيِّين كانت في القرن الثَّامن عشر في أقرب نُقطة من بُلُوغ هدفها. آل لُورين ـ استناداً إلىٰ تزاوجهم مع آل هابسبرغ ـ اكتسبوا ـ في الحقيقة ـ عَرْش النِّمسا، الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة. عندما ماري أنطوانيت، ابنة فرانسوا دُو لُورين، أصبحت ملكة فرنسا، كان عَرْشُ فرنسا ـ أيضاً ـ علىٰ بُعْد جيل، أو ما شابه. بفرض أنَّ الثَّورة الفرنسيَّة لم تتدخَّل، آل هابسبرغ ـ لُورين ـ لرُبَّما ـ كانوا في أوائل عام **1800**، في طريقهم لتأسيس السِّيادة علىٰ كُلِّ أُورُوبا.

يبدو من الواضح أنَّ الثَّورة الفرنسيَّة كانت الضَّربة المُدمِّرة لآمال الميرُوفيِّين وتطلُّعاتهم. في كارثة مُرعبة واحدة؛ الخُطط التي وُضِعَتْ، وطُبِّقَتْ بعناية لقرن ونصف هُدِمَتْ فجأة.

علاوةً علىٰ ذلك؛ من مراجع في «وثائق الدَّير»، يبدو بأنَّ دَيْر صهيُون، أثناء اضطرابات الثَّورة، فَقَدَ العديد من سجلَّاته الأثمن، ومن المُحتمَل أشياء أُخرىٰ أيضاً. هذا قد يُوضِّح التَّغيير في سيادة النِّظام العُظْمَىٰ؛ نَظَرَاً لأنَّ شَخصيَّات ثقافيَّة فرنسيَّة مُحَدَّدة ـ مثل نُوديير ـ كان باستطاعتها الوُصُول إلىٰ موادّ غير مُتوفِّرة عادةً. لرُبَّما ذلك يُوضِّح ـ أيضاً ـ دور سُونير. سَلَفُ سُونير، أنطوان بيغُو، أخفىٰ ـ ورُبَّما ـ كَوَّنَ المَخطُوطَات المُشفَّرة عشيَّة الثَّورة تماماً، وبعد ذلك؛ هرب إلىٰ إسبانيا؛ حيثُ مات بعد فترة قليلة.

---

(1) (حرف فرُوند هي سلسلة الثَّورات ضدَّ الحُكْم المَلكي الفرنسي بين 1648 و1653، أثناء عهد الملك لويس الرَّابع عشر. بدأ كاحتجاج من قِبَل البرلمان الباريسي ومُؤيِّديه ضدَّ سياسات النِّظام الضَّريبي الثَّقيلة لوزير الملك الرَّئيسي جُولز كاردينال مازارين، وتلك الثَّورات تطوَّرت ـ فيما بعد ـ إلىٰ تمرُّد مُسلَّح. المُترجم).

وهكذا؛ من المُحتمل أنَّ دَيْر صهيُون ـ لفترة من الوقت علىٰ أيّة حال ـ لم يعرف ـ بالضَّبط ـ أنَّها هي المَخْطُوطَات. ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ كانوا يعرفون بأنَّها موجودة في الكَنيسَة في رين لُو شاتُو، فإنَّه لم يكن بمقدورهم أنْ يسترجعوها بسُهُولة بدُون ـ كَاهن مُتعاطف ـ رجل يقوم بتنفيذ مطلب دَيْر صهيُون، ويمتنع عن طَرْح الأسئلة المُحرجة، ويعيش بصَمْت، ولا يتدخَّل في مصالح ونشاطات النِّظام.

علاوةً علىٰ ذلك؛ إنْ كانت الوثائق قد أشارت إلىٰ شيء آخر ـ شيء أُخفِيَ علىٰ مقربة من رين لُو شاتُو ـ فإنَّ مثل هذا الرَّجل ـ رُبَّما ـ كان ضروريّاً لدرجة أكبر.

سُونير مات بدُون أنْ يُبيح سرَّه. كذلك مُدبِّرة منزله، ماري دينرنُود. أثناء السَّنوات التَّالية؛ كان هُناك الكثير من عمليَّات التَّنقيب علىٰ مقربة من رين لُو شاتُو، ولكنْ؛ لم يُجد أيٌّ منها نَفْعاً. إنْ افترضنا أنَّه كان هُناك بعض الموادّ المُذهلة التي أُخفِيَتْ مرَّة في الضَّواحي، فلابُدَّ أنَّها أُزِيلَتْ عندما بدأت قصَّة سُونير بجَذْب الأنظار والباحثين عن الكُنُوز، ما لم تكن تلك الموادّ قد أُخفِيَتْ في مُستودع ما مُحصَّن ضدَّ صيَّادي الكُنُوز، أو مثلاً في قبو تحت الأرض، أو تحت بركة صناعيَّة في أملاك خاصَّة. مثل هذا القبو يضمن الأمان، ويكون صامداً أمام أيّ عمليَّة تنقيب غير مُخوَّلة. مثل هذا التَّنقيب لن يكون مُحتمَلاً، ما لم يتمّ تجفيف البركة أوَّلاً، وهذا من الصَّعب القيام به بشكل سرِّيٍّ؛ خُصُوصاً من قِبَل المُعتدين علىٰ أرض ذات ملكيَّة خاصَّة.

في الحقيقة؛ هُناك بركة صناعيَّة موجودة قُرب رين لُو شاتُو، قُرب موقع يُدعَىٰ لافال ديُّو «Lavaldieu» (وادي الله). هذه البركة ـ لرُبَّما ـ بُنِيَتْ علىٰ قبو تحت الأرض، والذي ـ تباعاً ـ قد يقود ـ بسُهُولة ـ إلىٰ ممرٍّ تحت أرضي، يقود إلىٰ أيٍّ من الكُهُوف، التي لا تُعدُّ، ولا تُحصىٰ، في الجبال المُحيطة، والتي قد تُشبه قرص العسل.

أمَّا بالنِّسبة إلىٰ المَخْطُوطَات التي وُجِدَتْ من قِبَل سُونير، اثنتان منها ـ أو نُسخ عن اثنتَيْن منها ـ زَعْماً ـ أُعيدَ إنتاجها، وتمَّ نشْرها بشكل واسع. الاثنتان الأُخريتان ـ علىٰ النَّقيض من ذلك ـ بقيتا سرِّيَّتَيْن بشكل مُثير للفُضُول والحَيْرَة. في مُحادثته معنا؛ صرَّح لنا بلانتارد بأنَّها ـ حاليّاً ـ في صندُوق إيداع آمن، في مصرف لويدز في لندن. أبعد من المكان الذي ـ لرُبَّما ـ كُنَّا قادرين علىٰ تتبُّعه.

ومالُ سُونير!! نعرف بأنَّ البعض منه يبدو بأنَّه قد حصل عليه من خلال صفقة ماليَّة ارتبطت بالأرشيدُوق يُوهان فُون هابسبرغ. نحنُ ـ أيضاً ـ علمنا أنَّ المبالغ الكبيرة لم تكن مُتوفِّرة لسُونير فحسب، بل ـ أيضاً ـ لأُسقُف كركسُون، من قِبَل آبي هنري بُوديت، راعي أبرشيَّة رين لُو بينز. هُناك سبب لاستنتاج أنَّ مُعظم دَخْل سُونير دُفِعَ إليه من قِبَل بُوديت، من خلال الوسيطة ماري دينرنُود، مُدبِّرة منزل سُونير. ومن أين حصل بُوديت ـ كَاهن الأبرشيَّة الفقير ـ علىٰ مثل هذه المصادر؟! يبقىٰ ـ بالطَّبع ـ لُغزاً. يبدو ـ بشكل واضح ـ بأنَّه كان مُمثِّلاً لدَيْر صهيُون، لكنْ؛ سواء المال أُصدرَ مُباشرة من دَيْر صهيُون أم لا يبقىٰ سُؤالاً لا جواب له. لرُبَّما مُمكن علىٰ حَدٍّ سواء أنَّها صَدَرَتْ من خزانة آل هابسبرغ. أو ـ لرُبَّما ـ صَدَرَتْ من الفَاتيكَان، الذي كان من المُمكن أنْ يخضع للابتزاز السِّياسي العالي المُستوىٰ من دَيْر صهيُون، وآل هابسبرغ.

في أيِّ حال من الأحوال؛ السُّؤال عن المال، أو عن الكَنز، الذي أنتج ذلك المالَ، أصبح ـ بالنِّسبة لنا ـ أمراً ثانويَّاً جدَّاً، مُقارنة مع اكتشافاتنا اللَّاحقة. وظيفته الرَّئيسة ـ عند التَّفكير بما حَدَثَ في السَّابق ـ أنْ يجلب انتباهنا إلىٰ اللُّغز. بعد ذلك؛ أثبتت أنَّها قليلة الأهمِّيَّة، مُقارنة مع الأحداث الأُخْرَىٰ.

قُمنَا بصياغة فَرَضيَّة عن السُّلالة التي تحدَّرت من السَّيِّد المسيح، والتي استمرَّت حتَّىٰ وقتنا الحاضر: نحنُ لا نستطيع ـ بالطَّبع ـ أنْ نكون مُتأكِّدين من أنَّ فَرَضيَّتنا صحيحة في كُلِّ تفاصيلها. ولكنْ؛ حتَّىٰ إنْ كان ـ هُنا، وهُناك ـ بعض التَّفاصيل المُعيَّنة التي تحتاج إلىٰ تعديل، إلَّا أنَّنا مُقتنعون بأنَّ الخُطُوط العامَّة والهامَّة في فَرَضيَّتنا هي صحيحة. نحنُ ـ لرُبَّما ـ قد أسأنا فَهْم قَصْد، أو مثلاً، نشاطات سيِّد أعظم مُعيَّن، أو أَسَأْنَا فَهْمَ تحالف في الصِّراع علىٰ السُّلطة، وفي المكائد السِّياسيَّة لسياسة القرن الثَّامن عشر. لكنَّ أبحاثنا أَقْنَعَتْنَا بأنَّ لُغز رين لُو شاتُو يتضمَّن مُحاولةً جدِّيَّةً من قِبَل النَّاس المُؤثِّرين إلىٰ إعادة تأسيس الحُكْم الميرُوفي المَلَكي في فرنسا، إنْ لم ـ في الحقيقة ـ في كُلِّ أُورُوبا، وأنَّ ادِّعاء شَرْعيَّة مثل هذه الحُكْم المَلَكي يستند إلىٰ ميرُوفيَّيْن مُتحدِّرين من السَّيِّد المسيح.

من هذا المنظور، عدد من الأشياء الشَّاذَّة، والألغاز، والأسئلة التي لا جواب لها في أبحاثنا أصبحت قابلة للتَّوضيح. وكذلك الحال بالنِّسبة لعدد كبير من الأُمُور التي تبدو بديهيَّة، ولكنَّها في

الوقت نفسه مُحيِّرة: عُنوان كتاب نيكُولاس فلاميل مثلاً ـ الكتاب المُقَدَّس لإبراهيم اليهُودي، الأمير، والكَاهن، واللَّاويّ، والمُنجِّم، وفيلسوف القبيلة اليهُوديَّة، التي بغضب الله فرَّقها بين الغاليَّيْن؛ أو «الكَأس المُقَدَّسَة» الرَّمْزي لرينيه دانجاو، الذي مُنح لرجل شربه دُفعة واحدة، وشاهد رُؤية لله ومَرْيَم المَجْدَليَّة؛ أو كتاب الزّفاف الكيميائي لأندريا، للكاتب كريستيان رُوزينكرُوز، الذي يتكلَّم عن طفلة غامضة من الدَّم المَلَكي، رَسَتْ علىٰ اليابسة في مركب، والتي إرْثُهَا الشَّرْعي كان قد سَقَطَ في الأيدي الإسلاميَّة؛ أو السِّرّ الذي كان بحوزة بُوسَّان؛ بالإضافة إلىٰ السِّرِّ الذي قيل بأنَّه يكمن «في صميم» جماعة القُربان المُقَدَّس.

أثناء بحثنا؛ صادفنا عدداً من الأُمُور الأُخرَىٰ أيضاً. في ذلك الوقت؛ كانت تبدو إمَّا أنَّها بلا معنىٰ، أو أنَّها لا تمتُّ بصلة نهائيّاً. الآن ـ علىٰ أيَّة حال ـ هي ـ أيضاً ـ أصبحت مفهومة.

وهكذا؛ يبدو من الواضح ـ الآن ـ أنَّ لويس الحادي عشر عدَّ مَرْيَم المَجْدَليَّة كَمصدر للسُّلالة المَلَكيَّة الفرنسيَّة، وهُو اعتقاد بدا ـ في بادئ الأمر ـ سخيفاً، حتّىٰ ضمن فترة القرن الخامس عشر. وأيضاً؛ بدا واضحاً لماذا قيل إنَّ تاج شارلمان ـ الذي هُو نُسخة طبق الأصل لما هُو ـ الآن ـ جُزء من الشِّعارات المَلَكيَّة الإمبراطُوريَّة الفخمة لعائلة هابسبرغ ـ كان يحمل النَّقْش «الملك سُليمان» (Rex Salomon). وسيكون واضحاً لماذا اتِّفاقيَّات شُيُوخ صهيُون تتكلَّم عن ملك جديد «من السُّلالة المُقَدَّسَة لداود».

أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية؛ ولأسباب لم يسبق أنْ وُضِّحَتْ بشكل كافٍ، أصبح صليب لُورين رمز قُوَّات «فرنسا الحُرَّة» بزعامة تشارلز ديغُول. هذا ـ بحَدِّ ذاته ـ يُعدُّ مُثيراً جدّاً للفُضُول.

لماذا يجب أنْ يكون صليب لُورين ـ شعار رينيه دانجاو ـ مُرتبطاً بفرنسا؟! لُورين لم تكن ـ أبداً ـ وسط فرنسا. في أغلب تاريخها ـ في الحقيقة ـ لُورين كانت دُوقيَّة مُستقلَّة، ولاية ألمانيَّة تُشكِّل جُزءاً من الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقَدَّسَة القديمة.

رُبَّما صليب لُورين تمَّ تبنِّيه ـ بشكل جُزئي ـ بسبب أهمِّيَّة دور دَيْر صهيُون، الذي يبدو أنَّه لعبه في المُقاومة الفرنسيَّة. جُزئيّاً؛ هُو ـ لرُبَّما ـ تمَّ تبنِّيه بسبب تعاون الجنرال ديغُول مع أعضاء دَيْر صهيُون

ـ بمَنْ فيهم بلانتارد. لكنَّه من المُثير أنَّه مُنْذُ ثلاثين سنة ـ تقريباً ـ ظهر صليب لُورين بشكل استفزازي في قصيدة للشَّاعر تشارلز بيغُوي. ليس قبل فترة طويلة من وفاته في معركة ماين عام **1914**، بيغُـوي ـ الذي كان صديقاً مُقرَّباً من مُوريس باريس، مُؤلِّف رواية «La Colline inspirée» (الجبل المُلهَم) ـ أعدَّ الأبيات التَّالية:

Les armes de Jesus c' est la croix de Lorraine,
Et le sang dans l'artère et le sang clans Ia veine,
Et Ia source de grace et La claire fontaine;

Les armes de Satan c'est Ia croix de Lorraine,
Et c'est La meme artère et c'est Ia meme veine
Et c'est le meme sang et La trouble fontaine...

(ذراعا السَّيِّد المسيح هُما صليب لُورين،
الدَّم في الشَّرايين والدَّم في العُرُوق،
مصدر النِّعمة والنَّبع النَّقي؛
ذِرَاعَا الشَّيطان هُما صليب لُورين،
والشَّرايين نَفْسها،والعُرُوق نَفْسها،
والدَّم نفسه، ونافورة الشَّرِّ).

في أواخر القرن السَّابع عشر، الأب المُوقَّر فنسينت، المُؤرِّخ وعالم الآثار في نانسي، كَتَبَ تـاريخ دَيْر صهيُون في لُورين.

كَتَبَ عملاً آخر أيضاً، عُنوانه «التَّاريخ الحقيقي للقدِّيس سجسبرت»، والذي يحتوي ـ أيضاً ـ رواية عن حياة داغُوبرت. في صفحة عُنوان هذا العمل الأدبي الأخير يُوجد هُناك كتابة، اقتبـاس مـن الإنجيل الرَّابع؛ وهي «هُو بينكم، وأنتم لا تعرفونه».

حتَّىٰ قبل أنْ نبدأ بحثنا، نحنُ بأنفسنا كُنَّا مُؤمنين بـ«الـلَّاأدْرِي»[1]، لا مـسيحيِّ الـولاء، ولا مُعادين للمسيحيَّة. استناداً إلىٰ الخلفيَّة التي اعتمدنا عليها، واستناداً لدراسـتنا للأديـان المُقارنـة، كُنَّـا مُتعاطفين مع جَوْهَر الشَّرعيَّة المُتأصِّلة لأغلب مُعتقدات العالم الرَّئيـسة، ولم نكـن مُكترثـين للعقيـدة، ولعِلْم اللَّاهُوت، والمُلحقات التي أسَّست تراكيبها الفَوْقيَّة. وعلىٰ الرّغم من أنَّنا كُنَّـا نُكـنُّ الاحـترام لكُلِّ مذهب تقريباً، إلَّا أنَّنا لم نكن قادرين علىٰ أنْ نخصَّ أحدها بالصّحَّة، والشَّرعيَّة.

وهكذا، عندما قادنا بحثنا إلىٰ السَّيِّد المسيح، كُنَّا نتقدَّم نحوه بما كُنَّا نأمل أنْ يكون مُنسجماً، ومُمكنـاً. ولم يكن لدينا إجحاف، أو تصوُّرات سابقة، بشكل، أو بآخر، ولا مصالح شَخْـصيَّة مـن أيِّ نـوع، ولا أيّ شيء من شأنه أنْ يكتسب إمَّا الإثبات، أو التَّفنيد.

طالما أنَّ «الموضوعيَّة» مُحتمَلَة، كُنَّا قادرين علىٰ الاقتراب بتلك الموضوعيَّة من دراسة للسَّيِّد المسيح؛ كما يُتوقَّع من أيِّ مُؤرِّخ التَّوجُّه نحو ألكساندر ـ علىٰ سبيل المثال ـ أو قَيْصَر (سيزار). والنَّتائج التـي رَمَـتْ بنفسها أمامنا، مع أنَّها ـ بالتَّأكيد ـ مُباغتة، لم تكن مُرعبة. لم تستلزم إعـادة النَّظَـر في اتِّهاماتنـا الشَّخـصيَّة، أو تزعزع مراتب قِيَمِنَا الشَّخصيَّة.

لكنْ؛ ماذا عن النَّاس الآخرين؟!

ماذا عن ملايين الأفراد في أنحاء العالم كافَّة، الذين ينظـرون إلىٰ الـسَّيِّد المـسيح عـلىٰ أنَّـه ابـن الرَّبِّ، والمُنقِذ، والمُخلِّص؟!

إلىٰ أيِّ مدىٰ يُهدِّد إيمانَهم عيسىٰ التَّاريخيُّ، الكَاهنُ، الملكُ الذي ظَهَرَ في بحثنا؟!

إلىٰ أيِّ مدىٰ انتهكْنَا ما شكَّل ـ للعديد من النَّاس ـ الفَهْمَ المُقَدَّسَ الأكثر عزَّة؟!

إلىٰ أيِّ مدىٰ قُمْنَا بعَمَلٍ مُدنَّس؟!

نحنُ ـ بالطَّبع ـ مُدركون جيِّداً بأنَّ بحثنا قادنا إلىٰ نتائج عدائيَّة ـ من نواحٍ عديـدة ـ إلىٰ بعـض العقائد الأساسيَّة للمسيحيَّة الحديثة، نتائج ضلاليَّة، وربَّما كافرة أيضاً.

---

(1) (اللَّاأدْرِي: مَنْ يعتقد بأنَّ وُجُود الله وطبيعته وأصل الكون أُمُورٌ لا سبيل إلىٰ معرفتها. المُترجم).

من وُجهة نَظَر عقيدة مُعيَّنة راسخة؛ نحنُ لا شكَّ بأنَّنا مُذنبون بمثل هذه التَّجاوزات. لكنَّنا لا نعتقد بأنَّنا دَنَّسْنَا، أو دَحَضْنَا السَّيِّد المسيح في نَظَر أُولئك الذين يُوقِّرونه بصِدْق. وبما أنَّنا بأنفسنا لا نستطيع تأييد أُلُوهيَّة السَّيِّد المسيح، نتائجنا لا تمنع الآخرين من عمل ذلك. ببساطة؛ ليس هُناك سبب لماذا السَّيِّد المسيح لم يكن من المُمكن أنَّه كان مُتزوِّجاً، وأنَّه أصبح أباً لأطفال، ويحتفظ ـ في الوقت نفسه ـ بأُلُوهيَّته!!.

ليس هُناك أيُّ سبب لماذا أُلُوهيَّته يجب أنْ تكون مُعتمدة علىٰ العفَّة الجنسيَّة، حتَّىٰ إنْ كان ابن الرَّبِّ!

ليس هُناك أيُّ سبب لماذا لم يكن واجباً عليه أنْ يتزوَّج، وأنْ يكون له عائلة!.

إنَّ ما يُشكِّل أساساً لمُعظم عِلْم اللَّاهُوت المسيحي هُو فَرَضيَّة أنَّ السَّيِّد المسيح يُجسِّد الله. بكلمة أُخرىٰ؛ الله؛ لأنَّه يأسف لحال خَلْقه قام بتجسيد نفسه في ذلك الخَلْق، واتَّخذ شكلاً إنسانيَّاً. بقيامه بذلك، كان بإمكانه ـ إنْ جاز التَّعبير ـ أنْ يكون في الدَّرجة الأُولىٰ قادراً علىٰ إحاطة نفسه عِلْمَاً ـ وبشكل مُباشر ـ بالظُّرُوف الإنسانيَّة. بإمكانه أنْ يُواجه ـ بشكل مُباشر ـ تقلُّبات الوُجُود الإنساني. بإمكانه ـ بالمفهوم الأكثر عُمقاً ـ أنْ يفهم ما يعنيه كونه بشريَّاً؛ لكي يُواجِه ـ من وُجهة نَظَر إنسانيَّة ـ الوحدة، والألم، والعجز، والفناء المأساوي، الذي يمرُّ به الإنسان. بتحوُّله إلىٰ إنسان، سيتعرَّف الله علىٰ البشر بالطَّريقة التي لم يسمح بها العهد القديم. هَجْرُ الله لعُزلته الجليلة، ستُمكِّنه من المُشاركة ـ بشكل مُباشر ـ في القَدَر الإنساني. بقيامه بذلك؛ سيتمكَّن من تخليص القَدَر الإنساني، سيُصادق علىٰ ذلك القَدَر، وسيُبرِّره، وسيُعاني منه، وفي النِّهاية؛ سيُضحِّي بنفسه من أجله[1].

إنَّ الأهمِّيَّة الرَّمْزيَّة للسَّيِّد المسيح هي أنَّه الله، الذي اطَّلع علىٰ طيف التَّجارب الإنسانيَّة؛ اطَّلع علىٰ المعرفة المُباشرة لما يعنيه أنْ يكون بَشَراً.

(1) (باختصار؛ وُفق وُجهة النَّظَر المسيحيَّة، المسيح مُجسِّداً لله، قام بالتَّضحية بنفسه ليدفع ثمن خطايا البشريَّة، وكان المُخلِّص، والمُنقِذ لهم. ذلك يُعَدُّ مبدأ الصَّلْب في المسيحيَّة، وهُو مبدأ أساس، ويُجسِّد تخليص البشريَّة من ذُنُوبها. المُترجم).

لكنْ؛ هل من المُمكن أنَّ الله ـ بعد أنْ تجسَّد بالسَّيِّد المسيح ـ ادَّعىٰ ـ حقّاً ـ بأنَّه سيكون بشريّاً؛ لكي يطَّلع علىٰ طيف التَّجارب الإنسانيَّة، بدُون أنْ يطَّلع علىٰ التَّجربتَيْن الأكثر أهمِّيَّة وجَوْهَريَّة في التَّجارب البشريَّة؟!

هل يُمكن أنْ يسعىٰ الله لمعرفة الوُجُود الإنساني بالكامل، بدُون أنْ يعرف السّمتَيْن الضَّروريَّتَيْن للبشريَّة؛ وهُما الجنس، والأُبُوَّة؟!

نحنُ لا نعتقد ذلك. في الحقيقة؛ نحنُ لا نُؤمن بأنَّ عمليَّة التَّجسيد تلك هي ـ حقّاً ـ كانت ما كانت تنوي تمثيله، إلَّا إنْ كان السَّيِّد المسيح قد تزوَّج، وأنجب أطفالاً. السَّيِّد المسيح الموجود في الإنجيل، وفي المسيحيَّة الرَّاسخة، هُو ـ في النِّهاية ـ ناقص؛ إنَّه إله كان تجسيده البشري جُزئيّاً فقط. السَّيِّد المسيح الذي ظهر في بحثنا يتمتَّع في نَظَرنا بشَرْعيَّة أكبر بكثير من المكانة التي تضعه فيها المسيحيَّة.

إذاً؛ بشكل إجمالي، نحنُ لا نعتقد بأنَّنا شَكَّكْنَا، أو قَلَّلْنَا من شأن السَّيِّد المسيح. لا نعتقد بأنَّه عانىٰ من النَّتائج التي قادنا إليها بحثُنَا. من خلال تحقيقاتنا؛ انبثق سيِّدٌ مسيحٌ حيٌّ ومعقولٌ؛ سيِّدٌ مسيحٌ كانت حياته ذات مغزىٰ ومعقوليَّة بالنِّسبة للإنسان الحديث.

نحنُ لا نستطيع الإشارة إلىٰ رجل ما، ونُصرِّح بأنَّه سليل مُباشر من السَّيِّد المسيح. أشجار النَّسَب تتفرَّع، وتنقسم، وتتضاعف علىٰ مَرِّ القُرُون، مُتحوِّلة إلىٰ غابات حقيقيَّة. هُناك ـ علىٰ الأقلِّ ـ درِّينة من العائلات، في بريطانيا، وأُورُوبا اليوم، ولها فُرُوع جانبيَّة عديدة، التي هي من نَسَب الميرُوفيِّين. هذه العائلات تتضمَّن آل هابسبرغ لُورين (الذين هُم ـ الآن، بشكل فخري ـ دُوقات لُورين، ومُلُوك القُدْس)، وآل بلانتارد، وآل لُوكسمبُورغ، وآل مُونتبيزات، وآل مُونتسكُو، وعائلات أُخرىٰ مُختلفة.

طبقاً لـ«وثائق الدَّير»؛ عائلة سينكلير في بريطانيا هي مُتحالفة ـ أيضاً ـ مع تلك السُّلالة، كما هُو الحال بالنِّسبة للفُرُوع المُختلفة لآل ستيوارت. وآل ديفُونشير ـ من بين الآخرين ـ يبدو بأنَّهم كانوا مُطَّلعين علىٰ السِّرِّ. كُلُّ هذه العائلات يُفترَض أنَّه بإمكانها أنْ تدَّعي النَّسَبَ لسُلالة السَّيِّد المسيح؛ وإنْ كان هُناك رجل ما، سيأتي في وقت ما من المُستقبل؛ ليكون الملك الكَاهن الجديد، فإنَّنا لا نعرف مَنْ هُو.

ولكنْ؛ علىٰ أيّة حال، هُناك عدَّة أشياء واضحة. بقدر ما هي علاقتنا الشَّخصيَّة بالموضوع، السَّليل المُباشر للسَّيِّد المسيح لن يكون أكثر قَدَاسَة وأكثر إعجازاً في الجَوْهَر من بقيَّتنا.

هذا الموقف ـ بلا شكٍّ ـ يتَّفق عليه الكثير من النَّاس اليوم. ولكنَّنا نشكُّ بأنَّ دَيْر صهيُون يتَّفق مع هذا الرَّأي أيضاً.

علاوةً علىٰ ذلك؛ الكَشْفُ عن فَرْد، أو مجموعة الأفراد، الذين تحدَّروا من السَّيِّد المسيح لن يهزَّ العالم بالطَّريقة نفسها، التي ـ لرُبَّما ـ كان سيفعلها لو أنَّه حصل قبل قرن، أو اثنَيْن، من الزَّمن. حتَّىٰ إنْ كان هُناك «بُرهان قَطْعي» لمثْل هذا النَّسَب، فالعديد من النَّاس ـ ببساطة ـ سوف يسألون بلا مُبالاة: «ماذا يعني ذلك؟».

كنتيجة؛ يبدو أنَّ الأهمِّيَّة المُتعلِّقة بمُخطَّطات دَيْر صهيُون المُتقنة هي قليلة؛ ما لم تكن تلك المُخطَّطات مُرتبطة بالسِّياسة بطُرُق ما حاسمة. أيّاً كانت النَّتائج اللَّاهُوتيَّة لنتائجنا، يبدو أنَّه يُوجد هُناك نتائج أُخرىٰ ـ أيضاً ـ وبشكل واضح تماماً ـ تبعات سياسيَّة، ذات إمكانيَّة تأثير هائلة، تُؤثِّر علىٰ فِكْر، وقِيَم، ومُؤسَّسات العالم المُعاصر، الذي نعيش فيه.

بالتَّأكيد؛ في ما مضىٰ، كانت العائلات المُختلفة ذات الأُصُول الميرُوفيَّة حافلة ـ بشكل كُلِّيٍّ ـ بالسِّياسة، وكانت أهدافها تتضمَّن السُّلطة السِّياسيَّة. هذا يبدو ـ أيضاً ـ بأنَّه صحيح فيما يتعلَّق بدَيْر صهيُون، وبعدد من أسياده العظام. ليس هُناك سبب لافتراض أنَّ تلك السِّياسة لا يجب أنْ تكون مُهمَّة اليوم لدَيْر صهيُون والسُّلالة علىٰ حَدٍّ سواء.

في الحقيقة؛ كُلُّ الأدلَّة تقترح بأنَّ دَيْر صهيُون يُفكِّر بخَلْق وحدة بين الدّولة وبين ما تُدعَىٰ ـ عادةً ـ بالكَنيسَة؛ وحدة بين العِلْمانِيَّة والرُّوحيَّة، وبين المُقَدَّس والوَثَني، وبين السِّياسة والدِّين. في العديد من وثائقه؛ يُصرِّح دَيْر صهيُون بأنَّ الملك الجديد ـ بمُوجب تقليد الميرُوفي ـ «يحكم، ولكنْ؛ لا يحكم». بكلمة أُخرىٰ؛ هُو سيكون الملك الكَاهن، الذي ـ بشكل أوَّلِيٍّ ـ يشغل سُلطة طُقُوسيَّة، ورَمْزيَّة؛ والعمل الفِعْلي للحُكْم سيُعالَج من قِبَل طرف آخر؛ من المعقول من قِبَل دَيْر صهيُون.

أثناء القرن التَّاسع عشر؛ حاول دَيْر صهيُون ـ من خلال الماسُونيَّة ومُنظَّمة هايرُون دُو فالـدُور ــ القيـام بإنعـاش و«تحـديث» الإمبراطُوريَّـة الرُّومانيَّـة المُقَدَّسَـة ـ الولايـات الأُورُوبيَّـة المُتَّحـدة ثيُوقراطيًّا[1]، وتُحكَم ـ بشكل آنيٍّ ـ من قِبَل آل هابسبرغ، ومن قِبَل كَنيسَة مُنصلحة بـشكل جَـذْري. هذا المشروع أُحبِطَ جرَّاء الحرب العالميَّة الأُولىٰ، وسُقُوط سلالات أُورُوبـا الـسَّائدة. لكنَّـه لـيس مـن المُستحيل افتراض أنَّ الأهداف الحاليَّـة لـدَيْر صـهيُون هـي مُماثلـة بـشكل أسـاس ـ علىٰ الأقـلِّ؛ في خُطُوطها العريضة ـ لتلك التي كانت لمُنظَّمة هايرُون دُو فالدُور.

لا حاجة للقول، فَهْمُنَا لتلك الأهداف ـ رُبَّما ـ هُو تخمينيٌّ فقط. لكنَّها ـ علىٰ ما يبدو ـ تتضمَّن الولايات الأُورُوبيَّة المُتَّحدة ثيُوقراطيًّا، اتِّحاداً يُعبِّر، أو يشمل، أُورُوبا، ويتجمَّع في إمبراطُوريَّة حديثة، ويُحكَم من قِبَل سُلالة تحدَّرت من السَّيِّد المسيح. هذه السُّلالة لن تحتلَّ ـ فقط ـ عَرْشَ القُوَّة السِّياسيَّة، أو العِلْمانِيَّة، لكنَّه من المعقول تماماً أنْ تحتلَّ ـ أيضاً ـ عَرْش القدِّيس بُطرُس.

تحت تلك السُّلطة العُليـا ـ رُبَّـما ـ سـيكون هُنـاك ـ في تلـك الأثنـاء ـ شبكة مـن الممالـك، أو الإمارات، مُتَّصل بالتَّحالف، والتَّزاوُج السُّلالي؛ نوع من النِّظام الإقطاعي في القرن العشرين، ولكنْ؛ بدُون الانتهاكات المُرتبطة ـ عادةً ـ بتلك التَّسمية. ويُفترَض أنَّ العمليَّة الفِعْليَّة للحُكْم تـستقرُّ بأيـدي دَيْر صهيُون، وتلك العمليَّة قد تأخذ ـ مثلاً ـ شـكل البرلمـان الأُورُوبي المُخـوَّل بالـسُّلطات التَّنفيذيَّـة و/ أو التَّشريعيَّة.

أُورُوبا من هذا النَّوع سوف تُشكِّل قُوَّةً سياسيَّةً جديدةً ومُوحَّـدةً في الـشُّؤُون الدّوليَّـة؛ كيانـاً ستكون منزلته ـ في النِّهاية ـ مُوازية لتلك التي في الاتِّحاد السُّوفيتي، أو الولايات المُتَّحدة.

في الحقيقـة؛ لـرُبَّما يكـون أقـوىٰ مـن كلَـيْهما؛ لأنَّـه يـستند عـلىٰ أُسُـس رُوحيَّـة، وعاطفيَّـة مُتجـذِّرة، بـدلاً مـن اسـتناده عـلىٰ مُجـرَّد أُسُـس نَظَريَّـة، أو أيديُولُوجيَّـة. سـوف لـن تـروق لعقـل الإنــسان فحــسب، بــل لقلبــه أيــضاً. ســوف تكتــسب قُوَّتهــا مــن اســتخدام الــرُّوح الجماعيَّـة لأُورُوبا الغربيَّة، وتُوقظ الحافز الدِّيني الأساسي.

(1) (الثيُوقراطيَّة: الدّولة الخاضعة لحُكْم رجال الدِّين؛ حُكُومة الكَهَنَة؛ حُكُومة دينيَّة. المُترجم).

مثل هذا البرنامج ـ لرُبَّما ـ يبدو خياليّاً. لكنَّ التَّاريخ ـ حتَّىٰ الآن ـ كـان يجـب أنْ يُعلِّمَنَـا أنْ لا نُقلِّل من تقدير إمكانيَّة الرُّوح الجماعيَّة، والقُوَّة التي يُمكـن الحُـصُول عليهـا مـن تـسخيرها. قبـل سنوات قليلة كان سيبدو من المُستحيل تصديق أنْ يتمكَّن مُتطرِّف ديني، بدُون أنْ يمتلـك جيـشاً، أو بدُون حزب سياسي يدعمه، وبدُون أيِّ شيء تحت تصرُّفه، باستثناء شَخْـصيَّة فاتنـة، والوَلَـهُ الـدِّيني للشَّعب بمُفرده قد يتمكَّن من إسقاط الصَّرح الحديث والمُجهَّز بـشكل مُمتـاز لـشاه النِّظـام الإيـراني. وذلك ـ بالضَّبط ـ هُو ما استطاع أنْ يقوم به آية الله خُميني.

نحنُ ـ بالطَّبع ـ لا نقرع جرس الإنذار. نحنُ لسنا ـ ضمنيَّاً، أو بـشكل واضـح ـ نُقـارن دَيْـر صهيُون بآية الله. ليس لدينا أيُّ سبب في التَّفكير بأنَّ دَيْر صهيُون شرِّير ـ كما قـد يكـون الـدّهماويّ[1] الإيراني. لكنَّ الدّهماويّ الإيراني يحمل شاهداً بليغاً لشَخْصيَّة مُتجذِّرة، ولطاقة ولقُوَّة كامنـة للحـافز الدِّيني لذلك الرَّجل، والطُّرُق التي يُمكن أنْ يُستخدم بها ذلك الحافز قد تتحوَّل إلىٰ نهايات سياسـيَّة. مثل هذه النِّهايات لا تـستلزم إسـاءة اسـتعمال للـسُّلطة. الحـافز الـدِّيني يُمكـن أنْ يُحـوَّل في أيٍّ مـن الاتِّجاهات اللَّامُتناهية. إنَّه مصدر القُوَّة الهائلة الكامنة، والمُمكنة. وذلك الحافز ـ في أغلـب الأحيـان ـ مُهملٌ بالكامل، أو تمَّ تجاوزه من قِبَل الحُكُومات الحديثـة، التـي أُسِّـسَتْ علىٰ، وقُيِّـدَتْ ـ في أغلـب الأحيان ـ إلىٰ المنطق وحده. الحافز الدِّيني يعكس حاجة نَفْسيَّة، وعاطفيَّة، عميقة. والحاجات النَّفْسيَّة والعاطفيَّة تُشابه ـ تماماً ـ الحاجة للخُبز، والمأوىٰ، والأمن المادِّيّ.

نعرف بأنَّ دَيْر صهيُون ليس مُنظَّمة تُشكِّل «الجناح المُتطرِّف». نعرف بأنَّه مُموَّل بـشكل جيِّـد، بأنَّه يتضمَّن ـ أو ـ علىٰ أيَّة حـال ـ يُـدار عَطْفَـاً مـن ـ رجـال في مواقـع مـسؤولة ومُـؤثِّرة في الـسِّياسة والاقتصاد، وفي أجهزة الإعلام والفُنُون. نعرف بأنَّه مُنْذُ عـام 1956، ازادت عُـضويَّته أكثـر بأربعـة أضعاف، كما لو أنَّه كان يُعبِّئ، أو يستعدُّ لشيء ما؛ وبلانتارد أخبرنا شَخْـصيَّاً بأنَّـه ونظامـه يعملـون ـ نوعاً ما ـ وُفقاً لجدول أعمال دقيق. نحنُ نعلم ـ أيضاً ـ بأنَّـه مُنْـذُ عـام 1956، سَـمَحَ دَيْـرُ صـهيُون لبعض المعلومات بالظُّهُور؛ بشكل رصين، ومُثير، وبـأنماط مُتجزِّئـة، وبكَمِّيَّـات مدروسـة، وكافيـة للتَّزويد ـ فقط ـ بتلميحات مُغرية. تلك التَّلميحات أدَّت إلىٰ إنتاج هذا الكتاب.

---

(1) (الدّهماويّ: مُهيِّج، أو خطيب شعبيّ، يستغلُّ الاستياء الاجتماعي لاكتساب النُّفُوذ السِّياسي. المُترجم).

من المعقول ـ نوعاً ما ـ أنَّه آن الأوان لدَيْر صهيُون أنْ يُظهر يدَهُ. الأنظمة السِّياسيَّة والعقائد التي في سنواتنا الأُولىٰ من هذا القرن بدت بأنَّها تعدُ بالكثير جدّاً، وبدت جميعها ـ عَمَليّاً ـ أنَّها أظهرت درجة من الإخفاق. الشُّيُوعيَّة، والاشتراكيَّة، والفاشيَّة، والرَّأسماليَّة، والدِّيمُقراطيَّة ذات الطِّراز الغربي، قامت جميعها ـ بطريقة، أو بأُخْرَىٰ ـ بخيانة الوُعُود، التي قدَّمتْهَا، وقامت بالتَّحايل علىٰ أنصارها، وأخفقت في إنجاز أحلام أنشأتها. بسبب صغَر عُقُولهم، وقلَّة تطلُّعاتهم، وإساءة استخدامهم للمناصب، السِّياسيُّون لم يعودوا موضع ثقة بعد الآن، بل هُم موضع شكٍّ فقط. في الغرب ـ اليوم ـ هُناك تزايد في الاستياء، والتَّشاؤم، وخيبة الأمل. هُناك تزايد في الإجهاد الرُّوحي، والقَلَق، واليأس. لكنْ؛ هُناك ـ أيضاً ـ مَسعىٰ مُكثَّف للمُراد، وللإنجاز العاطفي، وللبُعْد الرُّوحي، في حياتنا، وللشَّيء الذي نُؤمن به بصِدْق. هُناك اشتياق إلىٰ معنىٰ مُجدَّد للقَدَاسَة، التي تقود إلىٰ الإحياء الدِّيني الشَّامل؛ المُمثَّل بالطَّوائف، والفِرَق المُنتشرة، والتَّيَّار المُتضخِّم للأُصُوليِّيْن في ولايات مُتَّحدة.

هُناك أيضاً، وعلىٰ نحو مُتزايد، رغبة لـ«زعيم» حقيقي، ليس فُوهرر (دكتاتُور)، بل صنْف من الشَّخصيَّة الرُّوحيَّة والحكيمة والحميدة، «ملك كَاهن» يستطيع كُلُّ البشر أنْ يضعوا ثقتهم به بشكل آمن. حضارتنا أَشْبَعَتْ نفسها بالمادِّيَّة، وفي تقدُّمها بتلك العمليَّة؛ وصلت إلىٰ جُوع أكثر عُمقاً. والآن؛ بدأت بالنَّظَر في مكان آخر، تُريد إنجاز الحاجات الرُّوحيَّة، والنَّفْسيَّة، والعاطفيَّة.

مثل هذه البيئة تبدو ـ بشكل بارز ـ أنَّها الدَّافع والمُحرِّض لأهداف دَيْر صهيُون. تلك الأهداف تضع دَيْرَ صهيُون في موقع، يبدو ـ من خلاله ـ أنَّه قادر علىٰ عرض بديل للمُجتمع للنُّظُم السِّياسيَّة الحاليَّة.

مثل هذا البديل من الصَّعب جدّاً أنْ يُشكِّل المدينة الفاضلة (اليُوطُوبيا)، أو القُدْس الجديدة. لكنَّه قد يصل إلىٰ الحَدِّ الذي يُرضي الحاجات والرَّغبات، التي لا تعرف الأنظمة الحاليَّة ـ حتَّىٰ الآن ـ بأنَّها قد تكون جذَّابة جدّاً.

هُناك العديد من المسيحيِّيْن الوَرعين، الذين لا يتردَّدون في تفسير سِفْر الرُّؤيا كَمِحْرَقَة نَوَويَّة. كيف ـ إذاً ـ سيتمُّ تفسير وُصُول سليل السَّيِّد المسيح المُباش إلىٰ الجُمهُور التقبُّلِيّ؟! رُبَّما سيكون ذلك بمثابة الانبعاث الثَّاني.

مُلحق

الأسياد العظام المزعومون لدَيْر صهيُون

جين دُو جيزرز: طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ جين دُو جيزرز كـان الـسَّيِّد الأعظـم المُـستقلّ الأوَّل لدَيْر صهيُون، تولَّىٰ منصبه بعد حادثة «قَطْع الدّردار»، والانفصال عن فُرسان الهَيكَل في عام 1188.

وُلد عام 1133، وتُـوفِّي عـام 1220. كـان علىٰ الأقـلِّ؛ الـسَّيِّد الاسـميَّ لقلعـة جيـزرز في النُّورماندي؛ حيثُ كانت تُعقَد الاجتماعات تقليديًّاً بين المُلُوك الإنجليز والفرنسيِّين، وحيـثُ حَـدَثَ عام 1188، شجار فُضُولي مُتعلِّق بحادثة «قَطْع الدّردار».

حتَّىٰ عام 1193، كان جين تابعاً لملك إنجلترا هنري الثَّاني، وبعد ذلك؛ ريتشارد الأوَّل[1].

امتلك أملاكاً في إنجلـترا، أيـضاً؛ في سُـوزيكس، وفي إقلـيم تيتـشفيلد، في هامبـشاير. طبقـاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ اجتمع بتُوماس بيكيت عام 1169. لم يبقَ هُنـاك أيُّ سـجلٍّ مُوثَّـق لهـذا الاجتماع، لكنَّ بيكيت كان في جيزرز عام 1169، ولابُدَّ وأنْ كان لديه بعض الاتِّصالات مع سيِّد القلعة.

مـاري دُو سانتـكلير: المعلومات عن ماري دُو سانتـكلير كانـت ضـئيلة، لدرجـة أكـبر مـن المعلومات عن جين دُو جيزرز.

وُلِدَتْ حوالي عام 1192، تحدَّرت من هنري دُو سانتـكلير، بـارُون رُوزلـين في اسـكُوتلندا، الذي رافق غُودفرُوي دُو بلُويُون في الحملة الصَّليبيَّة الأُولىٰ.

رُوزلين ـ بحَدِّ ذاتها ـ لم تكن بعيدة عن مُجتمع فُرسان الهَيكَل الرَّئيس في اسـكُوتلندا، وكَنيـسَة رُوزلين، التي بُنيَتْ في القرن الخامس عشر، أصبحت تُغطِّيها الأساطير الماسُونيَّة، وأسـاطير الـصَّليب الوَرْدي. جَدَّة ماري دُو سانتـكلير تزوَّجت بعائلة تشُومُونت الفرنسيَّة؛ كما فعلت جين دُو جيزرز.

---

(1) (ريتشارد الأوَّل هُو ابن هنري الثَّاني، وهُو المُلقَّب بقَلْب الأسد. المُترجم).

وهكذا؛ كانت سُلالات عائلات تشُومُونت، وجيزرز سانتكلير، مُتزاوجة بشكل مُباشر. هُناك بعض الأدلَّة علىٰ أنَّ ماري دُو سانتكلير كانت ـ في الحقيقة ـ زوجة جين دُو جيزرز الثَّانية، لكنَّنا لا نستطيع أنْ نُؤكِّد هذا بشكل قَطْعي. طبقاً لعِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ والدة ماري كانت تُدعَىٰ إزابيل ليفيس. هذه الكُنية ـ والتي يبدو أنَّ أصلها يهُودي ـ وَرَدَتْ كثيراً في لانغدُوق؛ حيثُ كان هُناك مُستوطنات يهُوديَّة، يعود تاريخها حتَّىٰ فترة ما قبل العهد المسيحي.

غليُوم دُو جيزرز: غليُوم دُو جيزرز هُو حفيد جين دُو جيزرز، وُلِدَ عام **1219**. صادفنا اسمه مُسبقاً بالارتباط مع الرَّأس الغامض، الذي وُجد في مُجتمع فُرسان الهَيكَل، في باريس، بعد اعتقالات عام **1307**. ناهيكَ عن ذلك ـ علىٰ أيَّة حال ـ وجدنا له ـ فقط ـ ذِكْراً خارجيَّاً واحداً، في عمل أدبي يعود تاريخه إلىٰ عام **1244**، والذي يُصرِّح بأنَّه كان فارساً. طبقاً لعِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ تزوَّجت أُخته بشَخْص يُدعَىٰ جين ديس بلانتارد. «وثائق الدَّيْر» صرَّحت ـ أيضاً ـ أنَّ غليُوم انتسب إلىٰ «نظام السَّفينة والهلال المُضاعَف» عام **1269**. هذا النِّظام أُسِّس من قِبَل لويس التَّاسع (القدِّيس لويس) للنُّبلاء، الذين رافقوه في الحملة الصَّليبيَّة السَّادسة المشؤومة. إنْ كان غليُوم دُو جيزرز عُضواً فيه، بالتَّالي؛ هُو لابُدَّ أنَّه كان مع القدِّيس لويس، أثناء الحملة في مصر.

إدوارد دُو بار: وُلِدَ عام **1302**، إدوارد، كُونت بار، كان حفيد إدوارد الأوَّل، ملك إنجلترا، وابن أخ إدوارد الثَّاني. تحدَّر من عائلة كانت ذات نُفُوذ وتأثير في أردينيه، مُنذُ العهد الميرُوفي، وارتبطت ـ نوعاً ما، بشكل مُؤكَّد ـ بسُلالة الميرُوفيِّيْن. ابنة إدوارد تزوَّجت من عائلة لُورين، وفيما بعد؛ أصبحت سُلالة لُورين وبار مُرتبطتَيْن بالتَّزاوُج بشكل مُباشر.

في عام **1308**، في عُمر ستِّ سنوات (!)، إدوارد رافق دُوق لُورين إلىٰ الحَرْب، أُسِرَ، ولم تُدفَع له الفدية حتَّىٰ عام **1314**. عند وُصُوله سنَّ البُلُوغ؛ اشترىٰ إقطاعة ستيناي من أحد أعمامه، من عمَّته جين دُو بار. في عام **1324**، تحالف في العمليَّات العَسْكَريَّة مع فيري دُو لُورين، ومع جين دُو لُوكسمبُورغ ـ وآل لُوكسمبُورغ، مثل آل لُورين، يبدو أنَّهم من سُلالة ميرُوفيَّة. عام **1336**، تُوفِّي إدوارد في تحطم سفينة خارج السَّاحل القُبرُصي.

ليس هُناك مصدر مُوثَّق يُمكنه أنْ يُزوِّدنا بأيّة صلة بين إدوارد دُو بار وغليُوم دُو جيزرز. علىٰ أيّة حال؛ طبقاً لعِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ إدوارد كانت حفيد شقيقة زوجة غليُوم، والتي تُدعَىٰ إيُولند دُو بار. علىٰ الرّغم من أنّنا لا نستطيع أنْ نُؤكّد ذلك النَّسَبَ، إلّا أنّنا ـ في الوقت نفسه ـ لم نستطع العُثُور علىٰ أيِّ شيء يُفنِّده.

إنْ كان إدوارد ـ كما تذكر «وثائق الدَّيْر» ـ قد تولَّىٰ السِّيادة العُظْمَىٰ لدَيْر صهيُون عام 1307، فإنَّه سيكون ـ آنذاك ـ في الخامسة من عُمره. هذا ليس ـ بالضَّرورة ـ مُستحيلاً؛ إذْ إنَّه أُسِرَ في ساحة المعركة في عُمر ستِّ سنوات، إلىٰ أنْ وصل إدوارد إلىٰ سنِّ البُلُوغ، منصب كُومت مدينة بار كان يشغله عمُّه جين دُو بار[1]، الذي قام مقام الوَصيّ. من المُحتمَل أنَّ جين كان «السَّيِّد الأعظم الوَصيّ» أيضاً. ولكنْ؛ لا يبدو أنَّ هُناك أهمِّيَّة في اختيار وَلَد بعُمر الخمس سنوات كَسَيِّد أعظم، ما لم تكن في ذلك الوقت السِّيادة العُظْمَىٰ مُرتبطة ـ بطريقة ما ـ بالوراثة، أو بالسُّلالة.

جين دُو بار: جين دُو بار وُلِدَتْ عام 1295، الأُخت الكُبْرَىٰ لإدوارد. هي ـ بذلك ـ تكون حفيدة إدوارد الأوَّل، ملك إنجلترا، وابنة أخ إدوارد الثَّاني.

عام 1310، في عُمر الخامسة عشر، كانت مُتزوِّجة من إيرل مدينة وارن وسُري وسُوزيكس وستراثرن، وطُلِّقَتْ منه بعد حوالي خمس سنوات، بعد أنْ طُرد بتُهمة الزِّنا. جين واصلت العيش في إنجلترا، علىٰ أيّة حال، وعلىٰ الرّغم من أنّنا لم نجد أيَّ سجلٍّ مُفصَّل عن نشاطاتها، يبدو أنّها تمتَّعت بعلاقات وُدِّيَّة شديدة مع العَرْش الإنجليزي. يبدو أنّها كانت تمتلك علاقات مُماثلة مع ملك فرنسا؛ الذي دعاها عام 1345، لتعود إلىٰ القارَّة؛ حيثُ أصبحت وصيّة علىٰ منصب كُومت بار.

عام 1353 ـ علىٰ الرّغم من حرب المئة عام، والعداوة اللَّاحقة بين إنجلترا، وفرنسا ـ عادت جين إلىٰ إنجلترا. عندما أُسِرَ الملك الفرنسي في معركة بواتيه[2]، عام 1356، وسُجن في لندن، سُمح لجين بأنْ «تُسلِّيه»، وتُقدِّم له العون. أثناء فترة سجنه اللَّاحقة المُطوَّلة، قيل بأنَّ جين كانت عشيقته، بالرّغم من أنَّ كلَيْهما كان مُسنّاً في ذلك الوقت. ماتت في لندن عام 1361.

(1) (جين دُو بار هذا يختلف عن جين دُو بار اللَّاحق، إلّا أنَّ التَّرجمة الصَّوتيّة للاسمَيْن هي «جين». المُترجم).
(2) («Poitiers»: مدينة في الوسط الغربي لفرنسا. المُترجم).

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ ترأَّست جين دُو بار دَيْر صهيُون حتَّىٰ عام 1351، قبـل موتهـا بعـشرة سنوات. وهكذا يبدو بأنَّها الشَّخصيَّة الوحيدة في قائمـة الأسـياد العظـام، التـي كانـت قـد تنازلـت، أو استقالت، أو أُقِيْلَتْ من منصبها.

جين دُو سانتكلير: أبحاثنا لم تُثمر ـ عَمَلِيَّاً ـ عن أيِّ شيء حول جيـن دُو سانتــكلير، الـذي يبدو بأنَّه كان شَخصيَّة ثانويَّة جدَّاً.

وُلِدَ حوالي عام 1329، وتحدَّر من العائلات الفرنـسيَّة لتشُومُونت، وجيـزرز، وسانتــكلير ـ سور ـ ايبت (Epte-sur-Clair-Saint).

طبقاً لعِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»؛ كان جَدُّه مُتزوِّجاً من عمَّة جين دُو بـار. هـذه العلاقـة ضعيفة جدَّاً. علىٰ الرّغم من هذا، يبدو أنَّ في ذلك اقتراحاً أنَّ السِّيادة العُظْمَـىٰ لـدَيْر صـهيُون كانـت ماتزال تُوزَّع ـ بشكل خاصٍّ ـ ضمن شبكة العائلات المُرتبطة داخليَّاً.

بلانتش ديفريُو: بلانتش ديفريُو كانت ـ في الحقيقة ـ بلانتش دُو نافار، ابنة ملك نافار.

وُلِدَتْ عام 1332. من والدها؛ ورثـتْ منـصب كُومـت لُونغفيـل وايفريُـو، وهُمـا البلـدتان المُجاورتان مُباشرة لجيزرز؛ وعام 1359، أصبحت كُونتيسة جيزرز أيضاً.

بعد عشرة سنوات من ذلك، تزوَّجت فيليب السَّادس، ملك فرنـسا، والـذي ـ مـن خلالـه ـ تعرَّفت علىٰ جين دُو بار بشكل مُؤكَّد تقريباً. أمضت مُعظـم حياتهـا في قلعـة نيُوفـل قُـرب جيـزرز، وتُوفِّيت هُناك عام 1398.

طبقاً للأساطير العديدة؛ بلانتش انغمـست في الدِّراسـات والتَّجـارب الخيميائيَّـة؛ وتتحـدَّث الرِّواية عن وُجُود مُختبرات في بعض قلاعها.

قيل بأنَّها امتلكت عملاً خيميائيَّاً، لا يُقدَّر بثمن، أنتجتهُ في لانغدُوق، أثناء القرن الرَّابع عشر، لكنَّه يستند علىٰ مَخْطُوطَة، يعود تاريخها حتَّىٰ الأيَّام الأخيرة لسُلالة الميرُوفيِّين؛ أيْ قبل ذلـك بـسبعمئة سنة. يُشاع ـ أيضاً ـ بأنَّها كانت الرَّاعية الشَّخصيَّة لنيكُولاس فلاميل.

عائلات جيزرز، وباين، وسانتكلير

عائلة تشوفنت

هيوغز دُو تشوفنت
1067–1011

رُوبرت دُو تشوفنت
1075–1017

اليانُور
دُو غيتري

تيبُود دُو باين «دُور غارديل»
1064–1012

تيبُود دُو باين
1094–1035

آديلايد
1098–1036

هيُوغز دُو تشوفنت
1032، 1075أوّل لُورد لجيزرز

أوشمون دُو تشوفنت 1060–1116 لُورد غيتري

غليُوم دُو تشوفنت 1091، ؟ لُورد غيتري

رُوبرت دُو تشوفنت 7434 لُورد غيتري

رينفيلد
وريثة سانتكلير

رُوبرت دُو سانتكلير
1232–1160

غليُوم دُو تشوفنت
1224–1155

كاترين

هيُوغز دُو باين
1070–1131
سيّد أعظم لنظام الهيكل

مانيلد

تيبُود الأوّل «دُو باين»
1055، 1130لُورد جيزرز

هيُوغز الثّاني
1090، 1142لُورد جيزرز

منشا
المُيرُوفنِّين
1156

جين السّادس

دِيس بلانتارد 1130؟

إيفُوين
1191–1135

جين
1133، 1220لُورد جيزرز
مُؤسّس الصّليب الوَرْدي
عام 1188سيّد أعظم لدَيْر صِهيُون

؟ دُو تشوفنت

إيُولند دُو بار

غليُوم
1219، 1307لُورد جيزرز
سيّد أعظم لدَيْر صِهيُون عام 1266

الشُلالة مُستمرّة ليومنا الحاضر

جيرارد
1183، 1243رئيس دَيْر للرُّهبان
في دَيْر صِهيُون

آغنِس داسالي

هيُوغز الثّالث
1181، 1225لُورد جيزرز

نيكُولاس فلاميل: اسم فلاميل هُو الأوَّل في قائمة الأسياد العظام غير المُنتسب، وُفقاً لسُلالة الدَّم الواردة في عِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»، ويبدو أنَّه به توقَّفت السِّيادة العُظْمَىٰ لـدَيْر صـهيُون عن كونها وظيفة مُخصَّصة للعائلة فقط.

فلاميل وُلِدَ حوالي عام 1330، وعمل ـ لفترة من الوقـت ـ كَكَاتـب، أو ناسـخ، في بـاريس. استنادا إلىٰ استيلائه علىٰ العديد من الكُتُب النَّـادرة التـي مـرَّت مـن خـلال يدَيْـه، اكتـسبَ براعـة في الرَّسْم، والشِّعْر، والرِّياضـيَّات، والهندسـة المعماريَّـة. حظـي ـ أيـضاً ـ بـاهتمام في الكيميـاء، والفِكْـر القَبَلاني والسِّحْري.

حوالي عام 1361، طبقاً لرواية فلاميل؛ أنَّه صادف نصَّاً خيميائيَّاً حوَّل مجرىٰ حياته. عُنوانـه الكامل يُثير الحَيْرَةَ والاهتمام؛ العُنوان هُو: (الكتاب المُقَدَّس لإبـراهيم اليهُـودي، الأمـير، والكَـاهن، واللَّاويّ، والمُنجِّم، وفيلسوف القبيلة اليهُوديَّة، التي بغَـضَب الله فرَّقهـا بـين الغـاليِّيْن). هـذا العمـل أصبح ـ بعد ذلك ـ أحد الأعمال الأكثر شُهرَة في التَّقليد الباطني الغربي. العمل الأصلي قيل بأنَّه أُوْدِعَ في مكتبة آرسنال في باريس. إعادة إنتاج لهذا العمل تمَّتْ بشكل دؤوب، وديني، وكما يبدو، دُرِسَ عبثاً من قِبَل الأجيال المُتعاقبة من البارعين الرَّاغبين.

فلاميل ـ طبقاً لروايته ـ يقول إنَّه أنعم الدِّراسة في الكتاب، وبـدُون نجـاح لحـوالي 21 عامـاً. وأخيراً؛ وأثناء رحلة إلىٰ إسبانيا في عام 1382، ادَّعىٰ بأنَّـه اجتمـع مـع يهُـودي في ليُـون، وضَّـح لـه النَّصَّ. وعند عودته إلىٰ باريس؛ طبَّق ما تعلَّمه، وقيل بأنَّه أدَّىٰ ـ بنجاح ـ أوَّل عمليَّة تحويـل خيميائيَّـة (تحويل المعادن الخسيسة إلىٰ ذَهَب، وفضَّة) في ظُهر السَّابع عشر من يناير/ كانون الثَّاني؛ وهُو التَّـاريخ نفسه الذي يتكرَّر بإصرار شديد، والمُرتبط بسُونير، ورين لُو شاتُو.

سـواء روايـة فلاميـل صـحيحة أم لا، الحقيقـة ثابتـة بأنَّـه أصـبح غنيَّـاً بـشكل هائـل. في الفترة الأخيرة مـن حياتـه؛ كـان يمتلـك أكثـر مـن ثلاثـين بيتـاً، وقطـعَ أرض في بـاريس وحـدها. في الوقـت نفـسه ـ علىٰ أيَّـة حـال ـ يبـدو بأنَّـه كـان الرَّجـل المُعتـدل، الـذي لم يُعَرْبِـد بأموالـه، وأغدق مُعظم ثروته علىٰ الأعمال الجيِّدة.

في 1413، أسَّس، وَوَهَبَ أربعة عشرة مُستشفىٰ، وسبع كَنائس، وثلاثة كَنائس صغيرة في باريس، وعدداً مُقارناً في بالُون؛ البلدة التي كان والد غُودفرُوي دُو بلُويُون كُونتاً عليها. هذا الإيثار، الذي ـ لرُبَّما ـ كان لدرجة أكبر من نجاحه الرَّائع، جعله محبوباً للأجيال اللَّاحقة.

وفي وقت مُتأخِّر حتَّىٰ القرن الثَّامن عشر، وُقِّرَ من قِبَل رجال؛ مثل السِّيْر إسحاق نيُوتن، الذي قرأ أعماله بشكل جادٍّ، وذيَّلها في أعماله علىٰ نَحْو غزير، وحتَّىٰ إنَّه نَسَخَ أحدَها باليد.

رينيه دانجاو: لم نكتشف أيَّ اتِّصال مُسجَّل بين فلاميل ورينيه دانجاو. في الوقت نفسه ـ علىٰ أيَّة حال ـ رينيه وحده أعطانا مادَّة كافية للتَّأمُّل. بالرّغم من أنَّه يُعرَف القليل عنه اليوم، إلَّا أنَّه كان أحد أهمِّ الشَّخصيَّات في السَّنوات، التي سبقت ـ مُباشرة ـ عصر النَّهضَة.

وُلِدَ في عام 1408، وفي فترة حياته، حمل صفَّاً رهيباً من الألقاب. أكثرها أهمِّيَّة كانت: كُونت بار، كُونت برُوفانس، كُونت بيدمُونت، كُونت غايس، دُوق كلابريا، دُوق أنجاو، دُوق لُورين، ملك هنغاريا، ملك نابولي وصقلية، ملك آرغن، وفالينسيا، ومايُوركا، وساردنيا.

ورُبَّما اللَّقَب الأكثر فخامة من الكُلِّ، ملك القُدْس. هذه المنزلة الأخيرة كانت ـ بالطَّبع ـ فخريَّة تماماً. علىٰ الرّغم من هذا، هي استحضرت استمراريَّةً، امتدَّت رُجُوعاً حتَّىٰ غُودفرُوي دُو بلُويُون، وأُقِرَّ بها من قِبَل المُلُوك الأُورُوبيِّيْن الآخرين. إحدىٰ بنات رينيه، في عام 1445، تزوَّجت هنري السَّادس، ملك إنجلترا، وأصبحت شَخْصيَّة بارزة في حُرُوب الوَرْد.

طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر»؛ أصبح رينيه السَّيِّد الأعظم لدَيْر صهيُون في عام 1418، في العاشرة من عُمره ـ وعمُّه لويس، كاردينال بار، قيل بأنَّه مارس وصاية علىٰ «السِّيادة العُظْمَىٰ علىٰ العَرْش» حتَّىٰ عام 1428.

كَشَفَ بحثُنا بأنَّ رينيه أُدخِلَ إلىٰ نظام من نوع ما في عام 1418 ـ اسم ذلك النِّظام هُو «l'Ordre du Levrier Blanc» (السَّلوقيّ الأبيض) ـ لكنَّنا لم نكتشف المزيد من المعلومات حول ذلك النِّظام.

بالتَّأكيد؛ رُبَّما كان ذلك النِّظام هُو دَيْر صهيُون تحت اسم آخر.

في وقت ما بين عامَيْ 1420 و 1422، كاردينال لُورين أسَّس نظاماً آخر، اسمه « l'Ordre de la Fidelité» (نظام الإخلاص)، ورينيه أُدخِلَ كأحد الأعضاء الأصليِّين. في عام 1448، رينيه أسَّس نظاماً بنفسه، يُدعَىٰ نظام الهلال. رينيه بنفسه وَصَفَ نظام الهلال علىٰ أنَّه نُسخة مُجدَّدة لنظام «السَّفينة والهلال المُضاعف» القديم ـ الذي كان غليُوم دُو جيزرز عُضواً فيه، قبل قرن ونصف من ذلك. من بين الفُرسان الأصليِّين لنظام الهلال؛ كان فرانسيسكُو سفُورزا، دُوق ميلان، ووالد راعي ليُوناردُو دافينشي؛ كُونت لينُونكُورت، والذي ذُكِرَ طبقاً لـ«وثائق الدَّيْر» بأنَّ سليله هُو الذي جَمَعَ عِلْمَ الأنساب في الملفَّات السِّرِّيَّة؛ وشَخْص يُدعَىٰ فيري، وهُو لُورد إقطاعيَّة مُهمَّة في لُورين يعود تاريخها حتَّىٰ أوقات الميرُوفنِّيِّين، وتُدعَىٰ صهيُونـفُودمُونت. هؤلاء الأفراد سخَّرهم رينيه للقيام بعمل انتقامي ضدَّ نظام غارتر في إنجلترا، ونظام الصُّوف الذَّهبي في بيرغُوندي. ولكنْ؛ لأسباب ماتزال غير واضحة، نظام الهلال لاقىٰ استياء كَنَسيَّاً، وقُمِعَتْ من قِبَل البَابَا.

إنَّه من رينيه دانجاو اشتُقَّ صليب لُورين الحديث ـ والذي كان يرمز للقُوَّات الفرنسيَّة الحُرَّة، أثناء الحرب العالميَّة الثَّانية. عندما أصبح دُوق لُورين، الصَّليب المألوف ـ الآن ـ بذراعَيْه الأُفُقيَّتَيْن أصبح شعاره المَلَكي الشَّخصي.

إيُولند دُو بار: وُلِدَتْ حوالي عام 1428، إيُولند دُو بار كانت ابنة رينيه دانجاو. في عام 1445، كانت مُتزوِّجة من فيرن، لُورد بلدة صهيُونـفُودمُونت، وأحد الفُرسان الأصليِّين في نظام رينيه «نظام الهلال». بعد موت فيرن؛ أمضت إيُولند مُعظم حياتها في بلدة صهيُون في فُودمُونت[1]، والتي تحوَّلت تحت رعايتها من مركز حَجٍّ محلِّيٍّ إلىٰ موقع مُقدَّس لكُلِّ منطقة لُورين. في الماضي الوَثَني البعيد، تمتَّع المكان بمنازل مُقَدَّسَة كثيرة، وقد وُجِدَ هُناك ـ بعد ذلك ـ تمثال رُوزميرت، وهي الإلهة الأُمُّ القديمة للشُّعُوب الغاليَّةـ التيُوتُونيَّة. حتَّىٰ في الأوقات المسيحيَّة الأُولىٰ؛ كان يُعدُّ الموقع مُقدَّساً؛ بالرّغم من أنَّ اسمه كان ـ آنذاك ـ الجبل السَّامي، يدلُّ علىٰ شيء يهُودي أكثر منه مسيحي.

---

(1) (فُودمُونت منطقة إلىٰ الشَّرق من باريس. المُترجم).

أثناء العهد الميرُوفي؛ تمثال العذراء كان قد نُصِبَ هُناك، وفي عام 1070، كُونت فُودمُونت الحاكم أعلن نفسه ـ بشكل عَلَني ـ بأنّه «تابع للملكة السَّماء». «عذراء صهيُون» أُعلِنَتْ رَسْميّاً بأنّها «ملكة كُونت فُودمُونت». الأعياد أُقيمَتْ علىٰ شرفها في كُلِّ شهر مايو/ مايس، وأُقِرَّتْ بأنّها حامية لكُلِّ لُورين. أبحاثنا حصلت علىٰ وثيقة، تاريخها من عام 1396، والتي تعود إلىٰ جمعيّة دينيّة فُروسيّة خاصّة مركزها في الجبل، واسمها «الجمعيّة الدِّينيّة لنُبلاء صهيُون» ـ والتي تعود أُصُولها ـ كما يُعتقَد ـ إلىٰ الدَّيْر القديم علىٰ جبل صهيُون خارج القُدْس. في القرن الخامس عشر ـ علىٰ أيّة حال ـ يبدو أنَّ منطقة صهيُون ـ فُودمُونت قد فَقَدَتْ بعضاً من أهمّيّتها. إيُولند دُو بار أعادت إليها البعض من مجدها السَّابق.

رينيه ابن إيُولند: أصبح دُوق لُورين بعد ذلك. بأوامر من والدَيْه، تعلَّم في فلورينس، وهكذا أصبح مُثقَّفاً جدّاً في التَّقاليد الباطنيّة، وفي التَّوجُّهات الأكاديميّة. مُعلِّمه كان جُورجيس أنطوان فيسبُوش، أحد رُعاة وكُفلاء بُوتيشيلي[1] الرَّئيسيِّيْن.

ساندُرو فيليبي: معروف ـ بشكل أكثر ـ باسم بُوتيشيلي، ساندُرو فيليبي وُلِدَ في عام 1444. باستثناء نيكُولاس فلاميل، هُو الاسم الأوَّل في قائمة الأسياد العظام لدَيْر صهيُون المزعومين، والذي لا ينتسب ـ مُباشرة ـ للعائلات التي وَرَدَتْ في عِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر».

في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ يبدو بأنّه تمتَّع بعلاقة قريبة جدّاً مع البعض من تلك العائلات. من بين رُعاته كان آل ميديسي، وآل إيستي، وآل غُونزاغا، وآل فيسبُوش ـ آخر الذين علَّموا ابن إيُولند دُو بار، الدُّوق المُستقبلي للُورين. بُوتيشيلي نفسه دَرَسَ علىٰ أيدي فيليبُو ليبي، ومانتيغنا، اللَّذَيْن كلاهما كانا تحت رعاية رينيه دانجاو. دَرَسَ ـ أيضاً ـ تحت يدَيْ فيرُّوكيو، الخيميائي، وداعية الفِكْر السِّحْري، الذي كان من بين تلامذته الآخرين ليُوناردُو دافينشي.

كمُعظم النَّاس ـ نحنُ في بادئ الأمر ـ لم نُفكِّر في انغماس بُوتيشيلي في الأُمُور الغامضة، أو الباطنيّة. لكنَّ العُلماء في أواخر عصر النَّهضَة ـ مثلاً، إدغار ويند، وفرانسيس ييتس ـ أثبتوا ـ بشكل فعَّال ـ المُيُولَ الباطنيّة لديه، ونحنُ رَضَخْنَا للإقناع النَّاجم عن استنتاجاتهم. يبدو بأنَّ بُوتيشيلي

(1) (بُوتيشيلي، ساندُرو (1445 ـ 1510): رسَّام إيطالي، من مواليد فلُورنسا. المُترجم).

كان من أتباع السِّرِّيَّة والباطنيَّة، والجُزء الأعظم من عمله يعكس صلته بالمبادئ الباطنيَّة، والسِّحْرِيَّة. إنَّ أوَّل مجموعة أوراق الشَّدَّة تُنبئ بالحظِّ والقَدَر، تُنسَب إلىٰ إمَّا بُوتيشيلي، أو مُعلِّمه مانتيغنا[1]. واللَّوحة المشهورة «بريمافيرا» (Pnimavera)، من بين العديد من الأشياء الأُخْرَىٰ، تُسهب في موضوع أركاديا، و«الجدول التَّحت أرضي» الباطني.

ليُوناردُو دافنتشي: وُلِدَ في عام 1452، ليُوناردُو كان علىٰ معرفة جيِّدة بِبُوتيشيلي ـ في الجُزء الأكبر منها نتيجة تمهُّنهما المُشترَك علىٰ يدي فيرُّوكيُو[2]، مثل بُوتيشيلي رُعِيَ من قِبَل آل ميديسي، وآل إيستي، وآل غُونزاغا. رُعِيَ ـ أيضاً ـ من قِبَل لُودوفيكُو سفُورزا، ابن فرانسيسكُو سفُورزا، أحد أعزّ أصدقاء رينيه دانجاو، وعُضو أصلي في نظام الهلال.

مصالح وتوجُّهات ليُوناردُو الباطنيَّة ـ مثل بُوتيشيلي ـ بُرهنَتْ ـ بشكل جيِّد ـ حتَّىٰ الآن. فرانسيس ييتس، في حوار مع أحد باحثينا، وصفَتْهُ كالرُّوزيكرُوشيّ الأوَّل. لكنَّ حالة ليُوناردُو السِّرِّيَّة الباطنيَّة يبدو أنَّها تمتدُّ إلىٰ درجة أكبر من بُوتيشيلي. حتَّىٰ فارساري، الذي كان مُعاصراً له، وكاتباً لسيرته، يصفه كما لو أنَّه يُشكِّل «فريقاً من ذوي التَّفكير الهَرْطَقي». وما هُو ـ بالضَّبط ـ الشَّيء الذي ـ لرُبَّما ـ أدَّىٰ إلىٰ بِدْعَتِهِ يبقىٰ غير واضح. أثناء السَّنوات القليلة الماضية ـ علىٰ أيَّة حال ـ بعض المعلومات التي نُسبَتْ إليه تقول بأنَّ إيمانه الهَرْطَقي القديم يقول بأنَّ السَّيِّد المسيح كان له توأم. بالتَّأكيد؛ هُناك دليل لهذا الزَّعْم في رَسْم كرتُوني يُدعَىٰ «العذراء والقدِّيس يُوحنَّا المَعْمَدَان والقدِّيسة آن»، وفي «العشاء الأخير» الشَّهير؛ يكون ـ في الحقيقة ـ هُناك سيِّدان مسيحيَّان مُتماثلان فِعْليَّاً. لكنْ؛ ليس هُناك إشارة سواء كان مذهب توأمة السَّيِّد المسيح اتُّبِعَ حَرْفيَّاً، أم رَمْزِيَّاً.

بين عامَيْ 1515 و 1517، ليُوناردُو ـ كمُهندس عَسْكَري ـ التحق بجيش تشارلز دُو مُونتبنسيير، ودُو بُوربُون، الضَّابط الإداري والعَسْكَري الرَّئيسي في فرنسا، ونائب ملك لانغدُوق، وميلان. في عام 1518، استقرَّ في قلعة كلاوكس، ويبدو بأنَّه ـ ثانية ـ كان علىٰ مقربة من الضَّابط الإداري والعَسْكَري الرَّئيسي لفرنسا، والذي كان يعيش في مكان قريب في أمبُويس.

---

(1) (آندريه مانتيغنا (1431 ـ 1506) رسَّام إيطالي. رُعاته الرَّئيسيُّون كانوا آل غُونزاغا في مانتوا، إيطاليا. المُترجم).

(2) (فيرُّوكيُو، آندريا دَلْ (1435 ـ 1488): رسَّام ونحَّات إيطالي، كان أُستاذاً لليُوناردُو دافينتشي. المُترجم).

كُونتيبل دُو بُوربُون: تشارلز دُو مُونتبنسير، ودي بُوربُون، دُوق تشاتِلير ولت، الضَّابط الإداري والعَسْكَري الرَّئيسي لفرنسا، ومن المُحتمَل أنَّه اللُّورد الأقوىٰ والأوحد في فرنسا في بداية القرن السَّادس عشر.

وُلِدَ في عام 1490، كان ابن كلير دُو غُونزاغا؛ وتزوَّجت أُخته دُوق لُورين، حفيد إيُولند دُو بار، وابن حفيد رينيه دانجاو. من بين حاشية تشارلز الشَّخصيَّة؛ كان هُناك شَخص يُدعَىٰ جين دُو جُويُوز، الذي ـ من خلال الزَّواج ـ كان قد أصبح لُورد كاويزا، ورين لُو شاتُو، وآركس، ذلك المكان القريب من القَبْر المُماثل للقَبْر الموجود في أحد أجنحة رُسُومات بُوسَّان.

كنائب لملك ميلان، تشارلز كان علىٰ اتِّصال مع ليُوناردُو دافينشي، ويبدو أنَّ هذا الاتِّصال استمرَّ لاحقاً، قُرب أمبُويس.

في عام 1521ـ علىٰ أيَّة حال ـ عانىٰ تشارلز من استياء فرانسوا الأوَّل ملك فرنسا، وأجبر علىٰ تَرْك أملاكه، وهرب مُستخدماً اسماً مُزيَّفاً في البلاد. وَجَدَ مأوىٰ عند تشارلز الخامس، الإمبراطُور الرُّوماني المُقَدَّس، وأصبح قائداً للجيش الإمبراطُوري. في هذه القُدرة؛ هَزَمَ، وأَسَرَ الملكَ الفرنسيَّ في معركة بافيا عام 1525. بعد سنتَيْن؛ تُوفِّي بينما كان يُحاصر رُومَا.

فيردناند دُو غُونزاغ: يُعرَف ـ عُمُوماً ـ باسم فيرانت دُو غُونزاغا.

وُلِدَ عام 1507، وهُو ابن دُوق مانتوا، وابن إيزابيلا ديستي، التي هي أحد رُعاة ليُوناردُو الأكثر تحمُّساً. لقبه الأساسي كان كُونت قشتالة. في عام 1527، ساعد ابن عمِّه، تشارلز دُو مُونتبنسير، ودُو بُوربُون، في العمليَّات العَسْكَريَّة الأخيرة. بعد بضع سنوات؛ يبدو بأنَّه كان علىٰ اتِّحاد سرِّيٍّ مع فرانسوا دُو لُورين، دُوق غايس، الذي كان علىٰ بُعْد شعرة من الاستيلاء علىٰ العَرْش الفرنسي. عَمَليَّاً؛ مثل كُلِّ آل غُونزاغا من مانتوا، فيرانت كان مُحبَّاً مُثابراً للفِكْر الباطني.

قدَّم لنا ـ أيضاً ـ الجُزء الوحيد من المعلومات، التي يُزعَم أنَّها خاطئة في كافَّة «وثائق الدَّيْر». طبقاً لقائمة الأسياد العظام في دَيْر صهيُون في الملفَّات السِّرِّيَّة؛ ترأَّس فيرانت النِّظام حتَّىٰ موته في عام 1575.

طبقاً للمصادر المُوثَّقة ـ علىٰ أيَّة حال ـ يُعتقَد بأنَّه تُوفِّي قُرب برُوكسل في عام 1557. الظُّرُوف التي تُحيط موته مُبهمَة جدَّاً، ومن المُحتمل ـ بالطَّبع ـ بأنَّه لم يمتْ في عام 1557، مُطلقاً، لكنَّه ـ فقط ـ اختفىٰ. من النَّاحية الأُخرَىٰ؛ التَّاريخ في الملفَّات السِّرِّيَّة قد يكون خطأً أصيلاً. والأكثر من ذلك؛ فيرانت كان لديه ابنٌ اسمه قَيْصَر، وتُوفِّي عام 1575، والذي ـ بطريقة ما ـ اختلط اسمه بأبيه بتعمُّد، أو لسبب آخر. النُّقطة الأهمُّ هي أنَّنا لم نجد أيَّة أخطاء أُخرىٰ، والتي تبدو واضحة جدَّاً كهذه في «وثائق الدَّيْر» حتَّىٰ عندما كان الموضوع غامضاً لدرجة أكبر بكثير، ومُعرَّضاً للتَّناقض عن المصادر الأُخْرَىٰ المُوثَّقة. بدا ـ تقريباً ـ بالنِّسبة لنا أنَّه من المُستحيل أنْ يكون الخطأ في هذه الحالة المُعيَّنة قد حَدَثَ نتيجة مُجرَّد إهمال، أو إغفال. بالعكس؛ كان ذلك الخطأ ـ تقريباً ـ كما لو أنَّه يُحاول إخفاء شيء ما، وذلك بدَحْضه لروايات مقبولة بشكل صارخ.

لويس دُو نيفرز: لويس هُو دُوق نيفرز، وكان ـ في الحقيقة ـ هُو لويس دُو غُونزاغا. وُلِدَ في عام 1539، وكان ابن أخ فيرانت دُو غُونزاغا، الذي كان سَلَفَهُ علىٰ قائمة الأسياد العظام لدَيْر صهيُون. أخوه تزوَّج من عائلة هابسبرغ، وابنته تزوَّجت دُوق لُونغفيل، اللَّقب الذي حمله مُسبقاً بلانتش ديفرُوكس؛ تزوَّجت حفيدة أخيه من دُوق لُورين، وكرَّست اهتماماً كبيراً للموقع المُقَدَّس القديم في منطقة صهيُون ـ فُودمُونت. في عام 1622، شيَّدت صليباً خاصَّاً هُناك، وفي عام 1627، تمَّ تأسيس بيت ومدرسة دينيَّة.

أثناء الحُرُوب الدِّينيَّة، كان لويس دُو نيفرز علىٰ تحالف مُباشر مع آل لُورين، ومع فرع الابن الأصغر، آل غايس، الذين أبادوا ـ بشكل فعَّال ـ سُلالة فالوا القديمة في فرنسا، وتقريباً؛ حصلوا علىٰ العَرْش لأنفسهم.

في عام 1584 ـ علىٰ سبيل المثال ـ لويس وقَّع مُعاهدة مع دُوق غايس، وكاردينال لُورين، يتعهَّد فيها بالمُعارضة المُشتركة لهنري الثَّالث ملك فرنسا. مثل زُملائه ـ علىٰ أيَّة حال ـ أصبح راضياً بهنري الرَّابع، وعمل كمُدير التَّمويلات للملك الجديد. في شُغله لذلك المنصب، كان علىٰ توافق قريب من منصب والد رُوبرت فلُود. السِّيْر تُوماس فلُود كان أمين صُندُوق الفرقة العَسْكَريَّة التي أُرسِلَتْ من قِبَل إليزابيث الأُولىٰ، ملكة إنجلترا، لدَعْم الملك الفرنسي.

لويس دُو نيفرز، كَكُلِّ آل غُونزاغا، كان مُطَّلعاً جدّاً علىٰ التَّقليد الباطني، ويُعتقَد بأنَّه ارتبط بجُوردانُو برُونُو، الذي ـ طبقاً لفرانسيس ييتس ـ اشترك في بعض المُجتمعات السِّحْرِيَّة السِّرِّيَّة، التي سبقت الرُّوزيكرُوشيِّين.

في عام 1582 ـ علىٰ سبيل المثال ـ لويس كان في إنجلترا، مُرافقاً للسِّيْر فيليب سيدني (مُؤلِّف أركاديا)، ولجُون دي، الذي كان الباطنيّ الإنجليزي الأوَّل في عصره. بعد عام؛ قام برُونُو بزيارة أُكسفُورد، ورافق الأشخاص أنفسهم، وسرَّع وتيرة نشاطات مُنظَّمتهم السِّرِّيَّة، كما تُصرِّح فرانسيس ييتس.

رُوبرت فلُود: وُلِدَ في عام 1574، ورث رُوبرت فلُود دُور جُون دي كالدَّاعيَة الإنجليزي البارز للفِكْر الباطني. كَتَبَ ونَشَرَ بغزارة، وشمل في أعمال طيف واسع من المواضيع الباطنيَّة، وطوَّر إحدىٰ أكثر الصِّياغات الشَّاملة للفَلْسَفَة السِّحْرِيَّة المكتوبة علىٰ الإطلاق.

تقترح فرانسيس ييتس بأنَّ البعض من أعماله قد يكون «الخَتْم، أو الرَّمْز السِّرِّي لطائفة، أو لمُجتمع هَرْطَقي». بالرّغم من أنَّ فلُود نفسه لم يدَّع بأنَّه كان عُضواً من الرُّوزيكرُوشيِّين، الذين كانوا يُحدثون ضجَّة في القارَّة آنذاك، إلَّا أنَّه أيَّدهم بشكل حميم؛ حيثُ أعلن بأنَّ «أفضل الجُودة» كانت طائفة «المجوس»، وهُم القَبَلانيُّون والخيميائيُّون من طائفة «أُخوة الصَّليب الوَرْدي».

في الوقت نفسه؛ ارتقىٰ فلُود لمنصب رفيع في كُلِّيَّة الطِّبِّ في لندن، ومن بين أصدقائه؛ كان وليام هارفي، الذي اكتشف الدَّورة الدَّمويَّة. تمتَّع فلُود بإحسان جيمس الأوَّل، وتشارلز الأوَّل، كلاهما مَنَحَاهُ عدداً من الأراضي في سُوفُولك. كان موجوداً في الاجتماع السِّرِّيِّ للعلماء، الذي عُقِدَ لترجمة إنجيل الملك جيمس.

والد فلُود كان علىٰ علاقة بلويس دُو نيفرز. فلُود نفسه تعلَّم في أُكسفُورد؛ حيثُ يبدو أنَّ جُون دي والسِّيْر فيليب سيدني أسَّسا مجموعة ذات اهتمامات باطنيَّة قبل سنوات قليلة من ذلك، بين عامَيْ 1596 و 1602.

سافر فلُود علىٰ نطاق واسع في أُورُوبا، وصادق العديد من الأشخاص، اشتركوا ـ بعد ذلك ـ في المُتعة الرُّوزيكرُوشيَّة. من بينهم؛ كان شَخْص يُدعَىٰ جانُوس غرُوتر، صديق شَخْصي مُقرَّب ليُوهان فالانتاين أندريا.

في عام 1602، استلم فلُود مهمَّة مُثيرة، وهامَّة. دُعِيَ ـ بشكل مُحَدَّد ـ إلىٰ مرسيليا للعمل كمُعلِّم شَخْصي لأبناء هنري لُورين، وخُصُوصاً تشارلز، الدُّوق الشَّابّ لغايس. علاقته مع تشارلز يظهر أنَّها استمرَّت لوقت مُتأخِّر حتَّىٰ عام 1620.

في عام 1610، تشارلز، دُوق غايس، تزوَّج هنرييتكاثرين دُو جُويُوز. من بين أملاك هذه الزَّوجة؛ كانت أرض كاويزا، والتي تقع في أسفل الجبل، الذي تقع فيه قرية رين لُو شاتُو. وتضمَّنت تلك المنطقة آركس أيضاً؛ حيثُ يُوجد القَبْر المُماثل للقَبْر الذي في صُورة بُوسَّان. بعد حوالي عشرين سنة، في عام 1631، دُوق غايس، بعد التَّآمر ضدَّ العَرْش الفرنسي، رحل طوعيّاً إلىٰ المَنْفىٰ في إيطاليا؛ حيثُ انضمَّت إليه قريباً زوجته.

تُوفِّي في عام 1640. لكنَّ زوجته لم يُسمَح لها بالعودة إلىٰ فرنسا، حتَّىٰ وافقت علىٰ بَيْع كاويزا، وآركس، إلىٰ الملك.

يُوهان فالانتاين أندريا: أندريا ابن قسٍّ، وعالم ديني لُوثريّ[1]. وُلِدَ في عام 1586، في ورتِمبرغ، والتي تحدُّها لُورين وبلاطينيَّة الرَّاين. بحُدُود عام 1610، كان يُسافر حول أُورُوبا، وأُشيع بأنَّه كان عُضواً في جمعيَّة سرِّيَّة من المُطَّلعين السِّحْريِّيْن، أو الباطنيِّيْن.

في عام 1614، عُيِّن شمَّاساً للكَنيسَة، في بلدة صغيرة، قُرب شتُوتغارد، ويبدو أنَّه بقي هُناك بلا أذىٰ خلال اضطراب حرب الثَّلاثين عاماً (1618ـ 1648) اللَّاحقة.

رُوبرت بويل: رُوبرت بويل وُلِدَ في عام 1627، وهُو الابن الأصغر لإيرل كُورك[2]. تعلَّم في إتُون، في كُلِّيَّة يرأسها السِّيْر هنري ووتون، الذي كان علىٰ علاقة وطيدة مع الحاشية الرُّوزيكرُوشيَّة لفريدريك، ملك البلاتينايت[3].

(1) (لُوثريّ: ذو علاقة بالمُصلح الدِّيني لُوثر (1483 ــ 1546)، أو بمذهبه، أو بالكَنائس البرُوتستانتيَّة المُتمسِّكة بتعاليمه. المُترجم).

(2) (إقليم في جنوب إيرلندا. المُترجم).

(3) («البلاتينايت» Palatinate، وهُما مُقاطعتان ألمانيَّتان، كان يحكم كُلاًّ منهما، في عهد الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقدَّسة، أمير بلاطينيّ. المُترجم).

في عام **1639**، شرع بويل في جولة أُورُوبيَّة مُطوَّلة. أمضىٰ بعض الوقت في فلورنسا؛ حيث آل ميديسي، يُقاومون الضُّغُوطَ البَابَويَّة، واصلوا تقديم الدَّعْمَ للباطنيِّين والعُلماء بمَنْ فيهم غاليلو وأمضىٰ **21** شهراً في جنيف؛ حيثُ اكتسب العديد من الاهتمامات والمعارف الباطنيَّة. بما في ذلك المعارف الشَّيطانيَّة.

أثناء زيارته لجنيف؛ حصل علىٰ عمل أدبي اسمه «شيطان ماسكُون»، والذي تُرجِمَ من قِبَل شَخْص يُدعَىٰ بيير دُو مُولين، الذي أصبح صديق العُمر. والد دُو مُولين كان القسِّيس الشَّخصي لكاثرين دُو بار، زوجة هنري دُو لُورين (دُوق بار). بعد ذلك؛ حصل الأب دُو مُولين علىٰ الرِّعاية المُثابرة من قِبَل «هنري دُو لا تُور دُوفيرن»، الذي كان فيكُونت تُورين، ودُوق بلُويُون.

لدىٰ عودته إلىٰ إنجلترا في عام **1645**، أسَّس بويل اتِّصالاً مُباشراً مع حلقة صموئيل هارتليب، صديق أندريا المُقرَّب، والمُتراسل معه. الرَّسائل التي يعود تاريخها للفترة بين عامَيْ **1646** و **1647**، تتكلَّم ـ مراراً، وتكراراً ـ عن «كُلِّيَّة سرِّيَّة». فهي تُصرِّح مثلاً «أنَّ الأركان الأساسيِّيْن في الكُلِّيَّة السِّرِّيَّة الفَلْسَفِيَّة شرَّفوني ـ الآن ـ بمُشاركتهم.

في عام **1654**، كان بويل في أُكسفُورد؛ حيثُ صادق جُون ويلكن، القسِّيس السَّابق لفريدريك ملك بالاتينيت. في عام **1660**، كان بويل من بين أوائل الشَّخصيَّات العامَّة، التي تُقدِّم الولاء لآل ستيوارت، الذين عادوا حديثاً، وأصبح تشارلز الثَّاني راعياً للجمعيَّة المَلَكيَّة. في عام **1668**، استقرَّ في لندن، وعاش عند أُخته، التي أصبحت بزواجها من أقارب جُون دُوري، الصّديق الآخر لأندريا، والمُتراسل معه.

في أملاكه في لندن، بويل استقبل العديد من الزُّوَّار البارزين؛ بمَنْ فيهم كُوزيمُو الثَّالث دُو ميديسي، الذي أصبح ـ فيما بعد ـ حاكم فلُورينس، والدُّوق الأكبر لتسكانيا.

أثناء هذه السَّنوات؛ أقرب صديقَيْن لبويل كانا إسحاق نيُوتن، وجُون لُوقَا. وقيل بأنَّه علَّم نيُوتنَ أسرارَ الخيمياء. في أيِّ حال من الأحوال، كلاهما كانا يجتمعان بانتظام لمُناقشة ودراسة الأعمال الخيميائيَّة. لُوقَا ـ في هذه الأثناء ـ بعد فترة قليلة من صداقته مع بويل، شرع في إقامة طويلة في جنوب

فرنسا. معروف بأنّه قام بزيارات خاصّة إلىٰ قبْرَيْ ناسترادامُوس، ورينيه دانجاو. معروف بأنّه تجوّل علىٰ مقربة من تُولُوز، وكركسُون، وناربُون؛ ومن المعقول تماماً قُرب رين لُو شاتُو أيضاً.

معروف بأنّه ارتبط بدُوقة غايس. معروف بأنّه دَرَسَ تقارير محاكم التّفتيش المُتعلّقة بالكاثَار، بالإضافة إلىٰ الأساطير التّاريخيّة المُتعلّقة بالزّعم القائل بأنّ مَرْيَم المَجْدَليّة جَلبَت «الكأس المُقدّسة» إلىٰ مرسيليا. في عام 1676، زار المقام المزعوم لمَرْيَم المَجْدَليّة في سانت باوم.

بينما كان لُوقَا يستكشف لانغدُوق، بويل حافظ علىٰ تراسل هائل مع القارّة. من بين أوراقه؛ هُناك رسائل نصفها ـ تقريباً ـ مُتبادل مع أشخاص غامضين ومجهولين في فرنسا ـ أحدهم جُورجيس بيير، والذي من المُحتمل ـ تماماً ـ أنّه اسم مُستعار.

تتعامل هذه الرّسائل علىٰ نطاق واسع بالخيمياء، وتجاربها. الأكثر أهمّيّة ـ علىٰ أيّة حال ـ أنّها تتحدّث عن عُضويّة بويل في مُجتمع سِحْريّ سرّيّ ـ الذي كان يضمّ ـ أيضاً ـ دُوق سافُوي، وبيير دُو مُولين.

بين عامَيْ 1675 و 1677، نَشَرَ بويل أُطرُوحتَيْن خيميائيّتَيْن طموحَتَيْن؛ عُنوان الأُولىٰ «تسخين الزّئبق بالذّهب»، والثّانية «وَصْف تاريخي لحَلّ الذّهب». في عام 1689، نَشَرَ بياناً رَسْميّاً يُعلن بأنّه لا يستطيع أنْ يستقبل الزُّوّار في أيّام مُعيّنة، خصّصها لتجاربه الخيميائيّة. كَتَبَ يقول:

(هذه التّجارب هي استجابة لهدفي السّابق في تَرْك نوع من التُّراث السّحْري للأتباع المُولَعين في دراسة ذلك الفنّ، ولكي أُحرّر في ورقة ـ بشكل صريح ـ عن بعض العمليّات الكيميائيّة، والطّبّيّة، التي هي أقلّ بساطة وسُهُولة من تلك التي هي شيطانيّة بشكل صريح، والتي كُنتُ مُتأثّراً بها عادةً، وعن النّوع الأكثر صُعُوبة وإتقاناً من تلك التي نَشَرْتُها حتّىٰ الآن، وأكثر نُبلاً من نوعها في الأسرار السّحْرِيّة، أو كما يُصنّفها هيلمُونت[1] «الأسرار الأسمىٰ»).

أضاف بأنّه ينوي التّحدُّث بصراحة بقدر ما يستطيع: (علىٰ الرّغم من أنّ الاستعمالات الكاملة لم تُذكَر، ذُكِرَتْ جُزئيّاً لأنّه بالرّغم من إحساني إلّا أنّني مُلتزم بالسّرّيّة).

(1) (صيدلي تجريبي قديم، وفسيُولُوجي فلمنكي. 1580 ـ 1644. المُترجم).

«الورقة» المُلحقة التي أشار إليها بويل لم يُعثَر عليها أبداً. لرُبَّما وصلت إلىٰ يدَيْ لُوقَا، أو علىٰ الأرجح، نيُوتن. عند موته في عام 1691، بويل ائتمن كُلَّ أوارقه الأُخْرَىٰ إلىٰ أُولئك المُستشارين، بالإضافة إلىٰ عيِّنات من «مسحوق أحمر غامض»، الذي ذُكِرَ - بوُضُوح - في مُعظم مُراسلات بويل، وفي تجاربه الخيميائيَّة.

إسحاق نيُوتن: إسحاق نيُوتن وُلِدَ في لنكُولنشير في عام 1642، تحدَّر من «طبقة النُّبلاء الإسكتلنديَّة القديمة» كما أصرَّ، بالرّغم من أنَّه لا يبدو أنَّ هُناك أحداً نَظَرَ إلىٰ هذا الادِّعاء بجدِّيَّة كبيرة. تعلَّم في كامبردج، تمَّ اختياره للجمعيَّة المَلَكيَّة في عام 1672، وتعرَّف علىٰ بويل للمرَّة الأُولىٰ في السَّنة التَّالية. في الفترة بين عامَيْ 1689 - 90 ارتبط مع جُون لُوقَا، ومع شَخْص مُحيِّر وغامض يُدعَىٰ نيكُولاس فاتيُو دُو دُويلير. يبدو أنَّ فاتيُو دُو دُويلير المُتحدِّر من الأرستقراطيَّة الجنيفيَّة، انتشر بعجرفته اللَّامُبالية في أنحاء أُورُوبا في زمانه. يظهر - أحياناً - أنَّه عمل كجاسُوس، عادةً ضدَّ لويس الرَّابع عشر فرنسا. يظهر - أيضاً - بأنَّه كان علىٰ علاقات عميقة مع كُلِّ العُلماء المُهمِّين في ذلك العصر. ومُنْذُ ظُهُوره في إنجلترا؛ كان الصَّديق الوحيد الأقرب لنيُوتن. واسماهما ارتبطا - بشكل متين - في العقد اللَّاحق؛ علىٰ أقلِّ تقدير.

في عام 1696، أصبح نيُوتن مُراقب الدَّار المَلَكيَّة لسَكِّ النُّقُود، وكان ذا دور فعَّال - بعد ذلك - في تثبيت معيار الذَّهَب. في عام 1703، انتُخِبَ رئيساً للجمعيَّة المَلَكيَّة. في هذا الوقت - تقريباً - أصبح صديقاً - أيضاً - لشابٍّ بُروتستانتي فرنسي لاجئ اسمه جين ديزاغيُوليرز، الذي كان أحد الاثنَيْن القيِّمَيْن علىٰ تجارب الجمعيَّة المَلَكيَّة. في السَّنوات التَّالية؛ أصبح ديزاغيُوليرز واحداً من الشَّخصيَّات البارزة في الماسُونيَّة، التي كانت تنتشر - بشكل مُدهش - في كافَّة أنحاء أُورُوبا. ارتبط بشَخْصيَّات ماسُونيَّة قياديَّة أمثال جيمس أندرسُن، والنَّبيل رَمْزي، وتشارلز رادكليف.

وفي عام 1731، كَسَيِّد للمحفل الماسُوني في لاهاي، ترأَّس مراسم تنصيب أوَّل أمير أُورُوبي في تلك «الحِرْفَة». هذا الأمير كان فرانسوا، دُوق لُورين؛ الذي - بعد زواجه من ماريا تيريزا النِّمساويَّة - أصبح الإمبراطُور الرُّوماني المُقدَّس.

ليس هُناكَ سِجِلٌّ بأنَّ نيُوتن بنفسه كان ماسُونيّاً. في الوقت نفسه ـ علىٰ أيّة حال ـ كـان عُـضواً في مُؤسَّسة نـصف ماسُـونيَّة، «نـادي سـبالدنغ للرِّجـال النُّبلاء»؛ الـذي تـضمَّن أشخاصـاً بـارزين كإلكساندر بُوب[1].

علاوةً علىٰ ذلك؛ بعض من مواقفه وأعماله تعكس مصالح مُشتركة لدىٰ شَخْصيَّات ماسُونيَّة في تلك الفترة. كالعديد من المُؤلِّفين الماسُونيِّيْن ـ علىٰ سبيل المثال ـ عُدَّ نُوح كَالمـصدر الكامـل والتَّـامِّ للحِكْمة الباطنيَّة، وبشكل أكبر من مُوسىٰ.

حوالي عام 1689، بدأ بالعمل الذي عُدَّ الأكثـر أهمِّيَّـة في أعمالـه؛ وهُـو دراسـة الحُكُومـات المَلَكيَّة القديمة. هذا الكتاب ـ والذي عُنوانه «تنقيح الأحداث التَّاريخيَّة للممالك القديمـة» ـ يُحـاول بَرْهَنَةَ أُصُول الأساس المَلَكي، بالإضافة إلىٰ أسبقيَّة إسرائيل علىٰ الثَّقافات الأُخْرَىٰ في العصر القـديم. طبقاً لنيُوتن؛ اليهُوديَّة القديمة كانـت مُـستودعاً للمعـارف المُقَدَّسَـة، والتـي ـ بعـد ذلـك ـ فُقِـدَتْ، وتلاشت، وأُفسِدَتْ بشكل كبير. علىٰ الرّغم من هذا، اعتُقِدَ بأنَّ البعض من تلـك العُلُـوم وَصَـلَ إلىٰ فيثاغُورث، وعدَّ أنَّ «مُوسيقىٰ الكرات» التي تحدَّث عنها فيثاغُورث هي استعارة عن قانون الجاذبيَّة. في مُحاولته لصياغة منهجيَّة عِلْمِيَّة دقيقة لتاريخ الأحداث في الكتاب المُقَدَّس والأُسطُورة الكلاسيكيَّة، استخدم قصَّة مَسعىٰ جيسُن للصُّوف الذَّهَبي[2].

كَحَدَثٍ مِحوريٍّ؛ وكغيره من الكُتَّاب الماسُـونيِّيْن والبـاطنيِّيْن الآخـرين، فـسَّر ذلـك المـسعىٰ كاستعارة خيميائيّة. سعىٰ ـ أيضاً ـ لمعرفة «المُطابقات»، أو الارتباطات بـين المُوسـيقىٰ وفـنِّ العـمارة. وكالعديد من الماسُونيِّيْن؛ نَسَبَ أهمِّيَّة عظيمة لهيئة وأبعاد هَيكَل سُلَيْمان. اعتقد بأنَّ أبعاد وهيئة الهَيكَل تُخفي صيغاً خيميائيَّة؛ واعتقد بأنَّ الطُّقُوس القديمة في الهَيكَل تضمَّنت عمليَّاتٍ خيميائيَّةً.

مثل هذه الاهتمامـات مـن طَـرَف نيُـوتن كانـت ـ بالنِّـسبة لنـا ـ شـيئاً مـا مُفاجئـاً. بالتَّأكيـد؛ هي لا تتَّفق مع الصُّورة المأخوذة عنه، والمُنتشرة في قرننا الحالي؛ صُورة العالِم، الذي قام ـ بشكل نهـائي ـ بتأسيس الفَرْق بين الفَلْسَفَة الطَّبيعيَّة وعِلْم اللَّاهُوت.

---

(1) (شاعر بريطاني. المُترجم).

(2) (في الأساطير الإغريقيَّة، هُو الصُّوف الذَّهَبي المُقَدَّس للكَبْش المُجنَّح كريـسُومالُوس، الـذي احـتفظ بـه الملـك في بُستان، وبعد ذلك؛ سرقه جيسن. المُترجم).

علىٰ أيّة حال؛ نيُوتن ـ في الحقيقة ـ كان حافلاً بالنُّصُوص السِّحْرِيَّة، وبشكل أكثر من أيِّ عـالم آخر في عصره، وعكس التَّقليد السِّحْري في مواقفه الخاصَّة. كـشَخْص مُتـشدِّد في الـدِّين، اسـتحوذه البحث عن وحدة قُدْسيَّة، وعن شـبكة مـن التَّطابقـات المُتأصِّـلة في الطَّبيعـة. هـذا البحـث قـاده إلىٰ استكشاف الهندسة المُقَدَّسَة، ودراسة الدّلالات السِّحْرِيَّة للأعداد؛ وهي دراسة للخصائص الجَوْهَرِيَّة للشَّكل، والعدد.

استناداً إلىٰ علاقته مع بويل، كان ـ أيضاً ـ يُزاول الخيميـاء، الـذي ـ في الحقيقـة ـ نَـسَبَ أهمِّيَّـة أساسيَّة إلىٰ عمله الخيميائي. بالإضافة إلىٰ النُّسخ المشروحة شَخْصيَّاً للبيانات الرُّوزيكرُوشيَّة العامَّـة، تضمَّنت مكتبته أكثر من مئة عمل من الأعمال الخيميائيَّة. أحدها هُو مُجلَّد لنيكُـولاس فلاميـل، وقـد قام بنَسْخه بيدَيْه، بشكل مُرهق.

انشغال نيُوتن بالخيمياء استمرَّ طيلة حياته. قـام بمُراسـلات غزيـرة، وغامـضة، تتعلَّـق بهـذا الموضوع مع بويل، ولُوقَا، وفاتيُو دُو دُويلير، وآخرون. حتَّىٰ إنَّ إحدىٰ الرَّسائل تمَّ استئـصال بعـض الكلمات الدَّليليَّة منها.

إنْ كانت اهتمامات نيُوتن العِلْمِيَّة أقلّ أرثُذُوكسيَّة ممَّـا تخيَّلنـا في بـادئ الأمـر، كـذلك كانـت وُجهات نَظَره الدِّينيَّة. كان مُعادياً لفكرة الثَّالوث برُوح فدائيَّة، ولـو بـشكل هـادئ. أنكـر ـ أيـضاً ـ الرُّبُوبيَّة[1]، التي كانت شائعة في عصره، التي تُصغِّر الكون إلىٰ آلة ميكانيكيَّة واسعة، بُنِيَـتْ مـن قِبَـل مُهندس سماوي. شكَّك بلاهوت السَّيِّد المسيح، وجمع ـ بعطش ـ كُلَّ المَخْطُوطَات، التي تخـصُّ تلـك القضيَّة. شكَّك في الأصالة الكاملـة للعهـد الجديـد، ويعتقـد بـأنَّ بعـض العبـارات مُحَرَّفَـة في القـرن الخامس. فُتن ـ بعُمق ـ ببعض البِدَع الغنُوسطيَّة القديمة، وَكَتَبَ دراسة عن أحدها[2].

(1) (الرُّبُوبيَّة: الإيمان بالله بغير اعتقاد بديانات مُنزَلَة؛ وبخاصَّة: مذهب فِكْري يدعو إلىٰ الإيمان بدين طبيعيّ، مَبْنيّ علىٰ العقل، لا علىٰ الوحي، ويُؤكِّد علىٰ المناقبيَّة، أو الأخلاقيَّة، مُنكِراً ـ في القرن الثَّامن عشر ـ تـدخُّل الخـالق في نـواميس الكون. المُترجم).

(2) (نيُوتن كان ـ أيضاً ـ مُؤيِّداً للسُّوسينيِّين، وهي مجموعة دينيَّـة اعتقـدت بـأنَّ الـسَّيِّد المسيح كـان مُقدَّسـاً في دوره، ومنصبه، بدلاً من طبيعته. وكانت تلك المجموعة آريَّة في التَّوجُّه. نيُوتن بنفسه وُصِفَ بأنَّه آريٌّ. المُؤلِّفون).

مُشجَّعاً من قِبَل فاتيُو دُو دُويلير، أبدىٰ نيُوتن ـ أيضاً ـ عَطْفَاً مُتميِّزاً ومُفاجِئاً للقَمِيْصيِّيْن[1]، أو أنبياء سِفِن، الذين ـ بعد فترة قليلة من عام 1705 ـ بدؤوا في الظُّهُور في لندن. يُدعون كذلك نتيجة لسِتَرِهِم البيضاء، ومثل الكَاثَار من قِبَلهم، ظهروا في جنوب فرنسا. ومثل الكَاثَار؛ كانوا مُعارضين ـ بشدَّة ـ لرُوما، وشدَّدوا علىٰ سيادة الرُّوح، أو المعرفة المُباشرة علىٰ الإيمان. ومثل الكَاثَار؛ شكَّكوا بلاهوت السَّيِّد المسيح. ومثل الكَاثَار؛ قُمِعُوا ـ بقسوة ـ بالقُوَّة العَسْكَريَّة، في الواقع، في الحرب الصَّليبيَّة البيجينيَّة في القرن الثَّامن عشر. بعد أنْ طُرِدُوا من لانغدُوق، وجد الزَّنادقَة مأوىٰ لهم في جِنيف، ولندن.

قبل أسابيع قليلة من موته، قام نيُوتن، وبمُساعدة بعض أصدقائه المُقرَّبين، بإحراق صناديق عديدة من المَخْطُوطَات، والأوراق الشَّخصيَّة. بمُفاجأة كبيرة لمُعاصريه، لاحظوا بأنَّه عندما كان علىٰ فراش الموت لم يطلب أداء الطُّقُوس الأخيرة.

تشارلز رادكليف: مُنْذُ القرن السَّادس عشر، آل رادكليف كانوا عائلة نُورثمبريَّة مُؤثِّرة.

في عام 1688، قبل فترة قليلة من خَلْعِهِ، جيمس الثَّاني مَنَحَهُم جميعاً لَقَبَ الإيرل علىٰ منطقة ديرُونت ووتر. تشارلز رادكليف وُلِدَ عام 1693. أُمُّه كانت ابنة غير شَرْعيَّة لتشارلز الثَّاني من قِبَل عشيقة الملك، التي اسمها مُول ديفيس. رادكليف ـ بذلك ـ كان من الدَّم المَلَكي من جانب أُمِّه ـ كان حفيد تشارلز الثَّاني. كان ابن عمِّ الأمير بُوني تشارلز، وجُورج لي، الذي كان يشغل منصب إيرل ليتشفيلد ـ وهُو حفيد آخر غير شَرْعي للملك ستيوارت. ولذلك؛ ولا عجبَ أنَّ رادكليف كرَّس مُعظم حياته في سبيل القضيَّة السّتيوارتيَّة.

تشارلز دُو لُورين: وُلِدَ في عام 1744، تشارلز دُو لُورين كان شقيق فرانسوا، وأصغر منه بأربع سنوات. من المُحتمل أنَّ الأَخَوَيْن كلَيْهما قد تأثَّرا باليعقُوبيَّة في سنِّ الفُتُوَّة، لأنَّ والدهما قدَّم الحماية والمأوىٰ في بار ـ لُو ـ دُوك لآل ستيوارت المَنفيِّيْن.

---

(1) (القَمِيْصِيُّون، مُشتقَّة من كلمة «camisa»، التي تعني بالفرنسيَّة «قميص»، وهذا اللَّقَب أُطلِقَ علىٰ الفلَّاحين الفرنسيِّين البرُوتستانتيِّيْن، في المنطقة الجبليَّة من سِفِن، والتي تمرَّدت عام 1702، ضدَّ الملك لويس الرَّابع عشر. وسُمُّوا بهذا الاسم؛ لأنَّهم كانوا يرتدون القُمصان السَّوداء أثناء غاراتهم في اللَّيل. زعيمهم جين كافالير. المُترجم).

في عام 1735، عندما تزوَّج فرانسوا من ماريا تيريزا، أصبح تشارلز نسيباً للإمبراطُورة النِّمساويَّة. بعد إحدىٰ عشرة سنة، في عام 1744، دَعَمَ هذه العلاقة بتزوُّجه ماري آن شقيقة ماريا تيريزا. في السَّنة نفسها، عُيِّنَ الحاكم العامَّ علىٰ هُولندا النِّمساويَّة (الآن؛ بلجيكا)، وقائداً عامَّاً للجيش النِّمساوي.

فرانسوا ـ في زواجه ـ تخلَّىٰ ـ رَسْميَّاً ـ عن كُلِّ ادِّعائه لعَرْش لُورين، الذي ائتُمن إلىٰ حاكم فرنسي مُسيَّر. كبديل عن ذلك؛ استلم أرشيدُوقيَّة تسكانيا.

علىٰ أيَّة حال؛ رفض تشارلز ـ بإصرار ـ أنْ يعترف بهذه الصَّفقة، ورفض التَّخلِّي عن حقِّه الشَّرْعي في عَرْش لُورين. ونَظَرَاً لتنازل فرانسوا، كان في الواقع؛ الدُّوق الفَخْري للُورين. وفي عام 1742، تقدَّم بجيش من سبعين ألف جُندي لاسترداد وَطَنه. علىٰ الأغلب؛ كان علىٰ وشك القيام بذلك، لو لا أنَّه أُجبِرَ علىٰ التَّحوُّل بجيشه إلىٰ بُوهيميا؛ لكي يُحبط الاحتلال الفرنسي.

في العمليَّات العَسْكَريَّة اللَّاحقة؛ أثبت تشارلز أنَّه قائد ماهر. اليوم؛ هُو لا شكَّ يُعدُّ من الجنرالات الأفضل في عصره، علىٰ الرَّغم من سُوء حظِّه في تباريه ـ مراراً، وتكراراً ـ ضدَّ فريدريك العظيم. فريدريك ربح أحد أكثر انتصاراته إبهاراً وعظمةً ضدَّ تشارلز في معركة لُوثِن عام 1757. ورغم ذلك؛ فريدريك عدَّ تشارلز كَخَصم جدير، و«مهيب» ولم يتحدَّث عنه إلَّا بصفات حميدة.

بعد هزيمته في لُوثِن، تشارلز أُرِيحَ من القيادة من قِبَل ماريا تيريزا، وتقاعد في عاصمته برُوكسل. هُناك عيَّن نفسه كَراعٍ للفُنُون، وَجَمَعَ الأعمال في مبنىٰ كبير مُتألِّق؛ مبنىٰ مُترف، ورائع، وكبير، إلىٰ حَدِّ أنَّه أصبح مركزاً للأدب، والرَّسْم، والمُوسيقىٰ، والمسرح. من نواحٍ عديدة؛ هذا المبنىٰ كان شبيهاً لذلك الذي كان لسَلَف تشارلز، رينيه دانجاو، والتَّشابه ـ لرُبَّما ـ كان مُتعمَّداً.

في عام 1761، تشارلز أصبح سيِّداً أعظم في النِّظام التيُوتُوني؛ وهُو نظام فُرُوسي حديث، خَلَف نظام «الفُرسان التيُوتُونيِّين القُدماء»، وهذا الأخير هُو كان الرَّاعي الألماني لفُرسان الهَيكَل، والذي كان قُوَّة عَسْكَريَّة رئيسة حتَّىٰ القرن السَّادس عشر.

لاحقاً، في عام 1770، تمَّ تعيين مُساعد جديد من نظام الفُرسان التيُوتُونيِّين؛ ماكسيمليان، الذي هُو ابن الأخ المُفضَّل لتشارلز. أثناء السَّنوات اللَّاحقة؛ الرَّابطة بين العمِّ وابن الأخ كانت وطيدة

جدًّاً؛ وفي عام 1775، عندما نُصب تمثال فُرُوسي لتشارلز في برُوكسل، ماكسيمليان كان حاضراً مـرَّة ثانية. الحفل الرَّسْمي لرَفْع السِّتار عن هذا التِّمثال حُدِّد ـ بالضَّبط ـ في السَّابع عشر من ينـاير/ كـانون الثَّاني؛ وهُو نَفْس تاريخ عمليَّة التَّحويل الخيميائيَّة الأُولىٰ لنيكُولاس فلاميـل، ونَفْـس التَّـاريخ الـذي علىٰ شاهدة قَبْر ماري دُو بلانتشفُورت، ونَفْس تاريخ الجَلْطَة القاتلة لسُونير.

ماكسيمليان دُو لُورين: وُلِدَ في عام 1756، ماكسيمليان دُو لُـورين ـ أو ماكـسيمليان فُـون هابسبرغ ـ كان ابن أخ تشارلز دُو لُورين المُفضَّل، وابن ماريا تيريزا الأصـغر. مُنْـذُ الـشَّباب بـدا أنَّـه مُقدَّراً له المهنة العَسْكَريَّة، إلىٰ أنْ سقط عن حصان، وَتَركَهُ الشَّللُ بساق واحدة.

كنتيجة لذلك، وجَّه طاقاته إلىٰ الكَنيسَة، وأصبح في عام 1784، أُسقُف مُونتـستر، بالإضـافة إلىٰ أنَّه أصبح رئيس الأساقفة، والنَّاخب الإمبراطُوري في كُولُون. عنـد مـوت عمِّـه تـشارلز في عـام 1780، أصبح ـ أيضاً ـ السَّيِّد الأعظم لنظام الفُرسان التِّيُوتُونيِّيْن.

في النَّواحي الأُخْرَىٰ سار ـ أيضاً ـ ماكسيمليان علىٰ خُطىٰ عمِّه. مثـل تـشارلز؛ أصـبح راعيـاً مُثابراً للفُنُون. من بين الذين قام برعايتهم شَخْصيَّات عديدة؛ من بينها مُوزارت، وهايدن، وبيتهُوفن الشَّابّ. حتَّىٰ إنَّ الأخير كرَّس له سيمفُونيَّته الأُولىٰ. علىٰ أيَّة حال، في الوقت الذي انتهىٰ، ونَشَرَ، فيـه العمل، تُوفِّي ماكسيمليان. ماكسيمليان كان حاكماً مُتسامحاً، وذكيَّاً، وغير مُتشدِّد، محبوباً مـن رعايـاه، ومُقدَّراً من نظائره. يبدو أنَّه جسَّد الملك المثالي المُطَّلع للقرن الثَّامن عشر، والذي من المُحتمَل أنَّه كـان أحد أكثر الرِّجال المُثقَّفين في عصره.

في الأُمُور الـسِّياسيَّة يظهـر أنَّـه كـان مُـستنيراً جـدًّاً، وأراد ـ بـسُرعة ـ أنْ يُحـذِّر أُختـه مـاري أنطوانيت عن العاصفة التي بدأت ـ للتَّوِّ ـ بالتَّجمُّع في فرنسا. عندما هبَّت العاصـفة، ماكـسيمليان لم يرتعب. في الحقيقة؛ يبدو أنَّه كان مُتعاطفاً ـ عُمُوماً ـ مع الأهداف الأصليَّة للثَّورة الفرنـسيَّة، إلَّا أنَّـه ـ في الوقت نفسه ـ أمَّن اللُّجُوء للأرستُوقراطيِّيْن.

بالرّغم من أنَّ ماكسيمليان أعلن بأنَّه لم يكن ماسُونيَّاً، هذا البيان كان مشكوكاً فيه، في أغلـب الأحيان. بالتَّأكيد؛ يُتوقَّع ـ علىٰ نحو واسع ـ بأنَّه كان مُنضمَّاً لجمعيَّة سرِّيَّة أو أكثر ـ علىٰ الرّغم مـن أنَّ

منصبه في الكَنيسَة، وعلىٰ الرّغم من مَنْع رُومَا المُتواصل والفعَّال لمثل هذه النَّشَاطات. في أيِّ حال من الأحوال معروف أنَّه عاشر ـ بشكل عَلَني ـ أعضاء «الحِرْفَة» الماسُونيَّة، بمَنْ فيهم مُوزارت، بالطَّبع.

مثل رُوبرت بويل، وتشارلز رادكليف، وتشارلز دُو لُورين، يبدو أنَّ ماكسيمليان يعكس نمطاً مُحَدَّداً في قائمة الأسياد العظام لدَيْر صهيُون ـ ذلك النَّمَط الذي ـ في الحقيقة ـ يعود إلىٰ العُصُور الوُسْطَىٰ. مثل بويل، ورادكليف، وعمِّه، ماكسيمليان كان الابن الأصغر. قائمة الأسياد العظام المزعومين تضمَّنت عدداً من الأبناء الصِّغار، أو الأصغر ـ العديد من الذين يظهرون بدلاً عن إخوة أكبر أكثر شُهرَة.

مثل رادكليف، وتشارلز دُو لُورين، ماكسيمليان قدَّم لمحة بسيطة نسبيَّاً إلىٰ حياته، كان يعمل بهُدُوء خلف الكواليس، ويتصرَّف ـ كما يُفترَض أنْ يتصرَّف كُلُّ الأسياد العظام لدَيْر صهيُون ـ مُستخدماً ناطقاً بلسانه، أو وُسطاء.

علىٰ سبيل المثال؛ رادكليف يظهر أنَّه تصرَّف من خلال النَّبيل رَمْزي، ثُمَّ من خلال هُوند. تشارلز دُو لُورين يبدو أنَّه تصرَّف من خلال أخيه فرانسوا. ويبدو أنَّ ماكسيمليان تصرَّف من خلال شَخْصيَّات ثقافيَّة، بالإضافة إلىٰ أقاربه العديدين، ماري كَارُولين ـ علىٰ سبيل المثال ـ التي بصفتها ملكة نابولي وصقلية كانت ـ بشكل كبير ـ مسؤولة عن انتشار الماسُونيَّة في تلك الممالك.

تشارلز نُوديير: وُلِدَ في عام **1780**، يبدو أنَّ تشارلز نُودير افتتح النَّمَط الذي حصل عليه كُلُّ الأسياد العظام لدَيْر صهيُون بعد الثَّورة الفرنسيَّة. ليس كأسلافه، لم يكن من سُلالة ليست نبيلة فحسب، ولكنْ؛ يبدو أنَّه لم يكن لديه أيُّ اتِّصال مُباشر مع أيٍّ من العائلات التي وَرَدَتْ في علْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر».

بعد الثَّورة الفرنسيَّة، دَيْر صهيُون ـ أو علىٰ الأقلِّ أسياده العظام المزعومين ـ يظهر بأنَّهم كانوا بعيدين عن الأرستقراطيَّة القديمة، وعن دهاليز السُّلطة السِّياسيَّة؛ أو رُبَّما بحثنا قادنا لاستنتاج ذلك آنذاك.

والدة نُودير كانت تُدعَىٰ سُوزان باريس، التي يُقال إنَّها لا تعرف أبوَيْهَا. أبوه كان مُحامياً في بزانسُون[1]. وقبل الثَّورة كان عُضواً في النَّادي اليعقُوبي المحلِّيِّ. بعد تفشِّي الثَّورة، نُودير الكبير أصبح

(1) (مدينة شرقي فرنسا. المُترجم).

رئيس بلديَّة بزانسُون، ورئيس المحكمة الثَّوريَّة في البلـدة. كـان ـ أيـضاً ـ سيِّداً ماسُـونيّاً مُقـدَّراً، في طليعة النَّشَاطات والسِّياسات الماسُونيَّة في ذلك الوقت.

تشارلز نُوديير أبدىٰ نُضجه المُبَكِّر بشكل استثنائي، ويزعم أنَّه من بين الأشـياء التـي سـاهم فيهـا كانت الشُّؤُون الثَّقافيَّة، والسِّياسيَّة، وذلك في عُمر العشر سنوات! في عُمـر الثَّمانيـة عـشر حظـي بـسُمعة أدبيَّة، وواصل النَّشْر بغزارة لبقيَّة حياته، بمُعدَّل يُقارب كتاباً في كُلِّ سنة.

أعماله الأدبيَّة تُغطِّي طيفاً مُتنوِّعاً جدَّاً مـن الموضـوعات ـ مجـلَّات سَـفَر، ومقـالات عـن الأدب، والرَّسم، ودراسات علْم العُرُوض، ونَظْم الشِّعر، ودراسة قُرُون الاستشعار عنـد الحـشرات، والتَّحقيـق في طبيعة الانتحار، والسِّيَر الذَّاتيَّة، ونُزهة إلىٰ علْم الآثار، وعُلُوم اللُّغـة، والمـسائل القانونيَّـة، والمواضـيع الباطنيَّة، وبدُون الحاجة لذِكْر المجموعة الضَّخمة من القَصَص. اليـوم؛ نُـوديير ـ عُمُومـاً ـ يُوصـف بأنَّـه أديب غريب الأطوار.

بالرّغم من أنَّه كان مُتعاطفاً ـ في البداية ـ مع الثَّـورة الفرنـسيَّة، إلَّا أنَّ نُـوديير انقلـب ضـدَّها بسُرعة. قام بنَفْس التَّحوُّل العكسي في موقفه اتِّجـاه نـابُليُون، وبحُلُـول عـام **1804**، كـان صَـخَّاباً في مُعارضته للإمبراطُور.

في تلك السَّنة؛ نَشَرَ في لندن قصيدة هجائيَّة عن نابُليُون. بعد أنْ أنتج هذا العمل التَّحريـضي، بدأ ـ بغرابة ـ بلَفْت الانتباه إلىٰ حقيقة أنَّه مَنْ قام بذلك. السُّلطات ـ في بادئ الأمر ـ لم تُعره أيَّ انتبـاه، ويبدو أنَّ نُوديير ـ ببساطة ـ خرج عن طَوْعه؛ لكي يُعتقَل.

أخيراً؛ بعد كتابة الرِّسالة الشَّخصيَّة إلىٰ نابُليُون التي صرَّح فيها عن ذَنْبه، سُجن لُمدَّة شهر، ثُـمَّ أُعِيدَ إلىٰ بزانسُون، وأُبقي تحت مُراقبة فاترة. علىٰ الرّغم من هذا، ادَّعىٰ نُوديير ـ لاحقـاً ـ بأنَّـه واصـل مُعارضة النِّظام، وأنَّه اشترك في مُؤامرتَيْن مُنفصلتَيْن ضدَّ نابُليُون، واحدة في عـام **1804**، والثَّانيـة في عام **1812**.

بالرّغم من أنَّه كان يـسعىٰ إلىٰ التَّفـاخر والـشَّجاعة، إلَّا أنَّ هـذا الادِّعـاء رُبَّـما كـان حقيقيّـاً. بالتَّأكيد؛ هُو كان صديقاً للمُحرِضين علىٰ المُؤامرتَيْن، والذين اجتمع معهم في بزانسُون أثناء شبابه.

فيكتُور هيوغُو: عائلة هيوغُو كانت ـ أصلاً ـ من لُورين؛ وكما أصرَّ ـ لاحقاً ـ من سُلالة أرستُوقراطيَّة بارزة.

وُلِدَ في عام 1802، في بزانسُون، التي تُعدُّ مَرْتَعاً للنَّشاطات التَّخريبيَّة السِّرِّيَّة. أبوه كان جنرالاً تحت راية نابُليُون، ولكنَّه حافظ علىٰ علاقات وُدِّيَّة شديدة مع المُتآمرين، الذين اشتركوا في المُؤامرة ضدَّ الإمبراطُور. أحد هؤلاء المُتآمرين ـ في الحقيقة ـ كان حبيب والدة هيوغُو، عاش معها في البيت نَفْسه، ولعب دوراً مُهمّاً في تطوير ابنها، فكان العرَّاب والنَّاصح لفيكتُور الشَّابّ. وهكذا، هيُوغُو كان قد أُطْلِعَ علىٰ عالم الإثارة، والمُؤامرة، والجمعيَّات السِّرِّيَّة في عُمر السَّابعة.

في عُمر السَّابعة عشر؛ كان تابعاً مُتحمِّساً لتشارلز نُودير، ومن نُودير؛ اكتسب معرفته في الفنِّ المعماري القُوطي، والذي ظهر ـ بشكل بارز ـ في روايته «أحدب نُوتردام». في عام 1819، هيوغُو وأخوه أسَّسا داراً للنَّشْر بالتَّعاون مع نُودير، وهذه الدَّار أنتجت مجلَّة تحت إدارة نُودير التَّحريريَّة.

في عام 1822، هيُوغُو تزوَّج بمراسم خاصَّة في سانت سُولبيس. بعد ثلاث سنوات؛ قام هُو، ونُودير، وزوجتَاهما برحلة مُطوَّلة إلىٰ سويسرا. في السَّنة نفسها، 1825، سافر الصديقان سويَّة لحُضُور تتويج تشارلز العاشر. في السَّنوات التَّالية؛ هيُوغُو شكَّل معرضه الخاصّ علىٰ غرار نُودير، وتمَّتْ رعايته ـ تقريباً ـ من المشاهير أنفسهم. وعندما تُوفِّي نُودير في عام 1845، هيوغُو كان أحد حاملي بساط الرَّحمة في الجنازة.

مثل نيُوتن؛ هيوغُو كان رجلاً مُتديِّناً جدّاً، لكنَّ وُجهات نَظَره الدِّينيَّة كانت غير تقليديَّة لدرجة عالية. مثل نيُوتن؛ كان مُعادياً للثَّالوث، وبرُوح فدائيَّة، وأنكر لاهوت السَّيِّد المسيح. ونتيجة لتأثير نُودير، انغمس في مُعظم حياته بالسِّرِّيَّة، وبالفِكْر السِّحْري، والقَبَالي، والغنُوسطيّ؛ انهماك ظهر ـ بوُضُوح ـ في شِعْره، ونَثْره. معروف بأنَّه كان قد ارتبط بما يُسمَّىٰ بنظام الصَّليب الوَرْدي، الذي كان يضمُّ ـ أيضاً ـ إلفيس ليفاي، والشَّابَّ مُوريس باريس[1].

مواقف هيوغُو السِّياسيَّة كانت ـ دائماً ـ مصدر حَيْرَة للنُّقَّاد والمُؤرِّخين، وهي مُعقَّدة جدّاً، ومُتناقضة جدّاً، ومُتوقِّفة ـ تماماً ـ علىٰ العوامل الأُخرَىٰ، التي ستُناقَش الآن.

(1) (روائي وسياسي فرنسي 1862 ـ 1923. المُترجم).

علىٰ أيَّة حال؛ وجدنا أنَّه من المُهمِّ أنَّه بالرّغم مـن إعجابـه الشّخـصي بنـابُليُون، هيُوغُـو كـان المَلَكي الوفيّ، الذي رحَّب بإعادة سُلالة بُوربُون القديمة. رغم ذلك؛ يبدو أنَّه ـ في الوقت نفسه ـ يعـدُّ أنَّ آل بُوربُون مرغوباً بهم ـ فقط ـ علىٰ نحو مُؤقَّت؛ أيْ تدبير مُؤقَّت فقط.

إجمالاً؛ يظهر أنَّه احتقرهم، وكان عنيفاً جدّاً في إدانته للويس الرَّابع عشر. الحاكم الـذي أيَّـده هيوغُو بحماس شديد، في الحقيقة؛ الاثنان كانا صديقَيْن شَخْصيَّيْن حميمَيْن، كان لويس فيليب «الملـك المَدَني» الذي انتُخِبَ للحُكْم المَلَكي الشَّعبي. ولويس فيليب تحالف بالزَّواج مع آل هابـسبرغـلُورين. زوجته ـ في الحقيقة ـ كان عمّها ماكسيمليان دُو لُورين.

كلُود ديبُوسي: ديبُـوسي وُلِـدَ في عـام 1862، ومـع أنَّـه كـان مـن عائلـة فقـيرة، إلَّا أنَّـه ـ بسُرعة ـ أقام علاقات مع الطَّبقة الغنيَّة، والمُـؤثِّرة. بيـنما كـان مـايزال في سـنِّ المُراهقـة كـان يعمـل كعازف بيانُو في قلعة عشيقة الرَّئيس الفرنسي، ويبدو أنَّه كان علىٰ معرفة برئيس الدّولة أيضاً. في عـام 1880، تمَّ تبنِّيه من قِبَل الامـرأة النَّبيلـة الرُّوسـيَّة التـي رَعَـتْ تشايكُوفـسكي[1]. وسـافر معهـا إلىٰ سويسرا، وإيطاليا، ورُوسيا. في عام 1884، بعد أنْ فاز بجائزة مُوسيقيَّة كان يرغبها بـشغف، دَرَسَ ـ لفترة من الوقت ـ في رُومَا.

بين عامَيْ 1887 و 1906، عاش ـ علىٰ الأغلب ـ في باريس، ولكنْ؛ في السَّنوات التـي سـبق وَتَلَتْ تلك الفترة، كرَّسها للسَّفَر الشَّامل. من المعلوم أنَّ هذه السَّفْرَات جعلتْهُ يتعرَّف علىٰ عـدد مـن النَّاس السَّاميِّيْن. حاولنا جاهدين لمعرفة سواء أيّ من تلك الشَّخصيَّات كانـت مُرتبطـة بالعـائلات، التي وَرَدَتْ في عِلْم الأنساب في «وثائق الدَّيْر»، إلَّا أنَّ مُحاولاتنا كانت في الجُـزء الأكـبر منهـا عقيمـة. تُوضِّح أنَّ ديبُوسي كان سرِّيّاً بشأن شُركائه الأرستُوقراطيِّيْن، والسِّياسيِّيْن. العديد من رسائله أُتلِفَتْ؛ وفي الرَّسائل التي نُشِرَتْ تمَّ استئصال كامل للأسماء المُهمَّة، وجُمَل كاملة في أغلب الأحيان.

يبدو أنَّ ديبُوسي كان علىٰ معرفة بفيكتُور هيوغُو مـن خـلال الـشَّاعر الرَّمْـزي بُـول فيرلـين. لاحقاً لَحَّنَ العديد من أعمال هيوغُو. أثناء تواجده في باريس، أصبح عُضواً مُتمِّماً للحلقات الرَّمْزيَّـة،

---

(1) (تشايكُوفسكي، بُطرُس إيليتش (1840 ـ 1893): مُؤلِّف مُوسيقي رُوسي. يُعدُّ زعـيم مُـؤلِّفي مُوسـيقىٰ «البالـيه» بلا استثناء. المُترجم).

التي سيطرت علىٰ الحياة الثَّقافيَّة للعاصمة الفرنسيَّة. هذه الحلقات كانت شهيرة أحياناً، وشاذَّة أحياناً، وأحياناً؛ شهيرة وشاذَّة معاً. تضمَّنت تلك الحلقات رجل الدِّين الشَّابّ إيميل هُوفيت؛ الذي قابل ديبُوسي من خلاله بيرنجر سُونير؛ وتضمَّنت - أيضاً - إيما كالف، المُغنيَّة ذات التَّوجُّه الباطني؛ والمجوسي المُبهَم للشِّعْر الرَّمْزي الفرنسي، ستيفان مالارميه، والذي لَحّن ديبُوسي أفضل أعماله بعُنوان «Midi d'un Faune_Après'L»، (عصر فُون)[1]. والكاتب الرَّمْزي المسرحي مُوريس ماترلنك، الذي قام ديبُوسي بتحويل مسرحيَّته التي عُنوانها «Pelléas et Mélisande» إلىٰ أُوبرا مشهورة عالميَّاً؛ وفيليب أُوغسط فيليير - آدم الذي كَتَبَ المسرحيَّة الرُّوزيكرُوشيَّة «آكسل». بالرّغم من أنَّ موت ديبُوسي في عام 1918، مَنَعَهُ من إكمالها، إلَّا أنَّه كان قد بدأ بإعداد نصّ كلمات الأُوبرا لمسرحيَّة فيليير الغامضة، وكان ينوي تحويلها - أيضاً - إلىٰ أُوبرا. من بين شُركائه الآخرين؛ كان النُّجُوم الذين حضروا أُمسيَّات ليلة الثُّلاثاء لحفلات مالارميه - أُوسكار وايلد، ووليام باتلر ييتس، وبُول فاليري، وأندريه جِيد، ومارسيل براوست.

بحَدِّ ذاتها؛ حلقات ديبُوسي، ومالارميه، كانت حافلة بالسِّرِّيَّة، والباطنيَّة. في الوقت ذاته؛ تداخلت تلك الحلقات مع الحلقات الأُخرَىٰ، التي كانت أكثر باطنيَّة أيضاً.

وهكذا، انسجم ديبُوسي - عَمَليَّاً - مع كافَّة الأسماء الأبرز في ما يُسمَّىٰ بإحياء الغُمُوض والسِّحْر الفرنسي.

جين كُوكتُو: وُلِدَ في عام 1889، كُوكتُو بدا - بالنِّسبة لنا - أنَّه المُرشَّح الأقلّ احتمالاً للسِّيادة العُظمَىٰ لجمعيَّة سرِّيَّة مُؤثِّرة. لكنْ؛ هكذا كان الوضع - أيضاً - بالنِّسبة لبعض الأسماء الأُخرَىٰ عندما صادفناها لأوَّل مرَّة. بالنِّسبة - تقريباً - لكُلِّ تلك الأسماء الأُخرَىٰ، أصبحت بعض الارتباطات ذات العلاقة ظاهرة بشكل تدريجي. ولكنْ؛ في حالة كُوكتُو، القليل من تلك الارتباطات بدا واضحاً.

من الجدير بالمُلاحظة - علىٰ أيَّة حال - أنَّ كُوكتُو ترعرع في بيئة قريبة من أروقة السُّلطة؛ عائلته كانت بارزة سياسيَّاً، وعمُّه كان دبلوماسيَّاً مُهمَّاً. علىٰ الرّغم من وُجُوده البُوهيمي اللَّاحق هُو لم ينفصل - بالكامل - عن هذه المجالات المُؤثِّرة.

---

(1) (فُون: أحد آلهة الحُقُول والقطعان عند الرُّومان. المُترجم).

علىٰ الرّغم من سُلُوكه الذي كان شنيعاً أحياناً، إلَّا أنّه حافظ علىٰ اتّصال مُباشر مع أشخاص مُهمِّين من الحلقات الأرستُوقراطيَّة، والسِّياسيَّة. مثل العديد من الأسياد العظام لدَيْر صهيُون ـ بويل، ونيُوتن، وديبُوسي، علىٰ سبيل المثال ـ بدا أنّه بقي بعيداً ـ تماماً ـ عن السِّياسة.

أثناء الاحتلال الألماني هُو لم يكن عُنصُراً نشيطاً في المُقاومة، لكنَّه أظهر كراهيَّته لحُكم بيتان[1].

وبعد الحرب؛ يبدو أنّه كان علىٰ انسجام كبير مع ديغُول، الذي كلَّفه أخوه بإلقاء مُحاضرة مُهمَّة علىٰ الدّولة الفرنسيَّة.

بالنِّسبة لنا؛ الشَّهادة الأكثر إقناعاً عن انتساب كُوكتُو إلىٰ دَيْر صهيُون تستقرُّ في أعماله؛ مثلاً في فيلم «أُورفي»، وفي مسرحيَّات مثل مسرحيَّة «النَّسر له رأسان» (التي تستند علىٰ الإمبراطُورة النِّمساويَّة إليزابيت هابسبرغ)، وفي التَّزيين والدِّيكور الذي قام به في كَنائس مثل كَنيسَة نوتردام دُو فرانس في لندن.

علىٰ أيّة حال، الأكثر إقناعاً من كُلّ ذلك هُو توقيعه، الذي وُجِدَ في أسفل قوانين دَيْر صهيُون.

---

(1) (بيتان، هنري فيليب (1856 ـ 1951): مارشال فرنسي. تولَّىٰ رئاسة الدّولة بعد هزيمة عام 1940. اتُّهم بالخيانة، وسُجن (عام 1945). المُترجم).

الكتاب كافٍ لتحدي العديد من المعتقدات المسيحية التقليدية، إن لم يكن تغييرها أيضاً

Los Angeles Times Book Review

إنَّه الكتاب المُروِّع، الحاصل على أفضل المبيعات عالميّاً. هل المخطوطات القديمة التي وُجِدَتْ في فرنسا تكشف الحقيقة المُروِّعة؟! الكتاب كافٍ لتحدِّي العديد من المُعتقدات المسيحيَّة التَّقليديَّة، إنْ لم يكن تغييرها أيضاً. هل وُجهة النَّظر التَّقليديَّة المقبولة لحياة السَّيِّد المسيح هي ناقصة بطريقة ما؟! هل من المُحتمل أنَّ السَّيِّد المسيح لم يمتْ على الصَّليب؟! هل من المُحتمل أنَّ السَّيِّد المسيح كان مُتزوِّجاً، وأباً، وأنَّ سُلالته ماتزال موجودة؟! هل من المُحتمل أنَّ المخطوطات التي وُجِدَتْ في جنوب فرنسا قبل قرن من الزَّمن تكشف أحد أكثر الأسرار خُطُورة في المسيحيَّة؟! هل من المُحتمل بأنَّ هذه المخطوطات تحتوي - تماماً - على جوهر لُغز الكَأس المُقدَّسة؟! مَنْ هُم الكَاثار؟ مَنْ هُم الرُهبان المُحاربون؟ فرسان الهيكل، الوثائق السِّرِّيَّة، دَيْر صهيُون، الرُّوزيكرُوشيُّون، برُوتُوكُولات صهيُون، الميرُوفيُّون، الكَارُولينيُّون، القَبَلانيَّة، مَنْ هي زوجة المسيح؟! مَنْ هُم سُلالة المسيح؟! مَنْ هُو بَاربَارا؟! هل حَدَثَ الصَّلْب أم لم يحدث؟! ما هُو السِّرُّ الخطير الذي حَرَّمَتْه الكَنيسَة؟! ما هُو الزَّيلُوت؟! تاريخ الإنجيل، تفاصيل دقيقة عن سيناريُو حادثة الصَّلْب!!طبقاً لمُؤَلِّفي هذا الكتاب المُثير، والمُعتمِد على أبحاث غاية في الدِّقَّة، هذه الأُمُور ليست مُمكنة فحسب؛ بل هي - رُبَّما - حقيقة!! ثَوْريُّ جدَّاً، أصليُّ جدَّاً، مُقنِعٌ جدَّاً، لدرجة أنَّه سيُثير أكثر المسيحيِّيْن إيماناً؛ هذا هُو الكتاب الذي أثار الخلاف العالمي.

AL _ AWA'EL

www.daralawael.com